الأسد

الصراع على الشرق الأوسط

باتريك سيل

الأسد

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. : ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة العاشرة ٢٠٠٧

تصميم الغلاف: لينا غيبة

"الحقيقة لا تكونُ صِرْفة أبداً،
وهيَ قلّما تكون مجرَّدة"

أوسْكار وَايلد

كتب للمؤلف

- الصراع على سوريا (١٩٦٥)
- الثورة الفرنسية (١٩٦٨)
- مهمة هيلتون (١٩٧٣)
- فيلبي: الطريق الطويل إلى موسكو (١٩٧٣)
- تكوين رجل دولة عربي: عبد الحميد شرف والعالم العربي الحديث (١٩٨٣).

فهرس

القسم الأول

الثوري

تصدير

هذا الكتاب هو محاولةٌ لتصوير العالم حسبما يُرى من موقع الحكم في دمشق . إنه ليس سيرة الرئيس حافظ الأسد الرسمية ، إلّا أنه ما كان ليُنجز لو لم يوافق الرئيس على التحدث إليّ. ولهذا فأنا أتقدم لسيادته بالامتنان والتقدير لأنه أتاح لي هذا الاتصال المباشر به على امتداد عدة سنوات . كما أنني أثمّن عالياً المحادثات التي أجريتها مع ابنته بشرى وابنه باسل .

وأتوجه بالشكر إلى : العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع ، والدكتور عبد الرؤوف الكسم رئيس الوزراء السابق ، والأستاذ فاروق الشرع وزير الخارجية . . وأكنُّ امتناناً للأستاذ أحمد اسكندر أحمد وزير الإعلام الأسبق (رحمه الله) ، ولخلفه الأستاذ محمد سلمان ، وللدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة .

من أهم مصادر هذا الكتاب هي المعلومات التي زوَّدني بها مباشرة أولئك الذين شاركوا في الأحداث ، من الرجال والنساء ، أو الذين عايشوها عن كثب ، وقد أشرت إلى أسماء بعضهم في الهوامش ولم أشر إلى البعض الآخر . ولهم جميعاً أقدّم شكري الوافر .

وثمة عدد من الرسميين ساعدوني إمّا في تهيئة لقاءاتي ، أو في الوصول

إلى الوثائق المحفوظة ، أو في ترتيب أمور سفري في أرجاء سوريا . وأودّ أن أخص بالشكر موظفي رئاسة الجمهورية ولا سيما الأستاذين جبران كورية وأسعد كامل الياس ، وكذلك الأستاذ صابر فلحوط مدير وكالة (سانا) ، وزميله الأستاذ زهير جنّان .

ومن بين السوريين الذين أحاطوني بترحيبهم الشخصي أرجو أن أتوجه بشكري إلى : الدكتور صباح قباني ، والأستاذ عدنان عمران ، والدكتور بديع الكسم ، والدكتور عثمان العائدي ، والدكتور جورج حورانية ، والدكتور غسان المالح ، والدكتور نبيل سكر ، والدكتور راتب الشلاح ، والأستاذ ناجي شاوي ، والدكتور نجيب موره ، والأستاذ وجيه مصطفى ، والأستاذ أنطوان توما والدكتور نقولا شاهين.

أما الأستاذ ألبرت حوراني ، وهو خير معلّم وخير مُلهِم ، فقد وجَّهني ، خلال سنين عديدة ، في دراساتي حول التاريخ العربي الحديث . كما تكرّم السيد ديڤيد آستور ، حين كان مديراً لتحرير جريدة (الأوبزرفر) ، وشجعني على أن أسافر كثيراً في ربوع الشرق الأوسط وأن أكتب عنه . فلهما كليهما أصدق ما في نفسي من امتنان .

وأخيراً أود أن أعبر عن امتناني الكبير للآنسة مورين ماكونفيل التي ساعدتني في أعمال البحث والتحرير.

باتريك سيل

لندن ، حزيران / يونيو ١٩٨٨

القسم الأوّل

الثوريّ

الفصل الأول
النزول من الجبل

في أواخر القرن الماضي ، هبط ذات يوم مصارع تركي متجول قرية من قرى جبال سوريا الشمالية الغربية ، وبصوتٍ راح صداه يرنّ في أرجاء القرية ؛ عرض أن يتحدى كل القادمين .

وتجمهر القرويون حوله للتفرج والتمتع ، ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا يتأوهون وهم يشاهدون أقرانهم يتساقطون واحداً بعد الآخر أمام التركي الذي بدا أنه لا يقهر . وفجأة برز إليه من بين الصفوف رجل قوي البنية في الأربعينات من عمره ، وأمسك به من وسطه ورفعه بقوة في الهواء ثم طرحه أرضاً . فصاح القرويون معجبين : «يا له من وحش ! إنه وحش» . كان اسم بطلهم هذا سليمان ولكنه منذ ذلك الحين أصبح يعرف باسم «سليمان الوحش» . وظل «الوحش» لقبه العائلي حتى العشرينات[1] . كان ذلك الرجل هو جد حافظ الأسد .

كان سليمان ـ بشهادة الجميع ـ رجلاً ذا قوة وبسالة خارقتين ، وقد أكسبته هاتان الصفتان في القرية مكانة جعلته وأسرته في مصافّ الأسر القوية البارزة، وكان إلى جانب ذلك بارعاً في استعمال البندقية براعته في استخدام قبضته ، فقد كان يعتبر رامياً ماهراً في مجتمع كانت مباريات الرماية فيه هواية مفضلة

لتمضية أوقات الفراغ ، وكان كل صبي فيه يجيد استعمال السلاح الناري . كانوا يأخذون «مسلة» من النوع المستخدم في تخييط أكياس القمح فيغرسونها في ساق شجرة توت لاستخدامها كهدف، فمن يصيبه ويحطمه يُعْتَبَرُ أمهر الرماة. وقد حدث مرة أن أرسل الحاكم التركي طابوراً إلى القرية لتحصيل الضرائب وجمع المجندين للجيش، وذلك قبل الحرب العالمية الأولى عندما كانت سوريا لا تزال تحت الحكم العثماني، فتمكن سليمان وأصدقاؤه المسلحون بالسيوف والمسدسات العتيقة من صد ذلك الطابور.

وكان الأتراك يرون أحياناً أن من الحكمة استرضاء مثيري الفتن والقلاقل . وذات مرة وجه الحاكم إلى سليمان دعوة لزيارته في جسر الشغور - البلدة الصغيرة على نهر العاصي على مسيرة يوم للراكب المجدّ من قرية سليمان ، وعندما وصل سليمان مزهواً مع حشد من عدة عشرات من أتباعه . . تساءل عما أُعد لضيافتهم ، فقيل له : «راقصات من اسطنبول وحلب» : فبصق على الأرض احتقاراً لمثل هذه السفاسف ، ولكي يهدئه الحاكم قال له : «إذهب إلى السوق ، وخذ ما تشاء على حسابي» .

وسرعان ما انطلقت جماعة سليمان إلى السوق كالعاصفة فملأوا جراباتهم بالحمص والعدس وأثواب القماش وغير ذلك من التموينات المنزلية . وهكذا غدت رحلتهم مستحقة للعناء فعلاً .

وبمرور الزمن أصبح سليمان يمارس بطرق سلمية السلطة التي كسبها بقوته الجسدية . كان الجيران في تلك الأصقاع غالباً ما يتشاجرون لأتفه سبب ، حول حدود أراضيهم وحقوق المياه ، والحيوانات الضالة ، والإهانات المتوهمة. ولكن في معظم الحالات كانت المصالحة سهلة تماماً سهولة الشجار نفسه . أما إذا تعذر الصلح فإن الخصمين كانا يعينان رجلاً ثالثاً كقاضٍ يحكم بينهما . وهنا كانت مكانة سليمان وميله للانصاف قد أكسباه مثل هذا الدور . وقد بلغ مدى اعتراف الناس بسمعته كوسيط حداً جعلهم يدعونه مرة لمصالحة

عائلتين من قرية زينة ، قرب مصياف ، على مسيرة يوم من قريته ، حيث أن الوجيه المحلي ، محمد بك الجنيد لم يستطع حل النزاع .

وكان الحكام الحقيقيون في الجبال هم رؤساء العوائل القوية الذين يتزعم كل منهم «بيتاً» هو في الواقع مجموعة مترابطة من الأسر الصغرى التي تجمعها رابطة الدم من خلال التحدر من أب واحد وتشكل الوحدة الاجتماعية الأساسية في المجتمع العربي . وكان مثل هؤلاء الزعماء الجبليين يقدمون الحماية ويستعملون سلطتهم لاسداء الخدمة أو حجبها ، وينتزعون الاحترام والتقدير وكان بعضهم محط الإعجاب لكرمهم ، فالكرم أنبل الفضائل العربية ولكن أولئك المتزعمين الجبليين كانوا في غالب الأحيان طغاةً صغاراً حريصين على قهر الناس والتحكم بهم ولا يسرهم أبداً أن ينجح الشبان في تحسين أوضاعهم . فكانوا يطردون مثل هؤلاء الشبان الناشئين الطموحين من القرية طرداً فورياً وكاملاً . وكانوا يستخدمون بنادقهم وخيولهم ومكانتهم التي كسبوها بصعوبة كي يستعبدوا أكبر عدد يقدرون عليه من الفلاحين، ولذا كانوا يقاومون التغيير .

غير أن الزعامة بالوراثة لم يكن بالإمكان ضمان بقائها ، بل كان على كل متزعم أن يكتسب زعامته بنفسه . فمن جيل إلى جيل كانت العائلات تبرز أو تسقط في السجل الاجتماعي . كما أن طريقة الحياة في الجبل قد ولّدت نزعة فردية ، حيث كان الحقل مكاناً يجب انتزاعه من صخور الجبل بالجهد والعرق وحيث كان كل رجل هو السيد المسيطر على بقعته من الأرض وعلى بندقيته . وكانت ذراع الإنسان اليمنى هي التي ترفعه فوق الآخرين من الناس العاديين وكان باستطاعة القوي أن يسيطر على البيك . ويوضح تاريخ سليمان جد حافظ الأسد ، سليل الجبال المنعزلة الغارقة في الفوضى والتي تحتضن الساحل المتوسطي بين تركيا ولبنان ، أن فلاحاً بسيطاً كان يستطيع ان يرتفع ليصبح زعيماً صغيراً ، فمثل هؤلاء الأبطال المحليين كانوا يلمعون في الأوقات العصيبة ، وغالباً ما كانت الأوقات آنئذٍ عصيبة.

وفي معظم الأحيان كان سكان الجبال يتركون وشأنهم، وكان ذلك يناسبهم ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا مهملين تماماً ، فلم يكن للحكومة العثمانية وجود خارج مدن السهول ، اما السكان القابعون في أعالي الجبال الموحشة فلم تقدم لهم الدولة أي قسط من العدالة والتعليم ، ولم تؤمن لهم رعاية صحية ولا طرقاً ولا وظائف ولا خدمات من أي نوع : وكان التعبير الوحيد عن السلطة ضارياً ، وجشعاً ، وظالماً ، ويتمثل في جابي الضرائب وفرسان الجندرمة ، ولم يكن من الغريب أن يدخل دركي واحد القرية وهو راكب فيجمع القرويين ويأخذ منهم النقود إن كان معهم منها شيء ، ويذبح فروجاً لغدائه ، ثم يأخذ طريقه عائداً إلى الحضارة .

وفي العهد العثماني كان سكان الجبال يعانون فقراً مدقعاً جعلهم عاجزين حتى عن شراء الملح ، فكانوا يمشون نازلين إلى الساحل ليعودوا حاملين قرباً من ماء البحر ليملّحوا بها عجينهم ، وكانوا جميعاً فقراء ، وكان أكثرهم فقراً أولئك الذين يعيشون في أعلى الوديان وعلى المنحدرات الشرقية الحادة التي تواجه الصحراء إلى الداخل ، وكان حرمانهم المدقع قد دفعهم عبر أجيال كثيرة وبسبب الجوع إلى هبوط السهل السوري الأوسط حول حمص وحماه للعمل كأقنان تقريباً في خدمة ملاّك الأرض السنيين، وحتى بعد مضي سنوات كثيرة من مطلع هذا القرن لم تكن هناك نقود فائضة سائلة ، ولا تجارة ، ولا ثروة سوى ما يمكن انتزاعه من الحقول الصخرية على المنحدرات الوعرة ، فكان الفن المحلي الوحيد هو صنع السلال . وكانت الحبوب والماعز هي الأساس التوأم الذي يقوم عليه هذا الاقتصاد البدائي لأنها تعطي طيلة السنة طعاماً من الخبز والبرغل واللبن والسمن . أما الأكثر غنىً فكانت لديه كرمة أو اثنتان ، وبضع شجرات مثمرة وقطيع من الخراف . وكانت التعاسة أقل نسبياً في تلك التجمعات المتمركزة على المنحدرات الغربية في المعقل الجبلي المطل على الأبيض المتوسط ، وكان هذا من حظ سليمان الجيد ، إذا كانت قريته القرداحة معششة في منطقة تشبه بمناظرها الطبيعية مقاطعة بروفانس الفرنسية وإن كانت

اكثر جفافاً وبياضاً ، ويصلها بالبحر طريق للدواب لا يزيد طوله على عشرة كيلومترات . وكان البحر يلمح من خلال ثغرة في التلال .

ورث علي سليمان ـ والد حافظ الأسد ـ كثيراً من صفات أبيه ، فكان قوياً وشجاعاً ومحترماً ورامياً ممتازاً . فعندما كان في السبعين من عمره كان يلصق ورقة سيكارة على جذع شجرة ثم يصيبها برصاصة مسدس من على بعد مائة ياردة وسط إعجاب أولاد القرية . ولقد واصل علي سليمان تقليد عائلته في التوسط في فض النزاعات وتقديم الحماية للمحتاجين . . وكسب مديحاً خاصاً في أوائل العشرينات لمساعدته للاجئين الأرمن المعدمين الذين انتشروا إلى الجنوب بأعداد كبيرة عندما سلمت فرنسا أجزاء من شمال سوريا إلى الأتراك .

ولقد عرف والد الأسد ، علي سليمان ، المولود سنة ١٨٧٥ ، الحكم العثماني ، وقاتل فترة قصيرة ضد الفرنسيين عند مجيئهم إلى سوريا ، وظل يعيش إلى سنة ١٩٦٣ ، حتى رأى ثورة حزب البعث التي جاءت بولده إلى السلطة في ذلك العام . وقد تزوج علي مرتين وأنجب أحد عشر من البنين والبنات خلال ما يزيد على ثلاثين عاماً(٢) . أما زوجته الأولى ، سعدى ، فكانت من منطقة الحفة ، وقد أنجبت له ثلاثة أولاد وابنتين . ثم تلت ذلك فجوة من خمس سنوات فصلت بين الدفعة الأولى والدفعة الثانية من نسله . وأما الزوجة الثانية ، ناعسة ، فكانت فتاة قوية جميلة تصغره بعشرين عاماً ، وكانت ابنة عثمان عبود ، من قرية قطلبة على بعد اثني عشر كيلومتراً في أعالي الجبل . وقد أنجبت له ابنة وخمسة من البنين . وولد حافظ ، الابن الرابع ، في ٦/ تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٣٠ .

وقبيل ولادته ، كان أبوه علي سليمان قد استطاع أن يتحول من فلاح بسيط إلى واحد من الوجهاء ، كنوع من المكافأة على الاحترام الذي كسبته عائلته عبر جيلين من الزمن ، وكان من رموز هذا التحول الصاعد تغيير اسم عائلته سنة ١٩٢٧ من «الوحش» إلى «الأسد» ، وهناك عدة روايات حول كيفية

حدوث ذلك ، وكلها تمتدح شخصية علي سليمان . تقول إحداها بأنه برز بشكل متميز كواحد من أركان مجتمع القرية بحيث جاءه زعماء الأسر الأربع الرئيسية في القرية وقالوا له: «إنك لست وحشاً، بل أنت أسد»[٣].

كانت القرداحة آنذاك تتكون من مائة بيت تقريباً ، مبنية من الطين أو الصخر الخشن عند نهاية طريق طيني غير معبد . ولم يكن فيها مسجد أو كنيسة ، ولا دكان ولا مقهى ولا طريق مزفت ولا مركز قرية . وكان المكان الوحيد الذي يلتقي عنده الناس هو النبع ، أو المقبرة ، أو المزار ، وهو مقام لأحد الأولياء المحليين تعلوه قبة بيضاء ، وكان البناء الوحيد ذا الطابع الديني في الجبل . وكانت بيوت آل الأسد متجمعة في حي عشيرتهم المعروف «بحارة العيلة» فكان الأعمام والأخوال وأبناء العمومة والخؤولة كلهم متواجدين في أماكن متقاربة يمكن أن يسمع فيها صوت المنادي إذا صاح . وكانت لديهم بضعة حقول أصبح بإمكان علي سليمان في شيخوخته أن يترك العمل فيها بنفسه ليكفيه أولاده . وكانوا يستدعون واحداً أو اثنين من العمال الموسميين في زمن الحصاد ، أما في العمل اليومي المعتاد فقد كانت الأسرة هي التي تتولى الزرع والتعشيب وسقي مصطبة الخضروات ورعاية أشجار الفاكهة ، بينما كانت ناعسة زوجة علي سليمان ، تطعم الدجاج وتسمن الخروف لأيام العيد .

وهناك صورة للبيت الذي ولد فيه الأسد يبدو فيها بناء من غرفتين وسطح من الصخر غير المكسو يطل على فناء أمامي من الطين المضروب ، وعلى أحد الجانبين امتداد طيني خاص بالحيوانات ، بينما يؤدي ممر مشقوق في الصخر إلى سفح التل . وكانت بساطة هذا المنزل الصخري الخشن متناسبة مع ما حولها في كل أنحاء ديار العلويين . كانت القرداحة مدينة بوجودها لنبع يسمى العين الزرقاء ، يخرج من كهف فوق القرية مزين بالنوازل الكلسية التي كان الناس يعتقدون بأنها مفيدة للهضم . ومع المناخ اللطيف ، وثلاثين يوماً من الأمطار في العام كان مثل هذا الموقع يقدم لساكنيه حياة بسيطة وصحية ، بل

ودرجة من الدعة . وكانت الزراعة الأكثر تنوعاً ممكنة على هذه السفوح الغربية والجنوبية أكثر منها في التربة الرقيقة على أعلى الجبل الأجرد . وكان الزيتون عبر مدة طويلة أهم المحاصيل ، فزيته لم يكن يستعمل للطبخ فحسب ، بل وللإضاءة وصنع الصابون . كما كانت تنمو الكروم وأشجار التين والتوت التي تقدم أوراقها طعاماً لدود القزّ . ولكن التبغ كان هو المحصول المالي ، وبطريقةٍ ما كان هو العملة الحقيقية في ذلك المكان .

عاش الأسد وهو صبي وسط دفء وصخب عائلة كبيرة(٤). فلم يكن تاسع أولاد علي سليمان فحسب، بل إن عمه عزيز سليمان كان يعيش بجوارهم على الطريق، ومعه أبناء عمه السبعة الذين كانت كُبْراهُم، منيرة، أصغر منه بشهر واحد. أما عماته الثلاث جنينة، وغالية، وسعدى فقد تزوجن من عوائل في القرى القريبة، مما كان يتيح له فرص زيارة المزيد من أقاربه وأبناء عماته هناك. وقد قيض لعمته سعدى بشكل خاص أن تصبح مهمة في حياته لأنها تزوجت من أحمد مخلوف من قرية بستان الباشا وكان زوج عمته من أقارب الفتاة التي كان مقدراً لها أن تصبح زوجته في المستقبل. أما إخوته الخمسة الأوائل غير الأشقاء، الذين ولدوا جميعاً قبل الحرب العالمية الأولى، فقد كانوا له بمثابة الأعمام والعمات أكثر منهم إخوة وأخوات. وكان أولادهم المتكاثرون يضيفون وجوهاً جديدة لعائلة الأسد المتنامية.

كان أبوه علي سليمان، مركز حياته في صباه ومطلع شبابه وقد ظل الأسد يراه دائماً رجلًا عجوزاً، إذ أنه كان في الخامسة والخمسين عندما ولد الأسد. وكان ذا شخصية وقورة، مع شيء من الصرامة، وكان في المناسبات الخاصة ـ كزيارة السلطات الفرنسية في اللاذقية ـ يرتدي طربوشاً ورباط عنق. أما في زيه العربي التقليدي، فلم يكن ابناء علي سليمان يحبونه فحسب، بل وربما على وجه الخصوص، كانوا يحترمونه ويطيعونه. كان الأولاد يقبلون يده في الصباح، ولا يجلسون في حضرته، وعندما كبروا لم يكونوا ليجرؤ وا على التدخين أمامه.

وكانت أم الأسد، ناعسة، الأصغر من زوجها بكثير امرأة معتدة برأيها وبأسلوبها الخاص بها، وعندما أخذ علي سليمان يطعن في السن أصبحت هي المسيطرة على الأولاد في البيت وكان تأثيرها عظيماً بشكل خاص على ولديها الأصغرين، جميل ـ المولود سنة ١٩٣٣ ـ ورفعت ـ المولود سنة ١٩٣٧ ـ الطفل شديد الحيوية الذي أصبح طفلها المدلل.

قضى الأسد سنوات عمره المبكرة في الهواء الطلق إمّا راكباً على دابة في طريقه إلى الحقول للمساعدة في إرواء المحاصيل أو قطف الفواكه، أو متجولاً يعدو ويقفز في الجبال مع غيره من الأطفال الآخرين الذين من النادر أن يكون في حياتهم أي تحصيل للعلم. فالأمية كانت متفشية بشكل يكاد يكون تاماً في قرى الجبال، بل إنه حتى في عام ١٩٤٣ كان أقل من ربع الأطفال السوريين بين سن السادسة وسن الثانية عشرة يذهبون إلى المدرسة(٥).

ففي القرداحة كما في غيرها كان الرجل يدور على كل المناطق المجاورة بحثاً عمن يقرأ له رسالة. ولذا كان القليلون من القادرين على القراءة محط الاحترام والتبجيل يتطلع إليهم الآخرون لمعرفة أخبار العالم من حولهم ويسألونهم النصح فيما يتعلق بشؤون القرية وفي المعاملات الحكومية. بل لقد كان متوقعاً منهم أن يقدموا للقرية الإمتاع والمؤانسة. فلتمضية الوقت في أمسيات السمر كان الناس يتجمعون لسماع قصص المغامرات تقرأ عليهم بصوت عالٍ من كتاب عتيق.. وكان والد الأسد واحداً من القلة المتعلمة. ولم يكن في القرداحة كهرباء آنذاك ولذلك لم يكن فيها مذياع، ولكن ذلك القروي غير العادي كان مشتركاً في جريدة تصل إليه متأخرة عدة أيام ـ فكان الرجل الوحيد في القرية الذي تابع تطورات الحرب العالمية الثانية في مدها وجزرها، محدداً بدقة أماكن المعارك على خريطة جدارية في الغرفة التي كان الأسد ينام فيها وهو صبي.

كان علي سليمان يحترم التعليم والكتب، وقد صمم على أن يتيح لأبنائه الصغار فرصة التحصيل الثقافي. إذ أن أطفاله الثمانية الأوائل لم يحصلوا على

أي تعليم يذكر لأن التعليم لم يكن متوفراً. كان التعليم الوحيد الذي يمكن الحصول عليه في الجبل تحت حكم الأتراك والسنوات الأولى من الحكم الفرنسي لا يتجاوز ما يقدمه إمام القرية الذي قد يجمع حوله نصف دزينة من الأولاد تحت شجرة ليعلمهم الحروف الهجائية وبضع سور وآيات من القرآن، بل إن السلطات التركية لم تشجع حتى هذا النوع من التعليم، وكانت إذا سمعت به أرسلت مَنْ يضرب الشيخ ليكف عنه. ولكن مثل هذا التعليم في الهواء الطلق كان شيئاً عاماً ومألوفاً أثناء نشأة الأسد أيام الحكم الفرنسي الأكثر تسامحاً، وفي مثل هذه البيئة المفتوحة وغير المتزمتة أو الرسمية تلقى الأسد أول دروسه في القراءة وحفظ أول السور القرآنية.

وفي الثلاثينات تدخل عاملان ساعدا على منحه فرصاً لم تتح لأفراد عائلته الأكبر منه. فالفرنسيون أدخلوا التعليم إلى القرى النائية للمرة الأولى، كما أن والده كان له من الأهمية ما جعله يضمن له أن يستفيد من هذه الفرص. فعندما فتحت في القرداحة مدرسة ابتدائية، تمكن علي سليمان من إدخال الأسد فيها، وبذلك جعله أول واحد من أولاده يتلقى تعليماً رسمياً، وواحداً من حفنة من الأطفال المحظوظين في قريته.

العلويون

كان سكان الجبل في غالبيتهم العظمى من العلويين، وهم أعضاء طائفة إسلامية شيعية متطرفة. ومثل غيرهم من الطوائف المبتدعة في المشرق كالدروز والإسماعيليين، كان العلويون من بقايا المد الشيعي الذي اجتاح العالم الاسلامي قبل ألف عام، فهم جزر تركها ذلك المد عندما تراجع. ويشارك العلويون أهل الشيعة الآخرين الاعتقاد بأن علياً، ابن عم محمد وصهره، هو خليفته الشرعي غير أن الخلفاء الثلاثة الذين جاؤوا بعد محمد سلبوا هذه الخلافة من علي وقد بالغ العلويون في تبجيلهم لعلي، المفتأت على حقه، إلى درجة أن أسبغوا عليه بعض الألوهية. وقد أدت مثل هذه المعتقدات وغيرها إلى أن جعلت أهل السنة

على مر العصور يرون فيهم خروجاً عن الدين. ومن أجل أن يحمي العلويون أنفسهم راحوا يتكتمون على دينهم ولجأوا، مثل المتطرفين من الشيعة، إلى انتهاج فلسفة التقية التي تقوم على الازدواجية الحذرة التي تبرر اخفاء معتقداتهم الحقيقية. وعندما استعاد المذهب السني سيطرته وأصبحت له اليد الطولى لجأت تلك الجيوب الطائفية إلى كل مكان استطاعت أن تجده. ولا يعرف أحد على وجه التأكيد من أين جاء العلويون، ولا متى احتلوا جبلهم، وهم أنفسهم يقولون بأن أجدادهم اتجهوا غرباً نحو الأبيض المتوسط قبل عدة قرون، قادمين من جبل سنجار، المعقل الحصين في جبال العراق الحالي بين دجلة والفرات، وقبل ذلك من الجزيرة العربية نفسها إذ يقولون إن لهم أجداداً من بين أعرق القبائل العربية، وهذا نسب تتبعه حسن بن مكظوم الذي يعتبر أباً لواحدة من أكبر العشائر العلوية، والذي توفي عام ١٢٤٠.[٦] وهؤلاء الجدود الذين هربوا من أعداء أقوى منهم، والذين اضطهدوا بسبب الارتياب في مروقهم عن الدين، وجدوا ملاذاً في الوديان الوعرة التي يصعب الوصول إليها نظراً لارتفاعها عن مستوى سطح البحر.

إن الأسماء والقيم، والنظم القبلية لدى العلويين مشتقة من أصولهم وخلفياتهم البدوية ومن تجربة حياتهم في الجبل خلال القرون القليلة الماضية. وإن التركيبات والبُنَى العشائرية العلوية اليوم تعكس مخلفات ما بقي من تلك الجذور القديمة. فمعظم العلويين يتبعون واحدة أو أخرى من القبائل الأربع الرئيسية: الحدادين، والمطاورة، والخياطين، والكلبية، ومن هذه الأخيرة كان سليمان، جد الأسد. بالأضافة إلى ذلك فإن ثلاث قبائل صغيرة هي الدراوزة، والمهالبة، والعمامرة، قد استقرت في الطرف الشمالي من سلسلة الجبال، وهناك عدة آلاف من العلويين سكنوا في السهول خارج الجبل، وهؤلاء ذابت قبائلهم وتلاشت. ولعل القبائل الكبيرة الأربع كانت في الأصل متمركزة في مناطق متميزة وأجزاء منفصلة من الجبل، غير أنها اختلطت وتمازجت بمرور الزمن حتى ان بعض القرى الصغيرة التي لا يزيد عدد سكان الواحدة منها عن المائة

كانت تحتوي على حدادين وخياطين يعيشون جنباً إلى جنب، وإن لم يكن بانسجام وتفاهم. ونتيجة لذلك فإن الخرائط القبلية لجبال العلويين ليست دقيقة ولا مضبوطة بل تحتوي على تداخلات شائكة. ولكن القرداحة، قرية سليمان، كانت أقل تشابكاً من «موزاييك» العشائر في القرى الأخرى، إذ كانت تسودها عشيرة الكلبية، وكانت مقر زعيم القبيلة الديني بحيث عرفت أحياناً باسم قرداحة الكلبية.

ولم يعد الناس اليوم يطيقون موضوع الانتماءات القبلية، وقد بذلت الدولة البعثية جهدها كي تحل محل هذه التقسيمات فكرة المواطنة والانتماء الوطني، ولكنك إذا ضغطت بإلحاح فإن كل صبي قروي يستطيع أن يخبرك إلى أي قبيلة تنتمي أسرته. وعندما سئل رئيس بلدية القرداحة عن أسماء الأسر القبلية البارزة في قريته أجاب: «ليس لدينا قبائل ولا عوائل هنا بل نحن جميعاً أعضاء في عائلة البعث بقيادة حافظ الأسد»... ولكنه بعد شيء من الرجاء والاستدراج، ذكر عشائر الكلبية التي تعود سلسلة أنسابها إلى مئات من السنين(٧).

أما تسمية الطائفة بـ «العلويين» فهي كلمة حديثة تعود إلى أيام الانتداب الفرنسي. فقبل الحرب العالمية الأولى كانت الطائفة تعرف إمّا باسم «الأنصارية» نسبة إلى الاسم التقليدي لسلسلة الجبال، أو بالتسمية الأكثر شيوعاً: «النصيرية» نسبة إلى مؤسسها المزعوم محمد بن نصير، الداعية الديني الذي عاش في القرن التاسع الميلادي. ولم يطلق اسم «العلوي» على المنتسب لهذه الطائفة إلّا في العقود الحديثة من السنين، ليعني ذلك ـ على وجه الدقة ـ واحداً من أتباع علي الذي هو الينبوع الرئيسي للتشيع، فتسمية «العلوي» إذن تضع هذه الطائفة ضمن عائلة الطوائف الشيعية.

وتاريخ الاعتقادات النصيرية يلفه الضباب الغامض فعلاً. وتأتي أولى الإشارات إليها من الكتابات الجدلية الدرزية في القرن الحادي عشر عندما قام

الدعاة النصيريون بالتبشير في صفوف الدروز الذين وصلوا آنذاك إلى جنوب لبنان، فأثار ذلك العمل غضب رجال الدين الدروز. ويظهر النصيريون في ذكر عابر في كتابات الصليبيين التاريخية وفي بعض حكايات الرحالة وتقارير القناصل الأوربيين. ولم تبدأ أية محاولة جادة لإلقاء الضوء عليهم إلّا في منتصف القرن التاسع عشر على يد صاموئيل ليد في كتابه «اللغز الآسيوي» المطبوع بلندن سنة ١٨٦٠ وقد بنى كتابه هذا على أول نص نصيري لفت أنظار الباحثين الغربيين وهو كتاب يدعى: كتاب الشيوخ اشتراه من تاجر مسيحي في اللاذقية وقع الكتاب في يده أثناء الغزو المصري لبلاد الشام في ثلاثينات القرن التاسع عشر. وجاء التقدم التالي في هذا الميدان بطبع كتاب رينيه دوسو سنة ١٩٠٠ تحت عنوان: تاريخ ودين النصيريين. وكان المرجع الأساسي الذي اعتمد عليه دوسو كتاباً طبع في بيروت سنة ١٨٦٣ من تأليف سليمان الأضنة، النصيري المرتد إلى النصرانية، والذي قتل فيما بعد بسبب ارتداده؛ وكان كتابه يحتوي على الأدعية الرئيسية، والتعاليم، وتفاصيل اعتقاداتهم الأساسية. وعلى هذه الأسس المهتزة[٨] كوّن الباحثون المحدثون صورة أكمل وأوضح للطائفة إلا أنهم يعترفون بأن المسألة لا تزال «لغزاً لم يتم حل غوامضه إلا جزئياً»[٩] كما يقول فيليب حتي.

ويبدو مما لا شك فيه أن النصيريين هم فرع منشق عن المجرى الرئيسي للطائفة الشيعية الإمامية الاثني عشرية. ولقد كان تاريخهم عبر الألف سنة الماضية تاريخ بقاء عنيد في وجه الغزو والقمع، فالفرنجة في الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٨ م) استولوا على النقاط الحصينة في المعاقل الجبلية وأقاموا فيها قلاعاً. وفي أوائل القرن الثاني عشر انطلق الاسماعيليون الأقوياء من قاعدتهم في السهل في السلمية واقتحموا تلك الأماكن وأقاموا قلاعاً كذلك في بلاد النصيريين حيث بقيت منهم جيوب حتى يومنا هذا وهم مختلفون مع جيرانهم باستمرار وغزا صلاح الدين الجبل وطالب بالجزية. أما سلاطين المماليك الذين تبعوه في القرن الذي تلا ذلك فقد دحروا الاسماعليين وطردوا آخر الصليبيين وحاولوا أن

يعيدوا الطائفيين الأنصاريين بالقوة إلى الإسلام السنيّ. وعندما مرّ الرحالة المعروف ابن بطوطة بمنطقة الجبل في القرن الرابع عشر سجّل أن النصيريين أرغموا على بناء المساجد أما الفقيه السوري ابن تيمية (١٢٦٣ ـ ١٣٢٨) البطل المدافع عن المذهب السني فقد أدان النصيريين بأنهم أخطر من النصارى وحث المسلمين على الجهاد المقدس ضدهم، وهي فتوى لا تزال تعطي ذخيرة لخصومهم ومعارضيهم في القرن العشرين.

وتلا ذلك في التسلط عليهم الأتراك العثمانيون الذين غزوا سوريا في مطلع القرن السادس عشر وقاموا بمحاولة جديدة لفرض المذهب السني على النصيريين.

وقد استمر الحكم العثماني إلى سنة ١٩١٨، وقوطع لمدة عشر سنوات بحكم المصريين اعتباراً من عام ١٨٣٢ الذي لم يجلب للنصيريين أي فرج، بل كان يعني القمع الأكثر تنظيماً والأشد قسوة، وفي ذلك الوقت كان سكان الجبال مدانين عموماً باعتبارهم هراطقة مارقين منبوذين، ولم يشعروا بالتحرر من الاضطهاد إلّا تحت حكم الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى.

التعليم

في سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، عندما كان الأسد في التاسعة من عمره أرسله والده بعيداً إلى المدرسة في اللاذقية على الساحل. وفيها بعد وصف النزول من الجبل إلى المدينة للمرة الأولى بقوله: «ربما كانت تلك أهم نقطة تحول في حياتي»[١٠]. وقضى الصبي الأشهر الثلاثة الأولى مع أخت له متزوجة، ولكن زوجها كان عليه أن ينتقل في ذلك العام إلى مكان آخر، فبقي الأسد بلا أقارب في المدينة، ولم يشأ أبوه أن يقطع عليه عامه الدراسي فاستأجر له غرفة في منزل متواضع يملكه أحد معارفه. ويتذكر الأسد أن تلك الأشهر كانت حزينة بسبب بعده عن أسرته إذ يقول: «في تلك الأيام كانت الكيلومترات الثلاثون من القرداحة إلى اللاذقية تبدو بضخامة المسافة التي تفصل اليوم بين دمشق

ولندن». إلا أن تلك الأشهر تخللتها أيضاً السعادة لوجود أطفال في مثل سنه كان يجوب معهم أرجاء المدينة. لقد كانت تلك الفترة تحدياً لابن الجبل الذي أُلقي به وحده داخل مدينة. تلقى يومها درسه الأول في معنى أن يكون منتمياً لأقلية مضطهدة. إذ لم تكن للعلويين مكانة جيدة في اللاذقية التي كان ثلاثة أرباع سكانها من المسلمين السنة والربع الباقي من طوائف مسيحية مختلفة. كان عدد العلويين لا يتجاوز بضع مئات ولذلك لم يكن لهم أي نفوذ بل كانوا موضع اهمال بشكل عام. ثم انه وجد نفسه هناك في غمرة فترة دراماتيكية، إذ كانت سوريا الخاضعة لفرنسا فيشي تعيش في خوف من هجوم بريطاني لم يأت في الحقيقية إلاّ في صيف ١٩٤١. وفي غضون ذلك تم تدعيم الجيش الفرنسي في المشرق وإقامة ملاجىء ضد الغارات الجوية، وتم إدخال التعتيم ونظام الرقابة. وقد أدت هذه الأشياء إلى زعزعة الاستقرار في نفس الأسد الفتى. «فلم أكن أعرف أحداً في المدينة. وكنت أتساءل مع من أو ضد من أستطيع أن أقاتل؟ ولذلك كنت أشعر بأن القرية هي أكثر أمناً وتمنيت لو كنت في بيتنا. والواقع أنني لم أكن مهتماً بالحرب العالمية الثانية وإنما كان اهتمامي منصباً حينذاك على وظائفي المدرسية»[١١].

هذه الشهور التي أمضاها في اللاذقية جعلته يكبر بأسرع من أبناء قريته. فقد كان بعيداً عن والديه لأول مرة في حياته وتفتحت عيناه على طريقة حياة جديدة. فأجاد عمله في المدرسة وحصل على عدة شهادات تقدير صغيرة. كانت تلك أولى الأشياء التي أهداها لوالده عند عودته إلى البيت في صيف ١٩٤٠ وبعد تلك السنة المليئة بالعبر والدروس عاد الأسد إلى مدرسة قريته الصغيرة، ولكنه في تلك البيئة الضيقة كان قد أفلح في جعل نفسه متميزاً.

وبعد عامين أي في سنة ١٩٤٢ واجهته عقبة حاسمة كان عليه أن يجتازها: تلك هي شهادة الدراسة الابتدائية التي تفتح الطريق أمام الدراسة الثانوية. كان واحداً من أربعة أولاد فقط من ابناء قريته تتاح لهم فرصة دخول المسابقة في

اللاذقية، حيث كان من الضروري إرسال وثائق المرشحين قبل وقت مبكر كثيراً. وكتمهيد لذلك ركب الأولاد الأربعة إلى جبلة لالتقاط صور لهم، وكانت تلك أول مرة يتم تصويرهم فيها جميعاً. فأجلسهم المصور المتجول على كرسي على الرصيف واحداً بعد الآخر، وكان عليهم أن يظلوا ساكنين سكوناً تاماً أثناء اختفاء المصور خلف قطعة القماش السوداء. ثم جاءت مسألة ملء الاستمارات وتقديم الطلبات «إن كل تفاصيل تلك المحنة ما زالت طرية في ذاكرتي. فمجرد السماح للطالب بدخول الامتحان كان يقتضي تقديم طلب مكتوب بخط يده إلى وزير التربية في إدارة حكومة اللاذقية. وهكذا كتب معلمنا مسودة طلب منا أن ننسخها، ثم قدم لنا أوراقاً بيضاء غير مسطرة، فكانت تلك أول صدمة لأننا كنا معتادين على الأوراق المسطرة. وكان علينا أن نوجه الطلب إلى صاحب المعالي الوزير، وكانت الفقرة الأولى يجب أن تبدأ على بعد كذا ملليمتراً من الهامش. ولم يكن ذلك سهلاً، وكان السبب في عدة بدايات فاشلة وأوراق ممزقة وكان من الأمور المقلقة الأخرى احتمال أن يأتي توقيعنا أقرب من اللازم إلى نهاية النص. واستغرقنا نحن الأربعة يوماً كاملاً حتى كتبنا طلباتنا ببطء وبخط جميل، فقد كنا واثقين أننا لو أخطأنا بمسافة ملليمتر واحد فسوف ترفض طلباتنا. كنا مقتنعين بأن غلطة واحدة قد تشكل انتهاكاً هائلاً»(١٢). وأخيراً تم وضع الأوراق، وصور الأولاد وشهادات ميلادهم في مغلف ضخم أخذه مدير المدرسة إلى اللاذقية.

ولم يبق سوى الامتحان نفسه. وفي الأربعينات لم تكن هناك سوى ثانوية واحدة على طول الساحل كله من لبنان إلى الإسكندرون، لخدمة طرطوس، وجبلة، واللاذقية ومناطق الجبل الداخلية جميعاً. وكان التنافس لدخولها شديداً قاسياً... إلّا أن الأسد كان جيداً في الحساب، وفي اللغة العربية، وفي المواد التي تتطلب الحفظ عن ظهر قلب. «أذكر أننا نزلنا قبل الامتحان ببضعة أيام، وانتحى بنا مديرنا جانباً وألقى علينا محاضرةً في أهمية أن لا تصيبنا الأسئلة بتشوش الذهن، وأن لا نخاف من رؤية المعلمين الغرباء الذين يرتدون السراويل ولا يتحدثون بالعربية فحسب، بل وبالفرنسية. وحثنا على عدم

الشعور بالنقص تجاه تلاميذ المدينة الذين كانوا مرتاحين نفسياً أكثر منّا وشجعنا قائلاً: إنكم لا تقلون عنهم براعة وشجاعة وتذكرت مع زملائي الثلاثة كلمات معلمنا، ودخلنا الفحص بثقة»[١٣] وكانت نتائج الطلبة القرويين من بين أفضل النتائج.

لقد ورث الأسد تراثاً هاماً عن جده وأبيه، فقد ولد في عائلة كانت تعمل جاهدة لتحسين أحوالها في زمن كانت فيه الطائفة العلوية ككل قد بدأت تخرج من فترة الإهمال الطويل. فجدُّه سليمان قد أسس سمعة العائلة في القوة الجسدية والمعنوية فآل الأسد كانوا أناساً ليس من السهل الافتئات عليهم. لم يكونوا خنوعين، بل من النوع الذي لا يخضع ولا يذعن لقد كانوا ذوي صلابة، وعرف عنهم أنهم في صعود. ورغم أن عشيرتهم كانت أصغر وأفقر من كثير غيرها كانوا يغتنمون كل فرصة من أجل تحسين مكانتهم.

يضاف إلى ذلك ما قام به والد الأسد، علي سليمان، الذي عمل كي يجعل أسرته مرموقة أكثر وأتاح لابنه تعليماً جيداً أكسبه في آن احترام الذات واحترام الآخرين له. وهناك وثيقة رسمية تعود لعام ١٩٣٦ أدرجت فيها أسماء وجهاء المنطقة تصف علي سليمان الأسد بأنه زعيم علوي، أو رئيس عشيرة، رغم أن موقعه في القائمة يشير إلى أنه كان يحتل مرتبة أقل من مكانة الشخصيات الاجتماعية البارزة[١٤]. كما أن كشفاً بالقبائل والعشائر العلوية أعده ضابط سياسي بريطاني عام ١٩٤٢[٥] يوضح أن عائلة علي سليمان تترأس عشيرة «العيلة» الفرعية من قبيلة الكلبية، وهو مركز متواضع ولكنه حقيقي. ذلك أن آل الأسد كانوا قد حققوا لأنفسهم منزلة في قريتهم، ولكنهم كانوا لا يزالون أقل تأثيراً من أسر القرداحة البارزة مثل آل حسون، وعثمان، والخيّر.

وكان الأسد مديناً لتأثير والده في الاهتمام طول حياته بالكتب، والشعر، واللغة العربية، وذات يوم والأسد في فترة المراهقة، تحداه أبوه مع أخ له في مسابقة أو مباراة يتقرر فيها أيهم يحفظ أولاً قصيدة طويلة لحسان بن ثابت شاعر

الرسول فنقل الشابان القصيدة وخرجا ليحفظاها في الهواء الطلق، ودخل قبل أخيه، ولكنه وجد والده قد أغلق الكتاب واستعد لإلقاء القصيدة. كان تطوير ذاكرة جيدة شيئاً من تقاليد الأسرة، وفيما بعد كانت قدرات الأسد الهائلة على التذكر مصدراً للإعجاب والشعور بالحرج والضيق لدى موظفيه. ولقد لوحظ أيضاً أن سهولة استخدامه للعربية الفصحى ولا سيما في الخطابات المرتجلة هي صفة تميزه عن كثير من العرب العاملين في الحياة العامة.

ونظراً لثقافته وشخصيته القوية، فسرعان ما أصبح يُنْظَرُ إليه كوريث لسليمان ولعلي سليمان. ونظراً لشيخوخة والده ـ الذي كان في الثمانين عندما كان الأسد في الخامسة والعشرين ـ فقد أخذ الأسد على عاتقه بعض المسؤوليات العائلية، وراح يساعد والدته في تربية أخويه الأصغرين، جميل ورفعت، اللذين كانا أقل منه جدية وتصميماً، وهكذا نشأ على التطلع إليه كرمز للوالد الصارم المطاع الذي أخذا يطلبان موافقته، ولكنهما كانا يحبان أن يتحديا سلطته. وكان الأسد أول واحد من عائلته يخلف عالم القرداحة وراء ظهره، فقد بقي والداه وعماته وأعمامه وأبناء عمومته وإخوته غير الأشقاء مغروسين في القرية، عندما خرج إلى معترك الحياة وحده في وقت مبكر وراح يتعلم أن يفكر لنفسه وأن يغدو صاحب اهتمامات وطموحات تتجاوز أفقهم.

هوامش الفصل الأول

(١) مقابلة مع جابر الأسد (القرداحة ١٥ نيسان/ ابريل ١٩٨٥).

(٢) أولاد علي سليمان هم: هالة (ولدت سنة ١٩٠٩)، أحمد (١٩١٠ - ١٩٧٥) إبراهيم (١٩١١ - ١٩٦٨) حسيبة (ولدت سنة ١٩١٢)، إسماعيل (ولد سنة ١٩١٣) بهيجة (ولدت سنة ١٩١٨) محمد (١٩٢٠ - ١٩٧٦)، بهجت (١٩٢٣ - ١٩٤٢)، حافظ (ولد سنة ١٩٣٠)، جميل (ولد سنة ١٩٣٣)، ورفعت (ولد سنة ١٩٣٧).

(٣) مقابلات مع المسنين من أهل القرداحة (نيسان/ ابريل ١٩٨٥).

(٤) المعلومات الواردة في الفقرة التالية مستقاة من السجلات البلدية لقرية القرداحة.

(٥) ثابتة بتران: سوريا (لندن ١٩٧٢) ص ٦٩.

(٦) ج ويلرس: **بلاد العلويين** ص ٣٢٨. وكذلك هـ. ز. غيب و. ح. هـ. كرامرز **الموسوعة الاسلامية المختصرة** (طبع ليدن بهولندا ١٩٥٣) ص ٤٥٣ - ٤٥٦.

(٧) مقابلة مع رئيس بلدية القرداحة في ١٥/ نيسان/ ابريل ١٩٨٥.

(٨) صاموئيل ليد: **الانصارية والاسماعيلية** (لندن ١٨٣٣) وكذلك كتاب: **اللغز الآسيوي** (لندن ١٨٦٠)، ورينيه دوسو: تاريخ ودين النصيريين (باريس ١٩٠٠) وسليمان أفندي الأضنة: **كتاب الباكورة السليمانية** (بيروت ١٨٦٣) وقد ترجمه إلى الانكليزية إدوارد ي. سالزبوري في **مجلة الجمعية الشرقية الأميركية** المجلد الثامن ١٨٦٤) وهنري لامنس: دراسات دينية (باريس ١٨٩٩ وكذلك كتابه المعنون سوريا (باريس ١٩٢١) **والإسلام** (باريس - الطبعة الثانية - ١٩٤١) و هـ. أ. ر. غيب و. ح. هـ. كرامرز: **الموسوعة الاسلامية المختصرة** (طبع ليدن بهولندا ١٩٥٣).

(٩) فيليب حتي: تاريخ سوريا (لندن ١٩٥١) ص ٥٨٦.

(١٠) مقابلة مع الرئيس الأسد دمشق ١٣ أيلول/ سبتمبر/ ١٩٨٤).

(١١) نفسه.

(١٢) نفسه.

(١٣) نفسه.

(١٤) ملحق برسالة من إبرهيم الكنج رئيس مجلس النواب في حكومة اللاذقية إلى رئيس وزراء فرنسا، بتاريخ ١١/ حزيران/ يونيو ١٩٣٦ (وثائق الخارجية الفرنسية - المشرق ١٩١٨ - ١٩٣٠ - سوريا ولبنان - الوثيقة ٤٩٢ - الملف ١٩٥).

(١٥) الكابتن ي. ي ايفانز - بريتشارد: **ملاحظة حول النصيريين في سوريا** (بيروت ١٩٤٢) - غير مطبوع. كانت قوائم القبائل في هذه الوثيقة صحيحة باعتبارها قد أعدت للنقيب ايفانز بريتشارد من قبل الشاعر والسياسي العلوي المعروف بدوي الجبل ابن الشيخ سليمان الأحمد.

الفصل الثاني

الإرث الفرنسي

نشأ حافظ الأسد في واحد من أغرب التجمعات السياسية في العصر الحديث: دولة علوية سكانها ثلاثمائة ألف شخص اقتطعتها ورسمت حدودها فرنسا في زاوية متخلفة من ممتلكات الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. وقدر لهذه الخلفية غير العادية أن تؤثر عليه تأثيراً دائماً. فالمفارقة المركزية في حياته هي أن الرجل الذي أصبح يجسد القومية العربية المقاتلة قد بدأ حياته في موضع خلفي منعزل، انفصالي، خاضع للغرب، وطائفي على وجه التحديد، ينأى بنفسه عن الوطن العربي عموماً، وعن بقية القطر السوري بصورة خاصة. فالانفصال والوحدة، والأقلية والأغلبية، والنزعة الهامشية والتيار الرئيسي، والجزء والكل ـ هذه كلها متناقضات لا تزال ترقد تحت سطح السياسة والمجتمع في العالم العربي. فهل هذا العالم لا يعدو كونه فسيفساء من المجتمعات القديمة المتنافرة؟ أم هو وحدة تعيش في جوهرها حياة واحدة، ولغة واحدة وتطلعات واحدة؟ إن معظم العرب يعتقدون بأن هذه الصفة الأخيرة صحيحة، ويلقون بمسؤولية تجزئتهم على تدخل الأجانب الخبثاء، وهذا الشعور حادّ في سوريا بشكل خاص.

إن كل تلميذ سوري ينشأ على كراهية اتفاقية سايكس ـ بيكو المعقودة عام ١٩١٦ ووعد بلفور الصادر عام ١٩١٧ ـ فهما الأداتان اللتان يرى العرب أنهما

مزقتا سوريا الطبيعية. ورغم أن سوريا الطبيعية لم تكن موحدة أبداً تقريباً، فإن هذه البقعة ـ التي تحدها جبال طوروس في الشمال، والأبيض المتوسط في الغرب، ونهر الفرات في الشرق، وصحراء الجزيرة العربية في الجنوب ـ كانت في أذهان سكانها كياناً متجانس الحضارة، مشدوداً بروابط اقتصادية، ومعروفاً طيلة قرون باسم بلاد الشام، وكانت لمدنها الرئيسية شخصيتها المحافظة على خصوصيتها المتميزة وعائلاتها البارزة أو المتزعمة، ولكن كان هناك كذلك شعور بأن القدس ويافا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس ودمشق وحمص وحماه واللاذقية وحلب والاسكندرونة كلها أسرة واحدة، وكانت دمشق أهمها باعتراف الجميع.

وخلال عشر سنوات في ثلاثينات القرن التاسع عشر كانت مصر تحكم سوريا الطبيعية من دمشق كوحدة واحدة للمرة الأولى منذ عهد الخلفاء الأمويين قبل ذلك بألف ومائتي عام. وعندما انتهى الاحتلال المصري عادت بلاد الشام إلى الحكم العثماني وأعيد تقسيمها إلى ولايات... غير أن هذه التقسيمات لم تكن أكثر من حدود لسلطات محلية لا تضع أية عراقيل في وجه التجارة أو الاستقرار أو الروابط العائلية (فالتقسيم الحقيقي آنذاك كان بين «سوريا الطبيعية» هذه وبين الحدود العربية المواجهة لفارس ـ أي ما يسمى اليوم بالعراق).

وعندما أنهت الحرب العالمية الأولى الامبراطورية العثمانية التي زاد عمرها على أربعمائة عام، فإن ولاياتها العربية بقيت تحت رحمة بريطانيا وفرنسا وهما من القوى الكبرى المنتصرة التي كانت قد رتبت فيما بينها سراً أمر اقتسام سوريا الطبيعية، فأخذت فرنسا القسم الشمالي الذي سيعرف باسم الجمهوريتين السورية واللبنانية بينما استولت بريطانيا في الجنوب على ما أصبح فلسطين وشرق الأردن. ولقد أوضح سكان المنطقة كلها أنهم يريدون أن تكون سوريا الطبيعية مستقلة وغير مجزأة. وفي تموز/ يوليو ١٩١٩ قامت هيئة منتخبة أطلقت على نفسها اسم المؤتمر الوطني السوري فاستنكرت اتفاقية سايكس ـ

بيكو ووعد بلفور وطالبت باستقلال ووحدة سوريا ـ فلسطين وقد تأكدت لجنة كنغ ـ كرين من التأييد الشعبي الساحق لهذا المطلب. وكانت هذه لجنة أميركية لتقصي الحقائق زارت عشرات المدن والقرى وتلقت ما يقرب من ألفي عريضة. ولكن ذلك ذهب أدراج الرياح لأن القوى **الأوروبية** حصلت في عام ١٩٢٠ على انتداب على الدول الجديدة التي اقتطعتها من الولايات العثمانية السابقة. ورغم أن الانتداب قد فُهِمَ على أنه شكل من أشكال الوصاية على الأمم الحديثة، فإن فرنسا قد حطمت الحكومة العربية التي أسسها الأمير فيصل في دمشق ثم أقامت على أنقاضها نظاماً استعمارياً. ثم أعادت تشكيل المنطقة بما يلائمها ويلائم أصدقاءها المحليين[١].

عمدت فرنسا أولاً إلى فصل وتقطيع أوصال كبيرة من سوريا في آب/ اغسطس ١٩٢٠ ـ موانىء صور وصيدا وبيروت وطرابلس ووادي البقاع والمنطقة الشيعية في شمال فلسطين ـ وألحقتها بجبل لبنان ـ إقطاعية المسيحيين الموارنة الذين في حمايتها، وذلك لتخلق ما يسمى بدولة لبنان الكبير. وهكذا فقدت دمشق بجرة قلم كل منافذها على البحر ورأت آفاقها تتقلص بعنف. ووقع تقطيع أوصال آخر في تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٢١ عندما تخلت فرنسا لتركيا عن أجزاء كبيرة من ولاية حلب السابقة، فجاءت بالأتراك إلى مسافة لا تزيد على خمسين كيلو متراً من المدينة. واقتطع المزيد من أراضي وممتلكات حلب عندما أعطت فرنسا خليج الاسكندرون ـ أنطاكية في شمال سوريا صفة «الوضع الخاص» حيث كانت تعيش أقلية تركية كبيرة (وبعد أقل من عشرين عاماً سلمت المنطقة بكاملها لتركيا). ثم تابعت فرنسا تقطيع أوصال ما تبقى من البلد الذي عُهِدَ إليها به وجعلته أربعة أجزاء. ففي أيلول/ سبتمبر ١٩٢٠ جعلت دمشق وحلب عاصمتين لدويلتين منفصلتين. وفي آذار/ مارس ١٩٢٢ فصلت جبل العلويين وجبل الدروز عن دمشق وأعلنتهما «مستقلين»، وبالإضافة إلى ذلك فقد وضعت الجزء الشمالي الشرقي من سوريا (الذي كان في معظمه بدوياً)

تحت الحكم الفرنسي المباشر حيث راحت تشجع النزعة الانفصالية هناك بتوطين المسيحيين والأكراد في تلك المنطقة.

صحيح أن هذه الحدود الداخلية المصطنعة قد كُنِسَتْ في آخر الأمر ولكن سوريا لم تسترجع مناطقها المفقودة. وعندما انسحب الفرنسيون نهائياً سنة ١٩٤٦ كان البلد قد تقلص إلى ١٩٠, ١٨٥ كيلو متراً مربعاً من أصل ٠٠٠, ٣٠٠ كيلو متر مربع كانت هي مساحة الولايات السورية أيام الامبرطورية العثمانية. ولم يتعافَ السوريون بسهولة من صدمة هذه الجراحة الاستقطاعية، إذ ظل شعورهم بأن بلدهم قُلِّص عما يجب أن يكون عليه مصدراً لخيبة الأمل والإحباط لديهم.

النفوذ الفرنسي

عندما وصلت فرنسا كقوة منتدبة، فإنها رأت نفسها حامية للأقليات ولا سيما الموارنة الذين تذرعت بهم وبدأت تشرف نيابة عنهم على حكم ذاتي في الجبل بعد مذابح ١٨٦٠، ومن ثم خلقت «لبنان الكبير» في العشرينات من هذا القرن. كان الفرنسيون يعتقدون أن الفوائد التي حصل عليها الموارنة عبر السنيين يمكن أن تمتد إلى العلويين على بعد خطوة فقط على ساحل الأبيض المتوسط، فقد بدا أن العلويين يصرخون في طلب لمسة يد الحامي. وهكذا بدأت تتشكل نوعية من الخريطة السياسية للتفكير الفرنسي الرسمي تعتبر أن الأراضي المنبسطة في سوريا هي في غالبيتها سنّية ومعادية لفرنسا، ولكن إلى جانبها معاقل جبلية تؤوي الأقليات، ليس العلويين فحسب، بل والاسماعيليين في الجبل نفسه، ثم الدروز في تلالهم البازلتية إلى الجنوب.

كانت حامية فرنسية متقدمة قد دخلت اللاذقية، الميناء المطل على الأبيض المتوسط على سفح جبل العلويين، في ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨، أي بعد أقل من شهر من رحيل العثمانيين المندحرين. أما المناطق الداخلية فلم يتم احتلالها إلا بعد ذلك بسنتين كاملتين. وفي هذا مؤشر واضح على اهتمام فرنسا بالأقليات. وفي منطقة العلويين بدأ الفرنسيون يحاولون أن

يحققوا ما لم يستطع العثمانيون تدبيره من قبلهم، أي تهدئة الجبل، فواجهوا مقاومة فورية سرعان ما انتشرت إلى القرى المتفرقة في المرتفعات، ووجدت لها قائداً في أحد زعماء العلويين: الشيخ صالح العلي. وهناك صورة قديمة لهذا الوطني المبكر تظهره متوشحاً سيفاً معقوفاً ومرتدياً درعاً من المعدن المطروق محزوماً فوق عباءته. وقد مكنته طبيعة الأرض الملائمة لحرب العصابات من أن يتحدى فرنسا أكثر من عامين. وكان من بين أنصاره والد حافظ الأسد، علي سليمان، الذي تتذكره الأساطير الشعبية المحلية ممتطياً صهوة جواده للغارة على موقع فرنسي.

وأخيراً عيل صبر الفرنسيين، فواجهوا ضد معقل العلويين في الجبل ثلاثة طوابير بآليّاتها في أيار ١٩٢١، وراحوا ينزعون سلاح القرى واحدة بعد أخرى، وما ان حل شهر تشرين الأول حتى كانت تلك الثورة قد انتهت، فاستسلم الشيخ صالح وسجن في إحدى القلاع الصليبية على جزيرة أرواد الصغيرة مقابل الساحل السوري قرب طرطوس، حيث لا تزال هناك ثكنة تحمل اسمه وبعد أن فرض الفرنسيون النظام على ذلك المكان، فإنهم لم يستطيعوا أن يحزموا أمرهم ليقرروا تماماً ما سيؤول إليه مصير المنطقة سياسياً، وانعكس هذا التذبذب القلق في كثرة تغيير الأسماء. ففي سنة ١٩٢٠ أطلقوا على المنطقة اسم «إقليم الحكم الذاتي للعلويين» وفي سنة ١٩٢٢ غيروا هذا الاسم إلى «دولة العلويين» ووحدوها مع الدويلات السورية الأخرى التي خلقوها ليفكّوا هذا التوحيد ثانيةً في سنة ١٩٢٤، ثم أعيدت تسميتها في أيار/ مايو ١٩٣٠ لتصبح «حكومة اللاذقية». وفي ١٩٣٦ أعادوا إلحاقها ببقية سوريا، ولكن ليعيدوا لها حكمها الذاتي إلى حد كبير سنة ١٩٣٩. وفي سنة ١٩٤٢ وضعت مرة أخرى تحت حكم السلطة في دمشق، في ترتيب أخير في التشابك المفتت قبل أن تفوز سوريا باستقلالها التام عن فرنسا سنة ١٩٤٦. وهكذا تأرجح الوضع كرقاص الساعة جيئة وذهاباً من الانفصال إلى الوحدة ومن الجزء إلى الكل.

ووضع الفرنسيون حداً لأعمال الشغب العلوية، ثم أدخلوا بدايات هيكلية للإدارة العامة، وأصدروا بطاقات هوية، وجمعوا سكان الجبل المبعثرين الذين لم يثقوا بهم في تعداد إحصائي، بل إنهم اعطوهم طابع بريد، وعلماً هو عبارة عن شمس صفراء على أرضية بيضاء، وهذا رمز لا بد أنه قد حيّر السكان المحليين.

وفي أيام الحكم العثماني كان المسلمون السنيون هم المتمتعين بالامتيازات، فاغتنوا على حساب العمل العلوي. في تلك الأيام كان العلوي الذي يجرؤ على النزول من الجبل إلى السهل ليبحث عن عمل أو ليبيع سلة من الخضروات ليشتري ضرورات الحياة يتوقع أن يسحقه التاجر أو مالك الأرض السني أو المسيحي الذي كان مضطراً للتعامل معه. ولكن ما ان تمت تهدئة الأقليم في أوائل العشرينات حتى راح الفرنسيون يعطون للعلويين امتيازات أثارت حفيظة السنيين والمسيحيين جميعاً، ولا سيما الأخيرين الذين كانوا يتوقعون معاملة أفضل من الفرنسيين. ولعل هؤلاء كانوا يرمون عن طريق مدارسهم التبشيرية إلى أن ينصّروا العلويين أو يجعلوا منهم مؤيدين لهم. ومهما يكن من أمر فإن العلويين بشكل عام انتهزوا الفرصة من أجل تحسين أحوالهم.

وكانت سيطرة مدينة اللاذقية على جبال العلويين تتم عن طريق التبغ، محصول التصدير الوحيد الذي وجد سوقاً رائجة في أوربا حيث كانت له أفضلية خاصة للاستعمال في الغلايين عندما أدت الحرب الأهلية الأميركية (في ستينات القرن التاسع عشر) إلى انقطاع ورقة التبغ الفرجيني عن الأسواق. وفي السنوات الأخيرة من الحكم العثماني استولت فرنسا على تجارة التبغ السوري وأسست احتكارها الخاص المسمى بـ «الريجي» وجعلت مقره في اللاذقية في منزل مبني فوق خان للمسافرين يعود إلى القرن الرابع عشر. وعندما انهارت الامبرطورية العثمانية «وورثت» فرنسا سوريا، حصل الحاكم الفرنسي على مقر الريجي الأنيق ليسكنه[٢]. وعلى مدى عِدة أجيال بقي (الريجي) بالنسبة إلى زرّاعه

مصرفهم وزبونهم الوحيد، أي أنه كان السيد الحقيقي للجبل مهما كانت نوعية النظام السياسي القائم في حينه.

وكانت إحدى أدوات الإغراء الفرنسية الكبرى تجنيد شباب العلويين في قوات المشرق الخاصة، وهي قوة محلية أنشئت في عام ١٩٢١، تحت إمرة ضباط فرنسيين ليخدم فيها العلويون مع الشركس والأرمن وغيرهم من الاقليات. وكان عدد المجندين يصل إلى سبعة آلاف سنة ١٩٢٤، وإلى ضعف ذلك العدد في منتصف الثلاثينات. وقد انضم العلويون، مثلهم في ذلك مثل الشراكسة والدروز، إلى القوات الخاصة هذه لأنه لم يكن هناك أي مجال أو فرصة لعمل آخر على الأغلب ولأن الفرنسيين قد بحثوا عنهم واستدعوهم عمداً كي يستعملوهم كفرقة مطافىء لقمع الاضطرابات في أي مكان من البلاد وشعر هؤلاء الشباب العلويون لأول مرة في حياتهم بأنهم يتمتعون بدخل صغير ولكنه ثابت، كما أنهم أصبحوا منظمين، ومدربين، ومعرضين لأفكار جديدة. وأدت الخدمة العسكرية مع الفرنسيين إلى تأسيس بدايات تقليد عسكري علوي أصبح مركزياً في صعود الطائفة اللاحق فيما بعد. ومن نافل القول أن الفرنسيين بذلوا كل جهد لإبقاء هذه القوات بمعزل عن التخمرات الوطنية المتفاعلة في المدن السورية.

وعندما أشعلت الثورة الدرزية الجنوب كله بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٧ وتجاوزته حتى وصلت إلى بساتين الغوطة المحيطة بدمشق حيث دارت أعنف المعارك الدامية، فإن العلويين لم يحركوا ساكناً، وأصبحوا أكثر نزوعاً للعزلة والانفصال عندما كانت فرنسا تواجه مداً متصاعداً من المعارضة على يد الكتلة الوطنية التي قادها وجهاء المدن عند تشكيلها سنة ١٩٣٠.

بين الفرنسيين والوطنيين

كانت المسألة الكبرى أمام العلويين خلال الانتداب هي أين يضعون أنفسهم بين القوة الفرنسية والقوى الوطنية السورية. ومثل العثمانيين في

السابق، كان الفرنسيون يبحثون عن وسطاء ليحكموا السكان المحليين من خلالهم. وفي حين كانت السلطة النهائية في يد الحاكم الفرنسي وموظفيه وضباطه المختصين بالشؤون المحلية فإنها على الصعيد المحلي كانت في يد بعض العلويين المستعدين لأن يلعبوا اللعبة الفرنسية. فمعظم العلويين لم يكونوا متعاونين مع فرنسا، ولا وحدويين سوريين، بل كانوا فقط يريدون أن يديروا شؤونهم الخاصة كما كانوا يفعلون طيلة قرون، ومن بين الشخصيات السياسية التي برزت في صبا حافظ الأسد بعض الذين استخدموا الأرصدة التي لديهم كالقوة الجسدية، والتضامن الديني، ووعورة الجبل الحصين الصعب المرتقي، كي يكسبوا أية حرية يستطيعون. وكان هناك آخرون يميلون إلى هذه الجهة أو تلك.

وكان أبرز المتعاونين الإخوة كنج[٣] وهم الفلاحون الدهاة الذين أيدوا الفرنسيين من لحظة وصولهم سنة ١٩١٨، فكوفئوا بالثروة والنفوذ. فإبراهيم كنج، رئيس العائلة عين في سنة ١٩٣١ رئيساً «لمجلس تمثيل اللاذقية» وهو هيئة منتخبة لتقديم المشورة للحاكم. وحصل أيضاً على جوقة الشرف «ليجيون دونور»، وعلى أراض واسعة، وارتقى ليصبح صاحب أكبر نفوذ في زعامة عشيرة الحدادين. وكان عليه في هذا الدور الجديد أن يكون كريماً ومضيافاً، وهذه فضائل باهظة التكاليف كان يمولها من تهريب التبغ والحشيش المزروع في حقوله، بل وحتى المتاجرة بالسلاح والذخيرة. أما أخوه علي فكان المدير الذي لا يرحم للشؤون الداخلية في الاقليم.

وكان هناك عمود ثالث للإدارة الفرنسية يتمثل في آل عباس زعماء عشيرة الخياطين الدينية، وهي نوعية مختلفة جداً عن الأخوة كنج حديثي النعمة. كان الشيخ جابر العباس متعلماً ومعتدلاً فساعد الفرنسيين في حملة «التهدئة» في مطلع العشرينات، وعُين رئيساً لمجلس اللاذقية. ولكن في ١٩٣٣ انشق عن الفرنسيين لينادي بالاتحاد مع الجمهورية السورية. وبينما كانت عوائل

كالحدادين والخياطين وعشائرها تتعاون، فإن زعيم قبيلة المطاورة لم يتعاون. فقد وقف عزيز الهوَّاش، الذي كان أبوه وجده من الزعماء الأقوياء أيام الأتراك، إلى جانب الوطنيين السوريين، وكان أول علوي هام يفعل ذلك.

وضمن تجمع أسر الكلبية، التي كانت تنتسب إليها عائلة الأسد كان يوجد وطنيون ومتعاونون. وكان اثنان من الشخصيات الرئيسية في العشيرة، وهما محمد بيك الجنيد وصقر خير بك قد قضيا سنوات الانتداب متأرجحين بين نزعة الانفصال العلوي وبين الوحدة السورية، ولعلهما لم يكونا يتحركان عن اقتناع، بل بدافع المصلحة الخاصة، والغيرة من عائلتي كنج وعباس. وكان النجم الحقيقي للكلبية وأحد شخصياتها الدينية الرئيسية هو المثقف الشيخ سليمان الأحمد عضو المجمع العلمي العربي الذي تأسس بدمشق ١٩١٩ خلال عهد الملك فيصل القصير. وحياة ابنه أحمد، الذي ذاع صيته كشاعر في جميع انحاء الوطن العربي تحت اسمه المستعار «بدوي الجبل» توضح المد والجزر في الولاء العلوي تحت الانتداب. كان في أول الأمر وطنياً، ثم سكرتيراً للمتعاون إبرهيم كنج حتى عام ١٩٣٦، ثم عاد وطنياً عنيفاً ضد الفرنسيين وعضواً في البرلمان بدمشق قبل تعيينه أستاذاً للعربية في دار المعلمين العالية ببغداد حيث يقال إنه أيد ثورة رشيد علي الكيلاني ضد بريطانيا ١٩٤١.

أما جدّ الأسد، سليمان، فلم يتفق مع الانتداب قط ولم يذعن للمتعاونين الذين كانوا مدنيين ببروزهم للفرنسيين. لكن بعد عقد كان قوميا لدرجة تجعله ان يكون واحدا من هؤلاء الذين سافروا الى دمشق ـ جنبا الى جنب مع حفنة من القادة المحليين الاخرين من كل انحاء سوريا ـ للترحيب بالوطنيين السوريين العائدين من فرنسا.

وفي العام ١٩٣٦، ارسلت دمشق وفدا الى باريس يحاول التفاوض على معاهدة فرنسا تكون خطوة على الطريق نحو الاستقلال. وكان من بين المواضيع الهامة بين فرنسا والوطنيين مصير الدويلتين اللتين خلقتهما فرنسا، الدويلة

العلوية والدويلة الدرزية. كان الوطنيون يريدون توحيدهما مع سوريا، بينما كان الفرنسيون يركزون على وضعهما الخاص ويريدون إبقاء حاميات فرنسية فيهما. وعندما شكلت الكتلة الوطنية في دمشق عقب التوقيع على اتفاقية تأخرت طويلاً مع حكومة الجبهة الشعبية التي كان يترأسها ليون بلوم سنة **١٩٣٦** حاولت تلك الحكومة أن تكبح مدّ النزعة الانفصالية الذي امتد خمسة عشر عاماً فكوفىء عزيز الهواش (الذي كان أبرز علوي وقف في صف الوطنيين السوريين) بتعيينه محافظاً لدمشق. ولكن المندوب السامي الفرنسي ضرب عرض الحائط بالمعاهدة التي لم يتم التصديق عليها وقام في سنة **١٩٣٩** بتعيين شوكت العباس (المتعاون الذي تلقى تعليمه في فرنسا) حاكماً للدويلة العلوية ذات الحكم الذاتي من نوع ما.

وفي شباب الأسد كان الرجال عندما يتحدثون في السياسة يتداولون اسماء كنج وعباس وهواش. غير أن كل هذه الشخصيات سواء أكانت من المتعاونين أم من الوطنيين كانت تطغىٰ عليها شخصية سليمان المرشد المزخرفة المتوهجة(٤)، رجل الدين والسياسة، الذي كان هو نفسه يمشي على الحبل المشدود بين السلطة الفرنسية ودمشق.

عندما كان سليمان المرشد في السادسة عشرة من عمره، راعياً في قرية بائسة في أعالي الجبال، سقط مريضاً وفقد وعيه. وعندما صحا بعد لأي زعم بأنه قد هبط من السماء، ووسط ذهول الناس المحليين راح يعظ بقرب إنتهاء العالم ومجيء المهدي، وهي رسالة مقبولة لدى العلويين استناداً إلى معتقدات مسبقة، ولذلك كان نجاحه فورياً. وفي غضون بضعة أشهر أصبح الحماس الديني سياسياً، فحمل الفلاحون سلاحهم، ورفضت قريتان دفع الضرائب، وأصبحت مزارات الأولياء بقبابها البيضاء التي هي من المعالم المميزة لمناظر جبال العلويين أماكن لعقد الاجتماعات السرية، وخاف الفرنسيون الفتنة، فأخذ ضابط مخابرات فرنسي هذا الفتى إلى اللاذقية حيث حوكم وحكم عليه بالسجن

بضعة شهور. كان ذلك في سنة ١٩٢٣، وعندما أطلق سراحه في الربيع التالي عاد إلى الجبل حيث استقبل كالفاتحين و تحلق حوله أتباعه. ثم بدأ المرشد بقوم بـ «معجزات» تركت تأثيراً قوياً على الناس السذج البسطاء الذين لم يكن معظمهم قد تجرأ على الذهاب إلى ما هو أبعد من قريته. فمثلاً كان يدهن رجليه بطلاء من الفسفوركي تتوهّجا في الليل وهو يصعد الجبل، ويخبىء في جدار من الطين جرة عسل أو سمن، ثم يَعِدُ القرويين بشيء طيب ويرفس الجدار ليتدفق منه الطعام وسط ذهول الناس جميعاً.

وانتشرت دعوته بسرعة على طول الساحل ووصلت إلى المزارعين العلويين المشاركين في الحصاد العاملين في سهل حمص ـ حماه، على الجانب الآخر من الجبل. وقدم له أحد المشايخ البارزين ابنته كزوجة. وفي نيسان/ ابريل ١٩٢٤ في قرية جنوب حمص اسمها عليات أخذ أتباعه يذبحون كل من يرفض الإيمان به. وأرسل الفرنسيون قوات ضدهم، ولكن أتباع مرشد المتعصبين اعتقدوا بأن العصي التي تسلحوا بها ستنقلب في لحظة القتال إلى بنادق، وأرسل المرشد إلى المنفى في القرية النائية: الرقة على نهر الفرات ولكن ذلك أعطى حافزاً آخر لدفع مذهبه إلى الانتشار، بحيث أصبح أتباعه لدى عودته بعد شهور قليلة يُعدّون بالألوف.

وعندئذ رأى الفرنسيون أن هذا الواعظ الشاب أخذ يتطور إلى سياسي يمكنهم أن يستخدموه، وأن كونه علوياً محضاً يجعله حليفاً محتملاً ضد الوطنيين السوريين. وهكذا بدأ الفرنسيون بتضخيمه والرفع من شأنه. فتأجلت «نهاية العالم» وأصبحت «المعجزات» أقل وأندر، وبدلاً من ذلك حصل المرشد على حريم من ثلاث عشرة زوجة في تحالفات أدت بهذه المصاهرات إلى توسيع سلطته، فأقام محاكمه الخاصة، وراح يجبي الضرائب عن التبوغ المزروعة في منطقته، وأخذ يتلقى بسرور هدايا من النقود، والمواشي والبهائم والأراضي من أتباعه، وأصبح سميناً بديناً، وبنى لنفسه «فيللا» على الطراز

الغربي في قريته «جوبة برغال» وفتح طريقاً تؤدي إليها. وفي سنة ١٩٣٧ ورغم أنه كان لا زال أمّيّاً انتخب لعضوية البرلمان بدمشق. وفي ١٩٣٩ كان لديه خمسون ألفاً من الأتباع وترسانة من السلاح زوده بها الفرنسيون.

ولكن في أعقاب رحيل آخر جندي فرنسي من سوريا عند الجلاء في نيسان/ ابريل ١٩٤٦، بدأت دمشق باخضاع تلك الأجزاء التي سادت فيها النزعة الاقليمية المحلية والتي شجعها الفرنسيون على الميل للانفصال، مثل جبل الدروز، وبدو العشائر في الصحراء، وبالطبع جبل العلويين. فأرسلت قوات ضد مقر قيادة المرشد حيث كانت إحدى زوجاته (أم فاتح) التي تشير كل الروايات إلى قوة شخصيتها، تقود جيشه الخاص. فرفضت الاستسلام، ويقال إن المرشد نفسه أطلق النار عليها. واعتقل سليمان المرشد وأخذ إلى دمشق حيث تم شنقه في ساحة المرجة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٦. (وفي عام ١٩٥٢ وخلال عهد العقيد أديب الشيشكلي قُتل أحد أبناء المرشد، واسمه مجيب بعد أن زُعم أنه كان يحاول أحياء مطامح أبيه الانفصالية)[٥].

هكذا كان نجوم الطائفة العلوية عندما كان الأسد في طور النمو، ورغم النهاية السيئة للمرشد فإن تشجيع فرنسا للنزعة الانفصالية قد أعطى العلويين ثقة جديدة بأنفسهم. فقد ظلوا أجيالاً طويلة خارج نطاق الحكومة، ومعتَبَرين خارجين على القانون في بلادهم نفسها.

فجاء بهم الفرنسيون إلى اللاذقية وقالوا لهم إنها «عاصمتهم»، وان تلك هي «دولتهم»، فكانت تلك فكرة ثوروية لأناس كانوا منعزلين في قراهم الجبلية ولم يكد أحد منهم يجرؤ على العيش ضمن المدن الساحلية. أما الآن (بعد الاستقلال) فقد تسارعت حركتهم على طول الساحل وقد تشبعوا بمفهوم عن الفرص لم يكن لديهم من قبل على الاطلاق في غمرة الفوضى والفقر اللذين سيطرا على حياتهم.

وللمرة الأولى في تاريخهم كله تقريباً حصلت حفنة منهم على شيء من

الخبرة والتجربة في القضايا العامة، سواء بالعمل مع الفرنسيين أم مع الوطنيين، واستغل أطفالهم هذه الفرصة للحصول على الثقافة والتعليم. فدرس اثنان من آل عباس في فرنسا، واثنان آخران في الجامعة الأميركية ببيروت. وكان كنج الكنج (ابن ابراهيم) هو الآخر طالباً في الجامعة الأميركية ببيروت، وكذلك ثلاثة من أبناء العاثر الحظ سليمان المرشد، وأعيد توزيع السلطة والنفوذ في الجبل، ولكن الوضع كان كما في الماضي من حيث أن معظم الثروة التي استطاع الزعماء الجدد أن يضعوا أيديهم عليها كانت تأتي من التبغ بشكل أساسي، ومن المتاجرة به، ومن فرض الضرائب الخاصة عليه، وتهريبه أو من تقديم الحماية لمهربيه لقاء حصة من الغنيمة.

فالفرنسيون لم يأتوا بتحسين مادي كبير للجبل. لقد أوصلوا بعض الطرق الترابية إلى السفوح، وكان يقوم بالعمل مجموعات من الرجال والنساء يجمعون بالقوة لهذه السخرة المجانية تحت طائلة عقوبة الضرب ودفع الغرامات إن رفضوا العمل. فطريق اللاذقية ـ حلب بُني أول الأمر بعمل المجندين الإجباريين، وهكذا فإن القرى القاصية في أعالي الجبال والتي لا يوصل إليها إلا على ظهور البغال والحمير أصبحت ترى السيارات لأول مرة، ولكن الوجيه المحلي كان هو المتعهد الذي يجمع الشباب من ثلاث أو أربع قرى لرصف الطريق، وهكذا تم اقتحام المعاقل المنيعة في الجبال ولم يعد بالإمكان إعادة عجلة التغيير إلى الوراء.

ورغم هذا التقدم فإن معظم العلويين في الجبال ظلوا يعانون من الفقر المدقع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وكتب ضابط بريطاني خدم في سوريا عن قرية علوية: «إن السكان البائسين كانوا في حالة يرثى لها من التعاسة والشقاء والكآبة الموحشة، وباعتبارهم في بلد صغير ظل تحت انتداب أوربي طيلة اثنين وعشرين عاماً فإن الأوضاع في كل مكان سيئة بشكل لا يصدّق[٦]. وأدى الفقر إلى أعمال وممارسات قدر لها أن تجلب على العلويين العار ولكن مع شيء من

الفائدة غير المباشرة. فبناتهم كُنَّ يؤجرن كخادمات في البيوت من سن السادسة أو السابعة لمدة عشر سنوات، وأحياناً طول حياتهن ولعل هذه التجارة قد بدأت عام ١٩٢١ عندما فرض الفرنسيون غرامات جماعية على القرى الثائرة. ولكي يدفعوها قام الفلاحون ببيع خرافهم وأراضيهم أو بناتهم. ولم يبق في اللاذقية كلها عائلة ثرية بدون خادمة علوية صغيرة، بينما تم إرسال كثير من الأطفال العاثري الحظ إلى «الخارج»، أي إلى حلب، وطرابلس، ودمشق، وبيروت. ولم يكن العلويون وحدهم هم الذين يقدمون أطفالهم لِيُسْتَغَلّوا في العمل ولكنهم هم الذين يُذْكَرُون بهذه الممارسات بشكل رئيسي. وحتى عام ١٩٥٠ كان هناك حوالي عشرة آلاف بنت علوية يعملن كخادمات في منازل بدمشق. غير أن ما لا يعترف به أحدٌ إلا نادراً هو أن الخدمة في البيوت كانت نوعاً من التعليم، إذ أنها فتحت آفاقاً أوسع فقد اتضح أن بنات الجبل أخذن يتأقلمن بسرعة مع حياة المدينة فتعلمن التكلم بالفرنسية في البيوت التي كان أصحابها يتحدثون بها . . . وظلت سرعة التكيف خاصية علوية.

وقد لا يكون الدور الفرنسي قد أدى إلى تحسين جذري في حظ العلويين، غير أنه قد جعلهم يشعرون بالفرق، وربما كان هذا على المدى الطويل إرثاً أثمن من الثروة. ومع ذلك فعندما جلا الفرنسيون كان هناك ثمن يجب دفعه فالعلويون كانوا دوماً مهملين بسبب فقرهم وبسبب عقائدهم.

أما بعد الجلاء فقد أدينوا بأنهم كانوا غير موالين للأفكار السياسية المتعلقة بالوحدة السورية والقومية العربية. ذلك أن خدمتهم في **القوات الخاصة**، وحقيقة كونهم مدينين للحماية الفرنسية لأول خطوة تصاعدية تقدموا بها في هذا العالم، ونزعاتهم الانفصالية كلها ولّدت لدى السوريين الآخرين ارتياباً بهم وَسَّع أكثر فأكثر من الهوة بين العلويين والسنيين. ولعدة سنوات بعد الحرب العالمية الثانية رأى العلويون أن يظلوا هادئين مطأطئي الرؤوس. ولم يحدث إلاّ في الخمسينات أن بدأ جيل علوي جديد ـ هو جيل حافظ الأسد ـ يشق طريقه

بذراعه إلى المجرى الأساسي للحياة العامة في سوريا.

ومن جهتهم، كان العلويون يشعرون شعوراً حاداً بالظلم منذ عدة قرون، ولعل هذا يشرح السبب الذي جعل هذه الطائفة المقهورة تنقض إنقضاضاً عنيفاً بقوة جامحة ومحمومة على اقتناص فرص الحصول على التعلّم والثروة والسلطة، بمجرد أن دار دولاب الحظ. ومع وجود هذا التاريخ من الكبت والقمع والاستغلال كان من المتوقع أن يبحث العلويون عن تعديل لمظالم الماضي وأن يكونوا مصممين على أن لا يذعنوا للخضوع ثانيةً.

ولا شك أن الأسد الشاب كان يشارك أبناء طائفته عواطفهم من السخط على الماضي، ومعاناة الحرج من الدور الفرنسي الغامض الذي لا يمكن الاعتراف به. ولكنه منذ أيام شبابه الأولى تمرد على هذه الخلفية، ورمى بعيداً بالأحقاد الطائفية وانضم إلى أكثر الأحزاب إتجاهاً نحو العروبة، حزب البعث، وأصبح في خاتمة المطاف حاكماً لسوريا تحت لوائه. وكان عليه أن يعمل بجدّ لإقناع المتشككين بأنه قد خلّف عُقَدَ الأقلية وراء ظهره، وبأنه ملتزم جسداً وروحاً، قلباً وقالباً بالتيار القومي الرئيسي العام وبأنه صالح ومناسب لقيادتهم فعلاً.

هوامش الفصل الثاني

(١) ر. مونتان: «الأزمة السياسية للعروبة» في كتاب: **فرنسا المتوسطية والأفريقية** (باريس ١٩٣٨) وستيفن هـ. لونغريغ: **سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي** (لندن ١٩٥٨) وآندريه ريموند: «سوريا من المملكة العربية إلى الاستقلال» في كتاب **سوريا اليوم** من تحرير آندريه ريموند (باريس ١٩٨٠).

(٢) مقابلة مع المؤرخ غابرييل سعادة (اللاذقية نيسان/ ابريل ١٩٨٥) الذي يرجع إليه فضل تحويل المبنى إلى متحف.

(٣) ايفانز بريتشارد ـ مصدر سبق ذكره.

(٤) ويلرس (مصدر سبق ذكره) ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦. فيليب س. خوري: **سوريا والانتداب الفرنسي: الجوانب السياسية للقومية العربية ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥** (لندن ١٩٨٧) ص ٥٢٣ ـ ٥٢٥.

(٥) ميشيل سورا (السكان والدولة والمجتمع) في كتاب آندريه ريمون السابق ذكره ص ٩٢. كما أن اغتيال ضابط علوي بارز في تلك السنة، هو العقيد محمد ناصر، على يد من قيل انهم من حاشية الشيشكلي، قد يكون أدّى إلى تحريك اليقظة السياسية العلوية. ومهما يكن من نتائج طائفية لاغتياله فإن أسباب هذا الاغتيال كانت على الأرجح سياسية. فناصر كان من أتباع حزب شكري القوتلي المنافس السياسي للشيشكلي. ومن الجدير بالذكر أن ابنة محمد ناصر، صبا، أصبحت في عام ١٩٨٨ أول امرأة سورية تُعين سفيرة في السلك الخارجي السوري.

(٦) ريشتراد بيرس: **ثلاث سنوات في المشرق** (لندن ١٩٤٩) ص ١٤٩ ـ ١٥٠ نص تقتبسه ثابتة بطران (مرجع سبق ذكره) ص ٧١.

الفصل الثالث

مدرسة الحزب وكليّة الجيش

ذات صباح لم يستطع المدرس ذو الثياب الرثة أن يسيطر على الطلاب، فقد كان هناك شاب وقح راح يتبجح أمام الآخرين وينكّت مع زملائه، رافضاً الجلوس. وكانت ملابسه الأنيقة تدل على أنه ابن عائلة موسرة. وأخيراً عيل صبر المدرس فجمع أوراقه بيدين مرتجفتين ووضعها في حقيبته وخرج وهو يقول: «لن تستطيعوا أن تشتروا كرامتي ببضع ليرات!». وعرف الطلاب أن المدرس قد استغنى عن وظيفته لأنهم كانوا يعلمون أن راتبه كان يدفعه آباء الطلبة الاغنياء من نوعية الطالب الذي كان يعذبه.

وقد حدثت هذه الدراما الصغيرة في بناية طويلة صفراء مكسوة بالجص وقد أصابها شيء من العطب، وكانت تقف خلف صفٍ من أشجار النخيل على بعد بضعة شوارع إلى الداخل من واجهة ميناء اللاذقية. كان ذلك عام ١٩٤٥، وكان من بين طلبة ذلك الصف حافظ الأسد وهو في السنة الأولى من دراسته الثانوية وهو لا يزال بعد مرور أكثر من أربعين عاماً يعتبر ذلك المدرس المضطهد بطلاً.

كان السخط على ظلم الحياة أول عاطفة سياسية تجيش في صدر الأسد. ففي مسقط رأسه في القرداحة لم يكن يشعر بالحرمان، أما في المدينة فقد كانت

هناك أشياء كثيرة تذكّره يومياً بانعدام المساواة. كانت هناك حفنة من الوجهاء المتواطئين مع الفرنسيين، وقد جعلوا من أنفسهم سادة على الفقراء. ومثل هؤلاء المتزعمين كانوا متواجدين في كل مدينة سورية فكان منهم الملاّك والتجار ورجال المال والدين.

وكان كثيرون منهم قادرين على العودة بتاريخ بروزهم إلى النظام العثماني القديم الذي لم يفعل عقدان من الحكم الفرنسي شيئاً لزعزعته. وعندما نشأ أولادهم في أحضان المال والنفوذ فإنهم راحوا يرمون بثقلهم في الساحة متنمرين على من هو أفقر منهم وأضعف.

«كانوا يسيطرون على فناء المدرسة ويضربون الأولاد الذين لا يعجبونهم، وبعد الدوام كانوا يتجهون إلى دكان أبي علي حيث يأكلون ويطعمون أصدقاءهم، ولم يكن بوسع الفقراء إلا أن ينظروا إليهم ويبقوا جياعاً. وكان أبناء الأغنياء يغيرون ثيابهم مرة في الأسبوع أو على الأقل مرة في الشهر. وكأن ذلك من دلالات الثراء آنذاك. أما الفقراء فكانوا يذهبون إلى المدارس بثياب رثة بالية، بل لم يكن باستطاعتهم حتى شراء الكتب. وكان الأولاد أحياناً يبقون بعيدين عن المدارس كلياً بسبب العجز عن دفع الأقساط. وكان من الأمور المثيرة للغيظ أن أولاد الأغنياء لم يكونوا مهتمين حتى بالدراسة، بل كانوا يعطون أنفسهم في آخر العام الدرجات التي يرغبون فيها. وقليلون هم المدرسون الذين كانوا يجرؤون على الوقوف في وجههم[1].»

وكان الأسد وأمثاله من أبناء الجبل يجدّون ويجتهدون كثيراً لأنهم يعرفون مدى صعوبة الحصول على مقعد في مدرسة ثانوية، لذلك لم يكونوا ينوون إضاعة فرصة تحسين أوضاعهم ففي مقاطعة أخرى هي الزبداني، في غرب دمشق، لم يقبل للدراسة الثانوية سوى ثمانية طلاب في سنة ١٩٤١، من بين أربعين ألفاً من السكان[2]. وتبين ملفات الأسد الدراسية فيما بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٦ أنه كان الأول في صفه خلال تلك السنوات. ولم ينس الشعر والأدب،

بل كان يمضي الساعات الطوال محدقاً في أمواج الأبيض المتوسط، وهو يحاول أن يسكب عواطفه في قصائد (كما أسرّ لطالبة مدرسة سورية أعطاها جائزة الشعر لعام ١٩٧٤).

كان الظلم في المدرسة آنئذ يعكس الظلم في العالم الخارجي من حولها. . . فأدرك الأسد مثلاً أن فرص العمل القليلة المتوفرة في اللاذقية كانت كلها من نصيب الوجهاء يتهادونها فيما بينهم. فكلما أرادت إدارة الريجي أن تستخدم عمالاً جدداً كان السادة المحليون يتقاسمون الوظائف: عشرة لهذا، وعشرون لذاك. . . وهكذا كانت الوظائف ملكاً لهم يبيعونها لمن يدفع السعر الأعلى. فقد يدفع رجل مائتي ليرة للحصول على وظيفة ككاتب أو كماسح لأرض مستودع التبغ، ثم يطرد قبل أن يمضي في الوظيفة وقتاً كافياً لاستعادة ما دفع، حيث تباع وظيفته نفسها لشخص آخر. وما كان يحدث في الريجي كان يحدث أيضاً في سلك الدرك، والمرفأ وكل الأماكن الأخرى التي تتوافر فيها فرص العمل القليلة.

كانت اللاذقية يومئذ ميناءً على الأبيض المتوسط خاملاً ليس لديه ما يتباهى به سوى حديقة عامة وبناية أو بنايتين للحكومة على الطراز الفرنسي الكولونيالي. غير أنها بالنسبة لابن الجبل كانت عاصمة الدولة العلوية التي ما تزال في أيدي الغرباء.

وكان الأسد حينئذ فتى طويلاً مفتول العضل في الرابعة عشرة من عمره يتقاسم مع ابن عم له في مثل سنه غرفة في الحي الفقير من المدينة. كان يكبر معظم زملائه في الصف من أبناء المدن بعامين نتيجة لضعف التعليم في مدارس القرى. ولكن كونه مع أولاد أصغر منه كانت له بعض المزايا. فقد بـرز ولفت إليه الأنظار بسبب روح التحدي التي أوقعته في مشاكل ومشاجرات، والتي سرعان ما بدأت تأخذ طابعاً سياسياً[٣].

في أواخر الأربعينات كانت مدرسة الأسد ومثيلاتها من المدارس في

جميع أنحاء سوريا تضجّ بالجدل والخصومات والمعارك السياسية. ولتمييز العدو من الصديق كان كل طالب يسأل الآخر: «ما دينك؟» وكان المعنى في هذا السياق: أين تقف سياسياً؟ وكان الجواب المتوقع لا يعدو واحداً من ثلاثة هي: «قومي سوري» و «شيوعي» أو «بعثي». كانت هذه الحركات العقائدية تتنافس على عقول الشباب، بينما كانت جميعاً معارضة لزعماء المدينة وللمتعصبين من الأخوان المسلمين[٤]. وكانت الأفكار العلمانية التي تنادي بها الأحزاب العقائدية جذابة بشكل خاص لشباب الأقليات الذين لم يكونوا يشعرون بالارتياح لربط القومية العربية بالاسلام.

وكان زعيم القوميين السوريين هو أنطون سعادة، العقائدي القوي الشخصية، المسيحي ذو الأصل اللبناني الذي كان يقول بأن سكان بلاد الشام الطبيعية لهم شخصية قومية محددة كونتها الجغرافيا كما التاريخ بحيث تميزهم عن غيرهم من العرب الآخرين. أما أشد خصومه فكان الزعيم الشيوعي خالد بكداش، الكردي اللسن الذي ظل من مقره في دمشق يدير أمور الحزب في مدها وجزرها منذ عام ١٩٣٠. أما البعث فكان أبطاله حفنة من مدراء المدارس: منهم زكي الأرسوزي، مدير المدرسة المتحمس القادم من أنطاكية؛ ومن دمشق كان هناك ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار اللذان كانت كراساتهما تتداول من يد إلى أخرى وتناقش بحماسة في اللاذقية. كما لمع اسم آخر جدير بالذكر هو أكرم الحوراني، المحرض الحموي الذي شرع في تعبئة الفلاحين الذين لا أرض لهم ضد الملاك الاقطاعيين في سهول سوريا الوسطى.

كان أولئك المفكرون والسياسيون الناشطون جميعاً معادين لفرنسا، وكلهم تميزوا عن أفراد الجيل السابق الذين يكبرونهم سناً باعتراضهم على الضعف الذي واجه به أولئك العجائز تجزئة المنطقة وتقطيعها على أيدي الأجانب، وكانوا جميعاً متحمسين لوضع بصمات أصابعهم على سوريا المستقلة لدى خروجها من الحرب العالمية الثانية.

كان العصر حافلاً بتغييرات واسعة النطاق؛ فالأمبراطورية العثمانية كانت قد انهارت قبل اثني عشر عاماً من مولد الأسد، بينما ظهرت دول المشرق بعد مولده بمثل ذلك العدد من الأعوام أو ما يقاربه، وفي ما بين التاريخيين كان هناك عقدان من الزمن من الحكم الفرنسي الذي نسف أساليب الحياة وأنماطها القديمة، ولكنه لم يستطع أن يزرع أنظمة جديدة مقنعة بديلة لها. وكانت الحركات العقائدية في الأربعينات، التي كونت مراهقة الأسد هي القوابل التي ولد على يديها مجتمع جديد راح يناضل لإيجاد أجوبة عن أسئلة أساسية مثل: إلى أية أمة ننتمي؟ ما حدود وطننا؟ كيف يستطيع العرب احتلال مكانتهم الشرعية في العالم؟ ومحلياً: كيف يمكن الاطاحة بالطبقة القديمة المستبدة؟ ومن التصادم بين الأجوبة المتنافرة حصل الأسد على ثقافة سياسية، ففي فناء المدرسة، والشوارع المجاورة، ترعرع وخاض أولى معاركه وأخذ على نفسه الالتزام بحزب ثوري مدى الحياة وأمضى سبع سنوات في ثانوية اللاذقية، وحصل على البكالوريا في صيف ١٩٥١، وهو في العشرين من عمره، وذكر فيما بعد: «لقد كونت تلك السنوات تفكيري السياسي. فحياتي السياسية بدأت منذئذٍ، ولم تنقطع»[٥].

البعث القومي

في السادسة عشرة من عمره اتخذ الأسد موقفاً وانضم إلى حزب البعث. ولكن أي بعث كان؟ فالحركة لم تكن متجانسة، بل كانت تمزقها انشقاقات داخلية عنيفة. وكان أطولها عمراً من البداية هو النزاع حول من يستطيع أن يزعم أنه الأب المؤسس. كانت القوائم تضم أسماء اثنين من مدراء المدارس هما: زكي الأرسوزي العلوي ابن أنطاكية، وميشيل عفلق الدمشقي المسيحي. ولأسباب تتعلق بجذوره الأصلية، وكذلك بالنزعات الحزبية اللاحقة، وقف الأسد إلى جانب زكي الارسوزي الذي كان يكن له دائماً الإجلال والاحترام، والذي وصفه بأنه «واحد من أعظم السوريين في عصره، وكان أول من اختمر في ذهنه البعث كحركة سياسية»[٦].

كان زكي الأرسوزي مثقفاً سورياً ذا خلفية متواضعة، وقد فاز في أواخر العشرينات بمقعد في الصوربون خرج منه بعد أربع سنوات بشهادة في الفلسفة، وبحماسة لا حدود لها للشعر الفرنسي، والرسم، والحضارة الفرنسية. وفي عام ١٩٣٢ عين مدرساً في مدرسته القديمة في أنطاكية، حيث ظهرت عليه علامات النبوغ الأول من قبل؛ إلا أن استيقاظه كان عنيفاً فقد كان المسؤولون الفرنسيون في الواقع الميداني من طينة تختلف تماماً عن طينة الشعراء والرسامين والأساتذة الذين أحبهم حتى العبادة في باريس. كان أولئك الفرنسيون الذين يديرون الانتداب إمّا مجرد موظفين تافهين من درجة منخفضة، يجهلون التقاليد المحلية ويحتقرونها، أو ضباطاً كيفّتهم تجربتهم في الحكم الفرنسي لأقطار شمال إفريقيا الذي كان احتقار الأهالي أبرز خصائصه.

وعندما تسربت أنباء ما كان يجري في صفوف مدرسته صرخ الفرنسيون: «كيف تجرؤ على تدريس ما تعلمته في الصوربون؟» وتابعوا توبيخهم: «إن ما يهم هنا هو المصلحة الفرنسية، لا الثقافة الفرنسية». وعندما عثر مفتش مدرسة فرنسي على الأرسوزي يبث أفكار الثورة الفرنسية بين طلابه أوقفه في منتصف الجملة وأخرجه من الصف. فالحرية والمساواة والعدالة لم تكن للشعوب الخاضعة للاستعمار(٧).

وفي عام ١٩٣٤ أسس المدرّس الشاب نادي الفنون الجميلة بهدف نشر الوعي بالفن وتقديره بين أبناء بلده، ولكن عندما واجه الفرنسيون حتى هذا النشاط بتكشيرة غضب ترك الأرسوزي الثقافة الفرنسية واهتم بدلاً منها بالسياسة السورية، فأصبح قومياً وأخذ يحرض.

وكانت القضية الكبرى آنئذٍ في لواء الاسكندرون الذي ينتمي إليه الأرسوزي هي المعركة بين العرب والأتراك. فقد كانت في اللواء جالية تركية كبيرة، ولكن قوائم الانتخابات كانت تبين أكثرية عربية واضحة. إلّا أن فرنسا التي كانت حريصة على إرضاء تركيا عندما كانت الحرب مع ألمانيا تلوح في

الأفق، رضخت لطلب تركيا بأن تحتفظ الاسكندرونة بـ «الوضع الخاص» الذي منحته فرنسا خلال الانتداب، بدلاً من أن يتم امتصاصها من قبل الجمهورية السورية كما يريد القوميون العرب الذين ثارت ثائرتهم لتغاضي فرنسا عن مصالحهم. وتسلم الارسوزي قيادة حركة الاحتجاج، وخرج بالشباب إلى الشوارع، وأوقع صدامات بين العرب والأتراك، فألقى بنفسه، في السجن، ولكن كان ذلك كله بلا جدوى ففي تموز/ يوليو ١٩٣٨، تم توقيع معاهدة الصداقة الفرنسية ـ التركية، ودخلت على أثرها القوات التركية إلى اللواء؛ وفجأة كشفت قوائم الانتخاب عن «أكثرية تركية». وكانت النتيجة أن أصبحت الاسكندرونة في حزيران/ يونيو ١٩٣٩ محافظة تركية اسمها (هاتاي) وبذلك ارتكبت فرنسا ـ التي كانت قد تعهدت بالحفاظ على وحدة تراب سوريا ـ عملاً سياسياً غير أخلاقي بصورة سافرة(٨).

وهكذا التهمت الأطماع لقمة أخرى من خط الساحل السوري، وغادر ألوف العرب الذين لم يشاؤوا أن يعيشوا تحت الحكم التركي بيوتهم بحثاً عن ملجأ في سوريا، وكان من بينهم الأرسوزي الذي وصل إلى دمشق لدى اندلاع الحرب العالمية الثانية، وأقام قيادته في مقهى الهافانا تحيط به هالة كبطل قومي. وسرعان ما التف حوله عدد من المريدين الشباب الذين بشرهم بقرب انبعاث الأمة العربية، وبأن العرب عندما يتحررون فسوف يساهمون في تقدم مسيرة الحضارة الانسانية ويعيدون إحياء أمجاد أمتهم الماضية(٩). ولكن حلقة مريدي الأرسوزي وتلاميذه لم تكبر قط لتتحول إلى حركة سياسية لأن الفرنسيين لم يتركوه وشأنه.. وراحوا يطاردونه من مدينة إلى أخرى فمنعوه من التعليم في المدارس بل وحتى من إعطاء الدروس الخصوصية بحجة أنه «يسمم عقول الشباب» فعاش حياته فقيراً مضطهداً، كما يتذكر واحد من أتباعه: «لقد عاش أربعة أو خمسة منا معه في غرفة وشهدنا فقره الشديد، فأصبح قلقاً، كئيباً، منعزلاً عن الحياة ومنطوياً على خياله الملتهب أكثر فأكثر»(١٠). ولم تتناقص حدة ذكاء الأرسوزي، ولكن شيئاً ما ـ لعله حياته القاسية ـ قد أفقده التوازن. وعندما

أخذ يشيخ إزداد انطواؤه على نفسه وأخذ يعاني من الأوهام. وخلال سنوات الحرب خف اهتمامه بالسياسة، وبما أنه كان منعزلاً نوعاً ما عن الحياة اليومية، فقد انكبّ على دراسة معاني جذور الكلمات، وهي أخص الملامح المميزة للغة العربية والقاعدة التي تقوم عليها الظلال الدقيقة والتنوع في المعاني وشرح أفكاره في كتابه «**العبقرية العربية في لسانها**»[١١].

وترك هذا المفكر الغريب انطباعاً عميقاً في نفوس عدد من الشباب لعل أشدهم تأثراً هو وهيب الغانم، طالب الطب الذي كان يجلس عند قدمي الأرسوزي في أنطاكية في أواخر الثلاثينات، ثم في دمشق في مطلع الأربعينات وعندما تخرج كطبيب عام ١٩٤٣ ذهب ليمارس مهنته في اللاذقية، تدفعه وتثير حماسته أفكار الأرسوزي عن التضحية ونكران الذات والنهضة العربية. كان الغانم في دمشق قومياً متأثراً في مواقفه المعادية للفرنسيين بصلافة وفظاظة علوج الاحتلال[١٢]. أما في اللاذقية، فإن الناس الذين سحقتهم الحرب أصبحوا عراة جياعاً، فتحول القومي إلى اشتراكي متشدد.

ومن عيادته الصغيرة في المدينة كان الطبيب الشاب يسافر مشياً على قدميه إلى التلال جالباً معه الدواء والعلاج للمرضى من القرويين، فكسب ثقة الناس وراحوا يردون له زياراته، وسرعان ما أصبحت لوهيب الغانم «شلة» من الأتباع والمريدين كشلة أستاذه الأرسوزي «لم أكن معلماً أبداً، ولكنني أفكر كأنني معلم. كان أبي وإخوتي معلمين جميعاً، ورغم أنني كنت طبيباً، فإنني لم أستطع أن أقاوم فكرة إعطاء دروس مجانية للشباب الذين كنت آمل أن أؤثر فيهم»[١٣]. وكان أهم هؤلاء الشباب الواعدين حافظ الأسد.. الفتى القوي النشيط من قرية القرداحة القريبة.

وتكرر هذا النمط نفسه في أنحاء أخرى من سوريا. كان الوطنيون الشباب المتحمسون يجمعون حولهم شباباً أصغر منهم لينشروا الدعوة إلى استقلال العرب والثورة الاجتماعية. فمثلاً كان الشاب الحموي النشيط أكرم الحوراني

يقود الشبيبة بهذه الطريقة، كما كان المحامي جلال السيد، في المدينة النائمة عبر الصحراء (دير الزور) يدير نادياً للشبيبة ذا نكهة قومية قوية قُدِّر له فيما بعد أن يصبح أول فرع لحزب (البعث) في سوريا الشرقية.

ولكن أهم تجمعات الشباب في ذلك الوقت كانت تلك الملتفة حول ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. وكانا قد تخرجا من الصوربون مثل زكي الأرسوزي؛ ولدى عودتهما سنة ١٩٣٤ أصبحا مدرسين في ثانوية التجهيز الأولى بدمشق، وكانت أضخم وأشهر مدرسة ثانوية في سوريا. أما عفلق المسيحي الرومي الارثوذكسي المولود سنة ١٩١٢ فكان يدرّس التاريخ، وأما صديقه البيطار السني المسلم الذي يصغره بعامين فكان يدرّس الرياضيات والفيزياء. وكان القمع الفرنسي الغاشم، والتخلف السوري، وطبقة الساسة العاجزين عن الوقوف بوجه التحديات في ذلك الوقت، قد جعلتهما يريان بأن المجتمع كان في حاجة إلى عملية إصلاح جذرية عميقة تنهض به. فالتخلص من الفرنسيين لم يكن كافياً، بل كانت هناك حاجة لإعادة تكوين العقول والأفكار والمواقف وصياغة الوعي نفسه من جديد لتحقيق النهضة العربية.

وبحلول عام ١٩٤٠ كان الصديقان قد جمعا حولهما دائرة من المدرسين أخذت تلتقي في أيام الجمعة. ثم بدآ نشر أولى كراساتهما سنة ١٩٤١، ثم تركا مهنة التدريس كي يتفرغا للسياسة تفرغاً تاماً عند نهاية العام الدراسي ١٩٤٢، ومن ثم أخذا يعيشان حياة المحرضين المحترفين المليئة بالخطر والجوع ولكنها مثيرة ومنعشة في الوقت نفسه. كان عفلق خطيباً مفوهاً بارعاً في استخدام هنيهة الصمت الدراماتيكية، مع موهبة في معالجة المواضيع النظرية المجردة.

وبادىء ذي بدء أطلق عفلق والبيطار على مجموعتهما اسم حركة الإحياء العربي، وتحت هذا الاسم صدرت أوائل الكراسات. ثم وقعت في أيار/ مايو ١٩٤١ ثورة رشيد عالي الكيلاني القصيرة، المثيرة، ضد بريطانيا في العراق وفي غمرة الحماس القومي الذي أثاره هذا الفعل الشجاع في تحدي قوة أوربية

طاغية تبنى عفلق والبيطار كلمة بعث، وتركا كلمة إحياء لأن الأولى كانت أكثر جذرية وعمقاً، فسميا مجموعتهما حركة البعث العربي، وهو اسم قال زكي الأرسوزي انهما قد سرقاه منه.

وكان من الحتمي أن يتحرك سيل من الرجـال والأفكار بين عفلق والأرسوزي، إذ كانت دمشق مدينة صغيرة آنذاك ولم يكن بمقدور الناس المهتمين بالقضية نفسها أن يتجنبوا التعارف. ولكن المعلمين المتنافسين لم يطـق أحدهما الآخر.

كان عفلق قصير القامة، ويرتدي طربوشاً طويلاً جداً. فكان الأرسوزي يعلق ساخراً: «كيف يأمل أي شخص أن يقود ثورة بطربوش كهذا؟».

أفكار البعث

بالرغم من تلك المشاحنات كانت أفكار البعث قد ألهبت خيال جيل كامل. ولكن ما هذه الأفكار التي جعلت شخصاً مثل الأسد يلتزم بها على مدى الحياة؟ مما لا شك فيه أن نقطة البداية كانت عمق الهوة التي غاص في حمأتها العرب عند مطلع القرن العشرين فبعد أربعمائة عام من الحكم التركي الذي جاع في ظله الكثيرون، ولم يكن يعرف خلاله القراءة والكتابة إلا قليلون، أرغم العرب على تحمل الحكم الفرنسي، وعلى أن يقفوا بلا حول ولا قوة بينما اغتصب الصهاينة جزءاً من وطنهم والأتراك جزءاً آخر. وبمثل هذا التاريخ المنحدر الهابط فقدوا الثقة بأنفسهم وراحوا يخجلون من أوضاعهم وتكون لديهم شعور بالنقص، وكان الوجه الآخر لقطعة العملة هو الاحترام الزائد عن الحد والمبالغ فيه للأمم المتقدمة وكان الانجاز الذي حققه عفلق والأرسوزي هو المساعدة على رفع هذا الإصْرِ الثقيل من الخجل والعار وصاغ عفلق نظرية وبرنامجاً لإنهاض العرب مما اعتبره موتاً في الحياة. وهذا هو ما كان يعنيه بـ: البعث(١٤).

وكان لب النظرية أن العرب لديهم سبب للشعور بالفخر والاعتزاز ما داموا

ينحدرون من سلالة جنس عريق قدّم إسهامات مجيدة عديدة لتاريخ البشرية والحضارة الإنسانية وأعلن عفلق أن الأمة العربية قديمة وأزلية وفذة تمتد بعيداً في غياهب ضباب الزمن، وإلى الأمام متطلعة نحو مستقبل مأمول ولكن الاعتزاز بهذا التراث ليس كافياً، ذلك أن إنقاذ العرب من التخلف والسيطرة الأجنبية كان يتطلب الايمان بأمتهم وحبّاً لها بلا حدود.

وللتعبير عن التاريخ العربي صاغ مؤسس البعث شعار «أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة». ولكن قومية عفلق لم تكن شوفينية ضيقة، ولا قائمة على أساس افتراض نقاء العرق العربي بل حدّد القيود التي تكبّل المجتمع العربي والتي هي في رأيه: العشائرية، والطائفية، وظلم النساء، وسيطرة الاقطاع. ومن أجل تحطيم هذه القيود اتجه إلى استلهام وجه أوربا الانساني المستنير الذي غالباً ما يعجب به المثقفون العرب بنفس الدرجة التي يكرهون بها وجهها الاستعماري.

وأعلن عفلق أيضاً دليل عمل مؤلف من ثلاث كلمات هي «وحدة، حرية، اشتراكية». **فالوحدة** هي الدواء اللازم لأمة مريضة ومجزأة، فالعرب من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي يرتبطون جميعاً بروابط واحدة من التاريخ، والدين، واللغة، والتقاليد، والآمال المشتركة. أما **الحرية** فكانت تعني في البداية التحرر من السيطرة الأجنبية سواء كانت عسكرية أو سياسية أو ثقافية، ثم أصبحت تعني أيضاً تحرر الفرد من القيود العقلية والاجتماعية. أما **الاشتراكية** فكانت رد البعث على تركيز الثروة والسلطة في أيدي الوجهاء وعلى كل ما هو ذو طابع استغلالي في المجتمع السوري. ورغم أن مؤسسي البعث قد قرأوا (ماركس) إلا أنهم وضعوا اشتراكيتهم في خدمة القومية لا في خدمة الأممية.

ولكن دفاع عفلق عن أولوية القومية واجه مشكلة كبرى كانت قد واجهت العديد من المفكرين السياسيين وهي: كيف يمكن التوفيق بين القومية العربية

وبين قيم الاسلام الكونية ذات الموقع المركزي في حياة العرب وفكرهم. كيف يمكن للمرء أن يدافع عن مفهوم الأمة العربية المتميزة، دع عنك فكرة «رسالتها الخالدة» بينما كانت رسالة النبي السماوية موجهة للإنسانية جمعاء؟ وكان حل عفلق لهذه المعضلة هو التأكيد على أن الإسلام يجب النظر إليه في الواقع على أنه أسمى تعبير عن العروبة، وأن أحدهما قد تولّد من الآخر فلا تناقض بينهما وجادل في أن الاسلام كان من بدايته الأولى ديناً عربياً نزل بقرآن عربي، ويلبي حاجات عربية، وجاء مجسّداً لقيم عربية، وأطلق العرب لفتح العالم المعروف آنذاك، وإن للإسلام كثقافة جاذبية خاصة تشد المسيحيين العرب من أمثال عفلق نفسه.

وكان طرح شخص مسيحي لهذه الآراء(في محاضرة في جامعة دمشق في ذكرى مولد الرسول (ص) ١٩٤٣) يتطلب قدراً نادراً من الشجاعة ولذلك فإنه لم يكن من المستغرب أن يستثير عفلق المسلمين المتدينين بسبب إيحائه بأن الاسلام كان ثمرة العبقرية العربية أكثر منه وحياً من عند الله. كما أنه استثار بعض المسيحيين الذين لقبوه «محمد عفلق» واتهموه بأنه باع كل شيء للجانب الآخر. ولكنه كان يعرف ما يريد. فقد كان احترام الاسلام طريقه لمواجهة دعوة الاخوان المسلمين الذين كانوا أخطر منافس له برؤياهم للعصر الذهبي لدولة إسلامية نقية أما منتقدوه المسيحيون فقد ذكّرهم بأن الأسلام كان تاريخ العرب وفلسفتهم ومادة قوانينهم وتشريعاتهم وإرثاً كاملاً يجب أن يتفاخر به كل قومي، مسلماً كان أم مسيحياً، باعتزاز عظيم.

ولم يكن عفلق وشريكه الحميم البيطار مجرد أساتذة مدارس بل خرجا بدعوتهما إلى الشارع، وكانت حركتهما الاحيائية موجهة بشكل أساسي إلى الشباب، بل إلى الشبيبة في نعومة أظفارها، وبذلك راحا يؤسسان على تقليد من سياسة التوجه إلى الشبيبة التي أوجدت قبل عقد من الزمن في الثلاثينات فرقاً من طلبة المدارس المتحمسين لكل ظل من الآراء السياسية بمختلف ألوانها.

وهكذا فإن الأطفال حتى في سن الثامنة كانوا ينظمون كفرق كشافة ومجموعات من الخلايا السياسية ويشجعون على الاشتراك في المظاهرات وإيقاف عربات الترامواي ورمي الحجارة. كانت المدارس بمثابة حواضن للعاطفة القومية تشدو في تلك السنوات بالأناشيد الموجهة إلى الوطن والتي تحضّ على الفداء والتضحية. وكانت فرصة المدرسين للتأثير على الطلبة في سن تكوينهم الفكري ذات أهمية سياسية لا يستهان بها. ولقد شهدت سنوات ما بين ١٩٤١ و ١٩٤٨ اندحار حكومة فيشي في المشرق، وموت الامبـراطوريـات والانتدابـات، واستقلال سوريا ولبنان وقيام إسرائيل بعد حرب فلسطين، فكانت فترة هياج هائل واضطرابات تكاد تكون يومية، وحرية في التعبير ملفتة للنظر.

ولما كانت «تجهيز دمشق» أهم مدرسة ثانوية في القطر فقد وجدت نفسها في خضم النضال القومي. وقدمت فرق صاعقة أبقت دمشق في حالة غليان مستمر، بينما كان خريجوها من الطلبة يقومون بنشر الرسالة القومية في سائر أنحاء البلاد.

كان في الدوام النهاري ١٥٠٠ طالب من أبناء الأسر الدمشقية بالإضافة إلى مائتين يقيمون في القسم الداخلي وقد جاؤوا من مختلف أنحاء سوريا من القلة المحظوظة التي استطاع أبناؤ ها أن يحصلوا على مقاعد في التجهيز. وكان الطلبة الوافدون من خارج دمشق هم الأكثر صلابة لأنهم من خلفية أكثر حرماناً، فأصبحوا ـ بانفصالهم عن عائلاتهم ـ أشد تأثراً بالمحرضين. وكان لدى معظمهم قصص يحكونها عن سوء المعاملة التي تعرضوا لها مع أسرهم على أيدي الفرنسيين أو الوجهاء المحليين الذين تدعمهم سلطة الفرنسيين. وكان من هؤلاء الطلبة شاكر الفحام الذي قيض له فيما بعد أن يصبح وزيراً للتربية في عهد الأسد لمدة تقترب من عشر سنوات. ففي طفولته، عندما كان في السادسة من عمره في بلده حمص ويعيش مع أسرته على ما يشبه الكفاف، مرت به تجربة مؤلمة بقيت آثارها فيه لسنوات عديدة، إذ أطلق نحوه أحد الضباط

الفرنسيين كلبه الضخم الذي انقض عليه مما أصابه بصدمة بالغة جعلته طريح الفراش لمدة شهرين[١٥]. وقد وصل الفحام إلى التجهيز عام ١٩٤٠ وكان يتحرق للقتال وراح يبحث عن منارات الحركة القومية مثل **الأرسوزي وعفلق**، وشارك في المظاهرات العنيفة وألقي القبض عليه وأمضى بعض الوقت في السجن.

كان طلبة الصفوف الدنيا يرفعون بالبكرات سلالاً ملأى بالحجارة للطلبة الأكبر منهم والواقفين على سطح التجهيز المستوي ليقذفوها من هناك على رؤوس رجال الشرطة. ثم تخرج كتائب من الطلبة الصغار من مبنى المدرسة جرياً عبر النهر لتلجأ إلى حرم الجامعة. وهناك تتسع المظاهرات وتكبر لتغادر الجامعة متخذةً طريقها إلى قلب المدينة فيسارع أصحاب الدكاكين إلى إغلاق محلاتهم. وكان المتظاهرون الهائجون يتجهون في العادة إلى مبنى البرلمان حيث تكون بانتظارهم حواجز من الدرك والجنود السنغاليين الذين يحملون الهراوات والأسلحة النارية. وغالباً ما كانت تقع إصابات ويسقط ضحايا، كما يستذكر أحد البعثيين القدامى: «كان أول ولد يُقْتَل هو فوزي اللحام، وكان صبياً في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. أُطلقت عليه النار عند البوابة الشرقية لمدرسة التجهيز عام ١٩٤١. وقد شاهدت فوزي يموت، وكنت قد جئت لتوّي لأتابع دراستي الثانوية، من قريتي سرغايا»[١٦].

وغالباً ما كان عفلق والبيطار يُشاهدان على رأس تلك المظاهرات، وقد ظهرا في صور كاريكاتيرية في الصحف يسيران بملابس رثة وياقات ممزقة وطرابيش قذرة. وكان هذا التصوير على قسوته صحيحاً ودقيقاً، فقد كانا عاطلين عن العمل، وعازبين، ويرتديان أسمالاً ويعيشان على الكفاف. وكنتَ تستطيع في تلك الأيام أن تشتري من مطعم رخيص صحناً من الحمص بخمسة عشر قرشاً ورغيفاً بعشرة قروش أخرى. ولكن الرغيف كان من الممكن الحصول عليه من

المخبز بخمسة قروش فقط، وكان صاحب المطعم يسمح لك بجلبه معك. وهذا ما كان يفعله عفلق والبيطار[١٧].

تأسيس الحزب

في عام ١٩٤١ زحفت القوات البريطانية من فلسطين إلى سوريا لتهزم قوات (فيشي) المتعاطفة مع ألمانيا. ولدى هذا الانتصار وعدت بريطانيا سوريا بالاستقلال عن فرنسا إلا أن الرسميين الفرنسيين، الذي كانوا عندئذٍ أتباع فرنسا الحرة لا فرنسا الفيشية، تباطأوا في تنفيذ ذلك الوعد واستمروا يحكمون؛ بالمراسيم وبواسطة أدواتهم الكريهة كالعملاء المحليين ورجال المخابرات ولدى عودة الوطنيين إلى الحكم في تموز/ يوليو/ ١٩٤٣ رفضوا طلب فرنسا عقد معاهدة وأعلنوا أن الانتداب قد انتهى. غير أن فرنسا رفضت التخلي عن آخر ورقة مساومة في يدها، وهي السيطرة على القوات الخاصة.

واندلعت الاضطرابات في دمشق في أيار/ مايو/ ١٩٤٥، عندما قام القائد الفرنسي بقصف العاصمة موقعاً مئات الإصابات ودماراً في بعض أنحائها ففرضت بريطانيا وفقاً لإطلاق النار، وبذلك وضع حدٌّ للحكم الفرنسي. وغادر آخر جندي فرنسي تراب سوريا في ١٧/ نيسان/ ابريل/ ١٩٤٦ وهو تاريخ تحتفل به سوريا عيداً وطنياً لها. وودع طلبة المدارس جنود الاحتلال الفرنسي باشعال النار في كتبهم الفرنسية ولعل هذا يفسر لماذا لم يتعلم جيل الأسد، والأسد نفسه، كثيراً من اللغة الفرنسية. ولم يُسدّ فراغ تعليم اللغة الأجنبية إلا بعد مجيء اللاجئين الفلسطينيين، الذين كانوا يتقنون الانكليزية، إلى سوريا على أثر حرب ١٩٤٨.

في نهاية ١٩٤٤ ومطلع ١٩٤٥ بدأ قادة (البعث) يضعون لوائح العضوية وتبدلت كلمة «حركة» فأصبحت «حزب» البعث في الأدبيات اللاحقة. وفي تموز/ يوليو/ ١٩٤٥ تقدم عفلق والبيطار بطلب رخصة لتكوين حزب سياسي وقد رفض الفرنسيون الطلب في حينه، إلاّ أنه أجيب بالموافقة بعد أن رحلوا.

وقرر أتباع الأرسوزي وشباب عفلق الاندماج وشكلت لجنة صياغة قضت أسابيع في محاولة التوفيق بين آراء الجماعتين. كان أتباع الأرسوزي، ومن بينهم الدكتور وهيب الغانم يريدون جرعة من الاشتراكية أقوى مما كان يحتمله القادة الدمشقيون المنحدرون أساساً من طبقة وسطى ومن فئة التجار والحرفيين. وفي اجتماع حاسم في اللاذقية في وقت مبكر من عام ١٩٤٧ أقر عفلق والبيطار والغانم نص دستور واتخذوا الترتيبات لعقد مؤتمر تأسيسي. وطوال ثلاثة أيام مثيرة من النقاش الحاد، من يوم الجمعة في ٥ نيسان إلى الأحد في ٧/ ابريل/ نيسان جمع المؤتمر بدمشق مائتين وسبعة وأربعين من الشباب الذين جاؤوا من جميع أنحاء سوريا، ومعهم حفنة من شباب شرقي الأردن ولبنان والعراق ،واحتشدوا في مقهى الرشيد المطل على حديقة وسينما صيفية كانت تعرف باسم لونا بارك (في الموقع الذي يقوم عليه اليوم المركز الثقافي السوفيتي) وفي مساء عيد الفصح يوم الأحد كانوا قد أتّموا تبنّي صيغة الدستور وانتخبوا لجنة تنفيذية من أربعة أشخاص تألفت من ميشيل عفلق كعميد وصلاح الدين البيطار كأمين عام، ووهيب الغانم وجلال السيد كعضوين، ولم يحضر زكي الأرسوزي المؤتمر ولم يُعْطَ منصباً في الحزب الجديد.

وبعد المؤتمر التأسيسي أقام الدكتور وهيب الغانم (وكان عندئذٍ في السابعة والعشرين) قيادة فرعية محلية لحزب البعث في عيادته باللاذقية وبدأ بالتنسيب والتنظيم بشكل جدّيّ. وكان من بين أوائل الشبان الذين انتسبوا حافظ الأسد وشباب آخرون من القرداحة، حيث كان وهيب الغانم في دوره كطبيب متجول قد أصبح شخصية مألوفة معروفة منذ زمن. لقد كانت تلك فترة حاسمة فقد امتزجت في هؤلاء الرواد الثوريين: روح التمرد والاستقلال التي تميز بها فتية الجبل مع الضيم الذي عانى منه المحرومون من أهل الريف، مع الآفاق الواسعة التي فتحها أمامهم التعليم والتوجيه الفرنسيان. ويتذكر الغانم الأسد كشاب «متحمس ومخلص وقوي، ومساعد مفيد جداً في تلك السنوات الصعبة».

ولكن لم يتح إلا قليل من الوقت لمهمة بناء الحزب، إذ سرعان ما داهمت البلد أزمة قومية حادة. ذلك أن سوريا لم تكد تظفر باستقلالها من خلال نضالها حتى ووجهت بظهور الدولة الصهيونية في فلسطين.

في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧ اتخذت الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة قراراً بتقسيم فلسطين فخصصت أكثر من نصفها لدولة يهودية. واجتاحت الوطن العربي عاصفة من الاحتجاج بلغت أقصى عنفوانها في سوريا حيث كان الناس يشعرون بأن فلسطين جزء عضوي من بلاد الشام. وكانت غريزة كثير من الشباب تدعوهم للمسارعة إلى حماية الوطن من محاولة الاقتطاع والبتر الجديدة هذه. واستطاع الجيش السوري أن يجمع قوة ١٨٠٠ رجل من بينهم متطوعون مثل أكرم الحوراني ووهيب الغانم. وكان من بين أوائل الضحايا ضابط بعثي شاب: مارسيل كرامة[١٨] وفي مطلع ١٩٤٨ توجه الأسد مع ستة آخرين إلى دمشق ليتطوع في الخدمة الحربية ولكنهم ـ لخيبة أملهم ـ أعيدوا إلى قريتهم[١٩].

أدت الهزيمة، وطوفان اللاجئين المخيف المروع، وتأسيس دولة إسرائيل إلى تعرية مدى حقيقة الضعف العربي في عام ١٩٤٨. وبدا أن الاستقلال الذي تم كسبه في وقت متأخر كان شيئاً أجوف. وأصبحت مواجهة القومية اليهودية المتشددة أكبر همّ عربي عاجلٍ ورهيب. ومنذ مطلع شباب الأسد أصبح الصراع مع الصهيونية من أكبر المواضيع الأساسية في حياته. ولكن الحرب كان يجب أن تشن في الداخل أيضاً ضد النظام القديم، وقال الأسدبأسى: «وعلى الجبهتين جميعاً ووجهنا بعكس ما كنا نريده تماماً»[٢٠].

الطالب السياسي

أعطى تأسيس البعث دفعاً قوياً للعمل السياسي الطلابي في اللاذقية ووضع الأسد الشاب في صدارة هذا العمل. كان في السادسة عشرة، وكان علوياً غير عادي، واثقاً من نفسه، مستعداً للقتال، واعياً لطبقته ولا يخجله انتماؤه إليها وكان ذا بنية قوية لعله ورثها عن جده، لذلك كان قادراً على الصمود

في مجابهات فناء المدرسة الخشنة. وهكذا أصبح المدافع القوي عن الحزب وقضيته في الشارع ويقول عنه وهيب الغانم: «كان واحداً من فدائيينا. فقد كنا بحاجة إلى شباب شجعان يقاتلون من أجل الحزب»[١٢]. وكانت المظاهرات المناوئة للحكومة تؤدي أحياناً إلى شل المدينة بكاملها أو تتطور إلى مناوشات متلاحقة مع الشرطة أو إلى شجار مع عصابات منافسة. وقد ينتهي الأمر بالطالب المشاغب إذا ما ألقي القبض عليه إلى أن يودع ليلة في السجن أو يتعرض لضرب مبرّح، أما العمال البعثيون فكانوا عرضة للفصل من عملهم.

وبعد أن أصبح للأسد ورفاقه شارة يضعونها وهيكل تنظيمي يعملون من خلاله، راحوا يكتبون الشعَارات على الجدران، ويجمعون التواقيع على العرائض، ويهرّبون المناشير البعثية القادمة من دمشق فينسخونها ويقرأونها في اجتماعات سرية غالباً ما كانت تعقد في غرفة الأسد بالذات. وأخذ الأسد يكتب المنشورات ويوزعها، وفي إحدى المناسبات الهامة قام بزرعها في ثكنة للجيش. وكان تخطي هذه المنطقة المحظورة شيئاً لم يحدث من قبل، فأكسبه ذلك إعجاب أقرانه الشديد. كما أنه أخذ مع أصدقائه يجمع المال لزملائهم من الذين تأخر آباؤهم عن تسديد الأقساط، كما راحوا يوصلون تعاليم الحزب إلى أحياء المدينة الفقيرة والقرى المحيطة بها وكان الغانم هو العقل الموجه، وحلقة الاتصال بدمشق وينبوع العقيدة. ولكن، مع ازدياد عدد المنتسبين المتحمسين، سرعان ما انتقل مركز الثقل من عيادة الغانم إلى الطلبة أنفسهم.

وفي ١٩٤٩ انتقلت عائلة الأسد كلها من القرداحة إلى اللاذقية لمدة سنة من أجل الاشراف على أصغر أبنائها ـ رفعت ـ الذي كان سيبدأ دراسته الثانوية في ذلك العام. فاستأجروا غرفاً في أحد المساكن حيث راحوا يراقبون النشاط السياسي الذي يقوم به ابنهم الأكبر والذي لم يكونوا موافقين عليه تماماً. وكانوا يتساءلون: هل هذا الولد الذي تعلقت به وتركزت عليه آمال العائلة يضيع وقته ويبدّد فرصة التقدم وتحسين وضعه؟ أكان من الحكمة أن ينغمس في مثل هذا

العدد الكبير من المعارك ويصبح معروفاً لدى السلطات؟ ويبدو أن أمه كانت أكثر تعاطفاً مع نشاطه من أبيه الذي كان ـ مثل معظم أبناء جيله ـ يميل إلى أن يرى في الأحزاب العقائدية حركات هدَّامة لدرجة خطيرة.

وفي غضون سنتين من المؤتمر التأسيسي، كان البعث في اللاذقية قد تجاوز منافسيه الأساسيين، الشيوعيين والحزب القومي السوري، ودخل في مواجهة حامية مع الاخوان المسلمين الذين كان سيخوض ضدهم فيما بعد حرباً بلا هوادة. فالبعث في نظرهم لا ديني وعدواني ويمثل الأقلية، لذلك كان العدو الطبيعي للاخوان الذين استهدفوا الأسد في وقتٍ مبكر باعتباره زعيماً طلابياً وحاولوا عدة مرات أن يضربوه. ولكن صديقاً له قوياً هو محمود عجيل حماه من لكماتهم في أكثر من مناسبة (وقد أصبح عجيل فيما بعد عضواً في مجلس الشعب). ولكن الأخوان المسلمين اختلوا بالأسد ذات مرة في عام ١٩٤٨ وطعنوه بسكين في ظهره مما أقلق والديه كثيراً. واستغرق التئام الجرح عدة أسابيع[٢٢].

ولما كان الحزب البعث في اللاذقية يضم عدداً كبيراً من الشباب العلويين فقد كان يقلق الغانم أن يبدو الحزب وكأنه حزب طائفي. ولذلك عندما كانت تلوح نذر اقتتال مع الأخوان المسلمين كان يحث العلويين على الابتعاد عن الشوارع لكي يتركوا لرفاقهم السنة أمر مقاتلة الاخوان إلا أن الأسد كان يرفض مثل هذه التكتيكات الخجولة. فغريزته كانت ضد نزعة الحذر وتبني موقف الدفاع، هاتين الصفتين اللتين ميزَّتا طائفته زمناً طويلاً. فمنذ البداية حاول أن يتخلص من قيود خلفية الأقلية التي ينتمي إليها. وكان يرفض أن يعيش جسدياً أو عقلياً في (غيتو) علوي ولهذا كان يتصدر المظاهرات ويبحث في الشوارع عن حلفاء بين السنّة الأشداء الذين كانوا هم أيضاً يعارضون مثله المؤسسة الحاكمة. وقد ظل بعض هؤلاء السنَّة أصدقاء له في فترة النضج. وفي سن مبكّرة من حياته كانت التحالفات الطبقية تبدو للأسد أكثر أهمية من التضامن

الطائفي، وكان الوصول إلى حلفاء طبقيين وسياسيين عبر الخط الفاصل بين السنّيين والعلويين سيصبح من صفات حياته السياسية فيما بعد.

في آخر عامين من دراسته الثانوية (١٩٤٩ ـ ١٩٥١) أصبح معروفاً بأنه طالب يعمل في السياسة، وخلال انتخابات حرة تم انتخابه رئيساً للجنة الشؤون الطلابية في مدرسته، وبذلك أصبح على اتصال بلجان المدارس الأخرى في سائر أنحاء البلاد لتنسيق التكتيكات، وللاتفاق على صيغة الشعارات وعلى «الشيفرات» السرية التي تمكّـن جميع المدارس من الاضراب في وقت واحد. ولم يكن هناك من حدث سياسي في سوريا في تلك السنوات إلا وكان للطلبة المناضلين رد فعل حياله. وفي هذه الفترة عقد الأسد صداقة مع طالب بعثي آخر، هو عبد الحليم خدام، الذي كان شاباً يتميز بالحيوية والاندفاع وكان سنياً آتياً من خلفية متواضعة من بلدته الساحلية الصغيرة بانياس. وقد قدر له أن يخدم الأسد كوزير لخارجيته لأثني عشر عاماً ثم أن يصبح نائباً له. وكان هناك سنّي آخر في الحلقة الطلابية هو عبد الرؤوف الكسم البعثي المنحدر من أسرة دينية دمشقية والذي أصبح هو الآخر رئيس وزراء الأسد لأطول فترة. ويتذكر الكسم الأسد في تلك الأيام شاباً ملتزماً ومتحمساً وجازماً: «كل شيء كان بالنسبة إليه هو أبيض أو أسود. فقد كان لا يميل إلى الظلال الرمادية»[٢٣].

وكان الأسد من هواة قرض الشعر، ويتذكر أنه كرئيس للجنة مدرسة اللاذقية أختتم اجتماعاً غاضباً لها بقصيدة شعرية هجا بها الحكومة[٢٤].

وفي عام ١٩٥١ انتخب رئيساً للمؤتمر العام لكل طلبة سوريا، وكان ذلك من أوائل الانجازات الملحوظة التي حققها لنفسه ولحزبه ولعشيرته، كما كان ذلك تأكيداً على كونه من الناحية السياسية أهم طالب في تلك الفترة. وكان من المقدر أن تمضي اثنتا عشرة سنة قبل أن يحقق مثل هذا البروز الوطني مرة أخرى. وقد تركت تجربته كطالب مناضل أثراً كبيراً ودائماً فيه لدرجة أنه ظل فيما بعد يشير إليها باستمرار ويؤكد على دورها في تكوينه. لقد استحوذت عليه

السياسة، ومنذ ذلك الحين كان يعتبر نفسه سياسياً قبل كل شيء حتى عندما ارتدى زيه العسكري في القوات الجوية. وكان صـراع البعث في تلك السنوات ضد القوميين السوريين، والشيوعيين واليمينيين، والأخوان المسلمين قد زوده بالمعرفة السياسية وبطريقة التصرف مع قوى قدر لها أن تبقى موجودة بعد أربعين سنة على مسرح الأحداث السوري. ومما لا شك فيه أنه يحبّ أن ينظر إلى سنوات شبابه على أنها سنوات بطولة وتفان في سبيل القضية القومية والاشتراكية.

الالتحاق بالقوات الجوية

كان الأسد في العشرين عندما غادر اللاذقية في صيف ١٩٥١ إلى قريته القرداحة حاملاً معه شهادة البكالوريا وثقة عالية بالنفس كقائد طلابي ولا شيء غير ذلك. كان أول ابناء عائلات القرية الفقيرة يصعد إلى مثل هذه الدرجة العلمية وبذلك أصبح شخصياً يلفت نظر زعماء القرية. ولكن ما الذي كان يمكن أن يعمله هذا الشاب الواعد؟ لم تكن آفاق القرية المحدودة مناسبة له، ولا الأعمال التقليدية الصغيرة في الزراعة والتجارة التي مارسها من قبل أعمامه وإخوته الكبار وفكر بطموحه أول الأمر أن يصبح طبيباً. وتلك قفزة ضخمة إلى طبقة المحترفين الوسطى بالنسبة لشاب من جبل العلويين، مهما كان مدى إنجازاته في مدرسته الثانوية. ولعله أحب أن يترسم خطى الدكتور وهيب الغانم، أو ربما اجتذبته المهنة التي كانت ـ ولا تزال في سوريا ـ محترمة وذات نفوذ بالاضافة إلى دخلها المرتفع. وبموافقة أبيه اتصل هاتفياً بجامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت ليسأل عما إذا كان باستطاعته الالتحاق بكلية الطب فيها. فقيل له إن هناك أوراقاً كثيرة يجب ملؤها وأن أفضل شيء هو أن يذهب بنفسه لاجراء مقابلة. ولكنه كان غير قادر على الوصول إلى بيروت كان أبوه قد شاخ ولم يكن لدى أسرته فائض من المال يمكن الاستغناء عنه لدفع أقساط الدراسة الطبية. وهكذا أخذته هذه الظروف إلى اتجاه آخر.

كان الجيش بديلاً مغرياً لأن أقساط الدراسة في الكلية الحربية في حمص

كانت قد ألغيت منذ أن استقلت سوريا ١٩٤٦ . والحق أنها كانت المكان الوحيد الذي يقدم لأولاد الفقراء بداية في الحياة إذ كان الطلاب فيها يتلقون الطعام والملابس وتعطى لهم رواتب أيضاً. وهكذا كان شباب الأقليات يتجهون إلى الجيش بالجملة، وليس إلى المهن الأخرى لأن عوائلهم لم تكن تملك الوسائل لإرسالهم إلى الجامعات بيد أن الجيش الذي كان قد برز في واجهة الحياة العامة بفعل الانقلابات العسكرية واكتسب الضباط نفوذاً ومكانة، وأصبحوا يديرون شؤون البلاد في تناغم قلق مع السياسيين المدنيين الذين تَدَنَّتْ معنوياتهم. وهذه ظروف حفزت الاحزاب العقائدية على تشجيع أعضائها الشباب على دخول الكليات العسكرية والترقي في مراتب القوات المسلحة التي لم يعد بالامكان تجاهل أهميتها السياسية. وهكذا انضمت ثكنات الجيش إلى المدرسة الثانوية لتكون حاضنة للطليعة الثورية.

عندما جلا الفرنسيون عن سوريا عام ١٩٤٦ لم يكن هناك جيش وطني، بل بضع مئات من المجندين السابقين الذين كانوا الطاقة البشرية الوحيدة المدربة عسكرياً والمتاحة للدولة الجديدة غداة استقلالها. ولكن الشك كان يحوم حولهم بسبب رائحة النزعة الانفصالية والتعاون مع الفرنسيين التي كانت لاصقة بهم. وكانت الصدامات الدامية بين فرنسا وسوريا في أواخر أيام الانتداب قد زعزعت ولاء هذه القوة بشكل كبير، فهرب بعض الجنود وانضموا إلى الوطنيين، بينما قبل آخرون عرضاً باللجوء إلى فرنسا. ومع ذلك فإن الشباب الريفيين من جبل العلويين، وجبل الدروز، والشمال الشرقي الذي كان في غالبيته بدوياً، استمروا بعد عام ١٩٤٦ في تزويد البلاد بأساس جيشها النظامي، فكان منهم العرفاء والرقباء وصغار الضباط. وعندما طلبت الحكومة متطوعين في السنوات الست الأولى بعد الاستقلال فإنها لم تجدهم بين أبناء المدن الذين كانت أمامهم فرص متاحة للعمل في التجارة والحرف والمهن، بل بين مثل هؤلاء الريفيين وبعد فرض الخدمة العسكرية الالزامية سنة ١٩٥٠ أخذ المجندون من أبناء المدن يؤدون خدمتهم لمدة سنتين ثم يعودون إلى أعمالهم الأكثر رخاءً وربحاً

في الحياة المدنية، إلا أن أبناء الريف استمروا بعد ذلك في الجيش. وثبت أن تلك كانت الغلطة التاريخية لطبقة التجار والملّاك التي تركت الجيش - بسخريتها منه واستخفافها به كمهنة - حتى استولى عليه أعداؤها الطبقيون الذي انتهى بهم الأمر إلى الاستيلاء على الدولة نفسها. وحين دخل الأسد الكلية العسكرية بحمص سنة **١٩٥٢** كان واحداً من دفعة مكونة من تسعين طالباً، وهناك التقى وصادق مصطفى طلاس وهو شاب سني من قرية (الرستن) القريبة من حمص وقد أصبح حليفه ومساعده المخلص لعشرات من السنين. كان طلاس، مثل الأسد، طالباً بعثياً برز كقائد كشفي في الحزب. وكانت صداقتهما تعبيراً عن تجاوز الخط الطائفي في التحالفات، وهو ما كان يتصف به الشباب الثوريون في ذلك الوقت.

ومما دفع بالأسد في آخر الأمر إلى القوات المسلحة رغبته في أن يطير. ولكن القوة الجوية التي أراد الانضمام إليها كانت لا تزال في طفولتها كالجيش نفسه. ولم تكن هناك كلية للقوة الجوية، بل مجرد مدرسة للطيران في حلب نقل إليها عدد قليل من طلاب الكلية الحربية بحمص بعد اجتياز فحص طبي. وكان الأسد واحداً من خمسة عشر طالباً تم اختيارهم في **١٩٥٣** ويتذكره أحد مدربيه، وهو فؤاد كلاس، بأنه «كان حريصاً على أن يتعلم، ومستعداً لأن يتقاسم كل ما لديه مع زملائه المتدربين»[٢٦]. وقد دفعته استقامته وفخره إلى الإشارة إلى انتمائه لحزب البعث في الطلبات الرسمية التي ملأها فهو يقول: «بعد أن كنت رئيساً لاتحاد الطلاب فقد أصبح من المستحيل أن أخفي ذلك»[٢٧]. والواقع أنه كان من التهور بمكان أن يكشف طالب الكلية العسكرية، وسوريا تحت حكم أديب الشيشكلي، عن انتمائه الحزبي.

وفي ذلك العام تم تحويل مدرسة الطيران التي انتسب إليها الأسد إلى كلية وتمت صياغة برنامج خاص لها. وبما أنه لم يكن هناك طلاب سابقون في المدرسة فقد وجد الطلاب القلائل الذين التحقوا بها أنفسهم في كلية جديدة

ليس فيها متقدمون يضايقونهم، كما أنه كان فيها مدربون حائرون لا يعرفون تماماً ما سيفعلون: هل يعطون لطلابهم دروساً في الطيران فقط؟ أم تدريباً عسكرياً أساسياً؟ وهل من الواجب أن ينضم إلى الأساتذة والمدربين ضباط من المشاة؟ ألا يمكن أن تؤدي ساعات التدريب على الجري في الريف مع حمولة ثقيلة على الظهر إلى الأضرار بقدرة الطلبة على الطيران؟ وكم ساعة طيران يجب أن يمارس الطالب قبل تخرجه؟ وقد تقرر آخر الأمر أن الطلاب يجب أن يتلقوا تدريباً عسكرياً بالإضافة إلى تعلم الطيران ولم يكن هناك شك في الجانب الذي كان الأسد يفضله «فقد كانت أيام تعلم الطيران شبيهة بالعطلات عندما تقارن بالتدريب العسكري»(٢٨).

ونظراً لصغر حجم الدفعة المكونة من خمسة عشر طالباً، ولروح الزمالة والحياة العفوية فإن السنوات التي قضاها الأسد في حلب كانت سعيدة جداً، وكان هناك تنافس حامي الوطيس بين المتدربين، سواء في الصف الدراسي أو في الجوّ. وكان الأسد على رأس القائمة في السنتين الأوليين، وحصل عند التخرج على جائزة تذكارية لاتقانه حركات الطيران البلهوانية كان يجد حرية مطلقة عند التحليق في الجو أكثر مما كان يتمتع به الطلبة الطيارون الذين جاءوا فيما بعد. ويتذكر الأسد قائلاً: «الحق أننا لم نتقيد كثيراً بالقواعد والتعليمات، وكانت تلك القواعد والتعليمات نفسها فضفاضة وغير صارمة. وكانت التقنية بدائية كذلك. كنا نقلع منطلقين، وبما أنه لم يكن لدينا رادار أو مراقبة أرضية، فلم يكن أحد يعرف أين كنّا». وفي تلك الظروف كان من الصعب مقاومة إغراء التوجه نحو الأهل والاصدقاء للتشاوف أمامهم... فلم لا يضيف المرء حركة استعراضية بطائرته فوق قريته؟. وهكذا حلق بطائرته التدريبية ذات المحرك فوق قريته عدة مرات (كانت من نوع تشيمانكس في السنة الأولى وهارفارد في السنة الثانية) ليحوم بها فوق القرداحة ويلوح لأصدقائه فيها ثم ليجد نفسه فوق الأبيض المتوسط.

ولكن الطيار الشاب كاد يتعرض لكارثة. فعشية تخرجه ١٩٥٥ نجا من الموت بأعجوبة. كان الطلاب يجرون بروفة استعراض الطيران الذي سيقومون به، وكان من المفروض أن يمر تشكيلان من أربع طائرات ثم يهبطون بالدور. وانعطف التشكيل القائد الذي كان فيه الأسد ليسمح للطائرات التي بعده بالمجيء، فدخل غيمة كثيفة فوق حلب. وكان التحليق داخل الغيم يتطلب تدريباً لم يكن قد حصل عليه. ولكن كان يعلم أنه عندما يطير طيراناً أعمى فيجب أن لا يثق بحواسه، بل عليه أن يراقب أدواته. وهكذا لاحظ أنه يفقد السرعة، ففتح الصمام الخانق، ولكنه ـ لدهشته ـ وجد أن عداد السرعة استمر بالهبوط وكان معنى ذلك أن المحرك سيتوقف في أية لحظة فتنهار الطائرة وتتحطم. ولاحظ أن المحرك يهتز بطريقة غريبة وشعر أن التراب يتساقط في عينيه. وعندئذ فقط أدرك أنه كان يطير بالمقلوب، وعندما خرج من الغيمة وجد أنه يتجه بالطائرة نحو الأرض مباشرة: «وفي اللحظة المناسبة تمكنت من الصعود نحو السلامة، وطائرتي تحتك بقمم أشجار الزيتون. وتساءل رفاقي الذين كانوا يراقبونني «أتراه قد جن؟» فلقد ظنوا أنني كنت أقوم بألعاب، والواقع أنني لم أكن ألعب»[٢٩]. وفي اليوم التالي تخرج الأسد ضابطاً طياراً ونال كأس فوزه بالحركات البهلوانية الجوية.

هوامش الفصل الثالث

(١) مقابلة مع الرئيس الأسد (تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٤).

(٢) مقابلة مع أحمد رستم (أحد أولئك المحظوظين) سرغايا، ٢٩/ آب/ ١٩٨٤ وفي عام ١٩٤٦ كانت هناك ٨ آلاف مقعد فقط في المدارس الثانوية الرسمية وفي عام ١٩٥٣ ارتفع العدد إلى ٥٠ ألف مقعد.

(٣) مقابلة مع غازي أبو عقل زميل الدراسة للأسد والذي أصبح لواء في الجيش فيما بعد ومديراً لمؤسسة معامل الدفاع. (دمشق ١ أيار/ مايو ١٩٨٥).

(٤) مقابلة مع عدنان عمران (سفير سوريا السابق في لندن، الذي أصبح فيما بعد أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية) أجريت في أيار/ مايو ١٩٨٢.

(٥) و(٦) مقابلة مع الرئيس الأسد: (تشرين الأول/ اكتوبر/ ١٩٨٤).

(٧) مقابلة مع الدكتور وهيب الغانم في اللاذقية في ١٥ نيسان/ ابريل/ ١٩٨٥.

(٨) آندريه ريمون في مصدر سبق ذكره، من تحريره، ص ٧٥.

(٩) مقابلة مع الدكتور شاكر الفحام بدمشق في ١٤ أيار/ مايو ١٩٨٥، وانظر أيضاً كتاب سامي الجندي: البعث (طبع بيروت ١٩٦٩)، ص ٢٩.

(١٠) مقابلة مع وهيب الغانم في ١٥/ نيسان/ ابريل ١٩٨٥.

(١١) **العبقرية العربية في لسانها** (دمشق ١٩٤٣).

(١٢) مقابلة مع الدكتور وهيب الغانم (١٥ نيسان/ ابريل/ ١٩٨٥).

(١٣) نفسه.

(١٤) هناك كثير من المؤلفات عن البعث. انظر الأعمال المدرجة تحت أسماء: ك. س. أبو جابر، ميشيل عفلق، م. س. أغواني، زكي الأرسوزي، شبلي العيسمي، حنا بطاطو، صلاح الدين البيطار، بشير الداعوق (محرراً)، جون. ف. ديفلن، سلفياج هايم، سيمون جارغي، سامي الجندي، نبيل م. كيلاني، موشى ماعوز، ثابتة بطران، إيثامار رابينوفيتس، آندريه ريمون (محرراً)، منيف الرزاز، إريك رولو، مطاع صفدي، إبرهيم سلامة، جلال السيد، غوردن هـ. توري، نيقولاس ڤان وام وجان بيير ڤينو.

(١٥) مقابلة مع الدكتور شاكر الفحام بدمشق في ١٤/ايار/ مايو/ ١٩٨٥.

(١٦) و(١٧) مقابلة مع أحمد رستم في سرغايا في ٢٩ آب/ أغسطس/ ١٩٨٤.

(١٨) نفسه.

(١٩) الرئيس الأسد في خطاب أمام المؤتمر العام التاسع للاتحاد الوطني لطلبة سوريا (دمشق ٤ ايار/ مايو ١٩٨٥).

(٢٠) مقابلة مع الرئيس الأسد (ايار/ مايو ١٩٨٥).

(٢١) مقابلة مع الدكتور وهيب الغانم (اللاذقية ـ ١٥ نيسان/ ابريل ١٩٨٥).

(٢٢) مقابلة مع الدكتور وهيب الغانم (اللاذقية ١٥ نيسان/ ابريل ١٩٨٥).

(٢٣) مقابلة مع الدكتور عبد الرؤوف الكسم (دمشق ١٣ آذار/ مارس ١٩٨٨).

(٢٤) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ايار/ مايو ١٩٨٥).

(٢٥) انظر أقوال عبد الكريم الجندي الذي أصبح زميلاً للأسد فيما بعد في صحيفة لوموند في ١٣ ـ ١٩ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٦).

(٢٦) مقابلة مع اللواء الجوي المتقاعد فؤاد كلاس (دمشق ١٣ ايلول/ سبتمبر ١٩٨٤).

(٢٧) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٣ ايلول/ سبتمبر ١٩٨٤).

(٢٨) نفسه.

(٢٩) نفسه.

الفصلُ الرابعُ
ثورة الفلاحين

لعبت المدرسة ، والحزب ، وسلاح الجو دوراً هاماً في تكوين مواقف الأسد . ويضاف إليها أيضاً : ثورة الفلاحين . وقد ارتبطت يقظة المجتمع الريفي في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات باسم أكرم الحوراني ذي الطبع الناري ، ابن حماه ـ المدينة القديمة الرابضة على نهر العاصي في السهل السوري الأوسط تحت الجبل العلوي . وكان لما قام به الحوراني في السهل صداه الفوري في الجبل ، باعتبار أن كثيراً من الجبليين الفقراء كانوا يضطرون للنزول إلى السهل سعياً وراء لقمة العيش . وقد أعطى الحوراني للأسد أكثر مما أعطاه عفلق والأرسوزي إذ قدّم له نموذج ثورة الريف على المدينة التي كان على جيله أن يقوم بها .

ولا يمكن مقارنة طفولة الأسد في القرداحة بالبؤس المقيم الذي عانت منه عوائل الفلاحين في السهول . ومع ذلك فإنه كان ولداً من أبناء الريف يتفهم مشاكله ويشاطر أبناءه الشعور بالظلم . ومثلما ساءته امتيازات الأغنياء في اللاذقية فقد أغضبه أيضاً الحرمان الذي يعيشه الفقراء في الجبل . وهناك حادثة أثرت فيه بشكل خاص . كان في قريته شخص قوي البنية تثير قوته الأعجاب ، راح ذات يوم يبصق دماً إلى أن ذوى ومات لأنه لم يكن يملك الليرات العشر اللازمة أجرة للطبيب .

إن كون الأسد : شاباً مثقفاً ، ومنحدراً من الريف رغم أنه لم يعد يسكن فيه ، وذا نزعة سياسية مثل الكثيرين من رجال الأقليات ، وذا احساس بالظلم الطبقي الذي لم يقلل منه صعوده الشخصي ، إن كل ذلك وضعه في المكان الصحيح ليكون أداة للتغيير الثوري .

إن الأسد وأمثاله من الرجال كانوا الجسر الهام الذي جمع بين الريف الذي استيقظ وبين الطبقات الوسطى من الاجراء في المدن ، والذين زودوا جميعاً البعث بطاقته المحركة . إلا أن التغييرات الجذرية سواء السياسية منها أو الاجتماعية ، والتي كان سيأتي بها البعث حوالى الستينات ويُحل على أثرها نظاماً جديداً محل النظام القديم ، إن هذه التغييرات لم تكن لتصل لو أن أسسها لم توضع قبل عشر سنوات .

عندما كان الأسد في صباه ، كانت حماه الواقعة في قلب سوريا ، معقل قوة ملّاك الأرض وعاصمة القمع الريفي . ولقد وُجهت أول صفعة إلى وجه واحد من هؤلاء الملاكين سنة ١٩٥٢ في قرية قرب حماه ، فكانت نذيراً بأن القلعة القديمة قد أصبحت هدفاً للهجوم . فقد وجد فلاح مجهول في نفسه الجرأة على مهاجمة مالك أرضه بسبب حملة تحريض شنها أكرم الحوراني تحت شعار «الأرض لمن يفلحها» .

وكان الحوراني، الذي ولد عام ١٩١٤ في عائلة سنية كانت من ملّاك الأرض ثم افتقرت ، هو ابن لحماه وعدوها في آن . وكانت هذه المدينة العريقة الصغيرة المنغلقة على نفسها مرادفة للاقطاع وللنزعة المحافظة اجتماعياً والأصولية دينياً . وكان على الحوراني أن يفعل الكثير من أجل تغيير ذلك كله .

في أواخر الثلاثينات كان الحوراني قد حصل على إجازة في الحقوق وأصبحت له شلة تحيط به من المريدين والمعجبين «الشباب» . وفي سنة ١٩٤١ سارع إلى العراق مع مجموعة من الضباط الشباب لمد يد العون لثورة رشيد عالي ضد الانكليز . وفي سنة ١٩٤٣ أعيد انتخابه في البرلمان نائباً عن

حماه . وفي سنة ١٩٤٥ استولى مع أصدقائه على حامية حماه من الفرنسيين ، وفي عام ١٩٤٦ أسس نادياً رياضياً ذا صبغة سياسية ، وفي أوائل ١٩٤٨ حارب في فلسطين ، وكان بذلك أحد اثنين من النواب قاتلا هناك رغم أن عدد النواب الذي تعهدوا بالجهاد في فلسطين كان قد وصل إلى ثلاثين . (كان الآخر طبيباً شاباً وقصاصاً واعداً من مدينة الرقة هو عبد السلام العجيلي)[١] وفي عام ١٩٥٠ نظَّم الحوراني أتباعه في (الحزب العربي الاشتراكي) الذي أسسه في مدينة حماه وجعل فيها مقره الرئيسي مع فروع في مراكز أخرى .

في تلك الأيام كانت هناك أربع عائلات (هي : البـرازي والعظم والكيلاني وطيفور) تمتلك واحداً وتسعين بالمائة من مائة وثلاث عشرة قرية في منطقة حماه . وقد اتبع الحوراني تكتيكاً فعالاً بأن حالف أصغر تلك العائلات (هي عائلة طيفور) واستخدمهم مع فلاحيهم ضدّ الملاّكين الكبار ، حتى أن أحد آل طيفور ، وهو خالد ، أصبح أمين سر الحزب العربي الاشتراكي في حماه نفسها[٢] . وهكذا أطلق الحوراني غضباً ظل حبيساً في الصدور خلال عدة أجيال .

وراح النشيطون من أعضاء حزبه «العربي الاشتراكي» يحرضون أهل القرى على مضايقة عوائل الملاكين وإخافتهم ليبتعدوا عن الأرض ، وبلغت الحملة أوجها في مؤتمر ضد الاقطاع استمر ثلاثة أيام في حلب في منتصف أيلول/ سبتمبر ١٩٥١ وحضره ألوف من المناضلين الفلاحين الذين اشتد عودهم . فكان أول مؤتمر من هذا النوع الثوري في الوطن العربي . وقد أفتُتحت أندية للشباب في العديد من من القرى ، وقدَّم الحزبيون النشيطون وعوداً بانشاء الطرق والمدارس والمستوصفات .

وما لبثت أن أصبحت التحركات التكتيكية الثورية أكثر جرأة . فأخذت تُنظم المهرجانات والتجمعات في القرى ، وأصبحت الشعارات المرفوعة ذات نبرة تهديدية أقوى بينما راحت تشن الحرب ضد «الاقطاعيين» الذين «سرقوا»

الأرض من الفلاحين . وسرعان ما تحول التحريض إلى أعمال عنيفة . فأحرقت المحاصيل وأطلقت النار على بيوت الملاّكين ، وجعلت الجموع الهادرة المهدِّدة عدداً من القرى أماكن خطرة لا يجرؤ أصحابها على دخولها . ويتذكَّر الدكتور عزيز صقر ، الذي كان حينذاك حزبياً نشيطاً في هذه المنطقة ، فيقول : «عندما قلنا للناس : هذه الأرض يمكن أن تكون لكم» حدث ما يشبه الانفجار . ففي تلك الأيام كانت الأرض التي نشتغل عليها ، والبيت الذي نسكنه ، بل حتى القبر الذي ندفن فيه ملكاً لصاحب الأرض»[٣] (وعزيز صقر هو ابن فلاح علوي بائس ألجأه الضيق إلى النزول من الجبل . وقدر للدكتور صقر فيما بعد أن يحصل على الدكتوراه من جامعة موسكو ، وعُين عام ١٩٨٤ محافظاً للاذقية) .

كان أكرم الحوراني أول سياسي سوري يتفهم المشكلة الفلاحية وهو أول من أثارها في البرلمان وجعلها في الواجهة الأمامية من قضايا الساعة السياسية . كانت رسالته وأساليبه الخشنة العنيفة حيال الملاك قد هزت النظام الاجتماعي في عمق الأراضي السورية .

ولا شك أن ما كان يفعله أكرم الحوراني على الجانب الآخر من الجبل كان له تأثيره على الجبل نفسه ، فقد ساعد على خلق المناخ الذي استطاع فيه الأسد وأقرانه أن يطيحوا بنير الوجهاء المحليين لديهم ، ويروا امكانيات التغيير الثوري في جميع أرجاء البلاد . أما على الساحل فقد أصبح اسم الحوراني عند العائلات صاحبة الزعامة في اللاذقية شهيراً ومكروهاً مثلما كانت حاله لدى المجتمع الارستقراطي في حماه . وهكذا راحت أسر أصحاب الأراضي مثل شريتح وهارون في اللاذقية وعلي ديب في جبلة تشكل تحالفات انتخابية مع زعامات الجبل في محاولة لكبح جماح القوة الصاعدة . إلاّ أن أوان عكس التيار كان قد فات . فقد أقام حزب الحوراني شبكة أنصاره ، وأوجد أماكن في الكلية العسكرية لتاركي المدارس ، وأخاف الوجهاء القدامى وأرسل رجاله إلى

البرلمان في دمشق . وكان لحماه سبعة مقاعد نيابية في هذا البرلمان كان ستة منها عام ١٩٤٩ للملاك بينما كان الحوراني وحده يمثل المعارضة الفلاحية . أما في انتخابات عام ١٩٥٤ فقد انقلب الوضع : إذ لم ينتخب إلا ملّاك واحد هو عبد الرحمن العظم ، بينما حصلت جماعة الحوراني على المقاعد الستة الأخرى ، وكان ذلك مؤشراً إلى أن المعارك قد كسبت في حرب الطبقات .

مشكلة الأرض

بدأ الأسد كقائد طلابي ، ثم كضابط طيار يتعرف على بلده بشكل مباشر . فقد أخذته المؤتمرات الطلابية إلى حلب ، وحمص ، وحماه ودمشق نفسها ، وهي رحلات علمته (من بين أشياء أخرى كثيرة) أن السفر في باصات مخلعة متداعية على طرق رديئة التعبيد كان شيئاً بطيئاً وغير مريح . وقد سمع من زملائه في القوة الجوية قصص حياتهم ونشأتهم . ومن هذه الأسفارواللقاءات عرف أن سوريا كلها ـ وليس قريته فقط ـ كانت بلداً متخلفاً جداً .

كانت سوريا لا تزال بلداً زراعياً في المقام الأول. وكان العمود الفقري لها فلاحوها البالغ عددهم مليونين (من مجموع سكان يصل إلى حوالى ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة) ـ وكانوا موزعين على خمسة آلاف وخمسمائة قرية بنيت معظم بيوتها من الطين وكان معظمها بلا مياه ولا مجاري تصريف، ولا كهرباء، ولا طرق معبدة، ولا أي سبب من أسباب الراحة والرفاهية المعروفة في الحياة الحديثة. وكانت الأمراض تفتك بالناس، فقد انتشرت الملاريا والسل والاسهال والتهاب الامعاء بسبب الازدحام وسوء الأحوال الصحية. وفيما بين عامي ١٩٥١ و١٩٥٣ كان هناك نسبة ٣٦٪ من الوفيات المسجلة لأطفال دون الخامسة من العمر. وكان الدخل القومي للفرد لا يتجاوز ٤٤٠ ليرة سورية (١٥٧ دولاراً بسعر الصرف السائد آنذاك) ـ غير أن التباين الاجتماعي كان من الفداحة بحيث أن معظم السوريين لم يكن دخلهم يصل حتى ذلك المبلغ.

وكانت الكهرباء خارج دمشق وحلب شيئاً نادراً ، وتخدم أقل من ثلاثة

أرباع مليون نسمة في البلاد كلها ولم يكن في سوريا من أقصاها إلى أقصاها سوى ١٣٠٠٠ سيارة ، وكان لها مرفأ وحيد : اللاذقية وثلاث سكك حديد صغيرة ـ كلها بناها العثمانيون ـ وذات قياسات مختلفة .

كانت العقدة الأساسية هي الأرض . فالأرض ، التي هي مصدر الثروة الأساسي للبلاد ، كانت محصورة في أيدي الملاّكين الغائبين الذين كانوا يتصرفون بالفلاحين على هواهم ، مثلما كان يحصل منذ أن تأسس نظام ملكية الأرض في القرن التاسع عشر . ولم تفعل فترة الحكم الفرنسي فيما بين الحربين شيئاً لتغيير هذا الوضع . وعندما كان الأسد في المدرسة ، تنبأ الباحث الاجتماعي (جاك ويليرس) الذي كانت معرفته بسوريا لا تُضاهى «بأن أكبر العوامل التي ستؤثر على المستقبل تأثيراً عميقاً هو ما يحدث للفلاحين . فثمة شيء مؤكد واحد هو أن مشكلة الفلاحين ستصبح أكثر ضغطاً والحاحاً كل عام ، وإن الطريقة التي تحل بها هي التي ستكيف لا شكل وتركيب الشرق الأدنى المقبل فحسب ، بل ومستقبل الحضارة العربية التي تناضل من أجل ولادتها الجديدة»[٤] .

كان الفلاحون المستغلّون المهانون هم أعقد مشاكل سوريا الأساسية ، وكانت أسوأ الأوضاع في السهول الوسطى حول حماه حيث أن عامل المطر المتقلب وغير المضمون قد جعل المزارعين معتمدين اعتماداً شديداً بشكل غير عادي على مالكي الأرض . وبما أن المحصول الواحد كالقمح أو الشعير لم يكن يتطلب مهارة زراعية كبيرة فقد كانت الحراثة والبذار والحصاد أشياء روتينية نمطية ثابتة تتم في زمن محدد ومتواقت على كل قطع الأرض ، مما يجعل حراستها على يد المالك أو نائبه أو وكيله أمراً سهلاً ، وحتى فرصة قيام المزارع باختلاس بضعة أكياس من الغلال من سيده كانت محدودة جداً[٥] .

كان هناك نوع من الزراعة الجماعية يمارس منذ أجيال عديدة يعرف باسم «المشاع» . كانت القرية كلها تملك أرضاً ملكية عامة ، ولكنها كانت توزع

بصورة دورية تتناوب فيها كل عائلة زراعة القطع الأجود من تلك الأرض . ولكن هذا النظام قد انهار على أية حال عندما حاول العثمانيون ، ثم حزب تركيا الفتاة بعد ١٩٠٩ ، ومن بعدهم الفرنسيون أن ينظموا سجلاً للأراضي . وكانت النتيجة أن الوجهاء المحليين وشيوخ القبائل اغتنموا الفرصة ليحصلوا على الحق القانوني ، وليوسعوا ملكياتهم في وقت بدأت فيه المحاصيل السورية تصل إلى الأسواق العالمية . وهكذا أصبحت الأسر القوية تملك مساحات شاسعة من الأرض بينما حوّلت أغلبية الفلاحين إلى محاصصين . وهنا بدأ الاستبداد يمد جذوره في الريف وبعد قانون الأرض الذي أصدرته السلطات العثمانية عام ١٨٥٨ وهو الإجراء الذي بدأ بتحريك هذه العملية ، حصلت أسرة السلطان عبد الحميد مثلاً على ملكية ما لا يقل عن ١١٠ قرى في سوريا ، وكان هذا نموذجاً يحتذى (ولو على نطاق أكثر تواضعاً) من قبل بعض العوائل السورية كعائلة العظم ، والبرازي ، والكيلاني ، التي أخذت ـ مثل نظرائها في روسيا القرن التاسع عشر تحسب ممتلكاتها بعدد القرى والبشر الواقعين تحت يدها ، وليس بعدد الفدادين والدونمات .

واشترى تجار المدن والمرابون أيضاً بعض الأراضي ، بينما تمكنت بعض الأسر القروية القوية من تأمين نصيب لها أكبر من حصتها . . . مما زاد في إضعاف وتلاشي مبدأ الملكية الجماعية . غير أن العمل الجماعي على الطراز القديم بقي مستمراً ، وأصبحت أرباحه يمتصها الملاك الغائبون . وهكذا أهملت الأرض وراحت تتعطش للاستثمار تعطشاً شديداً . فالمزارعون ، نظراً لخوفهم من جابي الضرائب ، أو لأنهم ببساطة لم يكونوا واعين لما كان يجري ، لم يجدوا لهم مكاناً في سجل الأرض . وعندما كان المزارع المشارك لا يقدم سوى جهده ، كان يتلقى حصة تتراوح نسبتها بين ٢٥ ٪ و٣٠٪ من المحصول وهذا شيء هو مجرد الكفاف . أما إذا قدم أيضاً رأس المال، فقد كان باستطاعته أن يأمل بالحصول على ٧٠ ٪ أو ٧٥ ٪ من المحصول ، وكانت

هناك عدة تحويرات وتنويعات في الصيغة تعتمد على كيفية ري الأرض وعلى من يقدم المياه والبذور. وعلى كل حال لم يكن لدى معظم الفلاحين ما يبيعونه سوى الجهد والعرق.

وإذ نفخت الثروة أوداج مالك القرية فقد راح يطالب بالاحترام في المدينة كما على أرضه ، فأصبح هو المرشح في الانتخابات ، وهو المتحدث باسم المجتمع ، وهو الذي يقصد بيته الضيوف ذوو الأهمية ، وهو الذي يؤوي في قريته العمال الذين يحتاجهم ، أو يطردهم حسبما وعندما يشاء ، وكان يطلب الطاعة التامة والخضوع من عبيده الذين لا يملكون أرضاً ولا بيوتاً . ولم يكن للمزارع رأي ، ولا سلطة يشكو إليها ولا مكان يذهب إليه ، وكان الآخرون يحتقرونه وهو أيضاً يحتقر نفسه .

وكانت هناك ممارسة تخلق حقداً مريراً بشكل خاص : تلك هي معاملة نساء الفلاحين على أيدي ملاك الأرض ـ فلا فتاة تخطب بدون موافقة رب العمل ، ولم يكن المتزوجون حديثاً قادرين على بناء بيت بدون رخصة منه . وإذا رغب في فتاة وتمنعت فإنها تتعرض مع عائلتها كلها للطرد من الأرض . وفي سوريا كما في مجتمعات حوض الأبيض المتوسط الأخرى يرتبط شرف الرجل ارتباطاً لا انفصام له بفضيلة وعفة نسائه ، سواء أكان ذلك متعلقاً بأمه أو أخته أو زوجته أو قريباته . وللدفاع عن العرض أو للانتقام له فإن الرجل يقدم على القتل . كانت حماية النساء من اعتداءات الملاكين صيحة جمعت كثيراً من الشباب في الريف السوري تحت ألوية الأحزاب السياسية الجديدة .

حكم العسكر

شهدت الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تلتها مباشرة تكوّن بعض الثروات الجديدة ، فقد بدأت حفنة من الصناعيين تصنع الأقمشة من القطن والخيوط الاصطناعية ، والصابون ، والاسمنت ، والزجاج ، والكبريت بتمويل من مدخرات أيام الحرب بشكل أساسي . وفي الوقت نفسه بدأ بعض تجار

المدن يخضعون الأرض البور في شمال شرق البلاد للجرارات الزراعية من أجل إنتاج القمح في الشتاء والقطن في الصيف ـ وكان المحصول وفيراً في تلك السنوات ـ وذلك بضخ المياه من نهر الفرات . ولكن مثل هذه التطورات في الريف والمدينة لم تكن تؤثر بشيء على حياة الجماهير[٦] . في المدن ، كان كثيرون يعيشون من رواتب وأجور زهيدة في أوضاع تعيسة بائسة، بينما كان الادقاع والعوز عامّين طامّين في الريف بصورة شاملة . وكان الفلاحون أُمّيين إلى حد كبير لا يملكون شروى نقير ، بل كانوا مدينين للمرابين ويعيشون في خوف من المـلاّك الغائب، وحياتهم بائسة كحياة الأقنان الروس تحت حكم القياصرة او العبيد السود في الجنوب الأميركي قبل الحرب الأهلية.

فالثروة الجديدة مثلها مثل القديمة ـ كانت في أيد قليلة . وبما أن الدولة كانت ضعيفة ولا تتدخل نظرياً في الأمور الاقتصادية ، فقد ظلت الثروة تعني القوة والجاه والسلطان . وفي بلد مواصلاته قليلة وبدائية ، والحركة فيه صعبة ، والسيولة النقدية شديدة الندرة فإن الوجهاء المحليين وملاّك الأراضي وشيوخ القبائل كانوا هم الدولة . وكان نفوذهم يفوق نفوذ أي موظف حكومي بكثير . وعلى أية حال فإن مناصب محافظي المقاطعات والوظائف العليا في سلك القضاء ، والشرطة والدرك كانت كلها في أيديهم .

كان الدكتاتوريون العسكريون الذين حكموا سوريا من ١٩٤٩ حتى ١٩٥٤ غير مجهزين بأي شيء يمكنهم من معالجة مشاكل البلد . وكانوا قد خدموا في أيام فرنسا ، وكانوا ينتمون إلى ما قبل جيل الجيش العقائدي . ولم يفكروا بعمق في عالم ما بعد الحرب . ومن بين العسكريين الثلاثة الذين استولوا على السلطة[٧] في تتابع سريع عام ١٩٤٩ ـ وهم حسني الزعيم في ٣٠/آذار/ مارس، وسـامي الحنـاوي في ١٤/ آب وأديب الشيشكلي في ١٩ كانون الأول ـ كان هذا الأخير أهمهم ، وقد ظل في السلطة أكثر من أربع سنوات حتى تم إسقاطه هو الآخر في ٢٧ شباط/ فبراير سنة ١٩٥٤ . وحتى الشيشكلي

لم يكن لديه فلسفة اجتماعية أو اقتصادية مترابطة أو متماسكة تشكل سياساته رغم أنه كان صديقاً للثوري الحموي أكرم الحوراني وكان يغازل أفكار أنطون سعادة عن «سوريا الكبرى»، وقد كسب شهرة لقتاله ضد الانكليز في العراق سنة ١٩٤١ وضد الفرنسيين في سوريا سنة ١٩٤٥ ، وضد الصهاينة في فلسطين سنة ١٩٤٨ .

وكان إسهام أولئك الضباط فيما بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٤ يتلخص في إدخال شيء من الهواء النقي إلى نظام ظل يغط في نوم الركود العثماني الطويل ، وفي الأشراف على خطوات البلد الصغيرة الأولى في اتجاه بناء الدولة الحديثة . فقد أنشيء مصرف مركزي ، وتم إصلاح القوانين ، وبديء بتوطين البدو الرحل ، وأزيلت بنود «الديانة» من بطاقات الهوية ، وحصلت النساء المتعلمات على حق التصويت . وفوق كل ذلك فإنهم أفسحوا المجال والفرصة لقوى جديدة كي تتجمع وتهيء نفسها للتحولات الكبيرة القادمة بعدهم.

بالاضافة إلى قيامه بتعبئة الفلاحين ، كان الحوراني من أوائل الذين أدركوا الامكانية السياسية لجيش سوريا الوطني الفتيّ الجديد ، وبدأ يبني صداقات مع طلبة الكلية العسكرية بحمص . وبحلول سنة ١٩٤٩ كان باستطاعته أن يحرك الخيوط للانقلابات العسكرية التي شهدتها البلاد في ذلك العام ، وأن يستحم في الأضواء مع صديقه أديب الشيشكلي الذي برز كرجل سوريا القوي . وهكذا استطاع الحوراني ، بطل الفلاحين ، أن ينتزع توقيع الشيشكلي على مرسوم لتوزيع أراضي الدولة في كانون الثاني / يناير ١٩٥٢ . كانت تلك محاولة مبكرة وإن لم تكن ناجحة تماماً في ميدان الاصلاح الزراعي . ولكن عندما تحوّل الشيشكلي إلى دكتاتور كامل وأخذ يكمم الصحافة ويلقي القبض على معارضيه ، هرب الحوراني عبر الجبال إلى لبنان .

وهناك انضم إليه مؤسسا البعث ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار ، اللذان هربا هما الآخران من اضطهاد الشيشكلي . وفي منفاهم قرر الثلاثة عام

١٩٥٣ دمج حزبي البعث والعربي الاشتراكي لتكوين حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان بمثابة تجمع موظفي المدينة والمعلمين وأشباههم مع الفلاحين الثوريين . وتحت اليافطة المشتركة خاضوا معركة انتخابات ١٩٥٤ بعد سقوط الشيشكلي ، ووضعوا تحالفهم في صدارة المسرح السياسي . وقد اكتسح الحوراني الموقف في حماه كما رأينا من قبل ، وفاز وهيب الغانم في اللاذقية ، وفي دمشق تمكن البيطار من دحر الأمين العام للحزب القومي السوري الاجتماعي .

لقد كانت سنوات الخمسينات عصر الاحساس بأن التغيير الاجتماعي الجذري هو أمر ممكن وراح هذا الاحساس ينتقل من المدارس والاجتماعات الحزبية ونوادي الضباط إلى أماكن العمل والمزارع في أرجاء الريف . كان الحوراني عامل التغيير والقابلة التي ولدت على يديها سوريا الجديدة والتي قُيِّض للأسد أن يرأسها فيما بعد . إذ لم يفعل أحد أكثر مما فعل هذا الرجل النشيط ، الداهية ، صاحب روح الدعابة ، في هز أسس الطبقة الحاكمة القديمة . فلقد أثار الفلاحين ، وسيَّس الجيش ، وقدَّم لمنظِّري البعث الوزن السياسي الراجح . ثم إن المثل الذي ضربه جعل غضب الريفيين المستعر ضد النفوذ المتمرس في المدن يشتد تركيزه . لقد أوضح للسياسيين من الشباب الصاعد ما الذي يجب عمله وما الذي يمكن تحقيقه .

هوامش الفصل الرابع

(١) مقابلة مع الدكتور عبد السلام العجيلي (الرقة ـ ٢٢ نيسان/ ابريل ١٩٨٣) .

(٢) مقابلة مع محمد ابراهيم العلي ، وهو كاتب ، وقائد للجيش الشعبي (دمشق ١٩ آذار/ مارس ١٩٨٨) .

(٣) مقابلة مع الدكتور عزيز صقر (اللاذقية ١٥ نيسان/ ابريل ١٩٨٥) .

(٤) ج. ويليرس (فلاحو سوريا والشرق الأدنى) باريس ١٩٤٦ ص ٣١٤ .

(٥) محمد حربا : **المنظمات الزراعية ، وسكان الريف ، والتنمية في سوريا** : المجلد الأول من أطروحة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لجامعة مونبلييه سنة ١٨٧٨ ص ١٣٢ وما يليها . (في نيسان/ ابريل سنة ١٩٨٥ عيّن محمد حربا وزيراً للإدارة المحلية ثم أصبح في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٧ وزيراً للداخلية) .

(٦) **تطور سوريا الاقتصادي** (تقرير للبنك الدولي) مطبوع في بالتيمور سنة ١٩٥٥ . دورين واريز : **الاصلاح الزراعي والتطور في الشرق الأوسط** (لندن سنة ١٩٥٧) ، عبد القادر النيال : اطروحة غير مطبوعة عن الاقتصاد السوري من الانتداب إلى الخمسينات موجودة في معهد الدراسات الاجتماعية بلاهاي ـ هولندا منذ سنة ١٩٧٤ .

(٧) من أجل معلومات مفصلة راجع كتاب باتريك سيل : **الصراع على سوريا** (اكسفورد ١٩٦٥) ص ٢٤ ـ ٢٩ ، الطبعة الجديدة (لندن سنة ١٩٨٦) .

الفصل الخامس

تنظيم القاهرة

تم فرز الضابط الطيار الأسد لدى تخرجه إلى قاعدة المزة الجوية قرب دمشق ، وانغمس بطبيعة الحال في المعارضة السياسية السائدة حينذاك باعتبار أن المؤسسة العسكرية التي انتسب إليها في بداية الخمسينات كانت أكثر المؤسسات تسيساً وتأثراً بالفئوية في العالم العربي . فمنذ الانقلاب العسكري الأول عام ١٩٤٩ لم تبذل محاولة جادة لاعادة الجيش إلى ثكناته ، وأصبح من المقبول في صفوف القوات المسلحة كلها أن الرجال يخططون ويناورون لوضع أصدقائهم ورفاق حزبهم في الوظائف الأساسية والهامّة. إلا أنه بعد سقوط الشيشكلي وعودة الحياة الحزبية انفتح الطريق أمام المزيد من الصراع السياسي النشيط . وحاول الأسد ، وهو مجرد جندي مشاة للبعث ، أن يكسب أقرانه الضباط وأن يلفت إليه أنظار قيادة الحزب .

وكان أول اكتشاف له هو أن التوترات والصراعات داخل المؤسسة العسكرية ما هي إلا انعكاس للمعارك التي خاضها في المدرسة . فبعض الضباط الذين كانوا يسمون بـ «المستقلين» كان لهم ارتباطات مع عوائل مُتنفذة في المدينة ، كما أن بعضهم الآخر كان يغازل الشيوعية ، إلا أن الشقاق الرئيسي كان بين البعث وبين حزب انطون سعادة المعروف باسم الحزب

السوري القـومي الاجتماعي . فالوطن بالنسبة إلى البعث هو كامل الوطن العربي . أما بالنسبة إلى الحزب الآخر فهو «سوريا الكبرى» التي اعتبرها القوميون السوريون أمة متميزة عن داخل الأرض العربية . وكان هذا الصراع السياسي من أعمق الصراعات في شباب الأسد إذ أنه أدى إلى انقسام قرى الجبل فيما بينها بل فيما بين أفراد العائلة الواحدة . فعائلة مخلوف التي تزوجت منها عمته سعدى في قرية بستان الباشا القريبة من القرداحة كانت معروفة بولاء أبنائها للحزب القومي السوري ، ولذلك فإنهم كانوا ينظرون إلى ارتباطات الأسد البعثية بعين الشك والريبة . والواقع أن كل واحد في الجبل كان يعرف كل شيء عن الآخر .

وكانت المصالح الاقتصادية داخلة في هذا الصراع. فقد كسب الحزب القومي السوري موطىء قدم في ريجي التبغ في اللاذقية راح من خلاله يمد أذرعته ومجساته إلى صفوف مزارعي التبغ . كان بإمكان كاتب حسابات من الحزب القومي السوري مثلاً أن يسمح لزميله في الحزب أن يعلن فقط عن جزء من محصوله ، وبذلك يترك له فرصة بيع باقي المحصول بأسعار أغلى في السوق السوداء وقد كره الجيل القديم الطريقة التي راحت بها الأحزاب العقائدية تتدخل في أساليب الحياة والتجارة التقليدية ، واستنكر حزبي البعث والقومي السوري معاً فاعتبرهما فاسقين ملحـدين ، غير أن الشبـاب الحزبيين لم يرتدعوا . فالأحزاب السياسية وقد صارت المناصب والمهن ملك يديها بدت أنها هي المستقبل وأنها الوسيلة للخلاص من فقر الحاضر . أما في داخل القـوات المسلحة فقد تميز هذا الصراع البعثي ـ القومي السوري بأبعاد اكثر خطورة. فالمعـروف عن الحـزب القـومي السـوري أنه مؤيد للغرب، ومعاد للشيوعية وللقـومية العـربية، أمـا طمـوح البعث فهو توحيد العرب في سبيل الخلاص من التسلط الغربي.

تحول هذا الصراع إلى عنف عندما اغتيل العقيد البعثي البارز عدنان

المالكي في نيسان/ أبريل ١٩٥٥ خلال مباراة لكرة قدم على يد رقيب علوي في الشرطة العسكرية هو يونس عبد الرحيم الذي اغتيل هو نفسه على الفور على يد علوي آخر . وسرعان ما تبين أن قاتل المالكي هو عضو في الحزب القومي السوري . وقد أتاح ارتباط القاتل بالحزب للبعثيين والشيوعيين شن حملة ضد الحزب القومي السوري وتحطيمه في موجة من الاعتقالات والمحاكمات بتهمة الخيانة . وكانت المطاردات شاملة وعنيفة إلى درجة أن كثيراً من العلويين البارزين ، ومعظمهم ممن لم تكن لهم علاقة بالحزب القومي السوري ، وجدوا أن من الحكمة الهرب إلى لبنان للتخلص من القمع ، وكان من بينهم الشاعر ـ السياسي بدوي الجبل ، أول علوي يحتل منصباً في وزارة سورية . وأدت حملة التطهير هذه إلى ترجيح الميزان لصالح ضباط البعث بشكل حاسم . (وقد أحيطت ظروف مقتل المالكي فيما بعد بشكوك كثيرة فقد سرت اشاعات تقول إن المخابرات المصرية ، التي كانت تعمل من خلال آمر الشرطة العسكرية آنذاك أكرم الديري ، هي التي رتبت عملية الاغتيال في سبيل ايجاد مبرر لتحطيم الحزب القومي السوري) .

وكان لاغتيال المالكي نتائج حاسمة في تاريخ سوريا الحديث ، فبعد ازاحة خصمه الرئيسي وجد حزب البعث نفسه أكبر قوة في القوات المسلحة ، مما خدم بالتالي مستقبل الأسد وبعثيين آخرين ، إذ وقع عليه الاختيار وحده من أجل الترفيع كما تقرر أن يعطى تدريباً إضافياً . وقد أتاحت قاعدة المزة مجالاً واسعاً لابراز روح المنافسة الطبيعية لديه . ويتذكر كيف قال له مدربه الألماني الذي كان يعلّمه الطيران بطائرة مقاتلة ذات محرك من نوع فيات ـ ٥٩ : «يا حافظ لقد تناولنا إفطارنا . دعنا نر من سيجعل الآخر يفقد إفطاره أولاً» . وهكذا أقلعا وراح كل منهما يطارد الآخر عبر السماء مع التقلب والمداورة كأنهما في معركة جوية[١] .

وكان سرور الأسد عظيماً حين وقع عليه الاختيار عام ١٩٥٥ للذهاب

إلى مصر من أجل مزيد من التدرب على الطيران . كانت تلك أول رحلة له إلى الخارج تتضمن الترقي من العمل على الطائرات ذات المحرك ـ التي أصبحت قديمة ـ إلى العمل المثير في الطيران النفاث . ولو تم الايفاد قبل عام لكان الأسد قد اتجه إلى إنكلترا حيث كانت سوريا ترسل طياريها للتدرب على القتال الجوي ، ولتلقي دورة سريعة لتعلم المصطلحات الفنية بالإنكليزية ، ولكن الترتيبات انهارت فجأة عندما كان الأسد وزملاؤه الخريجون قد بدأوا استعدادهم . وكان السبب هو انزعاج حكومة انطوني ايدن من ميل سوريا إلى فلك جمال عبد الناصر القائد المصري الصاعد الذي أسقط هو ورفاقه الضباط الأحرار الملكية المصرية عام ١٩٥٢ والذي أكسبه تحديه لبريطانيا الامبريالية أتباعاً متحمسين في العالم العربي .

كان الذهاب إلى القاهرة شيئاً مثيراً باعتبارها مقر حكومة عبد الناصر الثورية . ولاستعادة روح الخمسينات يجب أن يتذكر المرء أن المجتمع العربي كان لا يزال مصاباً بصدمة هزيمة ١٩٤٨ وضياع فلسطين ، وكان العرب في حيرة من أمرهم لمعرفة كيف يحمون أنفسهم من الغرب ومن اسرائيل . وعندما ظهر عبد الناصر بجاذبيته الشخصية على المسرح دلَّ ما أضفاه الناس عليه من قوى خارقة على عمق حاجة العرب إلى منقذ يقودهم ويخرجهم من هذا التيه . ومن بين جميع العرب كان السوريون الأكثر انجذاباً نحوه بسبب ما لاقوه من معاملة سيئة على يد الغرب ولأنهم كانوا يتطلعون إلى استقلال غير مقيد . وقد ازداد الانجذاب نحوه حين تمكن من جعل مصر تحصل على دبابات وطائرات ومدافع سوفياتية بموجب ما عرف باسم (صفقة الأسلحة التشيكية لعام ١٩٥٥) . وبذلك استطاع عبد الناصر بضربة واحدة : أن ينسف احتكار الغرب للسلاح المرسل إلى الشرق الأوسط ، وأن يمكّن الاتحاد السوفيتي من القفز وراء خطوط الغرب الدفاعية ، وأن يجعل الملف الاقليمي الذي تبناه الغرب والمعروف باسم حلف بغداد شيئاً غير ذي معنى[٢] . وهكذا فإن دعوة عبد الناصر للعرب ليثبتوا

وجودهم اكتسبت مصداقية فورية . أما في سوريا فقد صعد نجمه إلى الأعالي .

ثم زاد عبد الناصر من قوة مركزه في سوريا حين عقد معاهدة دفاعية معها . ولكن سرعان ما قامت اسرائيل على الفور بالهجوم على المواقع السورية قرب بحيرة طبريا في ١١/ ١٢/ ١٩٥٥ وأوقعت عشرات الضحايا ، وكان هدفها الواضح من ذلك هو أن تظهر لسوريا عدم جدوى اتفاقيتها الجديدة مع مصر . وكان موشي دايان الذي أصبح رئيساً لأركان الجيش الاسرائيلي في أوائل ١٩٥٢ قد نال شهرته باعادة الثقة والقدرة القتالية إلى القوات الاسرائيلية بعد فشل مناوشاتها ضد التحصينات السورية في الجولان . وجاء الهجوم على طبريا ليتوج مسعاه في ترميم تلك الثقة . إلا أن هذا الهجوم أدى إلى نتيجة معاكسة إذ بدلاً من أن يبعد سوريا عن مصر فإنه أقنع السوريين بأن أملهم الوحيد في الأمن إنما يكمن في إقامة علاقات أوثق مع مصر ، ومع مصدر تسليحها : الاتحاد السوفيتي .

ولم تكن سوريا تواجه تهديداً اسرائيلياً فحسب ، بل كانت تتعرض أيضاً لضغوط من العراق وتركيا ، العضوين الأصليين في حلف بغداد ، ولذلك أحست أنها معرضة للخطر ، وفي هذه الظروف بالذات طرح البعث لأول مرة فكرة الوحدة مع مصر .

وبهذه الروح من الاعجاب بعبد الناصر والالتزام بمصر طار الأسد وبضعة طيارين سوريين إلى القاهرة للاشتراك في دورة تدريبية مدتها ستة أشهر .

وكان من المقرر أن يبدأ الطيارون السوريون تدريبهم بطائرات سبتفاير غير أنهم عند وصولهم اكتشفوا أن طائرات سبتفاير المصرية لم يكن في أي منها مقودان من أجل السيطرة المزدوجة ، وهكذا ما لبثوا أن أرسلوا ليقلع كل منهم بطائرة وحده . في اليوم الأول أقلع الأسد ثم هبط بسلام ، كما فعل رفاقه . وفي اليوم التالي أخذ مدربهم المصري الطائرة في تحليق تجريبي بينما كان المتدربون ينتظرون دورهم ، وفي مقدمة الدور كان الأسد . «وشاهدنا المدرب يقوم ببعض الحركات البهلوانية الجريئة فشجعناه وهتفنا له . فانطلق في نصف

دائرة ثم غاص ، فبدا المنظر هائلاً ، ولكنه لم يصعد من تلك الغطسة ، فلم تكن تلك ألعاباً بهلوانية»[٣] . وبعد حادثة التحطم هذه أوقفت طائرات سبتفاير المصرية القديمة التي تنقصها الصيانة عن الاقلاع ، ونقل الضباط السوريون إلى التدرب على الميتيور ٨ البريطانية الصنع .

وعندما قام عبد الناصر في ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٥٦ بتأميم شركة قناة السويس وذلك كردٍّ غاضب على سحب الغرب لعرضه بالمساعدة في بناء السد العالي تفجر الحماس الشعبي بلا حدود عبر الوطن العربي . وكانت ذروة أزمة السويس هي التواطؤ السري بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، والهجوم المدبر على مصر في شهر تشرين الأول وكانت سوريا وحدها من بين البلدان العربية هي التي عرضت على مصر أن تشترك معها في القتال ، ولكن عبد الناصر رفض العرض لأنه كان يعرف أنه من الناحية العسكرية سيكون مقضياً عليه بالفشل ، وكان على مؤيديه والمعجبين به في سوريا أن يكتفوا بنسف أنابيب النفط المارة عبر بلدهم . كان ذلك أول استخدام ـ ولو محدود ـ لسلاح النفط .

وقد لعب الأسد دوراً صغيراً في دراما السويس . كان قد عاد إلى سوريا في مطلع سنة ١٩٥٦ بعد أن أنهى دورته بمصر ، وكان مقر عمله محطة جوية قرب دمشق. كانت قاعدة لقوة سوريا الجوية الصغيرة المؤلفة من المقاتلات القديمة من نوع فيات وميتيور . وعندما انفجرت أزمة السويس أرسل مع حفنة من الطيارين الآخرين شمالاً إلى قاعدة النيرب الجوية قرب حلب للقيام بمهام الاستطلاع الجوي فوق شمال وشرق سوريا . كانت الدفاعات الجوية حينذاك بدائية على أحسن الفروض ، أما «الانذار المبكر» المتوفر وقتها فكان مؤلفاً من مراكز للشرطة لديها تعليمات بأن تتصل هاتفياً إذا ما لاحظت طائرة غير معروفة . ولكن ما ان يصل الشرطي إلى الهاتف (والتلفونات كانت بدائية وقليلة يومئذ) ، حتى تكون الطائرة قد أختفت منذ زمن طويل[٤] وكانت سوريا تتوقع أن يأتي المتلصصون يومياً . وقد جاؤ وا فعلاً . كانت بريطانيا تريد أن تتأكد من تقارير

أشارت إلى أن الاتحاد السوفيتي قد نقل طائرات ميغ ١٧ إلى مهابط سرية في بادية الشام (ولكن الواقع أن سوريا كان عليها أن تنتظر إلى سنة ١٩٥٧ قبل أن تتلقى أولى طائراتها الحربية السوفيتية).

وذات يوم ، بينما كان الأسد مناوباً وصل نداء من قسم شرطة البوكمال على نهر الفرات بأن طائرة كانبيرا بريطانية قد شوهدت تدخل المجال الجوي السوري قادمة من العراق ، فأرسل الأسد بطائرة ميتيور للبحث عنها ، فطاردها وسرَّه أن أطلق عليها النار قبل أن تهرب نحو قبرص . وفي غضون ذلك كان طيارو سوريا في طائراتهم مستعدين للانطلاق في أية لحظة . وذات مساء قبل الغروب بحوالى أربعين دقيقة تلقى الأسد أمراً باعتراض طائرة متسللة . وقبل أن ينطلق فحص الكوابح عند فتح الصمام الخانق فتحاً كاملاً ، فوجد فيها عطباً ، ولكنه قرر أن يغامر. وبعد أن قام بجولة جوية واسعة وعريضة لم يجد شيئاً ، وكان الوقود يتناقص ، وقد بدأ الظلام يقترب ، فقرر أن يعود إلى القاعدة . ولكن مطار النيرب في ذلك الحين لم يكن مجهزاً للطيران الليلي . وكان المهبط لا يكاد يرى كخط أسود وسط سواد يحيط به ، وكان الظلام حالكاً بدرجة لا تسمح بفحص اتجاه الريح من الكوة . وعندما سأل الأسد عن تعليمات الهبوط اتضح له أن جهاز اللاسلكي قد تعطل تماماً . ولم يدرك بأن الريح قد غيرت اتجاهها خلال تحليقه ، فجاء والريح نازلة بدلاً من أن تكون صاعدة ، وهذه مسألة خطيرة بالنظر لذيل الميتيور ٨ المرتفع .

ومع عطب الكوابح واندفاع الريح بقوة خلف ذيل الطائرة فقد تجاوز نهاية المهبط بسرعة واندفع عبر حقل من الشجيرات الصغيرة باتجاه جدار حجري ، فعدّل الطائرة باستخدام الدفة وفتح الكوة وأمسك بجوانبها لتثبيت نفسه عند الارتطام بالأرض . وبضربة حظ اصطدمت العجلات بقناة مائية جعلت الطائرة تثب فوق الجدار في قفزة مقوسة وتعبر طريقاً خلفه ، حيث كادت تصيب مخيماً للاجئين الفلسطينيين ، وطارت العجلات منفصلة عن جسم الطائرة ، وتوقف

المحرك ، وهبطت الميتيور على بطنها . وقفز الأسد خارجاً وألقى نفسه في حفرة قريبة . كان الدخان يتصاعد من الطائرة ومع وجود أربعة مدافع من طراز هسبانو سويزا وكثير من الذخيرة ، فقد ظن أنها قد تنفجر . وبعد برهة سمع أناساً يتراكضون بين الأشجار يبحثون عن الطيار ، وكانوا بلا شك يتوقعون أن يعثروا على جثة تتدلى من غصن ما[٥] . وهكذا نجا الأسد من الموت بأعجوبة مرة أخرى .

وعند التحقيق اعترف الأسد بأنه عندما فحص الكوابح وجدها معطلة ، فتلقى توبيخاً شديداً ، وحكم عليه بغرامة ، وبالحبس مع وقف التنفيذ . وأصبح هبوطه الاضطراري حديث القوة الجوية السورية الصغيرة . ورأى بعض الضباط أنه يستحق اللوم ، ولكن معظمهم كانوا يشعرون بأنه أدى واجبه بشجاعة ولاموا آمر القاعدة لأنه أرسله قبيل غروب الشمس في مهمة سيعود منها عند هبوط الليل إلى قاعدة غير مجهزة للطيران الليلي . لقد اغتاظ الأسد من أن يعاقب لقيامه بما اعتبره واجباً وطنياً ، وعزا تلك العقوبة إلى التحيز ضده بسبب انتمائه البعثي .

لقد كان الأسد ضابطاً شاباً متحمساً له شعبيته بين مأموريه ولكنه من وجهة نظر رؤسائه كان مستقلاً أكثر من اللازم . وعلى أية حال عندما صعد ليصبح آمراً للقوة الجوية السورية بعد أقل من عقد من الزمن لوحظ أنه لم يكن لديه أية ضغينة تجاه الضباط الذين أصدروا الحكم عليه في محكمة التحقيق[٦] .

الوحدة مع مصر

في ١ شباط/ فبراير ١٩٥٨ دخلت مصر وسوريا باندفاع حماسي في وحدة بينهما . وجاءت المبادرة من سوريا وعلى الأخص من دزينة من الضباط كانوا يديرون شؤون القوات المسلحة يومها . وقد وصل الخصام فيما بينهم إلى نقطة احتاجوا معها إلى حَكَم . فالدولة السورية لم تشعر بالطمأنينة قط . وبغض النظر عن التهديد من قبل اسرائيل ، تعرضت سوريا منذ استقلالها للعزل ، والاستفزاز ، والدفع والجذب إلى هذا الاتجاه أو ذاك وفقاً لمخططات هاشمية ،

وسعودية ، ومصرية متنافسة . ولكن المنافسات بين العرب تضاءلت إلى جانب التنافس بين الشرق والغرب الذي وجدت سوريا نفسها في وسطه عند منتصف الخمسينات مما جعلها عرضة لضغوط لم يكن ليحتملها نظامها السياسي غير المستقر أصلاً .

وتحت ضغط البعثيين من الضباط السوريين ، اضطر هؤلاء إلى الاتجاه من أجل طلب المساعدة من عبد الناصر الذي اعتُرف به وقتها كأعظم عربي في جيله . وقد سبق لقادة البعث أن قاموا بحملة من أجل الاتحاد مع مصر . أما الآن فقد راحوا يضغطون من أجل اندماج فوري . وكان سبب استعجالهم هو خشيتهم من أنهم ، بدون مساعدة عبد الناصر ، فقد يتجاوزهم الشيوعيون الذين كانوا يتمتعون يومها بشعبية غير عادية بسبب وصول الأسلحة السوفياتية والتعهدات بمساعدات اقتصادية .

ولكن عبد الناصر لم يكن متحمساً لوحدة عضوية مع سوريا ، ولم يكن يطمح لادارة شؤون سوريا الداخلية ولأن يرث مشاكلها . كان بالأحرى ينادي بـ «التضامن العربي» الذي بموجبه يقف العرب وراءه ضد القوى العظمى . وكان يحتاج ، بصورة خاصة ، إلى السيطرة على سياسة سوريا الخارجية بهدف حشر أعدائه من الغربيين والعرب . وكانت هذه فكرة مختلفة تماماً عن برنامج البعث الوحدوي الداعي إلى تحطيم الحدود . ولكنه لم يكن يستطيع أن يأخذ شيئاً ويدع شيئاً ، وهكذا دفعه السوريون دفعاً إلى الموافقة على قيام الجمهورية العربية المتحدة . وسرعان ما تبددت شكوكه عندما كان ترحيب أصدقائه ومعجبيه عنيفاً بالغ السعادة ، بينما كان غيظ أعدائه وصريف أسنانهم وحشياً بالدرجة نفسها من العنف .

كانت وحدة سوريا ومصر في شباط/ فبراير سنة ١٩٥٨ صدمة عميقة لنظام القوى القائم في الشرق الأوسط ، إذ أنها أدخلت مصر إلى قلب آسيا العربية وقلبت ميزان القوى المحلي . فالهاشميون في العراق الذين طالما

تطلعوا إلى إدخال سوريا في فلكهم عانوا من خيبة أمل شديدة لأن خلق الجمهورية العربية المتحدة عزلهم عن المشرق ، وشعرت العربية السعودية بالعملاق الجديد يطمسها ، وشعر لبنان والأردن بعدم الأمن ، أما نقاط ارتكاز القوة البريطانية في الجزيرة العربية فأخذت تعد نفسها لمواجهة المد الناصري .

راح الأسد ، كأمثاله من المسيسين العرب ، يتتبع كل تحرك من تحركات عبد الناصر . وكان أسلوب الزعيم المصري ، بتحديه للقوى العظمى ، وانتصاراته ، والتزامه بالقومية العربية ، قد أجّج الحماسة في صدور البعثيين . وقد أتيح للأسد أن يرى نظام عبد الناصر عن قرب . إلاَّ أنه قبل ذلك كان عليه أن يحقق مسألة خاصة .

الزواج

في عام ١٩٥٨ كان الملازم الأسد مصمماً على الزواج من أنيسة مخلوف التي عرفها منذ الطفولة ، ثم اختارها دون غيرها وهو في أوائل العشرينات من عمره . كانت إحدى قريباته البعيدات ، فعمته سعدىٰ كانت قد تزوجت واحداً من آل مخلوف ، وهي صلة أتاحت للأسد أن يقوم بعدة زيارات استطلاعية إلى بيت أنيسة في بستان الباشا . ووقع في حبها بعد عودته من دورته التدريبية في مصر . كانت مدرّسة ذات سلوك رزين محتشم وكانت شابة رشيقة ذات شعر بنّي تقاربه في العمر ، وقد تلقت ثقافة محترمة في دير راهبات القلب الأقدس الفرنسي في بانياس على الساحل . إلاَّ أن عقبات كثيرة كانت تقف في طريق الزواج ، ولكن هذه العقبات زادت تصميم الأسد على التغلب عليها .

كانت العقبة الأولى هي أنه برغم قرابتهما فقد كانت عائلتها أبرز وأغنى من عائلته . وفي الأسر العربية الواسعة لم يكن من الغريب أن ينجب أحد فروع العائلة مثلاً جراحاً متميزاً ، بينما يتكون فرع آخر من الفلاحين البسطاء الذين ينتزعون معيشتهم من الحقل . ولم تكن الفجوة بين آل مخلوف وآل الأسد كبيرة

جداً بأي حال ، ولكنها كانت حقيقية . ولم تكن عائلة الأسد ذات الأصل الفلاحي كبيرة ولا غنية ، رغم أنها كانت قد كسبت على أرضها سمعة متواضعة في أنها وقفت بوجه الوجهاء . أما أهل أنيسة فكانوا أنفسهم من الوجهاء المحليين المعروفين بإحدى الصفات الفاضلة التي يقدرها العرب جميعاً ـ وهي الكرم ، وبالمعنى الحرفي الدقيق للكلمة فعندما أصيبت المنطقة بالمجاعة خلال الحرب العالمية الأولى ، كان كثير من القرويين الجائعين يأتون الى منزل جد أنيسة الغني للحصول على الطعام . ومنذ ذلك الحين أصبحت العائلة تعرف باسم «مخلوف» أي «الذين أخلف الله لهم ما أنفقوا» ، وهذا مشتق من التعبير الدارج بالعامية : «خلف الله عليك» . وقد حافظت العائلة على هذا الاسم ومعه تقليد الكرم واليد المبسوطة بالعطاء . فكان لدى والد أنيسة وعمها بيوت مفتوحة لاطعام الفقراء تفرد فيها غرف لايواء المعوزين ، ولم يكن أحد يغادر باب العائلة وهو جائع .

وكانت العقبة الأخرى الخلافات السياسية التي ذكرناها بين الأسرتين . ولذلك فإن خاطباً بعثياً لأنيسة لم يكن البتة ليعجب عشيرة مخلوف المعروفة بتعاطفها مع الحزب القومي السوري ، فقد دفع واحد منهم حياته ثمناً لعقيدته في أعقاب اغتيال المالكي . فبديع مخلوف، ابن عم أنيسة ، كان هو الذي أجهز على قاتل المالكي تنفيذاً لتعليمات الحزب القومي السوري . وكان أن حوكم ، وحكم عليه بالاعدام ، وقضى على حبل المشنقة . وقد اعتبرت أسرة مخلوف هذا الابن شهيداً في سبيل قضية الحزب القومي السوري . ولم يكن ذلك ليساعد الأسد في مسألة زواجه .

صمم والد أنيسة ، أحمد مخلوف، على معارضة هذا الزواج . ولكن من حسن حظ الأسد أنه كان له حلفاء في أسرتها من بينهم عمته سعدى ، وأم أنيسة التي أعجبتها صفاته . فقد كان شاباً يوحي بالثقة ولم يُعرف عنه ارتكابه لمغامرات طائشة أو غلظة في السلوك أو بذاءة في اللسان . كما لم تسمع عنه أية

علاقة نسائية ، أو أنه كان يرتاد المقاهي والملاهي ، فحتى خلال وجوده في مصر ، حيث التساهل في الأخلاقيات ، كان معروفاً بأنه طالب مثالي . ويبدو أنه لم يكن مهتماً بالانخراط في تجارب جنسية ، فمنذ سن مبكرة كان يتطلع إلى زواج مستقر يتيح له أن يتفرغ للانجاز في حياته المهنية ، ولا أدلّ على ذلك من أن اختياره وقع على فتاة هادئة ، رزينة ، وذات سمعة نقية مثله . أما من جهتها هي فقد كانت تتمتع باستقلال فكري وتجيد الحكم على الناس . ولا شك في أنها أعجبت بذكاء خاطبها الذي لم تكن فيه أية مسحة من غلظة القرية والذي جعله طموحه يتميز عن أكثر الشباب العلويين من معارفها والذين كانوا لا يزالون مشدودين إلى بيئتهم . والأعجب من ذلك أن الأسد كان يبدو مختلفاً حتى عن أقرانه الشباب الذين قطعوا مثله صلتهم بنمط حياة القرية عن طريق العلم ، والأحزاب العقائدية ، والجيش . فأكثر هؤلاء كانوا يتصورون أن وضعهم الجديد يحتّم عليهم أن يتهكموا على شيوخهم وعلى العادات القديمة ، ويتخلوا عن معتقداتهم الدينية بل أن يحتقروا القباب البيضاء التي تضم الأولياء والتي هي الرموز الدينية الوحيدة في الجبل العلوي. أما الأسد فلم يكن من هؤلاء الشباب في شيء ، ويبدو أنه لم يفقد قط ايمانه بالله .

استمر الصراع من أجل أنيسة ، وأخيراً تمكن الأسد من التغلب على شكوك أسرتها ، فحملها إلى دمشق وتزوجها أمام القاضي ، وأقاما بيت الزوجية على أطراف المزة الفقيرة . وكان ذلك بالنسبة إليها هبوطاً لا يستهان به من منزلة الدعة والاحترام والراحة التي كانت تتمتع بها كابنة أحد الوجهاء . وفي سنوات زواجهما الأولى لم يكن الأسد قادراً على تأمين مستوى الحياة الذي اعتادت عليه . ولكن ذلك لم يثبط عزيمتها ، كما لم تثبطها تذبذبات حياته العسكرية والسياسية في مدها وجزرها . وقد قدر لها أن تكون زوجة وأماً مخلصة ، وأقرب وأوثق كاتمة لأسرار الأسد ، وأن تقدم له بيئة منزلية محترمة لا تشوبها شائبة .

ورغم أنه كان زواجاً عن حب ، فإن مصاهرة الأسد لعشيرة مخلوف

المحترمة قد عادت عليه بفوائد دنيوية ، فقد أكدت انتقاله إلى طبقة اجتماعية أرقى وأكسبته بعض النقاط في المجتمع العلوي ، ولا شك أنها أسهمت في ازدياد ثقته بنفسه .

وبعد أسابيع قليلة من الزواج ، كان على الزوجين أن يتحملا فراقاً استمر أحد عشر شهراً . ففي منتصف سنة ١٩٥٨ كان الأسد واحداً من مجموعة صغيرة من الطيارين السوريين وقع عليهم الاختيار للذهاب إلى الاتحاد السوفييتي للاشتراك في دورة تدريب على الطيران الليلي بطائرات ميغ ١٥ وميغ ١٧ التي كانت سوريا قد تزودت بها حديثاً . وقد ودع الأسد في المطار وداعاً عاطفياً من قبل عائلته وأصدقائه ، وقد تذكر فيما بعد قائلاً : «في تلك الأيام كان الناس يودعونك وكأنك لن تعود قط»[٧] . فالسفر من القرداحة إلى اللاذقية كان يبدو ، منذ زمن ليس بالبعيد ، قفزة هائلة . أما السفر إلى موسكو فقد بدا وكأنه رحلة إلى القمر . وأما أنيسة التي كانت حاملاً فقد عادت إلى بيت ذويها في بستان الباشا لتنتظره هناك .

ومثل معظم السوريين ، كان الأسد في باديء الأمر ينظر إلى الاتحاد السوفييتي بشيء من الريبة بسبب إلحاده العلني ولأنه سارع إلى الاعتراف باسرائيل عام ١٩٤٨. وبالاضافة إلى ذلك فإن البعثيين والشيوعيين كانوا في تنافس دائم ، وكانوا يتلاقون عَرَضاً في خندق واحد ضد عدو مشترك . كان البعثيون يفهمون الأممية الماركسية على أنها عدو للقومية العربية ولكن في منتصف الخمسينات ، وعقب موت ستالين ، شهدت العلاقات بين العالم العربي والاتحاد السوفييتي نوعاً من الدفء على أثر اعتراف موسكو علناً بمشروعية الآمال العربية المتطلعة إلى الوحدة . وفي الوقت الذي سافر فيه الأسد إلى موسكو وكانت سوريا ومصر في نزاع مع الغرب ، بدأ الاتحاد السوفييتي يظهر كصديق له أهميته .

كانت رحلة الأسد إلى الاتحاد السوفييتي هي أول اتصال له ببلد قُيِّض له

أن يكون فيما بعد الحليف الأساسي لرئاسته . وبطبيعة الحال فإن المتدربين السوريين لم يروا الكثير من روسيا ولم يتح لهم أن يلتقوا بالعاديين من الروس . وقد ألحقوا أول الأمر في مدرسة قرب موسكو ليتعلموا المصطلحات الروسية الفنية خلال دورة مكثفة استمرت بضعة أسابيع . وقد أعطتهم هذه الفترة الفرصة لجولات في الشـوارع خلبت لبهم ولكن سرعان ما أرسلوا إلى قاعدة بعيدة تعصف بها الرياح من أجل تدريبهم على الطيران الليلي . وبرغم الروتين القاسي فقد اتسعت آفاق الأسد وكانت تلك تجربة غير عادية تطلبت جهداً ذهنياً كبيراً . ولكن بعد بضعة شهور راح السوريون يتوسلون إلى مدربيهم السوفييت ليسمحوا لهم بالعمل لفترات إضافية كي ينهوا دورتهم في وقت مبكر ويعودوا إلى الوطن . وقد اعترف الأسد بذلك فيما بعد قائلًا : «كان ينتابنا جميعاً الحنين إلى الوطن»(٨) . كان قلبه وطموحاته في سوريا ، وكان تواقاً للعودة إلى وطنه .

خيبة الأمل في الوحدة

عند العودة من السفر في ربيع عام ١٩٥٩ بعد عشرة أشهر قضاها في الاتحاد السوفياتي سارع الأسد إلى الجبل لرؤ ية زوجته وطفلته التي ولدت في غيابه ، فقد كان مشتاقاً لتنفس هواء البحر الأبيض المتوسط في القرداحة ، ولتذوق أطعمة الوطن بعد شهور طويلة من الوجبات الغريبة . واستقبل الطيار الشاب كبطل . ولكـن كانت هناك صدمة تنتظره عندما راجع مقر قيادة القوة الجوية بدمشق لاستلام مهماته ، فزواج مصر وسوريا لم يكن على ما يرام . واكتشف أن نادي الضباط ، الذي كان محور السياسة في المدينة قد فقد أهميته بين عشية وضحاها ، بينما كانت مكاتب حزب البعث مغلقةً وخالية . وهكذا وجد أن سلّمي طموحاته قد أزيحا من تحته .

قبل مغادرة الأسد إلى الاتحاد السوفياتي كان عبد الناصر قد استقبل في دمشق وكأنه صلاح الدين الجديد وذلك وسط مشاهد من الاهتياج الشعبي الذي لم يُعرف ما يماثله في العصر الحديث . ولكن حين عاد الأسد كان السخط

يسود ، وكان لدى السوريين الكثير مما يستحق الشكوى كالمنافسة غير العادلة مع المصنوعات المصرية والقيود على أعمال المصارف والتجارة والشغل السري النشيط للجواسيس والمخبرين المصريين ، وحتى إشاعات عن تدفق للفلاحين المصريين إلى المناطق البكر في أراضي الجزيرة التي كان السوريون يفكرون فيها على أنها كنزهم الدفين . وكانت هناك ضربة أخـرى ، فَلِسُوءِ حظ عبد الناصر تعرضت سوريا طيلة سنوات الوحدة لجفاف قاحل جلب البؤس للريف وساعد على نسف الاصلاح الزراعي الذي كان الحوراني وفلاحوه يأملون بأنه سيحطم قوة ملاك الأراضي الاقطاعيين .

كان عبد الناصر قد اقتلع أحشاء السياسة السورية . فلدى موافقته على الوحدة كان قد وضع شرطين أولهما أن ينسحب الضباط من السياسة وثانيهما أن تحل الأحزاب السياسية . ولكن لم يصدق ضباط البعث ولا زعماؤه أن عبد الناصر يمكن أن يستبعدهم من الوحدة التي هم صنعوها . فالضباط السوريون اعتادوا أن يعملوا بالسياسة وكانوا يتوقعون أن يستمروا في ذلك ، بل إن آمال البعث كانت أكبر بكثير : إذ كان قادته يتوقعون أن يصبحوا المعلمين العقائديين للجمهورية العربية المتحدة وأن يزوّدوا عبد الناصر بعقيدة متكاملة ويعلّموا العروبة لمصر نفسها .

ولكن كل ذلك لم يكن سوى أحلام يقظة . فبدلاً من الحياة الحزبية الجاهزة التي كانت قائمة في سوريا أنشأ عبد الناصر تركيباً كان في الوقت نفسه سلطوياً وكسيحاً مخلّع الأوصال . فكل القرارات كان تتخذ عنده في القاهرة حيث كان يعمل بواسطة مجموعة صغيرة من الضباط ورجال الأمن . أما في دمشق فكان اعتماده على رجل أمن صموت هو العقيد عبد الحميد السراج الذي رفّعه وجعله وزيراً للداخلية .

وكان من نتيجة ذلك أن فقدت سوريا السيطرة على شؤونها ، ولم تعد دمشق أكثر من مركز محافظة ، وهذا تدنٍّ في الأهمية أبرزه اغلاق السفارات

الأجنبية . وقرر عبد الناصر أن تكون شؤون الوحدة بيد وزارة مركزية ، فيها سوريان هما الحوراني والبيطار ، أما شؤون مصر وسوريا ، اللذين اطلق عليهما اسما الاقليم الجنوبي والاقليم الشمالي ، فتكون من اختصاص مجلسْين تنفيذيّيْن محليين ، وأن يكون هناك مجلس أمة واحد مؤلف من أربعمائة عضو من مصر ومائتي عضو من سوريا يتم تعيين كل واحد منهم من قبل عبد الناصر شخصياً .

وهكذا لم تأت الوحدة على النحو الذي كان يتوقعه السوريون . وراحوا ، بأسلوبهم المتمرد الذي عُرفوا به ، يعربون عن مشاعرهم . وإذْ تزايدت المصاعب في سوريا ، فإن عبد الناصر أخذ يضرب المعارضة وبخاصة داخل القوات المسلحة ،وكان أول الذين أزيحوا هم الشيوعيون ، وتلاهم البعثيون من كل نوع ، وكذلك الضباط الذين اصطدموا بالسراج وبالمصريين المسيطرين ، فزُجّ الخطرون منهم في السجن بينما أُرسل الأكثر حظاً إلى البعثات الدبلوماسية في الخارج ، أما الغالبية العظمى بين هؤلاء وأولئك فقد أُرسلوا إلى وظائف في الاقليم الجنوبي (أي مصر) ، حيث ساد الاعتقاد بأنهم لن يستطيعوا أن يثيروا أي مشاكل هناك . ووجد الأسد أن كلية الطيران في حلب التي حصل منها على أولى نجاحاته قد نقلت إلى مصر ، مع قسم من الكلية العسكرية بحمص ، وأن هيئة الضباط السوريين كانت تعج بقصص التطهير ، والنقل والإهانات التي يتعرض لها الضباط على أيدي المصريين المتسلطين . وفي تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٥٩ أُرسل المشير عبد الحكيم عامر ، أقرب مساعدي عبد الناصر ، ليحكم في دمشق بصلاحيات كاملة فكانت تلك علامة على إفلاس الترتيبات الدستورية للجمهورية العربية المتحدة ، وعند نهاية العام استقال الموظفون الصوريون البعثيون من مناصبهم الحكومية الصورية ، وغادر الحوراني القاهرة بعد أن نفض يديه منها عائداً إلى بلده حماه وسط خيبة أمل كاملة من تجربة الوحدة مع مصر .

هكذا كان الوضع عندما سقط الفأس على الأسد نفسه في أواخر سنة ١٩٥٩ . . فنقل سربه للطيران الليلي المؤلف من طائرات الميغ ١٩ إلى مصر التي وجدها مكتئبة من الوحدة مثل اكتئاب سوريا . ففي سنة ١٩٥٨ عندما كان عبد الناصر في أوج مجده كان من المتوقع عموماً أن العاصمة المصرية ستصبح عما قريب عاصمة الوطن العربي كله . فقد أطاحت مجموعة من الضباط في بغداد بالنظام الملكي الهاشمي ، وكان المتصور أنهم سيحملون العراق للدخول في الجمهورية العربية المتحدة ليجعلوها قوة عظمى مصغرة تمتد من النيل إلى الفرات . ولم يعتقد أحد بأن الأردن ، ولبنان ، والدويلات الصغيرة على أطراف الجزيرة العربية ستكون قادرة على مقاومة جذب المغناطيس . ولكن الأحداث أخذت منحىً آخر .

لقد كانت المفاجأة الكبرى أن قائد العراق الزعيم الركن عبد الكريم قاسم الذي جاء بالجمهورية العراقية في ذات صباح ملطخ بالدم في ١٤/ تموز/ يوليو سنة ١٩٥٨ اتضح أنه إقليمي عراقي وليس قومياً عربياً على الإطلاق (ولعل أحد أسباب ذلك كون أمه شيعية كردية) . وعندما حاول الناصريون دفعه دفعاً إلى وحدة مع القاهرة بحث عن دعم لدى الحزب الشيوعي العراقي القوي . وفي آذار/ مارس سنة ١٩٥٩ عندما ثار ضده الضباط القوميون في الموصل بدعم مصري ، أطلق قاسم يد الشيوعيين فارتكبوا في تلك المدينة مجزرة مروعة قضت على كل علاقة بين عراق عبد الكريم قاسم وجمهورية عبد الناصر العربية المتحدة (٩) . ولم يعد وارداً بعد ذلك موضوع انضمام العراق إلى الوحدة السورية - المصرية التي حُكم عليها بأن تبقى علاقة خانقة غير متكافئة بين القاهرة ودمشق ، وتلاشىٰ حلم التلاقي العربي الكبير الذي أمل الكثيرون بأن تدعمه جاذبية جمال عبد الناصر.

اللجنة العسكرية

عندما وصل الأسد إلى القاهرة عام ١٩٥٩ كانت تسود الجو بوادر توقعات

الانهيار. ولم يعد المصريون يرون في البعثيين السوريين من أمثاله شركاء في أضخم مشروع عربي في التاريخ الحديث بل نظروا إليهم بعين الريبة والشك ورأوا فيهم خالقي متاعب وإن لم يصبحوا بعد أعداء . وعاش القادمون السوريون الجدد بين بعضهم البعض ، يقبضون رواتبهم ، ويحصلون على بطاقات سفرهم لقضاء اجازاتهم في بلدهم من مكتب اتصال شؤون الضباط السوريين في ضاحية مصر الجديدة . وكانوا يقضون اكثر أوقاتهم في مقهى (غروبي) ومقهى (لا باس) حيث كان الضباط الانكليز ، في زمن سابق ، يغشونهما لقضاء أوقات فراغهم . فخلال سنوات الوحدة الثلاث والنصف تواجد في مصر حوالى ألف ضابط سوري ، معظمهم بغير إرادته ، كما تخرّج ألف ضابط ـ طالب آخرون من المدارس العسكرية المصرية . ولم يكن جميع هؤلاء مستائيز مما نالوه : فالحياة براتب مضاعف ، وشقة حكومية ، وسيارة في غالب الحالات ، لم تكن سيئة أبداً .

إلا أن ذوي التفكير السياسي منهم كانوا ساخطين ، وكانت تشاهد في معظم الأمسيات مجموعة منهم على مائدة مقهى مستديرة وقد تحلق عدد من الشبان حول اكبرهم رتبة ينصتون إليه . وكان موضوع المناقشة دائماً هو الوضع في سوريا . أما بالنسبة للبعثيين فكانت الشكوى المتكررة هي مسألة انتحار حزبهم . فالانصياع لالحاح عبد الناصر على أن يحل الحزب نفسه جعل عفلق يترك البعث دونما قيادة ولا دفاع . في حين أن أعداء الحزب من التجار والمالكين ووجهاء المدن الذين ظن البعثيون أنهم قد أودعوا خزائن التاريخ ما لبثوا أن تسلقوا السلطة من جديد . وأحس أبناء الريف بأن صعودهم الاجتماعي والسياسي أصبح معرضاً للتهديد .

وانتاب الأسدَ وأصدقاءَه في منفاهم في القاهرة شعورٌ بالصدمة ، وحتى بالخطر ـ وكان ذلك ضاراً بشعور الثقة الذي اكتسبوه في الخمسينات . وأوصلت أيام البطالة والغضب في القاهرة إلى نقطة الغليان سخطاً كانت تجيش به صدورهم ضد عفلق والبيطار اللذين اتخذا قرار حل الحزب سنة ١٩٥٨ بدون

استشارة قواعده ، فاعتبروا ذلك جريمة واستذكر الأسد تلك الأيام بقوله : «لقد أصبحنا فاقدي الثقة في التزامهما بأهداف الوحدة والاشتراكية ، وشعرنا بأنهما كانا يتاجران بالشعارات»[١٠] .

والواقع أن الريفيين الخشنين الذين انضموا إلى الحزب من خلال تيار الأرسوزي لم يكنّوا قط أي اعجاب بالمنظرين الدمشقيين البرجوازيين . وعندما راح الضباط الشباب ينظرون في مأزقهم أقنعوا أنفسهم بأن عفلق والبيطار رحبا بانهاء الحزب لأن ذلك أتاح لهما اسكات الانتقاد الذي كان يتفاعل بين القوى الأكثر راديكالية في قواعد الحزب ومن هذا الاستياء بُذرت بذور الشقاق البعثي الكبير الذي أدى فيما بعد عام ١٩٦٦ إلى الاطاحة الدموية بعفلق وأصدقائه وإلى انتصار مجموعة الأسد ، وإلى الشجار الطويل العنيف ، غير القابل للمصالحة ، والذي يستعصي على الغرباء فهمه ، بين البعث السوري وابن عمه بعث العراق حيث التجأ عفلق إليه آخر الأمر . واخطر العداوات هي التي تفرق بين رفاق الأمس .

ولكن ألم يكن عبد الناصر ملوماً مثل عفلق؟ يقول الأسد : «لقد شعرنا بعداوة هائلة حيال حزبنا ، وهي عداوة كانت تنزل مسلسلة من عبد الناصر نفسه . وعندئذ بدأنا نتنبأ بأن الوحدة نفسها ستنتهي بكارثة . لقد كان عبد الناصر يعاني من تخوف ملح فيما يتعلق بالأحزاب السياسية ، ولم يكن ثمة علاج لحالته هذه التي كانت دونما شك نتيجة تجربته مع الأحزاب الفاسدة في مصر ما قبل الثورة . لقد كان يقول دائماً، وكانت أقواله تنتهي إلينا ، «أنا رجل شريف ومستقيم ، فما هي حاجتنا إلى الأحزاب؟»[١١] . وأراد الضباط السوريون أن يحذّروا عبد الناصر من أنه يعرّض الوحدة للخطر ، ولكن كيف الوصول إليه ؟ وكيف يمكن تجاوز رجال الحاشية المحيطين به؟ وهكذا بدأوا يعتقدون بأن عبد الناصر ، هذا الوطني الذي لا شك فيه ورمز العروبة العملاق ، إنما كانت تتلاعب به طغمة من الرجعيين والفاسدين الذين لا

يختلفون عن الباشوات القدماء الذين سبق له أن طردهم . وفي هذا الجو المتشائم والمكفهر بدأ الأسد وأربعة من رفاقه الضباط مشروعاً قُدِّر له فيما بعد أن يُغيِّر مجرى تاريخ سوريا .

ففي سنة ١٩٦٠ أقاموا تنظيماً سرياً أطلقوا عليه اسم «اللجنة العسكرية» . ولم تكن تلك هي المرة الأولى في تاريخ القضايا العربية التي يرى فيها بعض الشباب العسكريين أنفسهم كمنقذين لبلدهم. وكانت سوريا قد أقامت سوابق في الانقلابات العسكرية الثلاثة سنة ١٩٤٩ . ولكن أكبر مثال مذهل ومثير أمامهم كان عبد الناصر نفسه الذي قام مع ضباطه الأحرار قبل بضع سنوات بالاستيلاء على الحكم مما أتاح له أن يسرّع من النبض الوطني لبلده القديم وأن يكهرب العمل السياسي في جميع أرجاء المنطقة . لقد كان عبد الناصر بلا شك هو المثال أمام الأسد ، وبمرور السنوات تزوَّد منه بدروس حول الأخطاء التي يجب تفاديها والبراعات التي يجب الحذو حذوها . ففي بلدان العالم الثالث عندما تسير الأمور بشكل سيء فإن العسكريين ذوي التفكير الراديكالي لا يمكنهم أن يكتفوا بالاهتمام بالقضايا العسكرية وحدها .

كان الأسد في الثلاثين من عمره ذلك العام . وقد وضع التزامه بالعمل السري نهاية لفترة شبابه البهيجة الخالية من الهموم وأظهر على السطح مسحة التوتر والجديّة . وقد تبدّى من شخصيته منذ ذلك الوقت خصلتان تطورتا كثيراً فيما بعد : الاولى كانت انتهاجه السريَّة التي استعملها كسلاح لكسب الوقت والامساك بزمام المبادرة النفسية واخفاء ما يتخذه من قرارات . والثانية كانت ادراكه المبكّر بأن اللاعبين السياسيين الآخرين لا يسهرون على إعداد ما عليهم من عمل وأنهم لا يتمتعون بذاكرة جيدة ويتصرفون بطريقة اندفاعية . وخلال جميع مراحل حياته كانت أكثر صفات تحركاته استمراراً معه هي صفة الحذر والتخطيط الصبور الذي يسبق هذه التحركات . وقد تعلم أن يتفحص بعناية الأرض قبل أن يبدأ بالتحرك عليها .

كانت بدايات اللجنة العسكرية متواضعة حقاً ، فلم يكن فيها سوى خمسة ضباط : النقيبان الأسد والجندي ، والرائدان جديد والمير ، والمقدم عمران . بل انهم في بعض الأحيان كانوا أقل من ذلك إذ يستذكر الأسد بالقول : «كان واحد وآخر منا يعين في مكان بعيد لبعض الوقت أو يعتقد بأنه من الحكمة أن يطأطئ رأسه لعدم لفت الأنظار»[١٢]. وكان أول عمل قاموا به هو أنهم أقسموا على السرية وكانت أعمارهم تتراوح بين الثامنة والعشرين والثامنة والثلاثين، وكان لديهم جميعاً تجربة في التعرجات السياسية، وكانوا مشتركين في غريزة قديمة هي غريزة الكتمان والتقية التي تتصف بها مجتمعات الأقليات المضطهدة في الشرق الأوسط. كان ثلاثة من الخمسة علويين واثنان من فرقة شيعية أخرى هي الاسماعيلية. وكانت خليتهم في عزلتها أشبه ما تكون بالمحفل الماسوني. ولكنهم في غضون بضع سنوات راحوا يقتلعون ويدمرون بعضهم البعض أثناء تسلقهم إلى القمة.

كان أكبرهم والدماغ الموجه لهم[١٣] هو المقدم محمد عمران المولود عام ١٩٢٢ . كان رجلاً ضخماً ، حسن البنية ذا بشرة صبوحة وعينين زرقاوين كالكثير من العلويين . وهو ينحدر من عائلة من صغار ملَّاك الأرض تنتمي إلى عشيرة الخياطين في قرية مخرَّم على السفوح الشرقية من الجبال بمواجهة الداخل . وفي شبابه شارك عمران في حرب فلسطين قبل أن تمتصه السياسة خلال انقلابات الجيش في أعقاب الحرب . ولعب تحت تأثير أكرم الحوراني دوراً صغيراً في الانقلاب ضد الشيشكلي عام ١٩٥٤ . ولكن عمران لم يكن عسكرياً من النمط المعتاد ، فهو مولع بالقراءة والنقاش ، مهذب دمث المعشر ، بل يمكن اعتباره إلى حد ما مفكراً يبهر رفاقه بما يأتيهم به بالعويص والمعمق من المعلومات . وعندما أوفد في وقت مبكر إلى فرنسا لمتابعة دورة تدريبية أدهش أصدقاءه بتفضيله الذهاب إلى المكتبة العامة بدل الحانات والمقاهي . ولكن كان ينقصه مقدار من القسوة ليتماشى مع الخشونة التي

راحت تتزايد داخل مجموعته . وقد دفع فيما بعد ثمناً غالياً لانعدام القسوة عنده .

أما صلاح جديد ، الأنيق ، ذو الشعر الفاحم فكان شخصية مناقضة لعمران . كان يابساً ، صموتاً ، دقيقاً وكانت له سمة الضابط البروسي . كان يؤثر الاستماع اكثر من التكلم ولذلك كان يجعل الآخرين يحسون وكأنه يحصي عليهم كلماتهم ليستعملها ضدهم ذات يوم . كان ذكياً ، ذا مبادىء ، وله آراء واضحة اليسارية ، وحين احتدم الصراع على السلطة قدّر له أن يكون منافس الأسد الرئيسي . ولد جديد عام ١٩٢٦ في قرية دوير بعبدا قرب بلدة جبلة الساحلية ، وينتمي إلى أسرة متوسطة من عشيرة الحدادين التي هي اكبر وأهم العشائر العلوية . أما سياسياً فكان ولاؤه الأول للحزب القومي السوري ثم أبدل موقعه وانضم إلى البعث عندما كان ملازماً ثانياً في الخمسينات . ولهذا التغيير قصة . فقد اصطدم ذات يوم مع آمره المباشر فلجأ طالباً المساعدة من مصطفى حمدون الذي كان أحد رجالات الحوراني ويعمل في المخابرات العسكرية . وبعد أن حل حمدون مشكلته أدخله في الحزب . وهذا مثال على الكيفية التي كان الحوراني والبعث يكسبان بها أصدقاء عسكريين مفيدين . أما شقيقه غسان جديد فقد بقي في الحزب القومي السوري وأصبح واحداً من قادته . ولكن في أعقاب اغتيال المالكي عندما تعرض القوميون السوريون للمطاردة اغتيل غسان في أحد شوارع بيروت عام ١٩٥٧ . ويقال ان ذلك تم بأمر من السراج الذي كان وقتئذ مديراً للمخابرات السورية .

كانت الجذور الاجتماعية لعمران وجديد من خلفية ملّاكي الأرض تجعلهما أعلى بدرجة في السلم الاجتماعي من عائلة الأسد التي كانت أفقر منهما . ولكن الثلاثة كانوا ريفيين «مثقفين» يجمعهم الالتزام بالثورة والتعطش للصعود . كانوا يشكلون العصب المحرّك للجنة العسكرية السرية . كان عمران أوسعهم ثقافة ، وجديد أكثرهم مكراً ، والأسد أشدهم حذراً.كانوا بأي مقياس

ثلاثياً غير عاديّ . وعندما اختلفوا فإن صراعهم الطاحن المتبادل ظل لعدة سنوات مادة السياسة السورية كلها تقريباً .

ومن بين العضوين الاسماعيليين في اللجنة كان الأكثر لفتاً للنظر شاب عاطفي ناري الطبع يكاد يكون غير متزن انفجر فيما بعد غضبه الجياش ضد الامتيازات السنية على شكل أعمال شديدة الوحشية . إنه عبد الكريم الجندي المولود سنة ١٩٣٢ في السلمية ـ المركز الاسماعيلي القديم . أما الآخر ـ أحمد المير ـ فقد ولد قبله بعشر سنوات في المعقل الإسماعيلي المرتفع ، مصياف في قلب جبال العلويين . كان المير جندياً مخلصاً وإن لم يكن شديد اللمعان ، وكان من سوء حظه أنه كان قائد القوات السورية في جبهة الجولان خلال حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ .

في البداية لم يساور اللجنة العسكرية أي تفكير بالاستيلاء على السلطة في دمشق . فهذا كان بلا شك برنامجاً طموحاً جداً بالنسبة لحفنة من الضباط الصغار الموجودين على بعد مئات الأميال من بلدهم . كانت أهدافهم هي إعادة بناء حزبهم المشتت ، وحماية الوحدة ، واسقاط النظام القديم في سوريا ، وبذلك يكونون قد كفلوا استمرار صعودهم وصعود طوائفهم . فأبناء الطوائف المغبونة هم الأكثر خسارة فيما لو عادت الساعة السياسية في سوريا إلى الوراء واسترجعت النخبة في المدينة نفوذها الضائع .

ولتجنب إثارة ريبة المخابرات المصرية ، كان المتآمرون الخمسة يخرجون في رحلة يوم بعيداً عن القاهرة ، أو يجتمعون في بيت أحدهم كما لو كانت أسباب اللقاء اجتماعية ، وكانوا أحياناً يعقدون اجتماعاً في سيارة أو بصورة تبدو عفوية حول فنجان شاي في جروبي بحيث لا يلفتون الأنظار ، ويظهرون كغيرهم من الضباط الذين يقضون إجازة . «كانت السلطات المصرية مستمرة في مراقبتنا ، كانت تعرف أننا بعثيون سابقون وأننا ننتقد ما يجري ، إلاّ أنهم لم يكونوا يظنون أننا بقادرين على عمل أي شيء . والواقع أننا لم نكن

قلقين كثيراً من المصريين . كان خوفنا الحقيقي هو أن يكتشف قادة حزبنا ما نقوم به من نشاط»[١٤] .

صراع البعث من أجل البقاء

كان هؤلاء الرجال مجبولين من طينة حزب البعث متشبعين بجدليّاته وإجراءاته ومناقشاته حول الشرعية وحرفية القوانين . كان هو البناء السياسي الوحيد الذي عرفوه ولم يروا أية إمكانية للعمل من خارجه . وقد انعكس ذلك في المبادىء التي أقروها كقاعدة للعمل : كانت أولاها أن حزب البعث وقيادته لم يعودا موجودين في سوريا ، وثانيها أنه بالرغم من كونهم قد أصبحوا بمثابة الأيتام ، فإن عليهم أن يستمروا في اعتبار أنفسهم أعضاء في حزب البعث العربي الاشتراكي وأن يتصرفوا على هـذا الأساس . وثـالثها أن واجبهم كعسكريين بعثيين هو الحفاظ على عقيدة الحزب حية ، ونشرها بين زملائهم وفي الوقت نفسه أن يسعوا لإقامة علاقة سرية مع الرفاق المدنيين السابقين في سوريا . وكان الهدف الآني المباشر لهم هو الدفاع عن الوحدة التي بدت في ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ مهددة حقاً . وتزايدت مخاوفهم عندما وصلتهم الأخبار من دمشق حول إجراءات المشير عامر والعقيد السراج المفروضة بالقوة ، وعن ازدياد تململ السكان . وبدا كما لو أن مأساة كانت على وشك الحدوث ولن يكونوا فيها سوى متفرجين . فتوسلوا من السلطات السماح لبعض الضباط البعثيين بالعودة إلى سوريا ومع تزايد شعورهم باليأس ، اتصلوا بالضباط المصريين المحيطين بدائرة عبد الناصر طالبين منهم أن ينقلوا مخاوفهم إلى الرئيس . ولكن بعد أن راح البعثيون يطلقون عليه سهامهم من خارج حكومة الوحدة ، أصبح عبد الناصر يعتبر الحزب عدوه الرئيسي في مغامرته السورية ذات العبء الثقيل .

سافر عمران وجديد إلى سوريا والتقيا سراً ببعض البعثيين المدنيين

مستطلعين آراءهم ، ومقدمين لهم التشجيع ولكن بدون أن يكشفا لهم أنهم قد أقاموا منظمة عسكرية سرية . وقد تم الالتزام بالكتمان نفسه تجاه زملائهم من المنفيين في مصر ، وقال الأسد مستذكراً فيما بعد : «لم يكن الضباط الذين اتصلت بهم يدركون بأن هناك تنظيماً وقيادة ، رغم أنهم كانوا يعرفون أنني أشتغل بالسياسة كعضو في الحزب ، وكانوا يرون أن اقترابي منهم ليس عفوياً ، وبعد مدة تشكلت ثقة كافية لجعلهم يحتفظون لأنفسهم بأية معلومات نقلتها لهم . فالبعثيون ولا سيما العسكريون من بينهم لديهم إحساس بمشاكل الأمن ، ولم يسألني أحد : من أنت بالضبط؟ ومن تمثل؟»(١٥) وبمرور الزمن ، وبسرية عظيمة أقامت اللجنة العسكرية شبكة من دزينتين أو ثلاث دزينات من الضباط الذين نجم من بين صفوفهم بعد عقد من الزمن عدة شخصيات هامة في الحياة العامة في سوريا . كان معظمهم من خلفية ريفية ، مثل أعضاء اللجنة الخمسة أنفسهم ، ولم يكن هناك أحد من دمشق أو المدن الأخرى وكان عدد كبير منهم من الأقليات الدينية(١٦) .

كانت خسارة القاعدة السورية والمعركة الجارية مع عبد الناصر قد أضعفتا البعث إلى حد كبير في أرجاء العالم العربي . وكان هناك خطر احتمال اختفائه عن الأنظار كلياً . وكان عفلق ، الذي انصبت عليه شكوك اللجنة العسكرية ، يصارع من أجل العمل من مدينة بيروت كرئيس للقيادة القومية للحزب ، وظل على اتصال بقيادات الحزب الشابة مثل فؤاد الركابي من العراق وعبد الله الريماوي من الأردن وعلي جابر من لبنان الذين كانوا يناضلون لابقاء مصير الحزب على قيد الحياة(١٧) .

وكانت هذه المصاعب امتحاناً عسيراً للائتلاف غير المترابط جيداً الذي جعل حركة البعث على ما هي عليه . فقد كان المؤتمر التأسيسي لهام ١٩٤٧ قد ربط بين التيارين العفلقي والأرسوزي . أما المؤتمر الثاني في حزيران/ يونيو سنة ١٩٥٤ فقد وافق على الاندماج العفلقي ـ الحوراني ، الذي جمع بين

معلمي ومدراء المدارس وبين مهيجي ومثيري الفلاحين[١٨] . كان طموح الحزب المبكر هو أن يقوم ببناء أول حركة جماهيرية في الوطن العربي تتجاوز الحدود الإقليمية إلى النطاق القومي . غير أن ظهور عبد الناصر بالضبط في الوقت الذي بدا فيه أن جهود البعث كانت على وشك أن تثمر قد حول الحزب عن خطه الأصلي كما أوضح ذلك الدكتور منيف الرزاز (الأمين العام للقيادة القومية لحزب البعث في عام ١٩٦٥)حين قال : «كان الحماس قوياً لدرجة أننا افترضنا أن كل أهدافنا يمكن تحقيقها بجرة قلم ، وأنه بدلاً من النضال لمدة خمسة وعشرين عاماً كان من المغري أن يترك المرء لضابط مثل عبد الناصر أن يتكفل بالعمل ويحقق الهدف المنشود بين عشية وضحاها»[١٩] . إلا أن عبد الناصر أكره الحزب على حل نفسه وراح يقتلع كل ما له علاقة بالبعث في المنطقة بأسرها .

في غمرة تلك الظروف القاسية عقد البعث مؤتمرين في بيروت : الأول في آب/ أغسطس سنة ١٩٥٩ والثاني بعد سنة من ذلك تماماً ، لدراسة أمور الحزب ومصيره . وأقر مؤتمر سنة ١٩٥٩ قرار عفلق بحل الحزب . ولكن مؤتمر سنة ١٩٦٠ الذي حضره صلاح جديد كمندوب سرّي عن اللجنة العسكرية قد عكس ذلك القرار . وكان ذلك مؤشراً على روح التمرد التي بدأت تتحرك وتتململ منذ ذلك الحين .

وكان السؤال الصعب والمحرج الذي يواجه الأعضاء هو : هل يمكن رغم كل ما حدث التوصل إلى اتفاق يرتب الأمور مع عبد الناصر؟ لقد سبب للحزب أذىً كبيراً ، ولكنه ما زال واقفاً في الساحة العربية كهرمٍ لا يمكن تجاهله ، فهو لا يزال بالنسبة للمواطن العادي رمز الوحدة العربية . وفي مؤتمر ١٩٦٠ تقرر تخفيف حدة انتقاد الزعيم المصري والعمل على دمقرطة الجمهورية العربية المتحدة من الداخل. وهو هدف غير واقعي إلى حد ما . على كل حال لم يوافق أكرم الحوراني، أشد

منتقدي عبد الناصر ، على هذه السياسة بل راح يلومه على جميع أمراض الوحدة غير السعيدة وطالب بقطع كل العلاقات معه . إلا أن مثل هذه الخطوة جعلت العقائديين البعثيين يرتجفون . فمهما كانت أخطاء عبد الناصر ومهما كانت آلامهم فالوحدة ، هذا الرمز الغالي لحلم القومية العربية ، يجب أن تصان . ولذلك كانوا يتطلعون إلى تصحيح الوحدة لا تدميرها .

كان لدى الحوراني أسباب شخصية وراء مرارته ، نظراً لأن وضعه السياسي قد تضرر تحت حكم عبد الناصر . فقبل الوحدة كان هو صانع الحكام في سوريا ، كان قوياً في أوساط الجيش ، محبوباً من قبل الفلاحين ، وكان الرائد الأول لأبناء الريف . ثم جاء عبد الناصر وانتزع منه كل ذلك وأعطاه بالمقابل منصباً شكلياً فارغاً في حكومة ج. ع. م إلى أن رمى بهذا المنصب باشمئزاز . وقد هاجم الحوراني عبد الناصر في موقفه من قضية فلسطين وهي أكثر القضايا حساسية بالنسبة لمن أعلن نفسه بطل القومية العربية . وادَّعى الحوراني أن عبد الناصر ، رغم كل كلامه المتشدد ، كان تواقاً لاستكشاف امكانية تسوية سلمية مع اسرائيل. وأنه حتى في أوج قوته في الخمسينات كان مستعداً لقبول حق اسرائيل في الوجود لو أنها كانت أقل عدوانية(٢٠) وعلى عكس براغماتية عبد الناصر كان الحوراني يرى أن الصراع بين العرب والصهيونية إنما هو صراع على البقاء وأن وجود العرب نفسه هو في الميزان . وكان الجدل فيما إذا كان العرب قادرين على التعايش مع إسرائيل أو بالأحرى فيما إذا كانت إسرائيل هي القادرة على التخلي عما يرى العرب أنه عنصرية دينية عدوانية ، كان هذا الجدل موضوعاً مهماً بالنسبة لثقافة الأسد السياسية . فخلال معظم حياته السياسية فيما بعد كانت ملحمة الحرب والسياسة عبارة عن تنويعات على هذا الموضوع .

وكانت هناك مناقشات أخرى زادت من تصديع الحزب آنذاك . فالأعضاء العراقيون مثلاً كانوا يطالبون بمساعدة الحزب ضد الديكتاتور العراقي

عبد الكريم قاسم الذي اعتبروه عدواً أشد خطراً من عبد الناصر[٢١] . أما أمين الحزب في الأردن عبد الله الريماوي فقد قال بأن عبد الناصر هو على حق وأن الحزب على خطأ ، وانفصل عن البعث . وهناك أعضاء آخرون اتجهوا نحو الماركسية ، واعتزل البعض الآخر السياسة تماماً . ولكنْ بقيت هنا وهناك في سائر أنحاء سوريا بعض الخلايا التي راحت تكافح للحفاظ على وجودها السري ولكن دونما توجيه أو خط موحد . ومع هذه الخلايا المعزولة حاولت اللجنة العسكرية في القاهرة الاتصال مجدداً وهي تبحث عن حلفاء .

نهاية الوحدة

في هذا الجو الذي يبعث على الأسىٰ والذي خيم على الحزب ، انهارت الوحدة . فقد اختطفت سوريا من الوحدة في ٢٨ أيلول / سبتمبر ١٩٦١ حفنة يمينية بقيادة ضابط دمشقي هو المقدم عبد الكريم النحلاوي بدعم من الأردن والسعودية ورجال الأعمال السوريين الساخطين . وكان السبب المباشر لذلك هو الذعر الذي خلقته قرارات التأميم واسعة النطاق التي أصدرها عبد الناصر في تموز/ يوليو ١٩٦٠ بين صفوف التجار السوريين . والذي حدث هو أن أحداً لم يطلق طلقة واحدة في سوريا دفاعاً عن الوحدة . وصدم عبد الناصر بأبناء التمرد السوري فأمر قوة من ألفي مظلي مصري بالاقلاع إلى سوريا لسحقه ، ولكن عندما أعلنت قيادات الجيش في حلب واللاذقية وقوفها مع المتمردين أعاد عبد الناصر التفكير في الموضوع ونقض أوامره ، وأمر الطليعة المصرية المؤلفة من ١٢٠ مظلياً كانوا قد هبطوا فعلاً بالاستسلام ، أما المشير عبد الحكيم عامر نائب عبد الناصر فقد وضع في طائرة حملته إلى القاهرة ، وأُعيد كثيرون من المصريين غير المرغوب فيهم إلى مصر .

أدى الانفصال والشرخ الذي نجم عن الطلاق السوري ـ المصري إلى أضرار نفسية كبيرة . ولم يكن واضحاً في أذهان الكثيرين في البلدين كليهما أين تقع ولاءاتهم وما الذي سيعنيه الانفصال في حياتهم نفسها . وفي القاهرة مقر

حكومة الجمهورية العربية المتحدة التي انتهت ، كان هناك الكثير من تهيئة الحقائب وإنهاء المشاريع المشتركة ، وتوجيه الاتهامات الغاضبة والاتهامات المضادة بينما تم حشر وشحن الموظفين المدنيين والجنود والتجار السوريين إلى دمشق.. وقد اختار بعضهم الهرب واللجوء إلى مصر والبقاء فيها . وأدى انفصال سوريا إلى تغيير المشهد في الشرق الأوسط تغييراً عميقاً تماماً كما فعلت الوحدة نفسها قبل ذلك بثلاثة أعوام ونصف . كانت قبضة عبد الناصر على سوريا قد شلّت ميزان القوى الاقليمي ، ولكن عندما انفكت هذه القبضة استعادت سوريا شيئاً من اندفاعها الفوضوي القديم . وأسفرت الانتخابات النيابية التي جرت في ١ كانون الأول / ديسمبر ١٩٦١ عن عودة سياسيين قدامى كانوا قد شاركوا في النضال من أجل الاستقلال من أمثال الزعيم الحلبي ناظم القدسي الذي أصبح رئيساً للجمهورية .

وفي الظروف الثورية والأوضاع الانقلابية عندما يكون تيار أو مدّ الأحداث جارياً بسرعة ، فإن التصريحات الصادرة في حرارة اللحظة ـ بنت وقتها وساعتها ـ غالباً ما تكون لها عواقب غير متوقعة . ففي ٢ تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٦١ ، بعد أيام قليلة من الانقلاب الانفصالي وقّع ستة عشر من السياسيين السوريين البارزين على بيان يهاجم عبد الناصر ويشكر الجيش على «حركته الانقاذية المباركة» ولم يكن بين الموقعين أكرم الحوراني فحسب ـ كما كان متوقعاً ـ ولكن أيضاً صلاح الدين البيطار ، وقد ذهل الجميع عندما رأوا هذا الداعية إلى الوحدة والمدافع عنها يتبنى عملية تدميرها الآن . وقد قدر للتوقيعين أن يتركا آثاراً عميقة على مستقبل حياة الرجلين معاً .

وأصبحت فضيحة موافقة البيطار على الوثيقة الانفصالية تقارن باللطخة السوداء في سجل رفيقه ومؤسس الحزب معه ، ميشيل عفلق . ففي سنة ١٩٤٩ عندما استولى الزعيم حسني الزعيم على السلطة بدمشق كتب إليه عفلق رسالة تملق وتزلف وخضوع كان من المؤكد تقريباً انها قد انتزعت منه انتزاعاً في

ظروف الإكراه والتهديد . فقد قيل ان عفلق قد أرغم على الوقوف في برميل من الغائط ، أو برواية أخرى أرغم على مشاهدة تعذيب واحد من أتباعه الشباب . ومهما يكن من أمر فإن منتقدي عفلق يوردون هذه السقطة كدليل على نقص الصلابة الفولاذية في شخصيته . وهكذا تم توجيه النوع نفسه من النقد الآن إلى البيطار ، وسرعان ما أدرك غلطته فاعترف بها وتراجع عنها علناً وسحب توقيعه ، معلناً استمرار تعلقه بهدف الوحدة . ولكن الضرر كان قد وقع .

أما بالنسبة إلى الأسد ورفاقه ، الذين كانوا قد أسقطوا عفلق والبيطار من حسابهم ، فقد تأثروا اكثر بسوء الحظ الذي حل بالحوراني . فالضباط الذين كانوا يحترمونه ويثقون به صدموا عندما رأوه يرفع رايته على السارية الانفصالية . وذهلوا لرؤ يته يقف إلى جانب الرجعيين . إن توقيعه على ذلك البيان كان الآفة التي دمرت مستقبله السياسي ، إلَّا أن الأمر أصبح بالنسبة إلى اللجنة العسكرية كأنه هبة من الله . ولو أن الحوراني أدان عبد الناصر والانفصاليين جميعاً لكان له أن يتسلق صاعداً من الفوضى التي انغمست فيها سوريا ومن ثم أن يستولي على السلطة لنفسه. كان من الممكن أن يصبح نوعاً من كاسترو سوريا. فقد كانت شخصيته حيوية ديناميكية آسرة ، واشتراكيَّته مغروسة بإحكام في تراب الواقع الريفي ، ومجموعته من الضباط من بين أقوى المجموعات في القوات المسلحة . وكان جناحه في البعث أقوى الأجنحة وأكثرها حيوية . إلا أن العار الذي لحق به أفسح للجنة العسكرية مجالاً غذَّت فيه طموحاتها الشخصية .

العودة إلى الحياة المدنية

بعد انفصام الوحدة بقليل أُودع الأسد وزملاؤه في السجن إذ كانوا لا يزالون في مصر . وقضى الأسد أربعة وأربعين يوماً ، رهن الاعتقال فأوكل إلى مصطفى طلاس صديقه من أيام الكلية العسكرية في حمص مهمة مرافقة زوجته وابنته إلى سوريا عن طريق البحر. وكانت هذه هي ابنتهما الثانية . فالأولى التي ولدت في سوريا واصطحباها معهما إلى مصر مرضت وتوفيت بعد فترة قصيرة .

ويتذكر أحد إخوته الضباط أن الأسد ركع إلى جانب سريرها وانخرط في البكاء . ولكن قبل عودة العائلة إلى الوطن ولدت لهما في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٦٠ ابنة أخرى أسمياها كالأولى (بشرى) . وفي النهاية أطلق سراح الأسد وأعيد إلى سوريا في عملية مبادلة مع مجموعة من الضباط المصريين كانوا محتجزين فيها .

وعندما عاد الأسد وزملاؤه إلى دمشق لم تكن تنتظرهم فيها معاملة أفضل . فالقيادة العليا الجديدة برئاسة اللواء عبد الكريم زهر الدين[٢٢] كانت تنظر إليهم بأكبر قدر من الشك والريبة . وأُعطي الأسد اجازة مفتوحة . وعلى كل حال فقد شعر الأسد بالقلق على وضعه واحتمالات مستقبله ، ولذا فإنه لم يكد يعانق عائلته في القرداحة حتى عاد ادراجه مسرعاً إلى العاصمة ، وأخذ يتردد على كواليس مقر قيادة القوة الجوية . وهناك علم ـ لخيبة أمله ـ بأن ثلاثة وستين ضابطاً بعثياً (بمن فيهم أعضاء اللجنة العسكرية الخمسة جميعاً) قد تقرر صرفهم من الجيش وتعيين معظمهم في وظائف ذات طرق مسدودة في وزارات الدولة . وأرسل الأسد ليريح قدميه في مديرية النقل البحري بوزارة الاقتصاد . وحسب شهادته فإنه أمضى وقتاً قليلاً جداً في الوزارة ، وكان يثبت وجوده في آخر الشهر لقبض راتبه ، وكان يقول لرئيسه في العمل : «لماذا أحضر للعمل بينما أنتم مدينون لي بالمال؟» وكان يشير بذلك إلى أن راتبه المكون من ٥٠٠ ليرة سورية كان أقل من الـ ٦٠٠ التي يستحقها كضابط طيار محال إلى التقاعد ، وكان بحاجة إلى كل ليرة ليعيل أسرته الصغيرة التي أسكنها في شقة مؤلفة من ثلاث غرف في منتصف الطريق إلى قمة الجبل المطل على دمشق وبأجرة قدرها ١٦٨ ليرة في الشهر (بعد ثورة ١٩٦٣ حصل على فروقات رواتبه)[٢٣] .

ومنذ ذلك الحين وطَّن أعضاء اللجنة العسكرية الخمسة أنفسهم على هدف اسقاط الحكومة الانفصالية وراحوا يعملون بشكل جدي على توسيع التنظيم السري الذي بدأوه في القاهرة . وقد استهدفوا أول ما استهدفوا

الملازمين والنقباء من دورات ١٩٥٧ و١٩٥٨ و١٩٥٩ الذين وصلوا إلى مناصب مفيدة . ولكن بالرغم من نجاحهم الكبير في استقطاب المتعاطفين ، فإنهم لم يكونوا يعتقدون بامكانية الاستيلاء على السلطة بمفردهم . ولذلك راحوا يطلبون مساعدة الضباط ذوي الميول الناصرية ـ وأهمهم جاسم علوان ـ الذين لم تجرؤ حكومة الانفصال على تسريحهم كي تتفادى توجيه الاتهام إليها بخيانة القومية العربية التي ظل عبد الناصر رمزها الكبير .

ولكن سرعان ما برزت مشكلة أساسية . فالناصريون كانوا يريدون انقلاباً لإعادة بطلهم عبد الناصر منتصراً إلى دمشق بينما كانت اللجنة العسكرية تريد انقلاباً لمجرد بدء محادثات مع عبد الناصر ـ وهو هدف مختلف تمام الاختلاف . فأعضاء اللجنة يريدون الجلوس معه لنبش وتقليب أخطاء الماضي بصراحة ، وللاتفاق على صيغة معدلة للوحدة تتحدد فيها سلطات عبد الناصر بينما تتوسع سلطات البعث . وقد أدى هذا الاختلاف على الهدف إلى فوضى كان متوقعاً لها أن تحدث .

ففي غضون أيام ستة مشحونة بالتأزم ، من ٢٨ آذار/ مارس إلى ٢ نيسان/ أبريل ١٩٦٢ غاصت سوريا في حلقة مفرغة من الانقلاب والانقلاب المضاد أوصلت هيئة الضباط التي استحوذت عليها الفئوية إلى حافة التفكك والتمزق . وبدأت الأزمة عندما قام العقيد النحلاوي ، الرجل الذي حطّم الوحدة قبل ذلك بستة أشهر ثم أزيح عن المسرح ، بالقبض على الحكومة وايداعها السجن بما في ذلك الرئيس القدسي . وقد أخاف هذا الاستباق الأسد ومجموعته وحلفاءهم الناصريين فقاموا بتجميع أصدقائهم ضد النحلاوي ، مما اضطر القائد العام ، وقد غمره اليأس ، إلى دعوة الضباط المتحاربين إلى مؤتمر للجيش في حمص في ١ نيسان/ أبريل . وكانت نتيجة المناقشات أن نفي بعض الضباط وأعيد الرئيس القدسي إلى منصبه . فازداد سخط البعثيين والناصريين فعادوا إلى التمرد واقتحموا قلعة حلب في اليوم التالي وقتلوا آمر

حاميتها . وانضم إليهم الأسد وجديد وعمران بعد أن استقلوا سيارة أجرة فكافأهم المتمردون باعطاء كل واحد منهم بزة عسكرية ورشاش كلاشينكوف[٢٤] إلا أنه هالهم أن الضباط الناصريين قاموا برفع علم الجمهورية العربية المتحدة ، وأعلنوا إعادة الوحدة ، وطلبوا من مصر أن ترسل مظليين .

وهذا لم يكن مما أخبرت اللجنة المتعاطفين معها بأن يتوقعوه . وفي غمرة من البلبلة انسحبت اللجنة من التمرد الذي سرعان ما انهار . وتخلص الأسد بسرعة من رشاشه ومن بزته العسكرية . هذا وتجدر الإشارة إلى أنه خلال فترة الكـر والفر تمكن الأسد ورفاقه من توجيه شبكتهم في الجيش دون أن يتوفر لهم هاتف أو سيارة أو أي وسيلة اتصال أخرى ، إذ أنهم كانوا لا يزالون مدنيين وليس لديهم أجهزة اتصال أو مدافع أو عربات ناهيك عن الدبابات . ولذلك فإن فشلهم والحالة هذه لم يكن مستغرباً .

وتمكن الأسد من الهرب جنوباً إلى لبنان عن طريق ميناء طرطوس ـ السوري . إلا أن السلطات اللبنانية قبضت عليه وسجنته لمدة أسبوع في بيروت قبل أن تعيده إلى سوريا حيث وجد نفسه في سجن المزة . وقد استجوب وأبقي موقوفاً بضعة أيام ثم أخلي سبيله مع تحذيره . أما التمردون الأصغر رتبة وشأناً فقد حوكموا ، بل وحكم على بعضهم بالموت إلا أن نظام القدسي كان أضعف من أن ينصب لهم المشانق (وظلوا قابعين في السجن إلى أن أخلت سبيلهم الثورة البعثية التي نجحت بعد ذلك بسنة).

وعشية هذه الأحداث المثيرة ، أي في ٢٣ آذار/ مارس ١٩٦٢ وضعت زوجة الأسد أول أولادهما الذكور باسل[٢٥] وهكذا يمكن القول بأن الأسد وأسرته مروا بفترة عصيبة في ذلك الربيع . فبعد بضعة أيام من خروجه من السجن داهمت الشرطة ، التي كانت تشك في أمره ، منزله عند الفجر ، فأخافت العائلة كلها . وكانت في المنزل إحدى شقيقات الأسد التي أقامت معهم حينذاك لمساعدة أنيسة في الاعتناء بالوليد ، وكانت هي التي فتحت الباب

الخارجي عند أول طرقة دون أن يخطر لها أن الطارقين هم رجال الشرطة الذين سرعان ما فاجأوا الأسد في غرفة نومه . ولكنهم لم يجدوا شيئاً يثبت عليه أي تهمة سوى مسدسه الرسمي . وفي اليوم التالي استدعاه واحد من كبار الضباط إلى مقر القيادة من أجل أن يهدىء من خاطره حتى أنه عرض عليه إعادة مسدسه إليه ، ولكن الأسد رفض أن يأخذه قائلاً إنه سيكون هناك متسع من الوقت لاستعادته عندما يرجع إلى القوات الجوية[٢٦] ولقد كان واضحاً للجميع أن الخط الفاصل بين وجود المرء في الداخل ووجوده في الخارج كان خطاً رفيعاً يتحول من انقلاب إلى آخر .

هكذا ، وخلال بضعة شهور ، عرَّض الأسد نفسه للسجن في مصر ولبنان وسوريا ، وكضابط طيار سابق بلا مال ولا مستقبل واعد ، كان يعيش في ظل نظام يعتبره مشاغباً أما هو فيمثل له هذا النظام كل شيء يحتقره . لقد توقفت حياته العسكرية بالوحدة السورية ـ المصرية وأصبحت الآن تسير على نحو معكوس من جرَّاء الانفصال بحيث انتهى به المطاف إلى كاتب حكومي ذي راتب منخفض ، في حين كانت حياته قبل تلك النكسات عبارة عن قصة نجاح لم ينقطع : فمن قائد طلابي إلى طيار مرموق تحترمه قريته ويتطلع إليه إخوته كمثل أعلى له شعبيته بين أقرانه الضباط وتوَّج ذلك كله زواج سعيد من عائلة ذات مكانة اجتماعية جيدة . وكان حينذاك قد أطلق العنان للجانب العنيف من طبيعته وأبدى جرأة في الجو وقوة على الأرض وأصبح معتاداً على الحصول على ما يريد . أما الآن فقد تسرَّب منه بعض مرحه وحل محله عنصر العناد الحازم عندما بدأ هو ورفاقه في اللجنة العسكرية يعدّون العدة لصعود المنحدر من جديد .

هوامش الفصل الخامس

(١) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤) .
(٢) من أجل تفاصيل اكثر عن حلف بغداد انظر كتاب باتريك سيل (مصدر سبق ذكره ص ٢١٣ ـ ٢٣٧) .
(٣) مقابلة مع الرئيس الأسد (١٣ أيلول/ سبتمبر/ ١٩٨٤).
(٤) نفسه .
(٥) نفسه .
(٦) مقابلة مع اللواء الجوي المتقاعد فؤاد كلاس (دمشق ١٣/٩/ ١٩٨٤) .
(٧) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٣ أيلول ١٩٨٤) .
(٨) نفسه .
(٩) حنا بطاطو : «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق» (برنستون ١٩٧٨) ص ٨٦٦ ـ ٨٨٩ .
(١٠) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق . أيار/ مايو ١٩٨٥) .
(١١) نفسه .
(١٢) نفسه.
(١٣) حسب معلومات بعض الرواة فإن قائد المجموعة في البداية كان درزياً هو المقدم فريد هنيدي ، ولكنه نقل إلى خارج الجيش بعد وقت قصير وعين بعيداً عن طريق المشاكل في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في جاكارتا . وفي ٢٩ آب/ أغسطس ١٩٨٣ توفي في السويداء دونما اهتمام ولا رثاء .
(١٤) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ايار/ مايو ١٩٨٥) .
(١٥) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ايار/ مايو ١٩٨٥) .
(١٦) كان في الشبكة : اثنان درزيان هما سليم حاطوم وحمد عبيد ، وعلوي هو سليمان حداد ، وعدد من السنّة منهم : عثمان كنعان من الاسكندرونة ، وموسى الزعبي ، ومصطفى الحاج علي ، وأحمد سويداني من حوران بجنوب سورية ، ومحمد رباح الطويل من اللاذقية ، ومصطفى طلاس من الرستن قرب حمص . انظر كتاب نيكولاوس ڤان دام (الصراع على السلطة في سوريا ـ لندن ١٩٧٩ ص ٤٩ و٥١) واليزابيت بيكار (الجماعات العسكرية والسلطة البعثية في سوريا في فصلية «الشرق» الفصل الثالث ١٩٧٩ ص ٥٤ و٥٥)؟ . انضم هؤلاء الرجال إلى اللجنة العسكرية بعد أن تم الاستيلاء على السلطة عام ١٩٦٣ وانتهت بذلك المرحلة الأولى من العمل السري .
(١٧) انظر كتاب جون ف. دڤلين : «حزب البعث دراسة لأصوله وحتى ١٩٦٦» ـ ستانفورد ١٩٧٦

ص ١٠٥ ـ ١١٤ حول توسع الحزب خارج سوريا .

(١٨) وكان أحد الضحايا على الطريق هو جلال السيد الذي كان واحداً من الأعضاء الأربعة لأول لجنة تنفيذية للحزب ومؤسس فرع الحزب في دير الزور . ترك السيد الحزب سنة ١٩٥٥ لأنه لم تعجبه حرب الحوراني الطبقية ولا الضغط من اجل الوحدة مع مصر . وربما كان سبب ذلك كون ملكية الأرض والتأثيرات القبلية قوية في دير الزور ولأنها وهي الواقعة على الفرات ولها ارتباطات وثيقة مع العراق كانت تنظر بعين القلق إلى انجذاب سوريا للدوران في فلك مصر .

(١٩) مقابلة مع الدكتور منيف الرزاز (الكويت: ١٥/ شباط/ فبراير١٩٧١).

(٢٠) انظر كتاب جدعون رفائيل : الهدف هو السلام ـ لندن ١٩٨١ ص. ٣٦ وما يليها حول رواية عن استعداد عبد الناصر منذ وقت مبكر للتفاوض .

(٢١) مقابلة مع عبد الغني قنوت (دمشق ـ ٢٧ شباط ١٩٧٧) .

(٢٢) عبد الكريم زهر الدين : «مذكراتي من فترة الانفصال في سوريا» بيروت ١٩٦٨ من ٦٦ ، وڤان دام (مصدر سبق ذكره ص ٤١ ـ ٤٢ ، وايتامار رابينوفيتش : «سوريا تحت حكم البعث ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦ ـ تل أبيب ١٩٧٢ ص ١٨ ـ ٢٠ ، وبتران (مصدر سبق ذكره) ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٢٣) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق تشرين الأول / أكتوبر ١٩٨٤) .

(٢٤) مقابلة مع جابر الصبح الحمداني الذي كان أحد متمردي حلب (لندن ٨ آذار/ مارس ١٩٨٦) .

(٢٥) بالاضافة إلى باسل وبشرى المولودة في القاهرة عام ١٩٦٠ رزق الأسد وزوجته أنيسة بثلاثة أولاد ذكور آخرين هم بشار (١١ ايلول/ سبتمبر ١٩٦٥) ومجد (١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦) وماهر (٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٧).

(٢٦) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ايار/ مايو ١٩٨٥).

الفصل السادس

الفوز بالدولة

أمضى الأسد عام ١٩٦٢ مناضلاً متفرغاً ضدحكم الانفصال فقد خطط هو ورفاقه في اللجنة العسكرية للاستيلاء على السلطة في سوريا عن طريق انقلاب عسكري تقليدي، بمعنى أن يتم تجميع زمرة من الضباط تتمكن في اليوم المحدد من توجيه ضربة على درجة من القوة بحيث تطيح بالحكومة. ولكن نظراً لعدم توفر حركة جماهيرية ثورية تحت إمرتهم فقد كان عليهم أن يحصروا خطتهم في نطاق الحدود الضيقة لنادي الضباط والثكنات المتمردة التي كانت هي مجال العمل السياسي للقوات السورية المسلحة منذ ١٩٤٩.

وكان ثمة أساليب مألوفة للانقلابات السورية: فالمتآمرون كانوا يعلمون أن عليهم أن يسيطروا على الكسوة وقطنا فهما المعسكران اللذان يحميان المشارف الجنوبية للعاصمة دمشق، وأن اللواء المدرع السبعين هو أداة جوهرية، وأن حمص التي هي مقر الكلية العسكرية ينبغي تحييدها، وأنه يجب الاستيلاء على إذاعة دمشق لإعلام الشعب بأن عهداً جديداً قد بدأ. فكل ثورة تحترم نفسها لا بد لها من بيان رقم ١ مصاغ بلغة مثيرة.

ورغم أن أعضاء اللجنة أنفسهم كانوا خارج الجيش وغير ذوي تجربة، وفي سن غضة (كان عمر الأسد يومها واحداً وثلاثين عاماً)، إلا أن هدفهم لم

يكن بعيد المنال. كان النظام الانفصالي الذي استهدفوا إسقاطه يرتكز على طبقات ومصالح أضعفتها التقلبات العنيفة منذ الاستقلال: كحرب فلسطين، والانقلابات العسكرية التي تلتها، وصعود الأحزاب الراديكالية، والهزة التي أحدثها زواج مصر وسوريا. فالرئيس القدسي ورؤساء الوزارات الثلاث الذين خدموا في ظله خلال الثمانية عشر شهراً التي عمّرها نظام الانفصال ـ وهم الدكتور معروف الدواليبي، والدكتور بشير العظمة، وأخيراً خالد العظم الذي كان قد أصبح عجوزاً ومريضاً ـ قد فقدوا إرادة ممارسة الحكم إلى حد كبير. وقال الأسد فيما بعد: «كانت حكومة بلا شعب، وبلا جيش. كان حكمهم حكم طبقة انتهت أيامها»(١).

وكانت هذه هي آخر مرة يظهر فيها في الحكم وجهاء المدن الذين ظلوا طيلة عهد الأتراك والفرنسيين وسنوات الاستقلال الأول هم أسياد سوريا الحقيقيون ولكن منذ ١٩٦٢ لم يعد باستطاعتهم السيطرة على أجهزة الدولة، ناهيك عن هيئة الضباط، كما لم تكن لديهم القوة لقمع أعدائهم القدامى مثل البعث الذي راح ينتظم من جديد.

وكان على القدسي أيضاً أن يتحمل وطأة غضب عبد الناصر. فقد راحت أجهزة دعاية القاهرة تشن على الحكومة السورية هجمات يومية صاخبة، بينما انصبت في سوريا عبر الحدود اللبنانية النفاذة الأموال والمتفجرات وشبكات العملاء المصرية. وأصبح التدخل المصري سافراً إلى درجة أن سوريا اشتكته إلى جامعة الدول العربية. ولكن تهديد عبد الناصر الغاضب بالانسحاب من الجامعة إذا أيدت الشكوى المقدمة ضده قد سحق الموضوع وترك نظام القدسي الكسيح يواجه عجزه بنفسه.

وهكذا تبين أن الإطاحة بمثل هذا النظام المترنح لن تكون صعبة إلى حد الاستحالة. إلا أنه كان يتعين على اللجنة العسكرية أن تجد حلفاء مناسبين، ولما كانت شبكتها تتألف من ضباط صغار فإنها كانت بحاجة إلى بعض ذوي

الرتب العالية والذين تكون تحت إمرتهم تشكيلات كبيرة. وكانت هيئة الضباط السورية التي أصبحت منذ ١٩٦٢ في حالة تشرذم غير عادية مجالاً خصباً لتعمل فيها اللجنة. فانهيار الوحدة، وسلسلة التمردات التي تلت الانفصال قد أخذت نصيبها من ضحايا عمليات التطهير والنقل. كان هناك عشرات من الضباط محبوسين في سجن المزة، وعشرات آخرون ـ مثل الأسد نفسه ـ يعانون في وظائف حكومية صغيرة داخل البلد بينما نفي آخرون بتعيينهم في السفارات البعيدة، وقد ولّد ذلك كله كمية هائلة من السخط وكانت الحكومة باستمرار معرضة للضغط من قبل عائلات وأصدقاء أولئك الضباط للعفو عنهم وإعادتهم إلى مناصبهم. وكانت المظالم التي يتذمر منها الجيش السوري علنية ومشهورة إلى درجة أن الصحف اللبنانية كانت تتوقع إنقلاباً كل أسبوع أو أسبوعين.

وكان الضباط حينذاك منقسمين إلى خمس فئات رئيسية: فهناك فئة ما يسمون بـ «الضباط الدمشقيين» الذين حطموا الوحدة والذين كانت معنوياتهم قد بدأت تنهار تماماً كمعنويات الحكومة التي جاؤوا بها؛ ثم فئة أكرم الحوراني التي خسرت بعض مواقعها منذ قضية توقيع الحوراني على البيان الانفصالي؛ ثم فئة الناصرين وهي كثيرة العدد وكانت تمسك بمناصب قيادية هامة ولكن كان لها وضع شاذ باعتبار أن الحكومة التي تخدمها كانت على أسوأ علاقة ممكنة مع الزعيم المصري، ثم هناك فئة المستقلين الذين لا يرفعون راية أحد، وأخيراً فئة البعثيين الذين جنّدت اللجنة العسكرية بالفعل بعضهم بصورة سرية ثم تساءلت من أي فئة أخرى يمكنها أن تجند أيضاً؟.

«فالضباط الدمشقيون» هم العدو والحورانيون لا يمكن الاقتراب منهم أيضاً لا لأنهم إنحازوا إلى الانفصاليين وإنما لأن اللجنة العسكرية كانت ترى فيهم المنافسين لها؛ وهكذا لم يبق أمامها سوى الناصريين والمستقلين. وبالرغم من تحفظات اللجنة على عبد الناصر ومن سوء إدارة محاولة انقلاب ربيع ١٩٦٢ فإنها قامت باتصالات سرية مع ضابطين بارزين هما: العقيد راشد

قطيني رئيس المخابرات العسكرية والعقيد محمد الصوفي آمر لواء حمص، واقتُرح عليهما الاشتراك في الهجوم على الحكومة، وبعد أخذ ورد تم كسب هذين الضابطين.

ولكن ذلك لم يكن كافياً. ولهذا وبناء على أوامر اللجنة، طلبت مجموعة من صغار الضباط البعثيين مقابلة زعيم المستقلين في الجيش: العقيد زياد الحريري، آمر قطاع الجبهة مع إسرائيل، حيث أخبروه بأنهم يخططون للإطاحة بالحكومة، وعرضوا عليه قيادة حركتهم. قالوا: «إذا نجحنا، فلسوف تصبح رئيساً للأركان، وإذا فشلنا فباستطاعتك أن تتنصل وتتبرأ منّا»[٢]. وقد جاء هذا العرض في لحظة مناسبة، ذلك أن رئيس الوزراء ـ خالد العظم ـ وهو خصم صلب وعنيد لفكرة تدخل الضباط في السياسة، كان ينوي أن يجعل الحريري عبرة للآخرين بتجريده من منصبه المتنفذ وإرساله كملحق عسكري إلى بغداد وهكذا انضم الحريري إلى المؤامرة.

وكانت نتيجة هذه المفاوضات السرية أن تجمعت عصبة مؤلفة من ستة رجال في أواخر ١٩٦٢ وهم: الأسد وعمران وجديد والحريري وقطيني والصوفي ولكن كانت لديهم أهداف مختلفة. فالحريري يريد إنقاذ مستقبله، والناصريون يريدون إعادة عبد الناصر، بينما كانت أهداف اللجنة العسكرية أكثر تعقيداً وطموحاً، فهي وحدها بين الفئات الأخرى كانت تملك كياناً متماسكاً، وقيادة موحَّدة، وبرنامجاً. فهي تهدف أولاً إلى إعادة البعث إلى السلطة وثانياً إلى أن يضع أعضاؤها أنفسهم على طريق الصعود من جديد، وبعد ذلك فقط ينظر في امر دفع قضية الوحدة العربية الى الامام.

وبالرغم من أن كونهم يعرفون ما يريدون ميزة كبيرة، فإن ذلك لم يكن كافياً ليعوّض حقيقة أنهم بالنسبة للناس مجرد شبان مجهولين، ينتمون إلى طائفة قليلة الشأن، ومسرَّحين من الجيش. بل أنهم لم يكونوا موضع ترحيب حتى في المحيط المدني للبعث. ثم ان الحزب عمد، مثل الأحزاب العقائدية الأخرى إلى

تجنيد أنصار عسكريين له باعتبار أن الجيش أصبح هاماً بحيث لا يمكن تجاهله من ناحية، ومن أجل الحصول على وسيلة للدفاع عن النفس من ناحية أخرى فالعمل السياسي العربي ليس مجرد نزهة، فالبعثيون ذبحوا بأعداد كبيرة عام ١٩٥٩ في العراق، كما أن آخرين منهم تعرضوا للسجن وللتعذيب في عدة أقطار أخرى. وعندما كانت الاحتمالات تتلخص في مواجهة القتل أو السجن فقد أخذ التردد والارتياب بالعسكريين وتدخلهم في السياسة يبدو نوعاً من التدقيق الزائد. على كل حال لم يكن العسكريون يوضعون في قيادة الحزب حيث يريد المدنيون أن يبقوا هم المسيطرين.

هذا ما كان عليه جانب من خلفية علاقات اللجنة العسكرية مع عفلق حينذاك. كان الأسد وأصدقاؤه لا يكنون حباً لعفلق، أما هو فكان لا يثق بهم. إلاّ أن الجانبين كان يحتاج أحدهما إلى الآخر. فهم كانوا بحاجة إلى اسمه لأنه بالنسبة للعالم الخارجي لا يزال يرمز إلى البعث، كما أنه يمثل ما تبقى من الجهاز الحزبي الذي بإمكانه أن يضارع أي إستعراض للقوة قد يقوم به حلفاء عبد الناصر في الشوارع. أما عفلق فكان يعلم بدوره أنه بدون دعم الجيش لا يملك أي حظ للعودة إلى المسرح السياسي.

في ربيع ١٩٦٢، وبعد أربع سنوات بائسة من النضال للعودة إلى الميدان السياسي، دعا عفلق إلى عقد مؤتمر في حمص، وهو أول مؤتمر يعقد على الأرض السورية منذ حل الحزب عام ١٩٥٨. ولم يُدعَ إليه لا أكرم الحوراني ولا البعثيون الذين انضموا إلى عبد الناصر، ولا أولئك الذين خالفوا أوامر عفلق وحاولوا إبقاء فروع الحزب على قيد الحياة خلال سنوات الوحدة. وأرسلت اللجنة محمد عمران ليدوّن بهدوء ملاحظاته عن وقائع المؤتمر. وانتهى المؤتمر بأن أعاد عفلق بطريقة قلقة إلى كرسي قيادة الحزب. وبمساعدة وفد البعثيين العراقيين الخشنين استطاع عفلق أن يمرّر قراراً يقضي بإصلاح الحزب في سوريا وآخر، يتماشى مع مبادىء الحزب ولكن لا يخلو من النفاق ويقضي

بدعوة مصر إلى وحدة جديدة «بعيدة عن حكم الفرد وعن حكم الدولة البوليسية» وبالطبع لم يكن ذلك اقتراباً ودياً من عبد الناصر(٣).

وفي أعقاب المؤتمر جرت اتصالات بين عفلق واللجنة العسكرية التي لم تطلع الزعيم العجوز على سرها ولا على تفاصيل خططها، إلاَّ أن الضباط حصلوا منه على تعهد بدعمهم للقيام بانقلاب.كان هناك الكثير من المخادعة بين الجانبين. إلاَّ أن الرابط الذي جمع بينهما هو التفاهم الصامت على أنه بعد أن يتم استخدام الناصريين للتخلص من الانفصاليين، فانهم لن يكرروا غلطة تسليم السلطة إلى الزعيم المصري ولكنهم لم يتفقوا على مقدار السلطة التي سيتقاسمونها، إذ تُرك الأمر معلقاً.

انقلاب آذار/ مارس

في ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣ أفاق الأسد ورفاقه على الأخبار المبهجة للقلب بأن رفاق حزبهم في بغداد قد أسقطوا وصرعوا الدكتاتور العراقي عبد الكريم قاسم. وهكذا فتحت الدراما الدموية في بغداد الطريق أمام نجاح مماثل في دمشق.

كان قاسم خصماً أكثر صعوبة من القدسي الذي يرأس سوريا فمن أجل إزاحة قاسم قام أعضاء التنظيم السري لحزب البعث العراقي، بقيادة علي صالح السعدي وهو شاب خشن ذو خلفية فقيرة، بتجنيد وتسليح ميليشيا قوامها ألفا مقاتل وكوَّنوا تحالفات مع الضباط القوميين في الجيش العراقي وكسبوا إلى جانبهم النقابات المهنية للمحامين والأطباء والمهندسين الذين يشكلون العمود الفقري للطبقة الوسطى العراقية. وقد نظموا إضراباً طلابياً واحتلوا معسكر الرشيد وقتلوا قائد السلاح الجوي جلال الأوقاتي على باب منزله وذلك في الساعة التاسعة والنصف صباحاً أي قبل ساعة واحدة من ساعة الصفر، ثم أرسلت الطائرات المقاتلة لقصف وزارة الدفاع حيث يعمل قاسم خلال الليل وكان قد أوى لتوه إلى فراشه. وبعد مضي أربع وعشرين ساعة تمكن المتمردون

من إخراجه وساقوه إلى دار الإذاعة حيث أعدموه على الفور (ويشار إلى أن وكالة رويتر للأنباء أبرقت للثوار وعرضت عليهم مبلغ أربعين ألف دولار مقابل الفيلم الذي يظهر قاسم مقتولاً، ولكن الطلب رفض).

وأدت أحداث بغداد إلى تغيير مجريات السياسة العربية. فالعراق الذي عزله قاسم ووضعه خارج المسار العربي، عاد ودخل إلى التيار الرئيسي للسياسة العربية كما أدت الأحداث إلى تغيير حزب البعث نفسه. فبعد أن كان ممزق الأوصال ولا يوجد منه إلا بقايا مهلهلة بدا على حين غرَّة كقوة رئيسية راديكالية قومية تضاهي عبد الناصر ذاته. وكان هذا التغيير المصيري لمصلحة الرفاق السوريين وبخاصة للأسد وزملائه فقد منحهم تشجيعاً معنوياً كبيراً باعتبار أن السوريين، خلافاً للبعث العراقي، لم يكن عندهم ميليشيا حزبية ولا حزب بالمعنى الصحيح بل مجرد شبكة عسكرية هزيلة، وقليل من الدعم من قبل المهنيين والطبقة الوسطى.

والواقع أن عفلق كان يعي هذا الضعف فحذَّر الضباط من مغبة العمل المتسرع إلا أنهم تجاهلوه[٤] فقد كانت اللجنة العسكرية على أهبة الاستعداد لتحذو حذو العراق.

وقرر عصبة الرجال الستة أن يقوموا بانقلابهم في ٧ آذار/ مارس أي بعد مضي شهر واحد على الانقلاب العراقي.

إلَّا أنه قبيل ساعة الصفر داهمت المخابرات العسكرية الشقة التي كان المخططون يجتمعون فيها. فألقي القبض على بعضهم واختبأ البعض الآخر. وبذل الأسد، وبوسائل اتصال هزيلة، جهداً هائلاً لإبلاغ الوحدات التي كانت على أهبة التحرك بأن الانقلاب أرجىء يوماً واحداً[٥].

وفي ليلة ٧ ـ ٨ آذار/ مارس بدأت الدبابات والمشاة تتحرك للانقضاض على دمشق. وقاد العقيد زياد الحريري لواء من الجبهة مع إسرائيل، بينما تحرك

لواء ثانٍ من السويداء في جبل الدروز باتجاه العاصمة بعد أن سيطر على قيادته الضباط البعثيون وانحصر اللواء المدرع السبعون القوي المتميز في الكسوة بين فكي الكماشة فاستسلم قائده المقدم عبد الكريم عبيد وفي الحال استولى محمد عمران عليه وهكذا عاد المخطط الاستراتيجي الرئيسي للجنة العسكرية ببزته الرسمية على رأس أكبر وحدات الجيش هيبة ونفوذاً. وكان في قطنا على المشارف الجنوبية الغربية لدمشق لواء كان من المحتمل أن يكون معادياً، غير أنه لم يتدخل، ربما لأن وداد بشير، البعثي الذي كان في مصر مع الأسد ولكنه تمكن من تفادي التسريح، قد سيطر على مركز اتصالات الجيش في منطقة دمشق.

ومع استثمار الكسوة وتحييد قطنا سارت قوة الحريري إلى دمشق وأقامت حواجز في المدينة، وضربت طوقاً حول مديرية البريد وغيرها من النقاط الحساسة، واستولى النقيب سليم حاطوم وهو من أعضاء الحزب الدروز ومن ذوي «الرؤوس الحامية» على محطة الإذاعة. وتم احتلال وزارة الدفاع ومقر قيادة الجيش بلا قتال ووضع القائد العام اللواء زهر الدين قيد الاعتقال. وكذلك ألقي القبض على الرئيس ناظم القدسي وأكرم الحوراني وحفنة من الشخصيات الانفصالية الأخرى. وفي ذلك الصباح وصل صلاح جديد إلى المدينة على دراجة هوائية ليتسلم مسؤولية مكتب شؤون الضباط، وهو مكتب هام وحساس.

وكانت اللحظة المظفرة للأسد هي لحظة استيلائه على قاعدة الضمير الجوية حيث كانت القوة الجوية بكاملها متمركزة فيها والتي كانت تشكل المقاومة الجوية الوحيدة ضد الانقلاب، فقد أُرسلت بعض الطائرات لقصف المتمردين. وكانت الخطة تقضي بأن يتحرك الأسد ضد الضمير على رأس سرية من لواء الحريري مستهدفاً الوصول قبل الفجر لتجنب وقوع هجوم عليه من الجوّ، ولكن مرة أخرى حصلت مشكلة معرقلة لم تكن في الحسبان فقد استغرقت المفاوضات في الكسوة أطول مما كان متوقعاً. ولذا فقد كان في وضح

النهار عندما أوقف قوته الصغيرة على بعد ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من القاعدة التي كانت الـدبابات قد وجدت الوقت لتتمركز حولها، وكان الأسد لا يزال بالملابس المدنية.

ويقول مستذكراً: « . . . أرسلت إليهم مبعوثاً برسالة تحذيرية بأنني سأباشر القصف إذا كانت هناك أية مقاومة. وبعد بضع دقائق جاء اثنان من ضباطهم في سيارة ليقترحا التفاوض فهرعت على الفور معهما إلى حيث آمر القاعدة وقلت له: «لقد انتهى الأمر بالنسبة لكم. ونحن لا نريد أن نقتل أحداً، ولكن ما لم تستسلموا فإننا سنستعمل القوة» ثم نصحته بأن يأمر بانزال الطائرات.

ويتابع الأسد: «وصاح أحـد الضباط: «هـل تعتقد بـأننا سنستسلم للناصريين؟». وكان السائل مسجوناً معي في القاهرة عند انهيار الوحدة فقلت له: «بالأمس فقط كنا في السجن معاً. وأنت تعلم أنني بعثي لا ناصري». وتوتر الجو كثيراً، ولكن بعد فترة من الصياح والصراخ المتبادل استسلموا. وكان بإمكانهم أن يقاوموا فالقوات التي تحت تصرفهم كانت أقوى من وحدتي الصغيرة ولكنهم كانوا جبناء وعندما دخلت قواتي إلى القاعدة كانت على وشك أن تفتك بالضباط الانفصاليين لولا أن تدخلت وحميتهم»[٦].

عند ضحى ذلك اليوم اجتمع صانعو الانقلاب في مقر قيادة الجيش للاحتفال بانتصارهم الخاطف. فالانقلاب كان عبارة عن نزهة وتم دونما كبير مشقة ودون إراقة دماء، و قوبل من الشعب بلامبالاة. وقبل أسبوع واحد فقط كان الأسد والآخرون يعيشون في الظل حياة المتآمرين المجهولين المحفـوفة بالمخاطر ويكاد لا يتوفر لديهم هاتف أو سيارة تصل فيما بينهم وها هم الآن قد أصبحوا أقوى قوة في السياسة السورية، لقد فازوا في محاولتهم، ونجحت ثورتهم. وكتب أولى بيانات النظام الجديد وأذاعها الدكتور صابر فلحوط وهو اديب درزي كثير الحماسة أصبح يعرف باسم «شاعر الثورة» (وظل لسنوات عديدة فيما بعد مديراً للوكالة الوطنية للأنباء «سانا»). وكانت للبيان التاسع الذي

أذيع في الساعة ٨/٤٠ صباحاً أهمية خاصة للجنة العسكرية فقد أُعيد بموجبه أعضاؤها الخمسة إلى القوات المسلحة مع حوالي ثلاثين ضابطاً آخرين. ورفّع النقيب الأسد إلى رتبة مقدم وعُين آمراً لقاعدة الضمير الجوية، وكان الأصغر سناً والأقل رتبة من زميليه عمران وجديد، ولذلك كان خلال التخطيط للإنقلاب يأتمر إلى حد ما بأمرهما. غير أنه كان الوحيد الذي يملك خبرة الطيران كما يملك أيضاً أصدقاء وأتباعاً في القوات الجوية وكان لذلك أهميته وجعله يفوز بآمرية قاعدة الضمير مما زاد من شأنه داخل اللجنة ولم تلبث أن أصبحت القوات الجوية في التالي من الأيام إقطاعته ومجال نفوذه والمنصّة التي وثب منها نحو أشياء أكبر.

واجه الحكام الجدد مهمة تسيير الجيش بل إدارة الدولة نفسها. ولم يكن لديهم الكثير من التجربة أو من التدريب من أجل هذه المهمة. وكان أول عمل قاموا به هو وضع السلطة بيد هيئة سرية مؤلفة من عشرين عضواً هي: المجلس الوطني لقيادة الثورة، منهم إثنا عشر بعثياً وثمانية من الناصريين والمستقلين ـ ويعكس هذا التشكيل الفئات التي عملت معاً لإسقاط الرئيس القدسي. وظلت تركيبة المجلس لعدة شهور لغزاً بالنسبة للجمهور.

وفي صبيحة الانقلاب أمر الضباط صلاح الدين البيطار بتشكيل حكومة لتنفيذ سياسة المجلس الوطني لقيادة الثورة، وبعد بضعة أيام، ولأغراض شكلية إلى حد كبير، تم توسيع ذلك المجلس ليضم حفنة من المدنيين ـ عفلق، والبيطار نفسه، ومنصور الأطرش، وكذلك قادة ثلاث مجموعات ناصرية منشقة ـ ولكن المدنيين منذ البداية كانوا مجرد وجوه وصور رمزية. كانت السلطة في يد العسكر.

ويستذكر منصور الأطرش، ابن الزعيم الدرزي سلطان باشا وهو من خريجي الصوربون وحزبي قديم، كيف كان الأعضاء المدنيون في مجلس قيادة الثورة يضيقون ذرعاً بالاساليب السرية التي كان ينتهجها الضباط، فيقول عن

طريقة عمل المجلس في أيامه الأولى: «كان الضباط يتركوننا نتكلم مع أنهم، حسبما اكتشفنا فيما بعد، يكونون قد اتفقوا فيما بينهم سلفاً على القرارات التي ستتخذ وذات يوم فقدت أعصابي وقلت لهم: لماذا لا يتكلم هؤلاء السادة؟ هل لي أن أقترح أن يعينوا ضابط ارتباط ليوصل لنا آراءهم؟ وتنازل عمران في النهاية وأعطانا نحن المدنيين ـ بعض المعلومات غير الواضحة عن مخططاتهم»(٧).

أما في اللجنة العسكرية فلم يبد آنذاك ما يشير إلى الشجارات في داخلها والتي قُدر لها فيما بعد أن تدمّرها.وكما كان عليه الأمر في القاهرة كانت القرارات تتخذ بشكل جماعي وسري. وقد ربط فيما بين أعضاء اللجنة حس مصيري وعزم على تغيير بلدهم وحماسة مشتركة حيال معرفتهم بأن مؤامرتهم كانت هي المحرك لسوريا الجديدة. أما الأسد فكان يخامره الإحساس بأنه أداة تاريخية وظل يرافقه هذا الإحساس كجزء من الأسلحة التي عنده. وعندما غدا واضحاً إدراكه لمسؤولياته، اتخذ سيماء الجدية البالغة، ولكنه كان يغلف حس السلطة لديه بالتصرف المتحفظ وبدماثة السلوك المهذب.

كانت السياسة في الأيام الأولى للثورة قضية مساومة على المناصب وتقاسمها بين فئات الجيش المختلفة في جلسات غالباً ما كانت تستغرق الليل بطوله. ولكي يغطوا شقوق خلافاتهم بالورق اختاروا لمنصب القائد العام ورئيس مجلس قيادة الثورة ضابطاً محبوباً ولا يشكل خطراً على أيّ منهم هو العقيد لؤي الأتاسي، الذي أطلقوا سراحه من السجن في الثامن من آذار/ مارس، في يوم الثورة التي لم يشترك فيها، ورفّعوه إلى رتبة فريق. ورفع إلى الرتبة نفسها أحدُ مدبري الإنقلاب الرئيسيين: زياد الحريري الذي حصل على منصب رئيس الأركان. ولما كان الأتاسي والحريري لا يملكان أي قاعدة للقوة السياسية أو الشخصية في القوات المسلحة، فإن التنافس الحقيقي كان بين البعثيين والناصريين.

ولقد أَمّنَ الضباط الناصريون الحصول على مناصب ملفتة للنظر: فمحمد

الصوفي أصبح وزير الدفاع وراشد القطيني نائباً لرئيس الأركان غير أن اللجنة العسكرية تأكدت من كون البعثيين يمسكون المقابض والمفاصل الحقيقية للقوة والسلطة. وكخطوة أولى وسعت اللجنة نفسها فضمّت خمسة ضباط آخرين(٨)، وبذلك قوّت فئة البعثيين نفسها داخل المجلس الوطني لقيادة الثورة. ومنذ ذلك الحين أصبحت اللجنة العسكرية «مجلساً داخل المجلس» تقرر خط سياستها قبل اجتماعاته، وتضع رجالها في المواقع المؤثرة.

حصل عمران على قيادة اللواء الخامس في حمص (وانتقل في حزيران إلى قيادة اللواء السبعين المدرع، الذي كان قد استولى عليه مدة قصيرة خلال الانقلاب). وفي مكتب شؤون الضباط شرع صلاح جديد في تطهير الأعداء وترفيع الأصدقاء فأعاد إلى الخدمة الفعلية أعداداً كبيرة من ضباط الاحتياط البعثيين - كل ذلك بأسلوب هادىء ورشيق أما أحمد سويداني الذي جندته اللجنة العسكرية فقد سيطر على المخابرات العسكرية، بينما أصبح مزيد الهنيدي (الذي كان مرتبطاً مع اللجنة العسكرية في القاهرة) مسؤولاً عن الشرطة العسكرية. وأما الكلية العسكرية بحمص، الحاضنة التي كانت ترعى وتفرخ قوة الحزب وسلطته، فقد وُضِعَتْ هي الأخرى في أيدٍ بعثية. ولدى التخرج من الثانويات في ذلك الصيف قُبلَ في الكلية مئات من الطلاب البعثيين ذوي الخلفيات المتواضعة - وكان من بينهم رفعت الأخ الأصغر لحافظ الأسد. ونُظمت لهم دورات مكثفة لتمكينهم من الحلول محل أعدائهم الطبقيين.

أما الأسد فقد أصبح من الناحية الفعلية (ان لم يكن من الناحية الاسمية) القائد الحقيقي للقوة الجوية، وهذا وإن جرى في بلد ذي جيش صغير بمعدات فقيرة، فإنه يعتبر ترفيعاً من شأنه أن يخجل ويرهب الذي لا يزال في أوائل الثلاثينات من عمره وكان مجرد نقيب قبل يوم واحد فقط. إلّا أن الأسد، الواثق من نفسه والذي تفجرت طموحاته حديثاً، لم يروَّع، وإنما انكبّ بجرأة على تدعيم إقطاعته، فوضع رفاقه حيث يحتاج إليهم، وأقام قاعدة قوية من

العلاقات الشخصية وذلك بالاهتمام بأولئك الذين هم حوله والعناية برفاههم. كما أنه لم يهمل تحسين وتطوير نفسه فقد لوحظ مثلاً أنه كان يحتفظ على مكتبه في القاعدة الجوية بكتاب عن فقه اللغة العربية (٩).

وتابع الأسد ورفاقه بناء قلعة تمتنع على الهجوم الخارجي. ولكنهم ظلوا بحاجة إلى الشخص ـ الواجهة. فهم جميعاً ذوو رتب صغيرة، وغير معروفين تماماً وهذا لا يمنحهم مصداقية في أعين الناس كي يكونوا حكّام سوريا الحقيقيين. وفي هذه الظروف كانت «ضربة المعلم» التي قامت بها اللجنة العسكرية هي تأمين تعيين العقيد أمين الحافظ في المنصب الحساس: وزيراً للداخلية. كانت اللجنة العسكرية قد وضعت عينها منذ سنواتٍ على هذا الضابط الصريح الصارم الجادّ العنيد. كان الحافظ سُنياً وابن شرطي من حلب، وكان مثل كثيرين من طلبة المدارس، يقذف الفرنسيين بالحجارة أيام الانتداب، وقد تطوع للخدمة في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨. وفي سنة ١٩٥٤ انضم إلى الانتفاضة ضد الشيشكلي، وفي أوائل أيام الوحدة ترقى إلى منصب آمر المنطقة الشرقية في دير الزور قبل أن يصبح آمر الكلية العسكرية بحمص. وتعرف عليه أعضاء المجلس العسكري عندما أرسل إلى القاهرة كمعلم ومدرب في كلية الأركان. ولم يكن عضواً في الحزب، ولكنه كان معروفاً كصديق له، وهكذا حاولوا ضمّه إلى شبكتهم؛ بَيْدَ أَنَّهُ كان يحس برقابة المخابرات المصرية ولذلك حافظ على مسافة فاصلة. وعندما انفصلت سوريا عن مصر في أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٦١ شُحِنَ الحافظ إلى بلده على عجل مع كثيرين غيره حيث عادت اللجنة إلى الاتصال به على الفور بشخص رئيسها محمد عمران. وقال أمين الحافظ فيما بعد مستذكراً: «كنت مقيماً في فندق صغير بدمشق، وهناك بحث عني عمران ليسألني رأيي في احتمالات القيام بانقلاب، وأذكر أنه جاء معه بورقة دراسة موقف راح يستعرض فيها الوضع السياسي العام، وقوة النظام، وما لدى البعث من رصيد القوى، والقوى الرئيسية المنافسة له، وما إلى ذلك.. ثم قال لي: «نحن نعتبرك واحداً منا». ولكني لم أتحمس للموضوع. فآمالهم

بالنجاح كانت تبدو ضئيلة، وكنت أعلم أنني تحت المراقبة»(١٠).

وفي كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٦١ قام نظام القدسي «بنفي» أمين الحافظ كملحق عسكري في بونس آيرس حيث كان موجوداً عندما استدعي للعودة إلى دمشق بعد انقلاب ٨ آذار/ مارس سنة ١٩٦٣، فأصيب بنوع من الذهول حينما وجد نفسَه يُرَقَّى إلى رتبة فريق ويُعْهَدُ إليه بمنصب وزير الداخلية بالرغم من أنه لم تكن له أية علاقة لا بالحزب ولا باللجنة العسكرية. كانت اللجنة تريده أن يكون الواجهة لها وتبقى هي التي تحرك الخيوط من ورائه(١١).

الصراع مع الناصريين

كـان انتصار البعث في كل من دمشق وبغداد يهدد بأن يحشر عبد الناصر «بين المطرقة والسندان» كما قال. فإذا ما اتحدت دمشق وبغداد فإن نفوذ عبد الناصر سينحسر عن آسيا العربية وهو أمر سيء بالنسبة لزعيم فرض سلطانه على امتداد العالم العربي واعترف بذلك أعداؤه قبل أصدقائه. وبالنسبة للبعث كان الرهان عالياً، فبعد عشرين عاماً من النضال السياسي أتيحت له فرصة الحكم. ولذلك فقد قُدّر لعبد الناصر والبعث أن يكونا خصمين.

وكانت الوحشية الكامنة تحت علاقاتهما ـ بادىء بدء ـ مُقَنَّعةً ومغلفة بالتظاهر. فعلى السطح كانا مشتركين في فلسفة قومية كما كانا منتميين إلى الوطن العربي «المتحرر» على عكس الملوك والأمراء الذين كانا يعتبرانهم مقيدين بالاستعمار تقيداً لا أمل منه، واشتركا معاً بقواهما للإطاحة بالانفصاليين في دمشق والإقليميين في بغداد. ومع ذلك فإن القاهرة وبغداد ودمشق، وتحت ضغط التطلع الشعبي العام، شرعت في «محادثات للوحدة»(١٢) في غضون أسبوع واحد من الانقلاب السوري، وكان الهدف الظاهر هو إقامة دولة عربية اتحادية. إلا أنها كانت ممارسة خاوية جوفاء. إذ لم تكن المحادثات سوى ستار دخان يحجب الخلافات العميقة عن الأنظار. وحتى خلال مسيرة المحادثات بين الزعماء، كان البعثيون والناصريون يتقاتلون في شوارع سوريا والعراق.

كانت اللجنة العسكرية وعفلق متفقين فيما بينهما على اعتبار التمثيلية الجارية في القاهرة غير ذات موضوع. والواقع أن اللجنة العسكرية ظلت في البلد لتحمي القلعة، وأرسلت محمد عمران فقط ليستمع في الجلسات الأخيرة.

وطوال المحادثات كان عبد الناصر يتبنى لهجة أبوية استفزازية تجاه البعثيين السوريين، ويضغط، كما يمكن التصور، من أجل دمج جميع القوى السياسية في الأقطار الثلاثة في تركيب حزبي واحد تحت قيادة مركزية ـ قيادته. وفي محاولة لإجبار السوريين على الخضوع هدد بأنه سيقوم بنشر محاضر المحادثات وبذلك يوقظ «غضب الجماهير» وهو تهديد تم تنفيذه فيما بعد مما سبب خيبة وارتباكاً لعفلق والبيطار إذْ أظهرهما كمفاوضين رديئين وحتى متلعثمين يتحسسان طريقهما بحثاً عن الكلمات.

وأخيراً في ١٧/ نيسان/ ابريل ١٩٦٣ بعد شهر من المحادثات المتقطعة أُعلنت الخطوط العامة لدستور ينص على جمهورية عربية متحدة جديدة ثلاثية هذه المرة، تولد في أيار/ مايو سنة ١٩٦٥. ولم يؤمن أيٌّ من المتفاوضين الرئيسيين بأن الخِطة لها مستقبل.

كان عبد الناصر يكنّ لقادة البعث نفوراً شخصياً قوياً ـ وهي مشاعر كانت متبادلة بوفرة. كان يسخطه ادعاؤهم بأنهم كانوا رواد الأفكار القومية العربية التي احتضنها ونمّاها هو فيما بعد. وكان يكره تذكيره بأن البعث قد لعب منذ منتصف الخمسينات دوراً كبيراً في إقناع مصر بأن تتبنى العروبة سياسةً رسمية لها. كان معتاداً على الاستخفاف بعفلق والبيطار باعتبارهما منظرين سياسيين لا تأثير لهما. ولكن نجاح الحزب في العراق وسوريا أرغمه على أن ينظر إليهم بجديّة أكثر، باعتبارهم المقاومة الرئيسية المنظمة لهيمنته الشخصية، ولذلك أرتأى ضرورة تحطيمهم. وبعد محادثات القاهرة أصبحت تكتيكات عبد الناصر أكثر خشونة. فقد أطلق حملة دعائية ضد البعثيين السوريين وشجع أنصاره ليتظاهروا في

دمشق، وهدد بسحب الناصريين من الحكومة السورية. وصار ميشيل عفلق هدفاً لسخرية لاذعة فقد وصف وصفاً ساخراً بأنه يتصرف كأباطرة الرومان المجانين، وبأنه نصراني قبرصي مشكوك في صحة انتمائه العربي ولديه من الوقاحة الحمقاء ما يجعله يتطلع إلى زعامة العرب. وأدرك زعماء البعث أنه يتعين عليهم إذا ما أرادوا حماية أنفسهم أن يبعدوا أدوات ناصر في كل من سوريا والعراق. وراح عفلق في الاجتماعات الحزبية المغلقة يبدي مشاعر معادية بعنف لعبد الناصر ويتشاجر بسببها مع رفيقه البيطار الذي كان لا يزال يعتقد بأنه لا يزال بالإمكان إيجاد صيغة تعاون مع مصر[١٣].

كانت القوة الناصرية تقوم على بضع عشرات من الضباط وثلاثة تجمعات سياسية مدنية كان أهمها حركة القوميين العرب[١٤] وهي حزب قومي عربي يعتقد بأنه لا غنى عن زعامة عبد الناصر، وقد كبر الحزب بسرعة فائقة خلال الأشهر الثمانية عشر السابقة لدرجة أنه تمكن في عام ١٩٦٣ من جلب أعداد كبيرة من مناضليه الشباب إلى الشوارع. وكانت هذه الحركة أخطر منافسي البعث في سوريا والعراق وفي معظم الأقطار العربية، إذ أنها كانت تنظم في صفوفها بصورة رئيسية السنيين من يمين الوسط ذوي المنحى القومي.

وجد الأسد ورفاقه في أعمال الاهتياج التي عمد إليها مؤيدو عبد الناصر نذير خطر فقاموا بعمل ما يمكن أن يوصف بأنه انقلاب آخر. فما بين ٢٨ نيسان/ ابريل و ٢ أيار/ مايو ١٩٦٣ قاموا بتسريح أكثر من خمسين من الضباط الموالين لمصر، مما حدا بالناصريين البارزيْن وزير الدفاع محمد الصوفي ونائب رئيس الأركان راشد القطيني للاستقالة من مجلس قيادة الثورة احتجاجاً على ذلك. ولحق بهما خمسة وزراء ناصريين. ومن ثم نظم الناصريون اضطرابات واسعة النطاق في دمشق وحلب يومي ٨ و ٩ أيار/ مايو. وهنا طلبت اللجنة العسكرية من وزير الداخلية أمين الحافظ أن يقمع الاضطرابات ويعيد النظام. فكان أن قتل خمسون شخصاً بالرصاص، وأغلقت

مكاتب حركة القوميين العرب وأغلقت جريدتهم فهرب بعض أعضائها وألقي القبض على الآخرين وحكموا بالسجن لمدد طويلة. وتم تطهير جميع القطاعات العامة من الموالين لعبد الناصر وحل محلهم بعثيون. وكانت الأفكوهة الكالحة التي دارت في دمشق هي أن أمين الحافظ قد تعلم أساليب القمع البوليسي خلال فترة وجوده في الأرجنتين. وعندما تحرك البعث العراقي أيضاً ضد الناصريين لم يبق لدى أي أحد شك في أن برنامج الحزب في سوريا والعراق هو الامساك بالسلطة دونما شريك وأصبح أي تفاهم مع عبد الناصر غير وارد أبداً وأضحت المسألة بالنسبة للبعثيين هي أن يكونوا إما قاتلين أو مقتولين.

وفي ١٨ تموز/ يوليو ١٩٦٣ قام الناصريون بقيادة جاسم علوان وبدعم من حركة القوميين العرب والمخابرات المصرية بهجوم في وضح النهار على محطة إذاعة دمشق ومبنى الأركان العامة. فخرج أمين الحافظ ورشاشه في يده ليقود عملية الدفاع مما أدى إلى قتل وجرح المئات، وكثير منهم أبرياء وقعوا بين نيران المشتبكين، وذلك قبل وصول دبابات البعثيين وعناصر الحرس القومي وسيطرتها على الموقف وتمكن علوان من الإفلات، وخلال ساعات مثل سبعة وعشرون ضابطاً أمام محاكم عسكرية وأعدموا على الفور في نفس الزمان والمكان، وكان ذلك خروجاً عن عرف يقضي بنفي الخاسرين إلى سفارات في الخارج وفي ٢٢ تموز/ يوليو هاجم عبد الناصر البعثيين السوريين ووصفهم بأنهم فاسقون وقتلة وأعلن رسمياً انسحابه من.اتفاقية ١٧ نيسان/ ابريل القاضية بإقامة الوحدة. وكان هذا هو الافتراق النهائي.

بعض التساؤلات الأساسية

هل كانت اللجنة العسكرية تتنبأ بأن الأمور ستصل إلى هذا الذي وصلت إليه؟ إن نهاية العلاقة مع عبد الناصر جاءت معمدة ببحر من الدماء، إذ يبدو أن السلطة لا يمكن الحفاظ عليها إلا لقاء مذبحة لم تعرف سوريا لها مثيلاً منذ الكفاح ضد الفرنسيين. وخلال إقامتهم في مصر كان أعضاء اللجنة الخمسة

يصفون أنفسهم بأنهم وحدويون متحمسون. وكان الهدف المعلن للجنتهم، بل مبرر وجودها، هو الدفاع عن الوحدة. ومع ذلك فإنهم عندما جوبهوا بالخيار بين إحياء الوحدة وبين احتفاظهم بالسلطة لم يترددوا في الأخذ بالخيار الثاني.

كان الأسد يعتبر أقل مرارة في معاداة عبد الناصر من زميليه عمران وجديد، وأنه أقل استعداداً للقيام بالا فتراق النهائي مع مصر. ولعل جزءاً من الدليل على ذلك يتعلق بمعاملة الضباط الناصريين بعد تمرد جاسم علوان. فقد تم استجواب عدد من المسجونين الذين ألقي القبض عليهم خلال القتال في قاعدة الضمير الجوية التي كانت تحت إمرته، وقد عذبوا في بعض الحالات ومن المعروف أنه قد زار عوائلهم للاستفسار عما إذ كانت تريد إرسال أي شيء لأبنائها الموقوفين. وفي الوقت المناسب، وبناءً على مبادرته أطلق سراح ذوي الأدوار الصغيرة منهم في المؤامرة وأعيدوا إلى القوات المسلحة.

لقد ظلت العلاقة السورية المصرية هاجس حياة الأسد المستمر وكان ثمة مناسبات يجلس فيها ليفكر طويلاً في هذه الحقيقة ـ المأزق التي تتمثل في: أن سوريا لا يمكنها أن تفعل الكثير وهي مع مصر، كما أنه لا يمكنها أن تفعل الكثير وهي بدون مصر. فحين قامت وحدة ١٩٥٨ رفع عبد الناصر آمال البعث إلى عنان السماء، ثم ما لبث أن حطّمها بمشروع تنفيذها السيء الحظ مما وضع جوهر العقيدة البعثية موضع الشك وطرح أسئلة صعبة: فإذا كانت الوحدة بين سوريا ومصر لم تنجح فهل هذا يعني أن القومية العربية نفسها هي مجرد سراب؟ وإذا كان قدر سوريا ليس مع مصر وإنما هو مع جيرانها الأقربين أفلا يبرر ذلك عقيدة خصوم البعث القوميين السوريين ونظرية سوريا الكبرى التي ينادون بها؟ إن هذه التساؤلات عن مكان سوريا الصحيح داخل الأسرة العربية ظلت تحيّر الأسد طويلاً ونمت جذورها منذ تلك السنوات المضطربة: سنوات الخمسينات والستينات حين قام في البداية، مع أقرانه البعثيين برفع راية عبد الناصر عالياً، وما لبثوا من ثم أن داسوها بأقدامهم.

تدعيم السلطة

بعد أن أنهت اللجنة العسكرية الناصريين كان هدفها التالي والأكثر سهولة هو مجموعة الضباط المستقلين الملتفين حول اللواء زياد الحريري الذي كان قد صار وزيراً للدفاع ورئيساً للأركان كذلك. وعندما تهور الحريري بمغادرة القطر في ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٦٣ على رأس وفد إلى الجزائر استغلت اللجنة العسكرية غيابه لتقوم بتطهير ونقل خمسة وعشرين من أهم مؤيديه، وعرضت على الحريري نفسه كمكافأة ترضية وظيفة ملحق عسكري في واشنطن، ولكنه اختار التخلي عن السياسة والتقاعد في المنفى بباريس.

وَجَلبَ خروجُ الحريري مزيداً من المناصب والمسؤوليات لأمين الحافظ، فأصبح وزيراً للدفاع إلى جانب منصبه كوزير للداخلية، وكذلك نائباً للحاكم العسكري ورئيساً للأركان بالوكالة. وفي الوقت نفسه، ولإيجاد حماية ضد أية اضطرابات في الشوارع، أنشأ البعث السوري الحرس القومي، وهو تنظيم شبه عسكري، في ٣٠/ حزيران/ يونيو على غرار الحرس القومي الذي كان ميليشيا للحزب في العراق، وأوكلت قيادته إلى حمد عبيد، عضو اللجنة العسكرية.

إلا أن هذه المناورات الوحشية كانت بالتأكيد أكثر مما يطيقه آخر الباقين المستقلين في مركز السلطة اللواء المهذب لؤي الأتاسي رئيس المجلس الوطني لقيادة الثورة، والقائد العام للقوات المسلحة. ولما كانت اللجنة العسكرية حريصة على أبقاء نفسها خارج دائرة الضوء وتتجنب أن تظهر للسوريين من هم حكامهم الحقيقيون، فقد ألحت عليه أن يبقى (١٥) إلا أنه أصر على الاستقالة وهنا اختارت اللجنة العسكرية أن ترفّع من جديد أمين الحافظ ـ المغرق بالمناصب ـ كي يشغل المناصب الجديدة التي شغرت، وأن تضمه إلى اللجنة التي كانت هي مركز القيادة الحقيقي للسياسة السورية ويستذكر الأسد قائلاً: «لقد قمنا بتنظيمه في ذلك الوقت على أن ينضم إلى لجنتنا ليس لأنه كان مهماً، ولكن لأن قائد الجيش يجب أن يكون حاضراً عندما نناقش الأمور العسكرية»(١٦).

غير أن رجل الواجهة السني المستخدم لكل الأغراض، والذي أصبح يحتل نصف دستة من أعلى المناصب في البلاد لم يكن طيّعاً تماماً. ونظراً لظهوره المستمر أمام الملأ وجمعه بين هذه المناصب الكثيرة، فإن الناس اعتقدوا، وبدأ أمين الحافظ نفسه يعتقد، بأنه شخصية فاعلة ومؤثرة بحد ذاتها. وكانت تلك وصفة لمتاعب في المستقبل.

وفي غضون أربعة أشهر حافلة ودموية بدءاً من آذار/ مارس سنة ١٩٦٣ استطاع الأسد وزملاؤه في اللجنة العسكرية أن يقضوا على كل مقاومة منظمة لحكمهم الذي كانوا يمارسونه من وراء ستار. ومنذ اللحظة الأولى تقريباً، كان عليهم أن يحكموا بالقوة وليس بالموافقة، ربما لأنهم كانوا مجموعة عسكرية منشقة من حزب شبه ميّت، بدون قاعدة شعبية. ولقد أثرت تجربة تلك الأيام المبكرة في مواقفهم طيلة عدة سنوات لاحقة وحتى عندما نما الحزب وأصبح قوياً وكبيراً فإنه لم يتخلص نفسه من عادات الحذر والقمع.

وعلى الصعيد الاقليمي جاء الأسد ورفاقه في تلك الأسابيع المبكرة بشيء جديد، فقد مزقوا النمط القديم من العلاقات العربية، وهي علاقات كانت فيها سوريا مدة طويلة كرة قدم سياسية يتقاذفها جيئة وذهاباً جيرانٌ أقوى منها. وبرغم أنهم لم يستطيعوا التنبؤ بذلك في حين فإن إنقلابهم قد افتتح عهداً جديداً في القضايا العربية فقدت فيه النزعة الوحدوية التي تقودها مصر مصداقيتها ولم يقدَّر لعبد الناصر أن يستعيد زمام المبادرة. والحق أن تنافسه مع البعث كان مؤذياً إلى درجة أنه استمر يلاحق سنواته الأخيرة، وأن يلعب دوراً في سلسلة من الحسابات الخاطئة أدت إلى إيقاع العرب في نكسة حرب حزيران سنة ١٩٦٧. وعلى الجانب السوري من المسألة فإن دمشق أمسكت مصيرها ومقدراتها بيدها لأول مرة منذ الاستقلال. ومن هذه البدايات المضطربة الدامية في عام ١٩٦٣ كانت دمشق ستنمو مع الأيام لتصبح لاعبةً لدور قيادي إقليمي على مستوى المنطقة.

هوامش الفصل السادس

(١) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ـ أيار/ مايو ١٩٨٥).

(٢) مقابلة مع أحمد رستم (دمشق ٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤).

(٣) نضال البعث: الجزء السادس «نشرة داخلية حول المؤتمر القومي الخامس» ص ٨١ و ٨٦ مقتبسة في كتاب ديفلين: «حزب البعث» ص ٢٠٠.

(٤) الدكتور منيف الرزاز: التجربة المرَّة بيروت ١٩٦٧ ص ٩٠.

(٥) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق أيار/ مايو ١٩٨٥).

(٦) نفسه.

(٧) مقابلة مع منصور الأطرش (القريَّة ـ ٢٨ نيسان/ ابريل ١٩٨٥).

(٨): هم سليم حاطوم، وأحمد السويداني، ومحمد رباح الطويل، ومحمد عبيد، وموسى الزعبي. وتم توسيع صغير آخر للجنة في صيف ١٩٦٣، ولكن الأسد يؤكد «كان أعلى رقم وصلنا إليه هو ١٣».

(٩) مقابلة مع الدكتور صابر فلحوط (دمشق ١١ أيار/مايو ١٩٨٥).

(١٠) مقابلة مع أمين الحافظ (لندن ١٠ ايار/ مايو ١٩٨٥).

(١١) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ـ ايار/ مايو ١٩٨٥).

(١٢) جرت محادثات القاهرة على ثلاث دفعات، من ١٤ ـ ١٦ آذار/ مارس و١٩ ـ ٢١ آذار/ مارس و٦ ـ ١٨ نيسان/ ابريل وكان عبد الناصر حاضراً فيها كلها ـ يحيط به المشير عامر وآخرون ـ وهو الذي قام بمعظم الحديث. ومثل العراق كل من علي صالح السعدي، وطالب شبيب، وصالح مهدي عماش، وأحمد حسن البكر. أما الوفد السوري فقد تغير في كل مرة. كان في الدفعة الأولى مكوناً من أربعة ضباط من المجلس الوطني لقيادة الثورة هم الحريري وقطيني وفهد الشاعر وفواز محارب، وثلاثة وزراء حكوميين هم نائب رئيس الوزراء نهاد القاسم، ووزير الزراعة عبد الحليم سويدان ووزير الاقتصاد عبد الكريم زهور، وفي الدفعة الثانية اشترك عفلق والبيطار مع لؤي الأتاسي وفهد الشاعر. أما في الدفعة الثالثة فقد حضر ما لا يقل عن سبعة عشر سورياً يمثلون المجلس الوطني لقيادة الثورة، والحكومة، والفئات الناصرية ـ وفي حالة محمد عمران ـ اللجنة العسكرية. انظر كتاب دفلن (مرجع سبق ذكره) ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ وكتاب مالكولم كير: الحرب العربية الباردة، طبعة ثالثة (نيويورك١٩٧١) ص ٤٤ ـ ٧٦.

(١٣) مقابلة مع طالب شبيب (لندن ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٨٤).

(١٤) كانت هذه الحركة بقيادة هاني الهندي وجهاد ضاحي. أما التجمعان الناصريان الآخران فكانا: حركة الوحدويين الاشتراكيين بقيادة سامي صوفان (وهي عبارة عن مجموعة غير متماسكة من

البعثيين المثقفين السابقين الذين انشقوا عن الحزب على أثر أول شقاق حدث بينه وبين عبد الناصر عام ١٩٥٩)، والتجمع الثاني كان الجبهة العربية الموحدة التي يقودها نهاد القاسم وعبد الوهاب حومد وهما ناصريان بكل معنى الكلمة.

(١٥) و(١٦): مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ايار/ مايو ١٩٨٥).

الفصل السابع

الفوز بالحزب

كانت السنوات التي تلت مباشرة انقلاب ١٩٦٣ سنوات تدرُّب الأسد على السلطة وكانت قاسية مليئة بالعبر سقط خلالها منافسوه أو أُسقطوا واحداً بعد آخر حتى تسنَّى له أن يصبح الفائز الوحيد . وأثناء تلك السنوات عقد صداقات دائمة كما خلق عداوات دائمة . ولولا هذ التدرب على البقاء فإن فترة ولايته على القمة ما كانت لتطول ولا لتترك بصماتها الهامة.

إلا أن هذه الأحكام كانت للمستقبل.

لقد ألقى انقلاب ١٩٦٣ الأسد في لجة السياسة . وواجه ، هو ورفاقه الشباب البعثيون الذين استولوا على السلطة في دمشق وبغداد في ذلك الربيع ، مهمة ترجمة ميولهم وغرائزهم اليسارية إلى سياسات عملية . فلقد كانوا قد صرفوا جلَّ طاقاتهم في تحصين انقلابيهم لا في التفكير في برنامج مفصَّل . وقدم البعثيون العراقيون مثالاً صارخاً في مدى عدم الجاهزية . فبعد انقلابهم كان عليهم أن يذيعوا بياناً بسياستهم للشعب العراقي الذي كان متلهفاً تلهفاً مفهوماً لمعرفة ما الذي ينتظره . ولكن من يكتب هذا البيان وماذا يكتب فيه؟ وهكذا استدعي الدكتور منيف الرزاز من الأردن والدكتور عبد الله عبد الدايم من سوريا إلى بغداد ليضعا مسودة هذه الوثيقة . وقد تألّم علي صالح السعدي ،

صانع الانقلاب الكادح البروليتاري وهو يقول فيما بعد : «لقد ضِعْنَا في الحكم ومتاهاته»[١] .

وتخبط السوريون تخبطاً مماثلاً . فلم يكن باستطاعة ضباط اللجنة العسكرية أن يتجهوا إلى عفلق والبيطار طلباً للإرشاد لأنهم كانوا يحتقرون رؤ يتهما الاصلاحية البورجوازية .

وهكذا كانوا بدون عدة نظرية ، وبحاجة إلى مساعدة عقائدية تضاهي ميولهم الثورية واتجاهاتهم الراديكالية فأمسكوا بما كان يسمى بالفئة الماركسية التي تشكلت على أيدي عدد من البعثيين السابقين بعد حل الحزب . وكانت هذه المجموعة من «المفكرين» يتزعمها معلم مدرسة درزي شديد الحماسة في السادسة والثلاثين إسمه حمود الشوفي ، وقد جعلته القراءة النهمة للأدبيات الاشتراكية وتجربته القاسية في السجن خلال سنوات الوحدة يسارياً بكل معنى الكلمة . وقد استطاع رغم كثير من العقبات الضخمة أن يبقي على خلية بعثية سرية في السويداء[٢] ، وأصبح مثير شغب في منطقته . وقد تأثر كثيراً بعلي صالح السعدي ، الثوري العراقي ، وبياسين الحافظ ، المُنَظّر الماركسي السوري من دير الزور ، المركز المتقدم على نهر الفرات الذي قدم للسياسة السورية ـ برغم بعده الجغرافي ـ عدداً مدهشاً من الشخصيات من كل نوع ولون . كان واضحاً أن اللجنة العسكرية والماركسيين قد اعتقدوا بأن لديهم أشياء كثيرة مشتركة ، ولذلك وحدوا قواهم فسيطروا على مؤ تمر القيادة القطرية الذي انعقد في أيلول / سبتمبر سنة ١٩٦٣ والذي انتخب الشوفي أميناً قطرياً والأسد عضواً في قيادة قطرية جديدة تألفت من ثمانية أعضاء[٣] . ولم يستطع عفلق ، ولا البيطار ، ولا أي واحد من مؤ يديهما أن يجعل نفسه فيها .

لقد صمم عفلق حزبه على شكل هرمي تكون القيادة القومية على ذروته مع أمينها العام ـ الذي كان هو نفسه منذ تأسيس الحزب ـ ومهمتهما ادارة شؤ ون الحزب في أرجاء الوطن العربي . وتكون هناك في كل قطر قيادة قطرية تتمتع

ببعض الاستقلالية عن القيادة القومية إلاَّ أنها في النهاية تكون تابعة لها . أما الذي حدث الآن فهو أن أعضاء القيادة القطرية نالوا مقداراً من حرية العمل أكبر مما كان في ذهن عفلق .

كان انتخاب الأسد لعضوية القيادة القطرية ـ والتي هي أعلى جهاز للحزب في سوريا ـ يعني ظهوره على الملأ لأول مرة . ولكن ذلك لم يكن يعني بعد أنه ملك سلطة حقيقية : فعمران وجديد كانا في الواجهة ، كما أن أمين الحافظ كان أكثر بروزاً أمام عيون الناس. أما الأسد فكان لا يزال مجهولاً بالنسبة لأكثرية الحزب ، وموظفي الدولة ، والدوائر السياسية في دمشق . ولم يكن مستعداً بعد ليحمل مسؤولية حكومية ، إذ لم يكن يعرف شيئاً عن تسيير الادارة وكانت معرفته بمشاكل سوريا ومشاكل المنطقة جدًّ محدودة . ولكن عندما جلس الأسد في القيادة القطرية مع الماركسيين وراح يناقش معهم السياسات والنظريات اكتسب دونما شك تجربة غنية . لقد وضع الأسد نفسه في خانة اليسار وذلك انطلاقاً من تصميمه على اسقاط الامتيازات .

وفي المجتمع العربي حيث المؤسسات عرجاء وناقصة فإن رجال الحكم بحاجة إلى أن يجعلوا أنفسهم في متناول الناس من أجل أن تسير الأمور . ويمكن لمكالمة هاتفية واحدة أن تحل أعقد مشكلة أحياناً . وكعضو في المجلس الجديد الحاكم كان للأسد حصته من الزوار والمشاكل المطلوب حلها .

فخالد الفاهوم الذي برز فيما بعد على المسرح الفلسطيني في الجانب المؤيد لسوريا من منظمة التحرير الفلسطينية ، قام بزيارة العقيد الشاب الأسد في مكتبٍ عارٍ من الأثاث بمقر قيادة القوة الجوية في شارع بغداد . وكان الجمهور عموماً لا يعرف شيئاً عن الحكام الجدد . وكان الفاهوم متلهفاً لمعرفة أين يقفون سياسياً ولا سيما فيما يتعلق بالفلسطينيين . ولدى انتهاء اجتماعه به استنتج الفاهوم أن الأسد لم يكن شيوعياً ، وإن كان بالتأكيد يسارياً بمعنى أنه

يكره السادة المتزعمين من أهل المدن وحلفاءهم في القرى ، ولم يكلف نفسه عناء إخفاء هذه الكراهية . كان إلى جانب جمهور الفلاحين في مقاطعته ومسقط رأسه . كما لاحظ الفاهوم أيضاً وهو مرتاح أن هذا الضابط لا يفرق بين سوري وفلسطيني ، بل يبدو قومياً عربياً ملتزماً وليس علوياً طائفياً(٤) .

ومن المؤتمر القطري الأول بعد انقلاب سنة ١٩٦٣ خرجت إشارة تفيد بوضوح أن تمرد الضباط كان ضد عفلق بقدر ما هو ضد النظام القديم . فلم يكونوا يحبونه ، ولا يحبون أفكاره ولا قيادته ، وكانوا مصممين على أن يأخذوا منه الحزب الذي خلقه ، بحجة أنهم يريدون إنقاذ الحزب من الأيدي التي اعتراها الضعف والفساد . وكان عفلق يعي التهديد الذي يتعرض له . (ويزعم بعض الكتاب أن هذا الاستيلاء على الحزب قد تم بشكل كامل لدرجة أن الحزب لم يعد له أي صلة بالحزب الذي أنشأه عفلق ، ولهذا يجدر به أن يُسمّىٰ «البعث الجديد»(٥)) .

واتضح أن المؤتمر القطري الذي اندحر فيه عفلق كان «بروفة» أو تمريناً للمؤتمر القومي السادس الذي انعقد بدمشق في تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٦٣ . وقد استطاع عفلق فيه أن يتدبر أمر الاحتفاظ بمنصبه كأمين عام ، ولكنه من جهة أخرى غرق في وسط تحالف من الوفدين السوري والعراقي من المتشددين في ميولهم اليسارية بقيادة الشوفي والسعدي على التوالي . وكانت القيادة القومية المنتخبة في هذا المؤتمر تعكس ، مثلما حدث في المؤتمر القطري ، تغيّر ميزان القوى بين الفئات والأجنحة . فالبيطار ، رفيق عفلق القديم ، سقط تماماً بينما صعد إلى القيادة للمرة الأولى بعثيون عسكريون في أشخاص صلاح جديد وأمين الحافظ السوريين ، وأحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش العراقيين .

وبما أن البعث كان جديداً على السلطة في بغداد ودمشق فإنه كان حريصاً على تأكيد دوره في القضايا العربية كينبوع للمذهب الذي تُعْتَبَرُ وصفاته وتشخيصاته

صحيحة للمنطقة ككل . فقد رأى الحزب نفسه يتنافس مع مصر عبد الناصر التي كانت قد نشرت مخطط برنامج عملها العقائدي قبل ذلك بعام تحت عنوان «الميثاق الوطني» ، ومع جزائر بن بيللا التي كانت بعد انتصارها على فرنسا تقف كنموذج ثوري للعالم الثالث ، وأراد البعث أن يدلي بدلوه في هذا الميدان أيضاً . وكان ذلك هو مغزى تلك الوثيقة ذات الصفحات الستين التي تبناها المؤتمر . وقد أعد هذه الوثيقة الحلفاء الماركسيون للضباط ، ولا سيما ياسين الحافظ ، وكان عنوانها فخماً وطناناً : «بعض المنطلقات النظرية»[٦] ولم يكن من المستغرب أن يشغل ضباط اللجنة العسكرية أنفسهم بالمقاطع الخاصة بالعلاقات بين الحزب والجيش . فقد كان الضباط حساسين من تهمة اختطاف حزب عفلق التي وجهت إليهم ، وقالوا إن تدخل الجيش في السياسة كان هبة من السماء لأن التلاحم العضوي بين القطاعين الطليعيين المدني والعسكري هو شرط ملحّ وضروري للبناء الاشتراكي» هكذا أعلنت «المنطلقات» . واعتبرت أن تشبع الجيش بالعقيدة السياسية لا يقل أهمية عن التدريب العسكري نفسه.

ورفعت تلك «المنطلقات النظرية» الحزب رسمياً إلى مكانة «الحزب القائد» في المجتمع السوري الذي تلتف حوله المجموعات والقوى السياسية ذات التفكير المماثل والمكانة التي تلي وتتبع البعث . وتقرر حشد وتعبئة الجماهير في «منظمات شعبية» يسيطر عليها البعث ، من العمال ، والفلاحين ، والطلبة ، والنساء ، والشبيبة ، وما شاكل باعتبارها أدوات بناء «الديمقراطية الشعبية» التي استهدف البعثُ إنشاءَها . وبالمقارنة مع ذلك هوجمت الديمقراطية البرلمانية على الطراز الغربي باعتبارها مجرد واجهة «للإقطاع» والبرجوازية الكبيرة ورُفضَتْ باعتبارها عاجزة عن فتح الطريق للتحوّل الاشتراكي . وهكذا زُرعت بذور مؤسسات ستقوم في دولة البعث في وقت لاحق كما وُضعت الأسس النظرية لحرب قاسية على وشك أن يشنها القادمون الجدد على طبقات الملاّك في المدن .

وانحنى صلاح البيطار للقوى الجديدة التي ظهرت في المؤتمرين القطري والقومي وقدم استقالته من رئاسة الوزارة . وحل محله الفريق أمين الحافظ الذي شكل وزارة وضعت فيها اللجنة العسكرية محمد عمران نائباً له كي يراقبه . أما صلاح جديد ، الرجل الثاني في اللجنة ، فقد رُفّع من رتبة مقدم إلى رتبة لواء ، وهكذا أصبح أعضاء اللجنة العسكرية في أهم وأخطر المناصب : فعمران راح يراقب جهاز الحكومة ، وجديد راح يدير الجيش ، أما مهمة الأسد الخاصة في ذلك الحين فكانت توسيع شبكة مؤيدي وأنصار الحزب في القوات المسلحة .

لقد أوكل رفاق الأسد له أكثر الأعمال الأمنية أهمية في النظام . فقد أدرك الضباط أن الطريقة الوحيدة لحماية الجيش من الفئوية ، التي كانت سبب دماره منذ الاستقلال ، هي أن يجعل هذا الجيش وقفاً على البعث وحده . فهذا هو الشرط الأساسي لاقامة حكم مستقر في بلد غير مستقر بالوراثة . وحسبما رأى الأسد فإن الهدف كان خلق «الجيش العقائدي» على نقيض «الجيش المتدخل في السياسة» الذي عرفته سوريا في الماضي . ولذلك انكب على خلق جهاز حزبي من الخلايا والفرق والشعب والفروع داخل القوات المسلحة على غرار الحزب المدني(٧) . وقد استدعت هذه المهمة أن يقوم بزيارات لجميع الوحدات في أرجاء البلاد.

ومن أجل الاسترشاد العقائدي في هذه المهمة لجأ الأسد إلى خصم عفلق القديم الفيلسوف زكي الأرسوزي الذي ألهم الأسد خطاه السياسية الأولى عن طريق الدكتور وهيب الغانم . وكان الأرسوزي حينذاك متقاعداً منذ فترة طويلة ، إلا أن الأسد أخرجه من عزلته وراح يصحبه معه في جولاته على معسكرات الجيش وجعله يحاضر في الجنود ويلتقي بالضباط . وقد ابتهج الأرسوزي العجوز باهتمام الأسد فراح يكتب مقالات افتتاحية في صحافة الحزب والجيش(٨) كما أنه أعطى الأسد نفسه لمحات عقائدية كان لها أهميتها

في تطوره في ذلك الوقت . وعمل الأسد فيما بعد على تأمين معاش تقاعدي للأرسوزي ظل يتقاضاه حتى وفاته بدمشق في ٢ تموز / يوليو ١٩٦٨ . وقال الأسد حين رثاه : «لقد عاش فقيراً ، ومات فقيراً . ولكنه كان يتمتع باحترام كل الذين عرفوه»(٩) وفي هذه الأثناء كان الأسد يعمل على وضع كل وحدة من وحدات الجيش تحت مراقبة اللجنة العسكرية التامة وذلك عن طريق وضع ذوي الولاء في القيادات الحساسة وعدم اهمال عملية التثقيف السياسي للقوات . ولدى قيامه بهذه المهمة ، أظهر الأسد براعة فائقة في التفاصيل واهتماماً بالتخطيط المتأني الذي ينم عن عقل ضابط يتمتع بالذكاء . وقد ساهمت معرفته الصميمة والمعمّقة بالقوات المسلحة في صعوده المقبل .

كانت أيام صيف وخريف سنة ١٩٦٣ أعلى نقطة في قوة الحزب عندما بدا أن كل شيء يسير كما يريد ، وبدا كأن الانفصال العنيف عن عبد الناصر في تموز سنة ١٩٦٣ قد وضع حداً لِشَلَلِ الحزب . فأخذ يحلم بخطة كبرى لتوحيد سوريا والعراق في هلال خصيب بعثي يقلب وينهي هيمنة مصر الطويلة ويحمل مدّ عقيدة الحزب إلى الأردن والعربية السعودية والخليج وحتى إلى ما وراء ذلك على الساحة العربية . وكان الحزب على اتصال مع أشهر اشتراكي معروف في الجزيرة العربية ، وهو عبد الله الأصنج رئيس مجلس اتحاد نقابات عمال عدن ومع زعيم المعارضة المغربي المهدي بن بركة . وكان هناك خلايا سرية تتشكل في ليبيا والسودان ، بل لقد أشيع أنها بدأت تتكون أيضاً في مصر تحت أنف عبد الناصر . وبدا الأفق رحيباً غير محدود ، كما هو حماس الحزب وثقته بنفسه . وبالنسبة للعالم الخارجي الجاهل بتناقضات البعث الداخلية ، بدا ميشيل عفلق، مؤسس الحزب ومنظّره العقائدي الرؤيويّ الحالم وكأنه قد وصل إلى مملكتـه ، إلى درجة أن الصحيفة التونسية لاكسيون نشرت صورة له وتحتها تعليق يقول : «الفيلسوف الذي صنع انقلابين في شهر» .

غير أن حقائق الانقسامات في سوريا والعراق سرعان ما بددت هذه الرؤى الحالمة المتفائلة . فقبل أن ينتهي العام سقط بعث العراق وأصبح الأسد وأصدقاؤه تحت الحصار مرة أخرى بعد أن كانوا يحلمون بالتوسع . فقد ارتكب رفاقهم العراقيون أول خطأ قاتل . . وكانت له علاقة بالأكراد ، تماماً كما حدث بشكل متكرر في تاريخ العراق . فالأكراد ، سكان الجبال في الشمال المنتشرين على جانبيّ تخوم تركيا وإيران كانوا يطمحون إلى وطن خاص بهم . وعندما استولى البعث وحلفاؤه القوميون في الجيش على السلطة ببغداد سنة ١٩٦٣ كان أول عمل لهم هو ذبح الشيوعيين انتقاماً لمجزرة الموصل عام ١٩٥٩ . ولكن بعد أن تم ذلك (حيث وجدت وكالة المخابرات المركزية الأميركية أن من المناسب تقديم أسماء كوادر الحزب الشيوعي) كانت هناك خشية من أن يكون بعض الشيوعيين قد هربوا إلى الجبال الكردية حيث كان الزعيم الكردي ، الملا مصطفى البرزاني يجمع قواته . ولاظهار نضالهم العروبي ، شن قادة البعث الشباب حرباً ضد الأكراد في حزيران/ يونيو ١٩٦٣ .

وكما هو معتاد في مثل هذه الحملات ، كسب الجيش العراقي السيطرة على المدن والطرق ، إلّا أنه بعد أن أحرق قرى عديدة ، وقتل كثيراً من الفلاحين ، فشل في احتلال الجبال وريفها المرتفع . وارسلت سوريا البعثية لواءً ليقاتل مع العراقيين ويشارك في الحرق والقتل . فتكبد هذا اللواء خسائر عديدة . . وكان تدخله مغامرة غير مشجعة في نهاية الأمر .

ولكن تبع ذلك ما هو أسوأ ، إذْ أن الحرب الكردية قد زادت من حدة الخلافات في العراق بين الجيش والحزب ، ولا سيما بين الضابط القومي عبد السلام عارف وبين علي صالح السعدي العنيف الفظّ . وكانت ميليشيا السعدي الحزبية المسماة بالحرس القومي خليطاً من الرعاع غير الملتزمين بالقانون روّعوا الشعب وأثاروا احتقار وكراهية هيئة الضباط . وحتى الضابط

برتبة لواء لم يكن يسلم من الإيقاف في الشارع على يد أحد منتسبي الحرس القومي الملوحين ببنادقهم .

وفي ١١/ تشرين الثاني سنة ١٩٦٣ ، قامت مجموعة من الضباط العراقيين الغاضبين ، بالتواطؤ مع وزير الخارجية ، طالب شبيب وغيره من البعثيين المعتدلين بالقبض على السعدي ، ووضعوه في طائرة بدون أي شيء من ممتلكاته وحتى بدون جواز سفر ونقلوه إلى مدريد . وكردّ فعل على ذلك ثار الحرس القومي وأعضاء الحزب في القواعد دفاعاً عن زعيمهم المنفي . وكان هذا الانقسام داخل الحزب في العراق يهدد البعث كله .

هنا سارع عفلق إلى بغداد ومعه خمسة من أعضاء القيادة القومية . وعلى أمل أن يهديء القاعدة بدون أن يهين الضباط قام بحل القيادة القطرية العراقية ونفى طالب شبيب وأصدقاءه إلى بيروت ليعدّل ميزان الحساب ، وأعلن أنه والقيادة القومية سيقوم بادارة شؤون العراق إلى أن يتم إجراء انتخابات حزبية جديدة .

وأدت فكرة حكم العراق من قبل عفلق ، المُنَظِّر الدمشقي المسيحي الصغير إلى جدل صاخب غاضب على موائد الضباط . فقد رأوا فيه إهانة لوطنية العراقيين ، ولعواطف المسلمين ، ولكرامة الجيش العراقي وعزة نفسه وحتى للمنطق السليم . وهكذا قامت مجموعة من الضباط بقيادة عبد السلام عارف بوضع ميشيل عفلق جانباً وبالاستيلاء على السلطة في ١٨ تشرين الثاني / نوفمبر . ثم حدث ما هو أسوأ أيضاً ، من وجهة نظر البعث ، فقد أعلن عارف على الفور مصالحة مع عبد الناصر وأعلن أنه مخلص لمشروع الوحدة الموقع في ١٧ نيسان/ ابريل ١٩٦٣ . وهكذا طرد البعث ودعا أحمد سعيد ، المذيع الناريٌّ في صوت العرب إلى ذبح عفلق وزملائه قبل أن يغادروا بغداد ، فاضطروا إلى الخروج بسرعة ، وبطريقة غير كريمة . وبدلاً من التمدد في الساحة العربية نحو التوسع أصبح مجرد البقاء على قيد الحياة هو الأولوية التي

يسعى إليها البعث . وانهار حلم محاصرة عبد الناصر لتحل محله الحقيقة غير السارة وهي أن البعث السوري نفسه هو الذي أصبح محاصراً .

وكانت الكارثة في العراق صدمة مطهرة وضربة مؤلمة أرغمت اللجنة العسكرية والأسد على وجه الخصوص على إعادة النظر في التحالف مع الماركسيين الذين كان يجلس معهم في القيادة القطرية . لقد كان من الواضح أن نوع نزعتهم اليسارية لم تكن لها شعبية ، فالمتشددون السوريون من نوعية الشوفي لا يمكن السماح لهم بخلق الاضطرابات والمشاكل المدمرة كالتي خلقها السعدي في العراق . وتطايرت الاتهامات هنا وهناك حول المسؤول عن كارثة العراق ، وكان الاتجاه يميل إلى لوم اليسار المتطرف . وقد أدى هذا الهبوط المفاجيء في حظوظ الحزب إلى أن يتناسى عفلق والضباط خلافاتهم ويدخلوا في تحالف تكتيكي فيما بينهم ضد الماركسيين . ففي شباط / فبراير ١٩٦٤ طُرد السعدي وتلميذه الشوفي من الحزب ومعهما مؤيدوهما وذلك في مؤتمرين طارئين قطري وقومي . وبذلك تعززت نزعة الأسد البراغماتية الطبيعية . ولكن التزامه باليسار لم يتزعزع وإن كان درس الأزمة قد علمه أنّ حلول الماركسيين الجاهزة لم تكن مناسبة له ولا لبلده . أما فيلسوف سوريا الماركسي ياسين الحافظ الذي رُفض في دمشق فقد غادرها ليبحث عن فجر اشتراكي جديد في جو بيروت الأكثر حرية . وأما في العراق فقد تم تعيين قيادة مؤقتة لاعادة بناء الحزب ثانية في الخفاء تحت قيادة الشاب صدام حسين التكريتي الذي لم يكن متورطاً في ذلك الفشل .

اضطرابات حماه في ١٩٦٤

غير أن التخلي عن الماركسية لم يُكْسِبْ حكامَ البعث نقاطاً كثيرة في البلاد ، بل على العكس فإنه فُهِمَ دليلاً آخر على الصراع الداخلي الذي زاد الآمال بأن البعث السوري يمكن إسقاطه كما تم إسقاط نظيره العراقي . وهكذا هبَّ أعداؤه ضده في تحدٍ أقسى حتى من التحدي الذي مثله الناصريون في

تموز / يوليو السابق . وبدأ وقت الامتحان في أوائل ربيع سنة ١٩٦٤ بحملة من التحريض ضد الحكومة في المدن السورية ، وكانت العناصر الأساسية الثابتة فيه هي الخطب الملتهبة في المساجد ضد البعث اللاديني والاشتراكي مما أذكى الاضطرابات في الشوارع وأغلق الأسواق . وراحت السفارات المصرية والعراقية في الأقطار المجاورة توزع الأموال للنفخ في اللهيب ، ولكن كانت هناك على أية حال مواد وأسباب كثيرة للسخط . فقد كان الاقتصاد راكداً لأن التجار خافوا من الاجراءات الاشتراكية وشعروا بتهديدها لهم فأمسكوا أموالهم وجمدوها ولم يشغلوها أما وجهاء المدن والقرى فقد ساءهم ارتفاع شأن حديثي النعمة من الأقليات وحلفائهم من السنيين ذوي الخلفية المتواضعة ؛ أما الناس العاديون فكان ضيقهم الشديد نتيجة جهلهم بما يدبر حكامهم الجدد خلف الأبواب المغلقة .

ونظراً لانشغال البعث في مشاكل اقتتاله الداخلي انشغالاً كاملاً ، فإنه لم يعط سوريا حكومة جيدة بل لم يقدم أية حكومة على الإطلاق . وكانت النتيجة أن البعث ـ بدلاً من الاحتفال بالذكرى الأولى لثورته بثقةٍ وارتياح ـ وجد نفسه مضطراً لقمع انتفاضة شعبية ضد حكمه . ولم تسلم أية مدينة من الاضطرابات ، غير أن مركز التمرد كان مدينة حماه معقل الاخوان المسلمين والقوى المحافظة من ملّاك الأراضي . ولم يكن العداء بين البعث والإخوان جديداً ، فقد كانا يتصادمان في كل ارجاء سوريا منذ الأربعينات ، ولا سيما في منطقة حماه . فالملاكون لأراضي سهل حمص ـ حماه الذين دفعوا ثمن تمرد فلاحي الحوراني كانوا يحملون للبعث حقداً خاصاً ، ورأوا في الاخوان قوة صاعقة جاهزة تصلح لرد الضربة لمعذبيهم .

وفي نيسان / ابريل سنة ١٩٦٤ استعملت الأسلحة النارية لأول مرة عندما اندلعت الاضطرابات بما يشبه الحرب الدينية . وبتمويل من العوائل الإقطاعية والتجار وتحريض بالمواعظ الثائرة للشيخ محمود الحامد من على منبر جامع

السلطان ، راح شباب الاخوان المسلمين الأقوياء يقيمون الحواجز في الطرق ، ويختزنون الأطعمة والأسلحة ، ويهاجمون دكاكين الخمور ويريقون خمورها في المجاري ، وينقضون على أي حزبي يجدونه ، فامسكوا ببعثي شاب من الحرس القومي ، إسماعيلي يدعى منذر الشمالي ، فقتلوه وقطعوه وكان ذلك إيذاناً بهجوم شامل شنّه الاخوان على كل مظهر حزبي في حماه . وعندئذ قام آمر الحرس القومي حمد عبيد باستدعاء نجدة من الجيش واستخدم نيران الدبابات ضد أحياء المدينة المكتظة بالسكان بشكل كثيف . واستمر القتال يومين ولدى مواجهة قوة متفوقة تراجع المتمردون إلى المسجد الذي جعلوه مستودع سلاحهم الرئيسي . وأعطى الفريق أمين الحافظ ـ الذي كان يومها رئيساً للوزراء ـ الأمر بإخراجهم فقُصِفَ المسجد ، وانهارت المئذنة التي كان المتمردون يطلقون منها النار وقتل كثيرون منهم ، وبلغ مجموع القتلى من الأخوان المسلمين حوالى سبعين ، وجُرح وأُسِرَ وهرب واختفى كثيرون آخرون .

وكان بين السجناء شَيخ متعصب طويل القامة أحمر اللحية يسمى مروان حديد كان قد لفت الأنظار قبل ذلك ببضع سنين باعتباره مسلماً متشدداً . ومثل كثيرين من السوريين ، ومن بينهم الأسد ، كان هذا الرجل قد أمضى بعض الوقت في القاهرة خلال الوحدة يدرس الهندسة الزراعية ، واشترك هناك في الصراع مع البعث للسيطرة على جمعية الطلبة السوريين في جامعة القاهرة وقد تذكره خصومه البعثيون باعتباره أصولياً لا يهادن ولا يتصالح(١٠) . والواقع أن عواطف حديد كانت مركزة على دراسة السياسة التي يحركها الدين . ولدى عودته إلى سوريا في عام ١٩٦٢ بدأ بدراسة الشريعة في جامعة دمشق ، وانتقل من هناك إلى النشاط السياسي السري في الدعوة الاسلامية في مسقط رأسه بحماه وبالنسبة لرجل مثل حديد ـ وكان هناك آخرون من نفس الطينة ـ كانت حكومة البعث إساءة ضد الله والطبيعة ، وكان البعثيون كفرة مارقين ينتهكون شرع الله ويجب إبادتهم للحفاظ على صحة المجتمع . ومع ذلك فإن حديد لم

يَلْقَ إلا قليلاً من الأذى في أعقاب معارك سنة ١٩٦٤ فقد اعتُقل بضعة شهور ثم أُطْلِقَ سراحه على أمل أن يكون قد لُقِّنَ درسه . ولكن بدلاً مِن ذلك فإنه استأنف نشاطه السري على الفور . وراح يجند أتباعاً ويستعد للجولة التالية .

وكانت أحداث حماه الدامية بالنسبة لحكام سوريا الجدد تجربة ذات أثر تكويني لا تنسىٰ . فالمدينة كانت دائماً رمزاً لاضطهاد الريفيين الفقراء ومعقلاً للمذهب السني المحافظ ، إلا أن هؤلاء الحكام بدأوا يشمئزون منها باعتبارها صارت مركزاً للرجعية الحاقدة ، وعدوةً لكل ما يمثلونه .

وفي القيادة القطرية للحزب شارك الأسد في اتخاذ القرارات القاضية بقمع الاضطرابات وافهام حماه من هو صاحب الأمر والنهي .

وكان لاضطرابات سنة ١٩٦٤ تأثير مباشر على اثنين من أقرب أصدقائه : عبد الحليم خدام الذي كان خلالها محافظاً لحماه ، ومصطفى طلاس الذي عُيِّن رئيساً لمحكمة ميدانية أقيمت لمحاكمة المتمردين . وكان طلاس ضابطاً في سلاح الدبابات ، وكان في وقت واحد مع الأسد في مصر ثم أُلحق باللجنة العسكرية بعد انقلاب ١٩٦٣ .

أدى قصف مسجد السلطان إلى إغضاب البلد ، فأشعل موجة جديدة من الاضطرابات والمظاهرات في المدن الرئيسية ، وأنزل إلى الشوارع الحرفيين مع أصحاب الدكاكين والعمال وأصحاب الصناعات اليدوية المتواضعين . كانوا يطالبون بالحريات المدنية ، وإطلاق سراح السجناء السياسيين ، وإنهاء حالة الطوارىء الطويلة التي فرضها البعث غداة انقلابه قبل عام . ولا شك أن البعثيين كانوا يتوقعون العداء من طبقات ملّاك الأراضي وأبناء طبقات النخبة الأقدمين من سياسيين ورجال دين ، ولكنهم فوجئوا باتساع مدى المعارضة لهم في المجتمع السوري ، التي لم تشمل الطبقات الوسطى فحسب ، بل امتدت إلى صفوف الطبقات العاملة من السنّة في المدن . ولأول مرة استطاع حكام

سوريا الجدد أن يقيسوا مدى افتقارهم للشعبية . ولتخفيض درجة حرارة الجو المتأزم وإيقاف مدّ الغضب الشعبي ، تخلى الفريق أمين الحافظ عن رئاسة الوزراء لشخص يمكن أن يطمئن الناس ، هو صلاح الدين البيطار ، الدمشقي السنيّ والمنحدر من الطبقة الوسطى ، الذي أذاع تعهداً بحماية الحريات الشخصية والعامة . ثم جرى اعداد دستور مؤقت على عجل . وكان واضحاً أن النظام قد أحس بحاجته إلى كسب الوقت .

كما كان واضحاً بالنسبة لعفلق أن البعثيين المدنيين كانوا لا يملكون سوى القليل من التأثير على مجرى الأحداث . وبعد أن أحس بكآبة عميقة بسبب السجل المؤسف لثورة البعث ، غادر سوريا في شهر حزيران/ يونيو ١٩٦٤ ليقضي عدة أشهر مع أخيه في ألمانيا الغربية . وكان لمخاوفه ما يبررها، ففي نهاية ايلول/ سبتمبر استعاد أمين الحافظ رئاسة الوزارة من البيطار .

سقوط عمران

خلال الشهور الثمانية عشر الأولى من الحكم تمكنت اللجنة العسكرية من التخلص من ثلاث أزمات كبرى هي : المعركة حتى الموت مع الناصريين ، وسقوط رفاقهم في العراق ، وأخيراً انتفاضة حماه . وكان من المحتم أن تقع خلافات بين الضباط عندما كانوا يتناقشون فيما بينهم في هذه القضايا ويكافحون للحفاظ على بقائهم . ولم يكن لدى محمد عمران ، أكبر هؤلاء رتبة ، ميل للكفاح القاسي من أجل البقاء . فقد كان يريد المصالحة مع الناصريين وعارض استعمال الدبابات في حماه . وقد ساءه بروز أمين الحافظ الذي أحس بأنه غطّى على زعامته هو . ولما كان عمران من الجانب المواجه لحماه من جبال العلويين، فإنه يعرف المدينة جيداً وكان يرى بأن أهاليها يمكن كسبهم بدلاً من اخضاعهم بالقوة . وهكذا كانت مسألة كيف يجب أن يحكم الناس هي الموضوع الأهم في اللجنة . فهل يمكن تنفيذ برنامج قلب السلطة التقليدي رأساً على عقب ، كما يرغب هؤلاء الشباب الريفيون ، بأسلوب

المصالحة ؟ وهل أصحاب المال والنفوذ سيستسلمون دونما قتال ؟ كان صلاح جديد يعتقد بأنه لا مفر من استعمال القوة ولذلك فقد أقر أسلوب أمين الحافظ في البطش . ورأى في أحداث حماة سبباً لمتابعة التحرك وتحطيم طبقة الأعداء قبل أن يتم الاجهاز على اللجنة نفسها . ويبدو أن عمران كان أقل التزاماً بنهج جذري ، وكان يحجم عن سفك الدماء . ومن هنا ساءت العلاقات بينه وبين جديد وتخلخل التماسك فيما بين رفاق ١٩٦٠ الذين حافظوا منذ ذلك الحين على أسرار بعضهم بعضاً .

وفي أثناء ذلك كان الأسد ينصت إلى شجار زميليه الضابطين الأكبر سناً ورتبة ، منتظراً فرصته الملائمة . فحين قامت اللجنة بادىء ذي بدء كان لأعضائها أصوات متساوية ، إلا أن الرتبة مع ذلك كانت تدخل في الحسبان ، وكان الأسد حينذاك أصغر رتبة من جديد وعمران ، ولم يكن مرشحاً بعد للمركز الأول . وخلال خريف ١٩٦٤ كان يتوسط بينهما ، وينتقل من أحدهما إلى الآخر في محاولة لرأب الصدع : فقد كانت اللجنة هي محور حياته وكانت غريزته تدفعه للحفاظ عليها . إلا أنه اضطر في نهاية إلى الانحياز لأحد الجانبين ، فاختار أن يتحالف مع جديد . وتبين ، فيما بعد، أن هذا الاختيار كان إلهاماً من علم الغيب . أما لماذا فعل ذلك فلا يمكن معرفة السبب بصورة دقيقة . ولعله كان يشاطر جديد وجهة نظره بأن أمين الحافظ ، رجل الواجهة ، الذي اضطره ضغط الأحداث إلى أن يتخذ اجراءات غير شعبية ، لا يزال بالأمكان أن يقوم بدور مفيد في حجب اللجنة عن أنظار الناس . وربما رأى في جديد شخصية أقوى وأصلب من عمران . بل قد يكون الأصل المشترك هو الذي تحكم بقراره ، فجديد مثله من الساحل . بالاضافة إلى ذلك كله ، كان الأسد حينذاك لا يزال ذا نزعة راديكالية ولا تزال تحرك مشاعره المظالم القديمة التي حلت ببلده . كما أن برنامج جديد للتأميمات الواسعة كان أقرب إلى نفسه من أسلوب عمران التوفيقي مع فئة رجال الأعمال السنّيين (رغم أنه في سنوات لاحقة اتّبع أسلوب عمران في نهجه) . ومهما يكن وزن هذه الأسباب المختلفة

فإن الأسد وضع مصيره مع جديد . وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٤ ، صعد درجة أخرى على سلم التقدم : فقد عُيّن آمراً لسلاح الجو السوري وأُعطي رتبة لواء .

وتمت هندسة سقوط عمران بسرعة لا رحمة فيها . فعندما شعر عمران بالعزلة داخل اللجنة العسكرية ، اتجه إلى القيادة القومية للحزب للحصول على الدعم ، وهي حركة جعلت عفلق يعود مسرعاً من ألمانيا في تشرين الثاني على أمل أن يقلب الطاولة على الضباط الذين حطّوا من قدره . وعندئذ قام عمران بحركة خاطئة ، فحنث بيمين المحافظة على السرية وكشف الغطاء عن اللجنة العسكرية وباح لعفلق وجماعته بخططها القديمة التي وضعت في القاهرة ، وأساليب عمل اللجنة الداخلية وطموحها في السيطرة السرية على قواعد وأجهزة الحزب ، وتكتيكاتها في التحرك من وراء الكواليس . ولا بدّ أن عفلق كان أصلاً يشك في الكثير من هذه الأمور . أما بالنسبة للآخرين ، ولا سيما أعضاء القيادة القومية غير السوريين ، فقد كانت مكاشفات عمران صدمة قاسية . ولقي عمران عقوبة فورية على يد زملائه السابقين ، ذلك أن اللجنة كانت تطبق عدالة قاسية خاصة بها ، فجردته من مسؤولياته الحزبية والحكومية وأرسلته دون المزيد من الضجيج «ليخدم الثورة» كسفير لسوريا في إسبانيا ، البلد الذي أصبح معروفاً لدى السياسيين العراقيين والسوريين غير المرغوب فيهم . وكان إذلال عمران إذلالاً لعفلق . وفي محاولة فاشلة لتأكيد سلطته كأمين عام طلب من القيادة القومية أن تحل القيادة القطرية التي يسيطر عليها الضباط ، ولكن الحزب هبَّ ضده في القطر فأرغمه على الرجوع عن قراره . وفي هذا الوقت سأل بعثي قديم عفلق عن الدور الذي يلعبه حزبه في الحكومة ، ويقال إن عفلق أجاب : «حوالي واحد على ألف من واحد بالمائة»(١١) .

وقد أدى سقوط عمران إلى مزيد من الفائدة لأسرة الأسد ، فحين جابهت اللجنة العسكرية قبل ذلك ببضعة شهور تمرداً داخلياً ، شكلت قوة ضاربة

صغيرة لحماية جناحها في الحزب كانت مؤلفة بكاملها من عناصرها المخلصين ، وكان يقودها في الأصل محمد عمران . ولكن بعد نفيه انتقلت إمرتها إلى شقيق الأسد الأصغر رفعت . وكانت هذه هي نواة ما تطور فيما بعد ليصبح الحرس الحامي لرئاسة الأسد أو سرايا الدفاع ذات الشهرة ، أو كما يقول بعضهم ذات السمعة السيئة .

وبنفي عمران وإسكات عفلق تحرك المتشددون على الفور لتحطيم قاعدة القوة الاقتصادية لبرجوازيّي المدن . وقال الأسد : «كنا مصممين على إنهاء استغلال حفنة من العوائل»[١٢] . وذلك في رأيهم هو الشرط الأول لبناء نظام جديد اكثر مساواة . وفي الأسبوع الأول من كانون الثاني سنة ١٩٦٥ جرى تأميم حوالى مائة شركة ، كان كثير منها مجرد ورشات ، تستخدم في مجموعها إثني عشر ألفاً من العمال . وقال المنتقدون ساخرين بأن أسماء الشركات التي تقرر الاستيلاء عليها قد أخذت من دليل التلفون . وعلى كل حال فسرعان ما امتدت ملكية الدولة إلى توليد الكهرباء وتوزيع النفط وحلج الأقطان وحوالى سبعين بالمائة من تجارة التصدير والاستيراد .

وشعر تجار دمشق بأنهم مهددون بالدمار ، فاستجمعوا قواهم مرة أخرى . ومن جديد قاموا بدعم من الوعاظ المسلمين بإغلاق دكاكينهم كاشارة تقليدية للتحدي . غير أن الحرس القومي للحزب وكتائب العمال المسلحة حديثة التشكيل كانوا لهم بالمرصاد هذه المرة . فقامت زمر من البعثيين الشباب بتكسير واجهات الدكاكين المغلقة وصودرت عشرات المتاجر فوراً . ولتحييد المساجد أمسكت الدولة نفسها بحق تعيين ، وعزل أئمة المساجدوسيطرت على إدارة المؤسسات الدينية (الأوقاف) المصدر الأساسي للوصايا المالية الإسلامية .

الصراع مع عفلق

مرت الزعامة المدنية في حزب البعث بفترة أكثر صعوبة وقسْوة بعد إبعاد عمران . فالأسد وجديد ، وقد رأيا أن الأعداء يهددون من الداخل ومن الخارج

لم يعد لديهما أي صبر على تحيز هؤلاء المدنيين ضد الجيش وكانا مستعجلين لتنحية قادة الحزب الذين يعتبرانهم مشوشي الفكر وسيّئي السمعة. وكان السؤال الملّح: لمن سيكون الحزب؟

وبالرغم من أن قيادة عفلق القومية قد صارعت في سبيل كبح اللجنة العسكرية وذلك عن طريق الاحتكام إلى أنظمة الحزب وقواعده واستعمالها ضد الضباط فقد كان واضحاً أن المبادرات كانت في أيدي القوى المعادية لعفلق. وفي خضم هذا الصراع وجد الضباط حلفاء جيدين لهم في الفئة المدنية التي تعرف باسم «القطريين»، وهم البعثيون من قواعد الحزب في المناطق النائية مثل دير الزور على نهر الفرات، وحوران في الجنوب، واللاذقية على الساحل، وكان هؤلاء قد أبقوا بصورة سرية على فروع الحزب في مناطقهم خلال الوحدة، وعجز عفلق عن كسب ولائهم من جديد بعد إعادة إحياء الحزب. وكان نفورهم من عفلق كبيراً لدرجة أنهم أول الأمر رفضوا المشاركة في أنشطة الحزب حتى بعد انقلاب ٨ آذار / مارس ١٩٦٣. وقد وصفهم الأسد بأنهم «الخلايا الحقيقية للحزب»، وكان هؤلاء هم الذين حاولت اللجنة العسكرية أن تجري اتصالات معهم عندما كانت في صدد انشاء شبكاتها. وهكذا راح الأسد يخطب ودّهم فبرهنوا على أنهم حلفاء جيدون للجنة العسكرية في مبارزتها الوشيكة مع الزعماء القدامى(١٣).

ولكن ما هو السبب الجوهري لنزاع الضباط مع عفلق؟ بعد سنوات عديدة، وبعد انتصاره في المعركة بزمن طويل، أظهر الأسد نفوراً عميقاً من مؤسس الحزب، وهو شعور قوي يشير إلى الهوة الواسعة بين عفلق وبين الضباط. كانوا يشجبونه لأنه أوتوقراطي لا يتواصل مع قواعد الحزب، ولأنه قام بحل الحزب، ولكونه ذا نزعات «يمينية»، إلا أن هناك أيضاً الفجوة التي تفصل بين جيلين وثقافتين وأسلوبين. فعفلق والبيطار، اللذان ولدا ونشآ في دمشق وتشرّبا بالدماثة والسلوكيات الدمشقية، كانا في الخمسينات من عمرهما في حين

كان الضباط أصغر منهما بحوالي عشرين سنة وكانوا ينحدرون من فلاحين. وبينما كان القادة الكبار قد درسوا في الصوربون وقرأوا آداب أوربا وفلسفتها، وكانوا يشعرون بأنهم في مجالهم في عالم الأفكار المجردة فإن العسكريين لم يكونوا كذلك فهم لم يحصلوا ـ فيما عدا تدريبهم العسكري ـ على أي ثقافة تتجاوز مناهج الدراسة الثانوية في المحافظات. ولذا فقد كان الاحتمال ضئيلاً أو معدوماً في أن يكنَّ رجالٌ مختلفون هذا الاختلاف احتراماً لبعضهم البعض.

وهناك فروق هامة أخرى تتعلق بطبيعة الحزب والحكومة. فبعث عفلق كان أساساً منتدى للحوار والنقاش، ومنبتاً للأفكار في زمن من القحط الثقافي العربي، وكان بذلك يجذب الطلاب والمعلمين وصغار الموظفين الطموحين في السنوات الأولى من تأسيس الحزب وهي سنوات لا تزال ذكرياتها تثير حنين البعثيين القدامي حتى يومنا هذا. كان عفلق ينادي برسالة من العزة القومية ألهبت العقل والعواطف وألهمت الشباب بفكرة قدرة أقطارهم المهملَةِ المستعمَرةِ على احتلال مكانها اللائق في العالم الحديث. وكان مفهومه عن الحزب هو أنه عامل محرّض على حشد الطاقات وأنه أقرب إلى الشعب منه إلى أي نظام حكم، وأنه بمثابة قوة ضاغطة خارج الحكومة يكون دورها إبقاء الحكام على الطريق الصحيح والسويّ. في حين أن الضباط كانوا بالمقابل يرون في البعث أداة للحكم، وحزباً حاكماً، ومؤسسة مركزية لدولتهم.

كان عفلق مفكّراً وليس مدير حزب، فبالرغم من أن الحزب قد أقام فروعاً خارج مسقط رأسه سوريا، في الأردن سنة ١٩٤٨ ولبنان سنة ١٩٤٩ والعراق سنة ١٩٥٠ وليبيا سنة ١٩٥٤ والكويت سنة ١٩٥٥ واليمن وعدن سنة ١٩٥٥ ـ ٥٦ فقد فشل عفلق في صهرها جميعاً في حركة قومية منظمة. وبدلاً من عقد مؤتمرات قومية سنوية، فإنه لم يعقد أي مؤتمر بعد المؤتمر التأسيسي سنة ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٥٤، وبعد ذلك حتى عام ١٩٥٨، وبدون الدعوة إلى مؤتمر آخر حلَّ الحزب السوريّ الذي كان قلب حركة البعث. ولقد قضى

عفلق عمره في المعارضة ولم يكن في تركيب طبعه ومزاجه ما يكيّفه لعبور الخط الفاصل من المعارضة إلى الحكم . أما الضباط فكانوا ذوي موقف مختلف تماماً . فقد آمنوا بأنهم أنقذوا البعث من أخطاء عفلق، وبأنهم خاطروا بحياتهم حين قاتلوا كل الذين تحدّوهم، ولهذا فقد أصبحوا الآن يستحقون أن يحكموا .

وقد خاض الطرفان صراعهما في إطار الحزب . وعندما تحدّى الضباط عفلق فإنهم قلبوا هرم الحزب رأساً على عقب وانتزعوا السلطة النهائية من يد قيادته القومية ووضعوها في يد القيادة القطرية . أي في أيديهم هم . ثم عقدوا مؤتمراً قطرياً في آذار / مارس ١٩٦٥ لإقرار مبدأ كون الحكومة خاضعة كلياً للحزب وأن الأمين القطري يجب أن يكون حكماً رئيساً للدولة ، وأن القيادة القطرية هي التي تعين رئيس الوزراء والوزراء ورئيس الأركان العامة وكبار القادة العسكريين . وهكذا لم يبق لعفلق ولا لقيادته القومية إلاّ أقل القليل .

وشعر عفلق باضطراب وقلق بالغين من الطريقة التي كانت تتحرك بها الأمور . وكان متلهفاً إلى احداث مواجهة مع الرجال الذين رأى أنهم سرقوا منه حزبه ، فدعا إلى مؤتمر قومي في أيار / مايو ١٩٦٥ بهدف شجب العسكريين الذين تحدّوه . غير أن عدداً من أعضاء القيادة القومية غير السوريين ، مثل جبران مجدلاني اللبناني ، وعلي غنام السعودي نصحوه بالحذر في تلك اللحظة الحرجة والدقيقة . . . فقد شعروا بأن العسكريين إذا تعرضوا لضغط حاد أكثر من اللازم فربما يكتسحون المدنيين ويبعدونهم بصورة كلية كما حدث في العراق . كانت سوريا البعثية في منطقة معادية للبعث عموماً موئلاً وملاذاً ثميناً لهؤلاء الحزبيين القدامى . وهكذا أقنعوا عفلق بأن يلتزم الهدوء ، وبأن يتخلّى ـ لِأَسَاهُ العميق ـ عن منصب الأمين العام الذي احتله طيلة ثمانية عشر عاماً .

ووقع الخيار على منيف الرزاز الذي كان يومها في السادسة والأربعين ، طبيباً وكاتباً أردنياً من أصل سوري ليحل محله . كان الرزاز قد انضم للبعث سنة ١٩٥٠ ، وفاز بتقدير الحزب له عندما سجنه الملك حسين ، غير أنه لم يكن

عميق الانغماس في الشؤون السورية بحيث يستطيع ردم الهوة بين البعث القديم والرجال الجدد . وعبثاً دعا إلى اجتماعات مشتركة للقيادتين القومية والقطرية في ذلك الصيف ، ولكن المأزق استمر . وعندما تم انتخاب الأسد في القيادة القومية ليصبح رقيباً يعمل كعينٍ للضباط على المدنيين القدامى فإن ذلك لم يساعد المدنيين على الإطلاق ، وقد تذكّره الأطرش في هذا الدور بأنه كان «عدوانياً ، معتداً برأيه ، لا يقبل بالوفاق والمصالحة»[١٤] .

وعند هذه المرحلة في الصراع بين الضباط وعفلق أعيد خلط الأوراق بشكل غير متوقع على يد شخص لم يكن سوى الفريق أمين الحافظ نفسه . فقد كان الحافظ أمام العالم الخارجي رجل سوريا القوي ، إذ كان يمسك بيديه مناصب رئيس مجلس الرئاسة ، والأمين العام للقيادة القطرية ، والقائد العام للجيش ورئيس الوزراء ، ولكنه بالنسبة للجنة العسكرية كان رجلاً من قش بدون قاعدة سياسية أو خلفية حزبية . فقد كانوا يمسكون بلجامه من خلف الكواليس حتى أن الأسد ذكر بأن أمين الحافظ «لم يكن يستطيع نقل جندي واحد بدون موافقتنا» .

إلا أن هذه المعاملة لم تعد تتناسب مع رأيه في نفسه . ولما كان يعلم أن قدامى الحزب من المدنيين كانوا بحاجة ماسة إلى حليف عسكري . وكان غير مستريح إلى صحبة اللجنة العسكرية ، فإنه غيَّر من مواقفه ، وتخلّى عن اللجنة العسكرية وانضم إلى الأعضاء القدامى وهي خطوة وضعته فوراً على طريق المجابهة مع رجل النظام القوي ، صلاح جديد ، الذي كان سيد القرار في الشؤون السورية منذ أواخر صيف ١٩٦٥ وكان يخفي قوته وسلطانه وراء صفة متواضعة هي : الأمين القطري المساعد . ولكنه بنى لنفسه قاعدة شخصية هامة . فقد قام بمراقبة الجهاز الحكومي من خلال صديقه الاشتراكي الدكتور يوسف زعيّن الذي عينه رئيساً للوزراء في شهر آب وهو في الرابعة والثلاثين . وكان يراقب التنقلات والترفيعات العسكرية بواسطة وزير الدفاع : حمد عبيد .

وأخيراً من خلال الأسد وجهازه الحزبي في القوات المسلحة كان جديد مطمئناً إلى ولاء هذه القوات .

في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٦٥ التقى حوالي ثمانين من الحزبيين الموالين لعفلق ، ودون وجود ضابط واحد ، على غداء في الهواء الطلق في قرية سرغايا في التلال الواقعة شمال غربي دمشق ، وذلك من أجل استعراض توقعات المستقبل . وتم ذبح ستة خراف للمأدبة ، وكانت مناسبة مثيرة للحنين إذ كانت إلى حد ما آخر مرة شعر فيها هؤلاء الرجال بأنهم في وطنهم حقاً . وتشجّعت القيادة القومية بهذا التجمع فاصدرت قراراً في كانون الأول منعت بموجبه القيادة القطريةَ من إجراء أي نقل أو طرد للضباط من الخدمة بدون الحصول على إذن من القيادة القومية . وتمرّد صلاح جديد فوراً على هذا التحدي وأمر العقيد مصطفى طلاس بالقبض على آمر حامية حمص ونائبه ، وكلاهما كانا معروفين بولائهما للقيادة القومية .

كانت الكرة الآن في ملعب الحزبين القدامى، فلعبوها بشجاعة المستميت الذي يعرف مصيره المحتوم . فدعا منيف الرزاز القيادة القومية إلى اجتماع طارىء لاصدار قرار بحل القيادة القطرية المتمردة . وفي مكانها أقاموا ، أو على الأقل عينوا على الورق قيادة كاملة جديدة لسوريا : إذ أعادوا البيطار إلى رئاسة الوزراة ، وجعلوا الفريق أمين الحافظ رئيساً لمجلس رئاسي جديد انتقوا أعضاءه باليد ، واستدعي محمد عمران ، المطرود من اللجنة العسكرية ، من مدريد وعُيّن وزيراً للدفاع وقائداً أعلى للقوات المسلحة ، وتم تعيين منصور الأطرش رئيساً لمجلس وطني موسع للثورة استبعد منه أعضاء اللجنة العسكرية . ولا حاجة للقول إن جديد ورفاقه لم يعبأوا قط بهذه التعيينات . وهكذا أصبح الطرفان الآن في حرب ، وكانت القوة وحدها هي القادرة على حسم الأمر .

وبالرغم من أن الأسد لم يكن يحمل ميلاً أو تعاطفاً حيال القادة القدامى ،

فإن الطريقة التي تطورت بها الأمور نحو الصدام لم تسعده . وانسجاماً مع غرائز الحذر لديه كان يؤثر أن يحاول ترقيع الأمور ، وإذا لم يكن ذلك ممكناً ، فليطّهر الحزب نفسه من خلال الجهاز الحزبي نفسه . ومع اقتراب بوادر البت في النزاع القائم بين الضباط وبين القيادة القومية بقي الأسد بعيداً إما بداعي النفور أو بسبب الحذر . ولمثل هذه الأسباب أخذ في ذلك الصيف إجازة من مهماته كآمر للقوة الجوية وذهب إلى لندن لمدة ثلاثة أشهر ، واصطحب معه أحد كبار ضباط السلاح الجوي ناجي جميل ، وآمر الشرطة العسكرية حسين ملحم ، والطبيب يوسف صايغ وكانت تلك هي ، وحتى كتابة هذه السطور ، أول وآخر زيارة له إلى بريطانيا . وأقام الرجال الأربعة في شقة بمنطقة (كنزنغتون) . والذي عُرف حتى الآن أن اتصال الأسد الوحيد بالرسميين البريطانيين كانت زيارته لوزير الدولة للشؤون الخارجية جورج طومسون في مكتبه بالوزارة . وقد كان لبريطانيا علاقة قصيرة الأمد مع السلاح الجوي السوري حين زودته بطائرات وتدريبات فيما بين ١٩٥٣ و١٩٥٥ ؛ إلا أن هذه العلاقة انقطعت بعد تحالف سوريا مع مصر عبد الناصر . أما السبب الظاهري لرحلة الأسد إلى بريطانيا فكان لتلقي علاج لألم في ظهره وفي رقبته نتج عن هبوط اضطراري عندما كان طياراً متدرباً . إلاّ أن أوجاع الأسد وآلامه ربما كانت من نوع المرض الدبلوماسي .

انقلاب ١٩٦٦

بدأت المصادمات بين عفلق والضباط في ٢١ / شباط سنة ١٩٦٦ عندما حاول اللواء محمد عمران أن يختبر سلطاته الجديدة فأصدر أمراً بنقل ثلاثة من أهم مؤيدي صلاح جديد ، وهم اللواء أحمد سويداني ، المدير السابق للمخابرات العسكرية الذي كان عندئذ في إدارة شؤون الضباط ، والعقيد عزت جديد من سلاح الدبابات ، والرائد سليم حاطوم الذي كانت وحدته الفدائية تقف في حراسة القصر الجمهوري ، ومحطة التلفزيون ونقاط استراتيجية

أخرى . وفي ٢٢ / شباط قامت اللجنة العسكرية بالرد على الضربة ، إلا أنها قامت أولاً بحركة تمويهية لإفقادِ الخصوم توازنهم .

تمت هذه الحركة بواسطة خدعة قام بها قائد الجبهة المواجهة لاسرائيل ، الضابط العلوي عبد الغني ابراهيم ، الذي اتصل بقيادة الجيش بدمشق ليُفيدَ بأن شجاراً قد نشب بين ضباط خط المواجهة ، وأنهم سحبوا السلاح وشهروه في وجه بعضهم البعض ، وجعلت هذه الخدعة الفريق أمين الحافظ ووزير الدفاع عمران ورئيس الأركان يهرعون ليحلوا هذه المشكلة ، وبعد أن طافوا على الوحدات واشتركوا في نقاشات مطولة ، عاد الثلاثة إلى دمشق منهكين ، واتجهوا إلى فراشهم في الثالثة صباحاً يوم ٢٣ / شباط وبعد ساعتين فقط استيقظوا بصدمة قاسية على صوت الرصاص .

فقبيل الفجر قام فدائيّو سليم حاطوم ، تعززهم قوة رفعت الأسد الضاربة وكتيبة دبابات يقودها عزّت جديد ، بشن هجوم على منزل الفريق أمين الحافظ . ومن داخل المنزل قام الفريق وحرّاسه بدفاع شجاع . واستمر اطلاق النار في هذه المنطقة من وسط دمشق حتى الظهيرة إذ كان أفراد المغاوير يأتون موجةً بعد موجة للانخراط في القتال . وأخيراً ، عندما نفذت ذخيرة المدافعين ، وقتل الحراس ، وتهدم المنزل بقنابل الدبابات ، وجرح أطفال أمين الحافظ (وقد فقدت إحدى بناته عينها فما بعد) استسلم الفريق (وكان قائد حرسه الملازم محمود موسى قد جرح ونقل إلى المستشفى حيث لحق به عزت جديد بقصد الاجهاز عليه ، إلا أن موسى سبق له أنْ كان فدائياً لذلك تدخل حاطوم لانقاذه وهرَّبه فيما بعد إلى بيروت) . وكانت حصيلة القتال خمسين شخصاً .

وتحدى الناس منع التجول وشقوا طريقهم عبر الركام ليحدقوا بذهول إلى المنزل المتهدم وأثاثه المطلّ بجنون من الطوابق المنهارة ، والماء يتدفق من الأنابيب المنفجرة . ووقعت صدامات مماثلة في المدن الأخرى . وصمد في

حماه بعض الضباط الموالين للقيادة القومية حتى أخضعتهم قوة من حمص يقودها مصطفى طلاس . وفي حلب سيطر الموالون لعفلق على محطة الاذاعة فترة قصيرة بينما قيل إن هناك مقاومة رمزية تم التغلب عليها بسرعة في اللاذقية ودير الزور .

كان الأسد قد عاد من لندن في وقت المعركة ، إلا أن سلاحه الجوي لم يتدخل فيها ، ولعل سبب ذلك عدم الحاجة إلى هذا السلاح أو أن الأسد كان يعارض استعماله في مثل هذا النزاع الحزبي الداخلي . وبينما كان القتال محتدماً قضى الأسد ذلك الصباح على الهاتف يرغّب أو يرهب ضباط الوحدات في سائر أنحاء البلاد ليكسبهم إلى صف اللجنة العسكرية .

تبع القتال فوراً تطهير كامل للجيش والحزب والحكومة أقصي بموجبه حوالى أربعمائة ضابط وموظف . واقتيد أمين الحافظ ، ومحمد عمران والقادة الموالون لهما إلى سجن المزة ، القلعة الكائنة في دمشق على قمة تل ، حيث يحبس السجناء السياسيون البارزون . كما اعتُقِل في دار الضيافة بشارع بغداد ثلاثون من البعثيين القدامى ، من بينهم البيطار والأطرش وشبلي العيسمي ، وكذلك أعضاء القيادة القومية اللبنانيون والسعوديون والاردنيون . ومن بين القادة الكبار في القمة ظل منيف الرزاز وحده يقاوم متنقلاً من مخبأ إلى مخبأ ، وهو يصدر بيانات تهاجم الانقلاب . كان مريضاً وفي رجله عرج بحيث لم يستطع أن يقوم بالرحلة الخطرة التي قام بها آخرون عبر الجبال إلى لبنان في تلك الأيام .

وبعد الانقلاب وإلقاء القبض على أتباع ميشيل عفلق ، جلس عفلق في بيته ينتظر الاعتقال ، غير أن النظام الجديد قاوم هذا الإغراء . فاتخذ طريقه في الوقت المناسب إلى لبنان ومنها إلى البرازيل ، وأخيراً إلى العراق حيث قدم له البعثيون الموالون له والمعارضون لرفاقهم السوريين ملجأ احترموه فيه بعد استيلائهم على السلطة في عام ١٩٦٨ . ولكن لم يقدّر له أن يرى أرض موطنه

ثانيةً قطّ . وهكذا بعد ربع قرن من النضال والتوجيه إنتهى عمل أشهر مُنَظِّري الوطن العربي بالنفي وبالطرد .

وكان من أول أعمال النظام الجدبد تعيين الأسد وزيراً للدفاع . وبدافع من دماثته قام بزيارة منصور الأطرش وجبران مجدلاني وغيرهما من رفاقه السابقين في القيادة القومية في مكان اعتقالهم ليستفسر عن صحتهم ويتكلم معهم حول ما جرى من أحداث . ويتذكر الأطرش أن الأسد كان مبتهجاً . ولا بد أن الأسد قد شعر بالارتياح لكون الصراع الذي شلّ الحزب قد تم حله في نهاية المطاف ، ولكنه يقول إنه لم يوافق على الأساليب التي استخدمت لحسمه . وراح بعد ذلك يلقي بمسؤولية دموية الانقلاب على قائد المغاوير المتهور سليم حاطوم ، ويمثل لومه هذا مؤشراً على مشاعره حيال ما حدث . فبعد بضعة أشهر من تلك الأحداث أخبر مراسل صحيفة (لوموند) بأن تدخل الجيش كان أمراً مؤسفاً نظراً ـ كما قال ـ لأن البعث كان في جوهره حزباً ديمقراطياً ، ولكن هذا التدخل كان ضرورياً لإنهاء ديكتاتورية القيادة القومية[١٥] . بالاضافة إلى أنه في عام ١٩٦٩ بيَّن أمام مؤتمر حزبي أنه تردد في الاشتراك في أحداث شباط / فبراير ١٩٦٦ وأنه رفض باديء الأمر وزارة الدفاع[١٦] . على كل حال ، ومهما يكن من أمر وخزات الضمير هذه ، فإن الأسد أصبح على مقربة من القمة .

هوامش الفصل السابع

(١) حنا بطاطو : مصدر سبق ذكره ص ١٠١٣ ـ ١٠١٤ .

(٢) مقابلة مع توفيق عبيد القائد البعثي في السويداء خلال ديكتاتورية الشيشكلي (السويداء ٢٩ نيسان/ أبريل ١٩٨٥) .

(٣) كانت القيادة ذات الثمانية أعضاء تتكون من حمود الشوفي وثلاثة ماركسيين آخرين هم خالد الحكيم، المحامي النقابي المتشدد من حلب، وأحمد أبو صالح، والمهندس محمد نوفل، وثلاثة من أعضاء اللجنة العسكرية الموسعة هم الأسد، ومحمد رباح الطويل وحمد عبيد، والدكتور نور الدين الأتاسي الاشتراكي المنتمي إلى عائلة من ملاك الأراضي في حمص.

(٤) مقابلة مع خالد الفاهوم بدمشق في ٧ أيلول / سبتمبر سنة ١٩٨٤ .

(٥) أ. بن تسور «حزب البعث الجديد في سوريا» ، في مجلة التاريخ المعاصر الجزء الثالث ، ١٩٦٨ ؛ وايتامار رابينوڤيتش» سوريا تحت حكم البعث» ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦ ، القدس ، ١٩٧٢ .

(٦) «بعض المنطلقات النظرية» في نضال البعث ـ المجلد الرابع ـ ص ٢٢٢ ـ ص ٢٩١ .

(٧) أنظر رونالد ر. ماكنتاير: حزب البعث العربي الاشتراكي : العقيدة والسياسة والاجتماع والتنظيم ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة في جامعة اوستراليا الوطنية ١٩٦٩ ص ٣٠٠ ـ ٤٠٧ حول شرح مفصل لتنظيم حزب البعث .

(٨) زكي الأرسوزي : «المؤلفات الكاملة «الجزءان الخامس والسادس دمشق ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ .

(٩) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ـ أيار/ مايو ١٩٨٥) .

(١٠) مقابلة مع أحمد الأسعد (المعاصر لحديد في القاهرة والذي أصبح فيما بعد أميناً لفرع الحزب في حماه) حماه : في ٢٥/ نيسان / ابريل / ١٩٨٥ .

(١١) مقابلة مع أحمد رستم ـ سرغايا ٢٩ آب / اغسطس ١٩٨٤ .

(١٢) مقابلة مع الرئيس الأسد : دمشق أيار / مايو ١٩٨٥ .

(١٣) نفسه .

(١٤) مقابلة مع منصور الأطرش في القُرَيّة في ٢٨ / نيسان / ابريل سنة ١٩٨٥ .

(١٥) لوموند (٨ تموز / يوليو ١٩٦٦) .

(١٦) تقرير الأسد إلى المؤتمر القطري الاستثنائي الرابع من ٢٠ إلى ٣١ آذار / مارس ١٩٦٩ نقلاً عن جريدة (الأنوار) البيروتية في عدد ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٠ .

الفصل الثامن

التخبط نحو الهاوية

أدت المواجهة الدامية داخل صفوف البعث في ٢٣ شباط/ فبراير إلى إعطاء الأسد أول مقعد له في حكومة سورية وهو لا يزال في الخامسة والثلاثين، فحصل على منصب وزير الدفاع، الذي دفعه في الحال إلى مقدمة المواجهة السورية ـ الإسرائيلية التي أصبحت منذ ذلك الحين شغل حياته الشاغل.

ولقد أثبتت الحكومة التي أصبح عضواً فيها أنها أكثر الحكومات التي عرفتها سوريا تطرفاً، وكانت متهورة في الخارج ، ومتشددة بشكل جذري في الداخل ، فقد أدخلت البلاد في حرب ، وحاولت إعادة تركيب المجتمع من السقف إلى القاع ، كما اكتسبت سمعة بأنها تقمع الشعب وتتخلص بوحشية ممن يَتَحَدَّوْنَها. كم كان مدى قوة الأسد في هذه الحكومة وما الدور الذي لعبه في هذه التطورات؟ من المؤكد أنه كان يؤيد من كل قلبه الهدف العام العريض لقلب تركيب سوريا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والاتيان إلى المقدمة برجال وفئات ممن ظلوا على الهامش حتى ذلك الحين. ويمكن القول إن الأسد بعد أن فاز بالسلطة، صمم على الاحتفاظ بها. غير أن مزاج الحكومة المتصلب عقائدياً كان مختلفاً عن طبعه الذي يميل إلى الحذر ويحجم عن اندفاع زملائه المباشر المتحمس للتغيير. ورغم مركزه كوزير، فإن هذه الفترة لم تكن سعيدة، ولم يكن صوته هو المسيطر في النظام الجديد.

كان النظام قد خرج من ثلاث سنوات من الصراع على السلطة أعقبت انقلاب عام ١٩٦٣. أما بعد دحر المنافسين الناصريين، وإخماد المعارضة اليمينية والدينية في حماه، وإزاحة الجيل القديم من البعثيين، فقد صفا الجو للجنة العسكرية وانفسح لها المجال لتحكم. وأدى ذلك إلى تغيير في أدوات السلطة. فحتى تلك اللحظة كانت اللجنة العسكرية نفسها هي الجهاز المركزي الذي يفرض الضباط إرادتهم من خلاله. أما في عام ١٩٦٦، وبعد أن ضعفت اللجنة بخروج عمران منها، فقد ازدادت ذبولاً بل وفقدت كثيراً من مبررات وجودها حالما احتكر الضباط في قبضتهم جهاز الدولة. ولم تعد هناك حاجة للمؤتمرات السرّية.

وكان من نتيجة التحول إلى حكومة عادية أن صعد صلاح جديد ليصبح حاكم سوريا. لم يعلن رئيساً للدولة، بل فضل أن يحكم من خلال منصب يبدو متواضعاً وهو الأمين المساعد للقيادة القطرية لحزب البعث. ومع ذلك فقد أصبح هو الرجل رقم ١. فملأ القيادة والحكومة باتباعه وأصدقائه ووضع بصمته على الأحداث، بينما راحت الهوة تتسع بينه وبين الأسد.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالمستقبل، لم يكن ذلك لغير صالح الأسد تماماً. لأن انغماس جديد في تسيير شؤون البلد وصل إلى درجة جعلته يعطي الأسد مجالاً واسعاً لإدارة شؤون القوات المسلحة. وبما أن جديد كان خبيراً صاحب تجربة في التآمر، فقد كان يعرف جيداً أهمية السيطرة على الجيش. ولذا فقد كان همه الأول بعد انقلاب عام ١٩٦٣ أن يستولي على مكتب شؤون الضباط لكي يشرف بنفسه على جميع التعيينات. ومن هناك صعد ليصبح رئيساً للأركان. أما في عام ١٩٦٦ فقد كان عليه أن يركز على الحكومة المدنية، ولذلك اعتمد على الأسد للمحافظة على ولاء الجيش. وكان الأسد قد ساند صلاح جديد ضد محمد عمران؛ وظل رفيقه الثابت القوي أعواماً طويلة، ولم يكن يبدو أنه يشكل خطورة أو تهديداً.

وفي عام ١٩٦٦ كان جديد رجلاً وسيماً في الأربعين من عمره، مهذباً ناعم الكلام، يرتدي في العادة ملابس مدنية. وكان بطبيعته كتوماً متحفظاً، وكان يبدو أنه لا يحب الاتصال بالناس. ونادراً ما ألقى خطباً أو ظهر في مكان عام. وكان معروفاً بأن له أخلاقاً شخصية عالية ولم يكن يهتم بالثروة ولا حتى بالراحة والتنعم، بل كان يعيش في شقة بسيطة قيل ان أثاثها كانت قيمته تعادل أقل من مائة جنيه استرليني. وكان تقشفه وعزلته يخيفان مواطنيه الذين وجدوه غامضاً كاللغز. فهذا الزعيم الجديد لم يشاهده أحد يلعب النرد أو يرتشف فنجاناً من القهوة التركية في مقاهي دمشق الظليلة في الهواء الطلق كبعض زملائه. كان يأتي إلى مكتبه مبكراً، في بناية متواضعة من أربعة طوابق على حافة ضاحية سكنية، ويغادره في وقت متأخر. وقد عُلم بأنه كان منذ زمن طويل يعيل الاسرتين البائستين لاثنين من أشقائه اللذين كانا متورطين بصورة ثقيلة في نشاط الحزب القومي السوري الاجتماعي المحظور منذ عام ١٩٥٥ بعد اغتيال عدنان المالكي. وكان أحدهما، غسان، قد قتل على يد المخابرات السورية عام ١٩٥٧، وأما الآخر، فؤاد، فقد أمضى سبع سنوات في السجن، ولم يحصل على حريته إلاّ في عام ١٩٦٣. وكان طبيعياً أن يشك الناس في كون جديد يتعاطف سراً مع الحزب السوري القومي، وبما أنه كان علوياً فقد سرى بين الناس تهامس بأنه يفضل أبناء طائفته بلا وجه حق.

كانت نزعة جديد أكثر يساريّة من نزعة الأسد. وكان الفريق الذي اختاره يعكس ميوله: ثلاثة أطباء من ذوي الآراء الاشتراكية الملتهبة قذف بهم إلى المناصب الرئيسية الثلاثة في الدولة. فالدكتور نور الدين الأتاسي، السليل المتمرد لأسرة الأتاسي، من ملاك الأراضي الذين كانوا يسيطرون ذات يوم على ريف حمص، صار رئيساً للدولة، فقد كان من المفيد وضعه في مقدمة الواجهة لتطمين الرأي العام السوري، ولا سيما الأغلبية السنّية، والدكتور يوسف زعين، الابن الاشتراكي لتاجر غني من مدينة البوكمال في وادي الفرات استمر كرئيس للوزراء. أما الدكتور ابراهيم ماخوس فأصبح وزيراً للخارجية، وكان

فيه شيء من المثالية المتعصبة. وكان من أبناء عائلة دينية علوية كان لها من الغنى ما مكنها من إرساله لدراسة الطب. وكان الثلاثة جميعاً متمردين من خلفيات ميسورة ومتنفذة نسبياً. وقالت الصحيفة البيروتية اليومية التي تصدر بالفرنسية (لوريان) ساخرة: «سوريا يحكمها ثلاثة أطباء. لا بد أنها مريضة».

كان الأتاسي، وزعين، وماخوس من اختيار جديد. كانوا قد شغلوا مناصب وزارية مختلفة منذ عام ١٩٦٣، ولكن لم يكن فيها ما يهيئهم لمثل ذلك البروز. وكانت الحادثة التكوينية في حياتهم هي الحرب الجزائرية ضد فرنسا (١٩٥٤ - ١٩٦٢) عندما خدموا فترة كأطباء متطوعين مع قوات هواري بومدين. ومما لا شك فيه أن تجربتهم الجزائرية قد شجعتهم على الاعتقاد بأن إسرائيل، مثل فرنسا، يمكن إرغامها على التسليم، وكان ذلك خيطاً قوي البروز في نسيج نزعتهم الجذرية المتشددة. وكانت خشونتهم في الحكم تبدو من خلال نقص الاعتدال لديهم. فيوسف زعين كان رجلاً ماهراً ومصمماً، غير أنه كان ذا طبع عنيف، غالباً ما يصرخ بموظفيه ويدق على طاولته (وذات مرة كسر زجاج سطحها وقلب محبرة) بينما كانت عصبية ماخوس أحياناً تجعل كلامه غير مفهوم. وكان تشدد الأطباء الثلاثة يؤثر على طراز ملابسهم، ففي زيارة لباريس كان زعين يرتدي جاكتة «سبورت» من طراز ماوتسي تونغ، فقيل له إن الجنرال ديغول لن يستقبله بتلك الملابس. فدمدم على البروتوكول، ولكنه في آخر الأمر لبس ربطة عنق وسُمِحَ له بدخول قصر الايليزيه.

كانوا على وجه العموم شلة رفاقية، رجالاً في منتصف الثلاثينات من أعمارهم، واعين بأنهم يمثلون جيل البعث الجديد وتوحدهم الرؤى حول التغييرات التي يبتغون إحداثها. كما كانوا يشتركون في أن لديهم ذلك المزيج السوري الخاص جداً والمركب من طبع واخز كالأشواك ممزوج بالشك والارتياب، وفيه التحدي والاستعداد للقتال. ولدى الكثيرين من العرب شعور بأن الأمم الأقوى لم تعاملهم بعدل ولا إنصاف. وهذا الشعور أكثر حدَّةً لدى

السوريين ولقد كان جيل الأسد قد تحمل قائمة طويلة من المظالم وخيبات الأمل، كالتمزيق الأوربي لبلاده، والاستعمار الاستيطاني الصهيوني لفلسطين، الأرض العربية، وخيبة الأمل مع عبد الناصر والوحدة التي فشلت، والحزب الذي فشل، والخوف من المؤامرات والمخططات الأجنبية. كان هؤلاء هم زملاء الأسد المقلقون في أول وزارة صار عضواً فيها.

لم يهمل جديد الجانب الأمني من الأمور تماماً؛ وهنا أيضاً كان انحيازه لليسار واضحاً. فجاء بأحمد سويداني وجعله رئيساً للأركان ورفعه إلى رتبة لواء. وكان سويداني سنّيّاً من الريف، من مدينة درعا قرب الحدود الجنوبية، وقد عمل كملحق عسكري في بكين، حيث تشرّب جرعة قوية من مذهب ماوتسي تونغ. ولم يكن الأسد متحمساً لرئيس أركانه الجديد هذا الذي كان ـ باعتباره صنيعة صلاح جديد ـ رقيباً على سلطات الأسد. ووراء الكواليس كانت هناك أيضاً خلافات حول موضوع حساس كان قد بدأ يتضخم ويكبر وهو كمية الحرية والمساعدة التي يجب أن تعطيها سوريا للمجموعات الفلسطينية التي كانت تغير على اسرائيل. كان الأسد يؤمن بوجوب مساعدة المقاتلين، ولكن سويداني الماوتسي النزعة كان يريد إعطاءهم مجالاً من الحرية أكثر مما كان وزير الدفاع يراه من مقتضيات الحكمة.

وكان من بين الضباط المتشددين الآخرين الذين عينهم جديد العقيد محمد رباح الطويل، السنّي من اللاذقية، الذي أصبح وزيراً للعمل ورئيس قوات المقاومة الشعبية التي كُوّنت حديثاً آنذاك. غير أن الرأي العام في المدن والأرياف كان يرى أن أكثر الضباط تشدداً هو العقيد عبد الكريم الجندي، الإسماعيلي، الشديد الاندفاع وأحد الأعضاء المؤسسين للجنة العسكرية، وأحد المؤيدين الأساسيين لصلاح جديد، والذي أصبح وزيراً للإصلاح الزراعي قبل أن يتسلم السيطرة على قوى الأمن الداخلي، وهو المنصب الذي أكسبه سمعة مخيفة في قسوته.

كانت هذه هي الشخصيات الرئيسية التي سيطر بها البعث بوجهه الجديد على مقاليد الأمور في سوريا قبل خمسة عشر شهراً فقط من حرب حزيران/ يونيو، غير أن كفاءته للحكم، ناهيك عن قدرته على شن الحرب، كانت أقل مما ينبغي فقد كان الفريق الذي يترأسه جديد مؤلفاً من ضباط من الرتب المتوسطة رفعوا إلى رتب الجنرالات العالية بين عشية وضحاها. ومن أطباء قليلي الخبرة دفعهم فوران تلك الأيام إلى ميدان السياسة، يدعمهم حشد من معلمي المدارس الريفيين ذوي الميول البعثية الذين احتلوا دوائر الدولة باعتبارهم كوادر النظام الجديد. وكان هؤلاء الرجال جميعاً مجهولين لدى عامة الناس، ولم يكن لأسمائهم أي رنين، باستثناء الأتاسي، وكانوا من أبناء العائلات المغمورة، ولم يكونوا يتمتعون باحترام تلقائي، في وسط جوّ قد ابتعد ابتعاداً أساسياً كبيراً عن التقاليد السورية التي كانت أسس الحكم فيها تقوم على شبكة من الرعايات الأبوية لرجال من ذوي الأسماء المعروفة في الحياة العامة. . وكان الأسد، الذي لا يملك ثروة ولا ارتباطات، لغزاً غامضاً كالقادمين الجدد الآخرين.

ومع ذلك، ورغم علاتهم ونقص خبرتهم، فإنهم استكملوا دحر النظام القديم بواسطة التأميمات وإصلاح الأراضي وأحلوا محله نخبة سياسية جديدة تنبع من التحالف بين أبناء الريف المثقفين وأبناء الطبقة الوسطى الدنيا في المدن المؤيدين لثورتهم.

شرع نظام جديد يضفي على البلد طابعه التطهيري الحنبلي التشدد. فخفض رواتب رئيس الدولة والوزراء وكبار الضباط والموظفين الحكوميين. واستبدل بسيارات المرسيدس والليموزين السوداء سيارات أكثر تواضعاً مثل الفولكس واغن والبيجو (٤٠٤). وتم قمع الفساد ورفضه باحتقار بينما أصبح الصراع الطبقي ضيق الأفق وانتقامياً. فطرد من الخدمة الحكومية أي شخص له علاقة ولو كانت بعيدة بالعائلات المتنفذة القديمة، ومهما يكن الشخص في ذاته

نظيفاً ولا غبار عليه. . إلى درجة أن الناس صاروا يخشون الكشف عن أسماء عائلاتهم خوفاً من التعرض لإجراءات انتقامية. ففي وزارة الخارجية لم تستطع سوى حفنة من كبار الدبلوماسيين المحترفين أن تحتفظ بمناصبها بسبب كفاءتها الذاتية وعدم وجود ارتباطات سياسية لها[1]. وبما أن امتلاك أكثر من بيت واحد صار شيئاً لا يُنظر إليه بعين التشجيع، فقد حدثت هجمة على البيع فانهارت الأسعار وهرب القادرون على الهرب خارج البلاد. وامتدت السيطرة الحكومية إلى المدارس الخاصة التي كان كثير منها بادارة مؤسساتٍ دينية؛ أما تلك التي رفضت إدارة الدولة فأغلقت. وفي هذه الأثناء بدأ الفقراء والأقليات، والمحرومون من كل نوع يغمرون المدن كالطوفان بعد أن شعروا بوجود تغير لصالحهم، وبذلك غيروا نمط الحياة في تلك المدن. وقد بدا لهم أخيراً أن تلك كانت حكومة المحرومين الذين لا أرض لهم، والتي تمثل انتصار السهول التي تتناوح فيها الرياح، على أضواء المدن البراقة. وبهذه التعبئة لما كان يشبه دولة الحزب اللينينية راح الناس في المجتمع يصنفون ما بين عدو وصديق، مع تقسيمات فرعية فيما بين الصنفين: «فالعمال»، و«الفلاحون» و«الطلبة» و«النساء» و«الشبيبة» صنفوا كأصدقاء. أما «الاقطاعيون» و«الرجعيون» فاعتُبروا أعداء بلا هوادة، رغم إفساح المجال للتسامح مع «الرجعيين الذين لا ضرر منهم». وَبَدَا كأَنَّ كون المرء سورياً فقط لم يعد يعطيه أي حقّ. وبدا النظام في متابعته لبرنامجه شديد التعصب مذهبياً وكأنه يحاول تحقيق شيء لا يقل عن تحويل طابع سوريا وشخصيتها.

وكان هناك بالطبع جانب إيجابي. فصلاح جديد وفريقه كانوا على وجه العموم شرفاء نزيهين، ولم تكن منجزاتهم سيئة أو ضارة بالسمعة. فقد بذلوا محاولة للتخطيط الاقتصادي المنظم، كما بدأ العمل في إقامة البُنَى التحتية لمشاريع صناعية كبرى كشبكة الطرق وسكك الحديد، وسد الفرات العظيم الذي كان حلم سوريا الطموح منذ عام ١٩٤٥ وتشغيل حقول النفط الحديثة الاكتشاف في الشمال الشرقي. وقد تمت معظم تلك المشاريع بمساعدة

سوفياتية، ذلك أن يوسف زعين قد حصل على وعد بالمشاركة السوفياتية بعد ثمانية أسابيع من استلامه لرئاسة الوزارة.

وقد ترددت موسكو بادىء الأمر في تقديم مساعدتها لفريق جديد، ولكن سرعان ما حزمت أمرها، مما جعل بعض الدوائر الغربية تخشى على سوريا أن تصبح بيدقاً في المخططات السوفياتية، بل ومعرضة لخطر السقوط في أيدي الشيوعيين. وبالرغم من أن سوريا كانت تشتري أسلحة سوفياتية وترسل ضباطها للتدرب في الكليات العسكرية السوفياتية منذ منتصف الخمسينات، فقد بدا أن تغيراً في العلاقة كان يحدث آنذاك. (أي في منتصف الستينات) فخالد بكداش ، الزعيم القديم للحزب الشيوعي السوري، سمح له بالعودة إلى بلده بعد ثمانية أعوام في المنفى. بينما دخل شيوعي آخر الحكومة لأول مرة في تاريخ سوريا، وهو سميح عطية الذي أصبح وزيراً للمواصلات. وبدأ جديد وزملاؤه يبحثون فكرة «الاشتراكية العلمية» غير أنهم بالرغم من كل تشددهم لم يتخلوا عن التشكك البعثي القديم بالشيوعية، ولا عن تصميمهم على الانفراد بالسلطة والحكم. فبكداش عاد وفقاً لشروط صارمة، فقد منع من عقد الاجتماعات وإلقاء الخطب بينما أوضح الأسد في مقابلة مع صحيفة لوموند أن الوزير الشيوعي قد دخل الحكومة بصفته الشخصية الفردية، لا الحزبية[٢] .
وعلى الجانب السوفياتي يوضح السجل بأن السوفيات لم يحصلوا على أي نفوذ في سوريا لقاء كرمهم. وكانت يسارية الفريق الحاكم الجديد ذات أصول محلية، ولم تأت بإيحاء سوفياتي . كانت نتيجة الظروف المحلية، لا المقتضيات السياسية العالمية. وحتى حرب حزيران/ يونيو التي حدثت بعد ذلك بعام، كان دليل سلوك حكام سوريا هو الثورة في الداخل، والتنافس مع عبد الناصر، والشعور بالاحباط تجاه اسرائيل، العدو القوي القابع خلف الحدود الذين كانوا ينظرون إليه بتحدٍّ غاضب ولكنه غير مؤثر، وكذلك الشعور بالعصبية طبعاً تجاه أعدائهم في الداخل.

مؤامرة حاطوم

كان الأعداء لا يزالون كثيرين، فجماعة أكرم الحوراني، وبقايا حركة عفلق، وأنواع مختلفة من الناصريين، استمروا في التواجد على الساحة السياسية ولم يكونوا قد يئسوا بعد من الأمل بالعودة. وكان يجب مراقبتهم. غير أن المفارقة كانت في أن أخطر تهديد قد جاء من داخل النظام نفسه.. من المقدم سليم حاطوم[٣] الذي كانت قوات الكوماندوس التابعة له هي التي أرغمت الفريق أمين الحافظ على الاستسلام في ٢٣ شباط/ فبراير سنة ١٩٦٠. كان النظام مديناً بوجوده لحاطوم، إلّا أن هذا شعر بأن الدَّيْن لم يُسَدَّدْ. وصار ذلك سبَباً لمشكلة كبيرة.

كان حاطوم بعثياً قديماً وضابطاً طموحاً. كان شجاعاً، بل وحتى طائشاً، ولكن بدون دهاء سياسي. وقد ولد سنة ١٩٢٨ لعائلة فقيرة من قرية دبّين الدرْزية، وبنى نفسه بنفسه وشق طريقاً جعله يلعب دوراً في ثورة الثامن من آذار سنة ١٩٦٣ ووجد نفسه يكافأ بالانضمام إلى اللجنة العسكرية الموسعة، ولكنه لم يصل إلى ما هو أبعد من ذلك. وبعد أن غامر برقبته في سنة ١٩٦٦ لم يتم انتخابه في القيادة القطرية للحزب، وعلى عكس آخرين غيره، لم يحصل على رتبة عالية أو منصب كبير. وبدلاً من ذلك أعيدت كتيبة الكوماندوس التابعة له إلى الوظيفة المملة الرتيبة في حراسة محطة الاذاعة والتلفزيون وغيرها من المنشآت. وآذت هذه الضربة كبرياءه ولم ترض طموحه فبدأ يعتقد بأن زملاءه يريدونه أن يتحمل وحده اللوم على قتل ضحايا ٢٣/ شباط/ فبراير. بل لقد سُمِعَ يعبر عن تشككه في أنهم يخططون للتخلص منه ثم إقامة تمثال له لتكريمه. وأصبح حاطوم القلق بؤرة للشقاق والخلاف.

وكان شعور حاطوم بالظلم مشتركاً بين الدروز؛ وكان الدروز كطائفة يشعرون بأنهم ضحايا تمييز ضدهم في نظام حكم البعث، فقد طُرِدَ بعض أبنائهم البارزين من مناصبهم، فحمود الشوفي زعيم الجناح الماركسي في

الحزب أسقط سنة ١٩٦٤، وحمد عبيد الذي احتل منصب وزير الدفاع فترة قصيرة سنة١٩٦٥، وجد نفسه في السجن بعد انقلاب ٢٣ شباط/فبراير (كان قد دعم صلاح جديد ضد أمين الحافظ وتوقع أن يستعيد وزارة الدفاع، ولكن جديد فضل عليه الأسد الذي كان أقدر منه والذي كان عندئذ ذراع جديد اليمنى. وهكذا تمرد عبيد فألقي القبض عليه). وأدى هذا التساقط وفقدان الحظوة إلى إفزاع الطائفة الدرزية وأثار الشكايات من كون العلويين يحصلون على كل وظائف القمة والمناصب الكبرى. وأثارت هذه الاتهامات القيادة القطرية التي اتهمت الدروز أنفسهم بأنهم هم الذين يثيرون النزاع الطائفي.

وربما كان من الممكن احتواء مشاعر حاطوم بالاحباط، غير أنها بدأت تشكل تهديداً عندما راح ينحاز إلى البعثيين القدامى من أنصار عفلق المطاح بهم والذين كانوا بدورهم يبحثون عن حلفاء عسكريين. وكان منيف الرزاز لا يزال مختفياً في دمشق، وبتشجيع من الخارج، من أعضاء القيادة القومية الذين استطاعوا الهرب إلى بيروت بدأ يجمع المتعاطفين معه، ويتصل خصوصاً ببقايا مؤيديه في الجيش. وكانت خطوته التالية إقامة لجنة عسكرية تابعة له ترأسها ضابط درزي آخر هو اللواء فهد الشاعر الذي كان رجلاً ذا تفكير مستقل وميول تتعاطف مع عفلق، وكان في السابق نائباً لرئيس الأركان وقائداً للجبهة السورية المواجهة لاسرائيل.

ولكن الشاعر على أية حال لم يكن موهوباً في حبك المكايد السياسية.. وكانت المؤامرة تمر بظروف صعبة غير مؤاتية إلى أن تلقت دعماً من جانب غير متوقع. فقد اتصل بالشاعر ضباط مقربون من حاطوم واقترحوا عليه ضم قواهم إليه ضد جديد والأسد. وكان حاطوم والشاعر ضابطين درزيين من جيلٍ واحد، ولكن الشبه بينهما لم يذهب إلى أبعد من ذلك. فلقد كان الشاعر جندياً رصيناً متزناً خريج أكاديمية عسكرية سوفياتية، وكان حاطوم بالنسبة إليه شريكاً مفزعاً لأنه غاضب ومتهور. غير أن عرضاً بالمساعدة يأتي من محارب مجرب لا يزال

رجاله الكوماندوس يحرسون منشآت حيوية هامة كان هدية من السماء. وبالاضافة إلى ذلك فقد تحدث حاطوم عن تجميع وقتل الشخصيات الهامة في النظام، وهذا أمرٌ لم تكن طبيعة الشاعر تطيقه.

وهكذا وضعت خطط انقلاب، ولكن في كل مرة حدّد فيها تاريخ مقترح كان يحدث خطأ ما. حددوا أولاً يوم ١/ حزيران ـ يونيو سنة ١٩٦٦ ليلة خميس/جمعة عندما يكون كثير من الضباط متجهين إلى بيوتهم لزيارة عوائلهم، ولكن في اللحظة الأخيرة برزت مخاوف من تدخل اللواء المدرع في حمص جعلت الموعد يتأجل. ثم أُرْسِلَ حاطوم إلى كوبا على رأس وفد سوري في مهمة استغرقت شهراً فلم يعد إلاّ في ٤ آب ـ أغسطس سنة ١٩٦٦. وكان قبل مغادرته قد قام بعمل طفولي فحذّر شركاءه بأنه سيفشي كل شيء للسلطات إذا تم تنفيذ الانقلاب بدونه.

وأعيد تحديد يومِ الانقلاب في ٣ ايلول/ سبتمبر، ولكن قبل أن يتم تنفيذه اكتشفته السلطات فعلاً. وكانت الطريق التي وصل بها إلى انتباههم تدل على أشياء كثيرة عن الأوضاع في صفوف هيئة الضباط السوريين في الشهور التي سبقت النزاع الكبير مع إسرائيل.

كان أحد المقربين من حاطوم درزياً آخر هو العقيد طلال أبو عسله، وكان عندئذٍ قائداً للقطاع الشمالي من الجبهة. وكان شخصاً مرحاً يحب صحبة ضباط أصغر منه. وذات مساء في آب/أغسطس دعته مجموعة منهم إلى حفلة شربوا فيها عرقاً حَلَّ عقدة ألسنتهم وبدأ بعض شبابهم (المؤيدين للرزاز والشاعر سراً) بِشَتْمِ جديد والأسد والقيادة الجديدة. بينما هبّ آخرون للدفاع عنهم، وانفجر الشجار بينهم.

وفي الصباح التالي أرسل مؤيدو جديد خبراً عما حدث إلى مقر القيادة في الأركان وجاء رئيس الأركان أحمد سويداني للتحقيق فألقي القبض على نصف دستة من المتشاجرين وسيقوا للمثول أمام محكمة تحقيق عسكرية كان من بين

أعضائها سليم حاطوم نفسه. أي أن المتامر بدأ يلعب دور المحقق في استجواب تمثيلي صوري، أخذ حاطوم خلاله يتظاهر بضرب الضباط وهو يهمس في آذانهم في الوقت نفسه قائلاً: «سوف أقتل كل من يتكلم». ولم يكتفِ بحماية مؤيدي الشاعر بهذه الطريقة، بل أصدر أمراً بنقل أحد مؤيدي جديد البارزين المشتركين في الشجار من الجانب الآخر، وبإبعاده عن الجبهة.

كان صلاح جديد يتابع القضية من دمشق، وقد شمَّ رائحة طبخة كريهة. فعين لجنة تحقيق جديدة كان من بين أعضائها هذه المرة عبد الكريم الجندي رئيس جهاز الأمن القومي الذي لا يرحم، فقامت بعملها بطريقة أكمل وأكثر وحشية. فضرب الضباط الشبان ضرباً مبرحاً حتى انهار واحدٌ منهم واعترف في ٢٠/ آب سنة ١٩٦٦، وهو الرائد محمد نعيمي، الشاب البسيط من أصل بدويّ... فأعطى أسماء عشرة ضباط مشتركين في المؤامرة. وأعطى كل واحد من هؤلاء بدوره أسماء آخرين حتى وصل مجموع الموقوفين إلى مائتين، وكان كثيرون منهم دروزاً، ليس بسبب حملة ضد الدروز ولكن لأن الشاعر ـ لأسباب تتعلق بالأمن ـ كان يميل إلى كسب الأنصار بالدرجة الأولى من طائفته المنطوية على نفسها بشكل محكم.

واختفى اللواء فهد الشاعر، كما هرب البعثيون المدنيون للنجاة بأرواحهم. فاستطاع البيطار أن يهرب إلى بيروت من دار الضيافة في شارع بغداد حيث كان محتجزاً مع غيره منذ انقلاب ٢٣ شباط/فبراير. وتم تهريب الدكتور منيف الرزاز أيضاً عبر الجبال إلى لبنان. وكان يعاني من صدمة نفسية. وكانت فترة اختفائه قد أفقدته التوازن وأصابته باكتئاب انعكس أثره في الضغينة التي شجب بها قادةَ سوريا الجدد وهاجمهم في كتابه «التجربة المرة». وقد أصبح ذلك الكتاب رغم ذلكَ مصدراً هاماً من مصادر الاطلاع على الأوضاع السياسية الداخلية في حزب البعث[٤].

وكان من بين البعثيين القدامى الذين اختفوا في سوريا في ذلك الوقت

أحمد رستم الذي استضاف رعيل «الحرس القديم» من زعماء البعث في حفلة غداء في قرية سرغايا في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٦٥ وبينما كان هارباً استطاع أن يؤلف كتابين مدرسيين أقرتهما وزارة التربية! ومن مخبئه تحدث بالهاتف مع عبد الكريم الجندي وشتمه وقال له: «عندي خمس وخمسون دبابة» فصرخ به الجندي مجيباً: «إذا كان لديك ست وخمسون فاخرج وقاتل!»(٥).

ولكن كان للقضية ملحق عَرَضٍ جديد والأسدَ والنظام كلَّه للخطر. فقد أدى تطهير الجيش من الدروز إلى ضجة كبرى في العاصمة الدرزية السويداء، حيث أرسل فرع الحزب مذكرة غاضبة ناقمة إلى صلاح جديد تطالب بإعادة الضباط. ولتهدئة الأمور أعلن صلاح جديد أنه سيسافر بنفسه إلى السويداء، مصطحباً معه رئيس الدولة الدكتور الأتاسي، وكذلك جميل شيّا العضو الدرزي الوحيد في القيادة القطرية.

وكانت هذه فرصة حاطوم. كان جناحه في المؤامرة لم ينكشف بعد. غير أنه خشي أن ينكشف بسرعة ويُسْجَن، فقرر مع أصدقائه أن يصطادوا جديد والآخرين في السويداء ويطيحوا بالحكم.

وأجرى حاطوم بعض الترتيبات التمهيدية، فطلب من طلال أبو عسله أن يسيطر على الجبهة بكتيبة دبابات، بينما أصدر تعليماته لضابط آخر من المتصلين به، وهو مدير المخابرات العسكرية، مصطفى الحاج علي أن يستولي على كتيبة الكوماندوز التابعة لحاطوم نفسه ويتأكد من وجود معسكر قطنا الهام في أيد صديقة. ثم توجه حاطوم إلى السويداء قبل جديد، وتوقف عند وحدة دبابات في حوران، وأقنع آمرها إبراهيم نور الدين بقطع طريق السويداء بعد عبور جديد وأصحابه. وهكذا ففي ٨ أيلول/سبتمبر، وبينما كان جديد قد جمع عدداً كبيراً من الشخصيات المحلية البارزة في مكتب قيادة فرع الحزب في السويداء، دخل عليهم فجأة سليم حاطوم، وبيده مدفع رشاش وهدد بأن يحصدهم برصاصه جميعاً وتبع ذلك ذعر وصراخ، وأخيراً تمكن كبار زعماء

الدين الدروز من ضبط حاطوم لأنهم لم يقبلوا أن يتعرض للأذى ضيوف في حمايتهم. ومع ذلك فقد حُبِسَ صلاح جديد والآخرون تحت الحراسة في منزل أحد الحزبيين بينما سيطر حاطوم بمساعدة رئيس فرع المخابرات العسكرية بالسويداء على مقر الحامية في القلعة وألقى القبض على الضباط العلويين هناك وجردهم من رتبهم.

ولكن حاطوم المنتصر مؤقتاً لم يكن قد حسب حساب الأسد.

فبينما كانت هذه الدراما تجري في السويداء وصل خبر تمرد حاطوم إلى أسماع الأسد في وزارة الدفاع بدمشق، فتحرك بسرعة وحسم لانقاذ جديد والنظام نفسه، فأرسل نفاثات سلاح الجو لتحوم فوق قلعة السويداء، وأمر اللواء المدرع السبعين المتفوق أن يسرع جنوباً إلى جبل الدروز، وتبع ذلك حديث غاضب بالهاتف بين الأسد في دمشق وحاطوم في السويداء، حيث طالب الأخير بتطهير الحزب من الجديديّين وبأن يعود إلى القيادة القطرية الماركسي حمود الشوفي، الذي كان درزياً مثل حاطوم نفسه. غير أن سماع صوت الطائرات جعل حاطوم يدرك أن قضيته خاسرة حتماً. فمهما تكن نتيجة المعركة فستتعرض السويداء إلى القصف من الجوّ، وستصاب طائفته الدرزية بالأذى. وهكذا أخذ الطريق الوحيدة إلى الخارج، الطريق جنوباً نحو الأردن حيث أعطاه الملك حسين ـ الذي لم يكن صديقاً للنظام في دمشق ـ حق اللجوء السياسي ومعه دزينتان من رفاقه. وفي الأيام القليلة التالية قام حاطوم وأبو عسله من مأمنهما في عمان بتغذية اللهيب في سلسلة من المقابلات الصحفية شجبا فيها التطلعات العلوية وطموحاتها التي أعلنا أنها أوصلت سوريا إلى حافة الحرب الأهلية.

أما كيف عرف الأسد بمحنة جديد في الوقت المناسب بحيث أرسل طائرات سلاح الجو من دمشق لإنقاذه فقد ظل ذلك لغزاً. وتقول إحدى الروايات ان سائق جديد ـ بحجة جلب علبة سجاير من السيارة ـ هرب بها ثم

نبّه دمشق إلى ما جرى، بعد أن تمكّن من اجتياز حاجز الدبابات على الطريق. وتقول رواية أخرى أن مصطفى الحاج علي قد خان المتآمرين ونبه الأسد بالهاتف. ومن المؤكد أنه فشل في السيطرة على كتيبة الكوماندوز التابعة لحاطوم ليضمن بذلك وقوف قطنا إلى جانب حاطوم. وعلى كل حال فإن الأسد إذا كانت لديه موانع حالت بينه وبين استخدام سلاح الجوّ ضد عفلق وأمين الحافظ في شباط ـ فبراير سنة ١٩٦٦، فإنه لم يكن لديه اية موانع من حشد ذلك السلاح ضد حاطوم في أيلول/ سبتمبر.

وهكذا أدى عمل الأسد السريع إلى إنقاذ الوضع، وكسب امتنان جديد وثقته، وبعد ذلك بدأ هو وجديد في حملة تطهير جماعية أخرى لهيئة الضباط السوريين، فكان من بين المطرودين ما لا يقل عن تسعة وثمانين عضواً من التنظيم العسكري الذي كان الأسد نفسه قد بناه، غير أنه أصبح يشك في ولائه.. وألقي القبض على عشرات آخرين، واستمر التطهير إلى ما بعد دخول عام ١٩٦٧. وكانت الطائفة الدرزية ساخطة في الأصل قبل هذه الأحداث والحملة التي أعقبتها، فازداد سخطها بحيث شل العمل الحزبي في جبل الدروز لعدّة أشهر، وتأثر الزعيم الدرزي الكبير سلطان باشا الأطرش، إلى حد أنه كتب خطاب احتجاج مفتوحاً إلى هيئة الأركان في دمشق في كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٦٦[٦]. وكان الأسد، باعتباره وزيراً للدفاع، قد وافق على طرد حوالى أربعمائة ضابط في أضخم حملة تطهير عرفها الجيش السوري في تاريخه. فقد كان هو وجديد مصممين على وضع حد نهائي للطائفية دفعة واحدة، فإذا أضيف هؤلاء إلى الناصريين والانفصاليين الكثيرين الذين صرفوا من الخدمة أو اعتقلوا منذ عام ١٩٦٣ فسيتضح أن سوريا قد انزلقت في حرب حزيران/ يونيو بدون هيئة ضباط أو على الأقل بهيئة مستنزفة استنزافاً عظيماً.

وبعد لأي ألقي القبض على فهد الشاعر نفسه واسيئت معاملته حسب بعض التقارير. وقيل إنه أُجْبِرَ على الحبو على أطرافه الأربعة كالحيوان في وسط

ماء قذر بينما كان معذبوه راكبين فوق ظهره. وفي آذار - مارس عام ١٩٦٧ مثلت أعداد كبيرة من المتهمين أمام محكمة عسكرية يترأسها المقدم مصطفى طلاس، صديق الأسد الذي ميّز نفسه في السابق في مهمة مماثلة بعد اضطرابات حماه في عام ١٩٦٤. وقد حكَم على فهد الشاعر بالاعدام بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم، وكذلك على سليم حاطوم وطلال أبو عسله غيابياً. وقد خلق الشاعر ضجة في المحكمة عندما تحدى صلاحية المحكمة، غير أن حكم الإعدام ضده لم ينفذ في آخر الأمر.

وبعد شهرين فقط كانت سوريا تخوض الحرب. وهي حرب كان من بين مصائبها المرعبة الكثيرة أنها كتبت حاشية مروعة لقصة سليم حاطوم. ففي اليوم السادس من الحرب أعلن أنه عائد إلى سوريا ليقاتل، وسافر مع جماعة من مؤيديه من الأردن إلى السويداء، ولعله قد تصور بسذاجة أن الحرب قد مسحت صفحة الماضي، وربما كان - كما يقول خصومه - يأمل أن يربح ويستفيد من الدمار. وعلى أية حال فقد لاقاه ضباط الأمن واقتادوه إلى دمشق حيث سيق للمثول أمام محكمة طلاس العسكرية التي أكدت عليه حكم الإعدام. وقد قام عبد الكريم الجندي بتكسير أضلاعه قبل إرساله لتطلق عليه النار وهو نصف حيّ في الخامسة من صباح ٢٦ حزيران - يونيو عام ١٩٦٧. ولعل هذه الوحشية كانت هي انتقام الجندي من الاهانات التي وجهها إليه حاطوم. فعندما كان حاطوم يشهّر بالحكومة السورية من عمان اتصل بالجندي هاتفياً بوقاحة، وطلب منه أن يرسل إليه زوجته لتنضم إليه؛ وعندما رفض الجندي انهال عليه حاطوم بشتائم مقذعة. وكان آخر طلب لحاطوم قبل موته هو السماح لزوجته بالاحتفاظ بوظيفتها كمعلمة لتتمكن من تربية أطفالهما. ولقد لعب الأسد دوراً هاماً وحساساً في إحباط مؤامرة حاطوم وفي حملة التطهير الضخمة التي أعقبتها. ولكنه لم يوافق على النهاية الوحشية التي آلت إليها. وبعد ذلك بثلاثة أعوام، وعندما أصبح رئيساً لسوريا، استقبل أرملة حاطوم، ومنحها معاشاً.

عشية الحرب

عشية حرب حزيران/ يونيو كان القادة السوريون في حالة عصبية متأزمة، يعود جزء منها إلى النقمة والسخط اللذين كان لهم حق الشعور بهما، والانهاك، والانفعال والخوف فقد رأوا أنفسهم ضحايا مؤامرات يدبرها الضباط المنافسون، والقوى الدينية المتشددة، وطبقات ملاك الأرض الذين شردوهم، وذلك بدعم من الملوك الرجعيين ووكالة المخابرات المركزية الأميركية.

هذا وقد اقتنعوا قبل كل شيء بأن إسرائيل قد أعطيت دوراً خاصاً في عملية تحطيم ثورتهم. ولقد كان بعض تلك المشاعر المرضية صحيحاً وله أساس. وبالرغم من أنهم لم يعرفوا ذلك في حينه، فإن إسرائيل كانت قد تمكنت من حل شيفرتهم، وكانت تراقب اتصالاتهم بشكل روتيني منظم. ولذلك فقد كانت تعي جيداً الحالة الحرجة الخطرة التي وجدت فيها الحكومة والجيش السوريان نفسيهما. إذ كان هناك جاسوس إسرائيلي هو إيلي كوهين يعمل في صميم مركز الشؤون السورية، وقد أعطى إسرائيل تفاصيل وصور التحصينات في الجولان قبل أن يتم القبض عليه وإعدامه في عام ١٩٦٥(٧). أما الأعداء المحليون فقد كانت مؤامرة حاطوم دليلاً كافياً على وجودهم، وكذلك التحركات التخريبية للبعثيين القدامى؛ ولقد أرغمت قيادة دمشق على قضاء عدة أسابيع قلقة وهي تحاول «استعمال الدخان» من أجل إخراج أعدائها من أوكارهم.

وكان صحيحاً أيضاً أن الملك حسين والملك فيصل كانا يأملان في أن أيام البعث باتت معدودة، وخلال الأعوام الأربعة التي انقضت منذ مجيء الحزب إلى السلطة في سنة ١٩٦٣ هرب من البلد آلاف من السوريين الساخطين فلجأوا إلى الأردن والسعودية ولبنان حيث بدأوا يحركون العداء ضد الثوريين المتشددين في دمشق.

وأصبح الأردن آنئذٍ مركزاً لكثير من التآمر المضاد لسوريا. فمن هناك

كانت محطة إذاعة سرية تدعو السوريين للثورة على حكامهم. ومن هناك راح حاطوم يجمع الأصدقاء والأموال لمؤامرته. وقد قال زميله أبو عسلة في الصحافة المصرية فيما بعد، ان السعودية وأميركا قد تآمرتا مع حاطوم ضد الحكومة السورية. وشعرت سوريا بأنها محاصرة. وصارت هجماتها الاعلامية لشجب جيرانها تأخذ طابع الحدّة الهستيرية، فأخذت ترد بتدبير أعمال إرهابية ضد خصومها. ففي ٢١/ أيار ـ مايو انفجرت سيارة مفخخة في مركز الرمثا الحدودي فقتلت واحداً وعشرين أردنياً، وبعد يومين أغلق الأردن السفارة السورية وطرد السفير من عمان.

غير أن المؤامرات الأجنبية لم تكن بلايا سوريا الوحيدة، ولا أشد هذه البلايا. فقد استيقظت سوريا متأخرة جداً على احتمال هجوم إسرائيلي شامل ـ وبدأ حفر خنادق في دمشق، وتم تجميع الشباب والشابات في كتائب دفاعية، وجربت غارات جوية وهمية، ووزعت الأسلحة الخفيفة على ميليشيات المقاومة الشعبية، وفي هذا الوقت بالذات اهتزت سوريا بتمرد المواطنين الغاضبين الساخطين.

فقد بدأت المتاعب في ٢٥/نيسان ـ إبريل سنة ١٩٦٧، عندما نشرت مجلة جيش الشعب مقالاً يسخر من الدين ويعتبر الله «دمية محنطة في متحف التاريخ». وانتشر شعور بالفزع والنقمة جعل أكبر علماء الدين وشخصياته في سوريا، الشيخ حسن حبنكة، يقود في شوارع العاصمة مظاهرة احتجاج اشترك فيها عشرون ألفاً. فألقي القبض عليه فوراً، ولكن السوق أضرب تأييداً له. وردّ النظام بمصادرة ممتلكات أصحاب الدكاكين المضربين وطرد دبلوماسيَّيْن سعوديَّيْن اتهما بالتواطؤ في الشغب وكان محتوماً أن تلام وكالة المخابرات المركزية الأميركية وتتهم بأنها هي التي أوحت بذلك المقال. وحكم على كاتب المقال ومحرر المجلة بالأشغال الشاقة المؤبدة (وقد أطلق سراحهما فيما بعد).

وكأنما لم تكن هذه المشاكل والاضطرابات كافية، فقد كانت الحكومة

السورية آنذاك غارقة إلى أذنيها في مفاوضات عويصة مع شركة نفط العراق (IPC)، وشركة التابلاين لتأمين مزيدٍ من العائدات نظير نقل نفط العراق والعربية السعودية عبر الأراضي السورية. وقد جرت المساومات المالية في جو سياسي محموم. وبالنسبة للشباب المشحون المعبأ بالشعارات كانت «معركة النفط» واحدة من الوقائع المجيدة في حملة العرب لتحرير أنفسهم من قبضة الغرب. وبحلول شهر كانو الأول/ ديسمبر سنة ١٩٦٦ كانت المفاوضات قد وصلت إلى طريق مسدود، وكانت الحكومة قد استولت على ممتلكات شركة نفط العراق IPC وأوقفت تدفق النفط عبر الأراضي السورية، وراحت تحث حكومة العراق على تأميم صناعة النفط. وكانت معركة انتزاع مبلغ أربعين مليون جنيه استرليني كدفعات متأخرة من براثن شركة نفط العراق ـ معركة قاسية ومتعبة إلى درجة أن أمين سر الوفد السوري (الذي كان مسؤولاً عن الترجمة وعن كتابة محاضر الجلسات جميعاً) قد أغمي عليه مرتين. وكانت تلك الجلسات بحضور رئيس الوزراء الدكتور يوسف زعين. وفي آذار ـ مارس ١٩٦٧ كانت شركة نفط العراق قد وافقت على زيادة في عائدات المرور قدرها خمسون بالمائة. فكان ذلك نصراً لسوريا أكسب قادتها بعض الاحترام. ولكن المساومات استمرت إلى يوم الخامس من حزيران/ يونيو نفسه. والواقع أن د. يوسف زعين كان في طريقه إلى اجتماع مع فريق شركة نفط العراق المفاوض عندما قيل له أن سوريا قد أصبحت في حالة حرب[٨].

هكذا كانت سوريا، موزعة الاهتمامات والهموم، مقسمة، معذبة، عندما انفجرت فوقها الصاعقة الإسرائيلية.

هوامش الفصل الثامن

(١) كان من بين موظفي الخارجية الذين نجوا من "التطهير" موفق العلاف، وأديب الداوودي، وضياء فتال، وصباح قباني، وفريد لحام وزهير المرابط. ومنذ عام ١٩٧٤ فصاعداً قام الأسد بترفيع هؤلاء الدبلوماسيين الدمشقيين السنيين وتعيينهم في مناصب كبيرة وبارزة في الخارج.

(٢) لوموند ١٣/٧/١٩٦٦.

(٣) هذه المعلومات عن خلفية حاطوم وسير وقائع مؤامراته مستقاة جزئياً من مقابلات في السويداء (في ٢٩/٤/١٩٨٥) مع نجيب البحري، الذي كان أمين سر لسلطان باشا الأطرش، وتوفيق عبيد، صديق حاطوم من أيام الطفولة.

(٤) توفي الرزاز في العراق عام ١٩٨٤ بينما كان رهن الاقامة الجبرية في منزل.

(٥) مقابلة مع أحمد رستم في سرغايا في ٢٩/٨/١٩٨٤.

(٦) نيقولاس فان دام: **الصراع على السلطة في سوريا** (طبع لندن ١٩٧٩)، ص ٧٧.

(٧) عاموس بيرلمطر: «بعض الجواسيس قد يخدعون أنفسهم أيضاً» ـ مقال في صحيفة الانترناشنال هيرالدتربيون في عددها الصادر في ٨/٧/١٩٨٥.

(٨) مقابلة مع أسعد كامل الياس بدمشق (في ١٤/آب سنة ١٩٨٤) الذي كان أمين سر الوفد السوري المفاوض. وهو الآن مستشار صحفي للرئيس الأسد.

الفصلُ التاسعُ

الانتصار السهل في حزيران

بعد خمسة عشر شهراً من شغل منصب وزير الدفاع ، قدر للأسد أن يشترك في تفجير أزمة عالمية عظمى هي حرب حزيران / يونيو التي قيض لها أن تغيره بنفس العمق الذي غيرت به البيئة العربية كلها . . فقد أيقظته الصدمة أكثر من أي شيء آخر ، وحولته من انقلابي محدود الأفق إلى مخطط ومفكر استراتيجي في ميدان السياسة الدولية .

وكان الجيش الذي ورثه الأسد في عام ١٩٦٦ غير مؤهل للحرب تماماً كما كان الأسد نفسه . فقد كان قوة سيِّئة التدريب ، ناقصة الضباط تعدادها ٥٠,٠٠٠ رجل ، وقد جرى تجهيزها «بطريقة رخيصة» من الاتحاد السوفياتي بأسلحة كانت قيد التنسيق في الجيش الأحمر . كان لدى هذا الجيش ٥٠٠ دبابة ، نصفها فقط صالح للاستعمال ، تدعمها ١٠٠ طائرة ميغ ١٧ ولكن بدون أي قذائف للدفاع الجوي ، ولا أسطول يذكر . بَيْدَ أَنَّ أخطر ضعف كان يكمن في هيئة الضباط الممزقة التي أقعدتها حملة التطهير التي نفذها الأسد نفسه في أعقاب المؤامرات العسكرية في أواخر عام ١٩٦٦ . وحتى بعد ذلك الفصد فإن القيادة لم تكن موحدة بحال من الأحوال . فالأسد كوزير للدفاع كان لا يزال بعيداً عن كونه هو المسؤول الأوحد عن منصبه هذا . فرئيس أركانه أحمد سويداني لم يكن رجله هو ، بل كان يدين بالولاء لصلاح جديد ، كما كان

الحال بالنسبة لضباط هامّين آخرين . ولا شك في أن إدارة سوريا للحرب قد تضررت بهذا الانقسام في التسلسل القيادي العسكري . وهكذا كان أن واجه الأسد ، وهو أشبه برئيس اسمي لقوة مهلهلة ماكينة حرب اسرائيلية مضبوطة التناغم بشكل محكم وجاهزية عالية .

فمنذ حملة السويس وخلال أكثر من عشرة أعوام أقامت اسرائيل قوات تستطيع أن تتحرك بسرعة وتضرب بقسوة : وحدات مدرعة متحركة قادرة على قطع مسافات طويلة وقوات مشاة محمولة مؤلَّلَة ، ومظليون يمكن نقلهم جواً بالطائرات المروحية وبالبحر لاستخدامهم خلف خطوط العدو ، وفوق كل شيء كان لديها سلاح جوي (معظمه طائرات ميراج فرنسية وطائرات اعتراضية وقاذفة ـ مقاتلة من طراز ميستير ـ) ذو تفوق غير منازع . كان الدرس الأساسي الذي تعلمته اسرائيل من حرب السويس هو الأهمية الحيوية للسيطرة على الجوّ، ليس فقط من أجل تحييد القوى الجوية العربية، ولكن لاستخدام الطائرات كمدفعية طائرة ضد المشاة والدبابات العربية . وبينما لم يكن لدى الدول العربية أي عقيدة متماسكة أو استراتيجية ما ، سواء للهجوم أو للدفاع ، كانت القوات الاسرائيلية قد أُعدت وفقاً لعقيدة عسكرية تقوم على تعويض نقص المساحة والسكان لدى اسرائيل إذ ابتكرت استراتيجية الاستباق لتضمن أن يجري القتال على أرض عربية لا اسرائيلية .وكان مصدر قوة هذه الاستراتيجية هو اتقان نظام استدعاء الاحتياط وهو نظام أُرسي منذ أوائل الخمسينات ويهدف إلى توفير عبء بقاء جيش كبير عامل ، وبذلك أصبح، بحلول ١٩٦٧، بالامكان تعبئة نصف مليون رجل بسرعة خاطفة . ولما كان الافتراض لدى اسرائيل هو احتمال لجوئها إلى الحرب كل بضع سنوات في سبيل الابقاء على العرب ضعفاء كان هناك قبول للفكرة القائلة بأن على اسرائيل أن تستغل هذه النزاعات من أجل الحصول على حدود استراتيجية أفضل .

كانت قوات اسرائيل المسلحة في عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧ بقيادة هيئة ضباط

كبيرة وخبيرة كان من بعض نجومها رئيس الأركان اسحق رابين ، ونائبه حاييم بارليف ، ومدير العمليات إيزر وايزمن ، وقائد القوة الجوية مردخاي هود ، ومدير المخابرات العسكرية آهارون ياريف، ورئيس الموساد مئير عاميت . وكان العديد من هؤلاء ضباطاً منذ الأربعينات ويعود تاريخ تدربهم العسكري مع القوات البريطانية إلى أيام الحرب العالمية الثانية . كانت الحرب مهنتهم وحرفتهم . وبينما كانت سوريا قد تعرضت لحالة من الثورة والغليان المضطرب شبه الدائم منذ عام ١٩٤٨ ـ كانت اسرائيل طيلة تلك الفترة قد بنيت بقوة على يد ديفيد بن غوريون العنيد ذي الطبع الاستفزازي . ولم يكن الطرفان متعادلين أيضاً في علاقاتهما الدولية . كانت سوريا معزولة حتى ضمن العالم العربي بينما كانت اسرائيل قد كسبت أصدقاء متعاطفين معها على كل قارة . وللحصول على أسلحة ذات تقنية عالية نسجت علاقات صداقة مع فرنسا في الخمسينات وهي علاقة لعب فيها شيمون بيريز دوراً قيادياً ، أما في الستينات فقد أشرف رابين على الانتقال إلى شريك أكثر فائدة هو الولايات المتحدة . وفي تلك الأثناء كانت سوريا تتلقى إمدادات السلاح من الاتحاد السوفياتي ولكن في علاقة تتميز لدى الطرفين بالشك والحيرة والارتباك .

وعندما تولى الأسد وزارة الدفاع كان يعرف أن سوريا كانت أضعف من جارتها القويـة . والواقع أن حقيقة اسرائيل ألقت بظلها على تجربة سوريا بأكملها في الاستقلال منذ الحرب العالمية الثانية . فيوم تعيين الأسد كانت المدافع السورية والاسرائيلية قد تبادلت نيرانها عبر الحدود . وكانت تلك آخر واقعة في حينها من سلسلة كاملة من الاشتباكات الدامية المؤلمة . غير أن الأسد لم يدرك مدى خطورة تلك اللحظة بالذات في أوائل ذلك الصيف من عام ١٩٦٧ ، ولم يكن يعلم أن اسرائيل ستستعمله كطعم لتوقع في فخها عدواً أكبر ، هو عبد الناصر . وهكذا استُخدمت سوريا في شهر حزيران كسمكة صغيرة لاصطياد السمكة الكبيرة .

حوادث الحدود

نَشَأَتْ حرب حزيران / يونيو من شيء صغير ومحلّي : من صراع حدود صغير متواصل مستمر لا يهدأ بين سوريا وإسرائيل . فمنذ عام ١٩٤٩ كان هناك احتكاك على الحدود حول ثلاث قطع من الأرض تقع على التوالي على شواطيء بحيرة طبريا ، وقرب مستنقعات الحولة في الشمال وإلى الشمال أيضاً على رأس ما يسمى «إصبع الجليل» . كانت خطة تقسيم فلسطين التي أقرتها الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ قد وضعت هذه الجيوب الثلاثة على الجانب «الاسرائيلي» من الخطّ . غير أن الجيش السوري قد احتلها وكان يديرها منذ حرب سنة ١٩٤٨ . وعلى كل حال فبموجب اتفاقية الهدنة السورية ـ الاسرائيلية سنة ١٩٤٩ انسحبت القوات السورية من هذه المناطق وجردت من السلاح ـ ولكن أمر السيادة على هذه المناطق ظل غير مقرر ولا متفق عليه . وكانت إسرائيل مصممة على السيطرة على هذه المناطق ، وتحت ستار حراثة الأرض راحت ترسل جنوداً متنكرين كفلاحين إلى داخل المناطق المجردة «لإثبات الوجود» وتحويله إلى احتلال عن طريق «خلق الحقائق» كتمهيد لضمّ المناطق المذكورة . وكان من المحتم أن تستفز هذه التحركات النيران السورية ، وعندئذ كانت إسرائيل تستخدم هذه الحجة لترد بشدة . وكان كارل فون هورن رئيس هيئة الرقابة على الهدنة التابعة للأمم المتحدة يعتقد بأن اسرائيل كان تستفز النيران السورية عـمداً[1] . ومن أبرز الغارات الاسرائيلية على المواقع السورية بهدف ضم المناطق المجرَّدة كانت غارة كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٥ التي قتل فيها ٥٠ جندياً سورياً وغارتان أخريان في شباط / فبراير ١٩٦٠ وآذار ١٩٦٢ . ولخيبة أمل سوريا المريرة الكبيرة ، كان الرأي العام العالمي يقبل هذا من إسرائيل باعتباره «دفاعاً عن نفسها» مشروعاً وجائزاً .

وكانت القطع الثلاث من الأراضي ذات أهمية استراتيجية واقتصادية لا يستهان بها ، ولكن القطعة الكائنة على بحيرة طبريا كانت ذات أهمية خاصة

بسبب قربها من نقطة بداية مشروع اسرائيل لتحويل نهر الأردن الذي كانت تطلق عليه اسم «مشروع المياه القطري». وهو مشروع بدأته في الخمسينات وكانت تطمع بموجبه أن تحول مياه نهر الأردن إلى الجزء الشمالي من صحراء النقب. كان ذلك هو الجزء المركزي من برنامج الري الاسرائيلي، وكان يُعْتَقَدُ بأنه مهم وحيوي بالنسبة لقدرتها على استيعاب المهاجرين في المستقبل. وكان مكان سحب المياه المقترح على بحيرة طبريا. وقد أثار هذا المشروع بين العرب فزعاً شديداً، إذ أنهم اعتبروه سرقة جديدة للموارد العربية (ذلك أن ٧٧٪ من مياه الأردن تأتي من روافد تنبع في الأقطار العربية) وكان العرب يخشون من أن هذا المشروع سيعزز قبضة إسرائيل على فلسطين المحتلة ويحكم على الفلسطينيين بالبقاء في المنفى على الدوام. وهكذا تشابكت المعركة على المناطق المجردة بمسألة ملكية المياه، وهذه دائماً قضية عاطفية في الشرق الأوسط، إضافةً إلى القضايا الأكبر المتعلقة بالنزاع العربي - الاسرائيلي.

وتمكنت اسرائيل بحلول ١٩٦٠، وعن طريق تصعيد النزاع باستمرار بزيادة استخدام المدفعية والدروع والطيران من أن تسيطر على معظم المناطق المتنازع عليها كما جففت بحيرة ومستنقعات الحولة، وسيطرت بشكل كامل على بحيرة طبريا، وأكملت في سنة ١٩٦٤ «مشروع المياه القطري»[٢]. وردت سوريا على فرض الأمر الواقع بالسيطرة الاسرائيلية على المناطق المنزوعة السلاح، فراحت تقصف المستوطنات الاسرائيلية في وادي الحولة، وجلبت بذلك على نفسها مزيداً من الضربات الجوية. كما شجعت الفدائيين الفلسطينيين على مهاجمة المشروع الاسرائيلي لتحويل المياه. وكانت أولى عمليات «فتح» بالذات محاولة (لم تنجح) لتخريب هذا المشروع في ٣١ / كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٦٤.

هكذا كان الوضع المتأزم الكئيب عندما واجهه الأسد بعد أن أصبح قائد

القوة الجوية السورية في الشهر نفسه . وعندما أصبح وزيراً للدفاع في شباط / فبراير سنة ١٩٦٦ كانت المشكلة قد زادت حدتها أكثر . كيف يمكن مقاومة عدو أقوى يتجه إلى التصعيد في كل فرصة ويلجأ إلى القوة بشكل روتيني منتظم ، ويسعى لتحقيق مصالحه دون أن يعبأ بمصالح الآخرين ؟ كان مأزقاً كبيراً بالنسبة له : فالدخول في معركة بالأسلحة التي تحت تصرفه كان معناه استجلاب الهزيمة . ومع ذلك فإن الركون يعني الاستسلام والاعتراف بتفوق اسرائيل في الأرض وفي الجو . وهذا خيار لم يكن الأسد ولا زملاؤه قادرين حتى على التفكير فيه .

وظل الأسد كوزير دفاع مشغولاً بالحدود بصورة يومية ، وسواء أكان السبب كامناً في تصلبه هو أم اعتزام اسرائيل تلقين نظام البعث الجديد درساً ، فإن الحوادث صارت اكثر عنفاً وتكراراً في عام ١٩٦٦ . كانت هناك ليالٍ تنقضي في إطلاق نار متقطع ، واشتباكات أرضية وجوية . وتم إخلاء القرى الحدودية السورية ، وتكررت زيارات الجنرال أودبول ، رئيس هيئة مراقبي الهدنة التابعة للأمم المتحدة ، إلى الأسد في دمشق وإسحق رابين في تل أبيب . وقد تكررت احتجاجات سوريا لسفراء القوى الكبرى ، ولم يكن من وراء ذلك طائل على الاطلاق .

وسرعان ما تعلمت سوريا درساً من ضعفها وانعدام الأصدقاء لديها . فعندما حاولت أن تقوم هي بدورها بتحويل الروافد رداً على مخطط اسرائيل استخدم رابين نيران مدفعية الدبابات البعيدة المدى ضد التجهيزات السورية ثم أغلق المشروع كله بغارة جوية على الأشغال الهندسية في ١٤ / تموز / يوليو سنة ١٩٦٦ مستعملاً الوسيلة التي لم يكن الأسد يستطيع استعمالها بصورة معاكسة . وأخذت سوريا المسألة إلى مجلس الأمن حيث ادعت اسرائيل بأنها قد هوجمت من قبل فدائيين تدعمهم سوريا . ولخيبة أمل سوريا المريرة فشل المجلس في إدانة إسرائيل .

كان العدو يملك قوة نيران مدفعية وطيران أكثر من سوريا على الأرض وفي الجو ، وأصواتاً أكثر من سوريا في الأمم المتحدة ، ولذلك أعلن قادة سوريا تحديهم بعقيدة قتالية جديدة ولكنها غير واقعية نوعاً ما : قالوا إنهم لن يضيعوا مزيداً من الوقت في مجلس الأمن ، بل سيردون على كل تحرك اسرائيلي بضرب أهداف في داخل اسرائيل . وقد استلهموا نموذج الجزائر وفيتنام فبدأوا يعلقون آمالهم في النصر النهائي على «حرب التحرير الشعبية» وكما قال راديو دمشق : «إن دمشق العربية ليست أقل بطولة من هانوي» وسرعان ما وُضِعَ هذا التحدي على المحك . ففي ١٥ / آب / اغسطس سنة ١٩٦٦ جنح قارب اسرائيلي على الجانب السوري من بحيرة طبريا ، منتهكاً بذلك اتفاقية «جنتلمان» غير مكتوبة بأن لا تقترب القوارب الاسرائيلية لمسافة تقل عن ٢٥٠ متراً من الشواطيء السورية ، فأرسل الأسد الطيران السوري للعمل ، فأسقطت طائرة بنيران أرضية ، وأخرى بواسطة «ميراج» اسرائيلية . ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي يرسل فيها الأسد طياريه إلى المعركة فيما كان عملياً مهمات انتحارية .

هكذا كان نمط عمل الأسد في الشهور الستة الأولى من توليه وزارة الدفاع . كانت اسرائيل تضرب سوريا على مزاجها متى أرادت وتدوس على الحقوق السورية ، ومن ثم تقف وتأخذ دور الضحية . وكانت كل تجربة الأسد في المعارك قبل حرب حزيران / يونيو لا تتعدى هذا النمط من الضربة مقابل الضربة على الحدود . وكانت قواته تخرج من تلك الاشتباكات بأنفٍ مدمّىً بين الحين والآخر ولكنه كان يتقبل ذلك لمجرد أن يبدي موقفه . أما ما لم يكن يتوقعه فهو أن تقوم اسرائيل بالقفز عدة درجات على سلم التصعيد لتوجه ضربة قاضية .

العامل المصري

كانت هناك ثلاثة عوامل حولت الشكوى المتذمرة على الحدود السورية ـ

الاسرائيلية إلى حمى مشتعلة فالعامل الأول كان يتعلق بحالة عبد الناصر المزاجية والنفسية بين ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ حيث كان مشدود الأعصاب بسبب مجموعة من المشاكل على عدة جبهات ، والعامل الثاني كان إدخال الفدائيين الفلسطينيين في حلبة النزاع ، أما العامل الثالث فكان ادراك اسرائيل الخبيث بأنه يمكن دمج العاملين الأولين وتوظيفهما لمصلحتها .

فعبد الناصر الذي استطاع عام ١٩٥٦ أن ينجو من الفخ الذي نصبته له بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، كان عام ١٩٦٦ بعبعاً لا يخيف بالنسبة لأعدائه ، (وسوبرماناً) بالنسبة للمعجبين به الذين كانوا يرون فيه تجسيداً حياً لتطلعات العرب . ولكنه ، في حقيقة الأمر ، كان قد تجاوز ذروة مجده وقوته ، وفقد السيطرة على البيئة التي كان يسودها لفترة طويلة . وكان يـواجه ، على الأخص ، تحدياً جارحاً تمثله طليعة عربية صاعدة .

كان عبد الناصر قد استقطب ولاء العرب وألهب خيالهم بوقوفه في وجه الغرب متحدياً في الخمسينات ، ولكن الثمن الذي دفعه هو أنه راح يحمل على كاهله عبء التوقع العربي العام في أنه سيتعامل مع اسرائيل بنفس الطريقة الحاسمة ولو بالحرب إذا كان ذلك ضرورياً وكان مأزقه حاداً إذ كان يعلم أن الحرب كانت أكبر من أن تتحملها الطاقات والوسائل المتاحة لديه ، وقد فعل كلَّ ما في استطاعته ليتجه بالعرب بعيداً عنها . وكان أوضح مؤشر على سياساته الحقيقية قد جاء حول مياه الأردن عندما كانت اسرائيل تستكمل «مشروع مياهها القطري» سنة ١٩٦٣ . فعندما طالبت سوريا البعثية بصوت عالٍ باتخاذ ردّ عربي قوي دعا عبد الناصر الملوك والرؤساء العرب إلى أول قمة عقدت في القاهرة في مطلع عام ١٩٦٤ كي يخنق السوريين ذوي الرؤوس الحامية في خضم من الاجماع العربي على عدم الحرب . ولمدة ثلاثة أعوام تقريباً ظل عبد الناصر يستخدم طريقة مؤتمرات القمة المتعاقبة كي يلجم السوريين ويفرض على العالم العربي سياسة دفاعية ـ حتى لا نقول سلبيـة ـ تجاه إسرائيل .

ولتهدئة الفلسطينيين وترضيتهم خلقت قمة القاهرة منظمة التحرير الفلسطينية . كان الاسم خداعاً . فبدلاً من إعطاء الفلسطينيين ضوءاً أخضر لحمل السلاح ، كان المقصود بها أن تكون نوعاً من الساحة التي يمكن تجميعهم فيها ليصولوا ويجولوا بدون ضرر ويطلقوا شيئاً من البخار الحبيس . وكان القصد من فكرة المنظمة كلها تطمين الفلسطينيين بأن قضيتهم لم تصبح طيّ النسيان ، ولتهدئة الرأي العام الوطني والقومي ولحرمان اسرائيل من التذرع بحجة للحرب(٣) .

غير أن استراتيجية الاحتواء التي طبقها عبد الناصر كانت قد بدأت تنكشف وتفقد مفعولها بحلول سنة ١٩٦٦ . وعندما أصبح واضحاً أنه لم تكن لديه خطط لتحدي اسرائيل انزلق العالم العربي إلى دوامة من التخبط الفكري وبدأت الحقائق اليقينية السابقة تهتز وتصبح موضع شك وأزمة ثقة . وأخذ الشباب العرب يتساءلون : من سيحرر فلسطين إذا لم يكن عبد الناصر يستطيع القيام بالمهمة؟ أهو زعيم عظيم حقاً أم مجرد دكتاتور مفلس، وحتى عميل أميركي؟ وكان من المؤشرات على ضعف عبد الناصر أن تخلّت عنه في منتصف الستينات منظمة قومية ظلت من أشد أنصاره طيلة عقد من الزمن ، تلك هي حركة القوميين العرب ، التي كانت أقرب شيء إلى حزب ناصري خارج مصر وظلت أداته في العديد من حملاته داخل الوطن العربي ، وخاصة ضد البعث . وكان فقده لحركة القوميين العرب فقداناً لقلب وجوهر التأييد العربي الجماهيري له . . . إذْ أن الرجال الذين كانوا يوماً مستعدين للسير خلف عبد الناصر إلى آخر الدنيا راحوا يشككون به علناً ثم استداروا إلى اليسار بصورة حادة .

واستدار عبد الناصر نفسه إلى اليسار ، ربما على أمل استعادة المنشقين عنه ، ومدفوعاً بالتأكيد بما كان يراه من تآمر امبريالي يتجمع ضده . وكان سبب قلقه كامناً في جبال اليمن حيث كانت قواته مشدودة إلى مكانها في حرب موحلة فوضوية ضد القبائل الملكية التي تدعمهاالسعودية . كان قد أرسل جيشه ليدعم

الجمهورية العربية اليمنية الفتية بعد ثورة سنة ١٩٦٢ ضد نظام الإمام وظل هناك منذ ذلك الحين غارقاً في صراع استنفذ موارده ، وأفسد قواته وحرمه من حرية التحرك والمناورة على جبهات أخرى . وكانت مبارزته غير المباشرة مع الملك فيصل ، العاهل السعودي قد بدأت تستبد به وتقلقه بينما أخذ يرى زعامته على الصعيد العربي تذوي . وبلغ من استماتته في محاولة إرغام فيصل على التخلي عن الملكيين اليمانيين أنه هدد في منتصف سنة ١٩٦٦ بغزو السعودية نفسها ، وكانت تلك حركة أفزعت ونبهت حلفاء فيصل الأميركيين الذين كانت حقول النفط عندهم ذات أهمية حيوية لمصالحهم .

وبالنسبة لعبد الناصر لم يكن الصراع في جزيرة العرب محلياً محضاً ، بل كان جزءاً من هجوم أميركي على نطاق العالم كله موجّه ضد حركات التحرر في آسيا وإفريقيا . فصديقه أحمد بن بيللاّ أطيح به ، وسوكارنو في اندونيسيا سقط ، وقد خفض الامبرياليون أسعار الكاكاو لإزاحة نكروما من غانا ، ثم إن زعيم المعارضة المغربي ، وهو المهدي بن بركة ، الشخصية المشهورة المحترمة بين زعماء العالم الثالث ، إغتيل في فرنسا في مؤامرة دبرها عملاء مغاربة وفرنسيون وإسرائيليون . وإذ اقتنع عبد الناصر بأنه أيضاً على قائمة المستهدفين من قبل الغرب ، فقد بدأ يجنح نحو الاتحاد السوفياتي ودعا ثوار جبهة التحرير الفيتنامية إلى فتح مكتب لهم في القاهرة في أيار مايو سنة ١٩٦٦ . ولم يدرك عبد الناصر أنه باستعدائه للولايات المتحدة فقد خسر قوة الكبح التي كان يمكن أن تمارسها هذه ضد اسرائيل . وفعلاً بدأت واشنطن تعتبر عبد الناصر مشاغباً مؤيداً لموسكو قد يكون تأديبه مفيداً للجميع ، وكانت اسرائيل ، لأسبابها الخاصة بها ، سعيدة في أن تؤيد مثل هذا الرأي .

وهكذا كان عبد الناصر المحاصرَ الذي يبحث عن طريقة ما تعيد له أمجاده جزءاً من المشهد العام الخطر للمنطقة الذي دخل فيه الأسد وزيراً للدفاع في سوريا عام ١٩٦٦ . ومن المشكوك فيه أن الأسد أو أحداً غيره في

الزعامة السورية قد أدرك حقاً ما كان يساور الزعيم المصري من شعور بأنه مستهدف وعرضة للسقوط . فجُلّ ما كانوا يرونه هو أن عبد الناصر سيعمد ، إذا ما استطاع ، إلى معاقبتهم جزاء قيامهم بسحق أنصاره في سوريا . لقد كانوا ينظرون إليه بمزيج من الاقدام المتردد والارتياب الكبير . وكانوا يشكّون في أنه يتآمر للاطاحة بهم ، وأنه انهزامي بالنسبة لقضية فلسطين ، وأنه خلق منظمة التحرير الفلسطينية لتكون أداة بيد السياسة المصرية . ولم ينسوا كذلك اتصالاته بالولايات المتحدة في الخمسينات ولم يثقوا بتقربه من موسكو . وبصورة عامة ، كانوا يشعرون بأن عبد الناصر وضع نفسه في مكان آمن بعيداً عن المعركة مع اسرائيل التي كانت شاغلهم اليومي وأنه لم يزعجه كثيراً أن رآهم يعانون . هكذا كانت مواقف الأسد وزملائه التي حجبت عنه رؤ ية الأخطار القادمة . ومن المؤكد أن العلاقة السورية ـ المصرية المتأرجحة ساهمت مساهمة كبيرة في الأزمة الوشيكة .

العامل الفلسطيني

تدخل العامل الفلسطيني ليدفع إلى التدهور موقفاً بدأ يفلت زمامه . فمنذ مطلع الستينات كانت حفنة من المناضلين الفلسطينيين قد غضبت لخوف الدول العربية من الحرب فبدأت تبحث عن طرق لجعل الفلسطينيين يمسكون بزمام قضيتهم بأيديهم . وعندما أُنْشِئَتْ منظمة التحرير الفلسطينية كأسلوب لتكتيفهم بقيادة رئيسها أحمد الشقيري (المحامي كثير الكلام الذي لم يمسك ببندقية قط) حفزهم ذلك إلى إقامة منظمات بديلة كانوا يأملون أنها ستكون أكثر فاعلية . ولا شك في أن مثل هذه الحركات والتململات كان باستطاعة الدول العربية احتواءها لو استمرت استراتيجية القمة . إلاّ أن سوريا خرجت عن ذلك الخط من بين الدول العربية .

وبدعم سوري حطمت الحركة الفدائية الفلسطينية القمقم العربي وبدأت تطور زخمها الخاص بها ، فأثارت حماس الجماهير العربية . وصار حبسها ثانيةً

يبدو مكلفاً سياسياً أكثر من الضربات الانتقامية الاسرائيلية التي قد يستفزها النشاط الفدائي . وعند صيف سنة ١٩٦٦ أخذ عبد الناصر هذه الاتجاهات بعين الاعتبار فتخلى عن سياسة «احتواء الأزمة» ورفض حضور المزيد من اجتماعات القمة .

وكان أقوى الأمثلة على نفاذ الصبر الفلسطيني ياسر عرفات وجورج حبش . فبعد عدة محاولات أعلنت منظمة فتح ولادتها في ميدان النضال الفدائي في ١/ كانون الثاني / يناير سنة ١٩٦٥ . وقبل عدة أشهر اقتطع جورج حبش من حركة القوميين العرب الأعضاء الفلسطينيين ووضعهم في تنظيم منفصل أصبح نواة لما سيعْرف باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كانت قد قامت بأولى عملياتها داخل إسرائيل (ولم تنجح) في تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٦٤ . وكيلا يبقى الشقيري محروماً في هذا المجال فقد بدأ يستعد للدخول إليه بمنظمة فدائية هو الآخر ، رغم أنه كان معروفاً فقط ببلاغته الأدبية كخطيب شعبي موهوب .

ولولا المساعدة السورية لما زادت هذه الفعاليات كلها على كونها «وخزات دبابيس» لا تقلق اسرائيل ، لا سيما وأن الأردن ولبنان كانا يفعلان ما في وسعهما لمنع الفدائيين من العمل والانطلاق من أراضيهما . ففي السنوات التي سبقت حرب ١٩٦٧ ، قتلت القوات المسلحة الأردنية واللبنانية من الفدائيين الفلسطينيين أثناء ذهابهم أو إيابهم من والى أرضهم المحتلة أكثر مما قتل الاسرائيليون[٤] . ولم تفعل سوريا ما فعلته الأردن ولبنان .

كان طبع حكومة جديد ، وشعورها الوطني والقومي محموماً ساخناً وكان إحساسها بالقضية الفلسطينية عميقاً ، وقد احتلت تلك القضية مكاناً مركزياً في عقيدة البعث . كما أن مفهوم «الحرب الشعبية» التي خاضها آخرون قد اجتذب البعثيين المتشددين ، وكان تمتع منظمة التحرير الفلسطينية الرسمية التي يرأسها

الشقيري بالرعاية المصرية سبباً وجيهاً آخر جعل سوريا تدعم جماعات فلسطينية خاصة بها . هكذا كانت تجري المنافسة بين دمشق والقاهرة . وبدأت سوريا ترى في الفدائيين الفلسطينيين أدوات مفيدة في صراعها غير المتكافىء والمليء بالاحباط وخيبة الأمل مع اسرائيل على المناطق المجردة من السلاح .

وقد قام الأسد ما بين ١٩٦٤ و١٩٦٦ ، بوصفه مديراً للتسليح الجوي ومن ثم آمراً للقوات الجوية ، بتقديم بعض المساعدة لأول زمر الفدائيين الصغيرة . ويقول الأسد : «في سوريا بالذات امتلأت رئتا المقاومة بالأوكسجين»(٥) والواقع أن حوالي ١٠٠ ألف فلسطيني لجأوا إلى سوريا بعد حرب ١٩٤٨ وعوملوا قانونياً كالسوريين تماماً : فقد أُعطوا أمكنة في المدارس والجامعات ، وسُمح لهم بأن ينضموا إلى نقابات العمال ، وقُبلوا في الوظائف الحكومية وجُندوا في الجيش . وعندما ظهر المقاومون الفلسطينيون رأى فيهم نظام جديد رجالاً ثوريين ورحب بهم . أما الأسد فلكونه ضابطاً محترفاً لم يسبغ على المقاومة هالة بطولية ولم يعتبرها لاعباً رئيسياً : وعندما ألحق فلسطينيين بمخابرات الجيش السوري كلّفهم بعمليات تخريبية صغيرة(٦) ، وسمح لهم باستعمال معسكري تدريب ، وحوّل إليهم شحنة أسلحة حملتها طائرة من الجزائر كهدية من هواري بومدين بعد أن أزاح أحمد بن بللا عن الحكم(٧) (والواقع أن الجزائر كانت أول قطر عربي اعترف وساعد حركة فتح ثم تلتها سوريا) .

وعندما قامت اسرائيل بتدمير الأشغال الهندسية السورية في تموز / يوليو ١٩٦٦ وباسقاط طائرتي ميغ في شهر آب / اغسطس ، قرر الأسد أن يرد عليها بغارات فدائية فلسطينية ما لبثت أن أصبحت في خريف ١٩٦٦ أكثر تكراراً وفاعلية . ولكن هل كان الأسد يعتقد حقاً بأن اسرائيل يمكن إخراجها من المنطقة المجردة بمثل هذه الوسائل ؟ لعل بعض الحالمين من أعضاء مجلس الوزراء السوري قد تصوروا أن الاسرائيليين تحت وطأة الضغط سيجمعون متاعهم ويرحلون مثلما فعل الفرنسيون من قبل في الجزائر . ومن الواضح أن

القادة السوريين لم يتمعنوا في عواقب إقحام الفدائيين الفلسطينيين في صراعهم مع إسرائيل . فلقد كانت سياستهم مظهرية أكثر من كونها عقلانية ، كانوا يبحثون عما ينفّس عنهم عناء إحباطات العجز . وكانت معادلتهم العاطفية غاية في البساطة : إنهم لا يستطيعون التفكير بالاستسلام لاسرائيل ، إلاّ أنهم لا يستطيعون بالمقابل أن يكونوا أندادها في معركة تقليدية معها . ومن هنا بدا أن الفدائيين يقدمون لهم مخرجاً مشرّفاً . ولما كان لدى الأسد ورفاقه الشعور الذي كان يسود المنطقة والمتسم بنفاذ الصبر والهزء من الأنظمة العربية الأخرى ووصمها بالانهزامية ، فإنهم راحوا يرون في الهجمات التي يشنها الفدائيون عبر الحدود وسيلة لابقاء جذوة القتال مشتعلة . ولم يكن جديد وجماعته قد استوعبوا بعد أن سياسة الردع الاسرائيلية إنما ترتكز على الاستعداد للتصعيد دونما حدود . ولكن بينما كانت سوريا ، بادخالها الفدائيين ، تنطلق في تصعيدها من موقف ضعيف ، كانت اسرائيل قادرة في ردها أن تُصعّد من موقف قوة .

ومهما يكن من أمر فإنه كان لدى كل من سوريا والفلسطينيين استراتيجية مختلفة عن الأخرى : فعرفات كان تواقاً إلى اشعال حرب عربية ـ اسرائيلية شاملة بأسرع وقت ممكن على أساس أن الهجرة اليهودية المتزايدة وتطوير اسرائيل للأسلحة الذرية سيجعلان اسرائيل خارج التناول أو التمكن منها . أما الأسد فلم يكن يبحث عن الحرب ولا يتوقع حرباً . فزملاؤه كانوا يشجعون مفهوم «الحرب الشعبية» كبديل للحرب التقليدية لا كمدخل إليها . وعندما حاول عرفات في صيف ١٩٦٦ أن يتخلص من الكبح السوري قام الأسد بحبسه مع عدد من جماعته في سجن المزة ٥٥ يوماً . ولقد كان عرفات حتى قبل ذلك موضع شك من قبل السوريين بسبب انتمائه السابق للاخوان المسلمين وبسبب تهمة أُلصقت به في ذلك الوقت . فقد سقط أحد منافسيه الرئيسيين (يوسف العربي) ، الذي كان حينذاك رئيس العاصفة ، وهي الجناح العسكري لفتح ، جريحاً في إحدى العمليات ضد اسرائيل عام ١٩٦٦ ومات في أحد مستشفيات مدينة القنيطرة . وشاع في دمشق أنه ، وهو على فراش الموت ،

أعلم قائد الجبهة السورية ، عبد الغني ابراهيم ، أن عرفات خانه . وبالرغم من أن مثل هذه الاتهامات لم تكن غير مألوفة فيما بين زعماء المقاومة المتنافسين ، فإن تلك التهمة كانت أحد أسباب ايداع عرفات في السجن . وشكلت هذه الحادثة بداية النفور الشديد والمتبادل بين عرفات والأسد . وقد قام فاروق القدومي وهو بعثي سابق أصبح فيما بعد يُعرف بـ «وزير خارجية» منظمة التحرير ، بمفاوضة الأسد[٨] من أجل اطلاق سراح عرفات . وتشير كل المعلومات إلى أنه عانى صعوبة كبيرة في ذلك .

وقد راقب الاسرائيليون باهتمام المجرى المضطرب للعلاقة السورية ـ الفلسطينية كما أوضح ، قبل الحرب بثلاثة أسابيع ، آهرون ياريف (مدير المخابرات العسكرية) للمراسلين الأجانب في تل أبيب : «إن السوريين يستخدمون سلاح العمل الفدائي هذا لأنهم لا يستطيعون مواجهتنا في معركة مكشوفة ، لأنهم عسكرياً ضعفاء جداً ، وهم يعلمون أننا مصممون على إقامة حقائق . . . معينة على طول الحدود»[٩] .

على هذه الحال كان الجو ينذر بالاشتعال وينتظر شرارة ما : فعبد الناصر ذو الوضع الحرج كان يبحث عن ضربة جزئية ترفعه إلى العلاء من جديد ، وكان هناك تزايد في التحركات الفلسطينية ، أما السوريون فكانوا يعانون من ضياع المناطق المجردة ويستخدمون المقاومة لتحقيق أغراضهم .

رفع حرارة الموقف

منذ خريف ١٩٦٦ راح عبد الناصر يراقب التصعيد السوري ـ الاسرائيلي بقلق متزايد. ونظراً لأنه لم يعد قادراً على ضبط سوريا من خلال آلية مؤتمرات القمة العربية كما فعل في الماضي ، فقد لجأ في ٧ تشرين الثاني نوفمبر سنة ١٩٦٦ إلى عقد اتفاقية دفاع ثنائية تعهد فيها بمساعدة سوريا إذا هوجمت . كانت تلك بمثابة محاولة لاستعادة بعض السيطرة على رسم السياسة في دمشق . وتبادل البلدان السفراء ـ للمرة الأولى منذ انفصال سوريا عام

١٩٦١ ـ وأقاما قيادة عليا مشتركة . ولكن الاتفاقية التي عقداها لم تكن سوى تغطية إسمية لسنوات من عدم الثقة بينهما فقد كان عبد الناصر يشك في أن السوريين يريدون أن يروه مُدَمَّراً في حرب ، بينما خشي السوريون أن يجلس عبد الناصر متفرجاً وهم يسقطون وحدهم . وكان الملك حسين أكثر المتفرجين تخوفاً ، فقد استنتج بأن عبد الناصر بتوقيعه هذه الاتفاقية قد سقط في فخٍ سوري ، وبأن السوريين سيكونون شديدي السرور لو سقط عرشه هو أيضاً خلال حرب .

اختارت إسرائيل هذه اللحظة لتسخين الجو عدة درجات . ففي ١٣ تشرين الثاني ، نوفمبر ، أي بعد ستة أيام فقط من توقيع الاتفاقية ، شنت أكبر هجوم عسكري لها منذ السويس . وقام لواء من ثلاثة آلاف جندي أو أكثر ، مع أربعين دبابة ، وبحماية سربين من الميراج بعبور الحدود الأردنية على جبهة عرضها خمسة أميال وسحقوا القرية التي لا دفاع لها في الضفة الغربية ، قرية السموع في تلال الخليل . وزعمت اسرائيل أن الغارة كانت انتقاماً من عملية فدائية ، إلّا أن المدهش أنها لم تهاجم سوريا التي كانت تشجع الفدائيين بل هاجمت الأردن الذي كان يبذل أقصى جهده للسيطرة عليهم وكبحهم . وأثارت الغارة في الأردن اضطرابات كانت من العنف بحيث كادت تطيح بعرش الحسين ، وراحت القنابل تنفجر في أرجاء عمان فاستدعيت قوات الجيش لقمع الشغب . وطالب المواطنون الفلسطينيون في الأردن باجراء تغيير جذري في السياسة : فما الفائدة من حماية إسرائيل بدلاً من ترك الفدائيين يغيرون عليها ما دام العقاب واقعاً لا محالة ؟ ولماذا يختلف الأردن مع سوريا ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ومع الاتحاد السوفياتي؟ ودعا الشقيري الفيلق العربي إلى توجيه بنادقه إلى «حسين الخائن» بينما دعا رئيس الدولة السوري الدكتور الأتاسي إلى «إعلان الجهاد ضد عرش الخيانة» . وقاد راديو القاهرة الهجوم على حسين ورداً على ذلك عيَّر الأردن عبد الناصر بالاختباء خلف قوات الأمم المتحدة في سيناء .

وكما حسبت اسرائيل وتوقعت بلا شك ، فإن غارتها على السموع ضربت استقرار الأردن ، وزادت الانقسامات العربية حدّة ، وزادت من تشدد الرأي العام العربي ، وجعلت العالم العربي الضعيف بشكل مؤسف والمشاكس بشكل لا أمل فيه يتلوى ويترنح وسط مؤامرات واتهامات متبادلة قادته إلى شفير الهاوية تماماً .

وكان أهم ما في الأمر أن الأسد ورفاقه كانوا في شهور ١٩٦٧ يتصورون الصراع مع اسرائيل على أساس أنه عبارة عن اشتباكات حدودية تصغر أو تكبر لا أكثر . وكانت نظرتهم تتركز على المناطق المجردة الثلاث التي كانت اسرائيل في ذلك الوقت قد ابتلعتها تماماً . أما أن تقوم حرب أوسع فكان ذلك شيئاً خارج نطاق تجربتهم وتصوراتهم . وهكذا تجددت اشتباكات الحدود في مطلع ١٩٦٧ وتخللتها نداءات لضبط النفس من أوثانت، الأمين العام للأمم المتحدة، ومن عدة جلسات غير مجدية عقدتها لجنة الهدنة السورية الاسرائيلية المشتركة وطالبت سوريا بأن تزيل اسرائيل جنودها وتحصيناتها ومزارعيها شبه العسكريين من المناطق منزوعة السلاح، وأن تنسحب إلى خطوط هدنة عام ١٩٤٩ وتسمح للمزارعين العرب بالعودة . أما اسرائيل ، التي كانت قد سيطرت على المناطق خلال خمسة عشر عاماً من استخدام القوة والسرقة ، فلم تكن لديها أية نية للتراجع على الإطلاق .

كان هذا هو السياق المعروف الذي دفعت اسرائيل ضمنه الأحداث دفعة حاسمة . كانت قد حفظت النمط وراجعته عدة مرات وكانت النتائج متوقعة بكاملها . ففي ٧/ نيسان / ابريل سنة ١٩٦٧ أرسلت اسرائيل جراراً مدرعاً إلى داخل المنطقة المجردة على شواطىء بحيرة طبريا ، فأطلق السوريون عليه النار ، فخرج الطيران الاسرائيلي للعمل ضد المدافع السورية ، فأمر الأسد الطائرات السورية بالاقلاع لملاقاته ، وفي المعركة الجوية التي تلت ذلك خسر السوريون ٦ طائرات ميغ . وزمجرت طائرات اسرائيل الحربية فوق دمشق في

غطرسة . كان هذا أخطر انتكاس عسكري يصيب سوريا منذ سنة ١٩٤٨ . وهبت عدة أقطار عربية للدفاع عن سوريا كلامياً ، غير أن مأزق الأسد بقي كما هو : كيف يمكن الدفاع عما تعتقده سوريا حقاً لها دون تلقي ضربات مؤلمة . وحتى بعد هذا الاشتباك الواسع النطاق ظل القادة السوريون غير قادرين على النظر إلى ما هو أبعد من قطع الأرض المجردة المتنازع عليها . وبدا كما لو أنهم لم يروا إلى أين كانت الأحداث تقود . وقالت مذكرة سوريا إلى مجلس الأمن بأن الأزمة سببها «إصرار السلطات الاسرائيلية على تصفية جميع الحقوق العربية في المناطق المجردة مرة واحدة وإلى الأبد» ومثل المرات والمناشدات السابقة فإن سوريا لم تحصل على أية نتيجة مرضية . وتجاهلت اسرائيل مطالب سوريا بحقوقها وردت بأن سوريا تدعم الفدائيين وتزعج المستوطنات الحدودية .

أهداف اسرائيل وردة فعل عبد الناصر

ولكن ما الذي كانت اسرائيل ترمي إليه من وراء استفزاز طيران سوريا في المناطق المجردة ومن ثم معاقبتها حين تردّ على الاستفزاز؟ وهل كانت تريد أن يتخلى السوريون عن كل أمل لهم في هذه المناطق ؟ أم هل كانت تريد أن تفرض على الحكومات العربية ما مفاده أن على هذه الحكومات أن تبقي حدودها ساكنة أو تتحمل العواقب؟ وهل كانت اسرائيل قلقة من أن يؤدي استخدام سوريا للفدائيين إلى منحهم مكانة سياسية ؟

وهناك تفسير آخر لسلوك اسرائيل في ذلك الوقت ، وهو أنها كانت تبغي تخويف المصريين كي يضبطوا سوريا التي كانوا مرتبطين معها الآن بمعاهدة دفاع .فعبد الناصر بذل جهوداً شاقة منذ عام ١٩٦٤ لكبح السوريين كيلا يجروه إلى حرب ، وهكذا فإن إسرائيل بضربها لسوريا كانت تشير إلى المصريين كي يكبحوها بطرق أكثر وأفضل . وقد أعلن ناطق اسرائيلي مسؤول ذلك في حينه . . . وهو الجنرال ياريف ، إذ قال للصحافة في المقابلة التي ذكرناها

آنفاً : «يجب أن نستعمل القوة كي نجعل المصريين يقنعون السوريين أنها لا تجدي»[١٠] .

ولكن بدا أن بعض القادة الاسرائيليين كانت لديهم أهداف أكثر اتساعاً . فحجم الهجوم على «السموع» في شهر تشرين الثاني / نوفمبر والطريقة التي استُدرج بها الأسد إلى المبارزة الجوية في نيسان / أبريل إنما يوحيان بأن بعض الاسرائيليين لم يكونوا يبحثون عن انزال عقاب أو القيام بردعٍ فقط ، فمنذ الخمسينات كان هناك (لوبي) اسرائيلي قوي في سلاح الجو الاسرائيلي يضغط لشن غارات انتقامية أكبر حجماً وأكثر عدداً ضد العرب بهدف زيادة حدة التوتر بل وحتى للانخراط في حرب من أجل دفع حدود اسرائيل قُدُماً وايصالها إلى خطوط تجعلها قابلة للدفاع عنها[١١] . وكان ذلك اللوبي بالغ النشاط في فترة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ـ ولكن هدفه بعد ذلك لم يعدْ مقتصراً على تحسين وضع الحدود .

وكان بعض الزعماء الاسرائيليين مثل رئيس الوزراء ليفي اشكول لا يريدون الحرب ، وكانت تقديرات الاستخبارات تقول إن العرب لن يكونوا مستعدين ليخوضوا حرباً قبل أربع سنوات على الأقل . إلّا أن الناشطين الاسرائيليين كانوا يريدون تصعيد الأعمال الحربية .

وعندما كانت اسرائيل تلقي بالطعم لسوريا كانت أولويتها الحقيقية هي تدمير عبد الناصر . فقد كان هذا هو الهدف الذي قام الجيش الاسرائيلي بالتدرب عليه تدرباً كاملاً . كان عبد الناصر هو العدو القديم الذي حوّل الهزيمة إلى نصر في عام ١٩٥٦ وبذلك أصبح رمزاً لأكبر كابوس تخشاه اسرائيل وهو تحقيق وحدة العرب واستقلالهم . فإذا سقط عن قاعدته ، تلاشى الحلم البشع المخيف . وكان عبد الناصر قد اهتزّ نفسياً ، إذْ كان قريباً أكثر من اللازم إلى السوفيات ، وعلاقاته مع الأميركيين كانت رديئة ، وقد وقع تحت رحمة السوريين المتهورين . ورأت اسرائيل أن فرصتها لضربه كانت ذهبية . وإن ما يمكن تأكيده بثقة هو أن «وخزات دبابيس» العمليات الفدائية ، التي ضخم القادة

الاسرائيليون أهميتها في ذلك الحين ، لم تكن تحتل المركز الأول في تفكيرهم ، وقد قال موشي دايان في ٨ / حزيران / يونيو «إن المضايقات الارهابية كانت شيئاً مزعجاً ، ولكنها ليست سبباً في حرب»[١٢] .

وبمجرد أن بدأت آلية الأزمة تتحرك ، فإن الانفجار أصبح محتوماً. ففي أوائل أيار / مايو زرع فدائيو «فتح» بضعة ألغام قرب بحيرة طبريا ، وكان الرد على ذلك سلسلة من التهديدات الاسرائيلية الأكثر وضوحاً لسوريا . ففي ١٢ أيار / مايو نُقِلَ عن مصدر عسكري اسرائيلي قوله إن خيارات اسرائيل تتراوح من توجيه حرب فدائية خاصة بها داخل سوريا إلى «غزو واحتلال دمشق» وفي اليوم نفسه قال رئيس وزراء اسرائيل ليفي إشكول محذراً إنه لا يمكن أن تكون هناك أي مناعة لأية دولة تساعد المخربين . وفي اليوم التالي قال اشكول إن اسرائيل «ربما تضطر لتلقين سوريا درساً أكثر حدَّةً من درس ٧ نيسان / أبريل» . وفي ١٤ أيار / مايو حذر رئيس الأركان الجنرال رابين من أن سوريا إذا استمرت في تخريبها فإن رد فعل اسرائيل «سيكون مختلفاً جداً عن ضرباتها الانتقامية ضد الأردن في الماضي»[١٣] . وقد فُسِّرت هذه اللهجةُ القويةُ من قبل الصحفيين في اسرائيل ، والعرب في خارجها ، كدليل على أن اسرائيل عازمة على الاطاحة بالنظام السوري بالقوة .

في هذا الوقت وصلت الأخبار إلى عبد الناصر من السوفيات والسوريين ، وكذلك من مصادر مخابراته ، بأن اسرائيل كانت تتأهب للهجوم . أما عن وجود حشود عسكرية ، فقد أصبحت هذه النقطة مثار نزاع فيما بعد ، ففي سياق الأزمة المتصاعدة ومع لجوء اسرائيل مراراً لاستخدام القوة ، فإن التقارير كانت قابلة للتصديق على الفور . ويحتمل أن تكون تحذيرات موسكو قد بُنيتْ على معلومات سرّبتها اسرائيل نفسها[١٤] بهدف جعل عبد الناصر يعتقد بأن الهجوم على سوريا بات وشيكاً .

وأُحرج عبد الناصر ، فقد تعرض للاستهزاء لأنه لم يهبَّ لنجدة سوريا في

معركة ٧/ نيسان/ ابريل الجوية ، وتساءل السعوديون لماذا لم يقصف إيلات أو يطلق القذائف من فوق رؤوس قوات الأمم المتحدة في سيناء ، وعلق راديو جدة ساخراً : «إن أي أحد يتخيل أن مصر ستشن معركة من أي نوع ضد اسرائيل دفاعاً عن سوريا أو أي أحد آخر سوف ينتظر وقتاً طويلاً جداً» . ولعبت الدعاية الأردنية على النغم نفسه عندما ركزت على نفاق عبد الناصر الذي يتخذ موقف بطل العرب بينما هو يترك الملاحة الاسرائيلية تمر بحرية عبر المياه المصرية في مضايق تيران في الطريق إلى إيلات .

وفي أزمة منتصف أيار/ مايو تلك لم يستطع عبد الناصر البقاء خارجها . فسمعته (المهتزة أصلاً) ما كان يمكنها الصمود لو ظل ساكتاً . فالبطل يخسر لقبه إذا لم يدخل ميدان الصراع . لقد كان بمقدوره أن يتجاهل اشتباكاً سورياً ـ اسرائيلياً على الحدود ولكنه لا يستطيع تجاهل التهديد بالحرب ، لأنه إذا ما هوجمت سوريا فإن وضع مصر الاستراتيجي ذاته سيتضرر بشكل خطير . وقد وصف عبد الناصر نفسه الأمر عندما قال : «من يبدأ بسوريا فسينتهي بمصر»[١٥] . وقد فسَّر ذلك فيما بعد محمد حسنين هيكل الوثيق الصلة بعبد الناصر بقوله : «لقد كنا نتشاجر مع سوريا ، ونرى أن نظامها مُنَفِّر من الناحية السياسية ، ولكن كان هناك معنًى آخر تظهر فيه سوريا كحليف مصر الطبيعي ، ولم يكن من المتصوَّر أن يُسْمَحَ لاسرائيل بأن تشن حرباً على جبهة واحدة فقط»[١٦] . كان في ذهن عبد الناصر أيضاً ادراكه الأكيد بأن سوريا إذا سقطت دونما دفاع عنها فإن معنويات العرب ، والأمن العربي والقومية العربية نفسها . وكذلك حركة تحرر العالم الثالث التي تفانى في سبيلها ، كل ذلك سيتعرض لضربة قاصمة .

كان عبد الناصر يحرص على تجنب الحرب ولم يكن يثق بأن السوريين قادرون على معالجة الموقف المتفجر وحدهم ، ولهذا تحرك من أجل إدارة الأزمة بنفسه . وحسبما قال هيكل : «كانت وجهة نظر عبد الناصر أنه إذا ما قام

السوريون الخائفون بحركة خاطئة فإنهم قد يـوقعوننـا جميعاً في متـاعب خـطيرة»[١٧] ولهـذا وبهدف استـلام زمام القيـادة وتطمين السـوريين قام عبد الناصر ، رداً على تهديدات رابين القوية لسوريا ، بارسال قوات مصرية إلى سيناء عبر قناة السويس . لقد أراد أن ينقل المركز السطحي للأزمة بعيداً عن الحدود السورية ـ الاسرائيلية التي لم يكن ليستطيع التحكم بها إلى الحدود المصرية ـ الاسرائيلية التي كان يعتقد بأنه قادر على التحكم بها . واستناداً إلى هذه النية طلب في ١٦ أيار / مايو سحب قوات الطواريء الدولية من المواقع الحدودية التي كانت تحتلها في سيناء بين مصر واسرائيل منذ حرب السويس . ومما له مغزى أنه لم يطلب من هذه القوات أن تنسحب من النقاط الحساسة في شرم الشيخ المطلة على مضايق تيران ، ولا من قطاع غزة . ولكن عندما قال الأمين العام للأمم المتحدة أوثانت بأن الانسحاب الجزئي غير ممكن لم يبق لعبد الناصر خيارٌ في الثامن عشر من أيار سوى أن يطلب الانسحاب الكلي وتسلمت قوات مصرية المراكز الأمامية من قوات الطواريء الدولية على حدود سيناء ، ولكن بدون مركز شرم الشيخ ، وظلت المضايق مفتوحة وغير ملغومة . كان الزعيم المصري يأمل في تجنب التعقيدات المتعلقة بتيران وخليج العقبة الذي اعتبرته اسرائيل مفتوحاً أمام سفنها كغنيمة من غنائم حملة ١٩٥٦ وكان قد تكرر الاعلان بأن اغلاقه سيعتبر سبباً كافياً للحرب .

ولمدة ثلاثة أيام لم يقم عبد الناصر بأية حركة أخرى . فمن وجهة نظره كان قد حقق الكثير : إذ استعاد زمام المبادرة من شركائه السوريين غير المستقرين ، وأسكـت مؤقتاً منتقديه العرب الذي كانوا يتهمونه بالاختباء خلف قوات الأمم المتحدة . ولكنه كان لا يزال واقعاً تحت ضغط منتقديه العرب ، وضغط من ضباطه أنفسهم بأن يغامر أكثر . وبينما كانت هذه الضغوط تدفعه لم تكن هناك في تلك اللحظة الحرجة الحساسة أي ضغوط معاكسة من جانب إسرائيل أو الولايات المتحدة . ولم يكن هذا عجيباً ، لأن اسرائيل كانت تبحث عن سبب تتذرع به للحرب . فلم تنذره أميركا ولا اسرائيل ، ولم يحذره ليندون

جونسون ولا ليفي اشكول من أن يقوم بمزيد من الخطوات . وكان هذا الصمت هو الذي حفزه على المقامرة التالية .

ففي ٢١ أيار / مايو أرسلت القوات المصرية أخيراً لاحتلال شرم الشيخ ، وفي ليلة ٢٢ أيار / مايو ، في خطاب حماسي في قاعدة بير جفجافة الجوية ، أعلن عبد الناصر إغلاق المضايق أمام إسرائيل وأمام الحمولات الاستراتيجية المتجهة إلى إيلات .

وفجأةً تغيرت طبيعة الصراع وما بدأ كمحاولة لتدبير أزمة سوريا أصبح أزمة مصرية ـ إسرائيلية ذات أبعاد أكبر بكثير . أما الأسد وبقية أركان النظام السوري فقد أُزيحوا جانباً ولم يعودوا خلال الأيام القليلة التالية سوى متفرجين ينتابهم القلق .

كان عبد الناصر في الأساس رجلاً حذراً . ومع ذلك فإنه هنا في وسط أزمة لها دوي إعلامي كبير تَصَرَّفَ بتهورٍ لم يكن من طبيعته . لماذا؟ كان هناك حافز نفسي من النوع الذي يجعل ساسة آخرين ناضجين يلعبون أوراقهم بتبجح ومبالغة . كان عبد الناصر يتوق إلى إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ـ أي إلى ما قبل ١٩٥٦ . فقد كان يعتمل في صدره غضب من أن اسرائيل انتزعت منه في عدوان السويس حق المرور إلى ايلات عبر المياه المصرية . وها هي فرصة تبدو متاحة كي يستعيد بالدبلوماسية ما انتُزع منه بالقوة كان هذا هو الربح الذي قامر من أجل الحصول عليه وبإغلاق المضايق أصبح اهتمام عبد الناصر الأساسي التمسك بمكاسبه دون الاضطرار إلى القتال الفعلي من أجلها ، وكان هناك ربح إضافي هو الهتاف الحماسي المسعور من معجبيه . كان العالم العربي يرى بطله يعود إلى الحلبة فهتف له كما لم يفعل منذ سنين .

وكانت استراتيجيته أن يحاول إخافة إسرائيل بحيث تتجه إلى التعقل مع التوضيح بأنه لن يكون البادىء بالهجوم . وكان ذلك ما وعد به أوثانت في القاهرة في ٢٣ / أيار وما بعده برسائل تطمينية إلى كل من واشنطن وموسكو .

والواقع أن السوفيات قد أصروا على ذلك . فقد قام السفير السوفياتي بزيارته في الساعة الثانية والنصف صباحاً في ٢٦ / أيار ليحذره من إطلاق الطلقة الأولى بأي حال من الأحوال . وهكذا أرسلت قوات أخرى إلى سيناء لتتخذ مواقع دفاعية (ولم تكن مواقع جيدة حتى للدفاع) ومن خلف الخطابات الملتهبة كانت كلماته تبعث بنفس الرسالة ، فقد توعد اسرائيل بمصير مرعب في حالة إشعالها حرباً ، كقوله مثلاً : «إذا بدأت اسرائيل حرباً ضد مصر أو سوريا فإن المعركة ضد إسرائيل ستكون عامة شاملة ، وسيكون هدفنا الأساسي هو تدمير إسرائيل»[١٨] . أو مرة أخرى : «لقد استعدنا حقوقاً كانت لنا سنة ١٩٥٦ . . . وتركنا الخطوة التالية لاسرائيل . . . فإذا اختارت الحرب فإننا نقول لها أهلاً وسهلاً»[١٩] . وقال إنه مستعد للمواجهة ، وكان واضحاً تصوره لاحتمال استخدام القوة العسكرية ، ولكنها في ذهنه كانت من أجل ردع وكبح اسرائيل ، وليس من أجل مهاجمتها . وحتى هذا الاحتمال بدا في نظره بعيداً . ولا شيء غير هذا يمكن أن يفسر عدم استعداد مصر .

وبنفس روح العزم على ردع اسرائيل رحب بعدوه القديم، الملك حسين ، في القاهرة في ٣٠ / أيار ، حيث وقع معه اتفاقية دفاعية شبيهة بتلك التي وقعها مع سوريا . وهذه الاتفاقيات بين الخصوم لم تكن لها قيمة عسكرية . غير أن حسين ، وقد رأى الرأي العام العربي يتحمس للحرب ، كان أمام خيار صارخ بارز في هذه اللحظة ، فإمّا أن يقترب من القاهرة علناً أو أن يغامر بالسقوط في أعين العامّة . ولكن حتى حسين الذي كان أقل من الآخرين انخداعاً وأكثر إدراكاً لقوة إسرائيل ، تصور بأن مظهر تضامن عربي قد يجعل اسرائيل تتوقف . وتجلت حماقة القادة العرب في تركهم الرأي العام يلتهب بحمى الحرب التي أسهمت في إذكائها مواقفهم نفسُها ، وكذلك التظاهرة الاستعراضية التي قام بها أحمد الشقيري زعيم منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك على رأس قوة فلسطينية هزيلة .

في ٣١ أيار / مايو ، وخلال محادثات مع روبرت آندرسون ، المبعوث الخاص للرئيس جونسون ، وافق عبد الناصر على إرسال نائبه زكريا محي الدين إلى واشنطن في ٧/ حزيران/ يونيو ، متوقعاً أن البدء بعملية مفاوضات قد يبعد إمكانية اللجوء إلى الحرب . وفي سبيل تجنب وقوع نزاع كان عبد الناصر مستعداً لتقديم تنازل رئيسي لاسرائيل ـ فيما إذا أمكن أن يتم ذلك بصورة هادئة ودون أن يسبب له أي احراج سياسي . فمنذ ١٩٥٧ كانت السفن الاسرائيلية المارة بمضايق تيران في طريقها إلى ايلات تقوم لدى اقترابها من المضايق بانزال علمها الاسرائيلي وبرفع علم أي دولة أخرى مكانه ، وذلك بمثابة لفتة شكلية حيال الحساسية الوطنية المصرية . وما إن تعبر السفن المضايق وتقترب من ايلات حتى تعيد رفع العلم الاسرائيلي . وكانت هذه الحركة الشكلية تستند إلى ترتيب سري شفهي ظل مكتوماً لمدة عشر سنوات . وكان للجانبين مصلحة في كتمانه : فمصر لم تشأ أن تعلن عن مثل هذا الحل الوسط الشكلي ، كما أن حكومة حزب العمل في اسرائيل كانت تخشى تزويد اليمين الاسرائيلي بما يمكن أن يستعمله ضدها . وبهدف سحب فتيل الأزمة في أوائل حزيران / يونيو ١٩٦٧ قام الدبلوماسيون المصريون في الأمم المتحدة باعلام الأمانة العامة بأن مصر ستكون مستعدة لاعادة احياء تلك الصيغة الصامتة طالما أن اسرائيل لا تصر على افشاء مضمونها . أي أن عبد الناصر ، بعبارة أخرى ، كان يلمّح إلى أنه مستعد لتقديم حل وسط بالنسبة لموضوع المضايق الدقيق.

في هذه الأثناء كانت سياسة الردع التي لجأ إليها عبد الناصر تبدو وكأنها فعلت فعلها: إذ كان يشك في أن اسرائيل يمكن أن تجرؤ على مجابهة الجيوش العربية مجتمعة ، كما كان على ثقة بأن الاتحاد السوفياتي سيكبح الولايات المتحدة في حال تدخلها . بيد أن الردع سيعتمد في نهاية الأمر على مدى القـوة المصرية المسلحة. وقد اتكل عبد الناصر في ذلك على تقييم المشير عامر الذي ادّعى بأن مصر قادرة على مواجهة أي شيء قد ترسله ضدها اسرائيل إلى سيناء .

الإقرار الدولي

لم يكن الجدل في اسرائيل يدور على الاطلاق فيما إذا كان يتعين القتال أم لا . فكل فرد في الزعامة الاسرائيلية يقر بأنه ما دام عبد الناصر قد أخطأ وأعطى اسرائيل سبباً معترفاً به دولياً كمبرر للحرب ، فيجب عدم تركه يفلت من الصنارة .

وكان قلق الزعامة الاسرائيلية ، ولا سيما القيادة العليا للجيش يتعلق باحتمال ضياع هذه الفرصة لتحطيم عبد الناصر . كانت المخاطرة تكمن في السماح لمشكلة المضايق بالوقوع في أيدي الوسطاء أو هيئة الأمم المتحدة أو ـ كما اُقْتُرِحَ في حينه ـ في ترك معالجتها لمجموعة من القوى البحرية . وعندما أشار عبد الناصر سراً ، عن طريق الأمم المتحدة ، إلى استعداده لإعادة فتح المضايق على أساس الترتيب القديم غير المكتوب المتعلق بانزال ورفع الأعلام على السفن ، كان رد اسرائيل هو مطالبتها بالتزام مصري رسمي وعلني أي أنها طالبت بتراجع مصري تام . ومن الواضح أن اسرائيل كانت تخشى أن يسلب منها عرض عبد الناصر مبررها لشن الحرب .

وكان الجدل في اسرائيل يدور بين أولئك المنادين بشن الحرب فوراً وبين الذين يطالبون بـالتريث بعض الوقت لضمان تفهم مسبق من قبل العالم وبخاصة من قبل أميركا . ولم يكن هناك رغبة في تكرار تجربة ١٩٥٦ عندما أصرّت الدول الكبرى على أن تعيد إسرائيل كل ما كسبته نتيجة عدوانها على السويس . وكان على إسرائيل أن تتأكد من أن أي تدخل سوفياتي ـ ولو كان احتمالاً بعيداً ـ سيتم تحييده من قبل أميركا . وفاز في هذا الجدل أولئك المطالبون بالتأجيل . وهكذا بدأ اسبوعا العدّ التنازلي (من تاريخ إغلاق عبد الناصر للمضايق إلى يوم نشوب الحرب) وهما الاسبوعان اللذان عُرِفا باسم «فترة الانتظار» .

أرسلت اسرائيل وزير خارجيتها أبا إيبان إلى باريس ولندن وواشنطن للتظاهر بالاستطلاع عما سيفعله العالم لفكّ الحصار . وكما هو معروف فإن

الجنرال ديغول قد حذّره من بدء الحرب . ولكن اسرائيل التي كانت قد حولت مشتريات سلاحها من باريس إلى واشنطن كانت تستطيع أن تتجاهل الرئيس الفرنسي . وكانت المخابرات الفرنسية على بيّنة من أن آلة الحرب الاسرائيلية غير قابلة للهزيمة على يد أي تجمع من الدول العربية ، وهو ما يفسر التحذير الذي وجهه ديغول إلى إيبان بأنه إذا ما كانت اسرائيل هي البادئة بالهجوم فإنها ستفقد ودَّ فرنسا لها . أما في لندن فقد وجد إيبان تعاطفاً أكثر والواقع أن يوميات وزراء حكومة العمال (هارولد ويلسون ، ريتشارد كروسمان ، باربارة كاسل[٢٠]) تعكس شعور القلق الواسع حينذاك بأن اسرائيل كانت على وشك أن تجابه كارثة . وهذا يطرح تساؤلاً هاماً حول ماهية المعلومات التي كانت تقدمها المخابرات البريطانية إلى رجال السياسة . فهل كانت هذه المخابرات لا تعلم حقيقة ميزان القوة العربي ـ الاسرائيلي رغم صلاتها بوكالة المخابرات المركزية الأميركية ؟ أم هل تآمرت الوكالة المذكورة لاخفاء حقائق القوة الاسرائيلية والضعف العربي؟ فمن قراءة جميع المذكرات السياسية البريطانية المتعلقة بالفترة يظهر أن لا أحد في الحكومة البريطانية كان يعلم الحقيقة .

وبإظهار عجز العالم عن عمل شيء لإعادة فتح المضايق لاسرائيل ، كانت رحلة إيبان مصممة خصيصاً للحصول على موافقة عالمية على ما كانت اسرائيل تنوي عمله بنفسها .

وعلى أية حال فإن فقدان الصبر لدى المتحمسين للعمل الفوري قد كشف الغرض الحقيقي من جولة إيبان في وقت أبكر مما كان متوقعاً . ولدى وصوله إلى واشنطن وجد بانتظاره مهمة جديدة كلفته بها الوزارة الاسرائيلية . فقد طُلب منه تخفيض مسألة إغلاق المضايق إلى مرتبة ثانوية في حديثه مع الادارة الأميركية . وبدلاً من ذلك صدرت إليه التعليمات بأن يخبر الرئيس جونسون بأن إسرائيل معرضة لخطر جدّي من هجوم عام ووشيك عليها من قِبَل مصر وسوريا . وأن اسرائيل تريد تعهداً علنياً بأن أي هجوم عليها سيُعْتَبَرُ معادلاً

لهجوم على الولايات المتحدة . وبشكل دقيق طلبت إسرائيل أن تصدر التعليمات للقوات الأميركية في الأبيض المتوسط بأن تشترك في عملياتها مع «جيش الدفاع الاسرائيلي» ضد احتمال هجوم عربي[٢١] .

لقد كان أبا إيبان وزملاؤه في إسرائيل يعلمون أنهم كانوا يطالبون جونسون بشيء لم يكن في استطاعته دستورياً أن يقدمه لهم[٢٢]. فقد كانت موافقة الكونغرس ضرورية لمثل هذا الالتزام البعيد المدى. بالاضافة إلى أن الحرب الفيتنامية يومئذ كانت تمتص كل طاقات أميركا بحيث لم يكن لديها استعداد لتحمل المزيد من الأعباء العسكرية. والواقع هو أن ذلك «البعبع» الذي هوّلت به إسرائيل بشأن هجوم عربي عليها كان مجرد كذبة مختلقة. وحين ادّعت بوجود تهديد ضدها بهذا الأسلوب القاطع كانت تقدم للولايات المتحدة خيارين لا ثالث لهما: «إما أن تعملوا معنا أو نتصرف وحدنا» وهذا ما كانت في الحقيقة ترمي إليه التعليمات المرسلة إلى إيبان. فإذا ما رفض جونسون الخيار الأول فيمكن الاستنتاج أنه موافق على الخيار الثاني.

ورفض جونسون أن يوضع في هذا المأزق . فلم يكن يرغب في أن يجره الاسرائيليون إلى تعهد بالقتال إلى جانبهم أو إلى إعطائهم الضوء الأخضر رسمياً . وعند سماعه زعم إيبان المخيف بأن اسرائيل «تتوقع هجوماً عربياً في أية لحظة» أمر المخابرات الاميركية بأن تفحص الأدلة . واشتغل الخبراء طوال ليلة ٢٥ ـ ٢٦ أيار / مايو يقلّبون ويتفحصون الحقائق المعروفة واستنتجوا بأن مصر لم تكن تعدّ لهجوم وكان رأيهم أن اسرائيل تستطيع أن تهزم العرب في أسبوع كائناً من كان الذي سيطلق الطلقة الأولى[٢٣] .

وذكّر جونسون إيبانَ بالقيود التي يفرضها عليها الكونغرس والرأي العام . وركز على الحاجة إلى العمل من خلال الأمم المتحدة ، بينما وَعَدَ بأن يجمع قوة بحرية دولية لفتح المضايق وخليج العقبة. وعندما نصح إسرائيل بعدم بدء الحرب ، استعمل وكرر عبارة غريبة : «إسرائيل لن تكون وحدها إلاّ إذا قررت

أن تعمل وحدها» . وفي تفسيره لمعنى هذه العبارة يقول وليام كوانت (الذي يعتبر تحليله للعلاقات الأميركية ـ الاسرائيلية أكثر التحاليل اطلاعاً من بين ما نشر حول هذا الموضوع حتى الآن) أن جونسون كان يحاول أن يقول للاسرائيليين أن لا يعتمدوا على الولايات المتحدة إذا ما وقعوا ـ بعكس التقديرات ـ في مصاعب[٢٤] . رغم أن كل مساعدي جونسون الكبار كانوا مجمعين على الاعتقاد بأن اسرائيل ستكسب الحرب ، فإنه لم يكن يستطيع أن يتجاهل الاحتمال البعيد لوقوع خطأ ما ، أو لتدخل سوفياتي ، فتطلب منه اسرائيل المساعدة . ومعَ ذلك ، فإن جونسون ، عوّض عن حذره الرسمي ، باستخدام قناة اتصال خلفية خاصة[٢٥] ، ليعطي للاسرائيليين التشجيع الذي كانوا تواقين إليه . وبعد الحرب كان تأييده لهم فورياً وكريماً . وحتى في الأيام القليلة التي سبقت الحرب كانت شحنات الأسلحة الأميركية في طريقها إلى اسرائيل[٢٦] .

وقد زعم عدد قليل من الأميركيين والاسرائيليين بأن الاتحاد السوفياتي أراد استغلال تورط أميركا في فيتنام فأثار الأزمة كلها على أمل الحصول على مكاسب في الشرق الأوسط[٢٧] . وليس لهذا أي أساس من الصحة . فلم يكن لدى موسكو أي تأثير يذكر على المتشددين في دمشق الذين كان سلوكهم يجعل موسكو عصبية ، كما أن عبد الناصر لم يستشر أصدقاءه السوفيات عندما اتخذ قراره المصيري بإغلاق المضايق .

العد التنازلي

وفي اسرائيل أدّى العد التنازلي المتوتر نحو الحرب إلى التعجيل باندلاع أزمة سياسية كانت غيومها تتجمع منذ زمن طويل بين حزب الماباي الذي سيطر على السياسة الاسرائيلية منذ خلق الدولة وبين مجموعة من شبان عجولين كان من بينهم جنرالات ساخطون انشقوا قبل سنتين عن الماباي وشكلوا حزباً خاصاً بهم اسمه رافي . وكان هؤلاء من تلاميذ دافيد بن غوريون (من أمثال موشي دايان وشمعون بيريس وحاييم هرتزوغ وإسحق نافون) الذين لا يؤمنون بالتعايش

مع العرب ويميلون إلى استعمال أساليب الذراع الطويلة التي اكتسبوها من خلفياتهم العسكرية بوزارة الدفاع ، وكانوا ينتقدون رجال الماباي القدامى وبخاصة ليفي اشكول ، الذي كان قد حل محل بن غوريون كرئيس وزراء ووزير للدفاع في عام ١٩٦٣ ، وذلك لاخفاقه في توكيد التفوق العسكري على العرب إذ رأى هؤلاء في أزمة أيار / مايو ١٩٦٧ امكانية هائلة يمكن أن تفيد منها اسرائيل إذا ما عمدت إلى الضرب بسرعة ، وقوة ، وتصميم . وكانوا يخشون أن يقوم اشكول بنزع فتيل الأزمة ، على غرار ما فعل آخرون قبله ، إذا ما انتهج سبيل المحادثات وأجّل العمل ، وصوَّروه بأنه «عديم الفعل» و«متفرج» وكانوا يتطلعون إلى أن يعودوا إلى مراكز النفوذ حيث يستطيعون صياغة الأحداث ، فدايان مثلاً كان رئيساً للأركان لما يقرب من خمس سنوات وبيريس كان مديراً عاماً لوزارة الدفاع .

وكي يتفادى اشكول خطر منتقديه ، وافق على الذهاب إلى الحرب بشرط أن يكون الأميركيون قد تم اقناعهم وضُمنت موافقتهم ، غير أن هذا أيضاً جعل جماعة رافي تقول عنه إنه متذبذب . وفي أواخر أيار / مايو زادت هذه الجماعة من ضغطها عليه أولاً بالتذكير بما كان عليه بن غوريون ثم بكسب الجناح اليساري في مابام ، الذي كان شريكاً في الائتلاف الحكومي ، إلى صفها . وراح المتظاهرون خارج مكاتب ماباي يرفعون يافطات ضد اشكول تقول : «لم تكن جندياً أبداً ، فكيف بمقدورك أن تقود الجنود؟» والحقيقة أنه لولا الضغط الذي مارسه رافي حينذاك ما كانت لتقوم حرب ١٩٦٧ .

وجاءت الحادثة الفاصلة ، التي كانت أقرب ما تكون إلى انقلاب عسكري ، حين قامت مجموعة من الجنرالات يقودها عازر وايزمن ، مدير العمليات ، وآهارون ياريف ، مدير المخابرات بشد الحبل على عنق اشكول وطالبوه خلال اجتماع عاصف معه في ٢٨ أيار / مايو بشن الحرب على الفور . وبعد يومين كان لوايزمان حديث غاضب آخر مع اشكول ، ويقال إن وايزمان قام

خلال الحديث بنزع شارة رتبته العسكرية من على كتفه وقذف بها على مكتب اشكول وقال : «إذا لم تصدر أمر الذهاب إلى الحرب ، فإن التاريخ اليهودي لن يغفر لك ذلك أبداً»[٢٨] .

وقد أفاد الجنرالات من نشر مصر لدباباتها في سيناء ، ومن الصور التلفزيونية التي تصور حمى الحماسة للحرب في القاهرة و بخاصة الاتفاق الذي عقده الملك حسين مع عبد الناصر . وأمام تلك الضغوط السياسية والعسكرية انصاع اشكول ووافق على تشكيل حكومة ائتلاف وطني جديدة سلَّم فيها على الرغم منه حقيبة وزارة الدفاع الهامة إلى موشي دايان ، الرجل الذي يريده حزب (رافي) والجنرالات لأنه في اعتقادهم سيجد طريقة ما لتجاوز أو لتلبية اصرار اشكول على ضرورة الحصول على دعم أميركي واحد.

وهكذا وضع الجنرالات النزَّاعون للحرب شخصاً على رأس وزارة الدفاع سيقوم بشن هذه الحرب دونما انتظار . كما دخل في الوزَارة إلى جانب رافي حزب غاحال الذي كان مزيجاً من الليبراليين ومن عناصر الجناح اليميني في حزب حيروت الذي يرأسه مناحيم بيغن . وبادخال بيغن ـ المنبوذ الذي سمح له للمرة الأولى بالدخول إلى قلب الأحداث ـ فإن الجنرالات ضمنوا حكومة لن تكتفي بشن الحرب فحسب بل ستشنها من أجل الحصول على مكاسب اقليمية وخصوصاً في الضفة الغربية[٢٩] . وكان ثمة عدد من السياسيين والقادة العسكريين يعتبرون أن ما يسمونه «حرب الاستقلال» لم يكتمل بعد ويتطلعون إلى مدّ حدود اسرائيل إلى نهر الأردن . كما أن الانفراد بالسيطرة على القدس بكاملها كان حلماً اسرائيلياً قديماً .

في ٣٠ أيار / مايو تم إرسال مئير عميت ، مدير الموساد ، إلى واشنطن تحت اسم مستعار بهدف الحصول على «الضوء الأخضر» الأميركي . وحين زار مدير وكالة المخابرات المركزية ، ريتشارد هيلمز ، علم ما جاء ليستعلم عنه : وهو أن أحداً في واشنطن لن ينزعج إذا ما شنت اسرائيل حرباً وانتصرت . ولم

يكن جونسون في وضع يتيح له أن يقول ذلك بمثل هذه الصراحة . ومنذ أن بدأت القوات المصرية تتدفق داخل رمال سيناء أدركت القيادة الاسرائيلية العليا أن المصريين قد وقعوا في الفخ . وكانت هذه القيادة تتنصّت على الرسائل اللاسلكية التي كانت ترسلها تلك القوات فاستمعت إلى الاستغاثات في طلب الماء والوقود ، كما لاحظت تشابك واضطراب سير الآليات ، وتيهان أرتال التموين . وقد بدا أن المصريين كانوا بلا تنظيم ، ولكن لو أتيحت لهم فسحة لالتقاط الأنفاس لتمكنوا من أن يصبحوا في حال أفضل وأن يعملوا بالتالي كقوة مقاتلة . وبالنظر إلى اغراءات هذا الوضع على أرض سيناء لم يستطع الجنرالات الاسرائيليون أن يكبحوا جماح أنفسهم . كانوا يريدون أن يشنوا الهجوم على الفور . وكانت خشيتهم الكبيرة من أن يتسرب ما يكشف عن جودة توقعاتهم فتُنتزع منهم فرصة فريدة لسحق المصريين[٣٠] وكانت وكالة المخابرات المركزية الأميركية تعلم أنه لم يعد بالامكان لجم اسرائيل.

وعلى عكس هذا التلهف الاسرائيلي إلى الحرب ، لم تكن الحكومات العربية تريد حرباً ولا كانت مستعدة لها . كان ثلث الجيش المصري في اليمن ، في حين أن القوة المرسلة إلى سيناء ، حسبما اكتشف الاسرائيليون ، لا تملك عملياً أي دراية بالهجوم أو المناورة بل حتى الدفاع كانت معرفتها به جد قليلة . أما الجيش السوري فقد جعلته السياسة والتطهيرات كسيحاً . وعندما أفاق رئيس الوزراء زعين على احتمال الحرب في أوائل حزيران اتجه اللواء أحمد سويداني رئيس الأركان إلى الجبهة لينشر رسالة بذلك ويعممها . فصاح واحد من كبار الضباط هو العقيد ميشيل خوري : «كيف نستطيع أن نقاتل بلا ضباط؟» ويقال إن سويداني قد أجابه : «رَفِّعوا الطلاب الضباط» . أما بالنسبة للأردن ، فقد كان جنوده مقاتلين أكفاء ، ولكنه شديد الافتقار إلى الأسلحة الحديثة ، ولا سيما الطيران . ولم يكن لدى مصر وسوريا والأردن ، المختلفة سياسياً ، أي خطط عمليات مشتركة سواء للدفاع أو للهجوم . أما الاتفاقيات التي عقدت فيما بينها في اللحظة الأخيرة فكان ضررها اكثر من نفعها من الناحية

العسكرية . ولهذا فإن كل ما يتعدى الاعتقاد الشعبي السائد بوجود «طوق حديدي» مشدود حول عنق اسرائيل كان أمراً يصعب تخيله . إلا أن هذه حقيقة لم يكن قادة اسرائيل يرغبون في أن يعرفها العرب أو العالم أجمع بل حتى لا يريدون أن يعلم بها شعبهم الاسرائيلي نفسه . إذ على العكس من ذلك فقد كانت خدعة حرب ماكرة أن يقتنع الجميع بأن الدولة اليهودية كان معرضة لخطر الإبادة ولهذا تستحق أن تدعم في هذا الصراع غير المتكافىء الذي تخوضه .

وحين يراجع المرء تلك الأحداث فإنه يكتشف أن الطريقة التي هيأت بها اسرائيل الرأي العام كانت لا تقل براعة عن الطريقة التي أدارت بها الحرب نفسها ، وهي تعتبر أهم عمليات الحرب النفسانية التي سبق أن شنت. وقد نجح هذا التلاعب بعواطف الناس وبالرأي العام إلى درجة أنه بينما صارت الحرب اتجاهاً له شعبية شديدة عند الجماهير العربية الغافلة ، فإن الاسرائيليين العاديين وأصدقاء اسرائيل عانوا من قلق شديد لم يكن ضرورياً على الاطلاق . ولقد اعترف الاسرائيليون المطلعون منذ زمن طويل بأن دولتهم لم تواجه خطر الإبادة منذ عام ١٩٤٨ ، بَلْ ، إن أردنا الدقة ، منذ إعادة تسليحها وتقويتها فيما بين الهدنتين الأولى والثانية من ذلك العام(٣١) .

الفوضى العربية

حين قامت اسرائيل بتدمير سلاح الطيران المصري وهو على الأرض في صباح ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧ فإنها استطاعت أن تُركع العالم العربي . ولقد بينت صور الاستطلاع في ساعة مبكرة من ذلك الصباح أن السلاح الجوي المصري لم يكن أبداً على استعداد . فالطائرات كانت جاثمة في قواعدها على شكل أنساق كأنما هي في استعراض مما جعل منها أهدافاً ثابتة سهلة المنال . وقد تمخضت استراتيجية ضرب القواعد المصرية في وقت واحد عن خطة احتياط بديلة وضعت عام ١٩٥٣ تحت اسم سري هو «سلة البيض» . وبعد تعرية الجيش المصري في سيناء من الغطاء الجوي تم سحقه وتدميره ، فخسر

في أربعة أيام رهيبة اكثر من عشرة آلاف قتيل وثلاثة عشر ألف أسير وعدة مئات من الدبابات والمدافع المدمرة . ولم يعد للجيش المصري وجود كقوة مقاتلة متماسكة . أما الجيش الأردني فإنه في صباح ٥ حزيران / يونيو لم يدرك الكارثة المبكرة التي أصابت حليفه ، وعملاً بأوامر مضللة من القيادة المصرية العليا ، فتح ضد المواقع الاسرائيلية نيران الأسلحة الصغيرة والمدفعية الخفيفة . وعند الضحى المتأخر حاولت حفنة من طائرات الملك حسين من طراز هوكر هنتر أن تقصف المطارات الاسرائيلية غير أن هذه الطائرات عندما كانت تعيد التزود بالوقود عند الظهر تم مسحها وسحقها على الأرض بطائرات الميراج الاسرائيلية . وبعد ربع ساعة لقيت نفس المصير معظم القوة الجوية السورية ومعها سربان عراقيان كانا قد نُقِلاَ إلى قرب الحدود الأردنية ، وذلك بعد طلعة غير مؤثرة فوق اسرائيل . وكانت تلك أول تجربة مدمرة في حرب حديثة يمر بها الأسد .

وبعد أن تلقت القوات الجوية لمصر وحلفائها هذه الضربات المميتة انطلقت اسرائيل بكل طاقاتها للاستيلاء على الأراضي : وكان ذلك بالنسبة للبعض هو بهدف مبادلة هذه الأراضي فيما بعد بالسلام ، أما آخرون فكانوا يريدون منها أن تحصنهم بحدود منيعة ، وأما القوميون المتطرفون من أمثال بيغن فيرون في الاستيلاء عليها «تحريراً» لكامل ما يسمونه «أرض اسرائيل» . وفي ٧ حزيران/ يونيو تم الاستيلاء على القدس الشرقية العربية واجتياح الضفة الغربية . وسقطت أيضاً ممرات سيناء وشرم الشيخ المطلة على مضايق تيران . وفي ٨ حزيران هاجمت الطائرات وقوارب الطوربيد الاسرائيلية سفينة التجسس الاليكتروني الأميركية ليبرتي فعطلتها وجعلتها عاجزة عن الحركة على مبعدة من سواحل غزة. وكان سبب ذلك الهجوم بلا شك هو التعمية على ركض إسرائيل السريع للاستيلاء على مزيد من مساحات الأراضي . إن كون اسرائيل مستعدة لقتل بحارة أميركيين يشير إلى أي مدىً كانت مستعدة للذهاب من أجل إشباع

جوعها للأرض. فالأراضي لم يتم الاستيلاء عليها في لحظة شرود ذهن أو بسبب ظروف الحرب التي لا يمكن التنبؤ بها. ففي وقت مبكر من صباح التاسع من حزيران وصلت طلائع القوات الاسرائيلية إلى قناة السويس رغم أن مصر كانت قد قبلت وقف إطلاق النار بلا قيد ولا شرط بعد أن أصبحت الطريق إلى القاهرة مفتوحة.

وطوال الأيام الأربعة الأولى من الحرب ظل موقف سوريا سلبياً فقد اكتفت بقصف المستوطنات الاسرائيلية على الحدود كما كانت تفعل في الماضي بشكل متكرر. وقد عبرت الحدود دورية أو دوريتان سوريتان، وردت اسرائيل بقصف ثقيل. وقد يبدو هذا الجمود مثيراً للدهشة في بلد كان نزاعه الحدودي مع اسرائيل فتيل الاشتعال في الحريق كله. كان الأسد قد تحدى اسرائيل حول المناطق المجردة، وأرسل ضدها الفدائيين الفلسطينيين عندما كانت وسائل المواجهة التقليدية تنقصه. وأرغم عبد الناصر على أن يلقي في وجه اسرائيل قفاز التحدي، غير أنه ظل جامداً عندما جاءت الحرب. وكان الجمود السوري فيما بعد سبباً من أسباب المرارة لدى مصر والأردن، وجلب على سوريا تهمة أنها قد تخلت عنهما.

والحقيقة هي أن حجم ومدى وسرعة الحرب قد فاجأت القادة السوريين، ولم يكن الأسد وزملاؤه مهيئين ذهنياً للهجوم الاسرائيلي الشامل الصاعق السريع الحركة. ولم يكن لديهم تصور لمدى قوة اسرائيل، وإرادتها وخططها، ولم يفهموا أن صراعهم معها حول المناطق المجردة قد تم ابتلاعه كلياً في غمرة أطماع اسرائيل الرامية إلى إعادة تركيب المنطقة كلها. وحتى عبد الناصر وحسين ـ مع أنهما لاعبان خبيران أكثر من السوريين ـ كانا يعتقدان بأن القوى العالمية لن تسمح لاسرائيل باعادة رسم الخريطة. وكان لدى الأسد سبب للشعور بارتياع، فقوته الجوية المحببة إلى نفسه مُسِحَتْ في صباح

واحد .ولا بد أنه استغرق بعض الوقت قبل أن يفيق من هول الصدمة . وبعد ذلك أصبح وزير دفاع أشلّ . فتحريك القوات بلا غطاء جوي عمل طائش . وعلى أية حال فإن القوات السورية لم تكن قادرة على القتال المتحرك ، إذ أنها درِّبت فقط على الدفاع عن المواقع في تحصينات مرتفعات الجولان التي تشبه خط ماجينو .

وحدث مزيد من الفوضى بسبب وجود آمر مصري للجبهة الشرقية ، إذ قبل الحرب بستة أيام ، عندما انضمت الأردن إلى مصر في اللحظة الأخيرة بعقد اتفاقية دفاعية ، تسلّم قائد مصري هو الفريق عبد المنعم رياض قيادة الجبهة الأردنية ، بمقرٍّ في عمان . وقد صَدَّق رياض تقريراً وهمياً من المشير عامر في القاهرة مفاده أن القوات المصرية كانت في طريقها إلى صحراء النقب ، فقد أمر اللوائين الأردنيين المدرعين أن يتحركا جنوباً تاركين مواقعهما الجيدة التهيئة ، كي يدعما الهجوم المصري المفترض . وكانت هذه التطورات الخاطئة التي اعترض عليها الضباط الأردنيون في حينها بمرارة ، قد سهلت استيلاء إسرائيل على الضفة الغربية . ولتعويض القوات الأردنية التي تحركت جنوباً أرسل عبد المنعم رياض طلباً عاجلاً للأسد لإرسال لواء سوري إلى الأردن . واستجاب الأسد للطلب ، ولكن في الوقت الذي وصلت فيه قواته في الثامن من حزيران يونيو كانت الضفة الغربية قد ضاعت . وبعد بضعة أيام ، وبعد مشادات كلامية مع رياض أعيد اللواء السوري إلى بلاده . ومما يذكر أن القيادة العربية المشتركة التي تكونت في اللحظة الأخيرة قد قامت على أساس من الكراهية السياسية العظيمة . كان الأردن قد أمضى شهوراً وهو يتآمر مع السوريين الهاربين لقلب نظام حكم البعث ، وقبل الحرب بشهور ثلاثة فقط كانت سوريا قد ردّت الضربة بتفجير سيارة ملغومة في الرمثا . وكانت هذه ظروف لا يمكن أن تغامر فيها سوريا بأمنها لتدافع عن أمن الأردن . وبنفس الطريقة فإن تنافس سوريا الطويل مع مصر لم يجعل دمشق ميالة لإطاعة أوامر اللواء عبد المنعم رياض سيء الحظ .

الهجوم على سوريا

وعشية الحرب كانت سوريا هدفاً لأعنف تهديدات اسرائيل . ولكن عندما جاءت الحرب فعلاً ، بَدَتْ إسرائيل مترددة بشكل غير عادي ويسجل رئيس الأركان آنئذ اسحق رابين في مذكراته أن المجلس الوزاري للدفاع قد صوت في ٨ حزيران / يونيو ضد مهاجمة سوريا بالمرة[٣٢] . أما إشراف سوريا على الفدائيين الفلسطينيين والذي كانت اسرائيل قد أقسمت بأن تعاقبها عليه ، فقد بدا وكأنها قد نسيته فجأة . . وبذلك أعطت مصداقية للفكرة القائلة بأن كل الضجة التي أثارتها اسرائيل على حدود سوريا لم تكن أكثر من حجة تذرعت بها لإيقاع عبد الناصر في الفخ ولضم القدس العربية ولتغيير وضع اسرائيل الإقليمي تغييراً جذرياً .

إلا أنه في فجر ٩ حزيران/ يونيو ، وبعد بضع ساعات من طلب سوريا وقف اطلاق النار ، أصدر وزير الدفاع دايان أمراً بشن هجوم فوري . وكان دايان في السابق مدافعاً قوياً عن فكرة ترك سوريا وشأنها . فمنذ بداية الخمسينات ، عندما كانت المناوشات تحدث من أجل الأراضي المجردة ، كان قد تشكل لديه الاقتناع بأن تسلق مرتفعات الجولان وطرد السوريين منها سيكونان أمراً مكلفاً للغاية . وربما قد خشي من أن تحركاً اسرائيلياً ضد دمشق يمكن أن يؤدي إلى تدخل سوفياتي[٣٣] . وكان رئيس الدولة السوري الدكتور أتاسي ووزير الخارجية ماخوس قد زارا موسكو بين ٣٠ أيار / مايو و١ حزيران / يونيو لطلب الدعم السوفياتي . والواقع أن الزيارة لم تكن ناجحة ولم توعد سوريا بأي شيء . ولعل الاسرائيليين علموا بالأمر فزالت مخاوفهم من السوفيات . وفي ٩ حزيران ، وبعد أن دُعمت الجبهة الشمالية بلواءين جُلبا من سيناء ، غيَّر دايان موقفه من مسألة الهجوم على سوريا وتصرف على مسؤوليته وحده بدون استشارة رابين أو رئيس الوزراء اشكول . ويبدو أن تغيير رأيه جاء نتيجة توسلات المستوطنين الاسرائيليين في منطقة الحدود وكذلك بسبب ضغط

دافيد العازار ، قائد القطاع الشمالي الذي أراد هو الآخر أن يكون له حصة في الأمجاد . وعلى كل حال فإن الانتصار يخلق قوته الدافعة بنفسه ولذلك كان الفوز برأس سوريا أيضاً بعد مصر والأردن شيئاً مغرياً للغاية .

قامت قوة من ثلاث شعب يدعمها طيران قريب بالهجوم على هضبة الجولان . وبدون غطاء جوي ولا دفاع جوي قاومت قوات المشاة السورية مقاومة شجاعة في قتال بالأيدي . وفقدت اسرائيل ١٦٠ دبابة مقابل ٨٦ دبابة سورية . وقاتل ٦٠٠ جندي سوري واستشهدوا في مواقعهم نفسها دون أن يتزحزحوا منها(٣٤) وهم يتعرضون لقصف مستمر بالقنابل والنابالم والرشاشات . وعند هذه المرحلة كانت اسرائيل ، التي تعبت قواتها من القتال ، تميل إلى وقف تقدمها وتعزيز مكاسبها . ولكن خلال ليلة ٩ ـ ١٠ حزيران/ يونيو ، وبناء على اقتراح من أحمد المير آمر الجبهة الذي ذكر أن الدفاعات السورية كانت تحت خطر الالتفاف عليها وأن الجيش معرض للوقوع في الفخ ، أصدر رئيس الأركان أحمد سويداني أمره بالتراجع إلى شمال القنيطرة ، المدينة الرئيسية في الجولان للدفاع عن العاصمة التي تبعد حوالي ٤٠ ميلاً . وفي الساعة ٨,٤٥ من صباح ١٠ حزيران / يونيو وبينما كانت عملية اعادة الانتشار تجري تحت القصف ولكن بانتظام جيد ومعقول ، أذاع راديو دمشق بلاغاً من وزارة الدفاع أعلن فيه أن مدينة القنيطرة قد سقطت . ومهما يكن مصدر هذا البلاغ فقد كان غير صحيح إلا أنه بقي قائماً خلال اكثر من ساعتين إلى أن أمر الأسد باذاعة تصحيح له . إلاّ أنه في هذه الأثناء تحوَّل الانسحاب إلى هزيمة منكرة ، فالجنود الذين كانوا على الجانب الخطأ من المدينة راحوا يفرون طلباً للنجاة بأرواحهم . واستغلت اسرائيل هذه الغلطة ، فاستأنفت تقدمها على الفور واستولت على القنيطرة . وهرب أحمد المير على ظهر حصان إلى حوران بعدما تعرَّض رتله المدرع للنيران ، وعُثر على بعض الجنود الهاربين ، فيما بعد ، وهم يرعون الأغنام بين الجبال .

أصبح الطريق إلى دمشق مفتوحاً ، إلا أن الاسرائيليين لم يسلكوه بسبب الضغط الأميركي . فقد أوضحت موسكو لواشنطن أنها لن تتساهل حيال تدمير نظام صديق لها[٣٥] . وعملاً باقتراح تقدم به الرئيس اليوغوسلافي تيتو خلال اجتماع لحلف وارسو في ٨ حزيران / يونيو ، قطع الاتحاد السوفياتي علاقاته مع اسرائيل كوسيلة للضغط عليها لقبول وقف اطلاق النار[٣٦] .

وربما وفَّر ذلك على الأسد المزيد من المتاعب . غير أنه من المحتمل أن إسرائيل كانت في ذلك الوقت قد حصلت على أقصى ما تستطيع أن تمسك به . وسرى مفعول وقف إطلاق النار اعتباراً من بعد ظهر العاشر من حزيران / يونيو ، ولكنه لم يمنع اسرائيل من التقدم يوم ١٢/ حزيران / يونيو للاستيلاء على معقل في جبل الشيخ كان السوريون قد تركوه . وقد أصبح فيما بعد أهم مركز تنصت اليكتروني لاسرائيل في داخل سوريا .

ولكن هل كان البلاغ الكاذب عن سقوط القنيطرة غلطة مقصودة؟ هناك تفسير يقول إن لجوء الحكومة السورية إلى إذاعة سقوط القنيطرة قبل وقوعه وإبراز الاعلان عن كون دمشق مهددة ، قد يكون بأمل حثّ مجلس الأمن على فرض وقف مبكر لاطلاق النار . إلاَّ أن التفسير المعقول هو الفوضى ، بل الذعر ، الذي غرق فيه القادة السوريون . وفي هذا التشوش المؤسف كما في إدارة الحملة ككل ، وقع على الأسد نصيب من المسؤولية ، وبخاصة بالنسبة لفقدانه قوته الجوية ، إلاَّ أنه بالنسبة لادارة الحرب بالذات فهو لم يكن صاحب القرار بمفرده حتى ولا بشكل رئيسي . وإنه ليس مما يسعد أن يكون المرء وزيراً للدفاع في وقت الحرب دون أن تكون بيده سلطات كاملة .

قامت اسرائيل بنهب مدينة القنيطرة ، التي كانت تضم ١٧ ألف شخص (٣٠٪ منهم شراكسة) . كما أنها أفرغت القرى المحيطة بها ، وخلال الأشهر الستة التالية طردت بالقوة حوال ٩٠ ألف شخص بعد أن جرّدتهم من كل ما يملكون وأبعدتهم عن الجولان إلى الحقول المفتوحة لينضموا إلى ٣٠ ألفاً

آخرين كانوا قد هربوا قبلهم أثناء القتال . ولم يبق سوى حوالي ٧ آلاف شخص (معظمهم من الدروز) ظلوا في بيوتهم ، وسمح فقط لـ ٤٠٠ شخص(معظمهم أيضاً من الدروز) بالعودة إلى مساكنهم . وبدأت المستوطنات الاسرائيلية العسكرية تضرب بجذورها في مزارع السوريين المشردين[٣٧] . وأصبحت القنيطرة ، من ثَمّ ، علامة لهزيمة سوريا ، ورمزاً للكراهية بين سوريا واسرائيل ، وصليباً كان على الأسد أن يحمله.

هوامش الفصل التاسع

(١) كارل فون هورن : جندي من أجل السلام (لندن ١٩٦٦) الفصل ٢١ .

(٣) سعد جمعة : **المؤامرة ومعركة المصير** (بيروت ١٩٦٨) ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، وكذلك وصفي التل : **كتابات حول قضايا عربية** (عمان ١٩٨٠) ص ٣٢٦ .

(٤) فؤاد جابر : «حركة المقاومة قبل حرب حزيران / يونيو» ، في كتاب وليام ب. كوانت وفؤاد جابر وآن موزلي ليتش المعنون : **السياسيات والمسائل السياسية المتعلقة بالوطنية الفلسطينية** (بيركلي ١٩٧٣) ص ١٧٤ .

(٥) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٢ أيار / مايو ١٩٨٥) .

(٦) مقابلة مع شفيق الحوت ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت (لندن ١٥ شباط / فبراير ١٩٨٧) .

(٧) أبو إياد : فلسطيني بلا وطن (باريس ١٩٧٨ ص ٧٦) .

(٨) مقابلة مع شفيق الحوت (لندن ١٥ شباط / فبراير ١٩٨٧) .

(٩) أدلى ياريف بتصريحه هذا في ١٢/ أيار مايو / سنة ١٩٦٧ ، وهو مقتبس في كتاب جون ك. كولي المعنون «**آذار الأخضر وأيلول/ سبتمبر الأسود**» (لندن ١٩٧٣) ص ١٦٠ .

(١٠) كولي (مرجع سبق ذكره) ص ١٦٠ .

(١١) يورام بيري : (بين المعارك وصناديق الاقتراع : العسكريون الاسرائيليون في السياسة) كامبردج ١٩٨٣ من ٢٣٧ ، ٢٤٦ .

(١٢) وثائق وتقارير عربية ١٩٦٧ (العدد ١١) ص ١٧٨ .

(١٣) منذ أيلول سنة ١٩٦٦ كان رابين قد اقترح معالجة غارات الفدائيين بتوجيه الضربة «ضد النظام السوري نفسه» . مقابلة مع مجلة بمحنيه (مجلة الجيش الاسرائيلي) في ١١/ أيلول سنة ١٩٦٦ .

(١٤) ريتشي أو فينديل : **جذور الحروب العربية الاسرائيلية** (لندن سنة ١٩٨٤) ص ١٧٨ .

(١٥) خطاب استقالة عبد الناصر في ٩/ حزيران / يونيو سنة ١٩٦٧ منقولاً في كتاب روبرت ستيفن المعنون «ناصر» (لندن ١٩٧١ ، وطبعة يليكان سنة ١٩٧٣) ص ٥٠٦ .

(١٦) مقابلة مع محمد حسنين هيكل (لندن ١١ آذار/ مارس ١٩٨٦) .

(١٧) نفسه .

(١٨) خطاب أمام ممثلي الاتحادات النقابية العربية في ٢٦ أيار / مايو سنة ١٩٦٧ ، مقتبس في كتاب سْتِيفِنْزْ (مرجع سبق ذكره) ص ٤٧٩ .

(١٩) مؤتمر صحفي في ٢٨ أيار / مايو سنة ١٩٦٧ ، مقتبس في كتاب ستيفنز (مرجع سبق ذكره) ، ص ٤٧٩ .

(٢٠) على سبيل المثال : (يوميات وزير) بقلم ريتشارد كروسمان (الجزء ٢ لندن ١٩٧٦ ص ٣٥٥ - ٣٥٩) و(يوميات كاسل ١٩٦٤ - ١٩٧٠) لندن ١٩٨٤ ص ٢٥٧ - ٢٦٢ .

(٢١) اسحق رابين : مذكرات رابين (لندن ١٩٧٩) ص ٦٩ .

(٢٢) أبا إيبان : السيرة الذاتية (لندن ١٩٧٧) ص ٣٤٩ .

(٢٣) وليام ب كوانت : عشر سنوات من القرارات (بيركلي . كاليفورنيا ١٩٧٧) ص ٤٩ - ٥٠ ، وكذلك إيبان (مصدر سبق ذكره) ص ٣٥٢ و٣٥٩ .

(٢٤) وليام كوانت (مرجع سبق ذكره) ص ٦١ .

(٢٥) لقد ورد ذكر إسْمَيْ إيب فورتاس ، مستشار الرئيس ، والمستر فلد ستاين الصيرفي الذي كان يشغّل طائرات للهاغاناه في سنة ١٩٤٧ - ٤٨ . . في أطروحة دكتوراه غير مطبوعة عن ليندون جونسون من تأليف لويس غومولاك في جامعة تكساس بمدينة أو ستن .

(٢٦) لقد كانت هناك تأكيدات بأن الولايات المتحدة زودت اسرائيل باستطلاع جوي سراً خلال حرب الأيام الستة . انظر كتاب ستيفن غرين : **الانحياز علاقات أميركا السرية باسرائيل المتصلبة** (نيويورك ١٩٨٤) ص ٢٠٤ - ٢١١ .

(٢٧) كان هذا رأي معاون وزير الخارجية يوجين روستو (كوانت - مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨) وكذلك رأى بعض الجهات في وزارة الخارجية الاسرائيلية (رافائيل - مرجع سبق ذكره - ص ١٣٠ - ١٣١) .

(٢٨) بيري (مصدر سبق ذكره) ص ٢٤٥ حيث اقتطفت أقوال عازر وايزمن من كتابه (على أجنحة النسور) لندن ١٩٧٦ ص ٢١٩ .

(٢٩) بيري (مرجع سبق ذكره) ص ٢٥٩ - ٢٩٠ .

(٣٠) مقابلة ضابط مخابرات اسرائيلي سابق يرغب في أن يبقى اسمه مكتوماً .

(٣١) منهم على سبيل المثال عازر وايزمان (صحيفة ها آرتيز ٢٩ آذار/ مارس ١٩٧٢) .

(٣٢) رابين (مصدر سبق ذكره) ص ٩٠ .

(٣٣) نفسه (ص ٨٨) .

(٣٤) آنطوني هـ . كوردزمان : **الميزان العسكري العربي - الاسرائيلي وفنّ العمليات** : معهد المشاريع الأميركية ، (واشنطن - تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٨٦) ص ١٥ .

(٣٥) لورنس ل. ويتن : حرب القنال (كمبريدج - ماساشوستس ١٩٧٤) ص ٤٤ .

(٣٦) غاليا غولان من الجامعة العبرية في مقابلة مع مجلة نيولوك ، تل أبيب - أيلول / سبتمبر 1987 ص ٢٢ .

(٣٧) بطران (مرجع سبق ذكره) ص ١٩٩ - ٢٠٠ وأنظر أيضاً مغرب - مشرق الجزء ٩٥ (كانون الثاني / يناير ، شباط / فبراير ، آذار / مارس ١٩٨٢) ص ٩٩ - ١٠٦ من أجل تاريخ الجولان .

الفصْلُ العَاشِرُ

العِراكُ من أجل القِمَّة

كان أسبوع حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ بمثابة كابوس جثم على وزير دفاع سوريا. ففي ٥ حزيران/ يونيو فقد الأسد سلاحه الجوي، وفي يوم ١٠ فقد الجولان، وفي يوم ١٢ فقد الموقع القوي على قمة جبل الشيخ حيث يمكن لإسرائيل أن تراقب كل حركة في سهل دمشق. وأصبحت العاصمة السورية عملياً تحت الحصار وكان يتدفق إليها عشرات الألوف من اللاجئين. ولم يكن الأسد قادراً على النوم فوقع مغشياً عليه من التعب في وزارة الدفاع، وعندما مرّت فترة الخطر المباشر، ذهب إلى بيته ليمعن التفكير في الكارثة لمدة ثلاثة أيام امتنع خلالها عن رؤية أحد من الناس.

وكانت وطأة الحرب شديدة أيضاً على الغالب مثلما كانت على المغلوب. فقد انهار رئيس الأركان الإسرائيلي إسحق رابين هو الآخر في ٢٣ أيار/ مايو تحت ضغط «فترة الانتظار». وعندما استعاد قواه وجد أن موشي دايان قد رُفّع إلى منصب وزير الدفاع ليحصد مجد الحملة التي خطط لها رابين نفسه. أما في القاهرة فكانت الأمور أكثر تجهماً. فقد كاد عبد الناصر أن يصاب بانهيار عصبي وجسماني ونال منه حزن بالغ حين رأى صديقه وقائد جيشه المشير عامر قد أقدم على الانتحار، فانتابه قلق شديد وقال مرة لأحد مساعديه: «إنني أرى وجهه في

كل ملف أقرؤه وفي كل طبق طعام يوضع أمامي»[١] . وفي عمان راح الضباط الأردنيون والمصريون يتشاتمون بينما كان الملك حسين يتأمل بمرارة ما آلت إليه مملكته التي تقلّصت كثيراً.

وفي سوريا أيضاً أثارت فترة ما بعد كارثة الحرب مشادّات وشجارات عنيفة بين القادة. فقد اهتز الحزب، والقيادة العليا، والحكومة بالاتهامات المتبادلة: فالعسكريون راحوا يلومون المدنيين لقيامهم بجر البلاد إلى الحرب، بينما راح المدنيون يشجبون العسكريين على عدم كفاءتهم. وطالب عدد من أعضاء الحزب بأن يستقيل الأسد فوراً مں وزارة الدفاع وجرت محاولة لطرده من القيادة القطرية، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل بفارق صوت واحد هو صوت عبد الكريم الجندي مدير الأمن الذي كان هو نفسه مرشحاً ليخلف الأسد، ولكنه دعم خصمه بدافع من روح الزمالة.

إلاَّ أن فترة الشجار توقفت موقتاً عندما أدرك المتشاجرون أنه إذا لم يرصوا صفوفهم فإن النظام بأكمله سيكون عرضة للخطر باعتبار أن الحرب لم تؤد فقط إلى انهيار سمعة البعث بل إلى عودة بعض القدامى من الطامعين بالسلطة. ففي ٥ حزيران/ يونيو قرر أربعون ضابطاً من الذين كانوا قد نفوا إلى بيروت أن يعودوا إلى وطنهم لقتال إسرائيل. وقد أعلموا السلطات بنيّتهم هذه إلاّ أنهم اعتُقلوا لدى وصولهم على يد نظامٍ كان من الاضطراب بحيث لا يمكنه قبول مثل عروض المساعدة هذه. وفي سجن المزة، راح اللواء فهد الشاعر، الذي كان قد قاد الانقلاب الفاشل الذي حاوله الزعماء القدامى قبل ثمانية شهور، يخبط على باب زنزانته متوسلاً أن يرسل إلى الجبهة. إلا أن النظام كان يعتقد بأنه من الخطر إطلاق سراحه. غير أن حفنة من الخصوم السابقين أُفرج عنهم وكان من بينهم محمد عمران، أول رئيس للجنة العسكرية، وأمين الحافظ، رئيس الدولة الذي أطيح به في شباط/ فبراير ١٩٦٦. وتم إطلاق سراح هؤلاء في ٩ حزيران/ يونيو أي في اليوم الذي هجمت فيه إسرائيل على الجولان. وقد دفعت

مشاعر الانفعال القلقة السائدة حينذاك بعض الضباط المنشقين إلى الاتصال بأمين الحافظ وطلبوا منه أن يقو انقلاباً إلا أنه رفض؛ وقال فيما بعد: «لم أشأ أن يقول التاريخ عني إنني ساع .ت إسرائيل على خلق الفوضى في بلادي»(٢). أما الصديق القديم الموالي لعفلق منصور الأطرش الذي تم الافراج عنه أيضاً فقد استذكر بمرارة «أنه لم يكن من المستساغ أن نعرف أننا كنا مدينين بحريتنا للهزيمة»(٣).

إن نظام البعث لم يحظَ بالشعبية قط، أما الآن وعلى أثر الهزيمة فإنه أصبح محط اللعنات. وقال أصحاب الضغينة إنه لم يرسل أفضل وحدات الجيش إلى الجبهة لأن خشيته الأولى كانت تتعلق ببقائه لا ببقاء البلاد. ولم يكن ثمة أحد مستعداً ليعترف بالشجاعة التي أبداها الجنود في الدفاع قصير الأمد عن الجولان. أما الأطباء الثلاثة الذين كانوا يقودون سوريا وأدّت خطبهم النارية إلى إشعال الأزمة فقد بدوا أطفالاً في الميدان الدولي، إذ أنهم كانوا يعيشون في عالم من صنع خيالهم حيث تحل الشعارات محل القوة الحقيقية. وزاد في الطين بلّة بعد الهزيمة المنكرة في الجولان أن وسائل الإعلام السورية راحت تدّعي بحماقة أن إسرائيل لم تحقق أغراضها بالحرب طالما أنها أخفقت في إسقاط النظام، وهي فكرة استعيرت، لمواساة النفس، من تعليق سوفياتي حينذاك جاء فيه أن «الامبرياليين والصهاينة» لم يتمكنوا من إسقاط حكومة سوريا التقدمية. إلّا أن الرأي العام لم يكترث بهذا الكلام.

ومما لا شك فيه أن الهزيمة كانت النقطة الحاسمة في حياة الأسد إذ أنها ألقته فجأة في مرحلة النضج السياسي وحفّزت فيه الطموح ليحكم سوريا بعيداً عن قيود زملائه ومنافسيه الذين كان يحس بأنهم قادوا البلاد إلى الكارثة.

لم يكن الأسد، قبل الحرب، ليعطي الانطباع بأن ثمة طموحاً يحركه. ولعل أهم مناحي قوته حينذاك كانت قدرته على عدم إثارة الشكوك حياله. فبالرغم من أن أهميته ظلت تتصاعد وتكبر باستمرار منذ استيلاء البعث على الحكم عام

١٩٦٣، إلاَّ أنه بقي بشكل ما محجوباً بظل عمران، والحافظ، وجديد. فهو لم يكن في واجهة المسرح السياسي، ولعله اكتفى بأن يكون عضواً هاماً في ذلك الفريق دونما طموح إلى أن يصبح الرجل رقم ١. كان يوحي بالاخلاص، ولم يكن ليثير خوفاً في مستويات الحزب العليا أو ينظر إليه كشخص عميق أو مولع بتدبير المكايد. ويبدو أن صلاح جديد لم يتبين أنه كلما ارتقى درجة كان الأسد دائماًوراءه على بعد درجة واحدة فقط على السلم نفسه. والواقع أن جديد كان بطيئاً في إدراك الخطر القادم من هذا الشاب الصريح الطيب المبتهج. إلاَّ أنه بعد الحرب وبعد أن فهم الأسد عِبرَ الهزيمة، حلت محل ابتهاجه صلابة فولاذية، وعقد العزم منذ ذلك الحين على بناء قاعدة شخصية له في القوات المسلحة. وعلى غرار ما يفعله زعماء القبائل، راح يستقطب الولاء لنفسه عن طريق تقديم الخدمات والمنح، وتحسين أوضاع زملائه من أمثال ضابط المدرعات مصطفى طلاس.

كان تصميم الأسد ذاك يعود أساساً إلى الاستياء الذي تملكه. فهو لم يعتبر نفسه مسؤولاً عن الكارثة التي آلت إليها سياسات جديد والحكومة والقيادة القطرية (التي ملأها جديد بالذين قام بتعيينهم).

ومع ذلك فقد كانت أصابع الاتهام تشير إلى الأسد لضياع الجولان مما أثار في نفسه شعوراً ملحاً بأنه ما دام سيتلقى اللوم فليكن له إذن صنع القرارات. وكانت ثمة أسباب أساسية أخرى جعلته يعقد العزم على أن يصبح سيد سوريا ألا وهي: أن مواقف نظام جديد وسياساته فقدت كل ما يشده إليها.

كان هناك أولاً موضوع الفدائيين. فبعد الهزيمة ثابرت حكومة جديد على تمجيدهم وعلى تأكيد التزامها «بالحرب الشعبية» في حين أن الأسد وجد أن الحرب أثبتت أنه يجب ألا يسمح للفلسطينيين بأن يتصرفوا على هواهم: إذ أن غاراتهم أفادت إسرائيل وأعطتها ذريعة لتهديد سوريا واستدراج مصر إلى الأزمة. ثم كانت هناك مسألة «الصراع الطبقي» التي كان يريد نظام جديد شنها

في الداخل والخارج. فعلى الصعيد الداخلي ظل النظام ينظر إلى البورجوازية على أنها هي العدو، أما على الصعيد الخارجي فقد أعلنت الحكومة أنها لن تتعامل مع الأنظمة العربية «الرجعية»، بل انها رفضت حضور مؤتمر القمة الذي عقد في الخرطوم في شهر آب/ أغسطس ١٩٦٧ من أجل تقويم الوضع العربي بعد الحرب. وقد تعهد المؤتمر بمساعدة الاقتصاد المسحوق في كل من مصر والأردن في حدود ١٣٥ مليون جنيه استرليني في السنة، أما سوريا ـ الغائبة عن المؤتمر ـ فلم تحصل على شيء. في حين أن الأسد كان يريد أن يرص الصفوف في الداخل وينشد تعاوناً عسكرياً أكبر مع الدول العربية مهما تكن الخلافات العقائدية معها.

وهكذا رفضت الحكومة السورية قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧ الذي يقضي بأن تقوم إسرائيل بإعادة الأراضي التي احتلتها لقاء السلام، وشجبت أي تسوية سلمية مع إسرائيل باعتبارها خيانة للحقوق الفلسطينية. ولم يكن الأسد بأقل تصميماً على رفض عدوان إسرائيل ومكاسبه، وقد أقنعته الحرب بأن التوسع هو جزء من طبيعة إسرائيل وبأن المطلوب هو جهد عربي كبير لاحتواء هذا التوسع. ولكنه لم يكن يطيق التبجح الذي أدى إلى عزل سوريا عن باقي العالم.

النزاعات الداخلية

اشتدت الخلافات بين الأسد وبين زملائه، والتي كانت قد بدأت عام ١٩٦٧، وزادت حدَّة في العام الذي تلاه، وكان لب هذه الخلافات هو النزاع حول الأولويات. ففي حين كان اهتمام الأسد مركزاً على الصراع مع إسرائيل، كان جديد والأطباء الثلاثة يضعون الثورة الداخلية في المقام الأول. أي أن النزاع كان باختصار بين أهداف الأسد «القومية» وبين أهداف هؤلاء «الاشتراكية». كان نظره متجهاً إلى الخارج، نحو الجولان الضائع، أما أنظارهم فكانت متجهة نحو الداخل وإلى مزيد من التغيير لوجه سوريا ـ وقد ترك هذا

الخلاف أثره على المواقف تجاه سلسلة كاملة من القضايا. فلم يكن الأمر يتعلق فقط بعلاقات سوريا مع الفلسطينيين، وبالموقف الذي ينبغي أن تتخذه سوريا حيال جيرانها العرب والقوى العظمى، بل إن الخلاف أثّر أيضاً على الخيارات الداخلية مثل: كيف يجب أن تنفق موارد البلاد القليلة أصلاً؟ هل يمكن إقامة هدنة في حرب الطبقات؟ أي نوع من الأحزاب يجب أن يكون عليه البعث ـ وما نوع العلاقات التي يجب أن تقوم بينه وبين الناس أو بينه وبين الجماعات اليسارية الأخرى؟ وقد تفاقمت المناقشات في محافل الحزب حتى أصبحت غير قابلة للمصالحة في المؤتمر القطري الرابع الذي انعقد في ايلول/ سبتمبر ١٩٦٨.

وكما هي العادة المألوفة في البعث كان هناك طوفان من الكلام ومن التنظير إلى أن حُسمت النتيجة بقوة الأسد المتفوقة والمدعومة بالسلاح. ولعله كان هناك شيء من الحكمة في السرد الذي أعطاه الأسد فيما بعد عن موقفه في تلك المجادلات، إلا أن آراءه التي قدمها حينذاك كانت تدل مسبقاً على السياسات التي انتهجها حين أصبح في السلطة، ولهذا فإنه يجب النظر إلى هذه الآراء على أنها كانت تعكس قناعاته الحقيقية في ذلك الوقت. فالحرب وفقدان الشعبية الذي جلبه النظام على نفسه دفعا الأسد إلى الافتراق عن زملائه الأكثر تطرفاً. والواقع أنه كان يتحرك نحو اليمين.

ويستذكر الأسد[٤] فيقول: «لقد اختلفنا على الحزب وكيف نبنيه. وقد ناقشنا الأمر مطولاً وبتفصيل يمكن أن يملأ مجلدات. وكانت أمامنا مسألة أساسية: كان بعض زملائي يعتقدون بأن من الأصح أن يبقى الحزب منغلقاً على ذاته لحماية مناضليه ومنع الانتهازيين من التسلل إلى صفوفنا، فلقد ناضلوا وعانوا من السجن والتعذيب ولذلك اعتقدوا بأنهم قد كسبوا الحق للانفراد بالسلطة، وكانوا يقولون: «نحن في السلطة» ويقصدون أن الناس الذين لم يشاركوا في النضال يجب أن يظلوا خارج الحزب.

«وكنت أرى العكس تماماً. إذ لم أكن أعتقد أن السجن والتعذيب ضروريان ضرورة كاملة لتكوين حزبي جيد. فتجربة الحكم نفسها صالحة أيضاً لتكون محكاً لمعدن الرجال. وبالطبع فإن الانتهازيين يشكلون خطراً ولكنه خطر يتعين ألَّا نبالغ في تصوير حجمه. فلو أننا قبلنا ألف عضو جديد وكان بينهم مائتان من غير المرغوب فيهم فإن الحزب يكون قد ربح ثمانمائة عضو جيدين. وكنت أعتقد بأن انغلاق الحزب على نفسه سيجعله كالماء الراكد في حفرة وغير قادر على التكيف مع جريان التيار. ثم إن حزباً منغلقاً على نفسه إنما يطلق العنان للانتهازيين بين ظهرانيه. ويبدأ أعضاؤه في النظر إلى أنفسهم كطبقة قائمة بذاتها».

وامتد النزاع من مسألة هل يفتح الحزب أبوابه أو يبقى شلة يسارية مغلقة؟ إلى مسائل أخرى متصلة بهذا الموضوع مثل كيفية تعامل البعث مع الأحزاب السياسية المنافسة ومع جمهور الناس عموماً. كان الأسد يريد طريقة أكثر انفتاحاً: «لم يكن هناك شجار حول ضرورة أن يكون البعث هو المصدر الرئيسي لقوة منظَّمة في الدولة. ولكننا لم نكن وحدنا في عملية الاستيلاء على السلطة عام ١٩٦٣، كان هناك تيارات أخرى وتجمعنا بها أشياء كثيرة، ولقد تعاملنا مع قادتها كأفراد بل حتى أننا أدخلنا بعضهم في الوزارة، إلا أننا لم نعترف بهم كمجموعات سياسية منظمة. وكنت أنا أرى أنه يجب الاعتراف بها، وأنه يجب أن نكوّن جبهة واحدة معها.

«وقد اعترض زملائي بقولهم إننا إذا ما أعطينا لهذه المجموعات مكاناً، فسيكون لزاماً علينا أن نقاسمهم ما كسبناه. وكان رأيي أنهم حتى إذا كانوا سيستفيدون، فإننا نحن الذين قدنا الثورة سوف نستفيد أكثر باعتبار أن أهدافنا السياسية الأساسية ستتقدم، وإن تكوين جبهة من شأنه أن يقوّي الثورة لا أن يضعفها، وسيكون لذلك ميزة الاعتراف بالحقائق السياسية في القطر كما هي»(٥).

ولم يكتف الأسد بالمناداة بفتح الحزب أمام أعضاء جدد وباستقطاب حلفاء سياسيين، بل كان يريد أيضاً إيجاد الوسائل الكفيلة بضم أفراد الشعب إلى الجهاز السياسي ولو على الصعيد المحلي على الأقل. فحينذاك لم يكن هناك إدارات محلية في المحافظات السورية ولا مؤسسات في العاصمة؛ باستثناء مجلس الوزراء الذي كان يمارس السلطتين التشريعية والتنفيذية بتوجيه من القيادة القطرية. ويقول الأسد: «وهكذا كان من الصعب الادعاء بأن ذلك يشكل نظاماً ديمقراطياً أو بأننا نُشرك الشعب في مسيرتنا. وكنت أقول بأن علينا أن نقوم بالانفتاح على الآخرين (وإن كنت قد أصبحت أكره كلمة الانفتاح عندما استعملها السادات قبل أن يذهب إلى إسرائيل). كنت أقول حينئذ إن علينا أن ننفتح ونعطي الشعب مؤسسات يستطيع أن يلعب دوره من خلالها ويساعد في بناء اقتصاد حيوي، وإلاّ فإننا سنرى أنفسنا قد أصبحنا جياعاً»[٦].

وعلى صعيد العلاقات الخارجية، كان الأسد يقول أيضاً باتباع سياسة أكثر واقعية. «فقبل ١٩٧٠ كانت هناك قطيعة شبه تامة بيننا وبين العرب الآخرين. ورغم أننا كنا نقول إن القضية هي قضية العرب فإننا لم نكن نعطي العرب فرصة المشاركة فيها. وكان بعض زملائي يشجبون دولاً أخرى بطريقة غاية في التعصب، بينما كنت أؤمن بقوة بأنه يتحتم علينا تشجيع العرب الآخرين ليلعبوا دورهم لا أن نكون معرقلين للجهد العربي المشترك. فمهما تكن الخلافات بين الأنظمة، فالعرب إنما يواجهون خطراً مشتركاً»[٧].

وقد أصبح موضوع علاقات سوريا مع واحد من الأقطار العربية المجاورة موضوعاً ملتهباً بشكل خاص وذلك عندما استعاد السلطة في بغداد يوم ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨ البعث العراقي (الذي ظل يعمل في الخفاء منذ ١٩٦٣). فزملاء الأسد لم يكونوا سعداء بما حدث لأن بعث العراق أيد عفلق الذي دحره السوريون وطردوه عام ١٩٦٦. وهكذا اكتفت جريدة البعث السورية بإيراد الخبر بشكل مقتضب وبارد تحت عنوان: «راديو بغداد يذيع نبأ انقلاب عسكري»[٨]

ثم سرعان ما أصبحت بغداد ملجأً للبعثيين القدامى وخصوم دمشق الآخرين من أمثال أمين الحافظ رئيس الدولة السابق الذي انتقل إلى بغداد من بيروت. إلا أن الأسد رغم عدائه لعفلق فقد نصح بإقامة علاقات أوثق مع العراقيين واضعاً نصب عينيه إقامة «جبهة شرقية» ضد إسرائيل.

وكان هناك موضوع آخر محل خلاف بين الأسد ورفاقه ألا وهو موضوع كيفية التعامل مع موسكو. ويستذكر الأسد فيقول: «لم تكن علاقتنا مع الاتحاد السوفياتي علاقة مُرضية.

«وقد بدا أن حكومتنا لم تكن على وفاق لا مع البلدان الاشتراكية ولا مع البلدان غير الاشتراكية. الواقع أننا لم نكن على وفاق مع أحد. وهذا لم يكن أسلوباً عملياً في مواجهة قضايانا. فعندما يكون بلد ما عرضة للخطر، كما كنا معرّضين، فيجب عليه أن يعبىء الدعم حيثما يستطيع»[٩].

وكان الزعماء السوفيات مستائين من عدم وجود نفوذ لهم في حكومة جديد وكانوا في أحسن الأحوال فاتري المشاعر حيال السياسيات «اليسارية» التي أدَّت إلى اشتعال حرب ١٩٦٧. وكانت وسائل الاعلام السوفياتية قد تحدثت عن «المتهورين السوريين»، كما أنه لم يكن لدى الدوائر السوفياتية إلا القليل من التعاطف مع ادعاء جديد حين زار موسكو في شباط/ فبراير ١٩٦٧ بأن نظامه يجب أن يعتبر ممارساً «للاشتراكية العلمية» رغم أنه رفض أن يتعاون مع الحزب الشيوعي السوري. وكان الأسد يدرك أن سياسات جديد أخفقت في أن تجعل سوريا تكسب الدعم الذي تحتاج إليه. ولذلك فقد صمم بعد محادثاته في موسكو مع نظيره السوفياتي المارشال آندريه غريشكو في آب/ أغسطس ١٩٦٧ أن يجعل العلاقات مع الاتحاد السوفياتي على أساس عملي بعيداً عن العقائديات وعن تذبذبات الصعود والهبوط العاطفيْين. فموسكو وحدها هي القادرة على تزويده بالسلاح للجيش الجديد الذي عزم على بنائه، إلا أن الروس لم يكونوا مجرد تجار سلاح، فمن أجل أن تكون مساعدتهم فعالة. لا بد

أن تتم في اطار من الثقة والتشاور. لأن عمليات التزويد بالسلاح يجب أن تكون جزءاً من سياق علاقة سياسية حساسة(١٠).

بناء الدعم

سرعان ما أصبح الخلاف المتزايد بين الأسد وجديد مدار الحديث في الجيش وفي الحزب. وكان على كل عضو فيهما أن يختار الوقوف إلى صف هذا أو ذاك، وهكذا بدأ المطلعون على بواطن الأمور يتكلمون عن «ازدواجية السلطة» في قلب الشؤون السورية. وخطوة بعد خطوة راح الأسد يخرج رجال جديد من مراكز النفوذ في القوات المسلحة. وكان أبرز مثال على ذلك هو طرد رئيس الأركان أحمد سويداني في شباط/ فبراير ١٩٦٨ وتعيين صديق الأسد المقرَّب مصطفى طلاس في مكانه. والواقع أن علاقات سويداني بجديد كانت متوتّرة نتيجة كارثة حرب ١٩٦٧، مما جعل ابعاده أكثر سهولة. بالإضافة إلى أن سويداني راح كأمثاله من سنّيي حوران، يدمدم ويتذمر من النفوذ العلوي في الجيش دونما وجه حق، وكان هذا سبباً كافياً للتخلص منه. (وكانت تحوم حوله شبهة التورط في انقلاب فاشل في آب/ اغسطس ١٩٦٨ إلا أنه هرب من البلاد. وفي تموز/ يوليو ١٩٦٩ اعتقل عندما توقفت بمطار دمشق طائرة كان يستقلها)(١١). وكان حلول طلاس محله أمراً في غاية الأهمية بالنسبة للأسد.

فمصطفى طلاس ظل الصديق الصدوق للأسد منذ لقائهما في الكلية العسكرية بحمص في عام ١٩٥١. وكلاهما كانا طالبين بعثيين، وكانا يحبان الشعر، وأصبحا ضابطين لعدم توفر الفرصة الأفضل: فالأسد كان يريد أن يصبح طبيباً. بينما كان طلاس يحلم بأن يدرس الأدب والفلسفة في السوربون. ويُعرف عن طلاس أنه دائم الابتهاج، لمَّاح الذكاء، وهو رفيق أنيس، ويعتمد عليه، ويشتهر في أوساط الجيش بأنه يبقى هادئاً مهما كانت الظروف. كان مع الأسد خلال الوحدة في القاهرة، وبعد انقلاب ١٩٦٣ تم ضمه إلى اللجنة العسكرية، وغداة اضطرابات حماه عام ١٩٦٤ ترأس المحاكم الخاصة التي

أقيمت لمحاكمة الخصوم السياسيين، وفي شباط ١٩٦٦ حرّك لواءه لدعم الهجوم على عفلق. والآن وقد رفع إلى منصب نائب وزير الدفاع قام طلاس بمساعدة الأسد بإحكام قبضته على القوات المسلحة، وإعادة «العناصر الجيدة» ـ أي الرجال المخلصين لهما الذين أُخرجوا من الحكومة. وبالتدريج وبهدوء راح طلاس ينتزع الرجال الموالين لجديد «واحداً بعد آخر كما تتنزع أوراق ثمرة الأرضي شوكي»[١٢].

وصرف من الخدمة أيضاً واحد آخر من الموالين لجديد هو سيء الحظ أحمد المير الذي كان آمر جبهة الجولان خلال حرب حزيران/ يونيو. وقد تقاعد من الجيش بعد الهزيمة. إلاَّ أنه لكونه من مؤسسي اللجنة العسكرية فقد أعطي مقعداً في القيادة القومية للحزب. وفي تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٨ استطاع الأسد أن ينفيه إلى الخارج إلى السفارة السورية في مدريد التي أصبحت المقر التقليدي للسياسيين الفاشلين. إلاَّ أن أبرز ضربة وجهها الأسد لجديد كانت إزاحة قريبه وأهم مؤيديه المقدم عزت جديد من آمرية اللواء السبعين المدرع، الذي كان يعتبر القوة الرئيسية الضاربة في البلاد.

وتروى عن الأسد قصة تلقي الضوء على هاجس الولاء الذي كان يتملكه عندما كان يعمل على إعادة الطيارين الفنيين إلى القوات الجوية والذين كان يعتقد بأنه تم تطهيرهم دونما حق. ويستذكر العميد فؤاد كلاس الذي عينه الأسد آمراً للكلية الجوية تلك القصة فيقول: «في أحد الاجتماعات أثار أحدهم قضية (س)، وتساءل ألا يجب اعادته؟ فنظر الأسد إلى السائل شزراً ولم يجب. وبعد قليل طرحت القضية مرة أخرى، وهنا قال الأسد: «لقد سمعت شيئاً معيباً عن هذا الضابط. فعندما كان في دورة بانكلترا عام ١٩٥٤ كتب إليه أخوه طالباً المساعدة من أجل والدتهما المريضة. فما كان من (س) إلا أن أخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات استرلينية وراح يتأملها وقال إنه لن يفرط بهذه لينقذ حياتها. إن مثل هذا الشخص الذي لا يكنّ ولاء لأمه لن يكون مخلصاً ولن يكنّ ولاء للقوة الجوية»[١٣].

واستمر الأسد في إحكام قبضته على الجيش، إلا أن جديد كان لا يزال يهيمن على الجهاز الحزبي. وفي المؤتمرين القطري والقومي للحزب في شهري أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٨ مال التصويت لغير صالح الأسد حيال أكثر القضايا المطروحة ورفضت آراؤه. ولكنه استطاع على أي حال أن يؤمّن إزاحة اثنين من الأطباء الاشتراكيين وهما رئيس الوزراء يوسف زعيّن ووزير الخارجية إبراهيم ماخوس. إلا أن مستقبل الأسد في قيادة الحزب ظل في الميزان نظراً لأن التدخل العسكري في الشؤون الحزبية كان ممقوتاً لدى لحزبيين بشكل عام. وبينما راح الشقاق مع جديد يتزايد، كانت استراتيجية الأسد هي فصل الجيش، وخصوصاً الجهاز الحزبي فيه، عن قيادة الحزب المدنية التي يترأسها صلاح جديد. فمنع ضباط الجيش من أي اتصال مع الساسة المدنيين في الحزب كما منع المدنيين بدورهم من زيارة فروع الحزب في القوات المسلحة، بل انه منع حتى توزيع نشرات القيادة القطرية في وحدات الجيش. ورغم أنه بقي عضواً في القيادة القطرية فقد توقف عن حضور اجتماعاتها. وعلى هذا أصبح هناك في الواقع مؤسستان في سوريا لحزب البعث تتعايشان بصعوبة: واحدة عسكرية والأخرى مدنية.

ومع نهاية ١٩٦٨ كان الأسد قد أحرز تقدماً على جديد في تجميع السلطة بين يديه. فالمناورات التي قام بها في مراكز الجيش من تعيين، ونقل، وطرد، وإعادة تعيين، كل ذلك ألقى بجديد في موقع الدفاع. فبعد أن قام ذات يوم بتوجيه اللجنة العسكرية ضد عفلق، أخذ يرى نفسه في مواجهة عسكري يتحداه، ولما كان قد صرف أكثر وقته في القضايا المدنية، فقد فاته الأوان لإعادة سيطرته على الجيش. وقد علّق على ذلك بتهكم مرير الدكتور منيف الرزاز، الأمين العام للحزب الذي أطاح به جديد عام ١٩٦٦ حين قال: «كانت غلطة جديد القاتلة هي أنه حاول أن يحكم الجيش من خلال الحزب، وهي غلطة كانت مألوفة لدينا»(١٤).

إسقاط الجندي

بالرغم من أن جديد أصبح في هذا الوقت ضعيفاً في القوات المسلحة إلا أنه ظل يسيطر على الأمن والمخابرات بواسطة عبد الكريم الجندي الذي قام، بصفته مديراً لمكتب الأمن القومي في الحزب اعتباراً من ايلول/ سبتمبر ١٩٦٧، بتوسيع أجهزة الدولة القمعية توسيعاً كبيراً. إذ جُند جيشٌ من المخبرين الصغار، وحدثت اعتقالات تعسفية كثيرة، ومظالم أخرى، كما تزايدت النزعة إلى عدم سماع شكاوى الناس. وبدأت تنتشر قصص تعذيب لم تكن معهودة في سوريا من قبل على الاطلاق، فتنشر جوّاً من الرعب. وسيطر على العاصمة نوع من منع التجول غير الرسمي ولا المعلن، وأمسى قليل من الناس هم الذين يجرؤون على الخروج بعد هبوط الظلام خوفاً من أن توقفهم شرطة الأمن وتقتادهم بعيداً. كان الناس يشعرون بالعصبية، وعدم الطمأنينة، ويحجمون عن مغادرة البلاد لأنه قد عُرِفَ عن أجهزة الأمن أنها تقتحم البيوت الخالية وتصادرها. والتصق كثيرٌ من هذا القرف الكريه باسم الجندي.

في سنة ١٩٦٨ كان عبد الكريم الجندي في السادسة والثلاثين، ذكياً ونشيطاً ولكن كان في تركيبه شيء ليس طبيعياً تماماً. كانت غرائبه وقسوته توحي بأنه كان فوضوياً أو حتى عدمياً أكثر منه اشتراكياً متصلباً متشدداً. وقيل ان زوجته، التي لم يكن متفقاً معها، كانت سيدته الوحيدة. وكان يعتبر النكت الموجهة ضده انتهاكات إجرامية. فعندما سمع أن بعض الناس تداولوا حكايات وإشاعات عنه في اجتماع خاص للمحامين وغيرهم من الحرفيين بدأ يطاردهم، فهرب بعضهم مشياً على الأقدام عبر الجبال إلى لبنان وظلوا هناك إلى حين سقوطه.

وفي شباط سنة ١٩٦٩ انفجرت العداوة بين الأسد وجديد إلى صراع مادي جسدي، أو بالأحرى: بينما كان المتنافسان لا يزالان يختاران للتعبير عن نزاعهما لغةَ الخلافات السياسية، فإن مؤيديهما المتنمرين «القبضايات» راحوا

يتضاربون. وعلى مستوى المسدس والقبضة كان يدير الصراع مدير قوى الأمن التابع لجديد، العقيد عبد الكريم الجندي، وشقيق الأسد الأصغر رفعت الذي كان عندئذ في الحادية والثلاثين.

كان رفعت يرى نفسه رجل عمل وتحرُّك، فكان دائماً متعجلاً قليل الصبر مع طريقة أخيه المتأنية في معالجة الأمور. ويمكن القول بشكل ما إن صعود الأسد قد فتح الطريق أمام رفعت بحيث بدأ يأخذ كمسلّمات بديهية السلطات والامتيازات التي اضطر الأسد للكفاح من أجلها خطوة خطوة، وهكذا عجل ضغط رفعت بتأزيم الأمور. انضم رفعت إلى الحزب وهو في سن الخامسة عشرة عام ١٩٥٢، وسيق للخدمة العسكرية في سنة ١٩٥٩ أيام الوحدة. وانتقل بعد الانفصال إلى وزارة الداخلية. وفي سنة ١٩٦٥، أثناء الصراع الحزبي الداخلي عيّن نائباً لقائد وحدة عسكرية خاصة مؤلفة كلها من الحزبيين فقط، وهي التي يتذكر القارىء أنها كانت في الأصل بقيادة محمد عمران، ولكن رفعت سيطر عليها بعد أن انشق عمران عن اللجنة العسكرية. وقد لعبت هذه الوحدة دوراً في انقلاب سنة ١٩٦٦ ضد الفريق أمين الحافظ. وكانت ستشن حرباً ضد عبد الكريم الجندي.

انفجر القتال عندما بدأ رفعت يعتقد بأن جديد يخطط لاغتيال شقيقه. فقد أوقفت سيارة كانت تحوم قرب منزل الأسد واعترف سائقها بعد الاستجواب بأن الجندي أرسله لاغتياله. ولم يكن بالامكان التحقق من ذلك، كما أن الطريقة التي انتزع بها اعتراف السائق أدت إلى عدم مصداقيته، إلا أن ذلك كان كافياً بالنسبة لرفعت كي يحث أخاه على العمل دونما ابطاء، وقال له بأنه ما لم يتم نزع سلاح الجندي فإن الأسد وإخوته سيكونون عرضة للخطر.

وفي الأيام الأربعة ما بين ٢٥ و٢٨ شباط/ فبراير ١٩٦٩ قام الأسد ورفعت بشيء ينقص قليلاً فقط عن أن يكون انقلاباً خاصاً بهما. فحركا الدبابات إلى النقاط الهامة في العاصمة، وطردا بالقوة رئيسي تحرير صحيفتي الحكومة

والحزب: الثورة، والبعث، الموالين لجديد واستبدلا بهما رجال الأسد، وتم الشيء نفسه بين موظفي التحرير في إذاعتي دمشق وحلب. أما في اللاذقية وطرطوس المركزين الرئيسيين في منطقة العلويين فقد حدثت مشاجرات عنيفة عندما قام مؤيدو الأسد بطرد أتباع جديد من مكاتب الحزب والحكومة. ولكن الحادثة الحاسمة كانت قيام رفعت بتضييق الخناق على الجندي في دمشق.

كان من عادة سائقي سيارات الجيب وغيرها من سيارات مديرية الأمن التابعة للجندي أن يتزودوا بالوقود في مبنى وزارة الدفاع في دمشق؛ وخطرت لرفعت وسيلة اعتقال كل واحد منهم عند توجهه للتزود بالوقود. وهكذا تم التقاط سائقي الجندي واحداً بعد الآخر فحُرم من أسطول سياراته. وعندما أُخذ سائق الجندي نفسه أدرك الجندي أن وقته قد حان. وفي وقتٍ ما خلال ليلة ١ ـ ٢/ آذار وبعد مشادة كلامية بالهاتف مع مدير المخابرات العسكرية علي ظاظا، قتل الجندي نفسه بإطلاق الرصاص على رأسه. ولا شك في أنه كان يعلم أنه سوف يُعْتَبرُ مسؤولاً عن جرائم كثيرة. ولعله خشي أن يتعرض لمصير كمصير سليم حاطوم، الرفيق الحزبي الذي عذبه قبل أن يبعث به إلى الاعدام قبل ذلك التاريخ بعامين. كان الجندي رجلًا متعجرفاً لا يطيق بسهولةٍ فكرةَ مواجهة التحقيق والمحاكمة وصدور الحكم عليه. ولا بد أنه شعر والأحداث تدهمه وتطبق عليه بأنه في عزلة نظراً لأن قليلين فقط من أبناء طائفته الاسماعيلية ظلوا في مراكز التأثير في الجيش أو الحزب. وكان الجندي فقيراً بدون موارد مالية أو أصدقاء أو رغبة في أن يبدأ لنفسه حياة جديدة خارج سوريا. ولذلك لم يكن لديه خيار الهرب إلى الخارج. وأقدمت زوجته على الانتحار بعد ذلك ببضعة أسابيع.

تقدم جديد وزعين والأتاسي موكب الجنازة في بلدته السلمية. ولم يحضر الأسد ولكن وزارة الدفاع أرسلت إكليلًا. وحسبما جاء في رواية مصدر ثقة أن الأسد بكى عندما سمع بنهاية الجندي العنيفة. صحيح أنه هندس سقوط

الجندي إلا أنه كان يمقت المجابهات العنيفة وبخاصة إذا كان الضحايا من رفاقه.

وعلى أثر موت الجندي الذي غيَّر ميزان القوة تعزّز مركز رفعت الشاب كذراع الأسد اليمنى القوية في مجال النزاعات الداخلية. كان رفعت رجلاً أنيقاً، قوي البنية، وقد ورث أكثر من غيره من آل الأسد مقداراً كبيراً من الثقة بالنفس والاقدام. كان متلهفاً للحصول على السلطة وعلى الاستمتاع بالحياة، ولم يكن يأبه كثيراً كيف يحصل عليهما معاً. في ذلك الوقت بدأ في طريق الصعود.

أما بين أتباع جديد فقد سَبَّبَ موتُ الجندي جزعاً شديداً. فقد فقدوا بذلك أداة حيوية من أدوات السلطة، كما يتذكر شاهدٌ كان قريباً من الأحداث آنذاك بقوله: «ذات ليلة، عندما كان زعيّن جالساً معي في البيت تلقيت مكالمة هاتفية بأن الجندي قد أُطْلِقَتْ عليه النارُ أو أَطْلَقَ النارَ على نفسه، وقد نُقِلَ إلى المستشفى الايطالي، القريب جداً من بيتي فذهبتُ لألقي عليه نظرة فوجدتُ أنه قد مات. وعند عودتي أخبرت زعين بالخبر، فبدأ يبكي، وأطلق عبارة غريبة: «لقد أصبحنا جميعاً أيتاماً» ولا بدّ أنه كان يعني بها أنه وجماعته قد فقدوا بموت الجندي أباً وحامياً»(١٥).

ورغم أن الأسد كسب جولة هامة فإنه كان هائل التردد في استغلال الفرصة لكسب المزيد. ولم يكن ثمة مجال للمصالحة بينه وبين جديد، ورغم ذلك فقد سمح لقيادة جديد القطرية بأن تستمر في العمل ولكن مع إجبارها على التراجع عن مواقفها من القضايا السياسية: فخفضت نغمة الصراع الطبقي، وتم إسكات النقد الموجه ضد الأنظمة العربية، وأطلق سراح بعض السجناء السياسيين، وشكلت حكومة ذات قاعدة أوسع، وظهرت بوادر ترقيع «جبهة شرقية» بالاشتراك مع الأردن والعراق. وهكذا خرجت سوريا من عزلتها وعادت إلى حضور مؤتمرات القمة العربية. وفي أوائل آذار ١٩٦٩ جاء إلى دمشق مبعوثون من قبل الرئيس عبد الناصر والرئيس الجزائري بومدين بل حتى من قبل

النظام البعثي الجديد في العراق وذلك لكي يعرضوا وساطتهم في الصراع بين الأسد وجديد الذي أصبح حينذاك حديث الحكومات العربية.

في هذه الفترة قام الأسد ونور الدين الأتاسي بزيارة عبد الناصر في القاهرة، وكان الزعيم المصري قد تجمعت في نفسه مشاعر شتى حيال سوريا والسوريين: فهم الذين طالبوه بالوحدة مع مصر ثم هم انفصلوا عنها فأنزلوا به ضربة قاصمة، وهم الذين استدرجوه إلى كارثة حرب حزيران/ يونيو التي لم يشف منها أبداً. وها هو الآن، وفي الشهور الأخيرة من حياته، يسأل بسأم زائريْه عن أحوال بعثيين سوريين آخرين كان قد عرفهم، فعلم منهما أن أحدهم قتل، والثاني يتقلب في السجن، والثالث تم نفيه. وهنا قال عبد الناصر متعجباً: «آه يا بعثيون! كم أنتم شديدو القسوة حيال بعضكم البعض. أما نحن في مصر فحين شكلنا حركة الضباط الأحرار اتفقنا أنه إذا ما حدث شقاق بيننا فإن لكل واحد منا ملء الحرية في أن يعود إلى حياته الخاصة». ولكن السوريين لم يكونوا على استعداد، في هذ الأمر ولا في غيره، لأن يسيروا على الطريقة المصرية.

فمن بين الأعضاء المؤسسين الخمسة للجنة العسكرية: كان عمران منفياً في لبنان، وكان المير قد طرد إلى مدريد، والجندي قد مات. أما الاثنان الباقيان، الأسد وجديد، فكانا مشتبكين في عراك يستميت فيه كل منهما من أجل الوصول وحده إلى قمة السلطة.

هوامش الفصل العاشر

(١) مقابلة مع عبد المجيد فريد (الذي عمل حينذاك مديراً لمكتب عبد الناصر) ـ لندن ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦.

(٢) مقابلة مع أمين الحافظ (لندن، ١٠ أيار/ مايو ١٩٨٦).

(٣) مقابلة مع منصور الأطرش (دمشق، ٢٨ نيسان/ ابريل ١٩٨٥).

(٤) مقابلة مع الرئيس الأسد: (دمشق ١٢ أيار/ مايو ١٩٨٥).

(٥) نفسه.

(٦) و (٧) نفسه.

(٨) ابرهارد كينل: «الصراع بين نظامي البعث في سوريا والعراق قبل تعزيزهما» في مجلة (إتنيزتات أوند غيزلشانت) أوراق بمناسبة خاصة العدد ٥ جامعة برلين الحرة ١٩٨٥ ص ١٧.

(٩) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٢ أيار/ مايو ١٩٨٥).

(١٠) نفسه.

(١١) فان دام (مصدر سبق ذكره ص ٧٨ ـ ٨٢).

(١٢) العماد مصطفى طلاس (من أقواله إلى لوسيان بيترلان في كتابه «حافظ الأسد ـ مسيرة مقاتل» ـ باريس ١٩٨٦ ص ٨٠).

(١٣) مقابلة مع العميد الجوي فؤاد كلاس (دمشق ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤).

(١٤) مقابلة مع الدكتور منيف الرزاز (الكويت ١٥ شباط/ فبراير ١٩٨٤).

(١٥) مقابلة مع أسعد كامل الياس (دمشق ١٤ آب/ أغسطس ١٩٨٤).

الفصل الحادي عشر

الإخفاق في أيلول/ سبتمبر الأسود

بالرغم من أن الأسد كان ما بين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ منهمكاً في صراعه مع جديد من أجل السيطرة على سوريا، فإن الاضطرابات التي حدثت في المنطقة اضطرته إلى أن يرتفع بنظره عن ذلك الصراع المحلي الضيق. وكانت أزمة أيلول/ سبتمبر الأسود في الأردن التي انخرط فيها مدخلاً قاسياً إلى حلبة السياسات الإقليمية والدولية لهذا العسكري السوري عديم التجربة. فما كاد يبدأ طريقه كزعيم لسوريا حتى وجد نفسه يجابه التلاحم الأميركي ـ الإسرائيلي الذي قُدر له أن يصارعه خلال معظم فترة رئاسته.

وقد نتج عن انتحار الجندي في شباط/ فبراير ١٩٦٩ أن حصل الأسد على ميزة حاسمة حيال جـديد. إلا أن هذا لم يكن وحده أهم ما جرى في ذلك الشهر من أحداث أدت إلى تقرير المجرى القادم لحياته. ففي شباط/ فبراير أيضاً مات ليفي أشكول رئيس وزراء إسرائيل وحلّت محله غولدا مائير التي قامت مع سفيرها في واشنطن إسحق رابين بحمل إسرائيل إلى أحضان الولايات المتحدة في علاقة حميمة قدر للأسد وللعرب أن يعانوا منها الكثير. وكذلك دَشّن الرئيس الأميركي المنتخب حديثاً ـ ريتشارد نيكسون ـ أولى محاولاته الدبلوماسية نحو السلام في الشرق الأوسط، رغم أنها أخفقت وانطفأت في خطة روجرز الفاشلة في سنة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، وجاءت في آخر الأمر بهنري كيسنجر

إلى المسرح كأقوى متلاعب بمصائر المنطقة منذ أن اقتطعت أوروبا لنفسها الولايات العثمانية السابقة بعد الحرب العالمية الأولى. وشهد ذلك الشهر أيضاً استيلاء يـاسر عرفات، زعيم فتح البالغ من العمر ٣٩ عاماً، على منظمة التحرير الفلسطينية وتحويلها من دكان للكلام إلى حركة مقاتلة. وفي آذار بدأ عبد الناصر «حرب الإستنزاف» ضد إسرائيل تلك الحرب التي تطورت إلى مبارزة طويلة ودامية فوق قناة السويس بين الطيران الإسرائيلي وبين دفاعات مصر الجوية التي زودها بها الاتحاد السوفياتي، كما أدت إلى أن يهجر أكثر من مليون مصري مساكنهم في منطقة القناة. وفي شهر نيسان عمّ الاضطراب لبنان حيث انخرطت حكومته الضعيفة في معركة طويلة مدمرة مع الفدائيين الفلسطينيين المتواجدين على أراضيه بقوة.

ورأى الأسد في أكثر هذه التطورات خطراً داهماً، إذ لم تكن مصر ولا سوريا قد استردتا عافيتهما بعد حرب حزيران/ يونيو، وكان الأسد يجهد لإعادة بناء جيشه، وتدبير أمر اللاجئين، وفي دراسة أبعاد إسرائيل الجديدة المغروسة الساقين في الأراضي العربية المحتلة من سيناء حتى الأردن والتي تتزايد قوتها باستمرار بفعل المساعدات الأميركية التي تتدفق عليها بلا حدود. وقد وجد الأسد أن هناك مأزقين كبيرين يكمنان في وضع ما بعد الحرب. كان الأول يتمثل في مبادرات السلام الأميركية التي بدت مصمّمة لجرّ عبد الناصر، بعد أن تم إضعافه، وكذلك الملك حسين، شديد الرغبة أصلاً، إلى تسويات منفصلة تعطي الفلسطينيين القليل ولا تعطي سوريا شيئاً فتتركها معرضة لقوة إسرائيل وغير قادرة على استعادة الأراضي التي فقدتها في الجولان. أما المأزق الثاني بالنسبة لوزير دفاع سوريا فكان يتعلق بالمنظمات الفدائية التي انتفخت بالأموال وتضخمت بالمتطوعين والمجندين فراحت تنعم بموجة من التقدير الشعبي على حساب الدول العربية.

وحول هاتين المسألتين الشائكتين كلتيهما ـ السلام والفدائيين ـ كان الأسد وجديد متنازعين.

فحول مسألة السلام كان جديد ومجموعته يرفضون كل شيء تماماً وكانوا في ذلك يعكسون مشاعر الغالبية الساحقة من العرب، والسوريين بالتأكيد. فلقد شعروا بأن السلام سيضع ختم الموافقة لتمكين المعتدي الإسرائيلي من إضفاء الشرعية على اغتصاب فلسطين. ولم يكن الرأي العام مستعداً لتسوية تبدو خضوعاً للصهيونية. وكان شعور العرب بالغضب لانتهاك حقوقهم ومقدساتهم لا يزال شديد الحدّة. وكان مما جعله أكثر حدة تسامح الغرب الواضح الصريح مع القسوة الإسرائيلية وإعجابه «بالبراعة العسكرية الإسرائيلية». وفي تموز/ يوليو ١٩٧٠ عقد اجتماع مشترك للقيادتين القومية والقطرية لحزب البعث في سوريا فقرر رفض أفكار روجرز وأعاد تأكيد رفض قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. وتحدثت صحيفة الحزب ساخرة عن «سلام القبور». وانتقدت عبد الناصر والملك حسين لتصورهما أن التحكيم الأميركي يمكن أن يكون عادلاً.

ولم يكن الأسد أقل انتقاداً من زملائه لمشروع روجرز ولا أكثر استعداداً لقبوله، فقد كان كأي شخص آخر يريد تحقيق العدالة للفلسطينيين، غير أنه لم يكن رفضياً، فلم يكن يقف ضد التسوية كتسوية من حيث المبدأ، ولكن ضد أية تسوية منحازة وغير مشرفة ـ وقد ظلت هذه رؤ يته دائماً.

وكان لديه تعاطف كبير مع الرئيس عبد الناصر الذي كان بعض العرب لا يزالون ينظرون إليه من طرف أعينهم بريبة رغم شنه حرب الاستنزاف باهظة الكلفة. ويستذكر الأسد نزاعه مع زملائه الحزبيين حول هذه النقطة فيقول: «كلما تحدث عبد الناصر عن السلام كان زملائي يعترضون. ولم يكن الأمر متعلقاً بمهمة يارنغ أو مشروع روجرز فحسب، بل لقد كان زملائي لا يوافقون على فرضياته ومقولاته. كانوا ضد أي شيء يقوله عن السلام. وكان يبدو كما لو أن أي شيء يقوله عن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ يُحْسَبُ ضدَّه»[1]. ومن الواضح أن الأسد كان يرى أن هذا الرفض الشامل شيء غير معقول.

وكان الخلاف أكثر حدة حول قضية الفدائيين. فبينما كان جديد يرى فيهم

أدوات للثورة العربية وليس فقط محررين لفلسطين، كان الأسد قد فقد حماسته نحوهم. فلقد فهم جيداً أن المقاتلين غير النظاميين، والمتشاجرين فيما بينهم، ليس من المحتمل أن يؤثروا في ميزان القوى مع إسرائيل. والحقيقة أنهم كانوا من الناحية العسكرية يشكلون عبئاً نظراً لكونهم يزودون إسرائيل بحجة تتذرع بها لضرب العرب عندما تشاء. بالإضافة إلى أن الفلسطينيين الذين كانوا يحملون السلاح في بعض الدول العربية قد شكلوا تهديداً للإستقرار في تلك الأقطار. فقبل ١٩٦٧ كان اللاجئون الفلسطينيون ينتظرون أن تقوم الدول العربية بإعادة فلسطين لهم، أما الآن فلم يعودوا ينتظرون أحداً، وراحوا يوجهون تشددهم لا ضد إسرائيل وحدها بل ضد مضيفيهم العرب. ورغم أنهم كانوا يعتمدون على الدول العربية للحصول على المال والسلاح والتدريب فإنهم كانوا يتوقعون أن يترك لهم إنتهاج إستراتيجية مستقلة. وفي ١٩٦٩ - ١٩٧٠ كان الفلسطينيون يشكلون بصفة خاصة معضلة حادة لوزير دفاع عربي مثل الأسد الذي كان الجيش الإسرائيلي يعسكر على مقربة من عاصمته، فقد كان يرى في المقاومة مخاطرة أمنية أكثر منها مصدر إلهام للجماهير العربية التي كان ينتابها ضعف المعنويات، أما «الحرب الشعبية» التي كان الفدائيون يأملون في شنها فكانت وهماً، كما أن استراتيجيتهم المستقلة كانت تشكل تهديداً غير مسموح به. إذ كان يرى بوضوح أن الصراع مع إسرائيل هو صراع بين الجيوش التقليدية حيث يخلق المقاتلون غير النظاميين إزعاجاً خطيراً، وعلى هذا فإن على الفلسطينيين أن يمتنعوا عن التدخل في الشؤون الداخلية للأقطار العربية التي يعيشون فيها، والأهم من ذلك هو أنه يتعين عليهم الوقوف خلف استراتيجيات الدول العربية. وقد انتهت آراؤه هذه إلى قيام خلاف بينه وبين الزعماء الفلسطينيين ولا سيما مع ياسر عرفات.

ومنذ ذلك الوقت الذي برز فيه الفلسطينيون كقوة متحدية بعد حرب حزيران/ يونيو، أدرك الأسد صعوبة التوفيق بين نضاليتهم وبين أمن الدول العربية. وبينما ظل المؤيد الذي لا يتزعزع للقضية الفلسطينية، احتفظ بسيطرة

محكمة على الآلاف العديدة من الفدائيين الذين كانوا في سوريا آنذاك. فقد أصدر مثلاً أمراً توجيهياً في أيار/ مايو ١٩٦٩ يشترط السماح لمجموعات معينة فقط بالدخول إلى القطر، وبأن الفدائيين لا يمكنهم حمل الأسلحة علناً، ولا إقامة معسكرات التدريب وساحات الرمي إلاّ في مناطق محددة. وفوق كل شيء لا يستطيعون الإغارة على المناطق المحتلة انطلاقاً من سوريا بدون موافقة خطيّة من وزارة الدفاع(٢). وكان هناك موضوع آخر ذو صلة بالفدائيين أدى إلى زيادة حدة الخلاف بين الأسد وجديد. ففي ١٩٦٦ أقام حزب البعث السوري منظمته الفلسطينية الفدائية الخاصة تحت اسم (الصاعقة) التي عندما كبرت وأصبح تعداد أفرادها حوالي خمسة آلاف مقاتل راح جديد يستعملها في صراعه الداخلي كمقابل لقوة جيش الأسد.

وفي زيارة قام بها الأسد لعمان عام ١٩٦٩ رأى عن كثب طبيعة التحدي الذي يوجهه الفدائيون ضد سلطة عربية قائمة. فقد وجد بذهول ونفور ـ أن العاصمة الأردنية كانت مليئة بملصقات فيها شعارات تقول «كل السلطة للمقاومة». وكان هناك فدائيون يتبخترون في الشوارع ويهينون الجنود النظاميين، وقيل إنهم ألقوا القبض على ضباط أردنيين وجعلوهم يمشون حفاة. وكان الأسد يحترم أصحاب حرفته في السلاح وكان بطبيعته نظامياً يحترم القانون والنظام كثيراً. ويبدو أنه قد تأثر كثيراً بإهانة الجنود، ولا شك أن المشاهد التي رآها قد أكدت إيمانه بأنه لا يمكن ترك القوات غير النظامية وغير المنضبطة تسيطر على الموقف(٣).

ويقول الأسد نفسه: «لم أكن في حياتي كلها مؤيداً للفوضى على الإطلاق ولن أكون. فالفوضى لا تؤدي إلاّ إلى الآلام، ولا تحصد أية نتائج. كنت أودّ لو تبقى المقاومة الفلسطينية نقية ومتحررة من التورط في الشؤون الداخلية للأقطار العربية. ولكن بينما أعارض الفوضى الفلسطينية في الأردن أو في لبنان أو في أي بلد عربي آخر فإنني أؤمن أيضاً بأن للفلسطينيين حقاً في

إيجاد أرضية ينطلق منها نضالهم - في سوريا، والأردن، ولبنان، ومصر، وأي مكان آخر. كان هذا هو رأيي منذ البداية الأولى، وهو لا يزال رأيي اليوم»[٤].
وكان هذا مأزقاً لم يُقَدَّر للأسد أبداً أن يحلّه بسهولة.

أزمة الأردن

وُضع هذا التضارب في موقف الأسد حيال الفلسطينيين تحت الاختبار خلال أزمة الأردن عام ١٩٧٠. فقد كانت ثمة غيوم مواجهة بين الملك والفدائيين تتجمع منذ شهور، وكانت بعض المجموعات الفلسطينية، ولا سيما الجبهةِ الشعبية لتحرير فلسطين برئاسة جورج حبش، تتطلع إلى مجابهة في ظل الاعتقاد بأنها قادرة على الإطاحة بحسين. وبهدف التعجيل بالصدام قامت الجبهة المذكورة باختطاف أربع طائرات مدنية يومي ٦ و ٩ أيلول/ سبتمبر، واحتجزت مئات الرهائن كان من بينهم أميركيون وإسرائيليون، ودفعت منظمة عرفات (فتح) دفعاً للاشتراك معها في التمرد. ورفض حسين أن يذعن، فشكل حكومة عسكرية في ١٥ أيلول وبدأ في اليوم التالي حرباً ضد الفدائيين فأوقع خسائر مروعة في مخيمات اللاجئين.

في بادىء الأمر عندما اندلع القتال طلب الفلسطينيون من الأسد أن يساعدهم فأرسل لهم سلاحاً، بما في ذلك بنادق سُحبت من وحدات الحراسة في وزارة الدفاع. ولكن مع استمرار الجيش الأردني بقصف الفدائيين تدفق على الأسد سيل من النداءات المؤلمة فاستجاب لها بإرسال المزيد من الأسلحة مع بعض المتطوعين. وهتَف أيضاً إلى وزير الدفاع العراقي، حردان التكريتي، الذي كان قد أبقى منذ حرب ١٩٦٧ حوالي ١٥ ألف جندي عراقي في الأردن، وذلك ليحثه على المساعدة لتخفيف الضغط عن الفلسطينيين. ولكن عندما لم تُجدِ كلُّ هذه الخطوات، وأصبح وضع الفلسطينيين ميؤوساً منه، قرر الأسد أن يتدخل بصورة أكثر قوة في القضية التي عُرفت فيما بعد باسم «شهر أيلول/ سبتمبر الأسود» في الأردن.

إن تفسير معنى هذه الأحداث وتأثيرها على الصراع الناشب بين الأسد وجديد على السلطة كانا محل خلاف وجدل كبيرين. فالرواية السائدة تقول إن جديد أمر الجيش السوري بالدخول إلى الأردن إلا أن الأسد رفض إشراك السلاح الجوي في المعركة مما أدى إلى فشل المغامرة. وقد دفع هذا الخلاف، الذي نشب بين الرجلين، الأسد إلى أن يستولي على السلطة في دمشق. غير أن هناك الكثير من عدم الدقة في هذه الرواية.

فقبل إنفجار الأزمة في الأردن كان الأسد قد أصبح سيد سوريا في كل شيء ما عدا الاسم. كانت هيئة الضباط قد أصبحت له بكاملها تقريباً وكذلك قوة أخيه رفعت الضاربة المتميزة وألوية جيش التحرير الفلسطيني المتواجدة في سوريا، وقد سيطر على جيش الشعب (وهو قوة دفاع مدنية) وقوى الأمن التي كان يديرها سابقاً عبد الكريم الجندي. وقام بتحييد الصاعقة، القوة المسلحة الوحيدة التي كان جديد يتصرف بها، فأغلق مكاتبها وأرسل دبابات لتطويق معسكراتها.

ولم يكن التدخل في الأردن ممكناً بدون موافقته. والواقع أن التدخل كان سياسته، وفي هذا المجال لم يكن هناك نزاع مع جديد(٥).

وفي ٩/١٨ عبرت الدروع السورية الحدود لدعم الفدائيين، وفي ٩/١٩ سيطرت على مدينة إربد في شمال الأردن. وكان الأسد يدير العمليات شخصياً من مقر قيادته المتقدم في نادي الضباط بدرعا على الحدود السورية ـ الأردنية. ماذا كانت أهدافه؟ حسب شهادته هو وشهادة آخرين من المشاركين في الأحداث عن قرب لم يكن الأسد ينوي الإطاحة بحسين ـ كما كان الفدائيون يأملون ـ ولكنه كان ببساطة يريد حماية المقاومة من الذبح(٦). ولذلك كان تدخل الأسد من البداية محدوداً وعلى مضض معاً. وكان يأمل بأن المساعدة السورية ستمكّن الفدائيين من إقامة منطقة مأمونة في شمال الأردن يستطيعون منها التفاوض مع الملك. ولكن الخطة لم تتحقق. ففي ٢٢ أيلول/ سبتمبر أمر حسين اللواء

المدرع الأربعين، المعزز بالدعم الجوي، بالاشتباك مع الدبابات السورية التي أصيب منها عدد كبير. وبعد ظهر اليوم نفسه كانت الوحدات السورية عائدة أدراجها إلى سوريا. ويعترف الأسد فيما بعد مع بعض الحرج: «لقد كانت ورطة صعبة. كنت حزيناً لمقاتلة الأردنيين الذين لم نفكر فيهم على أنهم العدو. ولم أشرك سلاحنا الجوي، الأكثر قوة منهم، لأنني كنت أريد أن أتفادى التصعيد. وشعرت بأننا ما دمنا قادرين على تحقيق هدفنا بحماية الفدائيين دون إشراك سلاحنا الجوي فلا حاجة لإشراكه»(٧).

كانت تلك الحملة القصيرة غير السعيدة مثالاً صارخاً على التضارب بين مصلحة الدولة عند الأسد وبين مصلحة الفدائيين الفلسطينيين. لقد انحاز إلى المقاومة ولكن لم يكن يعطف على هدفها بالزحف على عمان. ومن هنا فإن تدخله غير المتحمس جلب له شتيمة الفدائيين الذين شعروا بأنهم تعرضوا للخيانة، كما جلب له عداء حسين ممّا منع التعاون بينهما لعدّة سنوات تالية.

إلا أن الأسد وحسين والفدائيين لم يكونوا هم الممثلين الوحيدين في تلك الدراما. ففي واشنطن نظر الرئيس نيكسون ومستشاره للأمن القومي هنري كيسنجر إلى تحرك سوريا داخل الأردن في ضوء يختلف تماماً عمّا كان في ذهن الأسد من أن ما جرى لم يكن سوى عملية محدودة وموقتة. فقد كان نيكسون وكيسنجر مقتنعين بأن موسكو استعملت زبونها السوري والفدائيين الثوريين لإسقاط الحكومة الأردنية الموالية للغرب من أجل توسيع النفوذ السوفياتي. وكتب كيسنجر في مذكراته يقول: «لو فشلنا في التحرك فإن أزمة الشرق الأوسط كانت ستزداد تعمقاً وتعقيداً عند استيلاء المتشددين والسوفيات المشرفين عليهم على زمام المبادرة»(٨. وكان مما أثار الشكوك الأميركية في النوايا السوفياتية قيام بريجنيف بإدخال الخبراء السوفيات والطائرات المقاتلة السوفياتية إلى مصر خلال حرب الاستنزاف (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠) وقد رأت الولايات المتحدة في ذلك دليلاً على وجود مخططات سوفياتية على النيل مع أنه

كان مجرد محاولة سوفياتية لانقاذ عبد الناصر من محاولة إسرائيل الواضحة لإسقاطه بغارات الطيران في عمق الأراضي المصرية في تلك السنة. وبعد أن قرأت واشنطن الموقف في مصر بطريقة خاطئة ضاعفت من خطئها هذا بإعادة تسليح إسرائيل بحجة أن ذلك هو السبيل الأفضل لإيقاف ما حسبته وجوداً سوفياتياً متزايداً. وهكذا بعد أن تصور كيسنجر أن يد موسكو كانت وراء تدخل سوريا في الأردن، طلب من إسرائيل أن تقوم باحتواء ما رآه تهديداً سوفياتياً جديداً.

وعندما كان الملك حسين واقعاً تحت ضغط الفدائيين وغير واثق من النوايا السورية، اتصل في ٢٠ أيلول/ سبتمبر بأصدقائه الأميركيين طالباً المساعدة، بل انه في تلك اللحظات المفعمة بالقلق الشديد والهلع ذهب إلى أبعد من ذلك: فقد أشعر واشنطن بأنه ـ إذا كانت الولايات المتحدة غير قادرة على أن تزوده بنفسها بالحماية التي يحتاج إليها ـ مستعد لأن يقبل تدخلاً إسرائيلياً ضد السوريين(٩). والواقع أن حسين كان بذلك يعترف بأن بقاءه يعتمد على ميزان محلي للقوى: فإذا ضغطت سوريا أكثر من اللازم عليه، ستصبح هناك حاجة لضغط إسرائيلي مقابل من أجل إبقائه على العرش. ولكن حين قبل حسين بدور إسرائيلي في الشؤون العربية، فإنه قد خرج عن التفاهم العربي واتخذ خطوة قُدر لها أن تؤثر على مسيرته التالية، ولم تكن خطوة يمكن أن تجعله عزيزاً على قلب الأسد في دمشق.

وفي ٢١/ أيلول اتفق كيسنجر والسفير الإسرائيلي رابين على خطة وافق عليها نيكسون وحسين وتقضي بأن تشن إسرائيل هجمات بالطيران وبالدروع على القوات السورية في اليوم التالي. وللتهيئة لذلك قامت إسرائيل بحشود عسكرية علنية محاطة بضجة إعلامية باتجاه الأردن. كذلك وضعت واشنطن قواتها المجوقلة على أهبة الاستعداد وأرسلت أسطولاً أميركياً هائلاً إلى شرقي الأبيض المتوسط وحين تشجع حسين بهذه الاستعدادات قامت دباباته وطائراته

بالاشتباك مع السوريين في ٢٢ أيلول/سبتمبر كما أسلفنا، فأدرك الأسد جديَّة الموقف، ولم تكن لديه النية في الانخراط في معركة غير متكافئة مع إسرائيل ناهيك عن الولايات المتحدة، وقبل كل شيء لم يكن مرتاحاً لمحاربة الأردن. وهكذا، وقبل أن تهجم إسرائيل قام في ٢٢ أيلول/ سبتمبر بالانسحاب إلى الجانب السوري من الحدود.

أما في واشنطن فقد استقبل الإنسحاب السوري بالتهليل والابتهاج وأعطيت إسرائيل الفضل الكامل لما اعتبر نجاحاً باهراً. وقام كيسنجر الممتن باتصال هاتفي مع رابين يوم ٢٥ أيلول/ سبتمبر لابلاغه رسالة مليئة بالرياء من الرئيس الأميركي إلى غولدا مايير: «إن الرئيس لن ينسى أبداً دور إسرائيل في منع التدهور في الأردن وفي إيقاف محاولة تلب نظام الحكم هناك. وقد قال إن الولايات المتحدة محظوظة في أن يكون لها حليف كإسرائيل في الشرق الأوسط. وإن هذه الأحداث ستؤخذ بعين الاعتبار في أية تطورات مقبلة»(١٠). وقد أثَّرت هذه العبارة في رابين فكتب في مذكراته بأنه «لم يسمع أي شيء كهذا من قبل». والواقع أن إسرائيل كانت جدَّ سعيدة بأن تلعب الدور الذي أعطي لها: فقد كان من ثوابت سياستها الإبقاء على حسين في السلطة وبذلك يمكن أن يقمع الفلسطينيين، وأن يكون شريكاً محتملاً في أية مفاوضات سلام قد تحدث. وأصبح موضوع «الخيار الأردني» منذ ذلك الحين ولسنوات طويلة يجنِّب إسرائيل الحاجة لمواجهة القضية الفلسطينية(١١).

منذ البداية، نظر نيكسون وكيسنجر إلى أزمة الأردن عام ١٩٧٠ من خلال المنظار الضيِّق للصراع بين الشرق والغرب ولم يباليا كثيراً بما في المعسكر العربي من ضغوط ومعاناة على أثر انتصار إسرائيل عام ١٩٦٧ وبما يسببه نفاذ الصبر الفلسطيني من مشاكل للأنظمة العربية. فالطموح العالمي لدى أميركا للبقاء صاحبة اليد الطولى على الروس كان يختلط مع الطموح الإقليمي لدى إسرائيل للبقاء صاحبة اليد الطولى على العرب. فقد مُنحت إسرائيل مكاناً

متميزاً عند الجانب الأميركي في مجال الصراع بين القوتين العظميين لأنها بنظر واشنطن، لم تواجه السوريين فحسب بل الروس أيضاً. وحسبما قال المؤرخ وليام كوانت، لقد أصبح يُنظر إلى إسرائيل على أنها «الشريك الصغير المفيد في إدارة الاختبار العالمي لصراع الارادات بين القوى العظمى»[١٢] ولم تؤدِ أزمة الأردن فقط إلى تكليف إسرائيل بحفظ السلام في الشرق الأوسط بالنيابة عن أميركا، وإنما أدت أيضاً إلى تدشين علاقة استراتيجية بين أميركا وإسرائيل كان لها نتائج تجاوزت حدود الشرق الأوسط وامتدت إلى أميركا الوسطى، وأفريقيا، وإلى العلاقات بين الشرق والغرب. فقد قامت إسرائيل في هذه المناطق والمجالات المترامية الأطراف بتقديم عون خفي دفاعاً عن المصالح الأميركية كي تكافأ من ثمَّ بالدعم الأميركي لتحقيق طموحاتها الأقليمية.

ولكن هل كانت الأزمة في الأردن حقاً «اختباراً لصراع إرادات القوتين العظميين» مثلما صُوّر الأمر، أم أن ذلك كله كان سوء تقدير؟ فما تصوّره نيكسون وكيسنجر من وجود مخططات سوفياتية إنما هو شيء من العسير إثباته. فمنذ أن رأت موسكو أصدقاءها العرب يهزمون بإذلال عام ١٩٦٧ راحت تعمل جاهدة لتحقيق المهمة المكلِفة والتي لا تنال الشكر عليها: ألا وهي الإبقاء على عبد الناصر طافياً. فموسكو لم تكن تتطلع إلى مغامرات شرق أوسطية جديدة. ثم أن نفوذها على جماعة العسكريين السوريين المتقلقلين والمنقسمين كان نفوذاً لا يذكر، وحتى لو كان يوجد منه شيء فإن موسكو تكون قد استعملته لكبح جماح الأسد لا لتشجيعه على التدخل في الأردن. كما أن تعزيز المطامح السوفياتية في الشرق الأوسط لم يكن من بواعث التحرك لدى الأسد. والحقيقة هي أنه لم يكن لـ«أيلول/ سبتمبر الأسود» أي علاقة بالتنافس بين الشرق والغرب، بل كانت المسألة نتيجة للعلاقة المشحونة فيما بين الثلاثي التالي: الدول العربية، إسرائيل، الفلسطينيون المحرومون المشردون. فلقد أشعل الفدائيون الأزمة، وانجر إليها عرفات على أيدي العناصر الأكثر تطرفاً في حركته في محاولة للإستيلاء على الأردن. إلاَّ أن تحدي الفلسطينيين لحسين جلب على

رؤوسهم الكارثة. وعندما وقعوا في الورطة استنجدوا بسوريا ولكن حين كانت مساعدة الأسد لهم أقل مما توقعوا انقلبوا ضدّ سوريا أيضاً.

وهكذا أُرسي نمط راح يتكرر في مناسبات متعددة، ولا سيما في لبنان، خلال السنوات التالية. فقد كان من العسير على الفلسطينيين أن يستوعبوا أن قضيتهم لن تتقدم عن طريق إنتهاج سياسة الصدام مع مصالح الدول المضيفة لهم. فحين وقع حسين تحت وطأة انقضاض الفدائيين المدعومين، كما تصور، بقوة السلاح السورية، لجأ إلى المخاطرة، فقبل الحماية الإسرائيلية، وهي خطوة خرقت كل ما له علاقة بالتضامن العربي وأرست مبدأ اعتماد الأردن الضمني على إسرائيل مما قيَّد دبلوماسية حسين لعدة سنين تالية وقوّضت مصداقيته أمام الزعماء العرب الآخرين.

ولكن ما هو دور الأسد في هذه القصة المضطربة؟ لقد كان تدخله غير مدروس، وتعوزه الحماسة، وغير ناجح. ولم يحقق شيئاً يفيده أو يفيد سوريا أو الفلسطينيين الذين حاول أن يساعدهم. وقبل أزمة الأردن كانت عواطفه نحو منظمة التحرير الفلسطينية قد فترت، غير أن الأزمة أوجدت مسحة من السخط الغاضب في علاقته مع عرفات لم تلبث أن تحولت في محنٍ أخرى إلى عداء صريح وكامل. كما أن علاقات الأسد مع حسين تعقدت هي الأخرى تعقيداً كبيراً من جراء الأزمة. فسوريا والأردن كانا يتخاصمان بشدة، ويسيئان واحدهما للآخر، ويؤوي كل منهما أعداء الآخر، إلا أن كل ذلك كان يجري في نطاق مشاجرات الأسرة العربية. أما الآن فقد تدخّل الغريب الإسرائيلي وأدلى بدلوه في هذه المشاجرات. وحيال مغازلة حسين لإسرائيل كانت غريزة الأسد تدفعه مرة لمعاقبته على خيانته ومرة أخرى للتودد إليه كي يعود إلى الصف العربي.

وكانت حصيلة الأمر هو أن كل ما حققه الأسد من إرساله جيشه ليحمي الفدائيين هو إعطاء إسرائيل الفرصة لوضع الأردن تحت جناحها ولأن ترتفع بنظر

أميركا إلى مرتبة الشريكة الإقليمية التي لا غنى عنها ـ وهذه نتيجة لا يمكن أن تجعل الأسد فخوراً بها. وهكذا قام الأسد، وحسين، وزعماء الفدائيين بتصرفات خاطئة كان من شأنها أن عكَّرت العلاقات فيما بينهم وأضعفتهم لمصلحة إسرائيل. وهذا كله كان بمثابة المقدمة غير المريحة لتولي الأسد السلطة.

الإمساك بالسلطة

غير أن الأزمة في الأردن لم يكن لها إلا القليل من الصلة بصراع الأسد مع جديد على المسرح السوري الداخلي. وقد تصادف في ذلك الوقت أن كان الدبلوماسي الجزائري العتيق الأخضر الإبراهيمي في زيارة إلى سوريا وكان يتناول العشاء مع رئيس الدولة الدكتور نور الدين الأتاسي الذي قال له، وفي صوته رنة أسى: «لا تناقش معي أي قضايا جدية. إن الأسد هو المسؤول. اذهب واجتمع به»[١٣] وفهم الإبراهيمي حينذاك أن الأسد كان بحلول أيلول ١٩٧٠ قد أصبح بشكل غير رسمي صاحب الأمر في سوريا. غير أنه بداعي الحذر انتظر عدة أسابيع أخرى قبل أن يتقدم إلى واجهة المسرح.

بعد أسبوع من مغادرة دبابات الأسد للأردن مات عبد الناصر في القاهرة في ٢٨/ أيلول سنة ١٩٧٠. ومن المحتمل جداً أن تكون وفاة هذه الشخصية الشامخة قد دفعت بالصراع الطويل على السلطة في سوريا إلى خاتمته. فطيلة حياة عبد الناصر، كان الحكام العرب الآخرون، حتى الذين يكرهونه، يسلمونه ـ طوعاً أو كرهاً ـ شيئاً من مسؤولياتهم. وباختفائه عن المسرح أصبح على كل منهم أن يدافع عن نفسه وحده في عالم موحش. وبما أن مادة القوة الفعلية كانت في يدي الأسد، فربما قد شعر بأنه لا يستطيع أن يؤجل عملية إنهاء الوضع غير المستقر في سوريا الذي خلقه صراعه مع جديد أكثر من ذلك. وقد حضر الأسد جنازة عبد الناصر في القاهرة في ١ تشرين الأول/ اكتوبر، وشهد تدفق الحزن المصري الهائل. وعند عودته إلى دمشق وجد فراغاً

كبيراً في السلطة، فقد كانت سوريا بلا حكومة، وكان الحزب منقسماً على نفسه ولا سبيل لرأب صدعه: وكان الأسد وجديد وأتباع كل منهما لا يتبادلون الكلام مع بعضهم بعضاً، ويتجابهون بشكل مسموم وعلني.

حينذاك كان الأسد مدعوماً بالجيش، أما جديد فكان لا يزال مسيطراً على الجهاز الحزبي، وفي آخر محاولة له لاستعادة القيادة دعا إلى مؤتمر استثنائي للقيادة القومية في ٣٠ تشرين الأول/ اكتوبر، وكان أول عمل قام به المؤتمر أن أمر وزير الدفاع بأن يتوقف عن إجراء أي نقل في الجيش طيلة فترة انعقاد المؤتمر ـ ولكن الأسد رفض هذا الأمر بشكل قاطع. وعلى مدى اثني عشر يوماً احتدم النقاش على الطريقة البعثية الحقيقية. وقد سخر الأسد من منتقديه المتطرفين وأفهمهم بطريقة قاسية أنهم بموت عبد الناصر لم يعد بإمكانهم الاختباء وراءه وإطلاق تهديداتهم الجوفاء ضد إسرائيل. وقال لهم «إنه من الأفضل الكف عن أعمال الاستفزاز المجانية التي يستغلها العدو ليفرض علينا معركة ليس الجيش السوري في حالة تسمح له بأن يخوضها أصلاً، ناهيك عن أن يكسبها»(١٤) وكان من شأن هذه الكلمات أنها أثارت زوبعة من الاحتجاجات من قبل الجديديين، فقد اتهموه بأنه قبل التسويات الاستسلامية ورضخ للامبرياليين. وفي أرجاء المؤتمر كان جديد لا يزال يسيطر على الأكثرية بين كوادر وقيادات الحزب العليا التي استعملها لتمرير قرارات تجرد الأسد وصديقه المخلص مصطفى طلاس من مناصبهما القيادية في الجيش والحكومة، وتشجب «ازدواجية السلطة» التي خلقها خروجهما عن «النظام لحزبي»(١٥) إلا أن الأسد كان قد اتخذ احتياطاته ونشر قوات حول قاعة المؤتمر، ولذلك ظلت القرارات المتخذة فيه مجرد كلام لا طائل تحته صدر عن رجال أدركوا أنهم قد دحروا بالفعل.

وعندما اقترب المؤتمر من نهايته أصبح مؤيدو جديد ذاهلين مضطربين بشكل متزايد ويخشون بوضوح أن يتحرك الأسد لاعتقالهم. بل ان رئيس

الوزراء السابق يوسف زعين كان يخشى النومَ في منزله، ولجأ إلى بيت أسعد كامل الياس الذي كان مديراً للمكتب الصحفي لرئيس الوزراء الذي يستذكر فيقول: عدت من مكتبي إلى منزلي متأخراً ذات يوم فلاحظت سيارة متوقفة خارج البوابة ولمحت في مقعدها الخلفي شخصاً كان يحاول بوضوح أن يتنكر بنظارة داكنة اللون وقبعة، ثم سمعت شخصاً يناديني باسمي، فعرفت صوت زعين. ولدهشتي وجدته يسألني عما إذا كان يستطيع المجيء ليعيش معنا. وأعطيت زعين غرفة منفصلة عن بقية المنزل قليلاً حيث يستطيع أن يبقى وحده. كان لا يستعمل الحمام إلاّ في الليل ليتجنب إزعاج الأطفال(١٦).

وعندما انتهى المؤتمر في ١٢ تشرين/ نوفمبر ١٩٧٠ في خضم من الفوضى العارمة لم يضع الأسد أية لحظة: ففي اليوم التالي تم اعتقال خصومه، وعُرض على بعضهم مناصب في السفارات السورية في الخارج، والتي هي الملجأ التقليدي للخاسرين، ويقال إن صلاح جديد رفض بغضب هذا العرض وإنه قال للأسد بنبرة التحدي «إذا قُيّض لي أن آخذ السلطة فسوف يتم سحلك في الشوارع حتى تموت». وقد تألم الأسد من هذه المرارة التي لا تتسم بالروح الرياضية فأرسل جديد إلى سجن المزة القاتم حيث كان لا يزال محتجزاً عند كتابة هذه السطور بعد مضي ثمانية عشر عاماً. ولا شك أن إبقاء جديد مسجوناً طيلة هذه المدة إنما يعكس خشية الأسد من أنه إذا إستعاد حريته فسوف يعمد هو وأقرباؤه إلى الانتقام. أما الدكتور إبراهيم ماخوس، وزير خارجية جديد، فقد هرب إلى الجزائر حيث وجد عملاً كجراح في مستشفى مصطفى باشا. وأما زعين فهرب إلى بلدته البوكمال على نهر الفرات، غير أنه تم القبض عليه بعد أشهر قليلة وأمضى عشر سنوات في السجن قبل أن يفرج عنه عام ١٩٨١ لدواعٍ صحية ويسافر إلى هنغاريا ليعيش مع أخيه الذي يقيم هناك. وعلى غرار جديد، بقي الدكتور نور الدين الأتاسي، رئيس الدولة السابق، رهن الاعتقال في سجن المزة.

ولعب المقربون من الأسد دوراً في الاستيلاء على السلطة. فأخوه رفعت كان مسؤولاً عن الأمن في العاصمة، وسهر مصطفى طلاس وصديق آخر هو العقيد ناجي جميل، مدير العمليات الجوية على التأكد من عدم وجود أي مقاومة في القوات المسلحة. أما العقيد محمد الخولي مدير مخابرات القوى الجوية فقد أوكلت إليه مهمة اعتقال جماعة جديد في الحزب والجيش ووزارات الحكومة. وقد أعطى الأسد الخولي مهلة ثماني ساعات لإتمام المهمة، غير أنه أنجزها في ساعتين. وسأله الأسد: «هل سفكتَ دماء؟» فأجاب الخولي: «ولا قطرة واحدة. لقد أمسكنا بهم كالأرانب في فراشهم». وامتدت عملية المطاردة إلى جميع المدن الرئيسية. لقد كان انقلاباً أبيض، بل لم يكن انقلاباً على الإطلاق، كان بالأحرى «حركة تصحيحية» كما صار يقول الأسد. فالعاصمة لم يتعكر هدوؤها وظلت الدكاكين تعمل وبقيت الطريق إلى لبنان والاتصالات التلفونية معه مفتوحة، ولم يكن هناك دبابات في الشوارع. إلا أن الجرائد اليومية الرسمية لم تصدر ولزمت محطات الإذاعة والتلفزيون الصمت حيال هذه الأحداث المضطربة، وطوال ثلاثة أيام كان العالم يحس بأن ثمة شيئاً ما يحدث في دمشق، وكان يرقب النتائج ويتحزرها. وكان الأسد بطريقته الهادئة البطيئة يربط الخيوط، ويستمزج آراء الحزبيين على جميع المستويات، ولما كان حريصاً على احترام شكليات الشرعية الحزبية فقد قام بوضع قيادة قطرية موقتة جديدة. وكانت تلك الأيام مليئة بالعمل: فالأسد، وقد وقف على أعلى درجة في السلّم في بلد مثل سوريا وفي مثل تلك الأوقات العصيبة، كان عليه أن يهتم بنفسه بالصغيرة والكبيرة.

في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، وعندما أنهى وضع اللمسات الأخيرة على البيان الذي يفتتح العهد الجديد، بلغه أن الزعيم الليبي معمر القذافي قد وصل على حين غرّة إلى مطار دمشق ودون إعلان مسبق، وأنه ينتظر في صالة الشرف أن يأتي شخص من رتبة مناسبة ليستقبله. وبالطبع كانت الشائعات حول الصراع على السلطة في دمشق تدور في أرجاء العالم العربي منذ شهور، ولما كان

القذافي يتمتع بحاسة شم قوية للدراما السياسية فإنه هبط فجأة ليرى بنفسه ماذا كان يدور. واتجه الأسد إلى المطار ليستقبل العقيد ويقول له مداعباً: «نه لشيء طيب أنك لم تصل مبكراً نصف ساعة»(١٧) وبالفعل أذيع في مساء اليوم نفسه خبر استلامه للسلطة. وفي أعقاب القذافي وصل وزير الخارجية العراقي عبد الكريم الشيخلي حاملاً رسالة تهنئة من نظام البعث العراقي. فالعراقيون الذين كرهوا جديد، كانوا يشجعون الأسد على استلام السلطة بالرغم من أن المنفيين السوريين في بغداد مثل ميشيل عفلق وأمين الحافظ كانوا يفضلون لو رأوا جميع أعضاء اللجنة العسكرية وقد لفتهم غياهب النسيان(١٨).

قبيل يومين رأت زوجة الأسد حلماً. وكان هو قد عاد ليلتها إلى البيت، في ساعة متأخرة بعد جلسة عاصفة في مؤتمر الحزب، وأعلمها بأن الموقف عصيب، فحثّته على أن يخلد للنوم. وعندما استيقظ أخبرته بما حلمت: لقد وجدت نفسها في الشارع وسط حشد كبير من الناس، وكانوا جميعاً يشخصون بأبصارهم نحو وجهة واحدة. وحين تطلعت مثلهم إلى حيث ينظرون لمحت من بعيد شيئاً ذا شكل مربع، ولدى اقترابها منه تبينت أنه علبة ذات ثقب على أحد جوانبها. وحين وضعت عينها على الثقب تراءى لها المسجد الأقصى في القدس، وهنا أمسكت بالعلبة ثم استدارت إلى الخلف فوجدت زوجها واقفاً وراءها فدفعت إليه بتلك العلبة.

في ذلك الصباح قالت لزوجها بعد أن قصّت عليه رؤ ياها: «إنك لمنتصرٌ على أعدائك، ولسوف تكون أقوى زعيم عربي».

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٢ أيار/ مايو ١٩٨٥).
(٢) رياض الريّس ودنيا نحاس: (فدائيون من أجل فلسطين ـ لندن ١٩٧٩).
(٣) مقابلة مع خالد الفاهوم (دمشق ٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤).
(٤) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٢ أيار/ مايو ١٩٨٥).
(٥) نفسه.
(٦) مقابلة مع عبد الغني قنوت (دمشق ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٧٧) ومع خالد الفاهوم (دمشق ٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤).
(٧) مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٢ أيار/ مايو ١٩٨٥).
(٨) هنري كيسنجر: سنوات البيت الأبيض (بوسطن ١٩٧٩ ص ٦١٨).
(٩) وليام كوانت: عشر سنوات من القرارات ص ١١٥ ـ ١١٨ وإسحق رابين: مذكرات رابين ـ لندن ١٩٧٩ ص ١٤٦ ـ ١٤٨.
(١٠) رابين: (مصدر سبق ذكره) ص ١٤٨.
(١١) أوري آفنيري «صديقي، العدو» لندن ١٩٨٦ ص ٢٩ و٨٥.
(١٢) كوانت: عشر سنوات ص ١٢٦.
(١٣) مقابلة مع الأخضر الإبراهيمي (لندن تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٥).
(١٤) جريدة لوموند: ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠.
(١٥): عندما استولى الأسد على صحف الحزب والحكومة في شباط سنة ١٩٦٩ أسس «الجديديون» جريدة في بيروت اسمها الراية كمنبر لآرائهم. وفي ١٩٧٠/١١/١٥ هاجمت الجريدة «حفنة» العسكريين المنحرفين الذين تمردوا على سلطة الحزب. وهدفه المعلن في تحرير فلسطين. وبعد عدة أشهر، في حزيران وتموز سنة ١٩٧١ نشرت الراية رواية (جديد) عما جرى في المؤتمر القومي الاستثنائي الذي انعقد في تشرين الثاني سنة ١٩٧٠.
(١٦) مقابلة مع أسعد كامل الياس (دمشق ١٤ آب/ اغسطس ١٩٨٤).
(١٧) مقابلة مع الرئيس الأسد: (دمشق أيار/ مايو ١٩٨٥).
(١٨) مقابلة مع طالب شبيب (لندن ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٨٤).

القسم الثاني

الزعيم

الفصْلُ الثاني عشر

دَولة الأسد

بدأ حكم الأسد في سوريا وهو يتمتع بميزة مباشرة لا يستهان بها: كان النظام الذي أزاحه محتقراً إلى درجة أن أي بديل له يأتي كالفرج. ولم يكن سراً أن الأسد كان أكثر تحرراً من صلاح جديد، ولذلك فإن انتصاره قد افتتح شهر عسل جديداً. كان الناس مشتاقين إلى التنفس بحرية أكثر.

ومن البداية، أبرز الأسدُ مستوى مختلفاً من الجدية في بناء الدولة أكثر من أي واحد من الذين جاؤوا قبله. ولا شك في أنه كان متأثراً بمثال عبد الناصر، الذي كان أكبر الحكام العرب نفوذاً في جيله، والذي راقب الأسد نظامه بشكل مباشر وقريب. ومن مصر استعار الشعور بمهابة وأبهة الحكم، على عكس تقاليد الادارة السورية البسيطة الخفيفة التي كانت تكافح للتخلص من العادات العثمانية الرديئة. كان الحكم البعثي السوري كما طوّره الأسد كائناً هجيناً: فمن صلاح جديد ورث اشتراكية الدولة على الطراز السوفياتي، والتزاماً بتحسين أحوال الطبقات المظلومة. غير أنه في حرصه على التخلص من صفة عدم الشعبية التي اكتسبها المتصلبون تخلى عن حرب الطبقات وبدأ يوسع قاعدة تأييده ويغازل الطبقات الاجتماعية الساخطة بإحداث تحرر وانفتاح اقتصاديين وسياسيين. كان طموحه، قبل كل شيء، أن يقيم حكمه على أسس ثابتة.

ولم يكن الأسد متهوراً. ومثلما أظهر في أشهر المناورات التي سبقت وصوله إلى السلطة، كانت عادته أن يزن حركاته بعناية، وأن يدرس طبيعة الأرض، ويفكر في العواقب المحتملة، قبل أن يخطو إلى الأمام. ومثلما فعل عند استلامه الحكم، أظهر في عملية بنائه للدولة قدراً مدهشاً من التفكير المسبق. فانقلاب عام ١٩٦٣ نُظِّم بدون توقع لمشاكل الحكم، وفي السنوات التي تلت ذلك فكر الأسد في الدروس المستفادة من عدم التحضير. أما في عام ١٩٧٠ فقد جاء إلى السلطة ومعه مخطط تفصيلي عن الكيفية التي سيسير بها الأمور.

وكان أهم ما ركز عليه في عام ١٩٧٠ هو الحاجة إلى الوحدة الوطنية والمصالحة بعد سنوات الانقسام. وفي تلك الأيام المبكرة كان يبقى واقفاً على قدميه من الصباح إلى المساء أو الليل وهو يتلقى وفوداً جاءت من كافة أنحاء البلاد لتهنئة «الفريق» الذي أنقذهم من محنتهم وبلاياهم.

ولتبديد الرأي القديم الذي وقر في أذهان الناس عن كون حكام سوريا مجموعة قاسية من المجهولين الباطنيين فقد بدأ جولة في المحافظات راح يتصل خلالها بالناس ويعود إلى دمشق بأكداس من العرائض والشكاوى استغرق موظفوه المرهقون بالعمل أسابيع طويلة في تصنيفها. كانت قرى بكاملها تخرج لتحيته، على عكس اللامبالاة الصارمة الكئيبة التي كانت تواجه الانقلابات والانقلابات المضادة في العاصمة بالاستسلام. أما في هذه المرة فقد كان هناك شعور حقيقي بأن هذه بداية جديدة.

وكانت إحدى المقابلات المدهشة اللافتة للنظر في السويداء، عاصمة جبل الدروز، حيث قام بتكريم سلطان باشا الأطرش، المحارب الوطني القديم الذي كان في أواخر الثمانينات من عمره، والذي كان قد قاد الثورة ضد الفرنسيين في العشرينات.

وحسب التقاليد الدرزية فإن سلطان باشا كان مقدراً له تسنم ذروة المجد

منذ ولادته التي حدثت (سنة ١٨٨٥) ليس في يوم جمعة فحسب، بل وفي السابع والعشرين من رمضان، أي في ليلة القدر ، وهاتان علامتان تبشران بوعد استثنائي. وتضيف هذه الحكايا التقليدية بأن ملاكاً ظهر لأمه في المنام وقال لها: «سَمّي ولدك سلطاناً، وسوف يكون سلطاناً». ويقول الدروز إنه طيلة سبعين عاماً من الحروب التي بدأت عندما شنق الأتراك والده فإن سلطاناً لم يجرح ولم يؤسر، ولم يقتل حصانه من تحته، وهذه دلالة على حماية ربانية له[١]. ولكن برغم هذا الماضي المجيد فقد ظل سلطان باشا في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية على علاقة فاترة، بل وعدائية أحياناً، مع دمشق. وهكذا فعندما جاء الأسد ليكرم هذا الوطني القديم، وليقول بأنه استمرار لجيله فإنه قد خرج عن النطاق الضيق المغلق الذي كان يميز البعث أيام صلاح جديد. وعندما توفي سلطان باشا سنة ١٩٨٢ عن سبعة وتسعين عاماً وحضر جنازته حوالي مليون شخص، جاء الأسد ثانية ليقدم احترامه وأصدر رسالة حداد شخصية تنعي «القائد العام للثورة العربية الكبرى».

وكانت هناك إشارة استهلال من اتجاه مختلف نوعاً ما، جاءت على شكل توجيه لمجلس اتحاد الكتاب يطلب فيها منهم إعادة تأهيل وتكريم أعضائه من مثقفي ما قبل الثورة. ذلك أنه عند استلام البعث للسلطة عام ١٩٦٣ نُظِرَ إليهم بازدراء كجزء من حملة الحزب لتحطيم سلطة الطبقة الحاكمة القديمة. أما الآن (سنة ١٩٧٠) فقد قلب الأسد صفحة جديدة. وتذكر القاصة كوليت خوري، حفيدة رئيس الوزراء السابق فارس الخوري أن الأسد قد أعلن في رسالة لأولئك الكتاب المعفو عنهم: «إنني مصمم على أن لا تشعروا بالغربة في وطنكم بعد الآن»[٢].

وفي سنة ١٩٧١ كان من المؤشرات على وجود مناخ أكثر تسامحاً وحرية عرض مسرحية في دمشق تفضح زيف الرواية الرسمية لحرب حزيران/ يونيو، وعنوانها حفلة سمر من أجل ٥ حزيران وكانت من تأليف الكاتب العلوي سعد

الله ونوس ـ وهي محاولة لاعطاء الحقيقة المرة عن الحرب بطريقة مستساغة. وكانت المسرحية تصور المسؤولين الحكوميين يلقون خطباً حماسية جوفاء عن النصر في ذكرى الحرب المحتفل بها رسمياً بينما يقاطع الجمهور خطبهم هذه بصرخات احتجاج: «كلا! لم يكن الأمر كذلك، كانت قريتي هي التي احتلها الإسرائيليون، فأنا أعرف وأتذكر ما حدث». . وكان بعض المشاهدين ـ وهم لا يدركون أن هذه المداخلات آتية من ممثلين لهم أدوارهم كجزء من الرواية ـ يحاولون المشاركة فيها، مما جعل إسكاتهم ضرورياً لاستمرار هذه المسرحية التي سجلت نجاحاً باهراً[٣].

وسرعان ما توفرت للناس العاديين أسباب جعلتهم شاكرين ممتنين لصعود الأسد إلى السلطة، فقد تم تخفيض أسعار المواد الغذائية الأساسية بنسبة ١٥٪، كما أن قوى الأمن الكريهة تم تطهيرها ولجمها. وتحولت واجبات معالجة عددٍ من الجرائم من الجيش إلى الشرطة. وألغيت أوامر الاعتقال وكثير من أوامر مصادرة الممتلكات. ورُفِعَت القيود عن السفر إلى لبنان والتجارة معه، مما أعاد السوريين إلى مجالهم الطبيعي.

عندما استولى البعث على السلطة لأول مرة سنة ١٩٦٣، كان الأسد في مقدمة الحملة المندفعة لتحطيم سيطرة المدينة على الريف. أما في سنة ١٩٧٠ وذهنه مليء بخطط اقتصادية وعسكرية طموحة فقد عرف أنه يحتاج إلى حلفاء من الطبقة الوسطى من سكان المدن.. فانفصل عن ماضيه السياسي وراح يسعى لكسب أصحاب الدكاكين والمحلات التجارية، ورجال الأعمال والحرفيين في المدن وكثير من المواطنين الذين هربوا من سوريا منذ سنة ١٩٦٣، ومعظمهم سُنّيون من الأسر القيادية السابقة، وأعطى ضمانات للقطاع الخاص وشجع المنفيين والمهاجرين على أن يعودوا إلى الوطن بأموالهم وبمهاراتهم.

وتقرب إلى مختلف شرائح البعثيين الساخطين الذين ابتعدوا أو أبعدوا عن

الحزب خلال أزماته الكثيرة المتعاقبة. وقد كان عدد الحزبيين المعارضين الذي اعْتُقِلُوا زمن الحركة التصحيحية قليلاً نسبياً ـ وهم صلاح جديد ومؤيدوه المباشرون ـ أما من هم أقل أهمية فسرعان ما أطلق سراحهم وراح الأسد يستخدم أسلوب الاغراء والتخويف المعروف بطريقة ـ العصا والجزرة ـ فحثّ أتباع جديد على التعاون، ولكنه حذرهم من أنهم لن يمنحوا فرصة ثانية إذا أساؤوا التصرف، وبما أنه كانت تنقصه الكوادر الحزبية، فقد راح يتودد إلى ذوي القناعات والميول العفلقية لاجتذابهم. وفي هذا كان الأسد يختلف عن زملائه السابقين في اللجنة العسكرية الذين كانوا لا يحملون لجيل عفلق سوى الحقد والضغينة. غير أن الأسد ناشد الأعضاء القدامى بقوله: «دعونا نعيد البناء معاً، وإذا فشلنا، فستوضع رؤوسنا جميعاً على النطع لتقطع، فقبل دعوته حوالى ألفين. وكان من بينهم منظرون عقائديون مثل جورج صدقني الذي كان وزيراً للإعلام خلال حرب تشرين، والدكتور شاكر الفحام البعثي النموذجي القديم الذي كان أميناً للسر في المؤتمر التاريخي لتأسيس الحزب سنة ١٩٤٧، وأصبح من الشخصيات البارزة في ميدان التربية والتعليم فشغل منصب رئيس جامعة دمشق، ووزير التعليم العالي، ووزير التربية طيلة عقد السبعينات كله، وهي مناصب يوليها الأسد أهمية كبرى.

وفي هذه الجهود لتحقيق المصالحة الوطنية والحزبية أظهر الأسد اعتدالاً وبراعة في جعل أناس من مختلف الشخصيات والخلفيات يعملون سوية. ولوحظ أنه إن كان لديه رأي بأن بعض الناس سيئون مثلاً فإنه لا يعبر عن هذا الرأي للآخرين، بل كان يحتفظ به لنفسه. وكان في نزوعه إلى المصالحة يزن الأمور، سواء أكانت احتمالات غير منسجمة أم آراء ساخطة أو معارضة. وفي تقاليد الزعامة عند العرب كان رجال السلطة يميلون إلى أن يلفوا حولهم الأتباع المخلصين لهم، أي «أزلامهم»، ولقد كان ذلك حقاً هو الأسلوب الذي بنى به الأسد قاعدة قوته. أما بعد ذلك فقد بدأ يحاول تكوين أطر وكوادر ومؤسسات

دولة. وكان ذلك تخلياً واعياً عن طريقة جمع الأزلام البدائية نوعاً ما.

إعادة الوحدة الوطنية

ومنذ بداية رئاسته كانت تتعايش في ذهنه، في نوع من التوازن القلق، فكرتان عن كيفية حكم سوريا: الأولى هي أنه لن يسمح بأي تحدٍّ لحكمه، والثانية هي أن الدعم الشعبي الواسع لسياساته كان ضرورياً. كان يريد إعادة الوحدة الوطنية، ولكن بدون مخاطر لا لزوم لها، ويبدو أنه لم يكن يطمح إلى خلق مجتمع تعددي، أو العودة إلى الديمقراطية الفوضوية التي سادت بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٨والتي أوصلت سوريا إلى حافة التفكك. بل كان يرغب في حشد الطاقات السورية للمعارك المقبلة، ويسعى إلى إجماع شعبي مشدود بقيادته وكانت فكرته الأساسية على الساحة المحلية هي أن سوريا ما لم تكن هي نفسها موحدة داخلياً فليس هناك أمل في عمل عربي موحد وبالتالي فلا أمل في استعادة الأراضي التي احتلتها إسرائيل[٤].

وعندما ظهرت صور الأسد على الجدران رحب بها الناس العاديون الذين لم يكونوا يثقون بالفراغ الجماعي الذي لم يبرز فيه وجه أحد في النظام السابق، ومع ذلك فإن قيامه بحكم سوريا، وهو من أقلية، كان تحدياً لتقليد، ظل يقضي طيلة مئات السنين بأن السلطة تعود إلى أيدي السّنيين، كما كان أمراً يتطلب شجاعة سياسية. فصلاح جديد لم تكن لديه مثل تلك الجرأة، بل اختار الأتاسي السنّي كواجهة له. ولدى إسقاط جديد، بدا وكأن الأسد بدوره يتردد على عتبة المنصب الأول، فأقنع نفسه بادىء الأمر بمنصب رئيس الوزراء ووضع في منصب رئيس الدولة معلم مدرسة سنياً غير معروف في التاسعة والثلاثين من عمره وهو أحمد الخطيب. على أن شكوك الأسد المترددة الأولى لم تكن تتناسب وشخصيته ومعتقداته. فقد كان يحاول منذ أيام صباه أن يحرر نفسه من العقد الطائفية ففي ٢٢/ شباط ـ فبراير ١٩٧١ أصبح «متمتعاً بصلاحيات رئيس

الجمهورية» وفي ١٢/ آذار ـ مارس أدى استفتاء شعبي إلى تثبيته كرئيس لمدة سبعة أعوام. كان يرمي من البداية إلى أن يحكم بدون واجهة، بل بدون أية عقبات أو قيود من أي نوع. فاختلف بذلك أيضاً عن نموذج صلاح جديد، الذي كان في غمرة تشوقه لعرض نفسه كنظام «جماعي» قد ألغى منصب «رئيس الجمهورية» مستبدلاً به منصب «رئيس الدولة» الذي كان مجرداً من أية سلطة حقيقية. وبإعادة منصب رئيس الجمهورية وممارسته أوضح الأسد أنه سيكون الزعيم القائد بالفعل وبالاسم معاً وبأن حكمه لن يكون فيه شيء جماعي.

وعندما نشر دستور سوريا الجديد في ٣١/ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٣، ثارت الاحتجاجات، ولا سيما في حماه، لأن هذه الوثيقة ذات الـ ١٥٦ مادة كان قد حذف منها الاشتراط بأن رئيس الجمهورية يجب أن يكون مسلماً. وكانت تلك قضية شغلت الرأي العام السوري، لأن الدساتير السورية، منذ عام ١٩٣٠، كانت تنص على أن دين رئيس الدولة يجب أن يكون الإسلام. فتراجع الأسد بهدوء عن علمانية البعث التقليدية ليتجنب المواجهة، فأوعز إلى مجلس الشعب الحديث التكوين آنذاك أن يضيف هذه المادة. ولكنه انتهز هذه الفرصة ليعطي رأيه في الإسلام الذي قال إنه يجب أن يكون «بعيداً عن وجه التزمت والتعصب المقيت، فالإسلام دين المحبة والتقدم والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الجميع، دين يحمي الصغير والكبير، والضعيف والقوي، ودين يتماشى بتناغم مع روح العصر»[٥].

ثم طُرِحَ السؤال بعد ذلك عما إذا كان من المشروع أن يُسمَّى العلوي مسلماً. ولحل هذه المعضلة، لجأ الأسد إلى صديقه الزعيم الشيعي المتنفذ، الإمام موسى الصدر، رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان، الذي أصدر فتوى بأن العلويين حقاً طائفة من المسلمين الشيعة، وهكذا أزيح عائق ديني من طريق رئاسة الأسد. وعندما أثارت المعارضة الشعب لأنها لم تكتف بذلك وطالبت بإعلان الإسلام دين الدولة (وهذا شيء لم يكن منصوصاً عليه في

دساتير سنة ١٩٣٠ و١٩٥٣ وسنة ١٩٦٤) وقف الأسد بقوة وأَمَّنَ تأييداً كبيراً لدستوره في استفتاء شعبي أجري في ١٢/ آذار/ مارس عام ١٩٧٣.

القاعدة القائمة على المؤسسات

وبينما احتفظ الأسد لنفسه بالعناصر الجوهرية للسلطة فقد كان حريصاً على إعطاء دولته مؤسسات رسمية، ولو كانت ذات طبيعة احتفالية شعائرية فقط. وكان يحب أن يقول: «لقد كنتُ دائماً رجلَ مؤسسات»(٦). ولتوضيح ما كان يقصده كان يستشهد بأيام شبابه كسياسي طلابي في اللاذقية عندما صعد ليترأس اللجنة الطلابية في مدرسته، ثم ليصبح رئيساً للاتحاد الوطني لطلبة سوريا كلها. «لم أفرض نفسي على تلك اللجان. لقد انتخبني الطلبة، وكسبتُ احترامهم لأنني عملت ضمن مؤسساتهم». ومهما كان عنصر تبرير الذات وحتى الدفاع عن النفس الذي توحي به هذه الذكريات، فلقد كان في ذهن الأسد خط ترابط مستمر بلا انقطاع بين الزعيم الطلابي في أواخر الأربعينات، وبين باني الدولة في السبعينات.

وكانت المؤسسة التي تعتبر حجر الأساس في دولة الأسد هي الحزب طبعاً. وكانت سيطرته على الحزب لا ينازعه فيها أحد. ولكن ذلك لم يكن يعني أن الحزب نفسه لم يكن له نفوذ. بل إن قوة الحزب في الحقيقة كانت نابعة من احترام الأسد له. فقد فهم أن إضعاف الحزب يعني إضعاف حكمه. وبما أنه كان ميالاً إلى الالتزام بصيغ الشرعية الرسمية، فقد كان من أول أعماله بعد إسقاط صلاح جديد أن يؤمن تعيين قيادة قطرية مؤقتة من أربعة عشر عضواً. وسرعان ما تَمَّ توسيعُ تلك القيادة إلى واحد وعشرين عضواً. وكانت على قمة هرم السلطة، فأصبحت تحت قيادة الأسد وهي المنبر الأساسي الذي تتم فيه مناقشة وإقرار سياسات القطر الداخلية والخارجية ـ رغم أن الأسد كانت له دائماً الكلمة الفصل. كانت هذه هي المجموعة الوحيدة من الرجال التي ظل الأسد يجتمع بها بانتظام طيلة عهد رئاسته.

وفي عام ١٩٧٠ كان من بين أول أعمال القيادة القطرية المؤقتة ترشيح ١٧٣ عضواً لمجلس الشعب اختيروا من مجال واسع من الميول السياسية المتنوعة[٧]. . . وبدأوا بوضع مسودة دستور دائم، وبعد عامين انتخب المجلس بالاقتراع الشامل. وفي منتصف نيسان/ ابريل سنة ١٩٧١ أجرى الحزب انتخابات في جميع أنحاء القطر نجمت عنها وفود للمؤتمر القطري الخامس (٨ - ١٤/ أيار- مايو) وللمؤتمر القومي الحادي عشر (٢٣ - ٣١/ آب - أغسطس) وانتخب المؤتمران بدورهما قيادة قطرية سورية وقيادة قومية.

ولقد قيض لمؤتمرات الحزب أن تلعب دوراً هاماً في دولة الأسد. فهي تجتمع مرة كل أربعة أعوام فيلتقي فيها عدة مئات من المندوبين الذين يمثلون الفرق والشعب والفروع في التسلسل العمودي لتركيب جهاز الحزب في جميع أنحاء القطر. وهذه المؤتمرات غير مفتوحة للعامة وهي مناسبات تطرح فيها مناقشات حامية نشيطة للتقارير، كما أنها تعطي فرصاً لصعود أجيال الشباب ليتحدّوا مَنْ هم أكبر منهم في جوّ حيوي قوي من «الديمقراطية الحزبية». وكانت المؤتمرات تضع الخطوط العريضة للسياسة، كما وضعت نظاماً وطنياً عاماً يتم بموجبه انتخاب لجنة مركزية من نخبة أعضاء الحزب، والمحافظين وأمناء الفروع على مستوى المحافظات، وكبار ضباط القوات المسلحة وأجهزة الأمن، والوزراء، وأعضاء مجلس الشعب، والأساتذة الجامعيين البارزين، وممثلات عن المنظمات النسائية، أي الناس الذين في القمة في سوريا.

وأدى كل هذا الاقتراع والنقاش إلى تنشيط الحزب، غير أنه عزز أيضاً سيطرة الأسد عليه. ولم يعد الحزب حزب عفلق المعارض المليء بالمثاليين ذوي الأفكار الكبيرة السامية بل أصبح هو الحزب الحاكم الذي يعطي المؤسسات عمودها الفقري، وأصبح في الحقيقة سلماً للتسلق لسلالة جديدة من المحترفين. فتضخم بالمنتسبين الجدد، وكذلك بالكوادر الناضجة، وأخذ شكل المؤسسة الحاكمة التي سرعان ما امتدت مجساتها إلى كل زوايا البلاد.

وبعد اجتذاب البعثيين القدامى وإعادتهم إلى عضوية الحزب بدأ الأسد يعمل لضمان مكانته العليا في الحزب بتدمير ما بقي من جاذبية لميشيل عفلق ورئيس الدولة السابق أمين الحافظ اللذين وجدا ملاذاً في بغداد بعد استعادة البعث للسلطة هناك سنة ١٩٦٨. وقد حقق ذلك بإقامة محاكمة بتهمة الخيانة (فيما بين كانون الثاني/ يناير وآب/ أغسطس سنة ١٩٧١) لمؤسس الحزب ومائة من أشد أتباعه تعلقاً به، وكان معظمهم غائبين. وكانت التهمة هي محاولة الاطاحة بالحكومة السورية في مؤامرة سنة ١٩٧٠ (قبل استيلاء الأسد على السلطة) وذلك بمساعدة مالية وعسكرية من العراق. وصدر الحكم على عفلق وأمين الحافظ وثلاثة آخرين بالإعدام وعلى تسعة وتسعين آخرين بالسجن مدداً متفاوتة. ورغم أن الأسد قد خفف أحكام الإعدام بعد شهور قليلة وأطلق سراح معظم المتهمين الذين ألقي القبض عليهم في سوريا، فإن المحاكمة كانت أوضح إنذار ممكن بأنه لن يتحمل أي تدخل من العراق ولن يتسامح مع أي ولاء لعفلق داخل الحزب السوري.

وفي نفس الوقت الذي نَشَّطَ فيه الأسد مؤتمرات الحزب وقياداته فقد وسع المنظمات الشعبية التي يسيطر عليها الحزب وأعطاها صلاحيات أكثر (كانت تلك المنظمات قد أقيمت أيام نظام صلاح جديد) لكي تعبىء التأييد في صفوف مختلف الفئات الاجتماعية في الدولة البعثية، كالعمال، والفلاحين، والطلبة، والنساء، والشبيبة.. وهلم جرا. فتحولت هذه المنظمات الجماهيرية في القاعدة إلى لبنات البناء في نظام الأسد، وأعطيت للأشخاص الذين يديرونها سلطات غير قليلة(٨).

وحدث تطور آخر علق عليه الأسد أهمية كبرى ـ وكان موضوعاً للنزاع بينه وبين جديد ـ وهو تشكيل الجبهة الوطنية التقدمية التي تمكنت فيها تجمعات سياسية أخرى غير البعث من طرح آرائها، وتم تدشين هذه الجبهة في ٧/ آذار/ مارس سنة ١٩٧٢ بعد عدة شهور من المساومة حول بنود ميثاقها والسلطة

المتاحة لأعضائها. وبالإضافة إلى البعث، الذي سيطر بالضرورة على الجبهة، كانت الجبهة تضم في عضويتها كلاً من الحزب الشيوعي والاتحاد الاشتراكي العربي (وهو بقايا التنظيم الناصري من أيام الوحدة) والحركة الاشتراكية العربية (بقايا حزب أكرم الحوراني) وحركة الوحدويين الاشتراكيين (ناصريين بعثيين سابقين) ورغم أن هذه الحركات صارت جزءاً من الجبهة، فلم يكن مسموحاً لها بالنشاط السياسي في صفوف الجيش أو الطلبة، فقد احتفظ الحزب بالعمل في هذين المجالين وحده. على أن الجبهة الوطنية التقدمية لم تكن مجرد ديكور شكلي لمسرحية، بل انعكاساً لحقيقة الولاءات السورية المنقسمة في المعسكر الراديكالي المتشدد وللتفتت الذي نجم عن اضطرابات السنين الخوالي. وقد أعطيت للعديدين من قادة الجبهة مقاعد وزارية. ورغم ذلك فقد كان من مفارقات عواقب تشكيل الجبهة حدوث الشقاق في اثنتين من التجمعات المكونة لها، وهما الحزب الشيوعي والاتحاد الاشتراكي العربي الناصري، فكان ذلك لصالح البعث، بحيث أن الجبهة في آخر الأمر أكدت سيطرة البعث بدلاً من أن تعطي نوعاً من التعددية.

ولعل نظام الإدارة المحلية التي أقيمت كغيرها من الأشياء في السنة الأولى من رئاسة الأسد كان أشد فاعلية وتأثيراً من مجلس الشعب أو الجبهة الوطنية التقدمية، وذلك في ميدان إفساح المجال للناس كي يشاركوا في الأمور وتكون لهم كلمتهم المسموعة. وقد بدأت هذه العملية في الثالث من آذار ـ مارس سنة ١٩٧٢ بانتخاب مجالس محلية في كل من محافظات القطر الأربع عشرة، ولم يكن المرشحون لمقاعد هذه المجالس من البعث فقط، بل كان من بينهم أعضاء في الأحزاب الأخرى المشاركة في الجبهة، وكذلك مستقلون ممن كانوا في التحليل الأخير يمثلون الاتجاهات المحافظة المعارضة للنظام. وفي انتخابات آذار/ مارس فاز أولئك المحافظون بأغلبية في محافظتي دمشق وحمص معاً رغم أن النظام الأساسي كان يشترط أن يكون ٥١٪ من أعضاء المجلس عمالاً وفلاحين، والباقي تجاراً وحرفيين ومثقفين.

كان واجب هذه المجالس أن تساعد المحافظ في واجباته التنفيذية. وفي المدن الرئيسية كدمشق وحلب كان المجلس المحلي مكوناً من مائة عضو ينتخب منهم عشرة كمجلس تنفيذي يكون كل منهم مسؤولاً عن ناحية مختلفة عن غيرها من نواحي الإدارة كالتربية، والإسكان، والصحة، والنقل... وهكذا. وبينما كان المجلس يجتمع بكامل هيئته مرة كل ثلاثة أشهر، فإن المجلس التنفيذي كان يلتقي بالمحافظ يومياً، وعلى الصعيد المحلي كان لدى هؤلاء الرجال سلطة حقيقية. وكان الحكم في سوريا شديد المركزية قبل إدخال هذا النظام. فكانت أصغر قضية في أقصى المحافظات النائية تجد طريقها إلى مكتب رئيس الوزراء. ولقد عزز الأسد التخطيط المركزي وجعله أفضل وأكثر إحكاماً ولكنه جعل عملية التنفيذ لامركزية وأكثر مرونة إلى حدٍ ما. بل لقد اكتسبت المجالس المحلية سلطة فرض بعض الضرائب المحلية لتمويل المشروعات التي تقع خارج إطار الخطة الخمسية.

وفي دولة الأسد كان هذا التركيب للحكم المحلي يشبه ويسير بموازاة تركيب الحزب. ففي كل محافظة كان هناك أمين لفرع الحزب يراقب المحافظ، بينما يشرف أعضاء الفرع على نظرائهم في المجلس التنفيذي للمحافظة. وبناء عليه فقد كان الحزبُ في القضايا اليومية جهازَ حراسة يشرف على عمل الممثلين المنتخبين في الإدارة المحلية.

وكان بوسع المسافر المتجول في المحافظات السورية أن يكتشف وجود ثلاثة رجال ذوي أهمية في عاصمة كل محافظة، فأولاً في مسائل البروتوكول هناك أمين فرع الحزب الذي كان على رأس المنظمة الحزبية، وهو أداة القيادة القطرية وبالتالي أداة الأمين القطري، ثم المحافظ وهو مثل «الحاكم» في فرنسا، كان ممثل الحكومة المركزية، وبالتالي ممثل رئيس الجمهورية، ثم مدير الأمن السياسي، وهذا كان في الغالب الأعم عقيداً علوياً كان دوره كشف النشاط التخريبي والتعامل معه، وهذا أيضاً كان تسلسله القيادي يؤدي في نهاية المطاف إلى الأسد.

ولكي يعمل النظام الجديد بنعومة كان على هؤلاء الرجال الثلاثة في كل محافظة أن ينسجموا معاً، غير أن أهميتهم النسبية كانت تميل إلى التباين من مكان لآخر. ففي منطقة حدودية تبرز فيها مشاكل الأمن بشكل كبير مثلاً، كان مدير الأمن له الأولوية المتقدمة، أما في منطقة التطور سريعة النمو في وادي الفرات فإن المحافظ هو الأكبر. وكان من المحتم أن تلعب شخصيات الرجال الثلاثة المعنيين دوراً هي الأخرى كعامل في توازن القوى بينهم.

وفي المجتمع السوري كله أقيم شيء يشبه النظام المزدوج الذي يرتكز على خطين متوازيين. كانت الصخرة الأساسية في القاعدة هي أمن النظام، بنية تحتية من السيطرة غالباً ما كان يوجد فيها العلويون، دون أن تكون قاصرة عليهم وحدهم. فلم يكن الأسد طائفياً، كما يتضح من اختياره لأقرب أعوانه، فرئيس وزرائه، ووزير دفاعه، ووزير خارجيته، وأمين سره الخاص، وكاتب خطاباته، وحارسه الشخصي كانوا جميعاً من غير العلويين. ومع ذلك فقد كان يعتمد على أبناء طائفته في حماية أمن عهده وفي البقاء في آخر الأمر. وعلى هذا الأساس أقيمت طبقة أخرى من الإدارة، والنشاط الاقتصادي، والمؤسسات شبه التمثيلية، والوظائف العامة، والكسب الخاص كان بالإمكان أن تكون أكثر تنوعاً ولذلك كانت مفتوحة لجميع المواهب.

قاعدة السلطة

خلال أقل من ثلاث سنوات دعا الأسد السوريين إلى صناديق الاقتراع ما لا يقل عن خمس مرات، لتثبيته كرئيس، ولانتخاب ممثلين لمجلس الشعب، وللموافقة على الدستور، ولانتخاب مجالس المحافظات، وفي الشؤون الخارجية لابداء رأيهم في الاتحاد المقترح ـ والذي لم يتحقق قط ـ بين سوريا ومصر وليبيا.

وكانت هذه الاقتراعات تشير إلى وضع أفضل بكثير من الأوضاع المضطربة التي ورثها الأسد. وقد سبقت كل اقتراع محاولات جادة وشاقة لشرح

القضايا المطروحة واستنهاض تأييد الشعب لها وللمؤسسات المرتبطة بها أو التي ستنجم عنها. وفي دولة الأسد كانت هناك مفارقة مستعصية الحل بين أشكال التمثيل التي رعاها وتعهدها بكل هذا الدأب المثابر، وبين سيطرته هو على الأمور في خاتمة المطاف. فالقول بأنه أوتوقراطي بالرغم منه ينصفه كثيراً جداً. . . لأنه كان لديه شعور قوي بأنه يعرف ما هو الأفضل. ومع ذلك فقد كان يبدو أيضاً متعطشاً للتراكيب الديمقراطية، وقد أولى المؤسسات حديثة الولادة الكثير من الرعاية، ولعل ما رجح كفة الميزان باتجاه الحكم الفردي هو الزمن الخطر العصيب الذي عاش خلاله، وطبيعة العمل السياسي العربي المكون في جوهره من صراع وحشي بين قادة فرديين يتمتع كل منهم داخل بلده بشيء يشبه السلطة المطلقة.

وفيما يتعلق بقضية الكبت السياسي بالذات كان واضحاً أن الأمور أفضل بكثير تحت حكم الأسد ـ في بادىء الأمر على الأقل ـ رغم أن النظام لم يتخلَّ أبداً عن حقه في أن يضرب بشدة كلما وجد ذلك ضرورياً.

وكان هناك تركيز هائل للقوى في المركز، ومع ذلك فإن حكم الأسد لم يكن قائماً على القوة وحدها، ولو كان الأمر كذلك لما صمد وبقي طيلة هذه المدة. فلقد تقبل معظم السوريين المفكرين أن الأسد قد جاء لمداواة جروح مجتمعهم التي نجمت عن سياسات أسلافه. ولم يكن عامل القبول العام كماً مهملاً، بل ان الأنظمة العربية كنظامه، والتي غالباً ما كان الساخرون يصفونها بأنها أنظمة «الطغيان الاستبدادي الشرقي» كانت في واقع الأمر تتطلب قدراً من القبول العام. ويمكن رؤية دور وأهمية الرأي العام من الجهود الشاقة التي كانت تبذل لحشده وتحريكه، وفي الممارسة المتكررة لتبرير نهج ما أمامه علانية وفي الحملات الإعلامية الصاخبة التي كانت الأنظمة العربية المتنافسة تشنها ضد بعضها البعض. وكان الحكام والمحكومون يعرفون على ما يبدو أن الموافقة العامة إذا تم سحبها فإن النظام سيصبح خاوياً بلا محتوى.

كان الأسد يستشير طويلاً وكثيراً وينصت ويدخل في التفاصيل ويقلب الأمور على وجوهها بشكل كامل، وعمل دائب، غير أنه في النهاية كان هو وحده صاحب القرار. وبرغم التركيبات الجديدة كان حكمه شخصياً، ورغم كل تجديداته وتطويراته كانت دولته قد فصلت تفصيلاً وركبت تركيباً ثم فرضت على المجتمع من الخارج ولم تكن نابعة من الداخل أو مشتقة منه[٩].

عَلاَمَ كانت تقوم سلطة الأسد؟ رغم الاستفتاء والترحيب الشعبي فإن حكومته نجمت من خلال سبعة أعوام من الصراع الدموي واعتمدت أسسها على الجيش، وقوى الأمن، والجهاز الحزبي والجهاز الحكومي. ولكن هذه العوامل المغلقة إلى حد كبير لم تكن وحدة متجانسة، ففي داخلها كان أصحاب الطموح يتدافعون لكسب النفوذ، ويتآمر بعضهم ضد بعض، ويكيد بعضهم لبعض كما هي الحال في أي نظام سياسي آخر، رغم أنهم جميعاً كانوا يتطلعون إلى الرئيس باعتباره حكماً نهائياً بينهم. هنا، بعيداً عن أنظار العامة كانت عمليات التخطيط والتفصيل والتركيب السياسية تتم في سوريا الأسد.

ولم يقم الأسد بخنق النشاط السياسي تماماً ولكنه حصره في تجمعات تعمل بذاتها من الداخل كالأجهزة العليا في قيادة الحزب، وقادة الجيش ومدراء الأمن والمخابرات، الذين يعتمدون عليه في نهاية الأمر.

أما أولئك الذين يوجدون خارج هذه الدوائر المتنفذة المتميزة فسرعان ما تعلموا بأن عليهم أن يستمروا في عملهم بدون خوف أو توتر لا مبرر لهما ما داموا يوافقون على أن السياسة ليست ميدانهم. فلم يبق من خيارٍ أمام معارضيه في مثل هذه الظروف سوى الصمت، أو اللجوء إلى الشغب، والثورة، والاغتيال، كما في حالة أعدائه في الخندق الأخير كالاخوان المسلمين.

فريق العمل

في عام ١٩٧٠ بدأ الأسد جولة طويلة. وشهد أول يوم له في السلطة خسوف وغياب الضابط الطيار الطائش المندفع، وبروز الحاكم الصلب الرزين

الحكيم الذي لا يرغب أو لا يقدر أن يفوض الآخرين بعمله، فراح يجبر نفسه منذ ذلك الحين على العمل بلا انقطاع أربع عشر ساعة في اليوم. كان في الأربعين، وله زوجة تنكر ذاتها في سبيله، وحولهما أسرة من خمسة أطفال، ابنة وأربعة أبناء، فلم يعد يراهم إلا قليلاً منذ ذلك الحين. ولم يعد هناك عطلات للأسرة، ولا لقاءات في نهاية الأسبوع، ولا وجبات طعام عائلية يجلس فيها على رأس المائدة، فقد كان الأسد بطبيعته شغيلاً. وعندما أصبح في مركز نظامه، محاطاً بالأعداء والأخطار والتهديدات من كل الجوانب، صارت السيطرة على كل التفاصيل الدقيقة شغله الشاغل، وأصبح العمل المكتبي الذي لا ينتهي هو قَدَره. وعند مقابلة ولده باسل بعد ذلك بسنوات عديدة كثيرة، لم يكد يتذكر أية مناسبة من أيام شبابه كان فيها والده في البيت دون انشغال بقراءة الأوراق الرسمية[١٠].

في سنته الأولى جمع الأسد فريقه، فاستخدم رجالاً قُدِّر لهم أن يعملوا تحت حكمه خمسة عشر عاماً أو تزيد. ومثلما كان منسجماً مع نفسه في مبادئه السياسية، بدا أنه يتردد كثيراً في تغيير الوجوه من حوله. كان من طبعه تقدير الولاء تقديراً عالياً. فموظفوه الشخصيون في الرئاسة، حتى الكتاب وصانعو القهوة، ظلوا بلا تغيير سنة بعد سنة. فقابلوا ثقته بهم بالولاء له. كان يغرس المحبة العميقة والاحترام في نفوس أولئك الذين يعملون معه عن قرب. وربما كان بعض السبب في ذلك راجعاً لمعرفته بالرجال وإدارته للأمور وإشعاره موظفيه بالدفء والراحة وبمعرفته الشخصية بأحوالهم. ففي إحدى المناسبات أذاع المدير العام للاذاعة والتلفزيون عن غير قصد برنامجاً عن فيصل الأول (الملك الهاشمي الذي حكم سوريا فترة قصيرة في عام ١٩٢٠) في نفس الوقت الذي كان فيه الأسد مشتبكاً في شجار مع ملك الأردن الهاشمي. فاتصل سكرتير الأسد هاتفياً يطلب إيضاحاً لهذه الغلطة السياسية، فلم يكن لدى المدير العام أي إيضاح، سوى أن والده كان قد أصيب بنوبة قلبية فانشغل عن مراقبة البرنامج قبل البث. فأخبره السكرتير ببرود شديد أن يذهب إلى بيته وينتظر الحكم.

ولكنه لم يكد يصل إلى هناك حتى تلقى مكالمة هاتفية من السكرتير مرة أخرى. ولم تكن فيها أية كلمة لوم، بل قال له: «إن الرئيس يبلغك تحياته، ويريد أن يعرف أين تحب أن يُرْسَلَ والدك للعلاج»[11].

ولم يكن ذلك السكرتير سوى محمد ديب دعبول (المعروف لدى الجميع بكنيته (أبو سليم) والذي كان ـ باعتباره حاجب باب الأسد وحامل دفتر مواعيده ـ شخصية مركزية في النظام الجديد. وهو سنيّ من دير عطية، البلدة الصغيرة قرب حمص. وكان دعبول يقضي معظم ساعات النهار والليل على طاولة مكتبه على ما يبدو. بل كان ينام إلى جوار الهاتف في المكتب عندما يكون الأسد في الخارج. وفي نظام رئيسه هو الكل في الكل، فإن الرجل المتحكم بالوصول إلى الرئيس يصبح هو نفسه قوياً جداً، بل أقوى بكثير من معظم الوزراء. وكان من بين مهمات دعبول غربلة بريد الرئيس وإيصال القضايا الهامة إلى الأسد طلباً لتعليماته بشأنها. وكان الأسد يوقع على الرسائل بخطه، وغالباً ما كان يكتب ملاحظات وتعليقات ذكية على الهامش تدل على حضور بديهته.

وكان كاتب خطب الأسد، ومترجمه، ورئيس مكتبه الصحفي، فلسطينياً مسيحياً هو الرجل الدمث الهادىء المتفاني في عمله أسعد كامل الياس، الذي عمل في السنوات الأولى أيضاً كمستشار في السياسة الخارجية، وأدى عدداً آخر من المهمات العامة في خدمة الرئيس. وكان الأسد معلماً متشدداً في أداء المهمات يطلب مستوى عالياً من النثر العربي في جميع البيانات والرسائل التي تصدر بتوقيعه. وكان هو نفسه يخصص بعض الوقت لقراءة الأدب العربي وروائعه الكلاسيكية القديمة. وفي العالم العربي كان الاهتمام بالعربية الفصحى دلالة على الشخص القومي الأصيل. وكانت إحدى مساعدات الياس في مكتب الأسد الصحفي انتصار أدهمي، شابة من عائلة دمشقية سنيّة عريقة. ومثل الياس و (أبو سليم) كانت لا تزال في عملها بعد عقدين من الزمن. كان الأسد قد وجد هؤلاء الثلاثة: دعبول، وإلياس، والأدهمي، في ملاك رئاسة

مجلس الوزراء عندما تسلم هذا المنصب في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٠، فأخذهم معه ببساطة إلى القصر الجمهوري حيث ظلوا من الثوابت الدائمة. (ولم يتوقف أسعد كامل الياس عن عمله في إدارة المكتب الصحفي إلّا في منتصف الثمانينات، عندما كبرت سنّه وشاخ في عمله هذا فحلّ محله فيه جبران كورية، البروتستانتي السوري).

وممن خدموا فترة أطول من فترة هؤلاء رئيس المراسم، خليل السعداوي، الذي ظل في القصر في منصب أو آخر منذ الحرب العالمية الثانية. وفي أول نيسان ـ ابريل سنة ١٩٧٩ قدم له بعض زملائه العابثين «كذبة نيسان/ ابريل» على شكل مرسوم (مزيف) بإنهاء خدماته، فاحتج السعداوي، الرجل الصغير الحجم الأشيب الشعر المنتصب الظهر، والدموع في عينيه بأنه يفضل الموت على ترك خدمة الرئيس. وعندما سمع الأسد بهذه المزحة أكد له أنه يستطيع البقاء: وقد فعل. ومن الخدم المخلصين الآخرين الحارس الشخصي للرئيس، وهو عسكري فلسطيني، العقيد خالد الحسين الذي كان يعنى بالأسد منذ الستينات والذي كسب شهرة في حزيران/ يونيو سنة ١٩٨٠ عندما جعل جسمه درعاً لحماية الأسد من انفجار قنبلة في محاولة لاغتياله.

وظلت بلا تبديل كذلك الشخصيات الهامة في النظام. فأقرب حلفاء الأسد العسكريين في صراعه ضد جديد كان مصطفى طلاس، السنّيّ من الرستن قرب حمص وصديقه من أيام دراستهما معاً كطلاب ضباط. أصبح طلاس رئيساً للأركان في عام ١٩٦٨، فساعد الأسد على دحر صلاح جديد، فكوفىء على ذلك بتعيينه وزيراً للدفاع في آذار/ مارس سنة ١٩٧٢، وهو منصب ظل محتفظاً به في أواخر الثمانينات (وكان ترفيع طلاس إلى مكانة في السلك العسكري تلي مكانة الأسد قد أدى إلى مشكلة صغيرة تتعلق بالرتبة، فالأسد كان برتبة فريق، وهي رتبة احتفظ بها عندما أصبح رئيساً، ولم يعد بإمكان أحد بعد ذلك أن يتخطاه، وهكذا فلتمييز طلاس عن القائد الذي يعلوه

وعن حملة رتبة «اللواء» الذين هم دونه، تم خلق رتبة خاصة، هي رتبة «العماد» التي حملها وحده عدة أعوام، إلى أن رفَع إليها أيضاً حكمت الشهابي عندما أصبح رئيساً للأركان، وتلاه في عام ١٩٨٤ نائبه علي اصلان).

وكان طبيعياً أن يعطي الأسدُ القواتِ المسلحةَ اهتماماً خاصاً... فهي الأسس الداعمة لدولته. فالبلد الذي كان يطمح لادارته لا يمكن أن يعيش تحت تهديد الانقلابات التي أصيبت بها سوريا زمناً طويلاً. كان الأسد قد عمل ـ حتى قبل استلامه للسلطة ـ على تقوية قبضة الحزب من أجل بناء ما أسماه «الجيش العقائدي»، المثقف سياسياً، والمتحرر من الطائفية. أما الآن (١٩٧١)، فقد بدأ يطور هذا الاتجاه أكثر، فتعزز احتكار البعث للعمل السياسي في القوات المسلحة ووضعت تحت سيطرة الجيش بإحكام كل القوات شبه النظامية كقوات الصاعقة الفلسطينية، وتوسع الجيش نفسه إلى درجة أنه لم يعد بإمكان وحدة منه بمفردها أن تقوم بانقلاب. وأعطيت لضباطه امتيازات مالية وغير مالية، كما أن الأسد باعتباره قائداً عاماً أحدث توازناً بين قادة الجيش المتنافسين، ومدّ هذا التوازن ليشمل قيادات قوى الأمن والمخابرات، وظل وحده يمسك بكل الخيوط.

أما في شؤون الأمن فكان أكبر أتباع الأسد تمتعاً بثقته هو الضابط العلوي محمد الخولي مدير مخابرات القوى الجوية منذ عام ١٩٦٣، الذي أقام بعد عام ١٩٧٠ ما أصبح فعلياً جهاز مخابرات رئاسياً صرفاً مسؤولاً أمام الأسد فقط. وفي هذا المنصب الشديد القرب من مركز القوة أصبح الخولي موضع كراهية وكيد الآخرين، لأنهم كانوا يحسدونه، ويكرهون سهولة وصوله إلى الأسد بطريقة لا ينافسه فيها أحد. (وقد ظل في هذا المنصب إلى تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٨٧ عندما نُقِلَ من المخابرات إلى عمل إداري في أعقاب قضية الهنداوي، فعين في منصب نائب قائد القوة الجوية).

ومنذ البداية كانت القضايا الخارجية شغل الأسد الشاغل فأصبحت ميداناً

أساسياً محجوزاً للرئيس. وكان الموظف التنفيذي الذي اختاره في هذا الميدان هو عبد الحليم خدام، صديقه من أيام نضالهما في الحركة الطلابية. كان خدام سنياً من مدينة بانياس الساحلية وقد عمل كمحامٍ ومدير مدرسة قبل أن يدخل في خدمة الحكومة في منصب محافظ تحت حكم البعث في الستينات، في حماه، ثم في القنيطرة (حيث كان يعمل حينما سقطت المدينة في يد إسرائيل في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧) وأخيراً في محافظة دمشق. وفي أواخر الستينات رفع إلى منصب وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية ويعتقد بأنه كان عين الأسد في معسكر صلاح جديد المنافس له. وقد كافأه الأسد بوزارة الخارجية التي أصبح فيها بمرور الأعوام رجل الواجهة الأول في الدبلوماسية السورية بعد أن أظهر كثيراً من الحيوية والروح القتالية، وأغضب كثيرين بأسلوبه الفظ المتغطرس، ولكنهم يعرفون بأنه أداة فعالة لتنفيذ إرادة الأسد.

وفي داخل الجهاز الحزبي كان أداة الأسد الرئيسية عبدالله الأحمر، وهو سني من قرية التل بالقرب من دمشق، تدرب مثل خدام على المحاماة، وكان مديناً لانقلاب ٢٣ شباط/ فبراير سنة ١٩٦٦ بترقيته إلى منصب محافظ إدلب أولاً، ثم صار محافظاً لحماه. وبعد استلام الأسد للسلطة، صعد الأحمر ليصبح أميناً عاماً مساعداً للقيادة القومية، أي مساعد الأسد الحزبي الأساسي، وأصبح بمرور الأعوام بيروقراطياً بعثياً يتزايد نفوذه باطراد.

وأما أول ثلاثة رؤساء للوزارة لدى الأسد، وكانوا جميعاً سنيين من دمشق، فلم يبقوا في مناصبهم طويلاً كبعض زملائهم الآخرين، ولكنهم ظلوا مدة كافية للاشراف على العملية العظيمة لإعادة تركيب الاقتصاد السوري المرتبطة بالخطة الخمسية الثالثة (١٩٧١ ـ ١٩٧٥). وكان أولهم ـ اللواء عبد الرحمن خليفاوي ـ إدارياً عسكرياً قديراً، وتلاه محمود الأيوبي، الذي برز اسمه كمدير عام لمشروع سد الفرات ثم أصبح نائباً لرئيس الوزراء فنائباً لرئيس الجمهورية قبل أن يترأس الوزراة بنفسه، ثم خلفه محمد علي الحلبي، الذي جاء بعده مخطط

المدن والأستاذ، الدكتور عبد الرؤوف الكسم، الذي بقي في منصبه أكثر من سبعة أعوام، من سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٨٧. ثم حلَّ محله رئيس مجلس الشعب محمود الزعبي الذي كان ريفياً من أبناء حوران، فأثار القيل والقال بين أبناء دمشق الذين كانوا معتادين على أن يكون رئيس الوزراء من بين صفوفهم.

وكان من ملامح شخصية الأسد ثباته الدؤوب الذي لا يخلو من العناد نوعاً ما. فلم يكن رجلاً يسهل التأثير فيه. كان يستطيع من الناحية التكتيكية أن يظهر مرونة وأن يفاجىء أعداءه، غير أنه في الأساسيات كان يمكن التنبؤ بموقفه بشكل كلي تقريباً. فمن بين الأشياء التي تقررت منذ البداية وظلت بعد ذلك دون تغير كبير: أفكار الأسد الرئيسية الهامة، وأساليبه في العمل، وزملاؤه ومساعدوه الرئيسيون. وقد تعرضت الأفكار والمثل، وكذلك الأشخاص لبعض التآكل طبعاً، ولا سيما في لحظات التأزم، ولتصحيح الأهداف، ولكن الاستمرارية كانت طابع الأسد المتميز.

نهاية عمران

استقر الأسد في مكانه القيادي بسرعة وإحكام، ولكن كان هناك رجل واحد يشكل شيئاً من التهديد ما دام طليقاً. وهو محمد عمران، الرئيس الأول للجنة العسكرية، فقد كان يتآمر على الأسد من لبنان حيث كان يعيش منذ إطلاق سراحه خلال حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧. ومما يذكر أنه كان قد انفصل عن الأسد وجديد سنة ١٩٦٥ إلى جانب عفلق وأمين الحافظ، ولكن ذلك أدى إلى الإطاحة به معهما في شباط سنة ١٩٦٦. ولكن برغم تنوع حظه وارتفاع وانخفاض أسهمه، وبعده عن المشهد السياسي آنذاك، فإنه لم يكن قد تخلى عن طموحه السياسي في سوريا، بل احتفظ بعلاقات مع البعثيين القدامى كصلاح الدين البيطار، وكان يحلم بأن يصبح البيطار يوماً واجهة له تماماً كما كان أمين الحافظ واجهة للجنة العسكرية.

ولكن الأهم من ذلك والأقرب إلى بيت القصيد أنه كان لعمران أصدقاء في

هيئة الضباط، أصدقاء ساعدوا الأسد على الاطاحة بجديد، واعتقد عمران بأنهم قد يساعدونه على الاطاحة بالأسد. واعتقد بأنهم سيلتفون حوله إذا كشف عن أوراقه.

وكان عمران يقيم في منزل بميناء طرابلس اللبناني حيث كانت الأقلية العلوية على اتصال متواتر كثيف بالعلويين عبر الحدود في سوريا. ومن خلال هذه القنوات أحسَّ عمران في مطلع عام ١٩٧٢ بوجود تيار لصالحه، وأخذ يترقب الأحداث. وللمساعدة في التخطيط لعودته جمع عمران حوله «تشكيلة صغيرة من الأدمغة» في مطلع عام ١٩٧٢ كان من بين أهم أعضائها جبران مجدلاني، المحامي اللبناني والعضو السابق في القيادة القومية التابعة لعفلق، ونبيل شويري البعثي السوري القديم، ورجا صيداوي، الرأسمالي السوري المهاجر.

وفي حركة دونكيشوتية مغامِرة كتب عمران رسالة إلى الأسد يعلمه فيها بعزمه على العودة للوطن، أي أنه عملياً كان يتحدى الأسد أن يقبض عليه. ويبدو أنه قد حسب أن أصدقاءه في الجيش إذ كانوا قد احتملوا نفيه فإنهم لن يتحملوا حبسه. كانت هذه غلطة فيها سوء تقدير. فلم يكن الضباط العلويون في المناصب الحساسة متحمسين للمغامرة بمكاسبهم في «لعبة موسيقية» أخرى لتغيير الكراسي في قمة السلطة.

وسرعان ما انتهت مطامح عمران بصورة مفاجئة. ففي الرابع من آذار سنة ١٩٧٢، وقبل أسبوع من عودته المخططة، اغتيل في بيته بطرابلس، وقيل ان ثلاثة اشخاص فلسطينيين هاجموه، أحدهم امرأة. ويحيط الغموض بعملية قتله، وتزعم بعض المصادر أن القاتلين قد أرسلهم نزيه زرير، من مخابرات حمص، والذي أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات العامة، تحت الامرة المباشرة لناجي جميل، رئيس مكتب الأمن القومي التابع للحزب. ولقد نفى زرير هذه التهمة علناً. ولكن كان من المعروف أن جميل وعمران كانا خصمين لدودين، وكان

جميل، الذي له جذور في القوة الجوية، صديقاً شخصياً للأسد. وكان هناك اعتقاد شائع بأن جميل قد خطط لعملية القتل، ربما بتشجيع من رفعت، لتعزيز مصالح الأسد، ولكن بدون استشارته. وتعتقد مصادر أخرى بأن القصد لم يكن قتل عمران، بل اختطافه فقط، غير أن النار قد أطلقت عليه أثناء مشاجرة. وفي نهاية الأمر فإن عائلة عمران لم توجه اللوم إلى الأسد على مصرع عمران. وقد قام ابنه ناجح بزيارة الأسد بعد ستة أشهر، وبكى بين يديه. وقد لا تتضح ظروف اغتيال عمران بالضبط بشكل يرضي الناس أو يقنعهم. ولكن معظم ضباط فئة عمران التفوا حول الأسد بعد ذلك، وكوفئوا بطرق مناسبة.

ومن بين الرفاق الخمسة الذين تكتلوا في القاهرة قبل ذلك باثني عشر عاماً، لم يبق واقفاً سوى الأسد وحده.

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) مقابلة مع منصور الأطرش (بن سلطان باشا) ونجيب البحري (مساعد سلطات باشا من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٨٢) في القرية والسويداء في ٢٨ ـ ٢٩/ ٤/ ١٩٨٥.

(٢) مقابلة مع كوليت خوري (دمشق، ايلول/ سبتمبر سنة ١٩٨٤).

(٣) مقابلة مع هاني الروماني الذي مثّل دوراً في هذه المسرحية (دمشق ٨ ايار/ مايو سنة ١٩٨٥).

(٤) مقابلة مع أحمد اسكندر أحمد (وزير الإعلام من ١٩٧٤/٩/١ إلى وفاته في ١٩٨٣/١٢/٢٩) دمشق ١٩٧٧/٣/٣.

(٥) ر. سانتوشي: «سوريا قبل مواجهة التحدي» ـ مقال في مجلة مغرب ـ مشرق، العدد ٦٠ (عن شهري تشرين الثاني ـ كانون الأول/ نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٩٨٣) ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٦) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في ١٩٨٨/٣/١٨.

(٧) إن تنوع وتباين الآراء يمكن أن يتضح من خلال حقيقة كون البعث قد أعطي ٨٧ مقعداً، والاتحاد الاشتراكي العربي الناصري ١١ مقعداً والشيوعيين ٨ مقاعد، والمستقلين «التقدميين» ٧ مقاعد، والبعثيين المستقلين ٥ مقاعد، والوحدويين الاشتراكيين ٤ مقاعد والاشتراكيين العرب (جماعة أكرم الحوراني) ٤ مقاعد، والبعثيين السابقين ٣ مقاعد، والناصريين المستقلين مقعدين، والزعماء الدينيين المسلمين ٣ مقاعد، والتجار ٣ مقاعد، وممثلي الاتحاد العام للفلاحين ٣٦ مقعداً (مجلة آرب ريبورت آندريكورد، ١٩٧١) ص ١١٧.

(٨) الاتحاد العام لنقابات العمال (تأسس في عام ١٩٣٨، ولكنه أخضع لسيطرة البعث في عام ١٩٦٦)، والاتحاد العام للفلاحين، والاتحاد الوطني لطلبة سوريا، ومنظمة شبيبة الثورة، والاتحاد العام النسائي (تأسس عام ١٩٦٧). انظر مقال ريموند آ. هاينبوش: «السياسة المحلية في سوريا: التنظيم والتعبئة في حالة أربع قرى» بمجلة ميدل إيست جورنال العدد ٣٠، رقم ١ (شتاء عام ١٩٧٦).

(٩) ميشيل سيورات: «السكان والدولة، والمجتمع» في: سوريا اليوم (باريس ١٩٨٠) ص ١٢٤.

(١٠) مقابلة مع باسل الأسد بدمشق في ١٩٨٨/٣/١٩.

(١١) مقابلة مع فؤاد بلاط (المدير العام لهيئة الاذاعة والتلفزيون ــ بلودان في آب/ أغسطس ١٩٨٣).

الفصل الثالث عشر

السّادات : الحليف غير الموثوق

كان الأسد، منذ لحظة استلامه السلطة، واقعاً تحت سيطرة فكرة مستحكمة. كان مقتنعاً بأن إسرائيل قد كسبت حرب حزيران/يونيو بالخدعة، وبأنها اصطادت العرب وهم غافلون، وأنها لم تكن بطبيعتها غير قابلة للهزيمة. وكان متلهفاً لمحو وصمة الهزيمة التي أثرت عليه بصورة شخصية وعميقة، ومتلهفاً لاستعادة ثقة جنوده، واسترجاع الأرض، والبرهنة للعالم أن العرب إذا أتيحت لهم الفرصة، قادرون على إثبات جدارتهم بشرف. كانت الحاجة إلى خوض جولة أخرى من القتال هي الفكرة المستحوذة على ذهنه. فلم يكن يرى أي أمل في تسوية بالمفاوضات بدون تعديل الميزان أولاً. وبما أن إسرائيل كانت تحتل أراضي عربية واسعة تأمل بالاحتفاظ بالكثير منها على أساس دائم، فإن وضعها ببساطة أجود من أن يجعلها ميالة إلى التخلي عن تلك الأراضي. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٠، بعد أيام قلائل من تسلم السلطة، أعاد الأسد تأكيد رفضه لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ على أساس أنه يعني «تصفية القضية الفلسطينية». كانت الحرب، لا قرارات الأمم المتحدة، هي الطريقة الوحيدة التي تجعل إسرائيل تسلم بحقوق العرب.

كان الأسد يختلف عن معظم الزعماء العرب في أنه تجرأ على التفكير في مهاجمة إسرائيل. وهذه فكرة كان هو أول عربي يشترك فيها مع السادات. فلم

يكن الأسد انهزامياً على الإطلاق، بل كان يعتقد فعلاً أن بوسع العرب أن ينتزعوا من إسرائيل أراضيهم المحتلة ويحتفظوا بها كلها أو ببعضها على الأقل. ذلك أن جولة أخرى، بتغييرها لميزان القوى، ستمكن العرب من التعامل مع إسرائيل بشيء من التكافؤ، وليس من موقع الضعف والمذلة.

وكان هذا التقييم المتجهم (بأن الحرب ضرورية) موقفاً خاصاً بسوريا، ناجماً عن خيبة أمل نتجت عن اثنين وعشرين عاماً من حرب الحدود غير المتكافئة وعن ارتباط سوريا الوثيق الحميم بالقضية الفلسطينية، وبصورة عامة، عن الإدراك المحسوس بأن سوريا على شاطىء المتوسط الشرقي تواجه في إسرائيل خصماً لا مصالحة معه يتنافس وإياها على البروز الإقليمي في هذه البقعة، وأن أي كسب لأحدهما يجب أن يكون بالضرورة خسارة للآخر، ولذا فإن سوريا لم تكن تتوقع أي عطف أو خدمة من إسرائيل ولم تكن مستعدة من جانبها لتقديم أي شيء من هذا القبيل لإسرائيل. ولم يشعر أي بلد عربي آخر، كما شعرت سوريا، بأن الشيء الموضوع في الميزان في الصراع مع إسرائيل لم يكن، أقل من مصير العرب القومي. ومنذ عام ١٩٧٠، وحتى قبل ذلك كانت مصر والأردن بطرقهما المختلفة تحاولان العثور على صيغة للتعايش مع إسرائيل وتقدمان لها تنازلات بعيدة المدى، ولكن سوريا كانت تريد إعادة عقارب الساعة إلى ما قبل حرب حزيران/يونيو. كان الرأي العام يطالب بذلك، فالسوريون لم يكونوا ليقبلوا بوجود إسرائيل أصلاً، فكيف يرضون برؤيتها تتوسع على حساب العرب؟ إن ما أخذ بالقوة لا يمكن أن يسترد بغير القوة.

كان الأسد قومياً متحمساً ولديه هدف وحيد صمم على تحقيقه؛ فقد صعد إلى السلطة بعد أسابيع قليلة من موت عبد الناصر الذي ترك النزعة القومية الوحدوية بلا قائد، فهل رأى نفسه وريثاً لعبد الناصر؟ كان الإغراء قوياً جداً. ومما لا شك فيه أنه كان يقدر نفسه تقديراً عالياً، غير أنه لم يكن يستطيع أن يطمح بشكل واقعي إلى أن يسد الفجوة، لأنه كان ما يزال ضابطاً سورياً غير

معروف، وليس لديه ما كان لدى عبد الناصر من سحر جماهيري ووزن قومي إقليمي في المنطقة. ولكن من المؤكد أنه شعر بأن المصير قد اختاره لينقذ العرب من عواقب أخطاء عبد الناصر سنة ١٩٦٧ التي كان الأسد يعترف بأن سوريا وبأنه هو نفسه قد أسهما فيها. كانت الجولان خصوصاً مسيطرة على تفكيره لأن ضياع القنيطرة كان جرحاً شخصياً، وهكذا بدأ يستعد للحرب بصبر عنيد دؤوب كان من سمات شخصيته البارزة وذلك بدون أن يتكلم كثيراً أو يتبجح بما سيفعله، بل راح يعمل بهدوء، بانتظار الفرصة ليرد الضربة.

البحث عن حلفاء

ومن أجل مجرد التفكير بشن الحرب كان الأسد بحاجة أولاً، وقبل كل شيء إلى كسر طوق العزلة الإقليمية والدولية التي كانت سياسات نظام صلاح جديد المتشددة وغير العملية قد حبست سوريا فيها. وبعد عشرة أيام من استيلائه على السلطة طار إلى القاهرة وعقد لقاء قمة مع أنور السادات أعلن فيه أن سوريا ستنضم إلى الاتحاد المقترح بين مصر وليبيا والسودان، وسرعان ما انفتحت الأبواب على مصاريعها في اتجاهات أخرى، في اتجاه لبنان، في اتجاه تونس والمغرب اللتين أعيدت العلاقات معهما، وباتجاه السعودية التي كانت متخاصمة مع سوريا لأن خط الأنابيب الذي ينقل النفط السعودي عبر الأراضي السورية إلى الأبيض المتوسط بقي معطوباً منذ أيار/مايو عام ١٩٧٠، فأعيد فتح هذا الأنبوب، بينما أغلقت محطة الإذاعة التي كانت تبث من دمشق وتدعو للثورة في شبه الجزيرة العربية.

لكن مفاتحة الاتحاد السوفياتي كانت أكثر أهمية، ولا يمكن الاستغناء عنها. وفي شباط/فبراير ١٩٧١، بعد عشرة أسابيع من انقلابه قام الأسد بزيارته الأولى لموسكو باعتباره حاكم سوريا، وهو يدرك تماماً أنه ليس هناك مكان آخر في العالم يستطيع أن يأمل بالحصول منه على الأسلحة المطلوبة للمشروع الذي

كان يدور في خَلَدِه. وفي ذلك الوقت كانت لسوريا مع الاتحاد السوفياتي علاقة عسكرية واقتصادية عمرها خمسة عشر عاماً، وهكذا كانت هناك قاعدة صلدة ليتم البناء فوقها. وكان الأسد بصفته وزيراً للدفاع قد قام برحلات عديدة لدول المنظومة الاشتراكية، عندما كان يكافح لإعادة بناء جيشه الممزق في أعقاب عدوان حزيران/يونيو سنة ١٩٦٧. كان قد زار معامل صنع الأسلحة التشيكية، وتعرف على المارشال غريتشكو وزير الدفاع السوفياتي. ولكن الظروف في عام ١٩٧٠ كانت أكثر حرجاً وحساسية. كما أن الكرملين كان أكثر حذراً. فهو لم يكن شديد السعادة بنزعة المغامرة اليسارية عند جديد والدكاترة الناريين غير أنه - من وجهة نظر موسكو - لم يكن هناك خطر من سقوط ذلك النظام في فلك الغرب، أما الأسد، القومي غير المتشدد عقائدياً باتجاه اليسار، فقد كانت هناك احتمالات بأن يثبت بأنه مستقل بشكل خطير على أية حال.

تحرك الأسد بسرعة لإرساء العلاقات مع الكرملين على أساس عقلاني عملي هادىء.. كان زملاؤه السابقون قد عبروا عن تعاطفهم مع الاتحاد السوفياتي بالشعارات والمواقف التي تُبرِز بالكلام أيديولوجية اشتراكية مسلوقة وغير مهضومة جيداً، وتوقعوا في مقابل ذلك دعماً سوفياتياً كاملاً، وهذا ما لم يحصلوا عليه دائماً، مما خيَّب آمالهم. أما الأسد فقد ترك الخطابات، ولكنه قوى العلاقة، وقد تعلم من تعامله السابق مع موسكو، وكذلك من طبعه المتشكك المتريّث العملي أن العلاقات الصلبة لا تقام إلّا على أساس المصالح المتبادلة. فلم يكن من عادة السوفيات تقديم الهدايا، ولم يكن يتوقع أن يحصل على شيء مقابل لا شيء. وقد فهم منذ وقت مبكر أن تعامل الاتحاد السوفياتي مع العرب لا يمكن أن يرقى إلى التزام أميركا (مبسوط اليد، العاطفي، شديد الكرم) بإسرائيل، بل إن أي شيء يستطيع الحصول عليه من موسكو، يجب دفع ثمنه، وإذا لم يكن يستطيع أن يجد هذا الثمن نقداً بصورة دائمة فإن الدفع يجب أن يتم بعملة أخرى.

كان جوهر سياسته تجاه السوفيات، الذي دعا إليه في القيادة قبل عام ١٩٧٠ والذي راح يضعه الآن موضع التنفيذ هو أن النوعية الضرورية والكمية الكافية من الأسلحة لا يمكن تأمين الحصول عليها إلا في إطار المصالح السوفياتية في المنطقة. ما الذي كانت تريده موسكو؟ كان الأسد يعرف أولويات السوفيات جيداً في الشرق الأوسط. كانوا يريدون وجوداً مستقراً ومركز تنصت في قلب المنطقة، وإمكانية الوصول إلى تسهيلات بحرية وجوية صديقة، وتأثيراً في عملية السلام وقبل كل شيء تقليصاً للنفوذ الأميركي، وكان من الضروري فهم واحترام هذه المصالح السوفياتية، ولم يكن بالإمكان كسب ثقة السوفيات وضمان تدفق السلاح إلاّ بتقديم عربون على الثقة بهم وإعطائهم شيئاً ذا قيمة. وباللغة العملية كان معنى ذلك أن يوافق الأسد على درجة من التنسيق مع موسكو، رغم أنه قاوم جعل العلاقة رسمية بتوقيع معاهدة صداقة وتعاون، كما كان السوفيات يرغبون في تلك المرحلة، وقد ظل يقاوم ذلك لمدة عشر سنوات من ذلك التاريخ (١٩٧٠ - ١٩٧١).

كانت العلاقة بعيدة عن أن تكون صافية بلا غيوم، وقد قدر للأسد أن يستغرق عدة أعوام، بل الجزء الأكبر من السبعينات قبل أن يجعل السوفيات يعترفون به كشريك لهم لا يُسْتغنى عنه في المنطقة. وكما قال مسؤولون سوريون في مجالسهم الخصوصية فإن المواقف السوفياتية كانت أبوية تنظر إلى العرب من فوق، بل وتسخر من إرادتهم في القتال، وتتذرع تكراراً بحجة انقسامهم كي تمنع عنهم مدد السلاح. كما كان من مصادر التوتر الأخرى إصرار الأسد الصريح والقوي على أنه لن يتسامح مع أي تدخل في دمشق من جانب السفارة السوفياتية، وأن العلاقات يجب أن تبنى على التزام دقيق ومضبوط بعدم التدخل من قبل أي من البلدين في الشؤون الداخلية للبلد الآخر. وفي نهاية الأمر حصل الأسد بتكتيكاته على ما كان يريده، وبمجرد أن فهم السوفيات أسلوبه أخذوا يبذلون جهوداً كبيرة لإبقائه راضياً.

وكان الوجه الآخر لجهوده المتغزلة بموسكو لمصلحة استراتيجية الحرب هو إهمال الأسد للغرب، ولا سيما الولايات المتحدة لمدة سبع سنوات تقريباً من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٤ حيث لم تكن لسوريا علاقات مع واشنطن. كانت عدة أقطار عربية ـ من بينها مصر والجزائر والسودان والعراق ـ قد قطعت علاقاتها مع أميركا في حرب ١٩٦٧ غير أنه كان هناك عودة، إن لم تكن للعلاقات الدبلوماسية فعلى الأقل لشيء يشبه السياسة العملية المعتادة وعلى الأغلب تحت غطاء من الأقسام القنصلية والتجارية، بينما ظلت سوريا صلبة ومغلقة في وجه أميركا والأميركيين. ولم يكن السبب الوحيد لذلك هو دبلوماسية الأسد تجاه موسكو، بل لقد كانت هناك عوامل شخصية كذلك، فالأسد مثل كثير من السوريين، كان ينظر إلى الولايات المتحدة بعدم ثقة، بل بحقد وعداء؛ ولم يكن أحد من بطانته يفهم كيف يمكن طرح القضية العربية على الغرب، ولا كيف يمكن كسب الرأي العام الغربي، والحكومات الغربية، وبما أن أميركا بالمثل كانت جاهلة بسوريا ومعادية لها فقد كانت الفجوة بين البلدين عميقة جداً، وكانت هذه نقطة ضعف خطيرة لسوريا في المساومات السياسية التي أعقبت حرب تشرين/أكتوبر.

غير أنه في سنة ١٩٧١ بدا أن هذه المسألة ليست بذات بال. كان اهتمام الأسد الأساسي العاجل منصباً على التسلح وليس على المناورة السياسية وقدر السوفيات أسلوبه العملي واقترحوا بحث علاقة طويلة الأمد وبدأوا يعاملونه باحترام خاص. وفيما بين شباط/فبراير سنة ١٩٧١ وتشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان له امتياز عقد عدة اجتماعات مع الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف، الأمين العام للحزب الشيوعي، خلال الزيارات الست التي قام بها للاتحاد السوفياتي، وكان بعضها سريّاً. وفي الزيارات الأطول أخذه السوفيات في جولات لزيارة لينينغراد، وكييف، وجورجيا، وآرمينيا، وأزبكستان، وأذربايجان. وفي موسكو كانوا دائماً يقدمون له أجنحة في مبنى الكرملين نفسه، حيث كانت الضيافة هائلة، فكان من الطبيعي أن يُبهر بروعة المكان، وقاعات

الطعام الباذخة الضخمة وغرف الاستقبال الفارهة بأبوابها الذهبية وثرياتها البللورية، وبقوة الدولة التي تستطيع أن تقدم مثل هذه الفخفخة لحكامها.

التعامل مع مصر

وإذا كان الاتحاد السوفياتي مصدر السلاح الممكن الوحيد لسوريا، فإن مصر كانت حليفتها الممكنة الوحيدة. كان تعامل الأسد السابق مع مصر (نفيه إلى القاهرة كضابط شاب، والصراع الدامي مع مؤيدي عبد الناصر السوريين في الشهور الأولى من حكم البعث)، قد ترك في فمه طعم المرارة. غير أن الذكريات الشخصية غير السارة لم تكن بذات أهمية في مقابل الضرورة الجغرافية ـ السياسية لقيام تحالف سوري ـ مصري. كانت تربية الأسد البعثية قد علمته أن القضية العربية تعتمد على قيام ترابط وثيق بين سوريا ومصر. كانت دمشق والقاهرة هما محور التاريخ العربي، وعندما كانتا تتحدان، كان العرب ينتصرون. وعندما كانتا تتباعدان، كان العرب يضعفون ويتعرضون للأخطار. ولو لم تنفصل سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦١، لأمكن تجنب كارثة سنة ١٩٦٧ التي لعبت فيها إسرائيل على وتر الخلافات السورية المصرية. ومن بين جميع العرب، كان البعثيون السوريون أول من صفق لعبد الناصر عندما أعلن عروبة مصر كسياسة رسمية سنة ١٩٥٥، وأول من بكى عندما تعرضت الوحدة المصرية ـ السورية للمشاكل. وكان الأسد يشاطر فرضيات سياسة عبد الناصر العربية التي تعطي سوريا دوراً مركزياً. وقد فهم بأن عبد الناصر قد استطاع أن يسيطر على المنطقة ويواجه القوى الكبرى وإسرائيل عندما انضوت سوريا تحت جناحه، وأنه على عكس ذلك، أرغم على اتخاذ موقف الدفاع بمجرد أن انفصلت عنه سوريا. فكان من الواضح إذن أن سوريا ومصر تقفان معاً وتسقطان معاً. كانت تلك هي الأفكار التي حملت الأسد إلى القاهرة في غضون أيام قلائل من انقلابه.

وعلى الصعيد العسكري كان يعلم أن استراتيجية فتح جبهتين ضد إسرائيل هي من المتطلبات الجوهرية اللازمة مسبقاً لتحقيق النصر. ففي عام ١٩٦٧ خاضت مصر والأردن وسوريا حروباً منفصلة وبلا تنسيق وكانت مختلفة فيما بينها ويشك كل منها في الأخرى، فأتاحت بذلك الفرصة لإسرائيل كي تدحرها واحدة بعد واحدة. أما في المرة التالية فقد كان الأسد مصمماً على إرغام إسرائيل على القتال في جبهتين معاً في الوقت نفسه وقد اتفق المخططون الدفاعيون السوفيات مع هذا التحليل.

ولم يكن الأسد يستطيع اعتبار الملك حسين شريكاً مقاتلاً. فالعلاقات بين سوريا والأردن كانت سيئة طيلة أعوام كثيرة. كما أن هزيمة حرب حزيران/يونيو عندما اتهم الأردن سوريا بالعجز عن الدفاع عن الضفة الغربية، قد زادت تسمم تلك العلاقات، وعكرتها أيضاً اجتماعات حسين السرية بالزعماء الإسرائيليين فيما بعد. ثم إن أيلول الأسود وأزمته التي وقف فيها الأردن مع إسرائيل قد جعلت الأردن وسوريا يتباعدان أكثر. وكان الأسد يعلم أن الملك حسين لم يكن ليقدر على التفكير بأي عمل عدائي ضد إسرائيل، ولا يرحب بمثل هذه الأعمال على يد الآخرين خشية أن يؤدي ذلك إلى اهتزاز الحبل المشدود بين العرب وإسرائيل والذي كان حسين متوازناً عليه بصورة قلقة. فالفترة المؤدية إلى حرب تشرين/أكتوبر والممتدة بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣ شهدت كون حسين عدواً أكثر من كونه صديقاً. وهكذا كانت مصر هي اختبار سوريا الوحيد كحليف في الحرب.

هكذا أصبحت خطة القتال على جبهتين حجر الزاوية في التخطيط للحرب الذي بدأه الأسد والسادات منذ مطلع سنة ١٩٧١، وعكف الأسد على التحضير لهذا المشروع المشترك بثقة كاملة في حليفه. ولم يكن السادات قد أثبت نفسه على المسرح العالمي بعد، غير أنه بالنسبة للسوريين كان معروفاً جيداً كواحد من رجالات عبد الناصر الأساسيين. وكان هو الأكبر سناً (كان عمره

٥٣ عاماً سنة ١٩٧١) وكانت مصر بسبب حجمها وقوتها هي الشريك الأكبر. وبالرغم من أن ظل عبد الناصر قد طغى عليه فترة طويلة من حياته، فقد كان للزعيم المصري الجديد هالة من الوطنية خاصة به مميزة له. كان قد تعامل كضابط شاب مع جواسيس ألمان وقضى ردحاً من الزمن في السجن بتهمة التخطيط لقتل بعض عملاء الإنكليز. وكان هو الذي أعلن للعالم ثورة «الضباط الأحرار» في سنة ١٩٥٢، ثم برز كخلف لعبد الناصر بعد خدمة طويلة إلى جانبه. وكانت لديه خبرة، وأسلوب، وحصافة سياسية وشيء من هدوء الداهية المُطْمَئِن وهو يدخن غليونه.

وفي هذه المرحلة كان الأسد ميالاً إلى التركيز على الشبه والتقارب مع السادات أكثر من التعليق على أية خلافات بينهما فقد كان هناك تشابه في حياتهما العملية. فالسادات تم تثبيته رئيساً في ١٥/تشرين الأول/ أكتوبر، قبل شهر واحد فقط من استيلاء الأسد على السلطة، ومن جهة أخرى فإن الاستفتاء على رئاسة الأسد قد تم في ١٢/أذار/ مارس، قبل بضعة أسابيع فقط من قيام السادات بحبس الذين تحدّوه من يساريـي «مراكز القوى» بزعامة علي صبري وجعل من نفسه زعيم مصر بلا منازع. ولم تكن ثقة الأسد بالسادات فقط، بل بمصر نفسها التي كانت بحجمها وقوتها هي الشريك الأكبر بوضوح في هذه العلاقة. وكانت حرب الاستنزاف التي خاضتها مصر ضد إسرائيل من أذار/ مارس ١٩٦٩ لغاية تموز/ يوليو سنة ١٩٧٠ قد بينت إلى أي مدى استطاع عبد الناصر أن يعيد بناء الجيش المصري مادياً ومعنوياً. وكان الرأي العام في مصر يبدو متلهفاً ـ كما في سوريا ـ على خوض معركة ضد إسرائيل لإرغامها على إعادة الأراضي العربية التي احتلتها.

وبادىء ذي بدء صاغ الأسد تحالفه مع السادات تحت مظلة اتحاد الجمهوريات العربية، وهو مشروع طموح لتوحيد مصر وسوريا وليبيا والسودان أعلن في نيسان/أبريل سنة ١٩٧١ ونتج عنه كثير من الأخذ والعطاء والذهاب

والإياب بين الدول الأعضاء، وكثير من الخطب والمداولات المتشعبة بين الفقهاء الدستوريين والقانونيين غير أن السودان سرعان ما انسحب، وذَوَى المشروع في سنة ١٩٧٣ حتى أصبح قشرة فارغة. ولكن اجتماعات القمة الاتحادية على أية حال قد أدت وظيفة حيوية هامة هي تقديم غطاء للأسد والسادات وفرص لاجتماعاتهما السرية. وعند نهاية عام ١٩٧١ كان الزعيمان قد استمزجا رأي موسكو، وعينا وزير الحربية المصري الفريق محمد صادق قائداً عاماً للجيشين معاً وتوصلا إلى اتفاق حول الخطوط الاستراتيجية العريضة. وقررا أيضاً إبعاد العقيد القذافي غير المعتدل عن مشاوراتهما. وكانا يعرفان أن ما يحتاجان إليه قبل كل شيء هو السلاح بكميات ضخمة. وهكذا خصصا معظم عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣ لملء ترساناتهما وتدريب قواتهما. وكان النمط في هاتين السنتين يسير باتجاه ازدياد التعاون المصري السوري الوثيق بشكل مطرد. وقام كل من الأسد والسادات بمزيد من الزيارات كلٌ للآخر، ولموسكو، كما فعل وزيرا دفاعهما، وفرق من كبار ضباطهما. ولقد كانت تلك الاتصالات من الكثرة والتكرار بحيث يبدو للمتأمل الآن أنه من المذهل حقاً أنها لم تلفت الأنظار ولم تثر الانتباه. وبدلاً من ذلك راح العالم الخارجي يسخر من السادات لتكرار وعوده «بعام الحسم» في صراعه مع إسرائيل، وهو صراع كان مضطراً لتأجيله بانتظام، وعلق الأسد فيما بعد على ذلك بقوله: «لقد كان من الجيد أن أحداً لم يصدقه»[1].

ومن بين أسباب عدم القراءة الصحيحة لهذه الإشارات أو فهم ما وراءها أن العالم كان يراقب السادات، لا الأسد، والسادات كان يرسل رسائل متناقضة تركت المراقبين حيارى مشدوهين بدلاً من أن تثير فزعهم أو انتباههم. وكان التقدير الإسرائيلي بدوره هو أن السادات نقيض كامل لعبد الناصر، وأنه زعيم مصري بلا طموحات عربية قومية وأنه أدار ظهره للحرب. أما ما لم يدركه الكثيرون فهو أن السادات قد بدأ يعتقد عندئذ بأن جمود الصراع العربي - الإسرائيلي يمكن تحريكه عن طريق العلاج بالصدمة، وبالطريقة نفسها كان يرى

مكانية معالجة موقف السوفيات الذين غاظه تشككهم في نواياه لخوض لحرب، ولعل ولعه بسياسة الصدمة المفاجئة هذه ـ أي الاعتقاد بأن التغيير السياسي يمكن إحداثه عن طريق الأفعال الفردية الشخصية ذات الطابع الدراماتيكي المثير ـ كان من بقايا ممارساته الإرهابية في أيام شبابه[٢]. وهكذا تشاجر مع موسكو بطريقة لافتة للنظر، بينما راح يغازل واشنطن سراً.

ولقد سيطر على عام **١٩٧٢** النزاع بين القاهرة وموسكو، فبلغ أوجه في تموز/يوليو بطرد السادات للخبراء السوفيات فجأة ـ كان مجموعهم **٧,٧٢٥** شخصاً، ما بين مستشارين وخبراء ميدانيين مع عوائلهم[٣]. وبرر السادات هذا الانقلاب المثير ليس فقط لأن السوفيات، يتأخرون أكثر من اللازم في تنفيذ وعودهم بإرسال شحنات الأسلحة، بل ولأنهم يضحون بالمصالح العربية على مذبح الانفراج مع الولايات المتحدة، وادَّعى بأن السوفيات يريدون منع مصر من القتال، وبأنه بحاجة إلى وقفة معهم ليختبرهم[٤]. غير أن السادات كانت لديه أسباب أخرى تكشفت فيما بعد، وهي تتعلق خصوصاً بعمليات جس النبض التي كان يوجهها لواشنطن.

وتصادف أن كان الأسد في موسكو في ٨/تموز/ يوليو عندما أعلم السادات السفير السوفياتي فلاديمير فينوغرادوف بوجوب سحب الخبراء. وكان لدى الأسد مشاحنة صغيرة مع السوفيات هو الآخر، فقد كان واقعاً تحت ضغط أكبر من المعتاد لتوقيع اتفاقية صداقة، وكان يرفض ذلك بصلابة. وكان يحب القول: «إن الصداقة لا تحتاج إلى معاهدة»[٥]. وكانت محادثاته في الكرملين قد وصلت إلى طريق مسدود بحيث انه قد أمر وفده بتهيئة الحقائب، وعندئذ زاره بريجنيف في جناحه واقترح استئناف المحادثات دون أي ذِكْرٍ للاتفاقية. وقد تصادف عند هذه النقطة بالذات، في آخر يوم من زيارة الأسد، أن وصلت موسكو أخبار المفاجأة الصاعقة التي فجرها السادات، فوجد بريجنيف طريقه إلى جناح الأسد مرة أخرى في الكرملين وقال له وفي صوته رنة أسى كئيب:

«أعرف أنك ستقول لي ان معاهدتنا مع مصر لم تنقذنا من الحرج هناك، ولكننا نريد منك أن تساعدنا مع مصر إن كنت تستطيع». ووافق الأسد على أن يطير مباشرة من موسكو إلى القاهرة ليحاول رأب الصدع. فقد أجفل وقلق كالسوفيات لخطوة السادات المتسرعة التي كانت من نوع غريب على طباعه. فلقد كان مثل السادات من حيث الرغبة في جعل شحنات الأسلحة السوفياتية أكثر سرعة وكرماً. غير أنه كان مشدوهاً من تهور السادات بتعريض العلاقة مع موسكو للخطر بينما هي حيوية جداً لمجهودهما الحربي المشترك. وعندما حثه السادات على طرد الخبراء السوفيات لديه أيضاً (وكان عددهم عندئذٍ يتراوح بين الألفين وخمسمائة والثلاثة آلاف) رفض وصرح علناً: «إنهم هنا من أجل مصلحتنا نحن»[٦]. ثم تابع جهود وساطته فذهب مرة أخرى لزيارة بريجنيف في أيلول/سبتمبر سنة ١٩٧٢، وأقنع السادات بإرسال رئيس وزرائه عزيز صدقي إلى موسكو في تشرين الأول/أكتوبر لإعادة إصلاح الجسور وفي خريف ذلك العام استؤنف تدفق الأسلحة والخبراء إلى القاهرة.

وكانت المفارقة أن السادات طرد السوفيات رغم أنه كان قد وقع قبل ذلك بعام معاهدة صداقة معهم، بينما احتفظ الأسد بالخبراء رغم أنه رفض توقيع معاهدة، وكان السادات يتذمر كثيراً من أن السوفيات يريدون أن يملوا على الشرق الأوسط إملاءً في قضايا الحرب والسلام. أما الأسد فعلى العكس أكد أنه ليست هناك قوة خارجية تستطيع منعه من القتال إذا شاء. «فيما يتعلق بنا في سوريا، فإن قرار الحرب لا يمكن أن يتخذ في موسكو»[٧].

ولعل الأسد كان يجب أن يتنبه لتلك الإشارات الدالة على تقلبات السادات المشاكسة، بيد أن السادات كان يزعم أن أساليب الصدمة التي استعملها قد أتت ثمارها. وكان الأسد مضطراً إلى الموافقة على ذلك، فبعد مشاجرة عام ١٩٧٢ ارتفعت المساعدات السوفياتية لمصر وسوريا كلتيهما إلى مستوى لم يسبق له مثيل. ولم تكن الواقعة كلها مما يحبه الأسد، ولكن اطمأن

في نهاية الأمر، واستمر مع شريكه متجاوزاً نقطة اللاعودة.

وفي ٢٣ نيسان/أبريل سنة ١٩٧٣ طار سراً إلى القاهرة ومن هناك اصطحبه قائد القوى الجوية المصرية ـ حسني مبارك ـ مع السادات إلى استراحة الرئاسة في برج العرب، غربيّ الإسكندرية حيث أمضيا يومين في مناقشات عسكرية مفصلة. وهناك اتفقا على الخطوط الرئيسية لحملتهما(٨). ومن ثم بدأ الإيقاع يتسارع. ففي مطلع أيار/مايو، وبعد حوالي عشرة أيام من ذلك الاجتماع الحاسم مع السادات طار الأسد ثانية إلى موسكو بحثاً عن المزيد من الطائرات والدفاعات الجوية. فمع وجود تفوق جوي لإسرائيل، كان الأسد بحاجة إلى شبكة كثيفة من الأسلحة المضادة للطائرات المحلقة على ارتفاعات قليلة وعلى ارتفاعات كبيرة، ومدافع مضادة للطيران وصواريخ سام ـ التي تطلق من الأرض إلى الجو ـ ومرفقاتها الاليكترونية. وعاد إلى الوطن ومعه شخص لا يقل رتبة عن المارشال ب. س. كوتاخوف، قائد القوى الجوية السوفياتية ـ وهذا يدل على مدى التزام السوفيات بحربه. فبمساعدة الاتحاد السوفياتي بنت سوريا قوة جوية من ٣٠٠ طائرة مقاتلة، وأكثر من مائة بطارية صواريخ سام، مع ما يتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠ منصة إطلاق، وما لا يقل عن ٤٠٠ مدفع مضاد للطائرات(٩).

وبرغم خلافاتهم مع السادات، أو ربما بسببها، كان السوفيات لا يزالون يعطون مصر الأولوية، بحيث تتأخر سوريا عنها عدة شهور قبل الحصول على أحدث المعدات. فقد كانت مصر مثلاً هي أول من تلقى مدافع مضادة للطائرات يقودها الرادار من طراز ZSU - 23 وفي سنة ١٩٧٢ كانت هي الأولى في الحصول على صواريخ سام ٦ المتنقلة ودبابات T - 26 التي كانت أحدث ما لدى السوفيات آنذاك. وكان على سوريا أن تنتظر حتى ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ لتحصل على أولى طائراتها من طراز ميغ ـ ٢١ MF (التي يطلق عليها الحلف الاطلسي اسم الشيفرة «Fishbed J»)رغم أن الأسراب التي أرسلت إلى مصر قد زودت

بهذا الجيل الأخير من الميغ الذي كان قد بدأ يدخل الخدمة في القوة الجوية السوفياتية.

أكان السوفيات يعرفون أن حرب تشرين/أكتوبر قادمة؟ من الواضح أنهم كانوا يعرفون. وهل شاركوا في التخطيط لها؟ إن الجواب يجب أن يكون نعم أيضاً، إلى درجة أن متطلبات العرب من السلاح قد نوقشت مع الخبراء السوفيات على أساس خطط عسكرية محددة(١٠). ولكنهم لم يعرفوا رسمياً متى ستقوم مصر وسوريا بالهجوم إلى أن أُخْبِرُوا في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر قبل اندلاع الحرب بيومين. هل وافقوا عندئذٍ؟ من الواضح أنه كانت لديهم شكوك. كان مأزق الاتحاد السوفياتي هو أنه ـ كي يحتفظ بنفوذه في سوريا ومصر ـ كان عليه أن يزودهما بالأسلحة، على اعتبار أن أكثر الأولويات الوطنية إلحاحاً بالنسبة للبلدين كانت هي استعادة الأراضي العربية التي فقداها سنة ١٩٦٧. إلا أن الاتحاد السوفياتي كان يخشى مجابهة إقليمية مع الولايات المتحدة،وكان حريصاً على إزالة أثر التهديد بالحرب، ولذلك فقد حاول إقناع واشنطن بأن تفرض على إسرائيل حلاً سياسياً متفقاً عليه، كما حدث مثلاً عندما التقى بريجنيف ووزير خارجيته أندريه غروميكو بنيكسون وكيسنجر في سان كليمنتي بكاليفورنيا في ٢٣ حزيران/يونيو سنة ١٩٧٣ فقد اقترح بريجنيف أن تنسحب إسرائيل إلى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ في مقابل إنهاء حالة الحرب، على أن يتم السلام النهائي بعد مفاوضات مع الفلسطينيين(١١). ولم يتردد كيسنجر في رفض ذلك الاقتراح الذي اعتبره منحازاً للعرب وربما مؤدياً إلى تعزيز النفوذ السوفياتي.. وهكذا ضاعت فرصة لتجنب الحرب.

وكانت الخطوة الحاسمة التالية باتجاه الحرب هي الاجتماع السري للغاية الذي عقد في أواخر الصيف (٢١ ـ ٢٣/آب/ أغسطس) للمجلس الأعلى للقوات المسلحة السورية ـ المصرية. فقد صعد إلى سفينة ركاب سوفياتية في رحلتها النظامية المتجهة من اللاذقية إلى الإسكندرية ستةٌ من أكبر الضباط

السوريين وهم يرتدون ملابس عادية وكأنهم ذاهبون للنزهة وقضاء العطلة. وهم وزير الدفاع مصطفى طلاس، ورئيس الأركان يوسف شكور، وقائد القوى الجوية والدفاع الجوي ناجي جميل، ورئيس العمليات عبد الرزاق الدردري، ورئيس المخابرات العسكرية حكمت الشهابي، وقائد الأسطول فضل حسين، وقضوا في نادي الضباط بالاسكندرية يومين من المناقشات مع زملائهم المصريين برئاسة وزير الحربية أحمد إسماعيل في مقر قيادة البحرية في رأس التين. كانت تلك هي المراجعة الختامية للخطط الحربية من قبل الرجال الذين سيُديرون المعارك، وقد أعطوا اهتماماً وثيقاً للمسات الأخيرة لخطة خداع واسعة متقنة لجعل إسرائيل والولايات المتحدة تعتقدان بأن حشد القوات والمعدات على الجبهتين السورية والمصرية ليس أكثر من مناورات خريفية روتينية.

وقام رئيسا الأركان، السوري يوسف شكور، والمصري سعد الدين الشاذلي بالتوقيع على وثيقة رسمية تتضمن نيتهما المشتركة لخوض الحرب، وتوصي باختيار تواريخ محتملة رفعاها إلى رئيسيهما بأن الحرب يمكن أن تبدأ في وقت ما بين السابع والحادي عشر من أيلول/سبتمبر، أو بين الخامس والعاشر من تشرين الأول/أكتوبر، وهي فترات تكون فيها حالات المدّ في قناة السويس ودرجات ضوء القمر ملائمة، وطلبا فيها أيضاً أن تُعطى مهلة أسبوعين لبدء العد التنازلي أياً كان التاريخ الذي يتم اختيار ساعة الصفر فيه[١٢].

ثم طار مصطفى طلاس من الاسكندرية إلى سوريا باسم مستعار ليخبر بذلك الأسد والسادات اللذين كانا يعقدان مؤتمر قمة خاص بهما في ٢٦ و ٢٧ آب/ أغسطس في منتجع الزبداني الصيفي الجبلي الذي كانا قد انتقلا إليه لتجنب حرارة الشمس. وهناك اتخذ القرار بشن الحرب في تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٧٣. وقد استذكر الأسد فيما بعد أن السادات كان يواجه متاعب من الطلبة المتظاهرين بمصر، ولذا فقد كان تواقاً لبدء الحرب قبل أن يعود أولئك الطلبة المتمردون ليملأوا أروقة الجامعات في مطلع الفصل الدراسي الجديد في

الخـريف. وقـد تفهم الأسد هذه النقطة ولكنه شعر بأن مشروعهما الكبير لا يمكن أن يتم توقيته ليتناسب مع العام الدراسي وجدول دوام الطلبة فيه[١٣].

وتقررت ساعة الصفر أخيراً في اجتماع سري بين الأسد والسادات في القاهرة عقداه على هامش لقاء قمة ثلاثي مع الملك حسين، عاهل الأردن في ١٢/أيلول ـ سبتمبر. وفي ٢٢ منه بدأ العد التنازلي الذي استغرق خمسة عشر يوماً. وفي منزل الأسد بدمشق في ٣/تشرين الأول/أكتوبر تم الاتفاق مـع وزير الحربية المصري المشير أحمد إسماعيل على ساعة الانطلاق. كان السوريون يريدون أن يهاجموا في الفجر بينما تكون الشمس خلفهم، وكان المصريون يفضلون الغسق ليتاح لهم عـبور القناة ليلاً بدون هجوم جوي إسرائيلي، وتم الاتفاق على حل وسط هو أن يبدأ الهجوم على الجبهتين معاً في الساعة الثانية من بعد ظهر السادس من تشرين الأول/أكتوبر (١٩٧٣).

افتـراق الأهـداف

بالرغم من أن الأسد لم يكن يدري آنذاك، فإن مشروعه المشترك مع السادات كانت فيه ثغرة نقص منذ البداية؛ فخلف واجهة التعاون المثيرة الرائعة لم تكن هناك وحدة في الفكر. ولقد قدر لآمال العرب العظيمة أن تصطدم بهذا الجرف الصخري المختفي في القاع. وكانت نقاط الافتراق أساسية تماماً. فمن البداية، لم يكن الزعيمان متفقين في نظرتهما لأسباب القتال. فقد خاض الأسد الحرب لأنه كان يعتقد بأنه لا يمكن أن تكون هناك مفاوضات مرضية مع إسرائيل حتى يستعيد العرب بعض أرضهم السليبة على الأقل. كان يرى أن عملية السلام ستكون نتيجة الحرب وليست بديلاً لها. وخاض السادات الحرب بسبب شعوره بالإحباط وخيبة الأمل لأن دبلوماسية السلام التي كان يتابعها طيلة الوقت سراً وعلانية لم تؤدّ إلى شيء، وهكذا اعتقد بأن هناك حاجة لصدمة لإحيائها.

وفي وقت مبكر جداً يعود إلى كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٧٠، أي بُعيْد

استلامه السلطة خلفاً لعبد الناصر، أرسل السادات إلى الأميركيين سراً يقول لهم إنه مهتم حقاً بالسلام، وفي ٤/شباط/فبراير سنة ١٩٧١ عرض فتح قناة السويس التي ظلت مغلقة منذ سنة ١٩٦٧ في مقابل انسحاب إسرائيلي جزئي مرتبط بجدول زمني لتسوية شاملة. وفي ١٥/شباط فبراير أكد لمبعوث الأمم المتحدة غونارياراننغ أن مصر مستعدة للسلام مع إسرائيل إذا انسحبت هذه من سيناء، وقالت إسرائيل: «لا». وفي مطلع أذار ناشد الرئيس نيكسون أن يدعم اقتراحه الذي قدمه في ٤/شباط/فبراير، ولكن عبثاً. ثم عندما وقع معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفياتي في ٢٧/أيار/مايو سارع لإعلام واشنطن بأن ذلك لن يقلل من اهتمامه بإيجاد تسوية سلمية.

وفي أواخر سنة ١٩٧١ عندما قام هنري كيسنجر (الذي كان مستشار نيكسون لشؤون الأمن القومي) بإزاحة وزير الخارجية وليام روجرز ليحل محله، كان السادات سريعاً إلى فتح «قناة اتصال خلفية» معه لينقل إليه الرسالة نفسها عن السلام. غير أن كيسنجر ردّ بوضوح كامل سواء مباشرة أو بواسطة عبر صهر الملك فيصل، كمال أدهم، مدير المخابرات السعودية، أنه لن يتحرك في عملية السلام ما دام النفوذ السوفياتي قوياً في مصر[١٤]. وهكذا فإن السادات قام بطرد الخبراء السوفيات من مصر ظناً منه بأن ذلك يلبي شروط كيسنجر في تموز سنة ١٩٧٢، وبذلك عرّض علاقاته مع موسكو للخطر، ولكن حتى هذه الحركة الدراماتيكية فشلت في اجتذاب اميركا وحليفتها إسرائيل إلى المفاوضات. وكان من المفهوم أن ينزعج السادات، ولكنه مع ذلك لم ييأس، بل أرسل مستشاره للأمن القومي، حافظ إسماعيل ليقضي يومين من المحادثات السريّة مع كيسنجر في كونيتيكت في ٢٤ و ٢٥ شباط/فبراير ١٩٧٣، ومرة أخرى في لقاء غير معلن في باريس ٢٠/أيار/مايو، وكرر تقديم اقتراح يعرض فيه السلام، والتطبيع مع إسرائيل إذا التزمت بالانسحاب من الأراضي المحتلة[١٥]. لم يكن أحد يستطيع أن يقول إنه لم يحاول. والحق أن هذه لم تكن سوى النقاط العليا البارزة من

جهد مصري ظل مستمراً ـ وإن كان قد أصبح يائساً باطراد ـ لتحريك محادثات السلام فيما بين عام ١٩٧١ و١٩٧٣، ولمنع الحاجة إلى الحرب، ولم تؤدّ هذه الجهود إلى شيء لأنه كان من سياسة كيسنجر أن يسوّف ويماطل عمداً لإطالة أمد جمود الحالة ـ حالة اللاسلم واللاحرب ـ بين العرب وإسرائيل[١٦].

وكان حسين ملك الأردن تواقاً كالسادات لمحادثات سلام، فلقد كان يخشى الحرب، ولذلك راح يراقب التحضيرات السورية والمصرية بقلق متزايد. فقد كلفته حرب عام ١٩٦٧ نصف مملكته، وقد تكلفه حرب أخرى العرش نفسه. وفي محاولة لاستباق هذا الخطر ذهب إلى واشنطن مرتين في شباط/فبراير سنة ١٩٧٣ ليحاول اجتذاب تأييد نيكسون وكيسنجر لاقتراحات كان قد قدمها للزعماء الإسرائيليين وجهاً لوجه[١٧]. ومؤداها أنه مستعد للسلام إذا تخلت إسرائيل عن فكرة ضم الأراضي، وأنه سيوافق على إجراء تغييرات في الحدود، ويوافق على تواجد مراكز عسكرية إسرائيلية، وحتى مستوطنات على طول نهر الأردن، غير أن كيسنجر لم يشأ أن يضيع وقتاً على مقترحات كانت إسرائيل قد رفضتها. وفي أيار/مايو ١٩٧٣ حذّر حسين واشنطن من أن الحشد السوري والمصري كان أشد واقعية من أن يُعتبر مجرد مناورات[١٨]. وعند استلام هذا التحذير دعا كيسنجر إلى النظر ـ على مستوى عال ـ في احتمال وجود تهديد. وذهب وزير دفاع إسرائيل موشي دايان، إلى حد إصدار الأمر بتعبئة جزئية. ولكن اتضح أن الإنذار المفزع كان مزيفاً، أو على الأقل سابقاً لأوانه.

كانت إسرائيل والولايات المتحدة مقتنعتين، بأن العرب لن يجرؤوا على شن حرب لا أمل لهم في كسبها. وكان الرأي أن تفوق إسرائيل، وخصوصاً في الجو، يسلب العرب أي خيار عسكري معقول. والحق أن محاولات التعاون العربي السابقة كانت بائسة إلى درجة أن الأميركيين والإسرائيليين قد أهملوا تماماً فكرة التقاء فعال بين مصر وسوريا اللتين كانتا متنازعتين تاريخياً. وفي

اميركا وإسرائيل ظلت حالة الرضا عن النفس التي ولدها انتصار ١٩٦٧ السهل باقية دون أن تهتز، بل لقد تعززت بفعل طرد السادات للسوفيات وكذلك بفعل القوة الهائلة التي حصلت عليها إسرائيل بعون أميركي.

كما أن ثقة كيسنجر المفرطة (إلى حد العجرفة) بقدراته على الإقناع قد جعلته ينبذ أدلة حسين. وكان قد أعلن أنه سيبدأ محادثات تمهيدية حول مشكلة الشرق الأوسط عقب انتهاء الانتخابات الإسرائيلية المقرر إجراؤها في ٣٠/تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٣. وكان متأكداً من أن احتمال التوصل إلى تسوية دبلوماسية سيُبقي العرب هادئين حتى ذلك الحين. ولا حاجة للقول بأن كيسنجر لم يشعر بأي تعاطف مع إحساس العرب الحادّ بالخيبة والإحباط إزاء استمرار إسرائيل في احتلال أراضيهم، وإزاء اللهجة المتزايدة الوضوح في دلالتها على نوايا إسرائيل لضم تلك الأراضي حسب تصريحات الزعماء الصهاينة والواقع أن كيسنجر تعمد زيادة حدة مشاعر الإحباط لدى العرب عن قصد، اعتقاداً منه بأن ذلك سيجعلهم أكثر خضوعاً وطواعية. أما تخبط السادات بين المناشدة من أجل السلام وبين التهديد بالحرب فكان مدعاة للضحك، وأما الأسد غير المعروف فقد تجوهل.

كان الأسد قد أحيط علماً بمقترحات السلام التي أعلنها السادات مثل المبادرة التي عرض فيها فتح قناة السويس بشروط في شباط/فبراير عام ١٩٧١، ولكنه فسر فشل تلك المقترحات بأنه برهان مطمئن بأن السادات أخذ يشاطره الرأي في أنه لا يمكن الحصول على شيء مادي ملموس من إسرائيل دون حرب، غير أنه لم يكن يعلم «بقناة اتصال السادات السرية» بكيسنجر، وفشل في إدراك مدى الجهد المضني الشاق الذي كان حليفه المصري وكذلك جاره الأردني يبذلانه لإجراء مفاوضات، ولم يدرك المدى الذي ذهب إليه السادات في اعتبار الحرب شيئاً لا يزيد على صدمة لإيقاظ عملية السلام من السبات.

وهكذا فبينما خطط الأسد لاستعادة الأرض كان السادات لا يأمل في أكثر

من إزالة العقبات أمام عملية دبلوماسية. كانت حرب الأسد حرب تحرير، بينما كانت حرب السادات في جوهرها حرب تحريك. ولقد كان هناك نوع من التوافق الجزئي بين موقفيهما طبعاً. فلم يكن الأسد يعتقد بأن الحرب بنفسها يمكنها أن توجد تسوية للنزاع العربي ـ الإسرائيلي المعقد مهما كان مقدار الأرض التي قد تستعاد خلال تلك الحرب، بل سيتوجب أن تتبعها مفاوضات سياسية. ولكن الوزن الذي أعطاه كل منهما للجوانب السياسية والعسكرية للحملة كان مختلفاً عن الذي أعطاه الآخر.

أخبر السادات كبار ضباطه بأنه يريد شن «حرب محدودة» وكرر التأكيد على هذه النقطة (كما سجلها محمد حسنين هيكل) قائلاً بأنه إذا استطاع أن يكسب عشرة ملليمترات فقط من الأرض على ضفة القناة الشرقية فإن ذلك سيقوي موقفه التفاوضي بشكل هائل لا يقاس[١٩]. أما الأسد فعلى النقيض من ذلك، كان يتصور استعادة الجيش السوري للجولان، والجيش المصري لسيناء، وإرغام إسرائيل بالمفاوضات على التخلي عن بقية مكاسبها من الاحتلال في سنة ١٩٦٧، ولا سيما الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية من الأردن وقطاع غزة. هكذا فهم الأسد اتفاقهما، وكما أصرّ فيما بعد: «كان الهدف هو استعادة الأرض التي احتلتها إسرائيل في عام ١٩٦٧. وكان كل قطرٍ حرّاً في تخطيط هجومه على جبهته، وتم الاتفاق على أن هدف سوريا هو استعادة الجولان بينما كان الهدف المصري هو الوصول إلى ممرات سيناء في المرحلة الأولى قبل إعادة الاحتشاد لتحرير شبه الجزيرة كلها. هذا هو ما قررته أنا والسادات، ولقد خضنا الحرب على هذا الأساس»[٢٠].

لماذا لم يتضح هذا الخلاف الحساس على أهداف الحرب في الاجتماعات الكثيرة التي عقدت قبل الحرب؟ إن تفسير ذلك هو أن السادات قد كذب على الأسد وتعمد خداعه حول نواياه، واستدرجه إلى الاعتقاد بأن الهجوم الذي ستشنه مصر سيكون أوسع نطاقاً مما كان ينويه فعلاً. ولم يكن الخداع

مجرد سوء تفاهم كلامي شفوي، بل لقد تلقى السوريون بالفعل خطط حرب مزورة.

وكان رئيس الأركان المصري الفريق سعد الدين الشاذلي مقتنعاً منذ البداية بأن مصر لا تستطيع أن تشن سوى هجوم محدود لعبور قناة السويس واحتلال شريحة ضيقة من الأرض على ضفتها الشرقية والاحتفاظ بها. وكان يرى بأنه ليس في طاقة مصر إطلاقاً شن هجوم أوسع لطرد إسرائيل إلى ما بعد الممرات، دع عنك إخراجها من سيناء وقطاع غزة كلياً، فقد كان سلاح مصر الجوي أضعف من أن يدعم أي تقدم كبير شرقي القناة، وكذلك كانت صواريخ سام ودفاعاتها الجوية قليلة وغير متحركة لتغطية مثل هذا الهجوم. وكان يرى أن التحرك إلى عمق سيناء خارج نطاق مظلة صواريخ سام سيكون حماقة انتحارية تجعل القوات المصرية البرية تحت رحمة الطيران الإسرائيلي كما كانت سنة ١٩٦٧ فتتعرض للإبادة. وعلى هذا الأساس أعد خطة أطلق عليها اسم الشيفرة «المنارات العالية» للهجوم المحدود الذي اعتقد بأنه الخيار الوحيد الممكن عملياً عبر القناة.

هذا الهدف المحدود المقيّد لم يكن شيئاً يسهل الاعتراف به، فالشرف الوطني كان يتطلب خطة عسكرية لتحرير كل الأرض التي استولت عليها إسرائيل. كما أن الحصول على الأسلحة بكميات وفيرة من الاتحاد السوفياتي (الأمر الذي كان دائماً يخضع لعمليات مساومة شاقة) كان يتطلب أيضاً طرح أهداف عليا وكبرى. وعندما ذهب السادات إلى موسكو مع وزير حربيته اللواء صادق في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧١ ليطلب سلاحاً، فإن الخطة التي قدما طلبهما على أساسها لم تكن خطة «المنارات العالية» المتواضعة بل خطة «العملية ٤١» الأكثر طموحاً والتي كانت تتصور الاستيلاء على ممري الجدي ومتلا الحيويين الواقعين على مسافة تتراوح بين أربعين وخمسين كيلومتراً شرقيّ قناة السويس. ولذلك فقد كان هناك عنصر خداع وازدواجية يدخل في تركيب

خطط مصر الحربية اعتباراً من سنة ١٩٧١ فصاعداً. فبينما كان رئيس الأركان وحفنة من مخططيه يعملون سراً في «المنارات العالية»، فإن السوريين والخبراء السوفيات في مصر قد استُدرجوا للاعتقاد بأن الأهداف الموضوعة في «العملية ٤١» التي أعيدت تسميتها فأصبحت «غرانيت/٢» هي الأهداف الحقيقية. ولكن الشاذلي قد اعترف فيما بعد بأن «غرانيت ٢» بقيت خطة على الورق لأنها مستحيلة التنفيذ بالإمكانات المتاحة آنذاك»[٢١].

كان خداع السوفيات شيئاً ربما أمكن تبريره باعتباره الطريقة الوحيدة لجعل السلاح يتدفق. وعلى أية حال فقد اعتقد المصريون بأن من الحصافة والتعقل أن يكونوا أقل من صريحين مع السوفيات لأن المصريين لم يكونوا يعرفون على وجه التأكيد ما هي المعلومات التي كانت موسكو تتبادلها مع واشنطن في سياق الانفراج، بل إن عنصراً من سوء الطرح يمكنِ تمريره وتسويقه كجزء من خطة الخداع الضرورية[٢٢] ولكن قيام السادات بخداع حليفه السوري كان شيئاً آخر تماماً، إذ أنه عرّض سوريا لأخطار أكبر بكثير مما كانت تتوقعه.

لقد بدأ الغش في مؤتمر السادات ـ الأسد في برج العرب في نيسان/أبريل سنة ١٩٧٣، عندما اتفق الزعيمان على الشكل العام للحملة، فقد عرف السادات أن الأسد لن يقاتل إلى جانبه ما لم يكن الهدف المشترك هو تحرير سيناء والجولان جميعاً، يتبعه توجيه أقصى قدر ممكن من الضغط المتزامن على إسرائيل على الجبهتين معاً. وهكذا باعه خطة «غرانيت/٢». وفي هذا الاجتماع لم يكن الأسد سعيداً بسبب النواقص التي لاحظها في مدى استعداد مصر لعملية ضخمة بهذا الحجم، وبالرغم من تردد السادات وممانعته أصرّ الأسد على مساءلة وزير الحربية المصري الجديد، أحمد إسماعيل (الذي استدعي من القاهرة لهذا الغرض)، وبعد تلك الأسئلة التي طرحها الأسد بنفسه تأجلت الحرب من الربيع إلى الخريف سنة ١٩٧٣ ريثما يتم الحصول على مزيد من الأعتدة والمعدات[٢٣].

ويكشف الشاذلي في مذكراته كيف خُدِع الأسد. فبناء على تعليمات السادات أمر إسماعيل الشاذلي بإحياء العملية «غرانيت/٢» قبيل وصول الأسد إلى برج العرب، وعندما احتج الشاذلي بأن هذه الخطة ليست ممكنة عسكرياً سنة ١٩٧٣ تماماً كما لم تكن ممكنة سنة ١٩٧١، اعترف إسماعيل بأنها مناورة سياسية لإبقاء السوريين على الخط. ولم يشعر المصريون بأي ندم حقيقي أو وخز للضمير على خداعهم للسوريين بسبب كراهيتهم العميقة لهم. فقد كانت مصر لا تزال تعاني من آثار جروح الانفصال السوري، كما كان هناك شعور واسع الانتشار بأن السوريين المشاكسين الجاحدين قد عضّوا اليد التي أطعمتهم، بل إن الشاذلي قد طرح داخل هيئة الأركان المصرية وخلف أبوابها المغلقة أنَّ من الأفضل لمصر أن تخوض الحرب وحدها، غير أن السادات كان يريد أن يشرك معه حليفه الأسد في ركوب هذا المركب. وكان حل أحمد إسماعيل لمشكلة إرضاء الأسد بسيطاً: فالعمل على الخطتين: «المنارات العالية»، المتواضعة، و«غرانيت/٢»، الأكثر طموحاً، يسير جنباً إلى جنب، ولكن بينما تكون الأولى هي الحقيقية فإن الثانية التي تنص على احتلال ممرات سيناء هي التي تُطرح على الأسد، ولا تنفذ إلا تحت أفضل الظروف ولقد كتب الشاذلي: «لقد جعلتني هذه الازدواجية أشعر بالغثيان»[٢٤].

تسرب الخطط

لم يكن خداع السادات مشكلة الأسد الوحيدة بحال من الأحوال. بل إن خططه الحربية النفيسة قد تسربت إلى العدو، ولكن ذلك لم يترك أي أثر على سير المعركة بسبب شدة الغرور والرضا عن النفس لدى أميركا وإسرائيل، إذ أنهما لم تصدقا تلك الخطط. ففي أواخر آب/أغسطس أو أوائل أيلول/سبتمبر ١٩٧٣ تلقت مخابرات دولة عربية رسالة بالشيفرة من عميل سوري ـ هو لواء في الجيش السوري كانت مخابرات تلك الدولة قد جندته للعمل لحسابها قبل ذلك بعامين ـ يطلب فيها اجتماعاً فورياً، وجلب ذلك السوري معه مجموعة كاملة من

خطط حرب تشرين / اكتوبر كما رسمتها القيادات المصرية والسورية العليا، فتم نقل نسخ منها على الفور وبيد مبعوثين موثوقين إلى شخصين هما: هنري كيسنجر، وموشي دايان.

ولكن الخطط ـ بكل بساطة ـ لم تحمل على محمل الجدّ. وكان دايان وكيسنجر متأكدين أن هذه مجرد تجربة عربية في التضليل بتسريب معلومات كاذبة مصممة لتخسير إسرائيل نفقات واضطرابات تعبئة عامة أخرى لا طائل من ورائها، ولإقناع الولايات المتحدة بالضغط على إسرائيل لتكون أكثر مرونة في الرد على مقترحات السلام التي كانت مصر والأردن قد طرحتاها. وعندما جاءت الحرب في السادس من تشرين الأول/أكتوبر اتضح أن الخطط التي أرسلت إلى دايان وكيسنجر كانت دقيقة في كل تفاصيلها ما عدا تباين في ساعة الصفر مقداره ثماني ساعات، حيث ذكرت الخطط أن ساعة الصفر هي السادسة صباحاً. مما يشير بوضوح إلى أن تلك النسخ لم يكن قد أُدخل عليها بعد التعديل الذي تم التوصل إليه كحل وسط بين الأسد والفريق أحمد إسماعيل في ٣/تشرين الأول/أكتوبر، والذي حددت ساعة الصفر بموجبه فأصبحت في الثانية وخمس دقائق بعد الظهر.

ولم يكشف كيسنجر، بل إنه بلا شك سينفي نفياً قاطعاً أنه كانت لديه أية معرفة دقيقة محددة مسبقة بحرب تشرين/أكتوبر. أما دايان فقد كان أكثر صراحة، ولكن بصورة سرية وخاصة. فبعد انتهاء الحرب اتصل بالجاسوس العربي الذي ذهبت «خبطته» المخابراتية المثيرة بلا جدوى فلم يهتم بها أحد في حينها، فأرسل له دايان رسالة مؤداها: «إنني أدرك بأنني تحت رحمتك، إنك إذا كشفت ما تعرف فسينتهي مستقبلي المهني وحياتي العملية. وفي غضون ذلك أرجو أن تتكرم بأن تتسلم مع أعمق امتناننا أعلى وسام عسكري تستطيع إسرائيل أن تمنحه لمواطن أجنبي»[٢٥].

ولعله كان من الخير للأسد أن لا يدرك مدى اهتزاز وضعه عندما دخل

الحرب، ولا مدى الضرر الواقع على مركزه وبيئته الاستراتيجية، ذلك أن الأمر لم يقتصر على استدراج حليفه المصري له كي يعتقد بأن مصر ستوجه ضربة عسكرية أكبر مما كانت تنويه بالفعل، بل إن خططه الحربية كانت في أيدي العدو. لم تكن هذه إرهاصات طالع ميمون للحملة التي ظل يحلم بها منذ عام ١٩٦٧.

التمهيد المباشر للحرب

في مؤتمر قمة عقد في القاهرة (١٠ ـ ١٢/أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٣) رحب الأسد والسادات بعودة حسين إلى الصف العربي، وفي عملية كأنها إعادة لمشهد المصالحة العربية الذي جرى في آخر لحظة قبل حرب عام ١٩٦٧، وافقت مصر وسوريا على استئناف علاقاتهما الدبلوماسية مع الأردن، وذلك بمناسبة قرار الملك بأن يطلق من معتقلاته سراح مئات من الفدائيين الفلسطينيين الذين كان من حظهم النجاة من مذابح أيلول الأسود. ولكن كانت المودّة الجديدة الظاهرية تخفي تحتها ـ كالمعتاد ـ كثيراً من الحيل والمكائد والمراوغات السرية. كان حسين يعرف جيداً أنه إذا اشترك مع مصر وسوريا عندما تقع الحرب فإنه سيعرّض نفسه لعقوبة إسرائيلية مدمّرة، ولكنه إذا ظل بعيداً فسوف يواجه اتهام العرب له بالخيانة. ولذلك فإنه أصلح أموره في القاهرة علناً مع المحاربين العرب، وفي الوقت نفسه أعطى أميركا وإسرائيل تأكيدات سرية بأنه إذا نشبت الحرب فسوف يقوم بأقل قدر ممكن من القتال تفرضه عليه مظاهر الحشمة وحفظ ماء الوجه(٢٦). وكانت مشاعر الأسد مزدوجة كذلك. كان يحتاج إلى حسين لسد ثغرة في دفاعاته، ولكنه كان يحتقر اتصالات حسين بإسرائيل. أما السادات بدوره فقد صادق حسين لدوافع مختلطة. فبما أنه كان يتوقع نوبة حامية من دبلوماسية السلام بعد الحرب، فقد أراد أن يتأكد من أن مكانة حسين لن تعلو على مكانته لدى الولايات المتحدة. ولكي يكتمل المثلث فإن السادات وحسين كليهما لم يكن لديهما أي ثقة بالأسد: فلقد كانت ذكريات

المؤامرات البعثية ضدهما لا تزال طرية. هكذا كانت حالة الانسجام العربي عشية حرب أكتوبر.

ومثلما توقع حسين، تصاعد الضغط العربي عليه عندما جاءت الحرب كي يشترك فيها. ولقد طلب بالفعل إذناً من إسرائيل ليحرك لواءً إلى الجبهة السورية، في مناشدة بعث بها إلى كيسنجر عن طريق رئيس الوزراء البريطاني ادوارد هيث. ولقد استمتع كيسنجر بالنكتة مع السفير الإسرائيلي في واشنطن، سيمحا دينتز، وعلق كيسنجر في مذكراته: «في الشرق الأوسط فقط من الممكن تصور محارب يستأذن عدوه للموافقة على قيامه بعمل من أعمال الحرب ضده»[٢٧]. ولكن ما لم يضفه كيسنجر إلى كلامه هذا هو أن كيسنجر نفسه هو الذي خلق ذلك الوضع الذي راح حسين يتلوى فيه لأن حسين عندما طلب الحماية من أميركا سنة ١٩٧٠ فإن أميركا دعت إسرائيل لتقديم تلك الحماية له.

ويظهر أن أسد تلك السنوات المبكرة في السلطة كان شخصاً يثق بالناس أكثر من اللازم، فقد بزّه في المكر والمراوغة كل من السادات وحسين، وكان لهذين الاثنين خبرة أطول في لعبة السياسة العربية الخشنة الوعرة المسالك. ففي مقابل السنتين اللتين كانتا قد مضتا عليه كرئيس لسوريا، كان حسين قد أمضى عقدين من الزمن على عرشه المكشوف المعرض للهزات، كما عمل السادات فترة تعادل ذلك الزمن إلى جانب عبد الناصر. ولقد كانت براءة الأسد الساذجة نوعاً ما في ميدان السياسة الدولية الواقعية (المادية التي لا تعبأ بالأخلاق والمثل والنظريات) تتجلى في أهدافه من الحرب والتي كانت ببساطة شديدة هي النصر وتحرير الأرض، بدون موقع احتياطي يرتكز إليه إذا اضطر للتراجع وبدون نظرة واضحة إلى ما يتبع. لم يكن النجاح مستحيلاً، ولكن كانت العوامل الحائلة دون حدوثه ثقيلة الوزن كما يتضح الآن من إدراك طبيعة الحالة بعد وقوعها. ولعل حماسته للحرب التي امتصت كل عواطفه والتي استولى على السلطة كي يشنها قد أوجدت عنده بقعة عمياء مسحت من ذهنه أي شكوك في «إخوانه

العرب»، وهي شكوك كان يمكن أن تراود شخصاً أقل التزاماً بالقضية، وربما كان لا يدرك أن النزاع العربي ـ الإسرائيلي منظوراً إليه من عمان أو القاهرة ليس واضحاً وضوح الأبيض ضد الاسود، أو الخير ضد الشر، كما يبدو منظوراً إليه من دمشق.

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار/مايو سنة ١٩٨٥.

(٢) غالي شكري: مصر: صورة رئيس (طبع لندن ١٩٨١) ص ٣٦.

(٣) الفريق سعد الدين الشاذلي: عبور السويس (سان فرانسيسكو ١٩٨٠) ص ١٦٤ - ١٦٦.

(٤) محمد حسنين هيكل: الطريق إلى رمضان (لندن ١٩٧٦) ص ١٧٢ - ٣. والشاذلي: المصدر السابق ص ١٧٥ - ٧٧، وكذلك أنور السادات: البحث عن الذات (لندن سنة ١٩٧٨) ص ٢٣٠.

(٥) مقابلة مع عدنان عمران (سفير سوريا السابق في بريطانيا والذي كان يخدم في موسكو في تموز/يوليو ١٩٧٢)، لندن ١٧/٣/١٩٧٦.

(٦) جريدة النهار، بيروت في ١٠/٨/١٩٧٢.

(٧) نفسه.

(٨) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار/مايو سنة ١٩٨٥.

(٩) الكولونيل تريفور ن. دويوي النصر المراوغ: الحروب العربية الإسرائيلية من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٧٤ (لندن ١٩٧٨) ص ٤٤١.

(١٠) الشاذلي: (مصدر سبق ذكره) ص ٢٩.

(١١) هنري كيسنجر: سنوات الاضطراب (لندن سنة ١٩٨٢)، ص ٢٩٧ - ٩٩.

(١٢) الشاذلي (مصدر سبق ذكره)، ص ٢٠.

(١٣) الرئيس الأسد، مقابلة في دمشق في أيار/مايو سنة ١٩٨٥.

(١٤) هيكل (مصدر سبق ذكره)، ص ١١٩، وإسماعيل فهمي: التفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط (لندن ١٩٨٣)، ص ٨.

(١٥) للحصول على شرح مفصل للعلاقات المصرية - الأميركية خلال عامي ١٩٧١ - ١٩٧٣ انظر وليام كوانت: عقد من القرارات ص ١٢٨ - ١٦٤.

(١٦) هنري كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ١٩٦، ٢٠٣، ٢٩٦، وكوانت: (مصدر سبق ذكره)، ص ١٤٧، ١٥٣، ١٦١ - ١٦٢.

(١٧) كيسنجر (مصدر سبق ذكره)، ص ٢٢٠.

(١٨) نفسه ص ٤٦١.

(١٩) هيكل (مصدر سبق ذكره)، ص ١٨٠.

(٢٠) الرئيس الأسد، أيار/مايو ١٩٨٥.

(٢١) الشاذلي (مصدر سبق ذكره)، ص ٣١.

(٢٢) هيكل (مصدر سبق ذكره)، ص ٢٢.

(٢٣) الرئيس الأسد: أيار/ماي ١٩٨٥.

(٢٤) الشاذلي: (مصدر سبق ذكره)، ص ٣٧.

(٢٥) إن المصدر الغربي الكبيرلهذه المعلومات لا يرغب بالكشف عن نفسه.

(٢٦) كيسنجر (مصدر سبق ذكره)، ص ٤٩٤، ٥٠٠.

(٢٧) نفسه، ص ٥٠٦.

الفصْلُ الرابعَ عَشَرَ

وهْم تشْرين

كانت حرب تشرين/أكتوبر سنة ١٩٧٣ أكبر مشروع عسكري نفذه العرب في العصر الحديث. ولكنه بدلاً من أن يحقق الآمال الزاهية العريضة التي عقدوها عليه، فقد قدر له أن يكون من الناحية السياسية كارثة وضعتهم على طريق التفكك والتمزق وزادت من تعرضهم للضعف والعطب. وكانت بالنسبة للأسد من دواعي أقسى خيبة أمل تعرض لها، ومع ذلك فإن من المفارقات المتناقضة أنها كانت أيضاً بداية صعود أهميته الإقليمية في المنطقة.

وفي اليوم الأول من هجومهم المفاجىء الذي شنوه في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت، السادس من تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٣، اجتاح المصريون والسوريون حواجز دفاعية إسرائيلية على جبهتي سيناء والجولان. ففي واحدة من أبرز حالات العبور الجديرة بالذكر في تاريخ الحروب [١]، تم نقل مائة ألف جندي مصري وأكثر من ألف دبابة عبر قناة السويس حيث داهموا وحطموا خط بارليف بسرعة وأنشأوا خمسة مواقع دفاعية كنقاط انطلاق جديد. وفي الوقت نفسه زجت سوريا بخمسة وثلاثين ألف جندي وثمانمائة دبابة ضد التحصينات الاسرائيلية على مرتفعات الجولان، فاجتاحوها في عدة نقاط وكادوا يصلون إلى حافة الجرف المطل على بحيرة طبريا، ونهر الأردن، وشمال إسرائيل القابعة وراءهما.

وخلقت هذه التطورات ابتهاجاً عظيماً، إذ كان من الواضح أن الصعود الإسرائيلي يتعرض للتهديد الجدّي لأول مرة منذ عام ١٩٤٨. فبعد العيش في ظل عار الهزائم سنة ١٩٤٨ و١٩٥٦ وخصوصاً سنة ١٩٦٧، دون ذكر الصدامات والمعارك المؤلمة فيما بين ذلك مما لا يحصى عدده، تجرأ العرب على الهجوم، وأثبتوا أنهم قادرون على الفوز، وبدا أن عصر العجز قد انتهى. ومهما كانت نتائج الحرب، فلقد كان من بين أهدافها استعادة احترام النفس، وقد تحقق هذا الهدف في اليوم الأول.

وفي صباح ذلك اليوم، قبل ساعة الصفر بعدة ساعات، تمركز الأسد في غرفة العمليات تحت الأرض بمقر القيادة في دمشق، وانتظر افتتاح الحملة بهدير المدافع على طول الجبهة البالغ خمسة وستين كيلومتراً. كانت هذه هي المعركة التي حلم بها منذ سنوات. ولقد كان مشغول الفكر متحمس العواطف إلى درجة أنه نسي أن السادس من تشرين الأول/أكتوبر هو عيد ميلاده الثالث والأربعون، وعندما ذكّره أحدهم بذلك صاح: «صحيح! لقد نسيت ذلك!»(٢).

وبالنسبة للأسد والسادات، وكذلك العالم العربي كله، كانت تلك لحظة سعادة كبرى وبلسماً لجروح الماضي، كما أن الحيوية، والاندفاع، والأسلوب، والشجاعة التي كيلت بها الضربات في البداية قد منحت الزعيمين شيئاً يشبه «الشيك على بياض» كرأسمال سياسي أعطاهما فيما بعد كثيراً من حرية التصرف. وأدى النجاح في البداية أيضاً إلى انتشار كثير من الأساطير في البلدين عن الحرب، وهي أساطير لم تكن لها علاقة بكشف الحساب الختامي لنتائجها لأنها بالغت في تضخيم الانتصارات والتقليل من شأن النكسات.

إن قصة عبور مصر لقناة السويس معروفة، وكذلك جهود ضباط الأركان، وسلاح الهندسة والهجمات الفدائية الجريئة التي سبقت العملية، ففي نفس اللحظة التي فتحت فيها المدافع نيرانها على جبهة الجولان كانت أربعة آلاف من المدافع المصرية ومائتان وخمسون طائرة تدك القوات الإسرائيلية ومواقعها

في سيناء. وتحت غطاء هذه النيران بدأت مئات القوارب المطاطية تنقل موجة إثر موجة من المشاة ومعهم قذائفهم الشخصية عبر القناة. وهوجمت حصون خط بارليف الخمسة والثلاثون وتم اجتياحها في معظم الحالات. وتم تأسيس محيط حماية بسرعة شديدة للتعامل مع الهجمات المضادة المدرعة الإسرائيلية، بينما فتحت خراطيم الماء سريعة النفث حوالي ثمانين ممراً في الساتر الرملي الذي كانت إسرائيل قد كدسته على ارتفاع ستين قدماً (١٨ متراً) على طول ضفة القنال الشرقية. ثم أقيمت عبر القناة جسور ثقيلة، فعبرت الدبابات وقوات المشاة المؤلّلة من الثغرات متدفقة إلى سيناء بأعداد كبيرة.

وعند صباح السابع من تشرين الأول كانت إسرائيل قد خسرت ثلاثمائة دبابة، فأسرعت بإرسال النجدات جنوباً، وفي يوم الاثنين ٨/١٠ قامت ثلاث فرق مدرعة يقودها الجنرالات شارون وآدان ومندلر بشن هجوم معاكس على المصريين، في رؤوس الجسور، تدعمها عشرات وعشرات من الطائرات. فاندحروا بخسائر ثقيلة زادت على ٢٦٠ دبابة أخرى، وشكلت هذه المعارك الجارية التي تآكلت وتبددت فيها القوات الإسرائيلية «أسوأ هزيمة في تاريخ الجيش الإسرائيلي»[٣]، حسب رأي المؤرخ العسكري الأميركي العقيد تريفور دوبوي.

وعلى الجولان واجه السوريون عقبات مخيفة لا تقل عن تلك التي تغلب عليها شركاؤهم المصريون. فعلى طول ما يسمى بـ «الخط الأرجواني» - خط وقف إطلاق النار القائم منذ سنة ١٩٦٧ - بكامله، كانت إسرائيل قد حفرت خندقاً مضاداً للدبابات عمقه أربعة أمتار وعرضه يتراوح بين أربعة وستة أمتار، محاطاً بدشم ترابية مرتفعة ومحمياً بحقول ألغام على جميع الجوانب، وكانت هناك أجهزة إليكترونية يطل عليها مرصد قابع على ارتفاع ألفي متر على جبل الشيخ فتبقى هذه الدفاعات تحت رقابة دائمة. وخلف مصيدة الدبابات هذه كانت هناك شبكة من ١١٢ دشمة محصنة، ووراء ذلك دبابات، وبطاريات

مدفعية، ومشاة حامية الجولان. وكان السوريون عارفين بما يجابههم، وقد قام اللواء جبرائيل البيطار، مدير الاستطلاعات العسكرية برسم خرائط تفصيلية لكل جزء من الجبهة عن طريق إرسال دوريات مقاتلة لاستطلاع كيفية انتشار القوات والمواقع الإسرائيلية. وطوال شهور كان السوريون يجرون تمارين ومراجعات على نموذج بالحجم الكامل للموقع الحصين الذي كانت إسرائيل قد احتلته على جبل الشيخ بعد وقف إطلاق النار سنة ١٩٦٧ والذي كانت سوريا مصممة على استرجاعه، وقد تبودلت السيطرة عليه بضع مرات.

والجولان هضبة بازلتية تتناثر فيها صخور نارية من براكين خامدة تغطي فوهاتها الأرض المقفرة. وهذه الأرض التي صارت ميدان قتال محصورة بين لبنان في الشمال والأردن في الجنوب تطل على إسرائيل من جانب، وسهل دمشق من الجانب الآخر. هنا، على الجبهة الضيقه حشد الأسد جيشاً ميدانياً قوامه ستون ألف مقاتل على نسقين، أحدهما متقدم والآخر احتياطي، وكان هذا الجيش مسلحاً بألف وثلاثمائة دبابة وحوالي ستمائة قطعة مدفعية وأربعمائة مدفع مضاد للطائرات وأكثر من مائة بطارية صواريخ سام من مختلف النوعيات.

وفي ٦/تشرين الأول/أكتوبر زج السوريون عبر «الخط الأرجواني» ثلاث فرق مشاة هي الخامسة والسابعة والتاسعة، وقد ألحق بكل منها لواء مدرع لتقوم بمصادمة الحواجز الإسرائيلية على أنساق متلاحقة وفي الوقت نفسه، وفي حركة تدربوا عليها جيداً من قبل أنزلت طائرات الهليوكوبتر فدائيين سيطروا على مرصد جبل الشيخ في قتال مواجهة بالأيدي، فكانت ضربة جريئة حرمت الإسرائيليين من مركز لتصويب مدفعيتهم ومكنت المدفعية السورية من إصابة تشكيلات الدبابات الإسرائيلية.

وبرغم القتال العنيف الضاري على طول الجبهة كلها تمكنت طلائع الهجوم المدرع السوري من التقدم على نحو غير مستو: ففي الشمال والوسط في مقابل القنيطرة، حيث كانت الدفاعات الإسرائيلية أقوى، تكبدت الفرقتان

السابعة والتاسعة خسائر فادحة بينما كانت تعبر الخندق المضاد للدبابات، ورغم ذلك استطاعتا أن تشقا طريقهما إلى الأمام بعنف وتحصلا على مكاسب متواضعة. غير أن الفرقة الخامسة بقيادة اللواء علي أصلان في الجنوب اجتاحت الخطوط الإسرائيلية بنجاح ثم توزعت بسرعة على ثلاثة محاور، وطردت الإسرائيليين من أجزاء كبيرة من الجولان الجنوبي والأوسط. والذي منع الانهيار الإسرائيلي الكلي صباح الأحد ١٠/٧ وصول احتياطي الدبابات الإسرائيلي على عجل واشتباكه في المعركة بمجرد وصوله إلى الهضبة على دفعات أولاً بأول.

وقد احتفظ السوريون بفرقتين مدرعتين هما الأولى والثالثة كاحتياطي للاستفادة من أي اختراق، وعندما شاهد الأسد ورئيس أركانه في غرفة العمليات التقدم الرائع للفرقة الخامسة أمرا الفرقة المدرعة الأولى بأن تتدخل في القطاع الأوسط إلى الشمال تماماً من محور تقدم الفرقة الخامسة، وتهاجم مقر القيادة الإسرائيلي الهام في الجولان في كفرنفاخ، القرية المهجورة على منكب الطريق من القنيطرة إلى الأردن.

وإذن ففي ليلة ٨/٧ تشرين الأول/أكتوبر كان هناك اندفاعان اقتحاميان أوصلا الفرقتين المدرعتين الخامسة والأولى إلى مواقع تمكنهما من ضرب الشاطىء الشرقي لبحيرة طبريا والجسور على نهر الأردن، وبدا أن اندفاعاً مستميتاً آخر سيوصلهما إلى هناك، بما يفتح باب الأمل في استعادة الأراضي السورية. وشعر الأسد بأن النصر في متناول قبضته.

كان الاقتحام شاقاً وضارياً، وقد تناثرت مئات الدبابات حطاماً ولكن استراتيجية قتال الجبهتين كانت فعالة، فعلى مرتفعات الجولان وفي سيناء تلقت إسرائيل ضربات قاسية، وكانت تتراجع.

كانت القوات التي حشدها العرب جيوشاً على الطراز الحديث، مختلفة جداً عن الرجال ذوي القيادة السيئة والتدريب السيء والتجهيز الناقص الذين

هزموا سنة ١٩٦٧، عندما خاض العرب حرباً بلا تحضير ولا تفكير مسبق، أما في عام ١٩٧٣ فقد سبقت الحملة سنوات من التخطيط الدقيق والمراجعات السنوية المفصلة المتقنة. وفي نوع من الإعجاب غير المباشر بالعدو، بذل العرب جهوداً لتجنيد ضباط وضباط صف أكثر ثقافة وكفاءة فنية تم اختيارهم على أساس المقدرة وليس على أساس الولاء السياسي. ففي سوريا وضع الأسد حداً للمناحرات الفئوية والحزبية التي كانت قد شلت ومزقت هيئة الضباط، وفي مصر كان الضباط القياديون مثل رئيس الأركان الشاذلي ورئيس العمليات الجمسي قد أعادوا بناء القوات المسلحة المحطمة المعنويات التي ورثوها عن المشير عامر، وراحت مهنة العسكرية تتمتع بمكانة جديدة.

وحصل الجيشان على أسلحة سوفياتية متقدمة وأتقنا استعمالها. فلم يقتصر الأمر على الدبابات وبطاريات المدفعية والطائرات بكميات وفيرة، بل كانت هناك أيضاً تجديدات مبتكرة كالقذائف التي يحملها الرجال، مثل قذيفة «صاغر» السوفياتية المضادة للدروع و«ستريللا» المضادة للطيران ـ وأهم من هذا كله: صواريخ «سام» المركبة على منصات إطلاق متحركة والتي استعملت في القتال لأول مرة في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٣. وقد قطعت هذه الأسلحة شوطاً ما في عملية تحييد تفوق إسرائيل في الطيران والدروع، والحدّ من تأثيره.

ونقلت مصر وسوريا «صفحة»، أو عدة «صفحات»، من «كتاب» حرب سنة ١٩٦٧ الإسرائيلي مستفيدتين من التجربة، فقامتا بتسديد الضربة الأولى وأخذتا عدوتهما على حين غرة، ثم أعلنتا للعالم أن إسرائيل هي التي هاجمتهما. وكانت المباغتة جزءاً كبيراً من النجاح الذي حققه العرب في البداية. ذلك أن إسرائيل والولايات المتحدة لم تكتفيا بعدم تصديق خطط الحرب العربية التي تسلمتاها، ولكنهما بالإضافة إلى ذلك أساءتا فهم النوايا العربية من خلال سوء فهمهما للسادات، الذي اعتبرتاه مهرجاً لم تحملاه على

محمل الجد؛ ثم إن إسرائيل خدعتها السرية المحكمة التي التزمت بها سوريا ومصر، فكانت اتصالاتهما آمنة وجيدة الإغلاق بمساعدة جهاز شيفرة يعرف باسم «Cryptovox» من صنع سويدي ـ سويسري اشتراه السوريون عام ١٩٧٢، وبفضل خطة الخداع الفعالة، التي ربما كان من جملتها شن هجوم فدائي فلسطيني على معسكر انتقالي في شُونَاوْ بالنمسا كان يستخدمه اليهود السوفيات في طريقهم إلى إسرائيل، وعندما تم إغلاق المعسكر ثارت في إسرائيل ضجة كبرى جعلت غولدا مائير «رئيسة الوزراء» تطير إلى فيينا في أول تشرين الأول/ أكتوبر لتحتج على برونو كرايسكي. وهكذا تشتت انتباه اسرائيل بهذه القضية في عشية الحرب تماماً كما كان من العوامل التي أسهمت في صنع المفاجأة قرار شن الحرب في رمضان والناس صائمون، وفي يوم عيد الغفران اليهودي. وقد حفظ الأسد يوم الحرب سراً مكتوماً جداً فلم يشرك معه فيه سوى يوسف شكور رئيس الأركان، وحفنة من كبار الضباط، ولم يعلم به حتى عبد الحليم خدام، وزير الخارجية الذي فوجىء بالحرب على غرة وهو في الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك. ومع إغلاق المطارات السورية اضطر خدام للطيران إلى أنقرة، والسفر من هناك بالسيارة في رحلة إلى الوطن طويلة وشاقة. وكان من بين المقربين إلى الأسد الذين اطلعوا على السرّ رئيس مكتبه الصحفي، أسعد كامل الياس. فقد استدعي قبل ثلاثة أيام من الهجوم، وعلى طريقته التي لا تترك شاردة ولا واردة، أعطاه الأسد عدة نصوص ليكتب مسوداتها، ومنها أول خطاب موجه للأمة بعد بدء الحرب، ورسائل إلى الزعماء الأجانب، وما أشبه. وهي نصوص ظلت مغلقاً عليها بالقفل والمفتاح، فلم تخرج إلّا عند الحاجة إليها.

وقبل أسابيع قليلة من الحرب اكتشفت إسرائيل بالاستطلاع الجوي أن سوريا قد حصلت على قذائف أرض ـ جو من طراز سام ٦، وكان ذلك الاستطلاع بقيادة آفيم سيلع (الضابط الطيار الذي اكتسب فيما بعد شهرة في الغارة على المفاعل النووي العراقي، وصيتاً سيئاً في فضيحة الجاسوس بولارد

في الولايات المتحدة). ولاختبار هذه الدفاعات دخلت الطائرات الإسرائيلية المجال الجوي السوري عند الساحل في ١٣/أيلول /سبتمبر سنة ١٩٧٣، وعنـدما صعدت الطائرات السورية لمواجهتها أسقطت منها اثنتا عشرة طائرة «ميغ». ورغم هذه الخسائر الفادحة حرص الأسد على أن لا يردّ عليها كما توقع بعض الاسرائيليين بأنه سيفعل، ولم يكشف شبكة صواريخ سام الكثيفة التي لديه، بل «احتفظ ببـاروده جافاً»، ليوم الهجوم الكبير. ولقد بلغ من نجاح الخداع العربي أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية ذكرت في تقريرها المتأخر حتى ليلة ٥/٦ تشرين الأول/أكتوبر أنه «لا يبدو أن أياً من الطرفين ينوي البدء بالقتال، لأن المبادرة العسكرية من قبل مصر لا معنى لها، أما بالنسبة للرئيس السوري فإن المغامرة العسكرية معناها الانتحار»[٤].

ولعل أعظم نجاح حققه العرب هو حرمانهم لإسرائيل من توجيه الضربة الأولى. وفي الساعات الأولى من يوم ٦/تشرين الأول/أكتوبر أصبح واضحاً أن هناك هجوماً عربياً وشيكاً. فنصح رئيس أركان إسرائيل، ديفيد إلعازر بتوجيه ضربة وقائية ضد القواعد الجوية السورية، إلّا أن وزير الدفاع موشي دايان، وغولدا مائير نفسها، رفضا ذلك لأسباب سياسية. كانت إسرائيل قد بدأت بالهجوم في حرب سنة ١٩٦٧ ولكن بعد ثلاثة أسابيع حافلة قضتها في إقناع الرأي العام الدولي ولا سيما الأميركي، بأن إسرائيل هي «الضحيـة» لا المعتدي. ومن وجهة النظر الإسرائيلية أتت تلك الجهود في «فترة الانتظار» ثمارها بعد الحرب في كونها ساعدت إسرائيل على الاحتفاظ بالأراضي العربية التي احتلتها[٥]. أما في سنة ١٩٧٣، والعرب على الأبواب، فقد كان الأوان قد فات لتهيئة الرأي العام لتقبل ضربة أخرى تستعرض فيها إسرائيل عضلاتها. وهكذا رفض خيار الضربة الاستباقية، وكال العرب ضربتهم أولاً فسيطروا على الميدان مدة ثمان وأربعين ساعة تقريباً، وقد اعترف دايان فيما بعد: «لم نكن معتادين على حملة يمسك فيها العدو بزمام المبادرة»[٦].

ما الذي غيّر هذا الوضع إذن، وما الذي حدث لمجهود العرب الحربي؟ باختصار: لقد انهارت استراتيجية القتال على جبهتين. فلم تتقدم مصر من القناة كما توقع السوريون، بل قاتلت سوريا وحدها أسبوعاً طويلاً، ثم تغلبت إسرائيل على الجبهتين، واحدة بعد الأخرى.

إن قضية توقف مصر عن العمليات الحربية من ٧ إلى ١٤ تشرين الأول/أكتوبر كامنة في قلب الخلاف على حرب أكتوبر. فبعد عبور القناة، واقتحام خط بارليف وتدمير وحدات الدبابات المدافعة عنه، تمركزت القوة المصرية الضخمة بشكل ساكن، وظهرها إلى القناة، وعززت رؤوس جسورها المخصصة لخمس فرق حتى أصبحت رأسي جسر لجيشين، وراحت تدافع دفاعاً عن شريط صحراوي لا يزيد عمقه على عشرة كيلومترات.

وأرسل فريق أو اثنان من المغاوير إلى الأمام، ولكن لم تقم محاولة للإسراع بقوة ضاربة ضخمة إلى ممرات سيناء الحيوية المسيطرة على الطريق الوحيد بين الشرق والغرب في شبه الجزيرة. ففي السابع من تشرين الأول/أكتوبر بعد كسب «معركة العبور»، وفي الثامن منه بعد دحر هجوم إسرائيل المضاد، استقر الجيشان المصريان بلا حراك في مواقعهما الدفاعية. وهذه بالذات كانت هي اللحظة التي لا تقدر فيها إسرائيل ـ بسبب الضغط العنيف في الجولان ـ أن توفر أي كمية من الطائرات أو الدبابات لمنع مصر من إقامة خط جديد عند الممرات.

وشعر السوفيات، الذين قدموا الأسلحة للحملة، بالحيرة. وقال سفيرهم فلاديمير فينوغرادوف لمحمد حسنين هيكل الذي كان صديقاً مقرباً للسادات: «أنا لا أعرف لماذا لا تتقدم قواتكم. لماذا لم تعززوا مكاسبكم وتبدأوا الاندفاع إلى الممرات»؟. وأضاف السفير بأن الأمين العام ليونيد بريجنيف نفسه يتساءل بفراغ صبر: «ما حدود أهدافهم المحدودة؟» وكان هيكل واحداً من مصريين

كثيرين شعروا بأن هناك فرصة قد ضيعت: «أعتقد أنه لو تم الوصول إلى الممرات واحتلالها لتحررت سيناء بكاملها، مع النتائج السياسية الهائلة بلا حساب والتي كانت ستنجم عن مثل ذلك النصر»[٧].

غير أن المصريين لم تكن لديهم نية التحرك. فقد كان جميع رجالاتهم الكبار ضد التحرك. وكما أسلفنا: كان هدف السادات هو إحداث هزة تحرك عملية السلام الجامدة، وليس الشروع في عملية تحرير واسعة النطاق. ذلك أن النجاح الكامل للعبور قد أدهش المصريين أنفسهم، إلاّ أنه جعل وزير حربيتهم الحذر الفريق أحمد إسماعيل علي يمتنع عن أية عمليات إضافية قد تعرض الجيش المصري للدمار مرة أخرى في فيافي سيناء. وكان رئيس الأركان الشاذلي قد بعثر كل طاقاته وقدراته التخطيطية طيلة عامين في التخطيط لإيصال الجيش إلى ضفة القناة الشرقية، وليس أبعد. وقد قاوم بحماس عاطفي فكرة التقدم إلى ما بعد المدى الذي تغطيه صواريخ سام، وتعريض قواته لطيران إسرائيل المتفوق[٨].

ولكن المصريين كانوا قد قالوا للسوريين شيئاً آخر.

وفي دمشق ظل الأسد وكبار ضباطه ينتظرون من ساعة لساعة أن يتحرك المصريون، ووجدوا عدم تحركهم شيئاً غير مفهوم على الإطلاق. وكانت غريزتهم تتجه في بادئ الأمر إلى أن الجمود المصري لم يكشف النقاب عنه لاعتبار عسكري. وظلوا يتوقعون أن يأتي في البرقية التالية أو التي بعدها خبر هجوم مصري. وبما أن القيادة العسكرية العليا السورية كانت تحت ضغط وتوتر هائلين وقد وضعت قلبها وروحها في سير الحرب على جبهتها فلم يكن لديها كبير وقت للتفكير فيما كان يجري على جبهة سيناء. غير أن الحقيقة المفزعة بدأت تتكشف للسوريين تدريجياً على أية حال، وهي: أن مصر لن تتقدم، وأنهم يقاتلون وحدهم. وحتى ذلك الوقت لم يكن قد خطر لهم بعد أن يتشككوا في دوافع مصر، ولا في كون المصريين قد خانوهم، ولكن الذهول انقلب إلى

كرب مؤلم كئيب، ويتذكر الأسد أن تلك كانت «أسوأ خيبة أمل في الحرب»[٩].

وسرعان ما تنبهت إسرائيل إلى كون نوايا مصر متواضعة. . وأوضح لها استطلاعها الجوي أن القوات المصرية إنما بدأت تحفر وتستحكم، ولم تتحرك صواريخ سام المتنقلة إلى الأمام، وكان انتشار تلك القوات دفاعياً محضاً، واستطاع الأميركيون أن يؤكدوا لإسرائيل هذه الاستنتاجات ـ بأدلة من المصدر الأصلي، من مصر نفسها. ففي السابع من تشرين الأول/أكتوبر، وبعد أقل من ٢٤ ساعة على بدء الحرب أرسل السادات سراً وعن طريق «قناة خلفية» رسالة إلى كيسنجر يشرح فيها شروط السلام ويضيف: «إننا لا نريد أن نعمق الاشتباكات ولا أن نوسع المواجهة»، وعلى الفور اشترك كيسنجر مع سفير إسرائيل سيمحا دينتز في الحكم بأن السادات لن يوسع الحرب إلى ما وراء الأرض التي كسبها[١٠].

وفي وقت مبكر من صباح ذلك اليوم أمر دايان سلاحه الجوي بالبدء «بالعمل فوراً وباستمرار» ضد السوريين، لأنه رأى أن الطيران هو «القوة الوحيدة القادرة على إيقافهم»[١١]. ومع الجمود المصري، رأى دايان أنه لا حاجة لتوفير أي شيء لجبهة سيناء، ومع انهيار الدفاعات الإسرائيلية في الجولان الجنوبي، زجت القيادة الإسرائيلية العليا في تل أبيب بسلاحها الجوي كله ضد طلائع الدروع السورية المتقدمة وخطوط إمدادها. كان دايان يعلم بأن السوريين إذا وصلوا إلى منحدرات نهر الأردن فسيصبح من الصعب جداً إيقاف زحفهم. وكانت سوريا قد شخصت في الذهن الإسرائيلي كعدو مختلف عن مصر وعن الأردن، وهو اختلاف تلخصه كلمات لموشي دايان: «على الحدود مع الأردن لدينا مستوطنات مدنية ولكن ليس لدينا عدو. وعلى الحدود مع مصر لدينا عدو ولكن ليست لدينا مستوطنات أما على الحدود مع سوريا فلدينا الإثنان معاً، فإذا وصل السوريون إلى مستوطناتنا فستكون كارثة»[١٢].

وطوال ثلاثة أيام في ٧ و ٨ و ٩ تشرين الأول/أكتوبر واجهت القوات السورية على الجولان قوة نيران السلاح الجوي الإسرائيلي بكامله عندما راحت موجة إثر موجة من الطائرات تنقض لتضرب وتقصف وترش وتلقي بالنابالم تجمعات الدبابات، وصهاريج الوقود وسيارات الذخيرة والمؤن السورية، من أول ضوء النهار إلى هبوط الليل حتى أعادتها إلى «الخط الأرجواني». وتحولت الجبهة إلى جهنم، ولم تستطع القوة الجوية السورية أن تنافس الطيران الإسرائيلي الذي سيطر على سماء الجولان، ولكنه فقد كثيراً من طائراته بفعل النيران الأرضية. وحسب شهادة الأسد فإن غرفة العمليات كانت تصلها في تلك الأيام المبكرة تقارير تقول إن إسرائيل كانت ترسل ما معدله ألف طلعة جوية يومياً ضد الجولان وأقل من خمسين ضد المصريين في سيناء.

(وقد حسب الكولونيل دوبوي طلعات إسرائيل ضد سوريا بمعدل خمسمائة طلعة يومياً، ارتفعت إلى ستمائة في ٩/١٠/١٩٧٣، وقال إنه يعتقد بأن التقديرات الأعلى قد يكون سببها مشاهدة أكثر من مصدر وإرسال أكثر من تقرير عن الطائرات نفسها)[١٣].

وبينما كانت القوات السورية في جنوب ووسط الجولان تتلقى أقسى الضربات، كانت الفرقة السابعة في الشمال، والتي أنهكتها معارك اليومين الأولين تعيد تجمعها في ٨/١٠ وتستعد لتقدم ليلي يحميها من الهجوم الجوي وتستفيد خلاله من أجهزة سورية متفوقة في قدرتها على الرؤية في الظلام، لأن اختراقاً سورياً حاسماً للخطوط الإسرائيلية المنهكة كان يمكن أن يرجح كفة سوريا في المعركة. ولكن القائد القدير، العميد الركن عمر الأبرش (خريج كلية الأركان الأميركية من فورت لافنوورث) استشهد عندما أصيبت دبابته القيادية، ونتيجة لذلك تأجل الهجوم السوري إلى صباح ٩/١٠، ورغم أنه أحرز تقدماً عندئذ فإنه توقف نتيجة تدخل الطيران الإسرائيلي بكثافة، وهكذا تجنبت إسرائيل كارثة أخرى.

تجادل المؤرخون العسكريون طويلاً في أسباب إيقاف السوريين، ومن بين الأسباب التي طرحت: براعة أطقم الدبابات الإسرائيلية وضعف التنسيق في المعركة لدى الدروع السورية. . إضافة إلى أن السوريين لم يرغبوا في التراجع شبراً عن أرض كسبوها بمشقة، حتى ولو لأغراض المناورة. وبذلك أثبتوا أنهم شجعان ولكن متهورون وغير متعقلين. ولكن لا شك في أن تفوق إسرائيل الجوي وكونه قد استطاع أن يركز كل قوته (دون أن يقسمها بين جبهتين) على الجبهة السورية كانا من العوامل الحاسمة. فقوافل التموين والتعزيزات السورية قد عرقلت وكثيراً ما دمّرت بفعل القصف الجوي، بينما ظلت خطوط المواصلات الإسرائيلية التي تتعرج باتجاه الجولان سالكة غير معطلة نظراً لعجز القوة الجوية السورية عن الوصول إليها. وزعم قائد السلاح الجوي الإسرائيلي، اللواء بنيامين بيليد، فيما بعد أنه عندما كان السوريون على مشارف بحيرة طبريا من الخامسة والنصف صباحاً إلى العاشرة والنصف مساء يوم ٧/تشرين الأول/أكتوبر لم تكن هناك أية قوات برية إسرائيلية لاعتراضهم، ولم يوقفهم سوى السلاح الجوي الإسرائيلي(١٤).

وهكذا انثلمت حدة التقدم السوري، ثم أوقف، ثم أعيد القهقرى. وعند مساء التاسع من تشرين، ورغم تكرار الهجمات السورية المضادة والعنيفة، كانت هناك وحدات إسرائيلية قد عادت إلى عدة نقاط على «الخط الأرجواني». وفي ذلك اليوم نفسه وسعت إسرائيل هجماتها الجوية لتشمل أهدافاً اقتصادية في عمق سوريا، كمصفاة النفط في حمص والموانىء على ساحل الأبيض المتوسط، ومعامل توليد الطاقة، والمستودعات، بحجة الرد على انطلاق قذائف أرض ـ أرض سورية على قواعد جوية إسرائيلية في الجليل. وفي ١٠/تشرين الأول/أكتوبر تعرضت آمرية القوة الجوية بدمشق وعدة بنايات مدنية لنيران الصواريخ. وفي هذه المرحلة كانت الروح المعنوية عالية عند المدنيين، وبقي انفعالهم الحماسي من الأيام القلائل الأولى متماسكاً ومستمراً رغم سقوط الضحايا من بينهم، وكان سكان المدينة بدلاً من النزول إلى الملاجىء

والسراديب يصعدون إلى أسطح منازلهم ليتفرجوا على المعارك الجوية. وفي ١٠/١١ قامت وحدات إسرائيلية معززة بدعم جوي قوي باختراق الخط الأرجواني متقدمة إلى داخل سوريا عبر شبكة من مصائد الدبابات وحقول الألغام والمعاقل الاسمنتية التي كانت تشكل خطوط الدفاع المتقدمة عن دمشق. وكان السلاح الجوي الإسرائيلي قد أحدث أضراراً كبيرة بشبكة صواريخ سام السورية، غير أن السلاح الجوي السوري كان لا يزال فعالاً، وبرغم نقص الدبابات لدى السوريين، فإن مشاتهم قد استخدموا عند تراجعهم القذائف المضادة للدبابات استخداماً قاتلاً بشكل جيد.

وعندما بدأت الكفة تنقلب لغير صالح الأسد ظل طبعه هادئاً، مما أكسبه سمعة في قوة الأعصاب، غير أن نفاذ صبره تجاه المصريين راح يتزايد. وفقدت الاتصالات بين القيادات العليا في البلدين دفء الروح الأخوية الذي كان يسودها في فترة ما قبل الحرب، وأصبح الحثّ السوري أشد حدّة عند تذكير مصر بالتزام الجانبين بخطة متناسقة. وبعد غارات إسرائيل في العمق دعا الأسد السادات إلى إرسال قاذفاته ضد المدن الإسرائيلية، ولكن السادات اعترض على ذلك لأنه كان يحجم عن تصعيد النزاع، ولم تتحسن العلاقات بين الحليفين. ولتخفيف الضغط على سوريا التي كانت مستمرة في تحمل العبء وحدها، أرسلت القيادة العليا، أحد كبار الضباط إلى القاهرة كي يناشد المصريين أن يشنوا هجوماً على الفور، وقد أحرج هذا الطلب المصريين وفتح سلسلة مناقشات بين ضباط أركانهم حول عملية تقدم إلى الأمام. ومع ذلك ظلت مصر بلا حراك. وفي الثالث عشر من تشرين، عندما أوقفت إسرائيل على أبواب قرية سعسع في الطريق إلى دمشق، كانت الاتصالات بين سوريا ومصر لا تكاد تكون مهذبة.

وفي تلك الأيام القليلة، من الثامن إلى الثالث عشر من تشرين الأول، تبخرت أحلام الأسد في تحرير الجولان وقلب ميزان القوى في المنطقة بالقوة.

فكانت الضربة مريرة، إذ فقد ثمانمائة دبابة ومئات من السيارات المصفحة، وستة آلاف رجل، وأشياء كثيرة أخرى. . وقدرت أضرار الحرب بثلاثة مليارات ونصف مليار دولار[١٥]. ولم يستطع أن يمنع شعوراً بالأسى على ما كان يمكن تحقيقه، وقال فيما بعد: «لو كنت أعلم أن الجيش المصري سيقنع ببضعة كيلومترات وراء القناة لوضعت لجيشي أهدافاً أقل طموحاً»[١٦].

على أن الجيش السوري لم ينكسر ولم يندحر، فلقد قاتل في هجومه المندفع، وكان يقاتل بعناد أثناء تراجعه، ولكن بدلاً من أن تكون سوريا قادرة على تهديد إسرائيل، فقد وجدت عاصمتها تقع في مدى مرمى المدفعية الإسرائيلية. غير أن الوضع لم يكن كعام ١٩٦٧، فلم يكن هناك عار فيما قد حدث، ولم يكن هناك شيء قد أخفي عن الناس أو كذب عليهم بشأنه. ولم تستطع إسرائيل أن تدمر الجيش السوري كقوة مقاتلة. وبناء على أوامر الأسد قدمت الإذاعة والتلفزيون السوريان تغطية حقيقية واقعية عن الحرب، وبينت النكسات تماماً كما أظهرت النجاحات، وقد كان السوريون نداً للإسرائيليين، الذين كانت خسائرهم هائلة أيضاً. وكان من دواعي ارتياح الأسد اعتقاده بأن زهرة الطيارين الإسرائيليين قد أسقطتهم دفاعات سوريا الجوية. وقد أبلت قواته بلاءً حسناً، كما أن العدو، بفتحه ممراً ناتئاً إلى داخل سوريا قد عرّض نفسه لهجوم معاكس، وكان الأسد يشك في أن الإسرائيليين على جبهته قد تلقوا ما فيه الكفاية فلم يكونوا ميالين إلى الاشتباك مع خطه الدفاعي الثاني القوي، بل كانوا أقل من ذلك ميلاً لدخول دمشق. صحيح أن المحصلة لم تكن كما كان يأمل، ولكنه تلقى النكسات برباطة جأش وصمد أمام الغزو الإسرائيلي وواجهه بالتحدي.

وبعد أيام وليال في غرفة العمليات صعد إلى السطح وقام بزيارة لصهره محمد مخلوف. كانا قد أرسلا زوجتيهما وأطفالهما إلى جبال اللاذقية أثناء تعرض دمشق للقصف، فوجد صهره في البيت وحده، كان مزاج المدينة قد تغير

مع مد الحرب وجزرها، فبعد الحماس المثير للانتصارات المبكرة أصيب الناس بالكآبة والعصبية، ومخلوف أدهشه أن يرى الأسد يتمتع بروح طيبة، متفائلاً بالمستقبل. وكان جائعاً جداً لأنه لم يأكل جيداً أياماً طويلة، ففتح الثلاجة وتناول منها قطعة جبن.

الهجـوم المصـــري

في يوم الأحد، ١٤/١٠ قام السادات أخيراً بالهجوم في سيناء! لقد قاوم فكرة التحرك من رؤوس الجسور على القناة طيلة أسبوع كامل. ولكنه الآن غير رأيه فجأة.. فما السبب؟ لا شك في أن إنجازات الأسبوع السابق قد أعطته نوعاً من الثقة، وربما شعوراً بالمناعة. فإن عبور القناة العظيم في السادس من تشرين/أكتوبر، ودحر الهجوم الإسرائيلي المضاد في الثامن منه، وتعزيز الدفاعات المصرية على الضفة الشرقية حتى بدت مستعصية على الخرق ـ قد خلقت كلها في ذهنه منطلقاً نفسياً لمزيد من العمل والتحرك. ولكن الأسد كان بلا شك هو السبب الرئيسي، فلم يعد ممكناً تجاهل الضغط الذي كان يمارسه بدون تعريض العلاقة المصرية ـ السورية كلها للخطر. لم يكن السادات يحب الأسد أو السوريين، ولم يكن يريد أن يسمح لحماس الأسد لتحرير الأرض بأن يخرب جهوده الدبلوماسية (وهذا ما كشفته عملية الخداع التي مارسها السادات فيما يتعلق بالخطط الحربية). ومع ذلك لم يكن باستطاعة السادات في تلك المرحلة أن يفتح جرحاً أو صدعاً يكشف خداعه للرأي العام علانية، بما قد يتبع ذلك حتماً من اتهامات بالخيانة. كان بحاجة إلى الإبقاء على تحالفه مع سوريا، كي يعطي قوة لدبلوماسيته للسلام، وعلى المدى القصير كي يوزع القوة الإسرائيلية. ففي ١٣/أكتوبر/ تشرين الأول كانت القوات الإسرائيلية في منتصف الطريق إلى دمشق. وكان الوضع على الجبهة السورية ـ من وجهة نظر السادات ـ خطيراً. فإن أي انهيار على الجبهة السورية كان سيسمح لإسرائيل بالاستدارة إلى جبهته، مما يعرض مكاسبه الثمينة للخطر. كانت رؤوس الجسور

على القناة ذات أهمية قصوى للسادات. كان ذهنه يرى فيها عكازه في عملية السلام، وحقه في المطالبة باهتمام رجال السياسة العتاة اللامبالين الذين أهملوا نداءاته من أجل السلام في سنوات ما قبل الحرب، والذين لن يعود بوسعهم تجاهله.

ومهما يكن من أمر ميزان الدوافع عند السادات، فإن هجومه في عمق سيناء في ١٤/تشرين/ أكتوبر، شأنه شأن قرار الحرب نفسها عنده، قد أملته اعتبارات سياسية، لا عسكرية. وقد كان كبار قادة جيشه جميعاً ضده. فرئيس أركانه الشاذلي توسل إليه أن يتخلى عن هذه الحماقة ـ كما سمّاها ـ وتحدث قائد الجيش الثالث اللواء واصل، عن الاستقالة. بينما هدد اللواء مأمون، قائد الجيش الثاني، بالتمرد على الأوامر في بادىء الأمر، ثم أصيب بانهيار عصبي، ولكن وزير الحربية، أحمد إسماعيل، لم يأخذ باعتراضاتهم، واعترف بأن العملية إنما هي قرار سياسي.

ومن الناحية العسكرية، كان الهجوم المصري سيء التصور جداً فهو من جهة كان متأخراً عن موعده المناسب أسبوعاً كاملاً، بينما كانت إسرائيل قد أكملت تعبئتها وقاتلت ضد سوريا وحدها حتى أوقفت تقدمها، فأصبحت بذلك مستعدة لمواجهة ذلك الهجوم. وفي الذهن الإسرائيلي كان مركز الثقل في الصراع قد تحول من الجولان إلى سيناء[١٧]. كما أن الهجوم المصري نفسه كان ناقص العزيمة والحماس، وبدلاً من توجيه ضربة قوية مركزة باتجاه الممرات، وهي ضربة كان من المحتمل أن تصيب حظاً من النجاح حتى في هذه المرحلة المتأخرة، تم التقدم على أربعة محاور مبعثرة على جبهة عرضها مائة وخمسون كيلومتراً[١٨]. وبحشد ٤٠٠ دبابة فقط ضد دبابات إسرائيل التسعمائة[١٩]. وبما أن التحرك كان في أرض مكشوفة، وبدون غطاء مناسب من صواريخ سام أو دعم من المشاة الحاملين لمثل تلك القذائف المضادة للطيران، فقد وقعت تلك الطوابير المدرعة فريسة سهلة للنيران الإسرائيلية

المضادة للدبابات ولسلاح الجو الإسرائيلي، وعند منتصف النهار كان الهجوم قد انتهى، وزحفت بقاياه الممزقة المرضوضة إلى رؤوس جسورها. وخسرت مصر مائتين وخمسين دبابة أو أكثر كانت في طريق عودتها.

وأعطت أخبار هذا الهجوم المصري المتأخر الأسد والقيادة السورية العليا لحظة قصيرة من الأمل بأن من الممكن أن تنقلب دفة الحرب مرة أخرى لصالح العرب، وأن مصر قد تفي بتعهداتها بعد كل ذلك العناء. ولكن اندحاره السريع أعاد اكفهرار الجو بشكل أكثف من ذي قبل. كان الأسد متأكداً من أن سوريا ومصر ستستمران في القتال ولكن خيارهما الوحيد الآن أصبح نوعاً من الحرب الدفاعية العنيدة وليس الحملة الرائعة الكاسحة السريعة التي كان قد حلم بها. ولم تفعل حركة السادات الفارغة ـ فادحة الثمن ـ شيئاً للسوريين. بل أدت إلى ما هو أسوأ، فقد عرّضت مصر لعملية كانت إسرائيل قد خططت لها، وكانت هيئة الأركان المصرية قد توقعتها بالفعل منذ البداية، وهي عبور القوات الإسرائيلية المعاكس لقناة السويس لتطويق رؤوس الجسور المصرية من الخلف. ففي ليلة ١٦/١٥ تشرين الأول/أكتوبر تسللت دروع إسرائيلية عبر فجوة بين الجيشين الثاني والثالث فعبرت الممر المائي عند الدفرسوار على الطرف الشمالي للبحيرات المرة. وتحركت بسرعة وتلقت تعزيزات قوية خلال الأيام القليلة التالية فدمرت بطاريات سام ونصبت كمائن للقوافل العسكرية وهاجمت مقرات القيادة بالمؤخرة فخلقت حالة من الفوضى والارتباك العام.

وكان المصريون بطيئين في الرد على هذا التهديد المميت لمجهودهم الحربي كله. فكان هناك تردد وإحجام هائل عن الاعتراف بوقوع نكسة. وطوال أيام عديدة هامة ظل الإعلام المصري يقلل من شأن ذلك الغزو الإسرائيلي بوصفه لا يزيد على حفنة من دبابات العدو مختبئة في أشجار الأجمة بالدفرسوار. ولم يصدر نفير أو تحذير عام خوفاً من إحداث فزع مروع، رغم أن القيادة العليا كانت تعلم بأن الاحتياطي الاستراتيجي القليل غرب القنال لم

يستطع إيقاف المغيرين نظراً لوجود الجزء الأعظم من الدروع المصرية في سيناء. وكانت الخطيئة القاتلة في هذه اللحظة الحرجة هي رفض السادات المتصلب أن يعيد بعض قواته ودباباته إلى الداخل من جبهة القناة. وعندما طلب الشاذلي ذلك في السادس عشر من تشرين الأول هدده السادات بإحالته إلى محاكمة عسكرية، وعندما زاد الوضع سوءاً في التاسع عشر منه عاد الشاذلي إلى الإلحاح من جديد من أجل انسحاب جزئي، غير أن السادات أصدر قراره: «لن نسحب جندياً واحداً من الشرق إلى الغرب»[٢٠]. ولقد كان واضحاً أن تفكيره قد سيطرت عليه فكرة الحفاظ على ورقته السياسية الرابحة في شرق القناة بحيث أعمت عينيه عن حقيقة وضعه العسكري الكالح المروع في الداخل. وبعد ثلاثة أيام، ظل خمسة وأربعون ألف رجل من الجيش الثالث بلا عون على الضفة الشرقية يتناقص الطعام والماء والذخيرة لديهم وهم مطوقون بالقوات الإسرائيلية وفريسة مكشوفة للطيران الإسرائيلي.

الدفاع عن دمشق

كان خداع السادات للأسد يتجاوز تخريب خطة القتال على جبهتين، وهي الخطة التي لم يستطع أن ينقذها هجومه الفاشل الذي جاء بعد فوات الأوان، بل لقد امتد ذلك الخداع ليشمل دبلوماسية السلام التي كان ينتهجها طوال فترة النزاع. كان الأسد قد فهم أن أساس التحالف السوري ـ المصري هو أن البلدين سيكونان كبلد واحد في الحرب كما في السلام، بحيث يبقى كل منهما الآخر مطلعاً اطلاعاً كاملاً على الأوضاع. وبحيث ينسقان تحركاتهما لتبقى خطواتهما متواكبة، ويمنعان عدوهما المشترك من استغلال أية ثغرات بينهما. فخوض الحرب كان قراراً مشتركاً، ولذا يتعين أن تكون إقامة السلام قراراً مشتركاً كذلك. ولم يكتشف الأسد أنه كان مخدوعاً إلّا بعد انتهاء الحرب، فكان ذلك مدعاة لألم ممضّ «لقد اكتشفت أن السادات كانت لديه خلال الحرب نشاطات واتصالات سياسية لم يعلمني بها»[٢١]. ولعل ذلك يعطي

صورة واضحة عن ثقة الأسد الزائدة في ذلك الوقت إذ لم يكن قد اكتشف بعد مكر السادات وخبثه. كان الزعيم المصري ـ المعتاد على الاستغراق في نوع من أحلام اليقظة ـ يعتقد بأنه شخصياً يهندس اختراقاً دراماتيكياً مفاجئاً للحواجز من أجل تحريك عملية السلام نيابةً عن العرب جميعاً. ولم يكن ينوي السماح لشريكه الأصغر أن يقف حجر عثرة في الطريق، ولم يشعر بأنه ملزم بإشراكه معه في خطته الكبرى هذه.

ولم يعلم الأسد إلا فيما بعد أن السادات كان على اتصال سري بكيسنجر في كل يوم من أيام الحرب تقريباً، وأنه حتى في ١٥/١٠، غداة هجومه سيء الطالع في عمق سيناء، قد اتخذ مبادرة مذهلة بدعوته إلى القاهرة. وكانت هناك حالات ومفاتحات أخرى كثيرة من هذا القبيل. فقبل الحرب ومن عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٧٣ كان الاتجاه الأساسي لدبلوماسية السادات كما رأينا، هو التعبير عن استعداده للسلام إذا انسحبت إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧، وعندما لم يتلق أية استجابة ذهب إلى الحرب ليكسر مأزق الجمود ثم ليبدأ على الفور بربط وقف إطلاق النار بانسحاب إسرائيلي وكانت هذه هي فحوى ونغمة كل إشاراته السرية إلى واشنطن خلال الحرب ولم يطلع الأسد على شيء منها قط. والحق أن الأسد لم يكن يدري بالمناورات التي كان تجري على قدم وساق في عواصم العالم وفي مجلس الأمن. وعندما طرح السوفيات موضوع وقف إطلاق النار، شعر الأسد بأنه سيكون لديه الوقت الكافي للتفكير في ذلك عندما يقدَّم به مشروع قرار[٢٢]. كما أن الأسد لم يكن لديه أي اتصال من أي نوع بالولايات المتحدة خلال الحرب. كان منهمكاً في القتال وأهمل الدبلوماسية.

ومنذ التاسع من تشرين الأول/أكتوبر، وبمجرد أن أعادت إسرائيل سوريا إلى الخط الأرجواني انشغل الأسد تماماً بالدفاع عن دمشق وبالتفكير والأمل المتفتح باستعادة زمام المبادرة. وبفضل جسر جوي سوفياتي تمكن من إعادة تجهيز قواته المنهكة، وحرك فرقة جديدة، هي الفرقة المدرعة الثالثة، لملء خط

الدفاع الثاني عند سعسع، وضغط على حلفائه العرب للاشتراك في المعمعة. كان العراق أول بلد عربي أخبره الأسد عن عزمه على خوض الحرب. وقبيل ساعة الصفر طلب من السفير العراقي أن ينقل بطائرة خاصة طلبه للمساعدة من الرئيس أحمد حسن البكر، وبعد يومين طار إلى بغداد محمد حيدر، عضو القيادة القطرية للحزب، بطلب أكثر استعجالاً وإلحاحاً. ودخل العراق الحرب في ١٠/١٠ فأرسل إلى المعركة ١٠٠ طائرة، وأكثر من ثلاثمائة دبابة، وحوالي ثمانية عشر ألف مقاتل. (وقبل إرسال القوات لمساعدة سوريا شعر العراق بأنه مضطر إلى أن يطلب من موسكو أن تطلب من إيران، حليفة إسرائيل، أن تخفف ضغطها على حدوده الشرقية[٢٣]. وهذا ضوء جانبي هام يوضح مدى تشابك وترابط العلاقات في الشرق الأوسط). ورغم تكبد العراقيين خسائر فادحة في أول اشتباك لهم مع الإسرائيليين في الثالث عشر من أكتوبر/تشرين الأول، فإنهم (بالاشتراك مع لواء أردني دخل على الخط في الرابع عشر منه) قد لعبوا دوراً في تقوية الطوق السوري حول الممر الناتىء المستطيل الذي احتلته إسرائيل عبر الخط الأرجواني في الطريق إلى دمشق. ومن السعودية أرسل الملك فيصل ألفي جندي كرمز للتضامن. وكان لواء مغربي قد اشترك في الحرب اشتراكاً رمزياً على سفوح جبل الشيخ، (رغم أن سرباً من طائرات ف ـ ٥ كان الحسن الثاني قد وعد بتقديمه للمجهود الحربي العربي لم يصل لأن طياريه كانوا في السجون لمحاولة انقلاب ضد عاهلهم).

وبحلول يوم العشرين من تشرين الأول/أكتوبر، ورغم استمرار القصف الاستراتيجي الإسرائيلي وضرب مطار المزة العسكري بالمدافع، شعر الأسد بأن لديه من القوة ما يكفي لشن هجوم معاكس يطوي فيه التقدم الإسرائيلي على طول الممر المستطيل الناتىء الذي كان يهدد عاصمته، ولكنه في ذلك الوقت أدرك أنه كان يواجه تهديداً أخطر من ذلك، من دبلوماسية حليفه.

العوامل الأميركية والسوفياتية

كان السادات في سعيه للحصول على تأييد أميركي لصالح انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة متأخراً عن الأحداث عدة أعوام. فلم تكن لديه وسيلة تجعله يعرف أن هنري كيسنجر قد جرف الولايات المتحدة بشكل حاسم للوقوف خلف إسرائيل حتى أصبحت التسوية الشاملة التي كانت مصر وسوريا تنشدانها حلماً سرابياً كأنه فطيرة في السماء. فلقد كانت الحرب كلها قائمة على وهم. لقد خدع السادات الأسد، ولكنه بدوره قد خُدِع.

فمنذ شهر آب/أغسطس ١٩٦٧، أي بعد شهرين فقط من حرب الأيام الستة قرر مجلس وزراء إسرائيل سراً أنه لن يكون هناك انسحاب كامل من سيناء ولا من الجولان، وأن إسرائيل تصرّ بدلاً من ذلك على تغييرات في الحدود يتم تقريرها في مفاوضات مباشرة مع مصر وسوريا(٢٤). أما بالنسبة للضفة الغربية التي كان احتلالها من أول أهداف الحرب فقد كانت مطامع إسرائيل أعظم من ذلك، تتراوح بين ضمها كلياً وضمها جزئياً. ومثل هذا المخطط كان بحاجة إلى دعم أميركي سواء بالأسلحة المتقدمة أو بالقروض المالية لدفع ثمنها أو بالدعم السياسي لأن الضم على نطاق واسع كالذي كانت تفكر فيه إسرائيل شيء تستنكره الأسرة الدولية. وكانت عملية كسب الولايات المتحدة الأميركية هي مهمة إسحق رابين التي كلف بها خصيصاً خلال فترة عمله كسفير في واشنطن طيلة خمسة أعوام، من شباط/فبراير سنة ١٩٦٨ إلى أذار/مارس سنة ١٩٧٣، وقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً، كان رابين، الواضح الرؤ ية الذي لا لون له هو المهندس الإسرائيلي الذي بنى التحالف مع الولايات المتحدة. وهو التحالف الذي أضافت غولدا مائير جرعة من الحماس العاطفي القوي لدعمه منذ أن أصبحت رئيسة للوزراء في أذار/مارس سنة ١٩٦٩. وكان لدى رابين وغولدا مائير الشيء الكثير ليبنيا فوقه، منذ أن اختارت إسرائيل عن وعي متعمد (وبعد مغازلة قصيرة مع فكرة الحياد) أن تنحاز إلى الغرب منذ اندلاع الحرب الكورية

عام ١٩٥٠. ووصل اتجاهها للبحث عن الأمن مع الغرب إلى ذروته نوعاً ما في تواطئها مع بريطانيا وفرنسا في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، ثم تأكدت براعاتها العسكرية بشكل مثير عام ١٩٦٧ فكان من المحتم أن تلفت انتباه أميركا. ولكن في مطلع السبعينات تمت صياغة علاقة إسرائيلية ـ أميركية رسمية أكثر نتيجة لجهود الدكتور هنري كيسنجر بدرجة كبيرة.

ولقد ظل كيسنجر واعياً دائماً لجذوره كلاجىء يهودي من ألمانيا النازية التي مات بعض أفراد عائلة في معسكرات اعتقالها، ولذلك فإنه لم يحاول قط أن يخفي أو يغلف ارتباطه العاطفي العميق بإسرائيل، ولا صداقته ومحبته لزعمائها[٢٥]. ولكن، لكي يكسب الدعم من الرئيس نيكسون وأعضاء إدارته البارزين الذين لم يكن التزامهم بإسرائيل محموم الحماس كالتزامه، فقد صوّر لهم إسرائيل على أنها رصيد استراتيجي حيوي للولايات المتحدة في تنافسها مع الاتحاد السوفياتي على الصعيد العالمي. أما مصلحة إسرائيل في الاحتفاظ بالأراضي العربية والمحافظة على تفوق على العرب، فقد قدمها كيسنجر على أنها مصلحة أميركية لإخراج النفوذ السوفياتي من الشرق الأوسط. وهكذا تم حسب المذهب الكيسنجري تزاوجٌ غير قابل للانفصام بين أطماع إسرائيل المحلية واهتمامات اميركا العالمية. وكان هذا التزاوج هو الأساس لتفكيره في الشرق الأوسط عندما سيطر على إدارة الشؤون الخارجية أولاً بصفته مستشاراً للأمن القومي ثم وزيراً للخارجية، وعندما راح نيكسون يغوص في أوحال فضيحة ووترغيت صعد كيسنجر ليصبح قيصر الدبلوماسية في واشنطن وليمارس سلطات تكاد تكون رئاسية.

وانعكست تلك العلاقة الحميمة المتنامية في شحنات أسلحة أكبر فأكبر وقروض عسكرية متزايدة. ففي عام ١٩٧٠ تلقت إسرائيل ثلاثين مليون دولار، أما في العام التالي (١٩٧١) بعد أزمة الأردن، فقد تلقت خمسمائة وخمسة وأربعين مليوناً. وخلال حرب تشرين طالب كيسنجر بقائمة معونات تصل إلى

ثلاثة مليارات (تم تخفيضها فيما بعد إلى ٢,٢ مليار) لدفع ثمن طوفان الأسلحة التي شحنت جواً إلى إسرائيل والتي وصلت إلى ثلاثة وثلاثين ألف طن من السلاح والمعدات العسكرية من منتصف تشرين الأول/أكتوبر إلى منتصف تشرين الثاني/نوفمبر، بالإضافة إلى شحنات بحرية بعد ذلك تزيد بكثير جداً على شحنات الأسلحة السوفياتية لمصر وسوريا. وفي سنة ١٩٧٢ موّلت الولايات المتحدة ٢٨٪ من ميزانية الدفاع الإسرائيلية، أما في سنة ١٩٧٣ فقد ارتفعت هذه النسبة لتصل إلى ٤٢٪[٢٦]. ثم زادت على ذلك بكثير فيما بعد.

وكان من بين المعالم غير المعلنة للانحياز الأميركي للمواقف الإسرائيلية رسالة من نيكسون إلى غولدا مائير بتاريخ ٢٣/تموز/ يوليو سنة ١٩٧٠ (تتعهد فيها أميركا من بين أشياء أخرى أن لا تصرّ أميركا على قبول إسرائيل بالتفسير العربي المحدد للقرار ٢٤٢)؛ ومذكرة تفاهم مؤرخة في ١/تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٧١ (وافقت فيها الولايات المتحدة على تزويد طائرة كفير الإسرائيلية بالمحرك المصنوع حسب مواصفات المخططات الفرنسية للميراج والتي تم تهريبها لإسرائيل عن طريق سويسرا)، ومذكرة تفاهم أخرى في ٢/شباط/ فبراير سنة ١٩٧٢ (وفيها توافق أميركا ـ بالإضافة إلى تعهدها بالاستمرار في بيع الطائرات لإسرائيل على المدى الطويل ـ على أنه لا حاجة بأن تلتزم إسرائيل بالانسحاب الكامل في أية تسوية موقتة، والأهم من ذلك كله، أن الولايات المتحدة لن تقوم بأية مبادرة ما لم تتم مناقشتها سلفاً مع الإسرائيليين[٢٧]. ولقد أصبحت هذه التعهدات السرية من أبرز ملامح العلاقة الإسرائيلية ـ الأميركية.

أما المواضيع والمقولات الأساسية في السياسة الإسرائيلية فقد تبناها كيسنجر واعتبرها جزءاً من سياسته هو، ومنها: أن إسرائيل يجب أن تكون أقوى من أي تجمع للدول العربية، فبذلك فقط يمكنها أن تفكر في تقديم تنازلات ـ هكذا زعم كيسنجر، وهو زعم مليء بالمفارقات. أما تطلع العرب عموماً

لاسترجاع أراضيهم التي فقدوها في عام ١٩٦٧ فقد صرف عنه النظر ببساطة تامة واعتبره هدفاً «غير واقعي» و «غير ممكن التحقيق» بل وحتى هدفاً خطيراً من أهداف «المتطرفين المتشددين الموالين للسوفيات». كما اعتبر البحث عن «تسوية شاملة» أمراً غير وارد وطرح بدلاً من ذلك اتفاقيات محدودة يتم التوصل إليها بمفاوضات ثنائية بين إسرائيل وكل دولة عربية على حدة (حيث تتاح لإسرائيل فرصة أفضل للاحتفاظ بالأراضي) وفوق كل شيء تبنى كيسنجر الرأي الإسرائيلي بأن منظمة التحرير الفلسطينية لا يمكن أن تكون، بل ويجب عدم اعتبارها، طرفاً في أي حوار أو مفاوضة، وحسب كلماته المتعجرفة فإن «فكرة قيام دولة فلسطينية تديرها منظمة التحرير ليست موضوعاً يصلح لنقاش جدّي»[٢٨]. ولم يكن ذلك هو نهاية كل شيء، بل إن كيسنجر قد احتج بأن جعل العرب ينتظرون، وتخيب آمالهم عن طريق إطالة حالة الجمود، كان هدفاً مرغوباً فيه للسياسة الأميركية، وقد يعلِّم العرب أن يعتدلوا في مطالبهم «المستحيلة» ويُوضح لهم أن اعتمادهم على السوفيات يضر بقضيتهم بدلاً من أن يفيدها، أو يدفعها للتقدم[٢٩]. وراح يبذل جهده لجعل الولايات المتحدة وحدها المتحكمة بعملية السلام، وذلك بأن أبعد عنها ليس فقط الاتحاد السوفياتي بل أيضاً اوروبا الغربية التي كان يراها صديقة للعرب أكثر من اللازم.

ومع ذلك شجع كيسنجر في الوقت نفسه العرب على التطلع لأميركا للوصول إلى تسوية وإليه شخصياً على أساس أنه هو الذي سيجلبها لهم. ولكن الزعماء العرب الذين اعتمدوا عليه، بما فيهم الأسد إلى حد ما، لم يدركوا أول الأمر أنه خصم خطر. فلم يكونوا جاهلين مدى التنسيق الواسع والسري للسياسات والاستراتيجيات بين أميركا وإسرائيل فحسب، ولكنهم كانوا بطيئين في إدراك كون كيسنجر مصمماً على إحباط تطلعاتهم. ولم يكونوا يعرفون أنه يعارض التفسير المقبول عموماً للقرار رقم ٢٤٢، وهو التفسير الذي تأخذ به وزارة الخارجية الأميركية نفسها ـ وهو أن تستبدل إسرائيل «السلام» «بالأرض» وتتراجع مع تعديلات طفيفة فقط إلى خطوط عام ١٩٦٧ ـ ولم يدركوا إلا في

وقت متأخر جداً بأن أهدافهم المركزية ـ وهي استعادة أرضهم وتقديم صفقة عادلة للفلسطينيين ـ كانت قد شُطبت تماماً من جدول أعمال كيسنجر حتى قبل أن يبدأ رحلاته المكوكية الشهيرة في الشرق الأوسط. فقد أعطاهم كيسنجر تلميحات، كالعبارة التي غالباً ما كان يستعملها في حديثه مع المبعوثين العرب، وهي قوله: إنه لن يعدهم بما لا يستطيع تقديمه، ولكنه سيقدم كل شيء يعدهم به. غير أنه في آخر الأمر قد خدعهم. وقد رأى المطلعون على بواطن الأمور في واشنطن ما كان يجري منذ وقت مبكر نسبياً. أما تنوير أذهان الآخرين ـ ولا سيما العرب، الذين كانوا ضحايا دبلوماسيته قبل كل شيء ـ فكان عليه أن ينتظر اكتمال بناء المخطط الأميركي للشرق الأوسط في أواخر السبعينات. فلم يعرفوا القصة الكاملة إلا بعد أن نشر كيسنجر مذكراته في مجلدين في عام ١٩٧٩ و١٩٨٢.

ومع هذه الخلفية فإن دبلوماسية السادات قبل الحرب وأثناءها كان محكوماً عليها دائماً بالفشل المحتوم. وبمفاتحاته السرية مع هنري كيسنجر، وطرده للخبراء الروس إرضاءً له، وتعامله المخادع مع الأسد لم يفعل السادات سوى أنه أضعف موقف العرب الذي كان ضعيفاً من قبل.

إن التحالف الأميركي ـ الإسرائيلي لم يُواجه بأي شيء يشبهه أو يمكن أن يقارن به على الجانب الآخر. فالعلاقات المصرية ـ السوفياتية كانت مضطربة ومهتزة بوضوح ويكتنفها شك متبادل، بينما كانت معاملات الأسد مع موسكو متعلقة بالتسلح والأسلحة إلى حد كبير وليس فيها سوى القليل جداً من السياسة. كان الاتحاد السوفياتي يؤيد الموقف العربي المطالب بالانسحاب الإسرائيلي الكامل وبحق تقرير المصير للفلسطينيين ولكن لم يكن هناك تنسيق في الاستراتيجية كما اتضح من الاضطراب والاختلاط السياسيين في أوائل فترة الحرب. ففي مساء السادس من تشرين الأول/أكتوبر، وبينما الجيوش المصرية والسورية تقتحم وتجتاح خطوط الدفاع الإسرائيلية قام السفير السوفياتي في

القاهرة بإخبار السادات بأن الأسد قد طلب من موسكو أن تسعى لوقف إطلاق النار، فأصيب السادات بالذهول وطلب دمشق بالهاتف، فأنكر الأسد ذلك بعنف، لأن وقفاً لإطلاق النار في تلك اللحظة كان سيجعل من خطته الحربية شيئاً غير ذي معنى على الإطلاق. فكيف حصل هذا التشويش؟(٣٠).

لعل المبادرة جاءت من السوفيات الذين كانوا يفضلون وقف إطلاق النار في وقت مبكر، لأنهم كانوا يريدون تجنب مواجهة محتملة مع الولايات المتحدة، ولأنهم بلا شك قد حكموا بأن أصدقاءهم العرب لن يتمكنوا طويلاً من المحافظة على زخم اندفاعهم المبكر. وهناك احتمال آخر بأن موسكو قد ضللها رجلها في دمشق. كان الأسد قبل الحرب قد ناقش مع السفير نور الدين محيي الدينوف الدعم السياسي الذي يتوقعه في مجلس الأمن عندما يتوقف القتال. ولعل تقريراً عن هذه المقابلة قد وجد طريقه عبر البيرقراطية السوفياتية فأصبح أساس الملاحظة الخاطئة التي أبداها السفير السوفياتي في القاهرة للسادات عن كون الأسد يريد وقفاً لإطلاق النار في مساء السادس من تشرين الأول/أكتوبر. ومهما يكن أصل هذه القضية الشائكة، فإنها توضح مدى قلة التنسيق وانعدام المصارحة بين العرب والسوفيات. ثم حدث اضطراب آخر بعد ذلك ببضعة أيام في ١٠/١٠ عندما اقترح السوفيات على كيسنجر وقفاً لإطلاق النار مع بقاء قوات الطرفين في أماكنها ساعة تنفيذه وزعموا أنهم يقدمون ذلك الاقتراح بعد مناقشات «لم تكن سهلة» مع مصر وسوريا. غير أن السادات والأسد لم يكونا مستعدين بعد لوقف القتال. وكانت تلك الواقعة مثالاً آخر على سوء ارتباطهما مع موسكو.

أما تنسيق كيسنجر مع تل أبيب عن طريق سفيرها دينيتز، فكان أكثر تنظيماً وانسجاماً، ويشمل الأهداف كما يتناول الخطوات التكتيكية، وكان له نفس تصميم زعماء إسرائيل على أن تخرج إسرائيل من الحرب بدون أية خسائر في الأراضي بل يفضل أن تربح بعض الأراضي، ولتفرك أنوف العرب على

«حماقتهم» في محاولة فرض حل عسكري[٣١]. وفي غضون ذلك استخدم دبلوماسية وقف إطلاق النار، وكذلك الجسر الجوي الأميركي ليمنح إسرائيل المدة والوسائل الكفيلة بتمكينها من قلب الأمور رأساً على عقب في وجه خصومها[٣٢]. ولقد روي فيما بعد كيف قام بالتسويف لمدة اثنتين وسبعين ساعة حول الاقتراح السوفياتي بوقف إطلاق النار، وذلك لكي «يساعد الهجوم الإسرائيلي على سوريا»[٣٣]. لقد كان العرب يواجهون أخطاراً أعظم وأكبر مما يعرفون.

وقف إطلاق النار

في ١٠/١٦، عندما وجه السادات ـ بعد يومين من هجومه سيء الحظ في عمق سيناء ـ «رسالة» مفتوحة إلى الرئيس «نيكسون» في سياق خطاب ألقاه في مجلس الشعب، فوجيء الأسد مفاجأة غير سارة. فالمعركة كانت لا تزال مشتعلة، ومع ذلك كان السادات يقترح ما لا يقل عن وقف لإطلاق النار يتبعه مؤتمر سلام تشرف عليه الأمم المتحدة. صحيح أن السادات قد ربط عرضه ذاك باسترجاع الأراضي المحتلة والدفاع عن الحقوق الفلسطينية، ولكن الشيء الذي صدم الأسد هو استعداد السادات الواضح لوقف القتال ووضع ثقته بحسن النوايا الأميركية لتحقيق نتائج مُرضية. إذ أن الأسد ظل مقتنعاً بأن إسرائيل لن تلين إلّا إذا استمرت واقعةً تحت نوع من الضغط العسكري. هكذا لم يستشر السادات الأسد، وكتب إليه الأسد: «كنت أفضل لو أنني رأيت اقتراحاتك التي حددتها أمام مجلس الشعب قبل أن تصبح علنية.. أشعر بأن كلاًّ منّا له الحق في معرفة أفكار ونوايا الآخر قبل أن يسمع عنها في الإذاعة. إن كتابة مثل هذه الكلمات لا تسرني، ولكنني لا أرغب في إخفاء أي من آرائي وأفكاري عنك ما دمنا مشتبكين معاً في معركة حياة أو موت». وأجاب السادات بطريقة تطمينية مبرراً مبادرته بـ «اقتناعي بأننا يجب أن نخوض المعركة السياسية والعسكرية جنباً إلى جنب» ووعد الأسد بأن يستشيره إذا جدَّ أي شيء جديد[٣٤].

غير أن السادات في الواقع لم يفعل ذلك، بل كانت في ذهنه أشياء عاجلة أخرى: كانت هناك قوات إسرائيلية مدرعة تعربد على الضفة الغربية للقناة، ففي ١٦/تشرين الأول/أكتوبر عندما بدأ وضع مصر العسكري يتدهور، سارع رئيس الوزراء السوفياتي ألكسي كوسيغين إلى القاهرة ليحث السادات على قبول وقف لإطلاق النار مع بقاء القوات في أماكنها ودون التزام إسرائيلي بالانسحاب. وبعد يومين، في ١٠/١٨ جاء كوسيغين إلى السادات بصورة جوية يظهر فيها ما لا يقل عن ثلاثمائة دبابة وسيارة مدرعة خلف الخطوط المصرية. كان الجسر الجوي الأميركي الذي أنزلت بعض شحناته في سيناء مباشرة يعطي إسرائيل الوسائل والإمكانيات لتهديد الجيش الثالث وميناء السويس، والطريق إلى القاهرة، ويقيم شبح انهيار مصري عام. وكانت الضربة لمعنويات السادات رهيبة.

أبرق للأسد يائساً في ١٠/١٩: «لقد قاتلنا إسرائيل حتى اليوم الخامس عشر. وفي الأيام الأربعة الأولى كانت إسرائيل وحدها.. ولكن خلال الأيام العشرة الأخيرة كنتُ على الجبهة المصرية أقاتل الولايات المتحدة كذلك، من خلال الأسلحة التي ترسلها. وبصراحة فإنني لا أستطيع أن أحارب أميركا ولا أن أقبل المسؤولية أمام التاريخ عن تدمير قواتنا المسلحة للمرة الثانية...

إن قلبي ينزف دماً وأنا أخبرك بهذا...»[٣٥].

ورأى الأسد بسرعة أن هذه الرسالة الانهزامية تشير إلى نهاية ضغط العرب العسكري على إسرائيل، والتخلي عن خطتهم المشتركة. ورغم أن الأسد رجل يضبط نفسه عادةً، فد انفجر ضد تحطم أعصاب السادات، ولكن ضمن جدران مكتبه. كان تحالفه المقاتل مع السادات ينهار، وفي محاولة أخيرةٍ لإنقاذه طلب من أحد مساعديه أن يجهز مسودة رد وضع له هو اللمسات الأخيرة[٣٦].

«تلقيت رسالتك أمس بتأثر بالغ، وأرجوك أن تنظر مرة أخرى إلى الوضع العسكري على الجبهة الشمالية وعلى جانبي القناة. إننا لا نرى سبباً للتشاؤم..

إننا نستطيع أن نتابع النضال ضد قوات العدو سواء أعبرت القناة أم ظلت تقاتل على ضفة القناة الشرقية. وإنني متأكد أنه باستمرار وتشديد المعركة سيكون من الممكن ضمان تدمير وحدات العدو التي عبرت القناة.

أخي السادات: من أجل الحفاظ على معنويات القوات المقاتلة فإن من الضروري التأكيد على أن العدو قد تمكن نتيجة لحادث فجائي من اختراق جبهتنا وان ذلك لا يعني أنه قادر على تحقيق الانتصار.

فلقد نجح العدو في اختراق الجبهة الشمالية قبل عدة أيام، ولكننا قد اتخذنا موقف الصمود واتبعناه بتشديد القتال، مما أعطانا أساساً أكبر للتفاؤل، ولقد تم إغلاق وتطويق معظم نقاط الاختراق المعادي، وإنني واثق أننا سنتمكن من التعامل مع النقاط الباقية في غضون الأيام القليلة القادمة. وأعتبر أن من الضروري جداً أن تحافظ جيوشنا على روحها القتالية.

وإنني لواثق من أنك تقدر بأنني وزنت كلماتي هذه بعناية فائقة مع إدراك كامل بأننا نواجه الآن أصعب فترة في تاريخنا.

والله معـــك»(٣٧).

ولم يتلق الأسد رداً على رسالته هذه.

غير أن المفارقة هي أنه بينما كان السادات أكثر من مستعد لوقف إطلاق النار، لم يكن كيسنجر مستعداً لذلك على الإطلاق. بل توجه إلى موسكو بناء على دعوة ملحة من بريجنيف، في ٢٠/١٠ لتنسيق اقتراح من الدول الكبرى تنهي به الحرب. ومثلما سوَّف وماطل في وقت سابق ليعطي إسرائيل الوقت الكافي لتهدد دمشق، كرر نفس العملية تماماً فراح يماطل ويسوّف أثناء وقوع مصر في أشد المآزق وأقساها ليعطي اسرائيل الوقت الكافي لتشدد الطوق على خناق الجيش الثالث. ولقد نجح في ذلك، ولكنه شعر بأنه كان من الممكن أن ينجح أكثر، فكتب فيما بعد: «لعلي لو أخرت مغادرتي أربعاً وعشرين ساعة

أخرى [إلى موسكو] لقويت مراكز إسرائيل العسكري أكثر»[٣٨]. وبينما لم يكن كيسنجر يرغب في تدمير الجيش الثالث (كما كان بعض الجنرالات الإسرائيليين يضغطون) فإن دبلوماسيته كانت تقتضي أن تصل مصر إلى حالة من الضعف لا تستطيع معها أن تبدي أية مقاومة لشروطه فيما بعد الحرب.

وهكذا اتفق مع بريجنيف أخيراً على نص قرار تبناه مجلس الأمن في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثانية والخمسين (بتوقيت نيويورك المحلي) من بعد ظهر ٢٢/ أكتوبر ـ تشرين الأول، باسم القرار ٣٣٨ على أن يدخل حيز التنفيذ بعد اثنتي عشرة ساعة من صدوره. وكان وقف القتال حيثما تجد الجيوش نفسها يعطي إسرائيل ميزات ومواقع للمساومة في مصر وسوريا كلتيهما. وأما كلمة «انسحاب» ذات الأهمية المركزية بين مطالب العرب، فلم تظهر في نص القرار، ولم تظهر كذلك كلمة «فلسطين» وأما القرار ٢٤٢ فلم يفصّل، بل تُرك غائماً بكل غموضه ليتم تقرير فحواه في محادثات مباشرة وجهاً لوجه، تماماً كما كانت إسرائيل تريد دائماً.

وقبلت مصر وإسرائيل وقف إطلاق النار على الفور، أما سوريا فلم تفعل. كان الأسد يعرف أنه لا يستطيع الصمود وحده، ولكنه كان شديد الغضب لأن السادات قد تصرف بشكل منفرد واعتبر موافقة سوريا على تصرفه هذا تحصيل حاصل. ثم إن الأسد لم يكن راضياً عن عقد صفقة بين الدولتين الكبريين من وراء ظهره دون أن تكلفا نفسيهما عناء مشاورته. وإن كان هناك من خصلة من خصاله أبرزتها هذه الأزمة إلى الواجهة فهي كراهيته لأن يفتئت أحد عليه. وهكذا فقد تأخر زمناً في الاستجابة لقرار الأمم المتحدة واتخذ موقف التحدي يومين كاملين لإنقاذ بعض الكرامة من وضع مهين فيه ألم عميق.

عرف السادات أن مشاعر الأسد قد استفزّت، فقام بمحاولة متأخرة لوضعه معه في الصورة ولمصالحته فتحدث معه هاتفياً بعد ظهر الثاني والعشرين من أكتوبر ليشرح له بأن وقف إطلاق النار جاء نتيجة اتفاق بين القوتين العظميين،

ويتذكر الأسد بأن المحادثة قد جرت على النحو التالي: قال الأسد على الهاتف:

ـ «إنني لا أعرف عن ذلك شيئاً»، فأجاب السادات بلهجة واهية:

ـ «لقد ظننت أنهم قد أخبروك، ولذلك لم أخبرك بنفسي»، فقال الأسد محتجاً:

ـ «ولكننا نحن الذين نقاتل! نحن شركاؤك في الحرب! لقد كان من مسؤوليتك أن تخبرني».

ـ «سأرسل لك رسالة مع رئيس وزرائي عزيز صدقي تشرح كل شيء».

ـ «سأتريث وأتوقف عن إصدار حكم»[٣٩].

وفيما بعد، عندما دخل وقف إطلاق النار حيز التنفيذ في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين بالتوقيت المحلي للشرق الأوسط من ذلك المساء (٢٢/١٠) تحدث السادات مع الأسد هاتفياً مرة أخرى، وكان واضحاً أنه شعر بالقلق لأن حليفه لم يستجب علانية لقرار وقف القتال. فقال السادات متذمراً:

ـ «إنك لم تعلن قبولك لوقف إطلاق النار».

كان الأسد قد أجّل الهجوم المعاكس الذي كان قد خطط له، ولكنه لم يكن يريد أن يجعل الأشياء ناعمة أو مريحة للسادات، فسأله:

ـ «على أي أساس تقترح أن أوقف إطلاق النار؟» فأكد له السادات:

ـ «لقد عرضوا أن يعيدوا لنا أراضينا».

ـ «ليس لدي دليل على ذلك».

فاستشاط السادات غضباً، ورأى أن الأسد سيصمد ويستمر، مما قد يضعه في موقف حرج أمام الرأي العام العربي، فأجاب باقتضاب قبل أن يغلق

سماعة الهاتف: «حسناً، سوف يصل صدقي إلى طرفكم»[٤].

ولم يتحسن مزاج الأسد عندما عادت إسرائيل في ذلك اليوم نفسه إلى احتلال مركز المراقبة المطل على الجولان في جبل الشيخ، كانت سوريا بعد أن احتلت ذلك المركز في اليوم الأول من الحرب قد صدّت هجمات إسرائيلية متكررة عليه. ولكن في ليلة ٢٢ ـ ٢٣/تشرين الأول/أكتوبر أرسلت إسرائيل قوة كوماندوس محمولة بطائرات هيلوكوبتر تدعمها المقاتلات والمدفعية والمشاة، فاجتاحت الموقع الحصين، كانت تلك واحدة من أعنف معارك الحرب التي تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة. وكان واضحاً أن إسرائيل كانت لا تعتقد بأن قبولها لوقف إطلاق النار يمنعها من العمل على الجبهة السورية، وهو رأي لم يكن بلا تبرير تماماً، ما دامت سوريا لم تعلن بعد قبولها بوقف القتال.

وفي ذلك المساء طار عزيز صدقي إلى دمشق ليلقى استقبالاً صقيعياً في مكتب الرئيس الأسد. فاعتذر عن عدم إحاطة الأسد علماً بالأمور في مختلف المراحل، بدءاً من زيارة كوسيغين التي أدت إلى قبول مصر بوقف إطلاق النار. كانت مهمة صدقي الصعبة هي إقناع الأسد بزعم السادات المهلهل بأنه قد حصل على تنازل إسرائيلي كبير، فبدأ بتكرار كلمات رسالة السادات نفسها: لقد قبلت مصر وقف إطلاق النار لأن إسرائيل سوف تنسحب من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧. وسأل الأسد:

ـ «مَنْ وعدكم بذلك»؟.

ـ «الأميركيون والسوفيات».

ـ «بأي ضمان؟».

ـ «إننا واثقون من ذلك تماماً! وعلى أية حال فإذا لم يحافظوا على وعودهم فإننا نستطيع العودة للحرب، فقواتنا لا تزال في مكانها».

وتساءل الأسد مستوضحاً: «وكم ستستغرق هذه الإعادة للأراضي؟».

كان صدقي واثقاً من الأمر فقال: «إنها ستبدأ على الفور! على الفور! وعلى أقصى حد ستتم في غضون ستة أشهر».

لم يصدق الأسد كلمة واحد، وعندما رأى أنه يُواجهُ بمثل هذا التفاؤل الشديد غير القائم على أساس قال لصدقي بتشاؤم كئيب: «لقد سمعنا ما تريد أن تقول»[٤١].

وأمضى الأسد اليوم الثالث والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول يفكر في الخيارات القليلة المتاحة له. ففي السابعة صباحاً قام وزير خارجيته خدام باستدعاء السفراء العرب في دمشق إلى اجتماع عاجل، وأعلمهم بعزم سوريا على رفض قرار مجلس الأمن، ولكن بما أن القضية الفلسطينية تهمهم جميعاً فإن سوريا ترغب في معرفة آراء حكوماتهم بالموقف السوري، والإسهامات التي تستطيع حكوماتهم تقديمها لمجهود سوريا الحربي. وبدأت الأجوبة من العواصم العربية تصل إلى دمشق تباعاً ذلك المساء. وعبر بعضها عن الموافقة على رفض سوريا للقرار، أما طلب المساعدة فقد جوبه بالصمت. وعندئذ طلب منهم خدام أن يتصلوا بحكوماتهم ثانية، فاتفقت كلمة الأقطار العربية على أن سوريا ليس لها خيار سوى قبول القرار.

وبينما كانت هذه المبادلات جارية استمزج الأسد آراء عدد من الزعماء العرب مباشرة بمكالمات هاتفية، مثل فيصل ملك العربية السعودية، والحسن الثاني عاهل المغرب، وبومدين، والقذافي، وأحمد حسن البكر، وبعض حكام الخليج. فعبروا جميعاً عن تعاطفهم معه في محنته، وبعد انسحاب مصر من المعركة كانوا قلقين على سوريا. وفي ساعة متأخرة من الليل تشاور مع قيادات الحزب، ومع زعماء الجبهة الوطنية التقدمية.

وأخيراً استدعى كبار ضباطه. كان سلوك السادات بالنسبة إليهم لا يزال لغزاً غامضاً، ولم يكونوا مستعدين لإدانته بعد، ولكن كان عليهم أن يواجهوا الحقائق، إذ أن استراتيجية القتال على جبهتين، والتي خاضوا الحرب بموجبها،

قد انهارت. فإذا كانوا يرغبون في الاستمرار في القتال، فإن عليهم أن يختطوا لأنفسهم استراتيجية مستقلة، ويستأنفوا الكفاح في وقت آخر. وهكذا أجمعوا على قبول وقف إطلاق النار. وتم ذلك في وقت متأخر من يوم ٢٣/١٠، ولكن في إشارة أخيرة للتحدي أوضحت سوريا في رسالتها للأمين العام للأمم المتحدة أنها تقبل القرار ٣٣٨ لأنها تفهمه على أنه يطالب بالانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي المحتلة، وبضمان الحقوق الفلسطينية ـ وهذا في الواقع هو التفسير العربي للقرار ٢٤٢. واحتجت إسرائيل بأن الصيغة السورية تغير معنى القرار، وتعني أن سوريا لم تقبل بوقف القتال. ولم يرد الأسد على هذا الاحتجاج الإسرائيلي الذي فهم منه أنه تهديد بتجدد القتال.

أما موقف السادات الأكثر ليناً وطواعية فلم يخدمه جيداً. فقد انتهكت إسرائيل قرار وقف إطلاق النار الصادر يوم ٢٢/١٠، وانطلقت في الأيام القليلة التالية تحاول بكل طاقتها فرض الاستسلام على الجيش الثالث والحصار على مدينة السويس، ولم تكن تريد فقط أن تحسن وضعها لتكون في موقف أفضل للمساومة، بل استمرت تضرب مصر بعنف بدا منه أنها تريد تدمير السادات نفسه. كانت غولدا مائير والقيادة الإسرائيلية العليا في عطشٍ للانتقام منه لأنه فاجأهم وهم نيام يوم السادس من تشرين الأول. ولم ترتدع إسرائيل بقرارين لاحقين لمجلس الأمن هما القرار ٣٣٩ الصادر في ٢٣/تشرين الأول، والقرار ٣٤٠ الصادر بعد ذلك بيومين والمطالبان بتنفيذ وقف إطلاق النار.

وعندما أصبحت صرخات السادات في طلب النجدة يائسةً أكثر فأكثر، تصاعد غضب بريجنيف على تسامح كيسنجر السافر مع الانتهاكات الإسرائيلية لوقف إطلاق النار الذي كان وكيسنجر قد اتفقا عليه معاً. وأخيراً اقترح بريجنيف إرسال قوات أميركية وسوفياتية على عجل لتنفيذ القرارات، وهدد في حالة فشل ذلك بأن يقوم الاتحاد السوفياتي بالعمل من جانب واحد. وكان ذلك من وجهة نظر كيسنجر نذيراً باحتمالين انتصبا أمام عينيه كالأشباح وهما: تعزيز القوات

السوفياتية في منطقة كان مصمماً على طردهم منها، والفكرة المرعبة بأن موسكو قد تسعى لفرض تسوية شاملة على الشرق الأوسط وهذه نتيجة كان مصمماً على معارضتها هو والإسرائيليون[٤٢]. ولكي يصعّد الدراما ويكسب التأييد المحلي لصالحه، اختار كيسنجر أن يصور رسالة بريجنيف الفاقد الصبر على أنها «إنذار» وتحدٍّ غير مقبول للولايات المتحدة لا يسعها إلاّ مواجهته. فأصدر أمراً بإعلان استنفار للقوات الأميركية في جميع أنحاء العالم لمواجهة السوفيات وإرغامهم على أن يطأطئوا رؤوسهم. وهكذا فإن سوء سلوك إسرائيل على الصعيد الإقليمي المحلي قد تم تجاوزه وابتلاعه في أزمة عالمية بين الشرق والغرب كانت من صنع وتدبير كيسنجر إلى حد كبير.

وفي النهاية استطاع كيسنجر ـ بشيء من الصعوبة ـ أن يلجم غولدا مائير المتعطشة للانتقام. كانت تريد رأس السادات، بينما كان هو يريد بقاء السادات لأنه أدرك بأن المصري «المعتدل» سيكون أجدى لإسرائيل وهو في السلطة منه وهو في خارجها. وهكذا فإن النزاع بينه وبينها لم يكن ـ كما صُوِّر ـ حول احترام وقف إطلاق النار، ولا حول معاملة الخصوم بإنصاف، ولكنه حول من منهما كان يعرف أكثر من الآخر مصالح إسرائيل على المدى البعيد. لقد لمح كيسنجر فرصة وضع مصر على الطريق نحو سلام منفصل فيما بعد الحرب ـ وهذا ما قدر له أن يكون أكبر كابوس للأسد.

هوامش الفصل الرابع عشر

(١) الكولونيل تريفورن. دوبوي: **النص المراوغ، الحروب العربية ـ الإسرائيلية من ١٩٤٧ إلى ١٩٧٤** (لندن ١٩٧٨)، ص ٤١٧.

(٢) مقابلة مع أسعد كامل إلياس بدمشق في ١٤/٨/سنة ١٩٨٤.

(٣) دوبوي (مصدر سبق ذكره)، ص ٤٣٣.

(٤) جدعون رافائيل (مصدر سبق ذكره)، ص ٢٩٠.

(٥) الجنرال مردخاي غور: «الجوانب العسكرية للصراع العربي الإسرائيلي»، في كتاب من تحرير لويس وليامز (تل أبيب ١٩٧٤)، ص ٢٠٢.

(٦) موشي دايان: **قصة حياتي** (لندن ١٩٧٦)، ص ٤٦٧.

(٧) هيكل (مصدر سبق ذكره)، ص ٢١٤، ٢١٧.

(٨) الشاذلي (مصدر سبق ذكره)، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٩) الرئيس الأسد، أيار سنة ١٩٨٥.

(١٠) كيسنجر (مصدر سبق ذكره)، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣.

(١١) دايان (مصدر سبق ذكره)، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

(١٢) نفسه، ص ٤٧٤.

(١٣) دوبوي (مصدر سبق ذكره)، ص ٤٥٠.

(١٤) اللواء بنيامين بيليد في كتاب سبق ذكره من تحرير لويس وليامز، ص ٢٤٢.

(١٥) لويس دوكلوس: «ميزان القوى العربي ـ الإسرائيلي» في مجلة مغرب ـ مشرق العدد ٦٧ (سنة ١٩٧٥)، ص ٤٢.

(١٦) أبو أياد: **فلسطيني بلا وطن** (باريس ١٩٧٨)، ص ١٩٧.

(١٧) دايان (مصدر سبق ذكره)، ص ٥٢٨.

(١٨) الشاذلي (مصدر سبق ذكره) ص ٢٤٨، ودوبوي (مصدر سبق ذكره) ص ٤٩١ وحاييم هرتزوغ: **الحروب العربية الإسرائيلية** (لندن سنة ١٩٨٢)، ص ٢٦١.

(١٩) الشاذلي (مصدر سبق ذكره)، ص ٢٤٨ ويقدر دوبوي وهرتزوغ أن مصر وإسرائيل قد زجت كل منهما بألف دبابة في تلك المعركة أو زهاء ذلك.

(٢٠) الشاذلي (مصدر سبق ذكره)، ص ٢٦٦.

(٢١) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار/ماية ١٩٨٥.

(٢٢) نفسه.

(٢٣) هيكل (مصدر سبق ذكره)، ص ٢١٦.

(٢٤) رابين (مصدر سبق ذكره)، ص ١١٤ .

(٢٥) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ٢٠٣ ، ولمعرفة آرائه حول الشرق الأوسط انظر الصفحات ١٩٥ ـ ٢٠٥ من كتابه نفسه، وحول تطور سياسته المؤيدة لإسرائيل انظر كتاب وليام كوانت (مصدر سبق ذكره) ص ١٤٣ ـ ١٤٨ وكذلك ص ١٥٩ ـ ١٦٤ .

(٢٦) ديفيد كوشاف المستشار الاقتصادي في وزارة الدفاع الإسرائيلية في كتاب (سبق ذكره) من تحرير لويس وليامز، ص ١٨٣ .

(٢٧) وليام كوانت (مصدر سبق ذكره)، ص ١٠٢ ، وص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٢٨) كيسنجر (مصدر سبق ذكره)، ص ٦٢٥ .

(٢٩) نفسه، ص ١٩٦ .

(٣٠) هيكل (مصدر سبق ذكره) ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ، دوبوي (مصدر سبق ذكره)، ص ٤٧٣ ، كيسنجر (مصدر سبق ذكره)، ص ٤٩٧ ، أبو إياد (مصدر سبق ذكره)، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ، إسماعيل فهمي : التفاوض من أجل السلام في الشرق الأسط (لندن ١٩٨٣) ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٣١) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ٥٠٢ .

(٣٢) نفسه ص ٤٧٣ ـ ٤٩٣ .

(٣٣) نفسه ص ٥١٩ .

(٣٤) هيكل (مصدر سبق ذكره) ص ٢٣٠ .

(٣٥) نفسه ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(٣٦) مقابلة مع أسعد كامل إلياس بدمشق في ١٤/آب سنة ١٩٨٤ .

(٣٧) هيكل (مصدر سبق ذكره) ص ٢٣٨ .

(٣٨) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ٥٤٤ .

(٣٩) الرئيس الأسد، أيار /مايو سنة ١٩٨٥ .

(٤٠) نفسه.

(٤١) نفسه.

(٤٢) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ٥٨٣ .

الفصل الخامس عشر

مبارزة مع هنري كيسنجر

بدأ الصراع العنيف بين الأسد وهنري كيسنجر لكسب مصر روحاً وجسداً حتى قبل أن تنتهي حرب تشرين اكتوبر بشكل موحل وشائك تخللته انتهاكات كثيرة لوقف إطلاق النار . كان الأسد يعلم يقيناً في أعماقه أنه والسادات ، برغم انهيار استراتيجيتهما الحربية ، يجب أن يبقيا معاً إذا كان لهما أن يستنقذا سلاماً يقطع بهما حتى نصف الطريق نحو ما يرغبان فيه ؛ فلم يكن يستطيع ترك السادات ينزلق بعيداً متخذاً طريقاً خاصاً به وحده . فقد كان تحالفهما هو الدفاع الوحيد الذي كان يستطيع أن يتصوره لحماية مصالح الأمة العربية في الفترة الخطرة الحرجة التي أعقبت الحرب . وعلى الجانب الآخر كان تفكير كيسنجر شديد الوضوح بالدرجة نفسها حول حاجته إلى جرّ السادات بعيداً عن سوريا وإدخاله في علاقة جديدة مع إسرائيل والولايات المتحدة . ولذلك فقد كان هناك شيء محتوم في النزاع بين زعيم لا يزال غير معروف بعد لبلد متواضع من دول العالم الثالث ، وبين النجم اللامع على مسرح السياسة الدولية . فوراء المناورات الدبلوماسية في ذلك الحين ـ بما فيها رحلات كيسنجر المكوكية اللافتة للنظر والطنين الاعلامي المحيط بها ، والفصل بين القوات المتحاربة ، والتحضيرات لمؤتمر جنيف ـ كان يكمن صراع قوة وإرادات . وكان الفائز في لعبة شد الحبل لكسب مصر هو الذي سيفوز بالسلام وباعادة تركيب المنطقة لصالحه .

وحدث أول لقاء للأسد بالسادات بعد الحرب في مطار الكويت في ١/ تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٧٣ ، بعد أسبوع من وقف إطلاق النار ، وكان الحماس الذي ساد لقاءاتهما وتخطيطاتهما فيما قبل الحرب قد اختفى . لم يكن الرجلان مرتاحين ، وكيف يكونان كذلك وفوق علاقاتهما ينتصب ظِلّ عجز مصر عن استغلال عبورها للقناة ؟ كان الأسد في دائرته الخاصة يُنحي باللائمة على السادات في انهيار خطتهما المتفق عليها للقتال على جبهتين ، ولكنه إذ عزا حَذَرَ السادات في المعركة ببساطة إلى الخوف أو إلى ظرف عسكري لا يزال يجهله فإنه لم يوجه إليه في العلن اي اتهام . كان يريد قبل كل شيء أن يبقي على روح التعاون حية . وكان لدى السادات أيضاً تذمّر . فلو لم يقع «إخوته السوريون» في مصاعب ولم يصرخوا في طلب النجدة لما قام بالهجوم في ١٤/ تشرين الأول / أكتوبر ، فاتحاً بذلك الطريق لعبور اسرائيل المدمر في ثغرة الدفرسوار . كان هناك نوع من العنجهية المتعالية في سلوكه امتد أثرها حتى إلى مضيفيه الكويتيين . كان أمير الكويت والعائلة المالكة قد جاؤوا إلى المطار لتحية قائدي الحلف المحارب ، وقد أعدوا غداءً على شرفهما ، وبينما كان الأسد والسادات يتحدثان جاء موظف مصري ليذكرهما بأن مضيفيهما ينتظرون كي يحتفوا بهما في غداءٍ مقام على شرفهما ، فطرده السادات من الغرفة صارخاً : «دعهم ينتظرون!»(١) .

كان السادات قد أقنع نفسه بحكمة خطته الاستراتيجية فأصبح مصمماً على أن يقود العرب في السلام كما قادهم في الحرب . كان خياله مليئاً بالأشياء العظيمة التي يتوقعها من كيسنجر (الذي كانت زيارته الأولى للقاهرة متوقعة في السابع من تشرين الثاني / نوفمبر) وكذلك من الصداقة التي نوى إقامتها مع الولايات المتحدة . وتم الاتفاق على أن يتوقف الأسد في القاهرة في وقت لاحق من ذلك الشهر في طريقه إلى مؤتمر القمة العربي في الجزائر حيث كان هو والسادات سيطلعان زملاءهما العرب على تفاصيل الحرب .

أما ما لم يتناقش فيه السادات مع الأسد ، لأنه كان مهيناً للغاية ، فهو أن اسرائيل كانت تمسك بخناقه . فمع كون الجيش الثالث على حافة الانهيار ومدينة السويس المحاصرة تشكو نقصاً فادحاً في الغذاء والماء والدواء ، كانت اسرائيل قادرة على أن تنتزع منه سلسلة كاملة من التنازلات ، كإعادة أسرى الحرب الاسرائيليين ، ورفع الحصار عن مضيق باب المندب ، وقبل كل شيء محادثات مباشرة تقف فيها مصر المدحورة موقف المتوسل . ولإرخاء قبضة إسرائيل ، حاول السادات أن يلحّ على وجوب سحبها لقواتها إلى المراكز التي كانت تحتلها عند صدور قرار وقف إطلاق النار الأول (في ٢٢/ تشرين الأول/ اكتوبر) الذي خرقته اسرائيل مراراً . ولكن غولدا مائير رفضت ذلك . ولكسر الجمود اقترح كيسنجر أن يلتزم الطرفان بفصل القوات على نطاق واسع تصبح فيه خطوط ٢٢ تشرين الأول / اكتوبر (التي هي موضوع النزاع المباشر) غير ذات معنى . وبناء عليه فقد اجتمع ضابطان برتبة فريق هما المصري عبد الغني الجمسي والاسرائيلي / أهارون ياريف في ١٦/ ١١/ ١٩٧٣ باشراف الأمم المتحدة في خيمة على طريق القاهرة ـ السويس في نقطة تعرف باسم الكيلو ١٠١ ، لمناقشة فصل القوات .

وبينما كان الفريقان يتفاوضان ، توقف الأسد في القاهرة في ٢٤/ ١١/ ١٩٧٣ وهو في طريقه إلى قمة الجزائر حيث وجد السادات بانتظاره في قصر القاهرة مرتدياً الزي العسكري الكامل برتبة «المارشال». ولدهشة الأسد انطلق السادات على الفور في حديث طويل كالمونولوج يشرح مشاكل فصل القوات على جبهة سيناء قائلاً ان الاسرائيليين سينسحبون كذا كيلومتراً والمصريين كذا كيلومتراً، وقد طالبوا بكذا وكذا وردّ عليهم السادات بكذا وكذا.

كانت هذه أول مرة يسمع فيها الأسد كلمة «فصل القوات» وهي كلمة لم ترد من قبل في أحاديث العرب العسكرية أو السياسية .

وصرخ في أسى : ما الذي تفعله ؟ ما فصل القوات هذا ؟ هل خضنا

الحرب من أجل أن نصل إلى هذا ؟ كيف يمكنك فصل قواتك عن اسرائيل بينما اسرائيل لا تزال تواجه سوريا في القتال ؟ أَلَكَ حق في التصرف وحدك بهذه الطريقة؟ وكان من الواضح أنه لم يقدر مدى ثقل محنة الجيش الثالث على ذهن السادات .

وصاح السادات : ألا تثق بي ؟ هل تتهمني بالتصرف لوحدي ؟

وسرعان ما علم الأسد أن السادات كان يقترح اتفاقية ثنائية مع اسرائيل حول فصل قواتهما ، رغم أن شيئاً من هذا القبيل لم يتم التنبؤ به قبل الحرب خلال فترة التخطيط لها . كانت يقظة مؤلمة . وبينما كان السادات يتحدث عن فوائد فصل القوات أخذ غضب الأسد يتصاعد ، فقد أخذ يتذكر تأكيدات عزيز صدقي بأن «الدول العظمى قد وعدت بإعادة الأراضي المحتلة بعد أن يتوقف إطلاق النار» . فصاح:

«هل هذا قرار مشترك ؟ لقد مشيتَ ثلاث أرباع الطريق نحو الاتفاق مع اسرائيل . فتساءل السادات :

ـ «لا بد أن هناك ثقة بيننا بالتأكيد؟» .

ـ «هناك أعمال تكذّب الثقة» ، فأجاب السادات بعصبيته المعهودة : ـ «حسناً إذن؟ سألغي كل شيء!» .

وفي اليوم التالي سافر الرجلان بطائرتين منفصلتين إلى الجزائر . وعندما هبطت طائرة الأسد انتحى به مضيفه جانباً ، وقال إن السادات قد شَكَا لَهُ من أن الأسد يتهمه بالتصرف من جانب واحد ، وتساءل الأسد : «ما الذي تظنه يجري؟» فرد الرئيس الجزائري هواري بومدين بجفاف : «من الواضح أن السادات يهتم بنفسه فقط»[٢] .

وبعد زمن قصير من قمة الجزائر قام السادات فعلاً في ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر بإلغاء مفاوضات الجمسي ـ ياريف في الكيلو ١٠١ ، ولكنه لم

يفعل ذلك ليسر الأسد أو يرضيه . فالواقع أن المبادرة لوقف تلك المفاوضات جاءت من كيسنجر ، خصم الأسد في ذلك الصراع العنيف . كان الجمسي وياريف قد حققا تقدماً كبيراً في تلك الخيمة باتجاه فصل القوات ، وبدا أنهما كانا بحلول ٢٦ تشرين الثاني / نوفمبر على وشك التوصل إلى اتفاق واسع النطاق على شروط اقترحها ياريف : فاسرائيل ستنسحب إلى شرق الممرات في سيناء إذا سحبت مصر معظم دباباتها من سيناء . غير أن كيسنجر بدلاً من الترحيب بهذه الخطوة الكبرى نحو التفاهم بين مصر واسرائيل فقد أجفل منها مصعوقاً تماماً ، وحثّ الاسرائيليين سراً على التباطؤ(٣) . وبناء على تحريضه ألغى ياريف كل ذكر للممرات في مقترحاته وعرض على الجمسي بدلاً من ذلك مقايضة مباشرة تتبادل فيها كل من مصر واسرائيل ما احتلته كل منهما من الأراضي شرقي القناة وغربيّها . فغضب المصريون من هذا التغيّر الذي كان لا يعني أكثر من أعادة الأمر الواقع الذي كان سائداً قبل الحرب ، وقطع المصريون المفاوضات .

لماذا تدخل كيسنجر ؟ لأنه لم يكن ليسمح لجنرالات الكيلو ١٠١ بإفساد مخططه الكبير لعقد اتفاق مصري اسرائيلي يوافق عليه ويدعمه مؤتمر سلام في جنيف تشرف عليه الأمم المتحدة وتترأسه القوتان العظميان . ورأى بأن اسرائيل اذا تهورت بالموافقة على فصل القوات على نطاق واسع في سيناء قبل انعقاد مؤتمر جنيف فإن سوريا ستطالب بمعاملة مماثلة على جبهة الجولان . وبما أن اسرائيل لم يكن من المحتمل أن تتزحزح من هناك ، فإن المحادثات السورية ـ الاسرائيلية سرعان ما تصل إلى طريق مسدود ، وبذلك تعرض اتفاق مصر مع اسرائيل للخطر . ولكي يحمي كيسنجر تَقَدُّم المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية من العوائق السورية المحتملة ، فإنه نصح اسرائيل بأن لا تعطي أشياء أكثر من اللازم ولا بسرعة أكثر من اللازم . ففصل القوات قبل جنيف كان يعني المجازفة بإعطاء سوريا حق رفض تحركات مصر . وكان كيسنجر يريد أن يحضر السوفيات مؤتمر جنيف ، ولكنه لم يكن ينوي أن يشاركوه في السعي

والمساومات من أجل عملية السلام . كان ينوي إعطاءهم دوراً يكفي حجمه فقط لمنعهم من عرقلة خطته . وبالنسبة لعقلية هذا نمط تفكيرها فإن الغاية الوحيدة من جنيف كانت إعطاء الاحترام الدولي لعملية السلام الوليدة بين مصر واسرائيل . وبمجرد أن تعقد اسرائيل صفقة مع مصر في مثل هذا المحفل فإن سوريا والعرب الآخرين لن يستطيعوا أن يفعلوا أي شيء أكثر تأثيراً من الصراخ والعويل . وهكذا لعب كيسنجر دوره ببراعة عند الطرف الخاص به من حبل الصراع المشدود .

وفي ١٠/ كانون الأول ـ ديسمبر (١٩٧٣) عاد الأسد إلى القاهرة ليحاول أن يستعيد بعض السيطرة لضبط شريكه المصري المنفلت . وقد زاره السادات في قصر القبة المهيب الذي تعلوه بعض الرثاثة إلى حدّ ما ، والذي كان ينزل فيه عادةً ضيوفُ مصرَ من رؤ ساء الدول . ولكي يهدىء من مخاوف الأسد بأنه ـ أي السادات ـ يتحرك وحده فقد تعهد بأن لا يحضر مؤ تمرجنيف إلا إذا وعد كيسنجر بانسحاب اسرائيلي كبير وملموس على الجبهتين المصرية والسورية معاً . ودافع السادات عن وجهة نظره بالقول إن جلسة المؤ تمر الافتتاحية ستكون قصيرة وشكلية بسبب اقتراب موعد الانتخابات الاسرائيلية (التي كان مقرراً إجراؤ ها في كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٣) . وإن المفاوضات قد تطول وتمتد إلى مطلع العام الجديد (١٩٧٤) ، ولذلك فإن من الأفضل لسوريا ومصر أن تسترجعا أكبر مساحة ممكنة من الأراضي حتى قبل الذهاب إلى جنيف، وحسبما يتذكر الأسد ، فقد استدعى السادات وزير خارجيته اسماعيل فهمي ليشهد على تعهده هذا وكأنه يريد وضعه في وثيقة مسجلة . ولم يطلب من اسماعيل فهمي الجلوس لتلقي التعليمات الرئاسية ، بل قال له السادات ما يلي : «قل لكيسنجر عند مجيئه إنني اتفقت مع الرئيس الأسد على أن خطوط فصل القوات يجب أن تكون مرسومة على الخرائط بوضوح قبل مؤ تمر جنيف، وإلّا فإننا لن نذهب إلى جنيف»(٤) . وظن الأسد وهو مرتاح أن سوريا ومصر قد عادتا إلى التناغم المنسجم ، ولكنه كان سيصدم بسرعة بأن الواقع غير ذلك .

فبعد ثلاثة أيام من زيارته لمصر كان كيسنجر يجلس إلى جانب السادات ، وبمجرد أن غادر مصر لم يكن قد بقي شيء من تلك الفرضيات ، إذ سرعان ما أقنع السادات بأنه لا يمكن أن تكون هناك خطوط على خرائط في هذه المرحلة ، بل بيان بالمبادىء العامة فقط[٥] . وبعبارة أخرى ، لا يمكن حدوث انسحاب إسرائيلي قبل جنيف ولا التزام مفصل بالانسحاب . وبدلاً من أن يدافع السادات عن موقف مصري ـ سوري مشترك ، فإنه (على عكس ذلك تماماً) أكد لكيسنجر بأنه سيذهب إلى جنيف بدون الأسد إذا دعت الضرورة . والواقع أنه تبنى وأيّد فكرة كيسنجر بتقسيم المؤتمر إلى مجموعات مفاوضات ثنائية ، وذلك لتلهفه على التهرب من أية ضغوط أو ضوابط سورية أو سوفياتية. وبناء على تحريض كيسنجر قدم السادات تنازلاً هاماً وحساساً آخر ، فقد وافق على أن يمّحي من خطابات الدعوة إلى المؤتمر كل ذكر للفلسطينيين ، ووعد بأن لا يثير المسألة الفلسطينية خلال المفاوضات . وهكذا تمكن كيسنجر من إبعاد السادات عن حليفه في الحرب ، وعن الشعب الفلسطيني المشرد الذي كان الظلم عليه أصلاً هو جوهر ولبّ النزاع العربي ـ الاسرائيلي .

الجولة الأولى . . لصالح كيسنجر

كان أول لقاء بين الأسد وكيسنجر في مكتب الأسد بدمشق في الساعة الرابعة من مساء ١٥/ ١٢/ ١٩٧٣ ، وقد استغرق ست ساعات ونصف الساعة . وبالنسبة لكيسنجر كان هذا هو العدو ، أكثر جيران اسرائيل تصلباً ، وأقربهم إلى موسكو ، والعقبة الكأداء الوحيدة في وجه خططه للمنطقة . فقد كان السادات في منتصف الطريق للخروج بعيداً عن المدار السوفياتي ، وقد انحنى في طلب الصداقة مع أميركا . أما الملك حسين ، صنيعة الغرب الذي يحميه منذ زمن طويل ، فكانت لديه علاقة تفاهم صامت مع اسرائيل . وأما السعودية فكانت أميركا تغازلها بالسلاح والتكنولوجيا . وهكذا بقي الأسد وحده صامداً وكان المعروف عنه أنه متشدد ، متصلب ، عدائي الموقف . وجاء

كيسنجر إلى هذا الاجتماع الأول بدون أية نوايا حسنة أو مقاصد طيبة ، فمنذ سنة ١٩٦٧ لم يكن يبدو أن سوريا والولايات المتحدة تقطنان على نفس الكوكب أبداً . كانت سوريا بالنسبة لكيسنجر وأميركا أرضاً مجهولة . ويستذكر هارولد ساوندرز ، الذي كان خبيراً مختصاً بشؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي الأميركي قائلاً : «كان الطيران إلى دمشق بعد ستة أعوام من انقطاع العلاقات يشبه الذهاب إلى الصين . لم نكن نعرف على وجه اليقين ما الذي سنجده هناك»(٦) .

وكان الأسد بالطريقة نفسها يجهل الولايات المتحدة ، بـل تنقصه المعلومات عن الغرب كله . كان التفاوض مع كيسنجر هو بداية تدشين دخوله إلى اللعبة السياسية الدولية الكبرى التي ستشغل حيزاً كبيراً من عهد رئاسته منذ ذلك الحين فصاعداً . ولكن برغم أنه كان قد أمضى في السلطة ثلاثة أعوام فقد كان قليل الخبرة في هذا المجال . كانت المشاكل الداخلية والاستعدادات للحرب قد امتصت طاقاته وتفكيره . أما في أواخر عام ١٩٧٣ فقد وجد نفسه يخوض معركة من نوع جديد على أرض لا عهد له بها من قبل . وبما أنه كان «مستجداً» فإنه لم يدرك أن كيسنجر كان قد صنفه بأنه هو العدو ، كما لم تكن لديه فكرة واضحة عما كان يسعى إليه كيسنجر . كان غاضباً من دعم أميركا المكشوف السافر لاسرائيل . (وكان الجسر الجوي الكثيف الثقيل خلال الحرب قد آلمه وأزعجه بشكل خاص) ، ولكنه رأى في تركيز كيسنجر المفاجيء على الشرق الأوسط بادرة أمل . فلعل الولايات المتحدة تريد حلًّا . . في نهاية الأمر . ورغم أن الاتحاد السوفياتي قد أعطى مصر وسوريا الأسلحة والمعدات التي خاضتا بها حرب تشرين/ اكتوبر ، فلم يكن بين العرب إلّا قلائل ممن يعتقدون بأن موسكو لديها الوسيلة لإحلال السلام ، فالسادات قد اقتنع بعجز موسكو عن إعطائه السلام ، ولذلك اتجه بشكل حاسم إلى واشنطن . وحتى الأسد تعرض للاغراء . فالولايات المتحدة فقط هي التي لديها قدرة الضغط

على اسرائيل . وكان كيسنجر ساحر الدبلوماسية الذي يصفق له العالم ، هـو الآن في دمشق ، وشعر الأسد بأن في حضور كيسنجر تملقاً لمكانته اثار اهتمامه وفضوله ، ولذلك كان الأسد مستعداً لاعطاء وزير الخارجية الأميركي ثقة لا يستهان بها .

وقبل بضع ساعات من وصول كيسنجر كان الأسد قد استقبل مبعوثاً خاصاً من السادات هو أشرف مروان ، صهر عبد الناصر ، وأحد الرجال الذين كان السادات يثق بهم في المهمات الحساسة . كان أشرف مروان طويل القامة ، مثقفاً ، له وجه فيه براءة الأطفال ، ومشهوراً بتدفق حديثه وذلاقة لسانه ، وقد جاء بأخبار طيبة جداً ، إذ قال إن السادات قد اتفق مع كيسنجر على كل شيء مما تناقش بشأنه الأسد والسادات في قصر القبة في اليوم السابق وبأنه سيتم الاتفاق على فصل القوات على جبهتي سيناء والجولان قبل مؤتمر جنيف الذي كان سيفتتح في ٢١/ كانون الأول / ديسمبر أي بعد أقل من أسبوع ، وبأن خط الفصل في سيناء قد تم رسمه وبأنه بقي على الأسد أن لا يضيع أي وقت ويرسم خط الجولان خلال زيارة كيسنجر ، وبأنه كان هناك تغيير طفيف وتافه في الخطة ، وهو أن التنفيذ الفعلي لانسحاب اسرائيل لن يمكن إتمامه حالاً بل يجب تأجيله إلى مطلع العام الجديد . واطمأن الأسد لهذا التقرير ، وشعر بقدر معقول من الثقة بأن مصر وسوريا كليهما سوف تستعيدان شريحة كبيرة من الأراضي قبل الذهاب إلى جنيف، وبأنهما لن تذهبا بدون ذلك ، وبأن الهدف الأساسي من زيارة كيسنجر هو تثبيت الخط الجديد على الجولان . وبينما كان ينتظر الوزير في مكتبه أخرج خريطة ونشرها أمامه .

ووصل كيسنجر إلى القصر الجمهوري ، مرحاً دمثاً وأمسك بمرفق الأسد وهو يشد على يده بحرارة ، ويحيّي عصر الصداقة الجديد بين أميركا وسوريا . وتصلب الأسد وهو يردّ : «لا يمكن أن تكون بيننا صداقة الآن ما دمتم منحازين . ولكن على الأقل يمكننا العمل على إزالة الخلافات»(٧) . لم يكن

كيسنجر معتاداً على مَنْ يقاوم سحره مِنَ القادة العرب . وبدأت المبارزة بين الرجلين بتمرين على الصمود الخطابي ، وافتتحها كيسنجر بأسلوب المحترف فقدم عرضاً استغرق ساعة كاملة بهدف إبراز وتثبيت قدراته العقلية الفكرية . واستمع إليه الأسد بهدوء قبل أن يلاحظ بابتسامة صغيرة بأن الأدوار في الحياة قد تنعكس فيتحول الأستاذ إلى سياسي ، ويصبح الرئيس أستاذاً . ثم انطلق الأسد في كلمة له استغرقت ساعة ، فشرح الخطوط الأساسية والمباديء والفرضيات التي تقوم عليها سياسة سوريا الخارجية ، وهي كلمة أشار إليها كيسنجر فيما بعد بتجهم . بأنها كانت «أول درس» ألقاه عليه الأسد[٨] .

كان في طريقة الأسد شيء تعليمي ، فلقد أراد أن يستوثق من أن كيسنجر قد تفهم الخلفية التاريخية للمواضيع المطروحة .ولم يهمه أن يستغرق وقتاً طويلاً في شرح مواقفه وآرائه . وقد كان على أية حال استطرادياً بطبعه ، ومعتاداً على الاجتماعات التي تستغرق عدة ساعات إذ أنه قد تربى على المناقشات التي لا تنتهي في حزب البعث، بل إن طول النَفَس كان أحد فنون التفاوض لدى الأسد يمارسه بغريزته الفطرية في هذه المرحلة من حياته الدبلوماسية ، ولكنه أصبح متقناً ومدروساً فيما بعد . وأصبح الهدف من المقدمات التمهيدية المملة هو إتعاب مقابله حتى يفوز عليه بميزة نفسية ، ومن ثم يسيطر عليه . وعبر السنين قدَّر لأكثر من مبعوث أميركي التعرض للتلوي والذبول تحت تأثير المحاضرات التي لا ترحم والتي أخذ يرغمهم على سماعها . غير أن الأسد قد لقي في كيسنجر نداً له في هذا الأسلوب .

بعد هذه المقارعة أو المثاقفة الأولية في أول اجتماع لهما كان كيسنجر تواقاً للانتقال إلى التفاصيل العملية لعقد مؤتمر جنيف. فتحدث عن مشكلةٍ في صياغة خطاب الدعوة الذي يناسب الجميع . واقترح بأن من الحكمة تأجيل المسألة الصعبة المتعلقة باشتراك الفلسطينيين . وشرح تفضيله لاجراء المفاوضات في مجموعات فرعية بدلاً من القيام بها في الجلسة العامة الموسعة ، وحاول أن يسبر مدى التزام الأسد بدور سوفياتي فيها .

وطرح الأسد ثلاثة أسئلة مباشرة كانت بالنسبة إليه جوهر القضية وقلبها : هل توافق الولايات المتحدة على أن سوريا لا تستطيع التفريط بأية أرض؟ هل توافق على أنه لا يمكن أن يكون هناك سلام بدون الفلسطينيين؟ هل يعالج مؤتمر جنيف هذه القضايا المركزية أو أنه سيكون مجرد إجراء مضيع للوقت؟

وإذْ جوبه كيسنجر بأسئلة لم يكن ينوي الاجابة عليها أصلاً فقد لجأ إلى «الغموض البنّاء»[٩] . وأخذ يشرح كيف أن الاجابة عن أسئلة الأسد لا يمكن أن تظهر إلاّ من خلال المفاوضات ، غير أن الأسد ـ وفي مقدمة تفكيره فصل القوات واستعادة الأرض ـ وجد ذلك غير مرضٍ على الإطلاق . فاتجه إلى خريطة للجولان ، وحاول في تلك اللحظة وفي ذلك المكان أن يجرّ كيسنجر المتمنع إلى مناقشة المطالب السورية . فأعلن أن على اسرائيل أن تنسحب ، ليس فقط من الامتداد الناتيء الذي احتلته في تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، ولكن أيضاً من كثير من الجولان الذي اغتصبته عام ١٩٦٧ ، فابتعد كيسنجر عن هذه الطلبات بحدّة .

ويتذكر الأسد أن الحوار التالي قد دار بينهما :

تساءل الأسد ، وقد بدأ فجأةً يشعر بالقلق : ـ «علامَ اتفقتَ مع السادات إذن؟»

فرد كيسنجر :

ـ «لقد اتفقنا على مؤتمر جنيف» .

ـ «أهذا كل شيء ؟ لقد كنت في القاهرة قبل أيام قليلة وقد أكد لي السادات أنه سيتوصل إلى اتفاق معك حول فصل القوات قبل أن نذهب إلى جنيف» .

وأجاب كيسنجر : «لم يحدث أي شيء من هذا القبيل» .

ـ ولكن أشرف مروان كان هنا قبل ساعتين فقط ليقول إنك والسادات قد اتفقتما» .

فقال كيسنجر : «حسناً . لقد ناقشنا الجبهة المصرية باختصار ، ولكننا لم نناقش الجبهة السورية على الإطلاق . ولم نربط عملية فصل القوات وإحراز تقدم فيها بمؤتمر جنيف» .

ـ «لقد أخبرني السادات بعكس ذلك ، وأكد لي بأننا لن نذهب إلى مؤتمر جنيف ما لم يتم الاتفاق على فصل القوات على الجبهتين جميعاً» .

وكرر كيسنجر قوله : «لم يحدث أي شيء من هذا القبيل» .

غير أن الأسد لم يكن مستعداً بعد للتسليم بذلك ، فقال : «ولكن ما اتفقت عليه مع السادات كان من اقتراح السادات نفسه ، فما لم يتم رسم خطوط فصل القوات فإن سوريا لن تذهب إلى جنيف، ولن تذهب مصر كذلك»(١٠) .

وبرغم كلماته الشجاعة ، فإن الأسد عانى من صدمة . فقد كان من الواضح أن تعهدات السادات كانت لا تعني شيئاً . بل لقد كان يقول شيئاً لكيسنجر ، وشيئاً آخر مختلفاً للأسد نفسه ، وفي مثل هذه الظروف التي يختلف فيها العرب كان الذهاب إلى جنيف محفوفاً بأشد الأخطار . وعلى الفور قرر الأسد ـ في ذهنه ـ أن لا يحضر المؤتمر ، ذلك أنه إذا ظل بعيداً فقد لا يذهب السادات هو الآخر ، أو أنه إذا ذهب فإنه لن يجرؤ على الذهاب بعيداً جداً وأكثر من اللازم في غياب سوريا .

وترك كيسنجر يثرثر عن المؤتمر ، فلم يعترض على التاريخ المقترح أو على الصياغة المقترحة لعبارات خطاب الدعوة . وأخيراً سأله كيسنجر عن اليوم الذي ينوي السفر فيه وعمن سيكون في صحبته .

وأجاب الأسد بهدوء «لن يذهب أحد» .

ـ «ماذا تعني بقولك لن يذهب أحد؟ ألم نتفق الآن على التاريخ؟» .

ـ «لقد طلبتَ رأيي في التاريخ وفي خطاب الدعوة ، فلم أثر أي اعتراض لأن هذه المسائل لم تعد تهمني» . وشعر الأسد بالسرور لأنه واجه كيسنجر بهذه المفاجأة الصغيرة[١١] .

وشعر بأنه بهذا التكتيك قد وضع حداً ما لاندفاع السادات على الأقل . وبأنه لم يُضيع شيئاً غير قابل للاسترداد ؛ ولكن ما لم يدركه الأسد هو أنه كان يفعل بالضبط الشيء الذي يريده كيسنجر تماماً . لأن كيسنجر لم يشعر بالأسف على قرار الأسد بالبقاء بعيداً ، بل على عكس ذلك تماماً . . شعر بالسعادة فعلاً . فلقد هندس انهيار محادثات الكيلو ١٠١ خصيصاً لإبقاء سوريا بعيداً عن الصورة (وكان كيسنجر يرى أن تلك المحادثات قد نجحت أكثر من اللازم ، ولذلك أفشلها) . وهكذا أصبح سعيداً جداً بأن يدبر إلصاق مصر باسرائيل في عناق منفرد في جنيف. كانت تلك هي العلاقة الثنائية التي أراد أن يرعاها ويغذيها . فإذا حضر الأردن إلى جنيف أيضاً فإنه لن يسبب أية متاعب . أما سوريا فكانت قضية أخرى .

وقدم كيسنجر تقريره لنيكسون بعد يوم أو يومين : «إن القرار السوري بعدم الاشتراك يرضينا جداً ، إنه نعمة مقنّعة . . . يجب أن نترك الأسد «ينضج في مرقه» . . . وحينما أتطلع إلى الأمام أعتقد بأن هناك فرصة حقيقية لاتفاق مصري ـ اسرائيلي على فصل القوات . ويجب على أميركا أن توضح للاتحاد السوفياتي أن تزويده لسوريا بالسلاح قد يسهم في اندلاع حرب جديدة في الشرق الأوسط ستكون لها آثار خطيرة على العلاقات الأميركية ـ السوفياتية ؛ أما بالنسبة لاسرائيل فإن استمرار إمدادنا لها بالسلاح عبر البحر شيء أساسي وجوهري تماماً[١٢] . »

لا يمكن أن يكون هناك تصريح أوضح من هذا يبين أهداف وعواطف كيسنجر . لقد كان باستطاعته أن يهنيء نفسه على أدائه في صراع الارادات الذي يشبه لعبة شد الحبل حتى ذلك الحين .

مفاهيم متناقضة

كان لدى العرب واسرائيل مفهومان لمعنى حرب اكتوبر مختلفان اختلافاً أساسياً جذرياً . فقد اعتقد العرب ـ بميلهم المعهود إلى المبالغات ـ بأنها قد غيرت العالم ، وكسرت الجمود ، وانتقمت لهزيمة عام ١٩٦٧ وأعادت إليهم احترامهم لأنفسهم . وشعروا بأنهم كسبوا الحق في أن يأخذهم العالم مأخذ الجد . وكانوا مستعدين لمبادلة الأرض بالسلام ، وفق ما نصّ عليه القرار ٢٤٢ لوضع حدٍ لنزاع استنفد طاقاتهم لاكثر من ثلاثين عاماً ومجدوا الانتصارات المبكرة الأولى في أجهزة إعلامهم الرسمية وغضوا النظر عن الانتكاسات اللاحقة كما لو أنها لا تهم . كانت رسالتهم لإسرائيل هي : لقد رأيتِ ما الذي نستطيع أن نفعله . وافقي على التسوية الآن وإلاّ فسنعود للقتال في الوقت المناسب .

ولقد كانت حرب تشرين اكتوبر نقطة تحول كبرى بالنسبة لاسرائيل كذلك ، ولكن الاستنتاجات التي استخلصتها منها كانت مختلفة جداً ، فقد بدأ قادتها يتميزون من الغيظ لمجرد كون العرب قد تجَاسَرُوا على «ارتكاب كبيرة» التجرؤ على مهاجمتهم . وقد رانت على هذا الغيظ أيضاً لمسة من الفزع كالملح الذي يفرك في الجرح لأن الحرب قد أحدثت ثغرة في نظرة اسرائيل لنفسها كقوة عظمى صغيرة بعد عام ١٩٦٧ . لقد سببت نجاحات العرب الأولى لاسرائيل كآبة عميقة وجعلت دايان يغوص في التشاؤم والتردد . فأطلق على الحرب اسم الزلزال ، ولم يسترجع سمعته تماماً بعدها ، وهكذا فإن اسرائيل بعد أن اختطفت النصر مما بدا لها ولو للحظة أنه هزيمة ، أخذت غريزتها تدعوها لمعاقبة العرب ، لا لمكافأتهم . فلم يكن لديها أي ميل أو نزعة للبحث عن تسوية شاملة تتضمن إعادة الأراضي على كل الجبهات ، بل على العكس ، كانت الأولوية المباشرة عند اسرائيل هي ضرورة حرمان العرب من قطف ثمار الحرب ، ومنعهم من تطوير استراتيجية القتال على جبهتين مرة أخرى على

الاطلاق ، وإعادة توكيد التفوق العسكري وطمس وإبعاد المطالب الفلسطينية ، ويفضل أن يكون ذلك إلى الأبد . وقبل كل شيء كانت اسرائيل حريصة على استغلال قدرتها الجديدة للتأثير على مصر إلى أبعد الحدود .

أين كان كيسنجر يقف بين هذه المفاهيم المتناقضة؟ كما رأينا ، كانت خطته كلها بعد حرب تشرين الأول / أكتوبر موجهة نحو تأمين حصول اسرائيل على أهدافها ، ونسف أهداف العرب كلها . فأولاً : أمّن لنفسه يداً مطلقة التصرف استعملها في ابعاد كل من السوفيات ، والأوربيين ، ودول عدم الانحياز ، والأمين العام للأمم المتحدة ، الذين كان يشتبه في كونهم جميعاً منحازين للعرب . ثم «سوّق» الولايات المتحدة للعرب على أنها القوة الوحيدة القادرة على جعل اسرائيل تنسحب ، وقدم نفسه باعتباره مهندس الانفراج ، والانفتاح على الصين ، وتسوية الحرب الفيتنامية كساحر دبلوماسي هو وحده القادر على «هندسة» تسوية مماثلة في الشرق الأوسط . وفي مطلع تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٧٣ أعطى مقابلة لأبرز صحفي في الوطن العربي ، محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام القاهرية آنذاك ، راحت أصداؤها تتردد في المنطقة . قال كيسنجر : «يستطيع الاتحاد السوفياتي أن يعطيكم الأسلحة ، ولكن الولايات المتحدة تستطيع أن تعطيكم سلاماً عادلاً تعود إليكم بموجبه أراضيكم»(١٣) .

وكانت المفارقة المريرة في هذا الوضع أن الزعماء العرب عموماً ـ وطيلة الشهور الحرجة الممتدة من تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٧٣ إلى مطلع عام ١٩٧٥ ـ ظلوا يصدقون كيسنجر . وكان جهل العرب وحده هو الذي جعلهم يعقدون كل هذه الآمال المبالغ فيها على دبلوماسية كيسنجر ، وهو جهل بسجل إدارة نيكسون عزته وأسهمت فيه قطيعتهم الطويلة مع واشنطن . لم يكونوا يعلمون أن كيسنجر هو الذي نسف مبادرة روجرز للتسوية الشاملة ، وأنه قد تجاهل عمداً مبادرات السادات السلمية قبل الحرب ، ونفض يديه من القضية

الفلسطينية وطمسها تماماً ، وأنه هو الذي كان يضغط بإلحاح لاقامة تحالف أميركي كامل مع اسرائيل ودعمها بأموال وأسلحة على نطاق لم يسبق له مثيل . ولقد كان واضحاً أن خطته بعد الحرب كانت ترمي إلى تأمين تحقيق أهداف اسرائيل ونسف أهداف العرب . وعلى أية حال ، فيجب الحكم بأن كيسنجر ، قياساً على ما حققه بالفعل ، كان عضواً فخرياً في حكومة غولدا مائير . ومن المفارقات الملأى بالتناقض أن اليمين الشديد الصراخ في اسرائيل لم يكن سعيداً قط بعمل وأداء كيسنجر ، بل كان يعتقد بأن كيسنجر كان يمكن أن يخدم اسرائيل أكثر مما فعل ، واعتبره مسؤولاً عن «إنقاذ» الجيش الثالث .

مؤتمر جنيف ، واتفاقية سيناء الأولى

بعد أسبوع من رحلته إلى دمشق أخرج كيسنجر مسرحية مؤتمر جنيف الذي افتتح بقصر الأمم في ٢١ / كانون الأول سنة ١٩٧٣ ، وبعد خطب احتفالية ، رفع جلساته بعد ظهر ذلك اليوم نفسه ولم يعد للاجتماع حتى الآن .

وكان المضيف هو كورت فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة ، وكان رئيسا المؤتمر هما غروميكو وكيسنجر وكان المشتركون الوحيدون هم وزراء خارجية مصر والأردن واسرائيل ومثلت سوريا بيافطة تحمل اسمها ، وكرسي فارغ . تُرَى ، هل كان ذلك التجمع المختصر «لا حدثاً»؟ لم يكن كيسنجر يعتقد ذلك . ففي عيون العالم كان المؤتمر هو المنبر الذي تناقش عليه كيفية تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. وقد وقع العبء على كاهل كل من غروميكو واسماعيل فهمي المصري وزيد الرفاعي الأردني الذين تحدثوا في خطبهم عن الحاجة إلى انسحاب اسرائيل الكامل ، وعن حق تقرير المصير للفلسطينيين وعن اقتراب فجر السلام . وتركهم كيسنجر يتحدثون ، فقد أصبح واثقاً بأن هدفه الحقيقي (الذي هو عقد اتفاقية مصرية ـ اسرائيلية) سينال موافقة دولية . كان المنبر الدولي المتعدد الأطراف مجرد ورقة توت لإخفاء عورة الصفقة الثنائية التي كانت تدور في خَلَدِهِ . وهكذا أضفى مؤتمر جنيف شرعية

على دبلوماسيته السرية . وهكذا أعطاها دعماً محترماً ، وهكذا أيضاً خدع كيسنجر الجميع ، خدع السوفيات الذين ظنوا أن لهم دوراً يلعبونه ، وخدع المصريين والأردنيين الذين قبلوا تأكيداته بأن ذلك المؤتمر كان هو الخطوة الأولى لتنفيذ القرار ٢٤٢ كاملاً ، بل وخدع الأسد الغائب الذي سمح ببقاء اسم سوريا على المائدة .

وبعد أقل من شهر ، في ١٨ / كانون الثاني / يناير سنة ١٩٧٤ وقعت مصر واسرائيل على اتفاقية لفصل قواتهما في سيناء ، وكان من الممكن أن يتم هذا التوقيع حتى قبل ذلك لو لم تؤجله الانتخابات الاسرائيلية التي أجريت في ٣١/ كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٧٣ والتي أعادت تحالف حزب العمل بزعامة غولدا مائير إلى الحكم بأغلبية أقل من السابق. وقد تم توقيع «اتفاقية سيناء الأولى» ـ كما أصبحت تعرف فيما بعد ـ على يد كيسنجر خلال رحلات مكوكية استمرت سبعة أيام بين القدس وأسوان في أعالي النيل حيث كان السادات قد ذهب للتمتع بمناخ شتوي لعله الأفضل في جميع انحاء العالم . وفي أسوان راح السادات ـ بتحريض من كيسنجر ـ يقدم التنازلات التي قدر لها أن تنسف مركز العرب الاستراتيجي لسنوات كثيرة قادمة . كانت هناك ظروف مخففة ، فالسويس والجيش الثالث كانا تحت رحمة إسرائيل ، وكان السادات يائساً من إنقاذهما ، ومع ذلك فإن وضعه الضعيف كان من صنع يديه ، فقد رمى بعيداً بأي ثقل أو تأثير كان يمكن أن يأتيه من الدعم السوفياتي ، ثم بعثر قوة العرب بتفكيك تحالفه مع سوريا أثناء الحرب . ووقف وحيداً لا دفاع عنده ، فأصبح لقمة سائغة لاسرائيل بمساعدة كيسنجر .

كان السادات يأمل بأن تنسحب اسرائيل إلى شرق الممرات في سيناء ، وبأن مصر ستتمكن من الاحتفاظ بقوة من فرقتين ومائتي دبابة على الضفة الشرقية لقناة السويس . ذلك أن صفقة بمثل هذه الشروط ربما قطعت شوطاً نحو تبرير التضحيات الكبرى التي بذلت في الحرب ، ولكن ذلك لم يكن ، بل

إن السادات ، في تنازل تلو الآخر ، ترك الممرات في أيدي اسرائيل وقلل من قوته على الضفة الشرقية حتى لم يبق منها سوى عدد ضئيل لا يتجاوز السبعة آلاف جندي ، وثلاثين دبابة ، وحتى هذه الدبابات كان على استعداد للتخلي عنها . ووصف هيكل المشهد بقوله : «لم يستطع الفريق الجمسي (مدير العمليات) أن يصدق أذنيه ، وقال : «يا له من ثمن فادح دفعناه لإيصال دباباتنا إلى سيناء» . . . ، ثم اتجه إلى النافذة ، ورأيت الدموع تترقرق من عينيه ، ولاحظ كيسنجر عواطف الجمسي وانزعج منها ، فسأله : «ما الأمر أيها الجنرال؟»[١٤] .

إن ما لم يستطع الجمسي أن يتقبله أو يهضمه بل وجده صعباً جداً هو فرض حظر على صواريخ سام وعلى المدفعية بعيدة المدى على طول حزام عرضه ثلاثون كيلومتراً على جانبي الخطوط الأمامية المصرية والاسرائيلية التي انحشرت بينها منطقة عازلة تشرف عليها دوريات من قوات الطوارىء الدولية . وهكذا أصبح على مصر أن تسحب دفاعاتها المضادة للطيران ليس من ضفة سيناء فحسب بل من الضفة الغربية كذلك وأن تعيد نصبها في العمق المصري . وكانت هناك تنازلات كثيرة أخرى ، كفتح باب المندب وقناة السويس للملاحة الاسرائيلية كعربون على حسن نوايا مصر ، وأن تبدأ مصر فوراً باعادة بناء مدنها المدمرة على طول القناة ، وأن لا تسمح بأية غارات فلسطينية إلى داخل الأراضي التي تحتلها اسرائيل وأن لا توجه أية دعاية معادية لاسرائيل ، وأن تراقب طائراتُ الاستطلاع الأميركية تنفيذ الاتفاقية . كانت إسرائيل تضغط من أجل إعلان مصري رسمي لإنهاء حالة الحرب ، ولكنها لم تحصل عليه في هذه المرحلة . غير أن مصر بتوقيعها لاتفاق سيناء الأول قد خطت خطوة كبيرة للخروج من الصراع العربي ـ الاسرائيلي . ومقابل ذلك كله سمح لمصر آخر الأمر بأن تمون جيشها الثالث الذي أجهده الحصار .

ولكن كان بانتظار مصر حبة دواء مرة أخرى عليها أن تبتلعها . فقبل أن

ينسحب الاسرائيليون عبر القناة فككوا وشحنوا إلى اسرائيل آلات من مصفاة النفط في السويس ومن مصنع للأسمدة مجاور لها وكذلك الرافعات الضخمة وآلات الموانىء من ميناء الأدبية . . ونسفوا ما لم يستطيعوا حمله أو تفكيكه . ثم جرفوا بالبلدوزرات آلاف الأطنان من الأتربة إلى القناة التي تنقل بواسطتها المياه العذبة إلى السويس فطوقوها وأغلقوا القناة على طول خمسة أميال . هل كانت اسرائيل بطريقة شاذة تحب العيش في مناخ من الكراهية؟ هكذا فكر الفريق الشاذلي وهو يتأمل آثار النهب وبقايا الأنقاض[١٥] .

إخبار الأسد

من دمشق صرخ الأسد بالهاتف مخاطباً السادات في أسوان : «هل تفهم معنى ما تفعل؟» كان الأسد قد سمع أن رئيسي الأركان المصري والاسرائيلي سيجتمعان في اليوم التالي ١٨/ كانون الثاني / يناير سنة ١٩٧٤ ليوقعا على اتفاقية لفصل القوات ، عند الكيلومتر ١٠١ . وكانت تلك محاولته الأخيرة لايقافها ، ولكن المحاولة ذهبت أدراج الرياح . وتابع الأسد على الهاتف : «إن ذلك يعني أن اسرائيل ستنقل الى جبهتنا كل دبابة وكل مدفع لها في سيناء» . وحاول السادات تهدئته . كان السادات على وشك الإقلاع في جولة في الشرق الأوسط ليشرح سياساته للقادة العرب ، فأجاب بالهاتف : «لا تقلق ، سآتي لأراك غداً» .

فرد الأسد :

ـ «أهلاً وسهلاً ، ولكن يجب أن تفهم مدى خطورة توقيع مثل هذه الاتفاقية»[١٦] .

كانت قد انتهت أيام المناجاة الرفاقية الحميمة ، فعندما طار السادات وجماعته إلى دمشق في ١٩/ كانون الثاني / يناير جابههم الأسد بوجه كالصخر مقطب الجبين ومعه وفد سوري عبر طاولة في غرفة المفاوضات والمؤتمرات

بالمطار . واستمر اللقاء تسع ساعات وافتتحه السادات بلهجة من التحدي ، فسأل :

ـ «ماذا تعني بقولك إنني أدخل في اتفاقيات ثنائية محضة؟» .

ـ «أعني أن مصر تترك المعركة» وتابع الأسد في صراحة مطلقة : «إن القوات الاسرائيلية المواجهة لكم الآن ستنقل إلى الجولان» .

ـ «ولكنني ملتزم بسوريا ! وسأظل كذلك دائماً!» .

وفي باديء الأمر دعا الأسد أعضاء الوفد السوري للكلام ، وعندما جاء دوره بدأ يشرح مفهومه للالتزام بلهجة مليئة بالعاطفة الجياشة، فقال : «إن هناك بلداناً عديدة في العالم «ملتزمة» بسوريا بمعنى أنها تـدين العدوان والاحتلال الاسرائيلي . وباتفاقية فصل القوات ستصبح مصر مجرد دولة أخرى تقدم لسوريا التعاطف ولا شيء سواه . ومثل هذا الالتزام الفاتر من مصر غير مقبول . فالجيش المصري يجب أن يبقى في الميدان . فلقد ألزمنا أنفسنا بخوض الحرب معاً ، وقاتلنا معاً ، فكيف تغيرت الأشياء الآن؟»

وبعد مناقشات طويلة ولكنها غير حاسمة اقترح السادات أن ينسحب الوفدان ويتركاه والأسد وحيدين . واستمرت المشاحنـة الكلاميـة . وسأل الأسد : «هل كان صحيحاً أن قناة السويس سيعاد فتحها وأن اسرائيل سيسمح لها باستخدامها ؟» وضحك السادات وقال له : «هل تصدق مـا تقرأ في الصحف؟ إنني أريد أن أخدع اسرائيل . إنني لا أنوي فتح القناة» .

وعاد الأسد إلى همه الأساسي فقال للسادات : «إذا كنت تعتقد بأنني أريدك أن تبقى في الميدان لأنني خائف من القتال وحدي فأنت مخطىء . فالموضوع ليس موضوع خوف ، بل إن المسألة هي أنني لن أستطيع تبرير حركتك للرأي العام العربي ، وهذا سيؤدي بالتأكيد إلى فقدان الثقة . لماذا أنت في عجلة لتحقق فصل القوات ؟ ألا يمكنك أن تبقي نقطة مواجهة واحدة؟

ربما وحدة واحدة على الجبهة . إن هذا سيكون على الأقل إشارة للاسرائيليين ـ والعرب ـ بأن الجيش المصري لا يزال يواجه اسرائيل وبأن الحرب قد تندلع في أية لحظة . وعندئذ لن تتمكن اسرائيل من أن تستريح استراحة كاملة» .

وقال السادات أخيراً :

ـ «حسناً ، حسناً . اطمئن ولا تقلق . سوف أبقي وحدة مشتبكة مع الاسرائيليين» . ولكن الأسد في هذه المرحلة لم يبق لديه ثقة في مثل هذه الوعود[١٧] .

وقبل مدة لا بأس بها من انتهاء مهلة الأربعين يوماً على البدء بتنفيذ فصل القوات الأول في سيناء كانت عملية الانسحاب المتبادل على الجبهة المصرية قد اكتملت ولم تبق أية وحدة مصرية على الاطلاق مشتبكة مع اسرائيل .

عزل الأسد

بدأ الأسد وكيسنجر يدوران حول بعضهما البعض في الحلبة حالما انتقل تركيز الانتباه إلى احتمال حدوث فك اشتباك على الجبهة السورية . كان كيسنجر يعرف أن اسرائيل مصممة على عدم التخلي عن الجولان . ولم تكن راغبة في تسليم هذه المرتفعات الاستراتيجية قبل الحرب . وكانت أقل رغبة في ذلك بعد الاختراق السوري في تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٧٣ . وكان رأي غولدا مائير أنه يجب عدم إعطاء السوريين بوصة واحدة من أرضهم بسبب تهورهم . ولكن مصلحة كيسنجر ـ وقد أقنع غولدا مائير بأنها مصلحة اسرائيل أيضاً ـ هي حماية السادات والاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية . ومن أجل ذلك فإن حركة رمزية على الجبهة السورية كانت ضرورية جداً مهماً كان من الصعب على اسرائيل أن تبلعها . فبدون اتفاقية سورية سيصبح السادات معزولاً في العالم العربي وعاجزاً عن أن يخطو نحو تطوير علاقته الجديدة باسرائيل ، بل إن خطوته الأولى نفسها بفصل القوات ستكون في خطر . وهكذا كان كيسنجر

بحاجة إلى شيء شكلي تجميلي على الجولان كي يسمح للعلاقة المصرية ـ الاسرائيلية أن تستمر وتزدهر .

ولكن الأسد كان يرى عملية فصل القوات على ضوء آخر مختلف تماماً ، معتقداً بتفاؤ ل أنها ستؤدي ـ في مراحل متلاحقة ـ إلى تحرير الجولان بأكمله . فلهذا خاض الحرب . وهكذا فإنه قلص مطالبه في الخطوة الأولى إلى استعادة نصف الأراضي ، معتقداً بأنه بذلك يقدم المرونة اللازمة ، مع المطالبة طبعاً بالاضافة إلى ذلك باستعادة الممر المستطيل الذي احتلته اسرائيل في أكتوبر . كان التناقض بين ما توقعه الأسد وبين ما كان كيسنجر ينوي أن يعطيه هو الجوهر الكامن في قلب صراعهما في الجولة الثانية من لعبة شد الحبل واختبار الارادات طويلة الأمد .

في هذه المرحلة كان الأسد لا يزال يثق بالولايات المتحدة الأميركية معتقداً بأنها كانت تبحث حقاً عن صداقة العرب ، وعن تسوية مشرفة . ولم تكن لديه معرفة بمدى خبث طويّة كيسنجر بل إن دفء صوت كيسنجر ، وحضور بديهته وإخلاصه الظاهري قد كسبت الأسد واجتذبته . أما حقيقة كون كيسنجر يهودياً، أي من أبناء عمومة العرب نوعاً ما ، فقد كانت من عناصر جاذبيته .

كانت اتفاقية سيناء الأولى قد تركت الأسد يقف على أرض فيها كثير من المجاهل . كان يدرك بأنه مهدد من فك الاشتباك المصري ، ولكنه لا يعرف بالضبط ما هي الأخطار ولا أين ستقع الضربة التالية . وكانت عاطفته المباشرة هي الشعور بالغضب لخروج السادات من الصف العربي . وعندما زاره كيسنجر غداة صراعه الطويل مع السادات في مطار دمشق واجهه الأسد بحديث طويل استغرق ساعة ونصف الساعة هاجم فيه موضوع ازدواجية السادات المراوغ . واستذكر كيسنجر فيما بعد أن ثورة الأسد المنضبطة بسيطرته عليها كانت أكثر تأثيراً بسبب سلوكه البارد والحذر وغير العاطفي(١٨) ./ وكانت تلك الثورة موجهة

ضد السادات ولكنها تجنبت أستاذ السادات الأميركي الخبيث ، وهي تعكس مدى بعد الأسد عن الشك في النوايا والأهداف الحقيقية لاستراتيجية كيسنجر .

كانت طبيعة الأسد كلها قد ثارت على طريقة السادات في التعامل مع اسرائيل . كان السادات هوائي المزاج سريع التقلب شديد الثقة إلى حد التهور ، متعجرفاً وواسع الخيال في التفاوض ، يكتسح الخلافات والصراعات الصغيرة جانباً من أجل الصورة الأكبر والأوسع . بينما كان الأسد صلباً وثابتاً وبطيء الحركة وشديد التمسك بمواقفه ولا يسلم بالأشياء الصغيرة ، وحذراً في الأساس. وعلق كيسنجر بحزن فيما بعد بأن بين السوريين والاسرائيليين تشابهاً أكثر مما قد يعترف به أي من الجانبين . ولكن الغضب لم يكن عاطفة مفيدة في محنة الأسد . كان الفرق الجوهري بينه وبين السادات كما يراه هو أن السادات كان يعتقد بأنه يستطيع الحصول على ما يريد بنزع زيّه العسكري (كما وعد غولدا مائير أن يفعل بعد اتفاقية فك الاشتباك) بينما كان الأسد مقتنعاً بأن اسرائيل لن تتراجع إلّا تحت الضغط العسكري . والسؤال الذي كان عليه أن يطرحه على نفسه وعلى كبار ضباطه هو ما إذا كانت سوريا تجرؤ على ممارسة مثل هذا الضغط وحدها ، فهل كانت سوريا لا تزال تملك خياراً عسكرياً .

لم تكن ظروف سوريا ميئوساً منها . إذ لم تكن اسرائيل آخذة بخناق الأسد كما فعلت مع السادات ، فلم يكن لديه جيش محاصر يعتمد بقاؤه على رحمة اسرائيل . وكان الممر المستطيل الذي تحتله اسرائيل باتجاه دمشق هو نفسه معرضاً للخسائر والضربات الموجعة ، إذ كان باستطاعة سوريا أن تشن عليه الغارات ، وتستعمل المدفعية ، وتجعل الحياة عموماً غير مريحة للاسرائيليين . «كنا نستطيع شن حرب استنزاف ، فما دام القتال مستمراً فإن معنى ذلك أن اسرائيل لم تكسب . وإذا كانت لم تكسب ، فمعنى ذلك أنها خسرت»[١٩] . ـ هكذا استنتج الأسد ، ربما بتفاؤل أكثر مما كان الموقف يدعو إليه . وهكذا فإن المدافع نادراً ما هدأت على الجبهة طوال ربيع سنة ١٩٧٤ ،

بينما كان كل جانب يستعد للمساومة على الجولان . كانت هذه هي طريقة الأسد للاشعار بأنه ليس كالسادات ، وبأن مصالحه يجب النظر فيها بشكل جدي ولكن الأسد لم يكن بيده سوى أوراق قليلة أخرى . كان يحتجز بعض الأسرى الاسرائيليين . . . وهذه ورقة مفيدة ، ولكن غولدا مائير أصرت على أن يلعبها حتى قبل أن توافق على بدء المفاوضات . وكان الأسد يأمل أيضاً بأن يحصل على بعض الفائدة من الضغط الناجم عن حظر الدول العربية لتصدير النفط خلال حرب تشرين ، فقد كان ذلك الحظر مستمراً في الأسابيع الأولى من عام ١٩٧٤ .

وطار في ١٢/ ٢/ ١٩٧٤ إلى الجزائر ليجتمع مع بومدين والسادات والملك فيصل عاهل العربية السعودية للتشاور حول الخطوة التالية . وكما كان متوقعاً ، دافع السادات عن استراتيجيته باعتبارها الطريق الصحيح نحو السلام ، بينما أبدى الأسد تحفظات قوية . غير أن الزعماء الآخرين حثوه على متابعة موضوع فك الاشتباك . ولكي تسير الأمور اتفقوا على أن تعطي سوريا كيسنجر قائمةً بأسماء الأسرى الاسرائيليين لديها . وهكذا حمل هذه القائمة ـ المكتوبة باللغة العربية إلى واشنطن رسول خاص ، حيث قام الدكتور صباح قباني ، رئيس قسم المصالح السورية المفتوح حديثاً في واشنطن ، بتسليمها لكيسنجر في ٢٠ شباط / فبراير . وكان الأسد يدرك تماماً الأهمية العاطفية والسياسية التي تعلقها غولدا مائير على موضوع الأسرى . وكان يظن أن الاسرائيليين سيفهمون مغزى إشارته عندما يتسلمون القائمة ، وأنهم قد يردون عليها بإشارة إيجابية مماثلة . وقد أوضح ذلك الدكتور قباني ، الذي أخبر كيسنجر بأن على الاسرائيليين ، قبل أن يترجموا القائمة من العربية ، أن يترجموا معنى تزويدهم بها ، وأن يجدوا فيها دليلاً على أن حرب تشرين / اكتوبر قد خلقت وضعاً جديداً جعل سوريا قادرة على اتخاذ خطوات إيجابية تجاه تسوية سلمية . واستذكر الدكتور قباني فيما بعد أن كيسنجر كان قد وعده بأنه لن يخبر الاسرائيليين بوجود القائمة لديه إلّا بعد أن يصل إليهم في ٢٧ شباط ، زاعماً أنه

يريد أن يحصل منهم بالمقابل على التزام حيال المطلب السوري بالنسبة لخطوط فصل القوات ولكن كيسنجر ، على أية حال ، لم يحافظ على ذلك الوعد . فما أن غادر الممثل السوري مكتبه حتى سارع كيسنجر إلى الاتصال بالسفير الاسرائيلي في واشنطن وطلب منه أن يعلم غولدا مائير بوجود القائمة معه[٢٠] .

وكان الموضوع الكبير الآخر في قمة الجزائر هو سلاح العرب النفطي . كان هذا السلاح قد شهر في أواخر تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، واقتضى فرض حظر على بعض شحنات النفط للولايات المتحدة وهولندا ، إضافة إلى تخفيضات في الإنتاج تتراوح ما بين خمسة وعشرة بالمائة . ورغم أن تأثير هذا السلاح كان نفسياً أكثر منه حقيقياً ، فقد صمم كيسنجر على حرمان العرب ـ والأسد بشكل خاص ـ من أية فائدة يمكن جنيها منه . وهكذا جنّد السادات ليطالب الجزائر برفع الحظر . ومن جهة أخرى كان الأسد يريد أن يستمر الحظر على الأقل لمدة تكفي لمساعدته في مفاوضات الجولان . وتمكن من الحصول على تعهد بذلك من الجزائر ، إلّا أن الأحداث أثبتت أن ذلك التعهد لم يكن التزاماً أكيداً ، إذ أن القادة العرب قد تراجعوا عنه ليظهروا حسن نواياهم لكيسنجر .

فقد أرسل العرب وزيري خارجية السعودية ومصر ، عمر السقاف واسماعيل فهمي ، إلى واشنطن لابلاغ كيسنجر بقرارات الجزائر . وعلى الفور وقع الرجلان ضحية لعبة يتقنها كيسنجر ، فقد ذهب بنفسه إلى المطار لاستقبالهما شخصياً ، وهذا تكريم نادر ، ثم عانقهما بالأحضان على الطريقة العربية . والعرب يميلون عادة إلى عدم التمييز بين العلاقات الشخصية والرسمية . وهكذا لم يتصور الوزيران أن رجلاً استقبلهما بهذه الحفاوة الدافئة يمكن أن يعمل على نسف مصالحهما القومية . وبعد الاستقبال والتحية العاطفية جاءت الأخبار السيئة : إن الرئيس يرفض أن يستقبلهما وهو تحت التهديد

بالحظر النفطي ، وإن رفع الحظر يجب أن ينفصل تماماً عن المفاوضات السورية ـ الاسرائيلية . وبعد استشارة حكومتيهما استسلم الوزيران تماماً ، وتم رفع الحظر في آخر الأمر وشطب في ١٨ آذار / مارس سنة ١٩٧٤ .

وبذلك فقد الأسد ورقتيه كلتيهما : أسرى الحرب والسلاح النفطي . غير أن كيسنجر لم يكن قد اقتنع بعد بأن الأسد قد أصبح ضعيفاً بما فيه الكفاية قبل بدء المفاوضات . وبذل أقصى جهده لإغلاق أي مصدر محتمل لدعمه سواء في الوطن العربي أم في موسكو وأدرك كيسنجر انه إذا استطاع أن يقنع بومدين ، القائد الثوري الذي أبرزته حرب استقلال الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي ، بمزايا دبلوماسية التدرج خطوة ـ خطوة ، فسيصبح بالامكان استخدامه للضغط على الأسد . وهكذا وجد كيسنجر الوقت، لزيارة الجزائر في غمرة رحلاته التي تشبه الغارات في الشرق الأوسط . ثم حاول أن يزرع بذور الشك بين سوريا والاتحاد السوفياتي ، فنقل إلى بريجنيف في السادس والعشرين من آذار / مارس خبراً غريباً ومذهلاً هو أن الأسد قد طلب سلاحاً من الولايات المتحدة . وصك بريجنيف على أسنانه وهو يسأل كيسنجر عن سبب عدم تلبية أميركا لذلك الطلب ، فأجاب كيسنجر دون أن يرف له جفن أو يبدو على وجهه أي انفعال بأنه كان مهتماً جداً بعدم تأجيج سباق للتسلح[٢١] .

وكان أساس هذه الدسيسة التخريبية مزاحاً متبادلاً جرى في دمشق قبل ذلك ببضعة أسابيع . فقد تذكر الأسد أن كيسنجر قد برر تدفق الأسلحة الأميركية على اسرائيل بالقول إنه لا يستطيع أن يسمح باندحار الأسلحة الأميركية على يد الأسلحة السوفياتية ، ومن ثم حاول الأسد أن يقلب هذه الحجة الأميركية على أصحابها فتساءل : «ماذا لو حصلت سوريا على أسلحة أميركية ؟» إن المسألة عندئذ ستكون وقوف أسلحة أميركية ضد أسلحة أميركية . . . وعندئذٍ ألا تنهار حجة كيسنجر في النقاش ؟ وفي هذه الملاحظات لم يكن الأسد يطلب أسلحة أميركية ، بل كان يؤكد نقطة جدية هامة . لقد أراد أن «يثقب» الرأي الذي جعله

كيسنجر سياسة رسمية للولايات المتحدة ، والزاعم بأن الاتحاد السوفياتي يمكن إبقاؤه خارج منطقة الشرق الأوسط بجعل اسرائيل قوية ومتفوقة . وقال الأسد : «يجب التوقف عن الحديث عن أسلحة أميركية ضد أسلحة سوفياتية . إن المشكلة يجب عدم تصويرها على أنها قضية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ؛ بل إنها بين العرب واسرائيل»[٢٢] . وفهم كيسنجر هذه النقطة حقاً ، غير أن ذلك لم يمنعه من إساءة نقل الكلام عن الأسد عمداً في موسكو على أمل إثارة المتاعب بين الحليفين . وعندما ذهب الزعيم السوري نفسه إلى موسكو في نيسان / أبريل سنة ١٩٧٤ لاجراء محادثات مع بريجنيف وغروميكو عشية مفاوضات الجولان ، وجد أن أمامه الكثير من الشرح والتفصيل لإفهام السوفيات سياق الكلام الذي أساء نقله كيسنجر .

على أن هذه المكائد كانت تبدو شيئاً مشروعاً ومعقولاً إذا ما قورنت بالمكيدة التي استخدمها كيسنجر لحرمان الأسد من أي خيار قتالي عسكري محتمل . كانت الحرب هي الشيء الذي يخشاه كيسنجر لأنه كان يعرف أنها إذا اندلعت فسيجد السادات نفسه مضطراً للدخول فيها ، وقد تؤدي إلى تجدد حظر النفط ، وقد يعود السوفيات إلى وسط المسرح وتصبح سياسة كيسنجر نفسها موضعاً للسخط وعدم الترحيب ، وتقيد بقيود لم يكن يرغب فيها . كان العراق هو الدولة العربية الوحيدة التي قدمت لسوريا دعماً عسكرياً مفيداً في حرب تشرين . وكان كيسنجر مصمماً على وجوب منع العراق من تكرار ذلك الدعم الذي قد يشجع سوريا على استئناف الحرب أو التهديد بها . وهكذا تواطأ مع شاه إيران ومع الاسرائيليين في ربيع عام ١٩٧٤ على النفخ في الجمرات التي ما زال الدخان يتصاعد منها بسبب النزاع الطويل الأمد بين الأكراد العراقيين وبين حكومة بغداد ، لابقاء الجيش العراقي مشغولاً في الداخل . وكان تحريك الأكراد مشهداً محفوظاً جيداً من قبل وقد أجرت عليه اسرائيل «بروفات» ، إذ أنها ظلت تقدّم للأكراد العراقيين مساعدات بطريقة متقطعة طيلة عقدين من الزمن ، لأنها كانت تعتقد بأن زعزعة استقرار الأقطار العربية ، حتى تلك البعيدة عنها ،

هو شيء يخدم مصلحتها دائماً . كانت أول مجموعة من الأكراد قد وصلت إلى قاعدة اسرائيلية قرب الرملة في منتصف الخمسينات للتدرب على العمليات التخريبية . وقد قام رافائيل إيتان (الذي أصبح فيما بعد رئيساً للأركان في اسرائيل) بزيارة كردستان العراق خلسة . وعند منتصف الستينات كانت اسرائيل قد أصبحت من الدعامات الرئيسية للأكراد(٢٣) .

ولقد كانت هذه القضية الموحلة من بين المواضيع التي طالها التحقيق في أعقاب فضيحة ووترغيت ، عندما كانت لجنة تابعة للكونغرس يترأسها أوتيس بايك (النائب الديمقراطي عن نيويورك في الكونغرس) تحقق في العمليات السرية التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزية . وعندما اكتمل تقرير لجنة بايك في كانون الثاني / يناير عام ١٩٧٦ اعتُبِرَتْ محتوياته شديدة الحساسية بحيث لا يمكن نشرها . غير أنها تسربت إلى مجلة ذي فيليج فويس «صوت القرية»(٢٤) في شباط / فبراير من ذلك العام ، ونشرتها مؤسسة برتراند رسل للسلام في عام ١٩٧٧ . وفيها أن كيسنجر قد أوضح بأن تسليح وتمويل الأكراد كان وسيلة لردع العراق عن أية «مغامرات دولية» - أي تقديم العون لسوريا . ولم يكن الهدف المقصود هو أن يربح الأكراد ، بل أن يستنزفوا قوة العراق . ويستطرد تقرير لجنة بايك فيقول : «إن عملاءنا [الأكراد] الذين شجعناهم على القتال لم نخبرهم بهذه السياسة . لقد كان مشروعاً يسخر من كل الاعتبارات الأخلاقية ، حتى بمقاييس وسياق عمليات التحريض وتقديم المساعدة سراً» . وكانت أقرب نقطة وصل فيها كيسنجر إلى حدود الاعتراف بهذه القضية المخزية القذرة هي قوله : «كانت إيران حليفتنا ، وكانت تبقي القوات العراقية المسلحة مشغولة على الحدود الشرقية ، بعيدة جداً عن سوريا»(٢٥) . ولقد دفع الأكراد ثمناً فادحاً لتدخلات وزير الخارجية الأميركي .

فالزعيم الكردي ، الملا مصطفى البرزاني ، وقد صدّق أن الولايات المتحدة كانت تساعده على تحقيق تطلعاته القومية ، قام بإرسال هدية

من السجاد إلى كيسنجر ، ثم قلادة من الذهب واللؤلؤ لعروسه بمناسبة زفافه في شهر آذار / مارس عام ١٩٧٤ . ولكن بعد أن أدى الأكراد الغرض الذي استُغلوا لأجله بإضعاف العراق وضمان عدم قدرته على التوجه لمساعدة سوريا ، تم التخلي عنهم بين ليلة وضحاها في صفقة بين العراق وإيران أصبحت رسمية باتفاقية الجزائر في ١٣/ حزيران ـ يونيو عام ١٩٧٥ . فتركت إيران الأكراد لمصيرهم وقطعت عنهم الامدادات وأغلقت بوجههم حدودها ، فذبح العراق كثيرين منهم وشرد عشرات الألوف من مناطق الحدود . وفي مقابل ذلك تنازل العراق لايران عن جزء من سيادته على شط العرب ، الشريان المائي على رأس الخليج بحيث أصبح تحت سيطرة مشتركة . وصحا البرزاني على خيبة أمل كاملة عندما أدرك أنه قد استُعْمِل بقسوة كأداة . وكانت هناك عواقب أخرى مصيرية طويلة الأمد . فاتفاقية الجزائر التي انتزعت من العراق انتزاعاً تحت ضغط الحرب الكردية ظلت تثير الحزازات في النفوس . وكانت محاولة تمزيقها أحد الأسباب التي جعلت حاكم العراق صدام حسين يدخل في حرب مع إيران عام ١٩٨٠ .

كانت تلك هي العواقب التي ظهرت فيما بعد لدبلوماسية كيسنجر أما في حينه (أي سنة ١٩٧٤) فقد أصبح الأسد معزولاً وضعيفاً ، تماماً كما كان يريد وزير الخارجية الأميركية .

اتفاقية فك الاشتباك

أدت رحـلات كيسنجر المكوكية من سوريا وإليها ، والتي استغرقت شهراً ، من ٢٩ / نيسان ـ إبريل إلى ٢٩ أيار ـ مايو سنة ١٩٧٤ إلى جعل الأسد لأول مرة محط اهتمام دائرة الضوء الاعلامي في العالم . ولا شك في أنه قد تمتع بالمبارزة الفكرية التي كانت لديه ولدى كيسنجر موهبة طبيعية في ممارستها . وقدّر هارولد ساوندرز (الذي كان في ذلك الحين واحداً من مساعدي وزير الخارجية الأميركي) أن تلك المبارزة المتطاولة مع الأسد قد تضمنت مائة

وثلاثين ساعة من المحادثات وجهاً لوجه وما لا يقل عن ستة وعشرين وصولاً ومغادرة إلى مطار دمشق ومنه[٢٦] . وصار من عادة كيسنجر ، وصار الأسد يتوقع منه ، أن يبدأ كل جلسة بـ «ندوة» عن السياسة ، وعن شخصيات كبار القادة في العالم أو عن موضوع سياسي من الوزن الثقيل كالصين ، والمفاوضات الفيتنامية ، أو العلاقة بين الكونغرس والفرع التنفيذي في الحكومة الأميركية . وكان الأسد متشوقاً لتعلم الكثير عن العالم ، ووجد في كيسنجر معلماً خصوصياً جاهزاً . وبما أنه كان في طبيعة كل منهما لمحات من شخصية المدرس أو الأستاذ فقد كانت مناقشتهما تطول حتى لقد أصبح كل منهما يعجب بالآخر ، بل يحبه . . . وأدى هذا الصراع الذي كان يدور وسط دائرة ضوء إعلامي حادّ إلى صعود نجم الأسد واكتسابه سمعة كبطل صامد في الدفاع عن المصالح السورية ، وكعنصر فاعل ومستقل في القضايا العربية . غير أن تصاعد نفوذه كانت تقابله على الأرض مكاسب ضئيلة شحيحة ، ولم تكن دراما الرحلات المكوكية كلها أكثر من مثال كلاسيكي على الشعوذة الكيسنجرية المضللة .

وعند اقتراح فك الاشتباك أول الأمر كانت المواقف السورية والاسرائيلية متباعدة . ولتضييق الهوة بينهما دعاهما كيسنجر لإرسال ممثلين عنهما إلى واشنطن يحملون مقترحات جديدة . فجاء دايان عن اسرائيل في أواخر آذار / مارس حيث أُخْبِرَ بأن السوريين يجب أن يحصلوا كحد أدنى تماماً على شريحة رمزية من الأرض غربي خط وقف إطلاق النار القديم، وعلى القنيطرة كذلك . أما المبعوث السوري ، رئيس المخابرات العسكرية ، حكمت الشهابي ، الذي وصل وهو يحمل ببراءة مؤثرة هدايا من الأثاث المطعم بالصدف وبعض قطع النحاس المزخرف لوزير الخارجية الأميركي ، (وتم إرسالها إلى مستودع وزارة الخارجية) ، فقد أخبروه بأن القنيطرة هي كل ما تستطيع سوريا أن تأمل في الحصول عليه في هذه المرحلة . وحاز كيسنجر على موافقته على خطة لفصل القوات فيها ثلاث شرائح من الأرض ، أي منطقة عازلة تابعة للأمم المتحدة تحيط بها منطقتان سورية واسرائيلية فيهما قوات وأسلحة محدودة . وهكذا تمت

تهيئة المسرح لجولات كيسنجر المكوكية التي استغرقت شهراً ما بين دمشق والقدس .

لم يكن من السهل أن تُكسى هذه الخطة باللحم والعظم على أرض الواقع . وكانت هناك اختناقات ومصاعب حول الأماكن التي يجب أن تتواجد فيها بالضبط الخطوط السورية والاسرائيلية الأمامية ، وحول حجم قوات الأمم المتحدة ، في المنطقة العازلة ، وحول عمق المناطق التي تتواجد فيها قوات محدودة ، وعلى الخصوص حول من سيسيطر على التلال المطلة على مدينة القنيطرة ، بعد أن توافق اسرائيل على التخلي عنها . وكانت المفاوضات على وشك الانهيار مرتين انهياراً كاملاً ، وكانت حقائب كيسنجر على الطائرة فعلاً قبل أن يستدعيه الأسد للعودة . كان من بين العقبات التي عرقلت الأمور ساعات طويلة وشاقة مسألة الفدائيين الفلسطينيين . كانت اسرائيل تريد من الأسد أن يتعهد بمنع غاراتهم ، وكان الأسد في منتهى التصلب في رفض مثل هذا الالتزام . فلم يكن ينوي أن يصبح شرطي حدود لاسرائيل . وعندما نوقش الموضوع الفلسطيني أول الأمر حاول كيسنجر أن يخفيه وراء عبارة فضفاضة كما فعل بنجاح في اتفاقية سيناء عندما وافقت كلٌ من مصر واسرائيل على الامتناع عن القيام بأية أعمال عسكرية ، وكذلك «شبه عسكرية» ضد الطرف الآخر ، وكانت هذه العبارة الأخيرة تشير إلى الفدائيين . وتساءل الأسد ، متظاهراً بالدهشة : «ما هذه الأعمال شبه العسكرية؟» ولم يقبل بهذا الاصطلاح ، وظل كيسنجر يوماً كاملاً أو يومين يلعب مع الأسد لعبة مدلولات الألفاظ . وأخيراً قال الأسد : «دعنا نتحدث بصراحة . إنك تعني المقاومة الفلسطينية أنا لا أقبل أي تحديد لنشاطهم في الاتفاقية» ، ولمنع كيسنجر من الإلحاح على هذه النقطة كان قد نشر في الصحافة السورية في ذلك اليوم تصريحاً يقول إن عمليات الفدائيين لن تكون مشمولة في اتفاقية فصل القوات المقترحة [٢٧] .

وكان كيسنجر يفهم أن القضية ذات أهمية سياسية اكثر منها عملية لأن

الأسد على أية حال لم يسمح قط بغارات فدائية على الجولان ، ولكسر الجمود اقترح أن تقوم الولايات المتحدة بابلاغ اسرائيل أنها تفهم أن اتفاقية وقف إطلاق النار السورية ـ الاسرائيلية تستبعد غارات الفدائيين وأن أميركا تعترف بحق اسرائيل في الرد إذا تعرضت لهجمات الفدائيين . وعندما جرب كيسنجر هذه الصيغة على الأسد قال الأسد إنه غير مهتم بما تختار الولايات المتحدة أن تفعله ، لأن هذا شأنها لا شأنه[٢٨] . وهكذا تمت الاستدارة بأناقة حول هذه العقبة . وبينما كانا يتحاوران كانت المدافع تهدر على الجبهة القريبة منهما على الطريق . ولاحظ الأسد أن القصف كان يشتد عند اللحظات الحرجة والصعبة من المحادثات ، واستذكر أن كيسنجر كان خلال المفاوضات مع الفيتناميين يشدد التركيز على بعض النقاط بتشديد الغارات الجوية .

وأخيراً وافقت اسرائيل على التخلي عن الامتداد المستطيل الذي احتلته في حرب تشرين/ اكتوبر ، وكذلك عن شريط ضيق من الأرض يتلوى حول القنيطرة ، رمز هزيمة ١٩٦٧ ، ورغم أن المدينة بقيت في المنطقة العازلة التابعة للأمم المتحدة وخارج خطوط القوات السورية ، فقد أعيدت إلى الأيدي السورية ، ولكن الاسرائيليين قبل انسحابهم نسفوا وسحقوا بالبلدوزرات كل بيوتها وخزانات مياهها وخطوط مواصلاتها ، تماماً كما فعلوا بمنطقة السويس . وقد أدانتهم الأمم المتحدة على فعلتهم هذه. وجاء تدمير القنيطرة مؤكداً لرأي السوريين في أن الاسرائيليين هم همج العصر الحديث . وهكذا لم تحصل سوريا إلا على مدينة القنيطرة مقابل ما خسرته في الحرب من ثروات في المال والرجال (٦٠٠٠ شهيد) .

وحصل الاسرائيليون على بعض الرضا من توسيع قوات الأمم المتحدة حتى وصلوا إلى ١٢٥٠ رجلاً ، ومن الاحتفاظ بالسيطرة على المرصد في جبل الشيخ ، وعلى التلال الواقعة غرب القنيطرة مباشرة . ووافقت كل من سوريا واسرائيل على تحديد قواتهما وأسلحتهما على عمق عشرين كيلومتراً من

خطوطهما الأمامية ، وأن لا توضع قذائف سام المضادة للطائرات ضمن منطقة عمقها خمسة وعشرون كيلومتراً . وتم التوقيع على اتفاقية فصل القوات من قبل الممثلين العسكريين بجنيف في الحادي والثلاثين من أيار / مايو عام ١٩٧٤ .

وغالباً ما كان موضوع الخلافات والمساومات الصعبة الطويلة تافهاً ـ مثل كيلومتر هنا أو هناك ـ ولكن طول الزمن وتسليط أضواء أجهزة الاعلام أضفى على مقابلة الأسد مع كيسنجر أهمية أوسع . وقد استعادت سوريا أشياء قليلة جداً ، غير أن الأسد تصرف بطريقة جيدة ، فقاتل من أجل كل بوصة من الأرض ولم يؤخذ بالتملق والمداهنة كالسادات . فبينما قبل الوساطة الأميركية ، لم يتخلَّ عن صداقته للاتحاد السوفياتي. وقد خرج من التجربة وهو رجل أكبر سواء من الناحية الشخصية أو السياسية .

ولكن ههنا كانت تكمن خدعة كيسنجر المتعلقة بالثقة .فقد أضفى كيسنجر على الأسد هالة من الاهتمام مكّنته من إقناعه بأن عملية استعادة الأراضي السورية قد بدأت وأن خطوة قد اتخذت نحو السلام ـ وهو سلام أعلن الأسد بصراحة أنه مستعد له(٢٩) . ولكن هدف كيسنجر لم يكن سلاماً سورياً ـ اسرائيلياً ، دع عنك مسألة تسوية شاملة على كل الجبهات ؛ بل كان هدفه سلاماً مصرياً اسرائيلياً يترك السوريين والفلسطينيين والأردنيين عاجزين بخروج مصر من المعادلة العسكرية . وكانت الخطوة المتواضعة على الجبهة السورية مجرد تدبير يسمح لكيسنجر بجرّ السادات إلى التزامات ذات آماد بعيدة أكثر .

وعود . . للطرفين معاً

كان اجتهاد كيسنجر في مساعدة اسرائيل يعادل اجتهاده في تقسيم العرب وإضعافهم وتقطيع أوصالهم . فقلب مقولة الخارجية الأميركية رأساً على عقب ، وهي المقولة التي كانت تؤكد أن الدعم الأميركي لاسرائيل ينفّر العرب من أميركا ، فأكد بأن الأمر على عكس ذلك تماماً ، وأن قيام تحالف أميركي ـ اسرائيلي قوي سيجعل العرب يأتون خاضعين مستجدين . «قد يكرهنا

العرب . . . ولكنهم . . . سيضطرون إلى المجيء إلينا»[٣٠] . فالعلاقة الاستراتيجية التي صيغت خلال أزمة عام ١٩٧٠ في الأردن تعمقت خلال حرب اكتوبر بالجسر الجوي والبحري للمعونات الأميركية لاسرائيل وبمضاعفة الدعم المالي إلى عشرة أمثال ما كان عليه من قبل . وأصبح التنسيق السياسي جزءاً من هذه العلاقة أكثر من ذي قبل ، وهو تنسيق يهدف إلى حماية اسرائيل من الاضطرار إلى التفاوض مع الفلسطينيين ، ومن الانسحاب إلى حدود ما قبل / يونيو- حزيران سنة ١٩٦٧ . لقد فهم كيسنجر ، وكان عليه أن يعلّم الاسرائيليين ، بأن فصل القوات ليس من الضروري أن يكون خطوة نحو الانسحاب الكامل ، ولكنه يمكن أن يصبح بديلاً عن التفاوض حول الحدود النهائية[٣١] .

وكما في السابق ، تصرف كيسنجر حسب الافتراض بأنه عادة يعرف أحسن من الزعماء الاسرائيليين أنفسهم ما هو الأفضل لاسرائيل . فقد كان هو الذي أقنع الاسرائيليين بأنه ليس من مصلحتهم تدمير الجيش المصري الثالث . وكان أيضاً هو الذي أوضح لهم بأن فصل القوات وفك الاشتباك مع سوريا كانا ضرورة سياسية محتومة لتحقيق السلام المرغوب فيه كثيراً مع مصر ، وهو الذي أقنع غولدا مائير بعدم ربط موضوع الأسرى الاسرائيليين في سوريا بموضوع فصل القوات مع مصر كما كانت مائير تريد . فشرح لها بأن ذلك الربط سيحقق أهداف الأسد ويمكنه من عرقلة اتفاق سيناء الأول . وكان كيسنجر هو الذي طلب من دايان أن يتشدد أكثر وأوضح له أن العرب يجب أن لا تتكون لديهم فكرة أن الولايات المتحدة تستطيع أن تؤثر على اسرائيل بسهولة . وكان هو الذي نصح اسرائيل بأن لا تتخلى عن أية مستوطنة في الجولان عند الاتفاق مع الأسد .

وقد دُعمت هذه النصائح التكتيكية بالتزامات سرية . فقد اتفق كيسنجر في الرأي مع غولدا مائير بأن الفلسطينيين يجب أن لا يُمثّلوا في الدعوة إلى

مؤتمر جنيف، وأن لا تُدعى أطراف أخرى إلى أية اجتماعات في المستقبل «بدون موافقة جميع المشتركين الأصليين» وكان معنى ذلك إعطاء اسرائيل حق الفيتو لرفض اشتراك سوريا أو منظمة التحرير الفلسطينية في المستقبل(٣٢) . فلقد كانت اتفاقية سيناء الأولى مصحوبة بـ «مذكرة تفاهم» أميركية ـ اسرائيلية سرية تعهدت فيها الولايات المتحدة بأن «تبذل كل جهد لتستجيب استجابة كاملة لمتطلبات اسرائيل من المعدات العسكرية باستمرار وعلى المدى الطويل»(٣٣) .

أما اتفاقية الجولان فكانت مصحوبة هي الأخرى بمذكرة سرية وعدت بموجبها أميركا بالتنسيق مع اسرائيل في أية مبادرة سلام مع سوريا في المستقبل(٣٤) . وعشية بدء رحلاته المكوكية إلى سوريا ، وفي سبيل تشجيع الاسرائيليين لعمل ما هو أولاً وأخيراً في صالحهم ، نجح كيسنجر في إقناع الرئيس نيكسون في أن يسامح اسرائيل بمبلغ ألف مليون دولار من أصل القرض البالغ ألفين ومائتين مليون دولار الذي مُنح لها لشراء أسلحة خلال حرب تشرين . ولم تمض بضعة شهور حتى أعفيت اسرائيل من دفع خمسمائة مليون دولار أخرى . وقد علّق على هذه الانجازات التي حققها كيسنجر لاسرائيل أستاذٌ جامعي بارز (هو البروفسور ستانلي هوفمان) فوصف كيسنجر بأنه «أهم شخصية سياسية اسرائيلية»(٣٥) .

ولم يخرج العرب صفر الأيدي كذلك ، فقد حصلوا هم أيضاً على تعهدات سرية . فالسادات وعدته الولايات المتحدة بأن تعمل على تنفيذ القرار ٢٤٢ بكامله ، والأسد وعدته بالعمل على تنفيذ القرار ٣٣٨ بكامله . غير أن هذه الوعود والتعهدات قد أفرغتها من المعنى تعهدات كيسنجر المعاكسة ، والأكثر دقة وتحديداً ، لاسرائيل .

الخاتمة

وكانت خاتمة المبارزة الأسديّة ـ الكيسنجرية الكثيرة المزالق فصلاً شاذاً

شديد الغرابة . ففي حزيران / يونيو سنة ١٩٧٤ كان نيكسون يعاني من جلطة في وريد ساقه ومن تعاسات فضيحة ووترغيت ، فقام بجولة شاملة في الشرق الأوسط ليحتفل بالمكانة الجديدة لأميركا في المنطقة . وفيما بين الثاني عشر والثامن عشر من حزيران / يونيو زار كلاً من السادات ، وفيصل ، والأسد ، ورابين (الذي كان قد أصبح رئيساً للوزراء بدلاً من غولدا مائير في نيسان / ابريل من ذلك العام) ، وحسين . كان نيكسون بحاجة للمديح والتصفيق في الخارج ليزيل آثار العار المخزي الذي لحق به في الداخل ، ولكن العرب الذين لم يفهموا ضخامة أبعاد فضيحة ووترغيت نظروا إلى زيارته من زاوية مصالحهم واهتماماتهم . كانت الزيارة بالنسبة لهم تعني المصالحة مع الولايات المتحدة بعد خصام طويل ، وتأييداً أميركياً على أعلى مستوى للسلام المشرف الذي طالما انتظروه . وفي كل مكان ـ حتى في سوريا ـ خرجت جماهير غفيرة لاستقباله استقبالاً ودياً حافلاً .

ولم يجد كيسنجر هذه الرحلة مريحة ، إذ أن رئيسه لم يكن على اطلاع على خطط وزير الخارجية ، وظل نيكسون يخرج عن النصوص . وهكذا وعد السادات بأن يعيد لمصر حدودها الدولية في سيناء ، كما تحدث عن ضرورة إدخال الفلسطينيين في المفاوضات ـ وكان ذلك بالضبط هو الشيء الذي وعد كيسنجر الاسرائيليين بعدم حدوثه .

وقدر لكيسنجر أن يواجه حرجاً أعظم من ذلك في سوريا التي وصل إليها نيكسون ومرافقوه في ١٦ / حزيران / يونيو سنة ١٩٧٤ . فبعد الجزء الاحتفالي ـ استئناف العلاقات الدبلوماسية ، ووعد ببرنامج مساعدة أميركي (متواضع) ـ سحب الأسد نيكسون إلى غرفة مكتبه . كانت تلك هي اللحظة التي ينتظرها . وبدأ الأسد ببيان صريح شرح فيه قبوله للقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ واستعداده للسلام مع اسرائيل شريطة أن تنسحب إلى حدود ما قبل حزيران / يونيو سنة ١٩٦٧ وتعيد للفلسطينيين حقوقهم . كان يريد أن يؤمن بحسن نوايا

أميركا ، ولكنه في هذه الآونة كان بحاجة إلى تطمين . فطوال رحلات كيسنجر المكوكية ، كان الأسد يلح عليه لتقديم تعهد خطي مكتوب بأن تؤيد الولايات المتحدة حق سوريا في استرجاع الجولان بكامله ، ولكن دون جدوى . أما الآن فقد حاول أن يحصل من نيكسون على مثل هذا التعهد وعلى ما هو أكثر منه . ما هو فهم أميركا وتفسيرها لقرارات الأمم المتحدة؟ أكانت سياسة خطوة ـ خطوة تعني التقدم على جبهة واحدة فقط في كل مرة ؟ أكانت الولايات المتحدة تريد أن تجعل اسرائيل تسلّم الجولان عندما تنسحب من سيناء ؟ وكيف يتصور الرئيس نيكسون حدود اسرائيل النهائية ؟

كان كيسنجر قد بنى سياسته في الشرق الأوسط بكاملها على أساس تجنب هذه الأسئلة والتهرب منها . فقد كان من الضروري أن يفهم العرب شيئاً بينما تتلقى اسرائيل وعداً بشيء آخر تماماً . ولذا فإن أسئلة الأسد الفاحصة المتعمقة خلقت مشكلة وخاصة عندما اتجه نيكسون (وبنفس حالة الانفتاح الواسع في القاهرة) بشكل خطر نحو تقديم التعهدات والتأكيدات التي طلبها الأسد . ولقد نجا كيسنجر فعلاً وحقيقةً بواسطة الجرس الذي دقّ معلناً انتهاء الجولة فقد كان على الوفد الأميركي أن يركب الطائرة عصر ذلك اليوم نفسه متجهاً إلى اسرائيل . وبينما اقترب نيكسون أكثر من موقف الأسد تدخل كيسنجر صارخاً : «سيدي الرئيس ، إننا مضطرون للمغادرة . لقد انتهى الوقت . إن الطائرة تنتظرنا» . وعندما قام نيكسون سيء الحظ بمحاولة أخرى ليجيب الأسد ، وجد نفسه يتعرض للمقاطعة من قبل وزير خارجيته . فاحمر وجهه وقال : «يا هنري ، ألا تريدني أن أتكلم؟» . ولكن هنري لم يهتز ، بل أجاب بلهجة ناعمة دمثة أن من الأفضل ترك معالجة هذه القضية إلى حين عودة الرئيس إلى واشنطن ، وبذلك ختم كيسنجر الاجتماع وسحب رئيسه إلى الخارج[٣٦] .

عند التفكير في هذه الواقعة ، بدأ الأسد وزملاؤه يعتقدون بأن نيكسون كان مستعداً لإلزام الولايات المتحدة بالبحث عن تسوية شاملة ، ولكن كيسنجر

نسف نوايا الرئيس الأميركي . وفي الثامن من آب ، وتحت التهديد بالإحالة إلى المحكمة استقال نيكسون وتسلم منه الرئاسة نائبه عديم الخبرة جيرالد فورد ، وأصبح كيسنجر مسيطراً على الأمور أكثر من ذي قبل . لقد خسر الأسد مبارزته ؛ وإن كان ـ في حينه ـ لم يدرك ذلك .

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار / مايو ١٩٨٥ .

(٢) نفسه .

(٣) وليام كوانت(مصدر سبق ذكره)، ص ٢٢٠ كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ٧٥٢ وماتي غولان : «الأحاديث السرية لهنري كيسنجر» (نيويورك ١٩٧٦) ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٤) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار/ مايو ١٩٨٥ .

(٥) كيسنجر (مصدر سبق ذكره)، ص ٧٦٩ ـ ٧٧٣ .

(٦) مقابلة مع هارولد هـ . ساوندرز في لندن (حزيران/ يونيو ١٩٨٥) .

(٧) مقابلة مع عدنان عمران في تونس في ٢٧/ ١٢/ ١٩٨٧ .

(٨) مقابلة مع أسعد كامل الياس بدمشق في ١١/ ٨/ ١٩٨٤ .

(٩) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ، ص ٧٨٣ .

(١٠) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار / مايو ١٩٨٥ .

(١١) نفسه .

(١٢) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ .

(١٣) الأهرام ، عدد ١٦/ ١١/ ١٩٧٣ .

(١٤) محمد حسنين هيكل : خريف الغضب (لندن سنة ١٩٨٣) (الطبعة العادية سنة ١٩٨٤) ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(١٥) الشاذلي : (مصدر سبق ذكره) ، ص ٢٩٠ .

(١٦) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار / مايو سنة ١٩٨٥ .

(١٧) نفسه .

(١٨) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ٨٤٩ .

(١٩) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار / مايو ١٩٨٥ .

(٢٠) مقابلة مع الدكتور صباح قباني في لندن (١٥/ شباط سنة ١٩٨٧) .

(٢١) وليام كوانت (مصدر سبق ذكره) ، ص ٢٣٧ .

(٢٢) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ، ص ٨٥٠ .

(٢٣) انظر الاعتراف الذي أدلى به مناحيم بيغن لاذاعة اسرائيل المحلية في ٢٩/ ٨/ ١٩٨٠ . ملخص الاذاعات العالمية في محطة الاذاعة البريطانية (عن يوم ١/ ١٠/ ١٩٨٠) .

(٢٤) مجلة ذي فيليج فويس (صوت القرية) بنيويورك ، عدد ٢٣/ ٢/ ١٩٧٦ . ومؤسسة براتراندرسل للسلام في نوتنغهام ١٩٧٧ ، وانظر كتاباً من تحرير جيرالد شاليان بعنوان : شعب بلا وطن : الأكراد وكردستان (طبع لندن ١٩٨٠) ص ١٨٣ ـ ١٨٧ .

(٢٥) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ، ص ٩٤١ .

(٢٦) مقابلة مع هارولد ساوندرز في لندن في حزيران/ يونيو عام ١٩٨٥ .

(٢٧) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار ـ مايو ١٩٨٥ .

(٢٨) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ، ص ١٠٩٠ ـ ١٠٩١ ، ص ١٠٩٨ .

(٢٩) انظر مقابلة الأسد مع آرنو دي بورتشغريف في مجلة نيوزويك في ٢/ ٦/ سنة ١٩٧٤ ، وكذلك كيسنجر مصدر سبق ذكره) ص ١١٣٣ .

(٣٠) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ، ص ٥٧٨ .

(٣١) مارفن وبرنارد كالب : كيسنجر (بواسطن ١٩٧٤) ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧ .

(٣٢) إدوارد ر. ف. شيهان «خطوة فخطوة في الشرق الأوسط» ، في مجلة فورين يوليسي (السياسة الخارجية) العدد ٢٢ (ربيع سنة ١٩٧٦) .

(٣٣) نفسه .

(٣٤) زيث شيف : «التعامل مع سوريا» في مجلة فورين بولسي (السياسة الخارجية) العدد ٥٥ (صيف سنه ١٩٨٤) .

(٣٥) ستانلي هوفمان : «سياسة جديدة لاسرائيل» في مجلة فورين آفيرز (الشؤون الخارجية) ، المجلد ٥٣ ، العدد ٣ (نيسان/ إبريل ١٩٧٥) .

(٣٦) مقابلة مع الدكتور أديب الداودي في جنيف في ٢/ تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة ١٩٨٤ ، ومع أسعد كامل إلياس بدمشق في ١١/ ٨/ سنة ١٩٨٤ ، وأنظر أيضاً كتاب كيسنجر الذي سبق ذكره ، ص ١١٣٣ ـ ١١٣٥ .

الفصل السادس عشر

١٩٧٥ : عام الخراب

كان الأسد في مزاج منشرح عندما أعطى مقابلة مطولة لأرنودي بورشغريف (من مجلة نيوزويك) عقب توقيعه على اتفاقية فصل القوات في الجولان:

- «إسرائيل تواجه الآن نفس المشكلة التي واجهتُها عندما أخبرني طبيبي بأن عليّ أن أترك التدخين أو أواجه خطراً يهدد صحتي. لقد أصبح استمرار الاحتلال ضاراً بصحة إسرائيل... ومثلما حدث لي عندما تركت التدخين، ستحدث لإسرائيل أعراض إنسحاب، ولكنهم سيتغلبون عليها»[1]. وكانت فحوى ملاحظاته أنه ما دامت إسرائيل قد بدأت بالانسحاب فإن بوادر السلام تلوح أخيراً في الأفق. وأوضح تماماً بأنه مستعد «للسلام الحقيقي» مع إسرائيل، وأنه عند تحقيق ذلك السلام فلن تكون هناك حاجة لمناطق منزوعة من السلاح كالتي لقي كيسنجر في تدبيرها وترتيبها كل ذلك التعب والنَصَب. وكان الأسد يتطلع إلى التفاوض مع إسرائيل في جنيف ضمن إطار قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨. وكانت شروطه للسلام - وبقيت - هي إنسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، وإعادة حقوق الشعب الفلسطيني.

وألح عليه بورشغريف: «حتى لو كان القرار هو تفكيك دولة إسرائيل؟» فرد الأسد:

- «إنني أتصور أن ما تقرره منظمة التحرير الفلسطينية لن يتخطى روح قرارات الأمم المتحدة، وهذه القرارات لا تدعو لتفكيك إسرائيل».

كانت هذه الكلمات الاسترضائية (الصادرة عن رجل يُعْتَقَدُ بأنه من الصقور بين جيران إسرائيل) تعكس إلتزام الأسد بتسوية. في أعقاب حرب تشرين/ اكتوبر، وثقته بقدرة هنري كيسنجر على إتمامها. ولم يكن شجاره مع السادات وضآلة مكاسبه من اتفاقية الجولان قد أخمدا آماله أو أحبطا توقعاته بعد. وبالإضافة إلى ذلك فقد شهد صيف عام ١٩٧٤ أعلى ارتفاع في منسوب علاقات سوريا الجديدة بالولايات المتحدة. وكان الأسد يشاطر العرب شعورهم العام بالارتياح لكون واشنطن قد بدأت أخيراً تهتم اهتماماً قوياً بمعالجة مشاكل المنطقة. وألح الزعماء العرب على كيسنجر ونيكسون بكشف الخطة الأميركية للسلام، وطرحوا أسئلة مثل: هل يفضل الأميركيون إنسحاباً إسرائيلياً كاملاً؟ وأين ستقع الحدود النهائية؟ وهل يمكن ترتيب حوار أميركي ـ فلسطيني؟ وفي هذه المرحلة كانت شكوك العرب ومخاوفهم الحقيقية تنبع من عدم قدرتهم على الحصول على أجوبة واضحة، أما آمالهم فقد ظلت هي نفسها إلى حد كبير.

وكان كيسنجر برحلاته المكوكية الدراميّة قد حقق الفصل بين القوات المتحاربة في سيناء والجولان. ولكن هذه لم تكن سوى البداية، وكما كان يُطَمْئِنُ العربَ بلا كلل على الإطلاق[٢]، فإن هذه الخطوات لم تكن غايات في حد ذاتها، ولكن المقصود منها هو بدء عملية ستؤدي ـ مع تزايد الثقة ـ إلى معالجة المشاكل الأساسية للحدود، وتطلعات الفلسطينيين، وأمن المنطقة إقليمياً. وقد استمد الأسد والسادات رضاً كبيراً من تعهد نيكسون بأنه سيعمل على تنفيذ قرارات مجلس الأمن. إذن ما الخطوة التالية؟ كان التناظر يقتضي على ما يبدو أن عملية فك الاشتباك ـ بعد فصل القوات في سيناء والجولان ـ يجب أن تنتقل إلى الضفة الغربية. فإذا أمكن التوصل إلى اتفاق أردني ـ إسرائيلي ينص على إنسحاب إسرائيلي جزئي من على نهر الأردن، فإن ذلك قد يمهد الطريق لجولة أخرى حسب الترتيب نفسه، سيناء، فالجولان، فالضفة

الغربية، وهكذا دواليك. . . حتى تتم استعادة كل الأراضي ويتفق على إطار للتعايش العربي ـ الإسرائيلي. ولقد كان التوق إلى السلام شديداً إلى درجة أن هذه الطريقة المتدرجة النمو بَدَتْ للبعض بطيئة أكثر من اللازم. وقال بعض قليلي الصبر إن الوقت قد حان لترك سياسة الخطوة ـ خطوة كلها لصالح قفزة كبيرة واحدة نحو السلام على الجبهات جميعاً في مؤتمر جنيف بعد إعادة عقده. وكان العرب يأملون بأنهم قد كسبوا واستحقوا السلام المشرف.

غير أن هذه الرُّؤىٰ الوردية التي كان الأسد يتشاطرها مع بقية العرب في صيف عام ١٩٧٤ كانت بعيدة عن الحقائق السياسية وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الأهداف المختلفة عنها جداً والتي كانت إسرائيل والولايات المتحدة قد اتفقتا عليها في هدوء وصمت خلال السنوات الأربع التي سبقت ذلك الصيف. كانت إسرائيل تريد إعادة الأمر الواقع الذي ساد في الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣، والذي كانت من خلاله تتحكم في المنطقة بلا منازع عن طريق تحالف راح يزداد وثوقاً بإطراد مع الولايات المتحدة. كما أرادت أن تضمن تماماً أن العرب لن يثيروا ضدها مرة أخرى تحدياً كالذي واجهوها به عام ١٩٧٣. كان النزاع بين العرب والإسرائيليين في الحقيقة يتركز حول شكل الشرق الأوسط ما بعد الحرب. ويجب الاعتراف بأن ايمان العرب بأميركا كان فيه كثير من السذاجة وخداع النفس حول طبيعة الدرس الذي تصوروا أنهم أعطوه في حرب تشرين/ أوكتوبر. لقد كان العرب يقصدون أن يبهروا العالم ولكنهم لم يفعلوا سوى أن أخافوه لا أكثر. فحربهم أشعلت شرارة أزمة ما بين الدول العظمى، واستحضرت شبح تبادل القصف بأسلحة نووية ـ ونجم عنها انفجار في أسعار النفط. والواقع أن الاتجاه نحو مزيد من السيطرة العربية على أسعار النفط ومستويات إنتاجه قد بدأ عام ١٩٧٠ إلّا أن الحرب قد زادت في تسارعه، وأدت إلى تصاعد بلغ حداً أشعل ردّ فعل ضد العرب نجم عنه تآكل في التعاطف مع شكواهم المشروعة من المظالم السياسية التي حاقت بهم.

ويبدو واضحاً أن أكبر خطيئة للعرب هي أنهم استسلموا لإغواء كيسنجر، وقد قدر لهم أن يدفعوا غالياً ثمن سذاجتهم، فلقد عجزوا عن إدراك أن مهندس التحالف الأميركي ـ الإسرائيلي لم يكن يستطيع إلاّ أن يرمي بثقلة الرهيب خلف عدوّهم. ذلك أن متابعته السعي لفصل مصر عن سوريا وتبنيه لعلاقة مصرية ـ إسرائيلية تحت ظل الحماية الأميركية قد أطلق حشداً من الشياطين من عقالها فابتلي بها الأسد وكثيرون غيره. فإعادة ترتيب المنطقة التي نفذها كيسنجر، وقلب التحالفات وما نجم عنه من إنهيار للأمن نسج خيطاً مأساوياً في حياة الأسد. ذلك أن مجرى سيرته السياسية الذي كان حتى ذلك الحين يسير مطمئناً بثقة وتفاؤ ل أصبح كئيباً داكناً عندما بدأت تنهار آماله في التوصل إلى تسوية بعد الحرب. وأصبح عالم الأسد مكاناً عدائياً. وجاءت نقطة التحول في عام ١٩٧٥ عندما انفتحت هوة إنشقاق عظيمة في الشؤون العربية على أثر توقيع إتفاق فصل القوات الثاني بين مصر وإسرائيل.

وبدلاً من جلب السلام فإن دبلوماسية هنري كيسنجر قد أغرقت المنطقة في فتن لم يسبق لهياجها مثيل، ونشرت فيها اضطرابات عنيفة لم تهدأ حتى بعد مرور أكثر من عشر سنوات. لقد كانت إنجازات كيسنجر في الشرق الأوسط مثار إعجاب واسع النطاق ولكن التمعن فيها يبيّن أنها لم تكن أقل تدميراً من الفوضى والخراب اللذين ألحقهما بشيلي، حيث أدى إغتيال سلفادور آلليندي إلى فتح الباب على مصراعيه لدكتاتورية بينوشيه، أو بكمبوديا حيث أدى امتداد الحرب الفيتنامية إلى دكتاتورية الخمير الجمر الأشد فتكاً وترويعاً[٣] فقد ضحى كيسنجر ببلدان صغيرة لتمرير مخططاته الاستراتيجية وتحيزاته الشخصية وهكذا كان أمر الشرق الأوسط على يديه.

حسين والفلسطينيون

لقد بدأ كيسنجر يعمل لإبرام إتفاقية مصرية ـ إسرائيلية ثانية أكثر إتساعاً بمجرد أن جف حبر إتفاقية الجولان. والواقع أن الهدف الأساسي من الإتفاق

السوري كان ـ كما رأينا ـ هو فسح المجال أمام السادات لتوغل أعمق في علاقة مع إسرائيل. ولكن كيسنجر كان عليه أن يزيح جانباً بضعة عراقيل قبل إبرام إتفاقية سيناء الثانية. وكان من أهمها العمل مع الأردن، ومن خلف الأردن تلوح القضية الفلسطينية المعقدة المثيرة للخصومات، أكان من الممكن إزاحة هذه الأشياء من الطريق بالحيلة والدهاء لتمكين السادات من التحرك إلى الأمام؟.

وكان من المفهوم أن يحرص الملك حسين على أن لا يُتْرَكَ خارج دبلوماسية كيسنجر، إلاّ أنه لم يستطيع أن يضغط من أجل «فصل القوات» على الضفة الغربية لأنه حافظ بشدة على عدم فتح جبهة ضد إسرائيل في حرب تشرين سنة ١٩٧٣. ومهما كانت التسمية التي أطلقت على العملية فقد كان يريد أن يبدأ باستعادة الأراضي، وكان يعتقد بأنه قد كسب الحق بالدعم الأميركي بفضل صداقته الطويلة للغرب، وسحقه للفدائيين الفلسطينيين، والأخطار التي كان يغامر بتحملها باتصالاته السرية مع إسرائيل، وجهوده لتجنب الحرب.

ولم يستطع كيسنجر أن يتجاهل مطالب حسين، غير أن جهوده لتلبيتها كانت نصف جادة. قام بمحاولة قصيرة لإقناع الإسرائيليين بالتفاوض مع حسين، محتجاً بأن من مصلحتهم أن يتعاملوا مع الملك اليوم بدلاً من أن يضطروا غداً أو بعد غد للتعامل مع عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية التي هي في آخر الأمر العدو الذي يجب إبقاؤه في الخارج بأي ثمن. وفي السابق كان كيسنجر غالباً ما يفوز بمناقشاته مع الزعماء الإسرائيليين حول أفضل حَكَمٍ يعرف مصالح إسرائيل الحقيقية، ولكنه خسر المناقشة هذه المرة. فقد رفضت حكومة رابين أن تقوم حتى بانسحاب رمزي من وادي الأردن أو أن ترخي من إحكام قبضتها المادية على الضفة الغربية بأية طريقة من الطرق، بل كانت مستعدة لإعطاء حسين دوراً من نوع عمل مدبرة المنزل: أي أن بإمكانه المساعدة على إدارة المكان تحت الإحتلال العسكري الإسرائيلي. ولكن حسين لم يكن يستطيع الظهور بمظهر الخادم التابع لإسرائيل. وهكذا فإن الزيارات المكوكية

الكيسنجرية للأردن لم تثمر وتُركَ حسين ليتأمل ـ ولم يكن ذلك للمرة الأخيرة ـ كيف أنه عند تنازع مصالحه مع مصالح إسرائيل، فإن صوته لا يكاد يُسْمَع في واشنطن.

أما الفلسطينيون فقد حذفهم كيسنجر من حسابه حذفاً أكثر صرامة. ولم تكن عيوب كيسنجر كوسيط تبرز في أي مجال أكثر من بروزها سافرةً في موقفه من الفلسطينيين الذي كان تشريدهم وسلب ممتلكاتهم هو العنصر المركزي في النزاع العربي ـ الإسرائيلي الذي كان كيسنجر يزعم أنه يسعى لنزع فتيله. ولكنه كان بعيداً جداً عن البحث عن حل لمأساتهم الأليمة، وبدلاً من ذلك فقد أيّد الرأي الإسرائيلي القائل بوجوب عدم إعطائهم دوراً أو إعترافاً بهم، وتعمد أن يعير إشاراتهم أذناً صماء. كانت منظمة التحرير قد أرسلت أربع رسائل إلى كيسنجر فيما بين تموز ١/يوليو وتشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٧٣ تدعو فيها إلى حوار بينها وبين الولايات المتحدة وعندما أُرْسِلَ الجنرال فيرنون والترز ـ الذي كان عندئذٍ نائب مدير وكالة المخابرات المركزية ـ ليلتقي في تشرين الثاني/ نوفمبر بواحد من مساعدي عرفات في الرباط بالمغرب كانت التعليمات التي زوده بها كيسنجر هي: «أن الولايات المتحدة ليس لديها أية مقترحات تقدمها»[٤]. وبناءً على مناشدة من عرفات تم ترتيب لقاء آخر في آذار/ مارس سنة ١٩٧٤، غير أن وزير الخارجية الأميركي عمد مرة أخرى إلى المراوغة والتملص. كما أنه تملص أيضاً عندما اقترح عليه السادات أن يلتقي بعرفات. فمن وجهة نظر كيسنجر لم تكن منظمة التحرير هيئة تدافع عن مطلب وطني مشروع، بل هي «قوة تخريبية» و«مجموعة إرهابية» و«غير مقبولة كشريك في المفاوضات» و«معادية لأميركا علانيةً» و«مصممة على تدمير اثنين من أهم أصدقاء الولايات المتحدة: إسرائيل والأردن». وإن دولة تديرها المنظمة «ستسعى بالتأكيد نحو استعادة المزيد من أراضي فلسطين» وستتطور حتماً إلى بؤرة للتصلب المتشدد مثل ليبيا واليمن الجنوبي، وستنطلق منها حتماً عمليات ضد إسرائيل.[٥].

وبما أن كيسنجر كان يحمل مثل هذه الآراء شديدة التحامل والإنحياز إلى حد يصعب معه تمييزها عن آراء المتشددين الإسرائيليين، فإنه شجع إسرائيل على إبعاد المنظمة واستثنائها من تسوية ما بعد الحرب. والحق أن الهدف الأساسي الأول من أسلوب الخطوة ـ خطوة كان ضمان إبعاد القضية الفلسطينية وإبقائها مختفيةً خلف الأفق إلى الأبد. ولعل الكوابح المعيقة لكيسنجر لم تكن ناجمة عن تردده في معالجة موضوع صعب فحسب: بل كان يبدو أن لديه عقدة نفسية يشاركه فيها كثير من الصهاينة حول كيفية معاملة الخاسرين في قصة نجاح إسرائيلية. إذ كان يُنَظر إلى الإعتراف بمطلب الفلسطينيين بأن يكون لهم وطن على أنه نسفٌ لشرعية إسرائيل في إقامة وطن لها. ومع شعور كيسنجر بعدم الإرتياح حيال الفلسطينيين، فقد قبل بالاستراتيجية الإسرائيلية التي تعرّفهم بأنهم مشكلة أمنية يجب معالجتها بوسائل مادية قاسية وشديدة، وليسوا معضلة سياسية يجب حلها بالتفاوض والتنازلات والتسوية.

أما بالنسبة لتصرفات الزعماء الفلسطينيين أنفسهم فإن المفارقة المأساوية هي أن كثيراً مما أدرج منها تحت عنوان سياسات المقاومة كان ممّا لا علاقة له بالمقاومة لا من قريب ولا من بعيد. كانوا يطوفون التماساً للتأييد في مختلف أنحاء العالم، ويتشاحنون فيما بينهم ومع مضيفيهم العرب، وينهمكون في مناقشات غامضة حول نصوص كلمات البيانات الثورية، ويحاولون بين حين وآخر، وبلا جدوى دائماً، أن يوجهوا ضربة عبر دفاعات إسرائيل. ولكن إسرائيل كانت مصممة أن لا تعطيهم شيئاً سوى السيف، وكلما تلقت المنظمة مزيداً من التأييد والدعم عربياً وعالمياً راحت إسرائيل وكيسنجر يتشددان أكثر فأكثر في رفض التعامل معها.

وفي خريف عام ١٩٧٤ كسب الفلسطينيون دعماً لم يسبق له مثيل لتطلعاتهم الوطنية عندما أعلن مؤتمر القمة العربي في الرباط في ٢٠/ تشرين الأول/ اكتوبر أن منظمة التحرير الفلسطينية هي «الممثل الشرعي الوحيد

للشعب الفلسطيني». وأدى هذا القرار إلى تحويل مسؤولية استعادة الضفة الغربية من الملك حسين إلى منظمة التحرير الفلسطينية. وكان المدافعان الرئيسيان عن هذا التغيير هما حافظ الأسد والملك فيصل اللذان لم يرغبا في أن يستفيد حسين من العمل كناطق باسم الفلسطينيين، وكانا يأملان في إعطاء المنظمة دوراً تفاوضياً في دبلوماسية كيسنجر ـ فهكذا كان العرب يفكرون بشكل حالم مبني على رغباتهم لا على الحقائق الفعلية القائمة. وكان هذا النجاح العربي لا يزال طازجاً عندما صعد عرفات إلى ارتفاعات أخرى فألقى خطاباً في الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٣/ تشرين الثاني/نوفمبر صفقت له الوفود وهي واقفة بحماس وأعطيت المنظمة صفة عضو مراقب في الأمم المتحدة. وكان هناك سطر لا يُنسىٰ في ذلك الخطاب الذي امتدَّ ساعة أو يزيد وهو قوله: «لقد جئتكم أحمل غصن الزيتون وبندقية المناضل، فلا تدعو غصن الزيتون يسقط من يدي». وجاء جواب إسرائيل على لسان ممثلها يوسف تكواع: «إن المنظمة ستظل كما هي، وحيث هي: خارج القانون وخارج فلسطين». وهكذا ففي الوقت الذي ظن فيه الفلسطينيون أنهم في سبيل التوصل إلى شيء ما، حذف كيسنجر الضفة الغربية من جدول أعماله وانحاز لإسرائيل. وقد أدت محاولات عرفات لدفع حركته ذات المراس الصعب نحو موقف المتفاوض إلى جعل كيسنجر والزعماء الإسرائيليين يعملون بكل طاقاتهم لتحقيق ما كان الفلسطينيون يخشونه أكثر من أي شيء ألا وهو إبرام صفقة مصرية ـ إسرائيلية منفردة.

إتفاقية سيناء الثانية

فَقَدَ الأسدُ الأملَ في إمكانية تحقيق تسوية شاملة في أوائل سنة ١٩٧٥، وتبخّر تفاؤله عندما بدأ يرى بفزع متزايد أن كيسنجر قد تغلب عليه، وأن الوعود والتعهدات الأميركية بتنفيذ القرار ٢٤٢ كانت بلا قيمة. فمنذ الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٤ راحت الأدلة تتراكم حول نوايا كيسنجر الحقيقية بينما كان يحاول تضييق الهوة بين مصر وإسرائيل تمهيداً لخطوة ثانية على جبهة سيناء، ولكن مع

انتهاء العام أصبحت الحقائق صارخة سافرة بحيث لم يعد من الممكن تجاهلها. وفي الثالث من كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٧٤ أعلن رابين بصراحة أن الهدف من الصفقة التي يأمل في عقدها مع مصر هو عزل سوريا.

ولذلك لم يكن مستغرباً أن تنهار ثقة الأسد بأسلوب كيسنجر في سياسة الخطوة ـ خطوة كما تلاشى تماماً كل ما بقي لديه من ثقة بالسادات الذي حذره الأسد بغضب من أنَّ إنسحاباً جزئياً آخر للقوات الإسرائيلية في سيناء سيكون فخّاً يضرّ بِفُرَصِ سوريا لاستعادة الجولان. فأجاب السادات بتصريحات طنانة بأنه لن يقبل شيئاً أقل من إنسحاب إسرائيلي كامل من سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس ـ في غضون ثلاثة أشهر ـ وأنه واثق من أن الولايات المتحدة ستضمن ذلك. وأدى مثل هذا الهذيان المتناقض تناقضاً سافراً مع ما كان السادات نفسه يتفاوض عليه بهدوء مع كيسنجر والمتناقض أيضاً مع نوايا كيسنجر، أدى إلى تزايد غضب الأسد.

وسرعان ما ارتسمت خطوط المعركة. ففي منتصف كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٧٥ لقي الملك فيصل، أكثر قادة العالم العربي احتراماً، استقبالاً حماسياً مثيراً في دمشق حيث أيَّدَ إصرار الأسد على انسحاب إسرائيل الكامل مع ضمانات لحقوق الفلسطينيين، ووعد سوريا بمعونة قدرها ٣٥٠ مليون دولار. وكان الصحفي المصري المعروف محمد حسنين هيكل في دمشق لتغطية زيارة الملك، فكان واحداً من أوائل العرب، بل لعله أول معلق على الإطلاق، يعلن أن كيسنجر ليست لديه أية خطة شاملة لحل أزمة الشرق الأوسط، بل أنه ينوي فقط أن يشق صفوف العرب(٦). وأسرع وزير الخارجية السوفياتي آندريه غروميكو إلى دمشق في بداية شباط/ فبراير ليشارك الأسد فزعه وإجفاله من أن كيسنجر لم يكن يقسم العرب فحسب، بل ويقتطع ويقلص من دور السوفيات. ولمواجهة هذه الأخطار دعا الأسد وغروميكو إلى استئناف مؤتمر جنيف على الفور وباشتراك جميع الأطراف، بمن فيهم منظمة التحرير

الفلسطينية. ولكن ذلك لم يكن سوى أمل حالم، تماماً كأوهام السادات حول إنسحاب إسرائيلي شامل.

وجاءت المرحلة الأخيرة من مبارزة الأسد ـ كيسنجر. فقد كان الوزير الأميركي يعمل وراء الكواليس لإتمام إتفاقية سيناء الثانية، وقد استمر في خطته برغم صيحات القلق التي تصاعدت في جميع أنحاء العالم العربي. ذلك أن إخراج مصر من المعادلة العسكرية العربية يلغي احتمال الحرب. وكان هذا هو ما يطمح إليه كيسنجر. ولكنه بدا بالنسبة للأسد حكماً بالموت على سوريا، والأردن، والفلسطينيين الذين لن يعود بإمكانهم أبداً إيقاف المطامع الإسرائيلية ورأى كيسنجر أن ذلك «سيجلب الإستقرار للمنطقة» أما الأسد فقد رأى أنه سيقلب موازين القوى فيها.

وقام الوزير الأميركي بزيارة إستطلاعية للشرق الأوسط في منتصف شباط/ فبراير سنة ١٩٧٥، قبل ثلاثة أسابيع من بدء ما كان يأمل أن يكون آخر شوط في رحلاته المكوكية بين مصر وإسرائيل إعتباراً من ٧/ آذار/ مارس. وفيما بين هذه الزيارات، وفي محاولة في اللحظة الأخيرة لصرف كيسنجر عن مخططه أعطى الأسد آراءه بالتفصيل حول كيفية تحقيق السلام في الشرق الأوسط، وذلك من خلال مقابلة مع آرنو دي بورشغريف، مندوب مجلة **نيوزويك**الأسبوعية الأميركية:

الأسد: «إذا رجع الإسرائيليون إلى حدود سنة ١٩٦٧ ـ وأصبحت الضفة الغربية وقطاع غزة دولة فلسطينية ـ فستزول آخر عقبة في طريق التسوية النهائية».

دي بورشغريف: «أيكون ذلك معاهدة سلام مع إسرائيل؟»

الأسد: «نعم يمكن ذلك. فعندما تتم تسوية كل شيء، يجب أن يصاغ ذلك رسمياً في معاهدة سلام رسمية. وهذه ليست دعاية، بل إننا نعني ما نقول

في جدية ووضوح، ويبدو من التعبير المرتسم على وجهك إنك مندهش. ليس هذا منطقاً جديداً في السياسة السورية. إنه موقفنا الأساسي الذي أقره قادة الحزب»[٧].

وبعد يومين عاد الأسد إلى هذه المواضيع في خطاب له بدمشق: «أما نحن فإننا ننظر إلى السلام بمعناه الحقيقي. بدون إحتلال ولا مشردين يائسين، أو مواطنين يحرم عليهم وطنهم. أن أي شخص يظن أن من الممكن تجزئة عملية السلام فهو مخطيء. . . إننا نقول الآن كما كنا نقول دائماً. . . إن السلام يجب أن يقوم على أساس الإنسحاب الكامل من الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧، وعلى إعادة الحقوق الكاملة للشعب العربي الفلسطيني. . .

«وقد يقال، ونحن قد نتساءل: ما هي هذه الحقوق؟ وجوابنا هو: إسألوا منظمة التحرير الفلسطينية. إن المنظمة هي التي ستجيب، ونحن سنؤيدها في إجابتها»[٨].

كان هذا التركيز على منظمة التحرير يعني شيئين: أولاً أن الأسد كان يريد دعم وتعزيز المنظمة كطرف في عملية السلام، وكان يحرص على مساعدة عرفات في المعركة التي كان يخوضها آنذاك ضد الرافضين بزعامة جورج حبش، وثانياً: كان الأسد مدركاً لحاجة كل من سوريا والمنظمة للوقوف معاً بينما كانت مصر تنسلّ مبتعدة عن المعسكر العربي. كان قد بدأ يتفحص دفاعاته. وفي الثامن من آذار، ومع عودة كيسنجر إلى المنطقة من أجل إتفاقية سيناء الثانية، أعلن الأسد إستعداده لإقامة قيادة سياسية وعسكرية مشتركة مع منظمة التحرير الفلسطينية. ورحب عرفات بالفكرة.

وفي اليوم التالي أمضى كيسنجر أربع ساعات مع الأسد في دمشق وكانت هناك حدّة لاذعة في تلك المقابلة بين رجلين أدركا عندئذٍ عدم إمكانية المصالحة بين موقفيهما ولكن كلاً منهما ظل مع ذلك يكنّ للآخر شيئاً من الاحترام. ولو كان ود الأسد لكيسنجر أقل لكان موقفه بلا شك أشد خشونة مع رجل يعمل

ليقلب كل ما حول الأسد رأساً على عقب. وقد صعق هارولد ساوندرز، مساعد كيسنجر، من التهذيب المؤدب الذي أبداه الأسد، وتذكر قول الرئيس السوري: «إنني أختلف مع خطتك إختلافاً عميقاً، ولكنني لا أريد لهذا الخلاف أن يؤثر على علاقتنا الشخصية». ولم يحدث إلا نادراً أن رأى ساوندرز مثل هذا السلوك المهذب بين عدوين سياسيين[٩].

واحتج الأسد مطولاً بأن خطوة أخرى في سيناء ستكون ذات مغزى هائل لأنها ستدمر التضامن العربي، وتعزل سوريا ـ وكان هذا بالضبط هو ما يدور في ذهن كيسنجر. وأوضح كيسنجر بأن سياساته تمليها ظروف ذلك الزمن: كان الرئيس الأميركي الجديد جيرالد فورد لا يزال يتلمس موضع قدميه، ولم يكن يستطيع المغامرة بإغضاب الرأي العام المحلي بممارسة الضغط على إسرائيل. وأما رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين فكان جديداً في الحكم بدعم من واحدة من أصغر الأغلبيات في الكنيست ويتنافس مع معارضةٍ يمينية عنيفة، ولذا فهو لا يستطيع أن يخطو إلى الأمام إلّا بحذر. وأما نجاح منظمة التحرير في الرباط وفي الأمم المتحدة فكان مفزعاً وليس مطمئناً للكثيرين. وحاول كيسنجر ثانية بأسلوبه الازدواجي أن يقنع الأسد بأن خطوة جديدة في سيناء لن تمنع التقدم على جبهات أخرى. على أن التناقض بين الرجلين كان كلياً، ومنذ ذلك الحين خرج الشجار المرير إلى العلن وأصبح مكشوفاً. وانعكس قلق الأسد المتزايد في تصريحات عديدة لأجهزة الإعلام الغربية. فأعلن لصحيفة **الواشنطن بوست** مثلاً أن السلام لا يتحقق إلا «بتحرك عربي جماعي على كل الجبهات»، وليس «بحركات كيسنجر البهلوانية الضئيلة»[١٠] وأكّد عبر التلفزيون الفرنسي بعد بضعة أيام: «أن الخطوات الفردية الجزئية الصغيرة لا تعني ولا تعطي السلام... وأن الأميركيين يعرفون رأينا هذا بوضوح. إن هذه الخطوات تهدف إلى خلق تناقضات جديدة تستفيد منها إسرائيل... ولكي يكون التحرك نحو السلام جاداً فإنه يجب أن يكون تحركاً جماعياً»[١١].

ولكن مناشدات ومطالب واعتراضات الأسد أزيحت كلها جانباً، كما كان محتوماً، لأن كيسنجر كان قد قَبِلَ الرأيَ الإسرائيليَّ القائل آنذاك بأنه لن تتم أية تنازلات لها أية أهمية سواء على الجولان أو في الضفة الغربية. ومع ذلك فإن توسط كيسنجر بين مصر وإسرائيل لم يكن سهلاً هو الآخر، وقد عُلّق وتوقف شهرين في نهاية آذار/مارس عندما أصرّت إسرائيل على أنها لن تنسحب من ممرات سيناء وحقول نفطها إلاّ إذا تخلت مصر بوضوح عن حالة الحرب. وكان كيسنجر يرغب في أن يكون الإسرائيليون أكثر مرونة ما داموا يرون أن السادات كان مستعداً لإعطائهم مضمون ما يطالبون به، ولو بدون الصيغة الحساسة سياسياً والتي لم يكن مستعداً لها بعد. ومرة أخرى ادعى كيسنجر بأنه يعرف مصلحة الإسرائيليين أكثر منهم. فعربد على رابين وزملائه صارخاً، ولكن خلف أبواب مغلقة: «لو كنا نريد حدود عام ١٩٦٧ لأمكننا الحصول عليها وخَلْفَنَا الرأيُ العالميُّ كلُّه. إن خطتي قد صممت لحمايتكم من الرجوع إلى تلك الحدود. لقد تجنبنا رسم خطة عامة لتسوية شاملة»(١٢) ولكن الإسرائيليين لم يتزحزحوا.

ولكن تلك لم تكن سوى «حازوقة»، وتمت عملية إخراج مصر من المواجهة في ذلك الصيف بسرعة وسهولة. وكان من أبرز معالم العملية اجتماع في سالزبورغ بالنمسا بين فورد والسادات في ١ أو٢ حزيران/ يونيو، ومساومة أكثر التصاقاً بالموضوع تمت بشكل سريّ خاص بين كيسنجر وسيمحا دينيتز، سفير إسرائيل في واشنطن في أوائل تموز/ يوليو في جزر فيرجين آيلاندز حيث كان كيسنجر يمضي إجازته. فهناك تمت الصفقة التي فتحت الطريق أمام الاتفاقية الثنائية المصرية ـ الإسرائيلية التي كان الزعماء الإسرائيليون تواقين للحصول عليها دائماً، على رغم كل تكتيكاتهم المتشددة في المفاوضات. وفي أعقاب آخر رحلة مكوكية في آب تم التوقيع بالأحرف الأولى في أول أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٧٥ على اتفاقية سيناء الثانية المكونة من ثلاثة اتفاقات نشرت

علناً وأربعة ظلت سرية. ثم تم التوقيع النهائي عليها في جنيف في ٤/ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٧٥. وبما أن الولايات المتحدة كانت طرفاً في هذه الاتفاقات فإنها كانت عملياً اتفاقات ثلاثية أسست سابقة لكامب ديفيد التي تمت بعد ذلك بثلاثة أعوام. وقد قاطع الاتحاد السوفياتي الاحتفال على أساس أن دبلوماسية كيسنجر قد «جمدت» الوضع في الشرق الأوسط لصالح إسرائيل.

وبموجب شروط وأحكام الاتفاقات المعلنة[١٣]، تعهدت مصر وإسرائيل بحل نزاعهما بالوسائل السلمية، وبأن تتقدما نحو «تسوية سلمية نهائية وعادلة». وأعلنتا تخليهما عن استعمال القوة أو التهديد باستخدامها، وبأن يسمح للشحنات غير العسكرية الذاهبة إلى إسرائيل أو القادمة منها بالمرور عبر قناة السويس، واستمرت عملية فصل القوات بانسحاب إسرائيلي لمسافة تتراوح بين عشرين وأربعين كيلومتراً لتقديم منطقة عازلة أعرض لقوات الأمم المتحدة وتم نزع السلاح من ممري الجدي ومِتْلاَ، رغم أن إسرائيل احتفظت بمحطة مراقبة عند الطرف الشرقي لممر الجدي، وظلت مسيطرة على الطريق الأساسي المؤدي نزولاً إلى خليج السويس. واستعادت مصر حقول نفط أبو رديس شريطة أن تتقاسم الطريق المؤدي إليها مع إسرائيل. وكان من أكبر الابتكارات الجديدة تواجد مائتي فني أميركي في الممرات للاشراف على أجهزة الإنذار المبكر المصرية والإسرائيلية.

وهكذا فإن الوجود الأميركي، ومعه تواجد قوات الطوارىء الدولية ونزع السلاح إلى حد كبير من كل المنطقة الممتدة من قناة السويس إلى الممرات كان معناه أن مصر قد فقدت مرة واحدة وإلى الأبد أي مقدرة على ممارسة أي ضغط عسكري على إسرائيل، وانتهى بذلك دورها كقوة مقاتلة في سبيل القضية العربية.

أما الاتفاقات السرية التي وقعتها الولايات المتحدة، ثلاثة منها مع إسرائيل وواحدة مع مصر فقد تسربت منها مقاطع كثيرة[١٤]. إذ وعدت الولايات

المتحدة مصرَ بأن تستشيرها حول أية انتهاكات إسرائيلية للاتفاقية وأن تساعدها في إقامة نظام للإنذار المبكر في سيناء، وأن تحاول إستئناف المحادثات من جديد بين سوريا وإسرائيل. غير أن هذا الفتات للسادات كان ضئيلاً شحيحاً بالقياس إلى المائدة الباذخة التي مدّها كيسنجر بين يدي رابين.

فالالتزامات التي قدمها لإسرائيل باسم الولايات المتحدة كانت شديدة السخاء إلى درجة لم يسبق لها مثيل من قبل على الإطلاق. فحصلت إسرائيل على وعد بتلقي مليارين ونصف مليار دولار عن سنتي ١٩٧٥ و١٩٧٦ مع دفعات أخرى لتعويضها عن فقدانها للنفط المصري، وضمانٍ بتزويدها بالنفط من إيران، أو من أميركا مباشرة إذا فشلت في الحصول على نفط إيراني. إضافة إلى تعهد مفتوح بالمحافظة على قوة إسرائيل العسكرية باستمرار. أما الالتزامات السياسية فكانت أبعد مدىً حتى من ذلك، إذْ تعهدت الولايات المتحدة بأن لا تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية ولا تتفاوض معها ما دامت المنظمة لا تعترف بحق إسرائيل في الوجود، ولا تقبل بقراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ و٣٣٨. وكان هذا البند الذي قدر له أن يكتف ويقيد السياسة الأميركية فيما بعد هو الصيغة الرسمية للفيتو الذي كان كيسنجر قد أعطاه من قبل للإسرائيليين لمنع المشاركة الفلسطينية في عملية السلام. وهكذا وجد الفلسطينيون أنفسهم في فخ لا مخرج منه، فلكي يبدأوا حواراً مع واشنطن يجب عليهم الاعتراف بمطلب إسرائيل القومي ويتخلوا عن مطلبهم القومي (لأن القرار ٢٤٢ وبالامتداد القرار ٣٣٨ يشيران إلى الفلسطينيين كمجرد لاجئين) ولا يزال الفلسطينيون بعد أكثر من اثني عشر عاماً واقعين في نفس هذا الطريق المسدود.

وأما بالنسبة لموضوع سوريا فإن كيسنجر كان قد اتفق مع دينيتز في فيرجين آيلاندز أنه ليست هناك ضرورة إلا لتغييرات «تجميلية» طفيفة على الجولان. وهكذا جعل فورد يكتب رسالةً إلى الإسرائيليين يقول فيها إن الولايات المتحدة، في أية محادثات حول الجولان، ستأخذ بعين الاعتبار موقف

إسرائيل من أنها يجب أن لا تعود إلى حدود عام ١٩٦٧. وتعهدت الولايات المتحدة أيضاً بأنها لن تضغط على إسرائيل للتفاوض مع سوريا والأردن ومصر مجتمعة، ولكن مع كل واحدة منها على انفراد. وفيما يتعلق بمصر والأردن وافقت الولايات المتحدة على أنه يجب أن لا يكون هناك مزيد من «الخطوات الموقتة» قبل إبرام معاهدات السلام النهائية. وبكلمات أخرى فإن على هذين البلدين قبول السلام بالشروط الإسرائيلية أو القبول باستمرار إحتلال أراضيهما.

وبشكل عام وعدت أميركا بأن تنسق استراتيجية السلام مع إسرائيل، وبأن لا تتقدم باقتراحات بدون مشاورتها سلفاً وبأن تسعى لمنع تبني أية مقترحات يقدمها الآخرون إذا بدا أنها متناقضة مع مصلحة إسرائيل. وأرادت إسرائيل أيضاً التزاماً أميركياً قاطعاً بحمايتها في حالة حدوث تدخل عسكري سوفياتي في الشرق الأوسط، ولكن كان عليها أن تقنع فقط بوعد «بالتشاور» ـ وكانت هذه بالذات واحدة من المناسبات النادرة التي أدى فيها الخوف من اعتراضات الكونغرس إلى كبح جماح يد كيسنجر المبسوطة لإسرائيل بكل هذا الكرم.

وبهذه الصفقة من الاتفاقات والتفاهم والالتزامات والتعهدات ضمنت إسرائيل السيطرة في آخر الأمر على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، فقد أوثق كيسنجر كِتاف خلفائه في منصبه وقيد نفسه. أما بالنسبة لليمين المتطرف في إسرائيل، الذي لم يكن راضياً عن إنجازات كيسنجر، فقد كان الوزير الأميركي نموذجاً لليهودي المندمج في عالم مسيحي وينشد عطفه. ولكن بالنسبة للدولة اليهودية ككل، فقد يضعونه ذات يوم مباشرة بعد تيودور هرتزل ودافيد بن غوريون.

بعد حوالي ثلاثة أسابيع من توقيع اتفاقية سيناء الثانية أقام كيسنجر حفل عشاء للوفود العربية في الأمم المتحدة التي كانت لا تعرف شيئاً بعد عن اتفاقاته السرية، فأكد لهم بنعومة ودون أن يرف له جفن أن العلاقات الوثيقة بين الولايات المتحدة والعالم العربي تمثل اتجاهاً «لا رجعة فيه»، وأضاف أن

الولايات المتحدة في الأيام المقبلة سوف «تنقح تفكيرها في كيفية تلبية مصالح الفلسطينيين المشروعة في سلام شامل»[١٥]. بل لقد زعم بأنه مستعد وجاهز للعمل على اتفاقية ثانية للجولان. غير أن الأسد كان واحداً من العرب الذين لم تعد تنطلي عليهم هذه الأساليب المخادعة.

آخر زيارة لكيسنجر

قام كيسنجر، الذي لم تكن تنقصه الشجاعة ولا الثقة، بزيارة الأسد للمرة الأخيرة في الثالث من أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٧٥ عشية توقيع اتفاقية سيناء الثانية. وكان الاجتماع أقصر من المعتاد، فلم يزد كثيراً على الساعة، وكان يسوده شيء غير قليل من البرود الصقيعي. ووجد كيسنجر الشجاعة لرمي طُعْم المزيد من المحادثات حول الجولان ولكن الأسد لم يكن لديه وقت يضيعه في الدجل الفارغ، وكان في ذلك الوقت يشعر بأنه ضحية للخيانة الكاملة، وكان غاضباً على نفسه لأنه أعطى ثقة ولو لفترة قصيرة لتأكيدات كيسنجر بأن فصل القوات سيتقدم بخطوات متناسقة ومتلازمة على الجبهتين المصرية والسورية معاً، وبأن أميركا لا تنوي تفرقة صفوف العرب. فأخبر كيسنجر بلهجة فيها ملل التعب بأن السلام الحقيقي لا يتحقق بإغداق الأسلحة على إسرائيل، ولا بإدخال أنظمة الإنذار المبكر والفنيين الأميركيين، بل يتحقق فقط بالإنسحاب الإسرائيلي وتلبية مطالب الفلسطينيين.

ورغم أنه قد خُدِع على يد كيسنجر فلم يكن من طبيعته الانغماس في التأسف والتحسر، بل واجه الحقيقة بصرامة وهو يشاهد ما حوله يتساقط، ووجد أن عليه حماية نفسه وبلده من موجة الاضطرابات التي اجتاحت الشرق الأوسط نتيجة لاتفاقية سيناء الثانية. إذ كانت الاتفاقية المصرية ـ الإسرائيلية ناسفة للإستقرار بقوة وعمق. فإبعاد مصر التي هي أكبر وأقوى دولة عربية قد ترك بقية الأقطار العربية تشعر شعوراً حاداً بانعدام الأمن، فمن سيدافع عن الوطن العربي بعد الآن؟ ومَنْ الذي سيكبح نزعة إسرائيل التوسعية أو يردعها عن العربدة

والضرب حيثما وحينما تشاء؟ واندلعت صراعات هائجة العنف، فمصر لم تتشاجر مع سوريا فحسب، بل مع ليبيا، ومع الفلسطينيين أيضاً، وتقاطعت السيوف بين سوريا والعراق. وشعر الفلسطينيون بأن أيدي الجميع عليهم فتشرذموا أكثر، وانجرّوا في لبنان إلى حرب دامية ضروس مع الموارنة بلغ من طولها ووحشيتها أن بَدَتْ حرب المنظمة مع الملك حسين شيئاً أليفاً مأنوساً بالقياس معها.

كما أن شبح الهيمنة الإسرائيلية الذي كان مهيناً للعرب بعد سنة ١٩٦٧ عاد ليسكن أذهانهم عندما راحت الآمال التي أيقظتها في نفوسهم حرب تشرين/ اكتوبر سنة ١٩٧٣ تبدو سراباً لا طائل تحته. فطوال سنوات ظل العرب يتشوقون إلى قائد عظيم أو تجمع عربي مؤتلف أو قوة خارجية صديقة تفرض نظاماً إقليمياً يسوي الأمور بينهم وبين إسرائيل، أما في سنة ١٩٧٥ فقد وجدوا أنفسهم يعودون ثانية إلى الوضع القديم التعيس بطريقه المسدود، بل ان الأمور قد أصبحت أسوأ لأن مصر، الركيزة الأساسية للعرب وواسطة عقدهم، لم تعد مصر.

هذه عواطف كان يمكن رؤيتها كلها منعكسة على البيان الصارم الذي أصدره الأسد والقيادة القومية لحزب البعث في يوم زيارة كيسنجر الوداعية الأخيرة لدمشق. فقد دعا البيانُ العربَ إلى حشد طاقاتهم لمواجهة العدو الصهيوني، وعبر عن «القلق العميق» لهذه «النكسة الخطيرة» التي ألمت بالعرب. وكان واضحاً بشكل مؤلم للأسد ولكل عربي مفكر أن مرحلة عروبة مصر التي بدأت قبل ذلك بعشرين عاماً قد انتهت، على الأقل في ذلك الوقت (١٩٧٥). ولم يتم كيسنجر مهمته لوحده طبعاً. كانت الضربات التي تلقتها مصر من انفصال سوريا، ومن حرب اليمن، ومن كارثة عام ١٩٦٧، ومن متاعبها الاقتصادية المنهكة قد ساعدت على تهيئة الأرضية لتراجع مصر عن التزاماتها العربية وتغيير تحالفاتها من موسكو إلى واشنطن، واستعدادها للحوار مع

إسرائيل. ومهما كانت الأسباب فإن إنقلاب السادات العقائدي كان كاملاً إلى درجة أنه بدا وكأنه «معاكس تماماً لخط سياسة السويس» ويسير على عكس الخط الذي انتهجه عبد الناصر بكل ما كان يمثله ويدافع عنه.

الشجار مع العراق

أصبحت لاعتبارات الأمن الأولوية القصوى في ذهن الأسد عندما راح يفكر بالدمار الذي حاق بعلاقاته مع مصر وانهيار التحالف الذي ساد معها أيام الحرب. وقد ظل الأسد مخلصاً لمذهب عبد الناصر في أن العرب من أجل الدفاع عن المنطقة يجب أن يتحالفوا مع العرب فقط، وهذا نمط أو نسق للأشياء كان التحالف المصري ـ السوري فيه مركزياً يحتل موقع القلب. أما الآن فقد ترك السادات سوريا ونقل مصر للدوران في فلك الولايات المتحدة وإسرائيل وشاه إيران. واندلعت معارك إعلامية بين دمشق والقاهرة شكلت أحد قطبي عالم الأسد في سنة ١٩٧٥، وكان القطب الآخر معركة مريرة كذلك مع العراق. صحيح أن اتفاقية سيناء الثانية لم تخلق التناحر بين سوريا والعراق، ولكنها زادت من تفاقم صراعٍ ذي دَمْدَمَةٍ تعود جذورها إلى الانشقاق الدامي في حزب البعث في الثالث والعشرين من شباط/ فبراير عام ١٩٦٦ عندما قامت اللجنة العسكرية بدمشق بالإطاحة بجماعة عفلق في انقلاب دموي. وبعد عامين، في سنة ١٩٦٨ استولى مؤيدو عفلق على السلطة في بغداد التي أصبحت على الفور ملجأ للمنفيين السوريين. ومنذ ذلك الحين راحت العاصمتان تتبادلان المؤامرات والاتهامات والتنافس على الادعاء بالشرعية الحزبية. وعند استلام الأسد للسلطة عام ١٩٧٠ تمت تغطية الخلافات وترقيعها وأعيدت العلاقات الصحيحة، وإن لم تكن ودية تماماً، إلى درجة أن سوريا عندما دخلت الحرب سنة ١٩٧٣ قدّم لها العراق مساعدة قيّمة.

لقد مزقت دبلوماسية كيسنجر هذا الوفاق الهش، ولم يستطع الزعماء العراقيون أن يقاوموا فرصة مهاجمة منافسٍ حزبي لهم، فراحوا يسخرون من

الأسد ويتهمونه بالانهزامية بسبب توقيعه على اتفاقية الجولان مع إسرائيل، مستخدمين ضده نفس الاتهامات التي كان هو نفسه يوجهها للسادات. ألم يكن هو أيضاً يخون القضية العربية بمغازلة كيسنجر، وقبول القرار ٢٤٢ والتفكير في تسوية سلمية؟ كان العراق بعيداً جداً عن خط الجبهة، ولم يخسر أية أرض مع إسرائيل، فكان يستطيع أن يرفض كل تعامل مع العدو، ويتحالف مع جبهة حبش الرافضة، ويتخذ مواقف «نحن أفضل منكم». وصرف الأسد النظر عن مثل هذا القنص باعتباره مشاكسة للتنكيد يقوم بها أناس «لم «يقاتلوا ولن يقاتلوا» ورد على هجماتهم باتهامهم بأن اتفاقهم مع شاه إيران سنة ١٩٧٥ حول شط العرب إنما هو تواطؤ مع الاستعمار و«تسليم للأرض العربية» وخيانة «لثورة عربستان» ـ وهو الاسم العربي لمقاطعة خوزستان الحدودية الإيرانية التي كان بعض سكانها عرباً يتحدثون العربية والذين كان تحريرهم سيصبح واحداً من أهداف العراق في حرب الخليج ولقد تسممت العلاقات إلى درجة أن مساعدة العراق لسوريا في حرب تشرين عام ١٩٧٣ أصبحت من بين مواضيع النزاع فهاجمت دمشق الإسهام العراقي بأنه كان قليلاً جداً وجاء في وقت متأخر جداً، بينما راحت بغداد ـ في مغالاة مفرطة لخدمة ذاتها ـ تتهم سوريا بالجحود السافر وعدم الاعتراف بأن العراق قد أنقذ الموقف.

ولو لم تكن دمشق وبغداد متخاصمتين إلى هذا الحد لتمكنتا من حل خلافهما الطويل المزمن حول اقتسام مياه الفرات. فهذا النهر الذي ينبع من تركيا يجري عبر سوريا والعراق قبل أن يلتقي مع دجلة ليكونا نهراً عظيماً هو شط العرب الذي يصب في شمال الخليج. وقد أدت عمليات بناء السدود ومشاريع الري في البلدان الثلاثة جميعاً منذ الستينات وما بعدها إلى نشوء نزاعات وخلافات حول حجم المياه التي يستحقها كل بلد. وهذه النزاعات ظلت، عند تأليف هذا الكتاب، بعيدة عن الحل. وكانت اتهامات العراق في نيسان/ إبريل عام ١٩٧٥ تتلخص بأن سد سوريا في الطبقة وبحيرة الأسد المتكونة خلفه تهدد حياة ومعيشة ثلاثة ملايين فلاح عراقي يعيشون في القسم الأسفل من مجرى

وحوض الفرات، وتضخم الشجار حول حقوق المياه إلى مادة كبرى للنزاع لم تفلح في التخفيف من وطأته محاولات الوساطة ولا سيما السعودية. ومنذ عام ١٩٧٥ راح كل من البلدين يهاجم الآخر على أمواج الأثير، وكانت عبارة «المجرم اليميني الفاشستي» من الشتائم المتداولة بانتظام كمثال على مرارة الهجمات، وأخذ كل منهما يسجن المتعاطفين مع الآخر، وحركا القوات بشكل تهديدي إلى الحدود، ووضع كل منهما المتفجرات في عاصمة الآخر.

وشعر الأسد بأنه يقف وحيداً ومكشوفاً يتعرض لنيران القاهرة وبغداد، وازداد شعوره بالوحشة بعد اغتيال الملك فيصل على يد شخص مختل في ظاهره ومن أفراد العائلة المالكة كان قد تلقى تعليمه في الولايات المتحدة. وقد وقع الحادث في ٢٥/ آذار/ مارس سنة ١٩٧٥. كان فيصل البسيط المتقشف قومياً صلباً ودعامة مفيدة للأسد خلال وبعد حرب تشرين/ اكتوبر. وكان هو الذي بادر من بين منتجي النفط العرب إلى ضخ الأموال في اقتصاد سوريا الذي أنهكته الحرب. وكانت أموال النفط (التي زادت عما كانت تحلم به سوريا المتعطشة لرأس المال) نوعاً من جائزة الترضية التي غذت ازدهاراً للإستثمار والإستهلاك غطى على العواقب الوخيمة لحرب تشرين/ اكتوبر.

كان فيصل قد وافق في بادىء الأمر على دبلوماسية كيسنجر ذات الخطوة - خطوة على أساس الفهم بأنها ستؤدي إلى سلام شامل. ولكن عندما اتضح أن ذلك لم يكن سوى وهم شاطر فيصل الأسد شعوره بالغضب، وكان سيصبح حليفاً قوياً له بلا شك في الأيام العصيبة التي كانت تنتظره. وهكذا فإن غيابه عن المسرح نجم عنه شعور بالألم والمرارة. وكان خَلَفُهُ (الملك خالد) أضعف منه وأكثر تعرضاً للتأثر بحجج واشنطن. وهناك كثيرون من مؤيدي نظريات التآمر ووجود المؤامرات في العالم العربي يميلون إلى أن يروا في اغتيال فيصل (الذي سبقه الموت المفاجىء لعمر السقاف - وزير الخارجية السعودي - في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٤ في الولايات المتحدة، وكذلك حاكم مؤسسة

إصدار النقد العربية السعودية، أنور علي الذي لحق به بعدأيام)مؤامرةً أميركيةً ـ إسرائيلية ضد الأمة العربية.

وبالإضافة إلى الخلافات والتمزقات التي أشعلتها دبلوماسية كيسنجر «السلمية»، أن هذه الدبلوماسية قد أثارت سباقاً للتسلح لم يسبق له مثيل. وشعر الأسد بأنه مهدد ومكشوف جداً، فاتجه إلى الكتلة الشرقية بحثاً عن المزيد من السلاح، فقد كانت المصدر الوحيد المتاح أمامه. لم يكن يأمل بمقاتلة إسرائيل وحده. ولكن أكان يستطيع على الأقل أن يصبح قوياً إلى درجة تكفي لردع إسرائيل عن مهاجمته؟ كان هذا لغزاً قدّر له أن يستمر في التصارع معه طيلة رئاسته. وهكذا كان من النتائج المباشرة لاتفاقية سيناء الثانية أنها رفعت وعززت العلاقات بين دمشق وموسكو. ففي أوائل أيلول/ سبتمبر وبعد أيام من توقيع تلك الاتفاقية سافر الأسد إلى تشيكوسلوفاكيا، وبعد بضعة أسابيع، في ٩ تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٧٥، وصل إلى موسكو ليستعرض مع كل الزعماء السوفيات ـ الرئيس بودغورني، والأمين العام بريجنيف، ورئيس الوزراء كوسيغين، ووزير الخارجية غروميكو ووزير الدفاع غريتشكو ـ الوضعَ الخطيرَ الذي وجد نفسه فيه آنذاك. كان الأسد ممتناً للجسر الجوي الذي أوصل السلاح السوفياتي خلال حرب تشرين ـ في ما لا يقل عن ٩٣٤ رحلة جوية في الاتجاهين ـ غير أن السوفيات لم يكونوا بارعين أو رشيقين سياسياً، فقد سمحوا لكيسنجر بأن يبعدهم عن دبلوماسية ما بعد الحرب فكان ذلك في غير صالح سوريا. وبما أن الأسد والزعماء السوفيات معاً قد رأوا أنفسهم ضحايا تآمر كيسنجر المراوغ، فقد تقاربوا سوية بشكل أوثق. ونَجَمَ عن هذه العلاقة الأقوى كل ذلك التقدم العظيم في بنية سوريا التحتيّة منذ منتصف السبعينات فصاعداً، وكذلك النمو في قواتها المسلحة.

وكان الوجه الآخر لقطعة العملة هو الابتعاد عن واشنطن بعد شهر العسل القصير الذي بدأ بإعادة العلاقات في حزيران/ يونيو عام ١٩٧٤. لم يقطع

الأسد الصلة بأميركا كما كان ممكناً أن يفعل أسلافه ذوو «الطبع الحامي» في مثل تلك الظروف، بل أبقى القناة مفتوحة. . بضع سنوات في شخص ريتشارد مورفي، سفير الولايات المتحدة في دمشق. ومهما كان الضرر الذي ألحقته به، فقد تقبل حقيقة أن أميركا باعتبارها القوة العظمى الحاكمة يجب التعامل معها. ولكن الأسد، منذ ذلك الحين فصاعداً لم يعد يثق بالولايات المتحدة.

الفرصة الضائعة

هل ضاعت فرصة السلام بعد حرب تشرين؟ إن واحدة من كلمات «لو» الكبرى في تاريخ الشرق الأوسط تتعلق بالسنتين اللتين كان فيهما كيسنجر هو المسؤول. فلو كانت الولايات المتحدة تريد تسوية لحققتها لأنها كانت تملك السلطة لذلك ما دامت إسرائيل معتمدة عليها كل هذه الاعتماد الهائل، وما دام العرب قد رحبوا بتوسطها، ولأن كل الجهات الهامة الأخرى ـ الاتحاد السوفياتي، وأوربا، واليابان ـ كانت خارج الصورة. لقد كان العرب في حالة من مزاج القبول بحيث أن إسرائيل كانت تستطيع دون شك أن تحقق تعديلات إقليمية على كل الجبهات ونزعاً واسعاً للسلاح وضمانات دولية. هذا كله بالإضافة إلى الأمن الأكثر دواماً وثباتاً الذي كانت ستولده العلاقات الطبيعية مع جيرانها.

كان في قضية العرب ثغرة قاتلة هي إيمانهم غير الواقعي بأن جهدهم الحربي قد جعلهم يستحقون التسوية، وكان هذا أملاً عززه لديهم إنفجار أسعار النفط. ولكنه كان من العوامل التي نبهت إسرائيل إلى مقاومة تقديم تنازلات. ولكن أخطر نقطة ضعف لدى العرب كانت ـ كما هي الحال دائماً ـ تكمن في عدم وحدتهم. فالتحالف المصري ـ السوري الذي قام على عدم الثقة لم يستطع أن يصمد أمام هزات الحرب فانهار وكان الأردن والمنظمة متعاديين. ولم يكن العرب قادرين على الاتفاق على كيفية التصرف بالأرض الفلسطينية حتى لو انسحبت منها إسرائيل. وكان التوتر يفرق بين الأقطار الغنية بالنفط والأقطار

الفقيرة. ومع ذلك، وبغض النظر عن هذه الشجارات فإن الشوق للسلام كان شيئاً مشتركاً بينهم على نطاق واسع.

غير أن إسرائيل على أية حال لم تكن مستعدة لتسوية شاملة. فلم تكن تريد الانسحاب إلى حدود ما قبل حزيران سنة ١٩٦٧، ولا التعامل مع الفلسطينيين. لقد ثلمت حرب تشرين رضا إسرائيل عن ذاتها وثقتها بنفسها، ولكنها عجزت عن إقناعها بالحاجة إلى تغيير جذري في طريقة التعامل مع جيرانها. كانت الغريزة السائدة هي السيطرة على العرب، وردعهم بالقوة المتفوقة، وتفتيت الجبهة العربية بأي ثمن، بدلاً من البحث عن سلام مستقر من خلال التسوية والتنازلات. وأصبح نهج التفكير الإسرائيلي حيال العرب محصوراً في مقولة الأمن العسكري وكانت المعادلة في العقل الإسرائيلي بسيطة وهي: أن الإرهاب الفلسطيني لا يشكل تهديداً هاماً، فالخطر الحقيقي الوحيد يأتي من هجوم مشترك تشنه الجيوش النظامية المصرية والسورية، وبمجرد إبعاد مصر، فإن سوريا وحدها لا تمثل مشكلة عسكرية(١٦). أما كون هذه السياسة تغذي الشعور العربي بالإحباط والكراهية فلم يبدُ أن إسرائيل كانت تهتم به أو تأخذه بالحسبان إذا ما قورن بالفوائد التي تأتيها من سياستها هذه. أما المطالبة بحدود يمكن الدفاع عنها، وتعني البقاء على نهر الأردن وفي الجولان، فقد انتهت إلى الاختلاط مع النزعة التوسعية الكامنة في الصهيونية منذ زمن طويل.

في هذا السياق ظهر كيسنجر، كشيطان انفلت من عقاله، متمتعاً بصلاحيات واسعة غير محدودة نظراً لأن آخر عام من حكم نيكسون وأول عام من حكم فورد كانا يمثلان فترة غير عادية من الضعف الرئاسي. وكان يتمتع أيضاً بسلطة شخصية غير عادية بسبب جاذبيته وحضور بديهته وبراعة تكتيكه، وكان مخلصاً للقضية الإسرائيلية فاستطاع أن يكتسح كل الآراء المعارضة له في البنتاغون، ولدى الشخصيات البارزة في مؤسسة وزارة الخارجية، والسفراء الأميركيين في الأقطار العربية الهامة، والأساتذة الجامعيين اللامعين. بل لقد

استطاع كيسنجر أن يبعد رئيسين أميركيين عن التوصل إلى تسوية عامة كانا على ما يبدو يرغبان في تحقيقها.

وقد يكون هناك سبب آخر لضياع فرصة السلام فيما بين سنة ١٩٧٣ و١٩٧٥، وهو الموقف الانتهازي المناور الذي تبنته إسرائيل طويلاً تجاه المنطقة، والذي بدأ يستقر ويضرب بجذوره في واشنطن أيضاً حالما انطلقت الحكومتان في علاقتهما الاستراتيجية من عام ١٩٧٠ فصاعداً. فلأسباب تتعلق بالدفاع عن النفس كانت إسرائيل منذ زمن مبكر تسعى لإقامة علاقات وثيقة ولو صامتة مع الدول غير العربية في المنطقة، مثل إيران واثيوبيا، على أمل احتواء العرب بتطويقهم حسب خطة استراتيجية عند الأطراف المحيطة الملتفة حول الوطن العربي. كما أنها كانت تتدخل سراً حينما وحيثما تستطيع لتضر العرب وتكيد لهم في الستينات مثلاً، بمساعدتها للسودانيين الجنوبيين في تمردهم ضد الخرطوم، أو بمساعدة إيران على تسليح القبائل اليمنية ضد عبد الناصر خلال الحرب الأهلية في اليمن أو بتسليح وتمويل الأكراد العراقيين ضد بغداد.

أما العلاقة الإسرائيلية ـ الإيرانية، التي ظلت وثيقة منذ منتصف الخمسينات، فقد أصبحت حميمة أكثر في السبعينات عندما قامت أميركا بموجب مبدأ نيكسون بتقوية وتضخيم هذين الحليفين بحجة مزعومة هي حماية المصالح الأميركية. وأما الشيء المشترك بينهما في الحقيقة فكان هو العداء للعرب، وقد قدر للولايات المتحدة أن تَنْجَرَّ عن طريقهما إلى المياه العكرة. وبدا أن اللجوء إلى الأحابيل والحيل القذرة إنما يؤدي إلى الإدمان عليها. ومثلما استفاد كيسنجر من العلاقة الإيرانية ـ الإسرائيلية في دبلوماسيته في الشرق الأوسط، فإنه فعل الشيء ذاته في إفريقيا الجنوبية عندما استغل علاقة إسرائيل بجنوب أفريقيا للعمل ضد الأنظمة الأفريقية التي اعتبرها غير مرغوب فيها مثل حكومة آنغولا اليسارية التي جاءت إلى السلطة في أعقاب الثورة البرتغالية عام ١٩٧٤. ولم يطل الوقت قبل أن تبدأ إسرائيل الإسهام بتقديم الأفكار والطاقات

والإمكانات العملية والمخابراتية للاستراتيجية الأميركية في أنحاء كثيرة من العالم.

ولعلَّه لم يكن من المعقول، مع هذه الصورة الواسعة، أن يتوقع المرء من ترتيبات كيسنجر للشرق الأوسط أن تكون إلا متحيزة بكاملها.

هوامش الفصل السادس عشر

(١) مجلة نيوزويك (عدد ٢ حزيران/ يونيو سنة ١٩٧٤).

(٢) مقابلة مع هارولد هـ . ساوندرز بلندن في حزيران سنة ١٩٨٥.

(٣) وليام شوكروس: **المشهد الجانبي**: كيسنجر، ونيكسون وتدمير كمبوديا (لندن ١٩٧٩)، وسيمور م . هيرش: كيسنجر: **ثمن السلطة** لندن ١٩٨٣ الفصل ٢٢ «شيلي: التخلص من آلليندي».

(٦) ملخص لإذاعات العالم العالم لدى محطة الإذاعة البريطانية (الوثيقة رقم ٤٨١١ عن الشرق الأوسط في ١٩٧٥/١/٢٣).

(٧): مجلة نيوزويك (عدد ٢٤ شباط سنة ١٩٧٥.)

(٨): خطاب الرئيس الأسد في الاتحاد الوطني لطلبة سوريا بدمشق في ١٩٧٥/٢/٢٤ وملخص إذاعات العالم لدى محطة الإذاعة البريطانية (الوثيقة رقم ٤٨٤٢/ أ عن الشرق الأوسط، ملتقطة يوم ٢٨ شباط ١٩٧٥).

(٩) مقابلة مع هارولد ساوندرز في واشنطن في ١٩٨٦/٩/٢٦.

(١٠): الواشنطن بوست، عدد ٦ آذار مارس سنة ١٩٧٥.

(١١): ملخص الإذاعات المحفوظ في آرشيف محطة الإذاعة البريطانية (الوثيقة ٤٨٦١ عن الشرق الأوسط، في ٢٢/ آذار سنة ١٩٧٥).

(١٢) نص يقتبسه ويستشهد به وليام كوانت في كتابة (الذي سبق ذكره)، ص ٢٦٧.

(١١) نصوصها منشورة في آراب ريبورت آندريكورد (١٩٧٥) ص ٥١٧ ـ ٥١٩.

(١٤) الأنترناشنال هيرالد تريبيون في ١٩٧٥/٩/١١ والواشنطن بوست في ١٩٧٥/٩/١٦، والنيويورك تايمز في ١٧ ـ ١٩٧٥/٩/١٨ ومقالة إدوارد ر.ف . شيهان «خطوة خطوة في الشرق الأوسط في مجلة فورين بوليسي عدد» (ربيع سنة ١٩٧٦) ووليام كوانت (مصدر سبق ذكره) ص ٢٧٣ ـ ٦ وكوانت في كتابه كامب ديفيد (طبع واشنطن ١٩٨٦) ص ٥٩ «حاشية» وص ٦٠١ وكتاب جيرالد ر. فورد وقت للشفاء (لندن سنة ١٩٧٩) ص ٢٠٨.

(١٥): آراب ريبورت آندريكورد (١٩٧٥)، ص ٥٤٠.

(١٦) إسحاق رابين في كتاب من تحرير لويس وليامز بعنوان: **الجوانب العسكرية في الصراع العربي الإسرائيلي** (تل أبيب سنة ١٩٧٥) ص ٢١٢ و٢١٦.

الفصل السّابع عشر

الفخ اللبناني

كان كيسنجر وإسرائيل بعد توقيع اتفاقية سيناء الثانية لفصل القوات قد شكلا وضعاً عربياً مناسباً لهما وعلى هواهما . وكان الأسد مصمماً على أن يتحدى هذا الوضع . ذلك أن قبول الأمر الواقع الذي تمليه اتفاقية سيناء الثانية كان يعني أن تتضاءل سوريا لتصبح مجرد دولة ضعيفة أخرى على حدود اسرائيل ، ربما مجرد أردن آخر يعيش مكرهاً على تحمل ما لا طاقة له بدفعه عن نفسه ، ولا حول له ولا قوة ، مسخراً كثيراً من طاقاته العسكرية لحماية اسرائيل من غارات الفلسطينيين . فمثل هذا المصير الشائن كان شيئاً بغيضاً لرجلٍ له مثل شعور الأسد الوطني والقومي المرهف الحساس . وكان شعار «الصمود» الذي رفعه عندئذٍ يشير إلى روح المقاومة وإرادة النضال وعدم قبول بيئة تبقى فيها سيطرة إسرائيل وتفوقها ـ بعد تحييد مصر ـ بلا تحدٍّ ولا منازع .

وبهذا التحدي اتخذت سوريا الأسد أولى خطواتها نحو التحول إلى قوة إقليمية هي خصم اسرائيل العربي الوحيد الذي له وزن وحجم . إن فكرة كون دمشق طرفاً يجب أخذه بعين الاعتبار في الشرق الأوسط قد أصبحت شيئاً عادياً مألوفاً في السنوات الأخيرة . ولكن ذلك لم يكن دائماً كذلك . لقد تلاشت ذكريات كونها ذات دور ثانوي في العقود الأولى من سنوات ما بعد الاستقلال عندما كانت أقل أهمية بكثير من القاهرة أو بغداد ، وعندما لم تكن تبدو أكثر من

كرة قدم سياسية تتداولها الأرجل فيما بينها . ففي عام ١٩٥٥ عندما كانت موضع تنافس قوي بين العراق ومصر ، انجذبت سوريا نحو فلك مصر وأمضت السنوات العشرين التالية لذلك وهي تتحمل أعباء ومضاعفات تلك العلاقة سواء في الغزل أو الزواج أو الطلاق ، وسواء على تحالف في الحرب أو على خصومة أيام السلم . كانت مصر في مركز نظام القوى الاقليمي بالمنطقة وقطبها المغناطيسي ، يجتذب أو يطرد سوريا بشكل متناوب . كان ذلك هو العالم الذي صنعه عبد الناصر ، والذي شهد تكون تفكير الأسد في بداية سنوات نضج رجولته ـ أما في عام ١٩٧٥ ، فإن النمط المألوف قد تحطم بطريقة لا ينفع فيها التصليح . فإذا كان للأسد أن يبقى كحاكم لسوريا فقد وَاجَهَتْهُ الحاجةُ لصياغة نظام جديد لعلاقات القوى .

وكان البقاء ذا أولوية في ذهنه عندما بدأ يفهم أن كيسنجر قد خدعه بمكره . وكان العراق معادياً له . وكانت العربية السعودية غير مؤكدة الاتجاه بعد اغتيال الملك فيصل ، وكان السادات قد خانه . كانت سوريا مكشوفة في الوسط ، تحت ظل اسرائيل مباشرةً ، وحولها الأردن ولبنان وكتلة الفلسطينيين البائسين ذوي المزاج الهوائي العاطفي السريع التقلب . وكانت هذه المجتمعات معرضة للعطب وهشة وسهلة الاختراق من قبل القوة والمناورات الاسرائيلية ، وعلى خط النار ، وتعرض سوريا نفسها لخطر حادّ . تحت هذا التهديد اضطر الأسد أن يبعد اهتمامه عن دبلوماسية السلام والمبارزة مع كيسنجر ليركزه باتجاه محيطه المجاور له مباشرة . . فأصبحت بلاد الشام والمشرق ساحته الأساسية المثيرة لاهتمامه . إلّا أن سوريا ، لكي تقاوم ، كانت بحاجة إلى وزن وثقل وعمق استراتيجي وحلفاء . ومن هنا تمّت إعادة إحياء فكرة قديمة تعود إلى ما قبل التمزيق الفرنسي ـ البريطاني لخريطة المنطقة ، وهي الوحدة الجوهرية لسوريا الطبيعية ، مع وجود دمشق في مركزها البؤري . كانت بلاد الشام غلافه الواقي ونقطة ضعفه المحتملة في الوقت نفسه ، فأصبحت الميدان الاستراتيجي الذي يجب عليه أن يناضل لتجميعه تحت سيطرته .

وإلى عام ١٩٧٥ تعود إذن اهتمامات الأسد الشديدة المكثفة بكل جوانب وطوايا وزوايا السياسية الفلسطينية ، وكل تحول في اتجاه سير أقدام الملك حسين النشيطة ، وكل فصل من فصول العذاب اللبناني طبعاً . وقد استغرقت هذه الأمور كلها اهتمامه المركز وسيطرت على تفكيره أكثر من عشرة أعوام . ومن الناحية العسكرية المحضة فإن قلقه كان يتركز على احتمال قيام اسرائيل بالهجوم على واحدة من خاصرتيه المكشوفتين ، عن يمينه من خلال لبنان أو عن يساره من خلال الأردن . وكذلك احتمال حصول اسرائيل على كسب سياسي في أي من هذين البلدين ، أو من خلال إيقاعه في الفخ عن طريق تصعيد الصراع مع الفلسطينيين . والشيء الذي كان مهدداً بمثل هذه المواجهة مع اسرائيل لم يكن هو أمن سوريا فحسب ـ مع أن التهديد ضد هذا الأمن كان حقيقياً بما فيه الكفاية ـ بل يشمل سمعة سوريا القومية ، وتأثيرها الاقليمي في المنطقة ، وحريتها في الحركة والمناورة .

وكانت أول حركة دفاعية قام بها الأسد هي زيارة نادرة للبنان في مطلع عام ١٩٧٥ للاجتماع بالرئيس سليمان فرنجية . وقد أحيطت هذه الزيارة لشتورا في البقاع بضجة إعلامية ، وكانت تشير إلى جعل العلاقة أوثق بين سوريا وجارها في تلك الأوقات العصيبة . ولم يكن اهتمام سوريا بالشؤون اللبنانية ليثير التعجب أو الاستغراب في أي من البلدين . لأن سوريا ولبنان بالمفهوم العام عضوان للجسد نفسه . ولا تزال الذاكرة الحية لبعض الناس تعي كيف وَسَّع الفرنسيون منطقة الحكم الذاتي لجبل لبنان موطن المسيحيين الموارنة والدروز ليخلقوا منه جمهورية لبنان عن طريق اقتطاع شرائح كبيرة من سوريا كان سكانها من المسلمين السنة والشيعة ، فالمدن الساحلية ـ طرابلس والأراضي الداخلية المحيطة بها ، وبيروت نفسها وصور وصيدا ـ وكذلك وادي البقاع والجنوب ، كانت كلها سورية قبل أن تصبح لبنانية . فالسوريون واللبنانيون كانوا من طينة واحدة في ثقافتهم وتنوع مذاهبهم الدينية وخلفيتهم العرقية ولهجتهم العامية المحلية وحتى في مآكلهم ومشروباتهم . وكان سكان البلدين مختلطين

متمازجين بشكل كامل ، مع وجود عوائل وأسر لا حصر لها تمتد فروعها عبر خط الحدود المصطنع الذي رسمه الفرنسيون . ومثل هذا الالتصاق الحميم على أية حال لم يمنع وجود بعض الشك والتنافس يمتد حتى إلى القيمة النسبية لكل من الليرتين السورية واللبنانية ، وكانت العملة اللبنانية آنذاك أغلى باستمرار . وكان المسيحيون اللبنانيون يخشون النزعة السورية لاسترجاع الأراضي التي اقتطعها الفرنسيون ، كما كان السوريون بدورهم حذرين من الارتباط التقليدي لمسيحيّي لبنان بالغرب ، وعدم التزامهم بالقضية العربية . وعلى وجه العموم كان السوريون واللبنانيون يعرفون أن كلًّا منهم ينتمي إلى الآخر .

وكان امتداد التأثير والتأثر في أي اتجاه مباشراً ، فإن كلًّا من السوريين واللبنانيين كانوا شديدي الحساسية لما يحدث في البلد الآخر . أما خط الحدود الجبلي فكان منفذاً معروفاً للمهربين ، واللاجئين السياسيين ، والعصابات المسلحة ، والمشاغبين ، والأفكار . وكان أي انقلاب في دمشق موضوعاً لتكهنات وتنبؤات قلقة في بيروت ، بينما كانت دمشق تحاول دوماً أن يكون لها رأي مسموع في تركيب الحكومات اللبنانية ، وخصوصاً في اختيار مدراء قوى الأمن والمخابرات . وكان البلدان مثل الأوعية الدموية الناقلة المتصلة بحيث أن درجة الحرارة السياسية في أي واحد منهما تؤثر حتماً على الآخر .

ولم يكن انغماس سوريا في شؤون الأردن وفلسطين يقل إلّا قليلاً عن انغماسها في الشؤون اللبنانية . فبعد ثلاثة أشهر من اجتماع الأسد بفرنجية ، وفي نفس اليوم من شهر آذار / مارس سنة ١٩٧٥ الذي بدأ فيه كيسنجر عملية فصل القوات الثانية في سيناء ، دعا الأسد منظمة التحرير الفلسطينية التي يترأسها ياسر عرفات للاشتراك مع سوريا في إقامة «قيادة موحدة» ، وفي حزيران/ يونيو عندما اشتدت مغازلة كيسنجر للسادات ، ردّ الأسد باقتراح تشكيل قيادة موحدة أخرى ، مع حسين ملك الأردن هذه المرة . وفي ١٠/ ٦/ ١٩٧٥ قام بزيارة للأردن هي الأولى من نوعها يقوم لها حاكم سوري منذ عام

١٩٥٧ ، وأعلن تجدد روح التضامن المشرقي لبلاد الشام مؤكداً أن «سوريا والأردن كيان واحد ، وبلد واحد . . . وأبناء شعب واحد له آمال واحدة ومصير واحد»[١] . وبما أن حسين كان ساخطاً لأن كيسنجر تركه خارج خطط السلام ، ومعرضاً أكثر حتى من الأسد للقوة الاسرائيلية ، فقد ردد صدى هذه العواطف في زيارة لدمشق في شهر آب / أغسطس ، وتبع ذلك شهر عسل طويل بين سوريا والأردن .

ولم يتعلق الأسد بأية أوهام حول القيمة العسكرية لهذه الروابط والعلاقات مع لبنان والفلسطينيين والأردن : فقد كانت اتفاقات سياسية تعكس اهتمامه بحماية نفسه بممارسة نوع من السيطرة على البيئة المحيطة به مباشرة . لم تكن هناك ثقة كبيرة فيما بين الأسد وعرفات وحسين ، فلقد التقى الزعماء الثلاثة لاشتراكهم في الأمل الواهي بكبح جماح اسرائيل فيما لو توثقت بينهم علاقة تضامنية ترص صفوفهم .

الحرب الأهلية

وجاء التحدي المباشر من لبنان .

فقد اندلعت حرب أهلية في ربيع عام ١٩٧٥ وراحت نيرانها تنتشر وتتسع بقفزات كبيرة ابتلعت ألوف الضحايا عند نهاية العام وأوقعت خسائر مادية كثيفة وقسمت البلد بين عصابات مسلحة ، وحطمت سلطة الدولة . ومثلت الحرب في لبنان أولاً وقبل كل شيء مشكلة أمنية لسوريا : وقال الأسد في ذلك الحين إن أمن البلدين كلٌ لا يتجزأ ولا ينقسم[٢] وكان رد فعله تجاه هذا التهديد المميت أن بذل محاولات متكررة لوقف القتال ، ووقف الانجراف نحو التقسيم . وكانت أدواته المختارة لذلك ثلاثة من مرؤوسيه الموثوقين هم عبد الحليم خدام ، النشيط ذو الكلام الصريح إلى حد الخشونة ، ورئيس الأركان حكمت الشهابي ، وقائد القوة الجوية ناجي جميل ، فقاموا بعدة رحلات عبر الجبال إلى العاصمة اللبنانية للجمع بين الأطراف المتناحرة (وقَدْ قُدِّرَ للبنان أن يشغل

عبد الحليم خدام طيلة السنوات العشر التالية حتى لقبه اللبنانيون بـ «الوالي» ، أي الحاكم . غير أن السياسيين اللبنانيين كانوا يتذمرون أحياناً من أن الحياة تحت إمرته كانت أسوأ منها تحت الحكم الفرنسي) . وكان العبور بالاتجاه الآخر كثيفاً ، إذ راح الزعماء اللبنانيون والفلسطينيون من كافة الفئات يتقاطرون على دمشق للتشاور مع الأسد ، فقد التقى بوفود منظمة التحرير ١٤ مرة خلال عام ١٩٧٥ .

وفي قلب النزاع كان الفلسطينيون ، فقد لجأ أكثر من مائة وخمسين ألفاً منهم إلى لبنان بعد حرب عام ١٩٤٨ ، وتضخم عددهم حتى أَرْبَى مجموعهم على أربعمائة ألف عند منتصف السبعينات ، وكان السبب الأساسي لذلك هو التكاثر الطبيعي . وقد تم امتصاص عدد كبير منهم في الحياة اللبنانية ، غير أن معظم أبناء هذا الشعب التعيس المشرد الذي لا دولة له كانوا يعيشون في ضواحي المدن الرئيسية في مخيمات أصبح كل منها حياً قذراً فقيراً مزدحماً من جهة ، وقلعة من جهة أخرى . وفي أعقاب الصدام العنيف بين منظمة التحرير والملك حسين في عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ لجأ كثير من الفدائيين إلى لبنان ، فحولوا منطقة العرقوب التلالية التي أهملتها الحكومة إلى حد كبير ، في جنوب شرقي البلاد ، إلى معقل لهم غير أن الاحساس بالوجود الفلسطيني كان يتجاوز المخيمات ومنطقة العرقوب النائية ، وبما أن لبنان المسلم قدم لهم بيئة ودية مؤيدة فإنهم سرعان ما اندمجوا في نسيج حياته اندماجاً لا يمكن تفكيكه ، ولا سيما في بيروت الغربية ، حيث أقامت المليشيات المختلفة مقرات قياداتها وحيث راح الزعماء الفلسطينيون يمارسون نفوذاً عظيماً . وكانت حياة الرغد اللذيذة في المدينة أطيب منها في خشونة أرض العرقوب الوعرة التي أخذت تعرف باسم «أرض فتح» غير أنه كان هناك ما هو أكثر من ذلك ، فلبنان كان البلد الوحيد الذي يتمتع فيه الفلسطينيون بحرية في الحركة . ولقد بذلت جهود لاخضاعهم للنظام ـ كان من ابرزها اتفاقية القاهرة سنة ١٩٦٩ ـ غير أن الوعود

على الورق سرعان ما نُسِيَت . فلكي يردوا على الغارات الاسرائيلية ، وإذ أصبح واضحاً أنه لا يمكنهم أن يتوقعوا أية حماية من الجيش اللبناني ، قام الفلسطينيون بنقل أسلحة ثقيلة إلى مخيمات اللاجئين ، في خرق واضح للاتفاقية . وسرعان ما أصبحت انتهاكاتهم للسيادة اللبنانية صارخة وأكثر من أن يحيط بها الحصر .

ومن الناحية السياسية ، وجد الفلسطينيون في المؤسسة الاسلامية (أي في الوضع الراهن وقياداته في صفوف المسلمين) حلفاء ، ومما كان سيصبح له مغزىً في المستقبل أنهم أقاموا أيضاً تحالفات مع حركات أصولية متشددة نشأت في ذلك الحين ، وساعدوا في تسليحها في مناخ لبنان المتساهل . وبسبب هذا الدعم المحلي ، وبسبب قوتهم الذاتية أخذ الفلسطينيون يلقون بثقلهم هنا وهناك، مقاومين كل محاولة للسيطرة عليهم من قبل الدولة اللبنانية الضعيفة .

وطيلة عقد من الزمن اعتباراً من منتصف الستينات راح الوجود الفلسطيني المتوسع يساعد باطراد على استقطاب الآراء في لبنان . فالمسلمون الذين كانوا يشاطرونهم المشاعر القومية كانوا ملتزمين بالقضية الفلسطينية ، غير أن المسيحيين على وجه العموم لم يكونوا كذلك . وكلما أصبح الفلسطينيون مزعجين أكثر ازداد اتساع الانقسام الاسلامي ـ المسيحي . وكان معظم المسيحيين يريدون إبقاء بلدهم بمنأى عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي . فلقد كان سبب ومبرر وجود لبنان أساساً ـ من وجهة نظرهم هو تقديم ملجأ للمسيحيين ، متميز ومنفصل عن الأراضي الداخلية العربية والاسلامية . وأخذوا يخشون الفلسطينيين الذين أصبحوا يرون فيهم عوامل خطرة للتغيير تهدد رجحان كفة الأغلبية المسيحية وتدوس السيادة اللبنانية وتشجع الساخطين الناقمين على شن حرب طبقية ، وفوق كل شيء ، تجرّ لبنان «المحايد» إلى نزاع مع اسرائيل .

وكان طليعة المسيحيين حزب الكتائب الذي يتزعمه بيير الجميل وهو أقدم

المجموعات الأهلية المارونية وأفضلها تنظيماً وتسليحاً ، وقد أخذ الرأي العام المسيحي يرى فيه باطراد أقوى المدافعين عن لبنان المسيحي . وقد اصطفت ضده «الحركة الوطنية» التي كانت عبارة عن مجموعة متنافرة الألوان كالموزاييك من الأحزاب الراديكالية المتشددة والجيوش الخاصة تجمعت معاً عام ١٩٧٣ تحت لواء كمال جنبلاط ، الذي كان شخصية آسرة تثير الفضول والاهتمام فهو من جهة اشتراكي متقشف من الطراز الغانديّ ، ومن جهة أخرى سياسي طموح ، ومن جهة ثالثة زعيم عشائري إقطاعي درزي . فكانت حركته الوطنية حليفاً وواجهة للمليشيات الفلسطينية التي ما كان بدون قوتها قادراً على تحدي الموارنة . وعندما أخذت خطوط المعركة ترتسم انحاز معظم سياسيي البلد إلى هذه الجهة أو تلك . فالرئيس سليمان فرنجية ، والرئيس الأسبق كميل شمعون وكل منهما له مجموعة «أزلامه وقبضاياته» المسلحين انحازوا إلى الكتائب ، بينما أصبح السياسيون البارزون السنّيون ، مثل رشيد كرامي وصائب سلام ناطقين باسم القضية الفلسطينية .

ومن المؤكد أن الفلسطينيين لم يكونوا مصدر التوتر الوحيد في لبنان . فمنذ ولادة الجمهورية اختلف المسلمون والمسيحيون حول نوعية الفصيلة السياسية التي ينتمون إليها بحيث كان الأولون يميلون للانتساب إلى العالم العربي ، والأخيرون إلى الغرب . وبالاضافة إلى ذلك كانت هناك انشقاقات ومنافسات وعداوات أخرى داخل كل من المعسكرين الإسلامي والمسيحي ، فلقد كان لبنان في خاتمة الأمر تركيباً مرقعاً من العشائر والعقائد والمجموعات العرقية التي تعيش في توازن قلق ، وهذه حالة كان معترفاً بها من خلال التقاسم المعقد للمناصب العامة والامتيازات ، مهما كانت صغيرة وثانوية ، على أساس الهوية الطائفية . وكان من أعجب ملامح النظام اللبناني استمرار النفوذ السياسي لحفنة من الوجهاء مدة طويلة ، والانقسامات الطائفية والسيطرة على الحياة الاقتصادية من قِبَلِ شبكة من الأسر والعوائل العاملة في التجارة والصيرفة والتي

تهمها أرباحها أكثر من الصالح العام . وكانت الترتيبات سبيلاً لمحاباة الأقارب ، ومقاومة الإصلاح ، والمناورة والتلاعب من قِبَلِ قوى خارجية أي أن هذه الأوضاع كانت تولد لنفسها بنفسها الخصوم والأعداء .

وبدأ المسلمون عموماً يشعرون بالغضب من الامتيازات المسيحية القائمة في صُلب النظام ، ويضغطون من أجل التغيير . وأصبحت بعض الطوائف ، ولا سيما الدروز والشيعة ، ناقمة على نظام تأسس في جوهره على تحالف واتفاق بين الموارنة والسنّة ، وتركهم في وضع أو مكانة أقل ، وبدأ المظلومون والمغلوبون الفقراء من الطوائف جميعاً يتحدون عيشة الأغنياء المسلمين منهم والمسيحيين . وكان أقوى تطور هو حشد وتحريك مئات الألوف من الشيعة (ضحايا الاهمال الحكومي ، والقصف الاسرائيلي ، والتسلط الفلسطيني) على يد رجل الدين الايراني ـ اللبناني غير العادي الإمام موسى الصدر ، الذي أسس «حركة المحرومين» عام ١٩٧٤ ، وجناحها العسكري (أمل) ـ الحروف الأولى من عبارة «اتحاد محرومي لبنان» ـ سنة ١٩٧٥ .

وتنافست قوى أخرى للحصول على تأييد المحرومين من الامتيازات والمتروكين على هامش المجتمع ، وكل الساخطين على الدائرة المغلقة للمؤسسة الحاكمة التي غالباً ما كانت فاسدة من الداخل . وفي لبنان الذي تصل فيه الحرية للجميع إلى حد التسيب ، حيث تطبع أكثر من خمسين صحيفة يومية من بين عدد آخر لا يحصى من الدوريات ، راحت تنمو وتزدهر مجموعات ضغط صاخبة الأصوات من خارج البرلمان ، وتستورد إلى البلد مختلف التيارات والمشاجرات السياسية السائدة في العالم العربي الفسيح وأخذ الشيوعيون ، والاشتراكيون ، والبعثيون ، والناصريون ، والقوميون السوريون ، والاجنحة والفئات والتكتلات المتفرعة منهم أو المنشقة عنهم ، يشنون الحملات ضد بعضهم البعض وضد الجهاز السياسي الذي لم تمتد إليه يد الاصلاح في لبنان . ذلك أن مثل هذا المجتمع المجزأ قد جعل نفسه عرضة

للاختراق والتلاعب والمناورات على يد وكلاء وعملاء من البلدان المحيطة به ومما هو أبعد منها . وفي هذا «المركز» للعالم العربي ، حيث تتم المتاجرة والتبادل بالأموال ، والأفكار والعقائد والسياسات ، اشتد الصراع على النفوذ بين اسرائيل وجيرانها ، بين سوريا وخصومها العرب، العراق ومصر ، وبين بريطانيا وفرنسا ، وبين فرنسا والولايات المتحدة ، وبين الاتحاد السوفياتي والغرب ، مما أدى إلى اضطراب وتعكير المشهد السياسي المحلي .

على أن النظام كان يمكن أن يعيش متحملاً هذه الضغوط المستوردة والمحلية لولا الاضطراب الاضافي الذي جاءت به المشكلة الفلسطينية . وكان واضحاً من حرب ١٩٦٧ عندما احتلت اسرائيل بقية فلسطين كلها أن لبنان لن ينعم بالاستقرار في غياب تسوية سياسية لأولئك الذين حرموا من ممتلكاتهم . ذلك أن الاحباطات التي خيبت آمال الفلسطينيين كان لا بد أن تؤدي حتماً إلى قلب التوازن اللبناني القلق غير المستقر . ولم يكن صدفةً أن تنفجر التوترات التي ظلت تدمدم طويلاً فتصبح حرباً أهلية في عام ١٩٧٥ . فاندلعت اضطرابات خطيرة في الربيع ، تماماً في نفس الوقت الذي بدأ فيه كيسنجر رحلاته المكوكية من أجل اتفاقية سيناء الثانية ، ثم اتسع الحريق وخرج عن السيطرة في الخريف ، بالضبط في الوقت الذي عقدت فيه مصر وإسرائيل اتفاقيتهما . وهكذا سارت الحرب الأهلية اللبنانية في خطٍ موازٍ لسياسة كيسنجر في الشرق الأوسط ويمكن اعتبارها واحداً من أخطر النزاعات التي فجّرها سعيه للتقدم نحو تمزيق وحدة العرب خطوة ـ خطوة .

ذلك أنه عندما اتضح أن هدف كيسنجر لم يكن إيجاد تسوية شاملة ، بل مجرد إخراج مصر من الميدان ، انطلق في لبنان تياران قويان من الفزع والإجفال ، وخيبة الأمل والإحباط . فقد شعر المسيحيون بأنهم لن يتخلصوا أبداً من الفلسطينيين المكروهين والمعادين ، بينما راح الفلسطينيون بدورهم يرتجفون خوفاً على مستقبلهم بعد أن تخلّت عنهم وهَجَرَتْهُم أكبرُ دولة عربية .

وكان هذا الشعور بانعدام الأمن هو الذي دفع الجانبين إلى الحرب . وخلال زيارة عابرة أثناء إحدى جولاته المكوكية المبكرة واجه كيسنجر توسلات السياسيين اللبنانيين بأن ينقذ وطنهم عن طريق عمل شيء ما للفلسطينيين[٣] . فلم يفعل شيئاً . وعند منتصف السبعينات ، وبعد عشرة أعوام من الخوف المتزايد كان يمكن إنقاذ لبنان بتسوية شاملة في الشرق الأوسط يكون فيها للفلسطينيين مكان . فهكذا كان أمل اللبنانيين من جميع الميول والاتجاهات والمشارب السياسية ، وأمل الدول العربية المجاورة ، وأمل الجماهير الفلسطينية . لكن كيسنجر وإسرائيل قررا عكس ذلك . فوجهت اتفاقيةُ سيناء الثانية الضربةَ القاضيةَ إلى لبنان .

ضربات إسرائيل الانتقامية

وكان دور اسرائيل في المأساة سابقاً لدور كيسنجر ، فلقد كانت سياسة إسرائيل منذ زمن طويل أن تجعل جيرانها يدفعون غالياً ثمن انطلاق غارات الفلسطينيين ضدها من أراضيهم . وكان واضحاً أن الانتقام الثقيل مخطط لإرغام الحكومات المضيفة على ضبط الفدائيين والسيطرة عليهم ، وقد نجح هذا المخطط على معظم الجبهات . ولكن عندما بدأ الفلسطينيون ينشطون من جنوب لبنان في عام ١٩٦٨ فإن الجيش اللبناني السقيم كان أضعف من أن يحشرهم في القمقم ، بل إن محاولاتهم لذلك نجمت عنها اشتباكات كثيرة أدّت هي نفسها إلى زيادة حدة التوتر في لبنان ، وأثارت جدلاً داخلياً عنيفاً حول دور الجيش : أكان عليه أن يحمي الفدائيين من الضربات الاسرائيلية (كما كان القوميون والوطنيون العرب يطالبون) ، أم كان عليه أن يعاقب الفلسطينيين (كما كان الموارنة يفضلون) ؟

والواقع أن الذي حدث هو أن هجمات الفلسطينيين على شمال اسرائيل من لبنان كانت صغيرة الحجم وغير فعالة وغير مؤثرة فيما بين حربي سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ ، ومحصورة إلى حد كبير في طلعات عبر الحدود إلى مرتفعات

الجولان المحتلة . ولكن اسرائيل راحت تضرب اللبنانيين العاجزين الضعفاء رداً على أية عمليات فلسطينية في أي مكان من العالم . وأحياناً لمجرد أنهم أعطوا للفدائيين المأوى . وهكذا فإن هدف الانتقام الاسرائيلي قد تعدى معاقبة أو ردع العدو الفلسطيني . وأصبح واضحاً أنه مبيّت ومقصود لإثارة النزاع والشقاق في لبنان(٤) .

فمثلاً ، عندما هوجمت طائرة ركاب إسرائيلية في مطار آثينا في كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٦٨ على يد فدائيي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يتزعمها جورج حبش ، شنَّ الكوماندوس الاسرائيليون غارة على مطار بيروت ونسفوا فيه ثلاث عشرة طائرة ، فأشعلوا بذلك سلسلة من الاضطرابات والمظاهرات أدت إلى إسقاط الحكومة . وصارت الهجمات الاسرائيلية على جنوب لبنان وحشية بشكل خاص في أعقاب نزوح كثير من الفلسطينيين من الأردن في عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ . وقامت الدروع الاسرائيلية عدة مرات باجتياح القرى على نطاق واسع وأخذت تهدم البيوت بالجرافات وتأخذ أسرى وتطلق النار على المقاومين . وأدى الاستعمال المتزايد للقوة الجوية إلى جعل بعض أجزاء الجنوب غير صالحة للسكن وعجلت بنزوح الفلاحين الشيعة إلى الضواحي الفقيرة قرب بيروت وحولها حيث كان من المحتم أن يخلّوا بالتوازن الاجتماعي إذ سرعان ما غيروا طابع وشخصية العاصمة تماماً . وفي أعقاب مصرع الرياضيين الاسرائيليين في الألعاب الأولمبية في ميونيخ عام ١٩٧٢ انفلت الاسرائيليون الغاضبون من عقالهم على طول الساحل اللبناني المطل على الأبيض المتوسط فنسفوا الجسور وسَوَّوْا بالأرض عشرات المنازل وتركوا وراءهم خطاً من آثار الموت والدمار في ست عشرة قرية .

وقد جعلت هذه الاعتداءات اللبنانيين يقفون ضد بعضهم البعض ، والمسيحيين ضد الفدائيين . فقد أعطى الوجودُ الفلسطيني اسرائيل الآلية التي تثير بها مواجهات عنيفة بين الموارنة والفلسطينيين ، والحجة التي تتذرع بها

لهدم استقرار العرب وسلامهم بشكل عام . ففي ليلة ٩ ـ ١٠/ نيسان / إبريل سنة ١٩٧٣ اقتحم كوماندوس إسرائيليون وسط بيروت واغتالوا ثلاثة من قادة فتح في غرف نومهم ، فتسببوا على الفور بقيام مظاهرات رهيبة ضد الحكومة ، وبصدام بين رئيس الوزراء المسلم صائب سلام والرئيس الماروني سليمان فرنجية ، وبقتال عنيف استمر أكثر من أسبوعين بين الجيش اللبناني والميليشيات الفلسطينية .

وفي ربيع سنة ١٩٧٤ عندما أصبحت مجموعات من الفلسطينيين أكثر جرأة وبدأت تضرب في داخل اسرائيل تصاعدت رداً على ذلك الضربات الانتقامية الاسرائيلية مما سبب مزيداً من الأذى للتركيبة اللبنانية وفي ١٥ أيار/مايو وفي محاولة لتأمين الإفراج عن بعض المقاتلين المحتجزين في السجون الاسرائيلية، احتل الفدائيون الفلسطينيون مدرسة في مستوطنة (معالوت) الحدودية وأخذوا أطفالها رهائن. وكانت المجموعة الفدائية المسؤولة عن هذه العملية تطلق على نفسها اسم مجموعة «كمال ناصر»، أحد قادة فتح الذين اغتالتهم اسرائيل في بيروت عام ١٩٧٣ . وعندما رفضت اسرائيل التبادل واقتحم جنودها مبنى المدرسة قضىٰ في المعركة ستة عشر طفلاً قبل أن يتم قتل الفدائيين. وأدت هذه الواقعة إلى سلسلة من الهجمات الاسرائيلية الشرسة الواسعة النطاق استمرت عدة أيام بالطائرات والقوارب المسلحة والقوات البرية ضد الفلسطينيين واللبنانيين في المخيمات والقرى سويت فيها عدة أماكن سكنية بالأرض وقتل من العرب وجرح عدد يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة .

وقد وقعت هذه الحوادث العنيفة بينما كان كيسنجر في الشرق الأوسط منهمكاً في رحلاته المكوكية السورية ، وسأل الأسدَ عن رد فعله لما حدث في معالوت ، وكتب كيسنجر فيما بعد «وكان جواب الأسد مترفعاً متحفظاً شديد البرود» فقد سأل الأسدُ كيسنجر بدوره : «ولماذا لا تطلق اسرائيل سراح عشرين سجيناً وتنقذ أطفالها؟»[٥] ولكن حتى في ذلك الوقت كان الأسد قلقاً من

احتمال امتداد الضربات الانتقامية الاسرائيلية ضد لبنان بحيث تنجر إليها سوريا عاجلاً أو آجلاً .

وقد بلغ مجموع الهجمات الاسرائيلية الكبرى على لبنان من منتصف عام ١٩٦٨ إلى منتصف عام ١٩٧٤ أربعة وأربعين هجوماً أدت إلى مصرع ٨٨٠ من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين(٦) . ولكن هذه الهجمات ، بالاضافة إلى الضحايا والدمار المادي الذي خلفته ، قد نسفت انسجام المجتمع اللبناني ومزقت البلد . ومنذ عام ١٩٧٣ فصاعداً شعر كلٌّ من الطرفين في لبنان بأنه يواجه خطر الإبادة الجسدية ، فراحا يشددان جهودهما من أجل التسلح ويتنافسان في البحث عن حلفاء .

المناورات والألاعيب الخارجية

وعندما راح الاقتتال في لبنان يتسع بصورة مترادفة ومتساوقة في وتيرتها مع المرحلة الأخيرة من دبلوماسية كيسنجر ، اقتنع الأسد بأن النزاع تحركه أصابع خارجية ، وحسب تحليله فإن الحرب الأهلية في لبنان قد نفخت فيها النار حتى اشتعلت لصرف انتباه العالم العربي عمّا كان كيسنجر يطبخه بين مصر وإسرائيل . كانت الحرب غطاء لاتفاقية سيناء الثانية لاغراقها في الدم . رأى الأسد في الحرب مؤامرة لجرّ المقاومة الفلسطينية إليها لتدميرها ، وآمن بأن الهدف كان هو تقسيم لبنان ، وقال إن ذلك هو «الهدف الصهيوني القديم»(٧) . ذلك أن المسيحيين إذا سيقوا تحت الضغط من الفلسطينيين والمسلمين، إلى إقامة دويلة خاصة بهم فإن ذلك سيوهن القومية العربية كرابطة بين العرب، ويجعل الإسلام يبدو كأنه غير متسامح، إضافة إلى إضعاف الثقة بالبرنامج الذي طرحه الفلسطينيون لإقامة «دولة ديمقراطية علمانية» تضم المسلمين، والمسيحيين، واليهود، ومن ثم تسيطر إسرائيل بلا منازع على مشرق «مُبَلْقَن» مفتت.

وقد تحكمت في تفكير الأسد هواجس السابقة الأردنية خلال أزمة عام

١٩٧٠ . فأيلول الأسود أدماه وهو على أعتاب استلام السلطة. فهناك أيضاً تحدت الميليشيات الفلسطينية الدولة ، فتدخل الأسد بتردد ليحاول حماية الفدائيين ، وأحجم عن خوض حرب كاملة صريحة مع الأردن ، وسحب قواته خلال أيام . ومع ذلك فحتى هذا الاستعراض غير المؤثر للقوة كان كافياً لاعطاء اسرائيل الحجة للتهديد بالتدخل ولبسط نفوذها فيما بعد على الأردن كحامية لحسين ، ولتدفع بالملك إلى إقامة علاقة سرية مشبوهة وغامضة معها . أكان كابوس الأردن سيتكرر في لبنان فيمكن اسرائيل من مدّ مجساتها إلى جناح سوريا الغربي؟

من وجهة نظر الأسد ، كانت سوريا وإسرائيل مشتبكتين في صراع تتنافسان فيه على المشرق ككلّ . ومثلما تدافعتا واحتكتا وتصادمتا في لبنان ، كانتا أيضاً مشتبكتين في صراع على الأردن يحاول فيه الأسد أن يشد إليه الملك حسين بينما تحاول اسرائيل أن تفوز بإبعاده عن سوريا . وعندما توثقت الروابط السورية ـ الأردنية ، قام رابين ، في شباط/ فبراير سنة ١٩٧٦ بتحذير الملك من «الدب السوري»[٨] . وأعلن رابين أن سوريا في محاولتها إقامة جبهة شرقية كانت «تلعب بالنار»[٩] . وفي يوم زيارة حسين للأسد في دمشق في آذار / مارس من ذلك العام حاول موشي دايان تعكير الجو وعرقلة الأمور بالكشف عن محادثات حسين السرية الكثيرة مع الزعماء الاسرائيليين منذ حرب حزيران سنة ١٩٦٧ [١٠] . وهكذا كانت سوريا واسرائيل تتزاحمان على مواقع النفوذ والتأثير على رقعة شطرنج المشرق بكاملها .

وفي هذا الوقت بالذات كان الأسد قد اقتنع بأن اسرائيل والولايات المتحدة تعملان متواطئتين وتنسقان خططهما الاستراتيجية الدبلوماسية في هيئة الأمم المتحدة وفي أماكن أخرى . إضافة إلى عملياتهما السرية على الأرض في الأردن ولبنان حيث شكّ في تحريضهما للمسيحيين ضد الفلسطينيين . فكلما نجح وقف لإطلاق النار بعد مفاوضات طويلة وشاقة ، كانت تقع جريمة تعيد

إشعال المكان كله من جديد ، لتطلق موجة من القتل والاختطاف المتبادلين وكأن المحرضين على الفتنة كانوا مصممين على صب الوقود على العنف المتصاعد . وكان الأسد يعرف أن إسرائيل ـ التي أصبح تحالفها مع الموارنة علنياً سنة ١٩٧٦ كان لها وجود تجسسي قوي في لبنان ، كما أن الوكالات الأميركية لم تكن غائبة هي الأخرى . وقد ادعى موظف سابق في وكالة الأمن القومي الأميركية فيما بعد ـ ولم يكن هو المسؤول الأميركي الوحيد في ذلك الاعتراف ـ بأن محطة آثينا للمخابرات المركزية الأميركية قد استخدمت لتنشيط الكتائب ولإذكاء نار الحرب [١١] .

وشعر الأسد بأن البيئة المحيطة به تعج بالأخطار . فلم يكن يستطيع أن يترك الأزمة اللبنانية تتعفن . وقرر أن يتدخل إذا دعت الضرورة لذلك دون أن ينتابه أي شعور بالتردد أو الندم . فقد كان على قناعة صميمية عميقة بأن اهتمام سوريا بلبنان هو من صُلْبِ طبيعة الأشياء ، أما التدخل من قبل إسرائيل ، الدولة الغريبة الأجنبية عن المنطقة فلا يمكن أن يكون إلّا خبيثاً وغير مشروع . كان الأسد متأكداً من شيءٍ واحد ، وهو : إن كان للمؤامرة الأميركية ضده أن تحبط وتفشل ، فيجب إيقاف القتال في لبنان ، لأنه كلما طال استمراره تزايدت فرص اسرائيل. كان ذلك واضحاً في ذهنه وكأنه صيغة معادلة رياضية[١٢] .

العنف يتزايد

اعتباراً من كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٧٥ حدثت تطورات تنبَّه الأسد لمخاطرها . فمع انتشار القتال في لبنان راح يتصور نتيجتين محتملتين ، وكلتاهما رهيبة مريعة : فإمّا أن يقيم الموارنة دولة مسيحية منفصلة تقوم بإدخال اسرائيل كحامية لها ، وإما أن تتغلب القوى الوطنية المتشددة على الموارنة ، بدعم من الفلسطينيين ، مما يؤدي إلى دخول اسرائيل لمعاقبتهم . فإذا تدخلت سوريا فإنها تواجه الانحدار ، وإذا بقيت متنحية جانباً ، فإن لبنان سيسقط في يد العدو .

ولقد أصبحت عمليات الخطف والقتل وغيرها من الأعمال الهمجية شيئاً مألوفاً بصورة محزنة . غير أن قتل مائتين من المدنيين المسلمين (الذين جمعهم رجال المليشيات المسيحية في ٦/ ديسمبر ـ كانون الأول / سنة ١٩٧٥ وذبحوهم في بيروت لمجرد كونهم مسلمين) وصل بالوحشية إلى حضيض جديد بدا أنه قد قضى على أي أمل بالمصالحة . وأدت المذبحة وعمليات القتل الانتقامي التي تبعتها إلى جعل السكان يهرعون مذعورين جيئة وذهاباً للبحث عن الأمان بين بني دينهم ، بحيث أن أحياء بكاملها مسحت مسحاً لأنها وجدت نفسها في وسط معادٍ لها . واتخذ كل جانب أعمالاً قاسية وحاسمة في كانون الثاني / يناير عام ١٩٧٦ «لتطهير» بقعته من العناصر الغريبة ولتأمين خطوطه . فاجتاح المسيحيون ضاحية الكرنتينا الشيعية الفقيرة في منطقة ميناء بيروت ، وأزالوا مخيم الضبيّة الفلسطيني القريب منها لأنهما واقعان على جوانب الطرق المؤدية من بيروت الشرقية إلى قلب المناطق المسيحية الداخلية في الجبال . وفي الوقت نفسه اجتاحت الحركة الوطنية وحلفاؤها الفلسطينيون ونهبوا ودمروا المواقع المسيحية في الدامور والجيّة وإقطاعية كميل شمعون في السعديات ، الواقعة على الطريق التي تربط بيروت الغربية بجنوب لبنان . وأخذ التقسيم يصبح أمراً واقعاً .

ولحماية لبنان من الانهيار ، حاول الأسد أن يقنع أطرافه المتناحرة بالموافقة على إدخال إصلاحات . ففي شباط / فبراير سنة ١٩٧٦ قام بتشجيع الرئيس فرنجية على إصدار وثيقة دستورية تعطي المسلمين بعض المكاسب التي كانوا يشنون حملاتهم للمطالبة بها : التمثيل البرلماني المتساوي مع المسيحيين ، سلطات أكثر لرئيس الوزراء السنّيّ الذي تقرر أن يختاره البرلمان بدلاً من الرئيس الماروني ، وأن يكون توقيعه ضرورياً على كل المراسيم والقوانين ، إضافة إلى المساواة بين الجميع في الوصول إلى المناصب العليا في الخدمة المدنية ، مع الاشارة إلى لبنان باعتباره «بلداً عربياً» . كان يمكن لهذه

التعديلات أن تحافظ على السلام لو أنها تمت قبل ذلك بعام أو عامين ، غير أنها في لبنان الذي أصبح مقبرة ومحرقة في ربيع عام ١٩٧٦ كانت غير ملائمة بشكل محزن .

وفي آذار / مارس سنة ١٩٧٦ جاءت الضربة القاضية للدولة اللبنانية : وهي تفتت الجيش وانقسامه إلى مكوناته الطائفية ، حيث تمرد الضباط المسلمون لصالح اليسار ، بينما اتجه الضباط المسيحيون إلى الكتائب . وبمساعدة المتمردين انطلقت الحركة الوطنية للهجوم ، فطردت القوات المسيحية من وسط مدينة بيروت ، وقصفت القصر الجمهوري وجعلت سليمان فرنجية يهرب منه للنجاة بحياته . ثم بدأت بعد ذلك تتحرك ضد جبال المسيحيين ، فحشر الموارنة في «لبنان الصغير» الذي مركزه الرئيسي ميناء جونية .

وكان مأزق الأسد في ربيع عام ١٩٧٦ أن أولئك المصممين أكثر من الجميع على متابعة القتال كانوا أولئك المفترض فيهم أنهم أصدقاؤه والمحسوبون عليه، وهم أتباع كمال جنبلاط المتشددون الذين تدعمهم القوة الفلسطينية. ولقد بَدَا له الوضع مشحوناً بالخطر إلى درجة أنه ألغى في منتصف آذار/ مارس ـ وبدون مهلة كافية ـ زيارة رسمية كان مقرراً أن يقوم بها لفرنسا، رغم أنها كانت أول زيارة سيقوم بها، وهو في منصب الرئيس السوري، لبلد غربيّ.

اتفاقية «الخط الأحمر»

كانت الأزمة اللبنانية بالنسبة لكيسنجر آخر فرصة يمارس فيها براعته الخبيثة في المناورة في الشرق الأوسط قبل أن يزيحه من السلطة فوزُ جيمي كارتر في الانتخابات الأميركية .

وعندما كبر خطر الأزمة اللبنانية واستطار في ربيع عام ١٩٧٦ أصبح همُّ كيسنجر أن يكسر حدة هجوم الوطنيين والفلسطينيين التي انتشرت كالمدّ تكتسح

أمامها كل شيء ، فقد بقي يقف تجاه الأزمة اللبنانية وقفة اللامبالاة إلى حد كبير حتى ذلك الحين . ولكن انتصارات اليسار لم تكن شيئاً يستطيع كيسنجر أن يتجاهله . فالاتحاد السوفياتي الذي كان يدعم الطرف الرابح بدا وكأنه يتقدم ليكسب أرضاً أو مواقع جديدة ثمينة . وكان هناك همٌّ مستعجل أكثر ، هو : ما الذي ستفعله سوريا واسرائيل . فكلاهما كانتا تريان لبنان ضرورياً وحساساً لأمنهما ، غير أنهما إذا اصطدمتا فستكون العاقبة حرباً جديدة في الشرق الأوسط تعرض منجزات كيسنجر للخطر ، ولا سيما العلاقة المصرية ـ الاسرائيلية .

وبالنسبة لكيسنجر ، كذلك بالنسبة للأسد ولرابين ، ظهرت أحداث لبنان وكأنها إعادة لأزمة الأردن عام ١٩٧٠ . ففي ذلك الحين أرسل الأسد دروعه إلى أن أُرْغِمَ على الخروج بعدما لوّح كيسنجر باحتمال تلقيه ضربة اسرائيلية . ألم يكن ذلك نموذجاً لما يحدث في لبنان بعد ستة أعوام ؟ مرة أخرى كان الفلسطينيون مشتبكين في حرب، ومرة أخرى كانت اسرائيل تستعرض عضلاتها لابقاء سوريا خارجاً ونقلت التحذيرات الاسرائيلية لسوريا عن طريق الولايات المتحدة التي قام سفيرها بدمشق ، ريتشارد مورفي ، بإبلاغ الأسد بأن اسرائيل ستنظر إلى دخول سوريا للبنان على أنه «تهديد خطير جداً» لها . وعزّز مورفي إنذاره هذا ـ لا تتدخلوا ، وإلاّ فإن اسرائيل ستتدخل[١٣] ـ بالتحذير من أن الولايات المتحدة قد لا تتمكن من لجم اسرائيل . كانت هذه طريقة كلاسيكية معهودة للتعبير عن موقف اسرائيل التقليدي الذي يعتبر وجود قوات عربية أخرى في لبنان أو الأردن سبباً كافياً لتبرير شن الحرب .

ثم خطرت لكيسنجر فكرة أكثر دهاء لعلها هبطت عليه وهو متجه إلى المطار في واشنطن في ٢٩/ ٣/ سنة ١٩٧٦ لتحية حسين ملك الأردن . كان الرجلان مشتركين في أسرار كثيرة من أيام أزمة عام ١٩٧٠ . وفي خط الاستقبال بالمطار التقى الملك وكيسنجر مع ل . دين براون ، السفير الأميركي السابق في عمان ، الذي كان صلة الوصل وضابط الارتباط بينهما في أيام أيلول الأسود

الحرجة العصيبة . ولعل هذا اللقاء العارض، وكذلك المحادثات مع الملك حسين في ذلك الوقت ، هما العاملان اللذان زرعا بذور تلك الخطة البيزنطية الخبيثة في ذهن كيسنجر الخصب . وفي خلال أربع وعشرين ساعة قام باستدعاء دين براون وأخرجه من تقاعده وأرسله في مهمة خاصة إلى بيروت .

كان الخط المعروف المألوف عن الموقف تجاه لبنان في أميركا واسرائيل هو تخويف الأسد كي يبقى خارج الحلبة اللبنانية بينما يُتْرَكُ الفلسطينيون واللبنانيون ليتذابحوا إلى النهاية . كانت هذه هي غريزة اسرائيل ، وفي باديء الأمر كانت هي أيضاً غريزة كيسنجر . ولكن فكرته البارعة المفاجئة الجهنمية كانت قلب هذا المفهوم المألوف رأساً على عقب . فقد خَطَرَ لكيسنجر أن السياسة الصحيحة لم تكن بالتأكيد تخويف الأسد من الدخول ، بل تخويفه من عدم الدخول ! وبدلاً من أن يقال له :«إذا دخلت فسوف تدخل اسرائيل » فإن الرسالة الأكثر دهاءً هي أن يقال له : «إذا لم تدخل ، فإن اسرائيل ستدخل بالتأكيد» .

لم يكن كيسنجر يشعر بأي مودة أو ميل خاص نحو الزعيم السوري . كانت محبته أو إعجابه الأول قد انتهى منذ زمن طويل وحل محله شيء أكثر برودأ بكثير عندما أثبت الأسد أنه أذكى وأصلب منتقدٍ ومعرقل لدبلوماسيته . وكان يعي أن أهم وأقوى مخاوف الأسد هو التدخل الاسرائيلي في لبنان بحجة إنقاذ المسيحيين ، وهي مخاوف كانت تجعله يحاول كبح جنبلاط وعرفات لمنعهما من الضغط على المسيحيين أكثر من اللازم . وأدرك كيسنجر الماكر المراوغ أن قلق الأسد شيء يمكن الاستفادة منه . ولا بد أنه قد استطاب المفارقة الهائلة لموقف يضطر فيه الأسد إلى سحق الفلسطينيين بدلاً من حمايتهم ، وذلك لمنعهم من التسبب فيما كان يخشاه أكثر من أي شيء ـ أي الغزو الاسرائيلي .

إن الفوائد لأميركا واسرائيل يمكن أن تكون عظيمة حقاً . فالفلسطينيون

سيتم قهرهم وضبطهم واليسار سوف يتم احتواؤه ، وموسكو ستصاب بخيبة أمل ، والأسد سيتلوث وتنسف مكانته بسبب فعلة شنعاء في نظر العرب . أما كم من هذه الأشياء خطط له كيسنجر وفكر فيه عمداً ، وكم منها كان مجرد إحساس لديه فهذه مسألة متروكة للتكهنات والتخمينات .

كان ضمان النتيجة المرغوب فيها يتطلب تحريك بعض الخيوط . كان يجب إقناع اسرائيل ـ ضد ردود فعلها الانعكاسية الطبيعية ـ بقبول دخول جيش سوري إلى لبنان ، وتطمين سوريا أن الولايات المتحدة لن تعارض إذا تدخلت وأن اسرائيل لن تبدي رد فعل عسكري . وفي الوقت نفسه كان يجب أن يستمر القتال على الأرض في لبنان إذا أريد للفخ أن يُطْبِق على الفريسة ، لأن القتال إذا توقف فإن سوريا لن يكون لديها سبب آخر يبرر التدخل .

ولم تقتنع اسرائيل بسهولة بحكمة ترك القوات السورية تدخل . فقد كان من بديهيات سياسة اسرائيل أن سوريا يجب تحجيمها ، وليس تشجيعها على التوسع ، غير أن كيسنجر في هذه المناسبة أيضاً جادل بأنه هو أفضل من يعرف صالح اسرائيل . فحصل على تأييد غير متوقع من رئيس الأركان مردخاي غور ورئيس المخابرات العسكرية شلوموغازيت اللذين أكدا بأن دخول القوات السورية إلى لبنان سيضعف الجيش السوري بالفعل ، ويبعد اهتمامه عن مرتفعات الجولان ؛ وقد تم إقناع رابين بذلك في آخر الأمر .

وهكذا وضع كل شيء في محله كأساس لما سمي باتفاقية الخط الأحمر ، وهي اتفاقية غير مكتوبة ، ولا موقعة ، ولا يعترف بها السوريون ، وتقضي بأن تقبل اسرائيل بوجود قوات سورية في أجزاء من لبنان(١٤) . وبالطبع جعل الاسرائيليون قبولهم مشروطاً بأن لا تجلب القوات السورية معها صواريخ سام إلى الجنوب من طريق دمشق بيروت . وأصرت اسرائيل أيضاً على أن يكون الانتشار السوري في البحر والجو محدوداً ، وهذا الفهم أو التفسير لاتفاقية «الخط الأحمر» كان موجوداً في رسالة بعث بها وزير الخارجية

الاسرائيلي في ذلك الحين إيغال آلون إلى كيسنجر الذي نقلها بدوره إلى دمشق .

غير أن الحقيقة هي أن اتفاقية الخط الأحمر كانت دعوة للسوريين كي يدخلوا ، وليست تحذيراً كي يبقوا خارجاً ، وهكذا صار بإمكان سوريا أن تتحرك ضد الفلسطينيين في لبنان مع الفهم بأن اسرائيل لن تتدخل .

وقد تم التمهيد لهذا المنعطف بتغيير درامي مفاجىء لنغمة واشنطن تجاه سوريا . فإلى نهاية آذار / مارس ظلت وزارة الخارجية الأميركية تحذر سوريا علناً من التدخل . ولكن فجأةً راح البيت الأبيض ، وكيسنجر نفسه ، ول . دين براون ، والسفارة الأميركية بدمشق يصدرون بعد ذلك التاريخ تعبيرات عن موافقتهم على دور سوريا «البنّاء» . ولم يحدث قط أن تغير الضوء الأحمر إلى ضوء أخضر بمثل هذه السرعة .

وتولى مبعوث كيسنجر ، دين براون ، الجانب اللبناني من المؤامرة . فزار جنبلاط في قلعته بالمختارة وعبر عن تشاؤمه من مستقبل التعايش بين الدروز والموارنة ، وفهم جنبلاط من ذلك موافقةً على التقسيم، وبالتالي على استمرار الحرب[١٦] . أما الزعماء المسيحيون الرئيسيون الثلاثة ، فرنجية ، والجميل ، وشمعون ، المحصورون في استحكامات قلاعهم الجبلية فقد أوضح لهم براون أنهم لا يمكن أن يتوقعوا الإنقاذ على يد البحارة والجنود الأميركيين كما في عام ١٩٥٨ ، ولكن خلاصهم يكمن في تقوية أنفسهم من خلال علاقات أوثق مع اسرائيل[١٧] .

ومع تعبئة وشحن آلة الحرب اللبنانية جيداً . تَمّ نصب الفخ .

تهديدات من جنبلاط وعرفات

في عام ١٩٧٦ شعر الأسد بأنه مضطر للتدخل العسكري في الحرب الأهلية. ولم تكن حركته متهورة، بل لقد تم التفكير فيها ومناقشتها مطولاً في

قيادة حزب البعث، وكانت هناك إرهاصات سبقتها ودلت عليها منذ شهور قبل ذلك. فمنذ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٧٥ كان الأسد قد أدخل إلى لبنان وحدات من جيش التحرير الفلسطيني وقوات الصاعقة لكبح جماع التحالف الوطني اليساري المتشدد، ولفصل المتحاربين. وكان قد حذّر بصراحة لا لبس فيها من أن سوريا ستضرب كل من يعكر صفو السلام. ولكن كلماته ذهبت دون أن يهتم بها أحد.

في السابع والعشرين من آذار / مارس عام ١٩٧٦ عقد الأسد اجتماعاً عاصفاً مع كمال جنبلاط ، الزعيم غير المنازَع لليسار اللبناني ، واستغرق الاجتماع سبع ساعات افترقا على أثره متخاصمين ، ولم يقدر لهما أن يرى كل منهما الآخر ثانية بعد ذلك . وقبل ذلك اللقاء بأيام كان جنبلاط قد أعلن عن تشكيل «جيش فخر الدين» (على اسم بطل درزي عاش في القرن السابع عشر) لتوحيد جميع القوات الاسلامية واليسارية ، وأعلن عزمه على شن حملة عسكرية «شاملة لا تراجع فيها» ضد القوات المسيحية(١٨) . ولقد بدت سياسة جنبلاط الحربية كلها لعيني الأسد حماقة مطلقة تخدم أهداف اسرائيل مباشرة وتعرّض سوريا نفسها لخطر غير محدود . وسأله الأسد : «لماذا تصعّدون القتال؟ إن الاصلاحات الواردة في الوثيقة الدستورية تعطيكم ٩٥٪ مما تريدون، فما الذي تَسْعَوْنَ إليه بعد؟» فأجاب جنبلاط بأنه يريد التخلص من المسيحيين «الذين لا يزالون جاثمين على صدورنا منذ ١٤٠ عاماً» . كانت المشكلة هي أن جنبلاط ، باعتباره درزياً ، كان ممنوعاً بموجب الدستور من تسلّم منصب رئيس الجمهورية الذي كان محجوزاً للموارنة وحدهم . فلكي يحكم لبنان كما كان يتطلع ، كان عليه أن يحطم النظام الطائفي . ولكن ذلك كان يعني تحطيم المسيحيين أو إخضاعهم على الأقل . ورغم مركزه الموروث كزعيم من أقطاب الدروز فقد كان رجلَ اليسار الأصيل فعلاً . ومنذ تأسيسه لحزبه التقدمي الاشتراكي عام ١٩٤٩ ظل يخوض حملات يناضل فيها من أجل الإصلاح ، فأصبح يقف كبطل للمحرومين في المجتمع اللبناني .وقد صادق الفلسطينيين

منذ وقت مبكر ، وأعلن نفسه ناصرياً وكان يتمتع بعلاقات ودية مع موسكو ومنذ أواخر الستينات فصاعداً التف حوله جمهور كبير واسع من القوميين العرب والراديكاليين المتصلبين من جميع الأنواع وبحلول ربيع عام ١٩٧٦ ، بينما كان حلفاؤه يطوقون معاقل خصومه الموارنة الأقدمين ، أخذ جنبلاط يشم رائحة النصر[١٩] .

غير أن الأسد قد ملأته بالفزع احتمالات وجود لبنان متشدد مغامر عند خاصرة سوريا ، يستفز اسرائيل ، ويجعل الغرب يجفل من اطلاق العنان للمتصلبين الفلسطينيين . وكان هذا بالضبط هو ما يقود إليه طموح جنبلاط . ذلك أن جنبلاط ، إذا لم يكن بوسعه السيطرة على لبنان بأكمله ، فقد كان واضحاً أنه وضع نصب عينيه النصف «اليساري» ـ الجنوب ، والشوف ، وصيدا ، وبيروت الغربية ـ حيث كان يتصور نفسه يدير نوعاً من الـ «كوبا» على شواطىء الأبيض المتوسط ، وكان يتصور أن الدعم السوفياتي سيحمي دولته هذه من أن يمسها أحد بسوء[٢٠] وكانت لجنة التوجيه في حركته الوطنية ، وهي خليط من الاشتراكيين ، والشيوعيين ، والقوميين العرب ، تضع نفسها في موقع «مجلس وزراء» هذه «الجمهورية الشعبية» المأمول قيامها في المستقبل ، وكان أمين سر هذه اللجنة / الذي هو بمثابة رئيس الوزراء ، محسن إبراهيم ، مؤلف كتب ونشرات سياسية ، شيعياً ، متشدداً ، تنقّل ما بين حركة القوميين العرب والماركسية ، فكان نموذجاً لمناضلي تلك الأيام . ولم يكن الأسد يحب الاضطراب العنيف الجيشان من النوع الذي كان جنبلاط يسعى لإحداثه . ولكنه لم يكن يكره الاصلاح . وكان في الواقع هو الذي أوحى لفرنجية بالوثيقة الدستورية . وعندما فشلت فرض الأسد انتخابَ الياس سركيس في أيار / مايو سنة ١٩٧٦ ، أي في وقت مبكر وقبل موعد انتهاء ولاية فرنجية ، على أمل أن يتمكن رئيس جديد غير ملوث ، من تهدئة الوضع وإعادة الاستقرار . وكان الأسدُ رجلَ نظامٍ ، ولم يكن يريد الإطاحة بالمؤسسة المارونية .

خرج جنبلاط غاضباً من اجتماعه بالأسد ، وهو غير مقتنع قطّ بالحاجة إلى وقف الحرب ، وعاد إلى بيروت لتصبح هجماته على سوريا وقائدها أعلى وأشد نغمة ، والتزامه بالحرب أوثق وأشمل ، فكان ذلك مدعاة لخيبة أمل الأسد . كان جنبلاط في نظره سياسياً محلياً أعماه طموحه عن رؤ ية أبعاد الصورة الكبيرة . وكان الفلسطينيون مذنبين أكثر ، فلقد كان واضحاً أن عرفات، و (أبو إياد) ، وجورج جبش ، والآخرون لم يتعلموا درس مواجهتهم المدمرة المروعة مع الملك حسين عام ١٩٧٠ .

وكانت علاقات الأسد بالمقاومة الفلسطينية ذات جانبين منذ زمن طويل . فمن الناحية النظرية كان معهم بقلبه وروحه ، أما من الناحية العملية فقد كانت حركة المقاومة مصدراً للمتاعب باستمرار . كان الأسد مدافعاً شديد الحماس عن القضية الفلسطينية ، وكان يستطيع أن يقول بحق إنه ليس هناك زعيم عربي قاتل من أجلها بثبات مطرد أكثر منه ، أو ربط مستقبله ربطاً محكماً باستعادة الحقوق الفلسطينية كما فعل . كانت سوريا أول من سلّح الفدائيين في الستينات . وكانت هي الدولة العربية الوحيدة التي حاولت حمايتهم ضد الملك حسين عام ١٩٧٠ . وفي عام ١٩٧١ عندما كان حسين منهمكاً في القضاء عليهم في أحراش شمال الأردن أرسل الأسد مصطفى طلاس ليتفاوض على صفقة يتم بموجبها نقلهم إلى مواقع تطل على وادي الأردن ، ولكن قيادة فتح ، التي سيطر على تفكيرها كره الملك ، رفضت ذلك وأضاعت الفرصة بطريقتها المشاكسة قصيرة النظر . وبذلك جعلت الانتقال إلى لبنان محتوماً . وفي عام ١٩٧١ ـ ١٩٧٣ كانت سوريا تؤوي المقاتلين وتزودهم بالمؤمن والعتاد بينما كانوا يتخذون مواقعهم في منطقة العرقوب ذات التلال ـ أي «أرض فتح» . ومنذ عام ١٩٧٢ تمركز عدد من العاملين السوريين على المدفعية المضادة للطائرات في مخييمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان بصورة سرية لحمايتهم من الهجمات الجوية الاسرائيلية . وفي نيسان ـ أيار ابريل ـ مايو/ سنة ١٩٧٣ عندما كان الفلسطينيون يقاتلون الجيش اللبناني أرسل الأسد قوات

كوماندوس سورية لمساعدتهم وأغلق الحدود تأييداً لهم . بل ان الأسد فيما بعد قال إن الطائرات السورية الثلاث عشرة التي أسقطتها إسرائيل قبيل حرب أكتوبر إنما كانت تدافع عن الفلسطينيين في العرقوب(٢١) .

ولكن الأسد في الحساب الختامي لم تكن لديه ثقة بالفدائيين ، وصار يرى بأن العمليات الفدائية كانت مؤذية وخطرة من حيث أنها (لأجل نتائج تافهة وضئيلة) تمكّن اسرائيل من حشد وتحريك تأييد وعطف عالمي ، وتعرّض الدول العربية للهجوم . ولم يكن الأسد ليمنع أيّ شخص من الذهاب لمقاتلة اسرائيل إن كان يرغب في ذلك ـ فلم يكن يريد أن يصبح شرطياً يحرس حدود اسرائيل ـ ولكن في سوريا على الأقل يجب أن تكون مثل هذه العمليات خاضعة لسيطرة حكمه وتابعة للسياسة الوطنية .

وأظهرت الحرب في لبنان المفارقات الأساسية التي لا يمكن التوفيق بينها وهي الحفاظ على مصالح الدول العربية وعلى مصالح الفدائيين في الوقت نفسه . وكان الفلسطينيون تواقين إلى الحرية في تقرير ورسم خططهم واستراتيجياتهم . غير أن مثل هذا الاستقلال لم يكن الحصول عليه ممكناً إلّا على حساب أمن الدول العربية . وفي عام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ تنبه الأسد إلى أن الفلسطينيين يمسكون بأيديهم مفاتيح سيادة لبنان، وسلطة اتخاذ قرار الحرب والسلام . وأصبحت تلك هي العقدة الجوهرية الكامنة في لبّ نزاعه معهم(٢٢) .

وجاء عرفات إلى دمشق ثلاث مرات في ربيع ذلك العام في آذار / مارس ، ونيسان / إبريل وأيار / مايو . ومثلما كانت مقابلة الأسد مع جنبلاط دونما جدوى ، فإن مقابلته مع عرفات لم تفعل سوى أن وسعت الهوة بينهما . فقد كان القائد السوري الحذر ، والمخطط الاستراتيجي ذو الاستيعاب الحديدي لفن الممكن، يتصارع مع الفلسطيني الزئبقي الذي كان مزاجه يغريه بخوض مجازفات ومغامرات مستحيلة . ولقد حذّر الأسد عرفات كي يبقى خارج

الحرب ، إذ أنّ الاضطراب في لبنان لم يكن في صالح المقاومة ، وقد جادل بأنه ليست هنالك أية علاقة ممكنة بين مقاتلة المسيحيين في جبال لبنان، وبين استعادة فلسطين، وأعلن الأسد في خطاب كبير ألقاه في ١٢/نيسان ـ إبريل: «إننا ضد أولئك الذين يصرّون على استمرار القتال. إن هناك مؤامرة كبيرة تحاك ضد الأمة العربية. . وعلى إخوتنا في القيادة الفلسطينية أن يفهموا ويعوا خطورة هذه المؤامرة، فهم هدفها الأول[٢٣]».

ولكن عرفات كان يحلم باستقلال حركته وتحررها من التبعية للعرب. كان العراق ومصر كلاهما يضغطان عليه كي يقاوم نفوذ الأسد ، يضاف إلى ذلك أن نصف سكان لبنان كانوا إلى جانبه ، مما جعله يعتقد بأن مركزه في لبنان كان مشروعاً ومنيعاً ولا يتزعزع . وفي بيروت كان قد وصل إلى مكانة تجعله ينافس مكانة رئيس لبناني ، وكان يرفض أن تملي عليه سوريا . ومثلما كان جنبلاط يحلم بالحكم ، كان عرفات يحلم بلبنان يساري تكون له فيه السلطة الحقيقية ليكون أفضل ملجأ ومنطلق لشعبه المشرد . وهكذا اتخذ القرار المصيري بمتابعة الحرب ضد المسيحيين . وهي حرب قدر لها أن تكون ضد سوريا .

التدخل السوري

أرسل الأسد جيشاً إلى لبنان ، ليعلّم الفلسطينيين التعقل وليبقي المسيحيين عرباً . ففي ليلة ٣١/ أيار ـ مايو ـ ١/ حزيران ـ يونيو عام ١٩٧٦ عبرت الطوابير السورية المدرعة الحدود بقوة وعلى الفور فكت حصار الفلسطينيين اليساريين عن المعاقل المسيحية ، ولا سيما مدينة زحلة الهامة في وادي البقاع . فعندما فشلت محاولات الاقناع والحجج المنطقية والتهديد ، شعر الأسد بأنه لم يعد لديه خيار . كانت تلك أول مرة يستخدم فيها القوة منذ حرب تشرين . ولكن تلك الحرب كانت تعبر عن أعمق آمال وأشواق الأمة العربية ، وأكسبته تصفيقها الحماسي ، أما دخول لبنان فقد أسيء فهمه على نطاق واسع ، واكتنفته وتخللته دوافع مختلطة وتحالفات غير طبيعية ، وكان

مكروهاً على الصعيد الشعبي كرهاً عميقاً ، وكان على وجه العموم مغامرة خطرة حرجة قُدِّرَ لها أن تُفْقِدَ الأسد أصدقاء في الخارج ، وأن تولد في الداخل واحدة من أسوأ الأزمات التي تعرض لها في فترة رئاسته .

في البداية كان تدخله بسيطاً وهادئاً ، بل ومتردداً . وكانت تتقدم كل خطوة نداءات للفلسطينيين وحلفائهم بأن يلقوا سلاحهم وينسحبوا من المناطق المسيحية . وكان واضحاً أن الأسد يريد أن يتجنب أي صدامات واسعة أو سقوط ضحايا على أي جانب من الجانبين . وكما هي الحال في الأردن ، فإن دباباته لم يرافقها غطاء جوي .

ولكن عندما رفضت القيادة الفلسطينية انذاراته ، أرسل المدفعية والطيران لدعم تحرك قواته أعمق فأعمق في لبنان . ووقعت اشتباكات حادة على طريق بيروت ـ دمشق وفي ميناء صيدا في الجنوب وحوله ، وفي «أرض فتح» على سفوح جبل الشيخ ، وحول ميناء طرابلس في الشمال . وفي أواخر حزيران / يونيو كانت القوات السورية تحاصر المعاقل الفلسطينية واليسارية ، وخطوط إمدادها وتموينها في البرّ والبحر وتسيطر على نحو ثلثي البلد ، ما عدا القطاع الساحلي الآهل بالسكان .

وقُدّر للمعركة في منطقة صيدا أن تكون ذات مغزى مؤلم جارح ، فقد كانت هناك وحدة من الدبابات السورية لا تتوقع أن تجابه مقاومة ، غير أنها وقعت في كمين دُمِّرَتْ فيه دبابتان على الأقل وتم الاستيلاء على أربع دبابات أخرى . وقتل بعض الضباط السوريين وأطقم الدبابات . وانتشرت الشائعات بأن رؤوسهم قد قطعت ثم تداولتها الأرجل مثل كرة القدم ، رغم أن ذلك في أغلب الظن لم يكن صحيحاً . وتلقى الأسد تقارير بأن الجنود الذين كانوا يعملون على المدافع المضادة للطائرات في المخيمات الفلسطينية قد تعرضوا للضرب ، بل وللقتل . فآلمته تلك الحوادث وأغضبته وجعلت قلبه يقسو على الفلسطينيين ، فلقد كانوا يحفرون بأيديهم قبورهم بتوريطه أعمق فأعمق في

صراع كان حريصاً على أن يتجنبه . وبكل الغضب الساخط الذي يستشعره رجل مقتنع بأنه على صواب ، أسقط الأسد القادة الفلسطينيين من حسابه ، ليس باعتبارهم مغامرين متهورين فحسب ، بل باعتبارهم تعساء ناكرين للجميل عضّوا اليد التي أطعمتهم . ولعل العداء الشخصي المرير الخارق للعادة بين الأسد وعرفات يعود تاريخه إلى كمين صيدا(٢٤) .

جعل التدخل السوري الفلسطينين واليساريين يتخذون موقف الدفاع ؛ وغيّر مجرى الحرب الأهلية ، ومكّن المسيحيين من التحول إلى الهجوم ، وخصوصاً ضد الجيوب المعادية في أراضيهم ، ولا سيما ضد مخيم تل الزعتر الكبير واسع الامتداد في ضواحي بيروت الشرقية ، فحاصروه . وكان هذا المكان الفقير المهترىء يقطنه ثلاثون ألفاً من اللاجئين الفلسطينيين والشيعة ، فسقط آخر الأمر في ١٢/ ٨/ سنة ١٩٧٦ ، بعد اثنين وخمسين يوماً من الحصار الوحشي الشديد . وقد مات فيه حوالي ثلاثة آلاف مدني معظمهم ذبحوا بعد سقوط المخيم في أيدي «النمور» ، جيش كميل شمعون بقيادة ولده داني .

وكانت مذبحة تل الزعتر التي لم ترحم هي الأولى في عدة مجازر ضد المدنيين الفلسطينيين على يد العرب الآخرين ، وصورة مسبقة لمجازر صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ التي ارتكبها مرة أخرى رجال الميليشيات المسيحية ، ولكن بتشجيع إسرائيلي هذه المرة ، وكذلك حرب المخيمات في عامي ١٩٨٦ و١٩٨٧ التي كان فيها معذِّبو الفلسطينيين هم الشيعة المتحالفون مع سوريا والمتلقون تموييناتهم منها . كانت مثل هذه الأعمال الوحشية رد فعل انعكاسياً عنيفاً لطوائف شعرت بأنها هي نفسها معرضة للإبادة الجسدية . ولكن تل الزعتر ، بتوضيحها لانقلابات وتغيرات صداقات سوريا وتحالفاتها قد حفرت هوة عميقة من الشكوك بين الأسد والفلسطينيين .

وقد نظر الكثيرون إلى حرب الأسد على الفلسطينيين ودفاعه عن المسيحيين على أنها قلبٌ للتحالفات مذهلٌ أصابهم بصدمة عميقة . وطوال بقية

فترة رئاسته ظل الأسد يحمل عبء سياسة أسيء فهمها ولم تكن لها أية شعبية بين الجماهير العربية . وفي تلك الأثناء راقبته اسرائيل وهو يتقلب في المستنقع اللبناني دون أن تخفي سرورها ورضاها بذلك . وقال رابين ساخراً إنه لا يرى حاجة للتشويش على الجيش السوري في قتله «لإرهابيّي عرفات»[٢٥] . فلقد أثبتت حسابات كيسنجر صحتها . وأدى تحريكه للخيوط سراً وبتحفظ إلى جعل سوريا ـ من بين جميع البلدان ـ تضرب الفلسطينيين وتحطم آمال السوفيات.

وسُمِعَت الصيحةُ ضد حرب الأسد في لبنان من أقصى العالم العربي إلى أقصاه . فقطع السادات علاقاته معه واتهمه وزير خارجية مصر بشنّ حرب إبادة[٢٦] . وقام رجل العراق القوي صدام حسين بارسال قوات إلى الحدود السورية ، وقال إن الأسد مصاب بجنون العظمة جعلته أطماعُه ينغمس في حمام دم من صنع يديه[٢٧] . وهاجم جنبلاط الحكومة السورية واعتبرها نظاماً عسكرياً فاشيّاً ، ودعا هو والزعماء الفلسطينيون إلى حرب شاملة ضد دمشق . ذلك أن تدخل الأسد عسكرياً قد وضع حداً مفاجئاً لأحلام اليقظة لدى كمال جنبلاط . وكانت المفارقة هي أنه بمجرد قيام الأسد بحرمان جنبلاط من كل شيء ناضل من أجله ، فقد تحول جنبلاط فعلاً إلى زعيم درزي ضيق الأفق باحث عن الانتقام كاره للموارنة. وأصبح هذا الرجل عنيفاً جداً مع أنه كان بطبيعته غير عنيف، وشبيهاً بغاندي. فأخذ يرى نفسه آخر الأمر كأداة فشلت في تحقيق الانتقام الدرزي التاريخي من المسيحيين. فما ان تحطمت أحلامه في إقامة لبنان اشتراكي حتى بدا وكأنه وقع تحت سيطرة أجداده وحزازاتهم وثاراتهم القديمة[٢٨] . وأخذت الحركة الوطنية المحاصرة تطالب بتدخل الأمم المتحدة، وفرنسا، بل وترسل النداءات في طلب المساعدة ضد سوريا من أية جهة. وفي الوقت نفسه هوجمت السفارات السورية في بلدان مختلفة من قبل متظاهرين عرب مؤيدين لمنظمة التحرير. وأخطر من ذلك بالنسبة للأسد كانت

التقارير الملحة عن قيام الدول النفطية (التي موّلت الازدهار السوري بكرم في أعقاب حرب ١٩٧٣) بقطع مساعداتها.

وضمن عالم السياسة البعثية المغلق أطلق عليه سهم مؤلم آخر على يد صلاح الدين البيطار، أحد مؤسسي الحزب، فقد تساءل في مقال نشرته صحيفة **لوموند** كيف أمكن لسوريا، قلب العروبة النابض، أن تشترك مع الانعزاليين المسيحيين في نهج غريب عن تقاليدها؟ ثم أجاب على التساؤل بطريقة مؤذية بأن السبب هو طبيعة السلطة في دمشق، فهي منعزلة منقطعة عن الشعب وتخنق كل ديمقراطية(٢٩).

وكانت هناك تهمتان أخريان انتشرتا بشكل واسع في ذلك الحين وأضرتا بالأسد كثيراً. كانت أولاهما تقول بأنه كان يعمل بالتواطؤ مع الولايات المتحدة لسحق الفلسطينيين ليمهد الطريق لخطة تسوية أميركية. وقد تألم كثيراً لذلك لأنه كان لديه من الأسباب ما يدعوه لأن يعتبر نفسه العقبة الأساسية والضحية الأساسية للمخططات الأميركية والاسرائيلية. وكان التشنيع الثاني هو أنه يجعل من موضوع الأقليات لعبة سياسية، غير أن بالإمكان القول بكل إنصاف إن مغامرته اللبنانية كانت تحركها أسباب جغرافية - استراتيجية واسعة كبرى - منها منع اسرائيل من اختراق لبنان - وليس عواطف طائفية ضيقة. فمنذ أن كان تلميذ مدرسة خرج بنفسه واعياً من فخ الأقليات ليحتضن القضية العربية. ولذلك فقد حذّرَ خصومَهُ بغضب من أن يستفزّوه أكثر من اللازم، وأعلن: «لا شيء يحرجنا في هذا البلد، فلقد تجاوزنا العقد وتحررنا منها منذ زمن طويل»(٣٠). كانت تلك صرخة شخصية من القلب.

وبالرغم من أنه كظم وصبر وتحمل بشجاعة فإن نظامه في الداخل قد اهتزّ، وكانت هناك تقارير كثيرة في ذلك الصيف عن اضطرابات وسخط ونقمة، ضخمها أعداؤه، غير أنها مع ذلك كانت حقيقية. ففي أيلول / سبتمبر تم شنق ثلاثة فلسطينيين علناً لاحتلالهم فندقاً في دمشق وأخذهم

رهائن . وفي مواجهة مثل هذا العنف ، لا بد أن الأسد قد شعر بالحاجة إلى حماية إضافية . فأقيم حرس رئاسي بقيادة قريب زوجته : عدنان مخلوف ، بينما رُفّع أخوه رفعت إلى رتبة عقيد ركن ، وتم تعزيز سرايا الدفاع .

وكان من بين ضحايا غزوة الأسد للبنان علاقته الجيدة بالاتحاد السوفياتي ، فقد فزعت القيادة السوفياتية من اتجاه مجرى الأحداث في ربيع عام ١٩٧٦ وأرسلت رئيس الوزراء كوسيغين إلى المنطقة ، إلى العراق أولاً ثم إلى سوريا ، وفي بغداد ، التي وصلها في أواخر أيار / حذّر سوريا علناً من التدخل في لبنان ، ولكنه عندما وصل إلى دمشق في أول حزيران / يونيو كان الأوان قد فات . . كان الأسد قد دفع بقواته ، ودروعه السوفياتية عبر الحدود في الليلة السابقة . ورغم شروحات الأسد المطولة كان رئيس الوزراء السوفياتي غاضباً[٣١] . وعلقت وكالة تاس بلهجة مريرة أن تدخل سوريا لم يفعل شيئاً لوقف جريان «نهر الدم الذي يتضخم باطراد»[٣٢] . كان من السهل التكهن بأسباب سخط السوفيات ، فلقد كانوا معجبين بجنبلاط (الذي كان واحداً من عربيّين اثنين فقط مُنِحا جائزة لينين للسلام ، وكان الثاني هو عبد الخالق محجوب ، الزعيم الشيوعي السوداني الذي قتله نميري عام ١٩٧١) ؛ وكانت لهم علاقات وثيقة مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وكانوا يكرهون أن يُرْغَمُوا على الاختيار بين الأسد واليسار اللبناني . ولذا شعروا بالحرج من رؤ ية الطرفين يَقْتَتِلَان . وقبل كل شيء ، فإنهم كانوا يتوقعون مكاسب سياسية كبيرة في لبنان ، ولعلهم كانوا يأملون بتحويله إلى محطة بث فريدة لتقوية نفوذهم في المنطقة بمجرد أن ينتصر أصدقاؤ هم . وبتحطيم هذه الآمال والتوقعات ظهر الأسد وكأنه يعيد عقارب الساعة إلى الوراء ، إلى لبنان خاضع لسيطرة الغرب ، ويلغي عشر سنوات من العمل والسعي على يد اليسار .

بينما أخذ السوريون يتقدمون ، راح جنبلاط والفلسطينيون ينتظرون أن يخلصهم الاتحاد السوفياتي ، ووصلت إلى كوسيغين وهو بدمشق مناشدات ونداءات

كثيرة ، بل لقد تصور بعض السذج المخدوعين أن المظليين السوفيات سيهبطون عليهم من السماء ـ وكانت موسكو فعلاً قد أخبرت الحزب الشوعي اللبناني وغيره من أصدقائها اليساريين أنها غير موافقة على التدخل السوري . غير أن ذلك قد أسيء فهمه على الصعيد المحلي ، ففُهِمَ منه بأن موسكو ستفعل شيئاً ما لوقف ذلك التدخل(٣٣) . والواقع أنه لم يكن يعني بالنسبة للكرملين صدعاً أو انقطاعاً ، بل مجرد برود في العلاقات السورية ـ السوفياتية . أرسل بريجنيف رسالة إلى الأسد يحثه فيها على الانسحاب ، وناشدت موسكو الاطراف الثلاثة جميعاً ـ سوريا ، واليسار اللبناني ، والفلسطينيين ـ عدّة مرات أن يتوحدوا ويرصّوا صفوفهم .

وبالنسبة للأسد ، كانت العواقب العملية للسخط السوفياتي قاسية بما فيه الكفاية ، فلم تعد هناك عقود جديدة لتوريد الأسلحة السوفياتية بل أجلت في وقت بدت فيه اسرائيل تشكل تهديداً جدياً بصورة خاصة . وهكذا حُرِمَ الأسد فجأةً من سَنَدٍ يدعمه على مستوى دولة كبرى . وعندما تذكر الأزمة بعد عشرة أعوام قال وهو يقلل من أهمية الموضوع كعادته : «كانت هناك نكسة في علاقاتنا بالاتحاد السوفياتي ، وانتهت بعض التزامات معينة فيما بيننا . لقد كان من الصعب عليهم أن يفهموا طبيعة علاقاتنا بلبنان»(٣٤) . ولم يصل سلاح سوفياتي متطور إلى سوريا ثانيةً إلاّ في عام ١٩٧٨ ، عندما ذهب السادات في رحلته إلى القدس فعاد الأسد إلى مكانه كأحسن صديق للسوفيات في الشرق الأوسط .

لم تؤدِّ الانتقادات التي كيلت للأسد إلى ثنيه عن أهدافه في إبعاد الفلسطينيين عن قلب الأراضي الداخلية للمسيحيين ، وفصلهم عن الحركة الوطنية اليسارية ، وترويض الطرفين لمصلحة استراتيجيته الأوسع المعادية لإسرائيل .

وانقضى صيف عام ١٩٧٦ بعمليات عسكرية صغيرة هادئة تخللتها بالتناوب نداءات ومناشدات وإنذارات متجددة . ثم شنّ في أواخر أيلول / سبتمبر وأوائل تشرين الأول / اكتوبر (١٩٧٦) عدد من الهجمات الكبرى انتهت

بما يقرب من الدحر الكامل للفلسطينيين وحلفائهم . وعندئذٍ أصبح الأسد مستعداً لقبول الدعوة السعودية إلى مؤتمر قمة للمصالحة (في الرياض في ١٦/ تشرين الأول / اكتوبر) كَرَّسَ انتصارَه الباهظ الثمن . فأضيفت الشرعية على وجوده في لبنان ، وتم الاعتراف بقواته على أنها العمود الفقري لقوة اقترح تشكيلها باسم «قوات الردع العربية» ، ووافقت السعودية والكويت على تمويل ودفع نفقات تدخله . وأعيد الفلسطينيون ألى مخيماتهم بعد أن انتزعت منهم وعود (سرعان ما نقضت) بالتقيد باتفاق القاهرة . ثم إن شجارات الأسد المريرة المتسممة مع السادات وعرفات تم ترقيعها بالورق ، وتَبَنّىٰ ذلك كله مؤتمر عربي أوسع في القاهرة في الخامس والعشرين من اكتوبر / تشرين الأول سنة ١٩٧٦ ، وفي منتصف تشرين الثاني / نوفمبر ، دخلت القوات السورية إلى غرب بيروت ، فاختفت الجيوش اليسارية الخاصة من الشوارع ، وأُعْلِنَ عن انتهاء الحرب الأهلية .

غير أن انتصار الأسد كان جزئياً ومعرضاً للشبهات والأخطار ، فقد كان عليه من ذلك الحين فصاعداً أن يتحمل عبء كونه قد اتبع سياسةً رأت فيها أكثرية العرب نهجاً معادياً للعرب بشدة وعمق . ولقد دافع عن نفسه وقتها وفيما بعد مراراً وتكراراً وببلاغة ، وتتبع علانيةً تاريخَ علاقاته بجنبلاط وعرفات بأكمله ، ومن البداية إلى النهاية ظل الأسد مقتنعاً ـ مهما كانت الضغوط الخارجية عليه ـ بأن تدخله كان صحيحاً من الناحيتين التكتيكية والأخلاقية ، لقد اضطره الطموح الأعمى لبعض الرجال إلى التحرك والعمل لأنهم لم يستطيعوا أن يدركوا طبيعة صراع الحياة والموت الذي كان يخوضه مع إسرائيل . ولكن الظلال الداكنة بقيت ، ومهما كانت تبريراته ، فإن الآخرين لم يصدقوها تصديقاً كاملاً ، واعتُبر أنه حاد عن المجرى الرئيسي لنهج الحياة العربية .

إسرائيل والموارنة :

إن الذين أجبرت حربهم الأسد على التدخل ظلوا مصدر إزعاج وعذاب

له ، سواء الحيّ منهم أو الميت . وقد كان من المعتقَد على نطاق واسع في ذلك الحين أن الأسد لم يكن راغباً في ترويض الفلسطينيين فقط، بل كان يريد أيضاً إزاحة ياسر عرفات وتسمية رجل سوريا خالد الفاهوم بديلاً له . وخالد الفاهوم مدرس كيمياء سابق ، مقره بدمشق ، وكان يشغل منصب رئيس المجلس الوطني الفلسطيني . ولكن عرفات ، سواء في ذلك الحين أو فيما بعد ، أثبت أنه مقاوم للضغوط السورية بشكل ملفت للنظر .

أما حليف عرفات في الحرب الأهلية ، كمال جنبلاط، فقد اغتيل في ١٦/ ٣/ سنة ١٩٧٧ عندما كان في طريقه من قلعته في المختارة إلى بعقلين ، أكبر القرى الدرزية في الشوف ، فقد اعترض مسلحون سيارته ، ودخل إليها رجلان ، وأمرا حرّاسه بالخروج منها ثم أطلقا الرصاص على رأسه قبل أن يهربا ويختفيا . وخلفه ولده وليد في زعامة عشيرة جنبلاط ، وكان واحداً من كثيرين ألقوا بالمسؤولية في اغتياله على السوريين ، وكما أوضح فيما بعد : «لقد تلقى والدي نصائح سيئة ، فقد أعلموه بأن هناك انقلاباً يدبر في سوريا وأنه بمهاجمة القيادة هناك يستطيع أن يزعج النظام ، غير أن كل ما فعله هو التوقيع على وثيقة موته» . وقام وليد جنبلاط بزيارة الأسد بعد نهاية فترة حداد على والده دامت أربعين يوماً . وحسب قوله كان عليه أن يختار بين سوريا ، واسرائيل والبحر الأزرق العميق (أي الضياع) وبرغم شكوكه في كون سوريا ضالعة في اغتيال أبيه ، فقد اختار سوريا ، ومع ذلك فقد كانت من المقلق نفسياً له أن يحيّيه الأسد بقوله : «كم تشبه أباك!»[٣٦] . وعلى كل حال فباختفاء جنبلاط تقوّض وتساقط الحلف الذي كان يقوده ضد سوريا .

ولكن هدف الأسد الأساسي ظل يروغ منه . فقد قاتل وشق طريقه في لبنان ضد الفلسطينيين ونيابة عن المسيحيين لكي يحرم إسرائيل من حجة التدخل ، ولكن حركته الباهظة التكاليف والمثيرة للخلاف والجدل كانت بلا جدوى . فعند نهاية عام ١٩٧٦ كانت إسرائيل قد تورّطت في الشؤون اللبنانية

تورطاً عميقاً ، وكانت تستعرض بشيء من المباهاة علاقتها الحميمة مع الموارنة ، مما أدى إلى صدمة وإجفال واشمئزاز في الرأي العام العربي الذي ظل يسعى لأكثر من ثلاثين عاماً لإبقاء «الكيان الصهيوني» معزولاً ومطوّقاً . ولقد قَبِلَ المسيحيون مساعدة سوريا ، غير أنهم أثاروا حنق وغضب الأسد ببحثهم عن «ضمانات تأمين» من اسرائيل . وهكذا راحت الأسلحة والأموال و«الخبراء» تتدفق من اسرائيل إلى داخل الأراضي المارونية عن طريق ميناء جونية ، بينما أُعيد تركيب جنوبي لبنان لصالح اسرائيل . ومنذ شهر تموز / يوليو سنة ١٩٧٦ أي بعد شهر واحد فقط من دخول سوريا للبنان ، أعلن وزير الدفاع الاسرائيلي شيمون بيريز برنامج «سياسة الجدار الطيّب» التي بموجبها تم فتح «السياج الأمني» للمرور ، وهو «حزام» كانت اسرائيل قد أقامته من جانب واحد في عام ١٩٧٤ ، ثم راحت من خلاله تقدم لسكان القرى الحدودية اللبنانية مجالات العمل ، والرعاية الصحية الطبية ، وأسواقاً إسرائيلية لمنتجاتهم . وفي الوقت نفسه أتيحت لاسرائيل الفرصة لتحويلهم إلى جواسيس متعاونين معها ضد الفلسطينيين . وراحت دوريات اسرائيل المدرعة تجتاز الحدود بحرية إلى داخل لبنان . وبحلول شهر تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٧٦ كانت هناك ميليشيا مؤيدة لاسرائيل يقودها سعد حداد الضابط المسيحي السابق في الجيش اللبناني المنذثر وتعمل كجهاز إنذار مبكر على طول الحدود كلها[٣٧] .

وهكذا أصبح المسيحيون ناكرين للجميل ، والدروز مليئين بالمرارة ، والثوريون المتشدّدون من كل الأنواع والدرجات باحثين عن الانتقام ، أما الفلسطينيون فأصبحوا معادين واستمروا يحملون السلاح . وأما إسرائيل التي أصبحت جزءاً من المسرح السياسي اللبناني ، كسوريا تماماً ، فقد صار بمقدورها التحرش بالأسد كما تشاء وعلى هواها . ذلك أن الأسد ، في سعيه للدفاع عن بيئته ، قد سقط في الفخ اللبناني .

هوامش الفصل السابع عشر

(١) ملخص الاذاعات العالمية المصنف في هيئة الاذاعة البريطانية (العدد ٤٩٢٧ عن الشرق الأوسط ليوم ١٢/ ٦/ ١٩٧٥) .

(٢) مقابلة الرئيس الأسد لسليم اللوزي ، رئيس تحرير الحوادث ، في ٢٢/ ٦/ ١٩٧٥ . وملخص الأذاعات العالمية لدى هيئة الاذاعة البريطانية (العدد ٤٩٤١ عن الشرق الأوسط ليوم ٢٨/ ٦/ ١٩٧٥) .

(٣) كيسنجر (مصدر سبق ذكره) ص ٧٨٨ .

(٤) فردريك س. هوف : تقسيم الجليل : الحدود الاسرائيلية ـ اللبنانية من ١٩١٦ إلى ١٩٨٤ (طبع بولدر ولندن ١٩٨٥) ص ٧٥ .

(٥) كيسنجر : (مصدر سبق ذكره) ص ١٠٨٢ .

(٦) هوف : (مصدر سبق ذكره) ص ٧٤ .

(٧) خطاب الرئيس الأسد أمام أعضاء المجالس البلدية السورية بُعيْد انتخابهم (دمشق ٢٠/ ٧/ ١٩٧٦) . عن ملخص الاذاعات العالمية (الاذاعة البريطانية ـ العدد ٥٢٦٦ تاريخ ٢٢/ ٧/ ١٩٧٦ .

(٨) ملخص الاذاعات العالمية المحفوظ بالاذاعة البريطانية (العدد ٥١٤٠ عن الشرق الأوسط ليوم ٢١/ ٢/ ١٩٧٦) .

(٩) نفسه (العدد ٥١٥٧ عن الشرق الأوسط) ليوم ١٢/ ٣/ سنة ١٩٧٦ .

(١٠) نفسه (العدد ١٥٧١ عن الشرق الأوسط) ليوم ٢٩/ ٣/ سنة ١٩٧٦ .

(١١) وينسلوبيك في مقال بمجلة «آنتي» الأثينية (عدد ١٧/ نيسان ـ إبريل ١٩٧٦) تقتبسه وتنقل نصوصاً منه مجلة آراب ريبورت آند ريكورد (١٩٧٦) ، ص ٢٥٦ .

(١٢) ملخص الاذاعات العالمية المحفوظ لدى محطة الاذاعة البريطانية (العدد ٥٢٦٦ عن الشرق الأوسط ، ليوم ٢٢/ ٧/ سنة ١٩٧٦ .

(١٣) خطاب الرئيس الأسد بدمشق في ٢٠/ ٧/ سنة ١٩٧٦ ، ملخص الاذاعات العالمية المحفوظ لدى محطة الاذاعة البريطانية العدد ٥٢٦٦ عن الشرق الأوسط ليوم ٢٢/ ٧/ سنة ١٩٧٦) .

(١٤) زيف شيف : «التعامل مع سوريا» في مجلة فورين يوليسي (السياسة الخارجية) العدد ٥٥ (صيف عام ١٩٨٤) .

(١٥) إيتامار رابينوفيتش : «الأزمة اللبنانية» في مجلة ميدل ايِّست كونتميوراري سرفي التي يحررها كل من كولين ليغوم وحاييم شافد ودانييل ديشون المجلد الخامس (١٩٨٠ ـ ٨١) ، ص ١٧٢ .

(١٦) مقابلة مع خالد الفاهوم بدمشق في ٧ك ٩/ ١٩٨٤ .

(١٧) جوناثان راندال : **مأساة لبنان** (طبع لندن ١٩٨٣) ، ص ١٧٨ .

(١٨) آراب ريبورت آندريكورد (١٩٧٦) ، ص ١٨٥ ، جريدة النداء البيروتية في ٢١/ ٣/ ١٩٧٦ مقتبسة في كتاب وليد الخالدي : **الصراع والعنف في لبنان** (طبع هارڤارد ١٩٧٩) ، ص ٥٥ .

(١٩) مقابلة مع وليد جنبلاط في لندن في ٣٠/ ١٢/ ١٩٨٦ .

(٢٠) مقابلة مع خالد الفاهوم بدمشق في ٧/ ٩/ ١٩٨٤ .

(٢١) ملخص الاذاعات العالمية المحفوظ لدى قحطة الاذاعة البريطانية (العدد ٥٢٦٦ عن الشرق الأوسط) ، في ٢٢/ ٧/ سنة ١٩٧٦ .

(٢٢) مقابلات مع سعيد حمامي ، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن في ٥/ ٧/ ١٩٧٦ ، ومع خالد الفاهوم ، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني في دمشق في ١/ ٣/ ١٩٧٧ وفي ٧/ ٩/ ١٩٨٤ ، ومع شفيق الحوت ، ممثل المنظمة في بيروت ، في لندن في ١٥/ ٢/ ١٩٨٧ .

(٢٣) ملخص الاذاعات العالمية المحفوظ في هيئة الاذاعة البريطانية (العدد ٥١٨٥ عن الشرق الأوسط ليوم ١٤/ ٤/ ١٩٧٦ .

(٢٤) مقابلة مع شفيق الحوت بلندن في ١٥/ ٢/ ١٩٨٧ .

(٢٥) ملخص الاذاعات العالمية المحفوظ بأرشيف هيئة الاذاعة البريطانية (الشرق الأوسط ، الكراس رقم ٥٢٢٥ بتاريخ ٤/ ٦/ ١٩٧٦ .

(٢٦) مجلة آراب ريبورت آند ريكورد (١٩٧٦) ، ص ٣٤٤ .

(٢٧) المصدر السابق نفسه، ص ٤١١ .

(٢٨) مقابلة مع وليد جنبلاط في لندن في ٣٠/ ١٢/ ١٩٨٦ .

(٢٩) صحيفة لوموند ليوم ٢١/ أيلول سنة ١٩٧٦ ، مقتبسة من قبل آليزابيت بيكارد في مقالها : «الاشتباك السوري مع لبنان» المنشور في مجلة مغرب ـ مشرق : العدد ٧٤ (عن اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٩٧٦) ، ص ٥ .

(٣٠) ملخص الاذاعات العالمية في محطة الاذاعة البريطانية (العدد ٥١٨٥ عن الشرق الأوسط يوم ١٤/ نيسان سنة ١٩٧٦ .

(٣١) مقابلة مع أسعد كامل الياس بدمشق في ١٤/ ٨/ سنة ١٩٨٤ .

(٣٢) مجلة آراب ريبورت آند ريكورد (١٩٧٦) ص ٣٦٢ .

(٣٣) مقابلة مع قاسم جعفر في لندن في ١١/ ٤/ سنة ١٩٨٧ .

(٣٤) ملخص الاذاعات العالمية المحفوظ في محطة الاذاعة البريطانية (العدد ٨١٤٤ عن الشرق الأوسط ليوم ٣١/ ١٢/ ١٩٨٥) .

(٣٥) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في ٤/ ٣/ ١٩٧٧ .

(٣٦) مقابلة مع وليد جنبلاط بلندن في ٣٠/ ١٢/ ١٩٨٦ .

(٣٧) هوف (مصدر سبق ذكره) ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

الفصل الثامن عشر

فجر كارتر الكاذب

عند انتخاب كارتر رئيساً في تشرين الثاني / نوفمبر/ سنة ١٩٧٦ كان أهم سؤال يشغل الأسد هو ما إذا كانت الإدارة الجديدة ستقتفي خطوات كيسنجر في تأييد إسرائيل أم أنها ستعود إلى سياسة أكثر توازناً تجاه الشرق الأوسط. فقد كان الأسد ـ مثل الكثيرين ـ لا يكاد يعرف شيئاً يذكر عن مُزارع الفستق الجنوبي المعمداني العقيدة الذي استولى على البيت الأبيض. وكان متشائماً وهو يرقب كارتر متنافساً مع جيرالد فورد على الصوت اليهودي خلال حملة الانتخابات. ولم يكن كارتر بدوره قد التقى بأي عربي قط إلا مرة واحدة في سباق للخيل في فلوريدا[١]. وبما أن الأسد كان قد أصبح متشككاً فقد إرتاب في إمكانية تغيير إتجاه الإنحياز الأميركي بعد أن نجح كيسنجر نجاحاً كاملاً في سلب ثمار حرب تشرين من العرب وإعطاء إسرائيل ميزة تفوق حاسم. ولكن الأسد آثر بحكمته أن يرسل برقية تهنئة للرئيس المنتخب دعا فيها إلى «موقف أميركي عادل» تجاه الصراع العربي الإسرائيلي وأوضح شروط السلام بشقيها المعروفين إنسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ وإعادة الحقوق المشروعة للفلسطينيين[٢].

وبعد إنتهاء هذا العمل الشكلي لم يعد الأسد إلى تكرار التأكيد على هذه النقطة فقد كان كغيره من القادة العرب بطيئاً في إدراك مدى جذرية الابتعاد الذي

كان ينويه كارتر عن فرضيات وإجراءات الحقبة الكيسنجرية ولم يعرف مدى المساعدة التي كان كارتر يحتاجها من العرب إن كان سيُقَيَّض له النجاح. فعندما بدأ كارتر يبْسُط أفكاره لم يتحمس لها العرب بالقدر الذي كان ممكن توقعه. فقد بدا لهم أن برنامجه، ولا سيما إهتمامه بالفلسطينيين، لم يكن أكثر من مجرد العدالة البسيطة. فعلى عكس الإسرائيليين، لم تكن لدى العرب خبرة أو تجربة في التدخل في السياسة المحلية في الولايات المتحدة، بل كانوا يميلون إلى أن يجلسوا وينتظروا ليروا ما الذي يستطيع كارتر أن يقدمه.

ونظراً لمتانة العلاقة الحميمة التي كانت قد نمت بين أميركا وإسرائيل منذ سنة ١٩٦٧ فإن برنامج كارتر كان ثورة إنقلابية حقاً. وبما أنه قد جعل حقوق الإنسان عقيدة مركزية في سياسته الخارجية فقد رأى في الظلم الواقع على الفلسطينيين شيئاً يشبه تلك الظلامات التي عانى منها السود في الولايات المتحدة والتي لم يكن يستطيع أن يتجاهلها لأسباب أخلاقية وسياسية. وبما أنه كان منغمساً في النصوص الدينية منذ طفولته، فقد كان يحترم أرض الأنجيل ويعتز بالطموح لتحقيق السلام فيها وكان كارتر ـ وأكثر منه كان وزير خارجيته سايروس فانس ـ ينتقد ميل كيسنجر للنظر إلى العالم من زاوية التنافس الجغرافي السياسي مع الإتحاد السوفياتي. فلقد كانت هناك أسباب للسخط في العالم الثالث لم يَرَ كارتر وفانس أن لها علاقة بطموحات الإتحاد السوفياتي. وكان فانس يشعر بالمرارة إزاء الطريقة التي أدى بها هوس كيسنجر بالتنافس الدولي العالمي إلى إلحاق الأذى بالمصالح الأميركية بدلاً من حمايتها وتطويرها في أماكن مثل آنغولا حيث أدت التحركات الأميركية الخاطئة إلى دفع الحركة الوطنية الأساسية في عام ١٩٧٥ إلى أحضان الإتحاد السوفياتي وكوبا[٣]. وفي الشرق الأوسط كان إهمال الولايات المتحدة لمصالح واهتمامات العرب (في وقت كان فيه صعود منظمة أوبك يشير إلى يقظة الدول النامية في أعقاب تصفية الإستعمار) يعني المغامرة بفتح الأبواب للروس بدلاً من إغلاقها. وإذا كان من

المرغوب فيه تسليح إسرائيل حتى أسنانها باعتبارها «رصيداً إستراتيجياً» ضد الاتحاد السوفياتي فقد كان على المرء أن يأخذ بالحسبان أيضاً مشاعر الإحباط المريرة التي تثيرها هذه السياسة بين جيران إسرائيل العرب.

وكان من بين الدعاة البارزين الآخرين لإقامة «علاقة أميركية بناءة مع العالم العربي» مستشار كارتر لشؤون الأمن القومي، زبغنيو بـريجنسكي[٤]، أستاذ العلوم السياسية البولندي المنشأ. وبينما كان كيسنجر يشكّل الشرق الأوسط لصالح إسرائيل في عام ١٩٧٥، كان بريجنسكي في ذلك الوقت نفسه يساعد على وضع مجموعة مقترحات مختلفة جداً في تقرير شهير لمؤسسة بروكينغز[٥]. وكانت تلك المقترحات نوعاً من الرد على كيسنجر بدا فيها أن الاهتمام التقليدي بصالح إسرائيل كان يتوازن مع وعي للمصالح العربية.

فالإنجيل، وتقرير بروكينغز، والخوف من نشوب حرب أخرى وأزمة طاقة أخرى، والشعور بأن كيسنجر قد ترك عملية السلام نصف مكتملة، والشعور بالإشفاق على الفلسطينيين تحت الإحتلال الإسرائيلي.. كل هذه الأمور مجتمعة جعلت الشرق الأوسط يحتل المكانة الأولى في سياسة كارتر الخارجية. فدعا بجرأة إلى تحقيق تسوية شاملة يتم التفاوض بشأنها قبل نهاية عام ١٩٧٧ في جلسة جديدة لمؤتمر جنيف. وتصوَّرَ كارتر أن إسرائيل - في مقابل السلام - سوف تنسحب إلى حدود عام ١٩٦٧ مع تعديلات طفيفة فقط. وكان أعجب شيء في إقتراحاته تضمنها صفقة جديدة للفلسطينيين الذين لم يعودوا مُعَرَّفين كلاجئين، كما هو الحال في القرار ٢٤٢، ولا كإرهابيين كما كانت إسرائيل تريد من العالم أن يراهم، بل كشعب محروم من حقوق أساسية ويحتاج إلى وطن خاص به. كان كارتر يعتقد بوجوب إشراك الفلسطينيين في المفاوضات وكان يأمل في أن تتمكن الولايات المتحدة من بدء الحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية.

وعلى صعيد التحرك العملي كان هناك أيضاً تصحيح ذو مغزى هام

للهدف. فلقد كان من عادة كيسنجر في ممارساته أن يتوصل سلفاً إلى إتفاق مع إسرائيل قبل أن يواجه به الدول العربية، وكان مثل ذلك الإتفاق يتم خلسة في العادة[٦]. أما كارتر فقد كان يؤمن بالتشاور الوثيق مع إسرائيل غير أنه لم يكن مستعداً للتنسيق معها ضد أعدائها العرب[٧]. ولم يكن كارتر معادياً لإسرائيل بأية حال من الأحوال، ولكنه أيضاً لم يكن يرى الشرق الأوسط فقط من زاوية النظر إلى مصلحة إسرائيل وأمن إسرائيل بل كان يرى أن العرب موجودون كذلك، ولهم آلامهم وآمالهم ومخاوفهم. فبعد سنوات طويلة من العلاقات الإسرائيلية ـ الأميركية المتزايدة الوثوق بإطراد، والتي تفتحت في عهد ليندون جونسون ثم بلغت أقصى إزدهارها على يد هنري كيسنجر، فإن هذه العودة إلى «التوازن» كانت ترقى إلى أن تصبح إنقلاباً لا يُستهان به.

ولذلك لم يكن من المستغرب تماماً: أن يصاب القادة الإسرائيليون بالذعر والفزع من كارتر. فكل فكرة من أفكاره ـ عدا هدفه المعلن وهو التوصل إلى «سلام حقيقي» ـ كانت كريهة لديهم. فقد بدا لهم أنه يمزق كل التعهدات السرية ومذكرات التفاهم التي انتزعوها من واشنطن طيلة عقد من الزمن أو يزيد كما رأوا أن برنامجه لم يتوقف عند حد الإيحاء بضرورة إعادة الضفة الغربية والموافقة على قيام كيان سيصبح من المؤكد تقريباً أنه يحمل اسم جمهورية فلسطين العربية، وعلى إعادة مرتفعات الجولان الإستراتيجية لسوريا، بل إنه يشير كذلك إلى تغيير هام وحساس في مسار «عملية السلام» أما محاولة كيسنجر لفصل مصر عن المعسكر العربي، تلك المحاولة التي كانت على وشك أن تؤتي ثمارها فقد بدا لهم أن كارتر سوف يتخلى عنها لصالح سياسة تتمتع بحرية التعامل مع العرب جميعاً وتتعرض فيها إسرائيل لفقدان تفوقها الأقليمي الذي حصلت عليه في حَرْبي ١٩٦٧ و ١٩٧٣. وعندما شعرت إسرائيل بأنها مواجهة بهذا التهديد ـ الذي إعتبرته أخطر من أي تهديد شكّله ضدها العرب ـ قررت أن تقاتل وحشدت كل أرصدتها، بما فيها اللوبي الأميركي القوي المؤيد لها.

وعندما قام رئيس الوزراء رابين بأول زيارة لكارتر في آذار/ مارس سنة ١٩٧٧ وجده كارتر خجولاً وعنيداً وقلقاً وغير مرتاح[٨]. كان ذلك سوء حكم وتقدير، لأن رابين كان في الواقع يغلي بغضب كظيم. فقد ظل طيلة تسع سنوات من العارفين بدخائل وخبايا واشنطن، ولذلك فإنه رأى في كارتر شخصاً خارجياً قليل الخبرة بدا أنه سيخلق لإسرائيل كثيراً من المتاعب قبل أن يتعلم «النضج السياسي»[٩]. وبدا كارتر لرابين أنه سيكسر ويخرق كل قواعد العلاقات الأميركية ـ الإسرائيلية. فقد كان يتخذ مبادرات حول الشرق الأوسط دون أن يستأذن أولاً من تل أبيب، ويجرؤ على إعلان عدم إتفاقه مع إسرائيل على الملإ وكأنه يريد أن يضم إلى جانبه الرأي العام الأميركي. وفي مجال شحنات الأسلحة كان كارتر يبدو ميالاً إلى إزاحة إسرائيل عن موقعها المتميز الذي تمتعت فيه بأفضلية تتفوق على مكانة حلفاء أميركا الأطلسيين. وانزعج الإسرائيليون على وجه الخصوص من جهود كارتر لمصادقة الأسد، وكان ذلك يختلف جداً عن سياسة كيسنجر القاضية «بترك الأسد يتميز غيظاً» فلقد كان كارتر مشتاقاً للقاء زعماء الشرق الأوسط بشكل مباشر، ولذلك دعاهم إلى واشنطن خلال الأسابيع الأولى من إستلامه السلطة. فلبى الدعوة كل من السادات، وحسين ورابين والأمير فهد ولي العهد السعودي. أما الأسد الذي كان بلا شك يرغب في إظهار تمتعه باستقلال أكبر، فقد رفض فرصة عرض آرائه في البيت الأبيض. وعندما جاءه فانس بالدعوة كان جوابه: «كلا، وأشكرك. ألم تفهم الولايات المتحدة موقفنا بعد ثلاثين عاماً؟»[١٠] ومع ذلك فقد شعر الأسد بالسرور لموافقة كارتر على الإلتقاء به في جنيف المحايدة وشعر الإسرائيليون بالقلق من هذا الإحترام الأميركي للأسد، ولم يكن منافسوه العرب شديدي الإبتهاج.

مناقشات شرق ـ أوسطية

لقد أدرك كارتر أن سوريا يجب أن تكون مشاركاً رئيسياً إذا أريد للمفاوضات الشاملة أن تبدأ غير أنه لم يدرك مدى إرتباط عملية السلام بالصراع

الإقليمي على النفوذ والسلطة في المنطقة، ليس فقط بين إسرائيل والدول العربية بل فيما بين الدول العربية نفسها. فمن بين الملامح المميزة للسياسة في الشرق الأوسط وجود شبكة من الخصومات والمنافسات الكامنة خلف تحركات المشتركين في اللعبة بغض النظر عن نزعاتهم الفكرية والعقائدية. فإذا حصل واحد منهم على نفوذ أكبر فإن الآخر يعدّ ذلك خسارة له. ثم ان العجز عن أخذ هذا التنافس الكامن بالحسبان غالباً ما يؤدي إلى عدم فهم ديناميكية الحركة في النظام الأقليمي القائم في المنطقة.

إن الشيء الذي كان الأسد يتطلع إليه هو الحصول من الإدارة الأميركية الجديدة على الإعتراف، بل وحتى على مكافأة سياسية. فإذا كان سيشترك في اللعبة فإن مصالحه يجب البحث فيها وكانت المصلحة الأهم من بينها هي حاجته إلى بسط نفوذه على جيرانه: لبنان، والأردن، والفلسطينيين، من أجل حماية جناحيه، وخلق نوع من الثقل الموازي لمجابهة إسرائيل بعد أن أدت إتفاقية سيناء الثانية إلى إبعاد مصر من الصف العربي. وقد بدأ الأسد بتهدئة لبنان، فأخمد نيران الحرب الأهلية ووضع حداً للطموحات المغامِرة لليسار اللبناني وحلفائه الفلسطينيين ـ لقاء كلفة باهظة تكبدتها مواقفه العربية وعلاقاته بالإتحاد السوفياتي. وأراد الآن إعترافاً بما تمليه الإرادة السورية على المشرق وبلاد الشام، وكانت رسالته الضمنية لكارتر تقول: إعترفوا بي كرجل المنطقة صاحب النفوذ وسأحقق السلام والإستقرار.

غير أن رؤية الأمور من هذه الزاوية كانت تصطدم بصعوبات كبرى في وجه كارتر، بل في وجه أي زعيم أميركي. فمن جهة لم يكن هناك أي تعاطف مع إفتراض سوريا بأن لها حقاً في أن يكون لها رأي مسموع في شؤون جيرانها، ولا سيما الأردن الذي كانت صداقته للغرب ذات تاريخ طويل. ومن جهة أخرى فإن إسرائيل التي كان صوتها مسموعاً دائماً في واشنطن، كانت معارضة تماماً لبروز دور سوري يصل من القوة إلى درجة تحدي مطالبة إسرائيل نفسها

بالسيطرة في المشرق. والحق أن كثيراً من الغايات الكامنة خلف إتفاقات إسرائيل مع مصر، ودعمها للموارنة اللبنانيين، واتصالاتها المتعددة بالملك حسين كانت ترمي أصلاً إلى عزل سوريا وإضعافها. وكانت إسرائيل تدرك على وجه الخصوص أن سوريا إذا تركت بدون كبح فإنها قد تصبح راعياً للفلسطينيين فعالاً بشكل خطر. كما أن إحتمال إكتساب سوريا لنفوذ إقليمي كان بعبعاً يخيف إخوة الأسد العرب، ولذلك فإن محاولاته لبسط نفوذه على الأردن، ولبنان، والفلسطينيين كانت تُغْضِبُ أولئك الأطراف، بل وتثير مخاوف وغيرة مصر والعراق والسعودية، التي كانت تشعر كلها بالعصبية إزاء مثل ذلك التعاظم أو البروز الإضافي الذي قد تكتسبه دمشق لو نجحت جهودها هـذه. فعبرت عن إرتيابها بكون الأسد مصمماً على إعادة بناء «سوريا الكبرى» ويطمح للهيمنة عليها.

ولم تكن كراهية مصر لبروز سوريا قوية لتقل عن كراهية إسرائيل لذلك. فلقد كان الخوف من منافس قوي على مشارف مصر الشمالية الشرقية عميق الجذور في التاريخ المصري . . . وهو خوف جَرَّبَهُ كلٌ من عبد الناصر، والملك فاروق، ومحمد علي، بل والفراعنة الأقدمون. ولقد كان غضب السادات من إنتقادات الأسد بعد حرب تشرين/ أكتوبر/ لا ينبع فقط من كبريائه الجريحة، وألمه الناجم عن اتهامه بالتخلي عن جبهة المواجهة العربية، بل كان ذلك الغضب أيضاً تعبيراً جزئياً عن ذلك القلق التقليدي. أما العراق: القطب الآخر المعادي لجغرافية سوريا السياسية فقد راح هو الآخر يشعر بالقلق من بروز دمشق كمركز ثقل إقليمي. وكان ذلك ردّ فعل عصبي غريزي جغرافي ـ سياسي من جانب بغداد زادته حدة تلك الضغائن الطويلة الأمد بين حزبي البعث السوري والعراقي كما أن الحذر السعودي من القوة السورية كان مُلِحّاً كذلك. فقد كان يسعد السعوديين أن يروا سوريا تحتوي إسرائيل ولكنهم كانوا أقل سعادة إزاء إحتمال إمتداد قوة البعث عبر الأردن إلى حدودهم الشمالية. وكان إهتمام السعوديين باحتواء الأسد يظهر من نصحهم للملك حسين بالإبتعاد عن

إقامة علاقة وثيقة أكثر من اللازم معه، وفي محاولاتهم لحرمانه من دوره كحكم بين كل من اللبنانيين الموارنة، والفلسطينيين، وفي تقليلهم من مساعداتهم المالية المقدمة له. وتقول بعض الروايات إن مؤسس الدولة السعودية الحديثة الملك عبد العزيز بن سعود قد نصح أبناءه وهو على فراش الموت بأن يُبقوا عيونهم مفتوحة على سوريا، وأنه قد أوضح لهم أن أي امتداد للنفوذ السوري، وخاصة إذا كان يؤدي إلى إرتباط وثيق بالعراق أو بمصر سيشكل خطراً على المصالح السعودية.

وفيما وراء المنافسات الداخلية بين العرب كانت تكمن القضية الأعمق ـ قضية نظام مَنْ سيسود في الشرق الأوسط وتلك مسألة ظلت مفتوحة منذ نهاية العصر العثماني في سنة ١٩١٨ ذلك أن سيادة فرنسا وبريطانيا خلال فترة ما بين الحربين لم تقدم سوى جواب مؤقت. وبصعود عبد الناصر في الخمسينات برز لسنوات قصيرة إحتمال قيام نظام قومي عربي يشكل فيه العرب بيئتهم كما يرتأون، غير أن إسرائيل قد أطفأت هذه الآمال في عدوان حزيران/ يونيو/ سنة ١٩٦٧، ولم تنتعش تلك الآمال ثانيةً إلّا بصورة جزئية نتيجة جهود العرب في حرب تشرين. ولقد كان النظام الكامن ضمنياً في دبلوماسية كيسنجر بعد تلك الحرب هو النقيض الكامل للقومية العربية، لأنه بتحطيمه للتحالف المصري ـ السوري قد أدى بشكل حاسم إلى إلغاء أي ترابط عربي فعال ومؤثر. وكان كيسنجر يرى قيام نظام تشرف عليه أميركا وتكون إسرائيل حجر الزاوية فيه بمشاركة جديدة مع مصر مُدَجّنة ومُحَيَّدة. وقام كلٌّ من كيسنجر وإسرائيل بتقديم الترتيبات الجديدة باعتبارها أفضل طريقة للحفاظ على المصالح الغربية من التجاوزات السوفياتية، ولكن النقطة الحقيقية الكامنة خلف ستارة الدخان هذه كانت ماهية النظام الذي سيسود في المنطقة: أهو عربي أم إسرائيلي ففي ظل عبد الناصر كانت مصر قطب الرحى لنظام عربي، أما في ظل السادات فقد انتقلت مصر إلى المعسكر الآخر، وكانت النتائج كالحة مقيتة للدول العربية الأصغر.

وخلال السنوات الثلاث التي تلت حرب تشرين اتسعت رؤى الأسد واهتماماته بنفسه وببلده، غير أن موقعه الاستراتيجي كان أبعد ما يكون عن الصلابة. فلقد اهتم كيسنجر، وإسرائيل، ومنافسوه العرب بإبقائه في موقع ضعف. كان يقف على مفترق طرق، فإما أن يستمر صعوده عن طريق مرحلة جديدة من عملية السلام وإمّا أن تتعرض للضياع مكتسباته التي حصل عليها بصعوبة، وبذلك تتضاءل أهميته فينزوي في الظل.

ولعل كارتر قد فاته الإنتباه إلى بعض هذه التعقيدات عندما حاول ـ وهو مليء بالنوايا الحسنة ـ أن يعجم عود الأسد ليعرف أي نوع من الرجال هو، وما الذي كان لديه ليقوله عن مشكلة الفلسطينيين المعقدة. ومن المؤكد أن جيمي كارتر لم تكن لديه أية معرفة ولو طفيفة عن آمال وطموحات الأسد أو عن غضبه تجاه الطريقة التي كانت السياسة الأميركية تعترضه بها في أغلب الأحيان.

اللقاء مع كارتر

إن الساعات السبع التي قضاها الأسد مع كارتر في فندق الأنترناشنال بجنيف(١١) وسط أضواء الاهتمام العالمي في ٩ أيار/ مايو/ ١٩٧٧، قد حملت القائد السوري إلى أعلى قمة وصل إليها حتى ذلك الحين، وبدا أنها ستضمن له مكاناً في عملية سلام قوية متجددة. ولم يستطع أن يقاوم إغراء إفتتاح اللقاء باستعراض دام ساعة كاملة لدرس تاريخي عن حقيقة إنعدام شعور العرب بالأمن إزاء النزعة التوسعية الإسرائيلية. وعن السجل الطويل للتحكم الغربي الفوقي في المنطقة. وشعر بالرضا لرؤية كارتر يستمع إليه بانتباه، ويهز رأسه ويدون الملاحظات. وأحسّ الأسد بأن الرئيس الأميركي الجديد قد تفهم جوهر المشكلة العربية ـ الإسرائيلية، وهذا بحد ذاته خطوة هائلة إلى الأمام من وجهة نظر الأسد. وانسجم الرجلان جيداً كما لاحظ كارتر بأسلوب آسرٍ بأنهما كانا من أبناء الريف العصاميّين؛ وسرعان ما شعر كل منهما بالإرتياح مع الآخر. وأخذ الأسد بدفء مشاعر كارتر، واهتمامه الجدّيّ بالمنطقة. وباستعداده للبحث عن

النصح والمشورة حول مشاكلها المعقدة. أما كارتر فقد شعر بدوره بالسعادة لإكتشافه أن الأسد يتمتع بروح الدعابة. ولخص إنطباعه بأن الأسد قائد واثق بنفسه، ذو تفكير مستقل، وشعوره بالماضي التاريخي يعطيه صبراً على مواجهة الحاضر.

وتشجع الأسد لإكتشافه أن لدى كارتر تفكيراً متفتحاً حيال المسألتين الحساستين: حقوق الفلسطينيين والإنسحاب الإسرائيلي. وأمام الصحافة، والأسد إلى جانبه، كرر كارتر تأييده لوطن الفلسطينيين، وفيما بعد في محادثات مباشرة وجهاً لوجه، لمحّ كارتر إلى أنه سيسعى لإقناع إسرائيل بالإنسحاب إلى حدود ما قبل عام ١٩٦٧. وشعر كارتر بدوره بالطمأنينة لأنه وجد الأسد مستعداً للسلام، وللنظر في إتخاذ خطوات عملية ملموسة في هذا الإتجاه، كإنهاء حالة الحرب وإقامة مناطق منزوعة السلاح وعازلة تحرسها قوات حفظ سلام وتأمين الضمانات، والمضيّ قدماً في إعادة البناء الاقتصادي للمساعدة في التوصل إلى مثل ذلك السلام.

غير أن الجو الودي قد غطى على الهوة الكبرى الشاسعة بين الرجلين، ففيما يتعلق بالحدود أوضح الأسد لكارتر أنه ما من زعيم عربي يستطيع التخلي عن الأرض مهما كانت رغبته في السلام عظيمة، وسخر من مفهوم «الحدود الآمنة» في عصر الأسلحة الحديثة وسخر كذلك من وجهة نظر إسرائيل القائلة بأنها تستطيع كسب الأمن بالإستيلاء على أراضي الآخرين. وقال: «يزعم الإسرائيليون بأنهم إحتلوا الجولان لحماية مستوطناتهم، ولكنهم بنوا مستوطنات جديدة في الجولان، وبعضها لا يبعد عن مواقعنا إلاّ ثلاثمائة متر» وأراد الأسد أن يعرف الرأي الأميركي بالحدود «الدائمة» ما دامت إسرائيل ستحتل دمشق لو إستطاعت؟ ولم يرد كارتر أن يتقدم بأية وعود.

وكانت المشكلة التي إستغرقت معظم وقتهما حول ما يمكن عمله للفلسطينيين، وبرغم حسن نية كارتر وإشارته إلى «وطن» كانت العقبات مخيفة

هنا أيضاً. كان كيسنجر قد تعمد وضع عقبتين لإبقاء الفلسطينيين خارج عملية السلام.

فقد أعطى إسرائيل حق رفض أي مشتركين جدد في مؤتمر جنيف، وتعهد بأن الولايات المتحدة لن تتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية إلاّ إذا قبلت بالقرار ٢٤٢ وبحق إسرائيل في الوجود. وطلب كارتر مساعدة الأسد في التغلب على هاتين العقبتين، وسأل: هل هناك طريقة للتحدث مع عرفات؟ هل يمكن إقناع المنظمة بإصدار بيان تقبل فيه ٢٤٢، ربما مع تحفظ حول وصف ذلك القرار للفلسطينيين بأنهم لاجئون؟ كان كارتر يرى في تعهد كيسنجر حاجزاً إجرائياً يجب تخطيه من أجل السماح للفلسطينيين بالإنجذاب إلى المفاوضات.

بيد أن الأسد كان مهتماً بالمادة والفحوى بدلاً من الأمور الإجرائية. فسأل: ما الذي يستطيع كارتر تقديمه للفلسطينيين وكيف يحدّد حقوقهم؟ وكيف يمكن توقع قبولهم للقرار ٢٤٢ أو الإعتراف بإسرائيل قبل أن يتأكدوا من إستعادة الضفة الغربية وغزة؟ فقد أخبره الملك حسين بأن إسرائيل قد عرضت على الأردن عشرة كيلو مترات فقط من الضفة الغربية في تسوية نهائية! واستطرد الأسد يقول إن إعادة الضفة الغربية وغزة لن تكون بحد ذاتها كافيةً لحل المشكلة، لأن مئات الألوف من اللاجئين المشردين المحرومين من ممتلكاتهم يجب أن يعطى لهم الخيار ـ وفقاً لقرارات الأمم المتحدة ـ في العودة إلى وطنهم أو الحصول على التعويضات.

وهكذا إنكشفت بوضوح الهوة بين الأمور الإجرائية وبين الفحوى المادية. وفي الأسابيع التالية قام كارتر وفانس بعدة محاولات لجعل منظمة التحرير الفلسطينية تصدر بياناً يفتح الطريق لحوار مع واشنطن، بل لقد ذهب فانس إلى حد إقتراح صيغة الكلمات التي ستكون مقبولة، مما أثار غضب إسرائيل(١٢) غير أن الولايات المتحدة لم تكن تستطيع أن تَعِدَ المنظمة بمقعد في مفاوضات جنيف ـ فحق إسرائيل في الفيتو كان يقف حائلاً يمنع ذلك ـ ولم تكن تستطيع

أيضاً أن تَعِدَ بدولة فلسطينية. وفي مواجهة هذا الإحتمال السلبيّ فإن اللجنة التنفيذية رفضت أن تتخلى عما تعتبره «آخر ورقة» لديها ـ وهي الإعتراف بإسرائيل.

ومما لا شك فيه أن المنظمة كانت تريد فتح حوار مع الولايات المتحدة، وقدمت عدة إشارات على حسن نواياها. قدمت حراسات للأميركيين في لبنان سنة ١٩٧٦ وساعدت على ترتيب جلاء الأميركيين من مناطق الحرب الأهلية، بل لقد قدمت معلومات أنقذت حياة دبلوماسيين أميركيين(١٣) ولكنها لم تستطع أن ترغم نفسها على التفوه بالكلمات التي طلبها منها كارتر. وخلال السنوات التي تلت ذلك ثار جدل لا نهاية له حول ما إذا كان الفلسطينيون قد فقدوا فرصة فريدة. والحق أن العقبات التي وضعها كيسنجر وإسرائيل قد أثبتت أنها قوية فعالة إلى حد غير عادي، كما قال فانس، إذ أنها «جعلت مهمتنا في العثور على طريقة للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية قريبة من المستحيل(١٤)».

هل أعطى كارتر وفانس وزناً أكثر من اللازم لتعهد كيسنجر لإسرائيل؟ هناك دبلوماسي أميركي واحد على الأقل هو تالكوت سيلي ـ سفير أميركا السابق في سوريا يعتقد بأن كارتر كان مخطئاً في تفسير ذلك التعهد الكيسنجري بجعله ينطبق حتى على الإتصالات الإستطلاعية مع المنظمة. وقد تذكر أن صاحب التعهد نفسه قد أخبره بأنه كان سيفتح حواراً مع الفلسطينيين لو فاز الجمهوريون في انتخابات عام ١٩٧٦(١٥). فإذا كان جائزاً لكيسنجر نفسه أن يفكر في التحدث مع المنظمة، فهل كان على كارتر أن يحجم عن ذلك؟ على أية حال لم يبدأ أي حوار أميركي ـ فلسطيني ولم يشترك أي فلسطيني في المفاوضات. وهذا حُكِمَ على الفلسطينيين أن يظلوا تحت الاحتلال المستمر والحرمان.

على أن هذه الإحباطات كانت لا تزال في طيّ المستقبل. أما في أيار سنة ١٩٧٧ فقد كانت هناك لحظة من التفاؤ ل الحادّ. فبعد أن ودع الأسد كارتر في جنيف أخبر مرافقيه عن أمله الكبير في الرئيس الجديد، وأشار إلى أنه يتطلع إلى

لقاءات أخرى معه. ولكن الأمل الواعد الذي برق في تلك المقابلة لم يتحقق، ولم يَرَ الأسد كارتر ثانيةً - إلى أن زاره الأخير في دمشق بعد بضع سنوات كمواطن عادي. وهكذا إنقطعت سوريا عن عملية السلام بشكل سريع وحاسم تماماً كما انقطع الفلسطينيون.

ما الخطأ الذي حدث؟ لعل طرح الأسد للموضوع في جنيف كان متمهلاً أكثر من اللازم، ومطالباً بالحقوق بحدودها القصوى أكثر من اللازم ومهتماً بالمبادىء وتراث التاريخ أكثر من اللازم، مع إهتمام أقل من اللازم بالتفاصيل العملياتية لكيفية البدء بالتفاوض. ولعل الأسد عندما اعتمد على كارتر ليفرض حلاً على إسرائيل قد وقع في الخطأ العربي المعتاد عموماً وهو تجاهل الضغوط المحلية الحادة التي يتعرض لها كل رئيس أميركي عندما يتعامل مع الشرق الأوسط. يضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك تنسيق حول عملية السلام في داخل المعسكر العربي، بل على العكس من ذلك كانت هناك التنافسات والشكوك المعهودة. فلم يكن في نية السادات أن يسمح للأسد بأن يملي سياسته السلمية، أما الملك حسين فكان يشاطر إسرائيل فزعها من محاولة كارتر الإقتراب من منظمة التحرير الفلسطينية، وأما الفلسطينيون الراغبون في السيطرة على مصائرهم بأنفسهم فلم يكونوا يثقون بكل الحكومات العربية بنفس القدر الذي يكرهون فيه إسرائيل تقريباً. وحتى الانتصار الصغير الذي حققه الأسد بجعل كارتر يلتقي به في سويسرا كان أجوف حسب رأي أحد المسؤولين الأميركيين الكبار[١٦] وكان من الممكن أن يترك أثراً أشدّ وقعاً لو أنه ذهب إلى واشنطن فإذا كان قصده التأثير على الإدارة الأميركية، فإن البقاء بعيداً لم تكن فيه فائدة.

غير أن هذه الأمور كلها لم تكن لتؤثر لو لم تستعد إسرائيل بمهارةٍ زمامَ المبادرة من كارتر والأسد كليهما.

الليكود يدخل

وهكذا فإن مهمة تخريب سياسة كارتر في الشرق الأوسط وإبعاد الأسد والفلسطينيين عن عملية السلام وقعت على عاتق مناحيم بيغن ووزير خارجيته موشي دايان. كان بيغن، الذي إحتل في السياسة الإسرائيلية موقع المعارض المزمن الذي ظل خارج الحكم طويلاً، قد أذهل العالم بفوزه على حزب العمل الحاكم في الانتخابات الإسرائيلية التي جرت في أيار/ مايو/ سنة ١٩٧٧. فجاء إلى رئاسة الوزراة بمعظم أفكار أستاذه مثير الشغب الروسي المولد فلاديمير جابوتنسكي (١٨٨٠ ـ ١٩٤٤) الذي تشكلت صهيونيته الرجعية المتشددة كنقيض للخطط التدرجية التي كانت تتبعها الصهيونية الإشتراكية في مسارها الرئيسي وكان جابوتنسكي قوياً في الخطابة، فدعا في فترة ما بين الحربين العالميتين إلى إستيطان يهودي جماعي في فلسطين وإلى إستعمال القوة بلا تردد ولا هوادة ضد العرب لبسط سيادة يهودية كاملة على ضفتي الأردن.

وكان يجادل بأن «الدولة اليهودية» لا يمكن تأمينها عن طريق التسويات والمساومات مع العرب، بل إنها بحاجة إلى حماية «جدار حديدي» فالحرب لم تكن بالنسبة لجابوتنسكي إجراء يلجأ إليه كآخر سهم في الجعبة، بل وسيلة مشروعة للغزو القومي.

ولد مناحيم بيغن سنة ١٩١٣ في مدينة بريست ليتوفسك التي كانت تابعة لبولندا آنذاك، وتربّى في صفوف «البتيار» حركة جابوتنسكي للشبيبة ذوي القمصان البنّيّة اللون، وأصبح زعيمها قبيل الحرب العالمية الثانية. وعندما قام الروس بغزو بولندا سنة ١٩٣٩ أرسلوا بيغن إلى معسكر سجن في سيبريا. وعندما أطلقوا سراحه سنة ١٩٤١ انضم إلى الجيش البولندي في المنفى، وأرسل إلى فلسطين سنة ١٩٤٢ كمترجم لغة إنكليزية؛ فهرب من الخدمة سنة ١٩٤٣ وسيطر على ميليشيا الحركة الصهيونية الجديدة، الأرغون، التي راحت تستخدم أساليب الإرهاب ضد البريطانيين، والعرب، وضد الهاغانا التي كانت

هي الجيش اليهودي السري التابع لحزب العمل الصهيوني. وكان من بين عمليات الأرغون الهجوم على مقر قيادة الجيش البريطاني في فندق الملك داود بالقدس في حزيران سنة ١٩٤٦. ومذبحة دير ياسين ـ القرية العربية ـ في ٩/ نيسان سنة ١٩٤٨، والرحلة الإنتحارية التي قامت بها بعد شهرين من ذلك التاريخ السفينةُ آلتالينا التي جعلت الأرغون تدخل في صراع عسكري مباشر مع ديفيد بن غوريون، أول رئيس لوزراء إسرائيل والذي بقى عدوّ بيغن طيلة حياته. وفي أعقاب حادثة آلتالينا أرغمت الأرغون على نزع سلاحها. وهكذا فلكي تتابع الصهيونية الرجعية الجديدة المتشددة عملها لإقامة وطن قومي يهودي على ضفتي الأردن كليهما أسس بيغن «حركة الحرية» ـ حيروت التي إستنكرها وأدانها عدد من اليهود البارزين مثل آلبرت إينشتاين، وحنا آرينتْ (في رسالة شهيرة إلى النيويورك تايمز في ٤/١٢/١٩٤٨) حيث وصفوها بأنها «قريبة جداً في تنظيمها وأساليبها وفلسفتها السياسية ودعوتها الاجتماعية من الأحزاب النازية والفاشيّة».

وقدر لبيغن أن يظل طيلة عشرين عاماً على الحافّات المتطرفة من السياسة الإسرائيلية. غير أن فُرَصَهُ السياسية تحسنت في عام ١٩٦٥ بتشكيل كتلة غاحال البرلمانية، بقيادته، من حركة حيروت وحزب الأحرار التابع لرجال الأعمال. وتبع ذلك إكتساب بيغن للإحترام الكامل عندما انضم إلى وزارة «الوحدة الوطنية» عشية حرب حزيران على يد بعض الجنرالات الذين كانوا يشاركونه الرأي القائل بأن حزب العمل قد أخطأ بترك الضفة الغربية في أيدي العرب سنة١٩٤٨. وبأن فرصة «تحريرها» الآن (سنة ١٩٦٧) يجب أن لا تفوت. ولكي يحتفل بيغن بتعيينه في الحكومة، صعد إلى جبل هرزل في اليوم التالي ليؤدي التحية لقبر جابوتنسكي.

وباحتلال الأراضي العربية في حرب الأيام الستة تحولت الآيديولوجية الإرتدادية الصهيونية إلى شيء عملي في السياسة، ولذلك أصبحت القضية التي تشغله أكثر من غيرها هي منع عودة الضفة الغربية للعرب وعندما قبلت غولدا

مائير خطة روجرز (سنة ١٩٧٠) بما تضمنته من إحتمال تفكير إسرائيل باستبدال السلام بالأرض، إستقال بيغن من الحكومة وفي عام ١٩٧٣ إشترك مع شارون، الرمز المجسد للعسكرية الإسرائيلية، في تكوين الليكود الذي كان إئتلافاً من الأحزاب اليمينية التي وضعت نهاية لتسع وعشرين سنة من حكم حزب العمال، سنة ١٩٧٧ ، وعندها علق بيغن في مكتب رئيس الوزراء صورة «لأستاذه المحترم جابوتنسكي».

وأصبح هدف بيغن المباشر هو تدمير سياسة كارتر في الشرق الأوسط لأنها كانت تهدد بإرجاع إسرائيل إلى حدودها عام ١٩٦٧، وبفتح الباب للوطنية الفلسطينية. ولتحقيق هذه المهمة استعمل بيغن كثيراً من المكر والحماسة.

واستغرق بيغن ووزير خارجيته دايان عدة أشهر من تموز/ يوليو إلى تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٧٧ حتى تمكنا من إرغام كارتر على التخلي عما اعتبراه سياساته الخطرة. وقد حققا النجاح بخطة إستراتيجية ذات شقين. . تألف الشق الأول من حملة منسقة ضد أهداف كارتر المعلنة، وقد تراوحت هذه الحملة بين المضايقة، والمماطلة، والتحدي المكشوف. . مع تركيز خاص على اقتراح كارتر المتعلق بمؤتمر جنيف الذي كان بيغن مصمماً على أن ينعقد وفقاً لشروطه هو إذا قدّر له أن ينعقد على الإطلاق. أما الشق الثاني فكان يقضي بتجاوز مؤتمر جنيف وتجنبه تماماً ومن ثم إغواء مصر واجتذابها إلى إتفاقية ثنائية. . . وقد تم إتباع هذين الشقين معاً، ومما لا شك فيه أن ذلك كان على أساس أن الشق الثاني إذا فشل فسيعطي الشقُّ الأولُ موقعاً ومرتكزاً يعود بيغن إلى الإستناد إليه.

أما فيما يتعلق بجنيف فقد كان كارتر يريد إشتراكاً فلسطينياً فيه، غير أن بيغن لم يكن يريد ذلك أبداً. وكان كارتر يريد من إسرائيل أن تعترف بأن القرار ٢٤٢ كان يعني إنسحاباً على كل الجبهات، ولكن بيغن لم يكن يمل أبداً من تكرار التأكيد بأن الضفة الغربية «محررة»، لا محتلة، وأنه لن يتخلى عنها قطّ وكان كارتر يريد تجميد المستوطنات اليهودية لتخفيف مخاوف العرب، وهكذا

سارع بيغن إلى تأسيس مستوطنات جديدة. وراح يذكر كارتر تكراراً بالتزامات كيسنجر، وألحّ عليه وعلى وزير خارجيته فانس بأن لا يبديا علانيةً وجهات نظر تختلف مع آراء إسرائيل ويقال إن بيغن بعد مقابلته الأولى لكارتر في تموز/ يوليو سنة ١٩٧٧ وصف الرئيس الأميركي سراً بأنه «منتفخ وفارغ كغثاء القشطة الهلامية»(١٧). وقد تم تجنيد وتعبئة الموارد الهائلة لمنظمة الشؤون الأميركية الإسرائيلية العامة (آيباك) ضد كارتر بشكل فعال أرغمه على التراجع عن جميع مواقفه في القضايا الكبرى وهو جريح مضطر إلى إتخاذ موقف الدفاع.

وقد وصلت عملية التخريب الإسرائيلية لأهداف كارتر إلى ذروتها عقب نشر البيان الأميركي ـ السوفياتي المشترك حول الشرق الأوسط في ١ تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٧٧ والذي طلبت فيه الدولتان العظميان باعتبارهما رئيستي مؤتمر جنيف بإعادة عقد ذلك المؤتمر للتفاوض على «حلّ أساسي لكل جوانب معضلة الشرق الأوسط بكاملها» على أن تتضمن التسوية «إنسحاب قوات إسرائيلية مسلحة من أراض احتلت في نزاع عام ١٩٦٧ وإيجاد حل للمسألة الفلسطينية بما في ذلك ضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وإنهاء حالة الحرب وإقامة علاقات سلمية طبيعية. . .» وقد تلقى دايان مسودة البيان قبل نشره بيومين وكان هذا وقتاً كافياً لتنبيه واستنفار «اللوبي»، وهكذا كانت صرخات الاستنكار داخل الكونغرس وخارجه هائلة. ولم تكن الإشارة إلى الإنسحاب الإسرائيلي وحقوق الفلسطينيين هي وحدها التي غاظت اللوبي، بل كذلك عودة الإتحاد السوفياتي إلى الظهور على المسرح، وهو الذي يرونه السند الأساسي للعرب، وفوجئت الإدارة الأميركية بذلك السد من نيران الإحتجاج.

ولقد حدث أن السوريين كانوا بطيئين في إدراك مغزى ذلك البيان المشترك، فلم يفعلوا شيئاً لخدمة مصالحهم في تلك اللحظة الحرجة. ففي إجتماع في فندق بلازا التابع للأمم المتحدة في اليوم التالي لصدور البيان سأل فانس وزير الخارجية عبد الحليم خدام عن ردّ فعله، فبادر خدام إلى التنكيت

قائلاً «عندما يتفق الأميركيون والسوفيات على شيء ما، فإننا ـ العرب ـ نميل إلى الإرتياب» كانت تلك إشارة خاطئة أوحت إلى فانس بأن العرب لا يكادون يكونون أكثر حماسة من الإسرائيليين لتلك المبادرة الأميركية ـ السوفياتية المشتركة.

وعند هذه النقطة تحرك دايان ليجهز على تلك المبادرة وفي ليلة ٤ ـ ٥/ تشرين الأول/ إكتوبر واجه كلاً من كارتر وفانس وبريجنسكي طيلة خمس ساعات من المساومات في مقر البعثة الأميركية في الأمم المتحدة وكانت أساليب دايان خشنة. فقال إن البيان غير مقبول لدى إسرائيل كلياً وطلب من كارتر أن يصرح علانية بأنه يقف مع كافة التفاهمات الماضية والإتفاقات السرية بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وإلاّ.. فإن إسرائيل ستنشرها وأراد من كارتر أن يعلن معارضته لأي شكل من أشكال الدولة الفلسطينية، وعندما تردد كارتر هدده دايان بأنه سيعلن أنه طلب منه مثل ذلك التأكيد وأن كارتر رفض تقديمه له. وكانت تلك خدعة وصفها بريجنسكي فيما بعد بأنها ابتزاز(١٨). وكان دايان على صواب عندما قدّر أن كارتر الذي هزته المصادمات مع زعماء اليهود الأميركيين لن يستسيغ كشف الأوراق كلها، وسيتراجع عن وضع هذه المشاحنة أمام الجمهور الأميركي.

وجاءت نقطة التحول في مفاوضات تلك الليلة عندما اعترف كارتر بحاجته إلى مساعدة دايان لكي يصدّ عنه هجمات اللوبي اليهودي المشاغب، فقال كارتر: «دعنا نتحدث في السياسة(١٩)». وعند ذلك انتهز دايان تلك الفرصة ليعزز مكاسبه، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً أصبحت حاجة الرئيس الأميركي لاسترضاء أصدقاء إسرائيل في الولايات المتحدة تتقدم على إلتزامه بإيجاد تسوية شاملة في الشرق الأوسط.

وفي تلك الليلة أصدر تعليماته لفانس بأن يعمل على التوصل إلى موقف متفق عليه مع دايان. وما ان حلت الساعات الأولى من صباح ٥/ تشرين الأول/

أكتوبر سنة ۱۹۷۷ حتى كان البيان الأميركي ـ السوفياتي قد أفرغ من مضمونه وأُتْلِف وأعيدت كتابة قواعد مؤتمر جنيف في ورقة عمل أميركية ـ إسرائيلية. وصدر بيان مقتضب بعد تعب تلك الليلة الليلاء جاء فيه أن قبول البيان الأميركي ـ السوفياتي الصادر في أول تشرين الأول «ليس شرطاً مسبقاً لإعادة عقد وإدارة مؤتمر جنيف». لقد تنازل كارتر.

أما حاجات الأسد وطموحاته الإقليمية فقد تم تجاهلها بكل بساطة. ولكي يمنع مصر من توقيع إتفاق منفصل، كان الأسد يضغط من أجل وفد عربي موحد يقوم بالتفاوض الفعلي في جنيف. وكان يريد أن تشترك سوريا أيضاً في مناقشة المشكلة الفلسطينية غير أن الورقة الأميركية ـ الإسرائيلية قد حرمته من الحصول على هذين المطلبين معاً فقد نصت تلك الورقة على أن المؤتمر ـ بعد جلسة الإفتتاح الموسعة ـ سوف ينقسم إلى لجان ثنائية تتفاوض لعقد معاهدات سلام ثنائية وبعبارة أخرى فإن الأسد سيفقد كل سيطرة على زمام السادات وبالإضافة إلى ذلك كانت سوريا هي الطرف المهتم الوحيد المستبعد من مجموعة العمل الخاصة بالضفة الغربية وغزة وهي مجموعة نصت ورقة العمل الأميركية الإسرائيلية بالتحديد على أنها ستتكون من إسرائيل، ومصر، والأردن، والعرب الفلسطينيين.

وهكذا ضمن دايان إستبعاد سوريا (وكان ذلك هدفه الأساسي) بتقديم تنازل تكتيكي حول المشاركة الفلسطينية وقد شعر كارتر بالإرتياح، وحتى الإمتنان عندما وافق دايان على أن باستطاعة بعض الفلسطينيين، كرؤساء بلديات الضفة الغربية أن يشتركوا في الجلسة الإفتتاحية، وفي مجموعة العمل التي ستبحث أمر الضفة الغربية، شريطة تمكين إسرائيل من أن تقتلع منها كل من هو معروف بأنه عضو في منظمة التحرير وأعاد دايان بصراحة الحجة التي تتذرع بها إسرائيل منذ زمن طويل حول تجاوز سوريا وإقامة سلام مع مصر وحدها. فقال إنه إذا أزيلت عجلة واحدة فإن العربة لن تستطيع السير ثانيةً فالسلام مع مصر هو الطريق إلى إستقرار المنطقة واستبعاد إمكانية الحرب.

وأصيب الأسد بخيبة أمل إزاء نتائج جهود دايان، فلقد إستطاعت إسرائيل أن تجرده من كل سيطرة على الأطراف العربية الأخرى وأن تبقى منظمة التحرير بعيدة. فاللجان الثنائية كان معناها أن باستطاعة إسرائيل التعامل مع عالم عربي مجزأ؛ وكان الأسوأ من ذلك أن كارتر بدأ يرى الأسد كعقبة، واتهمه بالتراجع عن وعده السابق بالتعاون. ولدى تذكر هذه الفترة بعد عشر سنوات، كان فانس لا يزال متمسكاً بالرأي القائل بأن الأسد قد «عزل نفسه»، وأنه بإصراره على السيطرة على الجانب العربي كله «قد أضاع فرصة الإشتراك في مؤتمر واسع كان يمكن أن يناقش فيه كل شيء، بما في ذلك إعادة مرتفعات الجولان. وأن موقفه هذا لم يكن غير حكيم فحسب، بل كان يدحر نفسه. إن الأسد قد أطلق النار على قدمه»[٢٠]. ولكن أميركياً آخر، هو تالكوت سيلي الذي أصبح سفيراً في سوريا في آب سنة ١٩٧٨ كان يرى «أن إسرائيل كانت مصممة على عزل سوريا وتحجيمها وعلى أن تتعامل مع مصر وحدها. وحتى لو تحركت سوريا بصورة أسرع وكانت أكثر مرونة، فإن من المشكوك فيه أنها كانت ستحصل على أي شيء يرضيها»[٢١]. ويبدو أن سجل الأحداث يؤيد هذا التفسير الأخير.

ربما يكون الأسد قد خسر قضيته بالغياب، فلم يقاتل للدفاع عن وجهة نظره بما يكفي من القوة. لم يرسل مبعوثاً إلى واشنطن ليحتج على إهمال مصالحه في ورقة العمل الأميركية ـ الإسرائيلية، رغم أنه يجب أن يقال بأنه على عكس دايان لم يكن في موقع يمكنه من التدخل على مستوى القمة. وبدلاً من ذلك حاول أن يمارس ضغطاً حيث يستطيع، فأرسل وزير الخارجية عبد الحليم خدام ونائب وزير الدفاع ناجي جميل في جولات إلى الأقطار العربية يطلب منها التدخل لدى السادات كي يرفض المقترحات الأميركية ـ الإسرائيلية، بل أن اللواء جميل قد ذهب إلى القاهرة في ٢٢/١٠/١٩٧٧ ليعظ الرئيس المصري حول واجباته إزاء القضية العربية، فلم يزد على أن أغضب السادات ودفعه لإلقاء القيود السورية بعيداً دفعة واحدة.

مغازلة السادات

وفي تلك الأثناء كانت الحكومة الإسرائيلية قد حققت تقدماً كبيراً باتجاه هدفها وهو إقامة حوار مباشر مع السادات وكان ذلك هو الشق الثاني من حملتها لإغـراق وتحطيم سياسة كارتر في الشرق الأوسط، ولقد كان من الظنون الشائعة أن السادات، برحلته الدراماتيكية إلى القدس في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٧ هو الذي بدأ العملية التي أدت إلى السلام المصري ـ الإسرائيلي. ولكن الإسرائيليين في الواقع كانوا هم الذين بدأوا بالخطوات الأولى. فهم الذين ألحّوا على السادات سراً بأن يتعامل معهم بشكل ثنائي. وكان هذا يستدعي بالضرورة نوعاً من الخداع لحليفهم الأميركي لأنهم رأوا كارتر لا يزال متمسكاً بهدف تحقيق تسوية شاملة متعددة الأطراف. وكان إتخاذ مثل هذه المبادرة السياسية الهامة بدون إستشارة واشنطن وعلى عكس أهداف واشنطن المعلنة يمثل إبتعاداً كبيراً عن مطلب التنسيق السياسي والعملياتي مع الولايات المتحدة، وهو المطلب الذي كانت إسرائيل نفسها تلح عليه حتى ذلك الحين. ولكن بيغن عندما كان يخطط ويتآمر لاصطياد السادات، كان يحتاج إلى التحرر من القيود والضوابط الأميركية(٢٢).

وفي مغازلة السادات طلبت إسرائيل مساعدة ثلاثة زعماء كانوا في مواقع تؤهلهم للعمل جيداً كوسطاء. فنيقولاي شاوشيسكو، الزعيم الروماني، كان طيلة سنوات عديدة ضالعاً في محاولات تحقيق سلام في الشرق الأوسط. وشاه إيران، حليف إسرائيل الإقليمي الأساسي، كان على علاقة جيدة بالسادات أيضاً، وكذلك كان الحسن الثاني ملك المغرب الذي كان يحتفظ منذ زمن طويل باتصالات سرية متحفظة مع إسرائيل عن طريق الطائفة اليهودية المغربية. وبدأ بيغن بإغواء السادات عندما طلب من شاوشيسكو أن يساعد على ترتيب إجتماع بينه وبين الرئيس المصري. وقد طلب بيغن ذلك عندما قام بزيارة لبخارست في آخر شهر آب/ أغسطس سنة ١٩٧٧(٢٣). وفي ذلك الشهر نفسه

أيضاً قام دايان بزيارة الشاه في طهران وقدم الطلب نفسه[٢٤] ثم طار في الأسبوع الأول من أيلول إلى المغرب لاستدراج «المساعي الحميدة» للملك الحسن كذلك[٢٥]. وآتى هذا الجهد الدبلوماسي ذو الشُعَب الثلاث ثماره في ١٦/ أيلول/ سبتمبر عندما قام حسن التهامي، نائب رئيس الوزراء والصديق الحميم المؤتمن على أسرار السادات، بالمجيء خلسة إلى طنجة ليستمع إلى دايان يجادل في فائدة عقد مؤتمر قمة مصري - إسرائيلي.

وأثارت هذه المفاتحات إهتمام السادات وفضوله، وقد إجتذبه بالتأكيد وعد دايان بأن سيناء كلها يمكن إعادتها إليه. كانت تلك هي الجائزة الكبرى، ولكن كانت هناك نقاط أخرى. فقد كان السادات يشترك مع الإسرائيليين في كراهية التفاوض من على منبر مفتوح في جنيف تحت أنظار أطراف متشككة، بل ومعادية مثل الإتحاد السوفياتي وسوريا. وكإسرائيل أيضاً لم يكن معجباً برؤية كارتر لتسوية ترضي الجميع، وهي رؤية تتناقض كثيراً مع خطة كيسنجر ذات الشراكة الثلاثية بين الولايات المتحدة وإسرائيل ومصر لتتولى إدارة شؤون المنطقة وتقمع مثيري الشغب والمشاكل فيها. وكإغراء إضافي للتعامل المباشر زودت إسرائيل السادات بمعلومات وتحذيرات عن وجود مؤامرة تدعمها ليبيا للإطاحة به[٢٦].

وذهب السادات بنفسه إلى بخارست وطهران في أواخر تشرين الأول للتشاور مع كل من شاوشيسكو والشاه كي يساعداه على تقييم دوافع إسرائيل. أراد أن يسمع منهما ما قاله بيغن ودايان. وحسب رواية السادات نفسه فإن فكرة الذهاب إلى القدس قد خطرت في باله لأول مرة خلال تلك الرحلة[٢٧].

هكذا كانت خلفية إعلان السادات الصاعق المفاجىء في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر (١٩٧٧) أنه مستعد للذهاب إلى آخر العالم للبحث عن السلام و «حتى إلى الكنيست نفسه». وعندما وصل إلى مطار بن غوريون في القدس بعد ذلك بعشرة أيام أصبح من الواضح أن الشق الثاني من خطة إسرائيل قد نجح

نجاحاً باهراً، وأدى إلى قتل مؤتمرجنيف تماماً ونهائياً وهكذا أصبحت فجأةً كل النزاعات حول الذي يجب دعوته وحول كيفية إجراء المفاوضات أشياء بلا معنى ولا مغزى ووجدت الولايات المتحدة نفسها وقد سُلِبَت فرصة الظهور على المسرح تماماً، فلم يبق لإدارة كارتر خيار سوى أن تقذف بسياساتها بعيداً وتقفز إلى العربة للحاق بالركب الإسرائيلي ـ المصري.

اللقاء الأخير مع السادات

أما مبارزة الأسد الكبرى الأخيرة مع السادات فقد وقعت في دمشق في ليلة ١٦ ـ ١٧/ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٧ عندما جلس الرجلان طيلة سبع ساعات يناقش كل منهما الآخر، ويناشده، ويهاجمه بحدّة، ولكن ذلك أصبح في النهاية حواراً عقيماً تركهما على أشد ما يكون من الاختلاف، مع إصرار كل منهما على الإنفصال عن الآخر والذهاب في طريقه المستقل فقد جاء السادات في محاولة أخيرة لإقناع الأسد بالموافقة على تعامله المباشر مع إسرائيل، أو ليكسب صمته على الأقل. كانت تلك الليلة الطويلة المريرة ذروة أربعة أعوام من النفور المتزايد الذي كانت جذوره كامنة في خيبات الأمل في حرب تشرين، والذي زاده تسمماً تحرك السادات باتجاه إقامة علاقة منفصلة مع إسرائيل. وقدر لذلك الاجتماع أن يكون آخر لقاء بينهما.

أثناء النقاش حدث أن صاح السادات: «فلنذهب معاً إلى القدس أو إذا لم تكن تستطيع المجيء فأرجوك أن تلتزم الصمت ولا تجابهني بالإستنكار والإدانة، فإذا فشلتُ فسوف أعترف بأنني كنتُ مخطئاً وسأقول لشعبي أن يعطيك زمام القيادة»(٢٨). وذهل الأسد من هذه التحركات المسرحية. لقد كان السادات مستعجلاً دائماً. كان مستعجلاً لإنهاء حرب تشرين، ومستعجلاً لفك الإشتباك، ومستعجلاً للذهاب إلى القدس، وتدمير فرص تسوية شاملة. وَبَدَا آنذاك مستعداً للقفز إلى الإعتراف بإسرائيل حتى قبل أن تبدأ المفاوضات والمساومات. كان يقترح أن يبدأ من النقطة التي يأمل أي عاقل بأن يصل إليها بعد مفاوضات

طويلة. وبلغ الغضب بالأسد مبلغاً جعله يفكر في إحدى اللحظات بحبس الزعيم المصري ومنعه من مغادرة دمشق(٢٩).

ولكن كانت وراء المجابهة بين الزعيمين الحقائق العنيدة الدالّة على إختلاف الطريق القومي والمنحى والإتجاه.. فقد كان البلدان، مصر وسوريا يسيران في إتجاهين مختلفين متباينين، ولذلك لم يكن عجيباً أنهما نظرا إلى مشكلة كيفية التعامل مع إسرائيل من موقعين متناقضين. فلقد كان الأسد معارضاً تماماً وبشكل كليّ لاتصالات السادات بإسرائيل من لحظة قيام مصر بوقف إطلاق النار من جانب واحد في تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٧٣، وزادت مخاوفه حدة عقب توقيع مصر لاتفاقيات فك الإشتباك ولا سيما إتفاقية سيناء الثانية التي رأى الأسد أنها حرمت العرب من الفائدة القليلة التي كانوا قد كسبوها في حرب تشرين. وقد سيطرت على تفكير الأسد عندئذٍ المعادلة الجغرافية ـ السياسية التي كانت واضحة أمامه بشكل ساطع يفقأ العيون، ومع ذلك فقد بدت غير واضحة أمام عيني السادات، وكانت تلك المعادلة تقول إن إبعاد مصر من الصف العربي ستجعل باقي العالم العربي يسقط فريسة الأطماع والمخططات الإسرائيلية.

واستعمل الأسد لغةً مشحونة بالخطر أكثر من المعتاد في تحذيره للسادات من العواقب الكارثيّة الخطيرة لرحلته.. إذ أنها ستكون أخطر نكسة في التاريخ العربي، وسينجم عنها عدم توازن إستراتيجي يجعل إسرائيل تضرب الأقطار العربية التي لا دفاع لها واحداً بعد الآخر، بادئة بلبنان والفلسطينيين ولن تأتي الرحلة بالسلام، بل إنها على عكس ذلك سوف تنفيه وتبعده. والواقع أن أي شيء يقل عن السلام الشامل لا يستحق الأخذ أو القبول(٣٠) وبينما كان الأسد منهمكاً في عرض هذه النقاط في نقاش ساخن مشحون بالعاطفة، فإنه لم يكن يعلم أن إتصالات السادات السرية بإسرائيل كانت قد تجاوزت به نقطة اللاعودة ـ وهذا مما أضفى على تلك المناسبة ومضة لاذعة من سخريات القدر ومفارقاته.

كان تشاؤم الأسد المتجهم يتناقض تناقضاً حاداً مع شعور السادات بالثقة والتفاؤل عشية مغامرته الكبرى. فقد كانت لدى الزعيم المصري غريزة رجل الإستعراضات الدراماتيكية المفاجئة. وكان قد قرر أن يتابع علاقته الغرامية الحمقاء بإسرائيل ويطير بنفسه شخصياً إلى عاصمة العدو حيث يعظهم برسالته عن المصالحة من داخل الكنيست نفسه، وبذلك يغير سير التاريخ بعمل واحد يبهر به الجميع، بحيث تتهاوى الحواجز النفسية التي أقامتها سنوات طويلة من الصراع، وعندئذٍ تلتقط إسرائيل يده الممدودة. وكان يأمل بأن يستجيب بيغن لإشارته الكبرى هذه وبأن يتعهد له بالإنسحاب من جميع الأراضي المحتلة ولم يفهم السادات بأن بيغن كان ينوي إعادة الأراضي المصرية من أجل أن يحتفظ ببقية الأراضي العربية المحتلة بالضبط. وفي ذهن بيغن كان السلام مع مصر مفتاحاً. ليس لتفكيك «أرض إسرائيل»، بل لجعلها منيعة غير قابلة للإختراق.

وبحلول صباح ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر كان الخصام الغاضب بين السادات والأسد قد وصل حداً جعل من المستحيل حتى عقد مؤتمر صحفي مشترك. فواجه السادات الصحافة وحده واعترف بمعارضة الأسد، ولكنه أكد تصميمه على الذهاب إلى القدس. وفي وقت متأخر من تلك الليلة نفسها أُعْلِن بأن الرحلة ستتم بعد يومين، في ١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٧. وانتظر الأسد مغادرة السادات لدمشق قبل أن يتحدث بصراحة، فقال: ـ «إنني حزين جداً لأنني لم أستطع أن أقنع السادات بخطورة زيارته وبعواقبها البعيدة المدى على القضية العربية. إن السلام هدفنا في سوريا تماماً كما هو في مصر والوطن العربي كله، غير أن الإستراتيجية الناجحة لا يمكن تحقيقها من خلال تكتيك خاطىء فاشل»[٣١]. وأعلن يوم ١٩/ تشرين الثاني/ نوفمبر يومَ حداد وطني عام.

وإذا أخذنا بعين الإعتبار كل الأشياء والأمور المعرضة للخطر فإن رد الفعل السوري كان قليل الحدّة. ولعل الأسد كان يأمل بأن يتفادى القطيعة الكاملة مع مصر، التي كانت ستعرّضه للإنكشاف للخطر بصورة متزايدة. وحتى بعد زيارة السادات للقدس فقد أنكر الأسد وقوع «طلاق» بين سوريا ومصر،

آملاً باحتمال ضئيل هو أن يدفع بخل إسرائيل السادات إلى الإبتعاد عنها والعودة إلى الصف العربي.

وفيما بعد، عندما اتضح أن تشاؤم الأسد كان أقرب إلى الواقعية من آمال السادات قال الناس عموماً إن السادات قد استمر في متابعة خطّه الشخصي بعناد وبدون دعم شعبيّ. وفي الواقع فإن أسلوبه الدبلوماسي كان من صنعه وحده بلا شك. إلاّ أنه كان يعكس بعدة طرق، وبإخلاص، الهموم والمظالم والتطلعات الوطنية المتواجدة في أذهان كثير من المصريين فقد كانوا يعتقدون بأن الحركة باتجاه السلام مع إسرائيل لم تكن تراجعاً نحو العزلة، بل على العكس، تأكيداً للزعامة المصرية فقد كان السادات مصمماً على أن يتزعم العرب في السلم كما في الحرب، معتقداً بأنه حيثما يشق طريقاً، فإن على الآخرين أن يتبعوه. وكان الشعور المعادي لسوريا قوياً في مصر، فلقد أصيب السادات بجرح في الصميم من إتهامات الأسد له بالخيانة بعد حرب تشرين، وكان لديه سلسلة كاملة من الشكاوى ضد حزب البعث يرجع بعضها إلى أيام الوحدة غير السعيدة، ولذلك كان السادات تواقاً إلى أن يوقف دمشق عند حدها وقد أعطى دليلاً على إتجاه تفكيره هذا عندما حثَّ هيرمان إيليتس، سفير الولايات المتحدة في القاهرة، على تذكير الأسد بأن القاهرة هي عاصمة العالم العربي. ورأى السادات أنه، بخروجه من إطار جنيف على ذلك النحو الإنفجاري، كان يحرر نفسه من القيود السورية الكريهة التي يمقتها.

في الأيام الأخيرة من تشرين الأول/ أكتوبر (١٩٧٧) كتب كارتر رسالتين إلى السادات إعترف فيهما بأنه لم يستطع أن يجعل جميع الأطراف توافق على إجراءات مؤتمر جنيف كما وردت في ورقة العمل الأميركية ـ الإسرائيلية ـ وكان يقصد سوريا بشكل أساسي. واقترح أن تشترك أميركا مع الإتحاد السوفياتي في دعوة الأمين العام للأمم المتحدة إلى عقد المؤتمر، معتمداً على السوفيات في جلب الأسد معهم. وبالنسبة للسادات كان هذا يعني إعطاء الأسد نوعاً من التأثير

على خططه الدبلوماسية ولعل رسالتي كارتر قد عجّلتا بجعل السادات يتخذ قراره بتجاوز جنيف. ذلك أن الأسد كان ـ كما قال السعوديون لواشنطن في ٢٨/ تشرين الأول/ (١٩٧٧) ـ على وشك الموافقة على حضور المؤتمر إذا وضع رئيسا (أميركا والإتحاد السوفياتي) الحقوق الفلسطينية والإنسحاب الإسرائيلي على جدول أعماله[٣٢].

ولم تكن سوريا هي بعبع السادات الوحيد، بل إنه كان ـ شأنه شأن كثيز من المصريين ـ يحقد على أثرياء الخليج الذين كانوا مدينين بملياراتهم النفطية لتضحيات مصر في حرب تشرين، ومع ذلك فقد كانوا شديدي التمنع عن إشراك أحد معهم في ثروتهم تلك. وفي إحدى رحلاته لجمع الأموال من الخليج سمع السادات بأذنه أحدهم يقول: «ها قد جاء الشحّاذ» فكان وقع ذلك مهيناً جداً. وفي كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٧٧، بعد أن هزّت القاهرة مظاهرات الإحتجاج حول رفع أسعار بعض المواد الغذائية، قَدَّم وفد سعودي عالي المستوى وعوداً بمساعدات مالية ضخمة، غير أنها لم تَرْقَ إلى مستوى توقعات السادات. وكانت هذه كلها أسباباً للخروج من حلقة الحرب والفقر المفرغة. وبسبب الحاجة الإقتصادية خضع السادات لإغراء فكرة الإعتراف من الثروة الأميركية في «مشروع مارشال» مصري. وهي فكرة كان كيسنجر أول من زرعها في رأس السادات[٣٣].

ومهما كان الوزن الحقيقي المضبوط لكل دافع من دوافع السادات، فإن رأي الأسد بعد ذلك كان أنَّ السادات قد دمّر فرص التوصل إلى تسوية شاملة في جنيف عندما بدأ يتصرف وحده بشكل منفرد. فإزدادت لهجته تصلباً ضد الزعيم المصري، وأخذت أجهزة الإعلام السورية تقارن السادات بالمتعاونين مع النازية من أمثال كويز لينغ وبيتان، وتصف زيارته للقدس بأنها خيانة واستسلام. وهكذا فإن الخيط الذي إنقطع خلال المواجهة في دمشق في تشرين الثاني سنة ١٩٧٧، لم يتصل أبداً بعدها.

إتفاقيات كامب ديفيد

مضت شهور عشرة قبل أن يضع بيغن والسادات وكارتر تواقيعهم على إتفاقيات كامب ديفيد في أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٧٨ ثم ستة أشهر أخرى قبل التوقيع على إتفاقية السلام المصرية ـ الإسرائيلية في ٢٦/ آذار/ مارس سنة ١٩٧٩ . فهذا هو الوقت الذي استغرقه مناحيم بيغن لإخضاع السادات وكارتر لإرادته.

ولكي تنجح إسرائيل في مخططاتها كان عليها أولاً أن تقوم «بتنجير» تدريجي يخفض من التوقعات التي عبر عنها السادات في خطابه في الكنيست في ٢٠/ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٧، حيث عرض على إسرائيل السلام، والأمن، وعلاقات طبيعية مع جيرانها، وأي ضمانات دولية تختارها، شريطة أن تنسحب من الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ وتسمح للفلسطينيين بإقامة دولتهم الخاصة بهم. ولم تعش هذه الشروط لتبقى بعد تلك الشهور من المفاوضات المضنية.

كما أن طموحات كارتر الكبرى قد أصيبت هي الأخرى بخيبة أمل. فقد أراد أن يكون مهندس تسوية شاملة، غير أنه وجد نفسه ينفّذ ما أصبح عندئذٍ مخطط بيغن. فبعد شهرين إثنين فقط من زيارة السادات للقدس بدأ كارتر يروّج لعقد معاهدة مصرية ـ إسرائيلية لا ترتبط بالمشكلة الفلسطينية إلّا بصورة مهلهلة فضفاضة تفسح المجال لتأويلات مختلفة. أما الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية فقد حذف من جدول الأعمال وأما سوريا فلم تعد شريكاً ضرورياً في العملية، وأما الإتحاد السوفياتي فقد تم تجاهله.

وكان هذا الإنقلاب الإستثنائي الملفت للنظر في السياسة عائداً إلى رفض بيغن الصارم لأن يتزحزح قيد أنملة من الضفة الغربية، ولتزعزع إلتزام السادات بالقضية الفلسطينية وبالسوريين، وضعف كارتر محلياً في مواجهة أصدقاء إسرائيل، وحاجة الإدارة الأميركية المرهَقَة إلى إنجاز إتفاقية من نوع ما. وفي

نهاية المطاف قبلت واشنطن الرأي الإسرائيلي القائل بأن اتفاقية سلام مصرية ـ إسرائيلية تجعل خطر الحرب غير وارد وأنها لذلك في مصلحة أميركا.

إن تخفيض عملية السلام من أهدافها الأصلية المتعددة الأطراف إلى محصلتها الثنائية كان مخططاً ذا مرحلتين أشرف دايان على الأولى وبيغن على الثانية. كان الإنجاز الذي حققه دايان هو إبعاد مصر وفصلها عن سوريا بمغازلته السادات سراً، ثم جاء دور بيغن لينجز فصم مصر عن الضفة الغربية، وهو هدف حققه في كامب ديفيد باستغلال سمعته المخيفة. فعندما بدأت المناقشات تركز على مستقبل الضفة الغربية ألقى خطاباً عاطفياً مسهباً قال فيه: «أنا ـ مناحيم بيغن، القيّم الوكيل على أربعة آلاف عام من التاريخ اليهودي، لا أستطيع أن أكون الشخص الذي يتخلى عن المطلب التاريخي في أرض التوراة» ولكنه أضاف مخاطباً سيروس فانس سراً: «لن أكون رئيساً للوزراء بعد خمس سنوات من الآن» ـ ملمحاً بذلك إلى إمكانية تحقيق مزيد من التقدم بعد ذهابه وبهذه الخدعة كسب بيغن موافقة كل من كارتر والسادات على تأجيل البت في مسألة السيادة النهائية على الضفة الغربية إلى ما بعد فترة إنتقالية يتمتع الفلسطينيون خلالها بنوع من الحكم الذاتي المحدود. وبذلك تمكن بيغن من فك إرتباط مصير الضفة الغربية بالاتفاقية المصرية ـ الإسرائيلية[٣٤].

وفي النهاية وافق السادات على سلام قائم على أساس إتفاقيتين بلا رابط رسمي بينهما كانت إحداهما صفقة ثنائية تماماً وتنص على إعادة الأراضي المصرية وحدها وكانت الثانية مجموعة من المواد الغامضة المتعلقة بالحكم الذاتي للفلسطينيين. ومن البداية كان بيغن ينوي التخلي عن سيناء ليحصل على تفويض مطلق ـ على بياض ـ للتصرف بالضفة الغربية. وكان ذلك هو ما حصل عليه فعلاً، تحت غطاء مقترحاته الفضفاضة حول الحكم الذاتي للفلسطينيين.

ثم أن مفاوضات كامب ديفيد ـ التي استمرت من ٦ إلى ١٧/ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٧٨ ـ قد انتهت بضربة مفاجئة أخرى لصالح بيغن ـ فقد حدث

إضطراب وتشوش بشأن المستوطنات في الأراضي المحتلة[٣٥] إذ ظن كارتر أنه قد حصل من بيغن على تعهد بتجميدها إلى أن تنتهي المفاوضات حول الحكم الذاتي للضفة الغربية، وبهذا التوكيد أقنع السادات بالموافقة على الإتفاقيتين. ولكن لم يكن هناك تعهد خطيّ مكتوب من بيغن ليدعم ما فهمه كارتر. وبدلاً من ذلك زعم بيغن أنه لم يوافق إلاّ على تجميد لا يتعدى ثلاثة أشهر، وعندئذ وقعت على كاهل السفير هيرمان إيلتس المهمة البائسة لإخبار السادات بأن «سوء تفاهم» قد حصل حول المستوطنات. فرد السادات بعبوس مكفهر: «إنك تعيدني إلى بلادي عارياً»[٣٦]. ولقد توقع عبد الحليم خدام، وزير الخارجية السوري، بأن كامب ديفيد ستكون «آخر رقصة عارية تفقد السادات ورقة التين»[٣٧]. وحقيقة كون كارتر قد إختار أن لا يواجه بيغن حول هذه القضية الدقيقة الحساسة، بل ترك النسخة الإسرائيلية هي الثابتة، كانت أوضح دليل على التفوق والسيطرة اللذين حققهما بيغن على شريكيه في تلك المفاوضات.

النفور

بعد أسبوع من كامب ديفيد قام سيروس فانس بزيارة الأسد في دمشق لتوديعه وداعاً حزيناً ولكنه مؤدب وكيّس. . كان نوعاً من الافتراق بين سوريا والولايات المتحدة. ولقد كان كيسنجر قد زار الأسد من قبل في ظروف مماثلة بعد إتفاقية سيناء الثانية. غير أن المناسبة كانت مؤلمة أكثر لفانس، المحامي المستنير الليبرالي ذي الآراء المتحررة الذي كان يأمل فعلاً بتحقيق تسوية شاملة ولقد أحبّ فانس الأسد واعتبره واحداً من أذكى الزعماء العرب ولكنه كان يعلم أن الولايات المتحدة لم تحقق لسوريا أي شيء. وقال فانس فيما بعد: «أذكر أن الأسد قال لي ما معناه أنه قد ملّ، وأنه سيجلس جانباً ويراقب الأحداث، فإن تغيرت الظروف فإنه لن يتردد في تغيير موقفه، رغم أنه سيظل دائماً ـ كما كان في الماضي ـ متبعاً المصالح العليا لسوريا»[٣٨].

ولقد عانى الأسد كثيراً من خيبات الأمل المتكررة على يد الولايات

المتحدة. غير أن خيانة كارتر كانت كما يراها مؤلمة بشكل خاص، لأنه كان يتوقع الكثير من الإدارة الجديدة. ورغم أنه ظل محتفظاً بقناة إتصال مفتوحة مع واشنطن فإن نفوره من الولايات المتحدة قد أصبح كلياً تقريباً لأنه شعر بأن مصالحه الحيوية لم يتم تجاهلها فحسب، بل تم الافتئات عليها والانتقاص منها عمداً، فلم يقم قط بزيارة الولايات المتحدة، ولم يتخلص من التشكك العميق وعدم الثقة بنوايا أميركا إزاءه. ورغم ذلك فخلال رحلته إلى كوبا لحضور مؤتمر قمة عدم الإنحياز في أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٧٩ دخلت طائرته المجال الجوي الأميركي خطأ، فوجد نفسه مضطراً إلى إرسال برقية تحية لمجاملة جيمي كارتر.

بيد أن نفور الأسد من مصر كان أعمق. ذلك أنه عندما تسلم السلطة اشترك مع مصر لانتزاع الأراضي المحتلة من إسرائيل وفشل في ذلك. فظلت سيطرة إسرائيل على الجولان والضفة الغربية محكمة أكثر من ذي قبل. أما مصر التي كانت شريكته في الحرب، فقد أصبحت شريكة إسرائيل في السلام وأما نضاله للإحتفاظ بالسادات في الصف العربي فقد ذهب أدراج الرياح، وأما المحور المصري السوري الذي كان العمود الفقري للقوة العربية فقد إنكسر. وكان ذلك كله شاقاً عليه كبعثي، وكقومي عربي، وكسوري. كانت تلك اللحظات حالكة دامسة.

إلى أي حدٍ كان الأسد نفسه مسؤولاً عما حدث؟ أكان من الممكن أن تكون الأمور على غير هذه الشاكلة؟ أكان من الممكن الإحتفاظ بالسادات في الصف العربي بمزيد من الكياسة والحساسية والمراعاة؟ ليس هناك دليل يشير إلى أن الأسد قد طرح على نفسه مثل هذه الأسئلة. لعله كان هناك ما يمنع إمكانية التوفيق بين الإحتفاظ بمصر كشريك، والتصميم على جعل دمشق مركز قوة إقليمية بحد ذاتها. لقد أعطى الأسد سوريا قوة وأهمية لم تكونا لها من قبل. أعطاها الإرادة والوسيلة لممارسة نفوذ يتجاوز حدودها، وبذلك أصبحت منافسة لمصر التي كانت قد تعودت على البروز والزعامة في الشؤون العربية رغم أن

الحروب قد أضعفتها وخيبت آمالها. ولذلك فلعله كان من المحتوم أن يتخاصم الأسد والسادات ويفترقا.

البحث عن عون

أدت إتصالات السادات بإسرائيل من عام ١٩٧٧ إلى حين توقيع إتفاقية السلام معها في آذار/ مارس سنة ١٩٧٩ إلى تعريض الأسد لخطرين واضحين متميزين: التدمير المادي عن طريق هجوم إسرائيلي مباغت، أو التدمير السياسي - عن طريق تهميش سوريا، وحتى سقوطه - إذا قيض السادات أن يجتذب دولاً عربية أخرى لترسّم خطاه - ولذلك فإن أولويات الأسد الملحة المباشرة كانت أولاً: الحماية العسكرية وثانياً عزل مصر لمنع «الإستسلام» العام الذي كان يخشاه.

ومن بين الأقطار العربية كان العراق يبدو هو الوزن العسكري الممكن الوحيد إزاء إسرائيل. ومما يوضح مدى حاجة الأسد أنه - برغم أن السيوف كانت مسلولةً بينه وبين الزعماء العراقيين - قد ناشدهم أن يدفنوا الخلافات «لنواجه مسؤولياتنا القومية»[٣٩]، وذلك في ٢٠/ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٧ - أي في يوم إلقاء السادات خطابه في الكنيست. وكان نداؤه هذا لافتاً للنظر أكثر لأنه جاء في وسط فوضى المؤامرات المتبادلة وإغلاق الحدود مع العراق، والإنفجارات في عاصمتي البلدين. وقبل ذلك بشهرٍ فقط، في ٢٥/ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٧٧ كان وزير خارجية الأسد خدام قد نجا بأعجوبة من الموت على يد فلسطيني موالٍ للعراق في أبو ظبي. ولكن العراق أعار مناشدات الأسد أذناً صمّاء، ولا شك في أنه كان مبتهجاً للمصاعب التي يكابدها الأسد، وهكذا فلم تكن هناك مساعدة يمكن الحصول عليها من تلك الجهة.

وعندئذٍ قام الأسد بجمع ما بقي له من الأصدقاء العرب في جبهة ذات اسم طنان هي «جبهة الصمود والتصدي» التي اجتمعت في عاصمة القذافي -

طرابلس في ٥ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٧٧ لإدانة السادات. ولكن الجبهة لم تقدم له شيئاً مريحاً في الحقيقة. فالجزائر أكبر أعضاء تلك الجبهة كانت عندئذٍ مشتبكة في صراع مع المغرب حول الصحراءالغربية. أما جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية فقد كانت ضعيفة وبعيدة، وأما منظمة عرفات ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ فقد كانت خصماً بقدر ما هي شريك، بينما كانت ليبيا غريبة الأطوار وشديدة الرفض أكثر مما يمكن أن يستسيغه ذوق الأسد المعتدل المتّزن. وكان ذلك كله مجرد ملاكمة وهمية تفتقر إلى المحتوى المادي الحقيقي.

وأصبح الأسد يشعر بأن الإتحاد السوفياتي وحده يستطيع حمايته من ضربة إسرائيلية محتملة بقصد القضاء عليه. ولكن من سوء الطالع أن علاقاته مع الإتحاد السوفياتي كان ينقصها الكثير. كما أن تحول مصر من الشرق إلى الغرب، وحرمانه موسكو من موطىء قدم إستراتيجي وعزلها عن دبلوماسية السلام قد جعل الروس يتشككون في صداقة العرب. ثم أنهم لم يكونوا قد غفروا بعد للأسد تدخله في لبنان سنة ١٩٧٦ عندما هزَمَ أصدقاءهم اليساريين. وكانوا قد عبروا عن سخطهم آنذاك برفض تقديم الذخيرة للتعويض عن الذخائر التي استهلكت في تلك الحملة، وبالتباطؤ في إرسال شحنات الأسلحة الجديدة. أما الآن (سنة ١٩٧٨) فقد كان الأسد بحاجة ماسة للأسلحة أكثر من أي وقت منذ حرب ١٩٧٣. ولذا فقد كان عبد الحليم خدام في موقف الضعيف المتوسل عندما هرع إلى موسكو بعد أسبوع من ظهور السادات في الكنيست، وتبعه إلى موسكو رئيس الأركان حكمت الشهابي بعد شهر واحد. ثم ذهب الأسد نفسه في شباط/ فبراير سنة ١٩٧٨ ليقدم طلباً للحصول على دبابات جديدة وطائرات وخصوصاً على نظام دفاع جوي. وكان راضياً عن الإشارة التي وردت في البيان الختامي عن «رفع مستوى قدرات سوريا الدفاعية[٤٠]» ولكن تنفيذ هذا التعهد كان بطيئاً بشكل مؤلم.

وكان واضحاً أن جهداً كبيراً قد بُذِلَ لإقناع السوفيات بأن الأسد يستحق الإنتشال. كانوا بحاجة إلى دليل مادي وفي حزيران/ يونيو سنة ١٩٧٨ سمح لقطع من الأسطول السوفياتي بزيارة مرفأ اللاذقية، وهذا تسهيل كان قد حرمهم منه بعد الشجار معهم حول لبنان. ولكن الأمر قُدِّر له أن يحتاج إلى زيارتين لموسكو من قبل الشهابي، وزيارة أخرى من قبل الأسد، في تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٧٨، وتذمرات سورية علنية تشكو من تباطوء السوفيات، وزيارة استغرقت خمسة أيام من قبل وزير الدفاع طلاس في كانون الثاني سنة ١٩٧٩، وأخيراً زيارة إلى دمشق من قبل وزير الخارجية السوفياتي غروميكو في ٢٦/ آذار/ مارس سنة ١٩٧٩ ـ وهو يوم توقيع المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية ـ قبل أن يلقي السوفيات بثقلهم خلف الجهد الدفاعي السوري. وهكذا فبينما اقتلع بيغن أنياب السادات، أمضى الأسد ستة عشر شهراً مريرة كأنها خرط القتاد، من تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٧ إلى آذار/ مارس سنة ١٩٧٩ وهو يناشد الإتحاد السوفياتي أن يقدم له الحد الأدنى الكافي لردع إسرائيل.

خلال هذه الشهور جاءت لحظة الخطر الأقصى عندما قامت إسرائيل بغزو لبنان في آذار/ مارس سنة ١٩٧٨ فاستولت على جنوب لبنان كله حتى نهر الليطاني، وجعلت الناس يتجهون مذعورين إلى الشمال. وقد صُوِّرتْ «عملية الليطاني» بأنها ردّ على خطف الفلسطينيين لحافلة إسرائيلية على الساحل جنوبي حيفا في ١١/ آذار عندما قُتِلَ أكثر من ثلاثين مدنياً إسرائيلياً في أثناء إطلاق النار العشوائي عند اقتحام الباص. ولكن الغزو الاسرائيلي في حجمه وعواقبه التدميرية قد جعل حادثة الباص التي استفزته تبدو شيئاً بسيطاً ضئيلاً بالقياس له. فقد قتل أكثر من ألفي لبناني وفلسطيني وشرد عدد من الناس يقدر بمائتي ألف شخص من منازلهم وغضب كارتر مما رآه من عنف إسرائيل غير المتناسب مع حجم الإستفزاز فأمر بيغن بأن يسحب قواته، وقدم دعماً أميركياً لإرسال قوة دولية على وجه السرعة (وهي التي عرفت باسم اليونيفيل إختصاراً

لاسمها: قوة الأمم المتحدة المؤقتة في جنوب لبنان) كعازل في جنوب لبنان بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية وبعد ثلاثة أشهر إنسحب الإسرائيليون فعلاً، ولكن بعد إقامة منطقة عازلة رسموها بأنفسهم على طول حدودهم بإمرة عميل لهم هو الرائد سعد حداد، وتوسيع إتصالاتهم كثيراً بموارنة جبل لبنان في الشمال. وتدفقت الأسلحة الإسرائيلية على ميناء جونية اللبناني وتوثقت علاقات إسرائيل بقائد الميليشيا المارونية الصاعد بشير الجميّل.

وخشي الأسد أن تكون عملية الليطاني الإسرائيلية هي التمهيد لهجوم على سوريا نفسها. وكان لديه حوالي ٣٠٠٠٠ جندي في لبنان، ولكنه لم يكن في حالة تمكنه من تحدي الغزاة. وفي لبنان انغمس بعض جنوده الذين واجهوا مجتمعاً فوضوياً بشكل متزايد، في التهريب وأنواع سوء سلوك اخرى. وكانت جبهته في الجولان خاوية، ورجاله قليلي التجهيز والعتاد، ودفاعاته الجوية ضئيلة بحيث يمكن إغفالها من الحساب، وقوته الجوية غير متكافئة مع القوة الجوية الإسرائيلية. وكان الأخطر من ذلك أن القوات السورية في عام ١٩٧٨ كانت تصطدم بعنف مع الميلشيات المسيحية التابعة للجبهة اللبنانية التي تسلحها إسرائيل فلم يكن الأسد قادراً على المغامرة بصراع شامل عام، وهكذا بقي خارج القتال وكلفه ذلك غالياً على الصعيد السياسي. وبدلاً من ذلك ركز على الدفاع عن مداخل دمشق ومشارفها التي كانت هامة لأمنه، أي وادي البقاع الذي يبدو الآن أكثر من أي وقت مضى كخط سوريا الدفاعي المتقدم. على أن تجربة السلبية كانت مذلّة، وكانت تذكيراً بالميزة التي تتمتع بها إسرائيل ضده في لبنان.

المصالحة مع العراق

كانت إتفاقيات كامب ديفيد تهدد سوريا والعراق معاً بالعزلة فيما لو نجح السادات في جرّ بقية العالم العربي وراءه. وفي مواجهة هذا الخطر المشترك

ضم البلدان قواهما إلى بعضها البعض لمنع السعودية والأردن من الإشتراك في عملية السلام وهكذا غيّر العراق سياسته السابقة التي كانت تهاجم الأسد بعنف، وناشد الأسد في ١/ تشرين الأول/ اكتوبر أن يحضر مؤتمر قمة في بغداد لتقرير ما يجب عمله تجاه مصر.

وتبع ذلك حوار حذر، وجاء إلى دمشق مرتين طارق عزيز العضو البارز في مجلس قيادة الثورة في العراق، بهدف إعادة الحرارة إلى العلاقات بين جناحي حزب البعث المتصارعين وكان طارق عزيز معروفاً جيداً في سوريا التي لجأ إليها بعد سقوط البعث العراقي في عام ١٩٦٣، وعمل في جريدة البعث. وفي غداء أقامه له البعثي القديم منصور الأطرش بدا وكأن الصدع الدامي الذي حدث في الحزب سنة ١٩٦٦ يمكن أن يتم رأبه. وكان مصطفى طلاس؛ مساعد الأسد المخلص، حاضراً، وكذلك أحمد إسكندر أحمد، وزير الإعلام النشيط الحركة[٤١]. وتم الاتفاق على هدنة بين النظامين الذين كان كل منهما يكره الآخر طيلة عقد من الزمن أو يزيد.

وتم وضع الختم على هذا الإنفراج من قبل الأسد نفسه في زيارة إلى بغداد استغرقت ثلاثة أيام فيما بين ٢٤، و ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٧٨، عندما تصالح مع الرئيس أحمد حسن البكر ومع نجم العراق الصاعد آنذاك، صدام حسين وفي إجتماع الأعداء القدامى هذا استعرضت المبادىء والشعارات القومية البعثية، وتم توقيع «ميثاق العمل القومي» الذي امتدحوه بوصفه «تطوراً نوعياً هاماً في العلاقة بين البلدين» ـ وكان ذلك تلطيفاً لوصف حالة وضع حدٍ للتآمر والقتل. إن الرجال عندما يشربون من الينبوع العقائدي نفسه يتحدثون بنفس اللغة المشتركة التي قد تتحول إلى نوع من النفاق المتظاهر بالتقوى. قال الأسد لمضيفيه: «أفضل أن أكون جندياً عادياً بسيطاً في وطن عربي موحد، على أن أكون جنرالاً في دولة إنفصالية» «يا إخوتي، ليست لدي طموحات شخصية لأحققها. ولا فرق عندي إن كانت عاصمتنا البصرة أو

الموصل أو حمص» ولكنه أضاف كلمة تحذير: «إن الطريق إلى الوحدة بيننا ليس مفروشاً بالزهور»(٤٢).

وفي غضون أسبوع واحد بعد ذلك عاد الأسد إلى العراق لحضور مؤتمر القمة الذي دُعِيَ للإنعقاد في بغداد من أجل إدانة السادات (في الفترة من ٢ إلى ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٨) وحضرته كل الدول الأعضاء في الجامعة العربية وكتحذير للسادات كي لا يتمادى في خطه تم الإتفاق على فرض عقوبات في حالة توقيع مصر لإتفاقية سلام. وفي غضون ذلك إتفق المؤتمرون على إيقاف إجتماعات مجلس الجامعة في القاهرة وأسسوا صندوقاً لدعم دول المواجهة، فوعدوا بتقديم ١,٨ مليار دولار لسوريا سنوياً لمدة عشر سنوات، وبتقديم ١,٢ مليار دولار للأردن، و ١٥٠ مليون دولار لمنظمة التحرير الفلسطينية، و ١٥٠ مليوناً أخرى لعرب الأراضي المحتلة و ١٠٠ مليون للبنان. وهي وعود لم يتم الوفاء بها إلا جزئياً، وأدت فيما بعد إلى كثير من المشاحنات. وفي محاولة أخيرة لسحب مصر بعيداً عن حافة الهوة أرسلوا وفداً إلى القاهرة ليعرض على السادات مبلغ خمسة مليارات دولار سنوياً لمدة عشر سنوات، أو هكذا أشيع، إذا تخلى عن كامب ديفيد فرفض السادات أن يستقبل المبعوثين.

وأدت المصالحة بين العراق وسوريا إلى جعل المخططين الإسرائيليين يشرعون في إحصاء قوة الدبابات السورية والعراقية. غير أنه لم تكن بهم حاجة لأن يقلقوا، لأن الإنجاز الكبير الذي حققه الأسد وصدام حسين من تحالفهما كان إرغام السعوديين على الإصطفاف خلفهما رغم أن السعوديين كانوا في السر مترددين محجمين عن إنتقاد مصر أو معاداة واشنطن. لقد تم تطويق كامب ديفيد ومنع السادات من لعب دور المستقطب المغوي للآخرين لينهجوا نهجه كما كان يحلم. وعندما وقع إتفاقيته المنفصلة مع إسرائيل في ٢٦/ آذار/ مارس سنة ١٩٧٩ عوقب على الفور، فقطع العرب علاقاتهم معه، وطردوا مصر من الجامعة العربية وتم إخراج مقر الجامعة العربية من القاهرة التي بقيت فيها منذ

تأسيسها عام ١٩٤٥. وبعد ذلك بفترة قصيرة علقت عضوية مصر في منظمة المؤتمر الإسلامي. لقد أصبح السادات منبوذاً.

أما التحالف السوري ـ العراقي التكتيكي الذي تم من أجل الحصول على هذه النتائج، فقد عاش بعدها بضعة أسابيع أخرى. وفي كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٧٩ قام صدام حسين بزيارة دمشق، وردّ الأسد بزيارة بغداد في حزيران، غير أن العلاقات بعد ذلك مباشرة عادت إلى سيرتها المألوفة القديمة من التآمر والتخريب.

كشف الحساب

أحدثت كامب ديفيد ومعاهدة السلام تحولاً في بيئة إسرائيل الإستراتيجية. كانت إسرائيل دائماً أكثر من كفؤ لمواجهة العرب كلهم مجتمعين، فقامت بتحييد أكبر وأقوى دولة عربية، وبذلك أصبح من المستحيل تحدّيها تماماً. وإذْ تحررت من التهديد بحرب على جبهتين، لم تعد تواجه أي ضغط لحلّ المشكلة الفلسطينية، ولا للإهتمام بالضجيج الغاضب الصادر عن سوريا وغيرها من الدول العربية. أما أولئك الذين اعتبروا السلام بين مصر وإسرائيل إنجازاً خارقاً يرحب به فإن مخاوف الأسد لم تكن مفهومة لديهم ـ هكذا ببساطة وبدلاً من أن يقوم كارتر بتصحيح عمل كيسنجر، إنتهى به الأمر إلى أن أكمله. ومثلما كلفت إتفاقية سيناء الثانية دافع الضرائب الأميركي مليارات الدولارات، تعهد كارتر كذلك بدفع المزيد من تلك المليارات لضمان اتفاقية السلام، أي أنه دفع لإسرائيل ثمناً لما كانت إسرائيل نفسها تستميت لعمله على أية حال. ولخص السياسي الأميركي القديم جورج بول ذلك الوضع بقوله متهكماً ساخراً: «لقد اشترينا رمال سيناء من إسرائيل بثمن فادح، ثم دفعنا لمصر ثمناً باهظاً لتستعيد تلك الرمال[٤٣]». وكان هناك عجز عن الفهم كيف أن تحقيق الأهداف الإسرائيلية منذ حرب تشرين بمساعدة كيسنجر وموافقة كارتر، قد أدى إلى تحطيم النظام العربي، وضمن تفوق إسرائيل.

فمثلاً، بينما كانت محادثات كامب ديفيد جارية في أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٨ كان الأسد يقوم بزيارة رسمية لألمانيا الغربية؛ فانتهز فرصة مأدبة أقيمت له في بون وهاجم سياسة السادات؛ فأفزعه الرئيس والتر شيل بردٍ فوري سجل فيه عدم موافقته ، ولكن عدم الفهم هذا لم يكن قاصراً على الغرب. فلقد ساد بين العرب شيء كثير من الفوضى والبلبلة حول مغزى مبادرة السادات. كان السادات حريصاً على جذب السعوديين إلى صفه، فأرسل أشرف مروان ليشرح للملك خالد أسباب ذهابه إلى القدس. ولدهشة المبعوث المصري، بدا الملك المتدين غير مهتم بالعواقب السياسية والإستراتيجية وكانت إعتراضاته دينية فقط: «لماذا اضطر السادات للذهاب إلى بيت المقدس؟ كان يمكنه أن يلتقي ببيغن في أي مكان آخر في العالم. ولماذا ذهب في عيد الأضحى عندما يتجه جميع المسلمين الصالحين بأفكارهم إلى مكة؟»(٤٤).

وبمرور الوقت أصبح واضحاً للعيان أن رحلة السادات إلى القدس كانت أقلّ من «حدث تاريخي خارق نحو السلام»، بل كانت تصديعاً لعملية السلام لم يتم إصلاحه حتى بعد مرور أكثر من عشر سنوات.

هوامش الفصل الثامن عشر

(١) وليام ب. كوانت: كامب ديفيد: صناعة السلام والسياسة (طبع واشنطن ١٩٨٦)، ص ٣١.

(٢): ملخص الإذاعات العالمية المسجل لدى محطة الإذاعة البريطانية (الشرق الأوسط: الكراس رقم ٥٣٥٧ عن ١٩٧٦/١١/٦).

(٣) سيروس فانس: **الخيارات الصعبة** (طبع نيويورك ١٩٨٣) ص ٢٣ وكذلك مقابلة أجراها المؤلف مع فانس بنيويورك في ١٩٨٧/٧/٣١.

(٤): زبغنيو بريجنسكي: **القوة والمبدأ** (لندن سنة ١٩٨٣) ص ٨٥.

(٥): مؤسسة بروكينغز: **نحو السلام في الشرق الأوسط** (طبع واشنطن ١٩٧٥).

(٦): كوانت: (مصدر سبق ذكره) ص١٦١.

(٧): فانس: (مصدر سبق ذكره) ص ١٨٦.

(٨): جيمي كارتر: **الإحتفاظ بالإيمان** (لندن سنة ١٩٨٢)، ص ٢٨٠.

(٩): رابين (مصدر سبق ذكره)، ص ٢٣٤.

(١٠) مقابلة مع د. أديب الداودي، مستشار الرئيس، بجنيف في ١٩٨٤/١١/٢.

(١١) كان يرافق كارتر كل من فانس، وبريجنسكي ووليام ب كوانت (الخبير في شؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي الأميركي) وريتشارد مورفي (السفير الأميركي في سوريا) وعيسى صباغ (كمترجم) وكان الوفد المرافق للأسد يضم عبد الحليم خدام، وعبد الله الخاني (معاون وزير الخارجية وأديب الداودي (مستشار الرئيس) وصباح قباني (السفير السوري في واشنطن) وأسعد كامل إلياس (كمترجم). وهذه الرواية عن الاجتماع مبنية على السجل الرسمي للمحادثات في آرشيف القصر الجمهوري السوري، وعلى مقابلات مع كل من د. أديب الداودي في جنيف في ١٩٨٤/١١/٢ و د. صباح قباني في لندن في ١٩٨٧/٢/١٥ وأسعد كامل إلياس بدمشق في ١٩٨٤/٨/١١ ووليام كوانت في واشنطن في ١٩٨٦/٩/٢٦. وانظر أيضاً كتابي كارتر **الإحتفاظ بالإيمان** ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦، ودم إبراهيم (بوسطن ١٩٨٥) ص ٦٧ ـ ٧٣ وفانس (مصدر سبق ذكره) ص ١٧٦ ـ ١٧٧ وبريجنسكي (مصدر سبق ذكره) ص ٩٤ ـ ٩٥ وكوانت في كتابه **كامب ديفيد** ص ٥٦ ـ ٥٨.

(١٢) فانس (مصدر سبق ذكره) ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

(١٣) مقابلة مع تالكوت سيلي (سفير أميركا في سوريا (١٩٧٨ ـ ٨١) بواشنطن في ١٩٨٧/٧/٣٠.

(١٤) فانس (مصدر سبق ذكره) ص ١٦٣.

(١٥): مقابلة مع تالكوت سيلي في واشنطن في ١٩٨٧/٧/٣٠.

(١٦) مقابلة مع وليام ب. كوانت في واشنطن في ١٩٨٦/٩/٢٦.

(١٧) وليام كوانت: **كامب ديفيد** ص ٧٣ حاشية ٢٢.

(١٨) بريجنسكي (مصدر سبق ذكره) ص ١٠٨ - ١١٠ وكذلك كوانت: **كامب ديفيد** ص ١٢٥ - ١٣١.

(١٩) كوانت: **كامب ديفيد** ص ١٢٩، ١٣٤.

(٢٠) مقابلة مع سيروس فانس في نيويورك في ١٩٨٧/٧/٣١.

(٢١): مقابلة تالكوت سيلي بواشنطن في ١٩٨٧/٧/٣٠.

(٢٢) غابرييل بن دور: «الشرق الأوسط في عام ١٩٨١: عام من الإضطراب السياسي» في مجلة ميدل إيست كونتميوراي سرفي أي (إستطلاع الشرق الأوسط المعاصر) تحرير كولن ليغوم وحاييم شاقد ودانييل ديشون: المجلده (١٩٨٠ - ٨١) طبع نيويورك ولندن (١٩٨٢) ص ١٣.

(٢٣) إيتان هيبر وزئيف شيف وإيهود يعاري: **عام الحمامة** (نيويورك ١٩٧٩) ص ٣ - ٤، وكوانت في كتابه **كامب ديفيد** ص ١٠٩.

(٢٤) - شموئيل زيغيف: السادات: **الطريق إلى السلام** (تل أبيب سنة ١٩٧٩) ص ٥٥.

(٢٥) موشي دايان: **الإختراق**: رواية شخصية عن مفاوضات السلام المصرية - الإسرائيلية (طبع نيويورك ١٩٨١) ص ٣٨ - ٥٤.

(٢٦) مجلة تايم (عدد ٦/ آب/ أغسطس سنة ١٩٧٨).

(٢٧) مجلة إكتوبر (القاهرة) عدد ١٩٧٧/١٢/١١.

(٢٨) مقابلة مع: أُسعد كامل إلياس بدمشق في ١٩٨٤/٨/١١.

(٢٩) كريم بقرادوني: **السلام الغائب** (طبع المفقود (طبع لبنان ١٩٨٤) ص ١٢٦ - ١٢٩.

(٣٠) مقابلة مع د. أديب الداودي في جنيف في ١٩٨٤/١١/١.

(٣١) آراب وورلد آنڈ ريورت Arab World and Report (١٩٧٧) ص ٩٢٣، ٩٣٨.

(٣٢): مقابلة مع وليام كوانت في واشنطن (٢٩/ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٨٦).

(٣٣): مقابلة مع د. أشرف مروان - زوج ابنة عبد الناصر - في لندن في ٢/ حزيران/يونيو سنة ١٩٨٦.

(٣٤): مقابلة مع هارولد صوندرز في لندن في حزيران/ يونيو سنة ١٩٨٥.

(٣٥): كوانت: **كامب ديفيد** ص ٢٤٧ - ٢٥٣.

(٣٦): مقابلة مع هيرمان إيليتس بواشنطن في ١٩٨٦/٩/٢٦.

(٣٧): آراب ريبورت آند ريكورد Arab Report and Record - ١٩٧٨ - ص ٦٢٠.

(٣٨): مقابلة مع سيروس فانس في نيويورك في ١٩٨٧/٧/٣١.

(٣٩) كشف النقاب عنه الرئيس العراقي أحمد حسن البكر في رسالة إلى الزعماء العرب في ١٩٧٧/١١/٢٩ ولم تعلن إلّا في ١/ شباط/ فبرير سنة ١٩٧٨. انظر **ملخص الإذاعات العالمية في أرشيف هيئة الإذاعة البريطانية** (عن يوم ١٩٧٨/٢/٣).

(٤٠) آراب ريبورت آند ريكورد Arab Report and Record (١٩٧٨) ص ١٤١ .

(٤١): مقابلة مع منصور الأطرش بدمشق في ١٩٨٥/٥/٧ .

(٤٢): مقابلة الدكتور صابر فلحوط بدمشق في ١٩٨٥/٥/١١ .

(٤٣) جورج بول: **الماضي له نمط آخر** (طبع نيويورك ١٩٨٢) ص ٤٦٦ .

(٤٤): مقابلة مع أشرف مروان في لندن في ٢/ حزيران/ يونيو سنة ١٩٨٦ .

الفصل التاسع عشر

العدوّ الداخلي

بينما كان الأسد يواجه الإحباط في صراعه الطويل ضد إسرائيل والولايات المتحدة، انفجرت قاعدته الوطنية في وجهه في ذلك الوقت بالذات. ذلك أن سلسلة الأحداث الخارجية التي كانت بمثابة كارثة أصابته، من زيارة السادات للقدس إلى المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية، قد تصادفت مع حملة إرهاب داخلية ذات عنفوان لم يسبق له مثيل. فإبعاد مصر عن الصف العربي ترك سوريا عرضة للخطر الخارجي بشكل خاص، وفي هذه اللحظة بالذات انغمس البلد في العنف. ولذا فقد كان من المحتوم (وقد تعرض كل شيء قاتَل من أجله للخطر ـ بل تعرضت للخطر حياته نفسها ـ)، أن يرى الأسد نفسه ضحية لمؤامرة عظمى وحّد فيها أعداؤه قواهم في الداخل والخارج من أجل إسقاطه. ففي عام ١٩٧٧ كان في وضع لا يختلف عن وضع عبد الناصر في عام ١٩٦٧ . . وقد عرّي من دفاعاته، وحُصر في زاوية، يفكر باستنتاج مظلم كئيب بأن الغرب، بالتواطؤ مع إسرائيل ومع خصومه العرب، كان مصمماً على تدميره.

وقد حدث واحدٌ من أسوأ الانتهاكات في ١٦/حزيران/يونيو سنة ١٩٧٩، عندما قتل الإرهابيون أعداداً كبيرة من الطلاب ـ الضباط العلويين في مدرسة المدفعية بحلب. فقد قام أحد أعضاء التدريس، النقيب إبراهيم يوسف، بجمع

الطلاب في قاعة الطعام، ثم أدخل عليهم المسلحين الذين فتحوا عليهم النار بلا تمييز، فقتل اثنان وثلاثون شاباً على الفور، حسب التقرير الرسمي[١]، وجرح أربعة وخمسون آخرون ولكن مصادر أخرى تقول إن عدد القتلى قد وصل إلى ثلاثة وثمانين[٢]. كان ذلك إعلاناً للحرب.

كانت الحوادث الإرهابية من نوع «اضرب واهرب» قد أخذت تهزّ حياة المدن السورية بعنف منذ تدخل الأسد في لبنان في صيف عام ١٩٧٦؛ غير أنه لم يحدث شيء في حجم مذبحة حلب.. بل لقد كان النمط يأخذ شكل انفجارات عشوائية واغتيالات حيرت الرأي العام نوعاً ما لأنه لم يكن هناك أحد متأكد من هوية الذين يقفون خلف تلك الحوادث. وكان بعض ضحاياها ضباطاً بارزين وموظفين حكوميين كباراً ولكن آخرين كانوا من رجال المهن، كالأطباء والمدرسين وما شاكل ممن لم يكونوا ضالعين مع النظام ولذلك لم يكونوا محميّين، وكان معظمهم علويين، مما أشار إلى أن المغتالين كانوا يستهدفون الطائفة، ويقصدون إلى زيادة حدة الخلافات الطائفية عمداً. وقد نجحوا في ذلك. فقد أصبح كل علوي يشعر بأنه هدف محتمل، وأخذت الطائفة بأكملها ترتعش.

ومن بين الضحايا العشرين أو الثلاثين في الأعوام التي سبقت مذبحة مدرسة المدفعية كان المعروفون البارزون هم آمر حامية حماه، العقيد علي حيدر، الذي قُتل في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٦، ورئيس جامعة دمشق الدكتور محمد الفاضل، الذي قتل في شباط/فبراير سنة ١٩٧٧، وآمر فيلق الصواريخ العميد عبد الحميد رزوق الذي قتل في حزيران/يونيو سنة ١٩٧٧، والأستاذ علي بن عبد العلي من جامعة حلب الذي قتل في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٧٧، ونقيب أطباء الأسنان السوريين الدكتور إبراهيم نعامة الذي قتل في أذار/مارس سنة ١٩٧٨، ومدير شؤون الشرطة في وزارة الداخلية العقيد أحمد خليل الذي قتل في آب/أغسطس سنة ١٩٧٨، والمدعي العام في محكمة أمن

الدولة العليا عادل مينة الذي هوجم في نيسان/إبريل سنة ١٩٧٩. وفي آب/أغسطس سنة ١٩٧٩ قتل أيضاً طبيب الأسد الخاص، الدكتور محمد شحادة خليل المختص بجراحة الأعصاب. ولقد كانت صدمة جارحة للأسد أن يسقط برصاص المغتالين عدد من أفضل وألمع الرجال في المجتمع الذي كان يقيمه، وخصوصاً من المهنيين من أبناء طائفته.

الازدهـار الاقتصـادي

ولم تنشأ هذه الأحداث الإرهابية من فراغ، بل كانت أشد التعابير تطرفاً عن مرض عام راح ينتشر في المجتمع السوري عندما بدأت حركة التصحيح (التي قادها الأسد، والتي استقبلت بالترحيب والارتياح في مطلع السبعينات) تظهر ملوثة. فالازدهار الاقتصادي الذي تلا حرب تشرين لم يفقد قوة اندفاعه فحسب، بل لقد راحت تظهر فوارق جديدة تدل على عدم المساواة بشكل سافر يشبه من عدة نواح تلك الفوارق التي سعت ثورة البعث للقضاء عليها في الستينات. وبدأ عدد قليل من المحظوظين المتنفذين الواصلين إلى جهاز الحكومة يجمعون ثروات طائلة لم يعرف مثلها السوريون من قبل، وبذلك أثاروا حفيظة وغضباً لدى أولئك الذين لم يكن لهم مثل ذلك النفوذ. وامتلأت صفوف حزب البعث الحاكم، وكذلك الطبقات العليا من العسكريين وموظفي الحكومة بالمحترفين المستعجلين والباحثين عن الربح، وأخذ الناس يتذمرون من كون انشغال الأسد بالشؤون الخارجية قد أدى به إلى إهمال الساحة الداخلية وغض النظر عن إساءات بعض المرتبطين به. وكان هناك شعور بأن البطل الذي خاض حرب تشرين وخاض المعركة ضد كامب ديفيد وأعطى سوريا مكانة ذات وزن دولي قد بدأ يتجه نحو الوقوع في المتاعب.

ومع ذلك فقد حقق الكثير في الداخل خلال السبعينات وجرت في البلد تحولات حسب كل المقاييس والإحصائيات تقريباً فقد اتحد الاستقرار مع

الحرية النسبية والتدفق الواسع لرؤوس الأموال إلى البلد بعد حرب تشرين فكانت النتيجة توسعاً اقتصادياً لم يسبق له مثيل. وقبل الحرب كانت المعونة الخارجية من الدول العربية والاشتراكية بشكل أساسي لا تكاد تصل في مجموعها إلى خمسين مليون دولار في السنة؛ أما في عام ١٩٧٤ فقد قفز معدلها السنوي إلى ستمائة مليون[٣]. وكان منتجو النفط العرب هم المتبرعون الكبار، ولكن مع تنامي الثقة بسوريا جاءتها القروض والمنح من الأمم المتحدة، والبنك الدولي، وألمانيا الغربية، وفرنسا، وحتى الولايات المتحدة الأمركية. ثم إن السوريين العاملين في الأقطار العربية النفطية التي غمرتها الأموال عقب انفجار أسعار النفط، بدأوا يودعون عدة مئات من ملايين الدولارات كل عام، وبينما كانت صادرات سوريا النفطية تأتي بسبعين مليون دولار فقط في عام ١٩٧٣، فقد قفزت إلى عشرة أضعاف هذا المبلغ في عام ١٩٧٤ وزادت لأول مرة على عائدات القطن الذي كان المحصول التقليدي الذي يعود بالأموال على البلد.

ووسعت سنوات الازدهار آفاق سوريا، كما اتضح من الأهداف المتزايدة الطموح للخطط الخمسية. كانت الخطة الأولى (١٩٦١ - ١٩٦٥) مثلاً تلحظ استثمارات عامة وخاصة يصل مجموعها إلى ستمائة مليون دولار بالقطع المحلي، وزاد هذا المبلغ في الخطة الثانية (١٩٦٦ - ١٩٧٠) إلى ١,٢ مليار دولار. ولكن بعد مجيء الأسد للسلطة نصّت الخطة الثالثة (١٩٧١ - ١٩٧٥) على استثمار مليارين من الدولارات، وارتفعت في الخطة الرابعة (١٩٧٦ - ١٩٨٠) التي وضعت في فورة الازدهار إلى ١٣,٥ مليار دولار - أي ما يعادل حوالي ٥٤ مليار ليرة سورية، وهذا رقم فلكي بالمقاييس السورية، ويعكس مدى الحركة والحماسة في تلك الأيام[٤]. وقد أطلقت سنوات الرخاء حركة حيوية في المجتمع السوري جعلت البلد مكاناً مختلفاً جداً عن البلد الفقير المنطوي على نفسه، الخاضع لقيود السيطرة الذي تسلمه الأسد من صلاح جديد. وفي منتصف السبعينات كان عدد السوريين قد تضاعف عما كان عليه

عندما تخرج الأسد من الكلية الجوية قبل ذلك بعشرين عاماً، أي أن ذلك العدد قد وصل إلى ٧,٥ مليون نسمة. أما القوات المسلحة، الصخرة الأساسية لنظام الأسد، فقد ارتفع تعدادها إلى ٢٢٥,٠٠٠. ولا شك أن الأرقام الجديدة، والرفاهية الجديدة قد أسهمت في القوة التي ارتفع بها الأسد إلى مجابهة التحديات ضد السادات، وكيسنجر، ونيكسون، وكارتر.

ومع تضخم الموازنات السورية تكاثرت مشاريع التنمية وتصاعد الاستهلاك ـ على الأقل عند بعض الناس. ففي عام ١٩٦٣ كان في سوريا ٥٥ مليونيراً ـ بالليرات السورية. أمّا في عام ١٩٧٣، فقد كان عددهم ألفاً، وأصبح ٢٥٠٠ مليونير في سنة ١٩٧٦، كان عشرة بالمائة منهم يملك الواحد منهم أكثر من مائة مليون ليرة سورية (أي ما يعادل ٢٥ مليون دولار أميركي بسعر الصرف آنذاك)[٥]. وشكل أصحاب الملايين السريعة لبّ الطبقة البرجوازية الجديدة، وقد أثرى كثيرون منهم من العمولات، ومن إعادة الأموال المسلّفة لأغراض غير مشروعة، وحتى من السرقات التي أصبحت ممكنة من عشرات المشاريع ذات التمويل الحكومي. فقبل حرب تشرين كانت الحكومة والتجارة شيئين منفصلين، ربما يتفاعلان، ولكنهما لا يتداخلان ولا يخترق أحدهما الآخر. أما بعد الحرب فقد أصبح من الصعب معرفة أين ينتهي مجال عمل الحكومة ويبدأ مجال العمل التجاري. فقد تداخل الشيئان بشكل متشابك، وأصبح من المستحيل عملياً عقد صفقات من أي حجم بدون ارتباطات حكومية وحصص تعطى للموظفين. ونمت شراكات بين رجال الأعمال وبين كبار موظفي النظام العسكريين والسياسيين، ومعها تكاثرت شبكات الحماية والعلاقات الزبونية والفساد والمحسوبية. وكثيراً ما كان يحدث أن يتم تسليم المشاريع للحكومة، ودفعها وتمريرها بدون دراسة لائقة، وبذلك راح الوسطاء، وليس المخططون الحكوميون، يتحكمون بشكل الاقتصاد، وأصبح الدافع المحرك هو إغراء الربح الشخصي الخاص، وليس المصلحة العامة.

في تلك الفترة (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦) بدأ بعض المتنفذين البارزين من أمثال نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية محمد حيدر (السيد خمسة بالمائة) بتجميع ثروات طائلة. وأصبح حيدر يعتبر مثالاً نموذجياً على التحسن المذهل في أحوال العلويين نتيجة الصعود السياسي للطائفة. فلقد كانت قريته الأصلية، بيت ياخوط، في أعالي جبل العلويين، تبعد في أيام شبابه عشرة كيلومترات عن أقرب طريق معبد. وكانت وهي بلا مدرسة، ولا مستشفى، ولا سلطة حكومية، تعيش على تهريب الدخان وعلى رواتب حفنة من أبنائها المجندين في الجيش. وفي الخمسينات قام الفرع المحلي لحزب البعث فيها، والذي أصبح حيدر سكرتيره، بتسخير الشباب في عملية شق طريق يربطها بالعالم الخارجي. وصعد حيدر في صفوف الحزب وتم انتخابه لعضوية القيادتين القطرية والقومية، ثم أصبح «اللورد» المسيطر على الاقتصاد السوري طيلة عشر سنوات تقريباً، وبذلك أصبح في موقع «من بيده المغرفة»، فيستطيع أن يعتني بنفسه جيّداً، وقدوة لأقرانه الذين حذوا حذوه في الإثراء السريع.

وراح هؤلاء الأثرياء الجدد يسافرون إلى الخارج ويستكشفون العواصم الأجنبية، فاكتسبوا تذوقاً لأسباب الرغد والترف الغربي. كان ذلك هو الزمن الذي خرج فيه السوريون، ولا سيما الأقليات والطبقات المضطهدة المحرومة منهم، خارج إطار قوقعة الفقر والعزلة وضيق الأفق الريفي ليروا بأنهم وبلدهم يستطيعون الانضمام إلى العالم الحديث.

في ذلك الوقت أنشأ رفعت ـ الذي كان يرى نفسه درعاً لنظام أخيه ـ سرايا الدفاع، وحوّلها إلى أفضل وحدات الجيش السوري تسليحاً، وتدريباً، ورواتب. وفي تمويل وتسليح هذا الحرس المفضل استفاد رفعت من صداقته للأمير عبد الله بن سعود، قائد الحرس الوطني. ولم تكن القضايا العسكرية موضع اهتمامه الوحيد. ففي المؤتمر القطري الخامس للحزب في نيسان/أبريل سنة ١٩٧٥ انتُخب رفعت عضواً في القيادة القطرية وأعطيت له

مسؤولية شؤون الشباب فبدأ يدفع الشبيبة بحماس، ولا سيما العلويين منهم، إلى الاشتراك في دورات جامعية، وفي التدرب على القفز بالمظلات، سواء أكانوا شباباً أم فتيات. وإذا كان المرء شقيقاً للأسد، وتحت تصرفه ميزانية كبيرة غير خاضعة للتدقيق، ويعمل في بيئة عربية للعلاقات الشخصية فيها كل الأهمية، فمعنى ذلك أن باستطاعته أن يفعل أي شيء يشاء تقريباً. ولقد كان رفعت في بعض الأحيان فوق القانون.

ولأول مرة منذ استلام البعث للسلطة في عام ١٩٦٣، كانت المجموعة الحاكمة من الضباط والمسؤولين الحزبيين، وهم في غالبيتهم العظمى من خلفية ريفية أو من أبناء المدن الصغيرة، يقفون على أساس من الثروة الحقيقية. فلم يعودوا مجرد مجموعة انقلابية، ولا عصبة حاكمة من الضباط ذوي الأصل الفلاّحي استولوا على المدينة. فالمال، والتنمية الاقتصادية، والقائد القوي، وعملية رفع مستوى الطبقات المهملة وليس العنصر العلوي فيها فقط ـ كل ذلك بدا معززاً لنظام الأسد. فالطبقة الجديدة التي كانت في طريقها إلى التكون راحت تبني سوريا جديدة. لكنها أيضاً راحت تنغمس في ملذات المدينة المريحة، وتستمتع بالعجرفة وتسيء استعمال سلطتها الجديدة. فقبل الازدهار لم يكن أحد من هؤلاء الطالعين الجدد يملك سيارة أو يعيش في أكثر من شقة ذات غرفتين. أما في السبعينات فقد تعودوا على الثراء والفخفخة وكأنهم ولدوا في وسطها. وفي عام ١٩٦٠ كانت دمشق مدينة هادئة يقطنها ما يقرب من نصف مليون، وبحلول منتصف السبعينات تضاعف عدد سكانها ثلاث مرات وأصبحت موقع بناء يعجّ بالحركة المتنامية وينفجر عند أطرافه. وكانت فوائد الغنى والثراء قد بدأت حتى في تخفيف حدة غضب العوائل القديمة التي أزاحها إلى الهامش حديثو النعمة الثوريون الجدد. وبدا للحظة ـ وإلى أن انفجرت الأزمة اللبنانية في منتصف عام ١٩٧٦ ـ أن حكم البعث لم يتمتع باستقرار أكثر من تمتعه به في تلك الأثناء.

غير أن ظلالاً راحت تظهر في عامي ١٩٧٦ و ١٩٧٧ فتضفي على جوانب الصورة شيئاً من الاكفهرار الداكن. فقد أخذ الاقتصاد السوري يفقد زخم حركته عندما قامت السعودية ودول الخليج الأخرى بتخفيض تدفق الدولارات النفطية نزولاً عند إرادة السخط العام على هجوم الأسد على الفلسطينيين في لبنان. وكان الاحتفاظ بحامية عسكرية في الخارج عبئاً، وكذلك كانت المهمة المخيفة، وهي مهمة امتصاص مئات الألوف من اللاجئين اللبنانيين إلى سوريا، ناهيك عن المواطنين السوريين الذين كانوا يعملون في لبنان ثم هربوا من الحرب الأهلية فيها. فلم يستفد الجميع من سنوات الرخاء السمان، ثم إن الزحف الفلاحي الخشن على المدن قد أقلق الطبقات الوسطى الدنيا في تلك المدن، بينما جلب التضخم مصاعب جديدة لصغار الموظفين المدنيين والحرفيين الذين يعيشون على رواتب محدودة عيش الكفاف. وحدث ارتفاع انفجاري في كلفة المعيشة، وفي قيمة الأرض والعقارات. فالشقة الصغيرة في وسط دمشق، التي ربما كانت تكلف خمسين ألف ليرة سورية في عام ١٩٧٠ قد زاد ثمنها على سبعة أو ثمانية أضعاف هذا المبلغ بحلول عام ١٩٧٧ (وقدر لها أن تزيد عشرة أضعاف أخرى في العقد التالي من الزمن) واضطر العمال إلى العيش في غرف ضيقة في القرى الصغيرة على أطراف المدينة والتي كانت العاصمة المتوسعة باستمرار تمتصها. أما الناس الذين كان احترامهم لأنفسهم منغرساً بعمق في أحياء المدن القديمة التي لم يتغير طابع الحياة فيها طيلة أجيال عديدة فقد وجدوا أنفسهم يفقدون قيمتهم ويقتلعون من جذورهم. وهكذا راح الغضب يغلي في نفوس أبناء العوائل المرموقة التي جُرِّدت من نفوذها السياسي، والتجار الذين تفوق عليهم المال الجديد، والعوائل الدينية التي تضاءلت قيمتها وانخفضت منزلتها بفعل المناخ العلماني الذي كان سائداً آنذاك.

ولعل الأسد لم يدرك مدى عمق السخط الذي خلقته التغييرات

الدراماتيكية في تلك السنوات ولا اضطراب النظام الاجتماعي الناجم عن ثورة البعث التي رفعت بعض الناس إلى السماء وأذلت آخرين فهبطت بهم إلى الأرض. ولمعالجة موجات التذمر من الفساد وانعدام الإنصاف أعاد إلى رئاسة الوزارة في آب سنة ١٩٧٦ الإداري العسكري المحبوب اللواء عبد الرحمن خليفاوي، الذي كان أول رئيس للوزراء في عهده. غير أن ذلك لم يقلل من أصوات الشكوى التي أصبحت مسموعة بصورة متزايدة من المكاسب غير المشروعة داخل الحكومة وخارجها. فلقد بدأ المحرومون يتململون. واستجابة لذلك أعلن الأسد في آب/أغسطس سنة ١٩٧٧ تكوين «لجنة التحقيق في الكسب غير المشروع» التي بدأت بقوة بإلقاء القبض على عشرين من كبار التجار والموظفين الحكوميين، ولكنها تراجعت عندما وجدت نفسها مشتبكة مع شخصيات مقربة من النظام. فشقيق الأسد، رفعت، الذي كان مثالاً نموذجياً للإثراء الشخصي لم يكن يستطيع أن يمسّه أحد لأنه كان على قمة ذلك الهرم، ولأن سرايا دفاعه كانت تتزايد الحاجة إليها عندئذٍ في المعركة ضد الإرهابيين.

وعندما بدأت الاغتيالات ألقت الحكومة بمسؤوليتها على العراق، عدوها القديم. وهذا ادعاء بدا وكأنه يكتسب مصداقيته من حقيقة أن الهدنة التي عقدها الأسد مع بغداد في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٧ قد أعقبتها فترة ستة أشهر من الهدوء، فلم تحدث فيها اغتيالات. ولكن مذبحة حلب في حزيران/يونيو ١٩٧٩ غيّرت الصورة. فلقد أصبح واضحاً عندها أنه مهما كانت القوى الخارجية العاملة ـ ولا شك أن البلدان المجاورة قد كان لها ضلع ما ـ فإن على الأسد أن يدرك أنه كان يواجه معارضة داخلية خطرة لا تتوقف عن شيء في سبيل الإطاحة به. وبدا له من المفارقات المريرة أنه بعد أن حاول بوعي التخفيف من حدة الحرب الطبقية التي كان سابقوه يذكون نارها، وأن ينادي بالمصالحة الوطنية فقد كان عليه مع ذلك أن يتصارع مع أعداء محليين أكثر شراسة من أيٍّ من الذين واجهوا صلاح جديد. وبدا أنه مهما كانت الفوائد التي جاء بها، فإن أعداءه لن يلقوا السلاح.

وعندما أصبح العنف هماً يومياً تقريباً، شخَّصت السلطات الإرهابيين بأنهم «الإخوان المسلمون» وهذه تسمية عامة قيض للسلطات استخدامها طيلة سنوات الأزمة الخمس لتصف المعارضة الإسلامية أو التي يتصدرها الإسلام كرأس حربة والتي أبرزت نفسها في مجموعات مختلفة من مقاتلي حروب العصابات لها قادة مختلفون وتواريخ مختلفة وتعمل في أنحاء مختلفة من سوريا. كانت حركة المعارضة أوسع من مقاتلي حرب العصابات، ولكنهم كانوا هم الطرف الحادّ أو نصل التحدي الداخلي الخطير الذي واجهه الأسد من سنة ١٩٧٧ إلى سنة ١٩٨٢.

لقد اصطدم بالإخوان المسلمين من أيام شبابه، فاشتبك معهم بالأيدي في باحة المدرسة في اللاذقية. والحقيقة أن تياراً من النشاط الإسلامي المنظم قد تواجد في الحياة العامة في سوريا منذ الثلاثينات. وقد نبعت وقامت جيوب من المقاومة الإسلامية ضد الحكم الفرنسي في مدن سورية عديدة في النصف الثاني من ذلك العقد. وكان الفرنسيون بشكل أساسي هم الذين جعلوا تلك المجموعات المنعزلة تندمج في عام ١٩٣٨[٦]. بالإصرار على مناقشة التدريس الإسلامي في المدارس كموضوع مستمر، فأصبحت كلها تنظيماً وطنياً واحداً آنذاك، وأعطى هذا حافزاً لولادة تنظيم «شباب محمد»[٧].

وفي ذلك الوقت بالذات عاد الشاب السوري مصطفى السباعي إلى دمشق من دراسته في القاهرة، حيث كان قد وقع تحت سحر مؤسس الإخوان المسلمين، حسن البنا، الذي بنى من بدايات صغيرة في عام ١٩٢٨ حركة شعبية واسعة في مصر مصممة على إنهاء الحكم البريطاني وإقامة دولة إسلامية مكانه. وفاض الغليان الجياش في مصر إلى أقطار عربية أخرى، وإلى سوريا بمساعدة السباعي، الذي أخذ تنظيم شباب محمد بيده وربطه بالإخوان المسلمين، وبحلول عام ١٩٤٩ كان قد كوّن قوة سياسية لها من القوة ما مكنها من إرساله إلى البرلمان في دمشق، ومنذ ذلك الحين بقي الإسلام السياسي

عاملاً متواجداً بشكل ثابت على المسرح السوري، كما اكتشف الأسد عندما كان طالباً، ولكن هذا التيار لم يكن من القوة بحيث يسيطر، ولا من الضعف بحيث يتم قمعه أو اقتلاعه. وكأنه نوع من الحمى التي تصعد أو تهبط حسب الظروف المحلية في الداخل، والمناورات المحركة من الخارج.

وكان صعود البعث إلى مكانة بارزة اعتباراً من عام ١٩٥٥ فما بعده ضربة مريرة للمسلمين الناشطين الذين شعروا بالغضب والقلق لرؤ ية المجتمع السنّي التقليدي تنقلب فيه الأمور على يد متشددين علمانيين. وعندما استولى البعث على الدولة لجأت مجموعات من المتصلبين الإسلاميين إلى العمل السري في حلب وحماه لتنظيم المقاومة المسلحة. ففي عام ١٩٦٣ مثلاً أسس الشيخ عبد الرحمن أبو غدة حركة تحرير إسلامية سرية في حلب. أما في حماه في عام ١٩٦٥ فإن مروان حديد كان من النشيطين القدامى، وقد وضع في السجن فترة قصيرة بسبب اشتراكه في حركة مسلحة قامت ضد البعث عام ١٩٦٤ ، وبدأ بتنظيم قوة ضاربة سريّة أطلق عليها اسم «كتائب محمد». وبما أن البعث كان منهمكاً في اقتتال حزبي داخلي آنذاك فإنه لم يتنبه إلى كون المتشددين الإسلاميين قد بدأوا بتكوين الخلايا وتكديس السلاح واستعمال الأسماء الحركية، وإجراء اتصالات خارجية، وتدريب أعضاء كوادرهم على قتال المدن. وعندما قام البعث باجتذاب أعداد كبيرة من معلمي المدارس البعثيين إلى العمل في الحكومة فإنه أفسح بذلك المجال للإخوان المسلمين كي يزرعوا أنفسهم في المدارس ويؤثروا على الشباب.

وأصبحت حلقات الدروس في المساجد، حيث يذهب الطلبة لدراسة اللغة العربية والقرآن أماكن تجنيد وتطويع للإرهابيين. فكان المرشح للعمل في صفوفهم يُطلب منه إخفاء قطعة سلاح، ثم إعادتها، ثم أخذها ثانية والتدرب على تفكيكها وتركيبها. وربما كانت المرحلة التالية هي إشراكه في مراقبة مسؤول حزبي بعثي أو استطلاع مبنى حكومي. ثم يقول له مسؤوله أو مرشده:

«إنك الآن واحدٌ منّا، ورقبتك على خشبة النطع مثل رقابنا». ومن بين الطرق الوحشية التي استخدمت لتقسية قلوب الشباب جعلهم يقتلون عمالاً غير محميين مثل منظفي الشوارع الذين كانت طبيعة عملهم تقتضي خروجهم مبكرين وقد قتل العديدون منهم بهذه الطريقة(٨).

ولم يكن النشاط السياسي الإسلامي كله سرياً. وكان الضوء الهادي للفرع السوري من الإخوان المسلمين هو عصام العطار، الذي كان يرفع صوته بانتقاد البعث، ولم يُسمح له بالعودة إلى سوريا بعد قيامه بالحج إلى مكة في عام ١٩٦٤، فأقام مقر قيادته في مدينة آخن في ألمانيا الغربية. ومن هناك بدأ يشن حرباً كلامية ضد دمشق اعتباراً من سنة ١٩٦٨ في مجلته «الرائد». وكانت التهجمات أشدّ في نشرة إسلامية أخرى هي «النذير» التي كانت تعكس وجهة نظر المجموعات المقاتلة في داخل سوريا. وكانت الأموال والتجهيزات تصل من خلال شبكات دولية (كاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا) يديرها عصام العطار من قاعدته في آخن ومن فروع الإخوان في البلدان المجاورة، ولا سيما الأردن.

انــدلاع الإرهــاب

إن متاعب الأسد الداخلية خلال عامي ١٩٧٧ و ١٩٧٨ وتزايد أهمية أخيه رفعت قد نجم عنها أول شرخ خطير في صفوف نخبة رجال السلطة. كان ناجي جميل، وهو سنّي من دير الزور صديق الأسد ورفيقه من الأيام المبكرة لتدربهما على الطيران. وقد لعب دوراً في انقلاب عام ١٩٦٣، ورافق الأسد إلى لندن سنة ١٩٦٥، واستلم منه قيادة القوة الجوية عام ١٩٧٠، وفي عام ١٩٧٨ كان أيضاً نائب وزير الدفاع ومدير مكتب أمن الدولة. ولعله كان ـ باعتباره المسؤول الأول عن المخابرات ـ الدعامة الكبرى للنظام. وفي أذار/مارس سنة ١٩٧٨ نزل به غضب مفاجىء تماماً وأحيل إلى التقاعد بهدوء (رغم أنه احتفظ بمقعده

في القيادة القومية، لمجرد إنقاذ ماء وجهه). وحل محل جميل في منصبه الحساس بأمن الدولة شخص آخر من رجال الأسد المقربين، ممّن كوّنوا حياتهم المهنية في مخابرات القوى الجوية، وهو اللواء محمد الخولي.

ويظهر أنه كان وراء سقوط جميل عوامل ثلاثة: كان أوضحها تدهور الوضع الأمني الذي عجز عن معالجته، وخصوصاً أن ضغوط تلك الأيام قد وضعته في مواجهة رفعت الذي كان يتطلع إلى أن يصبح وحده المسؤول عن عمليات مكافحة الإرهاب، ولكن غلطة جميل القاتلة كانت تعبيره عن عدم الاحترام للأسد في المجالس الداخلية للنظام، إذ يشاع أنه تجرأ على القول بأنهم مثلما صنعوا الأسد فإنهم قادرون على خلعه أو تغييره. ويبدو أنه كان بذلك يتحدى الصعود الذي حققه الأسد ضد مجموعة الرجال الذين استلم معهم السلطة ـ وجاء ذلك التحدي في وقت كان فيه الأسد محاصراً. ودفع جميل الثمن. غير أن خلفاءه وجدوا سريعاً ما يشغلهم تماماً.

في بدايات الحملة الإرهابية حصلت المعارضة على شهيد في شخص المتشدد مروان حديد الذي ظل يقاتل البعث بطريقة أو بأخرى منذ أن كان طالباً جامعياً في القاهرة خلال الخمسينات، وكان إماماً لجامع بريدة يلقي من على منبره خطباً معادية للبعث. كان أفراد عائلة حديد تجاراً من أصل ألباني، وكان مروان ـ أحد أبنائها ـ من الإخوان المسلمين، وكان أحد أبنائها الآخرين ـ عدنان ـ شيوعياً وكان ثالث منهم ـ كنعان ـ بعثياً، وذلك يوضح مسار تقسيم الانحناءات والتشققات في الحياة السياسية في سوريا. وعندما ألقي القبض على مروان وأودع السجن سنة ١٩٧٦ أضرب عن الطعام، فأرسل له الأسد أخاه كنعان ـ وكان دبلوماسياً في طهران ـ لإقناعه بإنهاء إضرابه ولكن عبثاً(٩). وتوفي مروان في حزيران/يونيو سنة ١٩٧٦ في مستشفى حرستا العسكري شرقيّ دمشق، فأصبح على الفور مصدر إلهام لأتباعه الذين أقسموا على الثأر له، ولكن بدء حرب المدن على نطاق واسع قد تأخر ثلاثة أعوام حتى وقعت مجزرة مدرسة

المدفعية بحلب في حزيران/يونيو سنة ١٩٧٩ لتبدأ الحملة ضد المسؤولين الحزبيين البعثيين، ومكاتب الحزب، ومخافر الشرطة، والسيارات والثكنات العسكرية والمعامل وغيرها من الأهداف التي استطاع المقاتلون مهاجمتها. ولم يوفروا الخبراء الفنيين الروس في سوريا، فقد قتل وجرح منهم عشرة في سلسلة من الحوادث في كانون الثاني/يناير سنة ١٩٨٠.

ومن منتصف عام ١٩٧٩ إلى منتصف عام ١٩٨٠ كان التنظيم السري يمسك بزمام المبادرة، وبدا الأسد معرضاً لأعظم الأخطار. فمن مخابئهم الآمنة في أعماق الأحياء القديمة المكتظة بالسكان في المدن الشمالية كحلب وحماه حيث لا تستطيع السيارات الدخول، كان المقاتلون يخرجون ليقتلوا ويلقوا القنابل. وقد أحرقوا المباني، وأغلقوا الدكاكين وأثاروا مظاهرات معادية للحكومة وحاولوا السيطرة على الشوارع، وعندما كانوا يحاصرون كانوا ينسفون أنفسهم بأحزمة من القنابل مشدودة إلى وسط الجسم. وأرسلوا فرقاً من القناصين لقتل أعضاء الحزب في فراشهم مثل عبد العزيز العدي عضو قيادة فرع حماه الذي اغتيل أمام زوجته وأطفاله وألقيت جثته إلى الشارع.. كما أن أمين فرع حماه أحمد الأسعد نجا من الموت عدة مرات دحرج أحد الإرهابيين في إحداها قنبلة على الرصيف باتجاه باب بيته، ولكن القدر شاء أن تصطدم بكومة من قطع شجرة ياسمين من بقايا عملية تقليم كان جاره قد قام بها في المساء(١٠). وهاجم المسلّحون بيته في الليل مرتين ولكنهم صدّوا عنه. وكان لدى بعثيين آخرين قصص مماثلة، ومن بينهم علي بدوي عضو المجلس التنفيذي لمحافظة حلب. ففي حزيران/يونيو سنة ١٩٨٠ طوق بيته من قبل مقاتلين كانوا قد قتلوا أخاه، أما أخوه الآخر الذي أصيب برصاصة في معدته فقد أنقذه جراح بريطاني زرع له كلية من أخت بدوي التي كانت في السادسة عشرة من عمرها(١١).

ومثل هذه الحوادث توضح المحن التي عانى منها الحزبيون في تلك السنوات. ففي حلب قتل الإرهابيون أكثر من ثلاثمائة شخص بين عامي ١٩٧٩

و ١٩٨١[١٢]. معظمهم من البعثيين والعلويين ولكن كان من بينهم أيضاً دزينة من رجال الدين المسلمين الذين استنكروا الاغتيالات. وكان من أبرزهم الشيخ محمد الشامي الذي ذبحوه في مسجده، مسجد السليمانية في ٢ شباط/فبراير سنة ١٩٨٠. كانت تلك ذروة فترة عنيفة جداً استغرقت بضعة أسابيع وافتتحت في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٧٩ باعتقال إمام جامع حلب الكبير، الشيخ زين الدين خير الله، وهي واقعة أثارت مظاهر حاشدة وعدة اغتيالات، ومقاطعة لاحتفالات عيد الأضحى (التي يختتم بها موسم الحج) بناء على أوامر من الإخوان المسلمين، واتضح أن حسني عابو، زوج ابنة خير الله، كان القائد العسكري للتنظيم السري في منطقة حلب. فألقي القبض عليه وحوكم وأعدم. فخلفه في قيادة تنظيم «الطلائع المقاتلة» التي كانت إحدى أكثر المجموعات المقاتلة فعالية، مهندس شاب من القنيطرة اسمه عدنان عقلة، الذي ساعد في التخطيط لمجزرة طلبة المدفعية في حلب[١٣].. والذي قدر له بدوره أن يموت في سنة ١٩٨٢. وقد ظهر عدة قادة للإرهابيين في تلك الأيام العصيبة، ولكنهم طوردوا وقبض عليهم، وفي مقابل ضحاياهم الثلاثمائة كان هناك ألفان من المعارضين المسلمين قتلتهم قوات الأمن في حلب، بالإضافة إلى ألوف من الذين اعتقلوا وزج بهم في غياهب السجون حيث كانوا غالباً ما يتعرضون للضرب والتعذيب.

وفي أذار/مارس سنة ١٩٨٠ بعدما فشل الإخوان المسلمون في إسقاط الحكومة بالاغتيالات، حاولوا خطة أجرأ وهي إغراقها بانتفاضات على نطاق واسع في المدن. وبتخويف أصحاب الدكاكين أرغموا الحي التجاري في حلب على الإغلاق لمدة أسبوعين، وامتد التحدي العلني المكشوف إلى حماه وحمص وإدلب ودير الزور وحتى إلى المدينة القاصية، الحسكة فيما وراء نهر الفرات. فهل كانت دمشق، عاصمة الأسد، ستتبع هذا الاتجاه؟ وزعت منشورات مغفلة من التوقيع تدعو التجار في الحميدية ـ السوق الرئيسية إلى

إغلاق محلاتهم تضامناً مع المدن الشمالية. وعند هذا المنعطف الدقيق، حيث بدت الحكومة معرضة لخطر مباشر هو فقدان السيطرة على الأمور، وجد الأسد حليفاً في بدر الدين الشلاح رئيس اتحاد الغرف التجارية وصاحب النفوذ الكبير والأبـوي الذي كان في الثمانينات من عمره، والذي جمع أصحاب الدكاكين البـارزين وحثهم على إبقـاء دكـاكينهم مفتوحة، وأدى ذلك إلى تحول الأمور لصـالـح النـظام (١٤). كان تجار دمشق قد استفـادوا من الثراء الجديد في السبعينات أكثر من زملائهم في المدن الأخرى. ذلك أن قربهم من مركز القوة قد أعطاهم فرصاً لاقامة اتصالات وتحالفات مع الضباط والمسؤولين في النظام من أجـل المنفعة المتبادلة للجميع وكان الأسد قد تعلم من مصاعب صلاح جديد أنه من أجل إعطاء نظامه قاعدة مستقرة يجب عليه أن يتصالح مع طبقة التجار الدمشقيين أو على الأقل أن يتجنب تنفيرها منه كلياً. وقد أتت هذه السياسة ثمارها. وإلى هذه اللحظة التي تم فيها تجنب الخطر يعود ازدياد محبته للشام أكثر من حلب أو حماه.

العقاب المتعطش للدم

وفيما بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٨٠ كان الأسد يبدو بطيئاً في رد فعله إزاء الأزمة الداخلية، وكأنه يتردد في الاعتراف بوجود انشقاقات عميقة في مجتمعه. ولعل حذره الطبيعي كان مسؤولاً إلى حدٍّ ما عما ظهر وكأنه يشبه السلبية تقريباً، ولكنه كان من الصعب عليه أيضاً، أن يعترف بأن جهوده لتوحيد البلد حول شخصه لم تفشل فحسب، بل كانت تنهار إلى هاوية حرب أهلية فعلية فالرجل الذي كبح جماح تعسف أجهزة الأمن عند استلامه للسلطة والذي أعاد الثقة بحكم القانون وجد نفسه تحت ضغط الاضطرار إلى اللجوء لأقسى الأساليب. وشرع رجل المصالحة تحت ضغط الظروف يتحول إلى حاكم مطلق، وهو تحول لم يكن الأسد مسروراً به.

وفي كانون الثاني/يناير سنة ١٩٨٠، بينما كانت الأزمة تزداد عمقاً واستفحالاً عيَّن الأسد رئيس وزراء جديداً هو الدكتور عبد الرؤوف الكسم، الذي كان مهندس تخطيط للمدن، وأستاذاً جامعياً عمل فترة قصيرة محافظاً لدمشق، وكان معروفاً بنزاهته. وكان والده رجل دين دمشقياً (مُفْتياً). . وكان عبد الرؤوف من معارف الأسد أيام كان طالباً. فقام الكسم بزيادة رواتب مستخدمي الدولة، وقام بمحاولة جديدة لضرب الفساد، وسمح بكمية من النقد العام. ومع ذلك فقد استمر العنف، وأثار مناقشة مؤلمة داخل الحزب عن سبب التمرد. فأين أخطأ الحزب؟ ومن الملوم؟ أكان الإرهاب رداً على الفساد أم أن له جذوراً أعمق؟ وهل أدى القبول الجماعي لانتساب الناس إلى البعث إلى تمكين العناصر التي لا مبدأ لها من التسلل إلى الحزب؟ وقد حدث فزع كبير في القمة بعد اكتشاف أحد عناصر الحركة الإسلامية السرية في داخل مخابرات القوة الجوية التي يديرها المسؤول الأعلى الذي عينه الأسد حديثاً ـ محمد الخولي. وقد اعترف ذلك العميل قبل القبض عليه وإعدامه بأنه قد سرّب للإخوان المسلمين أرقام سيارات معظم كبار ضباط مخابرات الدولة.

وساد جوّ نفسي أكثر صرامة في مؤتمر البعث القطري السابع الذي انعقد فيما بين ١٩٧٩/١٢/٢٣ و١٩٨٠/١/٦ عندما تولى شقيق الأسد الأصغر رفعت الدعوة لشن حرب شاملة ضد الإرهابيين. فقال: إن الحكومة بدأت تفقد السيطرة على زمام الأمور. وإن الجهاز البيروقراطي فاسد، والحزب تمزقه مناقشات عقائدية عقيمة، وإن المواطنين لم يظهروا شعوراً بالمسؤولية. وأن المطلوب هو الولاء المطلق، وأن أولئك الذين ليسوا مع النظام يجب اعتبارهم معادين له من الآن فصاعداً، وأنه يجب الدفاع عن الدولة البعثية بالدم إذا دعت الضرورة لذلك، وإن ستالين قد ضحّى بعشرة ملايين للمحافظة على الثورة البلشفية، وأن سوريا يجب أن تكون مستعدة لتفعل شيئاً مماثلاً[١٥]. وطلب إعطاءه تفويضاً مطلقاً وقال بما أن الإرهابيين المسلمين قد أقسموا على قتل كل

كافر فإنه مستعد للتعهد بأنه سيخوض «مائة معركة، ويدمر مليون معقل، ويضحي بمليون شهيد»(١٦). ولم تكن خطته تدعو إلى ضبط النفس. وقد شهد ذلك المؤتمر صعود رفعت إلى منزلة في الدولة لا تتفوق عليها سوى منزلة الأسد. ولعل أساليب القبضة الحديدية التي مارسها قد أنقذت الدولة غير أنها غيرت شخصيتها وطابعها كذلك.

وصممت السلطات على أن تضاهي وحشية أعدائها، فعمدت إلى استخدام أكبر وحدات عسكرية مزودة بالأسلحة الثقيلة لاقتلاع مقاتلي حرب المدن من جذورهم. بيد أن الشيء الجديد كان هو تسليح الحزب والمتعاطفين معه. وتكونت في كل مدينة ميليشيات من المواطنين ووزعت الأسلحة على المنظمات الشعبية التابعة لحزب البعث. كان حياد الشارع في السابق قد أعطى ميزة للمتمردين. أما الآن فقد ضغط على السكان ليختاروا بين أن يقاتلوا مع الحكومة أو ضدها. فاختار كثيرون الوقوف إلى جانب الحكومة، ربما ليس عن اقتناع بل بسبب غضبهم من الاضطرابات وسخطهم على الإضرابات في السوق والقنابل في المدارس والشوارع والخوف المستمر من الموت المفاجىء.

في ٩ أذار/مارس سنة ١٩٨٠ أرسلت قوات محمولة بالطائرات المروحية إلى جسر الشغور، وهي مدينة بين حلب واللاذقية حيث هاجم المتظاهرون الثكنات ومكاتب الحزب، فتبعت ذلك عملية بحث وتدمير ضارية تركت وراءها مائتي قتيل. وسيق عشرات المعتقلين إلى محاكم ميدانية. وبعد ذلك بأيام قليلة أرسلت الفرقة الثالثة بأكملها، أي عشرة آلاف رجل ومائتان وخمسون عربة مدرعة شمالاً إلى حلب لإخضاعها، وانضم إليها رجال رفعت من سرايا الدفاع وبعد فشل المفاوضات في إعادة النظام أرسلت القوات إلى الداخل في ١ نيسان/إبريل لإغلاق أحياء بكاملها والقيام بعمليات تفتيش من منزل إلى منزل، مسبوقة على الغالب بنيران الدبابات. وألقي القبض على مئات من المشتبه بهم وسيقوا بعيداً، ووقف قائد الفرقة اللواء شفيق فياض في برج دبابته وأخبر أهل

المدينة بأنه مستعد لقتل ألف رجل في اليوم حتى يخلص المدينة من جرذان الإخوان المسلمين. وبقيت فرقته في حلب عاماً كاملاً ولها دبابة في كل شارع تقريباً. وفي حلب كما في غيرها كان يساند العسكريين جيش غير نظامي من البعثيين المسلحين. وحسب رواية أنور أحمدوف القنصل السوفياتي الذي عاش خلال الأزمة في حلب فإن «القصة كانت ستصبح مختلفة جداً لو لم يتعاون السكان مع السلطات ويخبروها عن المقاتلين الإسلاميين، لأن السكان كانوا في ذلك الوقت قد تعبوا وملّوا من العنف»[١٧]. وتعرضت حماه للتجربة نفسها من دائرة الإرهاب والقمع في السنوات التي سبقت المواجهة الكبرى عام ١٩٨٢.

وأخيراً ألقىٰ الأسد بنفسه في المعمعة في ربيع عام ١٩٨٠، وبدا كأنه يخلص نفسه من العزوف عن الاتصال بالجمهور، وهو عزوف كان يبرز باطراد أكثر فأكثر مع مرور الأعوام، ومن التحفظ الأكيد الذي جعله ـ حتى في أوج الهتاف له ـ شيئاً أقل من قائد شعبي. فإلى ما قبل ذلك التاريخ كانت خطبه التي يلقيها في المناسبات المعهودة كذكرى الثورة أو افتتاح البرلمان تميل إلى أن تكون قطعاً أدبية رصينة معقولة. أما منذ ربيع ١٩٨٠ فقد ظهر الأسد كخطيب مسرحي في غضبه وتحديه، قادر على إلهاب حماسة مستمعيه ليلة بعد أخرى. ففي ٨ أذار/مارس عام ١٩٨٠ في الذكرى السابعة عشرة للثورة أعلن الأسد إيمانه بالإسلام إعلاناً طناناً كان واضحاً أنه يأمل منه أن يرتدي عباءة خصومه: «نعم! إنني أؤمن بالله! وبرسالة الإسلام، لقد كنتُ ولا أزال وسأبقى مسلماً، تماماً مثلما ستبقى سوريا قلعة شماء ترفع راية الإسلام عالياً! ولكن أعداء الإسلام المتاجرين بالدين سوف يُكنسون بعيداً»[١٨]. وعلى غير عادته في السابق وجه للأمة خطباً رنانة أخرى في ١١ و١٧ و٢٢ و٢٣ و٢٤ أذار/مارس، وغيرها كذلك في نيسان/أبريل، أمام تجمعات ملتهبة في المنظمات الشعبية المختلفة، من عمال، وفلاحين، وحرفيين، وشبيبة، ونساء، ومعلمين، وكتّاب، وطلبة، ورياضيين، ودعا إلى استخدام «العنف الثوري

المسلح» ضد «العنف الرجعي» المسلح فصفقت له ألوف من الشبيبة والنساء وهتفوا لتحيته وقوفاً[١٩]. وعندما أظهرت نقابات المحامين والأطباء والمهندسين فتوراً إزاء «العنف الثوري» حُلّت تلك النقابات ووضعت مكاتبها تحت الوصاية، ولم تعد بعض تلك المكاتب للظهور أبداً بعد ذلك.

وفي ٢٦ حزيران/يونيو عام ١٩٨٠، عندما كان الأسد بنفسه في مقدمة المعركة نجا بأعجوبة من الموت على أيدي خصومه الإسلاميين. فقد ألقى الإرهابيون عليه قنبلتين وأطلقوا رشقات من الرصاص بينما كان ينتظر زائراً إفريقياً على بوابة قصر الضيافة. فرفس إحدى القنبلتين بعيداً، بينما ألقى أحد الحراس بنفسه على الثانية فقتل على الفور، وقام حارسه الشخصي، خالد الحسين، بإلقاء الرئيس على الأرض وجعل جسمه درعاً لحمايته.

واجتاحت موجة من الثورة الهائجة اركان النظام، ومعها تعطش للانتقام. وكان لسان حالهم في نوبة غضبه يقول: «لماذا يريدون قتلنا؟ إننا نستطيع أن نقتل أيضاً!» وانطلاقاً من هذه النفسية تقرر اتخاذ اجراءات شديدة. ففي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي، ٢٧ حزيران/يونيو سنة ١٩٨٠ أوقظت وحدتان من سرايا الدفاع وأمرتا بالتجمع بلباس الميدان. ولخّص الأوامر لهما الرائد معين ناصيف نائب رفعت وزوج ابنته، فقال إن مهمتهم هي مهاجمة سجن في تدمر، في أعماق بادية الشام يحتجز فيه الإخوان المسلمون. ثم نقل الرجال بالشاحنات إلى مطار المزة وأقلعت بهم إلى تدمر عشر طائرات مروحية. وفي الساعة السادسة والنصف توجه نصف القوة، وعددهم حوالي ستين شخصاً بالسيارات إلى السجن الصحراوي، حيث انقسموا إلى ست أو سبع مجموعات وأطلقوا على المهاجع مع أوامر بقتل كل واحد في داخلها. فقتل خمسمائة سجين في زنازين راحت تدوي بالأصداء المخيفة لأصوات الأسلحة الأوتوماتيكية، والقنابل المتفجرة وصرخات الموتى «اللّه أكبر!»[٢٠]. وفي محاولة لاسدال ستار قانوني على المذبحة، قيل فيما بعد إن

السجناء قد حكمت عليهم بالموت محكمة ميدانية ذات صلاحيات استثنائية. وعلى أية حال، فقد استمرت الحرب وفي ٨ حزيران/يونيو أصبحت العضوية في الإخوان المسلمين جريمة عقوبتها الإعدام، رغم أن فترة سماح مدتها شهر واحد قد أعطيت لأولئك الراغبين في تسليم أنفسهم. فتقدم مئات من صغار الأعضاء، ولكن المتشددين في قلب الحركة لم يتأثروا ولم يهتزّوا.

ووجهت ضربات عقابية دامية بشكل خاص على أعمال إرهابية أخرى في حلب في آب/أغسطس عام ١٩٨٠، وضد حماه في شهر نيسان الذي تلاه، عندما تم جمع عشرات من الذكور الذين تجاوزوا الرابعة عشرة من أعمارهم بشكل يكاد يكون عشوائياً، ثم أطلقت عليهم النار في مكانهم على الفور[٢١]. وانتشرت حملة إسكات المعارضين خارج الحدود. فأغارت قوات كوماندوس سورية على معسكر تدريب للإخوان المسلمين في الأردن في أواخر تموز/يوليو سنة ١٩٨٠. وتم قتل الصحفيين اللبنانيين المعادين فقتل سليم اللوزي صاحب مجلة الحوادث في اذار/مارس، وقتل رياض طه نقيب الصحفيين في بيروت في تموز/يوليو، وفي اذار/مارس من العام التالي (١٩٨١) وصل المغتالون في الميدان بعيداً.. إلى آخن، بحثاً عن «مرشد» الإخوان المسلمين: عصام العطار، فقتلوا زوجته، بيان الطنطاوي، عندما فتحت الباب الأمامي. ولكن الاغتيال الذي سبّب أعظم القلق والبلبلة كان اغتيال الزعيم البعثي القديم صلاح الدين البيطار في باريس في ٢١/ تموز/يوليو ١٩٨٠. ولم يثبت أنه كانت هناك أصابع سورية وراء عمليات القتل هذه.. ولكن الشك فيها كان واسع الانتشار بين الناس.

لقد كان البيطار شريكاً لميشيل عفلق في تأسيس الحزب وكان من رعيل البعثيين المدنيين الذين أطاح بهم انقلاب اللجنة العسكرية في عام ١٩٦٦، وقد حكم عليه بالموت غيابياً عام ١٩٦٩، وقد عفا عنه الأسد في عام ١٩٧٠، وعاد

إلى سوريا لفترة قصيرة في محاولة لإجراء مصالحة. ولا شك في أن الأسد كان يأمل أن يستقر البيطار في دمشق كثقل مضاد لعفلق في بغداد. غير أن خمس ساعات من المحادثات في كانون الثاني/يناير سنة ١٩٧٨ فشلت في رأب الصدع بينهما. فعاد البيطار إلى منفاه في باريس حيث راح يطبع مجلة دورية بمساعدة بعض المال من الخليج وأطلق عليها اسم «الإحياء العربي» ـ وكان ذلك صدىً للاسم الذي أطلقه مع عفلق على الحلقة الصغيرة من أتباعهما ومريديهما في الأربعينات. وشن في أعمدتها حملات للمطالبة بالحريات الديمقراطية والحقوق الإنسانية في سوريا. فقد نشر في شهر شباط/فبراير ١٩٨٠ مثلاً مطالبة نقابة المحامين السوريين بإعادة حكم القانون. وألحّ بشكل جارح على قاعدة النظام الطائفية ـ أي العلويّة ـ وكان ذلك جريمة في نظر دمشق. وقد أشيع أنه كان يضغط على السعوديين ليقطعوا المعونة عن سوريا. والأسوأ من ذلك ما قيل من أن البيطار قد اتصل بأعداء الأسد في بغداد، وبأكرم الحوراني، وبالفريق أمين الحافظ، العسكري الذي عمل كواجهة للجنة العسكرية حتى عام ١٩٦٦، وبحمود الشوفي، السفير السوري السابق في الأمم المتحدة والذي انفصل عن النظام في عام ١٩٧٩، وبغيرهم من أصحاب الأسماء ذات الماضي والتي كان بريقها يخبو، وبذلك أصبح نقطة جذب لأنواع مختلفة من المعارضة السورية. وقد بدا في إحدى اللحظات أن البيطار يمكن أن يشكل خطراً حقيقياً. وأن شيئاً من مثل هذه المخاوف قد أسهم في اتخاذ قرار بوضع نهاية له. وبعد موته نقلت زوجته، ملك، جثمانه ليدفن في بغداد حيث بحثت عن ملجأ وسط أعداء الأسد الألـدّاء.

وربما لم يكن الرجال من أمثال البيطار ليشكلوا خطراً على الأسد، ولكن انتقاداتهم كانت تمسُّ عصباً حساساً إذ كانت تنصب على منطقة بدا فيها الأسد وكأنه قد ابتعد عن النهج القومي العربي الصحيح. فالبيطار وأمثاله كانوا يتهمون الأسد بالازدواجية إزاء خطط السلام الأميركية، ألم يتفاوض حول فك الاشتباك في الجولان مع كيسنجر؟ ألم يكن ذلك في آخر الأمر هو الانفتاح الذي سمح

السادات بموجبه لنفسه بأن يقيم سلامه المنفرد؟ وكيف يمكن للأسد أن يدعي مناصرة القضية الفلسطينية بينما هو يسحق منظمة التحرير الفلسطينية؟ ألم يكن «جيشه المحتل» في لبنان ينفذ اتفاقية صامتة مع إسرائيل لاقتسام لبنان بينهما؟ ألا يتحمل الأسد بعض المسؤولية في التنافر مع مصر وانهيار الانفراج مع العراق؟ وكانت هذه بالضبط هي الاتهامات التي يوجهها في العادة جميع أولئك الذين لم يفهموا سياسات الأسد، أو لم يكونوا يريدون أن يفهموها. فقد كان الأسد يستطيع أن يعطي إجابات معللة تتعلق بالحاجة الأولى والماسة لوقف إسرائيل عند حدها، والدفاع عن حوزته، والبحث مع ذلك عن سلام مشرف، وانتظار فرصة أخرى أنسب للقتال. ولكنه ظل عرضة لسهام ناقديه غير المقتنعين.

وكانت حرب الأسد الطويلة مع التنظيم السري الإسلامي تقترب من الحلّ. ففي خريف ١٩٨٠ أعاد أعداؤه تجميع أنفسهم لشن حملة جديدة، واستؤنفت اغتيالات الشخصيات البارزة، وفقد الأسد صديقين، هما الدكتور يوسف صايغ ـ الطبيب المختص بأمراض القلب، ودرويش الزوني، أحد قادة الجبهة الوطنية التقدمية، وقد قُتل كلاهما في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٨٠. وفي الوقت نفسه أُعلن عن تكوين «الجبهة الإسلامية» التي صاغت بياناً أخّاذ اللهجة حاولت به تجميع المعارضة في تحالف وطني واحد معادٍ للأسد. ووعدت الجبهة بحرية الكلام وبانتخابات حرة، وقضاء مستقل، وإصلاح لنظام ملكية الأراضي، وأشياء كثيرة أخرى، تحت راية الإسلام. وكانت قيادتها من قاعدة خارج الشرق الأوسط ومكونه من ثلاثة أشخاص هم عدنان سعد الدين، وأصله من حمص، ومحمد البيانوني[٢٢] من حلب، وكاتب كراسات ومنشورات من مواليد حماه هو سعيد حوّا. . ورأى الأسد ذلك نذيراً بالخطر بسبب الضجة الإعلامية التي حصل عليها هؤلاء الرجال في الأقطار العربية، وفي الغرب، والتأييد الذي بدا أنهم يحصلون عليه من المتعاطفين معهم في مصر والأردن والعربية السعودية.

وكان أكبر نجاح للجبهة الإسلامية هو نقل حرب الإرهاب إلى دمشق نفسها، فقد تجنب مقاتلوها قوات الأمن وفجروا سيارة مفخخة في مكتب رئيس الوزراء في آب/أغسطس عام ١٩٨١، وأخرى خارج مقر آمريّة القوة الجوية في أيلول/سبتمبر، وثالثة خارج مقر الخبراء السوفيات في تشرين الأول/أكتوبر. وفي أكثر عملياتهم دموية حتى ذلك الحين قتلوا وجرحوا مئات من المارّة في ٢٩/تشرين الأول/أكتوبر بانفجار ضخم في منطقة الأزبكية في وسط دمشق حيث يقع مجمع لإدارات المخابرات. وتحولت المدينة الملأى بالجنود إلى معسكر مسلح. ووضعت الحواجز في كل مكان، وأصبح التفتيش الجسدي شيئاً روتينياً. واضطربت حياة الناس الشخصية والعائلية كثيراً عندما أحرق الإرهابيون مخازن الأغذية الحكومية كما كانوا يفعلون غالباً، ولم يكن من السهل إعادة ملء مخازن المؤ ن. ولم يعد أحد يجرؤ على التحرك بعد حلول الظلام، وحتى خلال ساعات النهار كان قليلون من الحزبيين هم الذين يجرؤون على الخروج مشياً على الأقدام، بل إن بعضهم ظل مبتعداً حتى عن مكان عمله إلى أن تلقوا تحذيراً بأنهم يغامرون بالتعرض للفصل من الحزب. ولم يشاهد الأسد إلاّ قليلاً في تلك الشهور، وعندما قتل الإرهابيون المسلمون أنور السادات في مصر في يوم عيد ميلاد الأسد الحادي والخمسين، في ٦/تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٨١ ظهرت في دمشق منشورات تهدده بمصير مماثل. كان الأسد قد حصل على أول سيارة كاديلاك مصفحة في عام ١٩٧٦. أما في عام ١٩٨١ فقد أصبح واحداً من أفضل الرجال حراسة في العالم. غير أن عائلته فعلت كل ما بوسعها لتعيش حياة عادية، كما يتذكر باسل ـ الذي كان في التاسعة عشرة في عام ١٩٨١ ـ «نصحني بعضهم بأن لا أخرج بسبب القتل العشوائي، ولكنني شعرت بأنني أستطيع الدفاع عن نفسي. ولقد كنا نحن الأولاد مقتنعين بأنه لو حدث أي شيء لواحدٍ منا، فلن يكون له أي تأثير سياسي على والدنا»[٢٣].

إنتفاضـة حمــاه

ظلت حماه، المدينة المحافظة في سهول سوريا الوسطى، زمناً طويلاً خصماً عنيداً للدولة البعثية. وفي مطلع عام ١٩٨٢ كانت العلاقات بينها وبين السلطات في دمشق ملتهبة على أقل تقدير. ذلك أن دمار الوجهاء المحليين وتبادل الإرهاب والإرهاب المضاد مع التمرد الإسلامي فيها فترة طويلة قد جعل هذه القلعة التقليدية لسلطة ملّاك الأراضي والنزعة الأصولية السنّية تفقد صبرها.

ففي الساعة الثانية من ليلة ٢ ـ ٣/شباط/فبرايرسنة ١٩٨٢ كانت وحدة من الجيش تقوم بتمشيط المدينة القديمة، فوقعت في كمين[٢٤] وقتل القناصون من على سطوح المنازل حوالي عشرين جندياً، فقد عثر الجنود على وكر القائد المحلي للمقاتلين «عمر جواد» والمعروف أكثر باسمه الحركي «أبو بكر» الذي كان مقره في أعماق الأحياء المكتظة بالسكان متصلاً بالراديو مع شبكة من الخلايا. وهرعت قوات الحكومة إلى المكان على الفور. وعند تطويقه من جميع الجوانب أعطى «أبو بكر» الأمر بالقيام بانتفاضة عامة. فاشتعلت الأضواء في مساجد المدينة وانطلقت نداءات الجهاد ضد البعثيين من مكبرات الصوت المستخدمة في المساجد من أجل الأذان. وعند هذه الإشارة خرج مئات من المقاتلين المسلمين من مخابئهم يقتلون وينهبون ويهاجمون بيوت المسؤولين والقادة الحزبيين، واقتحموا مخافر الشرطة ونهبوا مخازن السلاح في محاولة للسيطرة على السلطة في المدينة. وكانت الفتيات المظليات عرضة لتهجمات المحافظين بشكل خاص فاغتيلت فتاتان مظليتان في فراشهما على يد مغتالين نزلوا من فوق السطوح[٢٥].

وحاصرت قوة كبيرة من المقاتلين مسكن المحافظ محمد حربا الرجل المحلي الذي كان قد حصل على دكتوراه في فرنسا لدراسة الزراعة السورية، وكان الأسد قد عينه في منصبه في كانون الثاني/يناير عام ١٩٨٠، وصرخ

الإرهابيون من خلال مكبرات الصوت طالبين منه أن يخرج ويداه مرفوعتان. ولكنه كغيره من الذين كانوا يقفون إلى جانب الحكومة كان قد كدس أسلحة وذخائر. وبمعونة أخيه وحرّاسه الأربعة أبقى المهاجمين بعيداً خمس ساعات إلى أن شقت قوات الأمن طريقها إليه بالقتال. وبحلول صباح الثالث من شباط/فبراير كان سبعون من كبار البعثيين قد ذبحوا، وأعلن المقاتلون المنتصرون المدينة «محررة»، واجتمع المحافظ محمد حربا وأمين فرع الحزب أحمد الأسعد وقادة الجيش والمخابرات وأعضاء القيادة المحلية الذين نجوا من مذبحة الليل، وقد احمرت عيونهم وحمل كل منهم سلاحه، في مقر قيادة الحزب ليحصوا ما لديهم وليقدروا احتمالات وضعهم الميؤوس منه. كانوا يواجهون الانحدار أمام تمرد في المدينة على نطاق واسع لم يحدث من قبل تحت حكم الأسد.

وفي دمشق مرت لحظة سادها شيء يشبه الذعر عندما ثارت حماه، إذ اهتز النظام نفسه، فبعد قتال استمر خمسة أعوام فشل في قمع حركة سرية قتلت زهرة الطبقة المهنية من العلويين ولطخت رئاسة الأسد بتهمة اللاشرعية. ولم يترك الخوف، والكراهية ونهر من الدم المسفوك أي مجال لفكرة الهدنة. فحماه كانت معركة أخيرة يجب أن يكسبها أحد الطرفين لأنها بطريقة أو بأخرى ستقرر مصير البلد. وكان كل حزبي وكل مظلي، أُرسل إلى حماه يعرف أن التشدد الإسلامي يجب اقتلاعه من المدينة هذه المرة، مهما كان الثمن. إن مثل هذا الفهم للمسألة على أنها كانت الفصل الختامي في صراع طال أمده قد يفيد في توضيح سبب شدة العقاب الذي أُنزل بالمدينة. فوراء الصراع المباشر كانت هناك عداوة قديمة متعددة الطبقات بين الإسلام والبعث، بين السنّي والعلوي، وبين المدينة والريف.

وظلت معركة حماه مستعرة ثلاثة أسابيع مدلهمة ضارية، انقضى الأسبوع الأول منها والحكومة تحاول أن تستعيد السيطرة على البلدة، والأسبوعان

الآخران في اصطياد المتمردين. وأرسلت قوات محمولة بالطائرات المروحية لمساعدة الحامية المحلية على إغلاق مداخل المدينة قبل الانقضاض القاتل عليها. وبلغ عدد الذين طوقوا حماه في مجموعهم حوالي ١٢٠٠٠ رجل[٢٦]. ولكن هذه لم تكن عملية عسكرية عادية: كانت أميل إلى الحرب الأهلية، يختبر فيها ولاء الجند إلى أبعد مدى. وقد هرب بعضهم لينضم إلى المتمردين.

وعندما أخذ الميزان يميل تدريجياً لصالح الحكومة، تراجع المتمردون إلى الأحياء القديمة، ولا سيما حي البارودي والكيلاني، التي كانت معاقل قد هيأوها لحصار طويل. وعلى ضفاف العاصي بدأت منازل عائلة الكيلاني القديمة الفخمة تتحطم بنيران القصف أو تتهاوى بفعل الألغام التي زرعها مهندسو الجيش. ولكن الناس العاديين الذين كانوا يعيشون في المناطق العميقة في شبكات الدروب والأزقة كانوا هم الضحايا الأساسيين، فقد بقوا بدون طعام ولا ماء ولا وقود في طقس الشتاء القاسي ودفنوا في الغالب تحت ركام بيوتهم. وبعد القصف الثقيل تحرك رجال الكوماندوس والمسلحون الحزبيون غير النظاميين، تدعمهم الدبابات، لإخضاع فدادين من الأكواخ المبنية من الطين وأغصان الشجر التي كانت سطوحها المتشابكة وأفنيتها المنبت الذي تربى فيه المقاتلون. وقد قتل عدد كبير من المدنيين في عمليات قمع بقايا المقاومة، ومسحت واستوت بالأرض أحياء بكاملها، وذكرت تقارير أن أعمالاً وحشية متعددة قد ارتكبت، وكثير منها تم بعد أن استعادت الحكومة السيطرة على البلدة، وهرب بعض المقاتلين إلى قنوات تحت الأرض، وعندها أغلقت دونهم جميع المخارج. ولحقت الأضرار وأعمال النهب بعشرات المساجد والكنائس والأماكن الأثرية التذكارية العريقة، بما فيها متحف قصر العظم الشهير الذي يعود إلى القرن الثامن عشر. وخلال شهر من القتال تقريباً دمّر ثلث المدينة الداخلية التاريخية.

وتعرضت القوات الحكومية أيضاً لخسائر فادحة على يد القناصين،

وأصيب الكثير من العربات المدرعة بالقنابل في الشوارع التي تناثر فيها الحطام المتراكم. غير أن ثمن التمرد قد دفعته حماه بكاملها. فمات كثيرون أثناء عمليات تعقب المسلحين. أما العدد الإجمالي بالضبط فيبقى مجالاً للحدس والتخمين، فالمتعاطفون مع الحكومة يقدرونه بثلاثة آلاف، وأما منتقدوها فيقولون إن العدد كان عشرين ألفاً أو يزيد. ومما يجعل التقدير الدقيق عملية صعبة ومعقدة حقيقة أن كثيراً من النساء والأطفال الذين هربوا عبر حزام القوات التي كانت تطوق المدينة قد حسُبوا أول الأمر في عداد الضحايا والمصابين. ولكن مهما كان العدد ـ والأقرب إلى الحقيقة رقم بين الخمسة آلاف والعشرة آلاف ـ فإن أثر المعركة كان كبيراً حقاً.

في عام ١٩٦١، أي قبل أحداث حماه بعشرين عاماً توقف في حماه باص يقل عدداً من طلاب جامعة دمشق في رحلة لهم، وأرادوا تناول القهوة، ولكن ذلك المكان الشديد المحافظة لم يرحب بهم، ودفعهم جمهور غاضب إلى العودة لركوب حافلتهم لأن عدداً من الطالبات كن يرتدين «البنطلونات». وفي عام ١٩٨٢ لم يقتصر قصف المدينة على قتل كثير من الناس، بل إنه أخرج منها ذلك التزمت نهائياً. وعند إعادة بناء مجتمعها الممزق بذل جهد مقصود ليس لإزالة الماضي فحسب، بل لتغيير المواقف، وصُرف كثير من الأموال العامة.

وأزيحت الأحياء القديمة المتهدمة بالجرافات، وشقت طرق حيث لم تكن السيارات قادرة على المرور من قبل، وأقيمت حدائق وساحات، وأعيد تشكيل وتخطيط حماه كلها على نطاق واسع، مع وجود «دوارات» ومفترقات طرق لخدمة أحياء جديدة تماماً مجهزة بمدارس وعيادات وملاعب وأسواق كبيرة. ومن بين البنايات العامة الكبرى التي أقيمت بعد الهدم مستشفى يتسع لمائتين وخمسين سريراً، ومركز ثقافي ومعهد رياضي للبنات، وكلية لتدريب المعلمين، وسوق مركزية مبنية على الطراز الشرقي وبنايات لمقرات اتحاد الفلاحين ونقابتي المعلمين والمهندسين، ومركز رياضي ضخم الحجم جداً

وبركة سباحة حسب المقاييس الأولمبية، وبناء على أوامر الأسد، مولت الدولة بناء مسجدين كبيرين للتعويض عن المساجد التي تهدمت أثناء القتال وكنيسة كاثوليكية بحجم كاتدرائية. وكان من بين التغييرات الثورية إدخال السباحة المختلطة عام ١٩٨٣، وإقامة أول قسم داخلي جامعي في سوريا كلها لإيواء الطلبة ذكوراً وإناثاً. ودخلت النادي الرياضي ثمانون فتاة، وفي عام ١٩٨٥ فازت فتيات حماه بالبطولة الوطنية لتنس الطاولة، غير أن ذلك كله لم يمحُ اسم حماه كرمز لمذبحة.

العقد المخيب للآمال

إن الحرب ضد الإرهابيين أقنعت الأسد بأنه لم يكن يتصارع مع معارضة داخلية فحسب، بل كانت هناك مؤامرة واسعة النطاق لإزاحته تشجعها العراق والأردن ولبنان وإسرائيل والولايات المتحدة. وقال: «إننا لم نكن نتعامل مع قتلة في داخل سوريا فقط، بل مع أولئك الذين يضعون لهم الخطط، ولقد تفاقمت المؤامرة بعد زيارة السادات للقدس وأصبحت مخابرات أجنبية كثيرة ضالعة فيها. فالذين اشتركوا في كامب ديفيد استعملوا الإخوان المسلمين ضدنا»[٢٧]. ورأى الأسد نفسه ضحية «لتحالف رهيب» من الأعداء الداخليين والخارجيين[٢٨].

ولقد اتهم الأسد وكالة المخابرات المركزية الأميركية منذ أذار/مارس ١٩٨٠ بأنها تشجع «التخريب والتدمير» في سوريا كي «تخضع الوطن العربي كله للسيطرة الأميركية ـ الإسرائيلية المشتركة»[٢٩]. وفي ١٠/شباط/فبراير ١٩٨٢ عندما صدر في الوقت نفسه بيانان، أحدهما من وزارة الخارجية الأميركية بواشنطن والآخر من الإخوان المسلمين في ألمانيا الغربية يعلنان خبر التمرد في حماه ـ الذي كان قد مضى عليه أسبوع ولم تعلنه سوريا ـ فإن الأسد قد رأى في ذلك دليلاً واضحاً على التواطؤ. ورأى أن الولايات المتحدة بإعلانها أن قتالاً

ضارياً يدور في حماه، إنما كانت تحاول تشجيع العصيان. وقد استدعي السفير الأميركي، روبرت پاغانيللي إلى وزارة الخارجية في الواحدة والنصف من فجر ذلك اليوم، وأُعلم بعدم رضا سوريا.

ولم تكن مخاوف الأسد ارتياباً مرضياً وهمياً، فلقد كان مطوقاً بالأعداء حقاً. فهو أثار سخط أميركا بهجماته على معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية، وقطع علاقاته مع العراق، ووقف مع الثورة الإيرانية بعد ظهور آية الله الخميني، وكانت علاقاته بالملك حسين على أسوأ ما يمكن. . وقد اشتبك مع إسرائيل في لبنان بشكل خطر.

ولقد كان المقاتلون خصماً مخيفاً وقوياً، فقد كانت لديهم ثروة من الأموال الأجنبية، وأجهزة اتصال متطورة ومعقدة ومخازن سلاح كبيرة. فقد تم الاستيلاء على ما لا يقل عن ١٥٠٠٠ رشاش[٣٠]. وفي فن القتال لم يكونوا أغراراً، بل ان حوالي نصف الذين اعتقلوا منهم قد تلقوا تدريباً في بعض الأقطار العربية ولا سيما الأردن. وعندما التقى الأسد وحسين في جنازة تيتو في أيار/مايو سنة ١٩٨٠ اتهم الأسد حسين بغضب بأن له يداً في الدم الذي كان يسفك في سوريا[٣١]. وهذه تهمة قدر لحسين أن يعترف بها علانية بعد خمس سنوات عندما عادت علاقته إلى التحسن مع الأسد[٣٢]. وكانت هناك أدلة كثيرة ودامغة على تواطؤ العراق. فقد اعترف كثيرون ممن ألقي القبض عليهم أثناء التحقيق بأن لهم علاقات مع ضباط ارتباط في بغداد. وكان الكثير من أسلحتهم وسياراتهم من أصل عراقي. وقد اعترضت الطائرات المروحية العسكرية السورية مراراً بعض الشاحنات التي كانت تهرّب الأسلحة عبر بادية الشام وأوقفتها. وكانت أشد سخريات الأسد مرارةً موجهة إلى عدوه الأكبر صدام حسين: «إن جلاد العراق لم يكتف بقتل عشرات الألوف من أبناء شعبه، بل لقد توجه إلى سوريا لممارسة هوايته المفضلة في القتل والاغتيال والتخريب. إنه يرسل الأسلحة للمجرمين في سوريا منذ أن استولى على السلطة»[٣٣].

كما صادرت الحكومة السورية أسلحة حصل عليها المقاتلون من الميليشيات المسيحية اللبنانية، وخصوصاً من المتعصبين الذين سموا أنفسهم «حراس الأرز» والذين كانوا على علاقة وثيقة بإسرائيل وقد اقتنع الأسد بأن إسرائيل كانت تستخدم تلك الجماعات لنسف استقراره، وقد حدث مرة واحدة على الأقل أن قام عملاء سوريون باختطاف مقاتلين من لبنان كانوا قد لجأوا عند الكتائب(٣٤). وعلى أية حال فإن الحدود الجبلية مع لبنان، والحدود الصحراوية مع العراق كانت تجعل وقف تدفق السلاح عملية مستحيلة.

وفي ذهن الأسد كان أحد أبرز الأدلة التي تدمغ الولايات المتحدة، اكتشاف بعض الأجهزة الأميركية في أيدي المقاتلين، وخصوصاً أجهزة اتصالات متطورة قال الأسد انها من نوع لا يمكن بيعه لطرف ثالث إلا بإذن وموافقة من الحكومة الأميركية. وكانت المخابرات السورية مقتنعة بأن صانعاً أميركياً لتلك الأجهزة قد رتب ـ بمباركة من الحكومة الأميركية ـ عملية إيصال شحنات منها إلى المقاتلين عن طريق إسرائيل وبيروت الشرقية وعمّان. وقد روى الأسد فيما بعد: «لقد قلنا للأميركيين بأن لدينا برهاناً على تورطهم، فطلبوا منا إبرازه، ففعلنا، فأنكروا أنهم قد أعطوا تلك الأجهزة للإخوان المسلمين، فقلنا لهم: حسناً إذن: هذه هي الأرقام المتسلسلة للأجهزة. فأخبرونا لمن بعتموها من فضلكم! فرفضوا إخبارنا، وأخيراً قلت لهم: «إن تورطكم واضح، ولا شيء يثبت براءتكم، ولكنني مستعد لإغلاق هذا الموضوع»(٣٥).

على أن أولئك المقاتلين كانوا سذجاً من الناحية السياسية، رغم كثرة أموالهم، وأسلحتهم، ومعداتهم المتطورة، وإثباتهم لقدرتهم على خلق الفوضى والاضطرابات في البلد. فقد كانوا يتحدثون عن إقامة جمهورية إسلامية في سوريا، ولكنهم لم يقدموا أي برنامج منطقي متماسك. فلم يعرف أحد كيف ستكون الحياة في ظل حكمهم، ورغم أنهم كانوا يتمتعون بعطف المحافظين المتدينين، وبعض التجار، وملّاك الأراضي السابقين، وغيرهم من

ضحايا حكم البعث فإن كفة الرأي العام كانت راجحة ضدهم. وكانت حملتهم الإرهابية الطويلة جنوناً سياسياً وفي خاتمة المطاف فإن سوريا البعثية، الدولة التي يحكمها حزب مسلح، والقائمة على تحالف عريض بين الريف وبين القطاع العام الكبير المتضخم قد أثبتت أنها من القوة بحيث تستطيع دحر التحدي.

وبعد حماه ساد شعور بالفرج والإرتياح، على الأقل لدى الجانب المنتصر. فقد أصبح ممكناً أن تعود الحياة الطبيعية إلى مجراها، وصار باستطاعة المسؤولين أن يمشوا دون خوف من رجل مسلح، وباستطاعة زوجاتهم وعوائلهم الخروج من المخابىء. وحتى الأسد نفسه، الذي لم يره أحد شهوراً ظهر بصورة دراماتيكية في شوارع دمشق في ٧ أذار/مارس عام ١٩٨٢، عشية الذكرى التاسعة عشرة لثورة البعث، حيث حملته الجماهير الصاخبة على أكتافها ساعتين كاملتين من قصر الضيافة إلى البرلمان. وفي ذلك اليوم، كان حاداً في خطابه الذي ألقاه: «أيها الأخوة والأبناء: الموت للإخوان المسلمين المجرمين! الموت للإخوان المسلمين المأجورين الذين حاولوا نشر الفوضى والدمار في الوطن! الموت للإخوان المسلمين الذين استأجرتهم المخابرات الأميركية، والرجعية، والصهيونية»[٣٦].

ولقد نجم عن العبور من السبعينات إلى الثمانينات تغير في أسلوب وتفكير رئيس سوريا. تلاشى تفاؤله، وأما ثقته بالمستقبل فقد حل محلها حكمٌ على الرجال والقضايا أكثر قسوة وسخرية ومرارة لأن العالم قد أوضح له بأنه مكان معقد وقاسٍ لا يرحم. فأصبحت طبيعة الأسد أكثر تصلباً وأكثر تشككاً بالأعداء الذين يخططون ويتآمرون في الداخل والخارج.

وختمت حملة الإخوان المسلمين الإرهابية عقداً من الزمن كان مخيباً للآمال بشكل ضخم. إذ يجب أن نتذكر أنها جاءت مباشرة عقب الصراع الطويل وغير المجدي مع إسرائيل وأميركا حول طبيعة التسوية بعد حرب

تشرين. وفي ذهن الأسد كانت المعركة المادية الجسدية مع المقاتلين امتداداً لمعركة الدبلوماسية التي انتهت بكارثة اتفاقيات كامب ديفيد التي أشرفت عليها الولايات المتحدة، وهي لم تكن سوى أحدث حلقة في سلسلة طويلة من المؤامرات الغربية التي يعود تاريخها إلى أكثر من خمسين عاماً، بل إلى أيام الحرب العالمية الأولى، وكلها مؤامرات استهدفت تجزئة العرب وإضعافهم. وكان التمرد مجرد قسطٍ آخر من أقساط هذا المخطط. كان الغرب يعاقب الأسد لرفضه الاستسلام، وأخذ يعتقد بأن الغرب يرفضه ولا يوافق عليه، وأن واشنطن، وإسرائيل، ناهيك عن منافسيه العرب، كانوا جميعاً مصممين على تدميره، الغرب لم يكن ليشجع إسرائيل على أن تكون معقولة، بل كان يرمي بكل ثقله وراء نزعتها التوسعية وأحلامها في السيطرة والهيمنة. وعلى الصعيد الداخلي فإن الدرس الذي استنتجه من الحرب الإرهابية كان أن اليمين لم يلق السلاح، بل خفض رأسه واختبأ طيلة تلك السنين منذ قامت ثورة البعث، وانتظر اللحظة المناسبة للانقضاض. وكردة فعل اتجه الأسد يساراً، ففرض قيوداً أشد على التجارة الخاصة. وأجرى مزيداً من التخفيض في مساحة الأرض التي يحق للأفراد امتلاكها. ولفترةٍ عقب حالة الطوارىء كانت هناك عودة إلى شيء يشبه حرب الطبقات التي سادت في الستينات.

ونجمت عن العقد المخيب للآمال خسائر فادحة، فالنظام الذي كان الأسد يريد له أن يكون إنسانياً قد اصطبغ بالقسوة. أما عادات الحكم المطلق التي اكتسبها في الصراع من أجل البقاء فقد ثبت أنها تسبب الإدمان، وأما الجو المنفتح المتحرر نسبياً في بداية رئاسته فلم يعد بإمكانه أن يزدهر بسهولة في ظل أدوات القمع القوية التي نمت وتعاظمت.

ولم يكن الأسد يجد متعة في البطش وإنما لجأ إليه لأسباب تتعلق بوجود الدولة، ففي مواجهة خطر الإرهابيين الجدي اضطر أن يضحي بكثير من مبادىء حركته التصحيحية. إن أجهزة المخابرات ـ التي كثيراً ما تستخدمها الأنظمة

العربية، وإسرائيل والدول الأجنبية ذات المصالح في الشرق الأوسط كأدوات لفرض سلطة الدولة ـ راحت تتضخم وتفرض ظلها الثقيل أكثر من السابق. فهي لم تكد تعرف في سوريا قبل الخمسينات، ولكنها أدخلت بكل أشكالها المتغلغلة في كل مكان على يد عبد الناصر خلال أيام الوحدة. على أن التوسع الكبير قد حدث على أية حال خلال الصراع ضد الإخوان المسلمين، فعندئذٍ بدأت المخابرات تتسلل إلى كثير من المؤسسات السورية بما فيها خدمات السلك الخارجي التي كانت ستصبح مصدراً لكثير من الصداع المزعج في المستقبل. أما حزب البعث فقد انتشى مزاجه بالنصر بعد سحق الحركة السرية. ورأى البعثيون أن المحنة تمنحهم حقاً في الحكم وفي أن تكون يدهم مطلقة التصرف في الغنائم.

هوامش الفصل التاسع عشر

(١) إذاعة دمشق في ٢٢/حزيران/يونيو سنة ١٩٧٩ ـ مقتبسة في: ملخص الإذاعات العالمية بأرشيف هيئة الإذاعة البريطانية (١٩٧٩/٦/٢٥): وجريدة البعث عدد يوم ٢٤/حزيران/يونيو سنة ١٩٧٩.

(٢) أوليفيه كاريه وجيرار مشيو الإخوان المسلمون من ١٩٢٨ إلى ١٩٨٢ (طبع باريس ١٩٨٣)، ص ١٣٣.

(٣) ديفيد و. كار «تدفق رؤوس الأموال والتنمية في سوريا» في ذي ميدل إيست جورنال (مجلة الشرق الأوسط) المجلد ٣٤؛ العدد ٤ (خريف سنة ١٩٨٠).

(٤) ميشيل شاتيلو: «النمو الاقتصادي: التحولات التركيبية وديناميكية التوازن» في كتاب من تحرير أندريه ريمون بعنوان سوريا اليوم (طبع باريس ١٩٨٠) ص ٢٦٧.

(٥) ميشال سيورا: «السكان، والدولة والمجتمع» في كتاب أندريه ريمون المذكور في الحاشية السابقة، ص ١٣٢.

(٦) في دمشق: «الشبان المسلمون»، وفي حمص «جمعية الهداية الإسلامية»، وفي حلب «دار الأرقم» التي سميت كذلك على اسم الدار التي كان الرسول (ﷺ) يجتمع فيها مع أصحابه.

(٧) مقابلة مع الدكتور شاكر الفحام بدمشق في ١٤/أيار/مايو سنة ١٩٨٥.

(٨) مقابلة مع نديم عكاش محافظ دير الزور، في ١٩٨٥/٤/٢٣، وكان العكاش مديراً سابقاً للأمن في حماه، وبعد ذلك في حلب.

(٩) مقابلة مع أحمد الأسعد أمين سر فرع الحزب في حماه، في ١٩٨٥/٤/٢٥.

(١٠) مقابلة مع أحمد الأسعد في حماه في ١٩٨٥/٤/٢٥.

(١١) مقابلة مع علي بدوي في حلب في ١٩٨٥/٤/١٦.

(١٢) مقابلة مع محمد موالدي، محافظ حلب في ١٩٨٥/٤/١٨، ومع نديم عكاش محافظ دير الزور، في ١٩٨٥/٤/٢٣، وأنور أحمدوف القنصل السوفياتي بحلب في ١٩٨٥/٤/٢٠.

(١٣) النذير (النشرة رقم ١٠) في ١/شباط /فبراير ١٩٨٠ مقتبسب في كتاب كاري وميشو الذي سبق ذكره، ص ١٥١ ـ١٥٣.

(١٤) مقابلة مع بدر الدين الشلاح في مزرعة عائلته في الغوطة في ١٢/نيسان/أبريل سنة ١٩٨٥.

(١٥) مصادر شفوية. وكذلك نشرة النذير (رقم ١٢ (١٩٨٠/٢/٢٦) (التي زعمت بأن لديها نسخة من خطاب رفعت) مقتبسة في كتاب كاري وميشو الذي سبق ذكره، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(١٦) جريدة تشرين عدد ١/تموز/يوليو سنة ١٩٨٠.

(١٧) مقابلة مع أنور أحمدوف في حلب في ١٩٨٥/٤/٢٠.

(١٨) كاري وميشو (مصدر سبق ذكره) ص ١٤٤ ـ ١٤٥.
(١٩) جريدة تشرين عدد ٨/أذار/مارس سنة ١٩٨٠.
(٢٠) تقوم هذه الرواية على إفادة أحد الجنود، واسمه عيسى إبراهيم فياض على شاشة التلفزيون الأردني في شباط/فبراير عام ١٩٨١، وقد اقتبس منها كاري وميشو (مصدر سبق ذكره) ص ١٤٧ ـ ١٤٨. وبالإضافة إلى اشتراك فياض في مذبحة تدمر فإنه كان عضواً في مجموعة ضاربة أرسلها رفعت الأسد لقتل رئيس الوزراء الأردني ومدير المخابرات السابق مضر بدران الذي كان ـ كما تعلم سوريا ـ يزود الإرهابيين المسلمين بالأسلحة ومعسكرات التدريب. فألقي القبض على تلك المجموعة السورية على الحدود، مما يشير إلى أن المخابرات الأردنية قد اخترقت منظمة رفعت الأسد.
(٢١) تقرير مرفوع من منظمة العفو الدولية إلى حكومة الجمهورية العربية السورية (لندن سنة ١٩٨٣) ص ٣٣ ـ ٣٦.
(٢٢) انظر مجلة المجتمع الكويتية الأسبوعية في ١٩٨١/٧/٢١: مقابلة مع الشيخ بيانوني.
(٢٣) مقابلة مع باسل الأسد في دمشق في ١٩/أذار/مارس سنة ١٩٨٨.
(٢٤) هذه الرواية لمعركة حماه تقوم في جزء منها على مقابلات مع محمد حربا الذي كان محافظ المدينة آنذاك (أجريت معه المقابلات بدمشق في ٢ أيار/مايو سنة ١٩٨٥)، ومع أحمد الأسعد أمين فرع الحزب في حماه وعلي شريف سكرتيره وحارسه (حماه في ١٩٨٥/٤/٢٥) وكذلك على شهادات مواطنين آخرين وعلى مصادر منشورة وخصوصاً على عددي النذير ٤٤ (١٩٨٢/٢/٢٧) و٤٦ (١٩٨٢/٥/٨) حيث توجد رواية المقاتلين لأحداث القصة.
(٢٦) تقرير من حماه بقلم روبرت فيسك في التايمز اللندنية عدد ١٩/شباط/فبراير سنة ١٩٨٢.
(٢٧) مقابلة مع الرئيس الأسد في دمشق في ١٢/أيار /مايو سنة ١٩٨٥.
(٢٨) كانت هذه كلمات الدكتور عبد الرؤوف الكسم رئيس وزراء سوريا من مطلع سنة ١٩٨٠ إلى تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٨٧. مقابلة مع الدكتور الكسم بدمشق في ١٣/أذار/مارس ١٩٨٨.
(٢٩) جريدة التايمز اللندنية في ١٩٨٠/٣/١٧، واللوموند الباريسية في ١٩٨٠/٣/١٨.
(٣٠) مقابلة مع أنور أحمدوف القنصل السوفياتي بحلب في ١٩٨٥/٤/٢٠.
(٣١) دانييل ديشون وبروس مادي ـ فايتزمن «العلاقات بين العرب» في مجلة ميدل إيست كونتمبوراري سرفي التي يحررها كل من كولن ليغوم وحاييم شاقد ودانييل ديشون، المجلد الخامس (١٩٨٠ ـ ٨١) ص ٢٣١.
(٣٢) انظر اعتراف الملك حسين العلني في رسالته إلى رئيس وزرائه زيد الرفاعي. صحيفة التايمز اللندنية في ١٩٨٥/١١/١٢.
(٣٣) خطاب الأسد في الاحتفال بذكرى الثورة، ٧/أذار/مارس سنة ١٩٨٢ ـ ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ لدى هيئة الإذاعة البريطانية ٩/أذار/مارس سنة ١٩٨٢.

(٣٤) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في ١٢/أيار/مايو سنة ١٩٨٥.

(٣٥) المصدر السابق نفسه.

(٣٦) خطاب الأسد في مهرجان ذكرى الثورة في ٧/أذار/مارس سنة ١٩٨٢: ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ بهيئة الإذاعة البريطانية في ٩/أذار/مارس سنة ١٩٨٢.

الفصل العشرون

وحيداً يقف

أصبح الأسد في الثمانينات أكثر ابتعاداً وانعزالاً، وصار هدفاً لجوقات التزلف والمداهنة أكثر مما كان في السبعينات. أما كم من هذا التغيير كان ردّ فعل للأحداث التي عاشها، وكم منه كان تطوراً لشخصيته، فهذا سؤال مفتوح بقيت الإجابة عنه قائمة على مختلف الاحتمالات. ويظهر أنه لم يكن يتمتع بالاتصال بالجماهير، غير أن هموم الأمن جعلته يشبه الناسك في عزلته فلم يعد يتجول في أنحاء القطر، وحتى في دمشق لم يعد يشاهد (إلاّ نادراً) خارج الطريق القصير المحروس بشدة والذي يربط بين بيته ومكتبه في القصر الجمهوري. وأصبح شعبه يعرفه من خلال شاشة التلفزيون فقط.

ونجم عن سنوات الحكم المطلق أن أصبحت صورة الأسد أكبر من الحياة إلى حدٍّ ما، بينما تقلصت صور زملائه، وهذه حالة لم يحزن عليها بإفراط. فالقومي المخلص النزيه الذي كسب اهتمام العالم كواحد من أصلب وأحزم القادة العرب أقلع بأجنحة شخصية صارت موضع الإعجاب إلى حد العبادة وأعطته منزلة فوق البشر كأنه «سوبرمان». وكان هذا الصعود غير الصحي نتيجة أخرى لأزمة الإخوان المسلمين. ففي سنوات الازدهار خلال السبعينات، عندما كانت حركة العمل نشيطة والمال وفيراً، لم يكن هذا التضخيم للقائد ضرورياً. إذ أن بحبوحة البلد كانت تتحدث عن نفسها. ولكن عندما بدأ الركود

يترك أثره العضوض، وتحطم السلام على يد المقاتلين الإسلاميين، شُنّت حملة علاقات عامة دعائية امتدُح فيها الأسد بنفاق بغيض لم يسبق له مثيل في سوريا الحديثة.

وكان مخترع طقوس عبادة الشخصية هو أحمد اسكندر أحمد، وزير إعلام الأسد من أول أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٤ حتى وفاته في غير أوانه بسرطان المخ في ٢٩/كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٨٣، فكان واحداً من أطول الوزراء بقاء في منصبه خلال رئاسة الأسد، وأقربهم إليه. وكان صحفياً علوياً موهوباً من حمص، وقد لفت نظر الأسد خلال حرب تشرين عندما كان يصدر مرتين كل يوم صحيفة أخبار يكتب فيها افتتاحيات ترفع المعنويات. وعندما ارتقى إلى منصب وزير الإعلام قام بتنظيم وتنشيط أجهزة إعلام سوريا بتجميع الرجال السبعة المسؤولين عن الإعلام في فريق مترابط (وهم: مدراء الإذاعة، والتلفزيون والصحف اليومية الثلاث: البعث، والثورة، وتشرين، ووكالة أنباء الدولة: سانا، ومؤسسة الإعلان والتوزيع الصحفي) - لزيادة تمجيد الأسد. وكان مفتاح نجاحه هو قدرته على التقاط وتفهم اتجاه تفكير الأسد وتهيئة الرأي العام لتغيرات السياسة. وفي فورة اتقاد الحماس السياسي العربي يكون وزراء الإعلام شديدي الأهمية؛ وكان أحمد اسكندر أحمد بالنسبة للأسد يشبه إلى حد كبير ما كان محمد حسنين هيكل بالنسبة لعبد الناصر: أي وكيل النشر والإعلان، وبوق الدعاية، وصانع الصورة، وكان الدليل على عبادة الشخصية هو تكرار الجميع لاسمه باستمرار، وصوره الضخمة المعلقة في المباني البارزة، وتماثيله العديدة التي أقيمت من أقصى البلد إلى أقصاه، كالتمثال البرونزي الثقيل الغارق في التفكير الجالس على مدخل مكتبة الأسد الجديدة التي افتتحت في دمشق عام ١٩٨٥.

غير أن الرجل الذي كان موضع هذا الملق قد بدأ يهرم خلال سنوات الأزمة. فكان يأكل بشكل غير منتظم، ونادراً ما كان يخرج لاستنشاق الهواء

الطلق، بل يعمل في مكتبه المغلق بستائر ثقيلة أربع عشرة ساعة بلا توقف حتى أضرّ ذلك بصحته فأصابه الضنى والهزال. ولم يعد ينام إلّا غراراً، ونشأت لديه عادة مقلقة هي استدعاء أحد مساعديه أو سفير صديق إلى منزله في منتصف الليل من أجل حديث بلا كلفة قد يطول حتى الثالثة صباحاً، وعندئذٍ ينادي الأسد واحداً من الحراس ليقدم لضيفه فنجاناً من القهوة (ذلك لأن أهل بيته يكونون قد أووا إلى فراشهم منذ مدة طويلة) وفي عام ١٩٧٧ بنى دارة كبيرة على شاطىء المتوسط شمال اللاذقية أصبحت تعرف بين العامة باسم قصره الصيفي، وهي تسمية فيها شيء من المبالغة. وكان خلال السنوات الصعبة يذهب إليها لينفرد بنفسه ويتأمل في القضايا ويفكر في ردّه على الأحداث وكان يحب في خلوته أن يركز على مشكلة واحدة، يتصارع مع مختلف جوانبها، ويديرها في ذهنه، وينام وهو يفكر بها ليستيقظ في الصباح ولديه أفكار جديدة.

وربما لم تكن الخشية من الاغتيال هي السبب الوحيد، ولا حتى السبب الأساسي لعزلته. ولعله جعل الابتعاد مبدأ من مبادىء حكمه وفقاً للقول المأثور عن ميكيافيللي بأن المرء لكي يقود الرجال، يجب أن يدير ظهره لهم.

وأصبح الوصول إلى الرئيس مقياساً لمدى النفوذ، وصار هذا الوصول من أندر السلع التي يقيسها الأسد بعناية دقيقة وقد حافظ على التوتر بين مرؤوسيه من خلال جعل الوصول إليه والتحدث معه أقل أو أكثر صعوبة، والظهور وكأنه يستمع إلى أحدهم باهتمام أكثر من استماعه لزملائه، ومنح عطفه ورعايته لواحدٍ منهم أولاً ثم لآخر. ولم يعد وزراء الحكومة يرونه سوى مرتين خلال مدة خدمتهم: مرة عندما يقسمون اليمين، ومرة عند مغادرة المنصب. وظهرت هوة كبيرة جداً فصلت الأسد على قمة النظام عن الرجل التالي له، والذي راح يغيره من حين لآخر؛ وهوة أخرى ولكنها أصغر تفصل بين الشخص المقرب منه في وقت ما، وبين بقية المجموعة الحاكمة.

ومنذ أوائل أيامه في السلطة، حتى عندما كان لا يزال وزيراً للدفاع في

أواخر الستينات، كانت علاقاته بزملائه تميل إلى أن تكون رسمية. وحتى أقدم رفاقه في الجيش، مصطفى طلاس، كان يقرع الباب بطريقة مهذبة قبل أن يدخل مكتبه. غير أن السلطة الرئاسية قد جاءت معها بمزيد من الرسميات. وفي الثمانينات لم تعد هناك علاقات اجتماعية بينه وبين زملائه، فلا دعوات إلى البيوت، ولا حتى زيارات مجاملة في أيام الأعياد. وقد تستقبل زوجته أحياناً في بعض المناسبات زوجات بعض الشخصيات القيادية، ولكنها هي نفسها تعيش حياتها بكثير من التحفظ (فلا تظهر سوى فترة قصيرة مرة واحدة في العام في مؤسسة أبناء الشهداء) وكان ذلك هو أقرب ما وصل إليه أي شخص من علاقات الصداقة مع الرئيس وزوجته.

أما بالنسبة لمساعديه وموظفيه فإن تعذر الوصول إليه قد عززته حقيقة أنه لم يكن يعمل في ساعات منتظمة. كان لديه مكتب في بيته وآخر في القصر الجمهوري، ولم يكن أحد يعلم أيَّ المكتبين سيستعمل في أي صباح، ولا متى سيأتي للعمل فيه. كان نهاره طويلاً ولكنه خلو من أي روتين أو مواعيد ثابتة. وعلى مائدة الإفطار يقرأ الملخصات التي يعدها له مدراء الأمن والمسؤولون عن جمع الأخبار، ثم يهيىء برنامج بقية يومه على طريقته الخاصة وبلا عجلة. وكان ذلك يعني فيما يعنيه أن ينتظر السفراء الأجانب شهوراً لتقديم أوراق اعتمادهم، وكان الزائرون الهامّون يُتركون منتظرين أياماً بكاملها في بعض الأحيان، وتتراكم أوراق الدولة بانتظار توقيعه. وكان أسبوعه غير منتظم كأيامه. فالأسد لم يكن يأخذ عطلة في نهاية الأسبوع، وقد بعُد العهد بآخر مرة ذهب فيها الأسد ليتمتع بعطلة حتى لم يعد أحد يذكر متى كان ذلك. صحيح أن أيام الجمعة، وهي يوم راحة المسلمين، كانت تشهد تراخياً في العمل، ولكن موظفيه يتواجدون فيها في مراكزهم كما في أي يوم آخر، والأسد يتوقع أن يتمكن من الاتصال بمساعديه الهامين بواسطة الهاتف.

كانت أداته المفضلة في الحكم هي الهاتف. في السبعينات كان يحكم

عن طريق ترؤس الاجتماعات، ومصالحة الآراء المتعارضة، وبالتواجد جسدياً في مركز الأشياء. أما في الثمانينات فقد أصبح بالنسبة لمعظم الناس صوتاً على الهاتف بلا جسد. وأصبح حضوره الاجتماعات نادراً جداً، ولكن موظفيه يعُون دائماً أنه يراقب، وسيلتقط سماعة الهاتف إذا كان أداؤهم قاصراً. وبدا أنه يقضي أفضل جزء من يومه على الهاتف، غير أن الاتصالات الهاتفية تبدأ منه دائماً. وليس هناك سوى حفنة من الأشخاص، ربما لا يزيدون على ثلاثة أو أربعة من مسؤولي الأمن لهم الحق في طلبه بالهاتف. أما الآخرون ـ بما فيهم حملة أعلى المناصب في البلد ـ فعليهم أن يقنعوا بإيصال الرسائل أو تلقي التعليمات من خلال أبي سليم، سكرتيره الخاص. فرئيس الوزراء، وأعلى القادة العسكريين والحزبيين ورؤساء مؤسسات الدولة يعيشون يقظين مستنفرين توقعاً لمكالمة هاتفية من المعلم. فقد يطلب إيضاحاً ويحتاج إلى رقم فيريده على الفور. فالرئيس يخبرهم بصراحة عندما يكون غير راض عن عملهم. وكانت طريقته الجازمة المقتضبة في هذه المكالمات تتناقض مع الاستطراد المتمهل في محادثاته مع الزوار الأجانب. وكان من المعروف عنه أنه لا ينسى ولا يغفر الغدر أو العصيان.

وكان معنى طريقته هذه إحجام زملائه عن تقديم أية نصيحة دون أن يطلبها منهم، فأخذوا يفضلون أن يخمنوا لعلهم يحزرون ما الذي يدور في خلده. ومع ذلك فإن الأسد في سيطرته على الآخرين لا يلجأ إلى نوبات الغضب، أو ضرب الطاولة، ولكنه مؤدب دائماً، يعتمد بدلاً من ذلك على خبرته العظيمة، وعلى حقيقة أنه كما صنعهم، يستطيع أيضاً أن يحطمهم. فالمرتبطون به يحترمونه كرجل عظيم، دون أن ينسوا مطلقاً أنه هو الذي رفعهم من بين الصفوف وأن مستقبلهم ومستقبل عوائلهم يعتمد كلياً على فضله.

ولسبب وجيه، صار الناس في الغالب الأعمّ خائفين من الخطأ، ولم يعودوا يجرؤون على أخذ زمام المبادرة، وكان من نتيجة ذلك أن طاولة الأسد

راحت تئن من وطأة ثقل القضايا التافهة التي تراكمت عليها. وهو يتذمر أحياناً: «ليس هذا من عمل الرئيس». ومع ذلك ففي مثل هذا النظام الشخصي، قد تكون هناك حاجة إلى حكم منه لحسم قضايا صغيرة تماماً. فمثلاً: كتب طالبان في كلية الطب كتاباً، وأمّنا كلمة تقديم له بقلم طبيب بارز ثم دفعاه إلى المطبعة ـ ولكن دون أن يحصلا أولاً على موافقة الهيئة التدريسية في كلية الطب بالجامعة كما تقضي بذلك التعليمات. فأراد عميد الكلية أن يفصلهما، وأراد وزير التعليم العالي أن يؤجل امتحانهما النهائي سنة، وتطلب الأمر تدخل الرئيس لحل هذا الإشكال[١].

يقول الأسد إنه يكره إعطاء الأوامر. فقد حث وزراءه ونواب الوزراء، وقادة الجيش، والمدراء العامين لمشاريع القطاع العام ورئيس الوزراء نفسه على التصرف بمبادرات منهم. الدكتور الكسم، الذي خدم الأسد كرئيس للوزراء قرابة ثمانية أعوام، وكان يمشي ببراعة على الحبل الدقيق بين الرجوع إلى فهمه لشخصية رئيسه: «كان بإمكانك أن تجادله، وعندئذ يستمع إليك، ولكن كان عليك أن تكون متأكداً من أن لديك قضية مقنعة ومحقّة، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً دائماً. لم يصدر أوامر، بل الحق أنه كان يرفض ذلك. وحتى عندما كنت أقول له: «ما رأيك لو أنني فعلت كذا وكذا؟ كان يجيب: أنت رئيس الوزراء، لا أنا، افعل، وسنرى، فإن كانت النتيجة جيدة فسأقول لك: مرحىٰ.. أما إذا لم ...»[٢]

كما لم يظهر أن الأسد بحاجة إلى نصيحة أو مشورة؛ وحسب مقاييس معظم الدول الحديثة كانت مكاتبه في القصر الجمهوري تتصف بقلة الموظفين إلى حد كبير جداً. كان مساعدوه الأساسيون يقتصرون على سكرتير خاص، ولواء يتولى أمور علاقاته بالجيش. وكان من أهم أقسام الرئاسة مكتب الأخبار والإعلام، الذي كان يتولى مراقبة الصحافة والإذاعات الأجنبية، ويجهز له ثلاثة

ملخصات يومياً . . كما يتولى كل شيء يتعلق به في أجهزة الإعلام. ومنذ أوائل الثمانينات كان يترأس هذا القسم البروتستانتي السوري جبران كوريه، الشخص العنيد الجادّ إلى حد الصرامة والذي تسلّم منصبه خلفاً للفلسطيني أسعد كامل إلياس الذي ظل سنوات عديدة المترجم الرئيسي للأسد، ومدون الملاحظات، وكاتب الخطابات والخطب. ولكن، مهما كانت قدرة هؤلاء الرجال وجديتهم في عملهم فقد كانت الرئاسة دائماً تدار على الطريقة القديمة، بلا أرشيف مناسب أو مضبوط، ولا بحوث مناسبة أو مضبوطة ولا دعم سكرتاري، ولا أجهزة كمبيوتر أو حاسبة إليكترونية، ولا جهاز إداري يتناسب والدور والصورة اللتين أحرزتهما سوريا في العالم. لم تكن هناك تسهيلات لطبع الرسائل بالإنكليزية، وكان العثور على وثيقة مّا قد يستغرق يومين أو ثلاثة أيام. وقد وقعت حادثة محرجة في عام ١٩٨٤ عندما أرسل الرئيس ريغان برقية تحية بمناسبة حلول شهر رمضان فوضعت في غير محلها ولم تجد طريقها إلى الأسد إلاّ بعد عشرة أيام من تاريخ إرسالها!.

ورأى الأسد نفسه وصياً على مؤسسات سوريا وحكماً بين المصالح المتنافسة، وكان يقول: «أنا رئيس البلد، وليس الحكومة»[٣]. وكان يقول إن سوريا تحكمها قيادة جماعية، وإن كبار ضباطه، وزملائه الحزبيين ووزرائه يرجعون إليه فقط كما يمكن أن يستشيروا أخاهم الأكبر. ولكن سلطته كانت من الاتساع، وسيطرته على التفاصيل كانت من الإحكام بحيث إنه كان بلا شك صانع القرار النهائي في كل الأمور صغيرها وكبيرها.

أدى الاندحار النهائي للإخوان المسلمين إلى تغيير معين في حياة عائلة الأسد. فبعد حالة الطوارىء أعيد ترتيب «الفيللا» التي يعيش فيها مع زوجته وأولاده الخمسة، فتم توسيعها وإعادة تأثيثها، رغم أن الأسد طلب إزاحة وإبعاد طقم أثاث مذهب من طراز لويس الرابع عشر وضعه مصمم الديكور. وكان التصميم الجديد واسعاً ومريحاً بما فيه الكفاية لاستقبال رؤساء الدول وغيرهم

من الزوار المهمين، فقد ظل البيت لا يزيد على بيت رجل مهني ناجح ليس فيه شيء من أبهة قصور ألف ليلة وليلة التي يعيشها فيها ملوك ورؤساء دول أخرى في المنطقة. بيد أنه كان بعيداً كذلك عن حياة الأسد المنزلية الشديدة البساطة في أوائل السبعينات. ويتذكر متعهد بنى ملجأ ضد القنابل والغارات في بيت الأسد (عام ١٩٧٣) الذي كان مدخله يفضي إلى غرفة الغسيل. كان العمال عندما يصلون في السادسة صباحاً يشربون القهوة مع الرئيس الذي يجدونه مستيقظاً في ذلك الوقت المبكر، ثم تدخل زوجته نازلة لتضع الغسيل في الغسالة ولتهيء وجبات الطعام لزوجها في المطبخ. أما في الثمانينات فإن البيت أخذت تظهر فيه طباخة وخادمة. ولكن الأسد احتفظ بالسرير الذي كان ينام عليه قبل خمسة عشر عاماً عندما كان وزيراً للدفاع، والكرسي التي كان يجلس عليها عندما استلم السلطة للمرة الأولى. لقد كان مهتماً بالسلطة، وليس بزركشاتها.

وقد خفّت نوعاً ما مظاهر الاعتدال الرصين لحياة الأسد المنزلية في الثمانينات عندما كبر أطفاله وصارت لهم صداقاتهم الخاصة بهم. وكانت أكبرهم، بشرى، هي المفضلة لدى أبيها، وهي شابة أنيقة طويلة وجهها يطفح بالحيوية ويتهدل حوله شعرٌ بـنيٌّ وضاء. وقد تخرجت كصيدلية من جامعة دمشق، حيث تبعها إخوتها في الوقت المناسب، فباسل، الابن الأكبر للأسد، درس الهندسة المدنية، وهو شاب جاد ومصمم، يهتم بأجهزة الكمبيوتر، ورياضي يجيد ركوب الخيل، وركوب البحر، والرماية، والقفز بالمظلات. أما بالنسبة للأولاد الثلاثة الأصغر، فإن بشاراً قد درس الطب، ودرس ماهر إدارة الأعمال، بينما درس أصغرهم، مجد، الهندسة الكهربائية. ولقد أصرّ الأسد على أن يكملوا تعليمهم في سوريا، على عكس أبناء بعض الوجهاء الذين يفضلون الجامعات الأجنبية. وفي الكليات درس أبناء الأسد بجد واجتهاد لأنهم كانوا يعون واجبهم في أن يكونوا القدوة والمثل. وكانوا يرتدون الزي الجامعي المطلوب الذي يشبه الزي العسكري. وكان واضحاً أن سلوكهم جيد، على

عكس «الشباب الذهبي» للنظام الذين يرتدون آخر موضات الأزياء، ويتشاجرون مع أساتذتهم، وتشكل طريقة قيادتهم الطائشة لسياراتهم أشدّ الأخطار في شوارع العاصمة. فابنة أحد مدراء الأمن مثلاً كانت تذهب إلى امتحاناتها مع حشد من الحرس وتصرّ على أن يساعدها الأستاذ على كتابة أجوبتها.

وكانت الروح السائدة لدى عائلة الأسد هي الخجل والتمسك بأهداب الخُلُق القويم. كان الأولاد شديدي الولاء لأبيهم، ومع ذلك فإنهم عندما كبروا لم يعودوا يرونه إلا نادراً، وتذكر باسل: «كنا نرى والدنا في البيت، ولكنه كان مشغولاً إلى درجة أن ثلاثة أيام كانت تمر أحياناً دون أن نتمكن من التكلم معه. فلم نتناول الإفطار أو العشاء معاً قطّ، ولا أذكر أننا تغدّينا معاً كعائلة، إلا مرة أو مرتين في مناسبات رسمية. كنا نقضي يوماً أو يومين معاً كعائلة في اللاذقية في الصيف، ولكن حتى هناك كان والدي ينهمك في العمل في مكتبه فلا نراه كثيراً»(٤).

مبـــدأ الأمـــن

إن الخشونة المروعة التي اكتسبتها شخصية الأسد في الثمانينات كان سببها هنري كيسنجر والإسرائيليون. فقد كان تلاعب كيسنجر بالشرق الأوسط لمصلحة إسرائيل هو الذي حطم آمال الأسد في إمكانية تحقيق تسوية مشرفة، وأبرز فيه بعض ملامح شخصيـة صلاح الدين.

فقد جاء الأسد إلى السلطة ولديه فكرة أن العرب إذا استطاعوا فقط أن ينهضوا من كبوتهم بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ويظهروا شجاعتهم، فإن عدالة قضيتهم سوف تتضح، وسوف يرى العالم كله، وإسرائيل نفسها مدى الحكمة في عقد صفقة عادلة. وكان مثل هذا التفكير المتفائل هو الذي أنتج حرب تشرين التي خطط لها بجهـد لاستعادة الأراضي المفقودة وفتح الطريق للمفاوضة. ورغم أن الحرب كانت خيبة أمل عسكرية فإن الأسد كان بعدها

مستعداً للسلام مع إسرائيل ولعلاقة جديدة مع الولايات المتحدة التي ظنّ أنها تريد فعلاً تسوية شاملة. لقد كان هذا عصر البراءة.

ثم بدأ التآكل البطيء للأمل، وتشتت الوهم وانكشافه باطراد. كانت الصدمة الأولى هي إبعاد مصر من ميدان القتال باتفاقية سيناء الثانية لفصل القوات عام ١٩٧٥، ورغم ذلك، وخصوصاً بعد ظهور جيمي كارتر على مسرح الأحداث، ظل الأسد متمسكاً بإمكانية تحقيق السلام في مؤتمر دولي لجميع الأطراف بإشراف الدولتين العظميين.

وبحلول عام ١٩٧٨ تغيرت حالة الأسد النفسية، كان تخريب إسرائيل لسياسة كارتر المتعلقة بالشرق الأوسط، الذي توج بعقد معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية هو النقطة التي فقد عندها الأسد ثقته بحسن نوايا أميركا. كما أن سلوك إسرائيل العدواني بعدها أقنعه بأنها ليست مستعدة للتعايش مع جيرانها. وبدأ إدراكه لإسرائيل يكتسي عبوساً مظلماً. ذلك أن فوز مناحيم بيغن في الانتخابات، واستيطان الضفة الغربية، وتدمير المفاعل النووي العراقي، وضم مرتفعات الجولان السورية، واتفاقية التعاون الاستراتيجي الأميركية ـ الإسرائيلية، وغزو لبنان، كانت في نظره أدلة على أن إسرائيل عدوانية توسعية بشكل لا يمكن شفاؤه، وأنّ ما تسعى إليه لا يقل عن السيطرة على المنطقة، واستسلام العرب. ومع مثل هذا الجار لم يعد بالإمكان تصور السلام. وظل الأسد مع ذلك حريصاً على أن لا يغلق الباب في وجه التسوية، ولكن مطالب إسرائيل القصوى المتشددة أبرزت مطالب قصوى ومتشددة لدى الأسد. فتم إحياء النظرة القديمة الكامنة عند العرب والتي ترى في إسرائيل جسماً غريباً في آسيا العربية، هو نتاج استعمار غربي عتيق تجاوزه الزمن، وأنه لا يستطيع العيش في بيئة عربية.

ولم يستطع الأسد أن يغفر للولايات المتحدة دورها في تعكير الجوّ، وكان غضبه ينصب خصوصاً على تشجيع واشنطن لإسرائيل على إقامة ترتيبات سلام

منفرد مع كل قطر عربي على حدة، وكان محقاً في حكمه على تلك السياسة بأنها تعطي الميزة لإسرائيل وتنسف الأمن العربي، وتتجاهل الشعور العميق بالمصير المشترك الذي يوحّد الشعوب العربية.

وبعد هذه الإحباطات ألقى بنفسه في المعسكر المعادي لأميركا متحدياً. فمثلاً عندما احتل الطلبة الثوريون السفارة الأميركية في طهران واحتجزوا موظفيها كرهائن في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٧٩ أعلن الأسد تأييده لإيران. وبعد شهر، عندما دخلت القوات السوفياتية إلى أفغانستان، كان واحداً من القادة القلائل خارج المعسكر الاشتراكي الذين لم يدينوا الغزو. وعند أخذ التصويت حول الأزمة الأفغانية في الأمم المتحدة في كانون الثاني/يناير عام ١٩٨٠، امتنعت سوريا عن التصويت. كان الأسد يشير إلى كل من يكلف نفسه أن يلاحظ بأن سوريا، في مواجهة انحياز واشنطن، ليس لها خيار سوى التوجه للاتحاد السوفياتي؛ ثم وقّع (في ٨/تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٠) مع بريجنيف في موسكو اتفاقية للتعاون والصداقة أمدُها عشرون عاماً. ولقد ظلّ طويلاً يقاوم مثل هذا الارتباط. أما الآن فقد جاءت المبادرة منه لإقامته، وهذا شيء له دلالته ومغزاه. فقد بقي ممتنعاً عن مثل هذا التحالف طالما بقيت له ثقة في عدالة الدبلوماسية الأميركية، ولكن انهيار كارتر تحت الضغط الإسرائيلي جعله يرى أن السوفيات لديهم الرادع الوحيد الذي فيه مصداقية ضد غطرسة بيغن الخطرة. وكان من المؤشرات الأخرى على موقفه المعادي للغرب صداقته للقذافي المولع بالقتال والمقاومة. فقد سافر إلى ليبيا لحضور الذكرى السنوية لثورة القذافي في الفاتح من أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٩، وفي غضون أشهر قليلة أعيد إحياء جبهة الصمود والتصدي المكونة من سوريا، وليبيا، والجزائر، واليمن الجنوبي ومنظمة التحرير الفلسطينية، والتي كانت قد تألفت في الأصل كردّ على زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧. ومن طرابلس توجه إلى كوبا لحضور مؤتمر لقادة دول عدم الانحياز. وكانت تلك إشارة تحدٍّ وازدراء لواشنطن.

وبعد فقدان مصر في عام ١٩٧٨ كان الأسد يأمل في تعديل الميزان الاقليمي في المنطقة بتحالف مع العراق، القطر العربي الوحيد الذي قدم لسوريا مساعدة عسكرية فعالة في حرب تشرين. ورغم أن الحزبين الحاكمين كانا على غير وفاق، فإن الضغط الشعبي من أجل علاقات أوثق قد جعل المحور السوري ـ العراقي خياراً ذا مصداقية، لبضعة شهور على الأقل. غير أن انهيار هذه الآمال والتوقعات، وانغماس العراق الكلي في الصراع مع إيران قد جعل الأسد يعيد رسم خارطته للشرق الأوسط بشكل أساسي. فلقد خسر مصر، وانقطعت علاقته بصدام حسين ووجد نفسه في مواجهة بيغن الخطر الذي يشجعه ويشد من أزره رونالد ريغن دون أي انتقاد. وأرغمه هذا التحدي على أن يعيد التفكير في استراتيجيته الإقليمية، ونجمت عنه السياسات والأفكار التي أصبحت بعد ذلك مرتبطة باسم الأسد.

ولقد كان الأسد دائماً رجلاً صبوراً. قادراً على استعمال النفس الطويل في نظرته إلى الخصومات مع منافسيه العرب، وإلى الصراع مع إسرائيل. فكان يعتقد بأن الزمن إلى جانب العرب، ولذلك أشار على الزعماء الآخرين بأن لا يتعجلوا، وأن لا يتفاوضوا بتهور، وأن لا يقدموا تنازلات من مواقع ضعف. وشعر بأن العرب ميالون أكثر من اللازم للقلق حول كيفية حل مشاكل إسرائيل بدلاً من حل مشاكلهم هم. فحثهم على الوقوف والتصدي والصمود.

وصارت هذه الأفكار أساس مبدأ الأمن: فقد كان على سوريا أن تبقي الصراع قائماً ـ بمساعدة السوفيات وأية مساعدة عربية تستطيع تجميعها، ولكن قبل كل شيء بالاعتماد على نفسها. وبما أنها الحاجز الوحيد الباقي في مواجهة أطماع السيطرة الإسرائيلية، فقد كان عليها أن تقف وحدها إن دعت الضرورة. وتفرعت عن هذا المبدأ نتيجتان طبيعيتان لازمتان: أولاهما الحاجة الحتمية لحماية منطقة قلب المشرق، وسوريا في مركزها، والثانية هي الطموح لتحقيق التوازن مع إسرائيل أي ما كان الأسد يحب تسميته «التوازن الاستراتيجي

الشامل» وكانت النتيجة الأولى دفاعية في جوهرها، أما الثانية فكانت أقرب إلى منصة انطلاق من أجل مزيد من العمل، سواء في الحرب أو في السلم.

كان شعور الأسد بأنه عرضة لخطر متزايد هو الذي أرغمه على السعي لمد نفوذه على بيئته المباشرة لمنع إسرائيل من الاستدارة عليه من الجانب، عبر إحدى خاصرتيه. وكان الدفاع عن دمشق يستدعي منع لبنان، والأردن، والفلسطينيين من الدخول في مفاوضات ثنائية أو عقد صفقات منفصلة مع إسرائيل، كما فعل السادات. إذ أن أيّ اتصالات من هذا القبيل ستزود إسرائيل بمنطلق للدخول إلى المشرق العربي فتمكنها من تجزئته والسيطرة عليه، وتحييد القوة السورية خلال تلك العملية التمزيقية. إن أمن الأسد نفسه، وما فهمه على أنه أمن العرب عموماً قد جعله يصرّ على أن تتبع بيروت، وعمان، ومنظمة التحرير الفلسطينية سياسات تنسجم مع سياسته.

فمثلاً، عندما جمع الملك حسين مؤتمر قمة عربي في عمان في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٠ ليكسب الدعم لوجهة نظره حول مفاوضات مع إسرائيل تؤدي إلى اتحاد فيدرالي بين الأردن والضفة الغربية، قاطع الأسد ذلك المؤتمر، ثم حرك قواتٍ إلى الحدود الأردنية. ولم يكن لديه أدنى شك في أن سوريا لها الحق في التدخل عسكرياً ضد الأردن لمنعه من تهديد مصلحة سوريا، ومصلحة العرب القومية عموماً(٥).

وفي رؤية الأسد لكيفية مجابهة إسرائيل كانت فكرة التوازن تحتل موقع صدارة مركزي أكثر حتى من الدفاع عن المشرق. وكانت هذه أقوى نقاط افتراقه الأساسية الجذرية عن الإجماع العربي نحو نزعة انهزامية نوعاً ما سادت حتى ذلك الحين. وقد توصل الأسد إلى هذه الفكرة من مراقبته المتشائمة لدبلوماسية السلام الساداتية. وكان يرى أن السادات لم يقم سلاماً مع إسرائيل. بل استسلم، وسيناء لم تحرر، بل إن مصر نفسها قد كبلت بالسلاسل. واستنتج أن السلام ليس للضعفاء. وكانت هذه بديهية راح يرجع إليها مراراً وتكراراً(٦).

فالتوازن لم يكن مجرد تعادل في القوة العسكرية مع إسرائيل، بل في مضاهاتها بكل شيء، في الثقافة، والتقنية، والتقدم الاجتماعي، والتحالفات الخارجية وكذلك في القوة المسلحة الصرفة. ولـذلك فـإن توقيـع اتفاقيـة التعاون الاستراتيجي الأميركية ـ الإسرائيلية قد أعطى دفعاً جديداً لتـوكيد طـريقة تفكيره(٧).

وكان لدى الأسد وعي حاد بالإهانات التي عانى منها العرب على يد إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ نتيجة لضعفهم. فإن لم يرتفعوا بأنفسهم إلى مستوى إسرائيل فلن يستطيعوا شن الحرب، ولا التفاوض من أجل السلام. ذلك أن انعدام التوازن على هذا النحو الصارخ لا يمكن أن يؤدي إلّا إلى الاستسلام مهما كان نوع الزخرفة التي يُجمّل بها الاستسلام. وإن حالة الأمر الواقع من «اللاسلم واللاحرب» أفضل من حرب لا يمكن كسبها أو سلام مفروض فرضاً. وقد رفض الأسد حضور مؤتمر قمة فاس الأول في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨١ الذي قدم فيه الأمير فهد، وليّ عهد السعودية (الذي أصبح ملكها فيما بعد) مشروع سلام اعتبره الأسد سابقاً لأوانه.

كان لبّ مقولته وحجته أن التسوية الحقيقية تتجاوز إعادة الأراضي إلى إعادة النظر في علاقة القوة كلها بين إسرائيل والعرب لمعرفة: أي إرادة سوف تسود في المنطقة؟ قد يستعيد العرب الأرض، فقط ليعيشوا في خوف مستمر من خطوة إسرائيل التالية. فما فائدة استعادة مصر لسيناء إذا كان الثمن بقاء مصر بلا أسنان، وفقدان وزنها الإقليمي؟ وما الفائدة من استعادة الأردن للضفة الغربية إن كانت ستصبح تابعاً ذليلاً لإسرائيل؟ بل وما فائدة استعادة سوريا للجولان إن كانت ستفقد رسالتها العربية ومناصرتها للحقوق الفلسطينية؟.

وفي تصوره العام للأشياء رأى أن المشكلة الفلسطينية أهم من أن تُترك للفلسطينيين، لأنها أكبر بكثير من قضية أرض متنازع عليها أو مصير بضعة مئات الألوف من اللاجئين. إنها الشأن الذي يهم العرب جميعاً وإن الطريقة التي

تسوّى بها ستقرر طبيعة النظام الذي سوف يعيش العرب في ظله، والمعنى الذي سيكتسبه استقلالهم، وإن أية تسوية «خاطئة» وغير سليمة (مثل اقتراح «الحكم الذاتي» للفلسطينيين تحت مظلة إسرائيلية أو أي نوع من الاتفاق الأردني - الإسرائيلي حول الضفة الغربية) سوف تبقي على هيمنة إسرائيلية دائمة وتضع العرب في موقف ضعف استراتيجي دائم. وكانت هذه النظرة الشامخة إلى الضرورات العربية القومية الحتمية أكثر من مسألة الحاجة إلى الدفاع، كانت هي جوهر خصومات الأسد الطويلة مع السادات، وحسين، وعرفات، الذين وقعوا - في أوقات مختلفة - تحت إغراء القبول بتسويات جزئية.

رفض الأسد أية تسوية إقليمية تفرضها القوة العسكرية الإسرائيلية ورأى أن المعاهدة المصرية - الإسرائيلية هي تسوية من هذا القبيل، بل رفض أي سلام يقوم في مقابل الاعتراف بتفوق قوة إسرائيل. وفي محادثاته مع المبعوثين الأميركيين كان يحاول إقناعهم بأن مفتاح السلام في الشرق الأوسط لا يكمن في تفوق إسرائيلي بل في توازن عربي - إسرائيلي على غرار التوازن بين الشرق والغرب. وكان ينظر إلى المشكلة كما ينظر إليها الإسرائيليون تماماً، ويتطلع إلى أن يكون ضامناً للسلام، وإلى أن يكون من القوة بحيث يرغم العدو على المحافظة على السلام. وقد رفض أي سلام يقوم على قوة إسرائيل وحدها واعتبره «سلاماً» غير مستقر، بل مذلاً للعرب.

إن المقولات الثابتة في تفكير الأسد في السنوات التي تلت كامب ديفيد كانت تتضمن ضرورة احتواء إسرائيل ووضع حد لما كان يراه نزعة توسعية متأصلة في طبيعتها، وإرغامها على ترك العدوان عن طريق نظام للردع المتبادل. ولكنه بمطالبته بالتوازن كان يتحدى المذهب الذي تتمسك به إسرائيل وهو: حاجتها إلى أن تكون أقوى من أي تجمع عربي ممكن. وبما أن إسرائيل لم تُظهر أي ميل للتخلي عن ميزة تفوقها العسكري، كما أن الولايات المتحدة لم تظهر أي تردد في التزامها بذلك، فقد بدا برنامج الأسد غير واقعي إلى حدّ

ما. كما أن تصميمه على الوقوف وحده قد جرّ عليه أحياناً تهمة كونه عقبة في سبيل السلام، وبالإضافة إلى ذلك فإن سوريا كلما اقتربت من تحقيق التوازن مع إسرائيل كانت هذه ترى أن ذلك تهديد غير مقبول يجب معالجته. وهكذا قاتلت إسرائيل الأسد في لبنان وظلت التهديدات بحرب أخرى تشتد وتخبو طيلة الثمانينات. غير أن تصميم الأسد لم يتزعزع عبر السنوات، وقد شعر بالرضا لدى رؤ يته أن العالم العربي بدأ يميل إلى طريقته في التفكير والنظر إلى الأمور.

سوريـــا الكبـــرى

أدى تركيز الأسد على المشرق حتماً إلى اتهامه بأنه يريد إقامة سوريا الكبرى، وهذا مفهوم له رنين محلي كبير أثار مخاوف لدى منافسيه العرب، ناهيك عن الغرب وإسرائيل.. وعندما بدأ يضغط لاجتذاب لبنان والأردن والفلسطينيين إلى فلكه طرح السؤ ال عما إذا كان الأسد يحتفظ بطموحات قومية سورية تحت ستار تمويه بعثي. كان في عدة أوقات من حياته قد أدلى بتصريحات ذات نكهة قومية سورية. فمثلاً عندما زعمت غولدا مائير بأن الجولان إسرائيلي، ردّ عليها الأسد في ٨/أذار/مارس سنة ١٩٧٤ بأن فلسطين نفسها جزء أساسي من سوريا الجنوبية. وفي نيسان/أبريل سنة ١٩٧٥ في المؤتمر القطري السادس لحزب البعث قال الأسد انه لا تناقض بين وحدة سوريا الطبيعية والتطلع إلى وحدة عربية. وعندما أرسل جيشه إلى لبنان كما لو أن ذلك كان من حقه في عام ١٩٧٦ صفق القوميون السوريون لهذا التحدي العلني للحدود التقسيمية التي فرضها الاستعمار على «الوطن السوري». وفي ذلك الوقت اتصل حزب البعث بالحزب القومي السوري الاجتماعي بعد عشرين سنة من القطيعة إثر اغتيال عدنان المالكي في عام ١٩٥٥. وكانت تلك هي الخطوة الأولى في مصالحة جزئية علنية. وكانت الفكرة تتلخص بأن أهداف هذين الخصمين القديمين لم تعد متباعدة كثيراً. «فاستراتيجية الأسد القومية»

في مقاومة إسرائيل في لبنان توافقت مع «العقيدة القومية» للحزب القومي السوري في إعادة تركيب سوريا الطبيعية[٨]. (ولعلها لم تكن صدفة أن يقوم وزير دفاع سوريا مصطفى طلاس، الذي يدير أيضاً داراً للنشر، بطبع كتاب «نشوء الأمم» في الثمانينات ، وهو الكتاب الذي حمل بذور أفكار مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي أنطون سعادة (١٩٠٤ ـ ١٩٤٩) والذي طُبع لأول مرة في عام ١٩٣٨ وناقش فكرة الهوية السورية الفريدة المتميزة.)

غير أن هذه المؤشرات لم تصل إلى درجة تقديم قضية مُقنعة، بل كانت هناك في الحقيقة أدلة معاكسة تثبت أن الأسد لم يكن مقتنعاً بأفكار القوميين السوريين الرومانسية الحالمة. فمثلاً لقد بذل الأسد كل جهد ممكن وشدّ كل عصب من أعصابه للحفاظ على الترابط بين مصر وسوريا إلى أن انقطع ذلك الرباط بكامب ديفيد، بينما كان القوميون السوريون يعارضون الارتباط المصري السوري لاعتقادهم بأن القومية السورية ـ وحدة الأرض السورية وشعبها ـ هي شيء متميز عن العالم العربي الاوسع، وهكذا كان الأسد مختلفاً معهم حول مصر.

كان قومياً عربياً ملتزماً منذ صباه، وهكذا صاغ مبدأ أمن المشرق العربي كوسيلة لاحتواء إسرائيل. وبما أنه كان متخاصماً مع بغداد والقاهرة فلم يكن ليجد الراحة في النزعة العربية الوحدوية، ولم يجد خيراً من العودة إلى الاتكاء على بيئته السورية. وكانت تهجماته الخطابية على جيرانه أحياناً تتضح بلهجة المالك، كسخريته من الملك حسين الذي سماه «مارشال شرق الأردن» الذي يتخذ لنفسه صفة حاكم لأرض اقتطعها له الإنكليز من سوريا[٩]. ومع ذلك فلم تكن لديه خطط إلحاقية. وقد اهتم بنفي وجود أية مطامع له حتى في لبنان، حيث كان يمكن أن يبدو الأمر طبيعياً جداً ما دام أمنه هناك معرضاً لأشد الأخطار. فأعلن في ٢٩/كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٨٥ : «إن النظام البعثي كان أول من اعترف بسيادة لبنان واستقلاله ووحدته. . . صحيح أننا شعب

واحد، ولكننا دولتان»[١٠]. والخلاصة أن فكرة «سوريا الكبرى» لدى الأسد كانت نتاج حاجة استراتيجية، لا اقتناع عقائدي.

ولكن برغم هذا النفي فقد كان من الواضح أن لدى الأسد شعوراً عميق الجذور بعظمة سوريا، ومركزيتها وأهمية دورها القيادي في السياسة العربية، وبعزّة وكرامة قائدها أيضاً. فهي تحت حكمه لم تعد كرة يتقاذفها لاعبون أقوى منها بجوارها، بل أصبحت نجماً بين اللاعبين، وصار يرى فيها الجهة الوحيدة التي تتحدى إسرائيل تحدياً مؤثراً. فقد أضاف قوةً، واستقراراً، واستراتيجية متجانسة (وإن كانت تلك الاستراتيجية غالباً ما تلقىٰ تحدياً) إلى سمعة سوريا باعتبارها الينبوع الرئيسي للقومية العربية ومحرك الثورة العربية في العصر الحديث.

في منتصف الثمانينات أعيد ترميم جدران قلعة دمشق ونظفت من الطين والأوساخ المتراكمة عليها والتي كانت تحجبها عن الأنظار، وهي قلعة ضخمة قوية البنيان كان آخر ترميم لها قد تم في أيام الظاهر بيبرس، أول سلاطين المماليك، في منتصف القرن الثالث عشر. وقد بدأت بهذه العمل فرقٌ من البنائين المختصين بالتعامل مع الأحجار الصخرية الصلدة. ولم تكن إعادة هذا البناء التذكاري السياسي مشروعاً حلمت به وزارة السياحة لتضمه إلى كراساتها لتشجيع السياحة، بل عملاً سياسياً من قبل رئيس يعبّر به عن الاستمرارية التاريخية، والمكانة المتميزة، وإرادة المقاومة والصمود لدى عاصمة بلاد الشام العريقة.

هوامش الفصل العشرين

(١) مقابلة مع أسعد كامل إلياس بدمشق في ١٤/أيلول/سبتمبر سنة ١٩٨٤.
(٢) مقابلة مع د. عبد الرؤوف الكسم بدمشق في ١٣/أذار/مارس سنة ١٩٨٨.
(٣) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في ١٨/أذار/مارس سنة ١٩٨٨.
(٤) مقابلة مع باسل الأسد بدمشق في ١٩/أذار/مارس سنة ١٩٨٨.
(٥) كريم بقرادوني: السلام الغائب (بيروت ١٩٨٤) ص ٧٤.
(٦) من أجل الحجج السورية حول الحاجة إلى التوازن انظر مثلاً مقالاً في تشرين الدمشقية يوم ١٩٨١/١١/٢٨ ومقابلة الأسد مع الرأي العام الكويتية في ١٩٨١/١٢/١٣ وخطاب وزير الخارجية خدام في مجلس الشعب عقب ضم إسرائيل لمرتفعات الجولان (١٩٨١/١٢/١٦) - ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ لدى هيئة الإذاعة البريطانية (في ١٩٨١/١٢/١٨).
(٧) مقابلة مع أسعد كامل الياس بدمشق في ١٤/أيلول/سبتمبر سنة ١٩٨٤.
(٨) مقابلة مع زعيمي الحزب القومي السوري عصام المحايري وإنعام رعد في دمشق في ١٩٨٤/٨/١٥.
(٩) خطاب الأسد في مؤتمر اتحاد الفلاحين السوري في ١٩٨١/٤/٢٦ (ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ لدى هيئة الإذاعة البريطانية) (١٩٨١/٤/٢٨).
(١٠) تقرير عن خطاب للأسد وفد من القوات اللبنانية. إذاعة صوت لبنان في ١٩٨٥/١٢/٢٩. ملخص الإذاعات العالمية في هيئة الإذاعة البريطانية (١٩٨٥/١٢/٣١).

الفصل الحادي والعشرون
الوقوف مع آية الله

أجرأ ملامح سياسة الأسد الخارجية ـ التي أعيد تشكيلها لمواجهة عالم كامب ديفيد ـ كانت بلا شك وقوفه مع إيران الثورة، مما خلق شيئاً جديداً تماماً في المنطقة، أي: محوراً شيعياً يمتد من طهران عبر دمشق إلى جنوب لبنان. ومنذ اللحظة التي تسلم فيها السلطة آية الله روح الله الخميني في أوائل عام ١٩٧٩ اعتبر الأسد مصادقته شيئاً تقتضيه المصلحة العربية العليا. ولم يشاركه في هذا الإحساس كثيرون في المنطقة، ولا سيما جيران إيران العرب جميعاً. كان عبد الناصر يدعو إلى أن لا يتحد العرب إلا مع العرب وها هو الأسد، بطل القضية العربية المعاصر، يتحالف مع قوة كبرى غير عربية كانت آنذاك تهدد الدول العربية عبر الخليج.

وبالنسبة للرأي العام العربي، وحتى المحلي، كان قرار الأسد بدعم إيران محيراً ومثيراً للجدل والخصومة. وقد خلق له هذا الخيار نزاعات مع العالم العربي، وأدخل إلى تقييم القادة الآخرين له عنصراً من القلق والمخاوف، لأن التحالف مع إيران قد ساعد على إبراز ما يرون أنه «الطابع الشاذ والخطر نوعاً ما» للنظام السوري. ومثلما حدث عند تدخله في لبنان لتحجيم اليسار عام ١٩٧٦ بدا الأسد وكأنه يخطو خارج المسار الأساسي العربي القومي. ومع ذلك فقد تمسك برأيه هذا خلال جميع تقلبات حرب الخليج، ولم يتأثر بقلق

الآخرين وظل كما كان دائماً مقتنعاً بصواب موقفه. وبوقوفه إلى جانب دولة خارج الأسرة العربية، ومع حركة إسلامية ثورية تتحدى المؤسسات السنّيّة أظهر الأسد تحرراً غير معهود من التقاليد، وأعاد رسم قواعد نظام القوى في الشرق الأوسط. وكانت هناك أسباب استراتيجية هامة لتحركه، ولكن كانت لها أيضاً جذور في خلفيته كأحد أبناء طائفة مشتقة من التشيع، وفي شعوره بالتعاطف مع رجل من أصول ريفية ومن أقلية كالشيعة المحرومين في لبنان على وجه الخصوص، وهم الذين عانوا من الظلم طويلاً.

وكان المشايخ الإيرانيون الذين صادقهم الأسد قد انتصروا على عرش الطاووس بعد صراع طويل واختبار للقوة. فقد ظل الشاه محمد رضا بهلوي طيلة عام ١٩٧٨ يخوض معركة مستمرة لا تهدأ ضد الجماهير المتمردة، وقد استنزفت واضمحلت إرادته بفعل السرطان وبفعل التردد الأميركي إلى أن استسلم لمصيره وغادر البلاد في ١٦/كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٧٩. وبعد ذلك بأسبوعين، في أول شباط، عاد الخميني (وهو في السادسة والسبعين آنذاك) ليحصل على ما يرى أنه من حقه.

كان الأسد عندئذٍ في غمرة صراع الحياة والموت مع الإخوان المسلمين، فراح يراقب بانتباه يقظ هجوم الخميني الإسلامي على الشاه. كان تشيع آية الله نوعاً من الإسلام مختلفاً جداً عن النزعة الأصولية السنية لدى المقاتلين السوريين. والواقع أن غضب الأسد على هؤلاء وعلى المؤسسات السنّيّة في العالم العربي التي كانت تقدم لهم المساعدة سراً وعلانية ربما كان عاملاً في قراره مدَّ يده إلى طهران. فثورة إيران لم تقلقه أبداً، بل إنه، على العكس، راح يشجعها.

وحتى عندما كان الشاه لا يزال في السلطة، مدَّ الأسد يد المساعدة إلى بعض مساعدي الخميني، مثل إبراهيم يزدي ومصطفى شمران وصادق قطب زاده، الذين قدِّر لهم أن يعملوا فيما بعد كوزراء في الجمهورية الإسلامية.

فقطب زاده مثلاً أعطي جواز سفر سورياً مكنه من القيام بنشاطه المعادي لنظام الشاه وهو متنكر كمراسل صحفي لجريدة الثورة الدمشقية اليومية في باريس.

كان الاتصال الأساسي الذي أقامه الأسد مع معارضي الشاه في السبعينات هو اتصاله بالإمام موسى الصدر، رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان، الزعيم الشيعي البارز ذي الأصل الإيراني الذي استقر في لبنان عام ١٩٥٩ والذي استطاع ـ خلال تسعة عشر عام من العمل السياسي والديني ـ أن يعطي الشيعة المسحوقين في لبنان تماسكاً واحتراماً للذات لم يسبق لهما مثيل[١]. وخلال زياراته المتكررة لدمشق أصبح الصدر صديق الأسد الحميم الموثوق وحليفه السياسي الذي مكن الأسد من مواجهة منتقديه السنيين في دمشق عام ١٩٧٣ عندما أصدر فتوى بأن العلويين جزء أصلي من المسلمين الشيعة. وفي صيف سنة ١٩٧٦ الصعب، في لحظات دقيقة وحساسة في حياة الأسد أسدى إليه الصدر خدمة هامة بإبقائه الطائفة الشيعية اللبنانية خارج ائتلاف كمال جنبلاط اليساري الذي كان الأسد يحاول ترويضه وكبح جماحه آنذاك. وكان الصدر همزة الوصل بين الأسد وبين معسكر الخميني في السبعينات، ورائداً من رواد محور دمشق ـ طهران في الثمانينات، رغم أن الصدر نفسه لم يعش حتى يرى ذلك المحور. ففي آب/أغسطس سنة ١٩٧٨ اختفى بطريقة غامضة عندما كان في زيارة لليبيا. والواقع أن خبر اختفائه وافتراض موته قد انتشر بينما كانت محادثات كامب ديفيد جارية في أيلول من ذلك العام. وقد أصاب موته الأسد بحزن يشبه في مرارته حزنه على خروج السادات من الصف العربي.

ورحب الأسد باستيلاء آية الله على السلطة في طهران ببرقية تهنئة حارة، وبعد ذلك بأسابيع قليلة أرسل له نسخة من القرآن مزخرفة بالذهب والأحرف الساطعة، هدية حملها إلى قم وزير إعلامه أحمد اسكندر أحمد. وبعد تقبيل المصحف شكر آية الله سوريا على عرضها له بالنزول في ضيافتها في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٨[٢]، عندما أُخرج من العراق ولم يكن قد استقر بعد في

نوفل لو شاتوه بالقرب من باريس، وكان بحاجة إلى قاعدة يشن منها هجومه الأخير على الشاه. وقد تطورت العلاقات الإيرانية ـ السورية بسرعة بعد الثورة. فقام وزير خارجية الأسد، خدام، بزيارة طهران في آب/أغسطس سنة ١٩٧٩ وأعلن بشيء من المبالغة والغلوّ أن الثورة الإيرانية هي «أعظم حدث في تاريخنا المعاصر»، وافتخر بأن سوريا قد دعمتها «قبل قيامها وأثناء اندلاعها وبعد انتصارها»[٣].

وكان من بين الأسباب التي جعلت الأسد يختار أن يدعم إيران الثورة كراهيته لاشتراك الشاه مع إسرائيل في التعاون ضد العرب، وتبعية الشاه للولايات المتحدة. وكان الرجلان قد التقيا عندما ذهب الأسد إلى طهران في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٧٥ على أمل إقناع الشاه بالضغط على واشنطن لتكون أكثر إنصافاً في مواقفها تجاه الصراع العربي ـ الإسرائيلي[٤]. غير أن تلك الزيارة لم تثمر. وقد غضب الأسد عندما قدم الشاه المساعدة لبيغن في تخطيطه لإيقاع السادات في الشرك، ولذلك لم يذرف الأسد دمعاً على سقوط الشاه، وصمم على الإستفادة من تغير النظام في إيران لمصلحته.

وبذل جهوداً مضنية لإقناع زملائه العرب بالنظر إلى إيران الخميني تحت ضوء مختلف، فهي لم تعد إيران الشاه.. صديق إسرائيل وعميل أميركا بل إيران الملتزمة بالعداء للامبريالية والصهيونية. وجادل دفاعاً عن هذا الرأي بالقول إن آية الله قد كسر فكَّ الكماشة التي ظلت إسرائيل والشاه يحاصران بها العرب ثلاثة عقود من الزمن تقريباً. ومثل الإسرائيليين، كان الأسد يرى الشرق الأوسط ككل، فكانت نظرته الجغرافية ـ الاستراتيجية تتجاوز قلب المنطقة العربي لتشمل الأقطار المحيطة بهذا القلب. ومن هذا المنطلق رحّب بالتغيير الذي أحدثته إيران في ميزان القوى الإقليمي، فقد استشعر بأنه يستطيع أن يجد في هذه القوة الحيوية والجديدة شيئاً يشد أزره إذ كانت خطورة إسرائيل على أشدها. وحاول إقناع الآخرين بأن يروا في إيران وزناً يعادل ثقل مصر، فإذا

كانت إسرائيل قد كسبت مصر عن طريق معاهدة السلام فإنها قد خسرت إيران بقيام الثورة.

ومن موقعه المتميز كان الأسد على حق في أن يرى في إيران الجديدة رصيداً إيجابياً. فقد كان سقوط الشاه ضربة للمصالح الإسرائيلية والغربية تشبه في أهميتها ضربة بروز عبد الناصر على مسرح الشرق الأوسط قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً. وكانت حركة الخميني الأممية الإسلامية، كحركة عبد الناصر القومية العربية، نتاجاً محلياً طبيعياً مصمماً على توكيد نفسه وهويته ضد الآخرين، فقد هاجم الخميني أميركا وسماها «الشيطان الأكبر»، ومزق اتفاقيات الشاه معها، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل وأوقف تدفق النفط إليها وانسحب من حلف المعاهدة المركزية (السنتو). وفي إشارة رمزية لها مغزاها، سلَّم مقر السفارة الإسرائيلية في طهران إلى منظمة التحرير الفلسطينية. وهكذا بينما ارتجف كثيرون من صعود آية الله، وقف الأسد إلى جانبه مُظْهِراً بذلك بعد نظر سياسي ومرونة استراتيجية.

العلاقات مع صدام حسين

ولكن الأسد باتخاذه آية الله صديقاً، كان يبحث أيضاً عن مساعدة ضد أخطر جيرانه: العراق. وكانت إيران الخميني في موقع جيد لتقديم مثل تلك المساعدة.

كان العراق وسوريا متباغضين تفرق بينهما الانشقاقات الحزبية والمنافسة الجغرافية ـ السياسية، والعداء الشخصي بين قائديهما. كما أنهما كانا يتشاجران حول مسائل اقتصادية، حول اقتسام مياه الفرات، وحول أنابيب النفط التي كان واحد منها يمرّ عبر الأراضي السورية ويسيطر عليه الأسد، مما أثار حفيظة العراق وأسفه، وكان العراق قد بنى أنبوباً آخر عبر تركيا، مما أثار غضب سوريا(٥). وطوال سنوات عديدة كان كل من البلدين يستضيف المنفيين من

الآخر، وكان هؤلاء شخوصاً غامضة تعيش في الظلال وتعارض المصالحة بين دمشق وبغداد لأنهم كانوا يخشون أن يصبحوا ضحايا هذه المصالحة. . ورغم أن البعثين العراقي والسوري كانا متشابكين بعلاقة القرابة ومتداخلين فقد كان يمزقهما انعدام الثقة، وكان كل منهما مقتنعاً بأن الآخر قد زرع في داخل صفوفه حصان طروادة. ومع ذلك ورغم هذه الخلفية العدائية فقد دفنت سوريا والعراق خلافاتهما في أعقاب الوفاق بين السادات وإسرائيل، وبذلا جهداً مشتركاً لاحتواء السادات ومعاقبته، وعندئذٍ بدا أن المستقبل يحمل علاقات أفضل بين دمشق وبغداد.

بيد أن رجل العراق القوي، صدام حسين التكريتي أعلن في ٢٨/تموز/يوليو ١٩٧٩ عن اكتشاف مؤامرة حاكها ضده بعض أقرب زملائه إليه بالتواطؤ مع «جهة أجنبية» كما زعم. وسرعان ما حددت تلك «الجهة» بأنها سوريا[٦]. وسيق أكثر من خمسين من المتهمين أمام محكمة خاصة، وأعدم عشرون منهم ـ وفيهم بعض أبرز رجالات العراق ـ إذ حصدهم رفاقهم الحزبيون بالرصاص وعلى رأسهم صدام نفسه.

وقبل الإعلان عن هذه المؤامرة باثني عشر يوماً، كان صدام قد استلم من أحمد حسن البكر منصب رئيس الجمهورية، وأعطى نفسه أيضاً منصب الأمين العام لحزب البعث، والقائد العام للقوات المسلحة، ورئيس الحكومة، ورئيس مجلس قيادة الثورة. فتركزت السلطة كلها بيده؛ ويظهر أن تصفية منافسيه كانت مرتبطة باتهاماته ضد سوريا. وعلى أية حال، فإن الحديث عن المصالحة بين بغداد ودمشق انتهى فجأة ودفعة واحدة عندئذٍ.

أكد الأسد براءته وطلب من صدام دليلاً على التواطؤ السوري. وأرسل وزير خارجيته خدام ورئيس الأركان الشهابي إلى بغداد ليؤكدا له بأنه إذا كان لدى العراق دليل على أي عمل سوري خاطىء فإن المسؤولين سيعاقبون. فكان كل ما عادا به اعترافاتٍ مسجلة على شريط يتحدث فيها أحد المتهمين على نحو

مشتت متنقلاً من موضوع إلى آخر. ثم اقتراح الأسد أن تقوم لجنة من جامعة الدول العربية بفحص اتهامات العراق ضد سوريا، ولكن العراق لم يتابع هذه الفكرة. ومع ذلك، ورغم احتجاجات الأسد فربما كان هناك نوع من العلاقة السورية، ولو بشكل غير مباشر، حسب الخطوط التالية: كان بعض زملاء صدام[٧] يفضلون اتحاداً فدرالياً فضفاضاً مع سوريا كوسيلة لإيقاف صعود صدام إلى السلطة المطلقة. وكان هناك اقتراح قيد البحث والتداول في دمشق وبغداد بأن يصبح البكر رئيساً للاتحاد، والأسد نائباً له، وصدام الرجل الثالث. وشكّ صدام في أن الارتباط مع سوريا سيحدّ من سلطته، فقرر العمل على نسف فكرة الاتحاد. وعندما جاء الأسد إلى بغداد في ١٦/حزيران/يونيو سنة ١٩٧٩ لدفع فكرة الوحدة إلى الأمام، فإن صدام حسين لم يذهب إلى المطار لاستقباله، وكانت تلك طريقة واضحة من الاستخفاف. ومن المحتمل جداً أن يكون أولئك العراقيون الذين خشوا صداماً قد ناقشوا مع دمشق أفضل الطرق لإيقاف صعوده. فالبكر مثلاً أرسل إلى الأسد سراً يناشده التعجيل بمحادثات الوحدة «لأن ثمة تياراً هنا حريصاً على وأد الوحدة في المهد قبل أن تعطي ثمارها»[٨]. وعندما علم صدام بهذه المشاورات أطاح بالبكر، وقتل المترددين، وقطع العلاقة مع سوريا. كانت تلك هي الطريقة الأكيدة الوحيدة كي يصبح رقم (١).

وأدى ظهور الجمهورية الإسلامية إلى وضع حد نهائي لأي أمل بانفراج سوري ـ عراقي، بل لقد زادت حدة العداوات إلى حد كبير. . لأنه مثلما رحب الأسد بآية الله، فإن الزعيم العراقي خاف منه. وكان لدى سوريا والعراق آراء متناقضة حول كل جانب من جوانب الوضع الإيراني: الشاه، وآية الله، والشيعة، وما إذا كان العرب يستطيعون أو لا يستطيعون العيش بعلاقات حسن جوار مع إيران. ومن بين هذه المسائل كان الموضوع الكامن تحتها هو يقظة الشيعة في المنطقة كلها. كان الشيعة طائفة يحترمها الأسد، بينما رأى فيهم صدام خطراً مميتاً يهدد وحدة العراق وتكامله.

ولم يكن العراق دولة متجانسة قط. فقد رسمت بريطانيا خريطته من ثلاث ولايات عثمانية سابقة في عام ١٩٢١. وكان فيه الأكراد المتمردون في الجبال الشمالية، والقبائل العربية الشيعية المعارضة المغضوب عليها في الجنوب، وبينهما أقلية عربية سنيّة تحتكر السلطة السياسية عملياً. وبما أن الأكراد والشيعة لم يكن لهم تمثيل كافٍ في المركز فقد ظلوا دائماً قوىً معارضة تفضل الابتعاد عن المركز وتخلق اضطرابات كبيرة. وفي الستينات والسبعينات حمل الأكراد السلاح ضد بغداد، ولكن الشيعة كانوا خطراً أمنياً أيضاً وإن كان هذا الخطر أقلّ ظهوراً في العلن. ولقد بدأوا يتململون بعد الإطاحة بالملكية في العراق عام ١٩٥٨، ثم انتقلوا إلى ما يشبه المعارضة المباشرة بعد عشر سنوات عندما استولى البعث على السلطة في عام ١٩٦٨. ولإبقاء الشيعة هامدين اتهم البعث العراقي «أعلى مرجع» لديهم، آية الله محسن الحكيم بأنه عميل لوكالة المخابرات المركزية الأميركية.. مما أرغمه على الفرار للنجاة بحياته، قبل وفاته بوقت قصير في عام ١٩٧٠.

وكان الخميني نفسه قد نفي بسبب معارضته لحاكم ظالم فجاء في سنة ١٩٦٥ إلى مدينة النجف العراقية المقدسة، مركز الولاء الديني والاجتهاد العلمي الشيعي، حيث قضى الأعوام الثلاثة عشر التالية. وفي النجف، وسط طائفة شيعية تغلي بالسخط كان الخميني واحداً من مجموعة من العلماء الدينيين المتنفذين، كالعراقي محمد باقر الصدر، واللبناني محمد حسين فضل الله، الذين قيض لهم أن يصوغوا وينشروا الرسالة الثورية الإسلامية. ومنذ الستينات بدأ يتكون في العراق حزب سرّيّ شيعي متطرف غامض الملامح كالأشباح اسمه حزب «الدعوة الإسلامية»، غير مرتبط مباشرة بهؤلاء العلماء، ولكنه يتغذى من آرائهم التجديدية النهضوية.

وفي تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٨ ارتكب صدام حسين غلطة قاتلة بطرده الخميني من العراق، قبل أربعة أشهر فقط من الوقت الذي قيض فيه

للخميني أن يعود ظافراً إلى طهران. وعندئذٍ بدأ حزب الدعوة ينظم المظاهرات ويلقي بالقنابل، وفي أول نيسان/أبريل سنة ١٩٨٠ كاد إرهابيوه يقتلون نائب رئيس الوزراء طارق عزيز في اجتماع طلابي في بغداد. . وكان ذلك تمهيداً لسلسلة من الهجمات على مسؤولي الحكومة. وكان رد فعل صدام الفوري سحق «الدعوة» وكل تعبير عن المعارضة أو السخط لدى الشيعة، في حملة من الاعتقالات والتعذيب، والإعدام، والنفي بالقوة. وفي ٨/نيسان/أبريل حكم على جميع أعضاء الدعوة بالإعدام بأثر رجعي. وفي اليوم نفسه أُعدم العلامة آية الله باقر الصدر (الذي كان معتقلاً منذ حزيران/يونيو عام ١٩٧٩) فشُنق مع أخته بنت الهدى، الكاتبة القصصية العاملة في الحركة النسائية الإسلامية[٩]. ونُفي عشراتُ الألوف ممن يُشكُّ في ولائهم فألقي بهم ببساطة عبر الحدود في إيران، فيما يمكن اعتباره (بعد استعادة الأحداث الماضية والتأمل فيها) الطلقات الأولى في حرب الخليج. وبالنسبة لصدام حسين كانت المعارضة الشيعية تثير شبح احتمال انفصال الجنوب، بما فيه ميناء البصرة الكبير والعتبات المقدسة في كربلاء والنجف، عن الدولة العراقية.

وكانت نظرة الأسد إلى عالم الإسلام الشيعي أكثر إيجابية وتأييداً من نظرة صدام. ففي بيئة الأسد المشرقية الشامية كان الشيعة في غالبيتهم من فلاحي جنوب لبنان المحرومين الذين ظلوا أجيالاً متلاحقة يعملون في حقول التبغ لدى عوائل الملّاك الغائبين تماماً كما كان العلويون يفعلون في أيام شبابه. وكان كفاح الشيعة من أجل حصة أكبر في الدولة اللبنانية التي يسيطر عليها الوجهاء المسيحيون والسنة نسخة من كفاحه هو في سوريا. وفي إحدى المناسبات في أوائل الثمانينات طلب وفد من زعماء المسلمين السّنّة في بيروت مساعدة الأسد ضد جموع الفلاحين الشيعة التي تزحف على مدينتهم وتهدد بتغيير طابعها. فلم يظهر الأسد تعاطفاً مع هذا الطلب، وذكّر زائريه بأنه هو نفسه كان فلاحاً أطاح بسلطة وجهاء المدن.

وكانت صداقته مع الزعيم الشيعي اللبناني الإمام موسى الصدر قد أضافت سبباً شخصياً لوقوفه إلى جانب الشيعة ولم يكن هذا الصدر سوى ابن عم وصهر محمد باقر الصدر الذي أعدمه صدام حسين عام ١٩٨٠. ولذلك لم يكن عجيباً أن تظل المسألة الشيعية معلقة كسيف مسموم بين دمشق وبغداد.

الحــرب الخـاطئــة

وبغض النظر عن هذه النزاعات كلها فإن الأسد وصداماً قد تقاطعا في نهاية الأمر بسبب اختلافهما الكامل حول العدو الأساسي للعرب. كانت أنظار الأسد مركزة على الخطر القادم من إسرائيل بينما كان صدام منشغلاً بإيران انشغالاً تاماً. كان العراق وسوريا يوليان وجهيهما شطر اتجاهين مختلفين: أحدهما نحو الأبيض المتوسط والآخر نحو الخليج، فكان حتمياً أن تكون لديهما تصورات ومفاهيم مختلفة حول الأخطار التي تهددهما.

وفزع الأســد عندما عبرت القوات العراقية إلى داخل إيران بشكل كثيف في ٢٢/أيلول/سبتمبر سنة ١٩٨٠، مطلِقةً حرب الخليج في مسارها القاتل. ولم يكن هناك بداية واضحة للحرب، بما أن الشهور الثمانية التي سبقتها قد شهدت ما يقرب من ثمانين مناوشة على طول الحدود، وأدت إلى خسائر في الأرواح وأضرار في الممتلكات على الجانبين(١٠). أما المعركة الدعائية على أمواج الأثير فكانت قد بدأت بشكل يكاد يكون فورياً عقب انتصار الثورة الإيرانية في أوائل عام ١٩٧٩. وقد جعلت هذه البدايات المشوشة المضطربة توزيع نسب المسؤولية عن بدء القتال على الطرفين مسألةً صعبة، بل ومسألة هامة جداً ـ كما اتضح فيما بعد ـ في عملية إنهائها ـ رغم أن قليلين فقط هم الذين يمكن أن ينازعوا حقيقة كون الغزو العراقي في أواخر أيلول هو الذي بدأ تصعيد الاشتباكات إلى حرب شاملة بعد أن كانت مجرد نزاع حدود.

ومنذ البداية شجب الأسد حرب صدام باعتبارها حرباً خاطئة غير مناسبة

من حيث زمانها، ومكانها، واختيارها لعدوها. لأن محاربة إيران حماقة، فهي ستنهك العرب وتمزق صفوفهم وتحرفهم عن «المعركة المقدسة في فلسطين». ورأى الأسد أن العرب بدلاً من تحويل إيران الثورية إلى عدو، يجب أن يفعلوا كل ما باستطاعتهم لمنع وقوعها مرة أخرى في براثن إسرائيل. وفي اتصالاته مع عاهلي السعودية والأردن، حاول الأسد الضغط على صدام لإيقاف الصراع. وكان ذلك ـ وبقي ـ هو موقفه المعلن. لقد احتقر الحرب من حيث المبدأ. ولكن إن كان لا بد لها أن تحدث، فقد كان الهمّ الذي يقلقه في السر هو أن يحصل العراق على نصر سريع كما كان معظم المراقبين يتنبأون، فهذه نتيجة ستكون وخيمة وبيلة لأنها سوف تحصره بين إسرائيل المنتصرة والعراق المنتصر، وكلاهما معاديان له. وهكذا ففي غمرة حرصه على تجنب انتصار عراقي قد يكمل الطوق من حوله، غامر واتخذ قراره. لقد كان في الترحيب بإيران الخميني قبل الحرب ما يكفي من الجرأة ـ وكان ذلك حركة تطلبت كثيراً من الشرح لتوضيحها للسعوديين وغيرهم ـ أما بعد ذلك فقد حزم أمره وقرر اتخاذ خطوة أخرى بدعم مجهود إيران الحربي.

وخلال زيارة قام بها لموسكو بعد اندلاع الحرب بوقت قصير أصدر بياناً مشتركاً مع بريجنيف بتأييد «حق إيران الثابت في أن تقرر مصيرها بنفسها بصورة مستقلة وبدون أي تأثير أجنبي»[١٢]. وكان السوفيات مسرورين لرؤية أميركا مطرودة من إيران، بالإضافة إلى حدوث ثورة هناك، فرخصوا لسوريا وليبيا بيع أسلحة سوفياتية لإيران. وكانت هناك تقارير فورية عن جسر جوي من سوريا عبر اليونان وبلغاريا والاتحاد السوفياتي ومن ليبيا عن طريق البحر الأسود، وكان هذا الجسر يستخدم أسطول الشاه الضخم من طائرات البوينغ ٧٤٧ و٧٢٧ و٧٠٧[١٣]. وفي كانون الثاني/ديسمبر سنة ١٩٨١ أقامت إيران خطوطاً جوية منتظمة مجدولة مع دمشق، وطرابلس، والجزائر وكان ذلك تحولاً أكثر من رمزي عن رحلات (إل عال) اليومية التي كانت تربط إسرائيل بإيران قبل الثورة.

وأخذت تتطور علاقات من نوع آخر أيضاً بين سوريا وإيران. فمنذ منتصف عام ١٩٧٩ بدأ متطوعون إيرانيون يعبرون من خلال سوريا في طريقهم إلى لبنان حيث أرادوا أن يقاتلوا إسرائيل وعملاءها. وبذلك صارت سوريا محطة ومركز انطلاق بين ينبوع التشيع المتشدد في إيران، وبين الطائفة الشيعية التي استُنهضت وتحركت في لبنان. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأسد مقتنعاً بأن العراق يقدم الدعم سراً للإخوان المسلمين الذين يتحدونه في سوريا، ولذلك راحت مخابرات رفعت تنضم إلى إيران في القيام بمهمات تخريبية ضد العراق. وبطريقة أو بأخرى، سواء في التجهيز بالسلاح، أو التعاون بين المخابرات، أو العمليات غير النظامية، أو الدعاية، سرعان ما وجدت سوريا نفسها منغمسة إلى رقبتها في حرب الخليج.

ولم يتوان صدام حسين في الردّ. فاقتحمت القوات العراقية السفارة السورية في بغداد في آب/أغسطس عام ١٩٨٠ وطردت معظم موظفيها بتهمة تهريب بنادق ومتفجرات لأعداء صدام الشيعة، وفي ١٢/تشرين الأول قطعت بغداد علاقاتها بدمشق وسط سيل من التهجمات والشتائم، ثم راح صدام يطبّل في أجهزة إعلامه مكرراً كل الاتهامات المؤذية التي وجهها الأعداء إلى الأسد، بأنه سلم القنيطرة بدون قتال عام ١٩٦٧، وبأنه طلب وقف إطلاق النار بجبنٍ في اليوم الثاني لحرب تشرين/أكتوبر سنة ١٩٧٣ وبأنه تدخل في لبنان عام ١٩٧٦ بالتواطؤ مع واشنطن وإسرائيل، وبأن ضميره يتحمل مسؤولية ذبح الفلسطينيين في تل الزعتر، وبأنه قد تآمر لتدمير مشروع الوحدة بين سوريا والعراق في عام ١٩٧٩. وردت سوريا على الاتهامات بمثلها.

وكلما تزايد عداء صدام، تزايد اعتماد الأسد على إيران للتأكد من أن الزعيم العراقي الذي أخذ يكرهه لن ينجو من الحرب. وهكذا كان موقف الأسد من الحرب مزدوجاً: كان يراها «حرباً خاطئة»، ومع ذلك فعند تعمق خصامه مع صدام لم يعد يستطيع أن يرحب بتسوية تترك صداماً في مكانه. وبعبارة أخرى

كان الأسد ضد الحرب ولكنه كان يريدها أن تستمر حتى تسفر عن نتيجة ترضيه ـ وهذا موقف لم يختلف عن موقف بلدان أخرى. وفي عام ١٩٨٢ أغلق الأسد حدوده مع العراق، وكذلك الأنبوب الذي ينقل النفط العراقي عبر الأراضي السورية، ووقع مع إيران اتفاقاً تجارياً واسعاً ضمن لسوريا الحصول على النفط طيلة سنوات عديدة بعد ذلك وبأسعار تفضيلية.

ومع استمرار الحرب طاحنة ضروساً، راحت تُشاهد في دمشق أعداد كبيرة من النساء الإيرانيات بعباءاتهن السود. كان معظمهن من أرامل وأمهات القتلى، وقد جئن في رحلات منظمة خصيصاً لتخفيف آلامهن. وكان أغلبهن يتوجهن إلى مقام السيدة زينب للصلاة عند قبر حفيدة النبيّ في خارج مدينة دمشق. وتحضيراً لتوثيق العلاقات أكثر، قام الدكتور علي أكبر ولايتي، وزير خارجية إيران، بزيارة لدمشق عشية رأس السنة في عام ١٩٨١. وفي تلك الليلة، في غرفته بالفندق، أصيب بصدمة وهو يرى التلفزيون السوري ينقل مشاهديه في جولة إلى الملاهي الليلية التي كانت تحتفل بتوديع سنة واستقبال أخرى بالعربدة والمرح الصاخب. وشعر المسؤولون السوريون بشيء من الحرج الخفيف في الصباح التالي عندما افتتح ولايتي جلسة المحادثات بخطبة تقريع مسهبة عنيفة ضد الراقصات شبه العاريات اللواتي شاهدهن على شاشة التلفزيون. كان ذلك درساً مبكراً حول حساسيات صديقهم الجديد، ذلك أن سوريا وإيران كانتا قد أصبحتا في ذلك الوقت شريكين استراتيجيين.

دور إسـرائيـل

أخذت إسرائيل تراقب تطورات العلاقة بين إيران والعرب بانتباه وثيق كالانتباه السوري، ولنفس الدوافع، ولو من وجهة نظر مناقضة. فمثلما كان الأسد يسعى للحصول على دعم من إيران، كان بيغن قلقاً من احتمال حصول الأسد على ذلك الدعم. فلقد كان من بين هموم إسرائيل الدائمة منع تركيز أية

قوة عربية، وخصوصاً تفتيت أي نوع من «الجبهة الشرقية» العربية كالتي كان الأسد يسعى لتجميعها. ولقد كان جزء كبير من الأسباب المبررة لصداقة إسرائيل مع الشاه يقوم بالضبط على تحييد العراق، وصدّه عن الالتقاء مع سوريا، وإبقاء قدرته العسكرية المتنامية بعيداً عن إسرائيل. وفي أيام الشاه زودت إسرائيل إيران بالخبرات الزراعية، ولكن ما هو أهمّ من ذلك كان تقديمها السلاح والتدريب للقوات الإيرانية المسلحة وللسافاك ـ بوليس الشاه السري ـ مقابل النفط. كما اشتركت إسرائيل مع إيران في عمليات سرية ضد أهداف عربية. فقد ساعدت مثلاً على تسليح وتدريب المقاتلين الأكراد اعتباراً من منتصف الستينات لإرهاق وإنهاك حكومة بغداد بغارات مستمرة على أساس أن العراق إذا انشغل في الداخل فلن يبقى لديه فائض قوة لمساعدة سوريا ضد إسرائيل. وهكذا فإن الرابطة مع إيران كانت ذات أهمية استراتيجية لإسرائيل، وقد قام الزعماء الإسرائيليون عبر السنين من بن غوريون إلى بيغن بزيارات سرية عديدة لطهران[١٤]. كما أن الطائفة اليهودية الإيرانية التي يصل تعدادها إلى سبعين ألفاً قد ساعدت على إقامة جسر بين الطرفين بالطريقة نفسها التي ساعدت فيها الطائفة اليهودية المغربية المتنفذة على إقامة علاقات سرية بين إسرائيل والملك الحسن.

ولذلك فإن مشاكل الشاه في عام ١٩٧٨ كانت مصدراً للفزع في إسرائيل، وهو فزع زادته شدةً وتعقيداً المصالحة السورية العراقية في تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام. . والذي تم كردٍّ سريع على كامب ديفيد. وعندما كان حليف إسرائيل الإيراني ينهار بدت الجبهة الشرقية التي تخشاها إسرائيل وكأنها على وشك أن تتشكل. ولكن سرعان ما اتضح أن إسرائيل لم يكن لديها ما تخافه من هذه الناحية. ومع ذلك فإن سقوط الشاه كان نكسة كبرى زادت من خطورتها التحركات السورية الفورية للحلول محل إسرائيل كحليف إقليمي لإيران.

وعلى أية حال فإن هذه التطورات التي جاءت في غير صالح إسرائيل سرعان ما حيَّدها وعوض عنها (من وجهة النظر الإسرائيلية) التوتر الذي راح يشتد بين إيران والعراق. والفرصة التي أتاحها ذلك للعمل الإسرائيلي. فقد كانت إيران الثورة بحاجة إلى أسلحة. وبما أنها لم تعد قادرة على الحصول عليها من الولايات المتحدة، فقد أخذت تبحث عن مصادر بديلة، وكانت إسرائيل سعيدة في أن تلبّي. إذ أنها رأت في تجارة السلاح فرصة لإقامة علاقة سرية مع المشايخ. وفي عام ١٩٨٠ استأنف بيغن في صمت وهدوء بيع معدات عسكرية لإيران، بدءاً من قطع غيار طائرات ف ـ ٤ المقاتلة[١٥] وقدم عالم الظلام والظلال المشبوهة اللاأخلاقية في سوق السلاح عدداً من الوسطاء في عملية النقل هذه بين طرفين يبدوان في الظاهر متعاديين. وكان بيغن يدرك أن أميركا لن تنظر إلى مثل هذه التجارة بعين الرضا ما دام الرهائن الأميركيون محتجزين في سفارتهم بطهران. غير أن إغراء إعادة التحالف الإسرائيلي ـ الإيراني القديم كان عظيماً جداً[١٦]، وعندما علمت إدارة كارتر بمبيعات السلاح الإسرائيلية احتجت بقوة. وعندئذ توقفت تلك المبيعات بضعة أشهر، بيد أنها استؤنفت في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٨٠ بعد انتخاب ريغان. كانت إسرائيل حريصة على تجنب الغضب الأميركي، ولذلك فإنها كلفت موريس آميتاي، من لجنة الشؤون الأميركية الإسرائيلية العامة (المعروفة اختصاراً باسم آيباك) بأن يسأل ريتشارد ألن (الذي كان سيُعيَّن بعد وقت قصير مستشاراً لريغان لشؤون الأمن القومي) كيف تنظر الإدارة الجديدة إلى شحن إسرائيل قطع غيار للطائرات أميركية الصنع إلى إيران[١٧]. وبعد بضعة أسابيع من تدشين رئاسة ريغان، هرع ديفيد كيمحي (المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلي) إلى واشنطن لإقناع الإدارة الأميركية بفوائد بيع الأسلحة لإيران، أو (على الأقل) بالسماح لإسرائيل بذلك. وجادل كيمحي في أن مبيعات الأسلحة ستكون وسيلة لإقامة اتصال مع العسكريين الإيرانيين تحضيراً لمرحلة ما بعد الخميني[١٨]، وفي أنها ستقوّي «المعتدلين» الإيرانيين وتضعف النفوذ السوفياتي في إيران،

وهي حجج استخدمتها إسرائيل لتخفي وراءها دوافعها الخاصة التي قدر لها بعد سنوات قليلة أن توقع الولايات المتحدة في فضيحة إيران ـ غيت. وقبل نهاية كانون الثاني/ديسمبر سنة ١٩٨١ قام وزير الخارجية الأميركي الجديد، الكساندر هيغ، بصورة سرية خاصة، بإعطاء إسرائيل الإذن الذي كانت تبحث عنه(١٩). وبمجرد إطلاق سراح الرهائن من السفارة الأميركية تضخمت شحنات إسرائيل السرية من السلاح في عام ١٩٨١ حتى شملت ذخائر المدفعية والدبابات، وقطع غيار الدبابات م ـ ٤٨ الأميركية الصنع، والمحركات المصقولة المجددة للطائرات النفاثة، وغيرها من الأجهزة الخاصة بطائرات ف ـ ٤ وف ـ ٥ و ف ـ ١٤ (من طراز تومكات) كانت تلك تجارة بعشرات الملايين من الدولارات قدر لها أن تنمو لتصبح قيمتها بالمليارات خلال السنوات التالية، وأن تستخف بكل محاولات واشنطن لإيقافها.

كانت مصلحة إسرائيل الخاصة هي إذكاء نيران الحرب العراقية ـ الإيرانية، لأن النزاع ينهك قوى اثنين من أعدائها المحتملين، ويستنزف ثروة العرب النفطية، ويزوّد تجارة السلاح الإسرائيلية بمنافذ تصدير ثمينة. ولكن بيغن ظل طيلة الوقت واضعاً سوريا الأسد نصب عينيه، لأنه كان يرى فيها العدو الإقليمي الأساسي الذي أراد بيغن تحييده. فمن وجهة نظر بيغن كانت معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية وحرب الخليج تخدمان الغاية نفسها وهي ضمان تفوق إسرائيل على سوريا والمشرق العربي كله. فمعاهدة السلام أبعدت مصر عن المواجهة، وحرب الخليج أبعدت العراق.

ولم تقتصر إسرائيل على ملء مضخة نزاع الخليج وصب الوقود على نارها، بل يظهر أنه كانت لها يد في إشعالها ابتداءً وللأسباب نفسها خدمةً لمصالحها الخاصة. ذلك أن كثيراً من المعلومات التي دفعت بصدام إلى الغزو يحتمل جداً أنها جاءت من إسرائيل عبر طرق غير مباشرة. وفي اتخاذ القرار بالهجوم تأثر صدام بتقديرات مخابراتية عن ضعف إيران وصلته عن طريق

العربية السعودية والولايات المتحدة، ومن المنفيين الإيرانيين في باريس وبغداد، وهؤلاء معظمهم من موظفي الشاه السابقين الذين كانوا يحلمون بإسقاط المشايخ والعودة إلى إيران ظافرين. وكانت التقارير التي انتشرت في تلك الأيام تتحدث مثلاً عن الفوضى الكاملة في قوات إيران المسلحة ولا سيما في هيئة الضباط، فقد تم إعدام حوالي مائة من كبار الضباط، واعتقال مئات آخرين، وتسريح أكثر من عشرة آلاف غيرهم. وحلت تشكيلات قوية كانت منتخبة من الصفوة، مثل «الحرس الامبراطوري» و «لواء الخالدين». أما ما تبقى من الجيش فكان مشتبكاً في هذه الأثناء مع قوات الحرس الثوري الجديد. وقيل إن الجيش قد تناقص حتى أصبح قاصراً على ست فرق غير كاملة لا تكاد تزيد الواحدة منها عن حجم لواء، بينما فقدت القوة الجوية نصف طياريها، وقد تضاءل ما لديها من قطع الغيار ولم يعد أحد يعرف مكان القطع الموجودة لأن الكمبيوتر الأميركي الصنع في إيران قد انهار.

وهكذا بدا لصدام أن وضع إيران خطير إلى درجة أقنعته بأنه يستطيع الإطاحة بالخميني في غضون أسبوع. فأرسل رسالة إلى حاكم الكويت يخبره فيها أن اللواء غلام علي أويسي (الحاكم العسكري العرفي السابق لطهران والذي كان منفياً في بغداد) يمكن أن يكون في طهران خلال أيام[٢٠]. ولم يعلم بأن بعض تلك التقديرات الواثقة من نفسها أكثر من اللازم في تصويرها لضعف إيران كانت من أصل إسرائيلي.

فالمنفيّون من أمثال أويسي كانوا على علاقة وثيقة بإسرائيل يرجع تاريخها إلى ما قبل الثورة، بينما راحت الولايات المتحدة تعتمد على إسرائيل اعتماداً يكاد يكون تاماً لمراقبة ما تتكشف عنه الدراما المثيرة في إيران، كما اعترف بذلك فيما بعد الأميرال ستانسفيلد تيرنر، مدير وكالة المخابرات المركزية الأميركية أيام حكم كارتر، إذ أن أرصدة أميركا من المخابرات في إيران كانت آخذة بالضمور في سنوات الشاه الأخيرة[٢١]. وفي الشهادة أمام لجنة الكونغرس

التي شكلت للتحقيق في فضيحة الإيران ـ كونترا قال اللواء ريتشارد سيكورد (الذي كان مسؤولاً عن مبيعات الأسلحة الأميركية للقوة الجوية الإيرانية): «بعد سقوط الشاه لم يبق لنا شيء في إيران. ولم تكن لدينا أية فكرة عما كان يجري»(٢٢). وبالرغم من أن شبكات إسرائيل قد تمزقت ودبّت فيها الفوضى بفعل الثورة ـ فقد غادر البلاد ٢٥,٠٠٠ يهودي في الأسابيع الأولى ـ فإن معلوماتها كانت لا تزال أفضل من معلومات أي مصدر آخر. ولذلك فإنه كان من الطبيعي أن تلجأ الولايات المتحدة لطلب المساعدة من حليفتها إسرائيل في عملية تقييم الوضع الإيراني. وقد بلغ الاعتماد الأميركي على إسرائيل حداً جعل رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال ديفيد جونز يطلب نصيحة رئيس الأركان الإسرائيلي، الجنرال رافائيل إيتان، أثناء تخطيط عملية محاولة إنقاذ الرهائن الأميركيين في السفارة بطهران(٢٣). وهكذا كانت إسرائيل في موقع قوي لتغذية بغداد بنوع المعلومات التي تناسب أغراض إسرائيل.

وكان لدى الإيرانيين معرفة طفيفة أو فكرة غامضة عن التورط الإسرائيلي في التمهيد للحرب، فقد صرح الرئيس بني صدر لإيريك رولو (من صحيفة اللوموند) بأن إيران قد تلقت تحذيراً مسبقاً عن الهجوم العراقي من تقرير مخابرات عن محادثات سرية جرت في باريس في صيف سنة ١٩٨٠ واشترك فيها خبراء عسكريون إسرائيليون وأميركيون وإيرانيون منفيون، وعراقيون(٢٤).

المصلحة في الحرب

كان هناك كثيرون لهم مصلحة في إثارة حرب الخليج. فبينما كانت إسرائيل مهتمة إلى حد كبير بأمنها على المدى الطويل، كانت الولايات المتحدة منشغلة تماماً بالرهائن الأميركيين المحتجزين في طهران منذ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٧٩. ومع مرور كل يوم كان السخط يتزايد في واشنطن، حتى رسخت في أذهان أعضاء الإدارة الميالين للقتال أكثر من غيرهم فكرة أن

الرهائن لا يمكن إطلاق سراحهم إلّا بالوسائل العسكرية، وكان من بين هؤلاء مثلاً زبغنيو بريجنسكي، مستشار جيمي كارتر لشؤون الأمن القومي. فبدأ بريجنسكي أولاً بتجاهل مخاوف ووخزات ضمير وزير الخارجية فانس وإزاحتها جانباً، ودفع ببعثة الإنقاذ الأميركية التي انتهت مهمتها بفشل ذريع في الصحراء الإيرانية في نيسان/أبريل عام ١٩٨٠. وبعد ذلك لم يرتدع بريجنسكي من الفشل ومن استقالة فانس، فشرع يخطط لجولة ثانية[٢٥]. ولكنه رأى أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تقوم بالعمل بنفسها، فأخذ يعتقد بأن هجوماً عراقياً قد يعطي أفضل وسيلة لتحرير الرهائن بالقوة. وكانت هناك مؤشرات عديدة على أن بريجنسكي يفضل العمل العسكري على التفاوض. وعندما احتُجز الرهائن بادىء الأمر قام أخوان إيرانيان هما كورش ومحمد علي هاشمي بصياغة مشروع صفقة (لمبادلة السلاح بالرهائن) مع وزارة الخارجية اقتنع بفائدتها هارولد ساوندرز معاون وزير الخارجية، فرفع توصيةً لسايروس فانس بقبولها. ولكن بريجنسكي ظل يثير مواضيع جديدة كثيرة إلى درجة أنه عندما انكشف خبر بعثة الإنقاذ بدأ الأخوان هاشمي يعتقدان بأن بريجنسكي كان يحاول كسب الوقت. وحدث الشيء نفسه قبل اندلاع حرب الخليج: فقد ظهر بريجنسكي وكأنه فقد اهتمامه بالمفاوضات، مما أدى بالأخوين هاشمي إلى الاستنتاج أن بريجنسكي كانت لديه معرفة مسبقة بالحرب وبأنه وضع آماله فيها[٢٦].

وفي شن الحرب تلقى صدام حثاً وتشجيعاً من أصدقائه العرب أيضاً. فالعائلة السعودية المالكة، وقد أفزعها تأثير الثورة الإيرانية على الخليج، وهزها بشدة حادث احتلال المسجد الحرام في مكة على يد مسلمين متطرفين في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٩، تطلعت إلى العراق لاحتواء إيران الخميني. كما أن الملك حسين، الحريص على حماية علاقاته بحكام الخليج رأى في إيران خطراً مميتاً[٢٧]، وحث العراق على الوقوف بصلابة. ومن أول لحظة أعلنت فيها الحرب فتح حسين ميناء العقبة لدخول تموينات الحرب العراقية،

وأفرغ مخازنه من السلاح لأجل العراق.

ولكن أياً كانت الأيدي الأجنبية التي اشتغلت بهذه القضية، فقد كان لدى صدام أسبابه الخاصة لتحدي آية الله. ويكاد يكون من المؤكد أن أكثر دوافعه ضغطاً وإلحاحاً كانت دفاعية وأن أفضل وصف لحربه أنها كانت استباقية. فنزعة الانتقام الشيعية لدى الخميني كانت تهدد وحدة العراق إلى درجة أن إغراء توجيه ضربة سريعة لإيران (بينما هي لا تزال تترنح تحت تأثير اضطراب الثورة) ربما كان من القوة بحيث لا يمكن مقاومته. وكان الدافع الثاني لصدام هو تمزيق اتفاقية عام **١٩٧٥** التي انتزعت منه تحت ضغط الحرب الكردية وأرغمته على أن يسلم للشاه بسيطرة جزئية على ممر شط العرب المائي. فصمم في سنة ١٩٨٠ على أن يعيد شط العرب إلى سيطرة العراق وحده. ومثلما وجد الشاه أنه لا يمكن أن يطيق إرغام السفن الإيرانية على رفع العلم العراقي أثناء إبحارها في شط العرب نحو الموانىء الإيرانية في عبادان وخرمشهر، فكذلك كان صدام تواقاً إلى جعل إيران تعترف مرة أخرى بسيادة العراق على الممر المائي كله. ووراء انشغال تفكير صدام بهاجس شط العرب كان هناك إحساس بالظلم لصغر واجهة العراق المطلة على الخليج بالمقارنة مع امتداد إيران على طول الشاطىء المقابل.

ولعب الطموح كذلك دوراً في حرب صدام. فموارد العراق النفطية والمائية، وأرضه الخصبة، وفوائد وميزات قيادته القوية كانت على ما يبدو ترشحه للعظمة في وقت كان فيه منافسوه قد أصيبوا بالضعف: فسوريا شلّها الإرهاب الداخلي، ومصر خرجت من الساحة العربية، وتركيا في أيدي طغمة عسكرية بعد سنوات من الفوضى. ألم تكن تلك هي فرصة العراق؟ وعندما طالب صدام إيران بمنح الحكم الذاتي لعرب خوزستان (وهي مقاطعة يتحدث جزءٌ منها بالعربية وقد أخضعها والد الشاه لسيطرته المركزية)، وبإعادة الجزر الصغيرة الثلاث في مضيق هرمز التي احتلها الشاه في عام ١٩٨١، فإنه كان يحاول بذلك أن يظهر كبطل للعرب.

وقد أُقنع صدام بأن الضربة التي كانت يخطط لتوجيهها إلى إيران كانت خلواً من المغامرة، وجيدة التوقيت. ولكن في غضون أسابيع قليلة جداً اتضح أن ذلك كان خطأً في التقدير. ذلك أن غزوه قد فقد قوة اندفاعه، وأعادت إيران تجميع وتشكيل قواتها، وبحلول تشرين الأول/نوفمبر سنة ١٩٨٠ أصبحت حرب الخليج مبارزة ساكنة تراوح مكانها في الوحل وبقيت كذلك أعواماً فاستنزفت طموحات صدام وأشياء كثيرة أخرى. كما أن آمال بريجنسكي في أن يؤدي الصراع إلى إطلاق سراح الرهائن قد ذهبت أدراج الرياح. (ولم تبدأ المفاوضات الجدّية بين الولايات المتحدة وإيران عبر مساعي الجزائر الحميدة إلا عندما تحولت الحرب إلى صراع ساكن متعادل، ولم تصل إلى نهاية ناجحة إلّا في ٢٠/كانون الثاني/يناير سنة ١٩٨٠، في يوم تنصيب رونالد ريغان).

وبينما استمرت الحرب في مسارها استمرت سوريا وإسرائيل تتسابقان على كسب ودّ إيران، وبذلك امتد الصراع العربي ـ الإسرائيلي إلى ما وراء المشرق، إلى الخليج. كانت إسرائيل تأمل في أن تؤدي مبيعات الأسلحة لإيران في خاتمة المطاف إلى إقامة تماثل واتفاق في المصالح بينهما. أما سوريا فلم تر سبباً يدعوها إلى التخلي عن رأيها في أن إيران الثورة يجب احتضانها كحليف، رغم الضغط من الرأي العام العربي، ومن المؤسسات السنية، وخاصة في الجزيرة العربية والدول الخليجية.

ولم تكن مغازلة إيران سياسة بلا متاعب لكل من سوريا وإسرائيل. بل كانت المكاسب لكل منهما في مقابل كلفة كبيرة لا يستهان بها. فاضطرت إسرائيل إلى الكذب عندما أوضحت فضيحة الإيران ـ كونترا إلى أي مدى قامت بجرّ حليفها الأميركي للتورط في مستنقع التعامل والصفقات السرية مع إيران. وواجه الأسد بدوره انتقادات عربية وسنيّة لوقوفه إلى جانب إيران والشيعة، وشاهد التزامه القومي يتعرض للتشكيك. كما أن المعونة المالية الهامّة له من دول الخليج تناقصت كثيراً. وعندما قامت إيران في مرحلة لاحقة من الحرب

بتهديد الكويت وغيرها من دويلات الخليج بدا ادعاء الأسد بأن نفوذه لدى إيران قد حمى تلك الدول من الأخطار ادعاءً أجوف. ولكن برغم هذه التكاليف والإحراجات قاوم الأسد كل المناشدات التي توسلت إليه أن يعيد النظر في موقفه وفي خياره الإيراني الأساسي.

وكان عزاؤه هو أن انحيازه (المثير للجدل والخصومة) إلى جانب إيران والتشيع قد جاءه بفائدتين هامتين: أولاهما محور دمشق ـ طهران الذي حرره من الضغوط العراقية فمكّنه ذلك من تركيز كل دفاعاته ضد التهديد الإسرائيلي. والثانية محور دمشق ـ الشيعة في لبنان الذي وضع تحت تصرفه ميليشيات قوية تقاتل نيابة عنه ولها تأثير حاسم في مبارزته القادمة مع بيغن.

هوامش الفصل الحادي والعشرين

(١) للحصول على رواية كاملة لسيرة حياة الصدر انظر كتاب فؤاد عجمي، بعنوان الإمام المختفي: موسى الصدر والشيعة في لبنان (طبع إيتاكا ولندن سنة ١٩٨٦).

(٢) مقابلة مع زهير جنان، من موظفي وزارة الإعلام السورية الذين رافقوا أحمد اسكندر أحمد إلى طهران (١٠/نيسان/ابريل سنة ١٩٨٥).

(٣) مقابلة مع صحيفة كيهان في ١٩٧٩/٨/١٩، ملخص الإذاعات العالمية لدى هيئة الإذاعة البريطانية (١٩٧٩/٨/٢١).

(٤) ملاحظات الرئيس الأسد على زيارته لطهران (٢٨ ـ ٣١ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٧٥)؛ أرشيف القصر الجمهوري بدمشق.

(٥) لوران شابري: «تشغيل خط الأنابيب العراقي التركي والخلاف السوري العراقي» في مغرب ـ مشرق العدد ٧٧ (تموز/يوليو أيلول/سبتمبر ١٩٧٧).

(٦) بيان مشترك من مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية العراقية في ٢٦/تموز/يوليو سنة ١٩٧٩ ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ بأرشيف هيئة الإذاعة البريطانية (١٩٧٩/٧/٣٠).

(٧) الرئيس البكر نفسه، وعدنان حسين أمين سر مكتب صدام الخاص، ومحي عبد الحسين المشهدي، أمين سر مجلس قيادة الثورة، وعضو المجلس محمد العايش وغيرهم ممن هلكوا في حمام الدم.

(٨) إن مصدر هذه الجملة والتي تليها يرغب في أن يظل مجهولاً.

(٩) شبلي ملاط: «النزعة النسائية الإسلامية عند بنت الهدى» في مجلة مغرب مشرق العدد ١١٦ (سنة ١٩٨٧).

(١٠) أوفرا بانجيو «العراق» مقال في مجلة «ميدل إيست كونتمبوراري سرفي» أي (استعراض الشرق الأوسط المعاصر) التي يحررها ليغوم وشركاه، المجلد الرابع (١٩٧٩ ـ ١٩٨٠) ص ٥١٨ ـ ٥٢١.

(١١) إذاعة دمشق (في ٢٤/أيلول/سبتمبر سنة ١٩٨٠) ـ ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ في أرشيف هيئة الإذاعة البريطانية (٢٦/أيلول/سبتمبر سنة ١٩٨٠).

(١٢) البرافدا، في ١١/١٠/١٩٨٠ مقتبسة في كتاب ديليب هيرو المعنون إيران تحت حكم آية الله (لندن ١٩٨٥)، ص ٢٨٧.

(١٣) ميخائيل غوردوس: مراقب الإذاعات الإسرائيلي الشهير، حديث بالتلفزيون الإسرائيلي في ٩/١٠/١٩٨٠، ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ بأرشيف هيئة الإذاعة البريطانية (١١/١٠/١٩٨٠).

(١٤) آهرون س. كليمان: **امتدادات إسرائيل العالمية: مبيعات السلاح كنوع من الدبلوماسية** (نيويورك واكسفورد ١٩٨٥) ص ١٥٨، وكذلك بنيامين بيت هاللحمي: **الدور الإسرائيلي** (لندن ١٩٨٨) ص ٩ - ١٢.

(١٥) كليمان (مصدر سبق ذكره) ص ١٥٩.

(١٦) مقابلة مع سيروس فانس بنيويورك في ١٩٨٧/٧/٣١، وكذلك كتاب بريجنسكي الذي سبق ذكره، ص ٥٠٤.

(١٧) الواشنطن بوست في ١٩٨٦/١١/٢٩ مقتبسة في أرشيف الأمن القومي، **جدول الأحداث** (نيويورك ١٩٨٧)، ص ٣.

(١٨) بوب وود وورد: **القناع، الحروب السرية لوكالة المخابرات المركزية من ١٩٨١ إلى ١٩٨٧** (لندن) ص ٥٠١.

(١٩) **جدول الأحداث**، ص ٦.

(٢٠) مقابلة مع الدكتور أحمد الخطيب، الزعيم الكويتي المعارض (لندن ١٩٨٦/٩/١٢).

(٢١) غاري سيك: **الجميع يسقطون: مواجهة أميركا المصيرية مع إيران** (طبع لندن ١٩٨٥)، ص ٩٠.

(٢٢) لجنة التحقيق المشتركة لمجلس الكونغرس في فضيحة إيران كونترا ٨٧/٥/٦ (شهادة سيكورد).

(٢٣) سيك (مصدر سبق ذكره) ص ٣٣٣ الملاحظة رقم ٧ في الحاشية.

(٢٤) أعيد طبع التصريح في الغارديان في ١٩٨٠/١٠/٩.

(٢٥) سيك (مصدر سبق ذكره) ص ١٧٠، ٣٠٣، ٣٠٥.

(٢٦) مقابلة مع محمد علي هاشمي في لندن في ١٢/نيسان/أبريل ١٩٨٧.

(٢٧) الملك حسين في تلفزيون عمان في ١٩٨٠/١٠/٤ - ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ بأرشيف هيئة الإذاعة البريطانية (في ١٩٨٠/١٠/٦).

الفصل الثاني والعشرون

المعركة مع مناحيم بيغن

بما أن الأسد وبيغن كانا صاحبيْ رؤىً لا يمكن التوفيق بينها، فقد كان من المحتوم أن يصل الأمر بينهما إلى تبادل الضربات، وقد حدث ذلك في لبنان، فيما قدر له أن يصبح أعنف الاشتباكات دمويةً في تاريخ الصراع على الشرق الأوسط وكان لبنان في الثمانينات هو الميدان السيء الطالع للاصطدام بين إسرائيل المسيطرة المتجهة للتوسع التي كان بيغن مصمماً على إقامتها وبين النظام الاقليمي المنافس الذي حاول به الأسد إيقافه. وقد عَرَفَ كلٌ من الرجلين في الآخر عدوه الرئيسي الذي يمكن أن يعرض للخطر كل شيء عزيز على قلبه. وبعبارة مختصرة إلى حد الاختزال فإن «إسرائيل الكبرى» شنت حرباً على «سوريا الكبرى» وكلاهما مفهومان مثيران للجدل وليسا مُحَدَّدَيْنِ بدقةٍ أكيدة، غير أن الأكيد هو أن كلاً منهما يلغي الآخر وهذا الصراع الذي يمكن اعتباره بطريقة ما ذروة حياتهما السياسية أوشك أن يدمرهما معاً.

ولم يكونا في وضع متكافىء. ففي بداية الثمانينات كان الأسد ضعيفاً لا يزال يقاتل من أجل حياته ضد أعدائه الاسلاميين في الداخل، بينما كان بيغن في أوج قوته. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان مبدأ أمن المشرق كما تصوره الأسد، يبدو مهلهلاً، فقد كان على علاقة سيئة جداً مع الأردن، وكان يكافح ـ بدون نجاح ملحوظ ـ من أجل ضبط حركة المقاومة الفلسطينية، وفي لبنان فشل

في تهدئة البلد بعد خمس سنوات من الجهود للحّد من تورط إسرائيل مع المسيحيين.

وكان بيغن على العكس من ذلك، يستطيع التأمل في نتائج فترة حكمه الأولى بقدر كبير من تهنئة النفس. فقد تكفلت معاهدة السلام بمصر، وتكفلت حرب الخليج بالعراق، مما ترك لبيغن حرية كبيرة في العمل. كانت قبضته على شبه جزيرة سيناء تزوده بورقة رابحة، فلقد وافق في كامب ديفيد على إعادة سيناء لمصر، ولكن ليس بشكل كامل حتى نيسان/ إبريل عام ١٩٨٢. ولذا فإنه ما دام محتفظاً بشريحة كبيرة، فلم يكن ممكناً لأحد التأكد تماماً من أن مصر ستستعيدها. وفي غمرة حذرها من الإخلال بالجدول الزمني لم تجرؤ مصر ولا الولايات المتحدة على الوقوف في وجهه. ولقد كانت مخاوفهما بلا أساس فلم يكن هناك في العالم كله شيء يمنع بيغن من إعادة سيناء، ما دام السلام مع مصر هو حجر الأساس لاستراتيجيته في الاحتفاظ بالضفة الغربية. ولكن ذلك لم يكن مفهوماً على نطاق واسع في ذلك الحين.

وكان أكبر أرصدة بيغن هو الرئيس الأميركي الجديد وفي لحظة تنصيب رونالد ريغن في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٨١، وحتى من لحظة إعلان فوزه في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٨٠ شعر الاسرائيليون بتغير مفاجىء في الطقس بعد سنوات كارتر الحرجة. فريغان لم يكن لديه أدنى إهتمام بتطلعات الفلسطينيين، ولفرحة بيغن ورضاه سمح ريغان لمحادثات الحكم الذاتي بأن تتلاشى. ثم ان بيغن كان يوافق من كل قلبه على موقف الإدارة القوى المعادي للسوفيات، والذي رفع من قيمة إسرائيل «كرصيد استراتيجي» وهوسها بهاجس «الارهاب الدولي»

لقد شغل الارهاب تفكير إدارة ريغان من البداية،ولعل ذلك لم يكن غريباً نظراً لأن الحبس الطويل للرهائن في السفارة بطهران، له دور كبير في تدمير كارتر وضمان انتخاب ريغـان، كما أن محاولة اغتيال الرئيس الأميركي ومحاولة

اغتيال البابا قد عملتا على زيادة الفزع. وكان الجمهوريون اليمينيون في الفريق الجديد يرون شيئاً سوفياتياً وراء كل مظهر من مظاهر العواطف المعادية للغرب. بل إن ريغن، وهيغ، ووليام كيسي مدير وكالة المخابرات المركزية قد صدّقوا تقارير الصحفية الأميركية كلير ستيرلنغ في كتابها المعنون: شبكة الإرهاب (١٩٨١) عن عشرات الألوف من الارهابيين الذين تشرف عليهم موسكو بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والذين يتدربون في معسكرات للمقاتلين في طول العالم وعرضه باعتبارهم «كتائب النخبة في جيش عالمي للقتال الشيوعي»[١] وزعمت أن الكوبيين لهم دور كبير فيه، وللفلسطينيين كذلك لأنهم «القطب المغناطيسي الثاني لاجتذاب المتدربين على الإرهاب». وكان رجال المخابرات المحترفون يعرفون أن كلام سترلنغ هذه هراء إلّا أن بيغن كان سعيداً بأن يشجع البيت الأبيض ووزارة الخارجية على أن يَرَيَا أن الإرهاب هو البلاء الأكبر في العالم الحديث، وأن سوريا، وليبيا، ومنظمة التحرير الفلسطينية هم الممارسون الرئيسيون له، وأنهم كذلك عملاء للاتحاد السوفياتي، طبعاً.

وفي الإدارة الجديدة كان الأمل المفضل للإسرائيليين هو وزير الخارجية الجنرال الكساندر هيغ، العسكري ـ المتسيس سريع الاهتياج الذي تعلم الدبلوماسية من كيسنجر عندما كان مساعده في البيت الأبيض أيام نيكسون. وفي أول زيارة له إلى الشرق الأوسط كوزير للخارجية غاظ الأسد بتعمده حذف سوريا من برنامج رحلته، وهاجم القائد السوريَّ بفظاظةٍ، واعتبره عميلاً للسوفيات إلى درجة أن مضيفي هيغ الإسرائيليين بدأوا يعتقدون بأن سوريا «صيد مباح» وكان مما زاد في طمأنتهم أن هيغ بدا غيرَ مهتم بأسباب النزاع العربي الإسرائيلي وجوهره، وأنه كان يتبع سراباً يسميه «الإجماع الاستراتيجي» الإقليمي ضد الاتحاد السوفياتي. وبما أنه كان يخفي طموحات شخصية بأن يصبح رئيساً مقبلاً للولايات المتحدة، فقد كان معجباً بعضلات إسرائيل المؤثرة في سياسة أميركا المحلية، ومتأثراً جداً بمساعد وزارة الخارجية

المتحيز لإسرائيل هارفي سيكرمان. والحق أن توافق المصالح بين واشنطن وإسرائيل بدا عظيماً جداً، ومستويات المعونات ثابتة ومؤمنة، بينما كان مؤيدو إسرائيل متنفذين في الكونغرس إلى درجة أن بيغن كان على شيء من الصواب عندما أعتقد بأنه يستطيع أن يجعل أميركا تتسامح مع أي شيء يشاء أن يفعله.

وكانت رسالة بيغن (العالمية المقدسة من وجهة نظره) هي أن يوحّد «أرض إسرائيل» كلها بأن يضمَّ إلى الدولة اليهودية ضماً دائماً الأراضي التي كان يصرّ على إطلاق التسميات التوراتية عليها «يهوذا والسامرة» أي الضفة الغربية. وكان تحقيق هذه الرؤيا يعني ملء الضفة الغربية بالمستوطنين اليهود وسحق أي مظهر من مظاهر الشخصية الوطنيةالفلسطينية. وعندما استلم بيغن السلطة للمرة الأولى عام ١٩٧٧، وضع وزير زراعته الجلف العنيف الجنرال آريل شارون مسؤولاً عن برنامج سريع لبناء المستوطنات. وكان بيغن يفهم الصفقة التي عقدها في كامب ديفيد بأنها قد أطلقت يده في الضفة الغربية لأنه وافق على إعادة سيناء لمصر. وكان نجاحه في خداع كارتر والسادات كليهما بدهائه قد ولدّ فيه على ما يبدو شيئاً كثيراً من الغطرسة الوقحة أدى به إلى الاعتقاد بأنه يستطيع الشروع في توسع جديد وهو آمن.

ولكن بيغن على أية حال كان يحتاج إلى بيئة محمية لكي يجعل مشروعه العزيز على نفسه آمناً فعلاً. وكان الحل الفظ الذي تفتق عنه ذهنه هو تغيير الميزان الاستراتيجي في المنطقة، وهذه عملية كانت قد بدأت بإخراج مصر من ميدان المعركة. ولكن ذلك لم يحل المشكلة تماماً. . . فقد بقي عدوّان لم يكن بيغن يستطيع التأكد من دوام نجاحه دون إخضاعهما. كان هناك أولاً منظمة التحرير الفلسطينية، المجسدة للوطنية الفلسطينية، ثم كانت هناك سوريا، الخصم القديم في الشمال، الدولة التي جعلها التاريخ والجغرافيا عقبة أمام إشباع جوع بيغن للأرض ولتحقيق هيمنة إسرائيل الإقليمية. ولم يَسْعَ بيغن للسلام مع الفلسطينيين ولا مع السوريين، كما سعى إليه مع مصر، لأن مثل

ذلك السلام كان يقتضي تخلياً عن أراض محتلة. كان بيغن يريد الاحتفاظ بالضفة الغربية ليستكمل «أرض إسرائيل»، وكان محتاجاً إلى الاحتفاظ بالجولان ليحمي تلك الأرض. غير أن التمسك بهذه الأراضي العربية كان يتطلب قوة لا يستطيع أحد أن يتحداها. وكان مفتاح ذلك يكمن في احتواء سوريا، أو دحرها إذا دعت الضرورة. كان إخراج مصر هدف بيغن في فترة رئاسته الأولى، فأصبح تحييد سوريا هدفه في فترة رئاسته الثانية.

أزمة الصواريخ

كان ذلك هو سياق تقاطع السيوف الأول بين الأسد وبيغن، خلال جوّ ما سمي بأزمة الصواريخ في لبنان، والتي بدأت في نيسان/ إبريل، عام ١٩٨١.

وقد نشأت تلك الأزمة من الصراع على السيطرة على وادي البقاع الذي كان في يد سوريا منذ عام ١٩٧٦ والذي كانت سوريا تعتبره حيوياً للدفاع عن نفسها: فقد كان البقاع مدخلاً محتملاً لغزو إسرائيلي، وكان طريق دمشق - بيروت (الذي هو شريان سوريا الحيوي إلى لبنان) يمر من خلاله. وقبل ذلك ببضعة أشهر أي في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٠ كانت الميليشيات المسيحية المتحالفة مع إسرائيل قد دخلت إلى زحلة، المدينة الرئيسية في الوادي وكان رأس جسر مسيحي كهذا تهديداً لم يكن بوسع الأسد التسامح فيه أو غض النظر عنه. فكان رد فعله العنيف هو قصف زحلة، وكذلك بيروت الشرقية المسيحية، وإرسال قوات كوماندوس للسيطرة على معاقل في الجبال يستطيع منها أن يمارس ضغطاً إضافياً على قلب الأراضي المسيحية الداخلية في الشمال.

أما الشخص الذي كان وراء هذا التحدي للأسد، فهو بشير الجميّل، الابن الأصغر لمؤسس حزب الكتائب، الشيخ بيير الجميل. وقد قيل بأنه جُنِّد لخدمة وكالة المخابرات المركزية الأميركية عندما كان يشتغل لحساب مؤسسة قانونية أميركية مقرها في واشنطن في أوائل السبعينات. وفي الوقت المناسب قدمته هذه بدورها إلى نظيرتها الاسرائيلية: «الموساد»[٢] التي راحت تهيئه

ليلعب دور وكيل إسرائيل المعتمد في لبنان. ولقد استطاع بشير الجميل، منذ بداية الحرب الأهلية اللبنانية، ومن خلال الإرهاب والاغتيال، أن يوحّد مختلف المسلحين الموارنة في ميليشيا واحدة بقيادته عرفت باسم «القوات اللبنانية». وقد تطابقت أطماع إسرائيل الإقليمية مع مطامح بشير المحلية في إعادة ترسيخ السيطرة المسيحية في لبنان.

كانت إسرائيل ترى في المسيحيين حلفاء طبيعيين لها ضد سوريا والفلسطينيين، وقد توسعت اتصالاتها بهم جداً منذ عام ١٩٧٦. وفي الجنوب كانت تحتفظ علناً بقوة حدود مسيحية، بينما ظلت في السرّ تمول وتدرب مقاتلي بشير في الجبال الشمالية. ولم يكن التحالف الإسرائيلي ـ المسيحي فكرة جديدة. بل كانت قد أجتذبت الطائفتين كلتيهما منذ الثلاثينات، في خوف مشترك من الأراضي الداخلية الإسلامية العربية. وبعد عام ١٩٤٨ طرحت فكرة وجوب تدخل إسرائيل لإعادة رسم حدود لبنان، والاستيلاء على الجنوب حتى نهر الليطاني، وتشجيع ظهور دولة مارونية صديقة لإسرائيل في الشمال، ونوقشت هذه الفكرة مراراً ولا سيما من قبل ديفيد بن غوريون في عام ١٩٥٤ (في المداولات المنشورة بينه وبين موشي شاريت، الذي كان أكثر حذراً)[٣] غير أنها لم تصبح سياسة عملية إلا عندما بدأت الحرب الأهلية اللبنانية في السبعينات، عندما بدأت إسرائيل تقدم إلتزامات أوسع للموارنة تَوَّجَهَا وعد بيغن لهم عام ١٩٧٨ الذي كرره عام ١٩٨٠ بأن يقف السلاح الجوي الإسرائيلي إلى جانبهم إذا استعملت سوريا قوتها الجوية ضدهم[٤].

وبعد أن أثبت الأسد موقفه القوي في زحلة، حاول بشير الجميل أن يمد سيطرته في الأسابيع الأولى من عام ١٩٨١، فجاء بالجرافات لبناء طريق يصل المدينة بجبل لبنان المسيحي ولعله راهن على التسبب في صدام سوري ـ إسرائيلي يستطيع أن يحوله لصالحه، وعندما قبل الأسد تحديه هذا وقصف زحلة وأرسل قوات كوماندوس سورية إلى الجبال ناشد بشيرٌ بيغن طالباً المساعدة.

فحثّه بيغن على الصمود، ثم وفى بتعهده فأرسل طائرات سلاحه الجوي للاشتباك مع السلاح الجوي السوري. وفي ٢٨ نيسان/ إبريل عام ١٩٨١ أسقط الإسرائيليون طائرتين مروحيتين سوريتين كانتا تنقلان المؤن والإمدادات للقوات السورية. وفي اليوم التالي حرك الأسد صواريخ أرض ـ جوّ سوفياتية الصنع إلى البقاع. لقد بدأت أزمة الصواريخ.

كانت غريزة بيغن تدعوه إلى تدمير صواريخ «سام» هذه في الحال، ولكنه لم يفعل ذلك لأسباب متنوعة، فقد كان مشغولاً بشن حملته في الانتخابات العامة التي كان مقرراً إجراؤها في نهاية حزيران/ يونيو (عام ١٩٨١)، ولم يكن ذلك وقتاً مناسباً لشن حرب. وأما صديق بيغن المقرب، آرييل شارون، فلم يكن يريد الحرب إلى أن يتسلم مسؤولية وزارة الدفاع، وهذا منصب كان بيغن قد وعده به إذا فاز «الليكود» في الانتخابات. وأما مدير المخابرات العسكرية، يهوشع ساغي، فقد نصح بالحذر كذلك. ولعل السبب الأهّم هو أن بيغن كان يخفي ضربةً مفاجئةً أخرى كجزء من حملته الانتخابية، ولم يرد أن يقلل من حدة تأثيرها بفتح جبهة أخرى.

ففي السابع من حزيران/ يونيو، وفي إستعراض للقوة دعائي مثير قامت طائرات إسرائيلية بتدمير مفاعل أوزيراك النووي العراقي الذي أقامته فرنسا. لقد ظلت إسرائيل طيلة عشرات السنين تسعى لمنع وصول تقنية السلاح المتقدمة إلى أيدي العرب فقامت مثلاً بأعمال إرهابية ضد العلماء الألمان الذين كانوا يعملون في برنامج الصواريخ المصري في الستينات. ولكن الضربة ضد العراق كانت تقتضي قيام أربع عشرة طائرة بالتحليق مسافة ألف كيلو متر فوق أراضٍ عربية معادية، ولذلك فإنها قد تجاوزت تلك السوابق بكثير، ومدت حدود «أمن إسرائيل» مسافةً شاسعة، وأكدت عزمها على أن تبقى القوة النووية الوحيدة في المنطقة وساعدت هذه العملية الجراحية المتقنة المهيبة على إعادة بيغن إلى الحكم بعد ثلاثة أسابيع.

وربما كان العامل الأساسي الذي منع بيغن من مهاجمة صواريخ «سام» في البقاع هو عدم تأكده من رد الفعل الأميركي. فعلى الرغم من نفوذ بيغن الهائل في الإدارة الأميركية فإن سلوكه العدواني كان قد بدأ يلقي بعض المقاومة وكانت قد بدأ عملية صراع وشدّ وجذب مع البيت الأبيض حول الخطط الأميركية لبيع خمس طائرات بأجهزة الانذار والسيطرة المحمولة جوّاً (والمعروفة إختصاراً باسم آواكس) للعربية السعودية، وهو صراع استغرق جزءاً كبيراً من السنة. وفي تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٨١ كسب ريغن موافقة الكونغرس على الصفقة في آخر الأمر. ولكن عدد الأصوات كان شديد التقارب؛ والاشتباك مع «اللوبي» الإسرائيلي كان مؤذياً لريغن إلى درجة أن النتيجة قد اعتُبِرَت نصراً لبيغن. وكان ذلك مفارقة. كما أن الغارة على المفاعل العراقي قد اعتصرت رصيد إسرائيل في واشنطن بشدة، وبينما كان هناك تعاطف كبير مع دوافع بيغن كان هناك إنزعاج كبير من استعمال إسرائيل لصور الأقمار الصناعية كي تخطط للغارة، وللطائرات الأميركية الصنع والقنابل «الذكية» الأميركية للقيام بها. وقد استنكرت الولايات المتحدة ذلك العمل في مجلس الأمن، غير أنها لم تطبق أية عقوبات، اللهم إلا تأخرها بضعة أسابيع في تسليم إسرائيل أربع طائرات إضافية من طراز ف ـ ١٦، وهو نفس النوع الذي استعملته إسرائيل في الغارة. وهكذا فعندما انفجرت أزمة الصواريخ آثر بيغن التعقل وعدم تجريب الأميركيين ثانيةً، وأن يقبل إقتراح واشنطن بإرسال مبعوث للرئيس الأميركي، هو السفير فيليب حبيب، كي يحاول بالطرق الدبلوماسية إزالة صواريخ «سام» التي سببت ذلك الغيظ.

وظل حبيب طيلة أشهر الصيف المبكرة يصارع من أجل إطفاء النيران في لبنان عام ١٩٨١. فلم يكن عليه أن يحاول نزع فتيل النزاع بين بيغَن والأسد حول تلك الصواريخ فحسب، بل كان عليه أن يتصارع كذلك مع إشتعال ضخم للصراع القديم بين إسرائيل والفلسطينيين. وكأنّ بيغن أراد أن يعوّض عن ضبط

النفس الذي أبداه حيال صواريخ سوريا فأطلق علـى المواقع الفلسـطينية طيرانه وأسطوله في أواخر أيار/ مايو وأوائل حزيران/ يونيو سنة ١٩٨١. وعندما شعر بخيبة الأمل لفشل تلك الهجمات في اجتذاب نيران منظمة التحرير الفلسطينية، بدأ يهاجم بوحشية أكبر، إعتباراً من العاشر من حزيران/ يونيو. وبعد خمسة أيام من القصف الإسرائيلي عيل صبر الفلسطينيين ففتحوا نيران المدفعية والصواريخ على المستوطنات في الجليل. وعندئذ، في ١٧ حزيران/ يونيو أغار سلاح الجو الإسرائيلي لمدة عشرين دقيقة على ضواحي بيروت، حيث تقع مكاتب منظمة التحرير، فقتل مائتان من الفلسطينيين واللبنانيين وجرح سبعمائة آخرون وسط دمار شديد للممتلكات فردت المنظمة بمزيد من القصف لشمال إسرائيل، فقتلت ستة وجرحت تسعة وخمسين.

كان هذا هو الوضع المكفهر الذي استطاع فيليب حبيب، بعد جهود مضنية، وبمساعدة من السعوديين أن يدبر أمر ترقيعه على شكل «تفاهم» ثلاثي بين بيغن، والأسد، وعرفات يوم ٢٤/ تموز ـ يوليو ـ.

وكان جوهر الاتفاق أن سوريا ستحتفظ بصواريخها في مكانها في البقاع، على أن يكون مفهوماً أنها لن تُطْلقَ. وأن إسرائيل سوف تستمر في طلعاتها الاستطلاعية فوق لبنان ولكنها لن تهاجم الصواريخ، وأن إسرائيل والفلسطينيين سيتوقفون عن ضرب بعضهم بعضاً عبر الحدود اللبنانية، مع ضمان الأسد لحسن سلوك الفلسطنيين، وحاول بيغن توسيع نطاق الاتفاق ليشمل حظراً على هجمات الفلسطينيين ضد الأهداف الإسرائيلية في أي مكان من العالم. ولكن فيليب حبيب بيّن له بوضوح أن الاتفاق قاصر على الأعمال التي تنشأ في لبنان(٥). وعند ترتيب الاتفاق لم يسمح لحبيب بالاتصال مع عرفات مباشرة ـ فقد كان تعهد كيسنجر يحرّم ذلك ـ وهكذا تبودلت الرسائل جيئة وذهاباً عن طريق السوريين والسعوديين ـ وكان ذلك غالباً في شخص الشيخ عبد العزيز التويجري مبعوث ولي العهد فهد، ونائب قائد الحرس الوطني. وكانت تلك

طريقة ملتوية لم تمنع بيغن من التشكك ومحاصرة حبيب بالأسئلة الاستنطاقية عما إذا كان قد تحدث مع المنظمة. وفي النهاية «لم يدون أي شيء، ولكن الجميع قد فهموا ما تم الاتفاق عليه» كما قال فيليب حبيب فيما بعد.

وشعر الأسد بشيء من الرضا مؤقتاً. كانت الأزمة بداية عودته إلى الدخول في عالم الدبلوماسية الدولية على سعته بعد أن كان السادات قد استبعده إلى خارج عملية السلام قبل أربعة أعوام عند زيارته للقدس. وخرج من الملجأ الحصين الذي أبقاه فيه الإرهابيون الإسلاميون، وتحدى بيغن، واستطاع أن يبقي صواريخه في لبنان، وبدأ حواراً مع الولايات المتحدة. ثم ان «التفاهم» الذي تفاوض عليه حبيب لم يكن إملاءً إسرائيلياً مفروضاً، بل بدا له أنه تعبير عن توازن للقوى توافق عليه أميركا. وبالنسبة لطريقة الأسد في التفكير كانت تلك خطوة في الاتجاه الصحيح حان زمانها منذ وقت طويل.

ولكن الأسد أخطأ فهم المسألة بهذه الطريقة، فلقد كانت نفسية بيغن متعطشة للحرب في صيف عام ١٩٨١ إلى درجة أن الأسد كان محظوظاً لأنه لم يتعرض لهجوم إسرائيلي. ولعله لم يدرك أن فيليب حبيب اللطيف المتودد، الأميركي من أصل لبناني، لم يعكس له مدى لا مبالاة الإدارة بسوريا أو مدى إلتزام أميركا بإسرائيل، ولذلك بالغ في تقييم إرادة واشنطن في كبح جماح بيغن. ولم يقدر تماماً وجهة نظر بيغن كانت هي أن فيليب حبيب قد أرغم إسرائيل على تنازلات غير مقبولة. وظلت صواريخ «سام» في البقاع تعتمل في صدره وتثير ضغينته. أما الفلسطينيون الذين يكرههم بيغن فقد رأى أنهم كسبوا في جنوب لبنان فترة لالتقاط أنفاسهم وتعزيز بناء قوتهم العسكرية. ومما حزّ في نفس بيغن أكثر أن فيليب حبيب قد أعطى عرفات مكانة سياسية، وأن إسرائيل باتفاق وقف إطلاق النار لم تعد تبعد سوى إنش واحد عن الاعتراف بـ «الإرهابيين» ذلك أن خوف المتشددين الإسرائيليين الأكبر لم يكن من تشدد منظمة التحرير الفلسطينية بل من إعتدالها الذي قد يرغم إسرائيل على

التفاوض، وبالتالي على تقديم تنازلات. ومع ذلك، ورغم إعتراضات بيغن كلها فإن ترتيبات حبيب قد حافظت على السلام طيلة الأحد عشر شهراً التالية، إلى أن رفض بيغن أن يضبط نفسه أكثر من ذلك. كل ما هنالك أن موعده مع الأسد وعرفات قد تأجل مؤقتاً فقط.

وجاء إغتيال السادات في تشرين الأول/ أكتوبر ليبعد إهتمام أميركا وإسرائيل عن لبنان. غير أن آريل شارون ووزير الدفاع الأميركي واينبرغر قد وقعا في تشرين الثاني/ نوفمبر «مذكرة تفاهم» حول التعاون الاستراتيجي، رأى شارون على الأقل أنها توسع حريته في العمل ضد منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا. وقد أسهمت هذه المذكرة في إقناع «الصقور» الإسرائيليين ـ ليس فقط بيغن وشارون، بل رئيس الأركان رافائيل إيتان ووزير الخارجية إسحق شامير، والسفير في واشنطن موشي آرنز ـ بأن التأييد الأميركي لأي عمل يرتأونه قادمٌ لا ريب فيه.

وبحركة تحكمية متغطرسة في ١٤/ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٨١ أعلن بيغن ضم مرتفعات الجولان، ومما لا شك فيه أنه كان يأمل بذلك في إستدراج الأسد إلى عمل عسكري. وشعرت واشنطن بالحرج، فجمدت العمل بمذكرة التفاهم، فأصيب بيغن بنوبة غضب جعلته يلغيها تماماً، ثم يصرخ في وجه السفير الأميركي صاموئيل لويس: «هل نحن جمهورية موز؟» ويمكن تفسير غضب بيغن بأن إعتراضات أميركا على الضمّ جعلت هجوم إسرائيل على سوريا أشد صعوبة ـ هذا إذا سمح الأسد لها بأن تستفزه.

ولم يخطىء الأسد فهم مغزى إسرائيل ومراميها في الجولان، فإن بيغن بادعائه أنها جزء من «أرض إسرائيل»[٦] قد ألغى بكل إحتقار إحتمال سلام مع سوريا يقوم على أساس إعادة الأرض. فالشيء المعروض كان هو الإستسلام فقط. وقرأ الأسد هذه الإشارة على أنها إعلان للحرب، ولكنها حرب لا يقدر على خوضها. وكان يعلم أنه إذا قام بأية حركة عسكرية فإن إسرائيل ستتذرع بها كحجة لضربه وكان على الأسد أن يكتفي بشجب العدوان الإسرائيلي، وبطرح

قضيته على مجلس الأمن وزعماء العالم. . . دون الحصول على أية نتيجة ملموسة. وهكذا حافظ على وقف إطلاق النار بدقة في الجولان، ولم يقم برد فعل عسكري على ضمها من قبل بيغن، ولم يخفف من جهوده للسيطرة على الفلسطينيين في لبنان الذين خَشِيَ أن يفجروا صراعاً في توقيت ليس من إختياره.

كانت تلك شهوراً من القلق غير العادي للأسد بينما راح يقيس مدى خطورة الفريق المتشدد في إسرائيل ومدى ضعف العرب المزمن، وبتوقيع «مذكرة التفاهم» الأميركية ـ الإسرائيلية التي نظر إليها الأسد بكآبة وقنوط، أدرك أنه لا يمكنه الاعتماد على واشنطن للمحافظة على السلام. كانت تلك لحظة إحباط كبير.

كان سلطان باشا الأطرش على فراش الموت عندما أعلنت إسرائيل مَدَّ تطبيق قوانينها على الجولان، موطن الدروز التقليدي. وكان سلطان باشا هو الزعيم الدرزي الذي قاتل الجيش الفرنسي بحفنة من الخيالة في العشرينات. وكان ابنه منصور إلى جانب فراشه عندما سمعه يهتف ذات ليلة: «فليلعنهم الله!».

وتساءل منصور: «يلعن من؟» ظناً منه أن سلطان باشا كان يشير إلى بعض أهل بيته ولكن الباشا أجاب: .

ـ «العرب!».

ـ «ماذا فعل العرب؟».

ـ «لا شيء! إنهم لا يفعلون شيئاً! تغتصب إسرائيل أرضهم ولا يتحركون. لديهم طائرات، ولديهم مدافع، ولديهم أموال، ولكنهم لا يفعلون شيئاً! إنني أبصق على هؤلاء العرب الأغنياء!»(٧).

البحث عن ذريعة للحرب

عندما شكل بيغن حكومته الثانية في آب/ أغسطس سنة ١٩٨١ أعطى منصب وزير الدفاع لأرييل شارون، وهو منصب ظل يطمع فيه طويلاً هذا الشخص المتوحش الغريب الأطوار اللامع الخارج عن سربه. وكان وضع «جيش الدفاع الإسرائيلي» في يدي هذا الشخص المشهور بكرهه للعرب، والداعي إلى العنف، يدل دلالة واضحة على نوايا بيغن. كانت لديه ثلاثة أهداف: أولها إبادة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، وتدميرها واقتلاعها من جذورها تماماً لكي يتغلب على مقاومة الضفة الغربية للحكم الإسرائيلي، وهكذا تم التخطيط للحرب باعتبارها في جوهرها حرباً من أجل الضفة الغربية ولكن امتصاص الضفة الغربية لا يمكن أن يحدث في فراغ. ولكي يحافظ على «أرض إسرائيل» كان هدفه الثاني هو طرد القوات السورية والنفوذ السوري من لبنان؛ وكان هدف بيغن الثالث هو تنصيب بشير الجميل رئيساً على لبنان كوكيل ماروني تابع يوقع معاهدة سلام مع إسرائيل. وبانتزاع لبنان من منطقة نفوذ سوريا وجرّه إلى الدوران في فلك إسرائيل كان بيغن يأمل في تحييد سوريا إلى الأبد وكان طموحه الشامل هو إعادة تشكيل المنطقة بشكل يسمح بإقامة «إسرائيل الكبرى» بعيداً عن أي تحدٍ خارجي وكانت مهمة شارون توفير الوسائل العسكرية لتحقيق ذلك.

ومنذ أيامه الأولى كقائد للوحدة ١٠١ بنى شارون لنفسه سمعة كمدافع عن العمليات العسكرية العنيفة الوقحة ضد العرب وهي سمعة عززها عبوره لقناة السويس في حرب تشرين/ أكتوبر وكان يرى أن مصالح إسرائيل الأمنية تمتد عبر قوس شاسع من الدول، من تركيا والعراق وباكستان إلى الخليج الفارسي وعبر شماله ووسط أفريقيا(٨) وكان يدافع عن الفكرة القائلة بأن «الأردن هو فلسطين» وهو شعار يوحي بطرد أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى الأردن وإسقاط الملكية هناك وكان بلا شك يأمل بأن تزوده الحملة اللبنانية بالفرصة لتنفيذ هذا البرنامج.

وفي غضون أسابيع كان قد لفق خطة أساسية كبرى أطلق عليها بالشيفرة إسم «عملية الصنوبرات الكبيرة» تتجاوز في حجمها كل الخطط والتحضيرات الجاهزة لدى الجيش الإسرائيلي ضد منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان. وقد فهم شارون بأن السيطرة على بيروت ودحر السوريين كانا أمرين جوهريين لتحقيق الأهداف السياسية الجذرية التي اتفق عليها مع بيغن وكان يجب أن تتم هذه الفعلة قبل إنتخاب الرئاسة اللبنانية التي كان محدداً لها شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٨٢. وكان لإسرائيل تاريخ طويل من عمليات التدخل السري لزعزعة الإستقرار في العالم العربي[٩]. ولكن إستخدام «جيش الدفاع الإسرائيلي» لإحداث تغيير سياسي جذري في دولة عربية كان يمثل خروجاً على تقليد طالما تبجحت به إسرائيل وهو أن حروبها كانت «دفاعية» ـ أو بشيء من التوسع: «إستبقاية» ـ دائماً. كان الصراع المخطوط له ـ كما أعترف بيغن فيما بعد ـ «حرباً بالاختيار».

ولكن بيغن وشارون لم يجرؤا على إعلان نواياهما بصراحة، ولذلك كان عليهما اللجوء إلى الخداع والمرواغة. كانت الغزوات المسلحة إلى داخل لبنان لحماية مستوطنات إسرائيل الشمالية من الهجمات عبر الحدود، وحتى توجيه الضربات إبتداءً لمنظمة التحرير الفلسطينية دون إستفزاز من جانب المنظمة كانت قد أصبحت آنئذٍ أشياء يتسامح معها ويتغاضى عنها الرأي العام الإسرائيلي والعالمي غير أنه لم يكن ممكناً المجاهرة علناً بأن الحرب ستكون هجومية لتدمير منظمة التحرير الفلسطينية تماماً، وإخراج سوريا، وإعادة تركيب النظام السياسي اللبناني. كانت هناك حاجة لحجة تتذرع بها إسرائيل من أجل عمل عسكري بهذا الحجم وهذه الأهداف.

وكانت المشكلة هي أن وقف إطلاق النار الذي رتبه فيليب حبيب كان ساري المفعول، وكانت الجبهة الشمالية هادئة وهكذا تجاهل بيغن وشارون إعتراضات زملائهما الوزراء الأكثر حذراً، وبدآ يحاولان إستفزاز الفلسطينيين

والسوريين للقيام بعمل عسكري يمكن النظر إليه كمبرر لإنتقام إسرائيلي على نطاق واسع، ولذلك قامت إسرائيل فيما بين تموز/ يوليو سنة ١٩٨١ وحزيران/ يونيو سنة ١٩٨٢ بحشد قوات كثيفة على الحدود، واضطرت في المرات الخمس جميعاً إلى إلغاء وتفكيك تلك الحشود لأن الذريعة لم تكن كافية، ولأن الضغط من الوزراء الآخرين في إسرائيل ومن واشنطن كان قاهراً بل إن تحركات بيغن الحربية هذه أفزعت حتى سكان المستوطنات الشمالية في إسرائيل الذين لم يصرخوا لطلب المزيد من الحماية، بل على عكس ذلك تماماً توسلوا طالبين عدم تعكير صفو السلام الذي كانوا يتمتعون به[١٠] ومما يدل دلالة مميزة على شوفينية بيغن السريعة الإنفجار أنه أعطى مجلس الوزراء الإسرائيلي أول نظرة على «الصنوبرات الكبيرة» في نفس اليوم الذي تبادل فيه الصراخ الغاضب مع السفير صاموئيل لويس حول توبيخ واشنطن لإسرائيل لضمها الجولان.

ومع ذلك فقد كان بيغن وشارون يفضلان الحصول على موافقة أميركا على هجومهما. فاستهدفا حليفهما الرئيسي في الإدارة: وزير الخارجية هيغ. ففي أثناء تشييع جنازة السادات في القاهرة، أخبره بيغن بأن إسرائيل ربما تضطر إلى إبعاد منظمة التحرير عن منطقة الحدود، ولكنه أكد لهيغ أن إسرائيل ستبذل جهدها لعدم جرّ سوريا إلى المعمعة. فأجاب هيغ «إذا تحركتم فسوف تتحركون وحدكم»[١١] وهي كلمات قريبة قرباً غريباً من كلمات ليندون جونسون التحذيرية المقتضية عشية حرب حزيران/ يونيو: «لن تكون إسرائيل وحدها إلا إذا قررت أن تتحرك وحدها» وتلك كلمات لم توقف إسرائيل.

وتلقت واشنطن تنبؤات أدق عما هو قادم عندما قام شارون العدواني الفاقد الصبر بشرح الحلّ الذي يتصوره للقضية الفلسطينية أمام فيليب حبيب في ٥/ كانون الأول ـ ديسمبر وكان حبيب قد عاد إلى المنطقة لاستكشاف إحتمالات فرص توسيع وقف إطلاق النار اللبناني إلى تسوية سياسية بين إسرائيل والفلسطينيين ولكنه عندما طرح الموضوع تلقى جواباً قصيراً قاطعاً كالإعتراف،

فقد صرخ شارون في وجهه: «سوف أريك كيفية معالجة موضوع الفلسطينيين» ثم نشر على طاولة مكتبه في وزارة الدفاع بتل أبيب خريطة «للبنان، ثم راح يضربها بقبضة يده هنا وهناك ليوضح كيف خطط لتدمير منظمة التحرير الفلسطينية وليكتسح الفلسطينيين ليخرجهم من بيروت، إن لم يكن من لبنان كله»[١٢]. واحتج حبيب بأن مثل هذا الهجوم لا يمكن التفكير فيه. ثم أخبر هيغ في واشنطن بهذا الحوار الغاضب، كما نقله إليه أيضاً السفير الأميركي في إسرائيل، صاموئيل لويس[١٣].

وقد شهد هيغ نفسه والعهدة على الراوي بأنه قد حذّر إسرائيل «مراراًوتكراراً» من القيام بأي عمل عسكري، ولكن الصيغة العرجاء الفاترة التي إستخدمها كانت تتلخص بأن الولايات المتحدة لن توافق على هجوم إسرائيلي «إلاّ إذا كان هناك استفزاز كبير معترف به دولياً»[١٤] وهكذا وافق هيغ على هجوم إسرائيلي إذا تلطفت المنظمة وأهدت إسرائيل ذريعة.

إنهمك الحليفان في مناقشة مستفيضة حول ما يمكن أن يشكل إستفزازاً مقبولاً، وحاولت إسرائيل أن تعيد كتابة شروط وقف إطلاق النار، متذرعة بأن أي هجوم فلسطيني على هدف إسرائيلي في أي مكان في العام يمكن إعتباره أساساً لشن عزو. وفي شباط/ فبراير سنة ١٩٨٢ قام مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية، يوشع ساغي، بزيارة هيغ في واشنطن سعياً للحصول على دعمه لمثل هذا التعريف الجديد للإستفزاز المقبول كذريعة. وفي أيار/ مايو ذهب شارون بنفسه إلى واشنطن ليعيد طرح الموضوع بقوة وإلحاح أكبر. وبدون أن يكشف حجم ومدى عملية «الصنوبرات الكبيرة» بتفاصيلها الكاملة شرح لهيغ كيف يمكن إنقاذ لبنان من سوريا وإعادته إلى «العالم الحر» ـ وكان ذلك برنامجاً يحبه هيغ. وبعد الاجتماع قام حبيب بتحذير هيغ من أن شارون كان يغادر واشنطن ولديه إنطباع خاطىء، ثم كتب حبيب مسودة رسالة من هيغ إلى بيغن يحثه فيها على ضبط النفس، وهي رسالة قيض لهيغ أن يوردها فيما بعد لدعم

زعمه بأنه لم يوافق على الغزو[١٥]. ولكن فيليب حبيب يتذكر أن هيغ لم يقل ولم يفعل أي شيء يمكن أن يخفف من تصميم شارون على الغزو تخفيفاً جدياً. ولقد كانت الخرائط التي عرضها على هيغ في واشنطن هي نفسها التي أفزعت فيليب حبيب في تل أبيب قبل ذلك بستة أشهر[١٦].

ولقد اعتبر الأسد فيما بعد الولايات المتحدة مسؤولة كإسرائيل عن المذابح والدمار في لبنان[١٧]. ولم يكن ذلك دون مبرر. لأن الإدارة الأميركية ـ رغم علمها بنوايا إسرائيل ـ لم تصدر في أي وقت تحذيراً صريحاً بأن إسرائيل تفقد حقها في الدعم الأميركي إذا هاجمت لبنان، إذْ أن أي شيء أقلّ من إنذارٍ كهذا يمكن تفسيره على أنه ضوء أخضر فقط[١٨] لقد كان هناك تواطؤ حقاً. ولكن المتواطئين تعمدوا عدم جعله صريحاً ليتمكنوا من إنكاره. وكانت النتيجة حصول إسرائيل على الموافقة التي أرادتها وحرمان واشنطن من أية سيطرة فعالة على مجرى الحرب فيما بعد. إذ أن العلاقة الاميركية ـ الاسرائيلية (بسبب طبيعة التداخلات الحميمة والاختراقات المتبادلة بين الطرفين) راحت تدور حول نفسها بسرعة منفلتة الزمام.

غزو لبنان

في ٣ من حزيران/ يونيو سنة ١٩٨٢ عندما أطلق مسلحون فلسطينيون النار على السفير الإسرائيلي بلندن، شلومو آرغوف، خارج فندق دورتسشتر وأصابوه بجراح خطرة اغتنم بيغن وشارون الفرصة وشنّا الحرب. لم يكن ذلك الحادث في لندن خرقاً لاتفاقية وقف إطلاق النار التي رتبها فيليب حبيب، ولكن ذلك لم يردع بيغن وشارون. ولم توقفهما عن الحرب أيضاً معلومات المخابرات بأن مهاجمي آرغوف كانوا من رجال منظمة «أبو نضال»، العدو اللدود لزعيم المنظمة ياسر عرفات. وقال رئيس الأركان إتيان ساخراً: «أبو نضال، أو أبو شميدال، إن علينا أن نضرب منظمة التحرير الفلسطينية!»[١٩]. لقد كانت كراهية إيتان للفلسطينيين وتحرقه لقتلهم أكبر حتى من مشاعر شارون المماثلة.

كان شارون وبيغن متحمسين للقتال. فقد ظلّا عدة أسابيع يحاولان استفزاز الفلسطينيين لجرهم إلى معركة. ففي نيسان/ إبريل رداً على انفجار لغم في جنوب لبنان وكذلك في ايار/ مايو بعد العثور على عبوتين ناسفتين في إسرائيل خرق بيغن وقف إطلاق النار وقَصَفَ أهدافاً فلسطينية على أمل أن يرد المقاتلون الفلسطينيون الضربات، غير أنهم لم يردوا في نيسان/ إبريل؛ وفي ايار/ مايو. أرسلوا قذائفهم إلى حقول خالية في الجليل. أما في الرابع من حزيران/ يونيو وعقب الهجوم على آرغوف فقد أرسل بيغن طائراته لضرب بيروت الغربية وجنوب لبنان، مما سبب سقوط عشرات الضحايا. وفي هذه المرة ردت منظمة التحرير الفلسطينية بقصف شمال إسرائيل، فقتل إسرائيلي واحد وأصيب خمسة عشر بجراح وكان ذلك إستدعاءً لسد هائل من النيران التي راحت تنصب على مخيمات الفلسطينيين من الطائرات الإسرائيلية، والمدفعية بعيدة المدى، ومدافع القطع البحرية. لقد بدأت حرب بيغن في لبنان.

ومن أجل الاستهلاك المحلي، أعيد تعميد «الصنوبرات الكبيرة» فأصبح اسمها «سلام الجليل»، وقيل بأن هدفها هو إرجاع منظمة التحرير إلى مسافة أربعين كيلو متراً من الحدود الإسرائيلية. وكان اسم العملية الجديد ومداها وحجمها المعلنان خيالاً كاذباً.

ففي يوم الأحد، ٦ حزيران/ يونيو (١٩٨٢) إجتاحت القوات البرية الإسرائيلية حدود لبنان، وقام قائد المنطقة الشمالية البرية الإسرائيلي، اللواء عمير دروري بزج ٧٦٠٠٠ رجل في المعركة، مع ١٢٥٠ دبابة و ١٥٠٠ ناقلة جنود مدرعة، مدعومين بالطيران والبحرية. وفي مواجهتهم كانت قوات نظامية سورية، وفلسطينية تابعة لجيش التحرير الفلسطيني بقيادة اللواء سعيد بيرقدار تعدادها حوالي ٢٥٠٠٠ رجل، و ٣٠٠ دبابة و ٣٠٠ ناقلة جنود مدرعة، مع حوالي ١٥٠٠٠ فدائي تابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية مع أسلحة متنوعة بقيادة ما لا يقل عن ثماني منظمات فدائية منفصلة[٢٠].

خلال أربعين ساعة، وفي صباح ٨/ حزيران ـ يونيو كانت القوات الإسرائيلية قد غزت معظم جنوب لبنان ودحرت قوات المنظمة، وراحت تتقدم على ثلاثة محاور على الساحل اللبناني، وفي الشمال الشرقي باتجاه البقاع، وفي الجبال الوسطى. كان الفلسطينيون قد أخطأوا بمحاولة بناء قوات تقليدية لأن مثل هذه القوات لا يمكن أن تتفوق على «جيش الدفاع الإسرائيلي» ولو استمروا يتدربون ويقاتلون كقوات فدائية حقيقية غير نظامية لاستطاعوا أن يوقعوا اسرائيل في متاعب أكثر. والذي حدث هو أن أداء الفلسطينيين الأفضل كان في دفاعهم عن مخيمي الرشيدية وعين الحلوة، خارج صور وصيدا حيث صمدوا أياماً. وكان المدنيون الفلسطينيون هدفاً لإسرائيل كمقاتلي منظمة التحرير تماماً. ومنذ الخامس من حزيران/ يونيو فصاعداً تعرضت كل المخيمات الكبرى للاجئين في جنوب لبنان للقصف من البر والبحر والجو بقصد مسحها وتسويتها بالأرض حتى يستحيل السكن فيها بشكل دائم وفي حرب الإبادة هذه ضد الفلسطينيين تلقى الإسرائيليون تشجيعاً مارونياً حماسياً. فقبل الغزو بعدة أشهر جرت مناقشات أميركية ـ إسرائيلية ـ مارونية سرية هادئة حول مستقبل لبنان متحرر من الضغط الفلسطيني، وقد لعب شارل مالك دوراً بارزاً في تلك المناقشات وشارل مالك كان وزيراً سابقاً للخارجية ومن أبرز المدافعين عن لبنانٍ مسيحي التوجه، موالٍ للغرب.

وفي الكنيست دافع بيغن عن الهجوم الكثيف الكبير على المدنيين، فتساءل بسخرية ثقيلة: «منذ متى أصبح سكان جنوب لبنان جميلين فجأة؟ ألم يقدموا المأوى للإرهابيين؟ ألم تطرد إسرائيل مليوناً ونصف مليون مصري من ضفة قَنَاة السويس أثناء حرب الإستنزاف مع مصر؟ إنني لا أشك لحظة واحدة في أن السكان المدنيين يستحقون العقاب!»(٢١) أما الأسرى الفلسطينيون فقد أرغموا على الوقوف معصوبي الأعين مكبلي الأيدي أياماً بكاملها وهم معرضون للشمس بلا ماء ولا طعام، وغالباً ما كانوا يتلقون الضرب ويرغمون على قضاء

حاجاتهم وهم واقفون في مكانهم، ونقل كثيرون إلى إسرائيل حيث ألقي بهم في غياهب السجون، وحشروا في باصات ولوريات تحت الضرب والإهانات من قبل الحراس أو جمعوا وربطوا في شبكات تتدلى من الطائرات المروحية[٢٢].

ثم جاء دور الأسد.

لم يكن الأسد يتوقع أو يريد أن يقاتل في لبنان كان يدرك أن إسرائيل تخطط لضربه منذ الربيع السابق، وهذه معرفة عززتها التحذيرات السوفياتية وربما كان ـ مثل منظمة التحرير ـ يتوقع تكراراً للغزو المحدود الذي حدث عام ١٩٧٨. لأنه كان هناك نوع من الانفصال بين سوريا وإسرائيل في لبنان منذ عام ١٩٧٦ بحيث غض كل منهما النظر عن وجود الآخر ضمن ما يسمى إتفاقية «الخطوط الحمر» الصامتة، غير أن أزمة الصواريخ عام ١٩٨١ أحدثت ثقوباً في «الاتفاقية» وكان فيليب حبيب قد أقام نوعاً من التوازن ـ أو هكذا كانت الصورة في ذهن الأسد على الأقل ـ في صالحه. وعندما إستند على معاهدته مع موسكو وتحالفه مع إيران، والاندحار النهائي للأخوان المسلمين في حماه في شباط/ فبراير ١٩٨٢، خرج من أعماق الهاوية وأصبح مستعداً للوقوف على قدمية. وفي نيسان/ إبريل وأيار/ مايو حاول أن يتحدى تفوق إسرائيل الجوي فخسر أربع طائرات ميغ في العملية. ولكنه لم يكن مستعداً لقتال شامل، وكان توزع قواته في لبنان متواضعاً ودفاعياً.

كانت نقطة ضعفه التي تشبه كعب أخيل هي علاقته مع عرفات التي تميزت ـ منذ إصطدامهما العنيف عام ١٩٧٦ ـ بالعداء الشخصي وعدم الثقة المتبادل رغم مظهر التضامن السطحي الخارجي، وكان لبّ القضية منذ الستينات هو أن عرفات كان يريد حريته في إتخاذ قراراته، بينما كان الأسد يرى في هذه الحرية تهديداً لأمن سوريا. وكان الأسد غاضباً من الاعتراف الذي حصل عليه عرفات في أوربا والذي جعل السيطرة عليه أشد صعوبة، وكذلك

العلاقات التي أقامها مع السعودية وليس فقط خلال المفاوضات مع حبيب. وكانت سوريا والمنظمة قد أجرتا محادثات قبل الغزو الإسرائيلي، غير أنها قصرت كثيراً عن إقامة تنسيق دفاعي. ولم تُسْتَشَرْ دمشق عندما فتح الفلسطينيون نيرانهم على الجليل في ٤ حزيران/ يونيو، وبذلك وقعوا في فخ بيغن ـ ومرة أخرى قام عرفات بوضع الأسد أمام أمر واقع. ولذلك فإن الفرق الإسرائيلية عندما بدأت تتدفق عبر الحدود كانت الأسئلة البارزة الأولى في ذهن الأسد هي: إلى أي مدى سيصلون؟ وهل سيهاجمونني؟.

وطلبت إسرائيل، في الخامس من حزيران/ يونيو، من الولايات المتحدة أن تخبر الأسد بأن وحداته في لبنان لن تتعرض للهجوم إلا إذا هاجمت هي أولاً[٢٣]. وفي اليوم التالي كتب بيغن رسالة إلى الرئيس ريغان يعِدُهُ فيها بأن لا يوسع الحرب لتشمل السوريين، وفي ٧/ حزيران ـ يونيو طلب بيغن من حبيب أن يذهب إلى دمشق بالرسالة نفسها وفي ٨/ حزيران ـ يونيو أعلن رئيس الأركان إيتان: «إننا نبذل كل جهد ممكن لتجنب المواجهة مع السوريين. إن مشكلتنا هي مع الإرهابيين». وفي ذلك اليوم نفسه وجه بيغن نداءً عاطفياً شخصياً إلى الأسد من الكنيست: «إننا لا نريد حرباً مع سوريا، ومن على هذه المنصة أدعو الرئيس الأسد إلى أن يأمر الجيش السوري بأن لا يهاجم الجنود الإسرائيليين. وفي هذه الحالة لن يلحق بالسوريين أي أذى على الإطلاق. والواقع أننا لا نريد أن نؤذي أحداً. إننا نريد شيئاً واحداً فقط: هو أن لا تُهاجَمَ مستوطناتُنا في الجليل. . . . فإذا دفعنا الخط إلى الوراء لمسافة أربعين كيلو متراً عن حدودنا فسوف تنتهي مهمتنا ويتوقف القتال كلياً. إنني أوجه هذا النداء للرئيس السوري لأنه يعرف كيف ينفذ إتفاقاً. . .»[٢٤].

وكانت هذه التطمينات والنداءات خدعة قصد منها تحذير الأسد بإعطائه شعوراً زائفاً بالأمن، وإسكات إنتقادات أميركا وزملاء بيغن من الوزراء الإسرائيليين الذين لم يطلعهم على أهداف الحرب الحقيقية. فلقد كانت هناك

خطط عمليات جاهزة للتعامل مع الحامية السورية في لبنان. وفي ٧ حزيران/ يـونيو هـوجمت محطتا رادار سوريتان في مطار الرياق وفي الدامور وحتى عندما كان بيغن يتكلم كانت قوات إسرائيلية ضخمة تتحرك لتطويق الدفاعات السورية من المجنبات. وكانت مجموعة منتقاة من نخبة الدروع والمشاة تشق طريقها إلى جبال الشوف لتطويق المواقع السورية في جزين قبل أن تتجه شمالاً. وإلى الشرق كانت قوة من ٣٥٠٠٠ جندي و ٨٠٠ دبابة تسمى مجموعة قوات البقاع بإمرة اللواء آفيغدور بن غال (الذي كان قد أوقف الهجوم السوري على الجولان في سنة ١٩٧٣) ومهمتها الإستيلاء على وادي البقاع والتقدم نحو طريق بيروت ـ دمشق الحبل السُّري الذي يربط سوريا بلبنان. فالتعامل مع الفلسطينيين وحدهم لم يكن يستدعي نشر سبع فرق ميكانيكية مدرعة وعدة ألوية مستقلة وغيرها من الوحدات المتخصصة.

ومن الناحية التكتيكية كانت هيئة الأركان الإسرائيلية ترغب في إبقاء سوريا خارج المعركة خلال الساعات الإثنتين والسبعين الأولى ريثما يتم تحطيم منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن دحر الفلسطينيين لم يكن ببساطة سوى تمهيد لبدء العمل ضد سوريا. ومهما قال بيغن وشارون وايتان لمجلس الوزراء الإسرائيلي فإن الثلاثة كانوا متفقين على أن هدف الغزو يتجاوز تدمير منظمة التحرير إلى تدمير قدرة سوريا على تعطيل النوايا الإسرائيلية المتعلقة بلبنان وبإسرائيل الكبرى. وكان الذي أراد الغاية هو الذي أراد الوسيلة. ومن هنا كان لشارون شيء من العذر المبرر لإنكاره الغاضب لتهمة كونه وحده مسؤولاً عن حرب لبنان[٢٥]. ومهما كانت رؤاه الاستراتيجية شخصية وحالمة وخيالية، فإنه ليس من الصحيح أن تُعْزَىٰ إليه وحده الحملةُ على سوريا، لأنها نبعت مباشرة من أطماع بيغن المتعلقة بإسرائيل الكبرى.

كانت أوامر شارون هي إزاحة سوريا من لبنان فهل كان يمكن تحقيق ذلك بدون العمل العسكري الذي تعهد بيغن بأن يتجنبه ضد الأسد، والذي كانت

تعارضه الولايات المتحدة وقسم كبير من الحكومة الإسرائيلية؟ ومما لا شك فيه أن الإضطرار إلى إخفاء النوايا عقبة مثبطة؛ ولعل شارون ظن أن عرضاً للقوة أو شيئاً أقل من صراع كبير يمكن أن يؤدي الغرض. وعلى أية حال فإنه قد حشد في الميدان قوات كافية ونشرها بطريقة فيها خطر يكفي لحشر الأسد في مأزق: فإمّا أن يقاتل ويندحر، وإما أن ينسحب عائداً فيتعرض للمذلة... وفي كلا الحالتين ينتهي التواجد السوري في لبنان ويتعرض حكم الأسد للخطر. وطوال الحملة كانت مهمة الأسد الصعبة هي تجنب الإحتمالين معاً.. أي تجنب الوقوع في فخ معركة حاسمة، أو الإخراج من لبنان، وكانت هذه المرحلة من الحرب لهذا السبب معركة ذكاء بين الأسد وبين شارون.

وخلال اليومين الأولين ٦ و ٧ حزيران/ يونيو كان لا يزال ممكناً للأسد أن يعتقد بأنه ليس الهدف الأول وعلى الرغم من التحركات الاستفزازية للقوات الإسرائيلية إهتم إهتماماً كبيراً بعدم الإنجرار. وكما اعترف فيما بعد فإن فكرته الأولى كانت أن الإسرائيليين سيهاجمون على الساحل صُعُداً نحو صيدا، ويتركون له قطاعيه الأوسط والشرقي وشأنهما[٢٦] غير أنه في يوم ٨ لم يعد له مناصٌ من الإستنتاج بأنه أصبح في خطر داهم. وقد أكد له هذا الإستنتاج اللواء علي أصلان، نائب رئيس الأركان الذي أرسله للإستطلاع. فقد إجتاحت إسرائيل «أرض فتح» وكانت تقصف الفلسطينيين الذي هربوا إلى الأرض الواقعة في أيدي القوات السورية. وكانت المواقع السورية الأمامية في جزين تتعرض للهجوم من ثلاثة إتجاهات، وأخطر من هذا كله كانت قوة مدرعة إسرائيلية تجري مسرعة إلى الشمال قد وصلت في ذلك اليوم إلى قرية على بعد عشرة كيلو مترات فقط إلى الجنوب من طريق بيروت ـ دمشق فكانت القوات السورية في بيروت عرضة لخطر الإنقطاع والوحدات السورية في البقاع عرضة للتطويق. فابتلع الأسد جزءاً من طُعْم شارون وأدخل تعزيزات من الجولان وأضاف ثلاث بطاريات «سام» إلى الست عشرة التي كانت موجودة أصلاً في البقاع.

وهكذا تهيأ مسرح الأحداث ليوم حرج في المواجهة السورية الإسرائيلية هو التاسع من حزيران/ يونيو. وكان هجوم إسرائيل في ذلك اليوم سياسياً وعسكرياً معاً، فطلب بيغن من فيليب حبيب (الذي كان ريغان قد أوفده للمنطقة على عجل «لتبريد الأمور»(٢٧)) أن يحمل إلى الأسد رسالة كانت في حقيقة الأمر إنذاراً مؤداه: أن إسرائيل لن تهاجم القوات السورية، ولكن الأسد يجب أن يزيل صواريخه من لبنان ويسحب جميع الوحدات الفلسطينية إلى بعد أربعين كيلو متراً من حدود إسرائيل ـ وتلك شروط مهينة ومستحيلة وقد أوصلها حبيب لوزير الخارجية ـ عبد الحليم خدام في صباح ٩ حزيران/ يونيو. ولكن بينما كان حبيب ينتظر مقابلة الأسد بُعَيْدَ الظهر هوجمت شبكة صواريخ سام كلها في البقاع ودُمِّرت. فلقد كانت مهمة حبيب نفسها خدعة.

وحصل السوريون على دقائق قليلة للإنذار بالهجوم عندما سجلت راداراتهم تشكيلات كبيرة من الطائرات الإسرائيلية تتجمع غرباً، غير أن الإجراءات الإلكترونية الإسرائيلية المضادة عطلت الرادارات بشكل يكاد يكون فورياً، ثم تعرضت مواقع سام لهجوم شديد بقذائف جوّ ـ أرض، وأرض ـ أرض، بالتنسيق مع مدفعية بعيدة المدى. وبثّت طائرات إستطلاع بلا طيار صور الدمار الذي حدث، وعندئذ أطبقت على المواقع موجات من الفانتوم، والسكاي هوك والكفير، ترافقها إيغلزف ١٥ وفالكون ف ـ ١٦، توجهها طائرة رقابة وسيطرة من نوع هوك آي لتكمل عملية التدمير بعبوات شديدة الإنفجار وقنابل إنشطارية(٢٨) وقد وقع مزيد من الغارات الجوية الإسرائيلية ضد صواريخ سوريا في لبنان في شهري تموز/ يوليو وآب/ أغسطس. وخلال سبع غارات دمّر الطيران الإسرائيلي سبعاً وعشرين بطارية سام وأعطب أربعاً أخرى.

كانت إسرائيل متفوقة على الأسد تماماً في الجوّ. فطائراته السوفياتية لم تكن لتضاهي الـ «ف ـ ١٥» و «ف ١٦»، ناهيك بصواريخها المنطلقة من الجوّ ـ إلى الجو. ولم يكن لدى الأسد أجهزة سوفياتية للإنذار المبكر أو أجهزة اليكترونية محمولة

جوّاً لتضارع ما هو موجود لدى إسرائيل في طائرات «هوك آي» (عين الصقر) والبوينغ ٧٠٧. غير أنه عرف في ٩ من حزيران/ يونيو أن عليه أن يكسر زخم الإندفاع الإسرائيلي بأي ثمن إذا كان يريد الحفاظ على مركزه في لبنان وحمايته من الإنهيار ككومة من الورق. فأرسل طائرات إعتراضية، في محاولة يائسة لإيقاف الطائرات الإسرائيلية المغيرة. وكانت المعارك التي نجمت عن ذلك بين سبعين طائرة سورية ومائة طائرة إسرائيلية نفاثة تفوق سرعتها سرعة الصوت من أضخم معارك الحرب الحديثة.

وأسقطت تسع وعشرون طائرة سورية دون أن تفقد إسرائيل طائرة واحدة. وأفاد طيار إسرائيلي إشترك في تلك المعارك بأن الطيارين السوريين «كانوا يعرفون أن طائراتهم لا تملك أية فرصة للصمود أمام طائراتنا، ومع ذلك إستمروا في الطلوع وكأنهم يطلبون أن يُسْقَطوا. لقد أظهروا شجاعة وتفانياً، وإنني لا أكنّ لهم سوى الإحترام والإعجاب»[٢٩]. أما القتال في وادي البقاع، فقد علق عليه ضابط كبير في سلاح الجو الإسرائيلي (يعتقد كثيرون بأنه قائد السلاح الجوي آنذاك، الجنرال ديفيد إرفي) فقال فيما بعد: «كانت الطائرات السورية تقاتل في وضع غير مؤاتٍ، مضطرة للإستجابة للتهديد الإسرائيلي أنّى ظهر في الزمان والمكان، في ظروف إستراتيجية وتكتيكية لم تكن في صالح سوريا»[٣٠] ورغم الخسائر الكاسحة في ٩ من حزيران/ يونيو، عاد سلاح الجو السوري إلى المعركة بكثافة في اليوم التالي مباشرة، فخسر خمساً وثلاثين طائرة أخرى. وعلق وزير دفاع سوريا فيما بعد بأن «النتائج المشرفة» التي تحققت قد تطلبت تضحيات جسيمة[٣١]. فقد إندحر الطيارون السوريون أمام مجموعة من المهارات، وسنوات من التمرين، وأمام أحدث وأعقد الأسلحة والأجهزة الاليكترونية وأنظمة الرقابة والسيطرة الموجودة في ترسانات أميركا وإسرائيل. ولقد أضاف مصدر مصري حاشية تقول: في عام ١٩٨١ سلمت مصر للولايات المتحدة بطارية صواريخ سام ـ ٦ كاملة، مما أعطى الفنيين الأميركيين والإسرائيليين فرصة إبتكار أساليب للتشويش على مكوناتها الثلاثة: القذيفة،

والرادار، ووحدة السيطرة والتوجه[٣٢].

كان مجمع صواريخ البقاع أهم وأعلى رمز للتواجد السوري في لبنان، ولتصميم الأسد على إيقاف بيغن عند حده. وبمهاجمته كان بيغن يصفي حساباً سياسياً، وبما أنه قد حصل في الوقت نفسه على تفوق جوي كلي ترك السوريين عراة، فقد تمكن من إطلاق قواته البرية في ثمانية طوابير لتصعّد في وادي البقاع وسلاسل الجبال المحيطة به، وبذلك تهدد وتحتوي خط الدفاع السوري الأساسي من بحيرة قارون إلى راشيا. ولم يعد هنالك أي تظاهر إسرائيلي بتجنب القتال مع السوريين، ولا مكان للشك في ذهن الأسد بأن إسرائيل تهدف إلى تدميره. وأصبح السؤال الذي يراوده هو: هل تندفع جيوش شارون إلى الأمام، إلى طريق بيروت ـ دمشق لتعزل القوات السورية في بيروت والجبال، أم تستدير شرقاً لتهدد دمشق نفسها؟.

ومثلما كان مضطراً لكبح الهجوم الجوي الإسرائيلي ولو على حساب خسارة عشرات الطائرات والطيارين، فقد كان على الأسد ـ بعد أن أصبحت مصالحه الأمنية الحيوية في الميزان ـ أن يقف ويقاتل.

ولقد كانت المعارك البرية في تلك الأيام تمثل أحرج ساعات حياة الجيش السوري. فرغم أنه كان بلا غطاء جوي، يواجه قوات تفوقه عدة وعدداً، فقد إستطاع أن يوقف التقدم الإسرائيلي ويقيم مواقع دفاعية. وخلال أربعة أيام من القتال الشامل الذي إستعمل فيه أعداداً قليلة من الدبابات، وفرقاً مضادة للدبابات ووحدات من الكوماندوس، إستطاع أن يتراجع بانتظام جيد، وأن يرغم إسرائيل على دفع ثمن كل متر كسبته، عن طريق إيقاعها في كمائن، وبذلك حَرَمَ القيادة الإسرائيلية العليا من تحقيق النجاح السريع الذي كانت تأمل فيه وكأنه «عملية جراحية نظيفة» وفي ١٠ حزيران/ يونيو، قامت الفرقة السورية المدرعة الثانية، مسلحة بدبابات ت ـ ٧٢ كانت قد وصلت حديثاً، بخوض معركة مع لواء إسرائيلي مدرع في منطقة راشيا فأرغمت الإسرائيليين على

التراجع عدة كيلو مترات، ودمرت ثلاثاً وثلاثين دبابة، وأسرت بضع دبابات كاملة صالحة من طراز م ـ ٦٠ الأميركية الصنع[٣٣] ـ فنُقِلَتْ واحدةً منها إلى دمشق وأُرْسِلَت على الفور إلى موسكو بالطائرة. ومن بين الاشتباكات العديدة كان هناك إشتباكان حرجان: ففي الجبهة الوسطى تمكن لواء دبابات سوري وحيد، ومعه بعض الكوماندوس، من إيقاف الإسرائيليين عند قرية عين زحلتا مدة أكثر من يومين (٨ ـ ١٠/ حزيران ـ يونيو) ومنعهم من الإختراق باتجاه طريق بيروت دمشق. وعلى جبهة البقاع في يومي ١٠ و ١١/ حزيران ـ يونيو، وعند قرية السلطان يعقوب أوقفت فرقة الدبابات السورية الأولى هجوماً إسرائيلياً آخر ومنعته من الوصول إلى ذلك الطريق الحيوي وهو يسلك طريقه صُعُداً بشكل متعرج نحو الحدود السورية.

الخداع في وقف إطلاق النار

وفي ١١/ حزيران ـ يونيو تم التفاوض على أول وقف لإطلاق النار ـ مما أعطى الأسد فرصة لالتقاط أنفاسه. ومنذ تدمير الصواريخ السورية في ٩/ حزيران ـ يونيو، كان الضغط الدولي ولا سيما الأميركي يتصاعد لوقف الغزو الإسرائيلي. وفي تلك اللحظة من التعرض للخطر الجادّ طار الأسد سراً إلى موسكو[٣٤] ليقدم طلباً عاجلاً للعون السوفياتي، وحثّ بريجنيف على الاتصال بريغان عبر الخط الأحمر. ودق إحتمال تورط القوى الكبرى جرسَ إنذار في واشنطن. وفي هذه الزيارة ـ ونظراً لأن بريجنيف كان مريضاً عقد الأسد إجتماعاً مطولاً مع يوري اندروبوف، رئيس المخابرات السوفيتية (ال «ك ج ب») الذي أظهر فهماً مفصلاً لقضايا الشرق الأوسط، فكان ذلك داعياً لارتياح الأسد. وقد أرسى ذلك الإجتماع الأساس لشحنات كثيفة من السلاح والعتاد السوفياتي الذي جهزت به سوريا بعد الحرب. وهكذا أدى الضغط الإسرائيلي مرة أخرى إلى رفع مستوى قدرة سوريا العسكرية.

وفي هذه الأثناء كانت أهداف إسرائيل الحقيقية من الحرب قد اتضحت

أكثر أمام العالم كله حيث ظهر أن تعهد بيغن بعدم التقدم أكثر من أربعين كيلومتراً في لبنان، وبعدم مهاجمة السوريين لم يكن سوى خدعة. وظل وزير الخارجية هيغ يدافع عن الفوائد التي يمكن أن تنجم عن الحملة، غير أن مخاوف البيت الأبيض قد تزايدت حول نزعة المغامرة لدى بيغن وما يمكن أن تؤدي إليه. وكانت الولايات المتحدة قد صوتت إلى جانب قرار مجلس الأمن رقم ٥٠٨ في ٥/ حزيران ـ يونيو الداعي إلى وقف فوري لكل نشاط عسكري على جانبي الحدود ٦/ حزيران ـ يونيو والذي طالب بانسحاب إسرائيلي فوري وغير مشروط ولم يعد هناك وقت للصقور الإسرائيليين، ولكن ثَبُتَ أن لجمهم لم يكن سهلاً.

ومرة أخرى كان وقف إطلاق النار من عمل فيليب حبيب، فبعد اجتماعه بالأسد في ٩ حزيران/ يونيو أخبر واشنطن بأن الزعيم السوري مستعد لوقف القتال شريطة أن تبدأ إسرائيل بالانسحاب على الفور وتلزم نفسها بالإنسحاب الكلي. ورد ريغان برسالة شخصية عاجلة إلى كل من الأسد وبيغن، ثم نقلها في الثانية صباحاً من يوم ١٠/ حزيران ـ يونيو من قبل فيليب حبيب إلى دمشق ومن قبل السفير لويس في تل أبيب، وفيها ناشدهما أن يبدأ وقف إطلاق النار إعتباراً من السادسة من صباح ذلك اليوم وكان ذلك مناسباً للأسد، على أن تُلَبيَّ شروطُه. ولكن أهداف بيغن كانت لا تزال بعيدة عن التحقق، وكان شارون والجنرالات يصرخون مطالبين بالمزيد من الوقت. ولتأخير التقدم في عملية وقف إطلاق النار لجأ بيغن إلى هيغ طالباً مساعدته، فتحدث معه بالهاتف في الساعات الأولى ليدعوه للمجيء إلى المنطقة فوراً، وذلك بحجة أن تدخلاً أميركياً عالي المستوى هو وحده الذي يمكن أن يوصل إلى تسوية. وبعد أن تبجج بإنجازات سلاح الجو الإسرائيلي ضد السلاح الجوي السوري في اليوم السابق، وضع بيغن شروطه لوقف إطلاق النار: يجب على جميع الفلسطينيين مغادرة منطقة حزام الأربعين كيلو متراً، ويجب سحب التعزيزات السورية من البقاع ولكن إسرائيل نفسها لن تتزحزح قبل أن يتم الإتفاق على ترتيبات أمنية

لحدودها الشمالية. وهكذا تم تضييع عدة ساعات ـ أو كسبها من وجهة النظر الإسرائيلية ـ بينما كان هيغ يجري مداولات في واشنطن لكسب الدعم لرحلته، غير أن ريغان رفضها في آخر الأمر. وفي تلك الأثناء إستمرت إسرائيل في ضغطها في الميدان.

وفي دمشق كان فيليب حبيب في ورطة. إذ أن وليام كلارك، مستشار ريغان لشؤون الأمن القومي، قد أرسل له إشارة لتطمين الأسد بدعم ريغان الصلب لانسحاب إسرائيلي، غير أن هيغ قد أمره في الوقت نفسه أن ينتظر ولا يفعل شيئاً حتى يعطي الإسرائيليين مزيداً من الوقت(٣٥). وبما أنه كان مبعوثاً للرئيس الأميركي، فقد اختار أن يطيع كلارك. وفي وقت متأخر من يوم ١٠/ حزيران ـ يونيو قابل الأسد للمرة الثانية في يوم واحد، وأوصل إليه تطمين ريغان. ولم تكن لدى حبيب وسيلة يعرف بواسطتها أن هيغ كان قبل بضع ساعات فقط قد أقنع ريغان بعدم إرسال رسالة قاسية لبيغن كان كلارك قد وضع مسودتها وهي تصرّ على إنسحاب إسرائيلي غير مشروط(٣٦). وهكذا نُسِفَتْ مصداقيةُ حبيب في بلاده. لقد أعطى للأسد تطمينات لم يكن هناك إلتزام بها في واشنطن.

فاستناداً إلى ضمانات حبيب، وافق الأسد على سحب قواته وعلى نقل مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية إلى الشمال، كما وافق على التوقيت الذي اقترحه حبيب لوقف إطلاق النار. أما الترتيبات الأمنية التي كان بيغن يطالب بها في جنوب لبنان فإن الأسد لم يعترض عليها إلّا بالقول إنها لا يمكن أن تكون جزءاً من إتفاق وقف إطلاق النار، بل يجب مناقشتها مع الحكومة اللبنانية.

وسأل الأسد: «أهناك شيء آخر تطلبه منا أو من الفلسطينيين؟» وأجاب حبيب: «كلّا، لا شيء أبداً». فكان ذلك مدعاة لرضا الأسد(٣٧).

وبطريقة أو بأخرى، في ليلة ١٠ ـ ١١/ حزيران ـ يونيو علم الإسرائيليون بتفاهم حبيب مع الأسد (ولعلهم تنصتوا على حبيب وهو يتحدث مع واشنطن

عبر القمر الصناعي، لأن أجهزة الإتصال في السفارة الأميركية بدمشق كانت قد انهارت وتعطلت فاضطر إلى البثّ بصوته، وهذه طريقة ليست آمنة تماماً من المتنصتين عليها خلسة[٣٨] وعندما علم الإسرائيليون بما حدث في دمشق كان مأزقهم حاداً. فإن وافقوا على الشروط التي وافق عليها الأسد فجأة فإنَّ معنى ذلك وقف إطلاق النار فوراً وخراب مخططهم الأكبر. ووجدوا أن المخرج هو إستباق حبيب ـ والتعهدات الأميركية التي قدمها للأسد ـ بإعلان وقف لإطلاق النار من جانب واحد يكون بعيداً عن أية شروط تعرقله وعن أية وعود لأي شخص كان. وهكذا أذيع الإعلان الإسرائيلي في الساعة ٨/٤٥ من صباح ١١/ حزيران ـ يونيو (بتوقيت غرينتش) عن وقف لإطلاق النار يبدأ في العاشرة من ذلك الصباح (بتوقيت غرينتش). وبما أن فيليب حبيب كان قد غادر دمشق إلى القدس، فإن الأسد عندما سمع الخبر ظن أن معناه هو أن إسرائيل قد وافقت على نفس الشروط التي وافق عليها، بضمانة من الولايات المتحدة. وبناءً على هذا الفهم أذاع في الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة قبوله لوقف إطلاق النار.

غير أن الصدمة التي تلقاها الأسد ـ وحبيب ـ كانت وحشية في عنفها. وقد تذكر حبيب قائلاً: «سرعان ما اتضح أن وقف إسرائيل لإطلاق النار لم يكن يعني أي شيء. فقوّات شارون لم تتوقف بل كانت تتحرك بسرعة في الشوف وتطوق بيروت، وذهبتُ إلى إسرائيل لأكتشف ما الذي كان يجري بحق الجحيم، وعندما تساءلتُ عن معنى وقف النار المتدحرج إلى الأمام هذا حصلت على نظرات هادئة، وقال لي بيغن بلهجة من يفتي في قضايا الضمير والأخلاق: « إن رسالة رونالد ريغن لم تتحدث عن وقف لإطلاق النار مع بقاء القوات في أماكنها». وسألته صارخاً: .

ـ «هل هذا تفسيرك للأمر؟ أنت توقف النار، وهو يوقف النار ثم تتحرك أنت إلى الأمام، فيطلق هو النار، فتزعم أنت أنه قد خرق وقف إطلاق النار! لقد اخترعت نوعاً جديداً من وقف إطلاق النار، وعليَّ أن أستدعي الملحق

العسكري ليسجل لك هذا الإختراع»[٣٩]!.

وكان بيغن لا يزال ينوي السيطرة على بيروت، ووضع عميله بشير الجميل في سدة السلطة. وهكذا تجاهل وقف إطلاق النار، وقامت القوات الإسرائيلية، يدعمها قصف مدفعي من البر والبحر وغارات جوية، بالهجوم على المواقع السورية والفلسطينية في ضواحي بيروت وعلى التلال المطلة على العاصمة. ولم يستطع حبيب التعيس ولا واشنطن المنقسمة على نفسها إيقافهم. وبحلول الثالث عشر من حزيران/ يونيو إتصل المظليون الإسرائيليون بمليشيات بشير الجميل فأقاموا حاجزاً حول بيروت الغربية، وبذلك حصروا ١٤٠٠٠ جندي سوري وفلسطيني في منطقة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ألفين وخمسمائة كيلو متر مربع. وبعد أسبوع، في ٢٢/ حزيران ـ يونيو، خرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بفظاظة بهجوم شامل واسع النطاق على الوحدات السورية المدافعة عن طريق بيروت ـ دمشق إلى الشرق من المدينة. وخلال ثلاثة أيام من القتال العنيف تراجع السوريون خمسة عشر كيلو متراً عن الطريق. وبذلك حُرِمَ الأسدُ من أي تأثير على المعركة من أجل العاصمة اللبنانية وفي مساء ٢٥/ حزيران ـ يونيو تم التفاوض ثانية على وقف جديد لإطلاق النار.

ولا شك أن الأسد قد تخلص من إندحار أوسع نطاقاً في البقاع، وعلى مشارف بيروت بواسطة هدنتي ١١ و ٢٥ حزيران/ يونيو. وقد شكا شارون فيما بعد من أن التدخل الأميركي قد حرمه من النصر. ولكن مراوغات شارون المخادعة والاختلافات في التركيز بينه وبين بيغن، والعوائق المثبطة التي وضعها أعضاء الحكومة الإسرائيلية الآخرون قد أسهمت في الصعوبات التي واجهت شارون. فلم يكن هناك إجماع في مجلس الوزراء الإسرائيلي وفي اسرائيل نفسها على تأييد حرب ضد سوريا من أجل تغيير الخريطة السياسية للمنطقة. ولو كان شارون يستطيع أن يعترف بأن سوريا هي هدفه الأول لكان بإمكانه أن يرسم خطة إستراتيجية أكثر فاعلية، ربما بالقفز من فوق المنظمة وضرب القوات

السورية أولاً. ولكن المنظمة كانت تستحوذ على عقل بيغن وتحتل ذهنه بحيث رأى أن تدميرها هو الهدف الأول. وهكذا كان على شارون أن يتصرف خلسة، ويناور لاجتذاب نيران الأسد، ولكنه عجز عن توجيه ضربة قاضية. فقد تجنب الأسد الفخ وأبقى الجزء الأكبر من قواته متماسكاً في داخل سوريا، وبذلك حَرَمَ شارون من استخدام قوة إسرائيل بكاملها ضده. ولم يتمكن شارون من إخراجه من لبنان، وما دام الأسد قد بقي في لبنان فإن نصر إسرائيل لم يكتمل. وإلى هذا الحد كسب الأسد معركة الذكاء.

ومع ذلك فلعدة أسابيع كالحة كئيبة تناقص دور الأسد حتى لم يعد يزيد عن متفرج، بينما أصبح عرفات المحصور في بيروت الغربية محط أنظار العالم. وبالنسبة لرجل كالأسد، كرس حياته كلها لجعل سوريا من المشاركين المركزيين في دراما الشرق الأوسط، كان من المحرج والمهين أن يُرْغَمَ على الجلوس جانباً بينما إسرائيل تهاجم عاصمة بلدٍ عربي على مرمى حجر منه. ففي قبوله لهدنة ١١/ حزيران ـ يونيو لم يستشر الفلسطينيين، وأصبح بعدئذٍ متهماً بأنه تخلى عنهم. وبرغم كل تضحيات الجيش وسلاح الجوّ السوريين أخذ الأسد يواجه التهمة الجارحة بأنه لم يقاتل. وكانت إتهامات عرفات في هذا الحساب شيئاً لم يستطع الأسد أن يغفره. وبما أنه كان قد أبعد عن ضواحي بيروت، فإنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً لتخفيف كربة وآلام سكانها أو حتى لينقذ رجاله المحصورين في المدينة. وقد أَبْلَى العميد محمد حلال، المحارب القديم من أيام حرب تشرين سنة ١٩٧٣ والذي كان يقود اللواء السوري في بيروت، بلاء حسناً في الدفاع عن المدينة بصلابة. وفيما بين نوبات القصف كان الإسرائيليون يلقون بالمنشورات على مواقعه ويقولون فيها: «يا عميد حلال، نحن نعرف أنك هنا. انجُ بنفسك». ولكن الأوامر من دمشق كانت أن يقاتل إلى آخر رجل.

حصار بيروت

ومن الغريب أن شارون بعد أن وصل إلى بيروت لم يعد متأكداً مما

سيفعله بعد ذلك، وبدأ يتخبط في فراغ سياسي وأخلاقي. فقد كان قد خطط مع بيغن من البداية وعلى طول الخط لأن تستمر مطاردة منظمة التحرير الفلسطينية إلى النهاية المريرة، إلى بيروت إن دعت الحاجة غير أن إتفاقهما مع بشير الجميل كان يقضي بأن دخول بيروت وإبادة «الإرهابيين» كان مهمته، لا مهمتهما. وعندما طالبه الإسرائيليون بالوفاء بوعده تراجع، على أمل أن يقوم الإسرائيليون أنفسهم بالعمل القذر. وأدى تردد بشير في هذه اللحظة الحرجة إلى زعزعة كل أساس التحالف الماروني ـ الإسرائيلي الذي كانت تقوم عليه آمال بيغن في لبنان ما بعد الحرب.

كانت لدى شارون القوات للقيام بهذه الفعلة بنفسه، وكان في ذلك الوقت قد رمى بعيداً بأي نوع من التقييد فرضه عليه مجلس الوزراء الإسرائيلي. ولكن فكرة إستعمال «جيش الدفاع الإسرائيلي» «لتنظيف» الأكواخ البائسة في بيروت قد أفزعت أعداداً متزايدة من المنتقدين في داخل إسرائيل وخارجها، بل أجفل منها بعض قادته الميدانيين. وكان الخوف من وقوع المزيد من الإصابات الإسرائيلية عاملاً مثبطاً. وإلى ذلك الحين كان شارون قد أدار الحرب كما يشتهي إلى حد كبير. ولكن الدخول إلى عاصمة عربية كان حتى بالنسبة لشارون عتبةً عبورُها يبعث على الرهبة. ولو أنه إجتاح المدينة في الحال خلال مطاردة ساخنة لمقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية فربما نجا من أي عقاب رغم إرتكابه مثل ذلك الأمر المنكر. إلاّ أن فشله في ذلك كان معناه عدم تنفيذ هدف من الأهداف الكبرى للحرب الإسرائيلية، وهو إبادة الفلسطينيين.

وحتى المتطرفون مثل شارون أدركوا بحدةٍ أن تأييدهم في واشنطن بدأ يتآكل. فخلال زيارة قام بها بيغن في ٢١/ حزيران ـ يونيو واجَهَ إستجواباً حاداً من الرئيس ريغان ووزير دفاعه واينبرغر فلم يستشعر راحةً إلا من إحجام هيغ عن المشاركة في ذلك الإستجواب. وفي الخامس والعشرين من حزيران ـ يونيو جاءت الأخبار بإعفاء هيغ من منصبه، وبذلك خسرت إسرائيل أهم أنصارها في

الإدارة الأميركية. ولم تكن حرب إسرائيل هي السبب الوحيد، ولا حتى السبب الأول في فقدان هيغ لمنصبه وحلول جورج شولتز محله، فلقد إصطدم هيغ مراراً مع مستشاري البيت الأبيض حول مواضيع أخرى كالعلاقة مع أوربا والعقوبات الاقتصادية ضد موسكو وكسب لنفسه سمعة بأنه ضعيف التعاون مع الآخرين ولا يلعب معهم بروح الفريق المتناغم غير أن القشة الأخيرة التي قصمت ظهره كانت هي الحرب اللبنانية التي تواطأ فيها واستخدم حججاً (مقولبة على نموذج حجج كيسنجر في عام ١٩٧٣) بأنها تفتح فرصاً للسلام وكان ريغان يوافق على إخراج منظمة التحرير من لبنان، ولكنه كان يريد تحرير لبنان من سوريا وإسرائيل جميعاً وإعادته كمنطقة عازلة بينهما. ولم يؤيد طموح بيغن في طيّ لبنان تحت جناح إسرائيل كدولة يسيطر عليها الموارنة[٤٠].

ونظراً لاضطرار بيغن وشارون إلى أخذ هذه الحقائق الجديدة بعين الإعتبار فقد وافقا على مضض وبعد تمنع على إقتراح ريغان بترك فيليب حبيب يحاول إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت بالمفاوضات. ولم يكن شارون يحب مثل هذه الأساليب القائمة على الكلام المعسول، بل كان يعتقد بأن عرفات يخضع للغة القوة فقط، وخلال مهمة حبيب التي استغرقت الصيف بطوله ظل شارون يقصف بلا رحمة موجهاً نيرانه إلى ضواحي بيروت الجنوبية المزدحمة التي كانت فيها قوات سورية وفلسطينيية، فحاصرها وقطع عنها الماء والكهرباء والغذاء. واضطر حبيب مراراً وتكراراً - ما مجموعه إثنتا عشرة مرة - إلى ترقيع هدناتٍ كان شارون يخرقها باستمرار، واضطر إلى التوسل كالمستجدي لإدخال الطحين وغيره من المؤن، وإلى تطييب خاطر الساسة اللبنانيين البائسين. ولم يكن ممكناً ضبط أو كبح جماح المنتصر المتغطرس شارون وكان العنف الذي سلطه على بيروت الغربية خلال تسعة أسابيع من الحصار يهدف إلى إفهام عرفات ومقاتليه، وكذلك السكان اللبنانيين المحيطين بهم أن الخيارات المتاحة لهم محددة بشكل ضيق صارم.

وجاءت الهجمات الإسرائيلية على المدينة في ثلاث موجات متعاقبة تقريباً: سد من نيران المدفعية ظل ينصب من ١٣ إلى ٢٥ حزيران/ يونيو، وغارات جوية من ٥ إلى ١٢ تموز/ يوليو وأخيراً قصف أكثر فتكاً وقتلاً من ٢٢ تموز/ يوليو إلى ١٢/ آب ـ أغسطس، من البحر والبر والجوّ جميعاً. وبدا أن الموجتين الأوليين قد صممتا للحصول على استسلام المنظمة بلا قيد ولا شرط. وعندما فشلتا جاءت الموجة الثالثة لتضيف الخطر الإسرائيلي إلى مفاوضات حبيب من أجل إرغام الفلسطينيين على الخروج(٤١). واستخدمت إسرائيل القنابل الإرتجاجية لهدم عمارات بكاملها والقذائف الفسفورية وشديدة الإنفجار. وفيما لا يقل عن ستة عشر موضعاً في بيروت الغربية، استخدمت القنابل العنقودية الأميركية الصنع(٤٢) وخلال الحملة القصيرة من ٥/ تموز ـ يوليو إلى نهاية آب/ أغسطس قُتِلَ عدد يتراوح بين ١٧,٠٠٠ و ١٩,٠٠٠ لبناني وفلسطيني، وجرح عدد آخر يتراوح ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ شخص(٤٣).

ولكن وحشية شارون التي لا مبرر لها ـ كما في القصف الذي استغرق إحدى عشرة ساعة بلا إنقطاع في يوم ١٢/ آب ـ أغسطس، وبعد أن وافقت المنظمة على الخروج ـ كانت تشير إلى توقه الشديد لحلول أخرى أكثر جذرية. ذلك أن ما تصوره ورسمه مع بشير الجميل لم يكن هو الإنسحاب المنظم لمقاتلي منظمة التحرير، ورؤوسهم مرفوعة عالياً بسبب وقفتهم البطولية، بل كانا يريدان إقتلاعاً للوجود الفلسطيني برمته، ومسحاً للمخيمات بالأرض، وطرداً بالقوة لمائتي ألف أو ثلاثمائة ألف شخص. وكلما أشار حبيب إلى «مقاتلي منظمة التحرير» كان شارون يصرخ مصححاً «إرهابيي وقتلة منظمة التحرير!» وكان يخشى أن تتمكن المنظمة من انتزاع وعود سياسية، وحتى الإعتراف، من الولايات المتحدة.

وبينما كان حبيب يصارع لحلّ عقدة بيروت الشائكة كان شارون يتابع الضغط على بشير الجميل ليشترك معه في «عملية تنظيف». وفي الثالث

والعشرين من حزيران ـ يونيو كان بيغن الغاضب قد قَرَّعَ بشيراً في القدس كما يقرّع مدير المدرسة تلميذه لعدم قيامه «بتحرير بيروت». وغالباً ما كان بشير يلجأ إلى حبيب لطلب نصيحته، بحيث أصبح يعتمد على الرجل الأكبر منه سناً وعقلاً ويخاطبه بكلمة «عمّو» (يا عمّي). وذات ليلة في أواخر شهر تموز/ يوليو وصل بشير وحده إلى منزل السفير الأميركي، حيث كان حبيب يقيم. وقال:

ـ «إنني أتعرض لضغط شديد فشارون يريدني أن أنظف مخيمات بيروت الغربية. يريدني أن أدخلها من الشرق بينما يدخلها هو من الجنوب. فماذا يجب أن أفعل يا عمّو؟».

ـ «حسناً ما الذي تفكر في أن تفعله؟».

ـ «سيكون هناك كثير من القتل، وسيكون الأمر صعباً، وسأخسر كثيراً من رجالي، ولكن كيف أقاوم شارون؟».

ـ «أنت تعلم أنك تريد أن تكون رئيساً ذات يوم، فإذا فعلت مَا يطلبه منك شارون فإن ذلك سيلعنك ويدينك ويجعل من الصعب عليك أن تصبح رئيساً لجميع اللبنانيين، من مسلمين ومسيحيين، لا تفعل ذلك يا بشير. قل: «لا»(٤٤).

كان بشير في شبابه زعيم عصابة يتنمر على من هم أضعف منه؛ وقد نضج الى حد ما عند اقتراب موعد الانتخابات فأصبح سياسياً حذراً متعقلاً. ومع أنه استمر يقاوم ضغط شارون، فقد ظل «زلمة» إسرائيل. وعندما انتُخِبَ رئيساً للبنان ـ وهو لا يزال في الرابعة والثلاثين ـ من قبل أكثرية بسيطة من النواب في البرلمان في ٢٣/ آب ـ أغسطس كي يتسلم سلطاته بعد ذلك بشهر، فإنه كان مديناً بمنصبه للمدافع الإسرائيلية. وعلى كل حال، فبعد الانتخاب (الذي جرى في ثكنة للجيش قرب بيروت) وبعد أن قام بشير بزيارة مجاملة للرئيس المغادِر، إلياس سركيس قاد سيارته إلى مقر السفير الأميركي ليشكر فيليب حبيب، الذي

كان يعلم بأنه قد لَيَّن المعارضة الإسلامية له وأنقذه من الاعتماد على إسرائيل إعتماداً كلياً.

وفي هذه الأثناء كان حبيب قد إستطاع أن يدبّر حلاًّ لمشكلة الفلسطينيين والسوريين المحاصرين. وتم ترتيب خطة إجلاء في ١٩/ آب ـ أغسطس بالاتصال مع الإسرائيليين، ومع عرفات، والأسد، وزعماء عرب آخرين. وظهر أن شارون قد كسب الجولة، شارون: العسكري الإسرائيلي المتبلد الإحساس، القومي المتطرف، قائد المئة العتيق للوحدة ١٠١، لأنه بحلول الأول من أيلول/ سيتمبر كان المقاتلون السوريون والفلسطينيون قد أخلوا بيروت ـ أكثر من ١٤٠٠٠ شخص منهم ١٠,٨٠٠ مقاتل فلسطيني و ٦٦٤ امرأة وطفلاً من الفلسطينيين و ٣٦٠٠ جندي سوري ـ وتحت إشراف قوة متعدده الجنسيات من الأميركيين والفرنسيين والإيطاليين غادر مقاتلو منظمة التحرير عن طريق البحر، بينما تحرك السوريون ووحدات جيش التحرير الفلسطيني المتحالفة معهم شرقاً على طريق بيروت ـ دمشق.

وكان حبيب قد حصل على تعهد من الإسرائيليين بأن يتركوهم يذهبون بدون مضايقات، وبأن يظل الإسرائيليون بعيدين عن الأنظار أثناء الإنسحاب، ولكن الإسرائيليين لم يلتزموا بالاتفاق وقد تذكر حبيب فيما بعد قائلاً: «لم يستطيعوا أن يقاوموا إغراء التبجح بإظهار انتصارهم، فرفعوا أعلاماً إسرائيلية على جانبي الطريق، وصفّوا عليها جنرالاتهم المنتصرين»(٤٥). ومن على سطح بناية مجاورة، راح بشير الجميل يعد الشاحنات التي تحمل السوريين والفلسطينيين إلى خارج عاصمته.

ملجأ للمنسحبين

وبينما كانت هذه الدراما تتجلى للعيان، كان الأسد يراقب بيروت بكآبة وهي تنسل من قبضته، فأخذ يكافح لإنقاذ شيء ما من ذلك الركام. فلقد فشل في منع إنتخاب بشير الجميل، لأن جهوده غير المثمرة لتأمين مقاطعة الانتخابات،

ولتخويف النواب، ولتجميع تحالف مضاد لبشير لم تؤدِّ إلّا إلى إبراز تضاؤل نفوذه. كان يعرف أن وقوع بيروت تحت سيطرة إسرائيل ولو من خلال عميل لها سيشكل تهديداً له في نفس خطورة محاولة شارون إزاحته من البقاع. وكانت المسألة مسألة وقت قبل أن يقوم الرئيس اللبناني الخاضع لإسرائيل بالضغط عليه للإنسحاب، وبذلك تنكشف خاصرته لإسرائيل ويتصاغر مركزه الإقليمي.

ولاستباق وتجنب هذا الإحتمال، المصدر الدائم للأذى في حياته، حاول أن يوقف أو يؤجل خطة الإخلاء التي وضعها حبيب، كان يريد من المنظمة، بل ومن رجاله أن يضعوا نوايا شارون موضع الاختبار فيرغموه إما على دخول بيروت أو على التراجع، وقد أرسل نداءات عاطفية حارة لوحداته المطوقة كي تستمر في القتال: «يا أحبائي. إنني أعيش معكم ليلاً ونهاراً... إن عروبة بيروت وديعة وأمانة في أيديكم. أطلب منكم أن تظلوا واقفين صامدين. الشهادة أو النصر!»[٤٦] وفي البقاع سمح للمجموعات المغيرة من الفلسطينيين بالمرور عبر الخطوط السورية لمناوشة الإسرائيليين. غير أنه لم يكن له نفوذ مباشر على عرفات في بيروت. وكان تأثيره الوحيد يكمن في رفض التعاون مع نداءات حبيب المحمومة للدول العربية لتقديم المأوى للفلسطينيين الذين سيجلون عن بيروت. فأعلن أن سوريا لن تستقبل أحداً منهم وطوال الصيف ظلت واشنطن تسلط عليه ضغطاً دبلوماسياً، بينما حاولت إسرائيل أن تضغط بقوة عن طريق قصف مفاجىء على جبهة البقاع بكاملها بحجة «معـاقبته» بسبب «تسلل الفدائيين». ولكن عندما زاره حبيب في دمشق في اليوم الثاني، وجده متصلباً في رفضه للتعاون، وغاضباً من شبح فكرة وجود عميل إسرائيلي يحكم في بيروت.

وكان لدى الأسد حساب ليصفيه مع المبعوث الأميركي، إذْ أن هذه كانت أول مرة يلقاه فيها منذ ١١ حزيران/ يوليو عندما حدث سوء التفاهم حول إطلاق النار وأراد الأسد أن يعرف ما الخطأ الذي حدث، ولماذا لم يتم الإلتزام

بالتأكيدات المتعلقة بالإنسحاب الإسرائيلي، والتي أعطيت بضمانة سلطة رئيس أميركي، فأجاب حبيب بنوع من الحرج: «لقد كان الأمر خارجاً عن سلطتي يا سيدي الرئيس»، فسأله الأسد:

ـ «ألا يمكن الوثوق بكلمة الولايات المتحدة؟ إذن ما معنى أية إتفاقية دولية؟».

وحسب رواية مساعدي الأسد، لم يجد حبيب ما يقوله، فرد بطريقة عرجاء: «إننا نعيش في زمن عصيب يا سيدي الرئيس»[٤٧].

وبحلول ١٠ آب/ أغسطس أصبح واضحاً للأسد، أن الفلسطينيين سيتم إخراجهم من بيروت سواء أحب ذلك أم كرهه. فالضغط العسكري الإسرائيلي العنيف على عرفات قد زاده تعقيداً الضغط المعنوي الأخلاقي من قبل الزعماء اللبنانيين لتوفير المزيد من الصعوبات على السكان المدنيين. وشك الأسد أيضاً في أن عرفات كان يأمل في كسب تنازلات من الولايات المتحدة في المستقبل (وهذه فكرة غرسها حبيب في رأس عرفات عن طريق الزعيم اللبناني السنّيّ صائب سلام) إذا غادر لبنان وفقاً للشروط الأميركية. وكان الأسد يعتقد بأن مثل هذه الآمال والتوقعات ساذجة، ولكنه مع ذلك كان عليه أن يفكر في تأثيرها على عرفات. وهكذا فإنه عندما بدا أنَّ عرفات لن يستطيع الصمود أكثر، غيرً الأسد رأيه ووافق على تقديم الملجأ لغالبية المنسحبين من بيروت في سوريا. ولا شك في أنه كان يأمل أن يستعيد بعض السيطرة على رجال عرفات الذين كانوا يلومونه ويرون أنه تخلى عنهم، والذين كانوا في الشدة أكثر ما يكونون إستقلالاً.

إغتيال بشير

ومع انتخاب بشير لرئاسة لبنان، وخروج السوريين ورجال منظمة التحرير من بيروت بدأت إسرائيل تطالب بمكافآت سياسية على حملتها، ولم يتردد بيغن وشارون، وشامير، ونائب رئيس الوزراء ليفي وغيرهم عن إعلان توقعهم

بأن لبنان سوف يوقع معهم إتفاقية سلام بعد أن تخلص من الأعباء السورية وأعلن شامير أن أي عرقلة سورية لهذا البرنامج ستكون «تهديداً وحشياً وقحاً للسلام» (٤٨) ودعا بشير نفسه إلى انسحاب الجيوش الأجنبية ـ السورية، والإسرائيلية والفلسطينية ـ وبذلك ارتكب في نظر السوريين جريمة شنعاء إذ وضع سوريا وإسرائيل على قدم المساواة. ولقد كان الجزء الآخير من صيف عام ١٩٨٢ نقطة منخفضة في حظوظ الأسد وأقداره، فقد كان مركزه بأجمعه معرضاً للخطر على الصعيدين المحلي والإقليمي.

ثم وقعت حادثة كانت لمصلحته إلى حد كبير ففي ١٤ أيلول/ سبتمبر حدث انفجار هائل في مقر القيادة المحلي لحزب الكتائب في شرق بيروت أدّى إلى مصرع بشير الجميل مع ثلاثين من أتباعه. وبعد ذلك بوقت قصير قبضت القوات اللبنانية على الرجل الذي زرع القنبلة، وهو حبيب طانيوس شرتوني. وقد كشفت أمره أخته دون قصد منها. فقد كانت تسكن في شقة فوق مقر حزب الكتائب مباشرة، وقد أعلنت في انفجار هستيري أنه كان قد طلب منها بالهاتف أن تغادر المبنى قبل دقائق من وقوع الإنفجار، وتعرّف الكتائبيون على كون الشرتوني عضواً سرياً في القومي السوري الاجتماعي الملتزم عقائدياً بدمشق، وأحد أصلب حلفاء الأسد في مقاومة أطماع إسرائيل. وأشيع أن أحد فروع المخابرات السورية قد ساعد الشرتوني على وضع القنبلة، رغم أنه لم يمكن إثبات هذه العلاقة. ولجأ شخص آخر إلى سوريا، وهو نبيل عالم الذي كان مشتبهاً في تورطه بالحادث(٤٩) ولعل أفضل سياق يمكن فهم عمل الشرتوني من خلاله هو وجهة نظر حزبه في العلاقات السورية ـ اللبنانية، كما أوضحها فيما بعد زعيم الحزب إنعام رعد: «ليس لدينا أمل في مقاومة الإسرائيليين على أساس الوطنية اللبنانية مجردة عن المحور السوري. إنني بالصدفة لبناني، ولكنني أعتبر نفسي سورياً. ولولا الدعم السوري لكان لبنان قد ضاع»(٥٠).

وأدى مقتل بشير إلى مذابح إنتقامية فظيعة راح ضحيتها المدنيون

الفلسطينيون في مخيمات صبرا وشاتيلا للاجئين، ونظمها إيلي حبيقة، مدير مخابرات بشير، بالتواطوء مع الإسرائيليين ففي غضون ساعات من موت بشير، ونقضاً لاتفاقية فيليب حبيب أمر شارون «جيش الدفاع الإسرائيلي» في ١٥/ أيلول ـ سبتمبر بدخول بيروت الغربية، التي أصبحت بأكملها في قبضة الإسرائيليين في صبيحة ١٦/ أيلول ـ سبتمبر ولا شك أن شارون قد وجد فرصته في جعل الكتائبيين يفعلون ما ظل بشير يرفضه طويلاً ـ فقد كانوا متحرقين للإنتقام لزعيمهم ـ وذلك بتنظيف بيروت الغربية من الفلسطينيين. ولتبرير مثل هذه الفعلة إدعى شارون علناً بأن عرفات قد ترك وراءه ألفي مقاتل فلسطيني مختبئين في صبرا وشاتيلا. وفي الساعة السادسة من مساء ١٦ أيلول/ سبتمبر أعطى اللواء عمير دروري، قائدُ المنطقة الشمالية، إذناً لقوات الأمن التابعة لحبيقة بدخول المخيمات بحثاً عن الألفي مقاتل المزعومين. وبدأت مذبحة المدنيين الفلسطينيين في الحال، واستمرت طيلة تلك الليلة، وطيلة النهار التالي، والليل الذي تلاه، ولم تتوقف إلّا في الساعة الثامنة من صباح ١٨/ أيلول ـ سبتمبر. وهكذا تم ذبح حوالي ألف رجل وامرأة وطفل. وطوال تلك الساعات الأربعين كانت القوات الإسرائيلية تطوق المخيمين وتعزلهما وتطلق أضواء ساطعة لتنيرهما أمام القتلة الكتائبيين في الداخل. وكان حبيب عندما أجلى المقاتلين الفلسطينيين قد ترك عيالهم بلا دفاع ولم يكن حبيب وحده هو الذي شعر بالغثيان عندما قال: «لقد كان شارون قاتلاً يسيطر عليه هوس كره الفلسطينيين لقد أعطيتُ عرفات تعهداً بأن شعبه لن يلقى الأذى ولكن شارون تجاهل هذا التعهد تماماً. إن كلمة شارون لا تساوي شيئاً»[٥١].

ولقد صُدِمَ لبنان وصُعِق بموت بشير وما أعقبه من وحشية. فرغم أن الجميع كانوا يعرفون أنه «زلمة» إسرائيل فقد بدأوا يدركون أنه كان يسعى إلى الإبتعاد بنفسه عن الإسرائيليين. وبدأ كثيرون يفترضون أنه ربما أصبح ـ كرئيس ـ خيراً مما كانت بداياته الوحشية توحي به. وعلى سبيل المثال كان

بعض المقربين منه يعرفون أن بيغن قد طلب منه بلهجة آمرة قاطعة البدء في محادثات السلام فوراً، وذلك في اجتماع عقده معه في مستوطنة نهاريا على الحدود في ١/ أيلول ـ سبتمبر، وأن بشيراً قد قاوم هذا الطلب وعندما انتُخب أخوه الأكبر أمين رئيساً في ٢١/ أيلول سبتمبر رحب اللبنانيون بذلك على طريقة الغريق الذي يشعر بالفرج عندما يجد قطعة خشب يتمسك بها. فأمين لم تكن لديه علاقات أو إرتباطات بالموساد أو وكالة المخابرات المركزية الأميركية، وكان غير موافق إلى حد ما على إرتباطات بشير غير أنه كجميّل وككتائبيّ كان يمثل الإستمراريّة وكان أفضل ما يستطيع الإسرائيليون أن يأملوا به في تلك الظروف.

وحزن بيغن لموت بشير. وتلطخت سمعته بمجازر صبرا وشاتيلا. وفي مواجهة الإستنكار العالمي الصاخب أنكر مسؤولية إسرائيل بلهجة دفاعية لاسعة مشحونة بالحنق فقال: «الغرباء يقتلون الغرباء، ثم يسارعون فوراً ليطالبوا بشنق اليهود». ولم يقتنع بذلك أربعمائة ألف إسرائيلي خرجوا إلى الشوارع في ٢٥/ أيلول ـ سبتمبر ليطالبوا بالتحقيق في المجازر، في أكبر تظاهرة شهدتها البلاد للإحتجاج. أما القوة المتعددة الجنسيات والتي كانت قد غادرت لبنان في أعقاب خروج منظمة التحرير مباشرة، فقد عادت، ولكن بدون أية مهمة سوى الشعور بالذنب وبأن فوضى لبنان الذي تمزقه الكراهيات الطائفية تجعل المدنيين الأبرياء بحاجة إلى حماية. ولكن القوى الأوربية، والولايات المتحدة، المشتركة في تلك القوة متعددة الجنسيات رفضت إنزال جنودها إلاّ بعد مغادرة الجيش الإسرائيلي. وفي ٢٩/ أيلول ـ سبتمبر سحب شارون رجاله من المدينة التي قاتل بكل تلك القسوة ليستحوذ عليها.

كانت لدى إسرائيل منذ أيام رئاسة بن غوريون لحكومتها نزعة للتدخل تهدف إلى الهيمنة على العرب بوسائل عسكرية، وقد حملت حرب بيغن في لبنان هذه النزعة إلى آماد وأبعاد مفرطة في التهور. ولكن الحرب ومآسيها قد أوضحت الحدود الملازمة لقدرة بلد صغير ـ مهما كان مصمماً وجيد التسلح ـ

على فرض إرادته بالقوة على منطقة بكاملها. ومع ذلك فكلما كانت الجائزة مراوغة وبعيدة المنال كان الجري وراءها أشد عناداً ولم تكن مبارزة الأسد مع بيغن قد انتهت بعد.

هوامش الفصل الثاني والعشرين

(١) كلير ستيرلنغ: **شبكة الإرهاب** (نيويورك ولندن ١٩٨١) ص ١ ـ ٢٤.

(٢) بوب وود وورد (**مصدر سبق ذكره**) لندن ١٩٨٧، ص ٢٠٤، ٢١٧.

(٣) موشي شاريت: **يومان إيشي** (أي: **مفكرة شخصية**) (طبع تل أبيب سنة ١٩٨١) ص ٣٧٧، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠.

(٤) إيتامار رابينوفيتش: «**الأزمة اللبنانية**» في مجلة «**ميدل إيست كونتمبوراري سرفي**»، التي يرئس تحريرها كولين ليغوم وشركاه، المجلد الخامس (١٩٨٠ ـ ٨١) نيويورك ولندن ١٩٨٢ ص ١٧١، وكذلك كتاب زئيف شيف وإيهود يعاري المعنون **حرب إسرائيل في لبنان** (لندن ١٩٨٥) ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٥) مقابلة مع فيليب حبيب في واشنطن في ٢٧/٩/٧١٩٨٦

(٦) خطاب بيغن في الكنيست حول ضم مرتفعات الجولان في ١٤/١٢/١٩٨١ **ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ في هيئة الإذاعة البريطانية** (عن الشرق الأوسط، رقم الكراس ٦٩٠٧ عن يوم ١٦/١٢/١٩٨١).

(٧) مقابلة مع منصور الأطرش في السويداء في ٢٨/٤/١٩٨٥.

(٨) محاضرة ألقاها آرييل شارون في مركز الدراسات الإستراتيجية في جامعة تل أبيب في كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٨١.

(٩) آفي شلايم: «التدخل الإسرائيلي في السياسة العربية: حالة لبنان» في كتاب من تحرير جياكو مولوشياني وغسان سلامه بعنوان «**سياسة التكامل العربي**» (طبع لندن ١٩٨٨) ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥.

(١٠) أوز بنزيمان: **شارون ـ قيصر إسرائيلي** (لندن ١٩٨٧) ص ٢٣٤.

(١١) الكساندر م. هيغ الأصغر: **تحذير: الواقعية، وريغان، والسياسة الخارجية** (طبع لندن ١٩٨٤)، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(١١) مقابلة مع فيليب حبيب في واشنطن في ٢٧/٩/١٩٨٦.

(١٣) صحيفة الانترناشنال هيرالد تربيون ٢٥ ـ ٢٦/ ٥/ ١٩٨٥.

(١٤) هيغ، (**مصدر سبق ذكره**)، ص ١٨٨، وص ٣٤٦ ـ ٣٢٧.

(١٥) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣٠.

(١٦) مقابلة مع فيليب حبيب بواشنطن في ٢٧/٩/١٩٨٦.

(١٧) بيان صادر عن اللجنة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية في سوريا، برئاسة الرئيس الأسد في ١٩/٦/١٩٨٢. **ملخص الإذاعات العالمية لدى هيئة الإذاعة البريطانية** (٢٢/٦/١٩٨٢).

(١٨) زئيف شيف «الضوء الأخضر في لبنان» فقال بمجلة، «فورين بوليسي» العدد رقم ٥٠ (ربيع عام ١٩٨٣).

(٢٠) تريفورن. دوبوي وبول مارتل: النصر الناقص: الصراع العربي - الإسرائيلي وحرب لبنان عام ١٩٨٢ (طبع فيرفاكس - فيرجينيا سنة ١٩٨٦)، ص ٨٦ - ٩٠.

(٢١) إذاعة إسرائيل المحلية في ١٩٨٢/٨/١٢: ملخص الإذاعات العالمية لدى هيئة الاذاعة البريطانية (١٩٨٢/٨/١٤).

(٢٢) سين ماكبرايد (رئيس اللجنة): إسرائيل في لبنان: تقرير اللجنة الدولية للتحقيق في أخبار انتهاكات إسرائيل للقانون الدولي أثناء غزوها للبنان (طبع لندن ١٩٨٣) ص ص XV - XIV وكذلك ص ١٢٣ - ١٢٨.

(٢٣) هيغ (مصدر سبق ذكره)، ص ٣٣٧.

(٢٤): إذاعة إسرائيل المحلية في ١٩٨٢/٦/٨. ملخص الإذاعات العالمية لدى هيئة الإذاعة البريطانية (عن يوم ١٩٨٢/٦/١٠).

(٢٥): في محاضرة إستغرقت أربع ساعات في جامعة تل أبيب في ١٩٨٧/٨/١١ أنظر صحيفتي الانترناشنال هيرالد تربيون والغارديان في ١٩٨٧/٨/١٣.

(٢٦): مقابلة مع الرئيس الأسد (دمشق ١٩٨٨/٣/١٨).

(٢٧): مقابلة مع فيليب حبيب بواشنطن في ١٩٨٦/٩/٢٧.

(٢٨): العماد مصطفى طلاس وآخرون: الغزو الإسرائيلي للبنان (باريس ١٩٨٦).

(٢٩): مجلة فلايت أنترناشنال (عدد ١٩٨٢/٨/٢١) ص ٤٠٤.

(٣٠): المصدر السابق نفسه (عدد ١٩٨٢/١٠/١٦)، ص ١١٠٨ - ١١١١.

(٣١): طلاس (مصدر سبق ذكره)، ص ١٣٤.

(٣٢): مقابلة مع أشرف مروان في لندن (٢/ حزيران - يونيو سنة ١٩٨٦).

(٣٥): مقابلة مع فيليب حبيب في واشنطن في ١٩٨٧/٩/٢٥.

(٣٦): هيغ (مصدر سبق ذكره)، ص٣٤١.

(٣٧): مقابلة مع أسعد كامل إلياس بدمشق في آب/ أغسطس سنة ١٩٨٤. وانظر أيضاً مقابلة الأسد مولا لي ويموت في صحيفة لوس آنجلوس تايمز في ١٩٨٣/٨/١٤.

(٣٨): مقابلة مع السير ديفيد روبرتس (الذي كان سفير بريطانيا بدمشق آنذاك) في لندن (في شهر تموز/ يوليو ١٩٨٤).

(٣٩): مقابلة مع فيليب حبيب بواشنطن في ١٩٨٧/٧/٢٥.

(٤٠): مقابلة مع روبرت مكفرلين، المستشار السابق للأمن القومي في واشنطن في ٨٧/٧/٣٠.

(٤١): إسرائيل في لبنان، ص ١٤٥.

(٤٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٦.

(٤٣) الواشنطن بوست، عدد ١٩٨٢/٩/٣ مقتبسة عن إحصائية لبنانية مبنية على سجلات الشرطة

والمشافي؛ وكذلك صحيفة لوريان لوجور البيروتية، عدد ١٩٨٢/١١/٣٠ نقلاً عن إحصائيات لبنانية رسمية، وكذلك تقديرات «منظمة اللاجئين في الشرق الأدنى» التي مقرها في واشنطن، والمقتبسة في مقال روجر أوين المعنون «الأزمة اللبنانية: تجزئة أم مصالحة؟» والمنشور بمجلة ثيرد وولدكوارتلي، المجلد ٦ العدد الرابع (عن شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٤) ص ٩٣٤ ـ ٩٤٩. ومن ٧/٤ إلى ١٩٨٢/٨/١٥ أحصت منظمة اليونسيف ٢٩,٥٠٠ قتيل وجريح في بيروت وحدها، وكان ٤٠٪ منهم أطفالاً. وقد اقتبس ذلك في كتاب مايكل جونسون: **الطبقة والعميل في بيروت** (طبع لندن ١٩٨٦) ص ٢٠٤ وحاشيتها.

(٤٤): مقابلة مع فيليب حبيب في واشنطن في ١٩٨٦/٩/٢٧.

(٤٥): المصدر السابق نفسه.

(٤٦): نص رسالة الرئيس الأسد إلى القوات السورية المسلحة في بيروت في ١٩٨٢/٨/٢، **ملخص الإذاعات العالمية** في أرشيف هيئة الإذاعة البريطانية (عن يوم ١٩٨٢/٨/٤).

(٤٧): مقابلة مع أسعد كامل إلياس بدمشق في آب/ أغسطس سنة ١٩٨٤؛ وكذلك مقابلة لالي ويموت مع الرئيس الأسد في صحيفة **لوس آنجلوس تايمز**، عدد ١٤/ آب ـ أغسطس سنة ١٩٨٣.

(٤٨): إذاعة إسرائيل المحلية في ١٩٨٢/٨/٢٦. ملخص الإذاعات العالمية المحفوظ في أرشيف هيئة الإذاعة البريطانية (١٩٨٢/٨/٢٧).

(٤٩): لوموند، عدد ١٩٨٥/٩/١١.

(٥٠): مقابلة مع إنعام رعد في دمشق في آب/ أغسطس/ ١٩٨٤.

(٥١): مقابلة فيليب حبيب في واشنطن في ١٩٨٦/٩/٢٧.

الفصل الثالث والعشرون

هزيمة جورج شولتز

كانت حرب لبنان أشد حروب الأسد مرارة. فلم يسبق له أن شعر بالعزلة والتعرض للإفتراء كما حدث له في خريف عام ١٩٨٢. فقد أدت اثنتا عشرة سنة من الجهد والمخاطرة إلى هذه النتيجة: جيوش إسرائيلية لا تبعد عن عاصمته سوى ثمانية وعشرين كيلومتراً تفرض «نظاماً جديداً» على لبنان يترك أمنه ومركزه الإقليمي مهلهلين. فبعد الاندحار العسكري الذي مُنِيَ به، كانت دعوته للصمود ضد إسرائيل والتي طالما استعملها الآخرين تبدو جوفاء، وطموحه الذي يتبجح به لتحقيق التوازن يبدو غير واقعي أكثر من أي وقت مضى.

ولقد عرف الشدائد في المعارك من قبل، ولكنه لم يعرف مثل هذا الألم. ففي عام ١٩٦٧ كانت الكارثة شيئاً تقاسمه العرب جميعاً. وفي عام ١٩٧٣ وبرغم أن النتيجة كانت مخيبة للآمال فإنه كان قد اختار زمان الحرب ومكانها، وتلقى دعماً من مدّ العزة والتضامن العربيّين. أما حرب عام ١٩٨٢ فقد فُرِضَتْ عليه وقاتل فيها وحده: واستطاعت إسرائيل أن تضع كل طاقاتها في حملة ذات جبهة واحدة. وكانت خسائر الأسد فادحة: ١٢٠٠ قتيل، و٣٠٠٠ جريح، و٢٩٦ أسيراً، وتدمير أكثر من ٣٠٠ دبابة، و١٤٠ ناقلة جنود مدرعة، و٨٠ قطعة مدفعية. وقد تحطمت بطاريات صواريخه من نوع سام، وأسقطت له ٧٦ طائرة

وست مروحيّات، وأخطر من هذا كله أنه فقد ٦٠ طياراً[١]. وبالمقابل اعترفت إسرائيل بفقدان سكاي هوك واحدة أسقطها صاروخ فلسطيني في اليوم الأول للحرب، وطائرة فانتوم استطلاعية أسقطها صاروخ سوري في ١١/ تموز - يوليو. ولم يجد عزاءً في أن التقديرات الأميركية الرسمية لخسائر «جيش الدفاع الإسرائيلي» كانت أعلى قليلاً - ربما في حدود ١١ - ١٢ طائرة و٣ مروحيات[٢] - وكان الشيء الوحيد الذي أبهجه هو أن «جيش الدفاع الإسرائيلي» كان حتى شهر أيلول/ سبتمبر قد خسر ٣٥٠ قتيلاً و٢١٠٠ جريح، وكان يعرف مدى حساسية إسرائيل للإصابات البشرية.

وكان معظم شقاء الأسد من البيئة العربية. فالفلسطينيون الذين سُمُّوا حلفاءه لم يكونوا قادرين على مساعدته، كما لم يكن هو قادراً على مساعدتهم. أما باقي العالم العربي الذي وقف بلا حول ولا قوة أمام الهجوم الإسرائيلي الصاعق، فلم يقدم له سوى السخرية. فقد كان أعداؤه العرب «يشمتون ويتآمرون» كما وصفهم [٣]، ويسعون لاستغلال مصاعبه. فمبارك في مصر كان يتهمه بعقد صفقة سرية مع بيغن لاقتسام لبنان، وينكر أن تكون هناك أية معركة قد جرت للسيطرة على البقاع. وصدام حسين في العراق كان يتهمه بتواطؤ خياني مع إسرائيل، وحسين في الأردن يدينه بـ «تصفية القضية الفلسطينية». وحتى صديقه القذافي انتقد قبوله لوقف إطلاق النار، ولم يمد له أحد يد الصداقة سوى حلفائه الإيرانيين الجدد. فرغم أنهم كانوا تحت ضغط شديد في حربهم مع العراق، فقد أرسلوا ٥٠٠ متطوع للقتال إلى جانب قواته في البقاع.

ولقد خاب أمل الأسد كذلك في القوى الكبرى. فموسكو، التي كان قد عقد معها معاهدة صداقة قبل وقت قصير، ظلت سلبية بشكل غير عادي طيلة الصراع. ورغم زيارته السرية لموسكو خلال تلك الحرب، فقد كان واضحاً أن بريجنيف، وهو في آخر شهور حياته ، وقد شغلته الأزمات في كل من بولندا وأفغانستان، كان يحرص أشد الحرص على تجنب مواجهة بين القوتين

العظيمين. ولكن أعمق شكوى مؤلمة للأسد كانت ضد الولايات المتحدة. إذ كان تسامح هيغ مع الغزو الإسرائيلي قد تجاهل مصالح سوريا الأمنية بفظاظة سافرة. وبمجرد اندحار سوريا وفشل الاتحاد السوفياتي في التدخل نيابة عنها بدت واشنطن وكأنها قد شطبت الأسد وتجاهلته، ولم تعد ترى حاجة لتعويضه عن انتهاكات إسرائيل لوقف إطلاق النار ونسف تعهدات حبيب التي قدمها لسوريا باسم الرئيس الأميركي. وأيدت الولايات المتحدة انتخاب بشير الجميل، الذي كان الأسد يعتبره خائناً، وعملت كوسيط لطرد المقاتلين الفلسطينيين وهكذا كان من الصعب عليه أن لا يستنتج أنِ واشنطن كانت تدعم تماماً محاولة بيغن لإخضاع العرب. أما «خطة ريغان» التي أُعْلِنَتْ في الأول من أيلول/ سبتمبر ـ وهي مسودة المخطط الأميركي لتسوية إقليمية والتي سارعت أميركا لسلقها يوم خروج آخر رجل من رجال منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت ـ فقد عجزت حتى عن ذكر سوريا ومرتفعاتها المحتلة في الجولان. وفي تلك الأثناء كان غضب الأسد من أميركا يتحول إلى شيء يشبه الكراهية. فلقد كان رجلاً يحمل الأحقاد، ويفكر طويلاً في المظالم المرتكبة ضده . وفوق كل شيء لا يقبل أن يخدعه أحد. وحتى في ذلك الوقت الموحش الكئيب، وقواته الجوية معطلة مهيضة الجناح، وإسرائيل متفوقة والعرب هامدون، وأميركا غير ودّية ـ على أقل تقدير ـ رفض الأسد أن يعترف بالهزيمة.

كانت أولوياته الهامة تشجيع الغارات الفدائية غير النظامية على إسرائيل في لبنان، بينما هو يعمل بسرعة على إعادة بناء قوته المسلحة، إذْ أنّه لم يكن مستعداً لمواجهة فورية. ففي التحضير لتخريب مخططات إسرائيل كان عليه أن يتجنب لفت الأنظار، وأن يظل مستعداً سراً للعمل، ولكن بهدوء يخدع خصومه ليظنوا بأنه قد انتهى.

وكان خوف إسرائيل من الضحايا البشرية شرخاً في درعها قرر أن باستطاعته إستغلاله. ولم تكد القوات الإسرائيلية تنسحب من بيروت حتى

أصبحت هدفاً للقناصة، والكمائن، والسيارات المفخخة، والقنابل اليدوية تقذفها السيارات العابرة، في حملة متضخمة متصاعدة من الحرب غير النظامية. ولم تكن الإصابات كبيرة، غير أن تأثير هذا النزف المطرد على الرأي العام الإسرائيلي وعلى معنويات «جيش الدفاع» كان غير قليل. وكانت أكثر الحوادث إثارة هي عملية نسف مقر قيادة أركان «جيش الدفاع» في صور في ١١/ تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٨٢ عندما قتل سبعة وستون إسرائيلياً. ولم يكن هناك دليل ثابت يربط سوريا بهذه العمليات. ولكن ليس هناك أدنى شك في أن الأسد قد أرسل كل عون مستطاع لأصدقائه وحلفائه في المقاومة اللبنانية في ذلك الحين.

ذلك أن أجهزة الأمن القوية التي نمت في سوريا بين عامي ١٩٧٧ و١٩٨٢ لشن حرب على الأخوان المسلمين أعطيت لها حينذاك أهداف جديدة. ففي الصراع على لبنان استخدم الأسد كل أرصدته، التي كان من بينها كثير من المقاتلين المجربين الجيدين. فالفلسطينيون الذين أخرجوا من بيروت إلى سوريا رابطوا في منطقة البقاع التي تسيطر عليها سوريا، حيث انضموا إلى الأعداد الكبيرة من زملائهم الذين كانوا قد هربوا من الطوابير الإسرائيلية المتقدمة في أوائل أيام الحرب. ومن ثم وجهوا للقيام بمهمات فدائية عبر الخطوط السورية. وفي الوقت نفسه، في داخل لبنان المحتل، راح الأسد يقوي روابطه مع الأجنحة المقاتلة من حزب البعث اللبناني، والحزب الشيوعي اللبناني، والحزب السوري القومي، وطبعاً مع حلفائه الأساسيين من الشيعة. وبطرق ملتوية بدأت الأموال، والأسلحة، والمؤن تتدفق عبر الجبال من دمشق. ولم تكن تلك المجموعات ـ باستثناء البعثيين ـ تتلقى أوامر مباشرة من دمشق. بل كانت كل واحدة منها تقاتل من زاويتها الخاصة، إلّا أن المصلحة المشتركة في معارضة الاحتلال الإسرائيلي ساعدت على توسيع مدى نفوذ الأسد.

عندما غزت إسرائيل لبنان رحب بها كثير من الشيعة في بادىء الأمر على

أنها منقذة لهم من تحكم الفلسطينيين، ولكن وحشية الغزو، ووجود علامات على استعداد إسرائيل للبقاء فترة طويلة قد استنفذت هذا الترحيب ثم إن محاولة إسرائيل فرض الحكم الماروني أدت إلى معارضة مباشرة. كان الشيعة قد مالوا نحو سوريا منذ مطلع السبعينات، عندما صادق الأسدُ زعيمَهُم الإمام موسى الصدر. وبعد ذلك ساعدت علاقاتُ الأسد مع إيران على تقوية وتثبيت الرابطة. ثم إن حاجة الأسد لوكلاء عنه يضايقون إسرائيل قد تطابقت مع توق إيران إلى تصدير رسالتها الثورية. ولقد ساعدت تلك المصالح المتداخلة والمتطابقة جزئياً على تحويل مدينة بعلبك في البقاع إلى مركز سياسي - ديني للثورة، حيث انضم ألفان من الإيرانيين (الذين كانوا قد عبروا من سوريا بموافقة الأسد) إلى فصيل لبناني متشدد يدعى «العمل الإسلامي» مكون من عدة آلاف مقاتل انشقوا عن حركة أمل، وكان يقودهم حسين الموسوي. وكان هؤلاء الشيعة، سواء العرب منهم أو الإيرانيون مشبعين بروح الاستشهاد وبنار الكراهية والاحتقار لإسرائيل والولايات المتحدة . وقد تخصصوا بالهجمات الانتحارية. وبما أنهم كانوا غيورين ومتشددين فإنه لم يكن من السهل السيطرة عليهم تماماً، بَيْدَ أنهم كانوا إلى جانب الأسد. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٨٢ استولوا على بلدية بعلبك والثكنات الرئيسية فيها. كان تحالف الأسد مع إيران الذي جرّ عليه كثيراً من الانتقادات العربية قد بدأ يعطي ثماره وهو أشد ما يكون حاجة إليها - في صراع الحياة والموت ضد إسرائيل.

كان مثل هؤلاء الوكلاء بأساليبهم الإرهابية مفيدين، ولكنهم غير ذوي نفع لو تعرضت سوريا نفسها لهجوم عسكري. فبعد تدمير صواريخه وجزء كبير من طيرانه فيما بين حزيران/ يونيو وآب/ أغسطس كان الأسد بحاجة عاجلة إلى استعادة درجة من الردع. وكان الاتحاد السوفياتي وحده هو القادر على المساعدة، ولكن الحرب كانت قد ألقت ظلالاً من الجفوة والبرود على العلاقات بين دمشق وموسكو. فلأغراض الاستهلاك المحلي كان كل شيء يبدو على ما يرام. ولكن من خلف الكواليس كان السوريون غاضبين من الحذر

السوفياتي وكانوا ينحون باللائمة في خسارتهم لمعارك البقاع الجوية على قصور التجهيزات والأعتدة السوفياتية، بينما اتهم السوفيات السوريين بعدم الكفاءة. وفي ١٣/ حزيران ـ يونيو، عندما قام الجنرال يفجيني يوراسوف النائب الأول للقائد الأعلى للدفاعات الجوية السوفياتية بتفتيش ميداني على مواقع بطاريات الصواريخ بعد أربعة أيام من تدميرها، حصل خلاف حاد ولاذع بين فريقه وبين الأركان العامة السورية. ولم تتحسن العلاقات في تموز/ يوليو، وآب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر، عندما قام الطيران الإسرائيلي، وبتفوق يبدو أنه لم يتطلب أي جهد، بتدمير دزينة أخرى من صواريخ سام حديثة التركيب. وفي ١٩ تموز/ يوليو جاء المارشال نيقولاي أوغراكوف، رئيس هيئة الأركان العامة السوفياتية بنفسه لتقييم ما كان يعتبر بأي مقياس من المقاييس نكسة كبرى لأنظمة التسليح السوفياتية. وكان قلق السوفيات منصباً على أن معرفة إسرائيل بتدمير الصواريخ سوف يتم تقاسمها مع الولايات المتحدة. وفي تلك الأشهر من الجدل البارد كالصقيع اقتصرت التجهيزات السوفياتية لسوريا على الحد الأدنى من قطع التبديل.

لقد أبرزت الحرب تناقضاً كامناً في العلاقة السورية ـ السوفياتية فالأسد كان يعتمد على موسكو للحصول على أسلحة متقدمة. ولكنه في الوقت نفسه كان يصر على الاستقلال السياسي الكامل. ففي عام ١٩٧٦ تدخل في لبنان دون استشارة السوفيات، بل وضد رغباتهم. وفي عام ١٩٨٠ حشد قوات لتخويف الأردن دون إعلامهم سلفاً. وفي عام ١٩٨١ حرك صواريخ للبقاع، ومرة أخرى لم يستشرهم، مما جعل السفير السوفياتي فلاديمير يوخين يهرع إلى موسكو، ونائباً لوزير الخارجية السوفياتية يهرع إلى دمشق. واندلعت حرب عام ١٩٨٢ دون حصول تنسيق قبل القتال. ومهما كان تأثير اتفاقية الصداقة المعقودة عام ١٩٨٠ على معنويات الأسد فإنها كانت بعيدة عن كونها تحالفاً استراتيجياً(٤).

ومع ذلك كان كل من البلدين بحاجة إلى الآخر. كانت تلك إحدى حقائق الحياة. وبحلول خريف عام ١٩٨٢ بدأت المحاولات تبذل لرأب الصدع، وكان ذلك لفائدة الطرفين معاً، فالأسد كان بحاجة إلى الأسلحة، والسوفيات كانوا بحاجة لإعادة الثقة بسمعة أسلحتهم العالية الأداء وكذلك بموقعهم السياسي في العالم العربي. وللفت انتباه الكرملين، عرض الأسد أن الولايات المتحدة تخطط لاستخدام إسرائيل ولبنان كنقطة وثوب للمزيد من التوسع، وهي نظرية ظهر ما يؤيدها، وهو قرار ريغان في آب/ أغسطس ١٩٨٢ القاضي بإرسال جنود البحر الأميركيين إلى بيروت. كان الأسد يعلم بأن من المفيد له أن تنظر السلطات السوفياتية إلى الشرق الأوسط باعتباره مكافأة حاسمة في التنافس بين الشرق والغرب. وقد ظهر أن الكرملين قد تم كسبه لهذه المقولة، ولكنه كان بطيئاً إلى حد مؤلم في تقديم أي شيء مادي ملموس. وكانت العلاقات في هذه الحالة القلقة نسبياً عندما أعلنت وفاة بريجنيف في ١١/ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٢. فوضع موته حداً لحالة الركود الطويل التي تميز بها حكمه. وبالنسبة للأسد، الذي أعلن الحداد سبعة أيام في سوريا، جاءت تلك الوفاة أنسب وقت.

وأعطته جنازة بريجنيف في موسكو (في ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر) الفرصة لتجديد تعارفه بآندروبوف وعرض قضيته للحصول على أسلحة أكثر وأفضل. ولشدة ارتياحه، وافق آندروبوف على بدء مرحلة جديدة في التعاون العسكري السوري ـ السوفياتي، مع تعميق الالتزام المتبادل وزيادة ضخمة في كمية ونوعية شحنات السلاح. وقد تذكر وزير الدفاع طلاس (الذي صحب الأسد إلى الاتحاد السوفياتي لحضور الجنازة) أن آندروبوف نفسه كان هو الذي أصرّ على وجوب حصول سوريا على الأسلحة التي تحتاجها، متخطياً التحفظات التي عبّر عنها وزيرا الدفاع والخارجية، أوستينوف وغروميكو. وعندما احتج أوستينوف بأنه ليس هناك فائض من الأسلحة المتقدمة قال له آندروبوف: «خذها من مخزونات الجيش الأحمر. إنني لن أسمح لأية قوة في العالم بأن

تهدد سوريا[٥]». وقد وفى آندروبوف بوعده. ولم يضطر الأسد إلى القيام بزيارات سرية أخرى للاتحاد السوفياتي، كما راجت بذلك الشائعات، بل اكتفى بمجرد إرسال الوفود للتفاوض حول تفاصيل عقود الأسلحة. وهكذا أمنت سوريا إمكانية الردع الفوري التي كانت تحتاجها. ولم يكن ذلك، سوى القسط الأول من عملية كبرى لتوسيع ورفع درجة قوتها المسلحة خلال الأعوام الأربعة التي تلت (فقد نمت القوات المسلحة من ٢٢٥,٠٠٠ رجل عام ١٩٨٢ إلى ٤٠٠,٠٠٠ رجل في عام ١٩٨٦، ومجموعة الدروع من ٣٢٠٠ إلى ٤٤٠٠ دبابة، والطائرات المقاتلة من ٤٤٠ إلى ٦٥٠، وقطع المدفعية من ٢٦٠٠ إلى ٤٠٠٠، ومواقع الدفاع الجوي من ١٠٠ إلى ١٨٠، وهذه مجرد إحصائية لبعض البنود الأساسية)[٦].

وخلال عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣ بدأت تظهر أولى ثمرات التفاهم الجديد. واجتذبت أعداد من أنظمة التسليح المتقدمة هذه اهتمام الأجانب الشديد، فقد كانت تلك أول مرة تبيع فيها موسكو مثل هذه الأنظمة لدولة من العالم الثالث. فصاروخ س س ٢١ (S S 21) الذي هو جيل جديد من قذائف أرض ـ أرض التي دخلت الخدمة في القوات السوفياتية عام ١٩٨٢ والتي كان نشرها في تشيكوسلوفاكيا قد أفزع حلف شمال الأطلسي، زودت به سوريا في عام ١٩٨٣. كان ذلك الصاروخ أدق إصابة وأشد فاعلية بكثير من صاروخ سكد (Scud) الموجود من قبله في الترسانة السورية، كما أن القواعد الجوية وأحواض السفن الإسرائيلية تقع ضمن مداه المجدي. وكان التجديد الثاني هو القذائف بعيدة المدى س س س ١ (S S C 1) المضادة للسفن التي أعطت سوريا لأول مرة إمكانية الدفاع عن سواحلها. غير أن الشحنات التي سببت أكبر قدر من الإثارة في كانون الثاني / يناير سنة ١٩٨٣ كانت بطارتي صواريخ سام ٥ البعيدة المدى والفعالة ضد أهداف شديدة الارتفاع والتي لم يسبق لها أن نشرت في خارج حلف وارسو. فقد شكلت العمود الفقري لنظام دفاع جوي متكامل بدأ

الاتحاد السوفياتي في بنائه حينذاك ويتضمن أنواعاً كثيرة أخرى من قذائف «سام»، مع رادار يذرع الأفق وأجهزة تشويش اليكترونية، وتسهيلات ومعدات معقدة للرقابة والسيطرة(٧). وبذلك حصل الأسد على وسائل الدفاع عن نفسه ضد الهجمات الإسرائيلية الجوية، من ميناء اللاذقية في الشمال إلى الحدود الأردنية في الجنوب. (وكان من النتائج الجانبية للصفقة اضطرار سوريا لإلغاء صفقة مزمعة لشراء ثلاث طائرات بوينغ ٧٥٧ لخطوطها الجوية المدنية، وشراء توبوليف ١٥٤ بدلاً منها. كان ذلك قراراً سياسياً اتخذ بعد إحجام، ولكن الأسد لم يكن يملك أن يقول لا).

وأدت تلك الأسلحة المتقدمة إلى تغيير العلاقة السورية ـ السوفياتية بعدد من الطرق الهامة. وكانت صواريخ سام ٥ وصواريخ أرض ـ أرض تدار بأيدي طواقم سوفياتية. وكان في سوريا ٢٥٠٠ «خبير» سوفييتي في عام ١٩٨٢، ولكن هذا الرقم تضاعف أو زاد عن الضعف بحلول عام ١٩٨٤ ـ ٨٥، لإفساح المجال لتشغيل الأنظمة الجديدة وتدريب السوريين على استخدام بعض الأسلحة الأخرى مثل طائرات الميغ ـ ٢٣ الاعتراضية المزدوجة والميغ ٢٧ المخصصة لمهاجمة أهداف أرضية ودبابات ت ـ ٧٤ (T - 74) التي ظهرت في سوريا للمرة الأولى بعد الحرب اللبنانية. وبالإضافة إلى ذلك تعهدت موسكو لسوريا بأن تهب لمساعدتها إذا هاجمتها إسرائيل. وكان ذلك دعماً هائلاً للأسد وعنصراً حيوياً في سعيه نحو توازن استراتيجي. وقد تفاخر وزير الخارجية خدام بقوله: «لقد رفعنا مخلباً واحداً من مخالب الدب الروسي وأنزلناه في سوريا».

ولكن كان هناك، على أية حال، وجه آخر لقطعة العملة. كان الاتحاد السوفياتي يريد تأثيراً أكبر على محميته . وتلك غريزة طبيعية لدى الراعي. وهكذا كان على الأسد أن يتخلى عن بعض حريته في العمل كي يؤمن الأسلحة والحماية التي يحتاجها. فبينما احتفظ بسيطرته على القضايا التكتيكية

والعملياتية، فَقَدَ سيطرتَهُ على الاستراتيجية النهائية. فلقد أصبح تطلعه إلى التوازن مع إسرائيل هبة من السوفيات الذين يمنعون ويمنحون. يضاف إلى ذلك أن اعتماد الدفاعات الجوية والقذائف بعيدة المدى على طواقم تشغيل سوفياتية قد جعل سوريا غير قادرة على البدء بالحرب كما فعلت في عام ١٩٧٣، فقد أصبح ذلك أيضاً وبالضرورة قراراً سوفياتياً. وصار الأسد أقل حرية من ذي قبل، ولكن أكثر أمناً وسلامة.

أقيمت هذه الترتيبات على أسس سياسية متفق عليها. كان الحليفان متفقين على السعي لمنع إسرائيل من تحقيق أهدافها من الحرب، وتأكيد تأثير سوريا في لبنان ومنع توقيع اتفاقية سلام لبنانية ـ إسرائيلية برعاية وساطة أميركية، لأن الحليفين رأيا أن مثل هذه المعاهدة تفتح الباب للهيمنة الأميركية ـ الإسرائيلية على المنطقة.

وجعل التصلبُ السوفياتي الأسد أكثر جرأة. فعندما احتجت إسرائيل على صواريخ سام ٥ في ربيع عام ١٩٨٣، انفجرت معركة كلامية بَدَا أنها تهدد بحرب. وقدم خدام شكوى لمجلس الأمن حول نوايا إسرائيل العدوانية. وعندما قرع وزير الدفاع الأميركي كاسبر واينبرغر جرس الإنذار حول نشر الصواريخ السورية ردّ عليه غروميكو بالتحذير من أن أي هجوم إسرائيلي سيعرض السلام العالمي للخطر. إلّا أن إصابات إسرائيل كانت في ذلك الوقت قد تجاوزت الخمسمائة قتيل. ولم تعد إسرائيل تطيق مزيداً من الصراع، إلى درجة أن رئيس أركانها الشرس المحب للقتال رافائيل إيتان أعلن محتجاً: «ليست لدينا نيةٌ في محاربة سوريا بسبب الصواريخ الجديدة، ولا لأي سبب آخر»[٨]. غير أن السوريين كانوا ميّالين إلى بذل جهدهم. فأعلنت الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة: «إننا لا نخشى الحرب، ولدينا من القوة ما يكفي للرد على أية ضربة نتلقاها بضربة أعنف منها»[٩]، فخلال مرض وزير الإعلام أحمد اسكندر أحمد برزت الدكتورة نجاح العطار كناطقة رئيسية باسم الأسد. وكان مثل هذا التحدي

الإعلامي يشير إلى أن سوريا قد بدأت في تفتيت ميزة إسرائيل العسكرية رويداً رويداً.

خطة ريغان

قد تكون أخطاء العدو مساويةً في فائدتها للمنجزات التي يحققها المرء بنفسه. فمن الأشياء التي ساعدت الأسد على الصعود من أعماق هاوية الحرب اللبنانية بطء إسرائيل في استغلال نصرها العسكري، فلو أنها فرضت «نظامها» على لبنان في أوائل أيلول عام ١٩٨٢عندما كانت في أوج قوتها لما كان باستطاعة الأسد أن يفعل إزاء ذلك شيئاً. غير أن تسعة شهور طويلة مرت قبل أن يتم التوصل إلى اتفاقية لبنانية ـ إسرائيلية. وفي تلك الأثناء كان الأسد قد أصبح لديه من القوة ما يكفي لتحدي تلك الاتفاقية. ولعل مقتل بشير الجميل، ومذابح الفلسطينيين، وانتخاب أمين، واضطرار إسرائيل لسحب قواتها من بيروت الغربية ـ كل ذلك قد أضعف تصميم إسرائيل. أما آمالها في إقامة حكومة لبنانية طيعة تعمل حسب إشارتها فقد بدأت تتلاشى بسرعة.

وكانت مصاعب إسرائيل مع الولايات المتحدة قيداً آخر. إذ أن صدمة الحرب قد شوشت العلاقة بينهما، وأثارت في واشنطن حافزاً لإعادة توكيد نوع من السيطرة على حليفتها المنفلتة. وقد شعر الرئيس ريغان بالإهانة عندما تجاهلت إسرائيل باستخفاف مناشداته بالإبقاء على بيروت. ثم أن الولايات المتحدة لم يكن باستطاعتها أن تصم آذانها كلياً عن احتجاجات العرب، ولا أن تظهر أمام العالم بمظهر المتواطىء على تحطيم عاصمة عربية. وبدأت تظهر خلافات أساسية هامة بين واشنطن وإسرائيل. فبينما كانت الإدارة الأميركية متعاطفة مع اهتمامات إسرائيل الأمنية، فإنها لم تؤيد تماماً، بل ولعلها لم تفهم أهداف بيغن إلا بعد مدىً في الحفاظ على إسرائيل الكبرى عن طريق السيطرة على لبنان وتحييد سوريا. لقد كان الموقف الرسمي الأميركي لا يزال يدعو إلى اعادة لبنان مستقلاً كمنطقة عازلة بين سوريا وإسرائيل، ويرى بأن الضفة الغربية

وغزة أراضٍ عربية محتلة يجب على إسرائيل الانسحاب منها في مرحلةٍ ما جزئياً أم كلياً.

ولكن التفكير الأميركي المستقل بشؤون الشرق الأوسط كانت تقيده وتعوقه منذ وقت طويل الخشيةُ من تجمعات «اللوبي» المؤيدة لاسرائيل، وملء خزانة كاملة من التعهدات السرية، والتفاهمات، ومذكرات الاتفاق التي كانت إسرائيل قد انتزعتها من الإدارات الأميركية المتعاقبة على مدى سنوات طويلة كثيرة. فمهما يكن الموقف الرسمي فإن سياسة أميركا في الشرق الأوسط من الناحية العملية تتميز بالتخبط والاضطراب وعدم الانسجام، وليس ذلك مستغرباً تماماً إذا تذكرنا المشاحنات المزمنة بين وزارات الحكومة المتنافسة واختلاط المواضيع وتشابكها مع السياسات المحلية والطريقة التي ترتفع بها أو تنخفض أسهم الشرق الأوسط في جدول أعمال وأولويات واشنطن. فلقد كان كيسنجر الملتزم بإسرائيل المتحيز لها، والمحامي الليبرالي التفكير سايروس فانس، والشخص الطموح غريب الأطوار هيغ يجرّون السياسة الأميركية حتماً في اتجاهات مختلفة. وكان ذلك إرث جورج شولتز عندما تسلم وزارة الخارجية والحرب اللبنانية في أوج أوارها.

لقد جاء شولتز إلى وظيفته وهو يحمل ميولاً معتدلة نحو العرب تعزى إلى عمله ثمانية أعوام كأحد كبار مدراء شركة بكتل العملاقة التي نفذت أعمالاً إنشائية وهندسية كثيرة في العالم العربي. وكان قد درس الاقتصاد في جامعة برنستون. وخدم في صفوف جنود البحرية في الحرب العالمية الثانية وعاد إلى الوسط الأكاديمي في المعهد التكنولوجي في ماساشوستس وجامعة شيكاغو قبل أن يدخله نيكسون إلى الحكومة في عام ١٩٦٩ ليعمل على التوالي وزيراً للعمل فمديراً لمكتب الإدارة والميزانية فوزيراً للخزانة. وبعد ذلك جاءت وظيفة الرجل البارز ذي الراتب المرتفع في شركة بكتل. ومن ثم جيء بهذا الرجل الضخم، الهادىء، الجمهوري غير المسيس الذي لا خبرة له بالدبلوماسية، وغُرِسَ في

رمال الشرق الأوسط المتحركة عند أخطر بقعة فيها وفي أحرج مرحلة.

وبعد صدمة الحرب أخذ العالم كله، ولا سيما العرب، في التطلع إلى الولايات المتحدة، لتقديم مبادرة حول تسوية عريضة في الشرق الأوسط، بما في ذلك من حل للمشكلة الفلسطينية. وكانت هناك أيضاً قضية محددة هي تمحيص العلاقات بين لبنان وجاره الإسرائيلي القوي المفزع الذي استمرت جيوشه تعسكر في أراضيه. وللتعرف على طبيعة هذه المشاكل طلب شولتز من وزارة الخارجية وثيقة تلخص الثوابت الأساسية في السياسة الأميركية كما صاغها وشكلها سابقوه، فجمعت له مثل هذه الوثيقة بإشراف وتوجيه نيقولاس فيليوتس، معاون الوزير لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا.

وكانت تلك الورقة أساس الخطاب الذي ألقاه الرئيس ريغان في أول أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٨٢، والذي أصبح يعرف باسم «خطة ريغان». ورغم كل الاهتمام الذي أثاره الخطاب، فإن الورقة التي كانت أساسه لم يكن المقصود منها عند إعدادها أن تصبح أساس مبادرة أميركية كبرى، ولم يكن وزن الرئيس وثقله السياسي ملتزماً بها. فلقد كانت أولويات ريغان في ذلك الحين محلية بشكل جوهري. أما اهتماماته الخارجية فكانت على علاقة بأميركا الوسطى وآسيا وليس بالشرق الأوسط، فلم يكن لديه معرفة أوخلفية مسبقة، ولا كبير اهتمام بهذه المنطقة[١٠]. ولم يكن توقيت خطابه ليعكس أي وعي بضرورة إيجاد حل عاجل للنزاعات في الشرق الأوسط. بل لقد كانت غريزة أميركا تتجه إلى تهدئة العالم العربي الذي أسخطته الحرب ونفرته تنفيراً خطيراً، وإلى استباق إدانة الزعماء العرب للولايات المتحدة، لأن القادة العرب، بعد شلل مؤلم كانوا قد وافقوا أخيراً على عقد مؤتمر قمة في مدينة فاس المغربية في السادس من أيلول/ سبتمبر. ولقد كان هناك استعجال لإلقاء ريغان لخطابه إلى درجة أنه لم يتسع الوقت لتشذيبه، ولعل ذلك هو السبب في عدم ذكر سوريا والجولان، وعدم قيام واشنطن باستشارة إسرائيل ـ وتلك هفوة انتهكت أحد تعهدات

كيسنجر الكثيرة لإسرائيل ـ وهو التعهد بأن لا تتخذ أميركا أية مبادرة حول الشرق الأوسط قبل أن تتفق عليها مع حليفتها أولاً.

وردّ بيغن المصدوم بأن ذلك اليوم كان «أشد الأيام حزناً في حياتي». ولم يكن يشير بذلك إلى عدم استشارة أميركا إياه، بقدر ما كان يشير إلى محتويات الخطاب. فقد بدا له أن ريغان ـ ببضع جمل منمقة بلباقة ـ كان يسلبه طموح حياته. فقد دعا الرئيس الأميركي إلى تجميد فوري لبناء المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزة. وأعلن تعاطفه مع حكم ذاتي للفلسطينيين «بالارتباط مع الأردن»، وعارض علناً قيام إسرائيل بضم الأراضي المحتلة أو السيادة عليها أو السيطرة الدائمة (كما عارض في الوقت نفسه قيام دولة فلسطينية مستقلة). وأكد على قرار مجلس الأمن ٢٤٢ باعتباره «حجر الزاوية» في دبلوماسية السلام الأميركية، وفسر ذلك القرار بأنه يعني انسحاباً إسرائيلياً على جميع الجبهات. واستذكر ريغان أن اتفاقيات كامب ديفيد قد تحدثت عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، فألحّ على توسيع نطاق عملية كامب ديفيد لتشمل الأردن والفلسطينيين بحيث يمكن انتخاب سلطة فلسطينية للحكم الذاتي لتخلف الحكم الإسرائيلي. ولم يكن تأكيده الرنان لعزم أميركا الذي لا يتزعزع على حماية أمن إسرائيل ليفعل شيئاً يذكر لتلطيف أثر الضربة. فمن وجهة نظر بيغن خاضت إسرائيل حرب عام ١٩٦٧ من أجل «تحرير» الضفة الغربية، ورفضت أن ترخي قبضتها عليها في عام ١٩٧٣، وشنت حرب لبنان عام ١٩٨٢ لتجعل إسرائيل الكبرى آمنة إلى الأبد. ورأى بيغن كذلك أن ريغان قد تجرأ على إسماع صوت التطلعات الفلسطينية، بل وأخذ يقترح إعادة المناطق إلى العرب! وعلى الفور سمح بيغن بإقامة ثلاث مستوطنات جديدة في الضفة الغربية، لأن خطة ريغان كانت حسب رأيه فاشلة سلفاً وولدت ميتة تماماً.

ولم يرضِ ريغان العربَ كذلك. فاتفاقات كامب ديفيد التي لوّح بها

كنموذج للتسوية كانت كريهة عندهم. وفي مؤتمرهم بفاس بعد ذلك ببضعة أيام وضع العرب مبادئهم حول التسوية والتي أعادت في جوهرها طرح الخطة التي كان قد تقدم بها ولي العهد السعودي فهد عام ١٩٨١. وطالبوا بانسحاب إسرائيلي إلى حدود ما قبل عام ١٩٦٧، وبتفكيك المستوطنات المقامة على الأراضي المحتلة، وبممارسة الفلسطينيين لحق تقرير المصير بقيادة منظمة التحرير بخلق دولة في الضفة الغربية وغزة تكون عاصمتها القدس الشرقية وبحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى وطنهم أو الحصول على تعويضات. وكانت خطة فاس تعترف ضمنياً بحق إسرائيل في عبارة تنص على أن «مجلس الأمن سيضمن السلام لجميع دول المنطقة».

ووجد الأسد نفسه بين خطتي فهد وريغان. كان قد رفض حضور قمة فاس عام ١٩٨١ عندما عرض فهد أفكاره، لأن بيغن العائد حديثاً إلى السلطة كان عندئذٍ يستعرض عضلاته، فلم يكن ذلك الوقت مناسباً، من وجهة نظر الأسد، لقيام العرب بإرسال إشارة عن استعدادهم للتفاوض. ولم يكلّ الأسد ولم يملّ من تكرار القول بأن السلام ليس للضعفاء. ولكنه في عام ١٩٨٢ وافق على خطة الملك فهد في فاس لأنه أعطى الأولوية لجمع شمل العرب ولم صفوفهم لحرمان إسرائيل من الثمرات السياسية لانتصارها في لبنان، وأراد قبل كل شيء أن يمنع الأردن من التجرؤ على الدخول في مفاوضات مع إسرائيل بموجب خطة ريغان. وكان تأييد خطة فهد إحدى الطرق لتحقيق ذلك. وكان همّ الأسد تجميع بيئته المشرقية التي مزقها الغزو الإسرائيلي للبنان بوحشية. فلو انزلق الأردن إلى منطقة نفوذ إسرائيل من خلال صفقة على غرار كامب ديفيد، فإن مركز الأسد سيتزعزع بصورة كاملة.

وقد نصح كيسنجر شولتز بالقول بأن الحرب اللبنانية، بإضعافها لمنظمة التحرير، قد خلقت فرصة لاجتذاب الأردن إلى عملية السلام. وأخذ شولتز هذه النصيحة إلى الخارج وشجع الملك حسين على محاولة إقناع عرفات بأن يفوّضه

في المحادثات. وكان هذا تطوراً جديداً شعر الأسد بأن عليه أن يقمعه ويدحره، وقد فعل ذلك عن طريق الضغط على المنظمة كي لا تستسلم للملك، والضغط على الملك كي لا يستسلم لعناق إسرائيل.

ونتيجة لهذه التطورات فإن شولتز عندما جاء لتقييم تأثير خطة ريغان وجد نفسه يجابه رفضاً إسرائيلياً وبروداً عربياً. وبما أنه كان قد بذل كثيراً من الجهد لجعل ريغان يلقي خطابه في أول أيلول/ سبتمبر، فقد فوجىء بهذا الاستقبال الفاتر الضعيف، وأصبح حذراً من «المستعربين» المختصين في وزارة الخارجية الذين أوقعته مذكرتهم في المتاعب. وإذْ خاب أمله في موضوع تسوية شاملة للشرق الأوسط، فقد شرع يركز طاقاته على حل مشكلة أصغر، وهي العلاقات الإسرائيلية ـ اللبنانية غير أنه في هذا المجال أيضاً ضلّ طريقه بشكل خطير.

كانت المشكلة هي البحث عن أفضل طريق لإعادة السيادة إلى لبنان، وتلبية حاجات إسرائيل الأمنية، وإبعاد الجيوش الأجنبية من ميدان القتال. وحول هذه القضايا كانت هناك آراء مختلفة اختلافاً واسعاً في المعسكر الأميركي. فنموذج المفاوضات الذي كان يفضله فيليب حبيب مثلاً هو النموذج الذي استخدمه بنجاح مثمر حين نزع فتيل أزمة الصواريخ عام ١٩٨١، أي استمزاج آراء الأطراف بطريقة سرية هادئة للتأكد من الأرضية المشتركة التي يمكن أن تؤدي إلى «تفاهم» غير رسمي. كان هدف حبيب تحقيق اتفاقية أمن تركز على الهيكل العظمي الأساسي بين إسرائيل ولبنان فيما يتعلق بالجنوب يمكن وضعها موضع التنفيذ قبل نهاية عام ١٩٨٢ بينما كان الأسد لا يزال ضعيفاً[١١]. غير أن فيليب حبيب كان بحاجة إلى الراحة من مفاوضاته اللبنانية الشاقة المضنية. فقد كانت لديه حالة مرض في القلب لم تحسنها أو تخفف حدتها مباريات تبادل الشتائم النابية مع شارون خلال حصار بيروت. وهكذا سافر إلى كاليفورنيا ليرتاح، تاركاً مساعده، السفير موريس دريبر، في الميدان. وعند عودته إلى لبنان في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢، اكتشف ـ بخيبة أمل ـ

أن الصيغة التي تبناها قد تَمَّ إلغاؤها لتحل محلها مفاوضات رسمية مباشرة بين إسرائيل ولبنان.

وكان السبب هو أن إسرائيل، التي كانت تريد من لبنان أشياء أكثر بكثير من مجرد الترتيبات الأمنية في الجنوب، لم ترضها أساليب وإجراءات حبيب غير الرسمية. فقد خاضت الحرب من أجل غنيمة أكبر، وهي اتفاقية سلام مع دولة عميلة. وكلما تزايد عدد ضحايا مغامرتها اللبنانية، كانت تشعر بأن عليها أن تبرر تلك المغامرة بتأمين اتفاقية كاملة في محادثات مباشرة تتم وجهاً لوجه.

بذل حبيب جهداً أخيراً لتجنب الانزلاق فيما اعتقد بأنه طريق خطر. فبدأ سلسلة من عمليات جس النبض، أولاً مع أمين الجميل، ثم مع بيغن وشارون، على أمل الانتقال إلى الأسد وفهد. غير أنه تلقى في إسرائيل صدمة شنيعة أخرى. كان قد بدأ يحدّد الخطوط الأولية لأفكاره عن ترتيب أمنيّ عندما قاطعه شارون صارخاً وهو يلوح بقصاصة ورق: «انتظر لحظة! إننا لسنا بحاجة إلى كل هذا الذي تتحدث عنه. لقد حصلتُ على اتفاقية عليها توقيع أمين» ذلك أن شارون، لكي يحقق أهدافه من الحرب، كان قد تجاوز الوسيط الأميركي وأجرى مفاوضات سرية مع معسكر الجميل. فقطع حبيب الاجتماع فوراً وعاد إلى بيروت.

وهناك صرخ في وجه أمين: «ماذا فعلت؟ لماذا لم تخبرني بأنك تتفاوض مع الإسرائيليين؟».

فنفخ أمين وتأفف وقال: «هذه ليست اتفاقية، بل مجرد خطوط عريضة كدليل عمل» وأنكر أن يكون قد وقع على أي شيء(١٢). ولكن الحقيقة كانت أن تعامله السري مع شارون قد أضعف موقف لبنان بشكل خطير، ووضع حداً لمحاولة حبيب إخراج الجيوش المتنافسة من لبنان بتفاهمات غير رسمية يتم التوصل إليها بهدوء وهكذا فإن الجدل بين المدافعين عن فكرة جس النبض والمشاورات غير الرسمية والمدافعين عن المفاوضات المباشرة تم حسمه لصالح

الأسلوب الأخير، وذلك على يد كينث دام، نائب مساعد وزير الخارجية. ولكن من غير المعقول أن يكون هذا قد تصرف بدون دعم شولتز. وعلى هذا الأساس افتتحت المفاوضات بين إسرائيل ولبنان تحت رعاية الولايات المتحدة في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢ في جلسات راحت تعقد بالتناوب في كريات شمونا بإسرائيل وخلدة في لبنان. واستمرت في بطءٍ وتثاقل أربعة أشهر، في ١٣٨ ساعة من المساومات التي لم تكن ودية دائماً.

كامب ديفيد ثانية؟

وكانت المفاوضات في سيرها ونتيجتها النهائية مدينة لتطور موقف شولتز نفسه. ففي خريف عام ١٩٨٢ كان الإسرائيليون يعتبرونه عدواً، ويرون فيه العبقرية الشريرة خلف خطة ريغان، ومدير بكتل المؤيد للعرب، غير أنه أصبح حبيبهم في ربيع عام ١٩٨٣. وكان واضحاً أنه قد خضع، كالآخرين من قبله، لأساليب الضغط المتقطع التي مارسها عليه «اللوبي» المؤيد لإسرائيل والذي كان قد استفاق وتخلص من حرج الحرب اللبنانية والتغطية التلفزيونية غير الودّية (التي جاءت لغير صالح إسرائيل) لحصار بيروت ومذابح صبرا وشاتيلا. وكان اليهود الأميركيون في بادىء الأمر قد ترددوا في تأييد غزو بيغن خوفاً من اتهامهم بأنهم أكثر ولاءً لإسرائيل منهم للولايات المتحدة. بل إن لجنة الشؤون الأميركية الإسرائيلية العامة (المعروفة اختصاراً باسم آيباك) كانت قد بدأت تعطي خطة ريغان ترحيباً حذراً. ولم يستعد اللوبي شجاعته وأعصابه إلّا بعد مؤتمر فاس الذي سكت فيه العرب عن الترحيب بخطة ريغان. وعندئذٍ بدأ اللوبي يدافع عن حرب لبنان، ويركز حملته على شولتز. وكان شولتز معتزاً بنفسه، ولكنه قليل التحمل وغير ميال إلى خوض معركة مع التأثير السياسي العظيم الذي تستطيع إسرائيل تحريكه للضغط على صناع القرار الأميركي.

وتقول القصة في واشنطن ان الذي لعب دوراً في إحداث هذا الانقلاب في موقف شولتز هو معاونه لورنس إيغلبرغر المؤيد لإسرائيل وصنيعة كيسنجر،

وتذهب الرواية إلى أنه قال له: «يا جورج! هل ترغب في أن تكون وزيراً ناجحاً؟ هل تريد أن تسهم في الحد من الأسلحة؟ وتدير المفاوضات بين الشرق والغرب؟ وتنقذ اقتصاد العالم؟ إذن لا تغلط مع الإسرائيليين، لأنك إن فعلت فلن يتحقق لك شيء أبداً» وأسهم في انقلاب مشاعر شولتز أيضاً موشي آرنـز، سفير إسرائيل في واشنطن الذي استلم وزارة الدفاع في شباط/ فبراير ١٩٨٣ عندما أرغم شارون على الاستقالة بعد نشر تقرير لجنة كاهان حول مجازر بيروت. فقد كان مثل شولتز من خريجي المعهد التكنولوجي في ماساشوستس وكان متعقلاً على عكس شارون الجلف المتهور، ولذلك سارع إلى إطلاع أميركا على ما عرفته إسرائيل عن الأسلحة السوفياتية وعن استراتيجية الحرب، وهي معلومات كانت إسرائيل قد حجبتها أول الأمر أثناء معارضتها لخطة ريغان. وبمثل هذه المغريات ربما يكون آرنز قد ساعد على إقناع الوزير الأميركي بدعم مطالبة إسرائيل بمعاهدة سلام. وعلى أية حال فقد بدأ شولتز يؤمن بأن طبعة ثانية من اتفاقات كامب ديفيد، بين إسرائيل ولبنان هذه المرة، كانت شيئاً ممكناً ومرغوباً فيه.

ولعل شولتز عند إلقاء ثقله في كفة المفاوضات الإسرائيلية اللبنانية كان متأثراً أيضاً بفقدان أحد مستشاريه الموثوقين في هذه الأثناء. ففي ١٨ نيسان/ إبريل سنة ١٩٨٣ صدمت شاحنة ملأى بالمتفجرات مبنى السفارة الأميركية في بيروت فهدمت جزءاً كبيراً منه، وكان من بين القتلى الثلاثة والستين الذين سقطوا في الحادث سبعة عشر أميركياً، وكان من بين هؤلاء مدير فرع وكالة المخابرات المركزية، ونائبه، ونصف دستة من ضباط المخابرات الأميركيين، وروبرت آميس المحلل الرئيسي لشؤون الشرق الأوسط بالوكالة المذكورة، والذي كان قد جيء به إلى بيروت للتحقيق في ظاهرة الإرهاب الشيعي التي يكاد يكون من المؤكد أنه كان من ضحاياها. وقد كان آميس واحداً من أهم مستشاري شولتز، وأدى فقدانه إلى حرمان وزير الخارجية من الآراء السديدة في

لحظة حرجة وزاد قسوة قلبه ضد منتقدي أميركا في الشرق الأوسط الذين كانت من أهمهم سوريا الأسد. وكانت وكالة المخابرات المركزية مقتنعة بأن الإيرانيين كانوا وراء تدمير السفارة، غير أنها اشتبهت بتواطؤ السوريين(١٣).

وفي المحادثات الإسرائيلية اللبنانية كان المفاوض الإسرائيلي الأساسي هو ديفيد كيمحي الذي كانوا يطلقون عليه في إسرائيل لقب «المستر لبنان». وقد عمل أولاً مع الموساد، ثم مديراً عاماً لوزارة الخارجية، وكان مهندس العلاقة مع الكتائب. وكان يساعده الميجر جنرال أبراهام تامير، ممثل شارون. وعلى الجانب اللبناني كان هناك أنطوان فتال (وكان من أصل سوري، وقد سعت دمشق لمحاكمته فيما بعد) وكذلك العميد عباس حمدان. وخلال أسابيع المساومات المليئة بالحرتقات والفذلكات الصغيرة قام كيمحي بتكتيف اللبنانيين بشبكة معقدة من القيود والضوابط القانونية فتزايد غضب حبيب من هذه المشاحنات اليومية فانفجر صائحاً بكيمحي: «دعني من حذلقاتك. إن لديك الآن معاهدة سلام لا ينقصها سوى الاسم»(١٤).

ومع ذلك فقد تطلب الأمر تدخل شولتز الشخصي لإيصال المفاوضات إلى ختامها. غير أن المشكلة كانت في أن المعاهدة التي تقترحها إسرائيل تبقى بلا معنى ما دامت القوات السورية متمركزة في خنادقها بقوة في لبنان. فكيف السبيل إلى إخراجها؟ لم يكن أحد قد بحث أو عالج هذا المأزق. وعندما وصل شولتز إلى الشرق الأوسط في نيسان/ إبريل سنة ١٩٨٣ كان السؤال الذي واجهه هو: هل يشرك الأسد في المفاوضات قبل إنهاء الاتفاق الإسرائيلي ـ اللبناني، أم يواجهه بأمر واقع؟ وقد أبقى شولتز مجال اختياراته مفتوحاً لمدة أسبوع.

واستدعى السفراء الأميركيين في المنطقة إلى مؤتمر في القاهرة ليستمزج آراءهم، فجاء ريتشارد مورفي من العربية السعودية، وريتشارد فايتس من الأردن، وروبرت ديلون من لبنان. أما السفير الأميركي في سوريا، روبرت

باغانيللي فقد أخبر شولتز بصراحة أن تجاهل مصالح سوريا بهذه الوقاحة سيجعل معارضة الأسد للاتفاقية المقترحة شيئاً محتوماً. وامتعض شولتز من صراحة باغانيللي فتجاهل تحذيره. ذلك أن شولتز لم يتفهم أسباب خشية الأسد من هيمنة إسرائيل على لبنان، ولم يقدر عمق غضب الأسد على ما اعتبره السوريون «خيانة» واشنطن في هدنة ١١ حزيران ـ يونيو ١٩٨٢. ولعله تذكر أن وزير الخارجية السوري خدام قد عبَّر في واشنطن في تموز/ يوليو ١٩٨٢ عن موافقة السوريين على الانسحاب من لبنان إذا انسحبت إسرائيل أيضاً. واعتقد شولتز في نيسان/ إبريل سنة ١٩٨٣ بأن الأسد سينحني أمام شيء محتوم، فقد كان السعوديون واللبنانيون يؤكدون له ذلك. ولعل شولتز أيضاً لم يستطع أن يتصور أن بلداً فقيراً من العالم الثالث لا يصل تعداد سكانه إلى عشرة ملايين يستطيع أن يقف في وجهه. وفوق كل شيء فشل شولتز في إدراك مدى استرداد الأسد لعافيته من هزيمة عام ١٩٨٢.

وكان جزء من المشكلة يعود إلى نقص الاتصال الأميركي بدمشق. كان باغانيللي يعرف ما يدور في التفكير السوري ولكن شولتز لم يصدقه. ومنذ بدء المحادثات الرسمية بين لبنان وإسرائيل في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢ لم تَجْرِ محاولةٌ لإشراك السوريين. وفيليب حبيب (الذي كان قد تفاوض مع الأسد حول الصواريخ في البقاع في عام ١٩٨١ وحول الهدنة السيئة الحظ في عام ١٩٨٢ ومرة أخرى حول خطة جلاء منظمة التحرير، والذي كان يعرف الأسد خيراً من أي أميركي آخر)، خرج من اللعبة في تلك اللحظة الحرجة. ورفض الأسد مقابلته. وأعلن أنه شخص غير مرغوب فيه، وقال إن فيليب حبيب قد خدعه في هدنة ١١/ حزيران ـ يونيو وخاب أمل السوريين في الخط الذي كان حبيب يميل إلى اتباعه في دمشق، فلم تعد كلماته المعسولة تؤثر فيهم عندمايقول إنه معهم وإلى جانبهم، وإن الإسرائيليين قساة متشددون، وإن السوريين يجب أن يساعدوه على مساعدتهم. وبغض النظر عن مثل هذه المنغصات الصغيرة، فقد

رفض الأسد السماح لحبيب بدخول سوريا في أيار/ مايو ليعبر عن عدم رضاه على اتجاه السياسة الأميركية بأكمله، وخصوصاً الاتفاقية الإسرائيلية اللبنانية التي كانت على وشك أن توقّع.

ولوضع اللمسات الأخيرة وحل الإشكالات الصغيرة بدأ شولتز برحلات مكوكية بين بيروت والقدس، وفي ٤/ أيار ـ مايو، بعد أن قابل بيغن ما لا يقل عن ست مرات، هيأ مسودة للتوقيع. ولكن مشكلة كيفية إخراج الجيش السوري من لبنان ظلت بلا حل. ولتغطية أنفسهم، طلب الإسرائيليون من شولتز تعهداً سرياً متضمناً في رسالة جانبية تنص على أنهم لن يكونوا مرغمين على تنفيذ الاتفاقية ما دامت هناك قوات سورية، بل وفلسطينية، لم تنسحب من لبنان. وكانت تلك حركة غير حكيمة. فقد أعطوا الأسد فيتو على الإجراءات ليرفضها.

وفي ٧/ أيار ـ مايو سافر شولتز إلى دمشق على أمل أنه سيزيح بسهولة وسرعة ما رأى أنه آخر عقبة في سبيل صنعه للسلام. وكان واثقاً أنه بين جزرة المعونة السعودية، والعصا الأميركية ـ الإسرائيلية، وبعد صوغ خطب تنقذ ماء الوجه، فإن الأمر سينتهي بالأسد إلى الموافقة على الاتفاقية. ولكنه كان قد أخطأ في الحكم على الرجل. فلم يكن الأسد بالذي يسمح لخصمٍ أقوى منه أن يتنمر عليه. وبأسلوبه المتميز، أعطى الوزيرَ الأميركيَّ درساً في التاريخ استغرق خمس ساعات. فشرح له نضال العرب لاحتواء إسرائيل، وغضبهم من اللامبالاة الأميركية تجاه تطلعاتهم ودعمها الأعمى لعدوهم. وأن الولايات المتحدة كانت تقترح آنئذٍ أن تكافىء إسرائيل على عدوانها . بسماحها لها بتغيير هوية لبنان العربية وبتهديد أمن الدول العربية الأخرى كسوريا، ويفرض هيمنتها على المنطقة. وأعلن الأسد أنه لن ينحني لمثل هذا الفرمان الأميركي ـ الإسرائيلي، وأنه سينظر في مسألة سحب قواته من لبنان فقط بعد انسحاب إسرائيلي كامل وغير مشروط. ونصح شولتزَ بِأنَ الطريق الصحيح إلى الأمام هو في التطبيق الصارم لقراري مجلس الأمن ٥٠٨ و٥٠٩ اللَّذَيْنِ صوتت لصالحهما الولاياتُ المتحدةُ نفسُها.

كانت هذه المقابلة مع الأسد من بين أشد التجارب مرارة في حياة شولتز العملية. فلم يكن معتاداً على مثل هذه التوبيخات. وبالإضافة إلى ذلك فإن سوريا بعدم تزحزحها من لبنان عرضت اتفاقية شولتز هذه للخطر. غير أن شولتز أدرك أنه إذا بدأ بعملية مفاوضات مطولة موسعة كالتي كان يقترحها الأسد فإن ذلك يعني إعادة فتح ملف الصراع العربي الإسرائيلي برمته، وذلك يتضمن الجولان، وحقوق الفلسطينيين، وانسحاباً إسرائيلياً على كل الجبهات، وتسوية شاملة. وقد تعلم شولتز هذا كله في دمشق. وكان غير قادر على التفكير بجدول أعمال كهذا. وبعد توقف في الرياض لمناشدة السعوديين كي يضغطوا على الأسد عاد شولتز إلى بيروت، غاضباً، شاعراً بالمهانة، ولكنه صمم على الاستمرار في خطته.

ولم ينجُ وزير خارجية أميركا من مقابلة مؤلمة مع رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان، الذي ناقش معه مسودة المعاهدة. كان شفيق الوزان وطنياً رصيناً ولكنه بسيط وابن خباز. وقد رأى بوضوح المرامي التي تؤدي إليها دبلوماسية شولتز، فقال له: «أيها السيد الوزير، يجب أن أخبرك بأنني أشعر بالخزي والتعاسة إزاء شروط هذه الاتفاقية التي لن أوقع عليها إلاّ بأقصى درجة من التمنع والإحجام. أهذا كل ما تستطيع أميركا العظيمة أن تؤمنه لنا؟»[١٥] فأخبر شولتز اللبنانيين، الذين خاب أملهم، بأن الأمر متروك لهم ليقنعوا السوريين بالإنسحاب. وكانت الحكومة اللبنانية الضعيفة قد تطلعت إلى الولايات المتحدة لتنقذها من مطالب إسرائيل وضغوط سوريا معاً. وقد علق الأستاذ إيلي سالم (الذي كان وزير خارجية لبنان وقتها) بحسرة فيما بعد: «كان لبنان كطفل أخذته عمته إلى نزهة. ولقد كان علينا أن لا نثق بعمتنا. لقد تعلمتُ بأن القوى العظمى غالباً ما تكون أقل شرفاً ونزاهة من القوى الصغرى[١٦]».

وفي ١٧/ أيار ـ مايو وقعت الاتفاقية الإسرائيلية ـ اللبنانية في كل من خلدة بلبنان وكريات شمونة بإسرائيل. كانت إسرائيل تطلب الكثير من جارها

الذي لا حول له: علاقات دبلوماسية، وحرية حركة للبضائع والأشخاص، ووجوداً إسرائيلياً مستمراً في الجنوب. وفي آخر الأمر شُذِبَتْ هذه الشروط القاسية كنوع من الاسترضاء للإبقاء على احترام لبنان لذاته، وبسبب قلقه من ردود الفعل العربية، ولكن النص النهائي رغم ذلك كان قيداً مذهلاً على سيادة لبنان يشل الحركة(١٧).

فبدلاً من إقامة علاقات دبلوماسية رسمية، أمَّنت إسرائيل «مكتب اتصال» على الأرض اللبنانية لم يكن سفارة تماماً. وتقرر تأجيل التطبيع الكامل إلى ما بعد إنسحاب القوات الإسرائيلية. غير أن إسرائيل راحت تمارس سيطرة كبيرة على الجنوب بأكمله. أمّا الميليشيا المتعاونة معها بقيادة الرائد سعد حداد، فرغم أنها ملحقة بالجيش اللبناني، فقد تقرر أن تظل قوة منفصلة تقوم بالدوريات على الحدود وحتى نهر الزهراني (وتم الاتفاق سراً على أن أيَّ خلف لسعد حداد يجب أن توافق عليه إسرائيل). وفي المنطقة التي تلي منطقة حداد وحتى نهر الأولي نصت الاتفاقية على أن باستطاعة لبنان أن ينشر لواء واحداً فقط مع تحديدات صارمة شديدة لأسلحته ومعداته. ولا يُسْمَحُ لأي رادار بأن يطلّ على ما يجري داخل إسرائيل، ولا يسمح بوضع صواريخ سام المتخصصة بالارتفاعات العالية. وعلى لبنان أن يخطر إسرائيل سلفاً بأية تحليقات من أي نوع فوق «المنطقة الأمنية». وبالإضافة إلى ذلك يتواجد عسكريون إسرائيليون في الجنوب ضمن ثماني مجموعات إسرائيلية ـ لبنانية مشتركة للرقابة مهمتها اكتشاف وتدمير أية قوات فدائية معادية.

ولم يكن هذا كل شيء. بل لقد نصت الاتفاقية رسمياً على أن حالة الحرب بين إسرائيل ولبنان قد انتهت. وأرغمت لبنان على تحريم كل مظهر من مظاهر العداء لإسرائيل على أراضيها، من النشاط الفدائي إلى مجرد الدعاية الإعلامية. ومنعت مرور أية قوات أو أسلحة أو معدات عبر أراضي لبنان ومجاله الجوي من أو إلى أي دولة ليست لها علاقات دبلوماسية بإسرائيل، وكان هذا

يعني العالم العربي بكامله باستثناء مصر. وكانت الاتفاقية تفرض على لبنان أيضاً أن يلغي خلال سنة واحدة أية معاهدات أو قوانين أو تعليمات تتعارض مع الاتفاقية اللبنانية ـ الإسرائيلية ـ أي الالتزامات التي ترتبت على لبنان في مؤتمرات القمة العربية وكعضو في الجامعة العربية. وعلق الأستاذ إيلي سالم بتجهم مرير: «إن الإسرائيليين كاللص الذي يرغمك على تفريغ محفظتك، ثم يتوقف ليعبث بالمنديل الذي يُزيّن صدرك»(١٨).

ومع نشر الاتفاق بعد زهاء سنة من الغزو ظهـرت إسرائيل وكأنها لم تكسب الحرب فقط، بل كسبت السلام أيضاً، مغيرةً ميزان المنطقة الاستراتيجي بكامله. ولقد كانت المسألة كلها دامية مروعة قذرة فوضوية ولكن لبنان قد انجرّ إلى منطقة نفوذها، بالإضافة إلى تحييد القوة السورية. وكان الجميع يعرفون أن الأسد كان يحتقر هذه النتيجة، ولكن كما حدث تكراراً في الماضي، (في حالة اتفاقية سيناء الثانية، وكامب ديفيد، ومعاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية) كان عليه أن يتحملها بصبر. وقد علق فيليب حبيب قائلاً: «كنا نعرف أن سوريا لن تقبل طوعاً بنود وشروط الاتفاق، ولذلك كان عليها أن تقبلها كرهاً»(١٩). وبدا أن «**السلام على الطريقة العبرانية**» قد أصبح هو الحقيقة الجديدة.

رسم خطوط المعركة

كان نظام إسرائيل الجديد في لبنان يعني الموت للأسد. ذلك أنه إذا تصاغر إلى حد الضآلة في المنطقة، فقد يخاطر بفقدان سلطته في سوريا نفسها. فكانت معركة الاتفاق شيئاً ليس في وسعه أن يتجنبه. وبحلول صيف عام ١٩٨٣، وبوجود حلفاء وحماية سوفياتية، كان في وضع يمكنه من خوضها، إذ أن وضعه كان أفضل مما ظنه أعداؤه. فلقد أبرزت الأزمة فيه إبرازاً حاداً خصائصه المميزة وهي: الاقتناع بصحة موقفه سياسياً وأخلاقياً، أعصاب باردة تحت النار، عناد هائل، استعداد للقتال، وللقتال حتى بشراسة عاصفة في سبيل ما يراه قضية قومية. وفوق كل شيء كان لديه الصبر الذي يقتضيه النَفَسُ

الطويل. وهذه فضيلة بدوية تبدو أشبه ما يكون بالإصرار على الثأر. فالعرب يحكون قصة زعيم بدوي تفاخر أمام زعيم آخر بأنه قد ثأر لإهانة لحقت بقبيلته قبل أربعين عاماً، فلامه الزعيم الآخر بقوله: «لقد استعجلت». وقد كان في عناد الأسد شيء من صفة الديمومة هذه.

وهكذا زجّ بكل موارده وطاقاته في النضال، وجنّد له كل ذرة من المكر والطاقة العصبية، فأقام في القصر الجمهوري ما يشبه غرفة العمليات التي امتدت خطوطها إلى جميع أنحاء لبنان. فقد كان عليه أن يفرض إرادته في كل الجبهات، في بيروت: الشرقية، والغربية، وفي ميناء طرابلس في الشمال، وفي وادي البقاع، وفي جبال الشوف، وفي الجنوب المدمَّر، حيث كان الشيعة قد بدأوا يواجهون الغزاة الإسرائيليين.

كان توقيع الاتفاق في ١٧/ أيار ـ مايو ١٩٨٣ فاتحة سيل من هجمات القدح والطعن من دمشق ضد «الجواسيس» و«العملاء» و«الانعزاليين» الذين وقعوه. وهُدِّدت الحكومةُ اللبنانية بحرب أهلية جديدة. وشُجِبَ الاتفاق باعتباره اتفاقيةً كتائبية ـ إسرائيلية مصممةً ومفصلةً لاعطاء الموارنة تفوقاً على كل طائفةٍ أخرى في لبنان، ولتحويل البلد كله إلى محمية إسرائيلية. وأعلن الأسد أن «اتفاق الإذعان» قد ولد ميتاً. وقبل أربعة أيام من توقيعه عقد حلفاء سوريا الرئيسيون في لبنان مجلس حرب في زغرتا، إقطاعية سليمان فرنجية، صديق الأسد الماروني والرئيس الأسبق، في شمال لبنان. فاجتمع هناك بالإضافة إلى فرنجية نفسه، زعيم طرابلس السني رشيد كرامي، والدرزي وليد جنبلاط، وجورج حاوي من الحزب الشيوعي اللبناني، وإنعام رعد من الحزب السوري القومي الاجتماعي، وعاصم قانصوه من حزب البعث اللبناني. وخلال الأسابيع التي تلت ذلك شكلوا ـ بتشجيع من الأسد ـ جبهة الانقاذ الوطني التي أقسمت أن تقاتل ضد الاتفاق، وتسقط الهيمنة المارونية، وتواجه الاحتلال الإسرائيلي وتبني «لبنان الجديد»[٢٠]، وأكدت سوريا أن هؤلاء الرجال أكثر تمثيلاً للبنان

الحقيقي من حكومة الجميل «الخائنة» ـ ودعمت سوريا وجهة نظرها هذه بقصف ميناء جونيه المسيحي الأساسي.

لم يكن الجميل هدَف الأسد الوحيد. فقد كان عرفات متحدياً آخر يجب دحره إذا كان للأسد أن يستعيد زمام المبادرة ليس في لبنان فقط، بل وفي الصراع العربي ـ الإسرائيلي ككل. كان الخصام الطويل المستمر بين الأسد وعرفات قد بدأ من حبس عرفات في سوريا عام ١٩٦٦ وظل يتسمم بإطراد من خلال أيلول الأسود عام ١٩٧٠، والأزمة اللبنانية عام ١٩٧٦ والغزو الإسرائيلي الأول عام ١٩٧٨، حتى وصل إلى نقطة القطيعة الكاملة في حرب عام ١٩٨٢. وقد غاظ عرفات الأسد وجرح مشاعره بشكل رهيب بعدم اعترافه بفضل سوريا وتضحياتها العسكرية، وباختياره عدم الذهاب إلى دمشق عندما حان موعد جلائه عن بيروت. وبالإضافة إلى ذلك فإن عرفات بمغازلته لخطة ريغان، وتفاوضه مع الملك حسين حول صيغة تفويض لمحادثات السلام، وبتمسكه بشكل أكثر عموماً «بالقرار الفلسطيني المستقل» كان يهدد استراتيجية الأسد الإقليمية في المنطقة من أساسها.

كان كثير من المقاتلين الفلسطينيين الذين يعيشون تحت السيطرة السورية في وادي البقاع، ومن بينهم أعداد كبيرة من حركة فتح التابعة لعرفات، ينتقدون الطريقة التي انهارت بها المقاومة الفلسطينية بسرعة أمام هجوم إسرائيل في جنوب لبنان. وكما كانوا يعترضون على قرار زعيم المنظمة بمغادرة بيروت، ورغبته الظاهرة في البحث عن تسوية سياسية. وبقيادة عقيدين فلسطينيين هما أبو موسى وأبو صالح انتفض المنشقون ضد عرفات في البقاع في أيار ـ مايو ١٩٨٣ وخاضوا معارك طاحنة ضد الرجال الموالين له، وانتصروا عليهم بدعم سوري. وسارع عرفات إلى البقاع وإلى دمشق لتجميع أنصاره، ولكن الأسد الذي كان منهمكاً تماماً في الصراع من أجل السيطرة على لبنان، لم يسمح لمثل هذه الأمور بإلهائه عن هدفه الأساسي. وفي الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو

١٩٨٣ أبعد عرفات من سوريا في حركة أعطت القطيعة طابعاً دراماتيكياً، وأكدت مطلب الأسد في أن يكون هو حامل مفتاح القضية الفلسطينية.

وفي تلك الأثناء كانت واشنطن قد استيقظت على النواقص التي أفشلت دبلوماسيتها. فقد سُمِحَ للأسد بأن يعيد تسليح نفسه بينما كانت الحكومة اللبنانية التي يعارضها مهتزة تتخبط في وضع بائس شديد الحرج. وقد حان الوقت لإعادة النظر في الخطة الاستراتيجية الأميركية الأساسية ولفتح حوار مع الأسد، ولو بعد تأخر طويل(٢١). وفي ٦/ تموز ـ يوليو ١٩٨٣ أمضى شولتز خمس ساعات أخرى مع الأسد، ولكن دون أن يستطيع تليين رفضه الذي لا رجعة فيه لاتفاق ١٧/ أيار ـ مايو. وللإبقاء على الاتصالات وجدت واشنطن بديلاً لحبيب في شخص روبرت ماكفرلين، مساعد مستشار الأمن القومي، الذي كان قد قام بزيارته الأولى لدمشق في السادس من آب/ أغسطس، أي بعد شهر من زيارة شولتز. وكانت مهمته أن يكتشف شروط الأسد بالضبط للإنسحاب من لبنان.

وكان الأسد بدوره لا يريد قطع الاتصال، فأبقى الباب مفتوحاً لواشنطن، ووافق على تشكيل لجنة عمل أميركية ـ سورية للتشاور حول لبنان. وبعد أسبوعين، وفي إشارة واضحة لتبيين حسن نيته، دبّر عملية إطلاق سراح ديفيد دودج رئيس الجامعة الأميركية في بيروت بالوكالة، الذي كان قد اختطف على يد جماعة موالية لإيران. والواقع أن عناصر سورية قد أنقذت دودج من طهران. وكانت تلك إشارة إلى اهتمام الأسد بإقامة علاقات مع الولايات المتحدة إذا كان يمكن لتلك العلاقة أن تتم وفقاً لشروطه.

كان الأسد عبر سنوات طويلة قد طور أسلوباً للتفاوض غالباً ما كان يستعمله مع الضيوف الأجانب. ولم يكن ماكفرلين حالة استثنائية من بين هؤلاء. فبعد تبادل بعض عبارات المجاملة الودية كان الأسد في العادة يسأل: «كيف الطقس في بلادكم؟» فيجيب الضيف الغربي بما يفيد أن الطقس في

بلاده أبرد منه في سوريا. وبذلك يعطي الأسد فرصته. إذ يبادر إلى القول: «إن الطقس حار هنا لأن الولايات المتحدة تذكي النار!» فهناك نوعان من الطقس في العالم، ويشرح الأسد كيف أن هناك طقساً يأتي به الله، وطقساً تأتي به الولايات المتحدة. وخطوة خطوة يؤكد الأسد أن التوتـرات، والأزمات، والحروب في المنطقة يجب أن تتحمل واشنطن مسؤوليتها جميعاً. وعندئذ يشعر الزائر الأميركي بأن عليه أن يدافع عن نفسه، وبذلك يبدأ الاجتماع وهو في وضع الدفاع، فاقداً لأية ميزة. وكانت خطة الأسد التالية لذلك هي أن يكون استطرادياً بشكل غير عادي يناقش مطولاً نقاطاً غير ذات صلة بالمـوضـوع . فـإذا ذكر اسم الله مثلاً، فإن ذلك يجعله يبدأ عرضاً طويلاً يبحث في الإسلام واليهودية والنصرانية قبل أن يعود إلى النقطة موضوع المحادثات. وبذلك كانت جلسات المفاوضات تطول ساعات. وكان أكثر المبعوثين يستنتجون أن الأسد إنما يطرح كل أنواع المواضيع الجانبية التي لا علاقة لها بموضوع النقاش كي يتعب زائريه وبذلك يسيطر عليهم بشكل أفضل. ففي نهاية جلسة طويلة يميل الزائر إلى قبول ما يقوله الأسد. وكانت ذاكرة الأسد الجيدة نادراً ما تفشل في انتزاع الإعجاب. ولم يكن يدون ملاحظات في الاجتماعات، ولا يطلب قلماً ولا ورقة حتى خلال المناقشات المعقدة. فإذا أثار زائر ما ست نقاط مثلاً فإن الأسد قد يمضي ساعة كاملة في الإجابة على النقطة الأولى، ثم ينتقل بسهولة إلى النقاط التي تليها وبالترتيب الصحيح. ومع ماكفرلين كـانت المناورة الافتتاحية غير المتوقعة التي اختارها الأسد هي طرح سؤال عن دور النساء في السياسة الأميركية. فكان ذلك سؤالاً احتار ماكفرلين في كيفية الإجابة عنه. وعندئذ شرع الأسد في تقديم عرض مطول عن النساء في الشؤون السورية، وخلص منه إلى التأسف على عجزه عن إعطائهن دفعة إلى الأمام في السياسة.

وعندما حصل ماكفرلين على فرصة لبحث الموضوع الأصلي أكد، تمشياً مع خط التفكير الأميركي الجديد، أن أميركا تريد تسوية لبنانية عادلة تأخذ

المصالح السورية في الحسبان، بما في ذلك الإنسحاب الإسرائيلي الكامل. ولكن ذلك لم يكن كافياً للأسد. كان مستعداً للإستماع إلى أية مقترحات ولكنه ظل غير مقتنع بأن الأميركيين قد تفهموا الفرق بين الوجود السوري والوجود الإسرائيلي في لبنان. فتأثير سوريا مشروع، ويجب أن يسود، لأن سوريا ولبنان بلد واحد، وشعب واحد، وجغرافية واحدة، أما إسرائيل فهي وجود غريب. أما الإنسحاب فقد شعر ماكفرلين بأنه موضوع يدور الأسد حوله ويتجنبه(٢٢). وقد أعلن الأسد في مقابلة صحفية في ذلك الحين: «يخطىء كل من يعتقد أو يفكر بأننا سنترك لبنان لقمة سائغة للإسرائيليين يبتلعونها لأن لبنان بلد عربي يربطنا به تاريخ مشترك ومصير واحد»(٢٣). وكانت هذه اللهجة غير المهادنة متوقعة لأن الأسد وحلفاءه كانوا مستعدين في شهر آب/ أغسطس لشن حملة كبرى على الرئيس أمين الجميّل.

معركة الاتفاق

عشية المعركة تشجع الأسد بسبب ظهور علامات على التشوش والاضطراب في المعسكر الإسرائيلي أصبحت واضحة للعيان. فقد بدأ بعض الإسرائيليين يعترفون بأنهم كانوا شديدي الطمع أثناء التفاوض على الاتفاق. وكان تنفيذه مشكوكاً فيه. ومع استمرار الغارات الفدائية بدأ الزعماء الإسرائيليون يفكرون فيما إذا لم يكن من الأعقل لهم أن ينسحبوا من جانب واحد بعيداً عن طريق بيروت ـ دمشق وجبال الشوف إلى خط أكثر أمناً على نهر الأولي في الجنوب.

وكانت أوضح علامة على بدء انهيار آمال إسرائيل من الحرب هي التبدل النفسي الذي حدث لبيغن نفسه. فمنذ شهر تموز/ يوليو، لاحظ المبعوثون الأميركيون أن بيغن، رغم استمراره في عناده، قد بدأت ثقته المتحدية بنفسه تذوب وتتلاشى. «فالتعذيب الصيني» البطيء الذي أصابه بتصاعد أعداد الضحايا الإسرائيليين كان قد بدأ يؤثر عليه. وحتى المتشدد موشي آرينز وغيره

من كبار الموظفين مثل ديفيد كيمحي كانوا قد بدأوا يفقدون الثقة بالخطة كلها[٢٤]. كما كان هناك أيضاً عامل شخصي أثّر على بيغن. فزوجته آليزا التي كان متعلقاً بها تعلقاً شديداً توفيت في ١٤/ تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة ١٩٨٢، فأدى ذلك إلى انغماسه في حالة من الاكتئاب العميق غير أن الأسبوع نفسه الذي شهد هبوط بيغن إلى الحضيض قد أصلح من أحوال الأسد. ففي ١٥/ تشرين الثاني ـ نوفمبر دُفِنَ الزعيم السوفياتي بريجنيف، وبدأ الأسد يستعيد صعوده مدعوماً بقوة من قبل خليفة بريجنيف: آندروبوف. وبعد عشرة أشهر، عندما كان الأسد مستعداً للمعركة، كان بيغن قد تخلى عن القتال. ففي ٢٩/ آب ـ أغسطس أخبر زملاءه المصعوقين بأنه عازم على الاستقالة، ثم عزل نفسه فوراً في بيته المتواضع بشارع بن نون في القدس الغربية. ولم يعد يظهر أبداً. وخَلَفَهُ إسحق شامير في رئاسة الوزراء.

ثم تم خوض معركتين لهما أهمية حساسة. كانت الأولى قصيرة ووحشية في بيروت نفسها. أما الثانية فكانت أكثر طولاً، في جبال الشوف المطلة على بيروت. فمن ٢٨ آب/ أغسطس إلى ٢/ أيلول ـ سبتمبر قامت قوات ميليشيا أمل، التي كانت أول تحدٍ شيعي كبير للرئيس الجميل، بالاشتباك مع الجيش اللبناني من أجل السيطرة على بيروت. ورغم أن الميليشيات قد دحرت بصعوبة، بعد وقوع خسائر فادحة في الجانبين، فإن رسالة ثورتهم كانت تتلخص بأن الشيعة الذين ظلوا متفرجين حتى ذلك الحين، قد بدأوا يقفون إلى جانب سوريا بصراحة علنية ضد إسرائيل وصنائعها اللبنانيين. ولم يكن هؤلاء هم المتطرفون الإسلاميون المرابطون في بعلبك والمتأثرون بإيران والذين كانوا في معسكر الأسد من قبل، بل كانوا يمثلون الخط الرئيسي لشيعة الجنوب والتابع لحركة أمل التي يقودها نبيه بري.

وكانت معركة الشوف هي نقطة التحول الحقيقية في الصراع السوري الإسرائيلي. فقد بدأت في الثالث من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣، عندما انسحبت

إسرائيل إلى نهر الأولي، في غمرة حرصها على تقليل تعرض جيشها لضربات المقاومة إلى الحد الأدنى. وفي تلك المرحلة كانت إسرائيل قد أدركت خطأ الاعتماد أكثر من اللازم على الموارنة، وشرعت تحاول التوصل إلى تفاهم مع الشيعة والدروز، غير أن الأوان كان قد فات. ففي جبال الشوف أدى الفراغ الذي خلفه الإنسحاب الإسرائيلي إلى ترك دروز وليد جنبلاط ليواجهوا أعداءهم التقليديين من المقاتلين الموارنة التابعين للقوات اللبنانية والذين كانت إسرائيل قد جلبتهم معها إلى الجبال بعد بداية غزوها للبنان.

وفي انفجار العنف الذي تلا ذلك تمكنت القوات الدرزية، بدعم ألفي مقاتل فلسطيني ومساندة من المدفعية والدبابات السورية (مع بعض المشورة التكتيكية من ضباط سوفيات) من دحر الميليشيات المارونية دحراً كاملاً. وتطور الاشتباك إلى تصفية كبرى للحسابات الطائفية تبودلت فيها المذابح بين الدروز والمسيحيين، وشرد عشرات الألوف من الجانبين، وهرع زهاء مائة ألف مسيحي إلى بيروت مذعورين، وكذلك إلى دير القمر التي كانت قد حوصرت في تلك الأثناء. واشترك الجيش اللبناني في المعمعة ضد الدروز في منتصف أيلول/ سبتمبر ولكنه عجز عن قلب الميزان. وفي ١٩٨٣/٩/٢٤ كان الدروز المنتصرون، بدعم من المدفعية السورية الثقيلة، قد التقوا بقوات أمل في ضواحي بيروت الجنوبية، بينما أصبح القصر الجمهوري اللبناني، والسفارات الأجنبية، وبيروت الشرقية، وقلب الأراضي الداخلية المسيحية إلى الشمال مكشوفة كلها للقصف المدفعي. لقد أثبت المقاتلون نيابة عن سوريا أنهم أقوى من المقاتلين نيابة عن إسرائيل.

وأثار إنقلاب الموازين قلقاً شديداً في إسرائيل وأميركا... وكذلك في أوربا، إذ أنَّ وحدات من الجنود الفرنسيين والإيطاليين والبريطانيين كانت تعمل ضمن القوات متعددة الجنسية في لبنان. وأصبح واضحاً أن شولتز بإرغامه لبنان على الدخول في اتفاق غير متكافيء مع إسرائيل قد عَرَّضَ حكومةَ الجميل

لهجوم شرس. بينما أدى الإنسحاب الإسرائيلي إلى خط دفاع جنوبي إلى ترك الولايات المتحدة متلبسة بحمل «اللقيط اللبناني» غير المرغوب فيه بين يديها. فتدخلت لدعم الجميل المحاصرَ بإرسال طائرات الأسطول السادس لضرب مواقع المدفعية الدرزية والفلسطينية في الجبل في ١٧ و١٩/ أيلول ـ سبتمبر. وفي ٢١ منه فتحت مدافع البحرية الأميركية نيرانها كذلك.

وفي ٢٣ من الشهر نفسه التقى ماكفرلين بالأسد ليصرّ على وقف إطلاق النار ووقف التعزيزات الفلسطينية والسورية للدروز. كانت أميركا تسعى بوعي حذِر إلى التغلب على نُذُرِ شيء يشبه العقدة الفيتينامية ـ التي كانت قد ملأت الذهن الأميركي بالشكوك حول جدوى التدخل العسكري إثر هزيمتها في جنوب شرقي آسيا ـ ولذلك فإن ماكفرلين كان يشارك شولتز الرأي بأن الولايات المتحدة يجب أن تكون مستعدة لاستعمال القوة في دعم دبلوماسيتها. وهكذا فإنه عندما ودع الأسد ألقى قنبلة مفاجئة من تلقاء نفسه فقال وكأنه يتحدث بشكل عادي عابر: «وعلى فكرة.. إن حاملة الطائرات نيوجرسي ستكون على مقربة من سواحل لبنان في غضون أربع وعشرين ساعة»(٢٥).

وصار ماكفرلين يعتقد بأن ذلك التهديد المبطن ربما كان هو الذي أدى إلى وقف إطلاق النار في الشوف، الذي تم الاتفاق عليه بعد ذلك بيومين، في الخامس والعشرين من أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٨٣. والواقع أن الأسد عندئذٍ كان قد حصل على كل ما يريد، وكان على استعداد للموافقة على مقترحات وقف إطلاق النار التي صيغت في عدة أسابيع من الرحلات المكوكية التي قام بها الأمير بندر بن سلطان (السفير السعودي في واشنطن) مع المليونير السعودي اللبناني رفيق الحريري بين دمشق وبيروت. لقد أصبحت سوريا هي الممثل الرئيسي الذي يحتل وسط المسرح.

كان الأسد قد شدّد من شروطه طيلة ذلك الصيف: قال إنه سينظر في إخلاء لبنان إذا انسحبت إسرائيل بدون شروط، وإذا انسحبت القوة متعددة

الجنسيات، وإذا حكمت لبنان حكومة وحدة وطنية. ويجب تمزيق الاتفاق اللبناني ـ الإسرائيلي: «أميركا خططت وهندست هذا الاتفاق وعلى أميركا أن تلغيه»(٢٦).

وفي تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٩٨٣ استطاع المحاربون بالنيابة عن الأسد أن يجبروا إسرائيل والولايات المتحدة على اتخاذ مواقف الدفاع. وبالنسبة لإسرائيل ربما كانت نقطة التحول هي السادس عشر من ذلك الشهر، عندما اصطدمت القوات الإسرائيلية بحشد من مائة وخمسين ألف شيعي تجمعوا في مدينة النبطية في جنوب لبنان بمناسبة الاحتفال بعاشوراء، ذكرى يوم استشهاد الإمام الحسين، حفيد النبي في عام ٦١ هـ (٦٨٠م)(٢٧). وأدت الاضطرابات التي تلت ذلك، ومقتل المدنيين على أيدي القوات الإسرائيلية، ونظام حظر التجول الذي حاولت تلك القوات فرضه، إلى إثارة سكان الجنوب الشيعة بشكل لم يسبق له مثيل من قبل. وشوهدت النتائج في سلسلة من العمليات الفدائية التي أودت بحياة أربعين إسرائيلياً آخر قبل نهاية ذلك العام. وفي كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٨٤ تلقت إسرائيل ضربة أخرى بموت حليفها المخلص في منطقة الحدود، الرائد سعد حداد الذي حل محله العقيد أنطوان لحد كقائد لجيش لبنان الجنوبي الذي تشرف عليه إسرائيل، والذي دمغتهسوريا فوراً بالخيانة. واستمر إنسحاب «جيش الدفاع الإسرائيلي» خلال عام ١٩٨٤، وبحلول عام ١٩٨٥ رضيت إسرائيل لنفسها بمنطقة حدودية ضيقة سمتها «الحزام الأمني» في جنوب لبنان.

وكان حتمياً أن يتجه الغضب الشيعي أيضاً إلى حُماةِ إسرائيل وأولياء أمرها الأميركيين. فالقوة البحرية الأميركية، التي لم تكن مهمتها السيئة التحديد قد حَمَتْهَا من الانغماس في الحمأة اللبنانية، تعرضت لكارثة الهجوم عليها بالسيارة المشحونة بالمتفجرات والتي أدت في لحظة إلى مصرع ٢٤١ من رجالها في ٢٣/ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٨٣(٢٨). وفي صباح اليوم نفسه، وانتقاماً من

غارة جوية، هوجمت الوحدة الفرنسية في القوات متعددة الجنسيات بسيارة مفخخة أدت إلى مصرع ستة وخمسين رجلاً. وتنامىٰ الضغط من أجل استدعاء القوات الغربية. غير أن سكرات النزْع لم تكن قد انتهت.

ومع ترفيع ماكفرلين لمنصب مستشار الأمن القومي في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر (بعد سقوط وليام كلارك إثر هجمات شولتز عليه) أرسل مبعوث أميركي آخر ثانيةً للتعامل مع الأسد وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من سياسة الولايات المتحدة. كان دونالد رامسفيلد رجلاً قديراً شغل منصب رئيس أركان البيت الأبيض، ومنصب السفير الأميركي لدى حلف شمال الأطلسي. ولكنه جاء إلى سوريا يجر قيداً إسرائيلياً: إذ أن واشنطن كانت قد وعدت إسرائيل بأن المبعوث الأميركي لن يُسْمَحَ له بأن يقترح من عنده تعديلات على اتفاق ١٧/ أيار - مايو، ولكنه سوف يثير مع الأسد النقاط التي ترغب إسرائيل في طرحها. وكان هذا موقفاً غريباً يوضع فيه متفاوض. وكان من بين القيود الأخرى المكبلة لرامسفيلد المشاحنة المستعرةُ داخل الحكومة الأميركية حول استخدام القوة. فالمؤيدون لإسرائيل من المـوظفـين أمثـال بيتر رودمان، صنيعة كيسنجر كانوا يرون أن رامسفيلد يجب أن يصل إلى دمشق بعد استعراض للقوة. وشولتز نفسه كان معادياً لسوريا بفظاظة جامحة ومستعداً لإطلاق الأسطول السادس عليها لأن الأسد قد خرب له سياسته.

ولكن وزير الدفاع واينبرغر الذي كان يريد سحب جنود البحرية من لبنان حتى قبل مجزرة ٢٣/ تشرين الأول - اكتوبر، عارض سياسة استعمال القوة الخبيثة اللئيمة. وأدى هذا الشجار إلى شل الإدارة الأميركية. فلم يكن بمستطاع رامسفيلد أن يقدم للأسد إغراءات لأن إسرائيل لـم تسمح بذلك، ولا أن يهدده بالعقاب لأن واشنطن كانت منقسمة على نفسها حول هذه الفكرة.

وتمسك الأسد بأهدافه في عناد، وأولها وأهمها إلغاء الاتفاق... وقام رامسفيلد بالمناقشة والجدل والرحلات المكوكية. وتحرك الأسطول السادس للعمل ثانيةً (رغم تحذيرات باغانيللي من السفارة الأميركية بدمشق والتي لم

تأبه واشنطن بها فضاعت كصرخة في واد) فقامت «النيوجرسي في كانون الأول/ ديسمبر، ومرة أخرى في مطلع العام الجديد (١٩٨٤) بإلقاء قذائف في مثل حجم سيارة فولكس فاغن لتنفجر بلا تأثير في جبال لبنان. ولكن الأسد، والتيار يتحول ليسير في صالحه بقوة، ظل ثابتاً ولم يهتز.

وقدر لماكفرلين أن يعترف في آخر الأمر بالخطيئة الأميركية: «لقد كان من الأفضل لنا أن نأخذ بنصيحة الممثل الهزلي العجوز و. س. فيلدز التي يقول فيها: «لا ترفس رَجُلًا إلّا بعد أن يقع». ولقد كان الأسد جريحاً في عام ١٩٨٢، غير أنه لم يكن قد وقع تماماً. وكان ذلك الوقت مناسباً لإشراكه وفتح حوار معه، لا لمحاولة إذلاله. إنني لا أدعي أن السوريين كانوا سيتفقون معنا مباشرة، ولكننا بتجاهلنا لهم تعرضنا لخسارتين. فقد أغضبْنا الرئيسَ الأسد، وهو رجل ذو طموح وحدوي عربي، والأمر الآخر الذي له أهمية مساوية لذلك هو أننا قد سمحنا له بأن يزداد قوة. وأعتقد بأن فهمنا للشرق الأوسط كان بدائياً متخلفاً لأننا افترضنا أنه من الممكن الخروج بنتيجة مستقرة في لبنان بدون إشراك سوريا. وبهذا الفهم جعلنا من المؤكد تقريباً أن يقوم الأسد بتخريب الطبخة[٢٩].»

كان الرابع من كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٣ يوماً مهيناً للأميركيين بشكل خاص. فقد قتل ثمانية من جنود بحريتهم في المطار وأسقطت لهم نيران المدافع السورية طائرتين، مما أعطى زعيم الحقوق المدنية للسود: القس جيسي جاكسون فرصة كسب سياسي عندما جاء إلى دمشق في نهاية العام ليسترجع الطيار الأسير الذي بقي حياً: روبرت غودمان. وبعد وقوع إنذارات وحوادث مفزعة كثيرة أخرى، أعيدت الوحدات الإيطالية والفرنسية والبريطانية والأميركية العاملة في القوات متعددة الجنسيات إلى بلادها في الشهور الأولى من عام ١٩٨٤.

وهكذا فاز الأسد وحلفاؤه. وكان الأسد واحداً من الناس الذين ظلوا إلى حدّ ما غير مصدقين أن الولايات المتحدة قد نفضت يديها وانسحبت بهذه

السهولة. وقال لحاكم عربي آخر: «إن الأميركيين كالأطفال. عندما عارضنا سياستهم في لبنان، شنوا علينا غارة أو غارتين، فأطلقنا النار في الهواء، وإذا بنا نسقط اثنتين من طائراتهم. وهكذا انسحبوا! حسناً... فليذهبوا! فليذهبوا!...» وانفجر الأسد ضاحكاً.

وبذهاب الحُماة الغربيين، أصبح أمين الجميل تحت رحمة الأسد. وفي ٢٩/ شباط - فبراير ١٩٨٤ سافر إلى دمشق لتقديم احترامه للأسد وليعلن استعداده لإلغاء الاتفاق. وقد تَمَّ هذا بشكل رسمي بعد ذلك بخمسة أيام[٣٠]. وظل البقاع في أيدي السوريين بشكل محكم متين، والشوف تحت سيطرة الدروز، بينما كان الشيعة في الجنوب يطاردون الإسرائيليين. لقد تم كسب الكثير.

ولكن كان على الأسد أن يدير سلسلة كاملة من المعارك الأخرى في النصف الثاني من عام ١٩٨٣ من أجل السيطرة على ميناء طرابلس في الشمال. وكانت أولاها ضد زعيم إسلامي محلي هو الشيخ سعيد شعبان الذي كانت حركة التوحيد التي يقودها تتلقى الدعم من أعداء الأسد القدامى: المسلمين الذين هربوا من حماة. ولم يكد يتم تحجيم وترويض شعبان حتى ظهر عرفات في طرابلس في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٣، وقد استدعت عمليةُ زحزحته منها أسابيعَ من القتال الضاري الذي خاضه ضده المنشقون من فتح، تدعمهم سوريا.

ولقد مرت دوامة هذا التيار من العنف بالقرب من الأسد، فظل مشدوداً إلى أقصى حالات التوتر في الصراع المخيف طيلة عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣، ناهيك عن خمسة أعوام من القتال المميت مع الأخوان المسلمين قبل ذلك، بل وحياة كاملة من العمل الدؤوب الذي لا يستكين، حتى انهار في الثاني عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٨٣ فذهب إلى المستشفى يشكو من حالة قلبه، وقد هدد مرضه بوضع نهاية لفترة مضطربة عاصفة من تاريخ سوريا. غير أن هذا

الإرهاق كان بالنسبة للأسد على أية حال إرهاق النصر، وليس إرهاق الهزيمة كما في حالة بيغن.

كشف الحساب

كان فشل بيغن في فرض إرادته على العرب في عام ١٩٨٢ إيذاناً بأول تراجع لا إرادي لإسرائيل عن أوج قوتها التي كانت قد وصلت إليها في عام ١٩٦٧. وكان ذلك يعني أيضاً أن إسرائيل الكبرى لا يمكن إقامتها في بيئة لا تنازعها أو تتحداها. ولعل خيبة الأمل هذه كانت هي التي طردت بيغن من الحكم. فالفشل في طرد سوريا في حزيران ـ يونيو سنة ١٩٨٢ أعطى الأسد فرصة ليقاوم ويقاتل. كما أن الفشل في محق عرفات وحركته ضمن عملية إعادة إحياء منظمة التحرير الفلسطينية. ولكن بغض النظر عن هذا كله، كانت خطيئة إسرائيل هي تصورها أن تحطيم البنية التحتية للمنظمة في لبنان سوف يؤدي بطريقة ما إلى كسر الروح الوطنية لدى الفلسطينيين في المناطق المحتلة.

إن الانتفاضة التي بدأت في كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٨٧ في غزة والضفة الغربية لها جذور تكمن في نكسة إسرائيل في لبنان عام ١٩٨٣. ومن بين أخطاء إسرائيل الأخرى محاولتها إقامة لبنان صديقٍ لها قادر على أن يقدم لها «معاهدة سلام ثانية» على أساس حكم الأقلية المارونية في وقت كانت فيه طوائف أخرى منافسة (كالشيعة، وحتى الدروز) تتجه إلى الصعود. وفوق كل شيء فإن إسرائيل في سعيها لإرغام جارها الأضعف على الخضوع لشروطها كانت وحشية أكثر من اللازم في الهجوم، ولا مبالية أكثر من اللازم في استهانتها بحياة العرب وأرواحهم، وجشعة أكثر من اللازم في المفاوضات، وهازئة أكثر من اللازم في استهتارها بسيادة لبنان. وقد أثارت مثل هذه التجاوزات أعداء شديدي الشراسة على حدود إسرائيل. وأدت سياسة التدخل الفظ التي اتبعها بيغن إلى نكسة كبرى لقضية التعايش العربي ـ الإسرائيلي، وجعلت رجالاً مثل الأسد يتشككون في إمكانية العيش مع جار كهذا على الإطلاق.

أما الولايات المتحدة الأميركية، وجورج شولتز شخصياً، فقد تعرضوا لفيتنام مصغرة عندما اتضح أن قوة أميركا وجبروتها ليست لهما فاعلية، ودبلوماسيتها غير ناجحة. فأميركا بعد سماحها لإسرائيل بدخول لبنان لم تستطع أن تحمي الفلسطينيين من المذابح، ولا الحكومة اللبنانية من أعدائها، ولا اتفاق أيار/ مايو من السقوط، بل أنها لم تستطع حتى أن تحمي جنود بحريتها من الموت. وكان الخروج المهين المخزي من لبنان في أوائل عام ١٩٨٤ هو أعمق حضيض وصلت إليه مكانة أميركا في الشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الثانية. وكان هذا الانتقام الرهيب نتيجة الابتعاد عن ممارسة سياسة مستقلة في الشرق الأوسط، والسعي بدلاً من ذلك لمتابعة أفعال منحازة لإسرائيل أو تتلاعب بها إسرائيل. ولقد بدأ السير الأميركي على هذه الدرب منذ حرب حزيران/ يونيو عندما تسامحت أميركا مع هجوم إسرائيل الصاعق ثم تسارعت خطى أميركا على هذا الطريق عندما جلس هنري كيسنجر في مقعد السائق، ووصلت إلى نقطة الصدام على أيدي إدارة ريغان المضطربة المتخبطة. وكان فشل أميركا فشل غياب وسلبية، فقد سمحت لحليفتها إسرائيل أن تبعد المرمى وتتجاوز نفسها أكثر من اللازم حتى أخفقت، سواء في المستوطنات غير القانونية على الأرض العربية، أو في غاراتها من بغداد إلى تونس، أو في ضمها للجولان، أو في انتهاكاتها المتكررة لوقف إطلاق النار، ثم في غزوها للبنان.

ولم تجعل المغامرة اللبنانية الفاشلة شولتز يصحح هدفه. بل على العكس، وربما لأنه اعتبر الاندحار هزيمة شخصية له، انغمس أكثر فأكثر في علاقته بإسرائيل، فأصبح من المتحمسين لإقامة تحالف عسكري كامل معها، وصار ينظر إلى ظاهرة الإرهاب العربي والإيراني كشيء منفصل تماماً عن أسبابه. وكان هذا عمىً قدّر له أن يجر الولايات المتحدة إلى مستنقعات الإرهاب المضاد، واختطاف الرهائن، وإيران ـ غيت وغيرها من الفضائح والمخططات الموحلة. وتماماً كما وجد كارتر نفسه يكمل جدول أعمال

كيسنجر، فإن شولتز قد أكمل جدول أعمال هيغ. فالاتفاق الإسرائيلي ـ اللبناني العاثر الحظ، غنيمة إسرائيل من غزوها، انحدر مباشرة من نسل «الضوء الأخضر» الذي أعطاه هيغ لإسرائيل.

أما الأسد، فإن اندحار بيغن وشولتز كان انتصاراً لسياسته الخارجية. ذلك أن حرب عام ١٩٨٢ لم تكن حرباً من أجل لبنان وحده، ولا الضفة الغربية فحسب، بل حرباً لتقرير الإرادة التي ستسود في الشرق الأوسط. وفي مواجهة أخطار كبرى في ظروف غير متكافئة تمكن الأسد من إحباط محاولة إسرائيل الهيمنة، وصمد أمامها. ولأول مرة في التاريخ الحديث بدأ العرب يدركون أنه ليس هناك قدر محتوم قضى عليهم سلفاً بالهزيمة وقضى لإسرائيل بالنصر.

ولكن محاولات الأسد للدفاع عن المشرق العربي ضد أطماع إسرائيل العدوانية قد جعلته يضرب الحائط بالمصالح العنيفة (رغم كونها مشروعة) لأولئك اللبنانيين، والفلسطينيين، والأردنيين الذين يختلفون مع خطته الاستراتيجية، والذين يرغبون في البحث عن طرقهم الخاصة للخلاص، متحررين مما تمليه عليهم دمشق. ولم يكن انتصار الأسد كاملاً على أولئك الممثلين الأصغر منه والذين استمروا يتحدونه، كما أنه لم يستطع في السنوات التالية أن يقيم نظاماً جديداً في المنطقة كبديل للنظام الذي أرادت أن تفرضه إسرائيل.

وكان هناك اعتبار آخر. فهزيمة إسرائيل وأميركا اقتضت استعمال أساليب غير نظامية.. كاغتيال بشير الجميل، ونسف السفارة الأميركية، وذبح جنود البحرية، وإنهاك إسرائيل بعمليات فدائية من نمط «اضرب واهرب». ولم تكن سوريا بالضرورة متورطة في هذه الأعمال العنيفة، ولكنها ساندت الذين قاموا بها، وفوق كل شيء استفادت منها. أكانت هذه الأساليب لجوءاً للإرهاب، أم أنها التكتيكات المشروعة للمقاومة الوطنية؟ هل كان بشير وطنياً أم عميلاً متعاوناً مع محتلي وطنه؟ وهل كانت القوة متعددة الجنسيات من الأميركيين والأوربيين

صانع سلام محايد أم أنها انحدرت لتصبح مجرد ميليشيا أخرى في الحرب الأهلية اللبنانية تحاول أن تفرض نظاماً غريباً؟ لقد كان الأسد قائداً حذراً ومسؤولاً بذل محاولات مضنية طيلة سنوات كثيرة لشرح مخاوف العرب وآمالهم وحقوقهم والمظالم التي عانوا منهـا، وتوضيـح ذلك لسلسلة من الـزوار الأميركيين، ـ كيسنجر، ونيكسون، وكارتر، وفانس، وبريجنسكي، وشولتز، وحبيب، وماكفرلين والآخرين. ولكن طرحه لم يُسْمَع بعد كل تلك الساعات من الشرح الصبور. ولقد أظهرت الولايات المتحدة بتغاضيها عن حرب إسرائيل عام ١٩٨٢ تجاهلاً لمصالحه، مما أقنعه بأنها كانت تسعى إلى دفعه إلى حافة الانطفاء القومي. وعندما صار ظهره إزاء الحائط قاتل بالوسائل المتاحة له. وكانت المفارقة أنه كان رجل نظام يحتقر الفوضى، وكان شديد الوعي لمخاطر استخدام وكلاء عنيفين وغير منضبطين بشكل كلي. ولكنه شعر بأنه ليس لديه خيار. وقد قال لحليفه الدرزي(٣١) وليد جنبلاط: «إذا كانوا يريدوننا أن نكون إرهابيين فإننا قادرون على ذلك».

في أواخر نيسان/ إبريل سنة ١٩٨٤ قام بيتر جيننغر مندوب شبكة تلفزيون آي بي سي (ABC) في إحدى مقابلاته بتوجيه سؤال للأسد عما إذا كان يرى في الإرهاب وسيلة حرب مشروعة، فقال الأسد:

«إننا ضد الإرهاب. ولكن ما هو الإرهاب؟ الإرهاب بلدٌ يهاجم ويغزو بلداً آخر، فيحتل أراضيه ويطرد شعبه. وإذا كنتَ تقصد بالإرهاب عصابات اللصوص والقتلة وما شاكل، فنحن ضده. ولكن أعمال الناس ضد محتلي أرضهم لم تُعْرَفْ عبر التاريخ كله بأنها أعمال إرهابية. إننا نؤيد المقاومة الوطنية لكل الشعوب. . . .»(٣٢).

هوامش الفصل الثالث والعشرين

(١) ريتشارد آ. غابرييل: **عملية سلام الجليل** (طبع نيويورك ١٩٨٤) ص ١٢١، وكذلك مجلة **فلايت إنترناشنال** عدد ١٩٨٣/٤/١٧.

(٢) كلارنس ل، روبنسون: «تكامل الاستطلاع أمر حيوي هام في نجاحات إسرائيل» في مجلة **آفييش ويك آندسييس تكنولوجي** عدد ١٩٨٢/٧/٥، ص ١٧.

(٣) بيان القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية الصادر في ١٩٨٢/٧/١٩ **ملخص الإذاعات العالمية** المحفوظ بأرشيف هيئة الإذاعة البريطانية (عن يوم ١٩٨٢/٧/٢٢).

(٤) قاسم جعفر: «الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط: دراسة حالة سوريا» في كتاب من تحرير روبرت كاسون وشركاه بعنوان: **المصالح السوفياتية في العالم الثالث** (طبع لندن ١٩٨٥)، ص ٢٧١ - ٢٧٣.

(٥) مقابلة مع العماد مصطفى طلاس بدمشق في ١٩٨٤/٥/١٤.

(٦): مقابلة مع قاسم جعفر في لندن في ١٩٨٧/٤/١١.

(٧): سينثيا أ. روبرتس: «سياسة نقل الأسلحة السوفياتية وقرار رفع درجة دفاعات سوريا الجوية» - مقال في مجلة **سرفا يقال**، المجلد ٢٥، العدد ٤ (تموز - آب/ يوليو - أغسطس ١٩٨٣)، ص ١٥٤.

(٨): محطة التلفزيون الإسرائيلية يوم ١٩٨٣/٣/١٨، انظر **ملخص الإذاعات العالمية** لدى هيئة الإذاعة البريطانية (١٩٨٣/٣/٢١).

(٩) افتتاحية لصحيفة تشرين مقتبسة في **الانترناشنال هيرالدتريبيون** (عدد ١٩٨٣/٣/٢٢).

(١٠): مقابلة مع روبرت ماكفرلين في واشنطن في ١٩٨٧/٧/٣٠.

(١١) مقابلة مع فيليب حبيب في واشنطن في ١٩٨٧/٧/٢٥.

(١٢) المصدر السابق نفسه.

(١٣) بوب وود وورد (مصدر سبق ذكره) ص ٢٤٧.

(١٤): مقابلة مع فيليب حبيب في واشنطن في ١٩٨٧/٧/٢٥.

(١٥): مقابلة مع الأستاذ إيلي سالم في لندن في ١٩٨٤/١/٢٢.

(١٦): المصدر السابق نفسه.

(١٧) النص موجود في مجلة **ميدل إيست كونتمبوراري سرفي** التي يحررها كولين ليغوم وشركاه. المجلد ٧ (١٩٨٢ - ١٩٨٣) ص ٦٩٠ - ٦٩٧.

(١٨): مقابلة مع الأستاذ إيلي سالم في لندن في ١٩٨٤/١/٢٢.

(١٩): مقابلة مع فيليب حبيب في لندن في ١٩٨٣/٦/٤.

(٢٠) أذيع ميثاق جبهة الإنقاذ الوطني من إذاعة دمشق المحلية في يوم ١٩٨٣/٧/٢٣. أنظر ملخص

الإذاعات العالمية المحفوظ في أرشيف محطة الإذاعة البريطانية (٢٦/٧/١٩٨٣).

(٢١) من أجل التعرف على مداخلة أسهمت في النقاش الدائر في واشنطن آنذاك أنظر مقالة تالكوت و. سيلي (سفير أميركا في سوريا من ١٩٧٨ إلى ١٩٨١) والمعنونة: «نظرة أكثر تأنياً إلى سوريا الأسد» والمنشور في صحيفة «الانترناشنال هيرالدتريبيون» في ٢١/٧/١٩٨٣.

(٢٢): مقابلة مع روبرت ماكفرلين في واشنطن في ٣٠/٧/١٩٨٧.

(٢٣): مقابلة للأسد مع لالي ويموث عن لوس أنجلوس تايمز (١٤/٨/١٩٨٣).

(٢٤): مقابلة مع روبرت ماكفرلين في واشنطن في ٣٠/٧/١٩٨٧.

(٢٥): المصدر السابق نفسه.

(٢٦): مقابلة الأسد مع لالي ويموث المنشورة في لوس أنجلوس تايمز في ١٤/٨/١٩٨٣.

(٢٧): انظر مقال إيفزغونزاليز كويجانو المعنون «تفسيرات أحد الطقوس: ـ احتفالات عاشوراء في لبنان» المنشور بمجلة مغرب ـ مشرق، العدد ١١٥ (كانون الثاني ـ شباط ـ آذار/ يناير ـ فبراير ـ مارس سنة ١٩٨٧) ص ٥ ـ ٢٨.

(٢٨): انظر مقالة بريان هوكنغ ومايكل سميث المعنونة: «ريغان: والكونغرس والسياسة الخارجية: شراكة متعبة مضطربة» المنشور في مجلة ذي وورلد توداي (العالم اليوم) عدد أيار ـ مايو ١٩٨٤، ص ١٩٠ ـ ١٩٤.

(٢٩): مقابلة مع روبرت ماكفرلين في واشنطن في ٣٠/٧/١٩٨٧.

(٣٠) بيان الحكومة اللبنانية حول إلغاء الاتفاق في ٥/٣/١٩٨٤. انظر ملخص الإذاعات العالمية لدى هيئة الإذاعة البريطانية (٦/٣/١٩٨٤).

(٣١): مقابلة مع وليد جنبلاط في لندن في ٣٠/١٢/١٩٨٦.

(٣٢): البرنامج المحلي لتلفزيون دمشق في ٢٥/٤/١٩٨٤.

الفصل الرابع والعشرون

حرب الأخوين

في الثاني عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٨٣، وبعد أن اشتغل الأسد في مكتبه في الطابق الأرضي بمنزله، شعر بأنه ليس على ما يرام. فصعد إلى الطابق العلْوي وأوى إلى فراشه، ولكنه لم ينم جيداً. وفي الصباح اتصل بطبيبه هاتفياً. وبعدما فحصه الطبيب استدعى طبيباً آخر لإبداء رأي ثانٍ. فنصحاه بالمعالجة الفورية لشكهما في أن العلة في القلب[1].

ونقل الأسد إلى مستشفى الشامي بدمشق حيث وضع تحت العناية المشددة. ورغم أن المختصين قد اكتشفوا بعض الاضطراب في نبضات قلبه، فإنهم لم يجدوا عنده إصابة عضوية. كان يشكو من السكري منذ زمن طويل، ومما جعله يتفاقم هو حبه للحلويات. وكان في شبابه يشكو صداعاً وتوتراً في العين. غير أن هذه الشكايات كانت أشياء قد تعوّد على التعايش معها. والحقيقة أن الطيار الذي كان سليماً ذات يوم قد أضرت بصحته أعوامٌ من الوجبات غير المنتظمة، ونقص في الهواء الطلق والتريض، وعمل دؤوب لا يهدأ ولا يستكين. ونَجَمَ عن حياة الجلوس توسع في أوردته أصابه بالدوالي، وقد أجريت له عملية. ولذا خشي الأطباء أن يحدث التهاب في الأوردة. غير أن السبب الحقيقي لانهياره كان هو الإرهاق. لقد كان الأسد ببساطة متعَباً للغاية. وفجأة ابتعد عن المسرح الرجل الذي ظل حاكم سوريا طيلة ثلاثة عشر عاماً.

ونصحه الأطباء بالراحة التامة، وأعطوه مسكنات قوية ليفرضوها عليه. وشعر الأسد، الذي نادراً ما تناول أية أقراص منومة، بدوار جعله غير مستقر. وأدى هذا العجز، مضافاً إلى إغلاق أطبائه الباب حتى في وجه ذوي أعلى المناصب في نظامه، إلى أقصى درجات القلق وإثارة المخاوف. وأصيب المقربون منه بالذعر لأنهم أصبحوا بلا قائد، فراحوا يحاولون كسب الوقت فأعلنوا للناس بطريقة ضعيفة غير مُقْنِعة أن الرئيس يعالج من التهاب الزائدة الدودية. ذلك أن الهيكل الذي كان قد بناه، والذي كان يعتمد عليه كلياً، قد تعرض لخطر الانهيار.

ولقد انهار الأسد في أوج المعمعة متعددة الأطراف في لبنان. فقبل ذلك بأقل من ثلاثة أسابيع كان جنود البحر الأميركيون قد قتلوا بالجملة، وبدا أن الانتقام من سوريا لن يتأخر كثيراً لأنها اعتُبرت شريكاً في ذلك الهجوم. وكانت الطائرات الأميركية تحلق فوق المواقع السورية في جبال لبنان. وكان الأسطول الأميركي الضخم، بما فيه حاملة الطائرات الهائلة «نيوجرسي»، قد استخدم مدافعه ضد حلفاء الأسد في محاولة لِتَحدِّيهِ بالتحديق فيه وجهاً لوجه. وعندما شرع الأسد يشدد الضغط على أمين الجميل لإرغامه على إلغاء الاتفاق، بدت الحرب الساخنة مع الولايات المتحدة شيئاً وارداً، بل ومحتملاً جداً. وفي ذلك الوقت بالذات وقع يوري اندروبوف، الزعيم السوفياتي الذي أعطى الأسد أسلحة وضمانات على نطاق لم يسبق له مثيل، فريسة مرض ميؤوس من شفائه. وفي ١١/ تشرين الثاني ـ نوفمبر، عاد وزير الخارجية خدام من موسكو بعد أن توقف فيها ليلة واحدة ومعه الخبر الكئيب بأن اندروبوف على فراش الموت وأن الكرملين ليس في وضع يسمح له باتخاذ قرارات جريئة أو عاجلة. وهكذا تعرض للتهديد موقف الأسد الرادع ضد إسرائيل. ولا شك في أن قلقه على اندروبوف قد أسهم في عدم صموده أمام المرض هو الآخر[٢].

ولم تكن أميركا هي العدو الوحيد الذي تصارعه سوريا في ذلك الوقت.

فإسرائيل كانت تشدد غاراتها الانتقامية على البقاع وعلى طول طريق بيروت ـ دمشق عقب نسف مقر قيادة المخابرات الإسرائيلية في صور في أوائل تشرين الثاني / نوفمبر حيث قتل تسعة وعشرون شخصاً. وأدان الرئيس الفرنسي ميتران التدخل السوري في لبنان وأكـد أنـه سينتقم لحادث نسف مقر الوحدة الفرنسية بسيارة مفخخة، والذي وقع في نفس يوم الهجوم على جنود البحرية الأميركيين. وفي طرابلس كان صدام الإرادات البالغ العنف والشراسة بين عرفات ومنشقي فتح الذين تدعمهم سوريا قد وصل إلى ذروته. وكان المنشقون قد اجتاحوا مخيم النهر البارد، معقل عرفات، حيث سقط ضحايا بالمئات. ولتشديد الحصار أشعلت المدفعية السورية النار في مصافي النفط والمرفأ فسببت أضراراً تقدر بعشرات الملايين من الدولارات. وبحصر عرفات في مخبئه بطرابلس تعرضت دمشق لضغط عربي شديد لوقف هذا القتال المخجل بين العرب. غير أن الأسد كانت لديه كراهية لا تعرف الصفح ضد زعيم المنظمة، وكان مصمماً على قذفه في البحر.

وفي لبنان ككل، كان النظام الإسرائيلي قد تم دحره، ولكن النظام السوري لم يكن قد فرض هناك بحال من الأحوال. وقد اجتمعت في جنيف حفنة من الشخصيات اللبنانية القيادية، موارنة، وسنّة، وشيعة، ودروز في «مؤتمر للوفاق الوطني» من ١٠/٣١/ إلى ١٩٨٣/١١/٨ في محاولة يائسة لتجميع شمل بلدهم الممزق مرة أخرى. وكان الجميع قد اعترفوا بأن سوريا هي سيدة الحلبة، وقرروا مراعاة لها أن يعيدوا التأكيد على هوية لبنان العربية وأن يجعلوا إنسحاب إسرائيل من الأولويات الوطنية. ولكن ـ كما قال خدام للأسد عند عودته من جنيف ـ كان ديفيد كيمحي (الذي تسميه إسرائيل: المستر لبنان) يترصد خلف الكواليس وفي الأروقة، وكانت القوات اللبنانية، عميلة إسرائيل، قد رفضت قرارات المؤتمر. وفي تلك الأثناء كانت بيروت على أرض الواقع تحتوي كل شيء وأي شيء ما عدا الوفاق والإنسجام: فقد استمرت بلا هوادة عمليات الخطف، والمناوشة، والقصف بين شطري بيروت، بين

الموارنة والدروز، بين الرئيس الجميل وأعدائه. ومع ذلك فقد كانت سوريا تكسب بلا شك. وكان من المتوقع وصول الجميل نفسه إلى دمشق في ١٤/ تشرين الثاني - نوفمبر للإعتراف علناً بأن الإتفاق الذي وقعه مع إسرائيل في ١٧/ أيار - مايو بات لاغياً وباطلاً.

وقد وقع الأسد فريسة المرض في هذه اللحظة، عشية انتصاره الذي قاتل من أجله بقوة. وهكذا بقي كل شيء في الميزان. واضطر خدام وهو مهموم ومتكدر إلى الاتصال هاتفياً بالجميل طالباً منه تأجيل رحلته بسبب التهاب «الزائدة الدودية» للرئيس السوري. ولكن هذا العذر لم يصمد طويلاً، إذ سرعان ما نبشت الصحف الأجنبية حقيقة كون زائدة الأسد قد أزيلت قبل ذلك بعشرين عاماً.

وأمضى الأسد أكثر من أسبوعين في المشفى قبل أن ينتقل إلى فيلّلا خاصة في الغوطة - حزام دمشق الأخضر - لقضاء فترة شهر للنقاهة. ورغم أن الأطباء لم يستطيعوا تشخيص أي مرض محدد لديه، فقد ظل يشعر بضعف شديد. ونظراً لأن وقت انهياره قد صادف أوج النضال ضد إسرائيل والولايات المتحدة فقد ثارت لدى المسؤولين عن سلامته شكوك في أنه ربما سقط ضحية هجوم غادر خفيّ. وهكذا تم خلال فترة نقاهته في الريف تغيير جميع طاقمه الشخصي، من طباخين وخدم وممرضات، بل لقد تم تغيير أثاث المنزل والأشياء المتواجدة حول الأسد. وكان من المحتوم أن تظل صحته موضوعاً لكثير من الأقاويل والشائعات. فقد أشيع مثلاً أنه أصيب بشلل نصفي وبأنه تلقى رصاصة في صدره على يد قاتل حاول اغتياله. وأدت السرّية المعتادة في سوريا إلى تغذية الإشاعات. غير أن بقاء الأسد بعيداً عن الأنظار جعله يراقب الأصداء والتموجات ويثير البلبلة في صفوف خصومه. وفي الوقت المناسب، ولتهدئة الرأي العام المحلي عرض التلفزيون العربي السوري فيلماً عن الأسد في أحد الاجتماعات في ٢٧/ تشرين الثاني - نوفمبر، وبعد ثلاثة أيام عُرضت قصاصة فيلم آخر ظهر فيه الأسد وهو يفتتح جسراً جديداً في دمشق.

الخوف من مؤامرة أميركية

وأدت هذه اللقطات التي حاولت الإيحاء بأن كل شيء مستمر على ما يرام إلى إسدال حجاب ليس على صحة الأسد التي كانت لا تزال غير مستقرة فحسب، بل وعلى الدمدمات الأولى لصراع داخلي على السلطة[٣]. ولم يصعق أحد بمرض الأسد كما صعق أخوه رفعت، السيد الحامي للديار الذي بدا ـ بعدما أمضى في المشفى ثلاثة ليال بلا نوم ـ مرهقاً أكثر من أخيه نفسه. ومن سريره أرسل الأسد تعليماته بتشكيل لجنة من ستة أشخاص عهد إليها بتسيير القضايا اليومية، وقد شملت كلاً من خدام (وزير الخارجية) والأحمر (الأمين العام المساعد للقيادة القومية للحزب) وطلاس (وزير الدفاع) والشهابي (رئيس الأركان)، والكسم (رئيس الوزراء) ومشارقة (الأمين المساعد للقيادة القطرية). ولكن رفعت، الذي كان أقدم من بعضهم، وأقوى من أيٍ منهم، لم يكن من بين أعضاء اللجنة المذكورة التي كلف الكسم برئاستها رغم امتعاض بعض اعضائها.

ثم وقعت حادثة ما كان يمكن تصور وقوعها لو كان الأسد واقفاً على قدميه. فقد خشي أقوى قادة البلد العسكريين أن يكون الأسد على وشك الموت، وفزعوا من التغيرات المحتملة التي قد تنجم عن غيابه، فاتجهوا إلى رفعت بحثاً عن قيادة[٤]، ربما لأنهم رأوا أنه أفضل من يحمي نظاماً انتعشوا فيه طيلة عقد من الزمن أو يزيد. وباعتبار أنه شقيق الأسد، فقد كان رمزاً للاستمرارية، ثم أنه كان يقود أقوى قوة ضاربة، أي أنه كان دعامة النظام. فقد انتصر في الحرب ضد الأخوان المسلمين، أكبر خطر داخلي كانوا قد واجهوه جميعاً. وقبل كل شيء كان أبرز أقطاب الدولة، ولذلك يمكن الاعتماد عليه في ترك المناصب و«الاقطاعيات» الأخرى سليمة لأصحابها، مثل أجهزة المخابرات، والفرق المدرعة، ومشاريع الدولة، وأطقم الصواريخ، وما شاكل. وكان آخر شيء يرغب كبار الضباط في رؤ يته هو انتقال الخلافة إلى لجنة الستة من موظفي الحكومة والحزب التي عينها الأسد. فقد كانوا يرون أن أعضاء هذه

اللجنة ليسوا أكثر من موظفين تنفيذيين موهوبين، ورجال واجهة، وليسوا «الأساطين» و«الدعائم المثبتة» للنظام كما كان القادة الميدانيون وقادة المخابرات يرون أنفسهم. وعندما ذعروا من الفراغ الذي وجدوا أنفسهم مهددين في مواجهته، فإنهم أي «الجنرالات»، قلبوا ترتيبات الأسد رأساً على عقب.

وبناء على تحريضهم، قام الشهابي وخدام بزيارة رفعت في منزله في المزة ليخبروه بأن رجلاً في مثل أهميته لا يمكن إبعاده في مثل تلك اللحظات المتأزمة عن الهيئات أو المجالس الحاكمة في البلد. وقال رفعت إنه يجب أن يمتثل لرغبات الرئيس، ولكنه سرعان ما اقتنع. ثم عقد اجتماع كامل للقيادة القطرية، بحضور تسعة عشر عضواً وغياب الأسد نفسه، ووزير إعلامه أحمد اسكندر أحمد الذي كان على فراش الموت بسبب ورم في المخ. وقررت القيادة أن تجعل من نفسها بديلاً للجنة الأسد السداسية. وكانت هذه طريقة أنيقة متقنة لجلب رفعت إلى مركز الأمور.

وكان نجاح هذه المناورات مرهوناً باستمرار مرض الأسد. ولكن صحته كانت آخذة في التحسن. وعندما علم بما حدث، وهو في فترة النقاهة، شعر بالسخط الشديد. لأن أي انحراف عن الطاعة الكاملة الخالية من أي تساؤل كان يثير شكوكه. فاستدعى كبار ضباطه ووبخهم على الابتعاد عن تنفيذ رغباته الصريحة وبذلك فتحوا الباب لأخطار غير متوقعة: أوَلم يروْا أن دفع رفعت إلى المقدمة كان خطة أميركية ـ سعودية لازاحته عن الحكم؟

ولكن كيف توصل الأسد إلى هذا الاستنتاج المفاجيء المذهل؟ في تلك الأسابيع القلقة العصيبة كان الهمّ الأكبر هو الحرب من أجل لبنان. وبينما كان الأسد قيد المعالجة أهمل متابعة القضايا المحلية، ولكنه أصرّ على متابعة الأزمة اللبنانية بالهاتف ساعة بعد ساعة. وقد لاحظ أن إسحق شامير قد عاد من زيارة لواشنطن في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ ويده مليئة باتفاقيات تؤذن ـ

حسب كلمات شامير نفسه ـ «ببدء مرحلة جديدة من العلاقات الإسرائيلية ـ الأميركية». فقد تم الاتفاق على إجراء مناورات مشتركة أميركية ـ إسرائيلية، وعلى تخزين معدات أميركية في إسرائيل، وعلى رفع الحظر عن تصدير القنابل العنقودية، وزيادة المعونة العسكرية. وبدا كأنما كان ريغان وشولتز يرغبان في تعويض إسرائيل عن الاتفاق الذي أجهض. وفي الوقت نفسه أصبحت الاتهامات الأميركية لسوريا (ولا سيما على لسان كاسبر واينبرغر) أكثر صراحة في الزعم بأن سوريا قد لعبت دوراً في مذبحة جنود البحرية الأميركيين. وعندما أسقط المدفعيون السوريون طائرتين أميركيتين في ٤/ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٣ وتم أسر طيار أميركي، كان الأسد متأكداً أن الولايات المتحدة ستسعى لمعاقبته.

الأخ الأصغر

احتفظت العلاقة بين الأسد وأخيه رفعت بشيء من النمط الذي كان قائماً في طفولتهما عندما كان الأخ الأكبر ـ عبر فجوة السنوات السبع التي تفصل بين عمريهما ـ يرغم أخاه المتمرد الأصغر على احترامه. وكان في رفعت شبه بأخيه يلفت النظر، فله نفس البنية الثقيلة، ونفس التعبير الملغز الذي لا يخلو أحياناً من الدعابة، غير أن شخصيتيهما كانتا مختلفتين. فقد كان الأسد جاداً أو متروياً، أما رفعت فكان ميالاً للمتع ومندفعاً، ومع ذلك فله ذكاء لماح. وكان يضحك أكثر من أخيه بكثير وكان حسب تقاليد شيوخ العرب كريماً إلى حد الإفراط. وبينما كان الأسد الملتصق بكرسيه مشغولاً استغرقته شؤون الدولة كلياً، ولا سيما الشؤون الخارجية، انهمك رفعت في بناء وتنظيم أتباع مخلصين له في سرايا الدفاع وفي البلد. وكان يمارس سلطات مطلقة، وقد أثرى هو وأصدقاؤه الحميمون، كما كان يذهب في مهمات سرية إلى الأصدقاء والأعداء على السواء، ويشترك في مشاريع أخرى يحيط بها الظلام والضباب في عالم السياسة والتجارة في البلاد العربية.

وعلى عكس كثير من الإمَّعات في بطانة الأسد، كان رفعت يستطيع الادعاء بحق بأنه شاطر أخاه السلطة. وخلال إنشقاق الحزب في عام ١٩٦٦ كانت قوة الأمن التي يترأسها رفعت هي التي قبضت على أمين الحافظ ومحمد عمران. وفي عام ١٩٦٩ دَحَرَ مديرَ مخابراتِ صلاح جديد، عبدَ الكريم الجندي. فمهد بذلك الطريق لاستيلاء الأسد على السلطة وقد ساعد على سحق التمرد الإسلامي ما بين ١٩٨٠ و١٩٨٢، وربما أنقذ بذلك نظام حكم أخيه. كانت هذه هي مؤهلاته وأوراق اعتماده. غير أنه بعد أن انتصر على أولئك الأعداء الكثيرين شرع يملي قوانينه وتعليماته الخاصة به. وكانت له ذراع طويلة تمتد إلى مصالح في كثير من أنحاء البلد، وعبر الجبال إلى لبنان. وأصبحت سراياه جيشاً خاصاً سريع الحركة قوامه خمسة وخمسون ألف رجل. وله دروعه الخاصة به، وكذلك مدفعيته، ودفاعه الجوي، وأسطوله من المروحيات الناقلة للجنود. وبذلك كانت سرايا الدفاع ندّاً لأية وحدة سورية. وأثارت رواتب رجالها وامتيازاتهم حَسَدَ بقية الجيش. وكان رفعت يشارك صديقه وراعيه الأمير السعودي عبد الله في تذوقه لمتع الصيد، والنساء، ولعب دور الزعيم الكبير. وكانت زيارات الأمير عبد الله لدمشق مناسبات تقام فيها حفلات تستغرق الليل بطوله وتلعب فيها دور النجمة راقصة هز البطن الأميركية تامارا في أوائل عام ١٩٨٤. ولعل تأثير الأمير عبد الله جعله يفكر في سلالة العائلة، فتزوج أربع نساء، وأنجب سبعة عشر ولداً. وكان يغرس الولاء له والإعجاب به في نفوس أتباعه. أما في خارج دائرته المسحورة المبهورة به فقد كان يثير الغضب والخوف على نطاق واسع. وكان ذوقه في «تحديث» البلاد يثير أحياناً مشاعر خطيرة من الغضب والمهانة، كما حدث في عام ١٩٨٣ عندما راحت المظليات التابعات له يخلعن المناديل عن وجوه النساء ورؤوسهن في الشوارع مما أرغم الأسد على استنكار هذا التطرف والتبرؤ منه علناً.

وغالباً ما كان الأسد يستخدم رفعت. ولكن بما أنه لم يكن لديه كبير ثقة في حسن تقديره فمن غير المحتمل أن يكون قد فكر فيه كخلفٍ له. كرس الأسد

حياته للدفاع عن خط سياسي معين يتعلق بكيفية إدارة الصراع مع إسرائيل. ولم يكن ليثق بترك هذا الإرث وديعة بين يدي أخيه. وكان يكره طريقة حياة أخيه الباذخة (وكذلك كانت تكرهها زوجة الأسد، المتحفظة، والمؤثرة) ويكره نقطة الضعف فيه تجاه أميركا، حيث كان رفعت قد اشترى بيتاً بمليون دولار، وكان لا يثق بكثير من أصدقاء رفعت الأجانب، بما في ذلك صداقاته مع ياسر عرفات ومع الحسن ملك المغرب، الذي كانت اتصالاته السرية بإسرائيل قد زكمت فضائحها الأنوف.

والخلاصة أن الأسد، في اعتقاده بأنه مهدد من قبل أعدائه الغربيين، ومن قبل إسرائيل والدول العربية المعتدلة، بدأ يرى في رفعت شرخاً في درعه. فالأخ الذي كان ذات مرة مفيداً، ثم ضرورياً، ثم مصدر حرج، قد أصبح الآن خطراً.

ومن الإنصاف القول بأن من غير المحتمل أن يكون رفعت قد تطلع جدياً للحكم مكان أخيه. ومن الناحية النفسية فإنه كان يتوق بدلاً من ذلك إلى اعتراف أخيه بأهميته، وهذا شيء كان يشعر بأن الأسد قد أنكره عليه منذ أيام طفولته. وكان رفعت يرغب طبعاً في أن يعيش حياة الثراء والوفرة الباذخة بدون عقبة أو عائق، كما يليق بأحد أعضاء أسرة حاكمة. ولكنه أساساً كان يريد أن يقبله الأسد كشريك ويطلق يده في التصرف على الجبهة الداخلية.

ولكن عندما مرض الأسد في تشرين الثاني / نوفمبر، وتجمع كبار الضباط والقيادة الحزبية خلف رفعت، أساء الأخير فهم هذه الإشارة واعتبرها تعني ولاءً له والتزاماً كلياً بقيادته. وبما أنه كان ميالاً للتزعم والسيادة بطبيعته فقد بدأ يتصرف بكل التوكيد والإصرار على إثبات زعامته كوريث شرعي. فبدأ يضغط من أجل إستقالة رئيس الوزارة وتشكيل حكومة جديدة. وفجأة ظهرت في كل مكان من العاصمة صور تظهره في أوضاع قيادية آمرة وقد ارتدى زيّ المظليين.

ولكنه سرعان ما أفاق من هذاالوهم .فلم يكد الأسد يظهرعلامات الابلال

من مرضه حتى تلاشى التأييد الذي كان قد تجمع حول رفعت. فالجنرالات، الذين كانوا في توجهاتهم رهن إشارة الأسد، توقفوا عن الاعتقاد بأن رفعت قادر على حماية مصالحهم، وشرعوا يرون فيه بدلاً من ذلك تهديداً للبلد ولأنفسهم. وإذْ شكّوا في أنه كان يخطط فعلاً ليحل محل أخيه ويتسلم السلطة، فقد بدأوا يضعون في طريقه العراقيل.

وكان عليهم أن يقوموا بذلك سراً وبتحفظ لأن رفعت كان لديه جيش حقيقي. فألويته الأربعة المتفوقة المنتقاة (ثلاثة ألوية مدرعة، ولواء مؤلل) كانت كلها على بعد خمسة أميال فقط من دمشق، تسيطر على مشارفها بالدبابات والمدفعية، بينما كانت قوات الجنرالات الآخرين بعيدة عن ذلك في الخارج. فلم يكن التحدي المباشر وارداً أو ممكناً. ولعله كان هناك سبب آخر للحذر، لأن الجنرالات لم يكونوا متأكدين من مدى عمق واستمرار المرارة بين الأسد ورفعت: أكان هذا شجاراً عائلياً سوف يتلاشى، ويترك أي شخص ينحاز إلى أي من الجانبين مكشوفاً؟؟ وهل كان القائد يمتحن ولاء ضباطه؟

وكان من المؤشرات المبكرة على جدّية الأسد قيامه بتأديب واحد آخر من إخوته، وهو جميل، الذي كان معروفاً بأنه قريب من رفعت، وكان في السن يتوسط بين حافظ ورفعت. وقد أصبح السيد المطاع في اللاذقية. وكان بليغاً، وطموحاً، وذا ذهن يتركز تفكيره في السياسة. وقد تخرج محامياً ولكنه لم يمارس المحاماة. وباعتباره شقيق الرئيس، فقد انتخب عضواً في مجلس الشعب بفارق كبير في الأصوات بالمقارنة مع مرشحين آخرين. وكان من أدوات قوته جمعية الإمام علي المرتضى التي تأسست عام ١٩٨١، كتجمع سياسي خلف واجهة دينية. ورغم أنها لم تكن حركة متينة التركيب إلا أن جميلاً ربما قصد بها أن تكون منافسة لحزب البعث المحلي، ولا شك أنها قد أمدته بشبكة تحت رعايته امتدت إلى ما هو أبعد من المدينة. فكانت عشرات الباصات تنقل مؤيديه إلى اللاذقية من أماكن تصل في بعدها إلى الجزيرة، فكانت تلك

الحافلات تصطف أمام بيته الكبير وحديقته التي كان يحتفظ فيها باصطبل للخيول العربية الجميلة التي كانت أساساً هدايا من شيوخ القبائل. فكان ينحر الخراف لضيوفه ويلقي كلمات وخطباً رنانة. وفي منتصف كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ وعندما شفي الأسد من مرضه أغلقت جمعية المرتضى بأوامر من دمشق وكان ذلك مؤشراً على أن الرئيس كان حاكماً في عائلته.

إحتواء رفعت

وقعت مهمة إحتواء رفعت على عاتق الجنرالات. وكان معظمهم من عوائل علوية فلاحية، وقد وضعهم الأسد ـ وأبقاهم سنوات ـ في مواقع ذات نفوذ شخصي كبير. وكان الأسد يحب الاستمرارية وكان من عادته أن يبقي الرجل في المنصب ما دام راضياً عن أدائه. وفي قضايا الأمن والمخابرات، التي هي الجانب الخفي من النظام كان أكثر أتباعه تمتعاً بثقته هم علي دوبا مدير المخابرات العسكرية، ومحمد الخولي، مدير مخابرات القوة الجوية، وفؤاد عبسي مدير المخابرات العامة المدني الذي كان نائبه القوي المسؤول عن الأمن هو محمد ناصيف. ورغم تسميات مناصبهم فإنه لم تكن هناك حدود واضحة بين هذه الأجهزة فقد كانت ثلاثتها مسؤولة أمام الأسد مباشرة.

كان علي دوبا رجلاً طويلاً فاتح اللون من قرية قرفيص يشارك الأسد في مزاجه الدعابي الساخر، وعزوفه عن الاختلاط الاجتماعي وحبه للأدب، وتكتمه المتحفظ، ومزيج القسوة والعاطفة في طبعه.

وكان محمد الخولي أكثر حباً للمسرات من علي دوبا، وأكثر ظهوراً في المجتمع، بينما كان محمد ناصيف متكتماً أكثر من الجميع إلى درجة أنه كان يعيش في مكتبه، وكان واحداً من القليلين جداً من الناس المسموح لهم بالمبادرة إلى التحدث مع الرئيس الأسد هاتفياً في أي وقت. فبالإضافة إلى ترؤسه لما كان في واقع الأمر بوليساً سياسياً، كان واحداً من أهم مستشاري

الأسد في شؤون الشيعة سواء في لبنان أو في إيران. وكان مقرباً من موسى الصدر والقادة الثوريين الإيرانيين مثل قطب زاده، والطباطبائي. وكان غالباً ما يسافر من دمشق إلى بون وسويسرا اللتين كانتا قطبي الشبكات الإيرانية في الغرب. كان هؤلاء هم الدعائم الخفية الثلاث للنظام يقابلهم الثلاثي الذي يقف إلى جانب الرئيس في العلن والمؤلف من وزير الخارجية خدّام، ووزير الدفاع طلاس ووزير الإعلام أحمد اسكندر أحمد.

ومن بين الجنرالات الذين تحت إمرتهم وحدات هامة كان المنافس الرئيسي لرفعت هو علي حيدر، قائد القوات الخاصة، وهي تشكيل منتقى من النخبة من قوات المغاوير، تعداد رجاله يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً، وقد لعبت هذه القوات، مثل سرايا الدفاع دوراً بارزاً في إخماد التمرد الإسلامي، وقاتلت في عام ١٩٨٢ ضد إسرائيل في حرب لبنان. وكان حيدر من قرية حلة عارة، وهي من أعلى الأماكن في جبال العلويين، على مسيرة ساعتين على القدمين من الساحل. وكان مثل الأسد قد انضم إلى حزب البعث قبل أن يدخل الكلية الحربية. وكان من بين منافسي رفعت الآخرين عدنان مخلوف، وهو ابن عم زوجة الأسد، وتحت إمرته عشرة آلاف رجل من الحرس الجمهوري... كانوا مسؤولين عن الأمن حول القصر الجمهوري في حيّ المالكي السكني الذي كان يعيش فيه علية القوم. وفي مركز مدينة دمشق ككل. وكان مخلوف قد خدم في الأصل في سرايا دفاع رفعت، ولكنه بعد مشاجرة أعطي إمرة الحرس الجمهوري بناء على اقتراح من قريبه محمد مخلوف شقيق زوجة الأسد. وكان هناك منافس آخر هو ابن عم الرئيس، عدنان الأسد، الذي كان يرأس قوة أمنية أصغر، هي سرايا الصراع.

وبالإضافة إلى ذلك كان هناك أربعة من الجنرالات العسكريين النظاميين يتمتعون بثقة الأسد هم شفيق فياض وإبراهيم صافي قائدا الفرقتين المدرعتين الثالثة والأولى، وعلي صالح آمر أطقم الصواريخ، وعلي أصلان مدير العمليات

ونائب رئيس الأركان. وكان فياض رجلاً خشناً من قرية عين العروس، قرب القرداحة، بينما بنى صافي نفسه من أصول متواضعة كابن مزارع بالشراكة. أما أصلان فكان يعتبر لدى كثيرين رجلاً رصيناً وواحداً من أقدر أعضاء هيئة الضباط، وله سجل متميز في حرب عام ١٩٧٣ وما تلاها من توسع دراماتيكي كبير في القوات المسلحة. كان هؤلاء هم الجنرالات الذين تجمعوا أول الأمر حول رفعت، ثم انقلبوا ضده، والذين بدأوا في مطلع عام ١٩٨٤ يناورون لإيقافه عند حد.

وقبيل نهاية كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٨٣ شعر الأسد بأنه تحسّن بما فيه الكفاية كي يبدأ برؤية ضيوف أجانب مرة أخرى. وعندما قابله صحفيان فرنسيان من مجلة لوبوان الأسبوعية وهو لا يزال يستجم في الغوطة ذكرا في تقريرهما أنه قال: «لا أزال أشعر بالشباب ولكن جسمي وقلبي لا يسمحان لي بأن أبقى شاباً بقدر ما أحب» - وهي عبارة أمسك بها البعض وفسروها على أنها تعني أنه قد عانى من نوبة قلبية. وفي أوائل كانون الثاني/ يناير ١٩٨٤ عاد إلى دمشق، وسلّم الطيار الأميركي الملازم غودمان، إلى السناتور جيسي جاكسون، واستقبل وزير خارجية بريطانيا السير جفري هاو، وتجادل مع المبعوث الأميركي دونالد رامسفيلد في جوٍّ كانت خلفيته تدوي بأصوات قنابل الأسطول السادس. وفي أذهان هؤلاء الزوار جميعاً كان السؤال: أهذا رجل مريض حقاً؟

عند هذه النقطة من القصة، تزايدت شكوك الاسد قوة، حول وجود مؤامرة اجنبية. كان يخشى ان يستغل اعداءه صحته المعتلة، والانشقاق في النظام الذي كانت السفارات انذاك قد بدأت ترتفع تقاريرها عنه. ولقد تشككت اجهزة مخابراته في ان الملك الحسن ملك المغرب والامير السعودي عبد الله، يحاولان بمساندة واشنطن سرا، استغلال الانقسامات الداخلية في سوريا للقيام بانقلاب يأتي في توقيته مع استعراض للقوة يقوم به الاسطول الامريكي.

وصدرت الاوامر لعلي حيدر وشفيق فياض بتحريك القوات والدبابات الى العاصمة.

وفي ٢٣ شباط/فبراير، عندما طار الامير الى دمشق ليلقى ترحيبا من جماعة رفعت، يفوق الترحيب الرسمي للكسم رئيس الوزراء، امر الاسد الشهابي، رئيس الاركان، ان يقوم بتسريح العقيد سليم بركات، مدير امن رفعت، وكان الاسد يريد ان يتم خروجه في نصف ساعة. وناشد بركات رفعت أن يحميه، وتحدث رفعت مع الشهابي هاتفياً ليطلب مهلة قدرها ٤٨ ساعة ولكن الشهابي لم يستطع إلاّ أن يقول بأن أوامر الرئيس كانت واضحة تماماً. ورفض بركات التخلي عن منصبه وهنا سارع علي دوبا الى ثكنة بركات فاقتحمها بمفرده ودونما سلاح، وانقضّ على بركات وجرده من مسدسه الذي كان يلوح به، ثم صفعه على وجهه واقتاده بعيداً. وبعد بضع ساعات تمكن رفعت من الوصول إلى الأسد على الهاتف، فسأله:

- «ماذا فعلتم «بزلمتي» بركات؟» فرد الأسد باقتضاب:

- «أعتقد اننا قد أعدمناه».

- «ولماذا تفعلون ذلك؟»

- «لقد أمرت بنقله، ولكنه رفض أن يذهب».

وبعد لأي عثر رفعت على بركات في السجن، فأمّن إطلاق سراحه ودبر له وظيفة أسلم.

المواجهة

وجرت عدة محاولات لنزع فتيل الأزمة من خلال المفاوضات. وأرسل

رفعت أخاه جميلاً ليشفع له عند الأسد. ولكن جواب الرئيس الذي لم يغفر كان: «أنا أخوكم الأكبر الذي أنتم مدينون له بالطاعة. لا تنسوا أنني أنا الذي صنعتكم جميعاً» واستمر الأسد يقصر الحبل لرفعت ويضيق عليه، بينما راح الأخير، وقد شعر بفزع أجفل منه جدياً، يسعى لحماية ما تبقى له من حرية.

وفي ٢٧/ شباط ـ فبراير ١٩٨٤ بَدَتْ سوريا وكأنها على شفير حمام دموي، بينما الفريقان يواجه كل منهما الآخر، والمدافع مستعدة. وفي النقاط الاستراتيجية في العاصمة كانت قوات علي حيدر الخاصة بقبعاتها الحمراء الداكنة تواجه سرايا دفاع رفعت بقبعاتها الملونة بلون القرفة، بينما قام الحرس الذي يقوده عدنان مخلوف باستعراض للقوة في الشوارع الظليلة حول القصر. وفي الليل سُمِعَ صوت رصاص متفرق، ولكن لم يحدث صدام حاسم بالسلاح.

وكانت المفارقة أن هذا الاضطراب الخطر في الداخل قد تزامن مع اكتمال النصر في لبنان: ففي ٢٩ شباط/ فبراير وصل الرئيس أمين الجميل أخيراً إلى دمشق ليعلن قرار حكومته بإلغاء إتفاق ١٧/ أيار ـ مايو الإسرائيلي ـ اللبناني. وفي تلك الليلة نفسها، ليلة ٢٩ شباط/ فبراير ـ ١ آذار ـ مارس عقدت القيادة القطرية جلسة طارئة لايجاد مخرج من الأزمة الداخلية.

وتم التعبير عن الحل المتوصَّل إليه بتعيين ثلاثة نواب لرئيس الجمهورية بموجب مرسوم جمهوري صدر في ١١/ آذار ـ مارس/ ١٩٨٤. وعلى رأس القائمة كان خدام، عدوّ رفعت الذي ركز عليه الجنرالات، يتلوه رفعت نفسه، وقد سُمِّيَ في المرسوم بلا رتبة ولا لقب سوى «الدكتور» (وذلك إشارة إلى الدكتوراه التي منحته إياها جامعة موسكو على أطروحة عن الصراع الطبقي في سوريا ويعتقد أنها من تأليف أحمد داود، العلوي الذي يجيد اللغة الروسية). وكان النائب الثالث لرئيس الجمهورية هو زهير مشارقة، مساعد الأسد في القيادة القطرية.

وكان ترفيع رفعت إلى منصب نائب الرئيس هو في الواقع تكسير رتبة، لأن

واجباته تُركت بلا تحديد، لتعتمد على رضا الرئيس وعطفه. ونقلت إمرة سرايا الدفاع منه بموجب مرسوم جمهوري آخر إلى العقيد محمد غانم. ولم يستطع رفعت أن ينازع إزاحته من هذه الوظيفة، ولكنه جمع ضباطه وطلب منهم انتخاب قائد جديد، فاختاروا زوج ابنته، معين ناصيف. أما غانم، السيء الحظ الذي وقع بين أوامر الأسد، وأوامر رفعت المضادة، فقد تنازل.

وكان الكرملين (الذي برز فيه قسطنطين تشيرنينكو زعيماً بعد وفاة آندروبوف في ١٠/ شباط ـ فبراير ١٩٨٤) يراقب التطورات في سوريا بانتباه وفزع وبكثير من الحيرة. أكان صديقهم الأسد قد وقع في متاعب حقيقية بعد أن أجبر الأسطول الأميركي على الرحيل مباشرة؟ وفي غمرة حرصهم على استباق أي تغيير عنيف قد يغامر بتضييع المكاسب التي تم الحصول عليها بكل مشقة في لبنان، أرسل السوفيات حيدر علييف، عضو المكتب السياسي ونائب رئيس الوزراء، إلى دمشق ليتعرف مباشرة على ما كان يجري هناك. فوصل في ١٠/ آذار ـ مارس يحمل رسالة حارة من تشيرنينكو[٥]، وقابل جميع الشخصيات الرئيسية، الأسد، ورفعت، وخدام، والآخرين.

ولكن مهما كان دور الوساطة الذي قد يكون علييف لعبه، فإن التسوية المعلنة في ١١/ آذار ـ مارس لم تعمر طويلاً: إذ أن الأسد كان مصمماً على تجريد رفعت من القدرة على إغراق السفينة بينما كان رفعت بدوره مصمماً على أن لا يتصاغر إلى حد الضآلة. وهكذا استمر الضغط الذي بدأ عليه في الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٨٣ إلى آذار/ مارس عام ١٩٨٤، حيث تم نقل واعتقال العديدين من أنصاره الموالين له، بل ومات بعضهم.

وبدأ رفعت يشعر بأنه هو نفسه في خطر عندما نقلت إليه حكاية كان الأسد قد رواها في اجتماع مع ضباطه، ومؤداها أن الألمان في الحرب العالمية الثانية قد أسروا ابن ستالين، الذي كان ملازماً شاباً في الجيش الأحمر، واقترحوا مبادلته بجنرال ألماني أسير عند الروس، وهددوا بقتل ابن ستالين إن لم يوافق

على الصفقة. فأجاب ستالين بتجهم: «فليقتلوه»، ثم بكى. وكان تعليق رفعت القارص. «إن دموع أخي عزيزة علي، ولا أريده أن يذرفها بسببي». وبدت له قصة ستالين المشؤومة وكأنها مطالبة بحياته.

وفي الثلاثين من آذار - مارس لم يعد رفعت يستطيع أن يتحمل التوتر. فمع استمرار انشداد الأنشوطة على عنقه، وربما بتحريض من أتباعه المتملقين الأذلاء وأصدقائه الأجانب، أمر رفعت سرايا دفاعه بالتحرك بقوة إلى دمشق والإستيلاء على السلطة. فتحركت دباباته إلى داخل العاصمة تماماً وتفوقت مدافعها على وحدات منافسيه. واتخذت سرية دبابات ت ٧٢ مواقعها عند دوار كفر سوسة خارج مبنى قيادة المخابرات العامة على طريق المطارحيث كان باستطاعتها أن تقصف المدينة. واحتلت دروع أخرى الحدائق الكائنة بين فندق الشيراتون، وقصر الضيافة الجديد، حيث تم زرع الألغام أيضاً. وطوقت فرقة مشاة محمولة مؤللة فندق المريديان والمجمع الذي يحتوي على مكاتب القيادة القطرية. وفي مواجهة استعراض القوة هذا حشدت بسرعة دبابات شفيق فياض، وانتشرت على طول النهر في معرض دمشق الدولي قواتُ المغاوير الخاصة التابعة لعلي حيدر. وأخرج المدنيون من بيوتهم الواقعة في مناطق الاقتتال المحتملة. وبدا الأمر كأنه إيذان بحرب أهلية. وتجرأ الملحقون العسكريون الأجانب على الصعود إلى سطوح المباني بحذر ومعهم المناظير المقربة، ثم بعثوا بتقارير تقول إن إطلاق النار قد يبدأ في أية لحظة.

وراقب الدبلوماسيون هذه الدراما وهي تتوالى فصولاً، وقد حيرهم بطء الأسد الظاهر في الردّ. فقد بدا سلبياً يكاد يكون جامداً في مواجهة تحدي أخيه. فلو تضارب الجانبان في العاصمة لكان الدمار عظيماً جداً، ولتشوهت صورة النظام إلى حدّ لا يمكن إصلاحه، هذا إن بقي النظام أصلاً. وبدت كل منجزات الأسد في ثلاثة عشر عاماً من الجهود، في الميزان معرضة للخطر، وبدت معركة لبنان وقد خُسِرَتْ بعد الاقتراب الشديد من كسبها. ومع ذلك فإن الأسد لم يتحرك.

كان الأسد يراهن على قدرته في السيطرة على أخيه حتى في النزاع الأخير، وقد اختار أن لا يكشف أوراقه. ومثلما كان الحال عندما بدأ الأسد يتهيأ للهجوم المعاكس في لبنان، ربما أراد الأسد أن يستدرج أعداءه إلى أن يشعروا بالثقة في أنفسهم. لأن هذه لم تكن مشكلة تعثر بها وهو غافل. وقد أظهرت النتيجة أن قدرته على التحكم بالأحداث لم تضعف ولم تتضرر. فخلال أسابيع من مناورات القط والفأر، مَدّ لرفعت عمداً حبلاً يكفيه لشنق نفسه قبل أن يضطره إلى الخروج للتحريض على الفتنة والعصيان علناً. ولا شك في أنه قد فعل ذلك ليعطي نفسه مبرراً كافياً وافياً لإزاحة رفعت بشكل كليّ. ولم ينس الأسد أن يتخذ إجراءات وقائية عائلية. ففي اليوم الذي سبق زحف رفعت إلى دمشق، رتب الأسد عملية جلب أمه (التي كانت في الثمانينات من عمرها) بالطائرة من القرداحة لتبقى في منزل رفعت. كان يعرف أنها لا تزال تمارس تأثيراً قاهراً على طفلها الأصغر. وبالمقارنة مع لاعب في مثل ذكاء الأسد، كان رفعت ساذجاً في ميدان السياسة. وهكذا أصبح المسرح جاهزاً لِصدام الإرادات.

ومع انقسام دمشق بين معسكرين يبدوان على حافة الحرب لبس الأسد زيه العسكري الكامل، واتجه بالسيارة مع ابنه باسل فقط، بدون حرس ولا مرافقين، عبر الشوارع الفارغة الموحشة إلى مواقع أخيه المحصنة جيداً في ضاحية المزة السكنية حيث يقع منزل رفعت ومقر قيادة سرايا الدفاع. وكان رفعت قد وضع دبابات في البساتين المجاورة وعلى طول الطريق الرئيسي، ونصب مدفعية على جبل قاسيون المطلّ على المدينة. وفي الطريق لتحدي هذه القوة المركزة توقف الأسد عند دوار كفر سوسة المليء بدبابات رفعت وأمر الضابط المسؤول بالعودة إلى ثكنته.

وفي منزل رفعت في المزة وقف الأخوان آخر الأمر وجهاً لوجه فسأل الأسد: «أتريد أن تقلب النظام؟ ها أنذا. أنا النظام» ودار بينهما طيلة ساعة جدال عاصف. ولكن الأسد، في دوره كأخ أكبر، ومع وجود والدته في البيت،

لم يكن ليفشل في كسب النزاع. فاختار رفعت أن يقبل تعهد الأسد بأن مصالحه وأرصدته سوف تُحْتَرَمَ. وأذعن لأخيه كما كان يفعل غالباً منذ أيام شبابه. ونقل أصدقاء رفعت فيما بعد أنه قال إن قراره بترك القتال كان أعظم غلطة ارتكبها في حياته.

ولم يكن للصراع أي بعد آخر. وتدخل السوفيات إلى جانب الأسد، فألقوا بثقلهم خلفه. ولقد كان رفعت رجلاً شجاعاً وجريئاً، ولكنه كان أيضاً عاطفياً بعمق. فهو ببساطة لم يستطع أن يقسر نفسه على إعلان الحرب على أخ يحترمه ويعجب به ويتحرق إلى كسب رضاه، مهما كان مدى عمق غضبه منه.

وبعد المواجهة، طاف الأسد على وحدات رفعت المنتشرة في منطقة المزة، وأمرها بالإنصراف. وفي غضون يوم أو يومين بعد ذلك تنفس الناس الصعداء بارتياح عميق وهم يرون اختفاء الدبابات والرجال المسلحين من شوارع العاصمة. كانت سلطة الأسد التي لا تُنَازَع قد استعيدت بوضوح.

حل العقدة

ومع ذلك بقيت أشياء أخرى معلقة بحاجة إلى أنجاز. فبينما كانت القاعدة الرئيسية لقوة رفعت هي سرايا الدفاع كان له مراكز نفوذ أخرى في مختلف أنحاء البلد. كان على سبيل المثال شريكاً في كثير من الأعمال التجارية ومشاريع البناء وتطوير العقارات حيث كان قد وضع صنائعه كمدراء، وعمال، وحراس. وكان أيضاً متحمساً للشباب. وكان من مشاريعه المثيرة للجدل والنزاع كما ذكرنا خطط لتدريب الشبان والفتيات على الهبوط بالمظلات يكسبون منها درجات إضافية في امتحانات الشهادة الثانوية. وقد أثار ذلك سخط الطلاب الأقل ميلاً للرياضة. فالعلامات العالية كانت توسع فرص قبولهم في كليات الطب والهندسة التي كان الإقبال عليها شديداً. وقد تبنى رفعت كلمة «الفرسان» ذات الرنين الرومانسي كعنوان للمجلة التي كان يصدرها، وكاسم للأرض السكنية في المزة حيث كان يُسْكِنُ أتباعَه. وكوصف عام للشبان النشيطين لتحسين

أوضاعهم والعاملين للمصلحة العامة.

ولعل أكثر مشاريعه الثقافية طموحاً رابطة خريجي الدراسات العليا التي كان يسمح بالانتساب إليها لحملة الشهادة الجامعية الثانية فقط في بادىء الأمر، ثم توسعت فيما بعد لتقبل كل الخريجين، رغم أن الأعضاء لم يكونوا ليقبلوا فيها إلا بعد مضي بضع سنين على تخريجهم من الجامعة وبعد أن يظهروا شيئاً من النجاح في حياتهم العملية. وكانت فروع الرابطة الخمسة عشر في مختلف أنحاء البلاد، بجمعها عدة آلاف من الأعضاء، تشكل منابر يناقش فيها المحترفون من الرجال والنساء القضايا العامة خارج قيود وضوابط حزب البعث. وكانت حجة رفعت المنطقية في اجتذاب المثقفين إلى الرابطة هي حاجة سوريا، في تنافسها مع إسرائيل، إلى تحسين حياتها الفكرية. وكان متحمساً لمراكز البحوث، وأجهزة الكمبيوتر، وتعليم اللغات. وقد أقيمت بعض هذه المنشآت والتسهيلات تحت رعايته. ولكن مهما كانت روح المصلحة العامة خلف دوافعه، فإن منتقديه رأوا فيها محاولات لبناء قاعدة لقوّةٍ شخصيةٍ له.

بعد أسبوعين من المواجهة الجارحة مع الأسد، أعلن مساعدو رفعت عن تجمع كبير للرابطة ينعقد يوم ١٧/ نيسان ـ إبريل ١٩٨٤ وهو يوم إستقلال سوريا، على مدرج جامعة دمشق. ولكن عندما سعى مسؤولو العلاقات العامة لدى رفعت لتصوير هذه المناسبة بالتلفزيون، مُنعوا من استخدام المدرج. وعندما نُقِلَ المكان إلى نادي الضباط، قامت السلطات بإلغاء الاجتماع كلية. ومثل هذا الأمر لا يمكن أن يكون قد أتى إلاّ من الأسد نفسه. وبروح من التحدي أقام رفعت غداء في الشيراتون لحوالي خمسمائة من الضيوف من أعضاء الرابطة، وبعض الوزراء وكبار الموظفين، وألقى خطاباً إستغرق ساعتين هاجم فيه باندفاع متهور بعض أهم جوانب سياسة الأسد الأساسية.

وكان حافز رفعت الأساسي الأول هو الدفاع عن نفسه ضد تهمة عدم الولاء. وكان كأنه يخاطب أخاه الأكبر في القصر الجمهوري من فوق رؤوس

ضيوفه على الغداء. «إن أخي لم يعد يحبني. وعندما يراني يكشر، ولكنني لست عميلاً أميركياً. ولست عميلاً سعودياً. ولم اتآمر على بلادي. هل نسيت بأنني قبل عشر سنوات كنتُ أُسَمَّى «الضابط الأحمر»؟ [وكانت تلك إشارة لدورة «كقناة خلفية» للسوفيات في منتصف السبعينات عندما كان الأسد يتفاوض مع كيسنجر] «وعندما اتصلتُ بالأمير عبد الله ووافق السعوديون على مساعدتنا كان ذلك لأن سوريا بحاجة للمال. كنت أعمل من أجل سوريا، من أجل اقتصادها وحكومتها. فلماذا أُدْعَى الآن عميلاً سعودياً وأميركياً؟».

ولم يستطع أن يتجنب الإشارة إلى الكارثة التي كادت تقع قبل ذلك بأسبوعين عندما واجهت دباباته دبابات علي حيدر وشفيق فياض ووجهت مدافعها ضد بعضها البعض عبر ساحات وحدائق دمشق، فقال: «لو كنت أحمق لكان باستطاعتي تدمير المدينة بكاملها، ولكنني أحب هذا المكان! لقد كان رجالي هنا طيلة ثمانية عشر عاماً [إشارة إلى الدور الذي لعبته قوات أمنه في الصدام الحزبي الداخلي عام ١٩٦٦] وقد اعتاد الناس علينا، وهم يحبوننا والآن يريد هؤلاء الكوماندوس [رجال علي حيدر] أن يطردونا إلى الخارج».

وكان في دفاع رفعت شيء أكثر من الاعتذار الشخصي. فرغم أن البعض كانوا يرونه سفاحاً، فقد كان رفعت أيضاً مدافعاً عما يرقى إلى ما يمكن تسميته بالثقافة ـ المضادة. كانت الفكرة التي يروج لها تبعث في الذهن رؤية مختلفة عن رؤية الأسد لسوريا ومكانتها في العالم. وكانت رابطته تجمعاً مضاداً للحزب تتنافس مع البعث. وكان أتباعه نخبة مضادة للمؤسسة القائمة أبرع وأكثر استقلالاً فكرياً من الموظفين والصنائع والبيروقراطيين الحزبيين التابعين للنظام.

وكان غداء الشيراتون أهم أداء مثير لافت للنظر قام به رفعت. ولكنه كان الأخير في عدة نشاطات. وقد ظل شهوراً في اجتماعات خاصة، سرية وشبه سرية، يطور إدانته لسياسات أخيه. لماذا تصرف سوريا كل هذه الأموال في لبنان بينما هي تحتاجها للإستثمار في الداخل؟ هل من الحكمة المخاطرة

بحرب مع أميركا وأوربا واكتساب سمعة الإرهاب فوق ذلك؟ ولماذا لا تتم الموافقة على انسحاب إسرائيلي وسوري من لبنان في الوقت نفسه؟ وكان من مواضيعه المفضلة الأخرى إعتماد سوريا أكثر من اللازم على الاتحاد السوفياتي وعلى ضمانات سوفياتية مشكوك فيها. صحيح أن السوفيات قد زادوا قوة سوريا بشكل كبير، ولكن متابعة موضوع التوازن مع إسرائيل لها أخطارها.. فلا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا اندمجت سوريا بشكل متكامل في الخطط الدفاعية السوفياتية، ولكن ثمن مثل هذا التحالف العسكري الكامل مع موسكو هو إلغاء كل إستقلال للسياسة. فخدام (الرجل الذي لم يكن لدى رفعت وقت للاهتمام به) كان يتفاخر باجتذاب مخلب واحد من مخالب الدب السوفياتي إلى الأرض السورية.. ولكن ماذا لو تبعته المخالب الثلاثة الأخرى؟ إن سوريا الصغيرة عندئذ سوف يُقْذَفُ بها إلى الهواء بلا حول لها ولا قوة.

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية لم يكن رفعت يخفي معارضته لدعم سوريا للمنشقين عن فتح، مثل أبي نضال وأبي موسى في حربهم ضد عرفات. فما معنى الحزازة والعداء مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية؟ ولماذا طرده من طرابلس؟ ألم يكن له حق في أن يكون هناك ما دام الإسرائيليون لا يزالون في صور؟ ولماذا كانت سوريا معادية بمثل هذا العنف لاتفاقية حسين ـ عرفات التي قد تستعيد يوماً ما جزءاً كبيراً من الضفة الغربية من حكومة إسرائيلية يؤلفها حزب العمل؟ ولماذا لا يُسْمَحُ للفلسطينيين بمتابعة هذا الطريق الذي يبدو واعداً؟

وكان تحالف سوريا مع إيران نقطة خلاف أخرى. لم يكن رفعت يحب صدام حسين، ولكنه تمرد على العلاقة الوثيقة مع مشايخ إيران الذين اعتبرهم رجعيين ومتعصبين مثل الأعداء الإسلاميين الذين قاتلتهم سوريا في الداخل. كيف يمكن للنظام أن يتبع سياسة في حماه وسياسة أخرى في طهران؟ أكان الصراع ضد الأخوان المسلمين بكامله مجرد شيء صوري. فارغ بدون التزام عقائدي؟

وكان رفعت لا يقل جذرية وتشدداً في التشكيك بتوجهات سوريا المحلية. «إننا نتحدث عن الحرية، ولكننا لسنا أحراراً إلّا في أن نأكل ونتزوج». وكان يقدم نفسه كمدافع عن الحرية الاقتصادية والسياسية فيجادل بأن من الخير للسوريين أن يرتفعوا بأنفسهم إلى مستوى الآخرين، وأن يتمتعوا بالبذخ الاستهلاكي وبترف حرية الكلام. وكان يتهم سوريا بالانحراف عن المثل والمبادىء التي من أجلها قام الأسد بحركته التصحيحية في عام ١٩٧٠. ومع مناداة رفعت بأفكار كهذه لم يكن مستغرباً أن يكون في نظر الأسد مداناً ليس بالهرطقة فحسب، بل بشيء يقرب من الخيانة.

غير أنه يجب القول إن معظم السوريين لم يكونوا يرون رفعت بهذه الصورة التي قدمها عن نفسه كداعية إنساني للحرية. بل كانوا يعتبرونه مثالاً صارخاً على الاثراء الفاحش من جراء مشاريع تجارية ومالية في سوريا نفسها وفي لبنان.

في ١٥/ أيار ـ مايو وفي تطور ظهر وكأنه غير مرتبط بالأزمة استدعى الأسد سفيره من المغرب، وكان السبب الظاهري هو استضافة الملك الحسن لمؤتمر لليهود المغاربة حضره وفد إسرائيلي كان يضم تسعة من أعضاء الكنست. ومن المؤكد أن الأسد قد أغضبته بادرة حسن النية هذه التي أبداها الحسن الثاني لإسرائيل في وقت كانت فيه القوات الإسرائيلية لا تزال محتلة لأجزاء كبيرة من لبنان. ولكنه أراد أن يشير إلى سخطه على ما كان يعتقد بأنه تدخل مغربي في شؤون سوريا. فلقد كان رفعت يعتبر الحسن واحداً من أروع العرب، ويعده صديقاً شخصياً، بينما كان الأسد يرى فيه شخصاً مشبوهاً بشدة، ولم يكن يستطيع أن يغفر بسهولة دورَ المغرب في زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧.

وكان حل عقدة حرب الأخوين مثلاً كلاسيكياً تقليدياً في فن السيد المسيطر على الحلبة، أنيقاً، وغير متعجل، وموضحاً مدى سيطرة الأسد على أتباعه الجموحين المشاكسين. ففي الثامن والعشرين من أيار/ مايو، وبمساعدة

الكرملين، أرسلت طائرة محملة بسبعين من كبار الضباط إلى موسكو لفترة تهدأ فيها النفوس، وكان من بينهم رفعت. وهكذا أبعدوا جميعاً دون أية ضمانة حول ما إذا كانوا سيعودون، ومتى، فذلك كله معتمد على إرادة «معلمهم». وبطردهم جميعاً أوضح الأسد بأكثر الطرق علانية أنه لم يكن فيهم أحد لا يمكن الاستغناء عنه. وروى الأسد فيما بعد أن بعض هؤلاء الضباط الكبار ظنوا بأنهم إذا أرسلوا للخارج فسوف ينهار النظام، «وقد قلت لهم: لا تخافوا على النظام، بل خافوا بالأحرى على أنفسكم»[٦] وفي آخر الأمر استدعوا جميعاً ـ ما عدا رفعت ـ للعودة إلى واجباتهم. وبالتخلص منه، باعتباره أغناهم جميعاً وأقواهم، وأكثرهم شعبية أثبت الأسد للبلد كلها أنه مسيطر على الآخرين. ولأسباب تتعلق بحفظ ماء الوجه وصف راديو دمشق زيارة رفعت إلى الإتحاد السوفياتي بأنها «زيارة عمل ودية». وساعد تشيرنينكو في ذلك بأن قابل رفعت في أول حزيران/ يونيو، ولكن في الخامس من ذلك الشهر كان رفعت يقيم في المنفى بجنيف.

خاتمة

مضت بعد ذلك شهور طويلة لم تظهر فيها كلمة واحدة عن رفعت في الصحافة السورية، رغم أن الحملة استمرت لاقتلاع ما تبقى من نفوذه. فسرايا دفاعه التي كانت معتزة بنفسها ذات يوم تضاءلت إلى حجم فرقة من عشرين ألف رجل: فقد سرحت أعداد كبيرة، أو نقلت إلى وحدات أخرى مثل الحرس الجمهوري الذي يقوده عدنان مخلوف، أو القوات الخاصة التي يقودها علي حيدر. وألقي القبض على عدد من ضباط رفعت الهامين، وقيل إن عدداً منهم قد أعدم بالرصاص. وأبعد بالقوة عدد من المدنيين الموالين له من المجمع السكني للفرسان. ولم يكن هناك شيء جارح لسيد أو مولى من طراز رفعت أكثر من العجز عن حماية أتباعه. وصدرت الأوامر لأعضاء حزب البعث بترك رابطة خريجي الدراسات العليا، التي بدأت تذبل بغياب راعيها ذي النشاط الحيوي وكان لرفعت ممتلكات في أيام عزه موزعة في جميع أنحاء دمشق، وكانت تسبب الإزعاج للسكان المحليين لأنها كانت محاطة بالحواجز التي تسد

الطرق. وقد أزيحت هذه بدون ضجة، وأصبح باستطاعة الناس التمتع بالسير جيئة وذهاباً في الشوارع التي كانت يوماً محرمة عليهم.

وفي الأول من آب سنة ١٩٨٤، وفي حركة لتشديد الضغط ثانيةً تم تجميد حفنة من القادة الحزبيين البارزين المقربين من رفعت. وقد سبق (في ١٩٨٠) أن كان ذلك مصير محمد حيدر نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية سابقاً، والذي جمع ثروة طائلة، وبنى لنفسه دارة في الزبداني، المنتجع الجبلي القريب من دمشق، وزوج إحدى بناته لأحد أولاد رفعت. وكان من الذين سقطوا أيضاً ناجي جميل السيء الحظ، والذي كان قد فقد منصبه كقائد للقوة الجوية في آذار/ مارس سنة ١٩٧٨ لمعارضته رفعت وكان قد تصالح معه، فخسر ثانية، وكان ذلك من المفارقات. وفي اللاذقية صودرت بعض ممتلكات جميل الأسد الذي كان مسيطراً ذات يوم. وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٨٤ كانت المقاعد الجامعية وقفاً على من حصلوا عليها بدرجاتهم الفعلية الحقيقية فقط. واضطر بعض مظليي رفعت الشبان، بعد حرمانهم من العلامات الزائدة أن يقضوا سنة إضافية في دراستهم الثانوية.

وظهرت إشارات مختصرة لحرب الأخوة في الكتب والمطبوعات وكثر الحديث عنها فمثلاً كتب البعثي القديم والجامعي السابق حافظ الجمالي قصةً خرافية ذات مغزى في جريدة الحزب. وهي تحكي أن سكان مدينة وهمية يؤمرون في لحظة أزمة أن يطفئوا جميع الأضواء، وتشعل امرأة عجوز شمعة، فيلقى القبض عليها ويحكم عليها بالإعدام. ومع ذلك تدعو في لحظة إعدامها أن يمد الله في عمر الحاكم. وتوضح ذلك بقولها: «إذا مات فقد يأتي من هو أسوأ» وبدا أن المغزى من القصة هو أن الأسد أفضل من أخيه. ومن المؤشرات الأخرى على المناقشات التي كانت تدور همساً بين الناس مسرحية للكاتب الدرامي العلوي المعروف سعد الله ونّوس عن صراع على السلطة بين ملك ووزيره، وكان عنوانها «مغامرة رأس المملوك جابر». وقد أنتجت وقدمت على المسرح حتى قبل أن تنتهي الأزمة.

أما الغموض الذي ظل يحيط علاقات الأسد بأخيه، فقد انقشع رسمياً في ١١/ أيلول - سبتمبر ١٩٨٤ عندما نشرت المجلة الإخبارية الألمانية الغربية ديرشبيغل مقابلة مع العماد طلاس، وزير دفاع الأسد، أعلن فيها أن رفعت شخص غير مرغوب فيه بشكل دائم. وهكذا أخرج الشجار أخيراً إلى العلن.

وسمح نفي رفعت للمجتمع السوري بأن يقوم بعملية تكفير، فلقد غادر مشيعاً باللعنات، وكأنه لم يكن يحمل خطايا سرايا دفاعه وطراز حياته المنغمس في الملذات فحسب، بل كذلك كل تجاوزات ثورة البعث. وكأنما كانت أخطاؤه تبرز للوعي العام فضائل الأسد. ومع ذلك فقد كان من المفارقات أن يقوم بلد مضطرب ثائر من بلدان العام الثالث بنفي كبش فدائه... إلى سويسرا الجميلة اللطيفة المحايدة.

وكما يليق بثري جليل مهيب، كان يرافق رفعت أكثر من مائة من المساعدين والحراس، وهذه حاشية باهظة التكاليف قيل بأن العقيد الليبي معمر القذافي ساعد في تمويلها لإبقاء رفعت خارج سوريا. غير أن الاحتفاظ بجيش خصوصي في فنادق سويسرا يبهظ أية محفظة، حتى ولو كانت في عمق محفظة رفعت. وعلى أية حال فقد كانت هناك مشاكل بخصوص تأشيرات الإقامة (الفيزا) تطلبت مفاوضات مطولة مع السلطات السويسرية. وبحلول شهر أيلول/ سبتمبر كان الكثيرون من رجال رفعت قد اتخذوا سبيلهم عائدين إلى سوريا بينما انتقل رفعت إلى فرنسا مع بقية طاقمه المتناقص من الحرس، والخدم، والزوجات والأطفال. ولكن دمشق لم تكن سعيدة ببقاء هذه الشخصيات الفاقعة البروز المجاهرة بالرأي طليقة هناك. وعندما نجا وزير الخارجية خدام بأعجوبة من الموت بواسطة سيارة مفخخة قال المتشككون بأن ذلك من عمل رفعت. ومما أغضب الأسد كثيراً ورود تقرير عن لقاء رفعت بعرفات في جنيف. وعندما وصلت أخبار بأن رفعت يعتزم إصدار مجلة معادية للنظام وحتى افتتاح محطة إذاعة، قررت دمشق أن الوقت قد حان لإعادته إلى البلد.

وظل رفعت محتفظاً بلقب نائب رئيس الجمهورية، كما أن الأسد نفسه لم يهاجمه علناً... وبذلك أبقى في ذهن العامة شكاً مستمراً حول الطبيعة الحقيقية لعلاقاتهما. وفي العاشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٤ صدر مرسوم جمهوري يعهد إلى رفعت بالإشراف على الأمن القومي، مما يجعله ـ نظرياً ـ الأمر المهيمن على منافسيه جميعاً. وفي السادس والعشرين من الشهر نفسه عاد إلى دمشق، فزار القصرَ الجمهوري، وركعَ وقبل يد أخيه، ولكنه لم يكن قد سومح. وكانت وظيفته الأمنية صورية. فقد مُنِعَ من تجديد الاتصال بسرايا دفاعه المقلصة الحجم، ووجد نفسه محاصراً أنّى تَوَجّه. وكان من المؤلم لرجل كان يتمتع يوماً بحرية مطلقة غير مقيدة أن يجد نفسه عرضة لمثل هذا التضييق.

ووصل الصراع الممتد المتطاول بين الأخوين إلى نهايته الرسمية في المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث الذي انعقد في دمشق من الخامس إلى العشرين من كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٨٥ والذي حضره ٧٨٠ عضواً من مختلف أنحاء البلاد. وكان رفعت حاضراً باعتباره عضواً في القيادة القطرية غير أنه كان بمثابة الواقف في قفص الاتهام، فتعرض لكثير من النقد. كان كل واحد في المؤتمر يعرف كيف نجت سوريا بأعجوبة من صراع مميت بين الأخوين.

وكانت أنظمة الحزب تقضي بأن ينتخب المؤتمر لجنة مركزية. وقد وسعت هذه اللجنة من ٧٥ عضواً إلى ٩٠. وهؤلاء الأعضاء بدورهم ينتخبون القيادة القطرية الجديدة، أعلى قمم السلطة في الحزب. ولكن القواعد المكتوبة نحيت جانباً في المؤتمر القطري الثامن. ومُنِحَ الأسدُ، بطل الساحتين الداخلية والخارجية، المنتصر في الصراع من أجل لبنان وفي أزمة الخلافة، صلاحيات خاصة وسط التأييد والتصفيق. واعترافاً ببروز قيادته بلا منازع كلفه الأعضاء بمهمة القيام بنفسه شخصياً باختيار وتسمية أعضاء اللجنة المركزية. وكانت تلك إشارة إلى الثقة بالساحر "سياسي الذي أوقف الإنزلاق في حرب أهلية. وتلطف الأسد فتكرم بحضور كل جلسة من جلسات المؤتمر، متمتعاً

بالتمجيد الكبير. وبعد ثلاثة أسابيع، في ١٠/ شباط ـ فبراير انتخب رئيساً للجمهورية لفترة ثالثة مدتها سبع سنوات، بأغلبية ٩٩,٩٧ بالمائة من الأصوات.

لقد انتصر الأسد. ولكن مؤسسات دولته كانت قد وقفت عاجزة ولم تحسن التصرف خلال الأزمة. وفي لحظة الخطر اضطر إلى النزول بنفسه إلى الشارع لتنظيفه من الدبابات. فالضوابط والقيود، والتوازن، ومجلس الشعب، والمنظمات الشعبية، وحتى الحزب نفسه بتركيبه الواسع الانتشار في البلد وفي الجيش ـ كل أولئك لم يكونوا ذوي نفع عندما راح الجنرالات الطموحون يهددون بتصفية حساباتهم بالرصاص. وفي خاتمة المطاف كانت سلطة الأسد الشخصية وحدها هي التي أبقت على تماسك البلد.. فقد كان هو العمود الوحيد الذي يرفع الخيمة. ولم تكن هذه نبوءة جيدة توحي بأي خير للمستقبل.

وفي تلك الأثناء غادر رفعت إلى أوروبا ثانية. وقد تحطمت آماله في إعادة تأهيله. ولم تنحسر أو تتناقص قسوة الأسد على أخيه. ورغم أنه كان متعلقاً برفعت ومديناً له بالكثير، فإن الدفاع عن الخط السياسي الذي كان ملتزماً به قد تغلب على العاطفة أو التعلق العائلي. وقد ظل مقتنعاً بأن رفعت، عن قصد أو بدون قصد قد تورط مع قوى أجنبية في محاولة إنقلاب ضده وضد سياساته، وهذا شيء لم يكن يستطيع أن يضرب عنه صفحاً.

وفي أيار/ مايو سنة ١٩٨٦ عندما كان رفعت قد استقر في باريس بالأبهة التي تحيط عادة بالملوك في المنفى، قام بزيارة غير معلنة لبريطانيا. وقد سبقه أربعة حراس شخصيين مسلحين يحملون جوازات سفر مغربية، فقامت السلطات البريطانية بتوقيفهم في هدوء. ثم هبطت طائرتان خاصتان تحملان رفعت وأفراد عائلته، والخدم والحشم ورجال الأمن ـ كان مجموعهم أربعين شخصاً ومع كثيرين منهم جوازات سفر مغربية أيضاً. وسمحت الحكومة البريطانية لهم، بالدخول، ولكنها أرسلت إلى الحكومة السورية عبر القنوات

الدبلوماسية تطلب توضيحاً عن مكانة ووضع الزائرين. فكان جواب الأسد السريع: «إننا نتوقع من بريطانيا أن تتصرف بالطريقة الصحيحة تجاه حملة جوازات السفر السورية السارية المفعول. أمّا ما تفعله بريطانيا بحملة جوازات السفر الأخرى فليس من شؤوننا بحال».

هوامش الفصل الرابع والعشرين

(١): مقابلة مع الرئيس الأسد في دمشق في ١٨/٣/١٩٨٨.

(٢): مقابلة مع العماد مصطفى طلاس بدمشق في ١٤/٥/١٩٨٤.

(٣) باستثناء المصادر المنصوص عليها في مكانها، فإن الرواية التالية للأحداث تقوم على أساس شهادة الذين اشتركوا في الأزمة وكذلك ذكريات مراقبين دبلوماسيين يرغبون في أن يظلوا مجهولين.

(٤) مقابلة مع محمد حيدر، النائب السابق لرئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية في دمشق (في ١٦/٤/١٩٨٤).

(٥): مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في أيار/ مايو سنة ١٩٨٤.

(٦): مقابلة مع الرئيس الأسد في ١٨/٣/١٩٨٨.

الفصل الخامس والعشرون

تكوين أمة

كان الأسد متشرباً بالعزة القومية ومغمساً بالدبلوماسية ولا يبدي اهتماماً كبيراً بالقضايا الداخلية ، وهو في ذلك كأنه «ديغول» عربي . فالوقوف في وجه اسرائيل ، والصراع مع القوى الأجنبية الأخرى ، التي هي الموضـوعات الأساسية لهذا الكتاب ، كانت هي القضايا التي كرس لها معظم ساعات عمله . وإن كان للقضايا السورية الداخلية أي شأن فهو لا يتعدى كونها قاعدة للعمل الخارجي ، لأن الجانبين كانا في ذهنه مترابطين ترابطاً وثيقاً . فلكي يكون قوياً في الخارج عليه أن يكون قوياً في الداخل . غير أن القوة في الجبهة الداخلية قد تعني ـ وكانت تعني فعلاً ـ أشياء مختلفة . فعلى أحد المستويات كان الأسد يشعر بأنه يجب أن يظل بلا منازع فلا يتحداه أحد على الإطلاق : وأن أي كمية من الديمقراطية الفعلية قد تصبح مصدر إرباك . وعلى صعيد آخر كان يدرك أن سياسته الخارجية تتطلب أسساً تحتية من القوة الحقيقية لا تقتصر على الجانب العسكري فحسب ، بل تشمل أيضاً قوة اجتماعية واقتصادية ، وأن ذلك لا تحققه إلا جهود مجتمع طموح مليء بالحيوية . وطوال فترة حكمه ظل يتصارع مع مشكلة التوفيق بين الطاعة والحيوية الديناميكيين .

ورغم أن التركيز قد انصب على القضايا الخارجية ، فإن الأسد ، في ربع قرن من الحكم البعثي قد استطاع إحداث تغيير جذري في الحياة السورية .

فسوريا المتخلفة الفقيرة المعوزة المستَغَلّة التي عرفها في شبابه أصبحت وديعة في ذمة الماضي وبرز مكانها مجتمع يتجه إلى التحديث بسرعة ، غني وناجح بشكل معقول ، ومجهز جيداً بشكل يجعل أداءه أفضل من أداء معظم البلدان النامية في العالم الثالث . ولقد بقيت هناك مشاكل خطيرة ، ولكن البيئة الطبيعية قد تغيرت حتى لم يعد من الممكن تمييزها ، فظهرت فيها الجسور والسدود والطرق وسكك الحديد وازدهار في الاعمار والانشاءات لم يسبق له مثيل ، واتسعت أسباب المعيشة وتحسنت نوعيتها للغالبية العظمى من السوريين ولا سيما فلاحي الريف الذين كانوا في السابق مهمَلين .

وكانت بدايات الثورة الاجتماعية والسياسية تسبق الأسد ، بل وتسبق حتى البعث . ففي أواخر الأربعينات وخلال الخمسينات تعرض نظام الوجهاء القديم للهجوم ، أولاً على يد الانقلابيين العسكريين ، ثم على يد عبد الناصر الذي حكم سوريا أكثر من ثلاثة أعوام منذ ١٩٥٨ فأدخل إليها الإصلاح الزراعي ، والتخطيط المركزي ، ـ وسيطرة البوليس . كانت تلك هي الفترة التي انغرست فيها فكرة ممارسة الدولة للسلطة على كل جوانب حياة مواطنيها . غير أن فترة الستينات هي التي شهدت إعادة تركيب العلاقات السياسية والاجتماعية بشكل عميق . فبعد استيلاء البعث على السلطة حطم قوة ونفوذ النخبة من أبناء المدن ، ورفع رجالاً من أصول وخلفيات ريفية ، وجعل الدولة أهم وأبرز أرباب العمل ، وعلى الرغم من كارثة حرب ١٩٦٧ فقد بدأت الدولة بمشاريع كبرى بمساعدة الاتحاد السوفياتي فكان سد الفرات أضخم صروحها . كانت تلك هي السنوات التي بدأت تتكون فيها كوادر حزبية طموحة . وهي سنوات شرع الأسد يعلي البناء على الأسس التي أرستها .

غير أن اضطرابات الخمسينات والستينات أدت كذلك إلى انقسامات عميقة . واعتباراً من عام ١٩٧٠ كانت مهمة الأسد هي توحيد الأمة ، ومصالحة الطبقات المتحاربة ، وإزالة مذلة عام ١٩٦٧ بحرب تشرين الأول ـ اكتوبر سنة

١٩٧٣ . ثم إن فيض الأموال التي بدأت تصل إلى سوريا بعد انفجار أسعار النفط أتاح له فرصة جعل السبعينات عقد تكوّن وتراكم رأس المال، والاستثمارات الكثيفة في الزراعة ، والصناعة ، والبُنَى التحتية ، والصحة ، والتعليم . وحدثت أخطاء ، ولكن الكثير قد تم إنجازه . وفي الثمانينات ، بعد الانتصارات التي تمت بصعوبة وقتال ضار على الأخوان المسلمين في الداخل وعلى اسرائيل في لبنان ، كسبت سوريا وزناً عربياً ودولياً ، وهي مكانة عبرت عن نفسها في تلاحم اجتماعي أكبر برغم التضخم وغيره من الأمراض ، وفي الثقة ، بل الغطرسة ، التي أبدتها نخبة حاكمة جديدة . كانت سوريا بعيدة عن المجتمع الاشتراكي الذي كان يريده متمذهبو البعث المثاليون ، ولكن هذا المجتمع كان قوياً متيناً، وكان يبدو مشروعاً ناجحاً مزدهراً فيما لو لم يتعرض لحرب أو لنوع آخر من الاضطراب الهائل.

نموّ دمشق

ولقد ترك تاريخ هذه العقود المعذَّبة بصماته على دمشق وكانت المفارقة أن احتلال الريف للعاصمة (الذي ربما كان أول انجاز لثورة البعث) قد نجم عنه انفجار لم يسبق له مثيل من الاعتزاز بالمدن . وفي الكفاح من أجل المصالحة ، أغدق الأسد الأموال على المدينة ، وقدم الاحترام للزعماء الاجتماعيين والدينيين ، وأقام جسوراً بين القادمين الجدد من الريف وبين البرجوازية التجارية . وفي إشارة ودية للسكان المسلمين السّنّة أدى العمرة في مكة عام ١٩٧٤ ، وبعد عقد من الزمن ، في عام ١٩٨٣ ، خصص جائزة لمرتلي القرآن .

في عام ١٩٤٥ ، عندما كان الأسد طالباً في المدرسة ، كانت دمشق بلدة يقطنها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة . وعندما تسلم السلطة في عام ١٩٧٠ كان عدد سكانها قد تجاوز الثمانمائة ألف[١] . ولكن خلال أقل من عشرين سنة بعد ذلك ، في أواخر الثمانينات ، كان السكان قد انفجروا إلى أربعة أضعاف ذلك

الرقم فاصبحوا يزيدون بكثير على ثلاث ملايين . وذلك انعكاس للحروب ، والثورة الاجتماعية ، ومعدل ولادات قدره ٣,٨ بالمائة ، وهو واحد من أعلى المعدلات في العالم .

لقد تدفق اللاجئون على دمشق بعد سقوط الجولان في عام ١٩٦٧ ، وعندما انفجرت الحرب الأهلية في لبنان سنة ١٩٧٥ وعندما غزته اسرائيل في عام ١٩٨٢ ، وبالطبع عند كل كارثة جديدة في الملحمة الفلسطينية الهائلة : ١٩٤٨ و١٩٦٧ و١٩٧٠ و١٩٨٢ . وبحلول الثمانينات كان هناك حوالى ربع مليون فلسطيني قد لجأوا إلى سوريا ، معظمهم في دمشق ، وظل حوالى ربعهم يقطن في مخيمات ، بينما اندمج الباقون في الحياة السورية[٢] . وباعتبارها قريبة من خط الجبهة ، معرضة لخطر الحرب باستمرار ، كان على دمشق أن تجد متسعاً لعوائل الحاميات العسكرية الكبيرة في ضواحيها . وكانت جامعتها تحوي ٧٥,٠٠٠ طالب في عام ١٩٧٢ حتى خف الضغط عنها عند توسيع جامعة حلب وإنشاء جامعتين أخريين في حمص واللاذقية . وباعتبار دمشق عاصمة دولة مركزية ، ومقر سلطة الحزب ، ومقر كثير من الصناعات ومشاريع الدولة ، فقد كانت نقطة جذب للناس من جميع أنحاء البلاد .

ولكن أكبر عامل في نمو المدينة كان زحف الفقراء إليها من الريف في سيل لا ينقطع . ولإيوائهم انفجرت المدينة خارج حدود الخطة التي رسمها مهندس تخطيط المدن الفرنسي إيكوشار في عام ١٩٦٨ . فراحت تلتهم بساتين الغوطة النفيسة ، وابتلعت كذلك القرى المجاورة بالجملة ، وشكلت ضغطاً رهيباً على عين الفيجة ، الينبوع الذي ظل يروي دمشق أجيالاً ، ثم شرعت تتلوى في شريط من العمارات المتورمة القائمة على المضاربات على طول الطرق الموصلة حتى التصقت تماماً بالحد الطبيعي لجبل قاسيون في الشمال الغربي ، وتلال المزة إلى الغرب ، وما تبقى من منتجع الغوطة في الشرق . أما في الجنوب ، على طول الطريق إلى القنيطرة الذي كان يمر خلال الصحراء

والشجيرات المنخفضة ، فقد راح الناس يحفرون آباراً ويزرعون قطعاً من الأرض بالخضروات ويقيمون بيوتاً صغيرة . واستمر تدفق الفلاحين على دمشق مع ذلك ، وعندما لم يستطيعوا العثور على مأوى سكنوا في أكواخ غير مرخصة عند مداخل المدينة وعلى المنحدرات الأعلى فوق قاسيون . وكانت هذه ثماني مناطق تدهورت في منتصف الثمانينات حتى صارت أحياء فقيرة قذرة مكتظة بما يقرب من مليون نسمة . وبعد محاولة فاشلة لوقف الزحف الكثيف ، اعترفت السلطات بأولئك السكان غير النظاميين كسكان دائميين وبدأت اعتباراً من عام ١٩٨٢ تجهزهم بالشوارع والمدارس ، والعيادات ، والكهرباء ، وصنابير المياه ذات العدادات .

ولحفظ دمشق من المزيد من النمو غير المخطط ، أقيمت ضواحٍ سكنية في عام ١٩٨٠ ، كمدينة جبل قاسيون ، لإيواء ٩,٠٠٠ نسمة على موقع مساحته ٢,٦٠٠ هكتار ، أو سلسلة قرى الأسد لإيواء ٦٠.٠٠٠ نسمة في شمال العاصمة . وامتدت طرق وسكك حديد عوّدت السوريين على التنقل بين العاصمة والضواحي للعمل والعودة إلى مساكنهم .

ومع ذلك ظلت دمشق برغم هذا التوسع تعطي الانطباع بأنها مدينة منظمة التخطيط ومسيطر عليها ونجت من الانتشار الفوضوي الذي تصاب به كثير من عواصم العالم الثالث . فالمخيمات البائسة في الأحياء الفقيرة المحيطة بالعاصمة حيث كان الوضع أسوأ من غيره ، لم تصل حالتها إلى بؤس مدن الأكواخ الطينية والقصديرية الافريقية أو الأميركية اللاتينية . ففي معظم أحياء المدينة السبعة والستين ، كانت الحياة منظمة بشكل معقول ، والشوارع نظيفة ومزودة بالمياه ، والقمامة يتم جمعها والمرور ينتظم بلا ازدحام كبير ، والخدمات العامة تعمل بطريقة مرضية إلى حد لا بأس به .

في السبعينات والثمانينات نهضت عاصمة حديثة فيها جسور وأنفاق وساحات كبرى تربط أحياء سكنية واسعة ووحدات من الشقق والعمارات ،

وتجمعات لمبانٍ جامعية ومستشفيات ومعاهد بحوث ، كما ارتفعت بنايات فنادق دولية مثل الشيراتون والشام بالاس الذي أقامه عثمان العائدي ، أبرز بناة الفنادق في البلد ، مع حديقتين عامتين شاسعتين في شرق دمشق وغربها ، وصروح فارهة أخرى كقصر الضيافة الجديد الذي يستطيع إيواء أربعة رؤساء دول مع جميع مرافقيهم دفعة واحدة ، والقصر الجمهوري الضخم الجديد المطل على المدينة ومكتبة الأسد ، ومشروع مجمع دار الأوبرا المسرحي . وعلى طريق المطار يتم إنشاء مركز للمؤتمرات على موقع مساحته عدة مئات من الدونمات ، وكذلك معرض دمشق الدولي الجديد ، ومدينة السينما والكلية العسكرية للبنات ـ وهذه كلها ترمز بطرق مختلفة إلى الطموحات المتعاظمة للبلد ورئيسه ، فلقد كان الأسد يتطلع إلى جعل سوريا القوة العربية المسيطرة في المشرق، وبطلة الصراع مع اسرائيل . . وأمة معادلة في أهميتها لمصر والعراق ، وأراد عاصمة تليق بذلك .

تحديث الريف

كانت الحياة السياسية والاقتصادية السورية تتمحور تقليدياً على خط يمتد من الجنوب إلى الشمال ، من دمشق عبر حمص وحماه إلى حلب . وحتى الخمسينات كانت هذه هي المراكز الوحيدة التي تتمتع بالأهمية . وأدت سنوات حكم الأسد إلى رسم خط أفقي عبر هذا النمط العامودي . فأنشيء محورٌ شرقي ـ غربي من الطرق وسكك الحديد والروابط الجوية والهاتفية التي تربط بين مصادر النفط والثروة الزراعية في الشرق والشمال الشرقي وبين مراكز التصدير في الغرب ، فتواجدت على الخريطة الاقتصادية والسكانية مدن سريعة النمو على الفرات وفيما وراءه كالحسكة ، والقامشلي ، والرقة والطبقة ودير الزور ، وكذلك على الأبيض المتوسط كاللاذقية وطرطوس وبانياس وجبلة . وظهر اتجاه متعمد لجعل التنمية لا مركزية لتوزيع ونشر الفائدة ، وربما لتجنب خلق اقتصاد فقري قد تشلّه ضربة واحدة[٣] .

وكان سد الفرات ، بخزانه في بحيرة الأسد في الطبقة ومحطة توليد الطاقة وشبكة الري ، أوسع المشاريع في عهد الأسد وأكثرها طموحاً وأكبرها مشاكل . فقد بدأ العمل به في عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩ وانتهى في أقل من عشر سنوات ، وكان مشروعاً يُنْظَرُ إليه كمنطلق للازدهار . فقد أوصل الكهرباء إلى أقاصي القرى النائية ، وكان ذلك في رأي لنين هو مفتاح تطوير الأمور في الريف ، غير أن آمال إحياء ٦٤٠,٠٠٠ هكتار من الأرض وجعلها خصبة بواسطة مياه البحيرة قد خابت ، أو ـ في أفضل الأحوال ـ تأجلت . وتعلم السوريون عن طريق المعاناة الصعبة أن بناء المستقبل يعني في جملة ما يعنيه هدم الماضي . فقد أغرقت بحيرة الأسد حوال ثلاثمائة قرية ، وشردت منها ٧٢,٠٠٠ نسمة ، ودمرت ٢٥٠٠٠ هكتار من الأرض الصالحة للزراعة .

وكانت هناك خيبة أمل أكبر من ذلك ، في اكتشاف خسارة ٦٠,٠٠٠ هكتار بسبب آفة الملوحة التي كانت تنتشر بمعدل عشرة هكتارات في اليوم. فعندما قام التجار بادىء الأمر بفتح حوض الفرات والجزيرة لزراعة الأقطان في الأربعينات والخمسينات كان الماء يضخ من النهر بدون طرق ري وبزل وتصريف مناسبة . فارتفع مستوى الماء ، وأدى التبخر في فصول الصيف الحارة الجافة إلى ظهور الأملاح على السطح . ومع فساد الأرض كان الفلاحون يتحركون بعيداً عنها ويتركونها ، ويستعملون مزيداً من المياه على أمل الحصول على ناتج أوفر ، وبذلك ازداد الوضع سوءاً . وقد تم صرف كثير من الوقت والمال بحثاً عن حل . ثم بُديء أخيراً بحفر الآبار في الثمانينات ، وربطها بقنوات تصريف عميقة لتخفيض مستوى المياه ، بينما أقيمت قنوات لجلب الماء وإجرائه على الأرض لغسلها . وكان من بين المكتشفات غير السارّة أن التربة غنية بمادة الجِبْس ، مما جعل قنوات الماء تنهار . وهكذا شكلت هاتان المعضلتان تحدياً ضخماً لبلدٍ نامٍ في قطاع حساس الأهمية في اقتصاده . ولعله كان من الأفضل لسوريا لو أنها بدأت بريّ أجود أنواع الأراضي بدلاً من أسوئها ، لأن ما كان ينقصها هو الماء ، لا الأرض . وقد استوعبت الخطة الخمسية السادسة (١٩٨٦ ـ

١٩٩٠) هذا الدرس ، فحولت مياه الفرات غرباً نحو السهول الخصبة في شمال حلب وجنوبها . ولكن بينما بديء بتصحيح الأخطاء ، اضطرت سوريا إلى تأجيل الأمل بمضاعفة أرضها الزراعية جيلاً آخر ، وكانت تلك خيبة أمل مريرة للأسد.

وكان من النتائج العرضية للمشروع المدينتان التوأمان الطبقة، والثورة اللتان نمتا من العدم على ضفاف بحيرة الأسد في عام ١٩٦٨ فأصبح يعيش فيهما ١٠٠,٠٠٠ نسمة وكانت هذه المستوطنات الحدودية قد صممت من قبل المخططين السوفيات لايواء عمال السدّ ، غير أنها أصبحت تستعمل كمهاجع لمبيت العمال المهرة الذين تنقلهم الباصات إلى مشاريع أخرى كسد البعث الذي أقيم على مجرى الفرات على بعد ٢٥ كيلومتراً جنوبي الطبقة لانتاج المزيد من الكهرباء ولتنظيم مجرى النهر . وكانت عاصمة المحافظة التي جرى فيها ذلك كله هي الرقة ، التي تبعد حوالى خمسين كيلومتراً شرقيّ السد ، وقد أصبحت واجهة استعراض لمنجزات ثورة البعث . ففي الماضي كانت الرقة منتجعاً صيفياً للخليفة العباسي هرون الرشيد . ولكن تاريخها الحديث لم يكن فيه شيء متميز ، وفي عام ١٩٦٠ لم تكن تزيد على كونها بلدة شعثاء متواضعة يقطنها ١٣,٠٠٠ نسمة . وأدى بناء السد إلى جعلها تنمو بقفزات متسارعة حتى أصبحت تؤوي ١٥٠,٠٠٠ في الثمانينات وصارت أكثر تنوعاً في تركيبها وأكثر تحرراً في طبيعة مزاجها من أي مكان آخر في سوريا .

وكان يقود هذه المحافظة النامية ذات الموقع الحدودي الجديد من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٧ المحافظ محمد سلمان (عين وزيراً لاعلام سوريا في تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٨٧) الذي كسب سمعة كبانٍ للطرق والمدارس والعيادات وخطوط القوة الكهربائية وأنابيب المياه ليس في المدينة نفسها فقط ، بل في طول المحافظة وعرضها ، وهي تعادل مساحة بلجيكا . ولم يكن عدد سكانها في منتصف الثمانينات يزيد على ٤٠٠,٠٠٠ من الفلاحين والبدو

والناس «المغمورين» من منطقة البحيرة والمهاجرين بحثاً عن العمل من جميع أنحاء القطر ، غير أن المكان يتسع ، حسبما يرى المحافظ ، لخمسة ملايين نسمة . ولقد ترك محمد سلمان بصماته وآثاره على الرقة في المباني اللافتة للأنظار بروعتها في الأماكن النائية البعيدة عن الحضر ، ولا سيما المركز الثقافي المبني من الرخام ، والدار المخصصة للأطفال في العطلات التي تشبه فندقاً باذخاً ، بمسرحه القائم في الهواء الطلق وبركة السباحـة ذات المقاييس الأولمبية ، وكذلك في عمليات زرع الأشجار وتنظيم الحدائق العامة .

غير أن تلك لم تكن قصة نجاح بلا غصص . فمؤرخ اضطرابات المحافظة ، الدكتور عبد السلام العجيلي ، الطبيب الريفي ، وعضو البرلمان ، وابن الرقة ، والكاتب القصصي ، والشوكة المنغـرسة في لحم السلطات الرسمية كتب قصة بعنوان **«المغمورون»** ، ونشرها عام ١٩٧٧ عن مصير اللاجئين الذين أخرجتهم من ديارهم مياه بحيرة الأسد وتلقوا وعداً بمساعدتهم على الاستقرار في مكان قريب ، فوجدوا أنفسهم منقولين إلى أقاصي الشمال الشرقي . ذلك أن الحكومة ، في رغبتها لتخفيف البؤس عن الريف ، خلقت ظلماً آخر . وللعجيلي قصة ثانية بعنوان **«النهر سلطان»** ، تتحدث عن والد يفقد ولده الوحيد في نهر الفرات المتقلب الطباع ، ثم يشعر بأنه قد أخذ بثأره عندما تم ترويض النهر الطاغي (وقد جاءت تلك اللحظة التاريخية في ٥/ تموز ـ يوليو سنة ١٩٧٣ ، بحضور الأسد ، عندما تحول مجرى النهر إلى محطة توليد الطاقة) ولكن قصة العجيلي تجعل بطله يتعرض لمحن جديدة بعد تدفق حشود من الرسميين على الموقع في أعقاب المشروع[٤] .

ولقد جاء الاصلاح الزراعي في الستينات ، وبناء السدود في السبعينات بسنوات من الفوضى لسوريا قبل أن تتحسن انتاجيتها الزراعية . فلقد تحسنت أحوال الفلاحين بلا شك في سهول حمص وحماه البعلية المروية بمياه الأمطار ، بالتخلص من ملاكي الأرض «الاقطاعيين» ـ وكانت أوضاع الفلاحين

جيدة على الأقل في سنوات هطول المطر بشكل طبيعي . أما في الأراضي المروية في حوض الفرات فإن الصورة كانت مختلفة وأكثر اختلاطاً وتنوعاً . لأن صغار المالكين الجدد وجدوا أنه تنقصهم أدوات ووسائل الإنتاج ، ولا سيما مضخات المياه ، فاضطروا في بحثهم عن العون المالي إلى اللجوء إلى تجار المدينة ، أو الفلاحين الأغنى ، أي إلى الناس الذين كان البعث يأمل بأن يحذفهم من عملية الانتاج(٥) . ثم إن الرعاة لم يعجبهم أن يتحولوا إلى مزارعين ، والمزارعين لم يعجبهم أن يتحولوا إلى موظفي دولة . وكانت تعاونيات الدولة غير فعالة . وكان الدَّيْن الزراعي عبئاً . ولعل مساحة الأرض الزراعية التي سمح قانون الاصلاح الزراعي لكل شخص بملكيتها كانت أصغر من أن تطبق فيها الزراعة العلمية . وحتى أواخر الثمانينات كانت شبكة العلاقات المتداخلة كلها بين الدولة والمنتج والسوق والوسطاء المختلفين لا تزال تعالج في محاولات مضنية لتنظيمها .

ومع ذلك فإن الطرق ، والكهرباء ، وأنابيب المياه ، والمدارس ، ومراكز الرعاية الصحية قد حولت الحياة القروية ، فأقيمت عشرات السدود الصغيرة وخططت عشرات غيرها لالتقاط كل قطرة من ماء المطر . وأنشئت مواقع لصوامع الحبوب ومخازن للأغذية المعلبة في كل محافظة ، وأما المزارع بالمشاركة ، الجاهل والمظلوم الذي كان من المشاهد المألوفة في أيام شباب الأسد ، فقد اختفى إلى حد كبير . لقد كان هذا ما جاء البعث ليحققه . وقد أدرك الأسد أن رفع مستوى الفلاح هو الشرط المسبق لبناء دولة حديثة وجيش حديث . وفي أواخر الثمانينات كان جميع سكان الريف ـ باستثناء ٢ ٪ يشاهدون التلفزيون ويستمعون إلى الراديو ، بينما كانت الثلاجات والغسالات تدخل بيوتهم بسرعة . فقبل عام ١٩٦٣ كانت المناطق الريفية عملياً خاليةً من الكهرباء ، ولم يكن هناك ثلاجات إلّا عند ٢ ٪ أو ٣٪ من السكان . وبكلمات محمد حربا ، ابن الفلاح الفقير الذي ارتفع إلى منصب وزير فان سوريا «قد

مرّت بتجربة ثورة في غضون خمسة وعشرين عاماً فقط ، استغرقت فرنسا قرناً لتحقيق مثلها»[٦] .

التصنيع

كان النجاح في الصناعة أقل ، لأن أخطاء كبيرة ارتكبت في الهجمة للتصنيع في سنوات الازدهار بعد حرب تشرين الأول ـ اكتوبر . كانت اسرائيل قد أوقعت أضراراً فادحة بالاقتصاد السوري في الحرب ، وكان هناك حافز لاعادة البناء والتحسين . إن معظم المشاريع التي أثبتت فيما بعد أنها مجلبة للصداع قد تم التعاقد عليها خلال عامي ١٩٧٤ و١٩٧٦ في عهد حكومة محمود الايوبي . وعندما سئل الأيوبي فيما بعد عن سبب سماحه بتبذير أموال على خطط غير مربحة ردّ بقوله : «لو لم نصرف الأموال على الصناعة لابتلعها الجيش» وروى محمد حيدر (الذي كان في ذلك الحين نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية) بأنه ذهب إلى العربية السعودية بعد حرب سنة ١٩٧٣ ، وأن الملك فيصل سأله عما تحتاجه سوريا وقال له : «أعطني قائمة بمشاريعكم مع بعض الأرقام» . وكان حيدر قد جاء بلا تحضير ، فقضى الليل كله يشتغل على الآلة الحاسبة التي في جيبه لانتاج شيء يشبه الوثيقة ، وبمثل هذه الطرق العشوائية المرتجلة كانت تؤلف برامج سوريا الصناعية .

فغالباً ما كانت المصانع تقام لأنها تعطي فرصاً للوسطاء المتنفذين لكسب «قومسيونات» من الموردّين الأجانب ، بينما كان الوسطاء بدورهم يُغَذّون عشيرة من السماسرة الأصغر منهم لإغناء أنفسهم في مختلف مراحل مشاريع القطاع العام . كان الأسد يريد تحرير الاقتصاد بشيء من الانفتاح ، ولكن ذلك صار يعني خلق مليونيريين على الفور وعلى حساب الشعب . ولو كانت تلك المصانع مجدية ومربحة لما كان لمثل هذا الفساد أهمية حرجة وحساسة . ومن بين أشهر الأمثلة سيئة السمعة مصنع الورق الذي كلف ١١٠ ملايين دولار في دير الزور والذي وُقع عقد إنشائه مع مجموعة من الشركات النمسوية ـ الايطالية

في عام ١٩٧٦ . وصار تاريخه في الأعوام العشرة التالية سلسلة من الأخطاء . فقد فشل تشغيله بقش القمح السوري ، وعلى أية حال لم يكن هناك قش كاف لتوريده إلى المعمل . ولم يكن مرجله الكبير مصمماً لاستعمال النفط السوري الثقيل . وتوقف العمل خمسة أشهر بسبب خراب العَنَفَة . وترك الخبراء الأجانب العمل مضربين ، وأقيمت دعوى قضائية في محكمة دولية ضد المتعاقدين ، وترك القش كمادة أولية ليحل محله الخشب ونسالة القطن ، مما استدعى إجراء تعديلات على المكائن بكلفة باهظة . واتضح في آخر الأمر أن الاستمرار فى استيراد الورق كان أرخص من إقامة المعمل(٧) .

وكان من المصائب الصناعية الأخرى مصنع الآمونيا ـ يوريا في حمص الذي أقامته شركة كروز و ـ لوار الفرنسية واقترح تشغيله بالنفطة . ولكن بعد سلسلة من الاخفاقات ، حُوِّل المصنع عام ١٩٨٨ ليعمل على الغاز بكلفة لا يستهان بها إذ اقتضى إنشاء خط لأنابيب الغاز كلفته ١٠٠ مليون دولار تم التعاقد عليه مع بلغاريا وتشيكو ـ سلوفاكيا . ووضعت كذلك خطط طموحة أكثر من اللازم لتكرير السكر عام ١٩٧٥ عندما تقرر إنشاء أربعة معامل تستهلك فيما بينها ١,٧ مليون طن من الشمندر ، وهذا بدوره كان يعني تحويل ٥٠,٠٠٠ هكتار من الأرض المنتجة لهذا المحصول . وتشجع الفلاحون بحوافز من الحكومة فتركوا زراعة القطن والحنطة ، ولكن عندما انهارت أسعار السكر العالمية في الثمانينات اضطرت الحكومة إلى تقليص الإمكانية الجديدة إلى حد كبير . أما مصنع الاسمنت العملاق ، الذي يعتبر واحداً من أكبر المصانع في الشرق الأوسط والذي أقامته جمهورية ألمانيا الديمقراطية بالقرب من طرطوس فقد اتضح أنه ليس كارثة اقتصادية بل بيئية . فقد تلوث بالغبار والدخان امتدادٌ نفيسٌ من خط الساحل المطل على الأبيض المتوسط بالاضافة إلى تدمير وقطع آلاف من أشجار الزيتون الممتاز . وكانت هناك قصص كئيبة أخرى ، وبمرور الوقت اتضح أن عدة استثمارات كبرى قد تمت في مشاريع أسيء تقييمها ، وأن المعامل كانت إداراتها سيئة وأن كثيراً من أموال فترة الازدهار قد أهدرت

وعلى عكس هذا السجل ، كانت هناك حالات نجاحٍ متميزة . فالنفط الكبريتي الثقيل الذي كان يستخرج من الحقول في الشمال الشرقي منذ أوائل السبعينات قد دعمته وأكملته في الثمانينات سلسلة من الاكتشافات لنفوط خام خفيفة من نوعية جيدة على طول ضفاف الفرات من دير الزور إلى البوكمال على الحدود العراقية . ولأول مرة يلوح لسوريا احتمال الحصول على مصدر مادي كبير للتمويل المستقل . كما عُثِرَ على الغاز بكميات كبيرة في منطقة تدمر في بادية الشام ، وارتفع إنتاج الفوسفات إلى أكثر من مليوني طن في عام ١٩٨٧ مع وجود إمكانية كامنة لانتاج خمسة ملايين طن سنوياً .

وكان من أدوات التغيير والتحويل الهامة في القطر شركات الانشاءات التابعة للدولة التي كان يوجد منها ما لا يقل عن ثلاث عشرة شركة في منتصف الثمانينات . ومن بينها مؤسسة الاسكان العسكرية التي هي أكبرها على الاطلاق ، وهي مثال على المشاريع الحرة التي لا يضاهيها إلا قليل من النظم الاقتصادية التي تسيطر عليها الدولة . وقد خلقها عقيد قصير قوي البنية ممتلىء الجسم متوقد النشاط علوي اسمه خليل بهلول ، من أصل فلاحي ، مولود في عام ١٩٣٥ ، وقد لفت نظر الأسد لأول مرة بكفاءته في بناء ملاجىء للطائرات ومدارج للمطارات بعد الدمار الذي خلفته حرب عام ١٩٦٧ . ثم انتقل إلى بناء وحدات سكنية للجيش ، واجتذب المهندسين الشباب بعد تخرجهم من كلياتهم مباشرة ، ودربهم على السرعة في إنجاز الأعمال ، متخطياً الضوابط والقيود ومحققاً نتائج . وفي عام ١٩٧٥ تم سنّ التشريع الذي تقام بموجبه شركات البناء والانشاءات ، مما أطلق خليل بهلول في حياته العملية المثيرة . وخلال عقد من الزمن صارت مؤسسة الاسكان العسكرية أكبر مؤسسة في البلاد ، بل مجموعة من ست وستين شركة ، تستخدم أكثر من نصف العاملين في صناعة الانشاء والبناء ، والبالغ عددهم مائة وخمسين ألفاً ، وأصبحت مسؤولة عن عدد من أفضل المباني في القطر : المطار الدولي الجديد ، ومكتبة الأسد ، وقاعة الولائم الرسمية في القصر الجمهوري المزخرفة بشكل مفصل ومعقد على الطراز

الشرقي ، وفندق مريديان حلب ، والمدينة الرياضية التي استعملت لدورة ألعاب البحر المتوسط في اللاذقية عام ١٩٨٧ ، وعدة مدارس وكليات جامعية ، والـ ٥٠٠٠ بيت في ضواحي الأسد ولكل منها قطعة أرض كالحديقة فيها شجرتا زيتون وكرمة ، وتلك لمسة «بهلولية» نموذجية . وهناك نماذج من أعماله في جميع أنحاء سوريا .

فقد أدخل أساليب إدارة ومحاسبة العمل الحرّ الخاصّ إلى القطاع العام ، وحرر نفسه من الاعتماد على الآخرين بأن راح يصنّع أو يركب أو يدبّر كل المواد التي يحتاجها : من اسمنت ومطاط ورخام وحجر وفسيفساء ، وخشب وإطارات الشبابيك المصنوعة من الألومنيوم والأثاث والفرش والتنجيد . وأدخل التقنية الحديثة ، وشجع المهندسين والحرفيين والمدراء على أن يكونوا مرنين ومبتكرين ، وبذلك أسهم بهلول بالقدر الذي يستطيعه أي شخص لتحريك البلد . وفي منتصف الثمانينات امتدت فروع نشاطه إلى الزراعة وتربية الخراف على نطاق واسع ، وإلى توليد الخيول . حتى لقد قيل عن إمبراطورية مؤسسة الإسكان أنه لم يكن ينقصها سوى علم ونشيد وطني . ولكن نجاح بهلول واحتقاره القوي للقيود والضوابط الحكومية قد أكسبه أعداء . وكان يطرح سؤالاً ساخراً : «ما هي سمكة السردين؟» ثم يجيب : «إنها حوت طبق كل التعليمات حرفياً»(٨) . وأخيراً أدت اصطداماته مع رئيس الوزراء الكسم إلى إسقاطه.

لقد لعب بهلول دوراً في إحياء حلب في الثمانينات حيث يقع كثير من معامله الصناعية . فحلب التي كانت مدينة تجارية عظيمة واقعة على مفترق طرق القوافل ، وكانت أكبر وأغنى من دمشق ، كانت تعاني من اضمحلال نسبي منذ الحرب العالمية الأولى عندما فصلت عن منفذها البحري في الاسكندرونة وعن أراضيها وامتداداتها الداخلية فيما يعرف اليوم بالعراق وتركيا . كما أن الشجار بين العراق وسوريا خلال الستينات والسبعينات وتكرر إغلاق الحدود كثيراً كان كله على حساب حلب. وعلى أية حال فقد أدى صعود الدولة البعثية في دمشق إلى جعل حلب تفقد تأثيرها على الحكومة ، كما أنها لم تنتفع كثيراً

من الازدهار المالي الذي أعقب عام ١٩٧٣ ، ثم إن دورها في تمرّد الاخوان المسلمين لم يحبّبها إلى السلطات . فقد عجزت خلال السنوات الأثنتي عشرة الأولى من حكم الأسد عن الحصول على مطار دولي ، أو فندق من الدرجة الممتازة ، أو حيّ تجاري حديث . وكانت تعاني من نظام تصريف للمياه رديء ، وخدمات بلدية سيئة ، ثم إن شارعها الرئيسي الذي يقع فيه فندق بارون التاريخي لم يعد سوى شبح رثٍّ مما كان عليه من الأناقة والعزّ فيما مضى .

أقيم فندق بارون على يد عائلة من أصحاب الفنادق الأرمن هي عائلة مظلوميان ، واحتفظ بسجل للزوار يمكن اعتباره حاشية على أحداث هذا القرن المضطرب منذ عام ١٩١١ . فقد أقام فيه مصطفى كمال أتاتورك عندما كان الجيش العثماني ينسحب من سوريا واحتلت غرفه حسب أحوال الزمن من قبل الجنرال اللنبي . وقد أقام فيه الملك فيصل الأول ، و ت. ي . لورنس ورضا شاه الإيراني . وفي أيام الانتداب الفرنسي كانت الشامبانيا تفيض فيه كالماء لتروي ظمأ مسافرين ومسافرات من أمثال آجاتا كريستي وإيمي جونسون كنّ يصلن إليه مع الواصلين في قطار طوروس السريع . وقد جاء الأسد أيضاً إلى بارون عندما زار حلب بعد استيلائه على السلطة[٩] . وفي تلك الأثناء كانت أفضل أيام عزّ الفندق قد مضت .

وفي الثمانينات تحسنت آمال واحتمالات المستقبل لحلب في ظل محافظها الجديد : محمد موالدي ، وهو رجل محلّي وابن عامل سكة حديد ، وكان آمراً لجيش المتطوعين الشعبي خلال أزمة الإخوان المسلمين ، ثم ركز عمله وجهده لاعادة بناء المدينة . ومن العوامل التي أسهمت في إحياء المدينة مركزها الوسطي على شبكات الطرق وسكك الحديد الجديدة ، وصناعاتها وحرفها وتقاليدها التجارية الملأى بالحيوية ، والعمل الجاد من قبل الطائفة الأرمنية فيها .

وكان من الملامح المثيرة للإعجاب نمو جامعة حلب التي كان عدد

طلابها ٥٠٠٠ في عام ١٩٨٠ فأصبح ٣٥٠٠٠ بعد خمس سنوات بتوجيه رئيسها الدكتور محمد علي حورية . وفي ذلك الحين وصل عدد كلياتها إلى أربع عشرة وعدد مدرسيها إلى ٨٦٠ ، وعدد موفديها للحصول على شهادات أعلى من الخارج ٨٠٠ ، وصار فيها ثلاثة مستشفيات تدريسية . وبالإضافة إلى ذلك فقد ظلت أحياء حلب القديمة متماسكة لم يدمرها المضاربون على الأراضي والمباني ، وكان سبب ذلك بالضبط هو أن حلب قد نجت من الثراء المالي والزحف الريفي اللذين هبطا على دمشق . وهكذا بقي كثير من معالمها التاريخية الدالة على عظمة ماضيها الإسلامي ، كالقلعة ، وسور المدينة ، والأسواق المسقوفة ، والمساجد ، والحمامات ، والخانات ، وكلها تجعلها أجمل لعين الناظر من منافستها الجنوبية ، فقد ظلت نسبة ٨٠ ٪ من حلب العثمانية وحلب العصور الوسطى صامدة ، بينما لم يبق من دمشق القديمة إلّا ٢٠ ٪ .

نكسات للاقتصاد

وبينما كانت الثمانينات تتجه إلى ختامها ، تزايدت الضغوط على الأسد لإعادة تقييم السجل الاقتصادي لرئاسته ؛ فقد كانت هناك حاجة للشفاء من الاتجاه السلبي المتدني الذي أصاب عقداً من الزمن بعد انهيار أسعار النفط العالمية وما نجم عنه من خسارة في عائدات النفط السوري المصدّر وتناقص في تحويلات السوريين العاملين في الخليج . ثم أن جفافاً قاسياً لم ينقطع إلّا في عام ١٩٨٦ قد أصاب بضربة كاسحة بلداً لا يزال يعتمد كثيراً على هطول الأمطار ـ إلى درجة أن السوريين اضطروا إلى ذبح ٣٠ ٪ من خرافهم في عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤ كما تطلب الأمر استيراد مواد غذائية باهظة الثمن ، وسبب قطعاً في التيار الكهربائي لأن انخفاض منسوب جريان المياه في الفرات قد خفض كمية الطاقة التي يولدها السد . وكانت هناك عوامل سياسية أيضاً . فتأييد سوريا (غير المحبوب شعبياً) لإيران ، ومشاجراتها مع الأردن والفلسطينيين ،

والتوترات بينها وبين أقطار الخليج ، ومواجهتها مع الغرب بشأن الإرهاب ـ كل ذلك جلب عليها عقوبات اقتصادية . وأصيب البلد بعجز مفزع في الميزانية وميزان المدفوعات ، وذهل الناس لشدة التضخم الذي تصاعد في عامي ١٩٨٧ و١٩٨٨ حتى وصل إلى ١٠٠ ٪ سنوياً .

وأصبح واضحاً أنه لن يأتي خلاص فوري سريع سواء من جهة الزراعة أو من جهة الصناعة . ذلك أن الاستثمارات العظيمة في القطاعين معاً لم تكن قد قدمت قاعدة إنتاجية سليمة قابلة للنمو بعد . ورغم استيعاب وتعلم الأخطاء التي حدثت في التصنيع العشوائي وسوء التقدير في مشروعات الريّ ، وانتشار الادراك بأن مستقبل سوريا كامِنٌ في استغلالها لموادها الأولية نفسها ، كالنفط ، والغاز والفوسفات والتجارة الزراعية ، فإن النتائج والثمرات كانت لا تزال تحتاج إلى سنوات قبل أن تبدأ في الظهور . وفي تلك الأثناء كان الانفاق العام والاستهلاك الخاص معاً كبيرين أكثر من اللازم . فقد تعودت الحكومة والشعب على ازدهار مصطنع يقوم على أساس المنح الخارجية بدلاً من تحسين الانتاجية أو تزايد الادخار . وكانت البُنَى التحتية والخدمات العامة ، كنظام التعليم المجاني ، الذي يعتبر من مفاخر الدولة البعثية ، تتطلب نفقات أكثر مما يستطيع القطر تحمله ، ومع ذلك لم يكن من السهل تقليصها . كما أن مستخدمي الدولة البالغ عددهم ٤٥٠,٠٠٠ ـ أي واحداً من كل خمسة موظفين ـ لم يكونوا يقدمون أي إسهام منتج مثمر . ولم تكن لديهم حوافز تشجعهم على العمل ، فرواتبهم قليلة ، وروحهم المعنوية منخفضة ، وهم يقومون بأعمال إضافية أخرى ولو بطريقة غير مسموح بها كلما استطاعوا .

والقوات المسلحة التي زاد تعدادها هي الأخرى على ٤٠٠,٠٠٠ تتطلب جزءاً ضخماً من الموارد لا يمكن تخفيضه بسبب وضع سوريا كقوة في الخط الأول من المواجهة ، ودورها في لبنان ، وطموحاتها الاقليمية . ويجب القول إن الجيش نفسه كان إحدى أدوات التحديث . فالخدمة العسكرية التي تستغرق

رسمياً عامين ونصف عام ، ولكنها غالباً ما كانت تمدد حتى تصل إلى أربعة أعوام ، لم تكن كلها مَضْيَعَةً للوقت . فكثير من المجندين كانوا يفرزون للعمل في شركات الإنشاء التابعة للدولة ، واستُخْدِمْ غيرُهُم للعمل في مزارع الجيش التي كانت تنتج نسبة هامة من اللحوم ، والخضروات ، والفواكه ، والحبوب والقطانيات التي تستهلكها القوات المسلحة . وكان حوالى ٢٠,٠٠٠ شاب يتعلمون قيادة السيارات في كل عام ، وتم تدريب ألوف من الأليكترونيين والميكانيكيين . ورغم قيام محاولة متواضعة لتقليم الميزانية العسكرية عام ١٩٨٧ فقد ظلت القوات المسلحة تمتص أكثر من خمسين بالمائة من الانفاق الحكومي ، وكانت سياسياً مما لا يجوز المساس به .

وكانت ميزانيات التطوير هي الأخرى مقدسة لا تُمَسّ ، لأنه مع تزايد السكان بنسبة ٣,٨ ٪ ـ أي بمعدل ٤٠٠,٠٠٠ فم جديد بحاجة للطعام كل عام خلال الثمانينات ـ لم تكن الحكومة تستطيع أن تبطيء أو تخفف جهودها لتأمين مستقبل لهم . فخلال سنوات حكم الأسد استفادت سوريا من قلة عدد السكان نسبياً . فقد كانوا ٥,٣ ملايين نسمة في عام ١٩٦٣ ، فارتفع العدد إلى ١٠,٦ ملايين نسمة في عام ١٩٨٦ ولكن المتوقع في نهاية القرن أن يصل العدد إلى ١٧ مليوناً ، وهذا رقم مدوخ . وفزع المخططون من أخطار النمو المتزايد بلا ضوابط ، ولكن صانعي السياسة أحجموا عن تحدي التقليد السوري الذي يعتز بالعوائل الكبيرة .

وكان جزء من مشكلة سوريا يعود إلى افتقارها لفريق منسجم يدير الاقتصاد . فلم يكن هناك تنسيق فعال بين وزارات التخطيط ، والمالية ، والاقتصاد ، أو بين هذه الوزارات ومكتب الشؤون الاقتصادية في الحزب . ولعل الأسد كان يريد أن تنعكس أولوياته في التطبيق ، ولذلك اختار مساعدين أقوياء في ميداني الشؤون الخارجية والأمن ، مثل عبد الحليم خدام والشهابي وعلي دوبا ، أكثر مما فعل في المجال الاقتصادي حيث كان موظفوه في العادة ممن تنقصهم السلطة أو الوزن السياسي .

وكانت هناك عقبات عقائدية آيديولوجية ينبغي إزاحتها في إدارة الاقتصاد ، وأبرزها العلاقة القلقة بين القطاعين العام والخاص . فالرجال الذين أشرفوا على التحويل العظيم الذي قادته الحكومة في مجال الاقتصاد السوري في السبعينات كانوا مترددين في السماح للقطاع الخاص بأن يمتد بحيث يتجاوز الدور المخصص له في المشاريع الصغيرة والمتوسطة في الصناعة والزراعة والتجارة . وفي المؤتمر القطري الثامن في شباط / فبراير سنة ١٩٨٥ دافع الأسد عن إفساح مجال أكبر للقطاع الخاص . غير أن ذلك لم تتبعه توجيهات واضحة للسياسة . فقد بدت الحكومة حريصة على اجتذاب أصحاب المشاريع ورؤوس الأموال للعودة من الخارج والاستثمار في السياحة ، وفي استيراد قطع غيار من أنواع مختلفة، وفي مشاريع زراعية مشتركة . ولكن الشكوك التي كانت تحيط بمستقبل البلد السياسي ، وإجراءات الحكومة والحزب الثقيلة الوطأة قد نفّرت كثيراً من المستثمرين المحتملين . وعندما حُرِمَ رأس المال الخاص من الفرص الصناعية ، انتقل إلى الأراضي والعقارات فكانت النتيجة ارتفاع أسعارها بشكل كبير جداً .

كانت أمراض سوريا الاقتصادية تتطلب علاجات كريهة مثل تقليص الانفاق الحكومي لتخفيض عجز الميزانية وإيجاد استقرار للعملة المصابة بالتضخم ، وإزالة الهدر في المجالات التي لا تُمسّ كالجيش والحزب ، ولجم طبقة الطفيليين المبذرين في الاستهلاك . وكان من الواجب إيجاد الأموال اللازمة لاستيراد المواد الأولية لاعادة تشغيل مصانع الدولة ، وتفكيك القيود لإطلاق المواهب التجارية السورية التي لا شك فيها . غير أنه لم يكن هناك اتفاق بين صانعي السياسة على مدى كون الأزمة ملحّة أو عاجلة . فأشار المتفائلون إلى المستوى المتواضع نسبياً لديون سوريا التجارية الخارجية التي كانت تقدر بأربعة مليارات دولار (ما عدا المبالغ المطلوبة للاتحاد السوفياتي كثمن للعتاد العسكري) وإلى عدم وجود ديون داخلية . ثم إن العملة السورية ، رغم انخفاض قوتها الشرائية بصورة حادة ، لم تكن أسوأ حالاً من الشيكل

الاسرائيلي أو الليرة التركية . وقد أزالت السوق السوداء المزدهرة في سوريا كثيراً من احباطات الاحصاءات الرسمية . وفضلاً عن ذلك ، فإن برنامج التقشف والانفتاح كان يعاكس أهداف الحكومة الاشتراكية المعلنة ، وفيه مخاطر من تنفير مستخدمي القطاع العام الذين يعتبرون جمهوراً هاماً ، مع المخاطرة كذلك بالدوس على أصابع الطبقة المستحكمة من حملة المناصب المتعيشين من الدولة . وكان الأسد يشجع إجراء إصلاحات جزئية ومتفرقة ولكنه لم يرغب في إحداث تغيير جذري في الاتجاه . وربما كان يتوقع أن يتم الخلاص في العقد القادم عندما يتم الاقلاع (الذي تأخر طويلاً) على أساس النفط والزراعة بعد إحيائها وتقويتها وتنشيطها .

تحسن أحوال العلويين

كان تحسن أحوال الطائفة العلوية في سوريا أحسن توضيح للتحولات التي تمت خلال ربع قرن من حكم البعث . فرغم أنهم يشكلون ١٢ ٪ فقط من السكان ، وكانوا سابقاً أكثر الشرائح بؤساً فإنهم لم ينجبوا الرئيس فحسب ، بل أنجبوا أيضاً جزءاً كبيراً من النخبة الجديدة . فقد جاؤوا من آخر الصفوف ووصلوا إلى القمة ، وبذلك كانوا يسيرون في الممر السريع في المجتمع السوري .

فالجبل العلوي في أواخر القرن العشرين لم يكن يمكنه أن يقدّم نقيضاً أعظم لصورة الفقر والانعزال المأساوي التي رسمها له جاك ويلرس منذ نصف قرن مضى(١٠) . ومثلما كانت الأرض الخلفية الجبلية للريفييرا ذات يوم من أفقر أجزاء فرنسا ثم دبت فيها الحياة بفضل السياحة ، كذلك تم إحياء الأرض الخلفية للساحل السوري على المتوسط من خلال الصعود العلوي . فهناك مئات من القرى الجبلية راحت تتسع في بنايات مشيدة من الطوب الإسمنتي الخفيف المخلوط بكسارة الفحم البركانية بشكل سريع بحيث لم يكد يبقى أثر من قرى الحجارة القديمة الخشنة التي كانت موجودة في أيام شباب الأسد. أما الثياب التقليدية فقد اختفت اختفاءاً كلياً تقريباً وأصبحت حشود الأطفال ترتدي

البدلات حسب الموضة ، وسراويل الجينز وأحذية التدريب التي يرتديها معاصروهم الأوربيون . كما وسع العلويون أماكن تواجدهم فانتشروا من سفوح الجبال إلى المزارع الخصبة في أراضي الغاب الداخلية ، وانحدروا غرباً نحو البحر حيث راحوا يشترون الأرض ويبنون البيوت ويزحفون على المدن الساحلية ليطوروا اللاذقية وطرطوس وبانياس وجبلة ، ويتحركون إلى دمشق نفسها .

في عام ١٩٧٠ كانت عشرة بالمائة فقط من بيوت محافظة اللاذقية تصل اليها أنابيب مياه الشرب . أما بعد خمسة عشر عاماً فقد ارتفعت النسبة إلى ٧٠ ٪ ، وفتحت طرق إلى كل قرية صغيرة . وعندما كان الأسد في المدرسة كان هناك بضع عشرات من العمال فقط يشتغلون في المؤسسة الصناعية الوحيدة ، وهي شركة التبغ (الريجي) ، أما في منتصف الثمانينات فكان هناك ٤٠,٠٠٠ عامل يشتغلون في شركات القطاع العام ، في تعليب الأطعمة ، وصناعات الألومنيوم ، والاسمنت ، والمنسوجات ، والسجاد ، بينما راحت سلسلة من السدود تروي حوالي ٥٠,٠٠٠ هكتار . أما في مدينة اللاذقية نفسها ، والتي نما عدد سكانها من ٣٠,٠٠٠ إلى ربع مليون خلال حياة الأسد ، فقد توسع الميناء توسعاً عظيماً ، كما تم إيجاد جامعة جديدة (أطلق عليها اسم تشرين (اكتوبر) تيمناً باسم حرب عام ١٩٧٣) ، وقد أقيمت حسب مرسوم جمهوري سنة ١٩٧١ وأصبح عدد طلابها ١٥٠٠٠ في عام ١٩٨٥ ، مما أدخل مستويات وأنماطاً فكرية جديدة إلى الحياة الاجتماعية .

بعد ثورة عام ١٩٦٣ مباشرة بدأ العلويون يتحركون بحماس وشوق إلى التعليم . وكانوا مهرة وعملوا بجد ودأب . وبدأوا يحصلون على المنح والبعثات بأعداد متزايدة ، ويوفدون إلى الخارج للحصول على شهادات عليا فأصبحوا أطباء ومهندسين ومحامين وأساتذة جامعات بحيث أنهم صاروا بعد الثورة بخمسة وعشرين عاماً ممثَّلين تمثيلاً قوياً في المهن ، وفي وظائف الدولة العليا ، ينافسون وأحياناً يزيحون المثقفين السنّيين والمسيحيين . ولم يهدأ أو يتراخ

التعطش العلوي للتقدم . وفي حزيران / يونيو عام ١٩٨٧ وقعت حادثة في قرية الأسد : القرداحة فأوضحت مدى استمرار حدة ذلك التعطش ، فبينما كان بعض طلبة المدارس يقدمون امتحانات آخر السنة اقتحم آباؤهم القاعة ، وكانوا متحمسين لحصول أبنائهم على نتائج جيدة . فاستدعى مدير المدرسة الشرطة ، وحدث تبادل لاطلاق النار وقتل شرطيّ . فغضب الأسد وأرسل وحدة من الجيش لتطوق المبنى وتضمن سير الامتحانات بطريقة منتظمة . وفي دراسة لأوضاع الفلاحين في سهل الغاب الحديث التجفيف قامت بها عالمة الاجتماع والأجناس البشرية فرنسواز ميترال ، تبين أن نسبة البنات اللواتي يذهبن إلى المدارس في سهول الغاب الغربية التي يقطنها العلويون تتراوح بين ٣٤٪ و٤١٪ ، بينما تتراوح النسبة في سهول الغاب الشرقية التي يقطنها السنيون بين صفر و٧٪ فقط (١١).

ورغم أن القرويين العلويين لم يكن لهم تقليد مدني خاص بهم ، فإن الذين استقروا منهم في دمشق كانوا في الغالب أسرع تكيفاً مع الأفكار الجديدة وأساليب الحياة الحديثة من صغار القوم من السنيين . وكما هي الحال بالنسبة إلى سكان الجبال ، فقد كانوا يميلون إلى القوة والخشونة والاعتماد على الذات ، ولكنهم لم يكونوا ماهرين في التجارة أو الحرف . وقد حصل الأكثر تواضعاً منهم على عمل كحراس وسائقين ، وموظفي أمن في المطار ، أو جندوا بالألوف في سرايا الدفاع والقوات الخاصة والحرس الجمهوري ، فجاؤوا بعائلاتهم إلى الضواحي الممتدة خارج دمشق ، وحرستا ، والقابون ، والمزة .

وقد أغضب تحسن أحوال العلويين كثيراً من السوريين الذين بدأوا يعتقدون بأن للعلويين رعاية وتفضيلاً أكثر من اللازم ، ولكن فيما عدا المتطرفين من الأصوليين الاسلاميين ، فإن قليلين هم الذين اعتبروا معتقداتهم المخالفة للإجماع نقطة ضدهم . ومع ذلك فإن تقدم العلويين كان يبدو غير قابل للتراجع بفضل مركزهم القوي في الجيش ، وأجهزة الأمن ، والحرف المهنية ،

والحزب ، بل وفي كل مؤسسة في جميع انحاء البلاد . وبما أنهم قد شقوا طريقهم إلى القمة بالقتال وبالدراسة فليس من السهل زحزحتهم عنها .

البقع السوداء والتقدم

شغلت أذهانَ السوريين في الثمانينات بقع سوداء في مجتمعهم وفي اقتصادهم . وكان التهريب من بين أهم البقع التي تتصدر القائمة . فمع سيطرة الحكومة على التجارة الخارجية ، وندرة العملات الأجنبية كان هناك عدة نواقص في السوق المحلية ، عوضت عنها عمليات تهريب البضائع من لبنان ، وهي عمليات قد ازدهرت . ولقد كان التهريب عبر الجبال من لبنان ذي الاقتصاد الحر ظاهرة قديمة يستحيل السيطرة عليها بسبب الحدود الطويلة القابلة للاختراق . وكانت هناك قرى بكاملها على الجانبين تعتاش منه طيلة سنوات . ومنذ عام ١٩٧٦ حينما دخل الجيش السوري لبنان فسيطر على المرور في الشوارع والطرق وحتى على موانىء كطرابلس وامتص البقاع أو كاد ، فإن التهريب كاد يتحول إلى منشأة قائمة بذاتها ، وتورط الجيش السوري في عمليات التهريب بانهماك شديد . وبالنسبة للعسكريين فإن إرسالهم إلى لبنان كان يعني فرصة لتكوين ثروة ، وقد انتشر التفكير بهذه الطريقة لدى الجميع ، من الجنرالات إلى الرقباء . وقد فزعت السلطات من تآكل قيمة الليرة السورية وخسارة العوائد الجمركية وتسرب السلع المحددة الأسعار إلى خارج البلد ، مثل الأدوية والمواد الصيدلية ، فأخذت تحاول التشديد على منع التهريب من حين لآخر ، ولكن دون جدوى . فقد كان الاقتصادان شديدي التداخل يخترق كل منهما الآخر ، وكان المتورطون كثيرين جداً ، وفوق كل شيء فإن التهريب قد سدّ ثغرة . فقطع غيار السيارات المهربة مثلاً ، ساعدت على إبقاء السيارات السورية على الطرقات ، ولم يكن لدى الطبقة الوسطى أي مكانٍ آخر تلجأ إليه للحصول على قائمة بأكملها من المنتوجات الاستهلاكية ، من ورق التواليت إلى الغسالات . وصارت مدينة شتورا اللبنانية في البقاع ، وهي المحطة الأخيرة

قبل الحدود ، مركزاً تجارياً لتوزيع السلع المتجهة إلى السوق السورية . وصارت الممنوعات تدخل بحاويات الشاحنات ، وأصبحت رحلة يوم إلى شتورا شيئاً مألوفاً جداً لكثير من العائلات .

وإن كان لديك المال فإنك تستطيع شراء أي شيء . ولكن إن كنت لا تملك سوى أجورك أو راتبك فإن الحياة تصبح شديدة التقشف قاصرة على الضرورات الأساسية . فالأشياء المريحة ، دع عنك الترف أو الفخفخة ، تصبح خارج نطاق ميزانيتك . وقد كان هذا قَدَرَ معظم السوريين . فالأجور في القطاع العام الكبير كانت منخفضة عبر السلم الوظيفي كله ، من منظفي الشوارع إلى أساتذة الجامعات . ولم تكن أجور القطاع الخاص أفضل منها كثيراً . ومع التضخم المنفلت من عقاله صار الهم الوطنيّ هو التسابق على شيء من الزيادة في الدخل ، ولجأ السوريون النشيطون الذين لا تعييهم الحيلة إلى الاشتغال بأعمال إضافية سراً ، وإلى الفساد بجميع أنواعه . مما خلق اقتصاداً أسود امتد بضخامته إلى عمق الدوائر الحكومية والقطاع العام .

وعلى قمة الهرم الاجتماعي كانت هناك مجموعة قليلة من ذوي الثراء الفاحش تثير الغيرة والغضب ، وتعيش في عالم بعيد جداً عن عالم الجماهير الكادحة ، وحتى عن الطبقة الوسطى ذات الرفاه المعقول من رجال المهن ، وصناعيّي القطاع الخاص ، والتجار . وفي معظم الحالات كان أولئك الأغنياء من أصول وخلفيات فلاحية أو برجوازية صغيرة ممن بنوا مع الأسد الدولة البعثية ، ولكنهم تخلوا منذ زمن طويل عن أي تظاهر بالمثل الاشتراكية . وكان أفراد هذه المجموعة منتسبين إلى المراتب العليا في الجيش ، وقوى الأمن ، والحزب ، والحكومة وبإمكانهم الوصول إلى واردات وخزائن الدولة بطرق مشروعة أو غير مشروعة ، فكانوا يمتازون بقدرتهم على شراء ما يريدون والتصرف كما يشاؤون من دون أن يحسبوا حساباً للرأي العام ، ولا لتعليمات الدولة . وطوال سنوات قامت هذه المجموعة بحلب الميزانيات ، وحصلت

على حصص من المشروعات الحكومية وشغّلت أبناءها في العمل الحر ، وعقدت صفقات فيها نسب مئوية مع وكلاء المجهزين الأجانب ، ونصبت صنائعها في شركات القطاع العام ، وضاربت في سوق العقارات والأراضي ، وخلقت أرباحاً وكونت مزيداً من الثروات[١٢] . وكانت بعض هذه الصفقات ضمن القانون ، وبعضها الآخر خارجاً عليه . وكانت فعالياتهم ونشاطاتهم غير مقيدة أبداً ، وكانت شبكة التعامل التي أقاموها بين الرعاية والعمولات وتبادل المنافع من الامتداد الأخطبوطي بحيث تحدث بعض الناس عن «المجمع التجاري العسكري»[١٣] ، وحتى عن طبقة حاكمة جديدة عدد أعضائها عدة آلاف .

وكما في كثير من المدن ، كان المكان المرغوب فيه للسكن في دمشق هو غربها ، وقيل إن الفرق في درجة الحرارة بين شرقها وغربها ثلاث درجات مئوية ، وكان الغرب أدفأ في الشتاء وأبرد في الصيف . والناس يكفون عن استعمال المدافيء في الغرب قبل الشرق بخمسة عشر يوماً . وفي أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات كان «الحي الغربي» هو شارع «أبو رمانة» العريض المظلل بالأشجار ، فتفوق عليه في الستينات والسبعينات حي المالكي الذي حل محله في الثمانينات وامتلأ بالأبنية البراقة المحروسة جيداً . كان هذا هو موطن النخبة في البلاد .

وكان هناك ثراء في سوريا خارج هذه المجموعة، إذ أن تدفق أموال الدعم بعد حرب ١٩٧٣ قد خلق سيولة لم يسبق لها مثيل . وضمن القيود المفروضة من قبل الحكومة ، بقي مجالٌ لكسب المال بطريقة مشروعة في القطاع الخاص ، في تجارة المفرق ، وفي البناء ، والزراعة ، والصناعات الخفيفة ، والمهن ذات الرواتب العالية كالطب . وتدفقت إلى البلد أيضاً أموال خاصة من السوريين العاملين أو المستقرّين في الخارج . وفي ظل حكم الأسد أصبح في سوريا أناس أغنياء أكثر من أي وقت مضى ، كما يمكن رؤ ية ذلك

من موجة الفيللات غالية الثمن التي أغرقت المنتجعات الجبلية الراقية مثل بلودان . ولكن القطاع الخاص كانت له بعض الشكاوي المتذمرة ، فقد شعر بأنه قد حُرِمَ من الفرص التي يستحقها ، لأسباب عقائدية وبيرقراطية . فالدولة كانت لا تزال متحاملة على الرأسماليين ، وكان من نتيجة ذلك أن الأموال التي كان يمكن استعمالها بطريقة منتجة قد امتصتها عمليات المضاربة في الأملاك والعقارات . ومن الشكاوي الأخرى أنه بينما عوقب التجار الشرفاء البارعون المدبرون المشتغلون بجد ، فإن بعض الاستغلاليين الباحثين عن الأرباح الفاحشة وآخذي العمولات والمتطفلين على المشاريع الحكومية كانوا يكوّنون ثروات طائلة بالتواطؤ مع أقطاب النظام .

وكان اللغز هو لماذا يسمح الأسد ، وهو المعتدل المتحفظ في أذواقه وأسلوب حياته ، بالتجاوزات والنزعة الاستهلاكية الصارخة لبعض كبار مساعديه . وكان من بين الشروح المقدمة لتوضيح السبب هو أن الأسد قد سمح لهم بإثراء أنفسهم ليزيد من سيطرته عليهم ، وقال آخرون إن ثراءهم المفرط مكافأة على ولائهم . وكان هناك رأي مختلف يقول إن هؤلاء قد أصبحوا بطانة لا يستغني عنها الأسد ، وإنه لا يستطيع طرد الطاقم كله ، وأنه أصبح بمعنًى من المعاني سجينهم، ولم يعد له خيار سوى تحمل تجاوزاتهم ، غير أن التوضيح الأكثر إقناعاً هو أن الأسد ، في سبيل حكم سوريا وتحديثها يعتقد بأنه بحاجةٍ إلى طبقة قوية متمولة من بين رجاله أنفسهم لتحل محل البرجوازية السورية القديمة . ومع ذلك كان الأسد على ما يبدو مدركاً لأهمية تقاليد دمشق وعائلاتها البارزة ، ولم تكن صدفةً أن يؤخذ الرئيس كارتر عندما زار دمشق ، في جملة الأماكن التي أخذ إليها إلى مزرعة الشلاح في الغوطة، التي يملكها بدر الدين الشلاح ، رئيس اتحاد الغرف التجارية السورية ، وأحد رجالات دمشق ، ورئيس عشيرة كبيرة ، وكان في الثمانينات من عمره .

وفي أواخر الثمانينات ، ورغم بقاء التوترات ومشاعر الغيرة ، كانت هناك

علامات على بوادر مصالحة في الطبقات العليا من المجتمع السوري . فتزوج أبناء الطبقة الجديدة من العائلات القديمة التي كانت ذات يوم قوية سياسياً أو مالكة للأراضي ، والتي لا تزال أسماؤها تضفي على أصحابها شيئاً فريداً من الاحترام . وظهر أن الكراهية الطبقية لدى الجانبين بدأت تختفي ليحل محلها نوع من الاهتمام المتبادل المشحون بالحفيظة والحسد . والمثال الملفت للنظر أن ثلاثة من أولاد نائب رئيس الجمهورية خدام تزوجوا تباعاً من ثلاث عائلات بورجوازية ثرية سورية (طرابيشي ، أتاسي ، شيخ الأرض) واحتفل بزواجهم بترف واسراف في شيراتون دمشق ، معبد حديثي النعمة . فلقد أدى بناء الفنادق الباذخة كالشيراتون والمريديان إلى تغيير الحياة الاجتماعية في العاصمة . وقد دافع الأسد عن ذلك في وجه المعارضة الحزبية واعتبره ضرورة اقتصادية .

ومع هذا فإن بروز ذوي الثراء الفاحش ، بامتيازاتهم ، وتجاوزاتهم ونزعتهم الاستهلاكية السافرة اللافتة للأنظار كان لا بد أن يشوه صورة النظام ، وللدفاع عن مراكزهم تحوّل أهل القمة إلى فئة محافظة وصارت غريزتهم تدعوهم إلى لجم الطاقات الشعبية والسيطرة عليها بدلاً من تجميعها وحشدها(١٤) . وبذلك فإن منجزات النظام من السدود والطرق وسكك الحديد والصناعات والمدارس والمعاهد والجامعات ، والفرص الكثيرة للشباب فقدت كلها هالتها البراقة في ضوء بذخ وتجاوزات النخبة الجديدة .

وكان من بين الانتقادات الأكثر خطراً من الفساد انتقاد سجل النظام في ميدان حقوق الانسان . فالصلاحيات المطلقة لأجهزة الأمن والظروف القاسية في المعتقلات ، بما في ذلك اللجوء إلى التعذيب قد لاحظتها منظمة العفو الدولية . ويطل سجن قلعة المزة القديم تذكرة للجميع بمنظره الكالح المتجهم من على قمته فوق دمشق بين الشيراتون والقصر الجمهوري . ولا يزال محتجزاً هناك في أواخر الثمانينات الرجال الذي أطاح بهم الأسد في عام ١٩٧٠ . ففي دولة الأسد لم تُعْطَ فكرةُ حرية الفرد أي محتوى مادي برغم الأجهزة

والمؤسسات . فليس هناك قضاء مستقل استقلالاً حقيقياً ، ولا حرية معلومات واتصال وتعبير ، ولا جامعة مستقلة بذاتها . وفي غياب قواعد واضحة تحكم العلاقات بين الفرد والدولة يشعر المواطن العادي بأنه غير آمن . وحتى السوريون الأغنياء من سكان الأحياء الراقية في دمشق الغربية يخشون أن يغضب منهم زبون أو وكيل فيجدون أنفسهم قيد الاستجواب على يد واحد أو آخر من أجهزة الأمن . فالناس يتوقون لقوانين يحترمها الجميع لأنه في غياب مثل هذه القوانين يبدو أن الحماية الوحيدة تكمن في التقليد العربي القديم: الوساطة . أي وجود علاقات في أماكن عليا تسمح بالشفاعة والتدخل نيابة عن المرء .

أكانت هناك ظروف مخففة لعدم الكمال في بناء الأسد لدولته ؟ لعل فترات حكمه الطويلة ما كان يمكن تأمينها في ظل نظام حرّ أو ليبرالي ، ولا أمكن دحر الأخوان المسلمين ، ولا الصمود في وجه الهجمات الاسرائيلية وفي وجه منافسيه العرب .

ومع مرور الزمن على النظام لم يعد هناك مجال كبير للتنويع وصار هناك تأكيد أكثر على التشابه النمطي في الصحافة ، وفي أجهزة الاعلام وفي منظمات الحزب الشعبية . كما أخذت منظمة طلائع البعث (الاجبارية بين سنّي السادسة والحادية عشرة) واتحاد شبيبة الثورة (لطلبة المدارس بين سنّي الثانية عشرة والثامنة عشرة ، وليست إجبارية ولكنها تعطي منتسبيها امتيازات كبيرة) واتحاد الطلبة تسعى كلها لتشكيل الأذهان الشابة حسب القالب البعثي ، ولعل تزايد أعداد الطلبة في المدارس والجامعات بشكل هائل يفسر هذه المحاولة لتنظيم الجميع على شكل كتائب في زي نمطي موحد ، ولكن ذلك قد أسهم أيضاً في انحدار المستويات العقلية الفكرية . فكل التعيينات في الهيئة التدريسية تخضع لتدقيق وموافقة قوى الأمن والحزب ، الذي يدافع بقوة عن احتكاره للسيطرة على الجامعات . وضمن هذه القيود والتحديدات كانت هناك منجزات إيجابية . ففي عام ١٩٨٥ سجل في التعليم العالي ١٤٠,٠٠٠ طالب ، وخلال السنوات

الخمس من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٩ أكمل ٧٠٠٠ طالبَ سوري دراساتهم العليا بعد التخرج ، في البلدان الأجنبية . وللتعويض عن هبوط مستوى طلبة الجامعة أقيم مركز للبحوث العلمية في عام ١٩٧٤ يركـز على التكنولـوجيا الصنـاعية والعسكرية ، وتلاه عدد آخر من المعاهد النخبوية المنتقاة والمحاطة بسرية شديدة .

أما تحرر المرأة الذي نادى به البعث أول الأمر في نظامه الثوري المتشدد في أواخر الستينات ، فقد سار قدماً إلى الأمام في ظل الأسد . فانتخبت النساء لمجلس الشعب ولوظائف الادارة المحلية والنقابات العمالية والمهنية وأصبحت قاضيات وأستاذات في الجامعات وتم تعيين امرأة (هي الدكتورة نجاح العطار ، التي تحمل شهادة الدكتوراه من جامعة آدنبرة) وزيرة للثقافة في عام ١٩٧٦ . وقبل عام ١٩٧٠ لم يكن هناك رياض أطفال على الاطلاق تقريباً ، واضطرت النساء العاملات إلى البقاء في بيوتهن أو ترك أطفالهن عند الأقارب والأصدقاء . وبحلول الثمانينات انتشرت رياض أطفال عديدة ، وباصات صغيرة تجمع الأطفال من نقاط محددة في الصباح وتعيدهم في المساء . وألبست منظمة طلائع البعث البنات زياً موحداً ووضعتهن في معسكرات صيفية منظمة أصبحت مختلطة منذ عام ١٩٨٣ . وفي ذلك الوقت بدأ التعليم المختلط في المدن الرئيسية وراح ينتشر تدريجياً في الريف .

★★★

في عملية تكوين أمة ، استعمل الأسد والبعث التاريخ ، وعلم الآثار ، والمنجزات الثقافية الحضارية والعلمية للعرب . ومن الآراء الشائعة أن سوريا ظلت نائمة عشرة قرون ، وقد نَزَعَتْ عنها طبيعتَها السيطرةُ الأجنبية ، وحان

وقت تحريكها وإحيائها ، ومن الشروط المسبقة لذلك فهم الماضي . ومن المناسبات النموذجية لذلك المؤتمر الذي عقد في مدينة الثورة التي لا تزال خامة جديدة وذلك في نيسان/ إبريل عام ١٩٨٥ ، في بلد سد الفرات ، حول تاريخ العلوم عند العرب ، وقد حضره العديد من المحافظين وأمناء سر الحزب ورؤساء الجامعات والشعراء وعدد من المفكرين والمثقفين وترأسته الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة فاحتفل المؤتمر بذكرى الفلكي عبد الله بن جابر بن سنان البتاني الذي عاش في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (٨٥٥ ـ ٩٢٥ م) والذي أقام مرصداً في الرقة حيث عاش هناك نصف قرن . وقد تحدث خطيب بعد خطيب ، وبعضهم انطلق ينشد الشعر ، مركزين على أهمية إحياء أمجاد الماضي لإلهام مواطني الغد .

ثم إن المكتشفات الأثرية في إيبلا ، جنوبي حلب ، التي كانت عاصمة دولة تجارية وعسكرية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (٢٥٠٠ ق. م) وفي ماري على نهر الفرات التي كانت حاضرة مملكة سومرية في الألف نفسه ، قد أعطت دفعاً عظيماً لروح الاعتزاز الوطني لدى سوريا . أما الألواح البالغ عددها ١٥٠٠٠ رقيم والتي تشكل ارشيف الملكي لإيبلا والمكتشفة خلال عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥ ، فقد اتضح أنها مكتوبة بلغة ساميّة قال الباحثون السوريون إنهم حدّدوا بها أصول اللغة العربية ، وأصول التوحيد نفسه في بلادهم . وبالاضافة إلى ألواح إيبلا كانت هناك مكتشفات ماري التي ضمت أرشيفاً فيه ٢٥,٠٠٠ لوح وقصراً فيه ٣٠٠ غرفة له حمامات مزودة بالمياه الساخنة ، والتمديدات الصحية وأدوات الطبخ ، وقد زود ذلك كله السوريين بدليل على تفوقهم القديم على العبرانيين في الجنوب ، وعلى تساويهم مع الحضارات العظيمة في مصر ووادي الرافدين . وكان السوريون غالباً ما يغتاظون من استخدام إسرائيل للعهد القديم لتبرير فعلاتها السياسية المعاصرة . غير أن هذه المكتشفات جاءتهم بالراحة والعزاء . فأرشيف إيبلا ، كما وصفه مكتشفه ، البروفسور باولو ماتياس ، من جامعة روما كان «يصور حضارة عالمية عليا قبل

ابرهيم بألف سنة ،» وكما قال الدكتور عفيف بهنسي مدير الآثار والمتاحف في سوريا تعليقاً على حملة تشويش شنها من يُسمون «بالأثريين التوراتيين» في أواخر السبعينات : «لقد أصبح الآن بالامكان اثبات أن التوراة لا يمكن اعتمادها كمرجع للتاريخ العالمي ، فهي تتكلم عن مدن صغيرة وأحداث عديمة الأهمية بالمقارنة مع الأحداث الكبرى والشخصيات الهامة التي تتحدث عنها ألواح إيبلا»[١٦] . وبالنسبة إلى المواقع الأثرية المحددة في سوريا والبالغ عددها ٣٥٠٠ موقع معظمها لا يزال مدفوناً في باطن الأرض ، يثق الدكتور بهنسي بأنه سيتم العثور على «إيبلات» أخرى . ولقد تم بناء زهاء ثلاثين متحفاً في مختلف أنحاء البلاد بتشجيع من الأسد لتضم تراث سوريا الذي لا يضاهى .

لقد كان إبراز سوريا لماضيها الأثري الغني جزءاً من ممارسة الأسد لعملية بناء أمة . والقول غالباً وتكراراً بأن التاريخ قد وضع سوريا في مركز العالم كان طريقة غير مباشرة للقول إنها اليوم في قلب هذه المنطقة الاقليمية ، وفي مركز صنع القرار .

هوامش الفصل الخامس والعشرين

(١) آن ماري بيانكيس : «دمشق والغوطة» في كتاب من تحرير آ . ريموند (مصدر سبق ذكره) ، ص ٣٥٩ - ٤٠٦ .
(٢) لو ري براند : الفلسطينيون في سوريا : سياسة واقتصاديات الاندماج رسالة غير منشورة (١٩٨٨) .
(٣) آليسديرد يسديل : ورقة مقدمة في مؤتمر عن ،سوريا في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن في ٢٠/ ١٩٨٧/٥ .
(٤) مقابلة مع الدكتور عبد السلام العجيلي في الرقة في نيسان ـ أبريل/ ١٩٨٥ .
(٥) جين هانوييه : «المزارع والطاقة في سوريا : تجربة التاريخ الاجتماعي ـ الاقتصادي في منطقة دير الزور» ، أطروحة غير منشورة : مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (باريس ١٩٨٢) .
(٦) مقابلة مع الدكتور محمد حربا بدمشق في ٢/٥/ ١٩٨٥ . وقد عيّن حربا وزيراً للداخلية في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٧ .
(٧) مقابلة مع د . موفق حبال مدير الانتاج في الشركة العامة لصناعة الورق في دير الزور في ٢٣/ ٤/ ١٩٨٥ .

من ص ٢٥/١ ـ ٢٥/١٣ ـ بدرية

(٨) مقابلة مع خليل بهلول في دمشق في ١/ ٥/ ١٩٨٥ .
(٩) مقابلة مع كوكو مظلوميان (حلب ، نيسان / ابريل ١٩٨٥) .

(١٠) ويلرس : بلاد العلويين (طبع مدينة ثور سنة ١٩٤٠) .
(١١) فرانسواز ميترال : ورقة مقدمة في مؤتمر عن سوريا عقدته مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية في لندن في ٢٠/ ٥/ ١٩٨٧ .
(١٣) مقابلة مع الكاتب صادق جلال العظم ، الأستاذ في العلوم السياسية (دمشق ٢٧/٤/ ١٩٨٥) .
(١٤) ريموند آ. هينبوش : «الطبقات والدولة في سوريا البعث» ، ورقة قدمت في ندوة حول سوريا أقيمت بجامعة نيويورك التابعة للدولة في برينغها متون في ٢٢ ـ ٢٣/ نيسان ـ إبريل سنة ١٩٨٨ .
(١٥) مقتبس في كتاب مايكل جانر المعنون «سوريا تحت الأنظار» (طبع لندن ١٩٨٦) ، ص ١٢ .
(١٦) مقابلة مع الدكتور عفيف بهنسي بدمشق في ١٢/ ٥/ ١٩٨٥ .

الفصل السادس والعشرون

الألاعيب الخفية

عند كل اللاعبين في الشرق الأوسط ، كانت الأحابيل القذرة امتداداً مقبولاً للدبلوماسية في الثمانينات . فالخط الدقيق الفاصل بين الارهاب والدفاع عن المصالح الوطنية كان يتم تخطيه مراراً وتكراراً في منطقة راحت تغوص إلى أعماق جديدة من العنف نتيجة لانهيار لبنان ، والصراع السوري ـ الاسرائيلي ، والثورة الايرانية ، وحرب الخليج . وبينما طفقت كل دولة تسعى لتكييف وتشكيل الأحداث الفوضوية لمصلحتها ، تزايد اللجوء إلى استعمال القنابل ، والمذابح ، وحوادث الخطف والاغتيال والمهمات الانتحارية والغارات الانتقامية والاعتقال والتعذيب . وكان من النتائج العرضية ذلك التوسع الكبير في أجهزة الأمن في كل دولة من دول المنطقة إلى درجة أن السياسة كثيراً ما انحدرت حتى أصبحت صراعات بين أجهزة المخابرات المتنافسة . ولم يكن أحد بمنأىً عن اللوم . ولقد ردّ الأسد الضربات التي تلقاها بمثلها ، غير أن الاشتباك بينه وبين الارهاب قُيض له أن يتحول إلى «طائر قطرس» ظل معلقاً في عنقه فلم يتخلص منه إلا بعد سنوات .

كان الاضطراب غير العادي في حياته عائداً إلى حقيقة أنه ما أن يسيطر على أزمة حتى كانت تنفجر في مواجهته أزمة أخرى . وحتى عندما كان منهمكاً

في الصراع لإلغاء اتفاق ١٧ / أيار ـ مايو ١٩٨٣ بين لبنان واسرائيل انفتحت عليه جبهة أخرى في الجنوب ، في المملكة الأردنية الهاشمية .

فمثل لبنان من قبله ، بدأ الأردن اعتباراً من أواخر عام ١٩٨٣ يفكر في إجراء مفاوضات منفصلة مع اسرائيل ، مما كان سيؤدي ـ من وجهة نظر الأسد ـ إلى ترك سوريا على الهوامش الجانبية . ذلك أن معاهدة اسرائيلية ـ أردنية تجتذب الأردن حتماً إلى منطقة نفوذ اسرائيل ، ستغير ميزان القوى في المنطقة تغييراً جذرياً . ورأى الأسد في ذلك إعادةً تُكرِّرُ واقعة غزو لبنان ، ويلعب فيها الملك حسين دور أمين الجميل ، ويقوم شيمون بيريز بإكمال ما بدأه مناحيم بيغن ، بينما يبحث جورج شولتز عن الثأر لهزيمته . وقد تميز الأسد غيظاً بصورة خاصة لأن الأردن قد أعار نفسه لمناورة أميركية ـ اسرائيلية ضد سوريا بالضبط لحظة نجاحها في أن تُلْحِقَ باسرائيل في لبنان أول نكسة سياسية منذ عام ١٩٤٨ . ولقد قُدِّر للصراع على الأردن أن يشغل الأسد اعتباراً من عام ١٩٨٤ فما بعده .

ظل الأسد وحسين طيلة عقدين من الزمن خصمين ـ شريكين نشأ لدى كل منهما عبر نوبات من المصارعة العنيفة احترامٌ للآخر . ففي الستينات قدم حسين العون والملجأ لأعداء النظام البعثي المتشدد الذي استولى على السلطة بدمشق ، ومن ثم أصبحت القنابل والمؤامرات هي العملة المشتركة المتداولة في علاقتهما . وفي عام ١٩٧٠ هاجم الأسد الأردن دعماً للفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا يَتحدّوْن الملكَ آنذاك . غير أن المتنافسَيْن قد اصطلحا فيما بعد في منتصف السبعينات عندما تَقَارَبا لمواجهة الخطر المشترك الذي وضعَهُما فيه وعَرَّضهما له السادات بتفاوضه مع اسرائيل . بل لقد مرت لحظة فَكَّرا فيها حتى بالوحدة . ولكنهما عادا إلى التضارب ثانيةً قبل نهاية ذلك العقد . فقدّم الأردن دعماً خفياً للاخوان المسلمين في سوريا ، بينما رد الأسد بالتهديد بغزو آخر للأردن في عام ١٩٨٠ ، وبمحاولة لاغتيال رئيس وزراء الأردن ، مضر بدران .

واعتباراً من عام ١٩٨٠ أيضاً انحاز الأسد وحسين لطرفين متضادين في الحرب العراقية ـ الايرانية التي أفسحت لمخابراتهما وأجهزتهما السرية المجال لتبادل الضربات المفاجئة تحت الأرض . كان حسين يعتمد على الغرب في استمرار وجود بلده ، وخصوصاً على بريطانيا مؤسسة عرشه . أما الأسد ، المناضل القومي الصلب الحاقد على الغرب ، فكان يعتز بالعلاقات مع موسكو .

وكانت هناك أسباب محلية جعلت الصدام بين الرجلين محتوماً فقد شعر الأسد بالحاجة إلى نشر نفوذ سوريا في المشرق العربي كله . بينما كان حسين مصمماً على أن يبقى لاعباً مستقلاً . وكان ما فرّق بينهما بالدرجة الأولى هو لبّ وجوهر الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وعلى الأخص كيفية استعادة الأراضي المحتلة من إسرائيل ، وبعد ذلك كيف يتم التصرف بها ، ومَنْ يرثها ، ويسيطر عليها ، ويستفيد منها؟ فمنذ خسارة الضفة الغربية ، كان طموح حسين هو أن يستعيدها لتاجه الهاشمي . وقد غضب غضباً مريراً عندما قرر مؤتمر الرباط دعم دعوى المنظمة بتمثيل الفلسطينيين وحدها . فبالنظر لوجود أعداد كبيرة من السكان الفلسطينيين ضمن حدوده. لم يكن يستطيع أن يرى في منظمة التحرير سوى منافس خطر ، وقد حاول بمناوراته أن يجعلها تابعة له تعتمد عليه . وحاول الأسد أيضاً إخضاع المنظمة ولكن لسبب آخر مختلف ـ هو حاجته للسيطرة على كل المتغيرات العربية في المعركة ضد اسرائيل .

وكانت الفوارق العميقة بين ظروف سوريا والأردن هي التي أملت عليهما خَطّيْهِما الاستراتيجيّيْن المختلفين . فبعد أن قَزَّمَتْ اسرائيل حسيناً من الناحية العسكرية ، أخذ يعتمد في أمنه على حُمَاتِهِ الغربيين ، وعلى توازن في القوى بين العرب وإسرائيل ، وعلى تفاهم صامت هادىء مع هذه الأخيرة . وبدءاً من عام ١٩٦٧ وطوال الأعوام العشرين التي تلتها أمضى الملك مئات الساعات من المحادثات السرية مع الزعماء الاسرائيليين المتعاقبين ، وكما لاحظ آبا إيبان ، السياسي الاسرائيلي المخضرم فيما بعد : «ليس هناك بلدان على وجه الأرض

لديهما تجربة وخبرة في المفاوضات الثنائية المباشرة كما لـدى إسرائيـل والأردن»[١] . ولكن هذه الجهود لم تصل إلى شيء لأن إسرائيل رفضت التفكير في إعادة الأراضي بكاملها للملك . بل كانت تريده أن يُقْنِعَ نفسَه بجزءٍ من الضفة الغربية (وكان ذلك ما يفضله حزب العمل الاسرائيلي) أو أن يكتفي ببساطة بالادارة المحلية للسكان العرب الفلسطينيين ـ تاركاً الأرض ، والمياه ، والأمن ، والسيادة في يد اسرائيل (وكان هذا ما يفضله الليكود) . ومع ذلك فقد تعلق حسين بأمل إمكانية استعادة المناطق المحتلة عن طريق المفاوضات . كان يخشى من أن تحدي اسرائيل بالقوة لن يؤدي إلاّ لخسارة المزيد من الأرض ، وتشريد المزيد من الفلسطينيين وسقوطه هو .

وكان الأسد على العكس من ذلك ، يملك الارادة والوسائل للتطلع إلى الوقوف بوجه إسرائيل . ولما كان يعتقد بأنه لا معنى للتفاوض من موقع ضعف ، فقد دافع عن ممارسة الضغط الطبيعي بصبر دائب باعتباره الطريقة الوحيدة لجعل اسرائيل تتقيأ ما ابتلعته . كما أن الفوارق بين الشخصيتين قد أسهمت في ظهور استراتيجيتين . فقد كانت لدى الأسد موهبة البرود في الانتظار ، بينما كان حسين قلقاً وغير مستقر في استكشاف طريق بعد آخر معتمداً على غرائزه السياسية الناضجة التطور في إبقائه بعيداً عن المتاعب .

ولقد ظل حسين أعواماً واقعاً تحت ضغط أميركي واسرائيلي مستمر بقوة «لحل» مشكلة فلسطين في مفاوضات مباشرة مع إسرائيل .

غير أنه ـ بدون موافقة عربية أو تفويض عربي ـ لم يكن ليجرؤ على أن يقتسم الضفة الغربية مع اسرائيل ، ولا أن يصبح وكيلاً عميلاً لاسرائيل . ولم يكن سهلاً تربيع الدائرة بين القليل الذي كانت اسرائيل موافقة على إعطائه وبين ما كان يمكن أن يقبل به العرب . وكانت صيغة حسين المفضلة هي اتحاد فيـدرالي فلسطيني ـ أردني يقـدم ـ في رأيه ـ متنفساً منـاسبـاً لتـطلعـات

الفلسطينيين ، وحماية لعرشه ، كما يقدم لاسرائيل الأمن الذي ظلت تنادي بأنها تحتاجه .

وفي عام ١٩٨٢ ـ ٨٣ ، واستجابة لخطة ريغان التي كانت على ما يبدو تقدم مثل هذا الحل بالضبط ، حاول الملك أن يقنع عرفات بأن يسمح له بالتفاوض مع اسرائيل نيابة عن الأردن والفلسطينيين جميعاً . فشعر عرفات بالإغراء ، ولكنه ما لبث أن تراجع تحت ضغط الأسد والفصائل المتشددة في منظمة التحرير الفلسطينية . ولكن في عام ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ عندما مرض الأسد وأومأت إسرائيل إلى الملك ، ظن حسين أن الوقت مناسب للقيام بمحاولة أخرى . ولا حاجة للقول بأن الأسد قد فسر هذه الحركة على أنها مناورة للالتفاف حوله وتحييده وإعطاء اسرائيل الهيمنة .

وقد تنبه الأسد لسلسلة من الاشارات تنذر بالخطر . كانت أولاها دعوة حسين لعرفات لزيارة عمان في كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٣ تماماً عندما كانت القوات التي تدعمها سوريا تطرده من طرابلس . وكانت الاشارة التالية هي تصالح عرفات مع مبارك في مصر ـ وبالنسبة للأسد : نظام كامب ديفيد الكريه في مصر ـ بعد يومين من إبحاره من طرابلس . هل كان عرفات على وشك أن يحذو حذو مصر في «الاستسلام؟» وكان هناك مصدر ثالث لقلق الأسد ، هو احتمال فوز زعيم حزب العمل الاسرائيلي شيمون بيريز (المدافع الأول عما يسمى «الخيار الأردني») في الانتخابات الاسرائيلية في تموز / يوليو سنة ١٩٨٤ . ذلك أنه إذا استطاعت اسرائيل والأردن تدبير صفقةٍ ترضي الفلسطينيين وتتمتع بدعم العرب المعتدلين والولايات المتحدة ، فإن سوريا ستصبح معزولة فيتقلص نفوذها كثيراً . وهكذا بدا أن كل اللاعبين الأساسيين، حسين وعرفات وبيريز ومبارك وشولتز ، متحدون ، اتفقوا على قصقصة أجنحة الأسد.

أجفل الأسد وتزايد غضبه وهو يراقب حسيناً يمهد الأرض . فقد أطلق الملك الفلسطينيين من سجونه . وعقد اجتماعات كثيرة مع عرفات طيلة عام

١٩٨٤ ، وأحيا اللجان المشتركة لقضايا وشؤون الضفة الغربية ، وراح يسعى للحصول على التأييد في لندن وواشنطن ، وأعاد العلاقات الدبلوماسية مع مصر في أيلول / سبتمبر سنة ١٩٨٤ ، واستضاف المجلس الوطني الفلسطيني السابع عشر في عمان في تشرين الثاني / نوفمبر من ذلك العام . . فأخبر أعضاءه بأن الوقت قد حان كي تتخلى منظمة التحرير الفلسطينية عن سياسة الحصول على كل شيء أو لا شيء وتنضم إلى الأردن في مبادرة للتفاوض على تسوية مع اسرائيل على أساس «الأرض مقابل السلام» على أن يكون منبر التفاوض مؤتمراً دولياً ترعاه الأمم المتحدة ويحضره الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن جميعاً . وفي ١١/ شباط ـ فبراير عام ١٩٨٥ بعد أسابيع من المساومات وقع حسين وعرفات اتفاقية أعطت الملك على ما يبدو التفويض الذي كان يحتاجه .

وكانت من العلامات المشؤومة الدالة على انحراف الأردن عما يعتبره الأسد الخط القومي السليم والصحيح الحجة التي استخدمها الأردن في واشنطن للحصول على السلام والدعم السياسي الأميركي . ففي محادثات استطلاعية مع اللوبي اليهودي صوّر سوريا على أنها هي العدو وأن اسرائيل هي الجار الذي يعيش معه الأردن في حالة سلام فعليّ . كما وصف التشدد الفلسطيني بأنه الخطر الذي يستطيع الأردن واسرائيل معاً أن يحتوياه . (ولم يستطع سفير الأردن بواشنطن ، إبرهيم عز الدين ، أن يرغم ضميره على تقديم الحجة في هذا المنحى ، فعاد إلى عمان ، ليحل محله فلسطيني في السبعين من عمره أطاع أوامر الملك وشرع يغازل المجموعات اليهودية[٢]) .

هكذا كانت خلفية حرب الأسد غير المعلنة على حسين خلال عامي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ .

مقارعة حسين

في تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٨٣ ، جُرِحَ سفيرا الأردن في كل من الهند وإيطاليا في هجومين بالبنادق . وفي تشرين الثاني / نوفمبر قتل موظف

أردني وأصيب آخر بجروح خطرة في اثينا . وتم إبطال مفعول ثلاث عبوات ناسفة في عمان . وفي كانون الأول / ديسمبر قتل موظف قنصلي أردني وجرح آخر في مدريد . وفي آذار / مارس ١٩٨٤ انفجرت قنبلة خارج فندق انتركونتينانتال بعمّان ، وفي تشرين الثاني / نوفمبر نجا القائم بالأعمال الاردني في اثينا من الموت بأعجوبة عندما خرب مسدس مهاجِمِه . وفي كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٨٤ قُتِل المستشارُ الأردني في بخارست بالرصاص . وفي نيسان / أبريل عام ١٩٨٥ وقع هجوم على السفارة الأردنية في روما وعلى طائرة أردنية في مطار اثينا . وفي تموز / يوليو هوجم مكتب عاليه (الخطوط الجوية الأردنية) في مدريد بالرشاشات وأطلقت النار على السكرتير الأول بالسفارة الأردنية في أنقرة فأردي قتيلاً . وفي آب / أغسطس ألقي القبض على فلسطيني للاشتباه بتخطيطه لهجوم ثانٍ لاغتيال القائم بالأعمال الأردني. لقد كان من المعتقد بشكل واسع أن سوريا قد استخدمت وكلاء في حملة لتخويف حسين ، وعلى الأخص رجل الاغتيالات الفلسطيني المعروف صبري البنا ، والمشهور أكثر باسم «أبو نضال» ، الذي انشق عن عرفات بعد أحداث «أيلول / سبتمبر / الأسود» ١٩٧٠ ، وأقام منظمته المتشددة (فتح : المجلس الثوري). وقد شن أبو نضال حرباً على منظمة التحرير، ولكنه كذلك أجّر بنادقه لرعاة مختلفين للعراق أولاً في عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ التي استعملته ضد سوريا، ثم لسوريا في عامي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ التي استخدمته في «دبلوماسيتها الإجبارية» [٣]ضد الأردن.

ولم تنجُ سوريا من الضربات المضادة التي يفترض أن بعضها تم على يد الأردن أو حليفه العراق (الذي كانت له أسبابه الخاصة به لإقلاق سوريا) . ففي كانون الاول/ديسمبر سنة ١٩٨٤ هوجم ملحق سوري في آثينا ولكنه صَدَّ مهاجمه . وفي نيسان/ابريل سنة ١٩٨٥ ألقيت قنبلة على مكتب الخطوط الجوية السورية في روما فأصيب ثلاثة مستخدمين بجراح ، وجرت محاولة لاغتيال دبلوماسي سوري في جنيف. وفي أيار / مايو أطلقت النار على زميله

في الرباط ، أما في حزيران / يونيو فقد أبطل مفعول قنبلة خارج مبنى السفارة السورية بلندن . وفي تموز / يوليو انفجرت قنبلة كبيرة في سيارة خارج مكاتب الوكالة العربية السورية للأنباء ووزارة الداخلية بدمشق فأوقعت عشرات من الاصابات .
ولم يعترف الأسد ولا حسين بأنهما كانا يشنّان ضد بعضهما البعض حرباً إرهابية . ولكن بعد أن برزت خلافاتهما في أجهزة إعلامهما أصبح ذلك معروفاً للناس جميعاً . فأخذت صحف دمشق ترعد بأن خطة السلام الأردنية ـ الفلسطينية لها نفس خطورة اتفاقات كامب ديفيد ، وبأن الخونة لن يظلوا دون عقاب(٤) . وفي تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٤ عندما حثّ حسينٌ المجلسَ الوطنيَّ الفلسطينيَّ على الاتفاق معه في خطته للتفاوض ، وشنت دمشق «حركة وطنية أردنية» مكرسة لاقامة «نظام وطني وديمقراطي» في عمان ـ أي للاطاحة بالملك . وبعد اتفاق حسين ـ عرفات في شباط / فبراير ١٩٨٥ أقام أبو نضال علناً قيادة مشتركةً مع «أبو موسى» المنشق عن فتح والذي تدعمه سوريا ، لمحاربة ذلك الاتفاق .

وعند منتصف عام ١٩٨٥ كانت مثل تلك الضغوط قد وصلت إلى حد أقنع الملك حسين بأن الوقت قد حان ليبدأ بتراجع تكتيكي . كان من الواضح أن الأسد جادٌّ كل الجدّ في نواياه . ولخيبة حسين وحسرته ، فشل بيريز في أن يفوز في الانتخابات الاسرائيلية ، واضطر بدلاً من ذلك إلى الاشتراك مع شامير في حكومة «وحدة وطنية» أحبط فيها الليكود رغبة «العمل» في التفاوض على تسوية حول الأراضي المحتلة مع الأردن . أما عرفات فقد لجمته بدوره اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير التي قوضت اتفاق شباط / فبراير الذي كان قد توصل إليه مع الملك . وفي الوقت نفسه منع الكونغرسُ الأميركيُّ الادارةَ من بيع الأردن صواريخ ستنغر للدفاع الجوي رغم تهدئة حسين للوبي اليهودي . وفي مثل هذه الظروف التي لم يكن ممكناً فيها كسبُ أي شيء ، أدرك الملك أنه لم يعد هناك معنى لمتابعة شجاره المميت مع الأسد .

وبناء على ذلك عقدت هدنة ، والتقى رئيس الوزراء السوري الكسم بنظيره الأردني زيد الرفاعي في جدة في منتصف أيلول / سبتمبر وانتهت الحملات المعادية بين الطرفين (كانت لعائلة الرفاعي منذ زمن طويل علاقات تربطها بسوريا . وكان من عادة الملك أن يعين زيداً رئيساً للوزراء كلما احتاج إلى نزع فتيل أزمة مع دمشق) . وبالاضافة إلى ذلك بعث الملك حسين إلى رئيس وزرائه برسالة مفتوحة في ١٠/ تشرين الثاني ـ نوفمبر اعترف فيها بأن بعض الموظفين الأردنيين كانوا متورطين فعلاً في تمرد الاخوان المسلمين ضد الأسد ، وهو اعتراف بالذنب قبله الأسد راضياً . ثم جاء الرفاعي لمقابلة الأسد ، وصدر بيان مشترك يرفض المفاوضات المباشرة مع اسرائيل ، وكل حلول جزئية أو منفردة . لقد اعترف حسين بالهزيمة ، وفي نهاية كانون الأول / ديسمبر جاء بنفسه إلى دمشق ـ فكانت تلك أول مرة يظهر فيها هناك منذ عام ١٩٧٩ . وفي شباط / فبراير ١٩٨٦ تخلى علناً عن اتفاقه مع عرفات . وفي أيار سافر الأسد إلى عمان في أول زيارة للأردن منذ عام ١٩٧٧ . لقد فرض على حسين استراتيجيته في التعامل مع اسرائيل ، وبذلك أزاح التهديد لخاصرة سوريا الجنوبية .

كانت المقارعة وحشية وعنيفة ضحى فيها الجانبان بالبيادق ، وبعد مثل هذا الصراع لم يكن عجيباً أن الثقة والمودة لم تعودا بشكل كامل . فقد أرغم حسين على التراجع بسبب حقائق القوة ولكن.موضوع الضفة الغربية المعقد ظل بدون حل ، فتأكد من ذلك أن اللاعبين سوف يبذلون محاولات جديدة لتأمين الحلول التي يفضلها كل منهم . وحتى عندما كان حسين ينحني لارادة الأسد ، كان بيريز (الذي أصبح رئيساً لوزراء اسرائيل) يرتّب مخططات جديدة لجرّه بعيداً عن فلك سوريا ، عن طريق الاغراءات .

استفحال الارهاب

كان مبدأ الأسد حول أمن المشرق فيما بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٥ يتطلب

منه أن يبعد جيرانه ، لبنان والأردن ، بالقوة عن عقد تسويات منفصلة مع اسرائيل . ولكنه في خوضه لهذه المعارك أطلق من القماقم شياطين لم تكن السيطرة عليها سهلة . كان حسناً أن يستخدم «أبو نضال» ضد الأردن لوقف خطر معين لو أن العملية كانت تنتهي عند هذا الحدّ . ولكن «أبو نضال» كان قاتلاً له حماة ورعاة آخرون ، ولديه قائمة خاصة به . ذلك أن الاغتيالات المنسوبة إليه مثلاً فيما بين عامي ١٩٧٨ و١٩٨٣ ـ قبل أن تحتضنه سوريا ـ شملت ممثلي منظمة التحرير في لندن ، والكويت ، وباريس ، وبروكسل ، والبرتغال ، وكانت لها علاقة بصراعه مع عرفات . ولكن الواقع أنه قد أصبح مدمراً للحركة الفلسطينية بحيث بدأ كثيرون من العرب يعتقدون بأن جماعته قد اخترقتها الموساد .

وعلى كل حال فقد كان من بين ضحاياه الآخرين إسرائيليون مثل المستشار التجاري الذي اغتيل في بروكسل في حزيران / يونيو ١٩٨٠ ، أو مجرد يهود ، مثل رئيس الرابطة النمسوية ـ الاسرائيلية الذي اغتيل في فيينا في أيار / مايو ١٩٨١ . وفي آب / اغسطس من ذلك العام وقع هجوم على كنيس يهودي في فيينا . وفي حزيران ـ يونيو عام ١٩٨٢ وقعت محاولة اغتيال السفير آرغوف في لندن ، فأعطت بيغن الحجة التي كان يبحث عنها لبدء حربه في لبنان .

واكتشف الأسد أن النشاطات القاتلة لرجال «أبو نضال» المسلحين الغامضين كالأشباح لا يمكنه إيقافها عندما يشاء . فقد استمروا بالاستفادة من بعض التسهيلات السورية ، كالمعسكرات ، والمأوى لعوائلهم ، والمرور عبر مطار دمشق لشن عمليات خبيثة خطرة لم يأذن بها الأسد ، كالهجوم على اكشاك إلْ عال في مطاريْ روما وفيينا في كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٥ ، واختطاف طائرة بان آميركان من على الأرض في مطار كراتشي في أيلول / سبتمبر ١٩٨٦ حيث قتل اكثر من عشرين شخصاً ، وبعد بضعة أيام من ذلك الحادث هاجم إرهابيون بالرشاشات كنيساً يهودياً في إسطنبول ، ومرة أخرى قتلوا أكثر من

عشرين . وفي كل حالة كان هناك ما يشير إلى علاقة «أبو نضال» . ولكن لم يستطع أحد أن يعرف بالضبط مَن الذي أمر بهذه المهمات ومَن الذي مَوّلها .

لم تخدم تلك الهجمات أي مصالح سورية ، ولم تقع ضمن أي استراتيجية سورية . بل لقد فوجىء بها الأسد ، وعبّر عن غضب شديد عندما قُرِنَ بها اسم سوريا . وأصرّ الناطقون باسم سوريا على أن مكاتب «أبو نضال» بدمشق لم تكن تعمل آنئذٍ إلاّ بالدعاية والإعلام . وبدأت وكالات المخابرات الغربية تعتقد بأن «أبو نضال» قد اتجه إلى ليبيا للحصول على الدعم بعدما لم تعد سوريا بحاجة إليه (عُثِرَ على أجزاء من قنابل يدوية مصدرة من بلغاريا إلى ليبيا في مطاري روما وفيينا وكنيس إسطنبول واتضح أنها مأخوذة من نفس المستودعات) .

وكان طفح الارهاب في لبنان ضاراً بالأسد كذلك . فلكي يطوي الأسد قوة ونفوذ اسرائيل في لبنان ، شجع المقاومة التي شنها المقاتلون الشيعة وغيرهم من المتشددين اللبنانيين . وكان من بين نتائجها اغتيال بشير الجميل ، ونسف السفارة الأميركية ، وقتل جنود البحرية واستمرار الهجمات الفدائية على قوات الغزو الاسرائيلية ، وهي عمليات طردت الأميركيين وجعلت الاسرائيليين يتراجعون نحو حدودهم ، ولكن مثلما لم يكن بالإمكان إطفاء «أبو نضال» ، فكذلك لم يعد بالإمكان إيقاف المقاومة اللبنانية ، إذ أنها لم تكن قوة مرتزقة تتلقى أوامرها من دمشق ، بل مجموعة من التنظيمات اللبنانية تقاتل كل منها في سبيل أهدافها الخاصة .

وبمجرد أن حطم الأسد الاتفاق الاسرائيلي ـ اللبناني فإن استمرار العنف في لبنان لم يعد لصالحه . واعتباراً من أوائل عام ١٩٨٤ لم تعد له مصلحة في الهجمات الشيعية على أهداف غربية (بعكس الأهداف الاسرائيلية) ، وقد حاول أن يفرض نظامه ، غير أن الشيعة الناهضين نهوضاً كاملاً كانت لهم مظالم لم تتطابق مع أهدافه إلاّ في بعض النقاط . فحركة أمل التي تمثل المجرى

الرئيسي العام للحركة الشيعية ، والتي سيطرت على بيروت الغربية في شباط / فبراير ١٩٨٤ كانت في حرب مع الدولة اللبنانية ، ومع الفلسطينيين الذين كان وجودهم يعرّض الشيعة لعقوبة اسرائيلية واسعة النطاق . وبالإضافة إلى ذلك كانت الحركة الشيعية في لبنان منقسمة على نفسها ، فبينما كانت أمل متحالفة تكتيكياً مع سوريا ، فإن حزب الله ، الأكثر ميلاً إلى استلهام الدين ، والمهتم بالثورة الاسلامية بقدر اهتمامه بالسياسة اللبنانية ، كان له حبل سُرِّيّ يربطه بإيران .

وكان من رجال الاغتيالات النموذجيين التابعين لحزب الله عماد مغنية ، الشيعي من منطقة بعلبك ، وابن أخ الزعيم الديني البارز ، الشيخ محمد جواد مغنية(٥) . وفي أواخر السبعينات ، كان عماد قد عمل في وحدة الأمن التابعة لعرفات والمعرفة باسم القوة ١٧ قبل أن يجنده الايرانيون لخدمتهم عندما كان يُعتَقَدُ بأن له يداً في الهجمات على السفارة الأميركية ، وثكنة جنود البحرية . وربما كان مشتركاً كذلك في اختطاف وليام بكلي مدير محطة بيروت لوكالة المخابرات المركزية الأميركية ، في آذار / مارس ١٩٨٤ . وكان بكلي ، الذي يقال إنه مات تحت التعذيب في حزيران / يونيو ، واحداً من أوائل ضحايا موجة خطف الرهائن التي شاع للبنان صيت سيء بسببها فيما بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٨ . ففي النضال ضد إسرائيل والغرب ، لم يتورع الشيعة عن الخطف . وكان من بين عملياتهم الكثيرة عمليات لفتت أنظار العالم إليهم مثل اختطافهم في ١٤/ ٧/ ١٩٨٥ لطائرة ركاب أميركية تابعة لشركة TWA وعلى متنها ٢٤٤ راكباً . وقد طاروا بها عبر الأبيض المتوسط جيئة وذهاباً ، وأطلقوا بعض الركاب خلال توقفهم في الجزائر قبل أن يهبطوا في بيروت ومعهم ٣٨ من الرهائن الأميركيين الأقحاح الذين كان واحدٌ منهم غواصاً في الأسطول ، فاغتالوه .

ولم يكن أي شيء من هذا كله ليخدم أغراض الأسد ، ولكن لم تكن لديه قدرة على إيقافه . فشجب خطف الرهائن شجباً شاملاً لا لبس فيه واعتبر

الخاطفين أناساً يضرون بالقضية العربية[٦] . ولم يسمح لأعضاء حزب الله بدخول دمشق ، وكان يعتقد بأن أساليبهم تمحو خط التمييز الفاصل بين نضال العرب المشروع من أجل التحرر الوطني ، وبين الإرهاب ، وامتدح الحملة الفدائية ضد اسرائيل في جنوب لبنان ومجّد شهداءها كالفتاة اللبنانية التي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها سناء محيدلي ، عضو الحزب القومي السوري ، التي ماتت في هجوم انتحاري على «حزام اسرائيل الأمني» في نيسان / إبريل عام ١٩٨٥[٧] . ولكنه شجب العنف العشوائي ضد المدنيين الأبرياء .

ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يعالج مشكلة المتطرفين بمواجهة مباشرة خشية أن يؤدي ذلك إلى تعريض تحالفه مع إيران للخطر ، كما أنه كان يرغب في الاستفادة من كل ذرة من التصلب الشيعي في متابعة النضال ضد اسرائيل في الجنوب . وكان يساعد كلما استطاع في تأمين إطلاق سراح الرهائن كما فعل في حالة المراسل الأميركي جيري ليفين في ١٥/ شباط ـ فبراير سنة ١٩٨٥ وآخرين غيره . وفي أزمة اختطاف طائرة TWA التي تطاولت وامتدت في حزيران / يونيو مَنَعَ الخاطفين من بعثرة رهائنهم ، ثم أخذ على عاتقه التفاوض معهم بدلاً من زعيم أمل نبيه بري وأطلق سراح الأميركيين الباقين عن طريق دمشق في ٢٩/ حزيران ـ يونيو .

وكان شولتز في واشنطن ، والقائمة بالأعمال الأميركية آبريل غلاسبي في دمشق يعرفان أن الأسد قد بذل جهوداً شاقة فعلاً لانهاء أزمة اختطاف طائرة الـ TWA ، إلى درجة أنه خرق قواعده نفسها بدعوة زعماء حزب الله من بعلبك إلى دمشق . وهيأت وزارة الخارجية رسالة شكر كي يبعثها إليه ريغان . ولكن الكولونيل أوليفر نورث ، ومساعداً آخر مؤيداً لاسرائيل هو هوارد تيتشر استبدلا بنصّ تلك الرسالة نصاً آخر وضعاه بأسلوب يكاد يكون مهيناً . وقد غضب الأسد إذ شعر بأنه قد وبِّخ بدلاً من أن يكافأ وعندما ضُغِطَ على ريغان ليتحدث مع

الأسد هاتفياً ، كانت رسالة نورث ـ تيتشر أمام الرئيس الأميركي فقرأها على الهاتف ، وبذلك زاد في الاهانة تعقيداً . وظهر للأسد أن الولايات المتحدة كانت تريده أن يروّض أو يدجن الارهابيين في لبنان ، بينما تبقى هي لا مبالية تجاه حاجاته الأمنية . وأقنعت وزارة الخارجية نائبَ الرئيس ، جورج بوش ، أن يكتب رسالة ذات صيغة ودية أكثر دفئاً الى نائب الرئيس السوري خدام ، ولكن ذلك لم يصلح الضرر إلاّ جزئياً .

وظلت وصمة الارهاب (التي اكتسبها الأسد في حملته لمنع لبنان والأردن من الانزلاق للدوران في فلك اسرائيل) تلاحقه بل لقد تكرر كثيراً اعتباره مسؤولاً عن أعمال للمتطرفين لم تكن له بها أية علاقة . وحتى جهوده من أجل الرهائن الغربيين كانت غالباً ما يُنظَرُ إليها على أنها إشارات منافقة يغطي بها استمرار استعماله للعنف(٨) . بل لقد ثبت أن أعداءه قد تلقفوا وصمة «الإرهاب» هذه كنعمة جاءتهم ليستخدموها ضده .

الارهاب والارهاب المضاد

وأعطى الارهاب العربي فرصة لشيمون بيريز ، الذي كان يطمح منذ زمن طويل إلى تسوية المشكلة الفلسطينية بصفقة منفردة مع الأردن ، وكان ذلك واحداً من جوانب سياسته كرئيس للوزراء من أيلول / سبتمبر ١٩٨٤ إلى أيلول / سبتمبر ١٩٨٦ ، وبعد ذلك كوزير للخارجية عندما تبادل المناصب مع شامير في حكومة «الوحدة» الاسرائيلية . ولكن عقد صفقة مع حسين كان يستلزم إطلاقه من القيود السورية وقيود منظمة التحرير الفلسطينية . وهكذا لم يكن الصراع على الأردن مختلفاً عن الصراع على لبنان . فلكي تحصل اسرائيل على ما تريد كان عليها تحييد سوريا والمنظمة ، بل وحتى دحرهما. ففي لبنان تمكنت سوريا من تفادي الإندحار وحرمان اسرائيل من الفوز ، وكان بيريز حريصاً على إظهار أنه سيكون أفضل حظاً في الأردن . ولعل توجيه تهمة الارهاب ضد الأسد كان إحدى وسائله لتحقيق غرضه . فلقد أدرك بيريز أنه إذا

استطاع إثبات هذه التهمة فسوف يبعد سوريا والمنظمة عن الساحة ويقلص قدرتهما على عرقلة تحقيق أهداف اسرائيل .

وقد كان من سياسة اسرائيل منذ زمن طويل أن تدمغ المقاتلين الفلسطينيين بأنهم «إرهابيون» لكي تبرر تقتيلهم وتحرم قضيتهم من أية مشروعية . غير أن اسرائيل قررت توسيع استغلالها لموضوع الارهاب توسيعاً عظيماً لجعله يلعب دوراً في تكييف وتشكيل المواقف الأميركية . وكانت الأرضية الخلفية هي النكسة الخطيرة التي تعرضت لها كل من أميركا واسرائيل في لبنان . فبعد تلك الصدمة تخلت أميركا عن المعالجة المضنية والمثبطة لقضايا النزاعات في الشرق الأوسط وبدأت تركز بدلاً من ذلك على مكافحة «الارهاب الرسمي الذي تدعمه الدولة» واعتبرت ذلك مهمة أكثر رجولة . وكانت اتفاقية التعاون الاستراتيجي الأميركي ـ الاسرائيلي (التي وقعت في عام ١٩٨١ وجمدت بسبب ضم الجولان ، وأعيد إحياؤ ها بصورة غير رسمية على يد هيغ في عام ١٩٨٢ وتنشيطها بقوة على يد شولتز في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٣) تعطي إسرائيل فرصاً واسعة لتوجيه السياسة الأميركية في هذا المنحى . وكان العلاج هو تجريع الارهابيين من نفس الدواء ، بدلاً من تتبع جذور الإرهاب ورد أسبابها إلى تشريد الفلسطينيين وإلى الشعور الملتهب لدى الشيعة بأنهم مظلومون ، وإلى الغزو الاسرائيلي للبنان ، وإلى حاجة سوريا لحماية نفسها من اعتداءات وتطاولات اسرائيل . وهكذا أصبح الارهاب موضوع الساعة في الولايات المتحدة . والحق أن السياسة الأميركية تجاه الصراع العربي ـ الاسرائيلي كله قد تضاءلت لتصبح قاصرة على مجرد «مواجهة الإرهاب» .

وقد أسهم في هذا الاتجاه التحيز الشخصي لدى بعض موظفي الادارة الأميركية ـ فشارلي هيل مثلاً كان هادئاً دمثاً ليّن الحديث يعمل كنائب لمساعد وزير الخارجية لمكتب الشرق الأدنى وجنوب شرقي آسيا ، فأصبح مساعداً

تنفيذياً لشولتز في صيف عام ١٩٨٤، وكان منحازاً انحيازاً قلبياً تاماً لاسرائيل . ثم ان الموظفين والطواقم من مؤيدي اسرائيل أمثال هوارد تيتشر ، ومايكل ليدن ، وبيتر ردمان في وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومي الأميركي كانوا ذوي نفوذ كبير ، وكذلك الرجل رقم ٣ في وزارة الخارجية بين عامي ١٩٨٢ - ١٩٨٤ واسمه لورنس إيغلبرغر .

وكان من العوامل الهامة التي أثرت على الرئيس ريغان في ذلك الحين محضر جلسات مؤتمر عقد في واشنطن في حزيران / يونيو ١٩٨٤ ونظمه معهد جوناثان الاسرائيلي ، وقد قام بتحرير ونشر وقائع ذلك المحضر فيما بعد سفير اسرائيل في الأمم المتحدة بنيامين ناتانياهو ، ونشرها تحت عنوان : «الإرهاب : كيف يستطيع الغرب أن ينتصر»(٩) . ومثل كتاب كلير ستيرلنغ المعنون : شبكة الارهاب الذي طبع سنوات ريغان الأولى ، أصبحت الأوراق المقدمة في ذلك المؤتمر هي النصوص المعتمدة في هوس أميركا بهاجس الارهاب في فترة رئاسة ريغان الثانية . بل لقد أصبحت جزءاً من حملة حرب نفسية مفصلة بعناية فائقة ضد منظمة التحرير ، وسوريا ، وليبيا ، وساعدت على إقناع الرأي العام بأن أعداء اسرائيل هم أيضاً أعداء أميركا . وبأن العرب الذين ينازعون اسرائيل هم إرهابيون ، وبأن استعمال القوة الوحشية ضدهم ليس أمراً مشروعاً فحسب ، بل وضرورياً كذلك .

وكتب ناثانياهو : «إذا قامت حكومة بإيواء أو تدريب أو اطلاق إرهابيين ، فإنها تصبح هدفاً مشروعاً لردّ عسكري . ويجب على الحكومات أن لا تستبعد احتمال رد عسكري استبعاداً تاماً لمجرد أن ذلك قد يؤدي للمخاطرة بسقوط ضحايا مدنيين»(١٠) . وقد وافق جورج شولتز على ذلك ، وناقش في محاضرته في ذلك المؤتمر كون «الدفاع السلبي المحض» لا يكفي كرادع ، وقال إن المطلوب هو «أعمال وقائية أو استباقية مناسبة ضد المجموعات الارهابية قبل أن تضرب ضربتها»(١١) . وأما موشي آرينز الذي كان وزيراً للدفاع في اسرائيل فقد

حدد سوريا على أنها أهم دولة إرهابية تستخدم مخابراتها (بأجهزتها المنتشرة في جميع أنحاء العالم) فلسطينيين ، وأرمن ، ويابانيين ، وحتى تايلانديين ![١٢] .

وأبعدت تلك الأوراق في المؤتمر المذكور الارهابَ عن أي سياق سياسي أو اجتماعي ، وعاملته على أنه نوع آخر من «الجريمة المنظمة»[١٣] . وقالت ميدج ديكتر ، خبيرة الدعاية اليمينية النزعة والمؤيدة لإسرائيل ساخرة : «إن فكرة كون الارهابيين يجسدون أو يمثلون مصالح جماعات مظلومة قد حررت الكثيرين في الغرب من الاضطرار إلى تحمل عبء العمل الأخلاقي والسياسي والعسكري[١٤] . وأما الكاتب البريطاني بول جونسون فكان من الغلظة وتبلد الأحاسيس بحيث هنّأ اسرائيل فعلاً على غزوها للبنان في عام ١٩٨٢ ، وقال : «إن اسرائيل بامتلاكها الشجاعة الأدبية والمادية لانتهاك ما يسمى حدوداً ذات سيادة ، قد تمكنت لأول مرة من أن تضرب في قلب السرطان»[١٥] .

وقد جاءت الأعمال بعد الأقوال .

فالمخابرات الاسرائيلية والأميركية كانت تشك في أن الزعيم الروحي لحزب الله ، الشيخ محمد حسين فضل الله[١٦] هو الدماغ المدبر للتفجيرات وعمليات الخطف الموجهة ضد الأميركيين في بيروت . فاتخذت قراراً بقتله . وفي ٨/ آذار ـ مارس انفجرت سياسة كبيرة مفخخة بالقرب من شقته في إحدى ضواحي بيروت فقتلت ٨٠ شخصاً وجرحت ٢٠٠ في خليط من ركام المباني المنهارة والسيارات المحطمة بينما نجا فضل الله فلم يصب بأذى . وبعد عامين من الحادث ذكرت **الواشنطن بوست** أن التفجير قامت به مجموعة تتألف من رجال مخابرات لبنانيين وأجانب دربتهم وكالة المخابرات المركزية تحت غطاء برنامج عمل سري مصرّح به من قبل ريغان[١٧] . ولكن بوب وُدْوُوْرد في كتابه عن الوكالة المذكورة يروي أن وليام كيسي قد استدرج مبلغ ثلاثة ملايين

دولار من السعوديين من أجل تلك العملية . التي كان يديرها ميدانياً مرتزق إنكليزي[١٨] . وكانت محاولة اغتيال فضل الله مقدمة لأعمال مكشوفة من أعمال الحرب ضد أهداف عربية ، وهي أعمال قامت بها اسرائيل والولايات المتحدة و«بررتها» كلها تحت اسم الحملة الصليبية لمكافحة الإرهاب .

ففي ١/ تشرين الأول / أكتوبر شنت ثمان طائرات ف ١٦ اسرائيلية غارة على مقر منظمة التحرير قرب تونس فقتلت ٥٦ فلسطينياً و١٥ تونسياً وجرحت زهاء مائة آخرين . ونجا عرفات من الموت بأعجوبة . فتغاضى ريغان عن الغارة واعتبرها «رداً مشروعاً» على الإرهاب ، لأنها صُنِّفت على أنها انتقام لقتل ثلاثة اسرائيليين (يُعْتَقَدُ بشكل واسع أنهم من عملاء الموساد) على يخت في لارنكا بقبرص . ولكن حجم العملية الاسرائيلية كان يشير إلى هدف أكثر طموحاً : فاسرائيل لم تكن تريد فقط إزالة عرفات ، بل أيضاً ضمان عدم اشتراك المنظمة في أية مفاوضات إذْ أنَّ المنظمة كانت عندئذٍ مرتبطة بحسين ارتباطاً غير وثيق نوعاً ما باتفاقية شباط / فبراير ١٩٨٥ . ولقد عُلِمَ فيما بعد أن ضربة اسرائيل صارت ممكنة بفضل معلومات من الأقمار الصناعية الأميركية عن مجمع سكن ومقر المنظمة جَلَبَها لاسرائيل جوناثان جي بولارد الذي كانت وظيفته في قيادة الأمن والتحقيقات في الأسطول الأميركي تمكنه من تزويد اسرائيل بمعلومات سرية بكميات هائلة . وقد ألقي القبض على بولارد في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٥ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة لاتهامه بالتجسس وصدر الحكم في آذار / مارس ١٩٨٧ .

ورداً على غارة تونس قامت مجموعة فلسطينية من جبهة التحرير الشعبية يقودها أبو العباس بخطف سفينة الركاب الايطالية آكيلي لاورو في ٩/ ١٠/ ١٩٨٥ ، وعندما وقع خطأ في العملية قتلت المجموعة ليون كلينغوفر اليهودي الأميركي المقعد الذي كان بين ركاب تلك السفينة . وقد ألقت الأمواج بجسده على الشاطىء السوري ؛ فسلمه السوريون للسلطات الأميركية . كانت تلك طريقة الأسد في إبعاد نفسه عن تلك الفعلة الشنعاء .

وكان تصوير ليبيا على أنها بعبع عملية تنسجم جيداً مع حملة اسرائيل لشجب وإدانة كل المتشددين أو المتصلبين العرب . ولقد عمل تاجر أسلحة إيراني يـدعى مانوشير غربا نيفار (عُرِفَ فيما بعد بأنه عميل اسرائيلي) على إلهاب جو واشنطن بحكايات رَاح يبثها عن «خطط القذافي الارهابية» ، ومن بينها خطة مزعومة لقتل الرئيس الأميركي . وعندما التقطت إشارات لاسلكية كان يبدو أنها تربط ليبيا بانفجار في مرقص يرتاده الجنود الأميركيون في برلين الغربية ، هوجم منزل القذافي والحيّ الذي هو فيه في طرابلس وأهداف ليبية أخرى من قبل طائرات أميركية انطلقت من قواعد بريطانية . ونجا القذافي فلم يصب بأذى ، ولكن عشرات المدنيين الليبيين قتلوا ، بما فيهم طفلة كان القذافي قد تبناها . وقد ظلت المخابرات الاسرائيلية تزود الأميركيين باستمرار بآخر النشرات عن مكان تواجد القذافي . وكانت آخر نشرة في الساعة ١٥/ ١١ بالتوقيت المحلي الليبي ، قبل ساعتين و٤٥ دقيقة من بدء الغارة[١٩] . وقد قَوْلَبَ الأميركيون تلك الغارة على غرار محاولة اسرائيل لقتل عرفات قَبْلَهَا بستة أشهر في تونس ، وكانت الغارة تقصد بوضوح قتل القذافي .

لقد كسبت اسرائيل قبولاً واسعاً لوجهة نظرها في الصراع العـربي الاسرائيلي ، فعنف خصومها كان يسمى «إرهاباً» . أما عنفها هي فيسمى «دفاعاً مشروعاً عن النفس» . ومع ذلك فقد قال ريتشارد روبنشتاين في كتابه «كيماويو الثورة» : «ليست هناك قوة أكثر إرهاباً من دولة قومية في حالة حرب»[٢٠] .

هجمات على الأسد

من وجهة نظر إسرائيل كان الأسد هدفاً أهم بكثير من عرفات أو القذافي . ومنذ أواخر خريف سنة ١٩٨٥ بدأوا يوجهون إليه تهديدات بالحرب ، وأعمالاً حربية . ففي ١٩/ ١١/ ١٩٨٥ أسقطت إسرائيل فوق الأراضي السورية طائرتين سوريتين من طراز ميغ ٢٣ أثناء عودتهما بعد اقترابهما من طائرة استطلاع اسرائيلية كانت تحلق فوق لبنان . وفي حركة بدت كأنها تكرار لما

حدث في أزمة الصواريخ عام ١٩٨١ ، نقل الأسد بطاريات سام إلى الحدود وإلى داخل البقاع ، متحدياً السيطرة الاسرائيلية على المجال الجوي اللبناني . وتطلبت عملية إرجاع «سام» من البقاع كثيراً من الجهود الدبلوماسية الأميركية .

ولم يكن الضغط على الأسد عسكرياً فقط . ففي كانون الثاني / يناير عام ١٩٨٦ شجعت أميركا واسرائيل الموارنة المتطرفين جداً على نسف «اتفاق ثلاثي» بين زعماء الميليشيات الشيعية والدرزية والمارونية كان الأسد قد رتبه كأساس للمصالحة الوطنية اللبنانية . كانوا لا يريدون السماح لرأي سوريا بأن يسود في لبنان . وكانت هناك حوادث أخرى قصدوا بها إغاظته . ففي ٤/ شباط ـ فبراير ١٩٨٦ أرغمت مقاتلات إسرائيلية طائرة ليبية صغيرة خاصة على الهبوط في اسرائيل . وكانت تنقل وفداً سورياً عائداً إلى وطنه ويترأسه الأمين العام المساعد لحزب البعث ، عبد الله الأحمر . وقدمت سوريا شكوى لمجلس الأمن ولكن الولايات المتحدة استخدمت حق الفيتو لحماية اسرائيل من الإدانة ، فأكد السوريون أنهم سينتقمون .

ثم وقعت سوريا نفسها ضحية هجوم إرهابي حَمَّلت مسؤوليَّة وقوعه لجهات مختلفة ، للعراق ، وعملاء اسرائيل في لبنان ، والإخوان المسلمين ، ووكالة المخابرات المركزية ، ففي ١٣/ آذار ـ مارس سنة ١٩٨٦ وقع انفجار ضخم لسيارة مفخخة في وسط مدينة دمشق . فكان الطلقة الأولى في حملة إرهابية بَدَا وكأنها مصممة لزعزعة استقرار نظام الأسد . وفي ١٦/ نيسان ـ ابريل ، اليوم التالي للغارة الأميركية على ليبيا انفجرت قنابل في سيارات وقطارات في أنحاء مختلفة من سوريا فقتلت ما لا يقل عن ١٤٤ شخصاً وجرحت كثيرين آخرين . ولعل تلك الحملة لم تكن بعيدة عن أصابع أميركا واسرائيل . إذ أن الكولونيل أوليفر نورث التابع لمجلس الأمن القومي الأميركي كان قد اشترك منذ أواخر عام ١٩٨٥ مع عميرام نير ، مستشار بيريز الخبير بمكافحة الارهاب ، في تشكيل طاقم يمارس الأحابيل القذرة لضرب «المشرفين» المزعومين على الارهاب في الشرق الأوسط(٢١) .

وزادت هذه الحوادثُ العنيفةُ المخاوفَ من نشوب حرب اسرائيلية ـ سورية . كان موشي آرنز قد هيأ خطة طوارىء جاهزة لمهاجمة سوريا عندما كان وزيراً للدفاع في حكم بيغن . وقد أضاف إليها رابين مستجدات أحدث بعدما حل محل آرنز . ونظراً لتسامح أميركا مع عمليات اسرائيل العسكرية اعتقد الزعماء الاسرائيليون بأنهم كانوا يستطيعون الاعتماد على تصفيق هادىء من واشنطن إن استطاعوا توجيه ضربة قاضية على طراز ١٩٦٧ . فلم تكن واشنطن تتعاطف أبداً مع طموح الأسد لتحقيق التوازن مع اسرائيل ، ولا تتفهم أسباب دوره في «تخريب» محاولات التسوية المنفردة مع لبنان والأردن ، ولا كانت تحب إصراره على إعطاء الاتحاد السوفياتي دوراً في عملية السلام .وكانت حرب اسرائيل النفسية في موضوع «الارهاب المضاد» قد هيأت الرأي العام الغربي لتقبل معاقبة الأسد كما فعلت من قبل بالنسبة لعرفات والقذافي . وفي ربيع عام ١٩٨٦ بدت سوريا واسرائيل وكأنهما على حافة الحرب .

ومع ذلك فقد كان الاسرائيليون بعيدين عن الاجماع على حكمة شن هجوم على سوريا . ومن بين العسكريين كان رئيس الأركان موشي ليفي رجلاً متعقلاً أدرك أن الثمن سيكون باهظاً . فإن جيش الأسد الذي يقرب عدده من نصف مليون كان قد تعلم التعامل مع الأسلحة المعقدة ، ولا شك في أنه سيقاتل بشكل هائل . وكان من هموم اسرائيل المقلقة بشكل خاص حائط الدفاع الجوي الذي بناه السوفيات حول سوريا ، وقذائف أرض ـ أرض الجديدة التي ربما يكون بعضها مزوداً برؤوس حربية كيماوية ، مما أثار لأول مرة المخاوف من شبح سقوط ضحايا مدنيين على نطاق واسع في اسرائيل .

وتبودلت اتصالات عاجلة بين أميركا والاتحاد السوفياتي في ربيع عام ١٩٨٦ ، بينما كانت كل من اسرائيل وسوريا تجري مناورة ميدانية على الأرض أكبر وأوسع من ذي قبل . وبناء على تعليمات شخصية من غورباتشوف أخبر دبلوماسيون سوفيات وزارة الخارجية الأميركية أن الدول الكبرى عليها مسؤولية

ضبط زبونيها وإبعادهما عن الحافة[٢٢] . وفي ٢٨ / أيار ـ مايو أعاد غورباشوف علناً توكيد الالتزام السوفياتي بالدفاع عن سوريا . وأقلقت هذه الاشارات واشنطن ، فأخذت تحث اسرائيل على ضبط نفسها .

ولقد كان للهجمات على عرفات ، والقذافي ، والأسد خلال عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦ هدف سياسي أول . كانت مصممةً على خلق ظروف مناسبة لبيريز ليستمر في خطب ود الملك حسين ولتسمح لاسرائيل بحل المشكلة الفلسطينية وفقاً لشروطها هي . فقد أثبت الأسد أنه أعظم عقبة في وجه أهداف اسرائيل في المشرق . ولم يكن باستطاعة إسرائيل أن تتحرك بلا تحدٍّ إلّا إذا أزاحته ، أو على الأقل أخافته بحيث يبتعد عن المشهد . وهكذا طرح سؤال حساس قدر له أن يظل كامناً خلف المسرح السياسي في الشرق الأوسط بينما كان عقد الثمانينات يتجه إلى نهايته . وهو : هل تستطيع اسرائيل الحصول على ما تريد بدون التعامل أولاً مع سوريا الأسد؟

وهكذا فبينما كانت نيران الحرب تُغذى على الجبهة السورية بدأ شيمون بيريز منذ خريف ١٩٨٥ وحتى بداية عام ١٩٨٦ يطبِّل ويزمر «لمبادرة سلام» تهدف إلى اجتذاب الملك حسين إلى محادثات مباشرة ، وخلق بيريز تأييداً لهذه «المبادرة» في أوربا والولايات المتحدة ، عارضاً على الأمم المتحدة في اجتماع جميعتها العامة خطة لاحلال السلام «في غضون ثلاثين يوماً» ومظهراً «مرونة» باقتراح منبر دولي (إشارة نحو المطلب العربي بعقد مؤتمر دولي) كتمهيد للمفاوضات الثنائية . ودعا حسيناً للتقدم الى الأمام بينما أوضح بأنه يعتبر سوريا غير مستعدة ، ومنظمة التحرير غير مقبولة بأي ثمن ، والاتحاد السوفياتي غير مؤهل أو جدير بالاشتراك ما لم يعد علاقاته الدبلوماسية مع اسرائيل .

وجد بيريز دعماً من رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر التي عقد معها صداقة سياسية خلال زيارته الرسمية للندن في كانون الثاني يناير عام ١٩٨٦

وخلال ردها للزيارة في أيار ـ مايو ، التي كانت أول زيارة من نوعها لاسرائيل من قبل رئيسة وزراء بريطانيّة بينما هي لا تزال في منصبها . وكانت للمسز تاتشر علاقات وثيقة بالملك حسين ، أي أنها كانت في موقع يمكنها من دفع وتشجيع الاتفاق الأردني ـ الاسرائيلي الذي كان بيريز بحاجةٍ ماسة إليه . وربما كان من العوامل التي ساعدت على لعب تاتشر لهذا الدور حقيقة كون بعض أصدقائها ومستشاريها المقربين وأبناء دائرتها الانتخابية في فينتشلي ممن «يتمنون الخير» لحزب العمل الاسرائيلي . كما أنها بدت غير قادرة على استيعاب سبب اعتراض سوريا على مثل هذه الصفقة ، فراحت تعتقد بأن الأسد يقف ضد السلام على وجه العموم . ولم تكن تاتشر ، ولا الصحافة البريطانية ولا البرلمان يكنون أي ودّ للأسد الذي كانوا غالباً ما يصورونه كحاكم بلا رحمة، وغير متعـاون ، ومستمر إلى الأبد في تهديد اسرائيل . وفي عام ١٩٨٥ أثيرت العواطف المعادية لسوريا بشكل أكبر من خلال قضية طنطن بها الاعلام كثيراً وطويلاً عن الدبلوماسي السوري الذي تحدى أمر المحكمة برفض إخلاء شقة في لندن إلى أن لجأ صاحبها إلى تقديم عريضةٍ للملكة .

هكذا كان طراز الأمور في منتصف الثمانينات . كان بيريز في مغازلته للملك حسين يكافح من أجل تسويد صفحة الأسد وإبعاده عن طريقه، بينما كان الأسد يقاتل ، بدون أن يتجنب استعمال الإرهاب لإبقاء الأردن في الحظيرة العربية .

قضية الهنداوي

وبينما كانت الأمور جامدة في هذا المأزق وقعت حادثة إرهابية دراماتيكية جلبت للأسد إحراجاً جديداً ، وبدا أنها سترجح الكفة لصالح بيريز .

ففي ١٧/ نيسان ـ ابريل ١٩٨٦ وفي مطار هيثرو بُعَيْدَ التاسعة صباحاً اكتشف حارس أمن اسرائيلي كيلوغراماً ونصف كيلوغراماً من مادة السيمتكس

البلاستيكية الشديدة الانفجار من صنع تشيكوسلوفاكي في طبقة خفية من قاع مزور لحقيبة امرأة ارلندية اسمها آن مورفي كانت على وشك الصعود بها إلى طائرة إلى عال المتجهة إلى تل أبيب . وكان مفجر القنبلة مموهاً على شكل آلة جيب حاسبة . وكانت آن مورفي وصيفة في أحد فنادق لندن ، وقد أعطاها الحقيبـة صديقها الأردني ، نزار هنداوي ، الذي كانت حاملا منه في شهرها الخامس، وقد وعد بأن يلحق بها إلى اسرائيل حيث سيتزوجان. وكان الهنداوي في الثانية والثلاثين من عمره، وقد أخذ «خطيبته» إلى المطار بسيارة تكسي، وهيأ القنبلة على الطريق بإدخال بطارية في الآلة الحاسبة، وكانت موقتة للانفجار أثناء تحليق الطائرة.

وترك الهنداوي خطيبته في هيثرو ، وعاد إلى غرفة في فندق رويال غاردن في حيّ كنسنغتون محجوزة لموظفي الخطوط الجوية العربية السورية . وفي ضحى ذلك اليوم ركب حافلة تقل أطقم طائرات الخطوط السورية عائداً إلى المطار ليلحق بالطائرة المتجهة إلى دمشق والتي تغادر لندن في الثانية بعد الظهر . ولكن قبل أن ينطلق الباص انتشر خبر اكتشاف قنبلة في هيثرو . فنزل الهنداوي مسرعاً وذهب إلى السفارة السورية في ساحة بيلغريف حيث أخبر السفير ، الدكتور لطف الله حيدر بأنه كان في ورطة ، وطلب المساعدة . فأرسله حيدر إلى رجال أمن السفارة الذين أخذوه إلى مكان سكنهم في غربي كينسنغتون ، حيث حاولوا تغيير مظهره ، فحلقوا شعره وصبغوه ، وبات معهم تلك الليلة . غير أنه هرب مبكراً في صباح اليوم التالي واتجه إلى فندق فزتورز في حيّهولاندربارك بلندن حيث كان يعرف صاحبه ، فاستدعى صاحب الفندق أخا الهنداوي (الذي كان يعمل كاتباً في القسم الطبي في سفارة قطر) فأقنعه أخوه بتسليم نفسه .

وخلال اليومين التاليين أخضع الهنداوي لاستجواب مكثف في قسم شرطة بادنغتون غرين ، فأخبر الشرطة أول الأمر بأنه كان يعتقد بأن الحقيبة التي

أعطاها لأن مورفي كانت تحتوي على مخدرات يراد تهريبُها إلى اسرائيل لقاء مبلغ كبير من المال . ثم غير قصته بعد أن قوطع نومه عمداً عدة مرات في الليل . فقال إنه معارض للملك حسين ، وقد طلب مساعدة من سوريا . وأنه قد التقى في دمشق في كانون الثاني / يناير ١٩٨٦ بمدير مخابرات القوة الجوية اللواء محمد الخولي ، وأحد ضباطه ، العقيد هيثم سعيد . وبعد شهر أعطاه سعيد جواز سفر مهمة سوري باسم «عصام شاعر» وأمره بوضع قنبلة في طائرة إل عال في لندن . وأنه قد أرسل إلى لندن في رحلة تدريب . ولدى عودته إلى دمشق عرضت عليه الحقيبة ذات الجيب الخفي ، حيث علّمه سعيد كيف يهيىء القنبلة . وفي ٥/ نيسان ـ إبريل عاد ثانية إلى لندن وأعطيت له في فندق رويال غاردن الحقيبة الحاوية على المتفجرات والآلة الحاسبة التي تعمل كمفجر ، أعطاه إياها رجل يعتقد بأنه من موظفي الخطوط الجوية العربية السورية .

هذا الاعتراف صار أساس قضية المدعي العام في محاكمة الهنداوي .

وقد وقعت حادثة هيثرو هذه بعد يومين من الغارات الأميركية على ليبيا ، وبعد يوم واحد من سلسلة الانفجارات الارهابية التي راح ضحيتها عدة مئات من القتلى والجرحى في سوريا . وعندما سمع الأسد بحادثة هيثرو أيقن بأنه كان في خطر . فقد فجرت قضية الهنداوي حملة عالمية واسعة ضد سوريا رأى فيها الأسد تمهيداً لهجوم فعلي مادي ستقوم به إسرائيل ، إما وحدها أو بالاشتراك مع الولايات المتحدة . لقد كان أعداؤه يريدون إسقاطه ليكملوا عمل اسرائيل غير المنتهي في لبنان ، وللسماح بتمرير صفقة اسرائيلية ـ أردنية . واعتقد الأسد بأن أوربا ، وبريطانيا على وجه الخصوص ، قد انضمت إلى الجبهة الأميركية ـ الاسرائيلية المعادية له[٢٣] .

وفي طوكيو ، حيث عقد مؤتمر القمة لقادة الدول الغربية في ٥ / أيار ـ مايو أصدر رؤساء حكومات أغنى الدول الصناعية السبع في العالم ، وفي مقدمتهم تاتشر ، بياناً فيه إدانة رنانة «للارهاب الرسمي الذي تشرف عليه

الدول» ، فاستنكر الأسد مثل هذه «الأعمال التخويفية» . وقد تصادف انعقاد مؤتمر طوكيو في اليوم الذي قام فيه الأسد بزيارة عمان ، ووضع اللمسات الأخيرة والختم الرسمي على عملية المصالحة بينه وبين حسين ، فاغتاظت اسرائيل من ذلك كثيراً .

وتزايد قلق الأسد عندما ألقى بيريز ورابين معاً خطابات عدوانية ركزا فيها على «دور سوريا المركزي في الارهاب»[٢٤] ، وعندما وصلت تاتشر إلى إسرائيل في أواخر أيار / مايو في زيارة رأى فيها الأسد تعبيراً عن دعم بريطانيا لخطط بيريز لعقد اتفاقية منفصلة مع حسين . ولقطع الطريق على ما كان يخشى أن يوجه إليه من هجوم وشيك ، طار فجأة إلى اليونان في ٢٦/ أيار ـ مايو ، وفي حفل الغداء الذي أقامه رئيس الوزراء باباندريو ، الزعيم الأوربي الوحيد الذي كان الأسد يستطيع أن يعده صديقاً له ، ألقى الأسد خطاباً عاطفياً ساخناً حول الضرورة الحيوية الهامة للتمييز بين الارهاب وبين النضال من أجل التحرر الوطني .

وبعد خمسة أشهر قدم الهنداوي للمحاكمة في محكمة الأولد بيلي ووصلت حملة إدانة وشجب سوريا إلى ذروتها . غير أن الهنداوي تراجع في المحكمة عن روايته حول التورط السوري وادعى بدلاً من ذلك أنه ضحية مؤامرة يعتقد بأنها ربما كانت من تدبير عملاء اسرائيليين ؛ وذكر أن الشرطي السري الرقيب ويل برايس الذي اعتقله واشترك في استجوابه قد هدده بتسليمه إلى الموساد ، وأخبره أن أباه وأخاه كانا أيضاً رهن الاعتقال . وشكا من أن رجال البوليس قد لفقوا الافادات والبيانات المنسوبة إليه وأرغموه على توقيعها دون قراءتها .

وخلال المحاكمة ، أعطى الأسد مقابلة لمجلة تايم الأميركية في ٢٠/ أيار ـ مايو أنكر فيها تورط سوريا وقال إن المخابرات الاسرائيلية قد خططت لعملية الهنداوي كي تستغلها لأغراض سياسية ، ودبرت الخطة بحيث تكتشف

عمداً «على باب الطائرة» ، وعلى أية حال فإن الغرب لم يقتنع بدفاع الأسد ، ولا بتراجع الهنداوي فحكم المحلفون البريطانيون بأنهم وجدوه مذنباً ، وصدر الحكم عليه في ٢٤ ـ تشرين الأول / أكتوبر بالسجن خمسة وأربعين عاماً ـ وهذه أطول فترة حبس في تاريخ القضايا الاجرامية في بريطانيا . وخلال ساعات من صدور الحكم قطعت بريطانيا علاقاتها مع سوريا ورغم أن بريطانيا حثت حلفاءها على اتخاذ اجراءات صارمة ضد الأسد ، فلم يذهب أيٌّ منهم إلى الحد الذي كانت ترغب فيه تاتشر . فالولايات المتحدة وكندا اكتفتا ببساطة باستدعاء سفيريهما بينما تبنت المجموعة الأوربية ـ ما عدا اليونان التي امتنعت ـ برنامجاً من العقوبات المحدودة . ومع ذلك صار الأسد معزولاً .

غير أن تأثير اللوم الدولي عليه قد انثلمت حدته بحادثتين . ففي ١٠/ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ وهو اليوم الذي وافقت فيه دول السوق الأوربية المشتركة على العقوبات ـ حذّر وزير الخارجية السوفياتي الغرب من أن لا يستخدم قضية الهنداوي ذريعةً لفرض العقوبات على سوريا . ثم حدث على نحو غير متوقع ولكن بتأثير أكبر أن رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك قد لاحظ في مقابلة له مع **الواشنطن تايمز** أن مستشار ألمانيا الغربية هلموت كوهل ، ووزير خارجيته غينتشر يعتقدان ـ كما يميل هو أيضاً إلى الاعتقاد ـ بأن «مؤامرة الهنداوي استفزاز مصمم لاحراج سوريا وزعزعة استقرار نظام الأسد» وربما كان وراءها «أناس مرتبطون بالموساد الاسرائيلية» بالتعاون والتواطؤ مع معارضي الأسد السوريين(٢٥) .

وغضب الانكليز من شيراك لأنه خرج على الصف الأوربي ، وربط المسؤولون البريطانيون ملاحظاته بمحاولة فرنسية لاستدراج المعونة السورية ضد الارهابيين في فرنسا وفي لبنان معاً . والواقع أنه أطلق سراح اثنين من الرهائن الفرنسيين في بيروت في اليوم التالي ، حيث سُلِّما إلى الدبلوماسيين الفرنسيين في دمشق ، فكسب الأسد شكر شيراك وثناءه الحار ، غير أن الأسد أُحْرِجَ مرة

أخرى في أواخر تشرين الثاني / نوفمبر عندما أصدرت محكمة في برلين الغربية حكمها على أحمد حاسي ، أخ الهنداوي ، بالحبس أربعة عشر عاماً لعلاقته بانفجار وقع قبل ذلك بثمانية أشهر أي في آذار ـ مارس ١٩٨٦ في مكاتب جمعية الصداقة الألمانية ـ العربية ـ ومثلما فعل الهنداوي ، كان حاسي أول الأمر قد ورط اسم سوريا ، ثم تراجع عن اعترافه عند محاكمته .

وفي أعقاب الحكم على الهنداوي ضاعفت اسرائيل والولايات المتحدة جهودها لجرّ الملك حسين الى محادثات منفصلة . وكانت أعلى نقطة وصلتها تلك الجهود هي اتفاقية لندن التي تمت في شباط / فبراير ١٩٨٧ في اجتماع سري بين حسين وبيريز وافقا فيه على شروط التوسط الأميركي من أجل مفاوضات ثنائية . وقد ادعى بيريز فيما بعد بأن تلك الاتفاقية كانت اختراقاً وفتحاً لم يسبق له مثيل منذ زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ ، وأعلن بيريز : «لدينا الآن شريك . إن الأردن مستعد لمفاوضات مباشرة بعد افتتاح دولي . . إن الافتتاح الدولي لن تكون له صلاحية فرض حل ، أو التدخل في عرقلة أي حل قد نتوصل إليه وهذه هي العناصر الثلاثة التي لم تكن موجودة قط من قبل»[٢٦] .

وأجفل الأسد من هذه التطورات ، فحاول أن يتخلص من قيود تهمة الارهاب المؤذية التي وصفها (في خطاب ناري قتالي ألقاه في أيار / مايو ١٩٨٧) بأنها قد صممت خصيصاً لارغام العرب على تسليم أراضيهم وإجبار سوريا على التخلي عن دورها في العالم . «لقد تآمروا علينا في لبنان ، وتآمروا علينا بفرض حصار اقتصادي ، وتآمروا علينا من خلال الاخوان المسلمين . . . وأخيراً طلعوا بفكرة الارهاب . . . فهل نستسلم؟ هل تخيفنا هذه القوى الكبرى؟ كلا إنها لا تخيفنا»[٢٧] . أكان لدى الأسد سبب للشعور بأنه مظلوم ؟ لقد عبر فيما بعد عن غضبه من استفراد سوريا وتخصيصها وحدها بهذه الاتهامات فقال : «لو كانت السياسة البريطانية ضد الارهاب حقاً لاتخذت تاتشر إجراءات قاسية ضد الاسرائيليين الذين حاولوا اختطاف وزير نيجيري في تابوت

والذين اختطفوا [الفنّي النووي الاسرائيلي المنشق] فعنونو»[٢٨].

إذن ما مدى ذَنْب سوريا في قضية الهنداوي التي كانت نموذجاً من التعقيد الموحل للحرب بين المخابرات المتعادية والتي صارت من خصائص السياسة في الشرق الأوسط في الثمانينات ؟ لا يكاد يوجد شك في أن وكالة سورية ، لعلها في أكبر الاحتمالات مخابرات القوى الجوية التي يترأسها اللواء الخولي كانت متورطة في المحاولة الفاشلة لنسف طائرة إل عال . أما الدافع فربما كان الانتقام لارغام اسرائيل طائرة الوفد السوري على الهبوط فيها قبل ذلك بشهرين . فبالإضافة إلى اعتراف الهنداوي الذي لم يكن حاسماً في ذاته ، كان هناك كثير من الأدلة المستقلة على وجود علاقة سورية . فلقد كان الهنداوي يستعمل في أسفاره جواز سفر حكومي سوري رسمي مكتوب باسم مزيف . وقد أيّدت وزارة الخارجية السورية طلبه للحصول على فيزا لدخول بريطانيا في شباط / فبراير ونيسان / ابريل عام ١٩٨٦ .

وقد أقنعت المخابرات السورية كاتباً محلياً مجنداً لديها يعمل في السفارة البريطانية بدمشق بأن يسلّم طلب الفيزا الثاني في يوم يكون فيه القنصل الذي وقع الطلب الأول موجوداً في الخارج . . . وفي لندن كان العملاء السوريون يعملون تحت غطاء الخطوط الجوية العربية السورية ، وكان الهنداوي سيهرب من بريطانيا منتحلاً صفة أحد أعضاء طواقم الطائرات السورية .

وبالإضافة إلى ذلك فقد اتضح أن المخابرات البريطانية قد التقطت رسالة من السفير السوري الدكتور حيدر تزكي الهنداوي وتوصي به المخابراتِ السوريةَ قبل بضعة أشهر في عام ١٩٨٥ . وبعد اكتشاف القنبلة في هيثرو فإن مقابلة الهنداوي للسفير وطلبه للمساعدة ربما تكون قد روقبت هي الأخرى . وقد عثر على بقايا من شَعْر الهنداوي ومن أصباغ الشعر في شقة رجال الأمن السوريين بلندن حيث أمضى الهنداوي ليلته وأثناء الاعتقال وقبل المحاكمة حاول الهنداوي إجراء اتصال سري مع مسؤولي المخابرات في دمشق طالباً المعونة

مرة أخرى . وهذا كله يَرْقَى إلى أن يصبح قضية مُقْنِعة .

ولكن يبدو مؤكداً كذلك أن الرئيس الأسد ، ورئيس وزرائه الكسم وباقي حكومته لم يكونوا يعلمون شيئاً عن العملية حتى سمعوا أخبارها في الاذاعة . وبغض النظر عن إنكاراتهم ، فإن ذلك لم يكن هو الرأي المتروي والاجتهاد الذي توصل إليه المسؤولون الأميركيون والأوربيون ، بما فيهم الذين كانوا قريبين من القضية في بريطانيا . . ولا رأي القادة العرب ذوي المكانة الجيدة . بل لقد أشارت الحادثة إلى أن المخابرات السورية (شأنها شأن أجهزة المخابرات في البلدان الأخرى أحياناً) لم تكن تحت سيطرة سياسية محكمة بما فيه الكفاية . إلّا أن ارتكاب الفظائع العشوائية لم يكن من أساليب الأسد ، ولو أن تدمير طائرة مدنية اسرائيلية أمكن ربطه بسوريا فإن نظام الأسد ، وبلده ، كانا سيتعرضان لمخاطر هائلة . ولم يكن الأسد من الباحثين عن الانتحار القومي . وإذا أخذنا بعين الاعتبار حرص الأسد باستمرار على تجنب الحرب مع اسرائيل ، فإننا لن نجد أي معنى على الاطلاق لموافقته على قنبلة هيثرو .

ولكن هل كان في القضية أكثر من محاولة خبيثة فاشلة لعملية قام به فرع من فروع المخابرات السورية خارج عن السيطرة؟ إن هناك أدلة توحي بأن الهنداوي ، بل وأخاه الحاسي في المانيا الغربية كانا عميلين مزدوجين اشتغلا لسوريا بينما كانا في الواقع تحت سيطرة إسرائيل . ولعل أكبر الاحتمالات هو أن الهنداوي كان مثيراً للشغب مهمته هي الإيقاع بالمخابرات السورية من أجل تلويث سمعة سوريا وتصويرها على أنها «دولة إرهابية» . والظاهر أنه كان أداة اختراق اسرائيلي للمخابرات السورية . وذلك مثال كلاسيكي من نوعه ؛ ومن خلال الهنداوي تمكنت اسرائيل من مراقبة عملية هيثرو من مبتدئها إلى منتهاها ، وربما تم زرع الهنداوي في صفوف السوريين عمداً ، وربما رأى فيه الاسرائيليون احتمالاً جيداً كعميل مزدوج بعد أن جنّده السوريون ؛ كما أن التقاط الانكليز لرسالة السفير الرمزية الشفرية التي تزكى الهنداوي للمخابرات

في دمشق لا بد وأنه أدى إلى إرسالها الى اسرائيل وتعميمها على بلدان أخرى تتعاون مع بريطانيا في مكافحة الارهاب . فإن كان الأمر كذلك، فإن قنبلة هيثرو لم يكن مقصوداً بها أن تنفجر أصلاً على الاطلاق ، كما أن اكتشافها لم يكن صدفة . وقد أجرى إيان بلاك ، مراسل صحيفة الغارديان في القدس مقابلة مع مصدر أمني اسرائيلي كبير فذهب إلى حد القول بأن المخابرات الاسرائيلية كانت قد تلقت سلفاً تحذيراً عاماً من وقوع هجوم على إل عال[٢٩] .

وخلال القيام بتشريح قضية الهنداوي والتحقيق فيها بعد وقوعها تعاونت سوريا والأردن على أعلى المستويات . فاتضح بشكل قاطع أن عائلة الهنداوي كانت من أصل فلسطيني واستقرت في قرية باقورة بشرقي الأردن ، وكان لها تاريخ من التورط مع الموساد . وكان الأب يعمل طباخاً في السفارة الأردنية في لندن قبل أن يُكْتَشَف أمرُه كعميل وجاسوس لاسرائيل . فحوكم في الأردن وصدر عليه الحكم بالإعدام غيابياً[٣٠] . ولكنه نجا من الاعدام ببقائه في بريطانيا . ولقد قام الهنداوي بتخزين الحقيبة والمتفجرات في شقة أبيه بلندن في إحدى ضواحيها الشرقية لمدة عشرة أيام في نيسان / إبريل ١٩٨٦ . وحسب رواية المصادر الأردنية والسورية فإن اسرائيل قد استعملت التهديد بإعادة الأب إلى الأردن لتكسب تعاون الهنداوي معها [٣١] . ولقد اقتنع الأسد بأن المخابرات البريطانية تحمي الأب رغم أنه هارب من العدالة الأردنية، ولذلك فإنها قد علمت بما كان يدبره الإسرائيليون. وفي رأيه أن تلك لم تكن عملية يمكن القيام بها من وراء ظهر المخابرات البريطانية[٣٢] .

ولعل الهنداوي لم يكن بحاجة إلى إقناع كبير كي يعمل للاسرائيليين ، إذ أن له سجلاً من السوابق كعميل بين الحين والآخر ، وكساعٍ ورجل اتصالات ليس له أي التزام عقائدي . والواقع أنه ، كما قال مسؤول أردني كبير ، كان قد قام في مناسبة سابقة «بأداء مهمة قبض عليها أجراً من الموساد» . كما قام بمهمات صغيرة أخرى مختلفة للأردن ضد الفلسطينيين ، ولسوريا ضد الأردن ،

وللحزب الشيوعي الأردني السري ، ولآخرين ممن استأجروه ودفعوا له . وكان واضحاً أن الهنداوي ظل سنوات عديدة بيدقاً في ميدان الظلال والغموض فيما بين المخابرات المتعادية في الشرق الأوسط . وبسبب هذه الخلفية رفض الأردن تجديد جواز سفره في عام ١٩٨٥ . وعندئذ عرض خدماته على سوريا .

بعد القبض على الهنداوي ، أرسلت نسخ عن وثائق استجوابه إلى اسرائيل بسرعة ؛ ولكن دوائر الأمن البريطانية انزعجت عندما سرّبت اسرائيل إلى الصحف على الفور «اعترافاته» التي تتهم سوريا . فظهرت رواية كاملة لها في صحيفة هاآرتس الاسرائيلية في ٩/ أيار ـ مايو ١٩٨٦[٣٣] .

وقالت مصادر حكومية بريطانية في وايتهول إن قرار بريطانيا بقطع العلاقات مع سوريا على أساس هذه القضية الغامضة قد اتخذته تاتشر في ٢١/ تشرين الأول / أكتوبر ، أي قبل ثلاثة أيام من قرار المحكمة ، وذلك في اجتماع مع كبار وزرائها . وبما أن المدعي العام البريطاني كان يتهم سوريا بقوة فربما اعتقدت بأنها ستواجه عداوة في البرلمان والصحافة إذا لم تتصرف بصلابة . ولا شك في أن رئيسة الوزراء كانت ترى فائدة محلية ودولية من جعل سوريا عبرة ومثلاً . ثم ان أصدقاء سوريا في بريطانيا كانوا قليلين ، ولم يكن لها أي صديق في مجلس الوزراء البريطاني ليدافع عنها ويشرح قضيتها . وكانت وزارة الخارجية ، حسب رأي بعض كبار المسؤولين ضد قطع العلاقات الدبلوماسية على وجه العموم . ولكن رأيها هذا لم يؤخذ به ، وتغلّب عليه رأي داوننغ ستريت . وربما كان من الأشياء التي أثرت على تاتشر أيضاً صداقتُها لبيريز وحسين ، وتصورها بأن سوريا عقبة تعرقل توصلهما إلى اتفاق . ومن المؤكد أن الأسد بدأ يعتقد بأن مخابراته قد وقعت في فخ إسرائيلي ساهمت بريطانيا في نصبه لأغراض سياسية من أجل ممارسة الضغط على سوريا ، وفصلها عن أوربا ، ولتمكين اسرائيل من السيطرة على الوضع[٣٤] .

وخلال الشهور التي انقضت بين القبض على الهنداوي في نيسان /

إبريل ومحاكمته في تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٨٦ اكتفى الأسد بأن ينكر مرة أو مرتين إنكاراً تاماً وجود أي تورط سوري . ولم يستجب لحثّ بريطانيا له بشكل غير رسمي على استدعاء سفيره ، وعلى إبعاد نفسه عن الحادثة بصورة علنية ما . ولعل الرسائل لم تصل إليه قطّ ، وربّما لم يجرؤ أحد من رجاله على إخباره بمدى خطورة الضرر الذي تعرضت له مكانة سوريا . وحاول الملك حسين أن يقنعه بأن يعطي الحكومة البريطانية كلمته الشخصية وتعهده الخاص بعدم وجود تورط . وعرض الملك فهد أن يتوسط أيضاً . ولكن كبرياء الأسد وعزة نفسه لم تجعلاه يوافق . ورغم أن الأسد كان بلا شك غاضباً جداً من اللواء الخولي الذي عرّض نفسه لاختراق إسرائيلي ، فإنه قد دافع عنه في العلن ، بينما ظل ينتظر الوقت المناسب لمعاقبته مسلكياً على طريقته الخاصة . وقبيل نهاية عام ١٩٨٧ ، عندما هدأت الضجة ، نقله من المخابرات إلى منصب آخر في القوة الجوية لا عمل له . ولقد كان الخولي مساعده الموثوق طيلة أكثر من عشرين عاماً .

وفي أعقاب هذه القضية الضارة أحكم الأسد قبضته جيداً على أجهزة مخابراته . وبدأ يعتبر أي ارتباط باقٍ مع (أبو نضال) عبئاً عليه ليس في صالحه . فبعد اختطاف طائرة البان آميركان في كراتشي في أيلول / سبتمبر ١٩٨٦ بعث الرئيس الباكستاني ضياء الحق بملف إلى سوريا يبين كيف استفاد الإرهابيون من التسهيلات السورية . ولكن الأسد لم يطلب ذلك الملف ليطلع عليه إلاّ في آذار/ مارس ١٩٨٧ عندما كان الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر في زيارة خاصة إلى دمشق ، وأثار مع الأسد موضوع حادث كراتشي . وعندما قرأ الأسد الملف أصيب بصدمة جعلته يبادر إلى العمل . وهكذا تم طرد جميع الرجال التابعين لجماعة (أبو نضال) والمقيمين بدمشق مع زوجاتهم وأطفالهم ، وتم إغلاق مكاتبهم في أول حزيران/ يونيو ، فكانت حركة مهدت الطريق لعودة السفير الأميركي ، وليام إيغلتون ، إلى دمشق في أيلول / سبتمبر ١٩٨٧ .

وفي ذهن الأسد لم تكن قضية الهنداوي سوى معركة أخرى في حربه الطويلة لحماية المشرق العربي ، ولبنان ، وكذلك الأردن ، من مخططات اسرائيل . وكان باستطاعته الادعاء بأنه حقق قدراً من النجاح ، فحسين لم يعبر الخط المحرم ليعقد صفقة مع اسرائيل ، رغم أن بيريز لم يكفّ عن المحاولة . ومع ذلك كان على الأسد الاعتراف بأن فشل بيريز يرجع إلى ممانعة شامير بقدر ما يعود إلى جذب الأسد الحبلَ إلى الناحية الأخرى . وظلت إدارة ريغان الضعيفة تزعم ظاهرياً بأنها تريد اتفاقية اسرائيلية ـ أردنية ، ولكنها لم تكن تملك من الحزم ما يكفي للجم شامير ، ولا من الثبات في دعم حسين ما يكفي لاقناعه بالمغامرة بأن يتقدم وحده إلى الأمام . وفي النهاية فإن هذا التذبذب الأميركي كان له إسهامٌ يعادل إسهامَ شلل الحكومة الاسرائيلية في انفجار خيبة الأمل لدى الفلسطينيين في الأراضي المحتلة على شكل انتفاضة بدأت في مطلع شتاء ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ .

قضية إيران ـ كونترا

لم يكن المشرق الجبهة الوحيدة التي شعر فيها الأسد بأنه يتعرض للهجوم . فلقد كانت اسرائيل تهدد أيضاً جناحه الخليجي ، أو هكذا فسّر الأسد تعاطيها السري مع إيران . كان يفهم أن اسرائيل لها مصلحة في صب الوقود على نيران الحرب العراقية ـ الايرانية لاستبعاد أي احتمال بأن يتجه العراق غرباً ليضم قوته العسكرية إلى قوة سوريا . وحسب طريقة الأسد في التفكير رأى أنه يواجه حركة كماشة اسرائيلية ترمي إلى تآكل بيئته المشرقية وإلى حرمانه من الخيار العسكري على «الجبهة الشرقية» .

ولحسن حظّ الأسد كان هناك تناقض داخلي قائم في قلب سياسة اسرائيل ذات الخطّين التي كانت تتضمن شجب سوريا بسبب سجلها الارهابي بينما هي تسلح إيران سراً بالرغم من سجلها الارهابي . والواقع أن حرص اسرائيل على إبقاء تدفق السلاح على إيران الخميني في نفس الوقت الذي كانت فيه إيران

الملهم الرئيسي للارهاب المعادي للغرب قد أدى إلى المؤامرات والمكايد المتعرجة التي شكلت فضيحة إيران ـ كونترا .

والذي حدث هو أن أول الأخبار عن صفقات سلاح أميركية سرية مع إيران قد ظهرت في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٨٦ أي بعد حوالى عشرة أيام من صدور الحكم على الهنداوي في محكمة الأولْدبيلي ، وأدت دراما إيرانغيت التي بدأت تتكشف فصولاً إلى شلّ السنوات الأخيرة من إدارة ريغان ، ولكنها كذلك أعطت الأسد فَرَجاً وفرصة يلتقط فيها أنفاسه . فهي في الوقت الذي نسفت فيه تظاهر أميركا بأنها ضد الارهاب ، ساعدت الأسد أيضاً على الخروج سليماً من السنوات الرديئة في أواخر الثمانينات . ونظراً إلى أن سياسة اسرائيل الخليجيّة كانت تؤثر مباشرة على الأسد ، وإلى أن سوريا لعبت دوراً دقيقاً وحساساً في كشف خبايا إيرانغيت (كما سنرى) ، فإن من الضروري إعطاء ملخص لهذه الأحداث الآن .

مما يذكر أن اسرائيل بدأت بإرسال أسلحة (أميركية على الأغلب) إلى إيران سراً منذ بدء نزاع الخليج في عام ١٩٨٠ ، حتى أثناء احتجاز الرهائن الأميركيين في سفارتهم بطهران، وكان ذلك خرقاً مستمراً لحظر السلاح الذي فرضته إدارة كارتر وريغان[٣٥] . ولا شك في أن إطار التعاون الاستراتيجي الأميركي ـ الاسرائيلي قد أعطى اسرائيل مجالاً لعمل جانبي يتعارض مع السياسة الأميركية المعلنة. وبما أن واشنطن لم تستطع أن تواجه اسرائيل حتى في قضايا تمس أمن أميركا مساً مباشراً مثل قضية بولارد، فإنه لم يكن من المحتمل أن تقف بصرامة ضد موضوع كتزويد إيران بالسلاح، وهو موضوع يمكن تبريره بحجة وجود فائدة منه على المدى الطويل. وكان من الآراء التي ترددت في واشنطن مراراً وتكراراً القولُ بأنه ما دام لا يمكن عمل أي شيء يوقف تجارة السلاح، فإن أفضل شيء هو السكوت عنها. ولكن في عام ١٩٨٣، عندما أصبح واضحاً أن مجموعات تدعمها إيران هي التي كانت وراء معظم حوادث

تفجير القنابل وخطف البشر والطائرات في لبنان، دشنت وزارة الخارجية الأميركية العملية «صامد» لمنع بيع الأسلحة لايران وعندما وصفت الادارة الأميركية إيران بأنها «مشرفة على الارهاب الدولي» في كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٨٤ فقد فرضت قيوداً إضافية على تصدير السلاح.

كان مأزق إسرائيل حاداً. فقد أرادت الاستمرار في تسليح إيران لأسبابها الاقليمية الخاصة بها، ولكن حليفتها الكبرى (التي كانت في مواجهة تزداد عنفاً مع إيران) كانت تحاول وقف تدفق السلاح على إيران. وكان لا بد من عمل شيءٍ ما. فكيف يمكن إعادة توجيه السياسة الأميركية بحيث تستثني إيران من حملتها الصليبية ضد الارهاب وهي الحملة التي عملت إسرائيل نفسها على احتضانها وتغذيتها؟ كان ذلك هو اللغز الذي راحت اسرائيل وأصدقاؤها يصارعون لحلّه خلال عام ١٩٨٤.

وكان من بين هؤلاء الأصدقاء هوارد تيتشر، أحد كبار مدراء الشؤون السياسية ـ العسكرية في طاقم مجلس الأمن القومي الأميركي. فبدأ منذ أواخر عام ١٩٨٤ ينتقد الحظر المفروض على بيع الأسلحة لإيران[٣٦]. ورغم أن نظام الخميني كان معادياً للشيوعية جداً فقد راح تيتشر يجادل بأن هناك حاجة لاستراتيجية جديدة لوقوف التمدد الشيوعي. وكانت آراؤه هذه وراء مذكرة من وكالة المخابرات تقدم بها غراهام فوللر في كانون الثاني / يناير سنة ١٩٨٥ (وكان فوللر هذا نائب رئيس مجلس المخابرات الوطني) ومن خلال تحذير تلك المذكرة من احتمال حصول السوفيات على مكاسب في إيران ما بعد الخميني تم تمهيد الطريق لعمليات اسرائيلية وأميركية لاحقة لبيع الأسلحة لايران فيما بعد[٣٧].

وأتبع فوللر مذكرته بأخرى أكثر دقة في التحديد في أيار / مايو سنة ١٩٨٥. وقد كتبت تلك المذكرة بمساعدة تيتشر أيضاً، وفيها مناقشة بأن «العمودين التوأمين» للسياسة الأميركية ـ أي حظر السلاح على إيران ومواجهة

الارهاب الايراني ـ «ربّما يعملان على تسهيل خدمة المصالح السوفياتية أكثر من مصالحنا»[٣٨] .

وبدلاً من ذلك تدافع المذكرة عن الحجة القائلة بأن الطريق لكسب النفوذ في إيران هو السماح لدول صديقة ـ أي لاسرائيل في واقع الأمر ـ ببيعها سلاحاً . ثم تجسدت هذه الأفكار بعد ذلك على يد وكالة المخابرات المركزية الأميركية في «تقييم خاص بالأمن القومي» فيما يتعلق بإيران مؤرخ في ٢٠/ أيار ـ مايو ١٩٨٥ يعلن بجرأة أن درجة قدرة حلفاء أميركا على «ملء فجوة عسكرية لإيران ستكون هي المقياس الدقيق الحساس لقدرة الغرب على كسر حدة النفوذ السوفياتي»[٣٩] .

وعلى أساس هذا التقييم (الذي ساعد تيتشر نفسه على تأليفه) قدم تيتشر لروبرت ماكفرلين ، مستشار الأمن القومي في ١١/ حزيران ـ يونيو ١٩٨٥ مسودة «قرار توجيهي صادر عن مجلس الأمن القومي» ـ أي وثيقة قرار رئاسي ـ كانت التوصية الأولى والأساسية فيه أن تقوم الولايات المتحدة «بتشجيع حلفائها الغربيين وأصدقائها على مساعدة إيران في تلبية متطلباتها من الواردات بغرض تقليل جاذبية المساعدة السوفياتية . . . ويشمل ذلك تزويدها بأعتدة عسكرية منتقاة على أساس دراسة كل حالة على حدة»[٤٠] . لقد كانت مناورات تيتشر هذه تهدف بوضوح إلى جعل تجارة اسرائيل السرية بالسلاح شيئاً محترماً .

وعندما ظهرت هذه الوثائق في الإدارة ، كان رد فعل شولتز وواينبرغر عليها مزيجاً من الذعر والاستهجان . فكتب شولتز في ٢٩/ حزيران ـ يونيو أن تلك السياسة المقترحة «شاذة» ، و«مناقضة لمصالحنا» بينما كتب واينبرغر بخط يده على هامش المسودة : «إن هذا يكاد يكون أسخف من أن يستحق التعليق عليه»[٤١] . وقاوم الوزيران أي تخفيف للقيود على بيع الأسلحة لايران : فقد كان ضلوعها في الإرهاب المعادي للغرب واضحاً ، وعلى أية حال ، لم تكن هناك إشارة تدل على أنها كانت تقترب من الاتحاد السوفياتي . وعند منتصف

آب/ أغسطس ١٩٨٥ كان هذان الوزيران الكبيران في الادارة الأميركية قد قتلا مسودة القرار التوجيهي المذكورة فلم تسلم لريغان كي يوقعها .

وحتى عندما كانت مبادرة تيتشر البيرقراطية قد بدأت تصادف المشاكل والمتاعب ، كان مايكل ليدن (وهو صديق آخر لاسرائيل في الادارة الأميركية) يستكشف طريقاً مختلفاً . كان ليدن قد عمل تحت إمرة هيغ وماكفرلين في الخارجية الأميركية في مطلع الثمانينات قبل أن ينضم إلى مجلس الأمن القومي الأميركي في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٤ كمستشار حول الارهاب في الشرق الأوسط . وخلال زيارات شخصية خاصة قام بها لاسرائيل في ربيع وصيف عام ١٩٨٥ ناقش ليدن موضوع إيران مع رئيس الوزراء بيريز ، الذي أحاله إلى ثلاثي تجارة الأسلحة الذين كانوا ينشطون بين اسرائيل وإيران ، وهم آل شويمر الرئيس السابق لصناعة الطائرات الاسرائيلية . والذي عين مستشاراً خاصاً لبيريز في أيلول / سبتمبر ١٩٨٤ وياكوف نيمرودي رئيس جواسيس اسرائيل السابق في طهران ، ومانوشير غربانيفار ، السمسار الايراني والعميل السابق للسافاك ، بوليس الشاه السري ، الذي كان قد طوّر علاقات مع المخابرات الاسرائيلية[٤٢] . وكان الثلاثة يتحرقون لاستكشاف طرق للتحايل على الحظر الأميركي المشدد ، ربما عن طريق توريط الولايات المتحدة نفسها في التجارة . وكان الذي حدث هو أن تجار السلاح الثلاثة هؤلاء كانوا قد عقدوا اجتماعات سابقة في هامبورغ في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٤ مع ديفيد كيمحي ، المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية لمناقشة كيفية جعل واشنطن تنفتح على إيران ، واقترح غربانيفار أن تقدم مقترحات بمبادلة الرهائن بالسلاح ، وكان ذلك طُعْماً توقعوا أن تجده الادارة أكثر إغراءً من الخطر السوفياتي المزعوم الذي كان تيتشر يروّج أفكاره عنه .

ولكن شولتز تدخل مرة أخرى . فقد أعلمه السفير الأميركي صاموئيل لويس باتصالات ليدن السرية المختلسة التي كان يجريها في اسرائيل من وراء

ظهر وزراة الخارجية الأميركية . فشكا شولتز لمكفرلين قائلاً : «إن جدول أعمال اسرائيل لا يشبه جدول أعمالنا . وإن علاقة مخابراتية مع اسرائيل حول إيران قد لا تكون شيئاً يمكننا الاعتماد عليه تماماً . . . إنني حائر حول الطريقة التي يعالج بها الموقف وقلق حول ما يحتويه من بذور لمزيد من الحرج لنا»[٤٣] . فأجابه ماكفرلين بأن المبادرة بيد اسرائيل وبأن ليدن «يتصرف على مسؤوليته الشخصية»[٤٤] .

ورغم مخاوف شولتز وشكوكه ، تحرك الاسرائيليون ليستغلوا الثغرة التي فتحها ليدن . ففي ٣ تموز ـ يوليو ١٩٨٥ نقل كيمحي إلى ماكفرلين أن الايرانيين يعتقدون بأن باستطاعتهم التأثير على حزب الله ليطلق الرهائن في لبنان ، ولكنهم يريدون شيئاً مقابل أتعابهم ، وربما أسلحة[٤٥] . وبعد أسبوع واحد لحق شويمر بكيمحي إلى واشنطن ، فتغدّى مع ليدن ، وأوصل من خلاله رسالة مؤداها أن سبعة من الأميركيين المحجوزين في لبنان يمكن إطلاق سراحهم مقابل ١٠٠ قذيفة «تاو TAW» مضادة للدبابات من اسرائيل[٤٦] .

وأخذ ليدن عطلة إجازة قضاها في اسرائيل في شهر تموز / يوليو ١٩٨٥ ، وعقد مزيداً من الاجتماعات مع كيمحي وتجار الأسلحة الثلاثة فناقشوا الصفقة المقترحة «أسلحة مقابل الرهائن» ثم عاد كيمحي إلى البيت الأبيض في ٢/ آب ـ أغسطس ١٩٨٥ ليلحّ بهذه الحجة الجدلية على ماكفرلين مرة أخرى فأجابه ماكفرلين : «انظر يا ديفيد . لقد عرفنا بعضنا بعضاً منذ زمن طويل . إن مصالحكم ومصالحنا ليست متطابقة . إن اطـالة حرب الخليج التي تَشْغَلُ العراق تخدم مصالحكم ، ولكننا نريد وقف الحرب . وقد نشترك معكم في أن لنا مصلحة في إعادة نوع من العلاقة مع طهران . ولكن مصالحنا اكثر استراتيجية ، ومصالحكم أكثر إقليمية»[٤٧] .

وأخبر ماكفرلين كيمحي أيضاً بأن تخفيف قيود حظر الأسلحة قد يؤذي علاقات أميركا مع الدول العربية ويثير مشكلة مع الكونغرس . ولكن كيمحي

كان لديه إحساس أكثر دهاء أدرك بواسطته كيف سينظر الرئيس الأميركي إلى فرصة تخليص الرهائن : وفي ٦/ آب/ أغسطس سنة ١٩٨٥ ورغم اعتراضات شولتز واينبرغر أعطى ريغان موافقة شفوية على قيام اسرائيل ببيع أسلحة أميركية لايران ، ووافق على إعادة ملء مخازن وترسانات اسرائيل[٤٨] . ومن أجل البدء بتحريك الأمور أقام ماكفرلين مع كيمحي اتصالات سرية مأمونة . . فأرسل له الشيفرة إلى لندن بيد ليدن .

وفي نهاية آب / أغسطس سنة ١٩٨٥ أقلعت من اسرائيل إلى طهران أول طائرة محملة بقذائف «تاو» بموافقة الولايات المتحدة . وهكذا جعلت اسرائيل من أميركا شريكاً في هذه الصفقة ، ولو أنه شريك مرتبك ومذهول قليلاً ، وبذلك حصلت اسرائيل على غطاء سياسي لمبيعاتها الأخرى التي لم تنقطع قبل هذه الصفقة ولا بعدها . أما العملية «صامد» التي كانت أميركا مستمرة في الضغط لفرضها على حلفائها الآخرين فقد خرقت وانفتح فيها ثقب عريض ، وأما سياسة أميركا في مكافحة الارهاب فقد تضاءلت إلى مجرد خدعة منافقة . ولم يكن أقلَّ تناقضات الادارة الأميركية أنها كانت تشجع شحن الأسلحة سراً إلى إيران بينما تميل علناً إلى جانب العراق في حرب الخليج .

وكانت واشنطن تتوقع أن عدداً محدوداً معيناً من الأسلحة سيؤدي إلى الافراج عن الرهائن . وفي أيلول / سبتمبر سنة ١٩٨٥ أُطلقت رهينة وحيدة هي القس بنجامين وير . وبرغم نقل المزيد من الشحنات الأخرى لم يطلق سراح أي شخص آخر طيلة الشهور العشرة التالية . فلم تكن مصلحة اسرائيل وايران في إنهاء التجارة ، بل في استمرارها .

وفي كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٥ وبناء على إلحاح شولتز ، عقد اجتماع كامل في البيت الأبيض احتج فيه شولتز بأن شحنات الأسلحة السرية كانت تعطي الايرانيين «إشارة بأن في وسعهم اختطاف الناس للحصول على الأرباح»[٤٩] واعترض واينبرغر كذلك بالقول إن الصفقات تجعل أميركا عرضةً

«للابتزاز من أحطّ وأردإ الأنواع» على يد اسرائيل وإيران كليهما[٥٠] . وصحا ريغان من ذهوله فوافق على إيقاف العملية . وأرسل ماكفرلين (الذي كان قد ترك منصبه في مجلس الأمن القومي الأميركي وحل محله فيه الأميرال جون بويندكستر) إلى لندن لينقل الأخبار السيئة إلى كيمحي ونيمرودي وغربانيفار .

ولكن ذلك الموقف كان يدل على التقليل من حذق وبراعة اسرائيل على كل حال . فمن خلال تيتشر حاولت اسرائيل تغيير السياسة الأميركية تجاه إيران بابراز المخاوف من الشبح السوفياتي . وعن طريق ليدن اقترحت تجارة مبادلة الأسلحة بالرهائن . أما الآن (في مطلع عام ١٩٨٦) فقد طلعت بفكرة ثالثة كان من المحتوم أن تغري الادارة التي كان يسيطر على تفكيرها هاجس نيكاراغوا . وهكذا توجهت اسرائيل لمخاطبة مجلس الأمن القومي الأميركي من وراء ظهر وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الأميركيتين . فتقدم عميرام نير ، مستشار بيريز حول الارهاب ، باقتراح فرض أسعار غالية جداً على الايرانيين ثمناً للأسلحة ، وتحويل الأرباح إلى مقاتلي الكونترا في نيكاراغوا[٥١] . وعرض نير اقتراحه هذا في ٢/ كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٦ . فأعجبت هذه الموجات الفكرية المتقادحة كلًا من بويندكستر وأوليفرنورث ، تابعه المختص بالعمليات السرية ، اللذين كانا يتحرقان لايجاد وسيلة لدعم الكونترا بعد أن قطع عنهم الكونغرس التمويل . وهكذا تم فتح حسابات مصرفية في سويسرا ، وأعطيت أرقام الحسابات للاسرائيليين وبدأت الأموال الناجمة عن بيع الأسلحة تتدفق .

وفي ١٧/ كانون الثاني ـ يناير ١٩٨٦ وقع الرئيس الأميركي ريغان أمراً استؤنف بموجبه رسمياً برنامج بيع الأسلحة السري[٥٢] . وقد ركزت تلك الوثيقة كثيراً على أهداف تشجيع حكومة «معتدلة» في إيران ، والسعي لتقريب يوم إطلاق سراح الرهائن الأميركيين ، ولكن لم يرد فيها أي ذكر لاسرائيل ولا لتحويل الأرباح . وبقي الكونغرس يجهل أمر هذه الوثيقة . لقد نجح نير في تحويل مبادرته إلى مشروع تجاري أميركي يديره نورث مع بعض الدعم من

وكالة المخابرات المركزية وشبكة خاصة كانت من قبل متورطة في دعم الكونترا . وخلال الشهور القليلة التالية تم نقل أربع شحنات من الأسلحة إلى إيران ، أدت إلى وضع عشرين مليون دولار من الأسعار الزائدة في الحسابات السرية . وهي صفقات حررت مبيعات اسرائيل نفسها من كل القيود .

ولكن لم يطلق سراح رهائن آخرين ، كما لم تتحقق آمال واشنطن في فتح حوار على مستوى عالٍ مع إيران . وعندما بدأت هذه المبادرة الأخيرة تفقد قوة اندفاعها تم إحياؤها ثانيةً . فقام نير وغوربا نيفار باقناع نورث بأن زيارة ماكفرلين لطهران ـ ومعه حمولة طائرة من صواريخ هـوك كإغراء ـ قد تفتح المغاليق وتفرج عن الرهائن .

وتم إقناع ماكفرلين بالفكرة . ولكنه عندما فكر في الأمر رأى أن مبيعات اسرائيل من الأسلحة تشكل نوعاً من العرقلة للخطّة . فإذا كان الايرانيون قادرين على الحصول على ما يريدونه من السلاح من اسرائيل ، فلماذا يتعاونون مع الولايات المتحدة؟ ولماذا يطلقون الرهائن؟[٥٣] لا بد من إقناع الايرانيين أولاً بأن البيت الأبيض هو مصدر السلاح الوحيد . وقد وصلت إلى الادارة معلومات عن صفقة هائلة نظمتها اسرائيل وقيمتها أكثر من ملياري دولار ، تتضاءل إلى جانبها أية صفقة سابقة ، ويشترك فيها دزينة من تجار السلاح الدوليين ، بمن فيهم أكبر الأسماء في تجارة السلاح الاسرائيلية ، وكانت مخططة لتزويد إيران بالطائرات الحربية ، وطائرات النقل ، والطائرات المروحية ، والقذائف الموجهة ، وألوف القذائف المضادة للدبابات «تاو» وأشياء أخرى كثيرة جداً ، وتكفي لقلب الميزان في حرب الخليج .

وأدرك ماكفرلين أن هذه الصفقة إذا تمت فسوف يفقد البيت الأبيض كل تأثير على طهران . فاتُخِذَ قـرارٌ على مستوى عال لإجهاضها ، وجنَّد الأميركيون جاسوساً ودسّوه بين تجار السلاح، وهو الإيراني كورش هاشمي، فتمكنوا بذلك من مراقبة خطوات تقدم الصفقة . ورتبوا عملية إلقاء القبض على المشتركين

الأساسيين فيها في برمودا في ٢٢/ نيسان/ إبريل ١٩٨٦[٥٤] . ولم يكن أقل جوانب المفارقة إثارة للسخرية في هذه القضية أن الولايات المتحدة ، بعد أن ورطتها اسرائيل في تجارة سرية ، وجدت نفسها مجبرةً على لجم حليفتها ، فأجهضت صفقة ضخمة لتسمح بمرور صفقة أكثر تواضعاً يحملها ماكفرلين معه إلى طهران .

وبموافقة ريغان طار ماكفرلين إلى طهران عن طريق أوربا واسرائيل في ٢٣/ أيار ـ مايو سنة ١٩٨٦[٥٥] . وكان برفقته أوليفر نورث ، وهوارد تيتشر وعميرام نير منتحلاً شخصية أميركي . وكانوا يستعملون جوازت سفر إرلندية مزورة ، ويحملون نسخة من الانجيل عليها توقيع ريغان ، وكعكة على شكل مفتاح لترمز إلى الانفتاح على إيران . ولكنهم بعد أن ظلوا عدة أيام في فندق هلتون السابق في طهران ، وبعد الاشتراك في مناقشات جدلية عقيمة ومثبطة مع عدد من صغار المسؤولين الايرانيين عادوا برئاسة ماكفرلين دون أن يحققوا شيئاً . أطلقت رهينة في تموز/ يوليو ، وأرسلت شحنة سلاح في آب / أغسطس وأطلقت رهينة أخرى في تشرين الثاني / نوفمبر ، ولكن مبادرة أميركا الايرانية تصاغرت إلى اتصالات على مستوى منخفض من الاتصالات وتبادل الاتهامات والاتهامات المضادة . وفي تلك الأثناء ظلت مبيعات الأسلحة الاسرائيلية مستمرة دون أي اعتراض أو تدخل آخر من قبل الولايات المتحدة .

وعندما ابتدأ نشر الغسيل القذر لفضيحة إيران ـ كونترا كانت النقطة الأساسية التي ركزت عليها تحقيقات اللجنة المشتركة التي ألفها مجلسا النواب والشيوخ في صيف ١٩٨٧ هي : ماذا كان الرئيس يعرف ومتى عرف ، وكيف تم خرق الحظر الذي فرضه الكونغرس على تمويل الأسلحة للكونترا ، والنشاطات الشائنة «للطغمة» السرية[٥٦] التي كانت تعمل بلا رقيب في قلب الحكومة الأميركية . ولم يركز أي انتباه على دور اسرائيل ولا على الأسباب التي أوحت إليها بكل تلك الجهود الخارقة للعادة لابقاء حرب الخليج مشتعلة ، مما أضعف

سوريا كثيراً وحَرَمَ العربَ من جبهة شرقية .

وكان من بين الذين حموا اسرائيل من الانكشاف ، السناتور دانييل إينوي ، من هاوايي ، ورئيس لجنة مجلس الشيوخ للتحقيق ، والمؤيد لاسرائيل منذ زمن طويل . وعند وصفها الفشل في سبر أغوار الدور الاسرائيلي قالت صحيفة وول ستريت جورنال إن هذا السناتور قد تلقى مبلغ ٤٨,٥٠٠ دولار للاسهام في نفقات حملته الانتخابية وقد دفعتها له لجنة العمل السياسي المؤيدة لاسرائيل في عام ١٩٨٥ ـ ٨٦[٥٧] . وعندما جاء المدعي العام المستقل لورنس والش ليحقق الجوانب الاجرامية المحتملة في القضية اضطر إلى خوض مساومات مع اسرائيل استمرت إثني عشر شهراً وأدت إلى اتفاق تفرج فيه اسرائيل عن بعض الوثائق والحسابات المصرفية ، وفي مقابل ذلك تخلى والش عن استجواب أربعة مشتركين إسرائيليين أساسيين هم ـ كيمحي ، ونيمردوي ، وشويمر ، ونير .

الدور السوري

وكان من غرائب المصادفات أن سوريا هي التي كشفت النقاب عن هذه الفضيحة لأول مرة . فقد علم ضابط مخابرات سوري في طهران هو إياد المحمود بزيارة ماكفرلين الشاذة الغريبة إلى إيران . وكان أول رد فعل أملته غريزة السلطات في دمشق هو إبقاء القصة مطوية كي لا يحرجوا حلفاءهم الايرانيين ، غير أن الأسد راح يتتبع هذا التطور المفاجىء والمزعج بانتباه شديد . فلقد كان له تأثير واضح على علاقاته بايران ، وبكفاحه للحد من نشاط المجموعات المتطرفة في لبنان وجهوده لإفشال محاولات عزل سوريا ودمغها بصفة «الدولة الارهابية» . وبدا للأسد أن قيام الغرب بوضعه في قفص الاتهام بسبب الهنداوي ، ومحاولة الغرب زعزعة مكانته في لبنان ، ودفع الأردن إلى أحضان اسرائيل في نفس الوقت الذي يقوم فيه الغرب بتسليح إيران وعقد الصفقات معها حول الرهائن ، خارقاً بذلك خرقاً فاضحاً سياسة مكافحة

الارهاب التي طنطن لهـا . بدا لـه هذا التنـاقض كله في منتهى الأنانيـة والاستخفاف الغربي بكل القيم وبشكل يدعو للرثاء والسخرية .

وفي ٢ / تشرين الأول ـ اكتوبر سنة ١٩٨٦ اختـطف إياد المحمود ، رجل سوريا في طهران ، على يد جماعة إيرانية متطرفة يقودها مهدي هاشمي ، ولها علاقة بالجماعات الشيعية المتطرفة في لبنان . وربما كان اختطافه احتجاجاً على محاولات سوريا ضبط وكبح جماح تلك الجماعات المتطرفة ، وربما كان يقصد به ردعه عن محاولات متابعة وسبر أغوار التعامل والصفقات بين إيران وأميركا . وقد احتجت الحكومة السورية بقوة ، وأطلق سراح المحمود خلال أربع وعشرين ساعة . ولكن الحادثة زادت حدة التوتر بين دمشق وطهران حول لبنان حيث كان صنائع إيران في حزب الله يتململون ضد السيطرة السورية ويقاومونها .

ولقد كان الأسد دائماً يعارض أخذ الرهائن ، ولم يكن من غير الطبيعي أن يغضب من لوم الغرب له على الارهاب في لبنان ، مع أن ذلك الارهاب كان بصفة رئيسية من عمل جماعات مؤيدة لإيران . وفي أعقاب محاكمة الهنداوي مباشرة (في تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٨٦) عندما كان الضغط الدولي على الأسد في أوج قوته ، كان الأسد حريصاً على تأمين إطلاق رهينة واحدة على الأقل ، وعلى أن يرى العالم أنه أمّن ذلك ، كي يبعد عنه التهديد بفرض عقوبات ضده ، إن لم يكن شن هجوم مسلّح على سوريا بالفعل . ولذلك فعندما جاء علي أكبر ولايتي وزير خارجية إيران إلى دمشق في ٣١/ تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٨٦ ضغط عليه الأسد لاعطاء سوريا رهينة . ولذلك كانت صفعة أن يتم بعد يومين إطلاق سراح ديفيد جاكوبسين من قبل مختطفيه المؤيدين لايران ، مع عدم تركه في أيدي القوات السورية ، بل أمام السفارة الأميركية حيث نقل بسرعة إلى بيروت الشرقية المسيحية ومنها إلى خارج لبنان .

غضب الأسد ، ولم يكن لديه شك في أن إطلاق سراح هذه الرهينة كان

نتيجة صفقة مبادلة السلاح بالرهائن . وهكذا ففي ٣/ تشرين الثاني ـ نوفمبر (أي في اليوم التالي مباشرة) ، وفي زجرة تستهدف توبيخ أميركا وإيران معاً ، سرّبت سوريا خبر زيارة ماكفرلين لطهران والاتصالات الأميركية ـ الايرانية السرية إلى صحيفة صديقة في بيروت هي مجلة الشراع ، دون أن تعلم كم سيكون لذلك الكشف من تأثير هائل وبالغ الأهمية .

فالحجر العظيم الذي ألقي في بركة الشرق الأوسط لم يترك زاوية منه بلا تأثير . فلقد غرقت الولايات المتحدة في الفوضى وتراجعت وانكفأت على نفسها لتتفحص ذاتها في امتحان طويل عسير لمعرفة كيف استطاعت إدارة ريغان أن توقع نفسها في مثل هذا المطب الموحل . وذعر العرب المعتدلون من الغدر الأميركي الشنيع ، مما حدا بواشنطن أن تستدير استدارة كاملة لافتة للنظر ، فتنتقل بشكل دراماتيكي من التعاطي السري مع إيران إلى مواجهتها بالعداء ، فأُرسِلَ أسطولٌ أميركيٌ إلى الخليج على عجل ، وتخلّت أميركا عن كل تظاهر بالحياد في النزاع العراقي ـ الإيراني .

واضطرت اسرائيل أيضاً إلى اتخاذ موقف الدفاع بسبب افتضاح متاجرتها بالسلاح وتلاعبها بسياسة الحكومة الأميركية . واضطرت إلى التركيز على الحد من الأضرار التي لحقت بها لدى الإدارة الأميركي والرأي العام الأميركي . غير أن صورتها قد لحق بها تشوه قبيح ، وهذا ـ مضافاً إلى فضيحة بولارد السابقة ـ جعلها عرضة لانتقاد دولي حاد بعد ذلك بعام بسبب محاولاتها قمع الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة .

وكانت كل هذه التطورات لصالح الأسد إلى حد كبير . فحركة اسرائيل (الكماشة) ضد جبهتيه في المشرق وفي الخليج فقدت قدرتها على تهديده . ومن بين نتائج ايرانغيت أنها ألهت أميركا واسرائيل عن ملاحقة موضوع التسوية المنفصلة بين الأردن واسرائيل . كما أن التوترات التي ظهرت بين الحليفين (أميركا واسرائيل) منعتهما من العمل معاً بشكل فعال . وأدت «المبادرة

الايرانية» التي أوحت بها اسرائيل إلى إرغام شولتز على أن يقاتل دفاعاً عن حياته السياسية ، فلقد اتضح أن في أميركا أناساً عـزلوه وخـدعوه هـو ووزارة خارجيته[٥٨] . وكان من المفهوم أن يغضب شولتز من بيريز لأنه عمل من وراء ظهره وراح يتآمر مع مجلس الأمن القومي الأميركي . واعتذر بيريز اعتذارات كثيرة وفيرة ، ولكن شولتز لم يهدأ ولم يطب نفساً . بل أظهر ميلاً نحو شامير . وعلى أية حال فإنه لم يضع ثقله وراء اتفاقية بيريز ـ حسين في لندن في شباط/ فبراير ١٩٨٧ ـ وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلتها لا تسفر عن شيء . وهكذا استراح الأسد عندما أدت دسائس اسرائيل الخليجية إلى تأثير سلبي على أطماعها المشرقية . أما تاتشر التي أخذت المبادرة لعزل سوريا بسبب قضية الهنداوي فكان لديها سبب للشعور بالانزعاج عندما بردت واشنطن تجاه التسوية الاسرائيلية ـ الأردنية التي كانت تروّج لها من قبل .

ومع مرور الوقت تخلص الأسد من تهمة الإرهاب . فبعد فضيحة إيران ـ كونترا مع ما صحبها من أحابيل قذرة قميئة بل وإجرامية أصبح من الصعب أكثر فأكثر على اسرائيل أن تستغل موضوع الارهاب لصالحها . ولم يَرَ الأسدُ خطر الحرب يتراجع فحسب ، بل لقد كان سروره كبيراً وهو يرى الحصار السياسي والاقتصادي الغربي ضده يُرْفَعُ بالتدريج .

وبحلول عام ١٩٨٨ كان قد تغلب على العاصفة ، وربما شعر بارتياح لم يتمتع به منذ سنوات . ومع ذلك فقد علمته تجربته الطويلة في معاركه أنه لا يستطيع أن ينغمس في الرضا عن النفس ، أو في فقدان اليقظة .

هوامش الفصل السادس والعشرين

(١) أبا إيبان : «ليس الأمر كما كان مع السادات» ، يد يعوت أحرونوت عدد ٣/ ١٢/ ١٩٨٧ ، مقتبس في ملخصات الصحف الاسرائيلية، العدد ٥٦ (عن شهري كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٧ وكانون الثاني / يناير ١٩٨٨) ص ٥ . وذكرت مجلة النيويورك تايمز ماغازين في عددها الصادر في ٢٣ / نيسان ـ أبريل سنة ١٩٨٤ أن حسيناً قد عقد أحد عشر اجتماعاً سرياً مع الزعماء الاسرائيليين بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٧ .

(٢) انظر ما كتبته كلود يا رايت في مجلة النيو ستيتسمان (عدد ٧/ ٦/ ١٩٨٥) عن قضية عز الدين .

(٣) هذا التعبير من وضع جيرار شيلان : انظر مقالته المعنونة : الارهاب «الإعلاني» والارهاب «الدبلوماسي» في صحيفة لوموند الباريسية في ٢٥ ـ ٢٦/ ٥/ ١٩٨٦ .

(٤) جريدة الثورة عدد ٣١/ ٧/ ١٩٨٥ ، وتشرين عدد ٥/ ٨/ ١٩٨٥ .

(٥) من أجل الحصول على معلومات عن سيرة حياة الشيخ جواد مغنية وأفكاره السياسية انظر كتاب شبلي الملاط : الفكر الشيعي من جنوب لبنان (طبع مركز الدراسات اللبنانية في أكسفورد سنة ١٩٨٨) .

(٦) مقابلة مع الرئيس الأسد دمشق في أيار/ مايو ١٩٨٥ .

(٧) الرئيس في خطابه في المؤتمر الوطني لاتحاد طلبة سوريا في دمشق في ٤/ ٥/ ١٩٨٥ .

(٨) للاطلاع على أمثلة من هذه الاتهامات راجع مواضيع الغلاف «سمسار الارهاب ، الأسد السوري» في مجلة الواشنطن بايمزانسايت (عدد ٢٣/ ٩/ ١٩٨٥) و«الرئيس السوري الأسد : معلم الارهاب» في مجلة يوأس نيوز آند وورلدريبورت (عدد ١٠/ ١١/ ١٩٨٦) .

(٩) بنيامين ناتانياهو : «الارهاب : كيف يستطيع الغرب أن ينتصر (نيويورك ١٩٨٦) : وقد سمي ذلك المعهد باسم أخي ناتانياهو الذي قتل في عام ١٩٧٦ وهو يقود عملية إنقاذ الرهائن الاسرائيليين في عينتبي في أوغندا .

(١٠) المصدر السابق نفسه ، ص IX ، وص ٢٢١ .

(١١) نفسه ، ص ٢٣ .

(١٢) نفسه ، ص ٩٥ .

(١٣) نفسه ، ص ٢٠٤ .

(١٤) نفسه، ص ١٩٢ .

(١٥) نفسه ، ص ٣٦ .

(١٦) للاطلاع على أفكار فضل الله انظر شبلي الملاط (مصدر سبق ذكره) وكذلك مقال مارتن كرامر : «أخلاق ومنطق حزب الله» في مجلة مغرب ـ مشرق العدد ١١٩ (عن شهور كانون

الثاني ـ شباط ـ آذار/ يناير ـ فبراير ـ مارس عام ١٩٨٨) ص ٣٩ ـ ٥٩ .

(١٧) الواشنطن بوست ، عدد ٢٢/ ٢/ ١٩٨٧ .

(١٨) وودوورد : (مصدر سبق ذكره) ، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٧ .

(١٩) الواشنطن بوست ، عدد ١٧/ ٤/ ١٩٨٦ .

(٢٠) مقتبس في مقال شاؤول بخاش : «لغز الارهاب» المنشور في مجلة نيويورك ريڤيو أوف بوكس ، عدد ٢٧/ ٩/ ١٩٨٧ .

(٢١) الانترناشنال هيرالد تريبيون عدد ٢٧ ـ ٢٨/ شباط ـ فبراير ١٩٨٨ .

(٢٢) اتصال شخصي خاص من مصدر دبلوماسي أميركي .

(٢٣) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في ١٨/ ٣/ ١٩٨٨ .

(٢٤) ملخص الاذاعات العالمية لدى هيئة الاذاعة البريطانية (في ١٦ و٢٨/ ٥/ ١٩٨٦) .

(٢٥) الواشنطن تايمز عدد ١٠/ ١١/ ١٩٨٦ .

(٢٦) التلفزيون الاسرائيلي في ٣٠/ ١٢/ ١٩٨٧ ، ملخص الاذاعات العالمية لدى أرشيف محطة الاذاعة البريطانية (١/ ١/ ١٩٨٨) وقد ادعى بيريز بأنه لو لم يقتل الليكود بادرة سلامه تلك ، فإن انتفاضة الأراضي العربية المحتلة التي بدأت في ٨/ ١٢/ ١٩٨٧ ما كانت لتحدث .

(٢٧) إذاعة دمشق المحلية في ٢٦/ ٥/ ١٩٨٧ ، ملخص الاذاعات العالمية في أرشيف هيئة الاذاعة البريطانية (٢٨/ ٥/ ١٩٨٧) .

(٢٨) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في ١٨/ ٣/ ١٩٨٨ .

(٢٩) إيان بلاك : الغارديان عدد ١٥/ ١١/ ١٩٨٦) .

(٣٠) مقابلة مع مصدر أردني كبير جداً في عمان في ٤/ ٣/ ١٩٨٨ .

(٣١) مقابلة مع د. عبد الرؤوف الكسم في دمشق في ١٣/ ٣/ ١٩٨٨ .

(٣٢) مقابلة مع الرئيس الأسد في دمشق في ١٨ك ١٩٨٨/١٣ .

(٣٣) شارلز غلاس : «لحساب مَنْ كان الهنداوي يعمل؟» ـ مجلة السبكتاتور ، عدد ١/ ١١/ ١٩٨٦ .

(٣٤) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في ١٨ك ٣/ ١٩٨٨ .

(٣٥) انظر الفصل ٢١ .

(٣٦) تقرير مجلس المراجعة الخاصة التابع للرئيس ، في ٢٦/ ٢/ ١٩٨٧ (تقرير تاور) مقتبس في التسلسل التاريخي (نيويورك ١٩٨٧) ص ٦٨ .

(٣٧) النيويورك تايمز في ١٧/ ١٢/ ١٩٨٦ والواشنطن بوست في ٢١/ ١٢/ ١٩٨٦ .

(٣٨) رسالة من غراهام فوللر إلى مدير المخابرات المركزية بعنوان «نحو سياسة تجاه إيران» (١٧/ ٥/ ١٩٨٥) مقتبسة في كتاب التسلسل التاريخي ص ١٠٣ .

(٣٩) تقرير تاور ، ص ب ٧ وب ٨ B8 وB7 .

(٤٠) نفسه ص ب ـ ٩ ٩ - B .

(٤١) نفسه ص ب ـ ٩ ٩ - B لجنة مجلس الشيوخ المنتخبة حول موضوع المخابرات : «تقرير حول التحقيق الأولي» في ٢٩/ ١/ ١٩٨٧ ، مقتبس في التسلسل التاريخي ، ص ١١٨ .

(٤٢) النيويورك تايمز : ٢٥/ ١٢/ ٢٩٨٦ ، والواشنطن بوست ٢٧/ ١٢/ ١٩٨٦ وكذلك ١٢/ ١/ ١٩٨٧ . وتقرير تاور ، مقتبساً في كتاب تسلسل الأحداث ص ٩٣ ، وص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٤٣) تقرير تاور ، مقتبساً في تسلسل الأحداث ، ص ١١٠ .

(٤٤) نفسه ، ص ١١١ .

(٤٥) نفسه ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٤٦) نفسه ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٤٧) مقابلة مع روبرت ماكفرلين في واشنطن في ٣٠/ ٧/ ١٩٨٧ .

(٤٨) الواشنطن بوست في ٩/ ١٢/ ١٩٨٦ .

(٤٩) تقرير تاور ، مقتبساً في تسلسل الأحداث، ص ٢٠٨ .

(٥٠) نفسه ، ص ٢١١ .

(٥١) الواشنطن بوست في ١٦ و٢٧/ ١٢/ ١٩٨٦ وكذلك ١٠ و١٢/ ١/ ١٩٨٧ ، ولجنة مجلس الشيوخ المنتخبة حول المخابرات ، مقتبسة في تسلسل الأحداث ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧ .

(٥٢) تقرير تاور ، مقتبساً في تسلسل الأحداث ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

(٥٣) مقابلة مع روبرت ماكفرلين في واشنطن في ٣٠/ ٧/ ١٩٨٧ .

(٥٤) باتريك سيل : «المصرفي ولدغة الملياري دولار من الأسلحة» في صحيفة الأوبزرفر الأسبوعية اللندنية عدد ٢٧/ ٤/ ١٩٨٦ . وقد أسقطت الدعوى عنهم في أعقاب انفجار فضيحة إيرانغيت وما تكشفت عنه .

(٥٥) تسلسل الحوادث، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

(٥٦) العبارة من ابتكار ثيودور دريبر . انظر مقاله : «طغمة ريغان» في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس في ٢٩/ ١/ ١٩٨٧ ومقالاته اللاحقة في ٨ و٢٢/ ١٠/ ١٩٨٧ و١٧/ ١٢/ ١٩٨٧ .

(٥٧) وول ستريت جورنال عدد ٣/ آب ـ أغسطس ١٩٨٧ .

(٥٨) الواشنطن بوست في ٢٤/ ٧/ ١٩٨٧ .

خاتمة:

بيانُ الحساب

يُمثّل حافظ الأسد، أكثر من أي رجل دولة عربي يعاصره، تطلّع العرب إلى أن يكونوا أسياد مصيرهم في أرضهم. ورغم أن هذا التطلع لا يزال مُحبَطاً إلى حدٍ كبير، فإن الأسد ضَمِن على الأقل ألّا يتجاهل أحد في المستقبل قضية حقوق العرب وأمنهم.

وهذا هو بالذات معنى نضاله الطويل. إن هزيمة ١٩٦٧ تركت على حافظ الأسد أثراً لا يمحى ، ومن عذاب محنتها وُلد طموحه بأن يصل إلى القمة ليضع الأمور في نصابها الصحيح. وهو ما انفكّ يحاول منذ عشرين عاماً أن يعكس رأساً على عقب قَدَرَ حرب حزيران/ يونيو الذي أراد أن يفرض على العرب الاستسلام ويُكرههم على العيش في ظل دولة صغيرة زرعها، في رأيه، بين ظهرانيهم، وبشكل مصطنع، مستوطنون غرباء يموّلهم، ويسلّحهم، ويدعمهم استعمار غربي ولّى زمنه.

إن سوريا دولة بعثية، وحافظ الأسد مناضل حزبي على امتداد حياته. ولذلك يتعين النظر إلى جهوده في إطار مناداة حزبه بالانبعاث العربي الذي هو بحد ذاته تعبير عن نضال استمر طوال هذا القرن في سبيل استقلال حقيقي أصيل. إلا أنّ هذا النضال كثيراً ما أُحبط المرّة تلو المرّة: فما أن تخلص العرب من الأتراك حتى وقعوا تحت سيطرة الأوروبيين، وعندما رحل هؤلاء وجد

العرب إسرائيل تتسلّم الزمام. وهكذا خرج الاستعمار من الباب ليعود ويدخل من النافذة. وفي عام ١٩٥٦ انضمّت إسرائيل إلى بريطانيا وفرنسا في محاولة لتدمير عبد الناصر، بطل العرب حينذاك. وعندما خانت الأوربيين أعصابُهم أكملت إسرائيل المهمة وحدها عام ١٩٦٧. ومن ثمّ راحت، كما يقول الأسد، تعمل جاهدة لإدامة تفوّقها بتفريق جيرانها وإخضاعهم، الأمر الذي يجعل الامبريالية الجديدة أشدّ خطراً على العرب من القديمة باعتبارها تُهدّد وجودَهم القومي ذاته. إنها رؤية الأسد للتاريخ.

إنّ الحاجة لمواجهة التحدي الإسرائيلي قد جعلتْ من الأسد وسوريا الحديثة ما هما عليه الآن. فعندما انسحبت مصر المرهَقة من حلبة النزاع، وانجرّ العراق إلى معركة على جبهة أخرى، رأى الأسد أنّ بلده هي الحاجز الوحيد الباقي في وجه هيمنة إسرائيل الإقليمية. ولكي يحافظ على خط الصمود سعىٰ لبسط كلمته على الأردن ولبنان، والفلسطينيين، ومدّ يده لعقد تحالفات في الخليج وشمال أفريقيا، فخلق بذلك كتلة ذات نفوذ في المشرق العربي مركزها دمشق. وأدّى صعود سوريا كقوة إقليمية إلى إعادة كتابة القواعد التي تَحكُم مسار الشرق الأوسط، فلقد فقدت القاهرة وبغداد بعض أهميتها، بينما أصبح جوهر الصراع على الشرق الأوسط، الذي هو موضوع هذا الكتاب، صراعاً بين إسرائيل وسوريا. ولم تحظَ سوريا في تاريخها بمثل هذه الأهمية وبأن تكون مركز ثقل سياسي إلا في العهد الأموي قبل اثني عشر قرناً.

ورغم هذا، فإنّ منجزات الأسد لا تزال بادية الهشاشة. فأعباء التصدّي للمصاعب إنما تقع كلها على كاهل رجل واحد ـ هو الأسد بالذات، ومن هنا فإنه، بالنسبة لتغيير قَدَر ١٩٦٧، لم يستطع أن يحقق إلا نجاحاً جزئياً: فلقد فشل في منع إسرائيل والولايات المتحدة من سلخ وتحييد مصر، أقوى بلد عربي، وأخفق في طرد إسرائيل من الأراضي الفلسطينية بل حتى السورية، بحيث بقيت المعضلة الفلسطينية برمّتها دون حل. كما أنّ رؤيته لتسوية إقليمية

تتحجّم فيها إسرائيل وراء حدود ما قبل حرب حزيران/ يونيو، على يد عالمٍ عربي يعادلها في القوة، لا تزال مجرد حلم. أما فكرة التوازن، التي تتمحور حولها طموحاته، فترفضها إسرائيل والقوة العظمىٰ التي تناصرها.

ورغم ذلك كله، يقابل هذه التطلُّعات التي أخفقتْ عدد من المكتسبات الحقيقية: فقوة الردع الهامة التي أصبحت تمتلكها سوريا صيّرتها بلداً يجعل إسرائيل تتردّد في مهاجمته. يضاف إلى ذلك أنّ الأسد استطاع، في سلسلة من الاشتباكات الطاحنة التي خاضها في الثمانينات، أن يصدّ التجاوزات الإسرائيلية في بيئته المشرقية، فقد أحبط المحاولات الرامية إلى جرّ لبنان والأردن إلى فلك إسرائيل، كما أنه لا بدّ سيقاوم، وبالشدة ذاتها، أيَّ محاولة من جانب إسرائيل (فيما لو غيّرت موقفها) لعقد صفقة مع الفلسطينيين.

ذلك أنّ من المعطيات الأساسية في سياسة الأسد تقول بأن التسويات الجزئية لا تؤدي إلا إلى توكيد تفوّق إسرائيل، وأنه يتعيّن على العرب كي يحموا أنفسهم أن يُصرّوا على سلام شامل وعلى جميع الجبهات، أو أن يستغنوا عن السلام برمّته. ومن منطلق هذا اليقين كانت معارضته لكامب ديفيد، وللإتفاق الإسرائيلي مع لبنان، وللخيار الأردني من كل جنس ونوع، ولمحاولات السلام المتأخرة التي جاءت بها إدارة ريغان في شهورها الأخيرة. وهكذا، فرغم أنّ الأسد لم يحصل على التسوية الإقليمية التي أرادها، فإنه قد أثبت أنّ لديه من القوة ما يكفي لإحباط أي حل يُملىٰ بالشروط الإسرائيلية. ومن هنا جعل الأسد سوريا الخصم العربيّ الوحيد الذي ينبغي على إسرائيل أن تحمله على محمل الجد.

وسوريا بالنسبة للكثيرين ليست موضوع شك فحسب، بل إنها أيضاً توحي بالغموض، وغالباً ما يرى هؤلاء أن تحركات الأسد تستعصي على الفهم. وفي الولايات المتحدة بالذات هناك شيء من عدم التصديق بأنّ بلداً صغيراً يقل تعداد سكانه عن اثني عشر مليوناً، يملك مثل هذه الجرأة ليقف

ويقاوم بمفرده. ومن المؤكّد أن الأسد في دفاعه عن المصالح العربية كما يراها استعمل البراعة، والاستخفاء، والشدة لتحدي مصالح الآخرين بدءاً من إسرائيل ومؤيديها الغربيين وانتهاء بالعرب الذين لا يساندون استراتيجيته. ومع ذلك فإن ثمة ما يثير الانتباه في مسيرته، فالمهمة التي اضطلع بها قبل عشرين عاماً كانت أكبر من الوسائل المتوفرة بين يديه. وكرئيس لبلد فقير ومتخلف نسبياً، كانت أوراقه في اللعبة مشوبةً بضعف أساسي، مما أجبره على أن يلعب وقد جعل أوراقه مضمومة إلى صدره كيلا تنكشف. وهذا أسلوب لا يجعل فهم الآخرين لسوريا شيئاً بسيطاً أو سهلاً.

ومما لا شك فيه أن إحساس الأسد بأنّ موارده محدودة وبأنه في حالة حصار دائم قد ترك أثره على الطريقة التي يُسَيّر بها أمور بلده ويدير بها دبلوماسيته. فنظامه شخصي جداً إذ يصرّ على أن يتحكم بكل شيء، ولا سيما بالشؤون الخارجية والإعلامية، لأنه، على عكس بعض الزعماء الذين يخرجون سالمين من أخطائهم، لا مجال لديه لارتكاب أي خطأ. فكل خطوة يخطوها هي بمثابة مخاطرة تُعرّضه للخروج من اللعبة برمّتها، وهو أمل أعداءه دائماً.

لقد ورث الأسد (أو ربما طوّر بنفسه) المؤهلات الضرورية للمعركة في بيئة تُعتبر قاسية حسب أي مقياس. ورغم أنه يرفض أن يفتشَ عليه أحد، فإنه يظل حريصاً على ألا تقوم بينه وبين أي خصم قطيعةٌ بلا عودة، بل هو يُبقي الاحتمال مفتوحاً دائماً لمصالحةٍ في خاتمة المطاف. ولقد أضاف إلى صبره وحذره مقداراً كبيراً من الشجاعة: فوصول واحد من الأقليات إلى رئاسة الجمهورية يتطلب شجاعة، والهجوم على إسرائيل في عام ١٩٧٣ يتطلب شجاعة، وكذلك التدخل في لبنان والوقوف ضد محاربة إيران في عام ١٩٧٦، فيما كان يبدو خروجاً على التضامن العربي، ثم رفضُ الأمر الواقع الذي حاولت إسرائيل وأميركا بسطه على لبنان في عاميْ ١٩٨٢ و١٩٨٣، وكذلك مقاومة

التسويات الجزئية مع إسرائيل طيلة أعوام كثيرة. . . . كل ذلك يتطلب قرارات خطرة، وغير شعبية في معظم الأحيان.

لقد كانت إسرائيل منذ ولادتها تسعى للأمن عن طريق السيطرة العسكرية على العرب، وهي سياسة كان من الطبيعي أن تزيد حدّة العداء العربي وتستحثّ جهود العرب على الثأر. وعندما أصبحت «إسرائيل الكبرى» سياسةً رسمية في ظل حكم مناحيم بيغن اعتباراً من عام ١٩٧٧ واجه العرب مخططاً لا يكتفي فقط بعرقلة أيّ تسوية للمشكلة الفلسطينية، بل يتعدّاه إلى تفتيت قلب الأراضي العربية وبلقنتها، مما يهدد بإبقاء العرب في وضع استراتيجي يكون دائمَ الإضرار بهم. وأدّى الإحباطُ وزعزعة الاستقرار اللذان نجما عن هذا البرنامج الإسرائيلي إلى حروب، ومذابح، وتشدّد أصولي جذري، واختطافٍ للبشر وللطائرات، وإلى إرهاب وإرهاب مضادّ، كما هو موصوف في هذا الكتاب، وإلى تطرف متصلب شامل فيه خطورة على مستقبل إسرائيل على المدىٰ البعيد أكثر من كل ما سبق، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى إدانة السياسات الأميركية ـ الإسرائيلية في الشرق الأوسط. فالسلام على الطريقة العبرانية، بتمويل وتسليح واشنطن، لم يؤدّ إلا إلى أضرارٍ مستديمةٍ على نطاق واسع.

إنّ سوريا الأسد تُمثّل رفضاً لنهجٍ في الشرق الأوسط تكون الهيمنة فيه لإسرائيل، وتقدّم بدلاً عنه نهجاً يقوم لا على تفوق العرب أو الإسرائيليين بل على أساس توازنٍ للقوىٰ بين مشرقٍ عربي مركزه دمشق وبين إسرائيل ضمن حدودها عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩. وإنه لمن الخطأ الافتراض بأن العرب سيكونون أكثرَ قبولاً بالهيمنة الإسرائيلية بعد أن يغيب الأسد نفسه عن المسرح. ولا شك في أن الحل الذي يطرحه الأسد يستدعي قبل كل شيء نوعاً من التغيير الجذري في تفكير المعسكر المعادي: فلا بدّ لإسرائيل من التخلي عن طموح السيطرة لتحل محله إرادة التعايش، كما يتعيّن عليها أن تقبل شريكاً عربياً في

المفاوضات، لديه ما يكفي من القوة لمساعدة اللبنانيين والفلسطينيين على إعادة بناء مجتمعاتهم الممزّقة، ويكون قوياً لدرجةٍ تجعله قادراً على حفظ السلام.

وإلى أن يحين ذلك الوقت فإن الأسد، عندما سُئل: كيف يرىٰ أنْ تكون عليه خاتمةُ هذا الكتاب؟ أجاب: «قُلْ ببساطة إنّ الصراع مستمر»[١].

(١) مقابلة مع الرئيس الأسد بدمشق في ١٨/٣/١٩٨٨.

ـ المراجـــع

ـ باللغة العربيّة

الملك عبد الله : مذكرات ، عمان ، ١٩٤٧ .

عبد الله عبد الدايم : القومية والانسانية ، بيروت ، ١٩٥٧ .

الاشتراكية والديمقراطية ، بيروت ، ١٩٦١ .

الجيل العربي الجديد ، بيروت ، ١٩٦١ .

أحمد عبد الكريم أضواء على تجربة الوحدة ، دمشق ، ١٩٦٢ .

جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة ، القاهرة .

فضل الله أبو منصور : أعاصير دمشق ، بيروت ١٩٥٩ .

سليمان أفندي الأضنه : كتاب الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية ، بيروت ١٩٦٣ .

ميشيل عفلق : معركة المصير الواحد ، بيروت ، ١٩٥٨ .

في سبيل البعث ، بيروت ، ١٩٦٣ .

منير العجلاني : دفاع الدكتور منير العجلاني أمام المحكمة العسكرية في دمشق ، دمشق ١٩٥٧ .

موسى العلمي : عبرات فلسطين ، بيروت ، ١٩٤٩ .

ناجي علوش : الثورة والجماهير ، بيروت ، ١٩٦٢ .

فوزي الأمين : حافظ الأسد ودوره القومي في لبنان ، بيروت ، ١٩٨٣ .

الجامعة العربية : جامعة الدول العربية : ميثاقها ونبذة تاريخية عنها ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
زكي الأرسوزي : العبقرية العربية في لسانها ، دمشق ، ١٩٤٢ .
الأمة العربية ، دمشق ، ١٩٥٨ .
مشاكلنا القومية ، دمشق ، ١٩٥٨ .
المؤلفات الكاملة ، دمشق ، ١٩٨٢ - ١٩٧٤ .
جمال الأتاسي : في الفكر السياسي ، جزء أول وثان، دمشق ، ١٩٦٣ .
فؤاد الأطرش : الدروز مؤامرة وطريق وحقائق، بيروت ١٩٧٥ .
شبلي العيسمي : في الثورة العربية ، بيروت ١٩٦٩ .
الوحدة العربية من خلال التجربة، بيروت ، ١٩٧١ .
حول الوحدة العربية. بيروت ١٩٧٤ .
حزب البعث العربي الاشتراكي مرحلة الأربعينات التأسيسية ١٩٤٠ - ١٩٤٩ ، بيروت ١٩٧٥ .
س. أيوب : الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، ١٩٢٢ - ٥٨ ، بيروت ، ١٩٥٩
عبد القادر العظم : الأسرة العظمية ، دمشق ، ١٩٥١ .
خالد العظم : مذكرات خالد العظم ، ثلاثة أجزاء . بيروت ١٩٧٣ .
صادق العظم : النقد الذاتي بعد الهزيمة، بيروت ، ١٩٦٨ .
ليلى بعلبكي : أنا أحيا ، بيروت ١٩٥٨ .
خالد بكداش : الحزب الشيوعي في النضال لأجل الاستقلال والسيادة الوطنية ، بيروت ١٩٤٤ .
الشيوعية والقومية ، بيروت ١٩٤٤.
الشيوعية في سوريا، دمشق ، ١٩٤٦ .
دور سوريا التاريخي في العالم العربي، دمشق ، ١٩٥٥ .
فخري البارودي : مذكرات البارودي، بيروت ، ١٩٥١ .

صلاح الدين البيطار : السياسة العربيـة بين المبدأ والتـطبيق ، بيروت ، ١٩٦٠ .
صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق : القومية العربية وموقفها من الشعوبية ، دمشق ، ١٩٤٤ .
صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق : البعث والحزب الشيوعي ، دمشق ، ١٩٤٤ .
عفيف البزرة : الناصرية في جملة الاستعمار الحديث ، دمشق ، ١٩٦٢ .
دليل الجمهورية السورية : ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، دمشق .
حكم دروزة : الشيوعية المحلية في معركة العرب القومية، بيروت، ١٩٦١ .
بشير الداعوق : نضال البعث في سبيل الوحدة ، الحرية ، والاشتراكيـة بيروت ، ١٩٦٣ ـ ١٩٧٤ .
جورج فارس : من هو في سوريا ١٩٤٩ ، دمشق ، ١٩٤٩ .
محمد فوزي ومحمود حافظ : دراسات في القومية العربيـة ، القاهـرة ، ١٩٥٩ .
مجموعة وثائق : هذه هي سورية الكبرىٰ . دمشق .
لطفي الحفار : ذكريات ، دمشق ، ١٩٥٤ .
وجيه الحفار : الدستور والحكم دمشق ١٩٤٨ .
ياسين الحافظ : في الفكر السياسي ، دمشق ، ١٩٦٣ .
حسن الحكيم : مذكراتي ، صفحات من تاريخ سوريا الحديثة ١٩٢٠ ـ ١٩٥٨ ، بيروت ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ .
عبد الرزاق الحسني : تاريخ الوزارات العراقية ، صيدا ١٩٥٥ .
أكرم الحوراني : رأي أكرم الحوراني في الوحدة العربية ، دمشق ١٩٦٢ .
محمد حسنين هيكل : ما الذي جرى في سوريا ، القاهرة ١٩٦٢ .
هاني الهندي : جيش الانقاذ ، بيروت ١٩٧٤ .
الحزب القومي السوري الاجتماعي ، بيروت ١٩٤٩ .

ساطع الحصري : يوم ميسلون ، بيروت ، ١٩٤٧ .
آراء وأحاديث في القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٥١ .
آراء وأحاديث في الوطنية والقومية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
دفاع عن العروبة ، بيروت ، ١٩٦٣ .
الاقليمية : جذورها ، وبذورها ، بيروت ، ١٩٦٣ .
سعد الدين ابراهيم : اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة ، بيروت ، ١٩٨٠ .
توفيق عنداني : البعث في دروب النضال ، دمشق ١٩٦٥ .
الحكومة العراقية : مجرى الحوادث المتأنية من الانقلاب في دمشق بما يتعلق بالحكومة العراقية ، بغداد ، ١٩٤٩ .
وزارة الدفاع العراقية: محكمة الشعب ، بغداد ، ١٩٥٨ .
أحمد عيسى : سوريا الجديدة في الانقلابين الأول والثاني ، دمشق ، ١٩٤٩ .
كمال جنبلاط : هذه هي وصيتي ، بيروت ، ١٩٧٨ .
سامي الجندي : عرب ويهود ، بيروت ، ١٩٦٨ .
صديقي الياس ، بيروت ، ١٩٦٩ .
البعث ، بيروت ، ١٩٦٩ .
أتحدى وأتهم ، بيروت ، ١٩٧٠ .
حبيب كحالة : ذكريات نائب ، دمشق .
وجيه الكوثراني : بلاد الشام ، بيروت ، ١٩٨٠ .
عبد الرحمن الكيالي : مراحل في الانتداب الفرنسي ونضالنا الوطني ، حلب ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ .
سامي الخوري : رد على ساطع الحصري ، بيروت .
محمد جلال الكشك : النكسة والغزو الفكري ، بيروت ١٩٦٩ .
القومية والغزو الفكري ، بيروت ١٩٧٠ .
محمد كرد علي : المذكرات ، دمشق ، ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ .

كلوفيس مقصود : نحو إشتراكية عربية ، بيروت ١٩٥٧ .
أزمة اليسار العربي ، بيروت ١٩٦٠ .
الياس مرقص : طريق الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، بيروت ، ١٩٦٤ .
أمين النفوري : عبد الناصر بدأ في دمشق وانتهى في شتورة ، دمشق ، ١٩٦٢ .
محمد عزت نصر الله : الرد على صادق العظم ، بيروت ، ١٩٧٠ .
أديب نصور : قبل فوات الأوان ، بيروت .
قدري القلعجي : تجربة عربي في الحزب الشيوعي ، بيروت .
خيرية القاسمية : مذكرات فوزي القاوقجي ١٩١٤ - ١٩٣٢ . بيروت ، ١٩٧٥ .
فلسطين في مذكرات فوزي القاوقجي ، بيروت ، ١٩٧٥ .
شكري القوتلي : مجموعة خطب ، دمشق ، ١٩٥٧ .
منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة ، بيروت ، ١٩٦٦ .
التجربة المرّة ، بيروت ، ١٩٦٧
فؤاد الركابي : على طريق الثورة ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
الحل الأوحد ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
عبد الله الريماوي : المنطق الثوري للحركة القومية العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١ .
الحركة العربية الواحدة ، بيروت ، ١٩٦٣ .
شامل الردمي : الفطائر ، دمشق ، ١٩٦٠ .
أنطون سعادة : نشوء الأمم ، بيروت ، ١٩٣٨ .
التعاليم السورية القومية الاجتماعية ، بيروت ، ١٩٤٧ .
أنور السادات : قصة الوحدة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

مطاع الصفدي : جيل القدر، دمشق، ١٩٦٠ .

حزب البعث: مأساة المولد مأساة النهاية ، بيروت، ١٩٦٤ .

رفعت السيد : حسن البنّا ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

ابراهيم سلامة : البعث من المدارس إلى الثكنات ، بيروت ، ١٩٦٩ .

أنيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ، بيروت، ١٩٥٩ .

جلال السيد : حزب البعث العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ .

عبد الرحمن الشهبندر : الثورة السورية الوطنية ، دمشق ، ١٩٣٣ .
القضية الاجتماعية الكبرىٰ في العالم العربي، القاهرة، ١٩٣٦ .

عبد النعيم شميعي : القوميون السوريون ، بيروت، ١٩٥٨ .

بدر الدين السباعي : أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية، ١٨٥٠ - ١٩٥٨ .

عبد الكريم زهر الدين : مذكراتي عن فترة الانفصال في سوريا ، بيروت ، ١٩٦٨ .

قسطنطين زريق : معنىٰ النكبة ، بيروت ، ١٩٤٨ .

- بلغات أخرى

Abdel-Malek, A. **Egypte: société militaire,** Paris, 1962. (US ed. **Egypt: Military Society,** New York, 1968).

Abdullah ibn Hussein. **The Memoirs of King Abdullah of Transjordan,** ed. P.P. Graves, London, 1950.

Abou Iyad. **Palestinien sans patrie,** Paris, 1978.

Abouchdid, E.E. **Thirty years of Lebanon and Syria, 1917 - 1947,** Beirut, 1948.

Abu Jaber, K.S. **The Arab Ba'th Socialist Party, History, Ideology and Organisation,** Syracuse, N.Y., 1966.

Abul-Fath, A. **L'Affaire Nasser,** Paris, 1962.

Ahmed, J.M. **The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism,** Oxford, 1960.

Ajami, F. **The Arab Predicament: Arab Political Thought and Practice since 1967,** Cambridge, 1981.

---- **The Vanished Imam: Musa al Sadr and the Shia of Lebanon,** Cornell and London, 1986.

al-Akhrass, S. **Revolutionary Change and Modernisation in the Arab World: a Case from Syria,** Damascus, 1972.

Amin, S. **The Arab Nation,** London, 1978.

Amine, M. **Le Développement des partis politiques en Syrie entre 1936 et 1947,** Unpubl. thesis, University of Paris, 1950.

Amnesty International Publications, **Report from Amnesty International to the Government of the Syrian Arab Republic,** London, 1983.

---- **Syria: Torture by the Security Forces,** London, 1987.

Antonius, G. **The Arab Awakening,** London, 1938.

Asfour, E.W. **Syria: Development and Monetary Policy,** Cambridge, Mass., 1959.

Ashour, I.Y. **The Remnants of the Feudal System in Palestine, Syria and the Lebanon,** Unpubl. thesis, American University of Beirut, 1946.

Avnery, U. **My Friend, The Enemy,** London, 1986.

Baer, G. **Population and Society in the Arab World,** New York, 1964.

Bagh, S. **L'Industrie à Damas entre 1928 et 1959, Etude de géographie**

économique, Damascus, 1961.
Bakhash, S. **The Reign of the Ayatollahs: Iran and the Islamic Revolution,** New York and London, 1985.
Ball, G.W. **The Past Has Another Pattern,** New York, 1982.
---- **Error and Betrayal in Lebanon: an Analysis of Israel's Invasion of Lebanon and the implications for US-Israeli Relations,** Washington, 1984.
Batatu, H. **The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq,** Princeton, 1978.
Be'eri, E. **Army Officers in Arab Politics and Society,** New York, 1970.
Begin, M. **The Revolt: Story of the Irgun,** Jerusalem, 1977.
Beit-Hallahmi, B. **The Israeli Connection: Whom Israel Arms and Why,** London, 1988.
Bekdash, K. **La Charte national du parti communiste en Syrie et au Liban,** Beirut, 1944.
Benziman, U. **Sharon: An Israeli Caesar,** London, 1985.
Berger, M. **The Arab World Today,** New York, 1962.
Berque, J. **Les Arabes d'hier à demain,** Paris, 1960.
Betts, R.B. **Christians in the Arab East,** Athens, 1975.
Birdwood, Lord. **Nuri as-Said: a Study in Arab Leadership** London, 1959.
Bitterlin, L. **Hafez el-Assad: Le Parcours d'un Combattant,** Paris, 1986.
Brenner, L. **The Iron Wall: Zionist Revisionism from Jabotinsky to Shamir,** London, 1984.
Breuilly, J. **Nationalism and the State,** Manchester, 1982.
Brookings Institution, The. **Toward Peace in the Middle East,** Washington, 1975.
---- **Toward Arab-Israeli Peace,** Washington, 1988.
Brown, L.C. **International Politics and the Middle East: Old Rules, Dangerous Game,** Princeton and London, 1984.
Brzezinski, Z. **Power and Principle,** New York and London, 1983.
Campbell, J.C. **Defence of the Middle East,** rev. ed. New York, 1960.
Carré, O. and G. Michaud. **Les Frères Musulmans (1928 – 1982),** Paris, 1983.

Carrère d'Encausse, H. **La politique soviétique au Moyen-Orient 1955 - - 1975,** Paris, 1975.

Carter, J. **Keeping Faith,** New York and London, 1982.

---- **The Blood of Abraham,** Boston, 1985.

Castle, B. **The Castle Diaries 1964 – 70,** London, 1984.

Chaliand, G. (ed) **People Without a Country: the Kurds and Kurdistan,** London, 1980.

Chatty, D. **From Camel to Truck: the Bedouin in the Modern World,** New York, 1986.

Childers, E.B. **The Road to Suez,** London, 1962.

Chomsky, N. **Peace in the Middle East?,** New York 1974, London 1975.

---- **The Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians,** Boston and London, 1983.

Cleveland, W. L. **The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati Al-Husri,** Princeton, 1971.

---- **Islam against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism,** Texas, 1985.

Cobban, H. **The Palestinian Liberation Organisation: People, Power and Politics,** Cambridge, 1984.

---- **The Making of Modern Lebanon,** London, 1985.

Colombe, M. **L'Evolution de l'Egypte, 1924 – 1950,** Paris, 1951.

---- **Orient arabe et non-engagement,** 2 vols, Paris, 1973.

Cooley, J.K. **Green March, Black September: The Story of the Palestinian Arabs,** London, 1973.

Copeland, M. **The Game of Nations,** London, 1969.

Cordesman, A.H. **The Arab-Israeli Military Balance and the Art of Operations,** Washington, 1986.

Crossman, R. **The Diaries of a Cabinet Minister,** London, 1976.

Crow, R. A Study of Political Forces in Syria based on a survey of the 1954 elections, Unpubl. Beirut, 1955.

Daker, N. **Sédentarisation des bedouins nomades en Syrie,** Paris, 1973.

Davis, H.M. **Constitutions, Electoral Laws, Treaties of States in the Near and Middle East,** 2nd ed. Durham, 1953.

Dawisha, A.I. **Egypt in the Arab World: the Elements of Foreign Policy,** London, 1976.

---- **Syria and the Lebanese Crisis,** London, 1980.
---- and I.W. Zartman, eds. **Beyond Coercion: The Durability of the Arab State,** London, 1988.
Dawn, C.E. **From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism,** Urbana, 1973.
Day, A.R. **East Bank /West Bank: Jordan and the Prospects for Peace,** New York, 1986.
Dayan, Maj. – Gen. M. **Diary of the Sinai Campaign, 1956,** London, 1967.
Dayan, M. **Story of My Life,** London, 1976.
---- **Breakthrough: A Personal Account of the Egypt-Israel Peace Negotiations,** New York, 1981.
Devlin, J.F. **The Ba'th Party: a History from its Origins to 1966,** Stanford, 1966.
---- **Syria: Modern State in an Ancient Land,** Boulder, Colorado, and London, 1983.
Dubertret, L. & J. Weulersse **Manuel de géographie, Syrie, Liban et Proche-Orient,** Beirut, 1940.
Dupuy, T.N. **Elusive Victory: The Arab-Israeli Wars, 1947 – 1974,** New York, 1978.
---- and P Martell, **Flawed Victory,** Washington, 1985.
Dussaud, R. **Histoire et Religion des Nosairis,** Paris, 1900.
Eban, A. **An Autobiography,** New York 1977, London 1978.
Ecochard, M. and G. Banshoya, **Plan Directeur de Damas,** Damscus, 1968.
Eden, Sir A. **The Mémoirs of the Rt Hon. Sir Anthony Eden KG. PC. MC. iii: Full Circle,** London, 1960.
Egypt Min. of Foreign Affairs. **Records of Conversations, Notes and Papers exchanged between the Royal Egyptian Government and the United Kingdom Government, March 1958 – November 1951,** Cairo, 1951.
Eshel, D. **The Lebanon War,** Tel Aviv, 1982.
Evans-Pritchard, Capt. E.E. **A Note on the Nosairis of Syria,** unpubl. Beirut, 1942.
Eveland, W.C. **Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East,** New York, 1980.

Evron, Y. **War and Intervention in Lebanon: The Israeli-Syrian Deterrence Dialogue,** London, 1987.
Fahmy, I. **Negotiating for Peace in the Middle East,** London, 1983.
Faris, N.A. and M.T. Husayn. **The Crescent in Crisis: an interpretative study of the modern Arab world,** Kansas, 1955.
Fedden, R. **Syria: an Historical Appreciation** London, 1946.
Revised ed. London, 1955.
Fisher, S.N. (ed.) **Social Forces in the Middle East,** Cornell, 1955.
Fisher, W.B. **The Middle East, a Physical, Social and Regional Geography,** London, 4th ed. 1961.
Flapan, S. **Zionism and the Palestinians,** New York and London, 1979.
Ford, G.R. **A Time to Heal,** New York and London, 1979.
Frye, R.N. (ed.) **The Near East and the Great Powers,** Cambridge, Mass., 1951.
Gabby, R.E. **A Political Study of the Arab-Jewish Conflict,** Geneva, 1959.
Gabriel, R.A. **Operation Peace for Galilee,** New York, 1984.
Ghalioun, B. **Etat et luttes de classes en Syrie, 1945 - 1970** Unpubl. thesis, Paris, 1974.
Gibb, Sir A. & Partners. **The Economic Development of Syria,** London, 1947.
Gibb H.A.R. and J.H. Kramers, **Shorter Encyclopaedia of Islam,** Leiden, 1953.
Gilmour, D. **Dispossessed: The Ordeal of the Palestinians 1917 - 1980,** London, 1980.
---- **Lebanon: the Fractured Country,** Oxford, 1983.
Glubb, J.B. **A Soldier with the Arabs,** London, 1957.
---- **Britain and the Arabs: a Study of Fifty Years, 1908 - 1958,** London, 1959.
Golan, G. **Syria, Lebanon, Jordan,** London, 1967.
---- **Yom Kippur and After: The Soviet Union and the Middle East Crisis,** London, 1977.
Golan, M. **The Secret Conversations of Henry Kissinger,** New York, 1976.
Gordon, D.C. **The Republic of Lebanon: Nations in Jeopardy,** Boulder and London, 1983.

Green, S. **Taking Sides: America's Secret Relations with a Militant Israel,** New York, 1984.
Haber, E., Ze'ev Schiff and Ehud Ya'ari. **The Year of the Dove,** New York, 1979.
Haddad, G. **Fifty Years of Modern Syria and Lebanon,** Beirut, 1950.
---- **Revolutions and Military Rule in the Middle East,** New York, 1965.
al-Hafez, M.A. **La Structure et la Politique économique en Syrie et au Liban,** Beirut, 1953.
Haig, A.M. Jr. **Caveat: Realism, Reagan and Foreign Policy,** London, 1984.
Haim, S.G. **Arab Nationalism: An Anthology,** Los Angeles and London, 1962. Paperback edition 1976.
Halm, H. **Die islamische Gnosis: die extreme Schia und die Alawiten,** Zurich and Munich, 1982.
Halpern, M. **The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa,** Princeton, N.J., 1963.
Hamide, A.R. **La Région d'Alep: étude de géographie rurale,** Paris, 1959.
---- **La Ville d'Alep: étude de géographie urbaine,** Paris, 1959.
Hannoyer, J. **Campagnes et pouvoir en Syrie: Essai d'histoire socio-économique sur la région de Deir Ez-Zor,** Unpubl. thesis, Paris, 1982.
Hansen, B. **Economic Development of Syria,** Santa Monica. Cal. 1969.
Harba, M. **Organisations agraires, population rurale et développement en Syrie,** Unpubl. thesis, Montpellier, 1978.
Heikel, M. **The Cairo Documents,** New York, 1973.
---- **The Road to Ramadan,** New York and London, 1975.
---- **The Sphinx and the Commissar,** New York and London, 1978.
---- **Autumn of Fury,** New York and London, 1983.
Helbaoui, Y. **La Syrie: Mise en valeur d'un pays sous-développé,** Paris, 1956.
Hersh, S.M. **Kissinger: The Price of Power,** New York and London, 1983.
Herzog, C. **The Arab-Israeli Wars,** London, 1982.
Heyworth-Dunne, J. **Religious and Political Trends in Modern Egypt,** Washington, 1950.

Hilan, R. **Culture et développment en Syrie et dans les pays retardés,** Paris, 1969.
Hiro, D. **Iran Under the Ayatollahs,** London, 1985.
Hirst, D. **The Gun and the Olive Branch: the Roots of Violence in the Middle East,** New York and London, 1977.
Hirst, D. and I. Beeson, **Sadat,** London, 1981.
Hirszowicz, L. **The Third Reich and the Arab East,** London, 1966.
Hitti, P.K. **History of Syria, including Lebanon and Palestine,** New York and London, 1951.
Hof, F.C. **Galilee Divided: The Israel-Lebanon Frontier, 1916 - 1984,** Boulder and London, 1985.
Holt, P.M. **Egypt and the Fertile Crescent. 1516 - 1922,** London, 1966.
Hourani, A.H. **Syria and Lebanon,** London, 1946.
---- **Minorities in the Arab World,** Oxford, 1957.
---- **A Vision of History,** Beirut, 1961.
---- **Arabic Thought in the Liberal Age, 1798 - 1939,** London, 1962.
---- **Europe and the Middle East,** London, 1980.
---- **The Emergence of the Modern Middle East,** London, 1981.
Hudson, M.C. **Arab Politics: the Search for Legitimacy,** Yale, 1977.
Humbaraci, A. **Middle East Indictment,** London, 1958.
Hurewitz, J.C. **Middle East Dilemmas: the Background of United States Policy,** New York, 1953.
---- **Diplomacy in the Near and Middle East: a Documentary Record. ii: 1914 - 1956,** Princeton, N.J., 1956.
Husaini, I.M. **The Moslem Brethren,** Beirut, 1956.
International Bank for Reconstruction and Development. **The Economic Development of Syria,** Baltimore, 1955.
Ionides, M. **Divide and Lose: the Arab Revolt 1955 - 8,** London, 1960.
Issawi, C. (ed.) **The Economic History of the Middle East 1800 - 1914,** Chicago, 1966.
Jamowitz, M. **The Military and the Political Development of New Nations,** Chicago, 1964.
Jansen, M. **The Battle of Beirut: Why Israel Invaded Lebanon,** London, 1982.
Jargy, S. **Syrie,** Paris, 1962.

Jenner, M. **Syria in View,** London, 1986.
Johnson, M. **Class and Client in Beirut: The Sunni Muslim Community and the Lebanese State 1840 - 1985,** London, 1986.
Junblatt, **K. Pour le Liban,** Paris, 1978.
Kalb, M and B. **Kissinger,** Boston, 1974.
Kaminsky, C. and S. Kruk, **La Syrie: Politiques et Stratégies de 1966 à nos jours,** Paris, 1987.
Karanjia, R.K. **Arab Dawn,** Bombay, 1958.
Karpat, K.H. (ed) **Political and Social Thought in the Contemporary Middle East,** London, 1968.
Kamel, M.I. **The Camp David Accords,** London, 1986.
Kedourie, E. **England and the Middle East: the Destruction of the Ottoman Empire 1914 - 1921,** London, 1956.
---- **The Chatham House Version and other Middle Eastern Studies,** London, 1970.
---- **Arabic Political Memoirs and Other Studies,** London, 1974.
---- **In the Anglo-Arab Labyrinth: the McMahon-Husayn Correspondence and its Interpretations. 1914 - 39**, Cambridge, 1976.
---- **Islam in the Modern World,** London, 1980.
Kepel, G. **The Prophet and Pharaoh: Muslim Extremism in Egypt,** London, 1985.
Kerr, M. **The Arab Cold War. 1958 - 64: a Study of Ideology in Politics,** Oxford, 1965. 3rd ed. subtitled **Gamal Abd Al-Nasir and his Rivals, 1958 - 70,** Oxford, 1971.
Khadduri, M. **Independent Iraq 1932 - 1958,** 2nd ed. Oxford, 1960.
---- **Republican Iraq,** Oxford, 1969.
---- **Arab Contemporaries: the Role of Personalities in Politics,** Baltimore, 1973.
Khalidi, W. Political Trends in the Fertile Crescent, in W.Z. Laqueur (ed.) **The Middle East in Transition,** London, 1958.
---- **Conflict and Violence in Lebanon,** Cambridge, Mass, 1984.
Khalidi, R. **Under Siege,** New York, 1986.
Khoury, P.S. **Urban Notables and Arab Nationalism: the Politics of Damascus 1860 - 1920,** Cambridge, 1983.
---- **Syria and the French Mandate: The Politics of Nationalism 1920 - - 1936,** Harvard and London, 1987.

Kirk, G.E. **A Short History of the Middle East,** London, 1948.
---- **The Middle East in the War, 1939 - 1946,** London, 1952.
---- **The Middle East, 1945 - 1950,** London, 1954.
---- **Contemporary Arab Politics,** New York, 1961.
Kirkbride, Sir A. **A Crackle of Thorns,** London, 1956.
Kissinger, H. **White House Years,** New York and London, 1979.
---- **Years of Upheaval,** New York and London, 1982.
Klieman, A.S. **Israel's Global Reach: Arms Sales as Diplomacy,** New York and Oxford, 1985.
Kramers, M. (ed) **Shi'ism, Resistance and Revolution,** Boulder, Colorado, 1987.
Lacouture, J. and S. **L'Egypte en mouvement,** Paris, 1956.
Lacouture, J. **Nasser,** Paris, 1971.
Laissy, M. **Du Panarabisme à la Ligue Arabe,** Paris, 1948.
Lammens, H. **Etudes religieuses,** Paris, 1899.
---- **La Syrie et sa mission historique** Cairo, 1915.
---- **La Syrie: précis historique,** Beirut, 1921, 2 vols.
---- **L'Islam, croyances et institutions,** Beirut, 2nd ed. 1941.
Laqueur, W.Z. **Communism and Nationalism in the Middle East,** London, 1956.
---- (ed) **The Middle East in Transition,** London, 1958.
---- **The Soviet Union and the Middle East,** New York, 1959.
Legum, C. et al, (eds) **Middle East Contemporary Survey,** vol 1, 1976 - 77; vol ii, 1977 - 78; vol iii, 1978 - 79; vol iv, 1979 - 80; vol v, 1980 - 81; vol vi, 1981 - 82; vol vii, 1982 - 83.
Lerner, D. **The Passing of Traditional Society,** New York, 1964.
Lewis, B. **The Arabs in History,** London, 1958.
---- **The Middle East and the West,** New York, 1964.
---- **The Assassins: a Radical Sect in Islam,** London, 1967. Paperback ed. London, 1985.
Little, T. **Egypt,** London, 1958.
Longrigg, S.H. **Iraq, 1900 to 1950: a Political, Social and Economic History,** London, 1953.
---- **Syria and Lebanon under French Mandate,** London, 1958.
---- **The Middle East, a Social Geography,** London, 1963.
Love, K. **Suez, The Twice-Fought War,** New York, 1969.

Luttwak, E. and D. Horowitz **The Israeli Army,** New York, 1975.
Lyde, the Rev. S. **The Ansyreeh and Ismaeleeh,** London, 1853.
---- **The Asian Mystery,** London, 1860.
Maalouf, A. **The Crusades Through Arab Eyes,** London, 1984.
MacBride, S, et al. **Israel in Lebanon: The Report of the International Commission,** London, 1983.
Macintyre, R.R. **The Arab Ba'th Socialist Party: Ideology, Politics, Sociology and Organisation,** Unpubl. thesis, Australian National University, 1969.
Majdalani, G. The Arab Socialist Movement, in W.Z. Laqueur (ed) **The Middle East in Transition,** London, 1958.
Mansfield, P. **The Arabs,** London, 1976.
Ma'oz, M. **Ottoman Reform in Syria and Palestine, 1840 – 1861: the Impact of the Tanzimat on Politics and Society,** Oxford, 1968.
---- **Syria Under Hafiz al-Asad: New Domestic and Foreign Policies,** Jerusalem, 1975.
Ma'oz, M. and A. Yaniv (eds) **Syria under Assad: Domestic Constraints and Regional Risks,** London, 1986.
Marlowe, J. **Arab Nationalism and British Imperialism,** London, 1961.
Melia, J. **Chez Les Chrétiens d'Orient,** Paris, 1929.
Meir, G. **My Life,** New York, 1976.
Milson, M. (ed) **Society and Political Structure in the Arab World,** New York, 1973.
Mitchell, R.P. **The Society of the Muslim Brothers,** London, 1969.
Monroe, E. **Britain's Moment in the Middle East, 1914 – 56,** London, 1963.
Mutawi, S.A. **Jordan in the 1967 War,** Cambridge, 1987.
Nashabi, H.A. **The Political Parties in Syria 1918 – 1933,** Unpubl. thesis, American University of Beirut, 1952.
National Security Archive, The. **The Chronology: The Documented Day-by-Day Account of the Secret Military Assistance to Iran and the Contras,** New York, 1987.
al-Nayal, M.A.K. **Industrialisation and Dependency, Syria 1920 – 1957,** Unpubl. thesis, The Hague, 1974.
Neguib, M. **Egypt's Destiny,** London, 1955.
Netanyahu, B. (ed.) **Terrorism: How the West Can Win,** New York, 1986.

Nir, A. **The Soviet-Syrian Friendship and Cooperation Treaty: Unfulfilled Expectations,** Tel Aviv, 1983.
Nuseibeh, H.Z. **The Ideas of Arab Nationalism,** Ithaca, N.Y., 1956.
Nutting, A.. **Nasser,** London, 1972.
Orgels, B. **Contribution à l'étude des problemes agricoles de la Syrie,** Brussels, 1962.
Ovendale, F. **The Origins of the Arab-Israeli Wars,** London, 1984.
Owen, R. (ed) **Essays on the Crisis in Lebanon,** London, 1976.
Patai, R. (ed) **The Republic of Syria,** New Haven, Conn., 2 vols, 1956.
Pakradouni, K. **La Paix Manquée: Le Mandat d'Elias Sarkis (1976 - - 1982),** Beirut, 1984.
Pearse, R. **Three Years in the Levant,** London, 1949.
Peri, Y. **Between Battles and Ballots: Israeli Military in Politics,** Cambridge, 1983.
Petran, T. **Syria,** London, 1972.
---- **The Struggle Over Lebanon,** New York, 1987.
Polk, W.R. America in the Middle East 1947 - 1958, in **St Antony's Papers** no 11, London, 1961.
---- **The United States and the Arab World,** Cambridge, Mass., 1965.
Porath, Y. **In Search of Arab Unity 1930 - 1945,** London, 1986.
Quandt, W B, F Jabber and A M Lesch, **The Politics of Palestinians Nationalism, Berkeley and London,** 1973.
Quandt, W B, **Decade of Decisions: American Policy Toward the Arab-Israeli Conflicy 1967 - 1976,** Berkeley and Lond, 1977.
---- **Camp David: Peacemaking and Politics,** Washington, 1986.
Rabbath, E. **Les Etats-Unis de Syrie,** Aleppo, 1925.
---- **Unité syrienne et devenir arabe,** Paris, 1937.
Rabin, Y. **The Rabin Memoirs,** London, 1979.
Rabinovich, I. **Syria under the Ba'th 1963 - 66: The Army-Party Symbiosis,** Jerusalem, 1972.
---- **The War for Lebanon, 1970 - 1985,** Ithaca and London, revised edition 1985.
Rafael, G. **Destination Peace,** London, 1981.
Randal, J. **The Tragedy of Lebanon: Christian Warlords, Israeli Adventurers and American Bunglers,** London, 1983.

el-Rayyes, R. and D. Nahas, **Guerrillas for Palestine,** London, 1976.
Raymond, A. (ed) **La Syrie d'Aujourd'hui,** Paris, 1980.
Razzaz, M. **The Evolution of the Meaning of Nationalism,** New York, 1963.
Riad, M. **The Struggle for Peace in the Middle East,** London, 1981.
Rodinson, M. **Israel et le refus arabe, 75 ans d'histoire,** Paris, 1969.
Rondot, Ph. **La Syrie,** Paris, 1978.
Rondot, P. **Le destin du Proche-Orient,** Paris, 1959. Eng. trs. **The Changing Patterns of the Middle East 1919 - 1958,** London, 1961.
Royal Institute of International Affairs (RIIA). **Survey of International Affairs, 1951, 1952, 1953, 1954, 1955 - 6 and 1957 - 8.**
---- **The Middle East: a political and economic survey** 3rd ed. London, 1958.
---- **British Interests in the Middle East: a report by a Chatham House study group,** London, 1958.
Saab, E. **La Syrie ou la révolution dans la rancoeur**, Paris, 1968.
Sadat, A. **In Search of Identity,** London, 1978.
Safran, N. **Egypt in Search of Political Community,** Harvard, 1961.
Said, E.W. **The Question of Palestine,** New York, 1979.
as-Said, Nuri Pasha. **Arab Independence and Unity,** Baghdad, 1943.
Salibi, K.S. **The Modern History of Lebanon,** London, 1965.
---- **Crossroads to Civil War: Lebanon 1958 - 1976,** London 1976.
Saunders, H.H. **The Other Walls: The Politics of the Arab-Israeli Peace Process,** Washington, 1985.
Sauvaget, J. **Esquisse d'une histoire de la ville de Damas,** Paris, 1934.
---- **Alep: essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu de XIXe siecle,** 2 vols, Paris, 1941.
Sayegh, F.A. **Arab Unity: Hope and Fulfilment,** New York, 1956.
Schatkowski Schilcher, L. **Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Centuries,** Stuttgart, 1985.
Schiff, Z. and E. Ya'ari, **Israel's War in Lebanon,** New York and London, 1984.
Seale, P. **The Struggle for Syria: A Study of Post-War Arab Politics, 1945 - 1958,** London, 1965, new ed. London, 1986.
Segev, S. **Sadat-ha-Derekh la-Shalom** (Sadat-the Road to Peace), Tel Aviv, 1979.

Shadid, M.K. **The United States and the Palestinians,** London, 1981.
Sharett, M. **Yoman Ishi** (Personal Diary), Tel Aviv, 1980.
Shawcross, W. **Sideshow: Kissinger, Nixon and the Destruction of Cambodia,** London and New York, 1979.
el-Shazly, Lt-Gen S. **The Crossing of the Suez,** San Francisco, 1980
---- **The Arab Military Option,** San Francisco, 1986.
Shoukri, G. **Egypt: Portrait of a President, 1971 - 1981,** London, 1981.
Sick, G. **All Fall Down: America's Fateful Encounter with Iran,** New York and London, 1985.
Sid-Ahmed, M. **After the Guns Fall Silent: Peace or Armageddon in the Middle East,** London, 1976.
Sluglett, M.F. and P, **Iraq Since 1958: from Revolution to Dictatorship,** London and New York, 1987.
Smolansky, O.M. **The Soviet Union and the Arab East under Khrushchev**. Lewisburg, 1974.
Spears, E. **Fulfilment of a Mission,** London, 1977.
Stephens, R. **Nasser,** London, 1971. Paperback ed. London, 1973.
Sterling C. **The Terror Network,** New York and London, 1981.
Stirling, Col. W.F. **Safety Last,** London, 1953.
Syrian Social Nationalist Party Information Bureau, **Antoun Sa'adeh: Leadership and Testimony,** n.d.
Tarazi, S. al-D. **Les Services publics libano-syriens,** Beirut, 1946 .
Thoumin, R. **Histoire de Syrie,** Paris, 1929 .
Tibawi, A.L. **A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine,** London, 1969.
Tibi, B. **Arab Nationalism. A Critical Inquiry,** New York, 1981.
Timermann, J. **The Longest War,** New York 1982.
Tivnan, E. **The Lobby: Jewish Political Power and American Foreign Policy,** New York, 1987.
Tlass, General M, et un groupe de chercheurs syriens. **L'Invasion israëlienne du Liban,** Paris, 1986.
Tomeh, R.G. **Landowners and Political Power in Damascus 1858 -- 1958,** Unpubl. thesis, American University of Beirut, 1977.
Torrey, G.H. **Syrian Politics and the Military 1945 - 1958,** Columbus, Ohio, 1964.

U.S. Army Area Handbook for Syria, Washington, D.C. 1965.

U.S. Dept. of State. **United States Policy in the Middle East: September 1956 - June 1957: Documents,** Washington, 1957.

Van Dam, Nikolaos. **The Struggle for Power in Syria: Sectarianism, Regionalism and Tribalism in Politics, 1961 - 1978,** London, 1979.

Van Dusen, M.H. **Intra-and Inter-Generational Conflict in the Syrian Army,** Unpubl. thesis, Johns Hopkins, 1971.

Vance, C. **Hard Choices,** New York, 1983.

Vatikiotis, P.J. **The Egyptian Army in Politics,** Indiana, 1961.

---- (ed.) **Revolution in the Middle East and other Case Studies,** London, 1972.

Vaucher, G. **Gamal Abdel-Nasser et son équipe,** 2 vols, Paris, 1959 - - 60.

Vernier, B. **Armée et Politique au Moyen-Orient,** Paris, 1966.

Von Horn, C. **Soldiering for Peace,** London, 1966.

Warriner, D. **Land Reform andDevelopmentin the Middle East,** London, 1957.

Waters, R.T. **A Social-Political Analysis of Syria 1943 - 1958,** Unpubl. thesis, American University of Beirut, 1962.

Weinberger, N.J. **Syrian Intervention in Lebanon,** Oxford, 1986.

Weizman, E. **On Eagles' Wings,** New York, 1976.

Weulersse, J. **Le Pays des Alaouites,** 2 vols, Tours, 1940.

---- **Paysans de Syrie et du Proche-Orient,** Paris, 1946.

Wheelock, K. **Nasser's New Egypt,** New York and London, 1957.

Whetten, L.L. **The Canal War: Four Power Conflict in the Middle East,** Cambridge, Mass. 1974.

Williams L. (ed) **Military Aspects of the Arab-Israeli Conflict,** Tel Aviv, 1975.

Wint, G. and P. Calvocoressi. **Middle East Crisis,** London, 1957.

Wirth, E. **Syrien, Eine Geographische Landeskunde,** Darmstadt, 1971.

Woodward, B. **Veil: The Secret Wars of the CIA 1981 - 1987,** New York and London, 1987.

Wynn, W. **Nasser of Egypt: the Search for Dignity,** Cambridge Mass., 1959.

Yermiya, D. **My Diary: Israel in Lebanon,** London and New York, 1984.

Yodfat, A. **Arab Politics in the Soviet Mirror,** Jerusalem, 1973.
Zeine, Z.N. **Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism,** Beirut, 1958.
---- **The Struggle for Arab Independence,** Beirut, 1960.
Ziadeh, N.A. **Syria and Lebanon,** London, 1957.
Zuwiyya-Yamak, L. **The Syrian Social Nationalist Party: an Ideological Analysis,** Cambridge, Mass., 1966.

- مقالات

Abou el-Haj, R. Identité et histoire: leur utilisation sociale dans l'historiographie arabe de la période ottomane, **Maghreb Machrek** n° 97, 1982.

Abou-Rejeily, A. La pédagogie du Ba'th selon Michel Aflaq, **Travaux et Jours,** 51, 1974.

Abu-Lughod, I. and E. Ahmad. (eds) The Invasion of Lebanon, **Race and Class,** vol xxiv, n° 4, spring 1983.

Agwani, M.S. The Ba'th: A Study in Contemporary Arab Politics, **International Studies,** III, 1961.

Baldissera, E. La composizione dei Governi Siriani dal 1918 al 1965, **Oriente Moderno** 1972.

Batatu, H. Some Observations on the Social Roots of Syria's Ruling Military Group and the Causes of its Dominance, **MEJ,** n°. 3, summer 1981.

Ben-Dor, G. The Middle East in 1981: A Year of Political Disorder, in Colin Legum et al (eds), **Middle East Contemporary Survey,** vol v, 1980 - 1981, New York and London, 1982.

Bengio, 0. Iraq, in Colin Legum et al (eds) **Middle East Contemporary Survey,** vol 4, 1979 - 1980.

Ben Tsur, A. Composition and Membership of the Ba'th Party in the Qunaytra Region, (in Hebrew, English Summary), **Hamizrah Hahedash,** Jerusalem xviii, 1968.

---- The Neo-Ba'th Party of Syria, **Journal of Contemporary History,** III, 1968.

Berque, J. L'Univers politique des arabe, **Encyclopédie francaise** xi, Paris, 1957.

Binder, L. Radical Reform Nationalism in Syria and Egypt, **Muslim World** xlix / 2 - 3, 1959.

Carleton, A. The Syrian Coups d'Etat of 1949, **MEJ,** iv /i 1950.

Carr. D.W. Capital Flows and Development in Syria, **Middle East Journal,** vol 34, no 4, autumn 1980.

Chabry, L. Le Ba'th et l'armée en Irak et en Syrie, **Maghreb Machrek,** n° 71, 1976.

---- La mise en service de l'oléoduc Iraq-Turquie et la mésentente syro-iraquienne, **Maghreb Machrek,** n° 77, 1977.

Chatelus, M. La Croissance économique: mutations des structures et dynamismes du désiquilibre, in André Raymond (ed), **La Syrie d'aujourd'hui,** Paris, 1980.

Chevalier, F. Forces en presence dans la Syrie d'aujourd'hui, **Orient,** n° 4, 1957.

Colombe, M. L'Egypte et les origines du nationalisme arabe, **L'Afrique et l'Asie,** n° 14, 1951.

---- La nouvelle politique arabe de la Republique Arabe Unie, **Orient** n° 11, 1959.

---- La mission à Damas du Maréchal égyptien Abd al-Hakim Amer, **Orient** n° 3, 1959.

---- Particularismes et nationalisme arabes à la suite du coup d'état syrien, **Orient** n° 5, 1961.

Couland, J. Le parti communiste libanais cinquante ans après, **Maghreb Machrek** n° 68, 1975.

David, J-C. L'urbanisation en Syrie, **Maghreb Machrek,** n° 81, 1978.

Dawisha, A. Syria under Asad, 1970 – 78: the Centres of Power, **Government and Opposition,** 13, 3, summer 1978.

Dawn, C.E. The Rise of Arabism in Syria, **MEJ** xvi /2, 1962.

Devlin, J. The Political Structure in Syria, **Middle East Review,** vol xvii, n° 1, fall 1984.

---- Syria: Consistency at Home and Abroad, **Current History,** February 1986.

Dishon, D. and B. Maddy-Weitzman, Inter-Arab Relations, in Colin Legum et al (eds), **Middle East Contemporary Survey,** vol v, 1980 - - 1981.

Drysdale, A. The Regional Equalization of Health Care and Education in Syria since the Ba'thi Revolution, **International Journal of Middle East Studies,** vol 13, 1981.

---- The Syrian Political Elite, 1966 – 1976: A Spatial and Social Analysis, **Middle Eastern Studies,** vol 17, n° 1, 1981.

---- The Succession Question in Syria, **MEJ,** vol 39, n° 2, Spring 1985.

Duclos, L. L'équilibre militaire israélo-arabe, **Maghreb Machrek,** 67, 1975.

Elisseef, N. Dimashq and Ghuta in **The Encyclopaedia of Islam,** new ed.

Garfinkle, A.M., The Forces behind Syrian Politics, **Middle East Review,** vol xvii, n° 1, fall 1984.

Glass, C. Who was Hindawi working for? **Spectator,** 1 November 1986.

Golan, G. Syria and the Soviet Union since the Yom Lippur War, **Orbis,** vol 21, 1978.

Golan, G. and I. Rabinovich. The Societ Union and Syria: the Limits of Co-operation, in Y. Ro'i (ed) **The Limits to Power: Soviet Policy in the Middle East,** London, 1979.

Gonzalez-Quijano, Y. Les interprétations d'un rite: célébrations de la Achoura au Liban, **Maqhreb Machrek,** 115, 1987.

Grassmuck, G. The Electoral Process in Iraq, 1952 – 1958, **MEJ,** xiv /4, 1960.

Hannoyer, J. Grands projects hydrauliques en Syrie, **Maghreb Machrek** n° 109, 1985.

Hinnebusch, R.A. Local Politics in Syria: Organization and Mobilization in Four Village Cases, **MEJ,** vol 30, n° 1, 1976.

---- Party and Peasant un Syria, **Cairo Papers in Social Science,** vol 3, n° 1, 1979.

---- Rural Politics in Ba'thist Syria, **The Review of Politics,** vol 44, n° 1, 1982.

---- Syria under the Ba'th: State Formation in a Fragmented Society, **Arab Studies Quarterly,** vol 4, n° 3, 1982.

---- Syria under the Ba'th: Social Ideology, Policy and Practice, in L Michalak and J Salacuse (eds) **Social Legislation in the Contemporary Middle East,** Berkeley, 1986.

---- Syria, S Hunter (ed) **The Politics of Islamic Revivalism,** Bloomington, Indiana, 1988.

Hocking B. and M. Smith, Reagan, Congress and foreign policy: a

troubled partnership, **The World Today,** May 1984.

Hoffman, S. A New Policy for Israel, **Foreign Affairs,** vol 53, n° 3, April 1975.

Hottinger, A. How the Arab Bourgeoisie Lost Power, **Journal of Contemporary History** III, 1968.

Hourani, A. The Decline of the West in the Middle East, **International Affairs** Jan-Apr 1953.

Hourani, C. The Arab League in Perspective, **MEJ** i /2, 1947.

Hudson, M. The Palestine Factor in the Lebanese Civil War, **Middle East Journal,** vol 23, n° 3, summer 1978.

Jabber, F. The Resistance Movement before the Six Day War, in W.B. Quandt et al, **The Politics of Palestinian Nationalism,** Berkeley, 1973.

Ja'far, K. The Societ Union in the Middle East: a case study of Syria, in Robert Casson et al (eds), **Soviet Interests in the Third World,** London, 1985.

Jargy, S. La Syrie province de la RAU, **Orient** n° 8, 1958.

---- Declin d'un parti, **Orient** n° 2, 1959.

Kaylani, N.M. The Rise of the Syrian Ba'th 1940 – 1958: **Middle Eastern Studies** iii /1, 1972.

Kelidar, A.R. Religion and State in Syria, **Asian Affairs,** vol 61 /1, 1974.

---- and M. Burrel, Lebanon: the Collapse of a State, **Conflict Studies,** n° 74, August 1976.

Kerblay, B. La Pénetration économique des pays du bloc sovietique

au Moyen-Orient, **Orient** n° 13, 1960.

Kerr, M.H. Hafiz Asad and the Changing Patterns of Syrian Politics, **International Journal,** vol 28, 1973.

Khadduri, M. Constitutional Developments in Syria, **MEJ,** 1951.

Khader, B. Structures et reforme agraires en Syrie, **Maghreb Macherk** n° 65, 1974.

Khalidi, W. A Sovereign Palestinian State, **Foreign Affairs,** 56, summer 1978.

---- Toward Peace in the Holy Land, **Foreign Affairs,** 66, spring 1988.

Khoury, P.S. Factionalism among Syrian Nationalists during the French Mandate, **International Journal of Middle Eastern Studies** 13, 1981.

---- The Tribal Shaykh, French Tribal Policy and the Nationalist Movement in Syria between Two World Wars, **Middle Eastern Studies** 18, 1982.

Kienle, E. The Conflict Between the Baath Regimes of Syria and Iraq prior to their Consolidation, **Occasional Papers,** 7, Ethnizität und Gesellschaft, Free University of Berlin, 1985.

Kirk, G.E. Cross Currents within the Arab League: the Greater Syria Plan, **World Today,** January 1948.

Klat, P.J. The Origins of Landownership in Syria, **Middle East Economic Papers,** 1958.

Kramer, M. La morale de hizbollah et sa logique, **Maghreb Machrek,** 119, 1988.

Laurent, F. L'URSS et le Moyen-Orient, **Orient** n° 2, 1957.

Lewis, N. The Frontier of Settlement in Syria, 1800 – 1950, **International Affairs,** January 1955.

Longuenesse, E. La Classe Ouvrière au Proche Orient: La Syrie, **Pensées,** n° 197, February 1978.

---- Bourgeoisie, Petite-bourgeoisie et Couche moyennes en Syrie, **Peuples méditerranéens,** n° 4, July-September 1978.

---- The Class Nature of the State in Syria, **MERIP Reports,** vol 9, n° 4, 1979.

---- Syrie, secteur public industriel: les enjeux d'une crise, **Maghreb Machrek,** n°. 109, 1985.

Macintyre, R.R. Syrian Political Age Differentials 1958 - 1966, **MEJ**, Vol 29 /2 1975.

Mallat, V. Le féminisme islamique de Bint al-Houda, **Maghreb Machrek,** no 116, 1987.

---- Shi'i Thought from the South of Lebanon, **Papers on Lebanon,** 7, Centre for Lebanese Studies, Oxford, 1988.

Ma'oz, M. Attempts at Creating a Political Community in Modern Syria, **MEJ**, Vol 26 /4, 1972.

---- Syria under Hafiz al-Asad: New Domestic and Foreign Policies, **Jerusalem Papers on Peace Problems,** 1975.

---- Hafiz al-Asad: A Political Profile, **Jerusalem Quarterly,** 8, 1978.

Mégarbané. C. L'enseignement en Syrie, **Travaux et Jours,** 51, 1974.

Métral, F. Etat et paysans dans le Ghab en Syrie, **Maghreb Machrek,** n° 109, 1985.

Montagne, R. La Crise politique de l'arabisme, **La France Méditerranéenne et africaine,** Paris, 1938.

Oron, Y. History and Ideas of the Arab Socialist Renaissance Party, **New East** ix, 1959.

Owen, R. The Lebanese Crisis: Fragmentation or Reconciliation? **Third World Quarterly,** vol 6, n° 4, October 1984.

Palmer, M. The United Arab Republic - An Assessment of its Failure, **MEJ,** vol 20 /1, 1966.

Perlmutter, A. Begin's Rhetoric and Sharon's Tactics, **Foreign Affairs,** fall 1982.

---- Some Spies Can Fool Themselves Too, **International Herald Tribune,** 8 July 1985.

Picard, E. L'engagement syrien au Liban, **Maghreb Machrek,** n° 74, 1976.

---- Syria returns to democracy, in G Hermet, R Rose, and A Rouquie (eds) **Elections Without Choice,** London, Macmillan, 1978.

---- Clans militaires et Pouvoir Ba'thiste en Syrie, **Orient** (Hamburg), 3e trim. 1979.

---- Ouverture économique et renforcement militaire en Syrie, **Oriente Moderne,** 59, n° 7 - 12, 1979.

---- Clivages et consensus au sein du Commandement Militaire Ba'thiste syrien (1970 - 1979), in Alain Rouquie (ed) **La Politique de Mars,** Paris.
---- Retour au Sandjak, **Maghreb Machrek** n° 99, 1983.
---- La politique de la Syrie au Liban, **Maghreb Machrek,** 116, 1987.
Rabinovich, I. The Lebanese Crisis, in Colin Legum et al (eds), **Middle East Contemporary Survey,** vol v, 1980 - 81.
Rastier, J. A la Recherche du socialisme syrien, **Orient** n° 4, 1957.
Raymond, A. La Syrie, du Royaume arabe à l'indépendance (1914 - - 1946), in A. Raymond (ed) **La Syrie d'Aujourd'hui,** Paris, 1980.
Roberts, C.A. Soviet Arms-transfer Policy and the Decision to Upgrade Syrian Air Defences, **Survival,** vol xxv, n° 4, 1983.
Robinson, C.L. Surveillance Integration Pivotal in Israeli Success, **Aviation Week and Space Technology,** 5 July 1982.
Rondot, Pierre. L'experience du Mandat Francais en Syrie et au Liban, 1918 - 1945, **Revue Générale de Droit International Public** 1948.
---- Les Etats-Unis devant l'Orient d'aujourd'hui, **Orient** n° 2, 1957.
---- Tendances particularistes et tendances unitaires en Syrie, **Orient,** n° 5 1958.
---- Quelques remarques sur le Ba'th, **Orient** n° 31, 1964.
---- Trente années d'histoire, **Le Monde,** 14 - 15 March 1976.
Rouleau, E. La Syrie ba'thiste ou la fuite à gauche, **Le Monde,** 13 - 19 October 1966.
---- The Syrian Enigma: What is the Ba'th?, **New Left Review,** n° 45, 1967.
Sadowski, Y. Cadres, Guns & Money: the Eighth Regional Congress of the Syrian Ba'th, **MERIP Reports,** vol 15, n° 6, 1985.
Santucci, R. La Syrie avant l'affrontement, **Maghreb Machrek** n° 60, 1973.
Schiff, Z. The dispute on the Syrian-Israeli border, **New Outlook,** February 1967.
---- The Green Light, **Foreign Policy,** spring 1983.
---- Dealing with Syria **Foreign Policy,** summer 1984.
Seurat, M. Les populations, l'état et la société, in A. Raymond (ed) **La Syrie d'aujourd'hui,** Paris, 1980.

Seymour, M. The Dynamics of Power in Syria since the break with Egypt, **Middle Eastern Studies** vi /1, 1970.

Sharabi, H. The Transformation of Ideology in the Arab World, **MEJ**, Vol 19 /4, 1965.

al-Shawi, H. Le Ba'th, sa technique d'action politique, **Maghreb Machrek,** n° 59, 1973.

---- Le Contenu de la contestation communiste en Irak et en Syrie, **Maghreb Machrek,** n° 63, 1974.

---- Le Ba'th et l'armée en Irak et en Syrie, **Maghreb Machrek,** n° 71, 1976.

Sheehan, E.R.F., Step by Step in the Middle East, **Foreign Policy,** N° 22, spring 1976.

Shlaim, A. Israeli Interference in Internal Arab Politics: the Case of Lebanon, in G. Luciani and G. Salamé (eds) **The Politics of Arab Integration,** New York and London, 1988.

Torrey, G.H. The Ba'th – Ideology and practice, **MEJ,** vol 23, 1969.

Van Dam, N. Sectarian and Regional Factionalism in the Syrian Political Elite, **MEJ,** spring 1978.

Van Dusen, M.H. Political Integration and Regionalism in Syria, **MEJ** xxvi /2, 1972.

---- Downfall of a Traditional Elite, in F. Tachau (ed) **Political Elites and Political Development in the Middle East,** Cambridge, Mass. 1975.

Vernier, B. Le Role politique de l'armée en Syrie, **Politique Étrangère** xxix /5, 1964.

Viennot, J – P. Le Ba'th entre la théorie et la pratique, **Orient** n° 30, 1964.

---- Le role du Ba'th dans la genèse du nationalisme arabe, **Orient** n° 35, 1965.

Wakebridge, C. The Syrian side of the Hill, **Military Review,** 56 (2), February 1976.

Weulersse, J. Régime agraire et vie agricole en Syrie, **Bulletin de L'Association de Géographes francais** n° 113, 1938.

Winder, B. Syrian Deputies and Cabinet Ministers, 1919 – 1959, **MEJ**, vol 16 /4, 1962: vol 17 /1, 1963.

Yaniv, A. Syria and Israel: The Politics of Escalation, in Ma'oz, M

and A. Yaniv (eds) **Syria Under Assad,** London, 1986.
Yared, M. Le Baas ou la quête de l'unité arabe et du socialisme, **Le Monde,** 14 – 15 March 1976.

end of bibliography



حافظ الأسد عام ١٩٤٧م



حافظ الأسد يرأس اجتماعاً لاتحاد الطلاب السوريين



الأسد ضابطاً في الكلية الجوية في حلب



الأسد وزيراً للدفاع وقائداً للقوات الجوية في مكتبه بعد شباط/ فبراير ١٩٦٦م



الرئيس الأسد في موسكو صيف عام ١٩٧٢م



إحدى الاجتماعات الأولى للإدارة الجديدة لحزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٧١م
على يسار الرئيس حافظ الأسد، عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد، ثم محمود الزعبي الذي أعيد انتخابه رئيساً لمجلس الشعب في ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٨٦م



الجزائر ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٣م، يحضر الرئيس الأسد برفقة وزير الشؤون الخارجية عبد الحليم خدام مؤتمر القمة السادسة للجامعة العربية



الرئيس الأسد وكمال جنبلاط في ٢٧ آذار/ مارس ١٩٧٥م



الرئيس الأسد وأحمد حسن البكر لدى توقيعهما المعاهدة السورية العراقية للعمل القومي في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٨م
وقد بدا الرئيس الحالي صدام حسين واقفاً على اليمين



الرئيس الأسد مع الرئيس المصري السادات في القاهرة في تموز/ يوليو ١٩٧٢م



الرئيس الأسد مع العقيد معمر القذافي بعد تشكيل جبهة الصمود والتصدي



الرئيس الأسد ووزير الدفاع مصطفى طلاس يراقبان المواقع الأمامية لخط المواجهة مع القوات العدوة



الرئيس الأسد مع الرئيس اللبناني سليمان فرنجية في شتورة في ٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٥م



الرئيس الأسد مع الرئيس اللبناني أمين الجميل أثناء إحدى زياراته إلى دمشق في ١ آذار/ مارس ١٩٨٤م



الأسد وبريجنيف